

ناتج الطبري

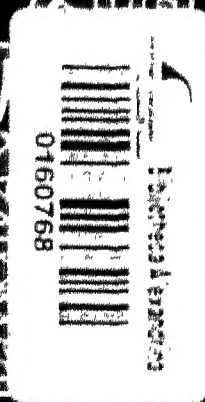
تاريخ الأمم والملوك

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري
٢٢٤ - ٣١٠ هجرية

المجلد الثالث

من سنة ٣٦ للهجرة لغاية سنة ٩٠ للهجرة

مكتبة دار البستان
ضباط الشرطة البستان
مكة المكرمة



تَارِيخُ الطَّبَرِيِّ تَارِيخُ الْأُمَمِ وَالْمُلُوكِ

لِلْأَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنِ جَمْرِيرِ الطَّبَرِيِّ
٢٢٤ - ٣١٠ هِجْرِيَّةً

الْمَجْلَدُ الثَّالِثُ

مِنْ سَنَةِ ٣٦ هِجْرَةً لِفَيْئَةِ السَّنَةِ ٩٠ هِجْرَةً

وَلِلْكَتَبَةِ الْعِلْمِيَّةِ
بِإِذْنِ بَيْرُوتِ لُبْنَانِ

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
هاتف: ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص: ٩٤٢٤/١١ تلکس: Nasher 41245 Le

بسم الله الرحمن الرحيم ثم دخلت سنة ست وثلاثين

تفريق عليّ عمّاله على الأمصار

ولما دخلت سنة ست وثلاثين فرّق عليّ عمّاله ؛ فمّا كتب إلى السريّ ، عن شعيب ، عن سيف ، عن محمد وطلحة ، قالوا : بعث عليّ عمّاله على الأمصار ، فبعث عثمان بن حنيف على البصرة ، وعُمارة بن شهاب على الكوفة ، وكانت له هجرة ؛ وعبيد الله بن عباس على اليمن ، وقيس بن سعد على مصر ، وسهل بن حنيف على الشام ؛ فأما سهل فإنه خرج حتى إذا كان بتبوك لقيته خيلٌ ، فقالوا : مَنْ أنت ؟ قال : أمير ، قالوا : على أيّ شيء ؟ قال : على الشام ، قالوا : إن كان عثمان بعثك فحيّلاً بك ، وإن كان بعثك غيره فارجع ! قال : أوّما سمعتم بالذي كان ؟ قالوا : بلى ؛ فرجع إلى عليّ . وأما قيس بن سعد فإنه لما انتهى إلى أيلة لقيته خيلٌ ، فقالوا : مَنْ أنت ؟ قال : من فالة عثمان ، فأنا أطلب من آوي إليه وأنتصر به ، قالوا : من أنت ؟ قال : قيس بن سعد ، قالوا : امض ؛ فمضى حتى دخل مصرَ ، فافترق أهل مصر فرّقاً ؛ فرقة دخلت في الجماعة وكانوا معه ، وفرقة وقفت واعتزلت إلى خربتنا وقالوا : إن قُتل قتلة عثمان فنحن معكم ، وإلا فنحن على جديلتنا حتى نحرك أو نصيب حاجتنا ؛ وفرقة قالوا : نحن مع عليّ ما لم يُقَدَّ إخواننا ، وهم في ذلك مع الجماعة ؛ وكتب قيس إلى أمير المؤمنين بذلك . وأما عثمان بن حنيف فسار فلم يرده أحدٌ عن دخول البصرة ولم يوجد في ذلك لابن عامر رأيٌ ولا حزم ولا استقلال بحرب . وافترق الناس بها ، فاتّبع فرقة القوم ، ودخلت فرقة في الجماعة ، وفرقة قالت : ننظر ما يصنع أهل المدينة فنصنع كما صنعوا . وأما عُمارة فأقبل حتى إذا كان برّالة لقيه طليحة بن خويلد ؛ وقد كان حين بلغهم خبر عثمان خرج يدعو إلى الطلب بدمه ويقول : لهفي على أمرٍ لم يسبقني ولم أدركه !

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعُ أَكْرُ فِيهَا وَأَضَعُ

فخرج حين رجع القعقاعُ من إغاثة عثمان فيمن أجابه حتى دخل الكوفة ، فطلع عليه عُمارة قادماً على الكوفة ، فقال له : ارجع فإنّ القوم لا يريدون بأمرهم بدلاً ، وإن أبيت ضربت عنقك . فرجع عُمارة وهو يقول : احذر الخطر ما يماسك ، الشرُّ خير من شرِّ منه .

فرجع إلى عليّ بالخبر . وغلب على عُمارة بن شهاب هذا المثل من لدن اعتاصت عليه الأمور إلى أن مات . وانطلق عبيد الله بن عباس إلى اليمن ، فجمع يعلّى بن أمية كلّ شيء من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر على حاميته إلى مكة فقدمها بالمال . ولما رجع سهل بن حنيف من طريق الشام وأتته الأخبار ورجع من رجع ، دعا عليّ طلحة والزبير ، فقال : إنّ الذي كنت أحذركم قد وقع يا قوم ، وإنّ الأمر الذي وقع لا يدرك إلا بإماتته ، وإنها فتنة كالنار ؛ كلّما سَعَرَتْ ازدادت واستنارت . فقالوا له : فأذن لنا أن نخرج من المدينة ، فإنما أن نكابر وإما

أن تدعنا، فقال: سأمسك الأمر ما استمسك؛ فإذا لم أجد بداً فأخبر الدواء الكي.

وكتب إلى معاوية وإلى أبي موسى. وكتب إليه أبو موسى بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم، وبين الكاره منهم للذي كان، والراضي بالذي قد كان، ومن بين ذلك حتى كان علياً على المواجهة من أمر أهل الكوفة. وكان رسول علي إلى أبي موسى معبد الأسلمي؛ وكان رسول أمير المؤمنين إلى معاوية سبرة الجهني، فقدم عليه فلم يكتب معاوية بشيء ولم يجبه وردّ رسوله، وجعل كلما تنجز جوابه لم يزد على قوله:

أديم إذا مة حصن أو خدأ بيدي حرباً ضروساً تشب الجزل والضرمما
في جاركم وابينكم إذ كان مقتله شنعاء شيب الأصداغ واللّمما
أعياء المسود بها والسيدون فلم يوجد لها غيرنا مولى ولا حكما

وجعل الجهني كلما تنجز الكتاب لم يزد على هذه الأبيات؛ حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان في صفر، دعا معاوية برجل من بني عبس، ثم أحد بني رواحة يدعى قبيصة، فدفع إليه طوماراً مختوماً، عنوانه: من معاوية إلى علي. فقال: إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار، ثم أوصاه بما يقول وسرّح علي. وخرجاً فقدموا المدينة في ربيع الأول لغزته، فلما دخلا المدينة رفع العبيسي الطومار كما أمره؛ وخرج الناس ينظرون إليه؛ فنفروا إلى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض، ومضى حتى يدخل على علي، فدفع إليه الطومار، ففرض خاتمه فلم يجد في جوفه كتابة، فقال للرسول: ما وراءك؟ قال: آمن أنا؟ قال: نعم، إن الرسل آمنة لا تقتل؛ قال: ورائي أي تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود، قال: ممن؟ قال: من خيظ نفسك، وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم، قد ألبسوه منبر دمشق. فقال: مني يطلبون دم عثمان! ألسنت موتوراً كترة عثمان! اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان؛ نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله، فإنه إذا أراد أمراً أصابه؛ أخرج؛ قال: وأنا آمن؟ قال: وأنت آمن. فخرج العبيسي وصاحت السبئية قالوا: هذا الكلب، هذا وافد الكلاب، اقتلوه! فنادى: يا آل مضر، يا آل قيس، الخيل والتبّل، إني أحلف بالله جل اسمه ليردّها عليكم أربعة آلاف حصي، فانظروا كم الفجولة والركاب! وتعاونوا عليه ومنعته مضر، وجعلوا يقولون له: اسكت، فيقول: لا والله، لا يفلح هؤلاء أبداً، فلقد أتاهم ما يوعدون. فيقولون له: اسكت، فيقول: لقد حلّ بهم ما يحذرون، انتهت والله أعمالهم، وذهبت ريحهم، فوالله ما أمسوا حتى عرف الدلّ فيهم.

استئذان طلحة والزبير علياً

كتب إليّ السري عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: استأذن طلحة والزبير علياً في العمرة، فأذن لهما، فلحقا بمكة؛ وأحب أهل المدينة أن يعلموا ما رأي علي في معاوية وانتقاضه، ليعرفوا بذلك رأيّه في قتال أهل القبلة؛ أيجسر عليه أو ينكل عنه! وقد بلغهم أن الحسن بن علي دخل عليه ودعاه إلى القعود وترك الناس، فدسّوا إليه زياد بن حنظلة التميمي - وكان منقطعاً إلى علي - فدخل عليه فجلس إليه ساعة ثم قال له علي: يا زياد، تيسر؛ فقال: لأي شيء؟ فقال: تغزو الشام، فقال زياد: الأناة والرفق أمثل، فقال:

ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرّس بأنياب ويوطا بمنيم
فتمثل علي وكأنه لا يريده:

متى تَجْمَعُ القلبَ الذَّكِيَّ وصارِماً وأنْفاً حَمِيّاً تَجْتَنِبُكَ المَظَالِمُ

فخرج زياد على النَّاسِ والنَّاسِ يَنْتَظِرُونَهُ، فقالوا: ما وراءك؟ فقال: السَّيْفُ يا قوم، فعرَفُوا ما هو فاجل. ودعا عليُّ محمد بن الحنفية فذَفَعَ إليه اللواء، وولَّى عبد الله بن عباس ميمَنَتَهُ، وعمر بن أبي سَلَمَةَ - أوعمر بن سفيان بن عبد الأسد - ولأه ميسرته، ودعا أبا ليلى بن عمر بن الجراح؛ ابن أخي أبي عُبَيْدَةَ بن الجراح، فجعله على مقدَّمته، واستخلف على المدينة قُثُم بن عَبَّاس، ولم يولَّ من خرج على عثمان أحداً، وكتب إلى قيس بن سعد أن يندب النَّاسَ إلى الشَّام، وإلى عثمان بن حُنيف وإلى أبي موسى مثل ذلك، وأقبل على التَّهَيُّؤِ والتَّجَهُّزِ، وخطب أهل المدينة فدعاهم إلى النهوض في قتال أهل الفُرْقَةِ، وقال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ بعث رسولاً هادياً معدياً بكتاب ناطقٍ وأمر قائم واضح؛ لا يهلك عنه إلا هالك، وإنَّ المبتدعات والشبهات هنَّ المهلكات إلا من حفظ الله، وإنَّ في سُلْطانِ الله عصمة أمركم، فأعطوه طاعتكم غيرَ مَلُوءَةٍ ولا مستكره بها، والله لتفعلنَّ أولئِقلنَّ الله عنكم سلطانَ الإسلام ثم لا ينقله إليكم أبداً حتى يَأْرِزَ الأمرَ إليها، انفضوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون يفرِّقون جماعتكم، لعلَّ الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق، وتقضون الذي عليكم. فبينما هم كذلك إذ جاء الخبرُ عن أهل مكة بنحو آخر وتَمَّام على خلاف، فقام فيهم بذلك؛ فقال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ جعل لظالم هذه الأمة العفو والمغفرة، وجعل لمن لزم الأمر واستقام الفوز والنَّجاة، فمن لم يسعه الحقُّ أخذ بالباطل. ألا وإنَّ طلحة والزبير وأمَّ المؤمنين قد تمالؤوا على سخط إمارتي، ودَعَوْا النَّاسَ إلى الإصلاح، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم، وأكفَّ إن كَفُّوا وأقتصر على ما بلغني عنهم.

ثم أتاه أنهم يريدون البصرة لمشاهدة النَّاسِ والإصلاح، فتعبى للخروج إليهم، وقال: إن فعلوا هذا فقد انقطع نظامُ المسلمين وما كان عليهم في المقام فينا مؤونة ولا إكرام. فاشتدَّ على أهل المدينة الأمرُ، فشقَّقلوا، فبعث إلى عبد الله بن عمر كُميلاً النُّخعي، فجاء به فقال: إنهُض معي، فقال: أنا مع أهل المدينة، إنما أنا رجل منهم وقد دخلوا في هذا الأمر فدخلت معهم لا أفارقهم، فإن يخرجوا أخرجُ وإن يقعدوا أقعد. قال: فأعطيني زعيماً بالآل يخرج، قال: ولا أعطيك زعيماً، قال: لولا ما أعرف من سوء خُلُقك صغيراً وكبيراً لأنكرتني، دعوه فأنا به زعيم. فرجع عبد الله بن عمر إلى المدينة وهم يقولون: لا والله ما ندري كيف نصنع، فإنَّ هذا الأمر لمُشَبَّه علينا، ونحن مُقيمون حتى يُضيء لنا ويسفر.

فخرج من تحت ليلته وأخبر أمَّ كلثوم بنت عليٍّ بالذي سمع من أهل المدينة؛ وأنه يخرج معتمراً مقيماً على طاعة عليٍّ ما خلا النهوض؛ وكان صدوقاً فاستقرَّ عندها؛ وأصبح عليٌّ فقيل له: حدث البارحة حدثٌ هو أشدُّ عليك من طلحة والزبير وأمَّ المؤمنين ومعاوية. قال: وما ذلك؟ قال: خرج ابنُ عُمر إلى الشَّام؛ فأتى عليَّ السوق ودعا بالظَّهر فحمل الرِّجال وأعدَّ لكل طريق طُلاباً. وماج أهل المدينة، وسمعت أمَّ كلثوم بالذي هو فيه، فدعت ببغلَّتْها فركبَتْها في رَحْلٍ ثم أتت عليّاً وهو واقفٌ في السوق يفرِّق الرِّجال في طلبه، فقالت: مَالَك لا تَزْنُد من هذا الرَّجُل؟ إنَّ الأمر على خلاف ما بُلِّغْتَهُ وحَدَّثْتَهُ. قالت: أنا ضامِنَةٌ له، فطابت نفسه وقال: انصرفوا، لا والله ما كَذَبْتُ ولا كَذَب، وإنه عندي ثقة فانصرفوا.

كتب إلى السريِّ، عن شعيب، عن سَيف، عن محمد وطلحة، قالوا: ولما رأى عليٌّ من أهل المدينة ما رأى لم يَرْض طاعتهم حتى يكون معها نُصرتَه، قام فيهم وجمع إليه وجَّوه أهل المدينة، وقال: إنَّ آخر هذا الأمر لا

يَصْلُحُ إِلَّا بِمَا صَلَّحَ أَوَّلُهُ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ عَوَاقِبَ قَضَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَنْ مَضَى مِنْكُمْ، فَاَنْصَرُوا اللَّهَ يَنْصَرِكُمْ وَيَصْلُحَ لَكُمْ أَمْرُكُمْ. فَأَجَابَهُ رَجُلَانِ مِنَ أَعْلَامِ الْأَنْصَارِ؛ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيَّهَانِ - وَهُوَ بَدْرِيٌّ - وَخَزِيمَةُ بْنُ ثَابِتٍ؛ وَلَيْسَ بِذِي الشَّهَادَتَيْنِ؛ مَاتَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ فِي زَمَنِ عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كُتِبَ إِلَى السَّرِيِّ عَنْ شُعَيْبٍ، عَنْ سَيْفٍ، عَنْ مُحَمَّدٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ، عَنْ الْحَكَمِ، قَالَ: قِيلَ لَهُ: أَشْهَدُ خُزَيْمَةَ بْنُ ثَابِتٍ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ الْجَمَلَ؟ فَقَالَ: لَيْسَ بِهِ، وَلَكِنَّهُ غَيْرُهُ مِنَ الْأَنْصَارِ؛ مَاتَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ فِي زَمَانِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كُتِبَ إِلَى السَّرِيِّ، عَنْ شُعَيْبٍ، عَنْ سَيْفٍ، عَنْ مَجَالِدٍ، عَنْ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؛ مَا نَهَضَ فِي تِلْكَ الْفِتْنَةِ إِلَّا سِتَّةُ بَدْرِيِّينَ مَا لَهُمْ سَابِعٌ، أَوْ سَبْعَةٌ مَا لَهُمْ ثَامِنٌ.

كُتِبَ إِلَى السَّرِيِّ، عَنْ شُعَيْبٍ، عَنْ سَيْفٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا نَهَضَ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ إِلَّا سِتَّةُ بَدْرِيِّينَ مَا لَهُمْ سَابِعٌ. فَقُلْتُ: اخْتَلَفْتُمَا. قَالَ: لَمْ نَخْتَلَفْ، إِنَّ الشَّعْبِيَّ شَكَّ فِي أَبِي أَيُّوبَ: أَخْرَجَ حَيْثُ أَرْسَلْتَهُ أَمْ سَلَّمَهُ إِلَى عَلِيٍّ بَعْدَ صِفَيْنِ، أَمْ لَمْ يَخْرُجْ! إِلَّا أَنَّهُ قَدِمَ عَلَيْهِ فَمَضَى إِلَيْهِ، وَعَلِيٌّ يَوْمئِذٍ بِالنَّهْرَوَانِ.

كُتِبَ إِلَى السَّرِيِّ، عَنْ شُعَيْبٍ، عَنْ سَيْفٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدٍ بْنِ ثَابِتٍ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: مَا اجْتَمَعَ أَرْبَعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَفَازُوا عَلَى النَّاسِ بِخَيْرٍ يَحْزُونُهُ إِلَّا وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَحَدُهُمْ.

ثُمَّ إِنَّ زِيَادَ بْنَ حَنْظَلَةَ لَمَّا رَأَى تَثَاقُلَ النَّاسِ عَنْ عَلِيٍّ ابْتَدَرَ إِلَيْهِ وَقَالَ: مَنْ تَثَاقَلَ عَنْكَ فَإِنَّا نَخَفُ مَعَكَ وَنَقَاتِلُ دُونَكَ. وَبَيْنَمَا عَلِيٌّ يَمْشِي فِي الْمَدِينَةِ إِذْ سَمِعَ زَيْنَبَ ابْنَةَ أَبِي سُفْيَانَ وَهِيَ تَقُولُ: ظَلَامَتُنَا عِنْدَ مُدَمِّمٍ وَعِنْدَ مَكْحَلَةٍ، فَقَالَ: إِنَّهَا لَتَعْلَمَ مَا هُمَا لَهَا بِثَارٍ.

كُتِبَ إِلَى السَّرِيِّ، عَنْ شُعَيْبٍ، عَنْ سَيْفٍ، عَنْ مُحَمَّدٍ وَطَلْحَةَ؛ أَنَّ عَثْمَانَ قُتِلَ فِي ذِي الْحِجَّةِ لثَمَانِ عَشْرَةَ خَلَّتْ مِنْهُ، وَكَانَ عَلَى مَكَّةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ الْحَضْرَمِيُّ، وَعَلَى الْمَوْسِمِ يَوْمئِذٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، بَعَثَهُ عَثْمَانُ وَهُوَ مُحْصُورٌ، فَتَعَجَّلَ أَنْاسٌ فِي يَوْمَيْنِ فَأَدْرَكُوا مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَقَدِمُوا الْمَدِينَةَ بَعْدَ مَا قُتِلَ وَقَبْلَ أَنْ يُبَايَعَ عَلِيٌّ، وَهَرَبَ بَنُو أُمَيَّةٍ فَلَحَقُوا بِمَكَّةَ، وَبَوَّعَ عَلِيٌّ لْخَمْسِ بَقِيْنَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ؛ وَتَسَاقَطَ الْهَرَابُ إِلَى مَكَّةَ، وَعَائِشَةُ مَقِيْمَةٌ بِمَكَّةَ تَرِيدُ عُمَرَ الْمُحَرَّمِ، فَلَمَّا تَسَاقَطَ إِلَيْهَا الْهَرَابُ اسْتَخْبَرْتَهُمْ فَأَخْبَرُوهَا أَنَّ قَدْ قُتِلَ عَثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَمْ يُجِبْهُمْ إِلَى التَّأْمِيرِ أَحَدٌ؛ فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَلَكِنْ أَكْيَاسٌ، هَذَا غِبٌّ مَا كَانَ يَدُورُ بَيْنَكُمْ مِنْ عِتَابِ الْإِسْتِصْلَاحِ؛ حَتَّى إِذَا قَضَتْ عَمَرَتَهَا وَخَرَجَتْ فَانْتَهَتْ إِلَى سَرَفٍ لَقِيَهَا رَجُلٌ مِنْ أَخْوَالِهَا مِنْ بَنِي لَيْثٍ - وَكَانَتْ وَاصِلَةً لَهُمْ، رَفِيقَةً عَلَيْهِمْ - يُقَالُ لَهُ عُبَيْدُ بْنُ أَبِي سَلِيمَةَ يَعْرِفُ بِأُمِّهِ كَلَابَ، فَقَالَتْ: مَهْمٌ! فَأَصَمَّ وَدَمَدَمَ، فَقَالَتْ: وَيْحَكَ! عَلَيْنَا أَوْلُنَا؟ فَقَالَ: لَا تَدْرِي، قُتِلَ عَثْمَانُ وَبَقُوا ثَمَانِيًّا، قَالَتْ: ثُمَّ صَنَعُوا مَاذَا؟ فَقَالَ: أَخَذُوا أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِالْاجْتِمَاعِ عَلَى عَلِيٍّ، وَالْقَوْمُ الْغَالِبُونَ عَلَى الْمَدِينَةِ. فَرَجَعَتْ إِلَى مَكَّةَ وَهِيَ لَا تَقُولُ شَيْئًا وَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا شَيْءٌ، حَتَّى نَزَلَتْ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ وَقَصَدَتْ لِلْحِجْرِ فَسْتَرَتْ فِيهِ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الْغَوْغَاءَ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَأَهْلِ الْمِيَاهِ وَعُبَيْدُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ اجْتَمَعُوا أَنْ عَابَ الْغَوْغَاءُ عَلَى هَذَا الْمَقْتُولِ بِالْأُمْسِ الْإِرْبِ وَاسْتَعْمَالَ مَنْ حَدَّثَ سَنَّهُ، وَقَدْ اسْتَعْمَلَ أَسْنَانُهُمْ قَبْلَهُ، وَمَوَاضِعُ مِنَ الْمَوَاضِعِ الْحِمَى حَامَاهَا لَهُمْ، وَهِيَ

أمرٌ قد سبق بها لا يصلح غيرها، فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحاً لهم، فلما لم يجدوا حجةً ولا عذراً خلجوا وبادوا بالعدوان ونبا فغلهم عن قَوْلهم؛ فسفكوا الدّم الحرام واستحلّوا البَلَد الحرام وأخذوا المال الحرام؛ واستحلّوا الشهر الحرام. والله لإصْبَع عثمان خيرٌ من طباق الأرض أمثالهم. فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ويشردّ مَنْ بعدهم، والله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلّص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من دَرَنه إذ ماصّوه كما يماصّ الثوب بالماء. فقال عبد الله بن عامر الحضرمي: هأنذا لها أول طالب - وكان أولٌ مُجيب ومتدب.

حدّثني عمر بن شبة، قال: حدّثنا أبو الحسن المدائني، قال: حدّثنا سُحيم مولى وبرة التميمي، عن عبيد بن عمرو القرشي، قال: خرجت عائشة رضي الله عنها وعُثمان محصوراً، فقدم عليها مَكّة رجلٌ يقال له أخضر، فقالت: ما صنع الناس؟ فقال: قَتَلَ عثمانَ المصريين، قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون! أَيْقَتَل قوماً جاؤوا يطلبون الحقّ وينكرون الظلم، والله لا نَرْضَى بهذا. ثمّ قَدِمَ آخرُ فقالت: ما صنع الناس؟ قال: قَتَلَ المصريّونَ عثمانَ، قالت: العجبُ لأخضر، زعم أن المقتول هو القاتل! فكان يُضْرَبُ به المثل: «أكذب من أخضر».

كتب إلى السري، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن محمد، عن الشعبي، قال: خرجت عائشة رضي الله عنها نحو المدينة من مَكّة بعد مقتل عثمان، فلقيها رجلٌ من أخوالها، فقالت: ما وراءك؟ قال: قُتِلَ عثمان واجتمع الناس على عليّ، والأمرُ أمرُ الغوغاء. فقالت: ما أظنّ ذلك تاماً، رُدُّوني. فانصرفت راجعة إلى مَكّة، حتى إذ دخلتها أتاهها عبد الله بن عامر الحضرمي - وكان أميرَ عثمان عليها - فقال: ما ردّك يا أمّ المؤمنين؟ قالت: ردّني أن عثمان قُتِلَ مظلوماً، وأن الأمر لا يستقيم لهذه الغوغاء أمر، فاطلبوا بدم عثمان تُعزّوا الإسلام. فكان أول من أجابها عبد الله بن عامر الحضرمي، وذلك أول ما تكلمت بنو أمية بالحجاز ورفعوا رؤوسهم، وقام معهم سعيد بن العاص، والوليد بن عقبة، وسائر بني أمية. وقد قَدِمَ عليهم عبد الله بن عامر من البصرة؛ ويعلّى بن أمية من اليمن، وطلحة والزبير من المدينة، واجتمع ملأهم بعد نظر طويل في أمرهم على البصرة، وقالت: أيها الناس، إن هذا حدّث عظيمٌ وأمرٌ منكر، فانهضوا فيه إلى إخوانكم من أهل البصرة فأنكروه، فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم، لعلّ الله عزّ وجلّ يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم.

كتب إلى السري، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قال: كان أول من أجاب إلى ذلك عبد الله بن عامر وبنو أمية؛ وقد كانوا سقطوا إليها بعد مقتل عثمان، ثم قَدِمَ عبد الله بن عامر، ثم قَدِمَ يعلّى بن أمية، فاتّفقاً بمكة، ومع يعلّى ستمائة بغير وستمائة ألف، فأناخ بالأبطح معسكراً؛ وقَدِمَ معهما طلحة والزبير، فلقياً عائشة رضي الله عنها، فقالت: ما وراءكما؟ فقالا: وراءنا أنا تحملنا بقلّيتنا هرباً من المدينة من غوغاء وأعراب، وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً ولا يمنعون أنفسهم. قالت: فائتمروا أمراً؛ ثم انهضوا إلى هذه الغوغاء. وتمثّلت:

ولو أن قومي طأوعتني سرائتهم
لأنقذتهم من الجبال أو الخبل

وقال القومُ فيما ائتمروا به: الشام. فقال عبد الله بن عامر: قد كفاكم الشام من يستمرّ في حوزته، فقال

له طلحة والزبير: فأين؟ قال: البصرة، فإن لي بها صنائع ولهم في طلحة هوى، قالوا: قبحك الله! فوالله ما كنت بالمسلم ولا بالمحارب، فهلاً أقيمت كما أقام معاوية فنكتفي بك، ونأتي الكوفة فنسد على هؤلاء القوم المذاهب! فلم يجدوا عنده جواباً مقبولاً، حتى إذا استقام لهم الرأي على البصرة قالوا: يا أم المؤمنين، دعي المدينة فإن من معنا لا يقرنون لتلك الغوغاء التي بها، وأشخصي معنا إلى البصرة، فإننا نأتي بلداً مضيئاً، وسيحتجون علينا فيه ببيعة علي بن أبي طالب فتنهضينهم كما أ نهض أهل مكة ثم تقعين، فإن أصلح الله الأمر كان الذي تريدين، وإلا احتسبنا ودفعنا عن هذا الأمر بجهدنا حتى يقضي الله ما أراد.

فلما قالوا ذلك لها - ولم يكن ذلك مستقيماً إلا بها - قالت: نعم؛ وقد كان أزواج النبي ﷺ معها على قصد المدينة، فلما تحول رأيها إلى البصرة تركن ذلك؛ وانطلق القوم بعدها إلى حفصة، فقالت: رأيي تبع لرأي عائشة؛ حتى إذا لم يبق إلا الخروج قالوا: كيف نستقل وليس معنا مالٌ نجهز به الناس! فقال يعلى بن أمية: معي ستمائة ألف وستمائة بعير فاركوها؛ وقال ابن عامر: معي كذا وكذا فتجهزوا به. فنادى المنادى: إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة، فمن كان يريد إعزاز الإسلام وقتال المجلى والطلب بثأر عثمان ومن لم يكن عنده مركب ولم يكن له جهاز فهذا جهاز وهذه نفقة، فحملوا ستمائة رجل على ستمائة ناقية سوى من كان له مركب - وكانوا جميعاً ألفاً - وتجهزوا بالمال، ونادوا بالرحيل واستقلوا ذاهبين. وأرادت حفصة الخروج فأتاها عبد الله بن عمر فطلب إليها أن تقعد، فقعدت وبعثت إلى عائشة: أن عبد الله حال بيني وبين الخروج، فقالت: يغفر الله لعبد الله! وبعثت أم الفضل بنت الحارث رجلاً من جهينة يدعى ظفراً، فاستأجرت على أن يطوي ويأتي علياً بكتابها، فقدم على علي بكتاب أم الفضل بالخبر.

حدثني عمر بن شبة، قال: حدثنا علي، عن أبي مخنف، قال: حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن أبيه، قال: قال أبو قتادة لعل: يا أمير المؤمنين، إن رسول الله ﷺ قلّدي هذا السيف وقد شيمته فطال شيمه، وقد أتى تجريد على هؤلاء القوم الظالمين الذين لم يألوا الأمة غشاً، فإن أحببت أن تُقدمني، فقدمني. وقامت أم سلمة فقالت: يا أمير المؤمنين، لولا أن أعصى الله عز وجل وأنك لا تقبله مني لخرجت معك؛ وهذا ابني عمر - والله هو أعز علي من نفسي - يخرج معك فيشهد مشاهدك. فخرج فلم يزل معه، واستعمله على البحرين ثم عزله، واستعمل النعمان بن عجلان الزرقني.

حدثني عمر، قال: حدثنا أبو الحسن، قال: حدثنا مسلمة، عن عوف، قال: أعان يعلى بن أمية الزبير بأربعمائة ألف، وحمل سبعين رجلاً من قريش، وحمل عائشة رضي الله عنها على جمل يقال له عسكر، أخذه بثمانين ديناراً وخرجوا. فنظر عبد الله بن الزبير إلى البيت؛ فقال: ما رأيت مثلك بركة طالب خير، ولا هارب من شر.

كتب إلي السري عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: خرج المغيرة وسعيد بن العاص معهم مرحلة من مكة، فقال سعيد للمغيرة: ما الرأي؟ قال: الرأي والله الاعتزال، فإنهم ما يفلح أمرهم، فإن أظفره الله أتيانه، فقلنا: كان هواناً وصغواناً معك؛ فاعتزلاً فجلسا، فجاء سعيد مكة فأقام بها، ورجع معها عبد الله بن خالد بن أسيد.

حدثني أحمد بن زهير، قال: حدثنا أبي، قال: حدثنا وهب بن جرير بن حازم، قال: سمعت أبي، قال:

سمعتُ يونس بن يزيد الأيلي، عن الزهري، قال: ثمَّ ظهراً - يعني طلحة والزبير - إلى مكة بعد قتل عثمان رضي الله عنه بأربعة أشهر وابن عامر بها يجرُّ الدنيا، وقديم يعلى بن أمية معه بمال كثير، وزيادة على أربعمائة بغير، فاجتمعوا في بيت عائشة رضي الله عنها فأرادوا الرأي، فقالوا: نسيرُ إلى عليٍّ فنُقَاتِلْهُ، فقال بعضهم: ليس لكم طاقة بأهل المدينة، ولكنَّا نسيرُ حتى ندخل البصرة والكوفة، ولطلحة بالكوفة شيعةً وهوى، وللزبير بالبصرة هوى ومعونة. فاجتمع رأيهم على أن يسيروا إلى البصرة وإلى الكوفة، فأعطاهم عبد الله بن عامر مالاً كثيراً وإيلاً، فخرجوا في سبعمائة رجلٍ من أهل المدينة، ومكة، ولحقهم الناس حتى كانوا ثلاثة آلاف رجلٍ، فبلغ علياً مسيرهم، فأمر على المدينة سهل بن حنيف الأنصاري، وخرج فسار حتى نزل ذاقار، وكان مسيره إليها ثمان ليالٍ، ومعه جماعة من أهل المدينة.

حدثني أحمد بن منصور، قال: حدثني يحيى بن معين، قال: حدثنا هشام بن يوسف قاضي صنعاء، عن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، عن موسى بن عقبة، عن علقمة بن وقاص الليثي، قال: لما خرج طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم عرضوا الناس بذات عرق، واستصغروا عروة بن الزبير وأبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فردوهما.

حدثني عمر بن شبة، قال: حدثنا أبو الحسن، قال: أخبرنا أبو عمرو، عن عتبة بن المغيرة بن الأخنس، قال: لقي سعيّد بن العاص مروان بن الحكم وأصحابه بذات عرق، فقال: أين تذهبون وتارككم على أعجاز الإبل! اقلّوهم ثمَّ ارجعوا إلى منازلكم لا تقتلوا أنفسكم؛ قالوا: بل نسير فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً. فخلا سعيّد بطلحة والزبير، فقال: إن ظفركم لمن تجعلان الأمر؟ أصدقاني؛ قالوا: لأحدنا أينما اختاره الناس. قال: بل اجعلوه لولد عثمان فإنكم خرجتم تطلبون بدمه، قالوا: ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم! قال: أفلا أراي أسعى لأخرجها من بني عبد مناف. فرجع ورجع عبد الله بن خالد بن أسيد، فقال المغيرة بن شعبة: الرأي ما رأى سعيّد، من كان ها هنا من ثقيف فليرجع؛ فرجع ومضى القوم، معهم أبان بن عثمان والوليد بن عثمان، فاختلفوا في الطريق فقالوا: من ندعو لهذا الأمر؟ فخلا الزبير بابنه عبد الله، وخلا طلحة بعلقمة بن وقاص الليثي - وكان يؤثره على ولده - فقال أحدهما: اتت الشام، وقال الآخر: اتت العراق، وحاور كل واحد منهما صاحبه ثم اتفقا على البصرة.

كتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن قيس، عن الأغر، قال: لما اجتمع إلى مكة بنو أمية ويعلى بن منية وطلحة والزبير، ائتمروا أمرهم، وأجمع ملؤهم على الطلب بدم عثمان وقتال السبئية حتى يثأروا وينتقموا؛ فأمرتهم عائشة رضي الله عنها بالخروج إلى المدينة، واجتمع القوم على البصرة وردوها عن رأيها، وقال لها طلحة والزبير: إنا نأتي أرضاً قد أضيعت وصارت إلى عليٍّ، وقد أجبرنا عليٍّ على بيعته، وهم محتجون علينا بذلك وتاركوا أمرنا إلا أن نخرجي فتأمري بمثل ما أمرت بمكة، ثم ترجعي. فنادى المنادي: إن عائشة تريد البصرة وليس في ستمائة بغير ما تغنون به غوغاء وجلبة الأعراب وعبداً قد انتشروا وافترشوا أذرعهم مسعدين لأول واعية. وبعثت إلى حفصة، فأرادت الخروج، فعزم عليها ابن عمر فأقامت؛ فخرجت عائشة ومعها طلحة والزبير، وأمرت على الصلاة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، فكان يصلي بهم في الطريق وبالبصرة حتى قُتل، وخرج معها مروان وسائر بني أمية إلا من خضع، وتيامنت عن أوطاس؛ وهم ستمائة

راكب سوى من كانت له مطية، فتركت الطريق ليلة وتيامنت عنها كأنهم سيارة ونجعة، مساحلين لم يذُن من المنكدر ولا واسط ولا فلج منهم أحد، حتى أتوا البصرة في عام خصب. وتمثلت:

دعى بلادَ جُموع الظُّلم إذ ضلحت فيها المياهُ وسيري سيرَ مذعور
تخييري الثَّبَّت فارعي ثم ظاهرة وبطنَ وادٍ من الضُّمارِ مَطُور

حدثني عمر، قال: حدثنا أبو الحسن، عن عمر بن راشد اليمامي، عن أبي كثير السُّحيمي، عن ابن عباس، قال: خرج أصحابُ الجمل في ستمائة، معهم عبد الرحمن بن أبي بكرة وعبد الله بن صفوان الجمحي، فلما جاوزا بئر ميمون إذا هم بجُزور قد نُحرت ونَحْرُها ينثعب، فتطيروا. وأذن مروان حين فصل من مكة ثم جاء حتى وقف عليها، فقال: أيكما أسلّم بالإمرة وأوذن بالصلاة؟ فقال عبد الله بن الزبير: على أبي عبد الله، وقال محمد بن طلحة: على أبي محمد. فأرسلت عائشة رضي الله عنها إلى مروان فقالت: مالك؟ أتريد أن تفرّق أمرنا! ليصل ابنُ أختي، فكان يصلي بهم عبد الله بن الزبير حتى قدم البصرة، فكان معاذ بن عبيد الله يقول: والله لو ظفرنا لافتتنّا ما خلى الزبير بين طلحة والأمر، ولا خلى طلحة بين الزبير والأمر.

خروج علي إلى الرّبذة يريد البصرة

كتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد، قال: جاء علياً الخبر عن طلحة والزبير وأم المؤمنين، فأمر على المدينة تمام بن العباس، وبعث إلى مكة فثم بن العباس، وخرج وهو يرجو أن يأخذهم بالطريق، وأراد أن يعترضهم، فاستبان له بالرّبذة أن قد فاتوه، وجاءه بالخبر عطاء بن رثاب مولى الحارث بن حزن.

كتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: بلغ علياً الخبر - وهو بالمدينة - باجتماعهم على الخروج إلى البصرة والذي اجتمع عليه ملؤهم؛ طلحة والزبير وعائشة ومن تبعهم، وبلغه قول عائشة، وخرج علي يبادرهم في تعبته التي كان تعبى بها إلى الشام، وخرج معه من نشيط من الكوفيين والبصريين متخفين في سبعمائة رجل، وهو يرجو أن يذركهم فيحول بينهم وبين الخروج، فلقى عبد الله بن سلام فأخذ بعنانه، وقال: يا أمير المؤمنين، لا تخرج منها؛ فوالله لئن خرجت منها لا ترجع إليها ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً. فسبوه، فقال: دعوا الرجل؛ فنعم الرجل من أصحاب محمد ﷺ! وسار حتى انتهى إلى الرّبذة فبلغه ممرهم، فأقام حين فاتوه يأتمر بالرّبذة.

كتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، عن خالد بن مهران البجلي، عن مروان بن عبد الرحمن الحميري، عن طارق بن شهاب، قال: خرجنا من الكوفة معتمرين حين أتانا قتل عثمان رضي الله عنه، فلما انتهينا إلى الرّبذة - وذلك في وجه الصبح - إذا الرفاق وإذا بعضهم يحدو بعضاً، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: أمير المؤمنين، فقلت ما له؟ قالوا: غلبه طلحة والزبير، فخرج يعترض لهما ليردهما، فبلغه أنها قد فاتاه، فهو يريد أن يخرج في آثارهما، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون! أتى علياً فأقاتل معه هذين الرجلين وأم المؤمنين أو أخالفه! إن هذا لشديد. فخرجت فأتيته، فأقيمت الصلاة بغلس، فتقدم فصلى، فلما انصرف أتاه ابنه الحسن فجلس فقال: قد أمرتك فعصيتني، فتقتل غداً بمضيعة لا ناصر لك، فقال علي: إنك لا تزال تخنّ خنين الجارية! وما الذي أمرتني فعصيتك؟ قال: أمرتك يوم أحيط بعثمان رضي الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها، ثم

أمرتك يوم قُتِلَ ألا تُبايع حتى يأتيتك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كل مصر، ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس في بيتك حتى يصططحوا، فإن كان الفساد كان على يدي غيرك، فعصيتني في ذلك كله. قال: أي بُني، أما قولك: لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان؛ فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به. وأما قولك: لا تُبايع حتى تأتي ببيعة الأمصار، فإن الأمر أهل المدينة، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر. وأما قولك حين خرج طلحة والزبير، فإن ذلك كان وهناً على أهل الإسلام، ووالله ما زلت مقهوراً مذوليت، منقوصاً لا أصل إلى شيء مما ينبغي. وأما قولك: اجلس في بيتك، فكيف لي بما قد لزمني! أو من تريدني؟ أتريد أن أكون مثل الضبع التي يحاط بها ويقال: ذباب دباب! ليست ها هنا حتى يحل عرقوبها ثم تخرج؛ وإذا لم أنظر فيما لزمني من هذا الأمر ويعينني فمن ينظر فيه! فكف عنك أي بُني.

شراء الجمل لعائشة رضي الله عنها، وخبر كلاب الحوآب

حدثني إسماعيل بن موسى الفزاري، قال: أخبرنا علي بن عابس الأزرق، قال: حدثنا أبو الخطاب الهجري، عن صفوان بن قبيصة الأحسي، قال: حدثني العرنى صاحب الجمل، قال: بينا أنا أسير على جمل إذ عرض لي راكب فقال: يا صاحب الجمل، تبيع جملك؟ قلت: نعم، قال: بكم؟ قلت: بألف درهم، قال: مجنون أنت! جمل يباع بألف درهم! قال: قلت: نعم، جملي هذا، قال: ومم ذلك؟ قلت: ما طلبت عليه أحدا قط إلا أدركته، ولا طلبني وأنا عليه أحد إلا فته. قال: لو تعلم لمن تريد لأحسنت بيعنا. قال: قلت: ولمن تريد؟ قال: لأمك، قلت: لقد تركت أمي في بيتها قاعدة ما تريد براحا، قال: إنما أريدك لأم المؤمنين عائشة، قلت: فهو لك، فخذ به غير ثمن، قال: لا، ولكن ارجع معنا إلى الرجل فلنعطيك ناقة مهرية ونزيدك دراهم، قال: فرجعت فأعطوني ناقة لها مهرية، وزادوني أربعمئة أو ستمئة درهم، فقال لي: يا أخا عريئة، هل لك دلالة بالطريق؟ قال: قلت: نعم، أنا من أدرك الناس، قال: فسر معنا، فسيرت معهم فلا أمر على واد ولا ماء إلا سألوني عنه؛ حتى طرقتنا ماء الحوآب فنبحتنا كلاهما، قالوا: أي ماء هذا؟ قلت: ماء الحوآب، قال: فصرخت عائشة بأعلى صوتها، ثم ضربت عضد بعيرها فأناحت، ثم قالت: أنا والله وصاحبة كلال الحوآب طروقا، ردوني! تقول ذلك ثلاثاً. فأناحت وأناخوها وهم على ذلك، وهي تأبى حتى كانت الساعة التي أناخوها فيها من الغد. قال: فجاءها ابن الزبير فقال: النجاء النجاء، فقد أدرككم والله علي بن أبي طالب! قال: فارتحلوا وشموني، فأنصرفت، فما سرت إلا قليلاً وإذا أنا بعلي وركب معه نحو من ثلثمائة، فقال لي علي: يا أيها الراكب! فأتيت فقال: أين أتيت الطعينة؟ قلت: في مكان كذا وكذا، وهذه ناقته، وبعثهم جملي، قال: وقد ركبته؟ قلت: نعم؛ وسيرت معهم حتى أتينا ماء الحوآب فنبحت عليها كلاهما، فقالت كذا وكذا، فلما رأيت اختلاط أمرهم أنفتلت وارتحلوا؛ فقال علي: هل لك دلالة بذي قار؟ قلت: لعل أدل الناس، قال: فسر معنا؛ فسيرنا حتى نزلنا ذا قار، فأمر علي بن أبي طالب بجوالقين فضم أحدهما إلى صاحبه، ثم جيء برجل فوضع عليهما، ثم جاء يمشي حتى صعد عليه، وسدل رجليه من جانب واحد، ثم حمد الله وأثنى عليه، وصلى على محمد ﷺ، ثم قال: قد رأيتم ما صنع هؤلاء القوم وهذه المرأة. فقام إليه الحسن فبكى، فقال له علي: قد جئت نحن خنين الجارية! فقال: أجل، أمرتك فعصيتني، فأنت اليوم تقتل بمضيعة لا ناصر لك، قال: حدث القوم بما أمرتني به، قال: أمرتك حين سار الناس إلى عثمان ألا تبسط يدك ببيعة حتى تحول جائلة العرب، فإنهم لن يقطعوا أمراً دونك، فأبيت علي، وأمرتك حين سارت هذه المرأة وصنع هؤلاء القوم ما صنعوا أن تلزم المدينة

وترسل إلى من استجاب لك من شيعتك، قال عليّ: صدق الله، ولكن والله يا بني ما كنت لأكون كالضبع تستمع للذم، إن النبي ﷺ قبض وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني، فبايع الناس أبا بكر، فبايعت كما بايعوا، ثم إن أبا بكر رضي الله عنه هلك وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني، فبايع الناس عُمر بن الخطاب، فبايعت كما بايعوا، ثم إن عُمر رضي الله عنه هلك وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني، فجعلني سهماً من ستة أسهم، فبايع الناس عثمان فبايعت كما بايعوا، ثم سار الناس إلى عثمان رضي الله عنه فقتلوه، ثم أتوني فبايعوني طائعين غير مكرهين، فأنا مقاتل من خالفي بن أتبعني حتى يحكم الله بيني وبينهم وهو خير الحاكمين.

قَوْلُ عَائِشَةَ رضي الله عنها: والله لأطلبنَّ

بدم عثمان وخر وجُها وطلحة والزبير فيمن تبعهم إلى البصرة

كتب إليّ عليّ بن أحمد بن الحسن العجليّ أن الحسين بن نصر العطار، قال: حدّثنا أبي نصر بن مزاحم العطار، قال: حدّثنا سيف بن عمر، عن محمد بن نؤيرة وطلحة بن الأعلم الحنفيّ. قال: وحدّثنا عمر بن سعد، عن أسد بن عبد الله، عمّن أدرك من أهل العلم؛ أنّ عائشة رضي الله عنها لما انتهت إلى سرف راجعة في طريقها إلى مكة، لقيها عبد بن أمّ كلاب - وهو عبد بن أبي سلمة، ينسب إلى أمه - فقالت له: مهيم؟ قال: قتلوا عثمان رضي الله عنه، فمكثوا ثمانياً؛ قالت: ثم صنعوا ماذا؟ قال: أخذها أهل المدينة بالاجتماع، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز؛ اجتمعوا على عليّ بن أبي طالب. فقالت: والله ليت أنّ هذه انطبقت على هذه إن تمّ الأمر لصاحبك! ردّوني ردّوني، فأنصرفت إلى مكة وهي تقول: قُتِلَ والله عثمان مظلوماً، والله لأطلبنَّ بدمه، فقال: لها ابن أمّ كلاب: ولم؟ فوالله إن أول من أمال حرفة لأنت! ولقد كنتِ تقولين: اقتلوا نعثلاً فقد كفر؛ قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلت وقالوا: وقولي الأخير خير من قولي الأول؛ فقال لها ابن أمّ كلاب:

فَمِنْكَ الْبِدَاءُ وَمِنْكَ الْغَيْرُ	وَمِنْكَ الرِّيحُ وَمِنْكَ الْمَطَرُ
وَأَنْتِ أَمَرْتِ بِقَتْلِ الْإِمَامِ	وَقُلْتِ لَنَا إِنَّهُ قَدْ كَفَرَ
فَهَبْنَا أَطْعَمْنَاكَ فِي قَتْلِهِ	وَقَاتِلُهُ عِنْدَنَا مَنْ أَمَرَ
وَلَمْ يَسْقِطِ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِنَا	وَلَمْ تَنْكَسِفِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَقَدْ بَايَعَ النَّاسُ ذَا تُدْرٍ	يُزِيلُ الشُّبَا وَيُقِيمُ الصُّعُرُ
وَيَلْبَسُ لِلْحَرْبِ أَثْوَابَهَا	وَمَا مِنْ وَفَى مِثْلُ مَنْ قَدْ غَدَرَ

فانصرفت إلى مكة فنزلت على باب المسجد فقصدت للحجر، فسترت واجتمع إليها الناس، فقالت: يا أيها الناس، إن عثمان قُتِلَ مظلوماً، ووالله لأطلبنَّ بدمه.

كتب إليّ السريّ عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: كان عليّ في همّ من توجه القوم لا يدري إلى أين يأخذون! وكان أن يأتوا البصرة أحبّ إليه. فلما تيقن أن القوم يعارضون طريق البصرة سرّ بذلك، وقال: الكوفة فيها رجال العرب وببوتاتهم، فقال له ابن عباس: إن الذي يسرك من ذلك ليسووني، إن الكوفة فسطاط فيه أعلام من أعلام العرب، ولا يحملهم عدّة القوم، ولا يزال فيهم من يسمو إلى أمر لا يناله؛ فإذا كان كذلك شغب عليّ الذي قد نال حتى يفثأه فيفسد بعضهم على بعض. فقال عليّ: إن الأمر ليس به ما

تقول، ولكن الأثرة لأهل الطاعة وألحق بأحسنهم سابقةً وقُدْمةً، فإن استووا أعفيناهم واجتبرناهم، فإن أقنعهم ذلك كان خيراً لهم، وإن لم يقنعهم كلّفونا إقامتهم وكان شراً على من هو شرّ له. فقال ابن عباس: إن ذلك لأمر لا يدرك إلا بالقنوع.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: لما اجتمع الرأي من طلحة والزبير وأمّ المؤمنين ومن بمكة من المسلمين على السير إلى البصرة والانتصار من قتل عثمان رضي الله عنه، خرج الزبير وطلحة حتى لقيّا ابن عمر ودعّوا إلى الخفوف، فقال: إني امرؤ من أهل المدينة، فإن يجتمعوا على النهوض أنهض، وإن يجتمعوا على القعود أقعد، فتركاها ورجعا.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن سعيد بن عبد الله، عن ابن أبي مليكة، قال: جمع الزبير بنه حين أراد الرحيل، فودّع بعضهم وأخرج بعضهم، وأخرج ابني أسيا جميعاً، فقال: يا فلان أقم، يا عمرو أقم. فلما رأى ذلك عبد الله بن الزبير، قال: يا عروة أقم، ويا مُنذر أقم، فقال الزبير: ويحك! أستمسك ابني وأستمسك مني، فقال: إن خرجت بهم جميعاً فاخرج، وإن خلفت منهم أحداً فخلفهما ولا تُعرض أسيا للشكّل من بين نسائك. فبكى وتركهما، حتى إذا انتهوا إلى جبال أوطاس تيامنوا وسلّكوا طريقاً نحو البصرة، وتركوا طريقها يساراً، حتى إذا دنّوا منها فدخلوها ركبوا المنكير.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن ابن الشهيد، عن ابن أبي مليكة، قال: خرج الزبير وطلحة ففصّلا، ثم خرجت عائشة فتبعها أمّهات المؤمنين إلى ذات عرق، فلم يُر يوم كان أكثر باكياً على الإسلام أو باكياً له من ذلك اليوم، كان يُسمّى النحيب. وأمّرت عبد الرحمن بن عتاب، فكان يصلي بالناس، وكان عدّلاً بينهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن عبد الله، عن يزيد بن معن السلمي، قال: لما تيامن عسكرها عن أوطاس أتوا على مليح بن عوف السلمي، وهو مطلع ما له، فسلم على الزبير، وقال: يا أبا عبد الله، ما هذا؟ قال: عُدي على أمير المؤمنين رضي الله عنه فقتل بلا ترة ولا عذر، قال: ومن؟ قال: الغوغاء من الأمصار ونزاع القبائل، وظاهرهم الأعراب والعبيد، قال: فتريدون ماذا؟ قال: نُهض الناس فيدرك بهذا الدّم لئلا يبطل، فإن في إبطاله توهين سلطان الله بيننا أبداً؛ إذا لم يُقَطَم الناس عن أمثالها لم يبق إمام إلا قتله هذا الضرب، قال: والله إن ترك هذا لشديد، ولا تدرون إلى أين ذلك يسيرا فودّع كلّ واحد منها صاحبه، وافترقا ومضى الناس.

دخولهم البصرة والحرب بينهم وبين عثمان بن حنيف

كتب إليّ السريّ عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: ومضى الناس حتى إذا عاجوا عن الطريق وكانوا بفناء البصرة، لقيهم عمير بن عبد الله التميمي، فقال: يا أمّ المؤمنين، أنشدك بالله أن تقدّمي اليوم على قوم تُراسلي منهم أحداً فيكفيكهم! فقالت: جئتني بالرأي، امرؤ صالح، قال: فعجّلني ابن عامر فليدخل، فإن له صنائع فليذهب إلى صنائعه فليلقوا الناس حتى تقدّمي ويسمعوا ما جئت فيه. فأرسلته فاندسّ إلى البصرة، فأقّى القوم. وكتب عائشة رضي الله عنها إلى رجال من أهل البصرة، وكتبت إلى الأحنف بن قيس وصبرة بن شيمان وأمثالهم من الوجوه؛ ومضت حتى إذا كانت بالحفير انتظرت الجواب بالخبر؛ ولما بلغ ذلك

أهل البصرة دعا عثمان بن حنيف عمران بن حصين - وكان رجل عامّة - وألّزه بأبي الأسود الدؤليّ - وكان رجل خاصّة - فقال : انطلقا إلى هذه المرأة فاعلما علمها وعلم من معها، فخرجا فانتھيا إليها وإلى الناس وهم بالحفير، فاستأذنا فأذنت لهما، فسلما وقالوا : إنّ أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك، فهل أنت خبرتنا؟ فقالت : والله ما مثلي يسير بالأمر المكتوم ولا يغطى لبنيه الخبر. إنّ الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ وأحدثوا فيه الأحداث، وآووا فيه المحدثين، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر، فاستحلوا الدّم الحرام فسفكوه، وانتهبوا المال الحرام، وأحلّوا البلد الحرام، والشهر الحرام، ومزّقوا الأعراض والجلود، وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارّين مضرين، غير نافعين ولا متّقين؛ لا يقدرّون على امتناع ولا يأمنون، فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا. وقرأت : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾^(١). نهض في الإصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله ﷺ؛ الصغير والكبير والذكر والأنثى، فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به؛ ونحضكم عليه، ومنكر ننهاكم عنه، ونحثكم على تغييره.

كتب إلى السريّ عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا : فخرج أبو الأسود وعمران من عندها فأتيا طلحة فقالا : ما أقدمك؟ قال : الطلب بدم عثمان، قالوا : ألم تباع عليا؟ قال : بلى، واللج على عني، وما استقبل عليا إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان، ثم أتيا الزبير فقالوا : ما أقدمك؟ قال : الطلب بدم عثمان، قالوا : ألم تباع عليا؟ قال : بلى، واللج على عني، وما استقبل عليا إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان. فرجعا إلى أم المؤمنين فودعاها فودعت عمران، وقالت : يا أبا الأسود إياك أن يقودك الهوى إلى النار، ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ . . . ﴾^(٢) الآية. فسرحتهما، ونادى مُناديها بالرحيل، ومضى الرجلان حتى دخلا على عثمان بن حنيف، فبدر أبو الأسود عمران فقال :

يَا بَنَ حُنَيْفٍ قَدْ أَتَيْتَ فَاَنْفِرِ وَطَاعِنِ الْقَوْمَ وَجَالِدُ وَاَصْبِرِ
وَابْرُرْ لَهُمْ مُسْتَلْتِمًا وَشَمِّرِ

فقال عثمان : إنا لله وإنا إليه راجعون! دارت رحا الإسلام ورب الكعبة؛ فانظروا بأيّ زيفان تزيف! فقال عمران : إي والله لتعركنكم عركاً طويلاً ثم لا يساوي ما بقي منكم كثير شيء؛ قال : فأشر عليّ يا عمران، قال : إني قاعد فاقعد، فقال عثمان : بل أمنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين عليّ، قال عمران : بل يحكم الله ما يريد، فانصرف إلى بيته، وقام عثمان في أمره، فأتاه هشام بن عامر فقال : يا عثمان، إنّ هذا الأمر الذي تروم يسلم إلى شرٍّ مما تكره، إنّ هذا فتق لا يترق، وصدع لا يجبر، فسامحهم حتى يأتي أمر عليّ ولا تحادهم، فأبى ونادى عثمان في الناس وأمرهم بالتهيؤ، ولبسوا السلاح، واجتمعوا إلى المسجد الجامع، وأقبل عثمان على الكيد فكاد الناس لينظر ما عندهم، وأمرهم بالتهيؤ، وأمر رجلاً ودسه إلى الناس خديعاً كوفياً قيسياً، فقام فقال : يا أيها الناس، أنا قيس بن العقدية الحميري، إنّ هؤلاء القوم الذين جاؤوكم إن كانوا جاؤوكم خائفين فقد جاؤوا من

(١) سورة النساء : ١١٤ .

(٢) سورة النساء : ١٣٥ .

المكان الذي يأمن فيه الطير، وإن كانوا جاؤوا يطلبون بدم عثمان رضي الله عنه فما نحن بقتلة عثمان. أطيعوني في هؤلاء القوم فردوهم من حيث جاؤوا. فقام الأسود بن سريع السعدي، فقال: أوزعموا أنا قتلة عثمان رضي الله عنه! فلما فرعوا إلينا يستعينون بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا، فإن كان القوم أخرجوا من ديارهم كما زعمت، فمن يمنعهم من إخراجهم الرجال أو البلدان! فحصبه الناس، فعرف عثمان أن لهم بالبصرة ناصراً ممن يقوم معهم، فكسره ذلك. وأقبلت عائشة رضي الله عنها فيمن معها، حتى إذا انتهوا إلى المربد ودخلوا من أغلاه أمسكوا ووقفوا حتى خرج عثمان فيمن معه، وخرج إليها من أهل البصرة من أراد أن يخرج إليها ويكون معها، فاجتمعوا بالمربد وجعلوا يثوبون حتى غصّ بالناس.

فتكلم طلحة وهو في ميمنة المربد ومعه الزبير وعثمان في ميسرته، فأنصتوا له، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر عثمان رضي الله عنه وفضله والبلد وما استحل منه، وعظم ما أتى إليه، ودعا إلى الطلب بدمه، وقال: إن في ذلك إعزاز دين الله عز وجل وسلطانه، وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم فإنه حد من حدود الله، وإنكم إن فعلتم أصبتم وعاد أمركم إليكم، وإن تركتم لم يقيم لكم سلطان، ولم يكن لكم نظام.

فتكلم الزبير بمثل ذلك. فقال من في ميمنة المربد: صدقوا وبراً، وقال الحق، وأمر بالحق. وقال من في ميسرته: فجراً وغدراً، وقال الباطل، وأمر به، قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان! وتحاشى الناس وتحاصبوا وأرهجوا. فتكلمت عائشة - وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة كأنه صوت امرأة جلييلة - فحمدت الله جل وعز وأثنت عليه، وقالت: كان الناس يتجنون على عثمان رضي الله عنه ويؤرون على عماله ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم، ويرون حسناً من كلامنا في صلاح بينهم، فننظر في ذلك فنجد برياً تقياً وقيماً ونجدهم فجراً كذبة يحاولون غير ما يظهرون. فلما قووا على المكاثرة كاثروه فاقتحموا عليه داره، واستحلوا الدماء الحرام، والمال الحرام، والبلد الحرام، بلا ترة ولا عذر، ألا إن مما ينبغي لا ينبغي لكم غيره، أخذ قتلة عثمان رضي الله عنه وإقامة كتاب الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ (١).

فافترق أصحاب عثمان بن حنيف فرقتين، فقالت فرقة: صدقت والله وبرت؛ وجاءت والله بالمعروف؛ وقال الآخرون: كذبت والله ما نعرف ما تقولون، فتحاثوا وتحاصبوا وأرهجوا، فلما رأت ذلك عائشة انحدرت وانحدر أهل الميمنة مفارقين لعثمان حتى وقفوا في المربد في موضع الدباغين، وبقي أصحاب عثمان على حالهم يتدافعون حتى تجاوزوا، ومال بعضهم إلى عائشة، وبقي بعضهم مع عثمان على فم السكة. وأتى عثمان بن حنيف فيمن معه، حتى إذا كانوا على فم السكة، سكة المسجد عن يمين الدباغين استقبلوا الناس فأخذوا عليهم بقمها.

وفيما ذكر نصر بن مزاحم، عن سيف، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد، قال: وأقبل جارية بن قدامة السعدي، فقال: يا أم المؤمنين؛ والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرصة للسلح! إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة، فهتكت سترك وأبحت حرمتك، إنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك، وإن كنت أتييتا طائعةً فارجعي إلى منزلك، وإن كنت أتييتا مستكرهةً فاستعيني

بالناس . قال : فخرج غلامٌ شابٌ من بني سعد إلى طلحة والزبير ، فقال : أما أنت يا زبير فحواريُّ رسول الله ﷺ ، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله ﷺ بيدك ، وأرى أمكما معكما فهل جئتما بنسائكما؟ قالا : لا ، قال : فما أنا منكما في شيء ، واعتزل . وقال السعدي في ذلك :

صُتِمَ حلائلكم وقُدَّتْ أمكم	هذا لعمرك قلة الإنصاف
أمرت بجر ذبولها في بيتها	فهوت تشق البيد بالإجاف
غرضاً يُقاتل دونها أبنائها	بالنبل والخطي والأسياف
هتكت بطلحة والزبير ستورها	هذا المخبر عنهم والكافي

وأقبل غلامٌ من جُهينة على محمد بن طلحة - وكان محمد رجلاً عابداً - فقال : أخبرني عن قتلة عثمان ! فقال : نعم ، دُم عثمان ثلاثة أثلاث ، ثلث على صاحبة الهودج - يعني عائشة - وثلث على صاحب الجمل الأحمر - يعني طلحة - وثلث على علي بن أبي طالب وضحك الغلام وقال : ألا أراي على ضلال ! ولحق بعلي ، وقال في ذلك شعراً :

سألت ابن طلحة عن هالك	بجوف المدينة لم يُقبر
فقال ثلاثة رهط هم	أماتوا ابن عفان واستعبر
فثلث على تلك في خدرها	وثلث على راكب الأحمر
وثلث على ابن أبي طالب	ونحن بدوية قرقر
فقلت صدقت على الأولين	وأخطأت في الثالث الأزهر

رجع الحديث إلى حديث سيف عن محمد وطلحة . قال : فخرج أبو الأسود وعمران وأقبل حُكَيْم بن جبلة ؛ وقد خرج وهو على الخيل ، فأنشب القتال ، وأشرع أصحاب عائشة رضي الله عنها رماحهم وأمسكوا ليمسكوا فلم يَنْتَهِ ولم يُشْ ، فقاتلهم وأصحاب عائشة كافون إلا ما دافعوا عن أنفسهم ، وحُكَيْم يذمر خيله ويركبهم بها ، ويقول : إنها قريش ليُرْدِيَنها جُبْها والطيش ، واقتتلوا على فم السكة ، وأشرف أهل الدور من كان له في واحد من الفريقين هوى ، فرموا باقي الآخرين بالحجارة ، وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بني مازن ، فوقفوا بها ملياً ، وثار إليهم الناس ، فحجز الليل بينهم . فرجع عثمان إلى القصر ، ورجع الناس إلى قبائلهم ، وجاء أبو الجرباء ؛ أحد بني عثمان بن مالك بن عمرو بن تميم إلى عائشة وطلحة والزبير ، فأشار عليهم بأمثل من مكانهم فاستنصحوه وتابعوا رأيَه ، فساروا من مقبرة بني مازن فأخذوا على مُسْنَاة البصرة من قبل الجبانة حتى انتهوا إلى الزابوقة ، ثم أتوا مقبرة بني حصن وهي متنجية إلى دار الرزق ، فباتوا يتأهبون ، وبات الناس يسرون إليهم ، وأصبحوا وهم على رجل في ساحة دار الرق ، وأصبح عثمان بن حنيف فغاداهم ، وغدا حُكَيْم بن جبلة وهو يُبربر وفي يده الرمح ، فقال له رجل من عبد القيس : مَنْ هذا الذي تسب وتقول له ما أسمع؟ قال : عائشة ، قال : يابن الخبيثة ، ألأم المؤمنين تقول هذا ! فوضع حُكَيْم السنان بين ثديه فقتله . ثم مرَّ بامرأة وهو يسبها - يعني عائشة - فقالت : مَنْ هذا الذي ألك إلى هذا؟ قال : عائشة ، قالت : يابن الخبيثة ، ألأم المؤمنين تقول هذا ! فطعنها بين ثدييها فقتلها ، ثم سار ، فلما اجتمعوا واقفوه ، فاقتتلوا بدار الرزق قتلاً شديداً من حين بزغت الشمس إلى أن زال النهار وقد كثر القتل في أصحاب ابن حنيف وفشت الجراحة في الفريقين ،

ومنادي عائشة يُناشدُهم ويدعوهم إلى الكفّ فيأبؤون، حتى إذا مسَّهم الشرّ وعضَّهم نادوا أصحاب عائشة إلى الصّلح والمّاتات. فأجابوهم وتواعدوا، وكتبوا بينهم كتاباً على أن يبعثوا رسولاً إلى المدينة؛ وحتى يرجع الرّسول من المدينة، فإن كانا أكرّها خرج عثمان عنها وأخلى لهما البصرة، وإن لم يكونا أكرّها خرج طلحة والزّبير:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما اصطَلَحَ عليه طلحة والزّبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين، وعثمان بن حُنيف ومن معه من المؤمنين والمسلمين. إنّ عثمان يقيم حيث أدركه الصّلح على ما في يده، وإنّ طلحة والزّبير يُقيمان حيث أدركهما الصّلح على ما في أيديهما، حتى يرجع أمينُ الفريقين ورسولُهم كعب بن سور من المدينة. ولا يضارّ واحدٌ من الفريقين الآخر في مسجد ولا سوق ولا طريق ولا فُرْضة، بينهم عيّبة مفتوحة حتى يرجع كعب بالخبر؛ فإن رجع بأنّ القوم أكرّها طلحة والزّبير فالأمر أمرُهما، وإن شاء عثمان خرج حتى يلحق بطيّته، وإن شاء دخل معهما؛ وإن رجع بأنّهما لم يكرّها فالأمر أمر عثمان، فإن شاء طلحة والزّبير أقاما على طاعة عليّ وإن شاء خرجا حتى يلحقا بطيّتهما؛ والمؤمنون أعوانُ الفالح منها.

فخرَجَ كعبٌ حتى يقدم المدينة، فاجتمع الناس لقدمه، وكان قدومه يوم الجمعة، فقام كعب فقال: يا أهل المدينة، إني رسول أهل البصرة إليكم؛ أأكرّهُ هؤلاء القومُ هذين الرّجلين على بيعة عليّ، أم أتياها طائعين؟ فلم يجبه أحدٌ من القوم إلّا ما كان من أسامة بن زَيْد، فإنه قام فقال: اللهم إنهما لم يُبايعا إلّا وهما كارِهان. فأمر به تمام، فوائبه سهل بن حُنيف والناس، وثار صُهيّب بن سنان وأبو أيّوب بن زيد، في عدّة من أصحاب رسول الله ﷺ، فيهم محمد بن مسلمة، حين خافوا أن يُقتل أسامة، فقال: اللهم نعم؛ فانفِرْجُوا عن الرّجل؛ فانفرجوا عنه، وأخذ صُهيّب بيده حتى أخرجه فأدخله منزله، وقال: قد علمت أن أمّ عامر حاميّة، أما وسعك ما وسعنا من السكوت! قال: لا والله، ما كنت أرى أن الأمر يترامى إلى ما رأيت، وقد أهدأنا لعظيم. فرجع كعبٌ وقد اعتدّ طلحة والزّبير فيما بين ذلك بأشياء كلها كانت مما يعتدّ به، منها أنّ محمد بن طلحة - وكان صاحب صلاة - قام مقاماً قريباً من عثمان بن حُنيف، فخشى بعضُ الرُّط والسيابجة أن يكون جاء لغير ما جاء له، فنحّياه، فبعثا إلى عثمان، هذه واحدة. وبلغ عليّاً الخبرُ الذي كان بالمدينة من ذلك، فبادر بالكتاب إلى عُثمان بعهزّه ويقول: والله ما أكرّها إلّا كَرّها على فرقة، ولقد أكرّها على جماعة وفضل، فإن كانا يُريدان الخلع فلا عذرَ لهما، وإن كانا يُريدان غير ذلك نَظَرْنَا ونظرا. فقَدِمَ الكتابُ على عثمان بن حُنيف، وقدم كعبٌ فأرسلوا إلى عثمان أن اخرج عنا، فاحتجّ عثمان بالكتاب وقال: هذا أمرٌ آخر غير ما كنا فيه؛ فجمع طلحة والزّبير الرّجال في ليلة مظلمة باردة ذات رياح وندى، ثم قصدا المسجد فوافقا صلاة العشاء - وكانوا يؤخرونها - فأبْطَأ عثمان بن حُنيف فقدمَا عبد الرحمن بن عتاب، فشهر الرُّط والسيابجة السلاح ثم وضعوه فيهم، فأقبلوا عليهم فاقتتلوا في المسجد وصبروا لهم، فأناموهم وهم أربعون، وأدخلوا الرّجال على عُثمان ليُخرجوه إليهما، فلما وصل إليهما توطّؤوه وما بقيت في وجهه شعرة، فاستعظما ذلك، وأرسلوا إلى عائشة بالذي كان، واستطلعا رأيها، فأرسلت إليهما أن خلّوا سبيلَه فليذهب حيث شاء ولا تحبسوه، فأخرجوا الحرس الذين كانوا مع عثمان في القصر ودخلوه، وقد كانوا يعتقبون حرس عثمان في كلّ يوم وفي كلّ ليلة أربعون، فصلّى عبد الرحمن بن عتاب بالناس العشاء والفجر، وكان الرّسول فيما بين عائشة وطلحة والزّبير هو، أتاها بالخبر، وهو رجع إليهما بالجواب، فكان رسول القوم.

حدّثنا عمر بن شبة، قال: حدّثنا أبو الحسن عن أبي مخنف، عن يوسف بن يزيد، عن سهل بن سعد، قال: لما أخذوا عثمان بن حنيف أرسلوا أبا ن بن عثمان إلى عائشة يستشيرونها في أمره، قالت: اقتلوه، فقالت لها امرأة: نشدتك بالله يا أم المؤمنين في عثمان وصحبته لرسول الله ﷺ! قالت: ردّوا أبا ن، فردّوه، فقالت: احبسوه ولا تقتلوه، قال: لو علمت أنك تدعينني لهذا لم أرجع، فقال لهم مجاشع بن مسعود: اضربوه وانثفوا شعر لحيتهم، فضربوه أربعين سوطاً، ونثفوا شعر لحيتهم ورأسه وحاجبيه وأشفار عينيه وجبسوه.

حدّثني أحمد بن زهير، قال: حدّثنا أبي، قال: حدّثني وهب بن جرير بن حازم، قال: سمعت يونس بن يزيد الأيلي، عن الزهري، قال: بلغني أنه لما بلغ طلحة والزبير منزل عليّ بذي قار انصرفوا إلى البصرة، فأخذوا على المنكدر، فسمعت عائشة رضي الله عنها نباح الكلاب، فقالت: أيّ ماء هذا؟ فقالوا: الحوآب، فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون! إني لهية، قد سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه: «ليت شعري أيتكنّ تنبجها كلاب الحوآب!». فأرادت الرجوع، فأتاها عبد الله بن الزبير فرعم أنه قال: كذب من قال إن هذا الحوآب. ولم يزل حتى مضت، فقدموا البصرة وعليها عثمان بن حنيف، فقال لهم عثمان: ما نَقَمْتُمْ على صاحبكم؟ فقالوا: لم نره أوّلئها مئاً، وقد صنع ما صنع، قال: فإنّ الرجل أمرني فأكتب إليه فأعلمه ما جئتم له، على أن أصلي بالناس حتى يأتينا كتابه، فوقفوا عليه وكتب، فلم يلبث إلا يومين حتى وثبوا عليه فقاتلوه بالزابوقة عند مدينة الرّزق، فظفروا، وأخذوا عثمان فأرادوا قتله، ثم خشوا غضب الأنصار، فنالوه في شعره وجسده. فقام طلحة والزبير خطيبين فقالا: يا أهل البصرة، توبة بحوبة، إنما أردنا أن يستعتب أمير المؤمنين عثمان ولم نرد قتله، فغلب سفهاء الناس العلماء حتى قتلوه. فقال الناس لطلحة: يا أبا محمد، قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا، فقال الزبير: فهل جاءكم مني كتاب في شأنه؟ ثم ذكر قتل عثمان رضي الله عنه وما أتى إليه، وأظهر عيب عليّ. فقام إليه رجل من عبد القيس فقال: أيّها الرجل، أنصت حتى نتكلّم، فقال عبد الله بن الزبير: ومالك وللّلام! فقال العبديّ: يا معشر المهاجرين، أنتم أوّل من أجاب رسول الله ﷺ، فكان لكم بذلك فضل، ثم دخل الناس في الإسلام كما دخلتم، فلما توفّي رسول الله ﷺ بايعتم رجلاً منكم، والله ما استأمرتمونا في شيء من ذلك فرضينا وأتبعناكم، فجعل الله عزّ وجلّ للمسلمين في إمارته بركة، ثم مات رضي الله عنه واستخلف عليكم رجلاً منكم، فلم تشاورونا في ذلك، فرضينا وسلّمنا، فلما توفّي الأمير جعل الأمر إلى ستة نفر، فاختارتم عثمان وبايعتموه عن غير مشورة منا، ثم أنكركم من ذلك الرجل شيئاً، فقتلتموه عن غير مشورة منا، ثم بايعتم عليّاً عن غير مشورة منا، فما الذي نَقَمْتُمْ عليه فنقاتله؟ هل استأثر بفيء، أو عمل بغير الحق؟ أو عمل شيئاً تنكرونه فنكون معكم عليه! وإلاّ فما هذا! فهموا بقتل ذلك الرجل، فقام من دونه عشيرته؛ فلما كان الغد وثبوا عليه وعلى من كان معه، فقتلوا سبعين رجلاً.

رجع الحديث إلى حديث سيف، عن محمد وطلحة. قالوا: فأصبح طلحة والزبير وبيت المال والحرس في أيديهما، والناس معهما، ومن لم يكن معهما مغمور مستسرّ، وبعثنا حين أصبحنا بأن حُكِّمًا في الجمع، فبعثت: لا تحبسوا عثمان ودعاؤه. ففعلا، فخرج عثمان فمضى لطلبته، وأصبح حُكِّم بن جبلة في خيله على رجل فيمن تبعه من عبد القيس ومن نزع إليهم من أفناء ربيعة، ثم وجهوا نحو دار الرّزق وهو يقول: لست بأخيه إن لم أنصره، وجعل يشتم عائشة رضي الله عنها، فسمعت امرأة من قومه فقالت: يابن الخبيثة، أنت أوّل بذلك! فطعنها فقتلها، فغضبت عبد القيس إلاّ من كان اغتمّر منهم، فقالوا: فعلت بالأمس وعدت لمثل ذلك اليوم! والله

لندعنك حتى يقيدك الله . فرجعوا وتركوه ، ومضى حُكَيْم بن جَبَلَة فيمن غزا معه عثمان بن عفان وحصره من نَزَاع القبائل كلها ، وعرفوا أن لا مقام لهم بالبصرة ، فاجتمعوا إليه ، فأنتهى بهم إلى الزابوقة عند دار الرزق ، وقالت عائشة : لا تقتلوا إلّا من قاتلكم ، ونادوا من لم يكن من قَتَلَة عثمان رضي الله عنه فليكيف عنا ، فإننا لا نريد إلا قَتْلَة عثمان ولا نبداً أحداً ، فأنشَب حُكَيْم القتال ولم يُرْعَ للمنادي ، فقال طلحة والزبير : الحمد لله الذي جمع لنا ثأرنا من أهل البصرة ، اللهم لا تُبَيّ منهم أحداً ، وأقْدَ منهم اليوم فاقتلهم . فجادّوهم القتال فاقتتلوا أشدّ قتال ومعه أربعة قَوَاد ، فكان حُكَيْم بحيال طلحة ، وذَرِيح بحيال الزبير ، وابن المحرّش بحيال عبد الرحمن بن عتّاب ، وحَرْقوص بن زُهَيْر بحيال عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فزحف طلحة لحكيم وهو في ثلثمائة رجل ، وجعل حُكَيْم يضرب بالسيف ويقول :

أضربُهُم باليَاسِ ضَرَبَ غُلامِ عابِسِ
من الحَيَاةِ آيسِ في الغُرفَاتِ نَافِسِ

فضرب رجل رجله فقطعها ، فحبا حتى أخذها فرمى بها صاحبه ، فأصاب جسده فصرعه ، فأتاه حتى قتله ، ثم اتكأ عليه وقال :

يا فُخْذِلَ لِنِ تراعي إنّ مَعي ذراعي
أُحْمِي بها كُراعي

وقال وهو يرتجز :

ليس عليّ أنْ أُمُوتَ عارُ والعارُ في الناس هو الفِرارُ
والمَجْدُ لا يَفْضَحُهُ الدِّمارُ

فأتى عليه رجلٌ وهو رثيث ، رأسه على الآخر ، فقال : مَالِك يا حُكَيْم ؟ قال : قُتِلْتُ ، قال : مَنْ قَتَلَك ؟ قال : وسادتي ؛ فاحتمله فضمّه في سبعين من أصحابه ، فتكلم يومئذ حُكَيْم وإنه لقائم على رجل ، وإن السيوف لتأخذهم فما يُتَعَتَع ، ويقول : إنا خلّفنا هذين وقد بايعا عليّاً وأعطياه الطاعة ، ثم أقبلّا مخالفين مُحَارِبِينَ يطلبان بدم عثمان بن عفان ، ففرّقنا بيننا ، ونحن أهل دار وجوار . اللهم إني لم يريدا عثمان . فنادى مناد : يا خبيث ، جزعت حين عضك نكّال الله عزّ وجلّ إلى كلامٍ من نصّبك وأصحابك بما ركبتم من الإمام المظلوم ، وفرّقتم من الجماعة ، وأصبتم من الدّماء ، ونلتهم من الدّنيا ! فدقّ وبأل الله عزّ وجلّ وانتقامه ، وأقيموا فيمن أنتم .

وقَتِلَ ذَرِيح ومن معه ، وأفلت حُرْقوص بن زهير في نفر من أصحابه فلعجؤوا إلى قومهم ، ونادى مُنادي الزبير وطلحة بالبصرة : ألا من كان فيهم من قبائلكم أحدٌ ممن غزا المدينة فليأتنا بهم . فجاء بهم كما يُجَاءُ بالكلاب ، فقَتِلُوا فما أفلت منهم من أهل البصرة جميعاً إلّا حَرْقوص بن زهير ؛ فإنّ بني سعد منعه ، وكان من بني سعد ، فمسّهم في ذلك أمرٌ شديد ، وضربوا لهم فيه أجلاً وخَشِنُوا صدورَ بني سعد وإنهم لِعُثمانيّة حتى قالوا : نَعْتَزِلُ ؛ وغضبت عبدُ القَيْس حين غضبت سعد لمن قتل منهم بعد الوقعة ومن كان هرب إليهم إلى ما هم عليه من لزوم طاعة عليّ ، فأمرّا للنّاس بأعطياتهم وأرزاقهم وحقوقهم ، وفضّلاً بالفضل أهل السمع والطاعة . فخرجت عبدُ القيس وكثيرٌ من بكر بن وائل حين زووا عنهم الفضول ، فبادروا إلى بيت المال ، وأكَبَ عليهم الناس فأصابوا منهم ، وخرج القوم حتى نزلوا على طريق عليّ ، وأقام طلحة

والزبير ليس معهما بالبصرة ثار إلا حرقوص، وكتبوا إلى أهل الشام بما صنعوا أو صاروا إليه: إنا خرجنا لوضع الحرب وإقامة كتاب الله عز وجل بإقامة حدوده في الشريف والوضيع والكثير والقليل، حتى يكون الله عز وجل هو الذي يردنا عن ذلك، فبايعنا خيار أهل البصرة ونجباؤهم؛ وخالفنا شرارهم ونزاعهم، فردونا بالسلاح وقالوا فيما قالوا: نأخذ أم المؤمنين رهينة؛ أن أمرتهم بالحق وحثتهم عليه. فأعطاهم الله عز وجل سنة المسلمين مرة بعد مرة، حتى إذا لم يبق حجة ولا عذر استبسل قتلة أمير المؤمنين فخرجوا إلى مضاجعهم فلم يفلت منهم خبير إلا حرقوص بن زهير، والله سبحانه مقيدته إن شاء الله. وكانوا كما وصف الله عز وجل؛ وإنا نناشدكم الله في أنفسكم إلا نهضتم بمثل ما نهضنا به؛ فنلقى الله عز وجل وتلقونه وقد أعدنا وقضينا الذي علينا.

وبعثوا به مع سيار العجلي، وكتبوا إلى أهل الكوفة بمثله مع رجل من بني عمرو بن أسد يدعى مظفر بن معرّض. وكتبوا إلى أهل اليمامة وعليها سبرة بن عمر والعنبري مع الحارث السدوسي. وكتبوا إلى أهل المدينة مع ابن قدامة القشيري، فدسّه إلى أهل المدينة.

وكتبت عائشة رضي الله عنها إلى أهل الكوفة مع رسولهم: أما بعد فإني أذكركم الله عز وجل والاسلام، أقيموا كتاب الله بإقامة ما فيه، اتقوا الله واعتصموا بحبله، وكونوا مع كتابه؛ فإنا قدمنا البصرة فدعوناهم إلى إقامة كتاب الله بإقامة حدوده، فأجابنا الصالحون إلى ذلك؛ واستقبلنا من لا خير فيه بالسلاح، وقالوا: لتتبعنكم عثمان، ليزيدوا الحدود تعطيلًا، فعاندوا فشهدوا علينا بالكفر وقالوا لنا المنكر، فقرأنا عليهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ (١). فأذعن لي بعضهم، واختلفوا بينهم، فتركناهم وذلك، فلم يمنع ذلك من كان منهم على رأيه الأول من وضع السلاح في أصحابي، وعزم عليهم عثمان بن حنيف إلا قاتلوني حتى منعي الله عز وجل بالصالحين، فردّ كيدهم في نحورهم، فمكثنا ستًا وعشرين ليلة ندعوهم إلى كتاب الله وإقامة حدوده - وهو حقّ الدماء أن تهراق دون من قد حلّ دمه - فأبوا واحتجوا بأشياء، فاصطلحنا عليها، فخافوا وغدروا وخانوا، فجمع الله عز وجل لعثمان رضي الله عنه ثارهم، فأقادهم فلم يفلت منهم إلا رجل، وأردنا الله، ومنعنا منهم بعمير بن مرثد ومرثد بن قيس، ونفر من قيس، ونفر من الرباب والأزد. فالزموا الرضا إلا عن قتلة عثمان بن عفان حتى يأخذ الله حقه، ولا تخاصموا الخائنين ولا تمنعوههم، ولا ترضوا بدويّ حدود الله فتكونوا من الظالمين. فكتببت إلى رجال بأسمائهم. فنبطوا الناس عن منع هؤلاء القوم ونصرتهم واجلسوا في بيوتكم؛ فإن هؤلاء القوم لم يرضوا بما صنعوا بعثمان بن عفان رضي الله عنه، وفرّقوا بين جماعة الأمة، وخالفوا الكتاب والسنة، حتى شهدوا علينا فيما أمرناهم به، وحثناهم عليه من إقامة كتاب الله وإقامة حدوده بالكفر، وقالوا لنا المنكر، فأنكر ذلك الصالحون وعظموا ما قالوا، وقالوا: ما رضيتم أن قتلتم الإمام حتى خرجتم على زوجة نبيكم ﷺ، أن أمرتكم بالحق لتقتلوهما وأصحاب رسول الله ﷺ وأئمة المسلمين! فعزموا وعثمان بن حنيف معهم على من أطاعهم من جهال الناس وغوغائهم على رؤسهم وسيابجهم، فلذنا منهم بطائفة من الفسطاط؛ فكان ذلك الدّأب ستة وعشرين يوماً ندعوهم إلى الحقّ وألا يحولوا بيننا وبين الحقّ فغدروا وخانوا فلم نقايسهم، واحتجّوا ببيعة طلحة والزبير؛ فأبردوا بريدًا فجاءهم بالحجة فلم يعرفوا الحقّ، ولم يصبروا عليه؛ فغادوني في الغلس ليقتلوني؛

والذي يحاربهم غيري، فلم يبرحوا حتى بلغوا سدة بيتي ومعهم هاد يهديهم إلي، فوجدوا نفرأ على باب بيتي؛ منهم عمير بن مرثد، ومرثد بن قيس، ويزيد بن عبد الله بن مرثد؛ ونفر من قيس، ونفر من الرباب والأزد، فدارت عليهم الرّحا، فأطاف بهم المسلمون فقتلوه، وجمع الله عز وجل كلمة أهل البصرة على ما أجمع عليه الزبير وطلحة؛ فإذا قتلنا بثأرنا وسعنا العذر. وكانت الوقعة لخمس ليال بقين من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين. وكتب عبيد بن كعب في جمادى.

حدثنا عمر بن شبة، قال: حدثنا أبو الحسن، عن عامر بن حفص، عن أشياخه، قال: ضرب عنق حُكَيْم بن جبلة رجل من الحُدَّان يقال له ضُخَيْم، فمال رأسه، فتعلّق بجلده، فصار وجهه في قفاه. قال ابن المثنى الحُدّاني: الذي قتل حُكَيْمًا يزيد بن الأسحم الحُدّاني، وجُد حُكَيْم قتيلاً بين يزيد بن الأسحم وكعب بن الأسحم، وهما مقتولان.

حدثني عمر، قال: حدثني أبو الحسن، قال: حدثنا أبو بكر الهذلي، عن أبي المليح، قال: لما قتل حُكَيْم بن جبلة أرادوا أن يقتلوا عثمان بن حُنيف، فقال: ما شئتم، أما إن سهل بن حُنيف والي المدينة، وإن قتلتموني انتصر. فخلّوا سبيله. واختلّفوا في الصلّة، فأمرت عائشة رضي الله عنها عبد الله بن الزبير فصلّى بالناس، وأراد الزبير أن يعطي الناس أرزاقهم ويقسم ما في بيت المال، فقال عبد الله ابنه: إن ارتزق الناس تفرّقوا. واصطلحوا على عبد الرحمن بن أبي بكر، فصيّروه على بيت المال.

حدثني عمر، قال: حدثنا أبو الحسن عليّ، عن أبي بكر الهذلي، عن الجارود بن أبي سبرة، قال: لما كانت الليلة التي أخذ فيها عثمان بن حُنيف، وفي رَحْبة مدينة الرّزق طعام يرتزقه الناس، فأراد عبد الله أن يرزقه أصحابه وبلغ حُكَيْم بن جبلة ما صنع بعثمان، فقال: لست أخاف الله إن لم أنصره، فجاء في جماعة من عبد القيس وبكر بن وائل وأكثرهم عبد القيس، فأق ابن الزبير مدينة الرزق، فقال: مالك يا حُكَيْم؟ قال: نريد أن نرتزق من هذا الطعام، وأن تخلّوا عثمان فيقيم في دار الإمارة على ما كتبتم بينكم حتى يقدم عليّ، والله لو أجد أعواناً عليكم أحبطكم بهم ما رضيت بهذه منكم حتى أقتلكم بمن قتلتم، ولقد أصبحتم وإن دماءكم لنا لحلال بمن قتلتم من إخواننا، أما تخافون الله عز وجل! بم تستحلّون سَفْكَ الدِّمَاء؟ قال: بدم عثمان بن عفان، قال: فالذين قتلتموهم قتلوا عثمان! أما تخافون مقت الله؟ فقال له عبد الله بن الزبير: لا نرزقكم من هذا الطعام، ولا نخلى سبيل عثمان بن حُنيف حتى يخلع عليّ، قال حُكَيْم: اللهم إنك حكّم عدل فاشهد. وقال لأصحابه: إني لست في شك من قتال هؤلاء، فمن كان في شك فليصرف. وقاتلهم فاقتلوا قتالاً شديداً، وضرب رجل ساق حُكَيْم فأخذ حُكَيْم ساقه فرماها، فأصاب عنقه فصرعه ووَقَّده ثم حبا إليه فقتله وأتكا عليه، فمر به رجل فقال: من قتلك؟ قال: وسادتي، وقتل سبعون رجلاً من عبد القيس. قال الهذلي: قال حُكَيْم حين قطعت رجله:

أقولُ لما جدُّ بي زَماعي
لِلرَّجُلِ يا رجلي لن تراعي
إن مَعي مِنْ نَجْدَةٍ ذراعي

قال عامر ومسلمة: قتل مع حُكَيْم ابنه الأشرف وأخوه الرّعل بن جبلة.

حدثني عمر، قال: حدثنا أبو الحسن، قال: حدثنا المثنى بن عبد الله، عن عوف الأعرابي، قال: جاء رجل إلى طلحة والزبير وهما في المسجد بالبصرة، فقال: نشدتكما بالله في مسيركما! أعهد إليكما فيه رسول الله

فَقَامَ طَلْحَةَ وَلَمْ يُجِبْهُ، فَنَاشَدَ الزَّيْرَ فَقَالَ: لَا، وَلَكِنْ بَلَّغْنَا أَنَّ عِنْدَكُمْ دَرَاهِمَ فَجِئْنَا نَشَارِكُكُمْ فِيهَا.

حَدَّثَنِي عُمَرُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ أَرْقَمٍ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَبِي عَمْرَةَ مَوْلَى الزَّيْرِ، قَالَ: لَمَّا بَايَعَ أَهْلَ الْبَصْرَةِ الزَّيْرَ وَطَلْحَةَ، قَالَ الزَّيْرُ: أَلَا أَلْفَ فَارِسٍ أَسِيرُ بِهِمْ إِلَى عَلِيٍّ، فَلَمَّا بَيَّتَهُ وَإِذَا صَبَّحَتْهُ، لَعَلِّي أَقْتُلُهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْنَا! فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ هِيَ الْفِتْنَةُ الَّتِي كُنَّا نَحَدِّثُ عَنْهَا؛ فَقَالَ لَهُ مَوْلَاهُ: أَتُسَمِّيْهَا فِتْنَةً وَتُقَاتِلُ فِيهَا! قَالَ: وَيْحَكَ! إِنَّا نُبْصِرُ وَلَا نَبْصُرُ، مَا كَانَ أَمْرُ قَطٍّ إِلَّا عَلِمْتُ مَوْضِعَ قَدَمِي فِيهِ، غَيْرَ هَذَا الْأَمْرِ فَإِنِّي لَا أَدْرِي أُمُقْبِلُ أَنَا فِيهِ أَمْ مُدْبِرُ!

حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ مَنْصُورٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، قَاضِي صَنْعَاءَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَصْعَبٍ بْنِ ثَابِتٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّيْرِ، عَنْ مُوسَى بْنِ عَقْبَةَ، عَنْ عُلُقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ اللَّيْثِيِّ، قَالَ: لَمَّا خَرَجَ طَلْحَةُ وَالزَّيْرُ وَعَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رَأَيْتُ طَلْحَةَ وَأَحَبَّ الْمَجَالِسِ إِلَيْهِ أَخْلَافَهَا، وَهُوَ ضَارِبٌ بِلَحِيَّتِهِ عَلَى زُورِهِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، أَرَى أَحَبَّ الْمَجَالِسِ إِلَيْكَ أَخْلَافَهَا، وَأَنْتَ ضَارِبٌ بِلَحِيَّتِكَ عَلَى زُورِكَ؛ إِنْ كَرِهْتَ شَيْئًا فَاجْلِسْ. قَالَ: فَقَالَ لِي: يَا عُلُقَمَةُ بْنُ وَقَّاصٍ، بَيْنَا نَحْنُ يَدٌ وَاحِدَةٌ عَلَى مَنْ سَوَانَا، إِذْ صَرْنَا جَبَلَيْنِ مِنْ حَدِيدٍ يَطْلُبُ بَعْضُنَا بَعْضًا، إِنَّهُ كَانَ مِنِّي فِي عَثْمَانَ شَيْءٌ لَيْسَ تَوْبَتِي إِلَّا يُسْفِكُ دَمِي فِي طَلَبِ دَمِهِ. قَالَ: قُلْتُ: فَرَدَّ مُحَمَّدُ بْنُ طَلْحَةَ فَإِنَّ لَكَ ضِيعَةً وَعِيَالًا؛ فَإِنْ يَكُ شَيْءٌ يَخْلُفُكَ؛ فَقَالَ: مَا أَحَبُّ أَنْ أَرَى أَحَدًا يَخْفَى فِي هَذَا الْأَمْرِ فَأَمْنَعَهُ. قَالَ: فَأَتَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ طَلْحَةَ فَقُلْتُ لَهُ: لَوْ أَقَمْتُ، فَإِنْ حَدَّثَ بِهِ حَدَّثْتُ كُنْتُ تَخْلُفُهُ فِي عِيَالِهِ وَضِيعَتِهِ، قَالَ: مَا أَحَبُّ أَنْ أَسْأَلَ الرِّجَالَ عَنْ أَمْرِهِ.

حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ شَبَّةٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُخَنَفٍ، عَنْ مَجَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الْبَصْرَةَ كَتَبَتْ إِلَى زَيْدِ بْنِ صُوحَانَ: مِنْ عَائِشَةَ ابْنَةِ أَبِي بَكْرٍ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ حَبِيبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى ابْنِهَا الْخَالِصِ زَيْدِ بْنِ صُوحَانَ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاقْدُمْ؛ فَانْصَرْنَا عَلَى أَمْرِنَا هَذَا، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَخَذَلْنَا النَّاسَ عَنْ عَلِيٍّ.

فَكَتَبَ إِلَيْهَا: مِنْ زَيْدِ بْنِ صُوحَانَ إِلَى عَائِشَةَ ابْنَةِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ حَبِيبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَمَّا بَعْدُ: فَأَنَا ابْنُكَ الْخَالِصُ إِنْ اعْتَزَلْتَ هَذَا الْأَمْرَ وَرَجَعْتَ إِلَى بَيْتِكَ، وَإِلَّا أَوَّلَ مَنْ نَابَدَكَ. قَالَ زَيْدُ بْنُ صُوحَانَ: رَحِمَ اللَّهُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ! أَمِرتُ أَنْ تَلْزِمَ بَيْتَهَا وَأَمْرُنَا أَنْ نُقَاتِلَ، فَتَرَكْتُ مَا أَمِرتُ بِهِ وَأَمَرْتُنَا بِهِ، وَصَنَعْتَ مَا أَمَرْنَا بِهِ وَهَنَتْنَا عَنْهُ!

ذَكَرَ الْخَبْرَ عَنْ مَسِيرِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ نَحْوَ الْبَصْرَةِ

مِمَّا كَتَبَ بِهِ إِلَى السَّرِيِّ، أَنْ شَعِيبًا حَدَّثَهُ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَيْفٌ، عَنْ عُبَيْدَةَ بْنِ مَعْتَبٍ، عَنْ يَزِيدِ الضَّخَمِ، قَالَ: لَمَّا أَتَى عَلِيًّا الْخَبْرُ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ بِأَمْرِ عَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَالزَّيْرِ أَنَّهُمْ قَدْ تَوَجَّهُوا نَحْوَ الْعِرَاقِ، خَرَجَ يُبَادِرُ وَهُوَ يَرْجُو أَنْ يَرْكَبَهُمْ وَيُرْدَهُمْ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الرَّبَذَةِ أَتَاهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ أَمْنَعُوا، فَأَقَامَ بِالرَّبَذَةِ أَيَّامًا، وَأَتَاهُ عَنِ الْقَوْمِ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْبَصْرَةَ، فَسَرَّيَ بِذَلِكَ عَنْهُ، وَقَالَ: إِنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ أَشَدُّ إِلَيَّ حُبًّا، وَفِيهِمْ رُؤُوسُ الْعَرَبِ وَأَعْلَامُهُمْ. كَسَبَ إِلَيْهِمْ: إِنِّي قَدْ اخْتَرْتُكُمْ عَلَى الْأَمْصَارِ وَإِنِّي بِالْأَثَرَةِ.

حَدَّثَنِي عُمرُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ، عَنْ بَشِيرِ بْنِ عَاصِمٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَتَبَ عَلِيٌّ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي اخْتَرْتُكُمْ وَالنَّزُولَ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ

لما أعرف من مودتكم وحبكم لله عز وجل ولرسوله ﷺ، فمن جاءني ونصرني فقد أجاب الحق وقضى الذي عليه.

حدثني عمر، قال: حدثنا أبو الحسن. قال: حدثنا حبان بن موسى، عن طلحة بن الأعمى وبشر بن عاصم، عن ابن أبي ليلى، عن أبيه، قال: بُعث محمد بن أبي بكر إلى الكوفة ومحمد بن عون، فجاء الناس إلى أبي موسى يستشيرونه في الخروج، فقال أبو موسى: أما سبيل الآخرة فأنت تقيموا، وأما سبيل الدنيا فأنت تخرجوا، وأنتم أعلم. وبلغ المحمدين قول أبي موسى، فبأنه وأغلظا له، فقال: أما والله إن بيعة عثمان في عنقي وعُنق صاحبكما الذي أرسلكما، إن أردنا أن نُقاتل لا نقاتل حتى لا يبقى أحد من قتل عثمان إلا قُتل حيث كان. وخرج علي من المدينة في آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين، فقالت أخت علي بن عدي من بني عبد العزى ابن عبد شمس:

لاهم فاعقر بعلي جملة ولا تبارك في بعير حملة
ألا علي بن عدي ليس له

حدثني عمر، قال: حدثنا أبو الحسن، عن أبي مخنف، عن ثمر بن وعلة، عن الشعبي؛ قال: لما نزل علي بالربذة أتته جماعة من طيء، فقيل لعلي: هذه جماعة من طيء قد أتتك، منهم من يريد الخروج معك ومنهم من يريد التسليم عليك؛ قال: جرى الله كلاً خيراً وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً. ثم دخلوا عليه فقال علي: ما شهدتمونا به؟ قالوا: شهدناك بكل ما تحب، قال: جزاكم الله خيراً! فقد أسلمتم طائعين وقاتلت المرتدين ووافيتهم بصدقاتكم المسلمين. فهض سعيد بن عبيد الطائي فقال: يا أمير المؤمنين، إن من الناس من يعبر لسانه عما في قلبه، وإني والله ما كل ما أجد في قلبي يعبر عنه لساني وسأجهد وبالله التوفيق. أما أنا فسأنصح لك في السر والعلانية وأقاتل عدوك في كل موطن وأرى لك من الحق ما لا أراه لأحد من أهل زمانك لفضلك وقرأيتك. قال: رحمك الله! قد أدى لسانك عما يحسن ضميرك. فقتل معه بصفين رحمه الله.

كتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: لما قدم علي الربذة أقام بها وسرح منها إلى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر؛ وكتب إليهم: إني اخترتكم على الأمصار وفزعت إليكم لما حدث، فكونوا لدين الله أعواناً وأنصاراً، وأيدونا وانضوا إلينا فالإصلاح ما نريد، لتعود الأمة إخواناً، ومن أحب ذلك وآثره فقد أحب الحق وآثره، ومن أبغض ذلك فقد أبغض الحق وغمصه.

فمضى الرّجلان وبقي علي بالربذة يتهياً، وأرسل إلى المدينة فلحقه ما أراد من دابة وسلاح، وأمر أمره وقام في الناس فخطبهم؛ وقال: إن الله عز وجل أعزنا بالإسلام ورفّعنا به وجعلنا به إخواناً بعد ذلة وقلة وتباغض وتباعد؛ فجرى الناس على ذلك ما شاء الله؛ الإسلام دينهم والحق فيهم والكتاب إمامهم، حتى أصيب هذا الرجل بأيدي هؤلاء القوم الذين نزعهم الشيطان لينزع بين هذه الأمة، ألا إن هذه الأمة لا بد مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم، فنعوذ بالله من شر ما هو كائن. ثم عاد ثانية، فقال: إنه لا بد مما هو كائن أن يكون، ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة؛ شرها فرقة تتحلني ولا تعمل بعلي، فقد أدركتم ورأيتم فالزموا دينكم واهدوا بهدي نبيكم ﷺ، وأتبعوا سنته، واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن، فما عرفه القرآن فالزموه وما أنكره فردوه، وارضوا بالله جل وعز رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً، وبالقرآن حكماً

وإماماً.

كتب إليّ السريّ عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالاً: لما أراد عليّ الخروج من الرّبذة إلى البصرة قام إليه ابنُ لرفاعة بن رافع، فقال: يا أمير المؤمنين، أيّ شيء تريد؟ وإلى أين تذهب بنا؟ فقال: أمّا الذي نريد وننوي فالإصلاح؛ إن قبلوا منا وأجابونا إليه، قال: فإن لم يجيبوا إليه؟ قال: ندعهم بعذرهم ونعطيهما الحقّ ونصبر؛ قال: فإن لم يرضوا؟ قال: ندعهم ما تركونا، قال: فإن لم يتركونا؟ قال: امتنعنا منهم، قال: فنعم إذاً. وقام الحجاج بن غزّية الأنصاريّ فقال: لأرضيتك بالفعل كما أرضيتني بالقول. وقال:

دَرَاكِهَا دَرَاكِهَا قَبْلَ الْفَوْتِ وَانْفِرْ بِنَا وَاسْمُ بِنَا نَحْوَ الصُّوْتِ
لَا وَأَلْتُ نَفْسِي إِنْ هَبْتُ الْمَوْتُ

والله لأنصرت الله عزّ وجلّ كما سمّانا أنصاراً. فخرج أمير المؤمنين وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمر بن الجراح، والرّاية مع محمّد بن الحنفية، وعلى الميمنة عبد الله بن عباس، وعلى الميسرة عمر بن أبي سلّمة أو عمرو بن سفيان بن عبد الأسد، وخَرَجَ عليّ وهو في سبعمائة وستين؛ وراجز عليّ يرجز به:

سَيَرُوا أَبَابِيلَ وَجُئُوا السَّيْرَا إِذْ عَزَمَ السَّيْرَ وَقُولُوا خَيْرَا
حَتَّى يُبْلَقُوا وَتُبْلَقُوا خَيْرَا نَغْزُو بِهَا طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَا

وهو أمام أمير المؤمنين، وأمير المؤمنين عليّ على ناقة له حمراء يقود فرساً كميّناً. فتلقاهم بقيّد غلام من بني سعد بن ثعلبة بن عامر يدعى مُرّة، فقال: من هؤلاء؟ فقيل: أمير المؤمنين، فقال: سفرة فانية فيها دماء من نفوس فانية؛ فسمعها عليّ فدعاه، فقال: ما اسمك؟ قال: مُرّة، قال: أمر الله عيشك، كاهن سائر اليوم؟ قال: بل عائف؛ فلما نزل بقيّد أسد وطئىء فعرضوا عليه أنفسهم، فقال: الزموا قراركم، في المهاجرين كفاية. وقديم رجل من أهل الكوفة فيد قبل خروج عليّ فقال: من الرجل؟ قال: عامر بن مطر، قال: الليثي؟ قال الشيبانيّ: قال: أخبرني عما وراءك، قال: فأخبره حتى سأله عن أبي موسى، فقال: إن أردت الصّلح فأبو موسى صاحب ذلك، وإن أردت القتال فأبو موسى ليس بصاحب ذلك، قال: والله ما أريد إلا الإصلاح حتى يردّ علينا، قال: قد أخبرتك الخبر، وسكت وسكت عليّ.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن أبي محمد، عن عبد الله بن عمير، عن محمد بن الحنفية، قال: قدّم عثمان بن حنيف على عليّ بالرّبذة وقد نتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه، فقال: يا أمير المؤمنين، بعثني ذا لحية وجئتكم أمرد، قال: أصبت أجراً وخيراً، إنّ الناس وليّهم قبلي رجلاً، فعملوا بالكتاب، ثمّ وليهم ثالث، فقالوا وفعلوا، ثمّ بايعوني، وبايعني طلحة والزّبير، ثمّ نكثا بيعتي، وألبا الناس عليّ، ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وخلافهما عليّ، والله إنّهما ليعلمان أنّي لستُ بدون رجل ممن قد مضى، اللهم فاحلل ما عقدا، ولا تبرم ما قد أحكما في أنفسهما وأريهما المساءة فيما قد عملا.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالاً: ولما نزل عليّ الثعلبية أتاه الذي لقي عثمان بن حنيف وحرّسه، فقام وأخبر القوم بالخير، وقال: اللهم عافني مما ابتليت به طلحة والزّبير من قتل المسلمين، وسلّمنا منهم أجمعين. ولما انتهى إلى الإسناد أتاه ما لقي حُكَيْم بن جَبَلَة وقتل عثمان بن عفان رضي

الله عنه، فقال: الله أكبر، ما ينجيني من طلحة والزبير إذا أصاب ثأرهما أو ينجيهما! وقرأ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾^(١). وقال:

دَعَا حُكَيْمٌ دَعْوَةَ الرُّمَاعِ حَلَّ بِهَا مَنَزَلَةَ النُّزَاعِ

ولما انتهوا إلى ذي قار انتهى إليه فيها عثمان بن حنيف، وليس في وجهه شعر؛ فلما رآه عليّ نظر إلى أصحابه فقال: انطلق هذا من عندنا وهو شيخ، فرجع إلينا وهو شاب. فلم يزل بذي قار يتلوم محمداً ومحمداً، وأتاه الخبر بما لقيت ربيعة وخروج عبد القيس ونزولهم بالطريق، فقال: عبد القيس خير ربيعة، في كل ربيعة خير. وقال:

يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى رَبِيعَةٍ رَبِيعَةَ السَّامِعَةِ الْمُطِيعَةِ
قَدْ سَبَقْتَنِي فِيهِمُ الْوَقِيعَةِ دَعَا عَلِيٌّ دَعْوَةَ سَمِيعَةِ
حَلُّوا بِهَا الْمَنَزِلَةَ الرَّفِيعَةَ

قال: وعرضت عليه بكر بن وائل، فقال لهم مثل ما قال لطيء وأسد.

ولما قدم محمد ومحمد على الكوفة وأتيا أبا موسى بكتاب أمير المؤمنين، وقاما في الناس بأمره، لم يجابا إلى شيء، فلما أمسوا دخل ناس من أهل الحِجَاجِ على أبي موسى، فقالوا: ما ترى في الخروج؟ فقال: كان الرأي بالأمس ليس باليوم، إن الذي تهاونتم به فيما مضى هو الذي جرّ عليكم ما ترون؛ وما بقي إلناهما أمران: القعود سبيل الآخرة والخروج سبيل الدنيا، فاختراروا. فلم ينفر إليه أحد، فغضب الرجال وأغلظا لأبي موسى، فقال أبو موسى: والله إن بيعة عثمان رضي الله عنه لفي عنقي وعنق صاحبكما، فإن لم يكن بُدٌّ من قتال لا نقاتل أحداً حتى يُفرَّغ من قتل عثمان حيث كانوا. فانطلقا إلى عليّ فوافياه بذي قار وأخبراه الخبر، وقد خرج مع الأشتر وقد كان يعجل إلى الكوفة، فقال عليّ يا أشتر، أنت صاحبنا في أبي موسى والمعتريض في كل شيء، اذهب أنت وعبد الله بن عباس فأصلح ما أفسدت.

فخرج عبد الله بن عباس ومعه الأشتر، فقدموا الكوفة وكَلَّمَا أبا موسى واستعانا عليه بأناس من الكوفة، فقال للكوفيين: أنا صاحبكم يوم الجرعة وأنا صاحبكم اليوم؛ فجمع الناس فخطبهم وقال: يا أيها الناس، إن أصحاب النبي ﷺ الذين صحبوه في المواطن أعلم بالله جلّ وعزّ وبرسوله ﷺ ممن لم يصحبه، وإن لكم علينا حقاً فأنا مؤدّيه إليكم. كان الرأي ألا تستخفوا بسلطان الله عزّ وجلّ، ولا تجترثوا على الله عزّ وجلّ، وكان الرأي الثاني أن تأخذوا من قديم عليكم من المدينة فتردّوهم إليها حتى يجتمعوا، وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم، ولا تكلفوا الدخول في هذا، فأما إذا كان ما كان فإنها فتنة صباء، النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان فيها خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب، فكونوا جرثومة من جراثيم العرب، فاغمدوا السيوف، وأنصلوا الأسنة، واقطعوا الأوتار، وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر، وتنجلي هذه الفتنة.

كتب إلى السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: ولما رجع ابن عباس إلى عليّ بالخبر

(١) سورة الحديد: ٢٢.

دعا الحسن بن علي فأرسله ، فأرسل معه عمار بن ياسر ، فقال له : انطلق فأصلح ما أفسدت ؛ فأقبلا حتى دخلا المسجد ، فكان أول من أتاها مسروق بن الأجدع ، فسلم عليهما ، وأقبل على عمار فقال : يا أبا اليقظان ، علام قتلتم عثمان رضي الله عنه ؟ قال : على شتم أعراضنا وضرب أبشارنا ! فقال : والله ما عاقبتُم بمثل ما عوقبتُم به ولئن صبرتم لكان خيراً للصّابرين . فخرج أبو موسى ، فلقي الحسن فضمه إليه ، وأقبل على عمار فقال : يا أبا اليقظان ، أعدوت فيمن عدا على أمير المؤمنين ، فأحللت نفسك مع الفجار ! فقال : لم أفعل ، ولم تسؤني ؟ وقطع عليهما الحسن ، فأقبل على أبي موسى ، فقال : يا أبا موسى ، لم تثبط الناس عنا ! فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ، ولا مثل أمير المؤمنين يُخاف على شيء . فقال : صدقت بأبي أنت وأمي ! ولكن المستشار مؤثمن ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الراكب » ؛ قد جعلنا الله عز وجل إخواناً ، وحرّم علينا أموالنا ودماءنا ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ ^(١) ، ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ ^(٢) . وقال جل وعز : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾ ^(٣) . فغضب عمار وسأه وقام وقال : يا أيها الناس ، إنما قال له خاصة : أنت فيها قاعداً خيراً منك قائماً . وقال رجل من بني تميم ، فقال لعمار : اسكت أيها العبد ، أنت أمس مع الغوغاء واليوم تسأفه أميرنا ؛ وثار زيد بن صوحان وطبقته وثار الناس ، وجعل أبو موسى يكفكف الناس ، ثم انطلق حتى أقى المنبر ، وسكن الناس ، وأقبل زيد على حمار حتى وقف باب المسجد ومعه الكتابان من عائشة رضي الله عنها إليه وإلى أهل الكوفة ؛ وقد كان طلب كتاب العامة فضمه إلى كتابه ، فأقبل بهما ومعه كتاب الخاصة وكتاب العامة : أما بعد ، فثبطوا أيها الناس واجلسوا في بيوتكم إلا عن قتلة عثمان بن عفان رضي الله عنه .

فلما فرغ من الكتاب قال : أمرت بأمر وأمرنا بأمر ؛ أمرت أن تقر في بيتها ، وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة ، فأمرتنا بما أمرت به وركبت ما أمرنا به . فقام إليه شبث بن ربعي فقال : يا عماني - وزيد من عبد القيس عُمان وليس من أهل البحرين - سرقت بجلولاء فقطعك الله ، وعصيت أم المؤمنين فقتلك الله ! ما أمرت إلا بما أمر الله عز وجل به بالإصلاح بين الناس ؛ فقلت : ورب الكعبة ؛ وتهاوى الناس . وقام أبو موسى فقال : أيها الناس ، أطيعوني تكونوا جرتومة من جرائيم العرب يأوي إليكم المظلوم ويأمن فيكم الخائف ، إنا أصحاب محمد ﷺ أعلم بما سمعنا ، إن الفتنة إذا أقبلت شبّهت وإذا أدبرت بينت ، وإن هذه الفتنة باقرة كداء البطن تجري بها الشمال والجنوب والصبا والدبور ، فتسكن أحياناً فلا يُدرى من أين نؤق ، تذر الحليم كاهن أمس ، شيموا سيوفكم وقصّدوا رماحكم ، وأرسلوا سهامكم ، واقطعوا أوتاركم ، والزموا بيوتكم . خلّوا قريشاً - إذا أبوا إلا الخروج من دار الهجرة وفراق أهل العلم بالإمرة - ترتق فتقها ، وتشعب صدعها ، فإن فعلت فلا لنفسها سعت ، وإن أبّت فعلى أنفسها منت سمنها تهريق في أديمها ؛ استنصحوني ولا تستغشوني ، وأطيعوني يسلم لكم دينكم ودنياكم ، ويشقى بحر هذه الفتنة من جنانها .

فقام زيد فشال يده المقطوعة فقال : يا عبد الله بن قيس ؛ ردّ الفرات عن دراجه ، اردده من حيث يجيء حتى يعود كما بدأ ، فإن قدرت على ذلك فستقدر على ما تريد ، فدع عنك ما لست مدركه . ثم قرأ : ﴿ أَلَمْ *

(١) سورة النساء : ٢٩ .

(٢) سورة النساء : ٩٣ .

أَحْبَبَ النَّاسُ أَنْ يَتَرَكُوا^(١) إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ؛ سَيَرُوا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَيِّدِ الْمُسْلِمِينَ، وَانْفَرُوا إِلَيْهِ أَجْمَعِينَ تَصِيْبُوا الْحَقَّ.

فَقَامَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: إِنِّي لَكُمْ نَاصِحٌ، وَعَلَيْكُمْ شَفِيقٌ، أَحَبُّ أَنْ تَرْشُدُوا، وَلَأَقُولَنَّ لَكُمْ قَوْلًا هُوَ الْحَقُّ، أَمَّا مَا قَالَ الْأَمِيرُ فَهُوَ الْأَمْرُ لَوْ أَنَّ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَأَمَّا مَا قَالَ زَيْدُ فزَيْدٌ فِي الْأَمْرِ فَلَا تَسْتَنْصِحُوهُ فَإِنَّهُ لَا يَنْتَزِعُ أَحَدٌ مِنَ الْفِتْنَةِ طَعَنَ فِيهَا وَجَرَى إِلَيْهَا؛ وَالْقَوْلُ الَّذِي هُوَ الْقَوْلُ إِنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ إِمَارَةِ تَنْظِمِ النَّاسِ وَتَرْعِ الظَّالِمِ وَيُعْزِ الْمَظْلُومَ، وَهَذَا عَلِيٌّ يَلِي بِمَا وَلِيَ، وَقَدْ أَنْصَفَ فِي الدَّعَاءِ وَإِنَّمَا يَدْعُو إِلَى الْإِصْلَاحِ، فَانْفَرُوا وَكُونُوا مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَبْرَأَى وَمَسْمُوعًا.

وَقَالَ سَيْحَانُ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَا بَدَّ لِهَذَا الْأَمْرِ وَهَؤُلَاءِ النَّاسُ مِنْ وَالٍ يَدْفَعُ الظَّالِمَ وَيُعْزِ الْمَظْلُومَ وَيَجْمَعُ النَّاسَ، وَهَذَا وَالْيَكْمُ يَدْعُوكُمْ لِنَظَرٍ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَاحِبِيهِ، وَهُوَ الْمَأْمُونُ عَلَى الْأُمَّةِ، الْفَقِيهَ فِي الدِّينِ، فَمَنْ نَهَضَ إِلَيْهِ فَإِنَّا سَائِرُونَ مَعَهُ. وَلَآنَ عَمَّارٌ بَعْدَ نَزْوَتِهِ الْأُولَى. فَلَمَّا فَرَّغَ سَيْحَانُ مِنْ خُطْبَتِهِ، تَكَلَّمَ عَمَّارٌ فَقَالَ: هَذَا ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْتَنْفِرُكُمْ إِلَى زَوْجَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِلَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهَا زَوْجَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَانْظُرُوا ثُمَّ انْظُرُوا فِي الْحَقِّ فَقَاتِلُوا مَعَهُ؛ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا أَبَا الْيَقْظَانِ؛ هُوَ مَعَ مَنْ شَهِدَتْ لَهُ بِالْجَنَّةِ عَلَى مَنْ لَمْ تَشْهَدْ لَهُ. فَقَالَ الْحَسَنُ: اكْفِفْ عَنَّا يَا عَمَّارُ، فَإِنَّ لِلْإِصْلَاحِ أَهْلًا.

وَقَامَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ، فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ أَجِيبُوا دَعْوَةَ أَمِيرِكُمْ؛ وَسَيَرُوا إِلَى إِخْوَانِكُمْ، فَإِنَّهُ سَيُوجَدُ لِهَذَا الْأَمْرِ مَنْ يَنْفِرُ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ لَأَنَّ يَلِيَهُ أَوَّلُو النَّهْيِ أَمْثَلُ فِي الْعَاجِلَةِ وَخَيْرٌ فِي الْعَاقِبَةِ، فَاجِيبُوا دَعْوَتَنَا وَأَعِينُونَا عَلَى مَا ابْتَلَيْنَا بِهِ وَابْتَلَيْتُمْ. فَسَامَحَ النَّاسُ وَأَجَابُوا وَرَضُوا بِهِ. وَأَتَى قَوْمٌ مِنْ طَيْئِ عَدْيَا فَقَالُوا: مَاذَا تَرَى وَمَاذَا تَأْمُرُ؟ فَقَالَ: نَنْتَظِرُ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ، فَأَخْبِرْ بَقِيَامِ الْحَسَنِ وَكَلَامِهِ مِنْ تَكَلُّمِهِ، فَقَالَ: قَدْ بَايَعْنَا هَذَا الرَّجُلَ، وَقَدْ دَعَانَا إِلَى جَبِيلٍ، وَإِلَى هَذَا الْحَدَثِ الْعَظِيمِ لِنَنْظُرَ فِيهِ، وَنَحْنُ سَائِرُونَ وَنَاضِرُونَ.

وَقَامَ هَنْدُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ دَعَانَا وَأَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسَلَهُ حَتَّى جَاءَنَا ابْنُهُ، فَاسْمَعُوا إِلَى قَوْلِهِ، وَانْتَهُوا إِلَى أَمْرِهِ، وَانْفَرُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ فَانْظُرُوا مَعَهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ وَأَعِينُوهُ بِرَأْيِكُمْ.

وَقَامَ حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ أَجِيبُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَانْفَرُوا خِيفَافًا وَثِقَالًا مُرُوا، أَنَا أَوَّلُكُمْ. وَقَامَ الْأَشْثَرُ فَذَكَرَ الْجَاهِلِيَّةَ وَشِدَّتَهَا، وَالْإِسْلَامَ وَرِخَاءَهُ وَذَكَرَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فَقَامَ إِلَيْهِ الْمُقَطَّعُ بْنُ الْهَيْثَمِ بْنُ فَجِيعِ الْعَامِرِيِّ ثُمَّ الْبُكَائِيُّ، فَقَالَ: اسْكُتْ قَبْحَكَ اللَّهُ! كَلِّبْ خُلِّيَّ وَالنَّبَّاحَ؛ فَثَارَ النَّاسُ فَأَجْلَسُوهُ.

وَقَامَ الْمُقَطَّعُ، فَقَالَ: إِنَّا وَاللَّهِ لَا نَحْتَمِلُ بَعْدَهَا أَنْ يَبُوءَ أَحَدٌ بِذِكْرِ أَحَدٍ مِنْ أَثْمَتِنَا، وَإِنَّ عَلِيًّا عِنْدَنَا لَمُقَنَعٌ، وَاللَّهُ لَشَنْ يَكُنْ هَذَا الضَّرْبُ لَا يَرْضَى بَعْلِي، فَعَضَّ أَمْرُؤُ عَلَى لِسَانِهِ فِي مَشَاهِدِنَا؛ فَأَقْبَلُوا عَلَى مَا أَحْثَاكُمْ.

فَقَالَ الْحَسَنُ: صَدَقَ الشَّيْخُ، وَقَالَ الْحَسَنُ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي غَادَ فَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَخْرُجَ مَعِيَ عَلَى الظُّهْرِ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَخْرُجْ فِي الْمَاءِ، فَتَنَفَّرَ مَعَهُ تِسْعَةُ آلَافٍ، فَأَخَذَ بَعْضُهُمُ الْبَرَّ، وَأَخَذَ بَعْضُهُمُ الْمَاءَ وَعَلَى كُلِّ سَبْعِ رَجُلٍ؛ أَخَذَ الْبَرَّ سِتَّةَ آلَافٍ وَمِائَتَانِ، وَأَخَذَ الْمَاءَ أَلْفَانِ وَثَمَانِ مِائَةٍ.

وَفِيهَا ذِكْرُ نَصْرِ بْنِ مَزَاحِمِ الْعِطَارِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَمَّنْ أَدْرَكَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ:

(١) سورة العنكبوت: ١ - ٢.

أن عبد خير الخيواني قام إلى أبي موسى فقال: يا أبا موسى، هل كان هذان الرجلان - يعني طلحة والزبير - ممن بايع علياً؟ قال: نعم، قال: هل أحدث حدثاً يحلّ به نقض بيعته؟ قال: لا أدري، قال: لا دريت، فإننا تاركوك - تدري! يا أبا موسى هل تعلم أحداً خارجاً من الفتنة التي تزعم أنها هي فتنة؟ إنما بقي أربع فرق: عليٌّ بظهر الكوفة، وطلحة والزبير بالبصرة، ومعاوية بالشام، وفرقة أخرى بالحجاز؛ لا يجيئ بها فيء، ولا يقاتل بها عدو؛ فقال له أبو موسى: أولئك خير الناس، وهي فتنة؛ فقال له عبد خير: يا أبا موسى، غلب عليك غشك.

قال: وقد كان الأشتر قام إلى عليٍّ فقال: يا أمير المؤمنين، إني قد بعثت إلى أهل الكوفة رجلاً قبل هذين فلم يره أحكم شيئاً ولا قدر عليه، وهذان أخلق من بعثت أن ينشئ بهم الأمر على ما تحب، ولست أدري ما يكون، فإن رأيت - أكرمك الله - يا أمير المؤمنين أن تبعثني في أثرهم، فإن أهل المصر أحسن شيء لي طاعة، وإن قدمت - مايسم رجوت ألا يخالفني منهم أحد. فقال له عليٌّ: الحق بهم؛ فأقبل الأشتر حتى دخل الكوفة وقد اجتمع الناس في المسجد الأعظم، فجعل لا يمر بقبيلة يرى فيها جماعة في مجلس أو مسجد إلا دعاهم ويقول: اتبعوني إلى القصر، فانتهي إلى القصر في جماعة من الناس، فاقتحم القصر فدخله وأبو موسى قائم في المسجد يخطب الناس ويثبطهم، ويقول: أيها الناس، إن هذه فتنة عمياء صماء تطأ خطامها، النائم فيها خير من القاعد، والقاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، والساعي فيها خير من الزاكب؛ إنها فتنة باقرة كداء البطن، أتتكم من قبل مأمكم، تدع الحليم فيها حيران كابتن أمس. إنما معاشر أصحاب محمد ﷺ أعلم بالفتنة، إنها إذا أقبلت شبهت وإذا أدبرت أسفرت. وعمار يخطبه والحسن يقول له: اعتزل عملنا لا أم لك! وتنح عن منبرنا. وقال له عمار: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فقال أبو موسى: هذه يدي بما قلت، فقال له عمار: إنما قال لك رسول الله ﷺ هذا خاصة، فقال: «أنت فيها قاعداً خيراً منك قائماً»، ثم قال عمار: غلب الله من غالبه وجاحده.

قال نصر بن مزاحم: حدثنا عمر بن سعيد، قال: حدثني رجل، عن نعيم، عن أبي مريم الثقفي، قال: والله إني لفي المسجد يومئذ وعمار يخطب أبا موسى ويقول له ذلك القول، إذ خرج علينا غلمان لأبي موسى يشتدون ينادون: يا أبا موسى، هذا الأشتر قد دخل القصر فضر بنا وأخرجنا؛ فنزل أبو موسى، فدخل القصر، فصاح به الأشتر: اخرج من قصرنا لا أم لك! أخرج الله نفسك، فوالله إنك لمن المنافقين قديماً، قال: أجلي هذه العشيّة، فقال: هي لك، ولا تبيتن في القصر الليلة. ودخل الناس ينتهبون متاع أبي موسى؛ فممنعهم الأشتر وأخرجهم من القصر، وقال: إني قد أخرجته، فكف الناس عنه.

نزول أمير المؤمنين ذا قار

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو، عن العشبي، قال: لما التقوا بذي قار تلقاهم عليٌّ في أناس، فيهم ابن عباس فرحب بهم، وقال: يا أهل الكوفة، أنتم وليتم شوكة العجم وملوكهم، وفضضتم جمعهم؛ حتى صارت إليكم مواريتهم، فأغنيتهم حوزتكم، وأعنتم الناس على عدوهم، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة؛ فإن يرجعوا فذاك ما نريد وإن يلجؤا داويناهم بالرفق، وبايناهم حتى يبدؤونا بظلم، ولن ندع أمراً فيه صلاح إلا أثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله.

فاجتمع بذي قار سبعة آلاف ومائتان، وعبد القيس بأسرها في الطريق بين عليٍّ وأهل البصرة ينتظرون

مرور عليّ بهم ، وهم آلاف - وفي الماء ألفان وأربعمائة .

كتب إليّ السريّ ، عن شعيب ، عن سيف ، عن محمد وطلحة بإسنادهما ، قالوا : لما نزل عليّ ذا قار أرسل ابن عباس والأشتر بعد محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر ، وأرسل الحسن بن عليّ وعماراً بعد ابن عباس والأشتر ، فخفت في ذلك الأمر جميع من كان نقر فيه ، ولم يقدم فيه الوجوه أتباعهم فكانوا خمسة آلاف أخذ نصفهم في البرّ ونصفهم في البحر ، وخفت من لم ينفر فيها ولم يعمل لها . وكان على طاعته ملازماً للجماعة فكانوا أربعة آلاف ، فكان رؤساء الجماعة : القعقاع بن عمرو وسعربن مالك وهند بن عمرو والهيثم بن شهاب ؛ وكان رؤساء الثّقار : زيد بن صوحان ، والأشتر مالك بن الحارث ، وعديّ بن حاتم ، والمسيّب بن نجبة ، ويزيد بن قيس ومعهم أتباعهم وأمثال لهم ليسوا دونهم إلّا أنهم لم يؤمّروا ؛ منهم حُجر بن عدّي وابن مخدّوج البكريّ ؛ وأشباههما لم يكن في أهل الكوفة أحد على ذلك الرأي غيرهم . فبادروا في الوقعة إلّا قليلاً ، فلما نزلوا على ذي قار دعا القعقاع بن عمرو فأرسله إلى أهل البصرة وقال له : الق هذين الرجلين يابن الخنظليّة - وكان القعقاع من أصحاب النبي ﷺ - فادعُهما إلى الألفة والجماعة ، وعظم عليهما الفرقة ، وقال له : كيف أنت صانع فيما جاءك منها مما ليس عندك فيه وصاة مني ؟ فقال : نلقاهم بالذي أمرت به ، فإذا جاء منها أمر ليس عندنا منك فيه رأيي اجتهدنا الرأي وكلمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغي . قال : أنت لها . فخرج القعقاع حتى قدم البصرة ، فبدأ بعائشة رضي الله عنها فسلم عليها ، وقال : أيّ أمة ؟ ما أشخصك وما أقدمك هذه البينة ؟ قالت : أيّ بني ، إصلاح بين الناس ، قال : فابعثني إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما ، فبعثت إليهما فجاءا ، فقال : إني سألت أمّ المؤمنين : ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد ؟ فقالت : إصلاح بين الناس ، فما تقولان أنتما ؟ أمّتايعان أمّ مخالفان ؟ قالوا : متابعان ، قال : فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح ؟ فوالله لئن عرفنا لنصلحن ، ولئن أنكرناه لا نصلح . قالوا : قتلة عثمان رضي الله عنه ، فإنّ هذا إن ترك كان تركاً للقرآن ؛ وإن عمل به كان إحياء للقرآن . فقال : قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة ، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم ، قتلتم ستمائة إلّا رجلاً ، فغضب لهم ستة آلاف ، واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتهم ذلك الذي أفلت - يعني حرقوص بن زهير - فمنعه ستة آلاف وهم على رجل ، فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون ؛ وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فاديلوا عليكم فالذي حذرتم وقربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون ؛ وأنتم أحيتهم مضراً وربيعاً من هذه البلاد ، فاجتمعوا على حربكم وخذلناكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير . فقالت أمّ المؤمنين : فتقول أنت ماذا ؟ أقول هذا الأمر دواؤه التّسكين ، وإذا سكن اختلجوا ، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتبشير رحمة ودرك بئار هذا الرجل ، وعافية وسلامة لهذه الأمة ، وإن أنتم أبيتم إلّا مكابرة هذا الأمر واعتسافه ، كانت علامة شرّ ، وذهاب هذا الثّار ، وبعثه الله في هذه الأمة هزاهزها ، فأثروا العافية ترزقوها ، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ، ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرّضوا له فيصروعنا وإياكم . وآيم الله إنّي لأقول هذا وأدعوكم إليه وإنّي لخائف ألا يتم حتى يأخذ الله عزّ وجلّ حاجته من هذه الأمة التي قلّ متاعها ونزل بها ما نزل ، فإنّ هذا الأمر الذي حدث أمر ليس يقدر ، وليس كالأمور ، ولا كقتل الرجل الرجل ، ولا النّفر الرجل ، ولا القبيلة الرجل .

فقالوا : نعم ، إذا قد أحسنت وأصبحت المقالة ؛ فارجع فإن قدم عليّ وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر .

فرجع إلى عليّ فأخبره فأعجبه ذلك ، وأشرف القوم على الصّلاح ؛ كره ذلك من كرهه ، ورضيه من رضيه .

وأقبلت وفود البصرة نحو عليّ حين نزل بذى قار، فجاءت وفود تميم وبكر قبل رجوع القعقاع لينظروا ما رأى إخوانهم من أهل الكوفة، وعلى أيّ حال نهضوا إليهم، وليعلموهم أنّ الذي عليه رأيهم الإصلاح، ولا يخطر لهم قتال على بالٍ. فلما لقوا عشائرتهم من أهل الكوفة بالذي بعثهم فيه عشائرتهم من أهل البصرة وقال هم الكوفيون مثل مقالتهم، وأدخلوهم على عليّ فأخبروه خبرهم؛ سأل عليّ جرير بن شرس عن طلحة والزبير، فأخبره عن دقيق أمرهما وجليله حتى تمثل له:

ألا أبلغ بني بكر رسولا فلئس إلى بني كعب سبيل
سيرجع ظلمكم منكم عليكم طويل الساعدين له فضول

وتمثل عليّ عندها:

ألم تعلم أبا سمنان أنّا نرد الشئخ مثلك ذا الصّداق
ويذهل عقله بالحرب حتى يقوم فيستجيب لغير داع
فدافع عن خزاعة جمع بكر وما بك يا سراقه من دفاع

قال أبو جعفر: أخرج إليّ زياد بن أيوب كتاباً فيه أحاديث عن شيوخ ذكر أنه سمعها منهم؛ قرأ عليّ بعضها ولم يقرأ عليّ بعضها، فمما لم يقرأ عليّ من ذلك فكتبت منه؛ قال: حدّثنا مُصعب بن سلام التميمي، قال: حدّثنا محمد بن سُوقة، عن عاصم بن كليب الجرمي، عن أبيه، قال: رأيتُ فيما يرى النائم في زمان عثمان بن عفان أنّ رجلاً يلي أمور الناس مريضاً على فراشه وعند رأسه امرأة؛ والناس يريدونه ويَبْهَشُون إليه، فلو نهتهم المرأة لا تنتهوا؛ ولكنها لم تفعل، فأخذوه فقتلوه. فكنْتُ أقصّ رؤيائي على الناس في الحضر والسفر، فيعجبون ولا يدرون ما تأويلها؛ فلما قتل عثمان رضي الله عنه أتانا الخبر ونحن راجعون من غزاتنا؛ فقال أصحابنا: رؤياك يا كليب. فانتبهنا إلى البصرة فلم نلبث إلّا قليلاً حتى قيل: هذا طلحة والزبير معها أم المؤمنين؛ فراع ذلك الناس وتعجبوا، فإذا هم يزعمون للناس أنهم إنما خرجوا غضباً لعثمان وتوبة مما صنعوا من خذلانه، وإن أم المؤمنين تقول: غضبنا لكم على عثمان في ثلاث: إمارة الفُقي، وموقع الغمامة، وضربة السوط والعصا، فما أنصفنا إن لم نغضب له عليكم في ثلاث جرّتموها إليه: حرمة الشهر، والبلد، والدم. فقال الناس: أفلم تُبايعوا عليّاً وتدخلوا في أمره! فقالوا: دخلنا واللّج على أعناقنا. وقيل هذا عليّ قد أظلمكم، فقال قومنا لي ولرجلين معي: انطلقوا حتى تأتوا عليّاً وأصحابه فسلوهم عن هذا الأمر الذي قد اختلط علينا؛ فخرجنا حتى إذا دنونا من العسكر طلع علينا رجل جميل على بغلة، فقلت لصاحبي: أرايتم المرأة التي كنت أحدّثكم عنها أنها كانت عند رأس الوالي؟ فإنها أشبه الناس بهذا، ففطن أنا نخوض فيه، فلما انتهى إلينا قال: قفوا، ما الذي قلتُم حين رأيتموني؟ فأبيناه عليه، فصاح بنا وقال: والله لا تبرحون حتى تخبروني، فدخلتنا منه هيبة، فأخبرناه، فجاوزنا وهو يقول: والله لقد رأيت عجباً، فقلنا لأهل العسكر إلينا: من هذا؟ فقال: محمد بن أبي بكر، فعرفنا أن تلك المرأة عائشة رضي الله عنها، فازددنا لأمرها كراهية، وانتبهنا إلى عليّ فسلمنا عليه، ثم سألناه عن هذا الأمر، فقال: عدا الناس على هذا الرجل وأنا مُعتزل فقتلوه، ثم ولّوني وأنا كارهٌ ولولا خشية على الدّين لم أجبه، ثم طفق هذان في النّكت فأخذت عليهما وأخذت عهدهما عند ذلك، وأذنت لهما في

العُمرة، فقدموا على أمّهما حليمة رسول الله ﷺ فرضيا لها ما رغبا لنسائهما عنه، وعرضاها لما لا يحلّ لهما ولا يصلح؛ فاتبعتهما لكيلا يفتقوا في الإسلام فتقاً، ولا يخرفوا جماعة.

ثم قال أصحابه: والله ما نريد قتالهم إلّا أن يقاتلوا وما خرجنا إلّا لإصلاح. فصاح بنا أصحاب عليّ: بايعوا بايعوا، فبايع صاحبنيّ، وأما أنا فأمسكُ وقلت: بعثني قومي لأمر، فلا أحدث شيئاً حتى أرجع إليهم. فقال عليّ: فإن لم يفعلوا؟ فقلت: لم أفعل، فقال: أرايت لو أنهم بعثوك رائداً فرجعت إليهم، فأخبرتهم عن الكلا والماء فحالوا إلى المعاطش والجُدوبة ما كنت صانعاً؟ قال: قلت: كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلا والماء، قال: فمدّ يدك، فوالله ما استطعت أن أمتنع، فبسطت يدي فبايعته. وكان يقول: عليّ من أذهى العرب. وقال: ما سمعت من طليحة والزبير؟ فقلت: أما الزبير فإنه يقول: بايعنا كرهاً، وأما طليحة فمقبل على أن يتمثل الأشعار، ويقول:

ألا أبلغ بني بكر رسولا
سيرجع ظلمكم منكم عليكم
فليس إلى بني كعب سبيل
طويل الساعدين له فضول

فقال: ليس كذلك، ولكن:

الم تعلم أبا سمان أنا
ويذهل عقله بالحرب حتى
نصم الشيخ مثلك ذا الصُداع
يقوم فيستجيب لغير داع

ثم سار حتى نزل إلى جانب البصرة؛ وقد خندق طليحة والزبير، فقال لنا أصحابنا من أهل البصرة: ما سمعتم إخواننا من أهل الكوفة يريدون ويقولون؟ فقلنا: يقولون خرجنا للصّح وما نريد قتالاً؛ فبينما هم على ذلك لا يحدّثون أنفسهم بغيره، إذ خرج صبيان العسكريين فتسأّبوا ثم تراموا، ثم تتابع عبيد العسكريين، ثم ثلث السفهاء، ونشبت الحرب، وأجّأهم إلى الخندق، فاقتتلوا عليه حتى أجّلوا إلى موضع القتال؛ فدخل منه أصحاب عليّ وخرج الآخرون.

ونادى عليّ: ألا لا تتبعوا مُدبراً، ولا تُجهّزوا على جريح، ولا تدخلوا الدّور، ونهى الناس، ثم بعث إليهم أن اخرجوا للبيعة، فبايعهم على الرايات وقال: من عرف شيئاً فليأخذه، حتى ما بقي في العسكريين شيء إلّا قبض، فأنهى إليه قوم من قيس شباب، فخطب خطيبهم، فقال: أين أمراؤكم؟ فقال الخطيب: أصيبوا تحت نّظار الجمل؛ ثم أخذ في خطبته، فقال عليّ: أما إنّ هذا هو الخطيب السّحسح. وفرغ من البيعة؛ واستعمل عبدالله بن عباس وهو يريد أن يقيم حتى يحكم أمرها، فأمرني الأشر أن أشتري له أثمن بغير بالبصرة ففعلت، فقال: ائت به عائشة، وأقرئها مني السلام، ففعلت، فدعت عليه وقالت: اردّده عليه؛ فأبلغته، فقال: تلومني عائشة أن أفلت ابن أختها!

وأناه الخبر باستعمال عليّ بن عباس فغضب وقال: علام قتلنا الشيخ! إذ اليمّن لعبيد الله، والحجاز لقُثم، والبصرة لعبدالله، والكوفة لعليّ. ثم دعا بدابته فركب راجعاً. وبلغ ذلك عليّاً فنادى: الرّحيل، ثم أجّد

السَّير فليحق به فلم يره أنه قد بلغه عنه وقال : ما هذا السير؟ سبقتنا! وخشي أن ترك الخروج أن يوقع في أنفس الناس شراً.

كتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا : لما جاءت وفود أهل البصرة إلى أهل الكوفة ورجع القعقاع من عند أم المؤمنين وطلحة والزبير بمثل رأيهم، جمع علي الناس، ثم قام على الغرائر، فحمد الله عز وجل وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ. وذكر الجاهلية وشقاءها والإسلام والسعادة وإنعام الله على الأمة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله ﷺ، ثم الذي يليه، ثم حدث هذا الحدث الذي جرّه على هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا، حسدوا من أفاءها الله عليه على الفضيلة، وأرادوا رد الأشياء على أدبارها، والله بالغ أمره، ومصيب ما أراد. ألا وإني راحل غداً فارتحلوا، ألا ولا يرتحل غداً أحد أعان على عثمان بشيء في شيء من أمور الناس، وليغن السفهاء عني أنفسهم.

فاجتمع نفر، منهم علباء بن الهيثم، وعدي بن حاتم، وسالم بن ثعلبة العبسي، وشريح بن أوفى بن ضبيعة، والأشتر؛ في عدة من سار إلى عثمان: ورضي بسير من سار، وجاء معهم المصريون: ابن السوداء وخالد بن ملجم وتشاوروا، فقالوا: ما الرأي؟ وهذا والله علي، وهو أبصر الناس بكتاب الله وأقرب ممن يطلب قتلة عثمان وأقربهم إلى العمل بذلك، وهو يقول ما يقول، ولم ينفر إليه إلا هم والقليل من غيرهم، فكيف به إذا شام القوم وشاموه، وإذا رأوا قتلنا في كثرتهم! أنتم والله ترادون، وما أنتم بأنجي من شيء. فقال الأشتر: أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهما، وأما علي فلم نعرف أمره حتى كان اليوم، ورأي الناس فينا والله واحد، وإن يصطلحوا وعلي فعلى دماثنا؛ فهلّموا فلتتواثب على علي فنلحقه بعثمان؛ فتعود فتنة يرضى منا فيها بالسكون.

فقال عبدالله بن السوداء: بشس الرأي رأيت! أنتم يا قتلة عثمان من أهل الكوفة بذي قار ألفان وخمسمائة أو نحو من ستمائة، وهذا ابن الحظلية وأصحابه في خمسة آلاف بالأشواق إلى أن يجدوا إلى قتالكم سبيلاً، فارقاً على ظلمك.

وقال علباء بن الهيثم: انصرفوا بنا عنهم ودعوهم، فإن قلوباً كان أقوى لعدوهم عليهم، وإن كثروا كان أخرى أن يصطلحوا عليكم؛ دعوهم وارجعوا فتعلقوا ببلد من البلدان حتى يأتيكم فيه من تتقون به، وأمتنعوا من الناس. فقال ابن السوداء: بشس ما رأيت! ود والله الناس أنكم على جديلة، ولم تكونوا مع أقوام براء، ولو كان ذلك الذي تقول لتخطفكم كل شيء. فقال عدي بن حاتم: والله ما رضى ولا كرهت، ولقد عجبت من تردد من تردد عن قتله في خوض الحديث، فأما إذ وقع ما وقع ونزل من الناس بهذه المنزلة، فإن لنا اعتداً من خيول وسلاح محموداً، فإن أقدمتم أقدمنا وإن أمسكتكم أحجمنا. فقال ابن السوداء: أحسنت!

وقال سالم بن ثعلبة: من كان أراد بما أتى الدنيا فإني لم أريد ذلك، والله لئن لقيتهم غداً لا أرجع إلى بيتي، ولئن طال بقائي إذا أنا لقيتهم لا يزد على جزر جزور. وأحلف بالله إنكم لتفرقون السيوف فرق قوم لا تصير أمورهم إلا إلى السيف. فقال ابن السوداء: قد قال قولاً.

وقال شريح بن أوفى: أبرموا أمورك قبل أن تخرجوا، ولا تؤخروا أمراً ينبغي لكم تعجيله؛ ولا تعجلوا

أمرًا ينبغي لكم تأخير؛ فإننا عند الناس بشر المنازل، فلا أدري ما الناس صانعون غداً إذا ما هم التقوا!
وتكلم ابن السوداء فقال: يا قوم، إن عزكم في خلطة الناس، فصانعوهم، وإذا التقى الناس غداً
فأنشوا القتال، ولا تفرغوهم للنظر، فإذا من أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع؛ ويشغل الله علياً وطلحة والزبير
ومن رأى رأيهم عما تكرهون. فأبصروا الرأي، وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون.

وأصبح عليّ على ظهر، فمضى ومضى الناس حتى إذا انتهى إلى عبد القيس نزل بهم وبمن خرج من أهل
الكوفة وهم أمام ذلك، ثم ارتحل حتى نزل على أهل الكوفة وهو أمام ذلك، والناس متلاحقون به وقد قطعهم،
ولما بلغ أهل البصرة رأيهم ونزل عليّ بحيث نزل، قام أبو الجرباء إلى الزبير بن العوام فقال: إن الرأي أن تبعث
الآن ألف فارس فيمسوا هذا الرجل ويصبحوه قبل أن يوافي أصحابه؛ فقال الزبير: يا أبا الجرباء، إنا لنعرف
أمر الحرب؛ ولكنهم أهل دعوتنا؛ وهذا أمر حدث في أشياء لم تكن قبل اليوم، هذا أمر من لم يلق الله عز وجل
فيه بعذر انقطع عذره يوم القيامة؛ ومع ذلك إنه قد فارقنا وافدوهم على أمر، وأنا أرجو أن يتم لنا الصلح؛
فأبشروا واصبروا. وأقبل صبرة بن شيمان فقال: يا طلحة، يا زبير، انتهزنا بنا هذا الرجل فإن الرأي في الحرب
خير من الشدة. فقالا: يا صبرة إنا وهم مسلمون، وهذا أمر لم يكن قبل اليوم فينزل فيه قرآن، أو يكون فيه من
رسول الله ﷺ سنة، إنما هو حدث. وقد زعم قوم أنه لا ينبغي تحريكه اليوم. وهم عليّ ومن معه، فقلنا: نحن
لا ينبغي لنا أن نتركه اليوم ولا نؤخره. فقال عليّ: هذا الذي ندعوكم إليه من إقرار هؤلاء القوم شرّ وهو خير من
شرّ منه، وهو كأم لا يدرك، وقد كاد أن يبين لنا، وقد جاءت الأحكام بين المسلمين بإيثار أعمها منفعة
وأحوطها. وأقبل كعب بن سور فقال: ما تنتظرون يا قوم بعد تورّدكم أوائلهم! اقطعوا هذا العنق من هؤلاء.
فقالوا: يا كعب، إن هذا أمر بيننا وبين إخواننا، وهو أمر ملتبس، لا والله ما أخذ أصحاب محمد ﷺ مذ بعث
الله عز وجل نبيه طريقاً إلا علموا أين مواقع أقدامهم؛ حتى حدث هذا فإنهم لا يدرون أمقبلون هم أم
مدبرون! إن الشيء يحسن عندنا اليوم ويقبح عند إخواننا؛ فإذا كان من الغد قبح عندنا وحسن عندهم؛ وإنا
لنحتج عليهم بالحجة فلا يرونها حجة، ثم يحتجون بها على أمثالها، ونحن نرجو الصلح إن أجابوا إليه وتموا،
وإلا فإن آخر الدواء الكي.

وقام إلى عليّ بن أبي طالب أقوام من أهل الكوفة يسألونه عن إقدامهم على القوم، فقام إليه فيمن قام
الأعور بن بُنان المنقري؛ فقال له عليّ: على الإصلاح وإطفاء النائرة، لعل الله يجمع شمل هذه الأمة بنا ويضع
حرّهم؛ وقد أجابوني، قال: فإن لم يجيبونا؟ قال: تركناهم ما تركونا، قال: فإن لم يتركونا؟ قال: دفعناهم عن
أنفسنا، قال: فهل لهم مثل ما عليهم من هذا؟ قال: نعم.

وقام إليه أبو سلامة الدألاني فقال: أترى هؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم، إن كانوا أرادوا الله
عز وجلّ بذلك؟ قال: نعم، قال: فترى لك حجة بتأخيرك ذلك؟ قال: نعم، إن الشيء إذا كان لا يدرك
فالحكم فيه أحوطه وأعمه نفعاً، قال: فما حالنا وحالكم إن ابتلينا غداً؟ قال: إنّي لأرجو ألا يقتل أحد نقي قلبه
لله منا ومنهم إلا أدخله الله الجنة.

وقام إليه مالك بن حبيب، فقال: ما أنت صانع إذا لقيت هؤلاء القوم؟ قال: قد بان لنا ولهم أن

الإصلاح الكف عن هذا الأمر، فإن بايعونا فذلك، فإن أبوا وأبينا إلا القتال فصَدُّعْ لا يلتئم؛ قال: فإن ابتلينا فما بال قتلنا؟ قال: من أراد الله عز وجل نفعه ذلك وكان نجاهه.

وقام عليّ، فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس، املكوا أنفسكم، كفوا أيديكم وألستكم عن هؤلاء القوم، فإنهم إخوانكم، واصبروا على ما يأتاكم، وإياكم أن تسبقونا فإن المخصوم غداً من خصم اليوم.

ثم ارتحل وأقدم ودفع تعبته التي قدم فيها حتى إذا أطل على القوم بعث إليهم حكيم بن سلامة ومالك بن حبيب: إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا وأقرونا ننزل وننظر في هذا الأمر.

فخرج إليه الأحنف بن قيس وبنو سعد مشمرين؛ قد منعوا حرقوص بن زهير، ولا يرون القتال مع عليّ بن أبي طالب. فقال: يا عليّ، إن قومنا بالبصرة يزعمون أنك إن ظهرت عليهم غداً أنك تقتل رجالهم وتسبي نساءهم. فقال: ما مثلي يخاف هذا منه، وهل يحل هذا إلا ممن تولى وكفر، ألم تسمع إلى قول الله عز وجل: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ إلا ممن تولى وكفر^(١)، وهم قوم مسلمون! هل أنت مُغن عني قومك؟ قال: نعم، واختر مني واحدة من ثنتين، إما أن أكون آتيك فأكون معك بنفسي، وإما أن أكف عنك عشرة آلاف سيف. فرجع إلى الناس فدعاهم إلى القعود وقد بدأ فقال: يال خندف، فأجابه ناس، ثم نادى يال تميم! فأجابه ناس، ثم نادى: يال سعد؛ فلم يبق سعدى إلا أجابه، فاعتزل بهم، ثم نظر ما يصنع الناس، فلما وقع القتال وظفر عليّ جاؤوا وافرین، فدخلوا فيما دخل فيه الناس.

وأما الذي يرويه المحدثون من أمر الأحنف، فغير ما رواه سيف عمن ذكر من شيوخه. والذي يرويه المحدثون من ذلك ما حدثني يعقوب بن إبراهيم، قال: حدثنا ابن إدريس، قال: سمعت حصيناً يذكر عن عمرو بن جأوان، عن الأحنف بن قيس، قال: قدمنا المدينة ونحن نريد الحج، فإنا لبمنازلنا نضع رحالنا إذ أتانا آت فقال: قد فرعوا وقد اجتمعوا في المسجد، فانطلقنا فإذا الناس مجتمعون على نفر في وسط المسجد، وإذا عليّ والزبير وطلحة وسعد بن أبي وقاص، وإنا لكذلك إذ جاء عثمان بن عفان؛ فقبل: هذا عثمان قد جاء وعليه ثلثة له صفراء قد قنع بها رأسه، فقال: أهاهنا علي؟ قالوا: نعم، قال: أهاهنا الزبير؟ قالوا: نعم، قال: أهاهنا طلحة؟ قالوا: نعم، قال أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو؛ أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: من يتبع مريد بني فلان غفر الله له؛ فابتعته بعشرين أو بخمسة وعشرين ألفاً، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، قد ابتعته، قال: «اجعله في مسجدنا وأجره لك»! قالوا: اللهم نعم، وذكر أشياء من هذا النوع. قال الأحنف: فلقيت طلحة والزبير فقلت: من تأمراني به وترضيانه لي؟ فإني لا أرى هذا الرجل إلا مقتولاً، قالوا: علي؟ قلت: تأمراني به وترضيانه لي؟ قالوا: نعم، فانطلقت حتى قديمت مكة، فبينما نحن بها إذ أتانا قتل عثمان رضي الله عنه وبها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، فلقيتها فقلت: من تأمريني أن أبايع؟ قالت: علي، قلت: تأمريني به وترضيانه لي؟ قالت: نعم؛ فمررت على عليّ بالمدينة فبايعته، ثم رجعت إلى أهلي بالبصرة ولا أرى الأمر إلا قد

استقام، قال: فبينما أنا كذلك؛ إذ آتاني آتٍ فقال: هذه عائشة وطلحة والزبير قد نزلوا جانب الخريفة، فقلت: ما جاء بهم؟ قالوا: أرسلوا إليك يدعونك يستنصرون بك على دم عثمان رضي الله عنه، فأتاني أفضح أمر أتاني قطاً فقلت: إنَّ جَدَلاني هؤلاء ومعهم أم المؤمنين وحواري رسول الله ﷺ لشديد، وإنَّ قتالي رجلاً ابن عم رسول الله ﷺ قد أَمروني ببيعته لشديد. فلما أتيتهم قالوا: جئنا لنستنصر على دم عثمان رضي الله عنه، قُتل مظلوماً؛ فقلت: يا أم المؤمنين، أنشدك بالله أقلتُ لك: مَنْ تأمريني به؟ فقلت: علي؟ فقلت: تأمريني به وترضيته لي؟ قلت نعم! قالت: نعم، ولكنه بدل. فقلت: يا زُبَيْر يا حواري رسول الله ﷺ، يا طلحة، أنشدكما الله، أقلتُ لكما: ما تأمراني فقلتما: علي؟ فقلت: أتأمراني به وترضيانه لي؟ فقلتما نعم! قالوا: نعم، ولكنه بدل، فقلت: والله لا أقاتلكم ومعكم أم المؤمنين وحواري رسول الله ﷺ ولا أقاتل رجلاً ابن عم رسول الله ﷺ، أرموني ببيعته؛ اختاروا مني واحدةً من ثلاث خصال: إما أن تفتحوا لي الجسر فألحق بأرض الأعاجم حتى يقضي الله عز وجل من أمره ما قضى، أو ألحق بمكة فأكون فيها حتى يقضي الله عز وجل من أمره ما قضى، أو أعتزل فأكون قريباً. قالوا: إنا نأتمر، ثم نرسل إليك. فاثمروا فقالوا: نفتح له الجسر ونخبرهم بأخباركم! ليس ذاكم برأي، اجعلوه ها هنا قريباً حيث تطئون على صماخه وتنظرون إليه. فاعتزل بالجلحاء من البصرة على فرسخين، فاعتزل معه زهاءً على ستة آلاف.

ثم التقى القوم فكان أول قتيل طلحة رضي الله عنه، وكعب بن سور معه المصحف يذكر هؤلاء وهؤلاء؛ حتى قتل مَنْ قتل منهم، ولحق الزبير بسفوان، من البصرة كمكان القادسية منكم، فلقية النُعر؛ رجل من مجاشع، فقال: أين تذهب يا حواري رسول الله ﷺ؟ إلى فأنْت في ذمتي لا يوصل إليك؛ فأقبل معه؛ فأتى الأحنف خبره فقبيل: ذاك الزبير قد لقي بسفوان فما تأمر؟ قال: جمع بين المسلمين حتى ضرب بعضهم حواجب بعض بالسيوف ثم يلحق ببيته، فسمعه عمير بن جرموز وفضالة بن حابس، ونُفيع؛ فركبوا في طلبه، فلقوه مع النُعر، فأتاه عمير بن جرموز من خلفه وهو على فرس له ضعيفة، فطعنه طعنة خفيفة، وحمل عليه الزبير وهو على فرس له يقال له ذو الحمار، حتى إذا ظنَّ أنه قاتله نادى عمير بن جرموز: يا نافع، يا فضالة، فحملوا عليه فقتلوه.

حدثني يعقوب بن إبراهيم، قال: معتمر بن سليمان، قال: نبأني أبي، عن حصين، قال: حدثنا عمرو بن جأوان؛ رجل من بني تميم، وذلك أني قلت له: رأيت اعتزال الأحنف ما كان؟ فقال: سمعت الأحنف يقول: أتيت المدينة وأنا حاج؛ فذكر نحوه. الحمد لله على ما قضى وحكم.

بعثة علي بن أبي طالب من ذي قار ابنه الحسن
وعُمَار بن ياسر ليستنصروا له أهل الكوفة

حدثني عمر بن شبة، قال: حدثنا أبو الحسن، قال: حدثنا بشير بن عاصم، عن ابن أبي ليلى، عن أبيه، قال: خرج هاشم بن عتبة إلى علي بالربذة؛ فأخبره بقُدوم محمد بن أبي بكر وقول أبي موسى، فقال: لقد أردتُ عزله، وسألني الأشر أن أقره فردَّ عليّ هاشماً إلى الكوفة وكتب إلى أبي موسى: إني وجهت هاشم بن عتبة لينهض مَنْ قبلك من المسلمين إليّ، فأشخص الناس فإني لم أولئك الذي أنت به إلا لتكون من أعواني على الحق.

فدعا أبو موسى السائب بن مالك الأشعري، فقال له: ما ترى؟ قال: أرى أن تتبع ما كتب به إليك، قال: لكني لا أرى ذلك. فكتب هاشم إلى علي: إني قد قدمتُ على رجلٍ غالٍ مشاقٍّ ظاهر الغلِّ والشَّان. وبعث بالكتاب مع المحلِّ بن خليفة الطائي. فبعث عليّ الحسن بن عليّ وعمّار بن ياسر يستنفران له الناس، وبعث قُرظة بن كعب الأنصاريّ أميراً على الكوفة، وكتب معه: إلى أبي موسى: أما بعد، فقد كنت أرى أن بعدك من هذا الأمر الذي لم يجعل الله عزّ وجلّ لك منه نصيباً سيمنعك من ردّ أمري، وقد بعثتُ الحسن بن عليّ وعمّار بن ياسر يستنفران الناس، وبعثتُ قُرظة بن كعب والياً على مصر، فاعتزل عمَلنا مذموماً مدحوراً، فإن لم تفعل فإنّي قد أمرته أن يناديك، فإن نابدته فظفر بك أن يقطّعتك آراباً.

فلما قدِم الكتابُ على أبي موسى اعتزل، ودخل الحسن وعمار المسجد فقالا: أيّها الناس، إنّ أمير المؤمنين يقول: إني خرجتُ مخرجي هذا ظالماً أو مظلوماً؛ وإني أذكر الله عزّ وجلّ رجلاً رعى الله حقّاً إلا نفر، فإن كنتُ مظلوماً أعانني، وإن كنت ظالماً أخذ مني، والله إنّ طلحة والزبير لأوّل من بايعني، وأوّل من غدر، فهل استأثرتُ بمال، أو بدلتُ حكماً! فانفروا، فمروا بمعروف وانفروا عن منكر.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا أبو مخنف، عن جابر، عن الشعبي، عن أبي الطُّفَيْل، قال: قال عليّ: يأتاكم من الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجل، فقعدت على نَجْفَةِ ذي قار، فأحصيتهم فما زادوا رجلاً، ولا نقصوا رجلاً.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن بشير بن عاصم، عن ابن أبي ليلى، عن أبيه، قال: خرج إلى عليّ اثنا عشر ألف رجل، وهم أسباع على قريش وكنانة وأسَد وقيم والرَّباب ومُزينة معقل بن يسار الرِّياحيّ، وسُبُع قيس عليهم سعد بن مسعود الثقفيّ، وسُبُع بكر بن وائل وتغلب عليهم وعُلة بن مخدوج الدّهليّ، وسُبُع مَذْحِج والأشعريّ عليهم حُجر بن عديّ، وسُبُع بجيلة وأنمار وخثعم والأزد عليهم مخنف بن سُليم الأزديّ.

نزول عليّ الزاوية من البصرة

حدّثني عمر بن شُبّة، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن مسلمة بن محارب، عن قتادة، قال: نزل عليّ الزاوية وأقام أياماً، فأرسل إليه الأحنف: إن شئت أتيتك، وإن شئت كففتُ عنك أربعة آلاف سيف، فأرسل إليه عليّ: كيف بما أعطيت أصحابك من الاعتزال! قال: إنّ من الوفاء لله عزّ وجلّ قتالهم، فأرسل إليه: كفّ من قدرت على كفّه. ثم سار عليّ من الزاوية، وسار طلحة والزبير وعائشة من الفُرْصَةِ، فالتقوا عند موضع قصر عُبيد الله - أو عبد الله - بن زياد، فلما نزل الناس أرسل شقيق بن ثور إلى عمرو بن مرحوم العبديّ: أن اخرج، فإذا خرجت فمِلْ بنا إلى عسكر عليّ. فخرجوا في عبد القيس وبكر بن وائل، فعدّلوا إلى عسكر أمير المؤمنين، فقال الناس: مَنْ كان هؤلاء معه غلب، ودفع شقيق بن ثور رايتهم إلى مولى له يقال له: رَشْرَاشَة، فأرسل إليه وعُلة بن مخدوج الدّهليّ: ضاعت الأحساب، دفعت مكرمة قومك إلى رَشْرَاشَة، فأرسل شقيق: أن أغني شأنك؛ فإننا نغني شأننا. فأقاموا ثلاثة أيام لم يكن بينهم قتال، يرسل إليهم عليّ، ويكلّمهم ويردّعهم.

حدّثنا عمر، قال: حدّثنا أبو بكر الهذليّ، عن قتادة، قال: سار عليّ من الزاوية يريد طلحة والزبير

وعائشة، وساروا من القرصة يريدون علياً، فالتقوا عند موضع قصر عُبيد الله بن زياد في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين يوم الخميس، فلما تراءى الجمعان خرج الزبير على فرس عليه سلاح، فقيل لعلي: هذا الزبير؛ قال: أما إنه أحرى الرجلين إن دُكر بالله أن يذكره، وخرج طلحة، فخرج إليهما علي، فدنا منهما حتى اختلفت أعناق دوابهم، فقال علي: لعمري لقد أعددتُما سلاحاً وخيلاً ورجالاً، إن كنتما أعددتُما عند الله عذراً فاتقيا الله سبحانه، ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً. ألم أكن أخاكم في دينكما، تحرمان دمي وأحرمت دماءكما! فهل من حدث أحل لكما دمي؟ قال: طلحة: ألبت الناس على عثمان رضي الله عنه، قال علي: ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (١)؛ يا طلحة، تطلب بدم عثمان رضي الله عنه! فلعن الله قتلة عثمان. يا زبير، أتذكر يوم مرت مع رسول الله ﷺ في بني غنم، فنظر إلي فضحك وضحكت إليه، فقلت: لا يدع ابن أبي طالب زهوهُ، فقال لك رسول الله ﷺ: «صه، إنه ليس به زهو، ولتقاتلنه وأنت له ظالم؟» فقال: اللهم نعم، ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا، والله لا أقاتلك أبداً.

فانصرف علي إلى أصحابه، فقال: أما الزبير فقد أعطى الله عهداً ألا يقاتلكم، ورجع الزبير إلى عائشة فقال لها: ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمري غير موطني هذا، قالت: فما تريد أن تصنع؟ قال: أريد أن أدعهم وأذهب؛ فقال له ابنه عبدالله: جمعت بين هذين الغارين، حتى إذا حدد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم وتذهب! أحسست رايات ابن أبي طالب، وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد؛ قال: إني قد حلفت ألا أقاتله، وأحفظه ما قال له، فقال: كفر عن يمينك، وقاتله، فدعا بغلام له يقال له مكحول، فأعتقه، فقال عبد الرحمن بن سليمان التيمي:

لَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ أَخَا إِخْوَانٍ أَعْجَبُ مِنْ مُكَفِّرِ الْإِيمَانِ
بِالْعِتْقِ فِي مَعْصِيَةِ الرَّحْمَنِ

وقال رجل من شعرائهم:

يُعْتِقُ مَكْحُولًا لَصَوْنِ دِينِهِ كَفَّارَةً لَّهِ عَنْ يَمِينِهِ
وَالنَّكَثُ قَدْ لَاحَ عَلَى جَبِينِهِ

رجع الحديث إلى حديث سيف عن محمد وطلحة: فأرسل عمران بن حصين في الناس يخذل من الفريقين جميعاً، كما صنع الأحنف، وأرسل إلى بني عدي فيمن أرسل، فأقبل رسوله حتى نادى على باب مسجدهم: ألا إن أبا نُجَيْدَ عمران بن الحصين يقرئكم السلام، ويقول لكم: والله لأن أكون في جبل خضن مع أعتر خضر وضأن، أجزأ أصوافها، وأشرب ألبانها، أحب إلي من أن أرمي في شيء من هذين الصفين بسهم، فقالت بنو عدي جميعاً بصوت واحد: إنا والله لا ندع ثقل رسول الله ﷺ لشيء - يعنون أم المؤمنين.

حدثنا عمرو بن علي، قال: حدثنا يزيد بن زريع، قال: حدثنا أبو نعيمة العدوي، عن حجير بن الربيع، قال: قال لي عمران بن حصين: سر إلى قومك أجمع ما يكونون، فقم فيهم قائماً، فقل: أرسلني إليكم

عمران بن حصين صاحب رسول الله ﷺ، يقرأ عليكم السلام ورحمة الله، ويحلف بالله الذي لا إله إلا هو، لأن يكون عبداً حبشياً مجدداً يرعى أعزاً حضنيّاتٍ في رأس جبل حتى يدركه الموت، أحب إليّ من أن يرمي بسهم واحد بين الفريقين؛ قال: فرفع شيوخ الحيّ رؤوسهم إليه، فقالوا: إنا لا ندع ثقل رسول الله ﷺ لشيء أبداً.

رجع الحديث إلى حديث سيف عن محمد وطلحة: وأهل البصرة فرّق: فرقة مع طلحة والزبير، وفرقة مع عليّ، وفرقة لا ترى القتال مع أحد من الفريقين، وجاءت عائشة رضي الله عنها من منزلها الذي كانت فيه حتى نزلت في مسجد الحُذان في الأزْد، وكان القتال في ساحتهم، ورأس الأزْد يومئذ صبرة بن شيمان، فقال له كعب بن سور: إنّ الجموع إذا تراءوا لم تستطع، وإنما هي بحور تدفق، فأطعني ولا تشهدهم، واعتزل بقومك، فإني أخاف ألا يكون صلح، وكن وراء هذه النطفة، ودع هذين الخوذين من مُضَر وربيعة، فهما أخوان، فإن اصطلحا فالصلح ما أردنا، وإن اقتتلا كنا حكماً عليهم غداً. وكان كعب في الجاهليّة نصرانياً. فقال صبرة: أخشى أن يكون فيك شيء من النصرانيّة؛ أنا مرنى أن أغيب عن إصلاح بين الناس، وأن أخذل أم المؤمنين وطلحة والزبير إن ردوا عليهم الصلح، وأدع الطلب بدم عثمان! لا والله لا أفعل ذلك أبداً، فأطبق أهل اليمن على الحضور.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الضريس البجليّ، عن ابن يعمر، قال: لما رجع الأحنف بن قيس من عند عليّ لقيه هلال بن وكيع بن مالك بن عمرو، فقال: ما رأيك؟ قال: الاعتزال، فما رأيك؟ قال: مكانفة أم المؤمنين، أفتدعنا وأنت سيدنا! قال: إنما أكون سيّدكم غداً إذا قُتِلت وبقيت؛ فقال هلال: هذا وأنت شيخنا! فقال: أنا الشيخ المعصيّ، وأنت الشاب المطاع. فاتّبع بنو سعد الأحنف، فاعتزل بهم إلى وادي السباع، واتّبع بنو حنظلة هلالاً، وتابعت بنو عمرو أبا الجرباء فقاتلوا.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد، عن أبي عثمان، قال: لما أقبل الأحنف نادى: يا لآذ، اعتزلوا هذا الأمر، وولّوا هذين الفريقين كيّسه وعجزه، فقام المنجاب بن راشد فقال: يالّ الرباب! لا تعتزلوا، واشهدوا هذا الأمر، وتولّوا كيّسه، ففارقوا. فلما قال: يالّ تميم؛ اعتزلوا هذا الأمر وولّوا هذين الفريقين كيّسه وعجزه، قام أبو الجرباء - وهو من بني عثمان بن مالك بن عمرو بن تميم - فقال: يالّ عمرو، لا تعتزلوا هذا الأمر وتولّوا كيّسه. فكان أبو الجرباء على بني عمرو بن تميم، والمنجاب بن راشد على بني ضبة، فلما قال: يالّ زيد مناة، اعتزلوا هذا الأمر، وولّوا هذين الفريقين كيّسه وعجزه قال هلال بن وكيع: لا تعتزلوا هذا الأمر؛ ونادى: يالّ حنظلة تولّوا كيّسه؛ فكان هلال على حنظلة، وطاوعت سعد الأحنف، واعتزلوا إلى وادي السباع.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: كان على هوازن وعلى بني سليم الأعجاز مجاشع بن مسعود السلميّ، وعلى عامر زفر بن الحارث، وعلى غطفان أعصر بن النعمان الباهليّ، وعلى بكر بن وائل مالك بن مسمع، واعتزلت عبد القيس إلى عليّ إلّا رجلاً فإنه أقام، ومن بكر بن وائل قُيَّام، واعتزل منهم مثل من بقي منهم، عليهم سينان، وكانت الأزْد على ثلاثة رؤساء: صبرة بن شيمان، ومسعود،

وزياد بن عمرو، والشواذب عليهم رجلاان: على مضر الحريّ بن راشد، وعلى قضاعة والتوابع الرعيّ الجرميّ - وهو لقب - وعلى سائر اليمن ذو الآجرة الحميريّ.

فخرج طلحة والزبير فنزلا بالناس من الزابوقة، في موضع قرية الأرزاق، فنزلت مضر جميعاً وهم لا يشكّون في الصلح، ونزلت ربيعة فوقهم جميعاً وهم لا يشكّون في الصلح، ونزلت اليمن جميعاً أسفل منهم، وهم لا يشكّون في الصلح، وعائشة في الحذّان، والناس في الزابوقة، على رؤسائهم هؤلاء وهم ثلاثون ألفاً، وردّوا حكيماً ومالكاً إلى عليّ؛ بأنّا على ما فارقنا عليه القعقاع فاقدم. فخرجنا حتى قدما عليه بذلك، فارتحل حتى نزل عليهم بحياهم، فنزلت القبائل إلى قبائلهم؛ مضر إلى مضر، وربيعه إلى ربيعة، واليمن إلى اليمن، وهم لا يشكّون في الصلح، فكان بعضهم بحيال بعض، وبعضهم يخرج إلى بعض، ولا يذكرون ولا ينوون إلّا الصلح، وخرج أمير المؤمنين فيمن معه، وهم عشرون ألفاً، وأهل الكوفة على رؤسائهم الذين قدموا معهم ذا قار، وعبد القيس على ثلاثة رؤساء: جذيمة وبكر على ابن الجارود، والعمور على عبد الله بن السوداء، وأهل هجر على ابن الأشج، وبكر بن وائل من أهل البصرة على ابن الحارث بن نهار، وعلى دنور بن عليّ الزط والسيابجة، وقدم عليّ ذا قار في عشرة آلاف، وانضمّ إليه عشرة آلاف.

حدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن بشير بن عاصم، عن فطر بن خليفة، عن منذر الثوريّ، عن محمد بن الحنفية، قال: أقبلنا من المدينة بسبعمئة رجل، وخرج إلينا من الكوفة سبعة آلاف، وانضمّ إلينا من حولنا ألفان، أكثرهم بكر بن وائل، ويقال: ستة آلاف.

رجع الحديث إلى حديث محمد وطلحة: قالوا: فلما نزل الناس واطمأنوا، خرج عليّ وخرج طلحة والزبير، فتواقفوا، وتكلموا فيما اختلفوا فيه، فلم يجدوا أمراً هو أمثل من الصلح ووضع الحرب حين رأوا الأمر قد أخذ في الانقشاع، وأنه لا يدرك، فافترقوا عن موقفهم على ذلك، ورجع عليّ إلى عسكره، وطلحة والزبير إلى عسكرهما.

أمر القتال

وكتب إلى السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: وبعث عليّ من العشيّ عبد الله بن عباس إلى طلحة والزبير، وبعثاهما من العشيّ محمد بن طلحة إلى عليّ، وأن يكلم كل واحد منهما أصحابه، فقالوا: نعم، فلما أمسوا - وذلك في جمادى الآخرة - أرسل طلحة والزبير إلى رؤساء أصحابهما، وأرسل عليّ إلى رؤساء أصحابه، ما خلا أولئك الذين هضّوا عثمان، فباتوا على الصلح، وباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية من الذي أشرفوا عليه، والنزوع عمّا انتهى الذين اشتبهوا، وركبوا ما ركبوا، وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشرّ ليلة باتوها قطّ، قد أشرفوا على الهلكة، وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلّها، حتى اجتمعوا على إنشاد الحرب في السرّ، واستسروا بذلك خشية أن يفطن بما حاولوا من الشرّ، فغدّوا مع الغلس، وما يشعّربهم جيرانهم، انسلّوا إلى ذلك الأمر انسلا، وعليهم ظلمة، فخرج مضربهم إلى مضربهم، وربّعهم إلى ربّعهم، وبمانيهم إلى بمانيهم، فوضّعوا فيهم السلاح، فثار أهل البصرة، وثار كلّ قوم في وجوه أصحابهم الذين بهتوهم. وخرج الزبير

وطلحة في وجوه الناس من مضر فبعثنا إلى الميمنة، وهم ربيعة يعبثها عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وإلى الميسرة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، وثبتا في القلب، فقال: ما هذا؟ قالوا: طرقتنا أهل الكوفة ليلاً، فقالوا: قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء، ويستحل الحرم، وأنه لن يطاوعنا، ثم رجعا بأهل البصرة، وقصفا أهل البصرة، أولئك حتى ردوهم إلى عسكرهم، فسمع علي وأهل الكوفة الصوت، وقد وضعوا رجلاً قريباً من علي ليخبره بما يريدون، فلما قال: ما هذا؟ قال: ذاك الرجل ما فاجأنا إلا وقوم منهم بيتونا، فرددناهم من حيث جاؤوا، فوجدنا القوم على رجل فركبونا، وثار الناس، وقال علي لصاحب ميمنته: ائت الميمنة، وقال لصاحب ميسرته: ائت الميسرة، ولقد علمت أن طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفكا الدماء، ويستحلا الحرم، وأنها لن يطاوعانا، والسببية لا تفتّر إنشأباً. ونادى علي في الناس: أيها الناس، كفوا فلا شيء، فكان من رأيهم جميعاً في تلك الفتنة ألا يقتتلوا حتى يُبدؤوا؛ يطلبون بذلك الحجة، ويستحقون على الآخرين، ولا يقتلوا مدبراً، ولا يُجهزوا على جريح، ولا يُتبعوا. فكان مما اجتمع عليه الفريقان ونادوا فيها بينهما.

كتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة وأبي عمرو، قالوا: وأقبل كعب بن سور حتى أتى عائشة رضي الله عنها، فقال: أدركي فقد أبى القوم إلا القتال، لعل الله يصلح بك. فركبت، وألبسوا هودجها الأذراع، ثم بعثوا جملها، وكان جملها يدعى عسكراً، حملها عليه يعلى بن أمية، اشتراه بمائتي دينار، فلما برزت من البيوت - وكانت بحيث تسمع الغوغاء - وقفت، فلم تلبث أن سمعت غوغاء شديدة، فقالت: ما هذا؟ قالوا: ضجة العسكر؛ قالت: بخير أو بشر؟ قالوا: بشر. قالت: فأني الفريقين كانت منهم هذه الضجة فهم المهزومون. وهي واقفة، فوالله ما فجأها إلا الهزيمة، فمضى الزبير من سننه في وجهه، فسلك وادي السباع، وجاء طلحة سَهْمَ غَرْبٍ يُحَلُّ ركبته بصفحة الفرس، فلما امتلأ مَوْزَجُه دماً وثقل قال لغلامه: أردني وأمسكني، وابغني مكاناً أنزل فيه، فدخل البصرة وهو يتمثل مثله ومثل الزبير:

فإن تكن الحوادثُ أَفْصَدَتْنِي	وَأَخْطَأُهُنَّ سَهْمِي حِينَ أَرْمِي
فقد ضَيَّعْتُ حِينَ تَبِعْتُ سَهْمًا	سَفَاهًا مَا سَفِهْتُ وَضَلُّ جِلْمِي
نَدِمْتُ نَدَامَةَ الْكُسْعِيِّ لَمَّا	شَرَيْتُ رِضًا بَنِي سَهْمٍ بِرَغْمِي
أَطَعْتُهُمْ بِفُرْقَةِ آلِ لَآئِي	فَأَلَقُوا لِلْسَّبَاعِ دَمِي وَلَحْمِي

خبر وقعة الجمل من رواية أخرى

قال أبو جعفر: وأما غير سيف فإنه ذكر من خبر هذه الوقعة وأمر الزبير وانصرافه عن الموقف الذي كان فيه ذلك اليوم غير الذي ذكر سيف عن صاحبيه، والذي ذكر من ذلك بعضهم ما حدّثني أحمد بن زهير، قال: حدّثنا أبي أبو خيثمة، قال: حدثنا وهب بن جرير بن حازم، قال: سمعتُ أبي قال: سمعتُ يونس بن يزيد الأيلي، عن الزهري، في قصة ذكرها من خبر علي وطلحة والزبير وعائشة في مسيرهم الذي نحن في ذكره في هذا الموضع. قال: وبلغ الخبرُ علياً - يعني خبر السبعين الذين قُتلوا مع العبدية بالبصرة - فأقبل - يعني علياً - في اثني عشر ألفاً، فقدم البصرة، وجعل يقول:

يَالْهَفَ نَفْسِي عَلَى رَبِيعَةَ رَبِيعَةَ السَّامِعَةَ الْمُطِيعَةَ
سُتُّهَا كَانَتْ بِهَا الْوَقِيعَةُ

فلما توافقوا خرج عليّ على فرسه، فدعا الزبير، فتواقفا، فقال عليّ للزبير: ما جاء بك؟ قال: أنت، ولا أراك لهذا الأمر أهلاً، ولا أولى به منّا؛ فقال عليّ: لست له أهلاً بعد عثمان! قد كنا نعدّك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابْنُكَ ابْنُ السَّوءِ ففَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ؛ وَعَظَّمْ عَلَيْهِ أَشْيَاءَ، فَذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَيْهِمَا فَقَالَ لِعَلِيّ: «ما يقول ابن عمّتك؟ لِيُقَاتِلَنَّكَ وَهُوَ لَكَ ظَالِمٌ». فأنصرفت عنه الزبير، وقال: فإني لا أقاتلك. فرجع إلى ابنه عبد الله فقال: مالي في هذه الحرب بصيرة، فقال له ابنه: إنك قد خرجت على بصيرة، ولكنك رأيت رايات ابن أبي طالب، وعرفت أن تحتها الموت، فجبنت. فأحفظه حتى أُرعد وغضب، وقال: ويحك! إني قد حلفت له ألا أقاتله، فقال له ابنه: كفر عن يمينك بعتق غلامك سرجس، فأعتقه، وقام في الصفّ معهم، وكان عليّ قال للزبير: أتطلب مني دم عثمان وأنت قتلتَه! سلط الله على أشدنا عليه اليوم ما يكره. وقال عليّ: يا طلحة، جئت بعُرس رسول الله ﷺ تقاتل بها وخبأت عِرسك في البيت! أما بايعتني! قال: بايعتك وعلى عُنْقِي اللَّجْجَ، فقال عليّ لأصحابه: أيكم يعرض عليهم هذا المصحف وما فيه، فإن قطعت يده أخذه بيده الأخرى، وإن قطعت أخذه بأسنانه؟ قال فتى شاب: أنا، فطاف عليّ على أصحابه يعرض ذلك عليهم، فلم يقبله إلا ذلك الفتى، فقال له عليّ: اعرض عليهم هذا، وقل: هو بيننا وبينكم من أوله إلى آخره، والله في دماننا ودمائكم. فحُمِلَ على الفتى وفي يده المصحف، فقطعت يده، فأخذه بأسنانه حتى قُتِلَ، فقال عليّ: قد طاب لكم الضراب فقاتلوهم، فقتل يومئذ سبعون رجلاً، كلهم يأخذ بخطام الجمل، فلما عُقِرَ الجمل وهُزِمَ الناس، أصابت طلحة رمية فقتلته، فيزعمون أن مروان بن الحَكَمَ رماه، وقد كان ابن الزبير أخذ بخطام جمل عائشة، فقالت: من هذا؟ فأخبرها؛ فقالت: وأتكل أسماء! فُجِرِحَ، فألقى نفسه في الجُرْحَى، فاستخرج فبراً من جراحته، واحتمل محمد بن أبي بكر عائشة، فضرب عليها فسطاط، فوقف عليّ عليها فقال: استفزّت الناس وقد فزوا، فألبت بينهم، حتى قتل بعضهم بعضاً. . . في كلام كثير. فقالت عائشة: يا بن أبي طالب، ملكت فأسجج، نعم ما أبليت قومك اليوم! فسرحها عليّ، وأرسل معها جماعة من رجال ونساء، وجهزها، وأمر لها باثني عشر ألفاً من المال؛ فاستقل ذلك عبد الله بن جعفر، فأخرج لها مالا عظيماً، وقال: إن لم يُجْزِه أمير المؤمنين فهو عليّ. وقُتِلَ الزبير، فزعموا أن ابن جُرموز هو الذي قتله، وأنه وقف بباب أمير المؤمنين؛ فقال لحاجبه: استأذن لقاتل الزبير؛ فقال عليّ: ائذن له، وبشّره بالنار.

حدّثني محمد بن عُمارة، قال: حدّثنا عبيد الله بن موسى، قال: أخبرنا فضيل، عن سفيان بن عتبة، عن قرّة بن الحارث، عن جَوْنِ بن قتادة. قال قرّة بن الحارث: كنت مع الأحنف بن قيس، وكان جَوْنُ بن قتادة ابن عمّي مع الزبير بن العوام، فحدّثني جَوْنُ بن قتادة، قال: كنت مع الزبير رضي الله عنه، فجاء فارس يسير - وكانوا يسلمون على الزبير بالإمرة - فقال: السلام عليك أيها الأمير؛ قال: وعليك السلام؛ قال: هؤلاء القوم قد أتوا مكان كذا وكذا، فلم أرَ قوماً أرث سلاحاً، ولا أقلّ عدداً، ولا أرفع قلوباً من قوم أتوك، ثم أنصرفت عنه. قال: ثم جاء فارس فقال: السّلام عليك أيها الأمير، فقال وعليك السلام، قال: جاء القوم حتى أتوا مكان كذا وكذا، فسمعوا بما جمع الله عزّ وجلّ لكم من العدد والمُدَّةِ والحدّ، ففدّ الله في قلوبهم الرعب، فولّوا مدبرين؛ قال الزبير: إياها عنك الآن؛ فوالله لو لم يجد ابن أبي

طالب إلا العرفج لدبّ الينا فيه؛ ثم انصرف. ثم جاء فارس وقد كادت الخيول أن تخرج من الرَّهَج فقال: السلام عليك أيها الأمير، قال: وعليك السلام، قال: هؤلاء القوم قد أتوك، فلقيت عمّاراً فقلتُ له وقال لي؛ فقال الزبير: إنه ليس فيهم، فقال: بلى والله إنه لفيهم؛ قال: والله ما جعله الله فيهم، فقال: والله لقد جعله الله فيهم. قال: والله ما جعله الله فيهم؛ فلما رأى الرجل يخالفه قال لبعض أهله: اركب فانظر: أحقّ ما يقول! فركب معه، فانطلقا وأنا أنظر إليهما حتى وقفا في جانب الخيل قليلاً، ثم رجعا إلينا، فقال الزبير لصاحبه: ما عندك؟ قال: صدق الرجل؛ قال الزبير: يا جدّع أنفاه - أو يا قَطْع ظَهْرَاهُ؟ - قال محمد بن عُمارة: قال عبيد الله: قال فضيل: لا أدري أيّهما قال - ثم أخذه أفكّل، فجعل السلاح ينتفض، فقال جون: ثكلتني أمي، هذا الذي كنت أريد أن أموت معه، أو أعيش معه، والذي نفسي بيده ما أخذ هذا ما أرى إلاّ لشيء قد سمعه أو رآه من رسول الله ﷺ. فلما تشاغل الناس انصرف فجلس على دابته، ثم ذهب، فانصرف جون فجلس على دابته، فلحق بالأحنف، ثم جاء فارسان حتى أتيا الأحنف وأصحابه، فنزلا، فأتيا فأكبّا عليه، فنجياه ساعة، ثم انصرفا. ثم جاء عمرو بن جُرموز إلى الأحنف، فقال: أدركته في وادي السباع فقتلته، فكان يقول: والذي نفسي بيده إن صاحب الزبير الأحنف.

حدّثني عمر بن شبة، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا بشير بن عاصم، عن الحجاج بن أرطاة، عن عمار بن معاوية الدُّهني - حيّ من أحسن بَجيلة - قال: أخذ عليّ مصحفاً يوم الجمل، فطاف به في أصحابه، وقال: مَنْ يأخذ هذا المصحف، يدعوهم إلى ما فيه وهو مقتول؟ فقام إليه فتى من أهل الكوفة عليه قباء أبيض محشو، فقال: أنا، فأعرض عنه، ثم قال: مَنْ يأخذ هذا المصحف يدعوهم إلى ما فيه وهو مقتول؟ فقال الفتى: أنا، فأعرض عنه، ثم قال: مَنْ يأخذ هذا المصحف يدعوهم إلى ما فيه وهو مقتول؟ فقال الفتى: أنا؛ فدفعه إليه، فدعاهم فقطعوا يده اليمنى، فأخذه بيده اليسرى، فدعاهم فقطعوا يده اليسرى، فأخذه بصدّره والدماء تسيل على قباّته، فقتل رضي الله عنه، فقال عليّ: الآن حلّ قتالهم، فقالت أمّ الفتى بعد ذلك فيما تراثي:

لا هُمَّ إنَّ مُسْلِمًا دَعَاهُمُ يَتَلَوُ كِتَابَ اللَّهِ لَا يَخْشَاهُمُ
وَأُمُّهُمُ قَائِمَةٌ تَرَاهُمُ يَأْتُمِرُونَ الْغَيَّ لَا تَنْهَاهُمُ
قَدْ خُضِبَتْ مِنْ عَلِيٍّ لِحَاهُمُ

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا أبو مخنف، عن جابر، عن الشعبي، قال: حملت ميمنة أمير المؤمنين على ميسرة أهل البصرة، فاقتتلوا، ولأذ الناس بعائشة رضي الله عنها، أكثرهم ضَبّة والأزد، وكان قتالهم من ارتفاع النهار إلى قريب من العصر؛ ويقال: إلى أن زالت الشمس، ثم انهزموا، فنأدى رجل من الأزد: كروا، فضربه محمد بن عليّ فقطع يده، فنأدى: يا معشر الأزد فَرّوا، واستحَرَّ القتل بالأزد،

فنادوا: نحن على دين عليّ بن أبي طالب؛ فقال رجل من بني ليث بعد ذلك:

سائل بنا يَوْمَ لَقِينَا الْأَزْدَا وَالْخَيْلُ تَعْدُو أَشَقْرًا وَوَرْدَا
لَمَّا قَطَعْنَا كِبْدَهُمُ وَالزُّنْدَا سَحَقًا لَهُمْ فِي رَأْيِهِمْ وَبُعْدَا

حدّثني عمر بن شبة، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا جعفر بن سليمان، عن مالك بن دينار، قال: حمل عمّار على الزبير يوم الجمل، فجعل يحوزه بالرُمح، فقال: أتريد أن تقتلني؟ قال: لا، انصرف؛ وقال

عامر بن حفص: أقبل عماراً حتى حاز الزبير يومَ الجمل بالرمح، فقال: أنقتلني يا أبا اليَقْظان! قال: لا يا أبا عبد الله.

رجع الحديث إلى حديث سيف، عن محمد وطلحة: قالوا: ولما انهزم الناس في صدر النهار، نادى الزبير: أنا الزبير، هلموا إليّ أيها الناس، ومعه مولى له ينادي: أعن حواري رسول الله ﷺ تنهزمون! وانصرف الزبير نحو وادي السباع، وأتبعه فرسان، وتشاغل الناس عنه بالناس، فلما رأى الفرسان تتبعه عطف عليهم، ففترق بينهم، فكروا عليه، فلما عرفوه قالوا: الزبير! فدعوه، فلما نفر فيهم علباء بن الهيثم، ومرة القعقاع في نفر بطلحة وهو يقول: إليّ عباد الله، الصبر الصبر! قال له: يا أبا محمد؛ إنك لجريح، وإنك عما تريد لعليل؛ فادخل الأبيات، فقال: يا غلام، أَدْخِلْنِي وابغني مكاناً. فادخل البصرة ومعه غلام ورجلان، فاقتتل الناس بعده، فأقبل الناس في هزيمتهم تلك وهم يريدون البصرة. فلما رأوا الجمل أطافت به مضر عادوا قلباً كما كانوا حيث التقوا، وعادوا إلى أمر جديد، ووقفت ربيعة البصرة، منهم ميمنة ومنهم ميسرة، وقالت عائشة: خلّ يا كعب عن البعير؛ وتقدّم بكتاب الله عز وجلّ فادعهم إليه، ودفعت إليه مصحفاً. وأقبل القوم وأمامهم السبيّة يخافون أن يجري الصلح، فاستقبلهم كعب بالمصحف، وعليّ من خلفهم يزعمهم وبأبوتن إلّا إقداماً، فلما دعاهم كعب رشقوه رشقاً واحداً، فقتلوه، ورموا عائشة في هودجها، فجعلت تنادي: يا بني، البقية البقية - ويعلو صوتهما كثرة - الله الله، اذكروا الله عز وجلّ والحساب، فيأبوتن إلّا إقداماً، فكان أول شيء أحدثته حين أبوا أن قالت: أيها الناس، العنوا قتلة عثمان وأشياعهم، وأقبلت تدعو.

وضج أهل البصرة بالدعاء، وسمع عليّ بن أبي طالب الدعاء فقال: ما هذه الضجة؟ فقالوا: عائشة تدعو ويدعون معها على قتلة عثمان وأشياعهم، فأقبل يدعو ويقول: اللهم العن قتلة عثمان وأشياعهم. وأرسلت إلى عبد الرحمن بن عتاب وعبد الرحمن بن الحارث: اثبتا مكانكما، وذمرت الناس حين رأت أن التوم لا يريدون غيرها، ولا يكفون عن الناس، فازدلفت مضر البصرة، فقصفت مضر الكوفة حتى زوحم عليّ، فنخس عليّ قما محمد، وقال: اجل، فنكل، فأهوى عليّ إلى الراية ليأخذها منه، فحمل، فترك الراية في يده، وحملت مضر الكوفة، فاجتلدوا قدام الجمل حتى ضرسوا، والمجنّبات على حالها، لا تصنع شيئاً، ومع عليّ أقوام غير مضر، فمنهم زيد بن صوحان، فقال له رجل من قومه: تنح إلى قومك، مالك ولهذا الموقف! ألسنت تعلم أن مضر بحالك، وأن الجمل بين يديك، وأن الموت دونك! فقال: الموت خير من الحياة، الموت ما أريد؛ فأصيب وأخوه سيحان، وأرئت صعبعة، واشتدت الحرب. فلما رأى ذلك عليّ بعث إلى اليمن وإلى ربيعة: أن اجتمعوا على من يليكم، فقام رجل من عبد القيس فقال: ندعوكم إلى كتاب الله عز وجلّ؛ قالوا: وكيف يدعوننا إلى كتاب الله من لا يقيم حدود الله سبحانه، ومن قتل داعي الله كعب بن سور! فرمته ربيعة رشقاً واحداً فقتلوه، وقام مسلم بن عبد الله العجليّ مقامه، فرشقوه رشقاً واحداً، فقتلوه، ودعت يمن الكوفة بمن البصرة فرشقوهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: كان القتال الأول يستحرّ إلى انتصاف النهار، وأصيب فيه طلحة رضي الله عنه، وذهب فيه الزبير، فلما أووا إلى عائشة وأبى أهل الكوفة إلّا القتال، ولم يريدوا إلّا عائشة، ذمرتهم عائشة، فاقتتلوا حتى تناذوا فتحاجزوا، فرجعوا بعد الظهر فاقتتلوا.

وذلك يومَ الخميس في جُمادى الآخرة، فاقتتلوا صَدْرَ النهار مع طلحة والزبير، وفي وسطه مع عائشة، وتزاحف الناس، فهزمت يَمَنُ البصرة يَمَنَ الكوفة، وربيعَةُ البصرة ربيعةُ الكوفة، ونهد عليٌّ، بمضر الكوفة إلى مضر البصرة، وقال: إن الموت ليس منه قَوْتُ، يُدْرِكُ الهارب، ولا يَتْرَكُ المقيم.

حدَّثني عمر، قال: حدَّثنا أبو الحسن، قال: حدَّثنا أبو عبد الله القرشي، عن يونس بن أرقم، عن عليٍّ بن عمرو الكندي، عن زيد بن حساس، قال: سمعتُ محمد بن الحنفية يقول: دفع إليَّ أبي الراية يومَ الجمل، وقال: تقدّم؛ فتقدّمتُ حتى لم أجد متقدّماً إلّا على رمح؛ قال: تقدّم لا أم لك! فتكاثأت وقلت: لا أجد متقدّماً إلّا على سنان رُمح، فتناولَ الراية من يدي متناولاً لا أدري مَنْ هو! فنظرتُ فإذا أبي بين يدي وهو يقول:

أَنْتِ الَّتِي غَرَّكَ مِنِّي الْحُسْنَى يَا عَيْشَ إِنَّ الْقَوْمَ قَوْمٌ أَعْدَا
الْخَفْضُ خَيْرٌ مِنْ قِتَالِ الْأُنَا

كتبَ إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: اقتتلَتِ المجنبتان حين تزاحفتا قتالاً شديداً، يشبه ما فيه القلبان، واقتتلَ أهلُ اليمن، فقتلَ على راية أمير المؤمنين من أهل الكوفة عشرة، كلما أخذها رجلٌ قتل خمسة من هَمْدان وخمسة من سائر اليمن، فلما رأى ذلك يزيد بن قيس أخذها، فثبتت في يده وهو يقول:

قَدْ عَشَيْتَ يَا نَفْسُ وَقَدْ غَنَيْتِ دَهْرًا فَقَطُّكِ الْيَوْمَ مَا بَقِيَتْ
أَطْلُبُ طَوْلَ الْعُمَرِ مَا حَيَّتِ

ولما تمثّلها وهو قول الشاعر قبله. وقال نمران بن أبي نمران الهمداني:

جَرَدْتُ سَيْفِي فِي رِجَالِ الْأَزْدِ أَضْرِبُ فِي كُهُولِهِمْ وَالْمُرْدِ
كُلَّ طَوِيلِ السَّاعِدَيْنِ نَهْدِ

وأقبلتُ ربيعة، فقتلَ على راية الميسرة من أهل الكوفة زيد، وصرع صعصعة، ثم سباحان، ثم عبد الله بن رَقة بن المغيرة، ثم أبو عُبيدة بن راشد بن سلمى وهو يقول: اللهم أنت هَدَيْتَنَا مِنَ الضَّلَالَةِ، واستنقَدْتَنَا مِنَ الْجَهَالَةِ، وابتليْتَنَا بِالْفِتْنَةِ، فكنّا في شُبْهَةِ وَعَلَى رِيَّةٍ؛ حتى قتل، ثم الحصين بن معبد بن النعمان، فأعطاها ابنه معبدًا، وجعل يقول: يا معبد، قَرُبْ لَهَا بَوَّاهَا تَحَدَّبْ، فثبتت في يده.

كتبَ إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: لما رأت الكُماة من مضر الكوفة ومضر البصرة الصبر تنادوا في عسكر عائشة وعسكر عليٍّ: يا أيُّها الناس، طَرِّفُوا إِذَا فَرِغَ الصَّبْرُ، ونزع النصر. فجعلوا يتوجَّؤون الأطراف: الأيدي والأرجل، فما رُئيت وقعة قطّ قبلها ولا بعدها، ولا يسمع بها أكثر يدًا مقطوعة ورجلاً مقطوعة منها، لا يُدْرَى مَنْ صَاحِبُهَا. وأصيب يَدُ عبد الرحمن بن عتاب يومئذ قبل قتله، وكان الرجل من هؤلاء وهؤلاء إذا أصيب شيء من أطرافه استَقَتَّلَ إلى أن يُقَتَّلَ.

كتبَ إليَّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الصعب بن عطية بن بلال، عن أبيه، قال: اشتدَّ الأمر حتى أُرِزت ميمنة الكوفة إلى القلب، حتى لَزِقت به، ولَزِقت ميسرة البصرة بقلبيهم، ومنعوا ميمنة أهل الكوفة

أن يختلطوا بقلوبهم، وإن كانوا إلى جنبهم، وفعل مثل ذلك ميسرة الكوفة وميمنة البصرة، فقالت عائشة - رضي الله عنها - لمن عن يسارها: مَنْ القوم؟ قال صَبْرَة بن شيمان: بَنُو كِ الْأَزْد، قالت: يَا لَ غَسَّانِ! حَافِظُوا الْيَوْمَ جِلَادَكُمْ الَّذِي كُنَّا نَسْمَعُ بِهِ، وَتَمَثَّلْتُ.

وَجَالَدَ مِنْ غَسَّانَ أَهْلُ حِفَاظِهَا وَهَنْبٌ وَأَوْسٌ جَالَدَتْ وَشَبِيبٌ
وقالت لمن عن يمينها: مَنْ القوم؟ قالوا: بكر بن وائل؛ قالت: لكم يقول القائل:
وَجَاؤُوا إِلَيْنَا فِي الْحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ مِنْ الْعِزَّةِ الْقَعَسَاءِ بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ

إنما يلزائكم عبد القيس. فاقتتلوا أشد القتال من قتالهم قبل ذلك، وأقبلت على كتيبة بين يديها، فقالت: مَنْ القوم؟ قالوا: بنو ناجية، قالت: بَخِ بَخِ! سيوف أبطحية، وسيوف قرشية، فجالدوا جلالاً يتفادى منه. ثم أطافت بها بنو ضبة، فقالت: ويا جَمْرَةَ الجمرات! حتى إذا رَقُوا خَالَطَهُمْ بنو عدي، وكثروا حولها، فقالت: مَنْ أنتم؟ قالوا: بنو عدي، خالطنا إخواننا، فقالت: ما زالت رأس الجمل معتدلاً حتى قَتَلْتُ بنو ضبة حولي، فأقاموا رأس الجمل، ثم ضربوا ضرباً ليس بالتعذير، ولا يعدلون بالتطريف؛ حتى إذا كثر ذلك وظهر في العسكرين جميعاً. راموا الجمل وقالوا: لا يزال القوم أو يصرع، وأرزت مجنبتاً علي فصارها في القلب، وفعل ذلك أهل البصرة، وكره القوم بعضهم بعضاً، وتلاقوا جميعاً بقلبيهم، وأخذ ابن يثرب برأس الجمل وهو يرتجز، وأدعى قتل علباء بن الهيثم وزيد بن صوحان وهند بن عمرو، فقال:

أَنَا لِمَنْ يُنْكِرُنِي ابْنُ يَثْرِبٍ قَاتِلُ عِلْبَاءٍ وَهَنْدِ الْجَمَلِي
وَأَبْنِ لُصُوحَانَ عَلَى دِينَ عَلِيٍّ

فناداه عَمَّار: لقد لعمرى لذت بحريز، وما إليك سبيل، فإن كنت صادقاً فخرج من هذه الكتيبة إلي؛ فترك الزمام في يد رجل من بني عدي حتى كان بين أصحاب عائشة وأصحاب علي، فزحم الناس عَمَّاراً حتى أقبل إليه، فأتقاه عمار بَدْرَقَتِهِ، فضربه فانتشبت سيفه فيها، فعالجه فلم يخرج، فخرج عَمَّارُ إِلَيْهِ لَا يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئاً، فَاسْفَ عَمَارُ لِرَجْلَيْهِ فَقَطَعَهُمَا، فوقع على أسته، وحمله أصحابه، فارتث بعد، فأتي به علي، فأمر بضرب عنقه. ولما أصيب ابن يثرب ترك ذلك العدوي الزمام، ثم خرج فنَادَى: مَنْ يَبَارِزُ؟ فَخَسَّ عَمَّارُ، وَبَرَزَ إِلَيْهِ رِبِيعَةُ الْعُقَيْلِي - وَالْعَدَوِيُّ يَدْعِي عَمْرَةَ بْنَ بَجْرَةَ، أَشَدَّ النَّاسِ صَوْتاً، وَهُوَ يَقُولُ:

يَا أَمْنَا أَعَقَّ أُمُّ نَعْلَمٍ وَالْأُمُّ تَغْدُو وَلَدًا وَتَرْحَمُ
أَلَا تَرَيْنَ كَمْ شَجَاعٍ يُكَلِّمُ وَتُحْتَلِي مِنْهُ يَدٌ وَمِغْصَمٌ

ثم اضطربا، فأثخن كل واحد منهما صاحبه، فماتا.

وقال عطية بن بلال: ولحق بنا من آخر النهار رجل يدعى الحارث، من بني ضبة، فقام مقام العدوي، فما رأينا رجلاً قط أشد منه، وجعل يقول:

نحن بني ضبة أصحاب الجمل نحن بني ضبة أصحاب الجمل
الموت أحلى عندنا من العسل رُدُّوا عَلَيْنَا شَيْخَنَا ثُمَّ بَجَلْ

٤٦ سنة ٣٦

حدّثني عمرو بن شُبّة، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن المفضل بن محمد، عن عديّ بن أبي عديّ، عن أبي رجاء العطارديّ، قال: إني لأنظر إلى رجل يومَ الجمل وهو يعلّب سيفاً بيده كأنه يخراق، وهو يقول:

نحن بني ضبّة أصحابُ الجمل ننازلُ الموت إذا الموتُ نزلُ
والموتُ أشهى عندنا من العسل ننعى ابنَ عفّانَ بأطراف الأسل
رُدُّوا علينا شيخنا ثمّ بجّل

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن المفضل الضبيّ، قال: كان الرجل وسيمَ بن عمرو بن ضرار الضبيّ.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، عن الهذليّ، قال: كان عمرو بن يثربٍ يحضض قومه يومَ الجمل، يندّ تعاوروا الخطام يرتجزون:

نحن بني ضبّة لا نفرُ حتى نرى جماجماً تخرُ
يخرُ منها العلقُ المُحمَرُّ
يا أمّنا يا عيشُ لن تُراعى كلّ بنيك بطلُ شجاع
يا أمّنا يا زوجة النبيّ يا زوجة المبارك المهديّ

حتى قُتل على الخطام أربعون رجلاً، وقالت عائشة رضي الله عنها: ما زال جملي معتدلاً حتى فقدت أصوات بني ضبّة. وقتل يومئذ عمرو بن يثربٍ علباء بن الهيثم السدوسيّ، وهند بن عمرو والجمليّ، وزيد بن صوحان وهو يرتجز ويقول:

أضربُهُمْ ولا أرى أباه حسنُ كفى بهذا حزنناً من الحزن
إنّا نمرُ الأمر إمرار الرّسن

فزعم الهذليّ أنّ هذا الشعرُ تمثّل به يومَ صفّين. وعرض عمار لعمر بن يثربٍ - وعمار يومئذ ابن تسعين سنة، عليه قرؤ قد شدّ وسطه بحبل من ليف - فبذره عمرو بن يثربٍ فنحى له دَرَقته فنشب سيفه فيها، ورماه الناس حتى صُرع وهو يقول:

إن تقتلونني فأنا ابنُ يثربيّ قاتلُ علباء وهند الجمليّ
ثمّ ابنُ صوحان على دين عليّ

وأخذ أسيراً حتى انتهي به إلى عليّ، فقال: استبقي. فقال: أبعد ثلاثة تُقبل عليهم بسيفك تضربُ به وجوههم! فأمر به فقتل.

وحَدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا أبو مخنف، عن إسحاق بن راشد، عن عبّاد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، قال: مشيت يومَ الجمل وبني سبع وثلاثون جراحة من ضربةٍ وطعنةٍ، وما رأيتُ مثلَ يومِ الجمل قطّ، ما ينهزم منا أحد، وما نحن إلّا كالجلجل الأسود، وما يأخذ بخطام الجمل أحد إلّا قُتل، فأخذه عبدُ الرحمن بن عتاب فقتل، فأخذه الأسود بن أبي البختريّ فصُرع، وجثّت فأخذتُ بالخطام، فقالت

عائشة: مَنْ أَنْتَ؟ قلت: عبد الله بن الزبير. قالت: وأَنْتُمْ أَسْمَاءُ! وَمَرْيَ الْأَشْتَرِ، فَعَرَفْتُهُ فَعَانَقْتُهُ، فَسَقَطْنَا جَمِيعاً، وَنَادَيْتُ: «اقْتُلُونِي وَمَالِكاً»؛ فَجَاءَ نَاسٌ مِنَّا وَمِنْهُمْ، فَقَاتَلُوا عَلَانَا حَتَّى تَحَاجَزْنَا، وَضَاعَ الْخِطَامُ، وَنَادَى عَلِيٌّ: اعْقِرُوا الْجَمَلَ، فَإِنَّهُ إِنْ عَقِرْتُمْ تَفَرَّقُوا؛ فَضَرَبَهُ رَجُلٌ فَسَقَطَ، فَمَا سَمِعْتُ صَوْتاً قَطُّ أَشَدَّ مِنْ عَجِيجِ الْجَمَلِ.

وَأَمَرَ عَلِيٌّ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ فَضَرَبَ عَلَيْهَا قَبَّةً، وَقَالَ: انْظُرْ، هَلْ وَصَلَ إِلَيْهَا شَيْءٌ؟ فَادْخُلْ رَأْسَهُ، فَقَالَتْ: مَنْ أَنْتَ؟ وَتِلْكَ! فَقَالَ: أَبْغَضُ أَهْلِكَ إِلَيْكَ، قَالَتْ: ابْنُ الْحَنَظِمِيَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ قَالَتْ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَاكَ.

حدثني إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، قال: سمعتُ أبا بكر بن عياش يقول: قال علقمة: قلت للأشتر: قد كنتَ كارهاً لقتل عثمان رضي الله عنه، فما أخرجك بالبصرة؟

قال: إِنَّ هَؤُلَاءَ بَايَعُوهُ، ثُمَّ نَكَثُوا - وَكَانَ ابْنُ الزَّبِيرِ هُوَ الَّذِي أَكْرَهَ عَائِشَةَ عَلَى الْخُرُوجِ - فَكَنتُ أَدْعُو اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَلْقَيْنِيهِ، فَلَقِينِي كَفَّةً لَكَفَّةً، فَمَا رَضِيتُ بِشِدَّةٍ سَاعِدِي أَنْ قَمْتُ فِي الرِّكَابِ فَضْرَبْتُهُ عَلَى رَأْسِهِ فَصَرَعْتُهُ.

قلنا فهو القاتل: «اقْتُلُونِي وَمَالِكاً»؟ قال: لَا، مَا تَرَكْتُهُ وَفِي نَفْسِي مِنْهُ شَيْءٌ، ذَاكَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَتَّابٍ بَنِ أَسِيدٍ، لَقِينِي فَاخْتَلَفْنَا ضَرْبَتَيْنِ، فَصَرَعَنِي وَصَرَعْتُهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «اقْتُلُونِي وَمَالِكاً»، وَلَا يَعْلَمُونَ مَنْ مَالِكٌ، فَلَوْ يَعْلَمُونَ لَقَتَلُونِي.

ثم قال أبو بكر بن عياش: هذا كتابك شاهده.

حدثني به المغيرة، عن إبراهيم، عن علقمة، قال: قلت للأشتر: حدثني عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي، قال: حدثني سليمان، قال: حدثني عبد الله، عن طلحة بن النضر، عن عثمان بن سليمان، عن عبد الله بن الزبير، قال: وقف علينا شاب، فقال: احذروا هذين الرجلين؛ فذكره - وعلامة الأشر أن إحدى قدميه بادية من شيء يجذ بها - قال: لما التقينا قال الأشتر: لما قصد لي سوى رجلي، قلت: هذا أحمق، وما عسى أن يدرك مني لو قطعها، ألسنتُ قاتله!

فلما دنا مني جمع يديه في المرمح، ثم التمس به وجهي، قلتُ: أحدُ الأقران.

حدثني عمر بن شبة، قال: حدثنا أبو الحسن، عن أبي مخنف، عن ابن عبد الرحمن بن جندب، عن أبيه، عن جده، قال: كان عمرو بن الأشرف أخذ يخطام الجمل، لا يدنو منه أحدٌ إلا خبطه بسيفه، إذ أقبل الحارث بن زهير الأزدي وهو يقول:

يَا أُمْنَا يَا خَيْرَ أُمَّ نَعْلَمُ أَمَا تَرَيْنَ كَمْ شُجَاعٍ يُكَلِّمُ

وَتُخْتَلَى هَامَتُهُ وَالْمِعْصَمُ!

فاختلفا ضربتين، فرأيتهما يفحصان الأرض بأرجلها حتى ماتا. فدخلتُ على عائشة رضي الله عنها بالمدينة، فقالت: مَنْ أَنْتَ؟ قلت: رجل من الأزد، أسكن الكوفة؛ قالت: أشهدتنا يومَ الجمل؟ قلت: نعم؛ قالت: أَلَنَا أُمَّ عَلَيْنَا؟ قلتُ: عليكم؛ قالت: أفتعرف الذي يقول:

يَا أُمْنَا يَا خَيْرَ أُمَّ نَعْلَمُ

قلت : نعم ، ذاك ابنُ عمِّي ، فبكْتُ حتى ظننتُ أنها لا تسكت .

حدَّثني عمر ، قال : حدَّثنا أبو الحسن ، عن أبي ليلى ، عن دينار بن العيزار ، قال : سمعت الأشتر يقول : لقيتُ عبد الرحمن بن عتَّاب بن أسيد ، فلقيتُ أشدَّ الناس وأروغهُ ، فعانقته ، فسقطنا إلى الأرض جميعاً ، فنادى : « اقتُلوني ومالكاً » .

حدَّثني عمر قال : حدَّثنا أبو الحسن ، عن ابن أبي ليلى ، عن دينار بن العيزار ، قال : سمعت الأشتر يقول : رأيتُ عبد الله بن حَكِيم بن حزام معه رايةُ قريش ؛ وعدي بن حاتم الطائي وهما يتصاولان كالفحلين ، فتعاورناه فقتلناه - يعني عبد الله - فطعن عبد الله عدياً ففَقَّ عَيْنَهُ .

حدَّثني عمر ، قال : حدَّثنا أبو الحسن ، عن أبي مخنف ، عن عمِّه محمد بن مخنف ، قال : حدَّثني عدَّة من أشياخ الحَيِّ كلَّهم شهد الجَمَل ، قالوا : كانت راية الأزدي من أهل الكوفة مع مُخَنَف بن سُلَيْم ، فقتل يومئذ ، فتناول الراية من أهل بيته الصَّقْعَب وأخوه عبد الله بن سُلَيْم ، فقتلوه ، فأخذها العلاء بن عروة ، فكان الفتح ، وهي في يده ، وكانت راية عبد القيس من أهل الكوفة مع القاسم بن مسلم ، فقتل وقتل معه زيد بن صُوحان وسَيِّحان بن صُوحان ؛ وأخذ الراية عدَّة منهم فقتلوا ؛ منهم عبد الله بن ربيعة ، وراشد . ثم أخذها مُنْقِذ بن النُّعْمان ، فدفعها إلى ابنه مُرَّة بن منقذ ، فانقضى الأمر وهي في يده ، وكانت راية بكر بن وائل من أهل الكوفة في بني دُهل ، كانت مع الحارث بن حَسَّان بن خُوط الدُّهلي ، فقال أبو العرفاء الرقاشي : أبقِ على نفسك وقومك ، فأقدم وقال : يا معشر بكر بن وائل ، إنَّه لم يكن أحدٌ له من رسول الله ﷺ مثل منزلة صاحبكم ، فانصروه ، فأقدم ، فقتل وقتل ابنه وقتل خمسة إخوة له ، فقال له يومئذ بشر بن خوط وهو يقاتل :

أنا ابنُ حَسَّان بن خُوطِ وأبي رسولُ بكرٍ كلَّها إلى النبي
وقال ابنه :

أنعى الرئيسَ الحارثَ بنَ حَسَّانٍ لَإِلِ دُهلٍ ولَإِلِ شَيْبانٍ
وقال رجل من دُهل :

تَنعى لنا خيرَ امرئٍ مِن عَدنانٍ عند الطَّعانِ ونِزالِ الأقرانِ

وقُتِل رجال من بني محدوج ، وكانت الرِّياسة لهم من أهل الكوفة ، وقُتِل من بني دُهل خمسة وثلاثون رجلاً ، فقال رجل لأخيه وهو يقاتل : يا أخي ، ما أحسن قتالنا إن كُنَّا على حقٍّ ! قال : فإنَّا على الحقِّ ، إن الناس أخذوا ميماناً وشمالاً ، وإنَّا تمسكنا بأهل بيت نبيِّنا ؛ فقاتلنا حتى قُتِلنا . وكانت رياسة عبد القيس من أهل البصرة - وكانوا مع عليٍّ - لعمر بن مرحوم ، ورياسة بكر بن وائل لشقيق بن ثور ، والرياسة مع رَشاشة مولاة ، ورياسة الأزدي من أهل البصرة - وكانوا مع عائشة - لعبد الرحمن بن جُشم بن أبي حُنين الحمَّامي - فيما حدَّثني عامر بن حفص ، ويقال لبصرة بن شيمان الحُدَّاني - والرياسة مع عمرو بن الأشرف العتكي ، فقتل وقتل معه ثلاثة عشر رجلاً من أهل بيته .

حدَّثني عمر ، قال : حدَّثنا أبو الحسن ، قال : حدَّثنا أبو ليلى ، عن أبي عكاشة الهمداني ، عن رفاعة البجلي ، عن أبي البختري الطائي ، قال : أطابتُ هبةً والأزدي بعائشة يومَ الجَمَل ، وإذا رجال من الأزدي يأخذون

بَعَرَ الْجَمَلُ فَيُفْتَنُونَهُ وَيُسَمُّونَهُ، ويقولون: بعرجل أمنا ريح المسك؛ ورجل من أصحاب عليّ يقاتل ويقول:

أَجَرَدْتُ سَيْفِي فِي رِجَالِ الْأَزْدِ أَضْرِبُ فِي كَهُولِهِمْ وَالْمُرْدِ
كُلَّ طَوِيلِ السَّاعِدَيْنِ نَهْدِ

وماج الناس بعضهم في بعض، فصرخ صارخ: اعقروا الجمل؛ فضربه بجير بن دُبْجَة الضبي من أهل الكوفة، فقليل له: لَمْ عَقَرْتَهُ؟ فقال: رَأَيْتُ قَوْمِي يَقْتُلُونَ، فَخَفْتُ أَنْ يَفْنَوْا، وَرَجَوْتُ أَنْ عَقَرْتَهُ أَنْ يَبْقَى لَهُمْ بَقِيَّةٌ.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا الصّلت بن دينار، قال: انتهى رجل من بني عُقَيْلٍ إلى كعب بن سُور - رحمه الله - وهو مقتول، فوضع رُجْ رِجْلِهِ فِي عَيْنَيْهِ، ثُمَّ خَضَخَضَهُ، وَقَالَ: مَا رَأَيْتُ مَالاً قَطُّ أَحْكَمَ نَقْدًا مِنْكَ.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا عَوَانَة، قال: اقْتَتَلُوا يَوْمَ الْجَمَلِ يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ:

شَفَى السَّيْفُ مِنْ زَيْدٍ وَهَنْدٍ نَفُوسَنَا
صَبَرْنَا لَهُمْ يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ كُلَّهُ
وَقَالَ ابْنُ صَامَتٍ:

يَا ضَبَّ سِيرِي فَإِنَّ الْأَرْضَ وَاسِعَةٌ
كَتِيبَةٌ كَشَعَاعِ الشَّمْسِ إِذَا طَلَعَتْ
إِذَا نُقِمْ لَكُمْ فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ
عَلَى شِمَالِكَ إِنْ الْمَوْتَ بِالْقَاعِ
لَهَا أَتْيٌ إِذَا مَا سَالَ دُفَاعٌ
بِالْمَشْرِقِيَّةِ ضَرْبًا غَيْرَ إِبْدَاعٍ

حدّثنا العباس بن محمد، قال: حدّثنا رَوْحُ بْنُ عُبَادَةَ، قال: حدّثنا رَوْحٌ، عَنْ أَبِي رَجَاءٍ، قَالَ: رَأَيْتُ رَجُلًا قَدْ اصْطَلَمَتْ أُذُنُهُ، قُلْتُ: أَخْلَقَتْ، أَمْ شَيْءٌ أَصَابَكَ؟ قَالَ: أَحَدَثْتُ؛ بَيْنَا أَنَا أَمْشِي بَيْنَ الْقَتْلِ يَوْمَ الْجَمَلِ، فَإِذَا رَجُلٌ يَفْحَصُ بِرِجْلِهِ، وَهُوَ يَقُولُ:

لَقَدْ أَوْرَدْتُنَا حَوْمَةَ الْمَوْتِ أُمْنَا
أَطْعَمْنَا قَرِيشًا ضَلَّةً مِنْ حُلُومِنَا
فَلَمْ نَنْصَرِفْ إِلَّا وَنَحْنُ رِوَاءُ
وَنُصَرَّتْنَا أَهْلَ الْحِجَازِ عِنَاءُ

قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: ادْنُ مِنِّي، وَلَقِّنِي فَإِنَّ فِي أُذُنِي وَقْرًا، فَدَنَوْتُ مِنْهُ، فَقَالَ لِي: مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: رَجُلٌ مِنَ الْكُوفَةِ؛ فَوُثِبَ عَلَيَّ، فَاصْطَلَمَ أُذُنِي كَمَا تَرَى، ثُمَّ قَالَ: إِذَا لَقِيتَ أَمَّكَ فَأَخْبِرْهَا أَنَّ عُمَيْرَ بْنَ الْأَهْلَبِ الضَّبِّيَّ فَعَلَ بِكَ هَذَا.

حدّثني عمر، قال: حدّثنا أبو الحسن، قال: حدّثنا المفضّل الراوية وعامر بن حفص وعبد المجيد الأسدي، قالوا: جُرِحَ يَوْمَ الْجَمَلِ عُمَيْرُ بْنُ الْأَهْلَبِ الضَّبِّيِّ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ وَهُوَ فِي الْجُرْحَى، فَقَالَ لَهُ عُمَيْرٌ: ادْنُ مِنِّي، فَدَنَا مِنْهُ، فَقَطَعَ أُذُنَهُ، وَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْأَهْلَبِ:

لقد أوردتنا حومة الموت أمنا فلم ننصرف إلا ونحن رواة
لقد كان عن نصر ابن ضبة أمه وشيعتها مندوحة وغناء
أطعنا بني تيم بن مرة شقوة وهل تيم إلا أعبد وإماء!

كتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، عن المقدم الحارثي، قال: كان منّا رجل يدعى هاني بن خطاب، وكان ممن غزا عثمان، ولم يشهد الجمل، فلما سمع بهذا الرجز - يعني رجز القائل:

نحن بني ضبة أصحاب الجمل

في حديث الناس، نقض عليه وهو بالكوفة:

أبت شيوخ مذجج وهمدان ألا يردوا نعلنا كما كان
خلقا جديداً بعد خلق الرحمن

كتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، عن الصّعب بن عطية، عن أبيه، قال: جعل أبو الجرباء يومئذ يرتجز ويقول:

أسمع أنت مطيع لعلّي من قبل أن تذوق حدّ المشرفي
وخاذل في الحق أزواج النبي أعرف قوماً لست فيه بعني

كتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قال: كانت أم المؤمنين في حلقة من أهل النجدات والبصائر من أفناء مضر، فكان لا يأخذ أحد بالزمام إلا كان يحمل الراية واللواء لا يحسن تركها، وكان لا يأخذه إلا معروف عند المطيفين بالجمل فينتسب لها: أنا فلان بن فلان، فوالله إن كانوا ليقاتلون عليه؛ وإنه للموت لا يوصل إليه إلا بطلبة وعنت، وما رame أحد من أصحاب علي إلا قتل أو أفلت، ثم لم يعد. ولما اختلط الناس بالقلب جاء عدي بن حاتم فحمل عليه، ففقت عينه ونكل، فجاء الأشر فحامله عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وإنه لأقطع منزوف، فاعتقه، ثم جلد به الأرض عن دابته، فاضطرب تحته، فأفلت وهو جريض.

كتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: كان لا يجيء رجل فيأخذ بالزمام حتى يقول: أنا فلان بن فلان يا أم المؤمنين، فجاء عبد الله بن الزبير، فقالت حين لم يتكلم: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله، أنا ابن أختك، قالت: وأكل أسماء! - تعني أختها - وانتهى إلى الجمل الأشر وعدي بن حاتم، فخرج عبد الله بن حكيم بن حزام إلى الأشر، فمشى إليه الأشر، فاختلفا ضربتين، فقتله الأشر، ومشى إليه عبد الله بن الزبير، فضربه الأشر على رأسه، فجرحه جرحاً شديداً، وضرب عبد الله الأشر ضربة خفيفة، واعتنق كل واحد منهما صاحبه، وخرّا إلى الأرض يعتركان، فقال عبد الله بن الزبير: «أقتلوني ومالكاً».

وكان مالك يقول: ما أحب أن يكون قال: «والأشر» وأن لي حمر النعم. وشدّ أناس من أصحاب علي وأصحاب عائشة فافترقا، وتنقذ كل واحد من الفريقين صاحبه.

كتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، عن الصّعب بن عطية، عن أبيه، قال: وجاء محمد بن

طلحة فأخذ بزمام الجمل، فقال: يا أمّاه، مُرّيني بأمرِك. قالت: آمرك أن تكون كخير بني آدم إن تُركت. قال: فحمل فجعل لا يحمل عليه أحد إلا حمل عليه ويقول: «حَم لا يُنصرون»، واجتمع عليه نفر، فكلّهم ادّعى قتله: المكعبر الأسديّ، والمكعبر الضبّي، ومعاوية بن شدّاد العبسيّ، وعفّان بن الأشقر النصرّي، فأنفذه بعضهم بالرمح، ففي ذلك يقول قاتله منهم:

وأشعت قوأمَ بآياتِ ربّه قليل الأذى فيما ترى العينُ مُسلمٍ
هتكتُ له بالرمح جيبَ قميصه فخرُ صريعاً لليدين وللفمِ
يذكّرني حم والرمحُ شاجرُ فهلا تلا حم قبل التّقدّمِ!
على غير شيءٍ غير أن ليس تابعاً علياً ومن لا يتبع الحقّ ينّدمِ

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الصّعب بن عطية، عن أبيه، قال: قال القعقاع بن عمرو للأشتر يومئذ: هل لك في العود؟ فلم يجبه. فقال: يا أشتر، بعضنا أعلم بقتال بعض منك. فحمل القعقاع، وإن الزمام مع زُفر بن الحارث، وكان آخر من أعقب في الزمام، فلا والله ما بقي من بني عامر يومئذ شيخ إلا أصيب قدام الجمل، فقتل فيمن قتل يومئذ ربيعة جدّ إسحاق بن مسلم، وزفر يرتجز ويقول:

يا أمنا يا عيش لن تُراعي كلُّ بنيك بطلٌ شجاعُ
ليس بوهامٍ ولا براعي

وقام القعقاع يرتجز ويقول:

إذا وزدنا أجناً جهرنا ولا يُطاق ورْدُ ما منعناه
تمثلها مثلاً.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: كان من آخر من قاتل ذلك اليوم زُفر بن الحارث، فزحف إليه القعقاع، فلم يبق حول الجمل عامريّ مكتهل إلا أصيب، يتسرعون إلى الموت، وقال القعقاع: يا بحير بن دُجّة، صحّ بقومك فليعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب أمّ المؤمنين؛ فقال: يالّ ضبة، يا عمرو بن دُجّة، ادعُ بي إليك؛ فدعاه، فقال: أنا آمن حتى أرجع؟ قال: نعم. قال: فاجتث ساق البعير، فرمى بنفسه على شِقّه وجرحه البعير. وقال القعقاع لمن يليه: أنتم آمنون. واجتمع هو وزُفر على قطع بطن البعير، وحملوا الهودج فوضّعه، ثم أطافا به، وتفارّ من وراء ذلك من الناس.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الصّعب بن عطية، عن أبيه، قال: لما أمسى الناس وتقدّم عليّ وأحيط بالجمل ومن حوله، وعقره بُجير بن دُجّة، وقال: إنكم آمنون؛ كفّ بعضُ الناس عن بعض. وقال عليّ في ذلك حين أمسى وانخَس عنهم القتال:

إليك أشكو عُجْرِي وبُجْرِي ومُعشراً غَشُوا عليّ بصْرِي
قتلت منهم مُضراً بِمُضْرِي شَفِيتُ وقاتلتُ مَعْشْرِي

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن حكيم بن جابر، قال: قال طلحة يومئذ: اللهم أعطِ عثمانَ مني حتى يرضى؛ فجاء سهم غُرب وهو واقف، فخلّ ركبته بالسرج، وثبت

حتى امتلأ مَوْزُجُهُ دماً، فلما ثَقُلَ قال لمولاه: أَرَدَفْنِي وابغني مكاناً لا أَعْرِفُ فيه، فلم أُرْ كاليوم شيخاً أَضْبَعَ دماً [مني]. فركب مولاه وأمسكه وجعل يقول: قد لحقنا القوم، حتى انتهى به إلى دار من دُور البصرة خربة، وأنزله في فيثها، فمات في تلك الخربة، ودفن رضي الله عنه في بني سعد.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن البَحْثَرِيِّ العبديّ، عن أبيه، قال: كانت ربيعة مع عليّ يوم الجمل ثلث أهل الكوفة، ونصف الناس يوم الوقعة، وكانت تعبيتهم مُضَرَّ ومُضَر، وربيعه وربيعه، واليمن واليمن؛ فقال بنو صُوحان: يا أمير المؤمنين، ائذن لنا نقف عن مُضَر؛ ففعل، فأقَى زيد فقيلاً له: ما يوقفك حيال الجمل وبحيال مضرا الموت معك وبإزائك، فاعتزل إلينا؛ فقال: الموت نريد. فأصيبوا يومئذ، وأفلت صَعَصعة من بينهم.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الصَّعْبِ بن عطية، قال: كان رجل منا يدعى الحارث، فقال يومئذ: يال مُضَر؛ علام يقتل بعضكم بعضاً! تبادرون لا ندرى إلّا أنا إلى قضاء، وما تُكْفُون في ذلك.

حدّثني عبد الله بن أحمد، قال: حدّثني أبي، حدّثني سليمان، قال: حدّثني عبد الله بن المبارك، عن جرير، قال: حدّثني الزبير بن الحرّيت، قال: شيخٌ من الحَرَامِينُ يقال له أبو جُبَيْر، قال: مررتُ بكعب بن سُور وهو أخذ بِخِطَامِ جَلٍ عائشة رضي الله عنها يوم الجمل، فقال: يا أبا جُبَيْر، أنا والله كما قالت القائلة:

بُنَيَّ لَا تَبِينْ وَلَا تُقَاتِلْ

فحدّثني الزبير بن الحرّيت، قال: مرّ به عليّ وهو قتيلاً، فقام عليه فقال: والله إنك - ما علمت - كنتَ لصليباً في الحق، قاضياً بالعدل، وكيّت وكيّت؛ فأثني عليه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن ابن صَعَصعة المُرْنِيّ - أو عن صَعَصعة - عن عمرو بن جأوان، عن جرير بن أشرس، قال: كان القتال يومئذ في صدر النهار مع طلحة والزبير، فانهزم الناس وعائشة تَوَقَّع الصَّلح، فلم يَفْجأها إلّا الناس، فأحاطت بها مُضَر، ووقف الناس للقتال، فكان القتال نصفَ النهار مع عائشة. وعليّ... كعب بن سُور أخذ مصحفَ عائشة وعليّ فبدر بين الصّفين يناشدهم الله عزّ وجلّ في دمائهم، وأعطيتُ فرمى بها تحته، وأقَى بترسه فتنكّبه، فرشقوه رَشْقاً واحداً، فقتلوه رضي الله عنه، ولم يمهلوه أن شدّوا عليهم، والتحم القتال، فكان أول مقتول بين يدي عائشة من أهل الكوفة.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن غلّد بن كثير، عن أبيه، قال: أرسلنا مسلم بن عبد الله يدعوني أبينا، فرشقوه - كما صنع القلب بكعب - رَشْقاً واحداً، فقتلوه، فكان أوّل من قتل بين يدي أمير المؤمنين وعائشة رضي الله عنها، فقالت أمّ مسلم ترثيه:

لَاهُمَّ إِنْ مُسْلِمًا أَتَاهُمْ مُسْتَسْلِمًا لِمَوْتٍ إِذْ دَعَاهُمْ
إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لَا يَخْشَاهُمْ فَرَمَلُوهُ مِنْ دَمٍ إِذْ جَاءَهُمْ
وَأُمُّهُمْ قَائِمَةٌ تَرَاهُمْ يَأْتِمُرُونَ الْغَيَّ لَا تَنْهَاهُمْ

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الصَّعْبِ بن حكيم بن شريك، عن أبيه، عن جدّه، قال: لما انهزمت مجنّبت الكوفة عشية الجمل، صاروا إلى القلب - وكان ابن يثريّ قاضي البصرة قبل كعب بن

سُور، فشهدهم هو وأخوه يوم الجمل، وهما عبد الله وعمرو، فكان واقفاً أمام الجمل على فرس - فقال عليّ: مَنْ رجل يحمل على الجمل؟ فانتدب له هند بن عمرو المراديّ، فاعترضه ابن يثريّ، فاختلفا ضربتين، فقتله ابن يثريّ، ثم حمل علباء بن الهيثم، فاعترضه ابن يثريّ، فقتله، ثم حمل صعصعة فضربه، فقتل ثلاثة أجهز عليهم في المعركة: علباء، وهند، وسيحان، وارثُ صعصعة وزيد، فمات أحدهما، وبقي الآخر.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن عمرو بن محمد، عن الشعبيّ، قال: أخذ الخطام يوم الجمل سبعون رجلاً من قريش، كلهم يُقتل وهو أخذ بالخطام، وحمل الأشر فاعترضه عبد الله بن الزبير، فاختلفا ضربتين، ضربة الأشر فأّمه، وواتبه عبد الله، فاعتنقه فخرّ به، وجعل يقول: «اقتلوني ومالكاً» - وكان الناس لا يعرفونه بمالك، ولو قال: «والأشر»، وكانت له ألف نفس ما نجا منها شيء - وما زال يضطرب في يديّ عبد الله حتى أفلت، وكان الرجل إذا حمل على الجمل ثم نجا لم يعد. وجرح يومئذ مروان وعبدُ الله بن الزبير.

حدّثني عبدُ الله بنُ أحمد، قال: حدّثني عمّي، قال: حدّثني سليمان، حدّثني عبد الله، عن جرير بن حازم، قال: حدّثني محمد بن أبي يعقوب وابن عون، عن أبي رجاء، قال: قال يومئذ عمرو بن يثريّ الضبيّ؛ وهو أخو عميرة القاضي:

نحن بني ضَبّة أصحابُ الجملِ ننزلُ بالموتِ إذا الموتُ نزلُ

وزاد ابن عون - وليس في حديث ابن أبي يعقوب:

القتلُ أخلّى عندنا من العسلِ ننعى آبنَ عفّانَ بأطرافِ الأسَلِ
رُدُّوا علينا شيخنا ثمّ بجلّ

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن داود بن أبي هند، عن شيخ من بني ضَبّة، قال: ارتجز يومئذ ابن يثريّ:

أنا لمن أنكرني ابنُ يثريّ قاتِلُ علباءَ وهندِ الجمليّ
وآبنِ لصُوحانَ على دينِ عليّ

وقال: مَنْ يُبارز؟ فبرز له رجل، فقتله، ثم برز آخر فقتله، وارتجز وقال:

أقتلُهم وقد أرى عليّاً ولو أشأ أوجرّته عمريّاً

فبرز له عمار بن ياسر؛ وإنه لأضعف من بارزّه، وإنّ الناس ليسترجعون حين قام عمار، وأنا أقول لعمار من ضعفه: هذا والله لاحقٌ بأصحابه، وكان قضيضاً، حمش الساقين، وعليه سيفٌ حائلٌ تشفّ عنه قريب من إبطه، فيضربه ابن يثريّ بسيفه، لئن شِب في حَجَفته، وضربه عمار وأوهطه، ورَمى أصحابُ عليّ بن يثريّ بالحجارة حتى أئخنوه وارثوه.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن حماد البرجميّ، عن خارقة بن الصّلت، قال: لما قال الضّبّيّ يومَ الجمل:

نحن بني ضبّة أصحاب الجمل نحنى ابن عفّان بأطراف الأسل
ردّوا علينا شيخنا ثمّ بجّل

قال عمير بن أبي الحارث:

كيف نردّ شيخكم وقد قحّل نحن ضربنا صدره حتّى انجفل

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الصّعب بن حكيم، عن أبيه، عن جدّه، قال: عقر الجمل رجل من بني ضبّة يقال له: ابن دُبّة - عمرو أو بجير - وقال في ذلك الحارث بن قيس - وكان من أصحاب عائشة:

نحن ضربنا ساقه فانجدلا من ضربة بالنفّر كانت فيصلا
لولم نكوّن للرّسول ثقلا وحرمة لاقتسمونا عجلا

وقد نجل ذلك المثني بن مخزومة من أصحاب عليّ.

شدة القتال يوم الجمل وخبر أعين بن ضبيعة واطلاعه في الهودج

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن نؤيرة، عن أبي عثمان، قال: قال القعقاع: ما رأيتُ شيئاً أشبه بشيء من قتال القلب يومَ الجمل بقتال صقّين، لقد رأيتنا ندافعهم بأسنّتنا وننكّىء على أزجّتنا، وهم مثل ذلك حتى لو أنّ الرجال مشت عليها لاستقلّت بهم.

حدّثني عيسى بن عبد الرحمن المروزيّ، قال: حدّثنا الحسن بن الحسين العرنيّ، قال: حدّثنا يحيى بن يعلى الأسلميّ، عن سليمان بن قرم، عن الأعمش، عن عبد الله بن سنان الكاهليّ، قال: لما كان يوم الجمل ترامينا بالنبل حتى فنيّت، وتطاعنا بالرّماح حتى تشبّكت في صدورنا وصدورهم، حتى لو سيّرت عليها الخيل لسارت، ثم قال عليّ: السيوف يا أبناء المهاجرين. قال الشيخ: فما دخلت دار الوليد إلا ذكرت ذلك اليوم.

حدّثني عبد الأعلى بن واصل، قال: حدّثنا أبو فقيم، قال: حدّثنا فطر، قال: سمعت أبا بشير قال: كنت مع مولاي زمن الجمل، فما مررت بدار الوليد قطّ، فسمعت أصوات القصارين يضربون إلا ذكرت قتالهم:

حدّثني عيسى بن عبد الرحمن المروزيّ، قال: حدّثنا الحسن بن الحسين، قال: حدّثنا يحيى بن يعلى، عن عبد الملك بن مسلم، عن عيسى بن حطّان قال: حاصّ الناس حيضة، ثم رجعنا وعائشة على جمل أحمر، في هودج أحمر، ما شبهته إلا بالقنفذ من النبل.

حدّثني عبد الله بن أحمد، قال: حدّثني أبي؛ قال: حدّثني سليمان، قال: حدّثني عبد الله، قال: حدّثني ابن عون، عن أبي رجاء، قال: ذكروا يومَ الجمل فقلت: كأني أنظر إلى خدر عائشة كأنه قنفذ مما رمي فيه من النبل، فقلت لأبي رجاء: أقاتلت يومئذ؟ قال: والله لقد رميت بأسهم فما أدري ما صنعن.

كتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن راشد السلمي، عن ميسرة أبي جميلة، أن محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر أتيا عائشة وقد عُقِرَ الحمل، فقطعا غُرْضة الرُّحْل، واحتملا الهودج، فنَحِيَّاه حتى أمرهما عليّ فيه أمره بعد؛ قال: أدخِلْها البصرة، فأدخِلْها دارَ عبد الله بن خلف الخُزاعي.

كتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: أمر عليّ بحمل الهودج من بين القتلى، وقد كان القعقاع وزُفَر بن الحارث أنزلاه عن ظهر البعير، فَوَضَعاه إلى جَنْب البعير، فأقبل محمد بن أبي بكر إليه ومعه نفر، فأدخل يده فيه، فقالت: مَنْ هذا؟ قال: أخوك البَرّ، قالت: عَقوق. قال: عمار بن ياسر: كيف رأيت ضَرْب بنيك اليوم يا أمّة؟ قالت: مَنْ أنت؟ قال: أنا ابنك البارّ عمار؛ قالت: لستُ لك بأمّ؛ قال: بلى، وإن كرهت. قالت: فخرتم أن ظفرتم، وأتيتم مثل ما نَقَمْتُم، هيهات؛ والله لن يظفر مَنْ كان هذا دأبه. وأبرزوها بهودجها من القتلى، وَوَضَعوها ليس قربها أحد، وكأنّ هودجها فرخ مقصَّب مما فيه من النبل، وجاء أعين بن ضبيعة المجاشعي حتى أطلع في الهودج، فقالت: إليك لعنك الله! فقال: والله ما أرى إلّا حُمَيْراء؛ قالت: هتَك الله سترك، وقطع يدك، وأبدى عورتك! فقتل بالبصرة وسُلب، وقطعت يده، ورُمي به عريانا في خربة من خربات الأزد، فانتهى إليها عليّ، فقال: أيّ أمّة، يغفر الله لنا ولكم؛ قالت: غفر الله لنا ولكم.

كتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، عن الصعب بن حكيم بن شريك، عن أبيه، عن جده، قال: انتهى محمد بن أبي بكر ومعه عمار، فقطع الأنساع عن الهودج، واحتملاه، فلما وضعاه أدخل محمد يده وقال: أخوك محمد، فقالت: مذمم، قال: يا أُخِيّة، هل أصابك شيء؟ قالت: ما أنت من ذاك؟ قال: فَمَنْ إذّا الضَّلّال؟ قالت: بل الهداة، وانتهى إليها عليّ، فقال: كيف أنت يا أمّة؟ قالت: بخير، قال: يغفر الله لك. قالت: ولك.

كتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: ولما كان من آخر الليل خرج محمد بعائشة حتى أدخلها البصرة، فأنزلها في دار عبد الله بن خلف الخُزاعي على صفية ابنة الحارث بن طلحة بن أبي طلحة بن عبد العزّي بن عبد الدار، وهي أم طلحة الطلحات بن عبد الله بن خلف.

وكانت الوقعة يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين، في قول الواقدي.

مقتل الزبير بن العوام رضي الله عنه

كتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، عن الوليد بن عبد الله، عن أبيه، قال: لما انهزم الناس يرمّ الحمل عن طلحة والزبير، ومضى الزبير رضي الله عنه حتى مرّ بعسكر الأحنف، فلما رآه وأخبر به قال: والله لا هذا بخيار، وقال للناس: مَنْ يأتينا بخبره؟ فقال عمرو بن جرموز لأصحابه: أنا، فأتبعه، فلما لحقه نظر إليه الزبير - وكان شديد الغضب - قال: ما وراءك؟ قال: إنما أردتُ أن أسألك؛ فقال غلام للزبير يُدعى عطية كان معه: إنه مُعِدٌّ؛ فقال: ما يهلك من رجل! وحضرت الصلاة، فقال ابن جرموز: الصلاة؛ فقال: الزبير: الصلاة، فنزلا، واستدبره ابن جرموز فطعن من خلفه في جُرْبَانِ درعه، فقتله، وأخذ فرسه وخاتمه وسلاحه، وخلى عن الغلام، فدفنه بوادي السباع؛ ورجع إلى الناس بالخبر. فأما الأحنف فقال: والله ما أدري أحسنت أم أسأت! ثم انحدر إلى عليّ وابن جرموز معه، فدخل عليه، فأخبره، فدعا بالسيف، فقال: سيف طالما جئت

الْكُرْبَ عن وجه رسول الله ﷺ! وبعث بذلك إلى عائشة، ثم أقبل على الأحنف فقال: تربّصت؛ فقال: ما كنتُ أراني إلا قد أحسنتُ، وبأمرك كان ما كان يا أمير المؤمنين، فارقُ فإنَّ طريقك الذي سلكتَ بعيد، وأنتَ إليَّ غداً أحوج منك أمس، فاعرف إحساني، واستصِف مودتي لغدي، ولا تقولنَّ مثلَ هذا، فإنِّي لم أزل لك ناصحاً.

من انهزم يوم الجمل فاختفى ومضى في البلاد

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: ومضى الزبير في صدر يوم الهزيمة راجلاً نحو المدينة، فقتله ابن جُرموز، قالوا: وخرج عُتْبَةُ بن أبي سُفْيَان وعبدُ الرحمن ويحيى ابنا الحكم يوم الهزيمة، قد سُجِّجوا في البلاد، فلقوا عصمة بن أبي التيميّ، فقال: هل لكم في الجوار؟ قالوا: مَنْ أنت؟ قال: عصمة بن أبيير. قالوا: نعم، قال: فأنتم في جِواري إلى الحَوْل؛ فمضى بهم، ثم حَمَاهم وأقام عليهم حتى بَرَّأوا، ثم قال: اختاروا أحبَّ بلد إليكم أبلغكموه، قالوا: الشام، فخرج بهم في أربعمئة راكب من تيم الرُّباب، حتى إذا غلّوا في بلاد كلب بدومة قالوا: قد وُفِّتْ ذمتك وذمتهم، وقضيتَ الذي عليك فارجع، فرجع. وفي ذلك يقول الشاعر:

وَفَى ابْنُ أَبِييرِ وَالرَّمَّاحُ شَوَارِعُ بِأَلِ أَبِي العاصيِ وفاءٌ مُذَكَّرًا

وأما ابن عامر فإنه خرج أيضاً مشججاً، فتلّقه رجل من بني حُرْقُوص يُدعى مُرَيَّا، فدعاه للجوار، فقال: نعم، فأجاره وأقام عليه، وقال: أيّ البلدان أحبُّ إليك؟ قال: دِمَشق، فخرج به في ركب من بني حُرْقُوص حتى بلغوا به دِمَشق. وقال حارثة بن بدر - وكان مع عائشة، وأصيب في الوقعة ابنه أو أخوه زراع:

أتاني من الأنبياء أنَّ ابْنَ عامِرٍ أنَاخَ وألْقَى في دِمَشقِ المَراسِيَا

وأوى مروان بن الحكم إلى أهل بيت من عنزة يوم الهزيمة، فقال لهم: أعلموا مالك بن مسمع بمكاني، فأتوا مالكاً فأخبروه بمكانه، فقال لأخيه مقاتل: كيف نصنع بهذا الرجل الذي قد بعث إلينا يُعلمنا بمكانه؟ قال: ابعث ابن أخي فأجره، والتمسوا له الأمان من عليّ، فإن آمنه فذاك الذي نحبّ وإن لم يؤمنه خرجنا به وبأسيافنا؛ فإن عرض له جالذنا دونه بأسيافنا، فلما أن نسلم، ولما أن نهلك كراماً. وقد استشار غيره من أهله من قَبْل في الذي استشار فيه مقاتلاً، فنهاه، فأخذ برأي أخيه، وترك رأيهم، فأرسل إليه فأنزله داره، وعزم على منعه إن اضطر إلى ذلك، وقال: الموت دون الجوار وفاءً، وحفظ لهم بنو مروان ذلك بعد، وانتفعوا به عندهم، وشرّفوهم بذلك، وأوى عبد الله بن الزبير إلى دار رجل من الأزد يُدعى وزيراً؛ وقال: اتت أم المؤمنين فأعلمها بمكاني، وإياك أن يطلع على هذا محمد بن أبي بكر، فأتت عائشة رضي الله عنها فأخبرها، فقالت: عليّ بمحمد، فقال: يا أم المؤمنين، إنه قد نهاني أن يعلم به محمد، فأرسلت إليه فقالت: اذهب مع هذا الرجل حتى تهيئني بآبن أختك؛ فانطلقت معه فدخل بالأزد عليّ ابن الزبير، قال: جئتكَ والله بما كرهت، وأبث أم المؤمنين إلا ذلك، فخرج عبدُ الله ومحمد وهما يتشاوران، فذكر محمد عثمان فشمته وشم عبد الله محمداً حتى انتهى إلى عائشة في دار عبد الله بن خلف - وكان عبد الله بن خلف قبل يوم الجمل مع عائشة، وقتل عثمان أخوه مع عليّ - وأرسلت عائشة في طلب من كان جريحاً فضمت منهم ناساً، وضمت مروان فيمن ضمت، فكانوا في بيوت الدار.

كتب إلى السري، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: وغشي الوجوه عائشة وعلي في عسكره، ودخل القعقاع بن عمرو على عائشة في أول من دخل، فسلم عليها، فقالت: إني رأيت رجلين بالأمس اجتلدا بين يدي وارتحزا بكذا، فهل تعرف كوفيكم منها؟ قال: نعم، ذاك الذي قال: «أعق أم نعلم»، وكذب والله، إنك لأبر أم نعلم، ولكن لم تطاعي. فقالت: والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة. وخرج فأتى علياً فأخبره أن عائشة سألته، فقال: ونحك! من الرجلان؟ قال: ذلك أبو هالة الذي يقول:

كيما أرى صاحبه علياً

فقال: والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة، فكان قولها واحداً.

كتب إلى السري، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: وتسلك الجرحى في جوف الليل، ودخل البصرة من كان يطيق الانبعاث منهم، وسألت عائشة يومئذ عن عدة من الناس، منهم من كان معها، ومنهم من كان عليها، وقد غشيها الناس، وهي في دار عبد الله بن خلف، فكلما نعي لها منهم واحد قالت: يرحمه الله، فقال لها رجل من أصحابها: كيف ذلك؟ قالت: كذلك قال رسول الله ﷺ: فلان في الجنة، وفلان في الجنة. وقال علي بن أبي طالب يومئذ: إني لأرجو ألا يكون أحد من هؤلاء نقى قلبه إلا أدخله الله الجنة.

كتب إلى السري، عن شعيب، عن سيف، عن عطية، عن أبي أيوب، عن علي، قال: ما نُزل على النبي ﷺ آية أفرح له من قول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (١)، فقال ﷺ: «ما أصاب المسلم في الدنيا من مصيبة في نفسه فبذنب، وما يعفو الله عز وجل عنه أكثر، وما أصابه في الدنيا فهو كفارة له وعفو منه لا يعتد عليه فيه عقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عز وجل عنه في الدنيا فقد عفا عنه، والله أعظم من أن يعود في عفو».

توجع علي على قتلى الجمل ودفنهم وجمعه ما كان في العسكر
والبعث به إلى البصرة

كتب إلى السري، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: وأقام علي بن أبي طالب في عسكره ثلاثة أيام لا يدخل البصرة، ونذب الناس إلى موتاهم، فخرجوا إليهم فدفنهم، فطاف علي معهم في القتلى، فلما أتى بكعب بن سور قال: زعمتم أنما خرج معهم السفهاء، وهذا الخبر قد تروون. وأتى على عبد الرحمن بن عتاب فقال: هذا يغسوب القوم - يقول الذي كانوا يطيفون به - يعني أنهم قد كانوا اجتمعوا عليه، ورضوا به لصلاتهم. وجعل علي كلما مرّ برجل فيه خير قال: زعم من زعم أنه لم يخرج إلينا إلا الغوغاء، هذا العابد المجتهد. وصلى على قتلاهم من أهل البصرة، وعلى قتلاهم من أهل الكوفة؛ وصلى على قريش من هؤلاء وهؤلاء، فكانوا مدنيين ومكّيين، ودفن علي الأطراف في قبر عظيم، وجمع ما كان في العسكر من شيء، ثم بعث به إلى مسجد البصرة؛ أن من عرف شيئاً فليأخذه، إلا سلاحاً كان في الخزائن عليه سمة السلطان، فإنه لما بقي لم يعرف، أخذوا ما أجلبوا به عليكم من مال الله عز وجل، لا يحل لمسلم من مال المسلم المتوفى شيء، وإنما

كان ذلك السلاح في أيديهم من غير تنفيل من السلطان.

عدد قتلى الجمل

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالاً: كان قتلى الجمل حول الجمل عشرة آلاف؛ نصفهم من أصحاب عليّ، ونصفهم من أصحاب عائشة؛ من الأزد ألفان، ومن سائر اليمن خمسمائة، ومن مضر ألفان، وخمسمائة من قيس، وخمسمائة من تميم، وألف من بني ضبّة، وخمسمائة من بكر بن وائل. وقيل: قتل من أهل البصرة في المعركة الأولى خمسة آلاف، وقتل من أهل البصرة في المعركة الثانية خمسة آلاف، فذلك عشرة آلاف قتيل من أهل البصرة، ومن أهل الكوفة خمسة آلاف. قالاً: وقتل من بني عديّ يومئذ سبعون شيخاً، كلهم قد قرأ القرآن، سوى الشباب ومن لم يقرأ القرآن.

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما زلت أرجو النصر حتى خفيت أصوات بني عديّ.

دخول عليّ على عائشة وما أمر به من العقوبة فيمن تناوها

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالاً: ودخل عليّ البصرة يوم الاثنين، فانتهى إلى المسجد، فصلّى فيه، ثم دخل البصرة، فأتاه الناس، ثم راح إلى عائشة على بغلته، فلما انتهى إلى دار عبد الله بن خلف وهي أعظم دار بالبصرة، وجد النساء يبكين على عبد الله وعثمان ابني خلف مع عائشة، وصفيّة ابنة الحارث مخمّرة تبكي، فلما رآته قالت: يا عليّ، يا قاتل الأحبة، يا مفرق الجمع، أيتّم الله بنيك منك كما أيتّم ولد عبد الله منه! فلم يردّ عليها شيئاً، ولم يزل على حاله حتى دخل على عائشة، فسلم عليها، وقعد عندها، وقال لها: جبهتينا صفيّة، أما إني لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم، فلما خرج عليّ أقبلت عليه فأعادت عليه الكلام، فكفّ بغلته وقال: أما لهممت - وأشار إلى الأبواب من الدار - أن أفتح هذا الباب وأقتل من فيه، ثم هذا فأقتل من فيه، ثم هذا فأقتل من فيه - وكان أناس من الجرّحى قد لجؤوا إلى عائشة، فأخبر عليّ بمكانهم عندها، فتغافل عنهم - فسكتت. فخرج عليّ، فقال رجل من الأزد: والله لا تفلتينا هذه المرأة. فغضب وقال: صه! لا تهتكن سترأ، ولا تدخلن داراً، ولا تهيّجن امرأة بأذى، وإن شتمن أعراضكم، وسفهن أمراءكم وصلحاءكم، فإنهن ضعاف؛ ولقد كنا نؤمر بالكفّ عنهن، وإنهن لمشركات، وإن الرجل ليكافىء المرأة ويتناوها بالضرب فيعيّر بها عقبه من بعده، فلا يبلغني عن أحد عرض لامرأة فأنكل به شرار الناس. ومضى عليّ، فلحق به رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، قام رجلان ممن لقيت على الباب، فتناولا من هو أمض لك شتيمة من صفيّة. قال: ويحك! لعلها عائشة. قال: نعم، قام رجلان منهم على باب الدار فقال أحدهما:

جُزيتِ عَنَّا أَمْنَا عُقُوقَا

وقال الآخر:

يا أَمْنَا تُوبِي فَقَدْ خَطِيتِ

فبعث القعقاع بن عمرو إلى الباب، فأقبل بمن كان عليه، فأحالوا على رجلين، فقال: أضرب أعناقهما، ثم قال: لأنهنّ عاقبة. فضرّبهما مائة مائة، وأخرجهما من ثيابهما.

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن الحارث بن حصيرة، عن أبي الكنود، قال: هما رجلان

من أزد الكوفة يقال لهما عجل وسعد ابنا عبد الله .

بيعة أهل البصرة علياً وقسمه ما في بيت المال عليهم

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: بايع الأحنف من العشيرة لأزه كان خارجاً هو وبنو سعد، ثم دخلوا جميعاً البصرة، فبايع أهل البصرة على راياتهم، وبايع عليّ أهل البصرة حتى الجرحى والمستأمنة، فلما رجع مروان لحق بمعاوية. وقال قائلون: لم يبرح المدينة حتى فرغ من صفين.

قالا: ولما فرغ عليّ من بيعة أهل البصرة نظر في بيت المال فإذا فيه ستمائة ألف وزيادة، فقسمها على من شهد معه [الوقعة]، فأصاب كل رجل منهم خمسمائة وخمسمائة، وقال: لكم أن أظفركم الله عزّ وجلّ بالشام مثلاً إلى أعطياتكم. وخاض في ذلك السبئية، وطعنوا على عليّ من وراء وراء.

سيرة عليّ فيمن قاتل يوم الجمل

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد بن راشد، عن أبيه، قال: كان من سيرة عليّ ألاّ يقتل مدبراً ولا يذوّف على جريح، ولا يكشف سترأ، ولا يأخذ مالا، فقال قوم يومئذ: ما يُجَلّ لنا دماءهم. ويُحرم علينا أموالهم؟ فقال عليّ: القوم أمثالكم، من صفح عنا فهو منا، ونحن منه، ومن لجّ حتى يصاب فقتاله مني على الصدر والنحر، وإنّ لكم في حُسنه لغنى، فيومئذ تكلمت الخوارج.

بعثة الأشر إلى عائشة

بجمل اشتراه لها وخروجها من البصرة إلى مكة

حدّثنا أبو كريب محمد بن العلاء، قال: حدّثنا يحيى بن آدم، عن أبي بكر بن عيّاش، عن عاصم بن كليب، عن أبيه، قال: لما فرغوا يوم الجمل أمرني الأشر فانطلقت فاشتريت له جملاً بسبعمئة درهم من رجل من مهرة، فقال: انطلق به إلى عائشة فقل لها: بعث به إليك الأشر مالك بن الحارث، وقال: هذا عوّض من بعيرك، فانطلقت به إليها، فقلت: مالك يقرئك السلام ويقول: إنّ هذا البعير مكان بعيرك؛ قالت: لا سلّم الله عليه؛ إذ قتل يعسوب العرب - تعني ابن طلحة - وصنع بابن أخي ما صنع! قال: فرددته؛ الأشر، وأعلمته، قال: فأخرج ذراعين شعراوين؛ وقال: أرادوا قتلي فما أصنع!

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: قصدت عائشة مكة فكان وجهها من البصرة، وانصرف مروان والأسود بن أبي البختريّ إلى المدينة من الطريق، وأقامت عائشة بمكة إلى الحجّ، ثم رجعت إلى المدينة.

ما كتب به عليّ بن أبي طالب من الفتح إلى عامله بالكوفة

كتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالوا: وكتب عليّ بالفتح إلى عامله بالكوفة حين كتب في أمرها وهو يومئذ بمكة:

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين. أمّا بعد، فلما التقينا في النصف من جمادى الآخرة بالحريّة - فناء من أفنية البصرة - فأعطاهم الله عزّ وجلّ سنة المسلمين، وقُتل منا ومنهم قتل كثيرة، وأصيب من أصيب منا ثمانية بن المثنى، وهند بن عمرو، وعلاء بن الهيثم، وسهّان وزيد ابنا صوحان، ومحدوج.

وكتب عبيد الله بن رافع . وكان الرسول زُفر بن قيس إلى الكوفة بالبشارة في جمادى الآخرة .

أخذ عليّ البيعة على الناس

وخبر زياد بن أبي سفيان وعبد الرحمن بن أبي بكر

وكان في البيعة : عليك عهد الله وميثاقه بالوفاء لتكوننّ لِسْلِمِنَا سِلْمًا ، ولحربنا حربًا ، ولتكنفنّ عنا لسانك ويدك . وكان زياد بن أبي سفيان ممن اعتزل ولم يشهد المعركة ، قعد . وكان في بيت نافع بن الحارث ، وجاء عبد الرحمن بن أبي بكر في المستأمنين مسلماً بعدما فرغ عليّ من البيعة ، فقال له عليّ : وعمك المتربص المقاعد بي ! فقال : والله يا أمير المؤمنين ، إنه لك لواد ، وإنه على مسرتك لحريص ، ولكنه بلغني أنه يشتكي ، فأعلم لك علمه ثم آتاك . وكنتم علياً مكانه حتى استأمره ، فأمره أن يعلمه فأعلمه ، فقال عليّ : امش أمامي - اهدني إليه ، ففعل ؛ فلما دخل عليه قال : تقاعدت عني ، وتربّصت - ووضع يده على صدره ، وقال : هذا رجع بيني - فاعتذر إليه زياد ، فقبل عذره واستشاره . وأراده عليّ على البصرة ، فقال : رجل من أهل بيتك يسكن إليه الناس ؛ فإنه أجدر أن يطمثنوا أو ينقادوا ، وسأكفيكه وأشير عليه . فافترقا على ابن عباس ، ورجع عليّ إلى منزله .

تأمر ابن عباس على البصرة وتولية زياد الخراج

وأمر ابن عباس على البصرة ، وولى زياداً الخراج وبيت المال ، وأمر ابن عباس أن يسمع منه ، فكان ابن عباس يقول : استشرته عند هنة كانت من الناس ، فقال : إن كنت تعلم أنك على الحق ، وأن من خالفك على الباطل ، أشرت عليك بما ينبغي ، وإن كنت لا تدري ، أشرت عليك بما ينبغي كذلك . فقلت : إني على الحق ، وإنهم على الباطل ، فقال : اضرب بمن أطاعك من عصاك ومن ترك أمرك ، فإن كان أعز للإسلام وأصلح له أن يضرب عنقه فاضرب عنقه . فاستكتبته ، فلما ولى رأيت ما صنع ، وعلمت أنه قد اجتهد لي رأيه ، وأعجلت السبئية علياً عن المقام ، وارتحلوا بغير إذنه ، فارتحل في آثارهم ليقطع عليهم أمراً إن كانوا أرادوه ، وقد كان له فيها مقام .

كتب إليّ السريّ ، عن شعيب ، عن سيف ، عن محمد وطلحة ، قالا : علم أهل المدينة بيوم الحمل يوم الخميس قبل أن تغرب الشمس من نسر مرّ بما حول المدينة ، معه شيء متعلّقه ، فتأمله الناس فوق ، فإذا كفّ فيها خاتم ، نقشه «عبد الرحمن بن عتاب» ، وجفل من بين مكة والمدينة من أهل البصرة ، من قرب من البصرة أو بعد ، وقد علموا بالوقعة مما ينقل إليهم النُسُور من الأيدي والأقدام .

تجهيز عليّ عليه السلام عائشة رضي الله عنها من البصرة

كتب إليّ السريّ ، عن شعيب ، عن سيف ، عن محمد وطلحة ، قالا : وجهز عليّ بكل شيء ينبغي لها من مركب أو زاد أو متاع ، وأخرج معها كل من نجا من خرج معها إلا من أحب المقام ، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات ، وقال : تجهّزي يا محمد ، فبلغها ، فلما كان اليوم الذي ترتحل فيه ، جاءها حتى وقف لها ، وحضر الناس ، فخرجت على الناس وودّعوها وودّعتهن ، وقالت : يا بنيّ ، تعتّب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة ، فلا يعتدّن أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك ؛ إنه والله ما كان بيني وبين عليّ

في القدم إلا ما يكون بين المرأة وأحائها؛ وإنه عندي على معتقي من الأخيار. وقال علي: يا أيها الناس: صدقت والله وبرت، ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة.

وخرجت يوم السبت لغرة رجب سنة ست وثلاثين، وشيعها علي أميلاً، وسرح بنيه معها يوماً.

ما روي من كثرة القتل يوم الجمل

حدثني عمر بن شبة، قال: حدثنا أبو الحسن، قال: حدثنا محمد بن الفضل بن عطية الخراساني، عن سعيد القطيعي، قال: كنا نتحدث أن قتل الجمل يزيدون على ستة آلاف.

حدثني عبدالله بن أحمد بن شبة، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا سليمان بن صالح، قال: حدثني عبدالله، عن جرير بن حازم، قال: حدثني الزبير بن الحرث، عن أبي لبدة لمأزة بن زياد، قال: قلت له: لم تسب علياً؟ قال: ألا أسب رجلاً قتل منا ألفين وخمسمائة، والشمس ها هنا! قال جرير بن حازم: وسمعت ابن أبي يعقوب يقول: قتل علي بن أبي طالب يوم الجمل ألفين وخمسمائة؛ ألف وثلثمائة وخمسون من الأزد وثمانمائة من بني ضبة، وثلثمائة وخمسون من سائر الناس.

وحدثني أبي، عن سليمان، عن عبدالله، عن جرير، قال: قتل المعرض بن علاط يوم الجمل، فقال أخوه الحجاج:

لم أر يوماً كان أكثر ساعياً بكف شمال فارقته يمينها

قال معاذ: وحدثني عبدالله، قال: قال جرير: قتل المعرض بن علاط يوم الجمل، فقال أخوه الحجاج:

لم أر يوماً كان أكثر ساعياً بكف شمال فارقته يمينها

ما قال عمار بن ياسر لعائشة حين فرغ من الجمل

حدثني عبدالله بن أحمد، قال: حدثني أبي، عن سليمان، قال: حدثني عبدالله، عن جرير بن حازم، قال: سمعت أبا يزيد المدني يقول: قال عمار بن ياسر لعائشة - رضي الله عنها - حين فرغ القوم: يا أم المؤمنين، ما أبعد هذا المسير من العهد الذي عهد إليك! قالت: أبو اليقظان! قال: نعم، قالت: والله إنك - ما علمت - قوال بالحق، قال: الحمد لله الذي قضى لي على لسانك.

آخر حديث الجمل

بعثة علي بن أبي طالب قيس بن سعد بن عباد أميراً على مصر

وفي هذه السنة - أعني سنة ست وثلاثين - قُتل محمد بن أبي حذيفة، وكان سبب قتله أنه لما خرج المصريون إلى عثمان مع محمد بن أبي بكر، أقام بمصر، وأخرج عنها عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وضبطها، فلم يزل بها مقيماً حتى قتل عثمان رضي الله عنه، وبويع لعلي، وأظهر معاوية الخلفاء، وبايعه على ذلك عمرو بن العاص، فسار معاوية وعمرو إلى محمد بن أبي حذيفة قبل قدوم قيس بن سعد مصر، فعاثوا دخول مصر، فلم يقدر على ذلك، فلم يزالا يخذعان محمد بن أبي حذيفة حتى خرج إلى عريش مصر

في ألف رجل ، فتحصّن بها ، وجاءه عمرو فنصب المنجنيق عليه حتى نزل في ثلاثين من أصحابه وأخذوا وقتلوا
رحمهم الله .

وأما هشام بن محمد فإنه ذكر أن أبا مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم ، حدّثه عن
محمد بن يوسف الأنصاريّ من بني الحارث بن الخزرج ، عن عباس بن سهل الساعديّ أنّ محمد بن أبي
حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف هو الذي كان سرّب المصريين إلى عثمان بن عفان ،
ولهم لما ساروا إلى عثمان فحصره وثب هو بمصر على عبدالله بن سعد بن أبي سرح أحد بني عامر بن لؤي
الأنصاريّ ، وهو عامل عثمان يومئذ على مصر ، فطرده منها ، وصلى بالناس ، فخرج عبدالله بن سعد من مصر
فنزل على تخوم أرض مصر مما يلي فلسطين ، فانتظر ما يكون من أمر عثمان ، فطلع راكب فقال : يا عبدالله ،
هل لك ؟ خبرنا بخبر الناس خلفك ؟ قال : أفعل ، قتل المسلمون عثمان رضي الله عنه ، فقال عبدالله بن
سعد : **إِنَّ اللَّهَ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ، يا عبدالله ، ثم صنعوا ماذا ؟ قال : ثم بايعوا ابن عمّ رسول الله ﷺ عليّ
ابن أبي طالب ، قال عبدالله بن سعد : **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ^(١) ، قال له الرجل : كأنّ ولاية عليّ بن
أبي طالب عدلت عندك قتل عثمان ! قال : أجل . قال : فنظر إليه الرجل ، فتأمّله فعرفه وقال : كأنك
عبدالله بن أبي سرح أمير مصر ! قال : أجل ؛ قال له الرجل : فإن كان لك في نفسك حاجة فالنّجاء النّجاء ،
فإنّ أمير المؤمنين فيك وفي أصحابك سيّء ، إن ظفر بكم قتلكم أو نفاكم عن بلاد المسلمين ، وهذا بعدي
أمير يندم عليك . قال له عبدالله : ومن هذا الأمير ؟ قال : قيس بن سعد بن عبادة الأنصاريّ ، قال
عبدالله بن سعد : أبعد الله محمد بن أبي حذيفة ! فإنه بغى على ابن عمّه ، وسعى عليه ، وقد كان كفله ورباه
وأحسن إليه ، فأساء جواره ، ووثب على عمّاله ، وجهز الرجال إليه حتى قتل ، ثم ولي عليه من هو أبعد منه
ومن عثمان ، لم يمتعه بسلطان بلاده حولاً ولا شهراً ، ولم يره لذلك أهلاً ، فقال له الرجل : انج بنفسك ، لا
تقتل . فخرج عبدالله بن سعد هارباً حتى قدم على معاوية بن أبي سفيان دِمَشَق .

قال أبو جعفر : فخبّر هشام هذا يدلّ على أن قيس بن سعد وليّ مصر ومحمد بن أبي حذيفة حيّ .

وفي هذه السنة بعث عليّ بن أبي طالب على مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصاريّ ، فكان من أمره ما
ذكر هشام بن محمد الكلبيّ ، قال : حدّثني أبو مخنف ، عن محمد بن يوسف بن ثابت ، عن سهل بن سعد ،
قال : لما قُتل عثمان رضي الله عنه وولي عليّ بن أبي طالب الأمر ، دعا قيس بن سعد الأنصاريّ فقال له : سر
إلى مصر فقد وليتكمها ، وأخرج إلى رحلك ، واجمع إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك
جند ، فإن ذلك أرعب لعدوك وأعزّ لوليك ، فإذا أنت قديمته إن شاء الله فأحسن إلى المحسن ، واشتدّ على
المريب . وارفّق بالعامّة والخاصّة ، فإن الرفق يُن .

فقال له قيس بن سعد : رحمك الله يا أمير المؤمنين ! فقد فهمت ما قلت ، أمّا قولك : أخرج إليها
بجند ، فوالله لئن لم أدخلها إلّا بجند آتيتها به من المدينة لا أدخلها أبداً ، فأنا أدع ذلك الجند لك ، فإن أنت
احتجت إليهم كانوا منك قريباً ، وإن أردت أن تبعثهم إلى وجهه من وجوهك كانوا عدّة لك ، وأنا أصير إليها
بنسي وأهل بيتي . وأمّا ما أوصيتني به من الرفق والإحسان ، فإنّ الله عزّ وجلّ هو المستعان على ذلك .

قال : فخرج قيس بن سعد في سبعة نفر من أصحابه حتى دخل مصر ، فصعد المنبر ، فجلس عليه ، وأمر بكتاب معه من أمير المؤمنين فقرأ على أهل مصر :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين . سلام عليكم ، فإنّي أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو . أمّا بعد ، فإنّ الله عزّ وجلّ بحسن صنعه وتقديره وتدبيره ، اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله ، وبعث به الرّسل عليهم السلام إلى عباده ، وخصّ به من انتخب من خلقه ، فكان مما أكرم الله عزّ وجلّ به هذه الأمّة ، وخصّهم به من الفضيلة أن بعث إليهم محمداً ﷺ ، فعلمهم الكتاب والحكمة والفرائض والسنة ، لكيما يهتدوا ، وجمعهم لكيما لا يتفرّقوا ، وزكّاهم لكيما يتطهّروا ، ورفّههم لكيما لا يجوروا ، فلما قضى من ذلك ما عليه قبضه الله عزّ وجلّ صلوات الله عليه ورحمته وبركاته . ثم إنّ المسلمين استخلفوا به أميرين صالحين ، عملاً بالكتاب والسنة ، وأحسنّا السيرة ، ولم يعدوا السنة ، ثم توفاهما الله عزّ وجلّ ، رضي الله عنهما . ثم ولي بعدهما والٍ فأحدث أحداثاً ، فوجدت الأمّة عليه مقالاً فقالوا ، ثم نعموا عليه فغيّروا ، ثم جاؤوني فبايعوني ، فاستهديني الله عزّ وجلّ بالهدى ، وأستعينه على التقوى . ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والقيام عليكم بحقه والتنفيذ لسنة ، والتّصحّ لكم بالغيب ، والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . وقد بعثت إليكم قيس بن سعد بن عبادة أميراً ، فواظروه وكافوه ، وأعينوه على الحقّ ، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم ، والشّدّة على مُريبكم ، والرفق بعمّاءكم وخواصكم ، وهو من أرضى هديّه ، وأرجو صلاحه ونصيحته . أسأل الله عزّ وجلّ لنا ولكم عملاً زاكياً ، وثواباً جزيلاً ، ورحمةً واسعة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكتب إلى عبد الله بن أبي رافع في صفر سنة ست وثلاثين .

قال : ثم إنّ قيس بن سعد قام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد ﷺ ، وقال : الحمد لله الذي جاء بالحقّ ، وأما الباطل ، وكبت الظالمين . أيّها الناس ، إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا ﷺ ، فقوموا أيّها الناس فبايعوا على كتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسوله ﷺ ، فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعه لنا عليكم .

فقام الناس فبايعوا ، واستقامت له مصر ، وبعث عليها عمّاله ، إلّا أن قريةً منها يقال لها : « خربتنا » فيها أناس قد أعظموا قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وبها رجل من كنانة ثم من بني مُذَلِج يقال له يزيد بن الحارث من بني الحارث بن مُذَلِج . فبعث هؤلاء إلى قيس بن سعد : إنا لا نقاتلك فابعث عمّالك ، فالأرض أرضك ، ولكن أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس .

قال : ووثب مسلمة بن مخلد الأنصاريّ ، ثم من ساعده من رهط قيس بن سعد ، فنعى عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ودعا إلى الطلب بدمه ، فأرسل إليه قيس بن سعد : ويحك ، عليّ تيّب ! فوالله ما أحبّ أن لي ملك الشام إلى مصر وأني قتلتك . فبعث إليه مسلمة : إني كافّ عنك ما دمت أنت والي مصر .

قال : وكان قيس بن سعد له حزم ورأي ، فبعث إلى الدين بخربتنا : إني لا أكرهكم على البيعة ، وأنا أدعكم وأكف عنكم . فهاذنهم وهاذن مسلمة بن مخلد ، وجبى الخراج ، ليس أحد من الناس ينازعه .

قال : وخرج أمير المؤمنين إلى أهل الجمل وهو على مصر ، ورجع إلى الكوفة من البصرة وهو بمكانه ،

٦٤ سنة ٣٦

فكان أثقل خلق الله على معاوية بن أبي سفيان لقربه من الشام ، مخافة أن يُقبل إليه عليّ في أهل العراق ، ويُقبل إليه قيس بن سعد في أهل مصر ، فيقع معاوية بينهما .

وكتب معاوية بن أبي سفيان إلى قيس بن سعد - وعليّ بن أبي طالب يومئذ بالكوفة قبل أن يسير إلى صفين :

من معاوية بن أبي سفيان إلى قيس بن سعد . سلام عليك ، أما بعد ، فإنكم إن كنتم نقمتم على عثمان بن عفان رضي الله عنه في أثره رأيتموها ، أو ضربة سوط ضربها ، أو شتمة رجل ، أو في تسييره آخر ، أو في استعماله الفُتَى ، فإنكم قد علمتم - إن كنتم تعلمون - أن دمه لم يكن يحلّ لكم ، فقد ركبتم عظيماً من الأمر ، وجئتم شيئاً إذا ، فتب إلى الله عز وجلّ يا قيس بن سعد . فإنك كنت في المجليين على عثمان بن عفان - إن كانت التوبة من قتل المؤمن تُغني شيئاً - فأما صاحبك فإننا استيقنا أنه الذي أغرى به الناس ، وحملهم على قتله حتى قتلوه ، وأنه لم يسلم من دمه عظم قومك ، فإن استطعت يا قيس أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل . تابعنا على أمرنا ، ولك سلطان العراقين إذا ظهرت ما بقيت ، ولن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان ، وسلي غير هذا مما تحب ، فإنك لا تسألني شيئاً إلا أوتيته ، واكتب إليّ برأيك فيما كتبت به إليك . والسلام .

فلما جاءه كتاب معاوية أحب أن يدافعه ولا ييدي له أمره ، ولا يتعجل له حربه ، فكتب إليه :

أما بعد ، فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من قتل عثمان ، وذلك أمر لم أقارفه ، ولم أطف به . وذكرت أن صاحبي هو أغرى الناس بعثمان ، ودسهم إليه حتى قتلوه ، وهذا ما لم أطلع عليه ، وذكرت أن عظم عشيرتي لم تسلم من دم عثمان ، فأول الناس كان فيه قياماً عشيرتي . وأما ما سألتني من متابعتك ، وعرضت عليّ من الجزاء به ، فقد فهمته ، وهذا أمر لي فيه نظر وفكرة ، وليس هذا مما يسرع إليه ، وأنا كاف عنك ، ولن يأتيك من قبلي شيء تكرهه حتى ترى ونرى إن شاء الله ، والمستجار الله عز وجلّ ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قال : فلما قرأ معاوية كتابه ، لم يره إلا مقارباً مباعداً ، ولم يأمن أن يكون له في ذلك مباعداً مكايذاً ، فكتب إليه معاوية أيضاً :

أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، فلم أرك تدنو فأعدك سلماً ، ولم أرك تباعد فأعدك حرباً ، أنت فيما هاهنا كحَنَكِ الجزور ، وليس مثلي يصانع المخادع ، ولا ينتزع للمكايد ، ومعه عدد الرجال ، ويده أعنة الخيل ، والسلام عليك .

فلما قرأ قيس بن سعد كتاب معاوية ، ورأى أنه لا يقبل معه المدافعة والمماطلة ، أظهر له ذات نفسه ، فكتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم . من قيس بن سعد ، إلى معاوية بن أبي سفيان . أما بعد ، فإن العجب من اغترارك بي ، وطمعك فيّ ، واستسقاطك رأيي . أتسومني الخروج من طاعة أولى الناس بالإمرة ، وأقولهم للحق ، وأهداهم سبيلاً ، وأقربهم من رسول الله ﷺ وسيلة ، وتأمرني بالدخول في طاعتك ، طاعة أبعد

الناس من هذا الأمر ، وأقوهم للزور ، وأضلهم سبيلا ، وأبعدهم من الله عز وجل ورسوله ﷺ وسيلته ، ولد ضالين مضلين ، طاغوت من طاغيت إبليس ! وأما قولك إني مالى عليك مصر خيلاً ورجلاً فوالله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك ؛ إنك لذو جد ؛ والسلام . فلما بلغ معاوية كتاب قيس أيس منه ، وثقل عليه مكانه .

حدثني عبدالله بن أحمد المروزي ، قال : حدثني أبي قال : حدثني سليمان ، قال : حدثني عبدالله ، عن يونس ، عن الزهري ، قال : كانت مصر من حين عليّ ، عليها قيس بن سعد بن عباد ، وكان صاحب راية الأنصار مع رسول الله ﷺ ، وكان من ذوي الرأي والبأس ، وكان معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص جاهدين على أن يخرجاه من مصر ليغلبا عليها ، فكان قد امتنع فيها بالدهاء والمكايدة ، فلم يقدرا عليه ، ولا على أن يفتتحا مصر ، حتى كاد معاوية بن قيس بن سعد من قبل عليّ ، وكان معاوية يحدث رجلاً من ذوي الرأي من قريش يقول : ما ابتدعت مكايدة قط كانت أعجب عندي من مكايدة كدت بها قيساً من قبل عليّ وهو بالعراق حين امتنع مني قيس . قلت لأهل الشام : لا تسبوا قيس بن سعد ، ولا تدعوا إلى غزوه ، فإنه لنا شيعة ، يأتينا كيّس نصيحته سراً . ألا ترون ما يفعل بإخوانكم الذين عنده من أهل خربتنا ، يجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، ويؤمن سربهم ، ويحسن إلى كل راكب قدم عليه منكم ، لا يستنكرونه في شيء !

قال معاوية : وهمت أن أكتب بذلك إلى شيعتي من أهل العراق ، فيسمع بذلك جواسيس عليّ عندي وبالعراق . فبلغ ذلك علياً ، ونما إليه محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر بن أبي طالب . فلما بلغ ذلك علياً اتهم قيساً ، وكتب إليه يأمره بقتال أهل خربتنا . وأهل خربتنا يومئذ عشرة آلاف - فأبى قيس بن سعد أن يقاتلهم ، وكتب إلى عليّ : إنهم وجوه أهل مصر وأشرفهم ، وأهل الحفاظ منهم ، وقد رضوا مني أن أوّمن سربهم ، وأجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، وقد علمت أن هواهم مع معاوية ، فلست مكايدهم بأمر أهون عليّ وعليك من الذي أفعل بهم ، ولو أني غزوتهم كانوا لي قرناً ، وهم أسود العرب ، ومنهم بسير بن أبي أرتاة ، ومسلمة بن مخلد ، ومعاوية بن حديح ، فذري فأنا أعلم بما أداري منهم . فأبى عليّ إلا قتالهم ، وأبى قيس أن يقاتلهم .

فكتب قيس إلى عليّ : إن كنت تتهمني فاعزلي عن عملك ، وأبعث إليه غيري . فبعث عليّ الأشر أميراً إلى مصر ، حتى إذا صار بالقلزم شرب شربة عسل كان فيها حتفه . فبلغ حديثهم معاوية وعمراً . فقال عمرو : إن لله جنداً من عسل .

فلما بلغ علياً وفاة الأشر بالقلزم بعث محمد بن أبي بكر أميراً على مصر . فالزهري يذكر أن علياً بعث محمد بن أبي بكر ، أميراً على مصر بعد مهلك الأشر بقلزم ، وأما هشام بن محمد ، فإنه يذكر في خبره أن علياً بعث بالأشر أميراً على مصر بعد مهلك محمد بن أبي بكر .

رجع الحديث إلى حديث هشام عن أبي مخنف : ولما أيس معاوية من قيس أن يتابعه على أمره ، شقّ عليه ذلك ، لما يعرف من حزمه وبأسه ، وأظهر للناس قبله ، أن قيس بن سعد قد تابعكم ، فادعوا الله له ، وقرأ عليهم كتابه الذي لان له فيه وقاربه . قال : واختلق معاوية كتاباً من قيس بن سعد ، فقرأه على أهل الشام :

بسم الله الرحمن الرحيم : للأمر معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد ، سلام عليك ، فإنني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنني لما نظرت رأيت أنه لا يسعني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلماً محرمًا برأ تقياً ، فنستغفر الله عز وجل لذنوبنا ، ونسأله العصمة لديننا . ألا وإنني قد ألقيت إليكم بالسلم ، وإنني أجبتك إلى قتال قتلة عثمان ، إمام الهدى المظلوم ، فعول علي فيما أحببت من الأموال والرجال أعجل عليك ، والسلام .

فشاع في أهل الشام أن قيس بن سعد قد بايع معاوية بن أبي سفيان ، فسرح عيون علي بن أبي طالب إليه بذلك ؛ فلما أتاه ذلك أعظمه وأكبره ، وتعجب له ، ودعا بنيته ، ودعا عبدالله بن جعفر فأعلمهم ذلك ، فقال : ما رأيكم ؟ فقال عبدالله بن جعفر : يا أمير المؤمنين ، دَع ما يرييك إلى ما لا يرييك ، اعزل قيساً عن مصر . قال لهم علي : إني والله ما أصدق بهذا على قيس ؛ فقال عبدالله : يا أمير المؤمنين ؛ اعزله ، فوالله لئن كان هذا حقاً لا يعتزل لك إن عزلته .

فانهم كذلك إذ جاء كتاب من قيس بن سعد فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإنني أخبر أمير المؤمنين أكرمهم الله أن قبلي رجالاً معتزلين قد سألوني أن أكف عنهم ، وأن أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس ، فنرى ويرؤا رأيهم ، فقد رأيت أن أكف عنهم ، وألا أتعجل حربهم ، وأن أتألفهم فيما بين ذلك لعل الله عز وجل أن يقبل بقلوبهم ، ويفرقهم عن ضاللتهم ، إن شاء الله .

فقال عبدالله بن جعفر : يا أمير المؤمنين ، ما أخوفني أن يكون هذا ممالة لهم منه ، فمره يا أمير المؤمنين بقتالهم ، فكتب إليه علي :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فسر إلى القوم الذين ذكرت ، فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون وإلا فناجزهم إن شاء الله .

فلما أتى قيس بن سعد الكتاب فقرأه ، لم يتمالك أن كتب إلى أمير المؤمنين :

أما بعد يا أمير المؤمنين ، فقد عجبت لأمرك ، أتا مني بقتال قوم كافين عنك ، مُفرغيك لقتال عدوك ! وإنك متى حاربتهم ساعدوا عليك عدوك ، فأطعني يا أمير المؤمنين ، واكفف عنهم ، فإن الرأي تركهم ، والسلام .

فلما أتاه هذا الكتاب قال له عبدالله بن جعفر : يا أمير المؤمنين ، ابعث محمد بن أبي بكر على مصر يكفك أمرها ، واعزل قيساً ، والله لقد بلغني أن قيساً يقول : والله إن سلطاناً لا يتم إلا بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء ؛ والله ما أحب أن لي ملك الشام إلى مصر وأني قتلت ابن المخلد . قال : وكان عبدالله بن جعفر أخا محمد بن أبي بكر لأمه ، فبعث علي محمد بن أبي بكر على مصر ، وعزل عنها قيساً .

ولاية محمد بن أبي بكر مصر

قال هشام ، عن ابن مخنف : فحدثني الحارث بن كعب الوالي - من والبة الأزدي - عن أبيه ، أن علياً كتب معه إلى أهل مصر كتاباً ، فلما قدم به على قيس قال له قيس : ما بال أمير المؤمنين ! ما غيره ؟ أدخل

سنة ٣٦ ٦٧

أحدٌ بيني وبينه ؟ قال له : لا ، وهذا السلطان سلطانك ؟ قال : لا ، والله لا أقيم معك ساعة واحدة . وغضب حين عزله ، فخرج منها مقبلاً إلى المدينة ، فقدمها ، فجاءه حسان بن ثابت شامئاً به - وكان حسان عثمانياً - فقال له : نَزَعَكَ عَلِيٌّ بن أبي طالب ، وقد قتلت عثمان بقيتي عليك الإثم ، ولم يحسن لك الشكر ! فقال له قيس بن سعد : يا أعمى القلب والبصر ، والله لولا أن أَلْقَيْتَ بين رهطي ورهطك حرباً لضربت عنقك ، أخرج عني .

ثم إن قيساً خرج هو وسهل بن حنيف حتى قدما على عليٍّ ، فخبّره قيس ، فصدّقه عليٌّ . ثم إن قيساً وسهلاً شهدا مع عليٍّ صفين .

وأما الزُّهريُّ ، فإنه قال فيما حدّثني به عبدالله بن أحمد ، قال : حدّثني أبي ، قال : حدّثني سليمان ، قال : حدّثني عبدالله ، عن يونس ، عن الزُّهريِّ ، أنَّ محمد بن أبي بكر قدم مصر وخرج قيس فلحق بالمدينة ، فأخافه مروان والأسود بن أبي البختريِّ ، حتى إذا خاف أن يؤخذ أو يُقتل ، ركب راحلته ، فظهر إلى عليٍّ . فبعث معاوية إلى مروان والأسود يتغيّظ عليهما ، ويقول : أمددتما عليّاً بقيس بن سعد ورأيه ومكانه ، فوالله لو أنكما أمددتماه بمائة ألف مقاتل ما كان ذلك بأغيظ لي من إخراجكما قيس بن سعد إلى عليٍّ . فقدم قيس بن سعد على عليٍّ ، فلما بائه الحديث وجاءهم قتل محمد بن أبي بكر ، عرف أنَّ قيس بن سعد كان يقاسي أموراً عظيماً من المكايدة ، وأنَّ من كان يهزّه على عزل قيس بن سعد لم ينصح له ، فأطاع عليٌّ قيس بن سعد في الأمر كلّه .

قال هشام : عن أبي مخنف ، قال : حدّثني الحارث بن كعب الوالبيُّ ، عن أبيه ، قال : كنت مع محمد بن أبي بكر حين قدم مصر ، فلما قدم قرأ عليهم عهده :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد عبدالله عليّ أمير المؤمنين ، إلى محمد بن أبي بكر حين ولّاه مصر ، وأمره بتقوى الله والطاعة في السرّ والعلانية ، وخوفِ الله عزّ وجلّ في الغيب والمشهد ، وباللين على المسلمين ، وبالغلظة على الفاجر ، وبالعدل على أهل الذمّة ، وبإنصاف المظلوم ، وبالشدة على الظالم ، وبالعفو عن الناس ، وبالإحسان ما استطاع ، والله يجزي المحسنين ، ويعذب المجرمين . وأمره أن يدعو مَنْ قبله إلى الطاعة والجماعة ، فإنّ لهم في ذلك من العاقبة وعظيم المثوبة ما لا يقدّرون قدره ، ولا يعرفون كنهه ، وأمره أن يجيئ خراج الأرض على ما كانت تُجبي عليه من قبل ، لا يُنتقص منه ولا يُتدع فيه ، ثم يقسمه بين أهله على ما كانوا يقسمون عليه من قبل ، وأن يُلين لهم جناحه ، وأن يواسي بينهم في مجلسه ووجهه ، وليكن القريب والبعيد في الحقّ سواء . وأمره أن يحكم بين الناس بالحقّ ، وأن يقوم بالقسط ، ولا يتبع الهوى ، ولا يخفّ في الله عزّ وجلّ لومة لائم ، فإنّ الله جلّ ثناؤه مع من اتقى وآثر طاعته وأمره على ما سواه .

وكتب عبيدالله بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ لغرة شهر رمضان .

قال : ثم إن محمد بن أبي بكر قام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : الحمد لله الذي هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحقّ ، وبصرنا وإياكم كثيراً مما عمي عنه الجاهلون . ألا إنّ أمير المؤمنين ولاني أموركم ، وعهد إليّ ما قد سمعتم ، وأوصاني بكثير منه مشافهةً ، ولن ألوكم خيراً ما استطعت ، هو وما توفّقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؛ فإن يكن ما ترون من إمارتي وأعمالي طاعة لله وتقوى ، فاحمدوا الله عزّ

وجلّ على ما كان من ذلك ، فإنه هو الهادي ، وإن رأيتم عاملاً عمل غير الحق زائغاً ، فارفعوه إليّ ، وعاتبوني فيه ، فإني بذلك أسعد ، وأنتم بذلك جديرون . وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته ، ثم نزل .

وذكر هشام ، عن أبي مخنف ، قال : وحَدَّثني يزيد بن طَبَّان الهمدانيّ ، أنّ محمد بن أبي بكر كتب إلى معاوية بن أبي سفيان لما وُلِّيَ ؛ فذكر مكاتبات جرت بينهما كرهتُ ذكرها لما فيه ممّا لا يحتمل سماعها العامة . قال : ولم يلبث محمد بن أبي بكر شهراً كاملاً حتى بعث إلى أولئك القوم المعتزلين الذين كان قيس وادّعهم . فقال : يا هؤلاء ، إمّا أن تدخلوا في طاعتنا ، وإمّا أن تخرجوا من بلادنا ، فبعثوا إليه : إنا لا نفعل ، دُعنا حتى ننظر إلى ما تصير إليه أمورنا ، ولا تعجل بحربنا ، فأبى عليهم ، فامتنعوا منه ، وأخذوا جذرهم ، فكانت وقعة صفّين ، وهم لمحمد هائبون ، فلما أتاهم صبرُ معاوية وأهل الشام لعلّيّ ، وأنّ عليّاً وأهل العراق قد رجعوا عن معاوية وأهل الشام ، وصار أمرهم إلى الحكومة ، اجترؤوا على محمد بن أبي بكر ، وأظهروا له المبارزة ، فلما رأى ذلك محمد بعث الحارث بن جهمان الجعفيّ إلى أهل خِزِّرتا ، وفيها يزيد بن الحارث من بني كنانة ، فقاتلهم ، فقتلوه . ثم بعث إليهم رجلاً من كلب يدعى ابن مُضاهم ، فقتلوه .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة فيما قيل : قدم ماهويّه مرزبان مرو مقراً بالصلح الذي كان جرى بينه وبين ابن عامر على عليّ .

ذكر من قال ذلك :

قال عليّ بن محمد المدائنيّ ، عن أبي زكرياء العجلانيّ ، عن ابن اسحاق ، عن أشياخه ، قال : قدم ماهويّه أبراز مرزبان مرو على عليّ بن أبي طالب بعد الجمل مقراً بالصلح ، فكتب له عليّ كتاباً إلى دهاقين مرو والأساورة والجنند سلازين ومن كان في مرو :

بسم الله الرحمن الرحيم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإن ماهويّه أبراز مرزبان مرو جاءني ، وإنّي رضيت عنه . وكتب سنة ست وثلاثين . ثم إنهم كفروا وأغلقوا أبرشهر .

توجيه عليّ خُليد بن طريف إلى خراسان

قال عليّ بن محمد المدائنيّ : أخبرنا أبو مخنف ، عن حنظلة بن الأعلم ، عن ماهان الحنفيّ ، عن الأصبع بن نُبّاة المُجاشعيّ ، قال : بعث عليّ خُليد بن قرّة اليربوعيّ - ويقال خُليد بن طريف - إلى خراسان .

ذكر خبر عمرو بن العاص ومبايعته معاوية

وفي هذه السنة - أعني سنة ست وثلاثين - بايع عمرو بن العاص معاوية ، ووافقه على محاربة عليّ ، وكان السبب في ذلك ما كتب به إليّ السريّ ، عن شعيب ، عن سيف ، عن محمد وطلحة وأبي حارثة وأبي عثمان ، قالوا : لما أحيط بعثمان - رضي الله عنه - خرج عمرو بن العاص من المدينة متوجّهاً نحو الشام ، وقال : والله يا أهل المدينة ، ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلّا ضربه الله عزّ وجلّ بذلّ ؛ من لم يستطع نصره فليهرب . فسار وسار معه ابنه عبدالله ومحمد ؛ وخرج بعده حسان بن ثابت ، وتتابع على ذلك ما شاء الله .

قال سيف ، عن أبي حارثة وأبي عثمان ، قالوا : بينا عمرو بن العاص جالس بعجلان ومعه ابنه ، إذ مرّ بهم راكب فقالوا : من أين ؟ قال : من المدينة ، فقال عمرو : ما اسمك ؟ قال : حصيرة . قال عمرو :

حُصِرَ الرجل ، قال : فما الخبر ؟ قال : تركت الرجل محصوراً ؛ قال عمرو : يُقْتَل . ثم مكثوا أياماً ، فمرّ بهم راكب ، فقالوا : من أين ؟ قال : من المدينة ؛ قال عمرو : ما اسمُك ؟ قال : قَتَال ؛ قال عمرو : قُتِلَ الرجل ، فما الخبر ؟ قال : قُتِلَ الرجل . قال : ثم لم يكن إلّا ذلك إلى أن خرجت ، ثم مكثوا أياماً ، فمرّ بهم راكب ، فقالوا : من أين ؟ قال : من المدينة ؛ قال عمرو : ما اسمُك ؟ قال : حرب ، قال عمرو : يكون حرب ؛ فما الخبر ؟ قال : قُتِلَ عثمانُ بنُ عفّان رضي الله عنه ، وبويع لعليّ بن أبي طالب ، قال عمرو : أنا أبو عبدالله ؛ تكون حربٌ من حَكٍّ فيها قرحة نكّأها ، رحم الله عثمان ورضي الله عنه ، وغفر له ! فقال سلامة بن زُنباع الجُدّامي : يا معشر قريش : إنه والله قد كان بينكم وبين العرب باب ، فاتخذوا باباً إذ كُسر الباب . فقال عمرو : وذلك الذي نريد . ولا يُصلح البابُ إلّا أشافٍ تُخرج الحقّ من حافرة البأس ، ويكون الناس في العدل سواء ، ثم تمثّل عمرو في بعض ذلك :

يا هَلَفَ نفسي على مالِكِ وهل يَصْرِفُ اللَهْفُ جَفْظَ القَدَرِ
أَنْزَعُ من الحرِّ أَوْذَى بهم فأَعْذِرْهم أم بقومي سَكْرًا

ثم ارتحل راجلاً يبكي كما تبكي المرأة ، ويقول : واعثماناه ! أنعى الحياء والدين ! حتى قدم دمشق ، وقد كان سقط إليه من الذي يكون علمٌ ، فعمل عليه .

كتب إليّ السريّ ، عن شعيب ، عن سيف ، عن محمد بن عبدالله ، عن أبي عثمان ، قال : كان النبي ﷺ قد بعث عمرًا إلى عُمان ، فسمع هنالك من حَبْرٍ شيئاً ، فلما رأى مُصدّقه وهو هناك أرسل إلى ذلك الحَبْر ، فقال : حدّثني بوفاة رسول الله ﷺ ، وأخبرني من يكون بعده ؟ قال : الذي كتب إليك يكون بعده ، ومُدّتّه قصيرة ، قال : ثمّ من ؟ قال : رجل من قومه مثله في المنزلة ؛ قال : فما مدّتّه ؟ قال : طويلة ؛ ثم يقتل . قال أغيلة أم عن ملائ ؟ قال : غيلة ؛ قال : فمن يلي بعده ؟ قال : رجل من قومه مثله في المنزلة ، قال : فما مدّتّه ؟ قال : طويلة ، ثم يُقتل ، قال : أغيلة أم عن ملائ ؟ قال : عن ملائ . قال : ذلك أشدّ ؛ فمن يلي بعده ؟ قال : رجل من قومه ينتشر عليه الناس ، وتكون على رأسه حرب شديدة بين الناس ، ثم يُقتل قبل أن يجتمعوا عليه ، قال : أغيلة أم عن ملائ ؟ قال : غيلة ، ثم لا يروُن مثله . قال : فمن يلي بعده ؟ قال : أمير الأرض المقدّسة ، فيطول ملكه ، فيجتمع أهل تلك الفرقة وذلك الانتشار عليه ، ثم يموت .

وأما الواقديّ ، فإنه فيها حدّثني موسى بن يعقوب ، عن عمّه ، قال : لما بلغَ عمرًا قتل عثمان رضي الله عنه ، قال : أنا عبدالله ، قتلته وأنا بوادي السّباع ، من يلي هذا الأمر من بعده ! إن يله طلحة فهو فتى العرب سيّئاً ، وإن يله ابن أبي طالب فلا أراه إلّا سيسنّظف الحقّ ، وهو أكره من يليه إليّ . قال : فبلغه أنّ عليّاً قد بويع له ، فاشتدّ عليه ، وتربّص أياماً ينظر ما يصنع الناس ، فبلغه مسير طلحة والزبير وعائشة وقال : أستأني وأنظر ما يصنعون ، فاتاه الخبر أنّ طلحة والزبير قد قُتِلَا ، فأرتج عليه أمره ، فقال له قائل : إن معاوية بالشام لا يريد أن يبايع لعليّ ، فلو قاربت معاوية ! فكان معاوية أحبّ إليه من عليّ بن أبي طالب . وقيل له : إنّ معاوية يُعْظِم شأن قتل عثمان بن عفّان ، ويحرّض على الطلب بدمه ، فقال عمرو : ادعوا لي محمداً وعبد الله ، فدعيا له ، فقال : قد كان ما قد بلغكما من قتل عثمان رضي الله عنه ، وبِيعه الناس لعليّ ، وما يُرصد معاوية من مخالفة عليّ ، وقال : ما تريان ؟ أمّا عليّ فلا خيرَ عنده ، وهو رجل يُدِلّ بسابقته ، وهو غير مُشركي في شيء

من أمره . فقال عبدالله بن عمرو : توفي النبي ﷺ وهو عنك راضٍ ، وتوفي أبو بكر رضي الله عنه وهو عنك راضٍ ، وتوفي عمر رضي الله عنه وهو عنك راضٍ ، أرى أن تكف يدك ، وتجلس في بيتك ، حتى يجتمع الناس على إمام فتبايعه . وقال محمد بن عمرو : أنت نائب من أنياب العرب ، فلا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت ولا ذكر . قال عمرو : أما أنت يا عبدالله فأمرتني بالذي هو خير لي في آخرتي ، وأسلم في ديني ، وأما أنت يا محمد فأمرتني بالذي أنبه لي في دنياي ، وشر لي في آخرتي . ثم خرج عمرو بن العاص ومعه ابنه حتى قدم على معاوية ، فوجد أهل الشام يخضون معاوية على الطلب بدم عثمان ، فقال عمرو بن العاص : أنتم على الحق ، اطلبوا بدم الخليفة المظلوم - ومعاوية لا يلتفت إلى قول عمرو - فقال ابنه عمرو لعمر : ألا ترى إلى معاوية لا يلتفت إلى قولك ! انصرف إلى غيره . فدخل عمرو على معاوية فقال : والله لآعجب لك ! إني أرفدك بما أرفدك وأنت معرض عني ! أما والله إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة إن في النفس من ذلك ما فيها ، حيث نقاتل من تعلم سابقته وفضله وقربته ؛ ولكننا إنما أردنا هذه الدنيا . فصالحه معاوية وعطف عليه .

توجيه علي بن أبي طالب جرير بن عبدالله البجلي إلى معاوية

يدعوه إلى الدخول في طاعته

وفي هذه السنة وجه علي عند منصرفه من البصرة إلى الكوفة وفراغه من الجمل جرير بن عبدالله البجلي إلى معاوية يدعوه إلى بيعته ، وكان جرير حين خرج علي إلى البصرة لقتال من قاتله بها همذان عاملاً عليها ، كان عثمان استعمله عليها ، وكان الأشعث بن قيس على أذربيجان عاملاً عليها ، كان عثمان استعمله عليها ، فلما قدم علي الكوفة منصرفاً إليها من البصرة ، كتب إليهما يأمرهما بأخذ البيعة له على من قبلهما من الناس ، والانصراف إليه . ففعل ذلك ، وانصرفا إليه .

فلما أراد علي توجيه الرسول إلى معاوية ، قال جرير بن عبدالله - فيما حدثني عمر بن شبة ، قال : حدثنا أبو الحسن ، عن عوانة - : ابعثني إليه ، فإنه لي ود حتى آتية فأدعوه إلى الدخول في طاعتك ، فقال الأشتر لعلي : لا تبعته ، فوالله إني لأظن هواه معه ؛ فقال علي : دعه حتى ننظر ما الذي يرجع به إلينا ، فبعثه إليه ، وكتب معه كتاباً يعلمه فيه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ، ونكت طلحة والزبير ، وما كان من حربه إياهما ، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته ، فشخص إليه جرير ، فلما قدم عليه ماطله واستنظره ، ودعا عمرأ فاستشاره فيما كتب به إليه ، فأشار عليه أن يرسل إلى وجوه الشام ، ويلزم علياً دم عثمان ، ويقاتله بهم ، ففعل ذلك معاوية ، وكان أهل الشام - فيما كتب إلي السري - يذكر أن شعبياً حدثه عن سيف ، عن محمد وطلحة - لما قدم عليهم النعمان بن بشير بقميص عثمان رضي الله عنه - الذي قتل فيه مخضباً دمه وبأصابع نائلة زوجته مقطوعة بالبراجم ، إصبعان منها وشيء من الكف ، وإصبعان مقطوعتان من أصولهما ونصف الإبهام - وضع معاوية القميص على المنبر ، وكتب بالخبر إلى الأجناد ، وثاب إليه الناس ، وسوا سنة وهو على المنبر والأصابع معلقة فيه ، وآلى الرجال من أهل الشام ألا يأتوا النساء ، ولا يمسهن الماء للغسل إلا من احتلام ، ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ، ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم . فمكثوا حول القميص سنة ، والقميص يوضع كل يوم على المنبر ويجلل أحياناً فيلبسه . وعلق في

أردانه أصابع نائلة رضي الله عنها .

فلما قدم جرير بن عبدالله على عليّ - فيما حدثني عمر بن شبة ، قال : حدثنا أبو الحسن ، عن عوانة - فأخبره خبر معاوية واجتماع أهل الشام معه على قتاله ، وأنهم سيكون على عثمان ، ويقولون : إنّ عليّاً قتله ، وأوى قتلته ، وإنهم لا ينتهون عنه حتى يقتلهم أو يقتلوه . فقال الأشرل عليّ : قد كنت نهيّتك أن تبعث جريراً ، وأخبرتك بعداوته وغشّه ، ولو كنت بعثتني كان خيراً من هذا الذي أقام عنده حتى لم يدع باباً يرجو فتحه إلاّ فتحه ، ولا باباً يخاف منه إلاّ أغلقه . فقال جرير : لو كنت ثمّ لقتلوك ؛ لقد ذكروا أنّك من قتل عثمان رضي الله عنه ، فقال الأشر : لو أتيتهم والله يا جرير لم يعينني جوابهم ، ولحملت معاوية على خطة أعجله فيها عن الفكر ، ولو أطاعني فيك أمير المؤمنين لحبسك وأشباهك في محبس لا تخرجون منه حتى تستقيم هذه الأمور .

فخرج جرير بن عبدالله إلى قرقيسياء ، وكتب إلى معاوية ، فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه . وخرج أمير المؤمنين فعسكر بالأنخيلة ، وقدم عليه عبد الله بن عباس بمن نهض معه من أهل البصرة .

خروج علي بن أبي طالب إلى صفين

حدثني عبدالله بن أحمد المروزيّ ، قال : حدثني أبي ، عن سليمان ، عن عبدالله ، عن معاوية بن عبد الرحمن ، عن أبي بكر الهذليّ ، أن عليّاً لما استخلف عبد الله بن عباس على البصرة سار منها إلى الكوفة ، فتهدّأ فيها إلى صفين ، فاستشار الناس في ذلك ، فأشار عليه قوم أن يبعث الجنود ويقيم ؛ وأشار آخرون بالمسير . فأبى إلاّ المباشرة ، فجهّز الناس . فبلغ ذلك معاوية ، فدعا عمرو بن العاص فاستشاره . فقال : أمّا إذ بلغك أنه يسير فسير بنفسك ، ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك . قال : أمّا إذا يا أبا عبدالله فجهّز الناس . فجاء عمرو فحضض الناس ، وضعّف عليّاً وأصحابه ، وقال : إنّ أهل العراق قد فرّقوا جمعهم ، وأوهنوا شوكتهم ، وفلّوا حدّهم ، ثم إنّ أهل البصرة مخالفون لعليّ ، وقد وترهم وقتلهم ، وقد تفانت صنّاديدهم وصنّاديدهم أهل الكوفة يوم الجمل ، وإنما سار في شردمة قليلة ، ومنهم من قتل خليفتك ؛ فالله الله في حقكم أن تضيعوه ، وفي دمكم أن تبطلوه !

وكتب في أجناد أهل الشام ، وعقد لواءه لعمرو ، فعقد لوردان غلامه فيمن عقد ، ولأبنيه عبدالله ومحمد ، وعقد عليّ لغلّامه قنبر ، ثم قال عمرو :

هَلْ يُغْنِيَنَّ وَرْدَانُ عَنِّي قَنْبَرًا وَتُغْنِيَّ السَّكُونُ عَنِّي جَمِيرًا
إِذَا الْكُفَاةُ لَبَسُوا السَّنُورًا

فبلغ ذلك عليّاً فقال :

لَا تُضِجَنَّ الْعَاصِيَّ ابْنَ الْعَاصِي سَبْعِينَ أَلْفًا عَاقِدِي النَّوَاصِي
مُجَنَّبِينَ الْخَيْلَ بِالْقِلَاصِ مُسْتَجِرِّقِينَ حَلَقَ الدَّلَاصِ

فلما سمع ذلك معاوية قال : ما أرى ابن أبي طالب إلاّ قد وفى لك ؛ فجاء معاوية يتأني في مسيره . وكتب إلى كلّ من كان يرى أنه يخاف عليّاً أو طعن عليه ومن أعظم دم عثمان واستعواهم إليه . فلما رأى ذلك الوليد بعث إليه يقول :

أَلَا أَبْلُغُ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ فَإِنَّكَ مِنْ أَخِي ثِقَةٍ مُلِيمٍ

قَطَعْتَ الدهرَ كالسِّدِّمِ الْمُعْنَى
وإنَّكَ والكتابُ إليَّ عليَّ
يُمْنِيكَ الإمارةُ كُلُّ رُكْبٍ
وليس أخو التُّراتِ بمن تَوَانِي
ولو كنتَ القَتِيلَ وكان حيًّا
ولا نَكِلَ عن الأوتارِ حتَّى
وقومُكَ بالمدينةِ قد أبيعروا
تَهْدَرُ في دِمَشَقٍ فما تَرِيمُ
كدابِغَةٍ وقد حَلِمَ الأديمُ
لأنقاضِ العراقِ بِها رَسِيمُ
ولكنَّ طالِبُ التَّرةِ الغُشُومُ
لَجَرْدٌ ؛ لا أَلْفٌ ولا سَوُومُ
يُبيءُ بِها ، ولا بَرِمُ جَثُومُ
فَهُم صَرَعَى كأنَّهُم الهَشِيمُ

وقال غيرُ أبي بكرٍ: فدعا معاويةَ شَذادَ بنِ قيسِ كاتبه وقال: ابغني طُوماراً ، فأثاء بطُومار ، فأخذ القلم فكتب ، فقال: لا تَعْجَل ، اكتب:

وَمُسْتَعْجِبٍ مِمَّا يَرَى مِنْ أَنْاتِنَا وَلَوْ زَبَنَتْهُ الحَرْبُ لَمْ يَتْرَمِرْ
ثم قال: اطوِ الطُومار ، فأرسل به إلى الوليد ، فلما فتحه لم يجد فيه غير هذا البيت .

قال أبو بكر الهذلي: وكتب رجل من أهل العراق حيث سار علي بن أبي طالب إلى معاوية بيتين:

أَبْلِغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَخَا الْعِرَاقِ إِذَا أَتَيْتَا
أَنَّ الْعِرَاقَ وَأَهْلَهَا عُنُقُ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا

عاد الحديث إلى حديث عوانة . فبعث عليُّ زيادَ بنَ النُّضرِ الحارثيَ طليعةً في ثمانية آلاف ، وبعث معه شريحَ بنَ هانئٍ في أربعة آلاف ، وخرج عليُّ من النُّخَيْلةِ بمن معه ، فلما دخل المدائنَ شَخَّصَ معه مَنْ فِيهَا مِنَ المقاتلةِ ، وولَّى على المدائنِ سَعْدَ بنَ مسعودِ الثقفيَّ عمَّ المختارِ بنِ أبي عُبَيْدٍ ، ووجَّهَ عليُّ من المدائنِ معقِلَ بنَ قيسٍ في ثلاثة آلاف ، وأمره أن يأخذ على الموصلِ حتَّى يوافيه .

ما أمر به عليُّ بن أبي طالب من عمل الجسر على الفرات

فلما انتهى عليُّ إلى الرِّقَّةِ قال فيها حُدُثَتْ عن هشامِ بنِ محمد ، عن أبي مخنف ، قال: حَدَّثَنِي الحَجَّاجُ بنُ عليٍّ ، عن عبد الله بنِ عمارِ بنِ عبد يغوثِ البارقِيّ - لأهل الرِّقَّةِ : اجسُّروا لي جسراً حتَّى أعبرَ من هذا المكانِ إلى الشامِ ؛ فأبوا . وقد كانوا ضَمُّوا إليهم السفنَ ، فنهضَ من عندهم ليعبرَ من جسرِ منبِجَ ، وخَلَفَ عليهم الأشرَ ، وذهبَ ليمضِي بالناسِ كيما يعبرَ بهم على جسرِ منبِجَ ، فناداهم الأشرَ ، فقال: يا أهل هذا الحصنِ ، ألا إني أقسمُ لكم بالله عزَّ وجلَّ ؛ لئن مضى أميرُ المؤمنينِ ولم تُجسِّروا له عندَ مدينتكم جسراً حتَّى يعبرَ لأجرِدَنَّ فيكم السيفَ ، ثم لأقتلَنَّ الرجالَ ولأخربَنَّ الأرضَ ، ولأخذنَّ الأموالَ . قال: فلقيَ بعضهم بعضاً ، فقالوا: أليس الأشرَ يفي بما حلفَ عليه ، أو يأتي بشرُّ منه ؟ قالوا: نعم ، فبعثوا إليه: إنا ناصبونَ لكم جسراً ، فأقبلوا ، وجاءَ عليُّ فنصبوا له الجسرَ ، فعبَرَ عليه بالأثقالِ والرجالِ . ثم أمرَ عليُّ الأشرَ فوقفَ في ثلاثة آلاف فارسَ ، حتَّى لم يبقَ من الناسِ أحدٌ إلَّا عبَرَ ، ثم إنه عبَرَ آخرَ الناسِ رجلاً .

قال أبو مخنف: وحَدَّثَنِي الحَجَّاجُ بنُ عليٍّ ، عن عبد الله بنِ عَمَّارِ بنِ عبد يغوثَ ، أنَّ الحنِيلَ حينَ عبرتَ زَحَمَ بعضها بعضاً ، فسقطت قَلَنْسُوةُ عبد الله بنِ أبي الحصينِ الأزديِّ ، فنزل فأخذها ثم ركبَ ، وسقطت

قلنسوة عبد الله بن الحجاج الأزدي ، فنزل فأخذها ، ثم ركب ، وقال لصاحبه :

فإن يك ظن الزاجري الطير صادقاً كما زعموا أقتل وشيكاً وتقتل

فقال له عبد الله بن أبي الحصين : ما شيء أوتاه أحب إلي مما ذكرت ، فقتل جميعاً يوم صفين .

قال أبو مخنف : فحدثني خالد بن قطن الحارثي ، أن علياً لما قطع الفرات دعا زياد بن النضر ، وشريح بن هانئ ، فسرّحهما أمامه نحو معاوية على حالهما التي كانا خرجا عليها من الكوفة . قال : وقد كانا حيث سرّحهما من الكوفة أخذنا على شاطئ الفرات من قبل البرّ مما يلي الكوفة حتى بلغا عانات ، فبلغهما أخذ عليّ على طريق الجزيرة ، وبلغهما أن معاوية قد أقبل من دمشق في جنود أهل الشام لاستقبال عليّ ، فقالا : لا والله ما هذا لنا برأي ؛ أن نسير وبيننا وبين المسلمين وأمير المؤمنين هذا البحر ! وما لنا خير في أن نلقى جنود أهل الشام بقلة من معنا منقطعين من العدد والمدد . فذهبوا ليعبروا من عانات ، فمَنَعَهُم أهل عانات ، وحبسوا عنهم السفن ، فأقبلوا راجعين حتى عبروا من هيت ، ثم لحقوا علياً بقرية دون قرقيسياء ، وقد أرادوا أهل عانات ، فتحصّنوا وفروا ، ولما لحقت المقدمة علياً قال : مقدّمتي تأتيني من ورائي . فتقدّم إليه زياد بن النضر الحارثي وشريح بن هانئ ، فأخبراه بالذي رأيا حين بلغهما من الأمر ما بلغهما ، فقال : سددتما . ثم مضى عليّ ، فلما عبر الفرات قدّمهما أمامه نحو معاوية ، فلما انتهيا إلى سور الرّوم لقيهما أبو الأعور السلمي عمرو بن سفيان في جند من أهل الشام ، فأرسل إلى عليّ : إنّا قد لقينا أبو الأعور السلمي في جند من أهل الشام ، وقد دعوناهم فلم يُجبنا منهم أحد ، فمرنا بأمرك ، فأرسل عليّ إلى الأشتر ، فقال : يا مالك ، إن زياداً وشريحاً أرسلا إليّ يعلماني أنها لقيّا أبا الأعور السلمي في جمع من أهل الشام ، وأنبأني الرسول أنه تركهم متواقفين ، فالتجاء إلى أصحابك النّجاء ، فإذا قدمت عليهم فانت عليهم . وإياك أن تبدأ القوم بقتال إلا أن يبدؤوك حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع ، ولا تجرّ منك شأنهم على قتالهم قبل دعائهم ، والإعذار إليهم مرة بعد مرة ، واجعل على ميمنتك زياداً ، وعلى ميسرتك شريحاً ، وقف من أصحابك وسطاً ، ولا تدن منهم دنو من يريد أن يُنشب الحرب ، ولا تباعد منهم بُعد من يهاب البأس حتى أقدم عليك ، فإني حثيث السير في أترك إن شاء الله . قال : وكان الرسول الحارث بن جهمان الجعفيّ ، فكتب عليّ إلى زياد وشريح :

أمّا بعد ، فإني قد أمرت عليكما مالكا ، فاسمعا له وأطيعا ، فإنه ممن لا يخاف رَهَقَهُ ولا سِقَاطَهُ ولا بطوّه عمّا الإسراع إليه أحزم ، ولا الإسراع إلى ما الإبطاء عنه أمثل ، وقد أمرته بمثل الذي كنتُ أمرتكما به ألا يبدأ القوم حتى يلقاتهم فيدعوهم ويُعذر إليهم .

وخرج الأشتر حتى قدم على القوم ، فاتّبع ما أمره عليّ وكفّ عن القتال فلم يزلوا متواقفين حتى إذا كان عند المساء حمل عليهم أبو الأعور السلمي ، فثبتوا له ، واضطربوا ساعة . ثم إنّ أهل الشام انصرفوا ، ثم خرج إليهم من الغد هاشم بن عتبة الزهريّ في خيل ورجال حسن عددها وعدتها ، وخرج إليه أبو الأعور فاقتتلوا يومهم ذلك ، تُحمِل الخيل على الخيل والرجال على الرجال ، وصبر القوم بعضهم لبعض ، ثم انصرفوا ، وحمل عليهم الأشتر ، فقتل عبد الله بن المنذر التنوخيّ ، قتله يومئذ ظبيان بن عمار التميمي ، وما هو إلا فتى حدث ، وإن كان التنوخيّ لفارس أهل الشام ، وأخذ الأشتر يقول : وَيَحْكُم ! أروني أبا الأعور .

ثم إن أبا الأعور دعا الناس ، فرجعوا نحوه ، فوقف من وراء المكان الذي كان فيه أوّل مرة ، وجاء

الأشتر حتى صَفَّ أصحابه في المكان الذي كان فيه أبو الأعور ، فقال الأشتر لسنان بن مالك النَّخَعِيّ : انطلق إلى أبي الأعور فادعه إلى المِبارزة ، فقال : إلى مبارزتي أو مبارزتك ؟ فقال له الأشتر : لو أمرتُك بمِبارزته فعلتُ ؟ قال : نعم ، والله لو أمرتني أن أعترض صفَّهم بسيفي ما رجعتُ أبداً حتى أضرب بسيفي في صفَّهم ، قال له الأشتر : يا ابن أخي ، أطل الله بقاءك ! قد والله ازدادت رغبة فيك ، لا أمرتُك بمِبارزته ، إنما أمرتُك أن تدعوه إلى مبارزتي ، إنه لا يبرزُ إن كان ذلك من شأنه إلا لذوي الأسنان والكفاءة والشرف - وأنت - لربك الحمد - من أهل الكفاءة والشرف ، غير أنك فتى حَدَث السن ، فليس بمبارز الأحداث ، ولكن ادعه إلى مبارزتي . فأتاه فنادى : آمنوني فإنِّي رسول . فأومن ، فجاء حتى انتهى إلى أبي الأعور . قال أبو مخنف : فحدَّثني النضر بن صالح أبو زهير العبسيّ ، قال : حدَّثني سنان ، قال : فدنوت منه فقلت : إنَّ الأشتر يدعوك إلى مبارزته . قال : فسكت عني طويلاً ثم قال : إنَّ خِفة الأشتر وسوء رأيه هو حمله على إجلاء عمال ابن عفان رضي الله عنه من العراق ، وانتزاؤه عليه يقبَح محاسنه ، ومن خِفة الأشتر وسوء رأيه أن سار إلى ابن عفان رضي الله عنه في داره وقراره حتى قتله فيمن قتله ، فأصبح متبِعاً بدمه ؛ ألا لا حاجة لي في مبارزته . قال : قلت : إنك قد تكلمت ، فاسمع حتى أجيبك ، فقال : لا ، لا حاجة لي في الاستماع منك ولا في جوابك ، اذهب عني . فصاح بي أصحابه فانصرفوا عنه ، ولو سمع إليّ لأخبرته بعذر صاحبي وحجتي . فرجعت إلى الأشتر ، فأخبرته أنه قد أبى المِبارزة ، فقال : لنفسه انظر ، فواقفناهم حتى حجز الليل بيننا وبينهم ، وبتنا متحارسين ، فلما أصبحنا نظرنا فإذا القوم قد انصرفوا من تحت ليلتهم ، ويصحبنا عليّ بن أبي طالب غُدوة . فقدم الأشتر فيمن كان معه في تلك المقدمة حتى انتهى إلى معاوية ، فواقفه ، وجاء عليّ في أثره فلحق الأشتر سريعاً ، فوقف وتواقفوا طويلاً .

ثم إنَّ عليّاً طلب موضعاً لعسكره ، فلما وجده أمر الناس فوضعوا الأثقال ، فلما فعلوا ذهب شبابُ الناس وغلبتهم يستقون ، فمنعهم أهل الشام . فاقتتل الناس على الماء ، وقد كان الأشتر قال له قبل ذلك : إنَّ القوم قد سبقوا إلى الشريعة وإلى سهولة الأرض وسعة المنزل ، فإن رأيت سرنا نجوزهم إلى القرية التي خرجوا منها ، فإنهم يشخصون في أثرنا ، فإذا هم لحقونا نزلنا فكنّا نحن وهم على السواء ، فكّره ذلك عليّ ، وقال : ليس كلّ الناس يقوى على المسير ، فنزل بهم .

القتال على الماء

قال أبو مخنف : وحدَّثني تميم بن الحارث الأزديّ ، عن جندب بن عبد الله ، قال : إنّا لما انتهينا إلى معاوية وجدناه قد عسكر في موضع سهل أقيح قد اختاره قبل قدومنا إلى جانب شريعة في الفُرات ، ليس في ذلك الصُّقع شريعة غيرها ، وجعلها في حيزه ، وبعث عليها أبا الأعور يمنعها ويحميها ، فارتفعنا على الفرات رجاء أن نجد شريعة غيرها نستغني بها عن شريعتهم فلم نجدها ، فأتينا عليّاً فأخبرناه بعطش الناس ، وأبنا لا نجد غير شريعة القوم . قال : فقاتلهم عليها . فجاءه الأشعث بن قيس الكنديّ فقال : أنا أسير إليهم ، فقال له عليّ : فسر إليهم . فسار وسرنا معه ، حتى إذا دنونا من الماء ثاروا في وجوهنا ينضحوننا بالنبل ، ورشقناهم والله بالنبل ساعة ، ثم أطعنا والله بالرماح طويلاً ، ثم صرنا آخر ذلك نحن والقوم إلى السيوف ، فاجتلدنا بها ساعة ، ثم إنَّ القوم أتاهم يزيد بن أسد البجليّ مُمدداً في الخيل والرجال ، فأقبلوا نحونا ، فقلت في

نفسى : فأمر المؤمنين لا يبعث إلينا بمن يغني عنا هؤلاء ، فذهبت فالتفت فإذا عدّة القوم أو أكثر ، قد سرحهم إلينا ليغنوا عنا يزيد بن أسد وأصحابه ، عليهم شبت بن ربعي الرياحي ، فوالله ما ازداد القتال إلا شدة . وخرج إلينا عمرو بن العاص من عسكر معاوية في جند كثير ، فأخذ يمدّ أبا الأعور ويزيد بن أسد ، وخرج الأشتر من قبل عليّ في جمع عظيم . فلما رأى الأشتر عمرو بن العاص يمدّ أبا الأعور ويزيد بن أسد ، أمد الأشعث بن قيس وشبت بن ربعي ، فاشتدّ قتالنا وقتلهم ، فما أنسى قول عبد الله بن عوف بن الأحمر الأزدي :

خلوا لنا ماء الفرات الجاري أو أثبتوا لجحفل جرار
لكل قرم مستميت شاري مطاعن برمجه كرار
ضراب هامات العدا مغوار

قال أبو مخنف : وحدّثني رجل من آل خارجة بن التميمي أنّ ظبيان بن عمارة جعل يومئذ يقاتل وهو يقول :

هل لك يا ظبيان من بقاء في ساكن الأرض بغير ماء
لا وإليه الأرض والسّماء فاضرب وجوه الغدر الأعداء
بالسيف عند خمس الوغاء حتى يجيبوك إلى السّواء
قال ظبيان : فضربناهم والله حتى خلّونا وإياه .

قال أبو مخنف : وحدّثني أبي يحيى بن سعيد ، عن عمّه محمد بن مخنف ، قال : كنت مع أبي مخنف بن سليم يومئذ ، وأنا ابن سبع عشرة سنة ، ولست في عطاء ، فلما منع الناس الماء قال لي أبي : لا تبرحن الرّحل ، فلما رأيت المسلمين يذهبون نحو الماء لم أصبر ، فأخذت سيفي ، وخرجت مع الناس فقاتلت ، قال : وإذا أنا بغلام مملوك لبعض أهل العراق ومعه قربة ، فلما رأى أهل الشام قد أفرجوا عن الشريعة اشتدّ حتى ملأ قربته ، ثم أقبل ، وبشّد عليه رجل من أهل الشام فيضربه فيصرعه ، وسقطت القربة منه . قال : وأشدّ على الشامي فاضربه فأصرعه . واشتدّ أصحابه فاستنقذوه ، فسمعتهم وهم يقولون : لا نأمن عليك . ورجعت إلى المملوك فاحتملته ، فإذا هو يكلمني وبه جرح رغيّب ، فما كان أسرع من أن جاءه مولاة ، فذهب به ، وأخذت قربته وهي مملوءة ، وآتت بها أبي مخنف ، فقال : من أين جئت بها ؟ فقلت : اشتريتها - وكرهت أن أخبره الخبر ، فيجد عليّ - فقال : استن القوم ، فسقيتهم ، ثم شرب آخرهم ، ونازعني نفسي والله إلى القتال ، فأنطلق فأتقدم فيمن يقاتل ، فقاتلناهم ساعة ، ثم أشهد أنهم خلّوا لنا عن الماء ، فما أمسينا حتى رأينا سقائنا وسقائهم يزدحمون على الشريعة ، وما يؤذي إنسان إنساناً ، فأقبلت راجعاً ، فإذا أنا بمولى صاحب القربة ، فقلت : هذه قربتك عندنا ، فأرسل من يأخذها ، أو أعلمني مكانك حتى أبعث بها إليك ، فقال : رحمك الله ! عندنا ما نكتفي به ، فأنصرفت وذهب ، فلما كان من الغد مرّ على أبي ، فوقف فسلم عليه ، ورآني إلى جنبتيه ، فقال : ما هذا الفتى منك ؟ قال : ابني ، قال : أراك الله فيه السرور ، أنقذ الله عزّ وجلّ أمس غلامي به من القتل ، حدّثني شباب الحيّ أنه كان أمس أشجع الناس ، فنظر إليّ أبي نظرة عرفت منها في وجهه الغضب ، فسكت حتى إذا مضى الرجل قال : هذا ما تقدّمت إليه فيه ! فحلفني ألا أخرج إلى قتال إلا بإذنه ، فما شهدت من قتالهم إلا ذلك اليوم حتى كان يوم من أيامهم .

قال أبو مخنف : وحَدَّثني يونس بن أبي إسحاق السَّيِّعِي ، عن مهران مولى يزيد بن هانئ ، قال : والله إن مولاي يزيد بن هانئ لَيُقَاتِلُ على الماء ، وإنَّ القربة لفي يده ، فلما انكشف أهل الشام انكشافاً عن الماء ، استندرت حتى أسقى ، وإني فيما بين ذلك لأقاتل وأرامي .

قال أبو مخنف : وحَدَّثني يوسف بن يزيد ، عن عبد الله بن عوف بن الأحمر ، قال : لما قدمنا على معاوية وأهل الشام بصقّين ، وجدناهم قد نزلوا منزلاً اختاروه مستويّاً بساطاً واسعاً ، أخذوا الشريعة ، فهي في أيديهم ، وقد صفّ أبو الأعور السُّلَمِيّ عليها الخيل والرجال ، وقد قدّم المرامية أمام من معه ، وصفّ صفّاً معهم من الرماح والدّرَق ، وعلى رؤوسهم البَيْض ، وقد أجمعوا على أن يمينونا الماء ، ففزعنا إلى أمير المؤمنين ، فخبّرنا بذلك ، فدعا صعصعة بن ضُوحان فقال له : ائت معاوية وقل له : إنّا سيرنا مسيرنا هذا إليكم ، ونحن نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم ، وإنك قدّمت إلينا خيلك ورجالك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك ، وبدأتنا بالقتال ، ونحن من ربنا الكفّ عنك حتى ندعوك ونحتجّ عليك ، وهذه أخرى قد فعلتموها ، قد حُلّتم بين الناس وبين الماء ، والناس غير منتهين أو يشربوا فابعث إلى أصحابك فليخلّوا بين الناس وبين الماء ، ويكفّوا حتى ننظر فيما بيننا وبينكم ، وفيما قدّمنا له وقدمتم له ، وإن كان أعجب إليك أن تترك ما جئنا له ، ونترك الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب . فعلنا . فقال معاوية لأصحابه : ما ترون؟ فقال الوليد بن عقبة : امنعهم الماء كما منعه عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، حصروه أربعين صباحاً يمنعونه برّد الماء ، ولين الطعام ، اقتلهم عطشاً ، قتلهم الله عطشاً ! فقال له عمرو بن العاص : خلّ بينهم وبين الماء ، فإنّ القوم لن يعطشوا وأنت ريان ؛ ولكن بغير الماء ، فانظر ما بينك وبينهم . فأعاد الوليد بن عقبة مقالته ؛ وقال عبد الله بن أبي سرح : امنعهم الماء إلى الليل ، فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا ، ولو قد رجعوا كان رجوعهم فلا ، امنعهم الماء منهم الله يوم القيامة ! فقال صعصعة : إنما يمنع الله عزّ وجلّ يوم القيامة الكفرة الفسقة وشربة الخمر ؛ ضربك وضرب هذا الفاسق - يعني الوليد بن عقبة - قال : فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهدّدونه ، فقال معاوية : كفّوا عن الرجل فإنه رسول .

قال أبو مخنف : وحَدَّثني يوسف بن يزيد ، عن عبد الله بن عوف بن الأحمر ، أن صعصعة رجع إلينا فحدّثنا عمّا قال لمعاوية ، وما كان منه وما ردّ ، فقلنا : فما ردّ عليك؟ فقال : لما أردت الانصراف من عنده قلت : ما ترد عليّ؟ قال معاوية : سيأتيكم رأيي ؛ فوالله ما راعنا إلا تسريته الخيل إلى أبي الأعور ليكفّهم عن الماء . قال : فأبرزنا عليّ إليهم ، فارتمينا ثم أطعنا ، ثم اضطربنا بالسيوف ، فنصّرنا عليهم ، فصار الماء في أيدينا ، فقلنا لا والله لا نسقيهموه ، فأرسل إلينا عليّ : أن خذوا من الماء حاجتكم ، وارجعوا إلى عسكريكم ، وخلّوا عنهم ؛ فإنّ الله عزّ وجلّ قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم .

دعاء عليّ معاوية إلى الطاعة والجماعة

قال أبو مخنف : حدّثني عبد الملك بن أبي حرّة الحنفيّ ، أن عليّاً قال : هذا يومٌ تُصيرتم فيه بالحمية ، وجاء الناس حتى أتوا عسكريهم ، فمكث عليّ يومين لا يرسل إلى معاوية أحداً ، ولا يرسل إليه معاوية . ثم إن عليّاً دعا بشير بن عمرو بن محصن الأنصاريّ ، وسعيد بن قيس الهمدانيّ ، وشبّث بن ربعيّ التميميّ ، فقال : اتوا هذا الرجل فادعوه إلى الله وإلى الطاعة والجماعة ، فقال له شبّث بن ربعيّ : يا أمير المؤمنين ، ألا تُطمع في سلطان

توليّه إياه، ومنزلة يكون له بها أثره عندك إن هو بايعك؟ فقال عليّ: اتنوه فalcوه واحتجوا عليه، وانظروا رأيّه - وهذا في أول ذي الحجة - فأتوه، ودخلوا عليه، فحمد الله وأثنى عليه أبو عمرة بشير بن عمرو، وقال: يا معاوية، إن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، وإن الله عزّ وجلّ محاسبك بعملك، وجازيك بما قدّمت يدك، وإني أنشدك الله عزّ وجلّ أن تفرّق جماعة هذه الأمة، وأن تسفك دماءها بينها فقطع عليه الكلام، وقال: هلاً لأوصيت بذلك صاحبك؟ فقال أبو عمرة: إن صاحبك ليس مثلك، صاحبي أحقّ البرية كلّها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام، والقراية من الرسول ﷺ. قال: فيقول، ماذا؟ قال: يأمرك بتقوى الله عزّ وجلّ، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحقّ، فإنّه أسلم لك في دنياك، وخير لك في عاقبة أمرك. قال معاوية: ونظّل دم عثمان رضي الله عنه! لا والله لا أفعل ذلك أبداً. فذهب سعيد بن قيس يتكلّم، فبادره شُبّ بن ربعيّ، فتكلّم فحمد الله وأثنى عليه، وقال: يا معاوية، إني قد فهمت ما رددت على ابن محصن، إنه والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب؛ إنك لم تجد شيئاً تستغري به الناس وتستميل به أهواءهم، وتستخلص به طاعتهم، إلّا قولك: « قتل إمامكم مظلوماً، فنحن نطلب بدمه »، فاستجاب له سفهاء طعام، وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر، وأحببت له القتل، لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب، وربّ متمنيّ أمر وطالبه، الله عزّ وجلّ يحول دونه بقدرته، وربما أوتيّ المتمنيّ أمنيته وفوق أمنيته، والله مالك في واحدة منها خير، لكن أخطأت ما ترجو إنك لشّر العرب حالاً في ذلك، ولئن أصبت ما تمنى لا تصيبه حتى تستحقّ من ربك صليّ النار، فاتّق الله يا معاوية، ودع ما أنت عليه، ولا تنازع الأمر أهله.

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن أول ما عرفت فيه سفهك وخفة حلمك، قطعك على هذا الحسيب الشريف سيّد قومه منطقته، ثم عيّنت بعد فيما لا علم لك به، فقد كذبت، ولؤمت أيها الأعرابي الجلف الجافي في كلّ ما ذكرت ووصفت. انصرفوا من عندي، فإنه ليس بيني وبينكم إلّا السيف. وغضب، وخرج القوم وشبّ يقول: أفعلينا تهول بالسيف! أقسم بالله ليُعجلنّ بها إليك. فأتوا عليّاً وأخبروه بالذي كان من قوله، وذلك في ذي الحجة، فأخذ عليّ يأمر الرجل ذا الشرف، فيخرج معه جماعة، ويخرج إليه من أصحاب معاوية آخر معه جماعة، فيقتتلان في خيلهما ورجلها ثم ينصرفان، وأخذوا يكرهون أن يلقوا بجمع أهل العراق أهل الشام لما يتخوفون أن يكون في ذلك من الاستئصال والهلاك، فكان عليّ يخرج مرّة الأشر، ومرّة حُجر بن عديّ الكنديّ، ومرّة شُبّ بن ربعيّ، ومرّة خالد بن المعمر، ومرّة زياد بن النضر الحارثيّ، ومرّة زياد بن خصفة التيميّ، ومرّة سعيد بن قيس، ومرّة معقل بن قيس الرياحيّ، ومرّة قيس بن سعد. وكان أكثر القوم خروجاً إليهم الأشر، وكان معاوية يُخرج إليهم عبد الرحمن بن خالد المخزوميّ، وأبا الأعور السلميّ، ومرّة حبيب بن مسلمة الفهريّ، ومرّة ابن ذي الكلاع الحُميريّ، ومرّة عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ومرّة شرحبيل بن السُّمط الكنديّ، ومرّة حمزة بن مالك الهمدانيّ، فاقتتلوا من ذي الحجة كلها، وربما اقتتلوا في اليوم الواحد مرّتين أوّل وآخره.

قال أبو مخنف: حدّثني عبد الله بن عاصم الفاشيّ، قال: حدّثني رجل من قومي أنّ الأشر خرج يوماً يقاتل بصقّين في رجال من القرّاء، ورجال من فرسان العرب، فاشتدّ قتالهم، فخرج علينا رجل والله لقلّم رأيت رجلاً قطّ هو أطول ولا أعظم منه. فدعا إلى المبارزة، فلم يخرج إليه أحد إلّا الأشر، فاختلفا ضربتين، فضربه الأشر، فقتله، وإيّم الله لقد كنا أشفقنا عليه، وسألناه ألا يخرج إليه، فلما قتله الأشر نادى منادٍ من أصحابه:

يا سَهْمُ سَهْمَ ابن أبي العِزَّارِ يا خَيْرَ مَنْ نَعْلَمُهُ من زارِ

وزارة: حيٍّ من الأزد، وقال: أقسم بالله لأقتلن قاتلك أو ليقتلني، فخرج فحمل على الأشتر، وعطف عليه الأشتر فضربته، فإذا هو بين يدي فرسه، وحمل عليه أصحابه فاستنقذوه جريحاً، فقال أبو ربيعة الفهمي: هذا كان ناراً، فصادف إصصاراً، واقتتل الناس ذا الحجة كله، فلما انقضى ذو الحجة تداعى الناس إلى أن يكف بعضهم عن بعض المحرم، ولعل الله أن يُجرى صلحاً أو اجتماعاً، فكف بعضهم عن بعض.

وحجَّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بأمر على إياه بذلك، كذلك حدثني أحمد بن ثابت الرازي، عمَّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر. وفي هذه السنة مات قدامة بن مظعون، فيما زعم الواقدي.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين

ذكر ما كان فيها من الأحداث وموادة الحرب بين علي ومعاوية .

فكان في أول شهر منها - وهو المحرم - موادة الحرب بين علي ومعاوية ، قد توادعا على ترك الحرب فيه إلى انقضائه طمعاً في الصلح ؛ فذكر هشام بن محمد ، عن أبي مخنف الأزدي ، قال : حدثني سعد أبو المجاهد الطائي ، عن المجل بن خليفة الطائي ، قال : لما توادع علي ومعاوية يوم صفين ، اختلف فيما بينهما الرسل رجاء الصلح ، فبعث علي عدي بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبي وشبث بن ربعي وزياد بن خصفة إلى معاوية ، فلما دخلوا حمد الله عدي بن حاتم ، ثم قال : أما بعد ، فإننا أتينا ندعوك إلى أمر يجمع الله عز وجل به كلمتنا وأمتنا ، ويحقن به الدماء ، ويؤمن به السبل ، ويصلح به ذات البين . إن ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقة ، وأحسنها في الإسلام أثراً ، وقد استجمع له الناس ، وقد أرشدهم الله عز وجل بالذي رأوا ، فلم يبق أحد غيرك وغير من معك ، فانتبه يا معاوية لا يصبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل . فقال معاوية : كأنك إنما جئت متهدداً ، لم تأت مصلحاً هيهات يا عدي ، كلاً والله إني لأبئ حرب ، ما يقع لي بالشنان ، أما والله إنك لمن المجلبين على ابن عثمان رضي الله عنه ، وإنك لمن قتلته ، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل به . هيهات يا عدي بن حاتم ! قد حلبت بالساعد الأشد . فقال له شبث بن ربعي وزياد بن خصفة - وتنازعا جواباً واحداً : أتيناك فيما يصلحنا وإياك ، فأقبلت تضرب لنا الأمثال ! دغ ما لا ينتفع به من القول والفعل ، وأجبنا فيما يعمنا وإياك نفعه . وتكلم يزيد بن قيس ، فقال : إنا لم نأتك إلا لنبلغك ما بُعثنا به إليك ، ولنؤدّي عنك ما سمعنا منك ، ونحن على ذلك لم ندع أن ننصح لك ، وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حجة ، وأنت راجع به إلى الألفة والجماعة . إن أصحابنا من قد عرفوا وعرف المسلمون فضله ، ولا أظنه يخفى عليك ؛ إن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلي ، ولن يميلوا بينك وبينه ، فأتق الله يا معاوية ، ولا تخالف علياً ، فإننا والله ما رأينا رجلاً قط أعمل بالتقوى ، ولا أزهّد في الدنيا ، ولا أجمع لخصال الخير كلها منه .

فحمد الله معاوية وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإنكم دعوتكم إلى الطاعة والجماعة ، فأما الجماعة التي دعوتكم إليها فمعناها هي ، وأما الطاعة لصاحبكم فإننا لا نراها ؛ إن صاحبكم قتل خليفتنا ، وفرق جماعتنا ، وآوى ثارنا وقتلتنا ، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله ، فنحن لا نرد ذلك عليه ، أرايتم قتلة صاحبنا؟ أستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم ؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به ، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة .

فقال له شبث : أيسرك يا معاوية أنك أمكنت من عمّار تقتله ! فقال معاوية : وما يعني من ذلك ! والله لو أمكنت من ابن سمية ما قتلته بعثمان ، ولكن كنت قاتله بناتل مولى عثمان . فقال له شبث : وإله الأرض وإله

النساء، ما عدلت معتدلاً، لا والذي لا إله إلا هو لا تصل إلى عمّار حتى تندرُ الهام عن كواهل الأقوام، وتضيق الأرض الفضاء عليك برُحبتها. فقال له معاوية: إنه لو قد كان ذلك كانت الأرض عليك أضيق.

وتفرّق القوم عن معاوية، فلما انصرفوا بعث معاوية إلى زياد بن خصفة التيمي، فخلا به، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أمّا بعد يا أخا ربيعة، فإن علياً قطع أرحامنا، وآوى قتلّة صاحبنا، وإنّي أسألك النصر عليه بأسرتك وعشيرتك، ثم لك عهدُ الله جلّ وعزّ وميثاقه أن أولئك إذا ظهرت أيّ المصيرين أحببت.

قال أبو مخنف: فحدثني سعد أبو المجاهد، عن المجلّ بن خليفة، قال: سمعت زياد بن خصفة يحدث بهذا الحديث، قال: فلما قضى معاوية كلامه حمدتُ الله عزّ وجلّ وأثنتُ عليه، ثم قلت: أما بعد، فإني على بينة من ربّي وبما أنعم عليّ، فلن أكون ظهيراً للمجرمين، ثم قمت. فقال معاوية لعمر بن العاص - وكان إلى جنبه جالساً: ليس يكلم رجل منا رجلاً منهم فيجيب إلى خير. ما لهم غضبهم الله بشراً ما قلوبهم إلا كقلب رجل واحد.

قال أبو مخنف: فحدثني سليمان بن أبي راشد الأزديّ، عن عبدالرحمن بن عبيد أبي الكنود، أنّ معاوية بعث إلى عليّ حبيب بن مسلمة الفهريّ وشريحيل بن السمط ومعن بن يزيد بن الأخنس، فدخلوا عليه وأنا عنده، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنّ عثمان بن عفّان رضي الله عنه كان خليفةً مهدياً، يعمل بكتاب الله عزّ وجلّ، ويُنِيب إلى أمر الله تعالى، فاستقلتم حياته، واستبطأتم وفاته، فعدوّتم عليه فقتلتموه؛ فادفع إلينا قتلّة عثمان - إن زعمت أنك لم تقتله - نقتلهم به، ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم، يوئى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم. فقال له عليّ بن أبي طالب: وما أنت لا أمّ لك والعزل وهذا الأمر! اسكت فإنك لست هناك ولا بأهل له! فقام وقال له: والله لتريني بحيث تكره. فقال عليّ: وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك! لا أبقي الله عليك إن أبقيت عليّ؛ أحقرّة وسوءاً! اذهب فصبّ وصعد ما بدا لك.

وقال شريحيل بن السمط: إنّي إن كلمتك فلعمري ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي قبل، فهل عندك جواب غير الذي أجبت به؟ فقال عليّ: نعم لك ولصاحبك جواب غير الذي أجبت به. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإنّ الله جلّ ثناؤه بعث محمداً ﷺ بالحق، فأنقذ به من الضلالة، وانتاش به من الهلكة، وجمع به من الفرقة، ثم قبضه الله إليه وقد أدّى ما عليه ﷺ، ثم استخلف الناس أبا بكر رضي الله عنه، واستخلف أبو بكر عمر رضي الله عنه، فأحسنّا السيرة، وعدلاً في الأمة، وقد وجدنا عليهما أن تولّيا علينا - ونحن آل رسول الله ﷺ - فغفرنا ذلك لهما، وولى عثمان رضي الله عنه فعمل بأشياء عابها الناس عليه، فساروا إليه فقتلوه، ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم، فقالوا لي: بايع، فأبيت عليهم، فقالوا لي: بايع، فإنّ الأمة لا ترضى إلا بك!، وإنّا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس؛ فبايعتهم، فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاي، وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله عزّ وجلّ له سابقة في الدين، ولا سلف صدق في الإسلام، طليق ابن طليق، حزب من هذه الأحزاب، لم يزل الله عزّ وجلّ ولسوله ﷺ وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين، فلا غرو إلا خلافتكم معه، وانقيادكم له، وتدعون آل نبيكم ﷺ الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافتهم، ولا أن تعدلوا بهم من الناس أجداً. ألا إني أدعوكم إلى كتاب الله عزّ وجلّ وسنة نبيه ﷺ وإماته

الباطل، وإحياء معالم الدين؛ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، ولكل مؤمن ومؤمنة، ومسلم ومسلمة.
 فقالوا: إشهد أن عثمان رضي الله عنه قُتل مظلوماً، فقال لهما: لا أقول إنه قُتل مظلوماً، ولا إنه قتل ظالماً، قالوا: فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوماً فنحن منه برآء، ثم قاما فانصرفا. فقال علي: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَ وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُّوا مُدِيرِينَ﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ^(١). ثم أقبل علي على أصحابه فقال: لا يكن هؤلاء أولى بالجد في ضلالهم منكم بالجد في حقكم وطاعة ربكم.

قال أبو مخنف: حدثني جعفر بن حذيفة، من آل عامر بن جوين، أن عائذ بن قيس الحزمري واثب عدي بن حاتم في الراية بصفين - وكانت جزمر أكثر من بني عدي رهط حاتم - فوثب عليهم عبدالله بن خليفة الطائي البولاني عند علي، فقال: يا بني جزمر، على عدي تتوثبون! وهل فيكم مثل عدي أو في آبائكم مثل أبي عدي! أليس بحامي القرية ومانع الماء يوم روية؟ أليس بابن ذي المرباع وابن جواد العرب؟ أليس بابن المنهب ماله، ومانع جاره؟ أليس من لم يغدر ولم يفجر، ولم يجهل ولم يبخل، ولم يمن ولم يجبن؟! هاتوا في آبائكم مثل أبيه، أو هاتوا فيكم مثله. أوليس أفضلكم في الإسلام! أوليس وافدكم إلى رسول الله ﷺ! أليس برأسكم يوم النخيلة ويوم القادسية ويوم المدائن ويوم جلولاء الواقعة ويوم نهاوند ويوم تستر؟! فما لكم وله! والله ما من قومكم أحد يطلب مثل الذي تطلبون. فقال له علي بن أبي طالب: حسبك يا بن خليفة، هلم أيها القوم إلي، وعلي بجماعة طيء، فأتوه جميعاً، فقال علي: من كان رأسكم في هذه المواطن؟ قال له طيء: عدي. فقال له ابن خليفة: فسلمهم يا أمير المؤمنين، أليسوا راضين مسلمين لعدي الرياسة؟ ففعل، فقالوا: نعم، فقال لهم: عدي أحقكم بالراية. فسلموها له، فقال علي - وضجت بنو الحزمر - : إني أراه رأسكم قبل اليوم، ولا أرى قومه كلهم إلا مسلمين له غيركم؛ فأتبع في ذلك الكثرة. فأخذها عدي، فلما كان أزمان حُجْر بن عدي طُلب عبدالله بن خليفة ليُبْعَثَ به مع حُجْر - وكان من أصحابه - فسيّر إلى الجبلين؛ وكان عدي قد مناه أن يردّه، وأن يطلب فيه، فطال عليه ذلك، فقال:

وَتَسْؤُنِي يَوْمَ الشَّرِيعَةِ وَالْقَنَا	بِصْفَيْنِ فِي أَكْتَا فِهِمْ قَدْ تَكَسَّرَا
جَزَى رَبُّهُ عَنِّي عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ	بِرَفْضِي وَخِذْلَانِي جَزَاءً مُوَفَّرَا
أَتَسَّى بِسَلَاثِي سَادراً يَا بَنَ حَاتِمٍ	عَثِيَّةً مَا أَغْنَتْ عَدِيَّكَ جِزْمَرَا
فَدَافَعْتَ عَنْكَ الْقَوْمَ حَتَّى تَخَاذَلُوا	وَكُنْتُ أَنَا الْخِصَمَ الْأَلَدُ الْعَدُورَا
فَوَلُّوا وَمَا قَامُوا مَقَامِي كَأَنَّمَا	رَأَوْنِي لَيْثاً بِالْأَبَاءَةِ تُخْدِرَا
نَصْرَتُكَ إِذْ خَامَ الْقَرِيبُ وَأَبْغَطَ الـ	بَعِيدُ وَقَدْ أَفْرَدْتُ نَصراً مُؤَزَّرَا
فَكَانَ جِزَائِي أَنْ أَجْرَدَ بَيْنَكُمْ	سَجِيناً، وَأَنْ أُولَى الْهَوَانِ وَأَوْسَرَا
وَكَمْ عِدَّةٌ لِي مِنْكَ أَنْتَكَ رَاجِعِي	فَلَمْ تُغْنِ بِالْمِيعَادِ عَنِّي حَبْرَا

تكتيب الكتائب وتعبئة الناس للقتال

قال : ومكث الناس حتى إذا دنا انسلاخ المحرم أمر عليّ مرثد بن الحارث الجشمي فنأدى أهل الشام عند غروب الشمس : ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم : إني قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنبؤوا إليه ، واحتججت عليكم بكتاب الله عز وجل ، فدعوتكم إليه ، فلم تنأهوا عن طغيان ، ولم تجيبوا إلى حق ، وإني قد نبذت إليكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين . ففزع أهل الشام إلى أمرائهم ورؤسائهم ، وخرج معاوية وعمرو بن العاص في الناس يكتبان الكتائب ويعبيان الناس ، وأوقدوا النيران ، وبات عليّ ليلته كلها يعبي الناس ، ويكتب الكتائب ، ويدور في الناس يحرضهم .

قال أبو مخنف : حدّثني عبدالرحمن بن جندب الأزدي ، عن أبيه ، أن علياً كان يأمرنا في كل موطن لقينا فيه معه عدواً يقول : لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم ، فأنتم بحمد الله عز وجل على حجة ، وترككم أيّامهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم ، فإذا قاتلتهم فزمتهم فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثّلوا بقتيل ، فإذا وصلتكم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترأ ، ولا تدخلوا داراً إلا بالأذن ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم ، ولا تهيجوا امرأة بأذى ، وإن شتمن أعراضكم ، وسببن أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف القوى والأنفس .

قال أبو مخنف : وحدّثني إسماعيل بن يزيد ، عن أبي صادق ، عن الحضرمي ، قال : سمعت علياً يحرض الناس في ثلاثة مواطن : يحرض الناس يوم صفين ، ويوم الجمل ، ويوم النهر ، يقول : عباد الله ، اتقوا الله ، وغضوا الأبصار ، واخفضوا الأصوات ، وأقلوا الكلام ، ووطنوا أنفسكم على المنازلة والمجاولّة والمبارزة والمناضلة والمجادلة والمعانقة والمكادمة والملازمة ، فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين . اللهم أهمهم الصبر ، وأنزل عليهم النصر ، وأعظم لهم الأجر .

فأصبح عليّ من الغد ، فبعث على الميمنة والميسرة والرجالة والخيّل . قال أبو مخنف : فحدّثني فضيل بن خديج الكندي أن علياً بعث على خيل أهل الكوفة الأشتر ، وعلى خيل أهل البصرة سهل بن حنيف ، وعلى رجالة أهل الكوفة عمار بن ياسر ، وعلى رجالة أهل البصرة قيس بن سعد وهاشم بن عتبة ومعه رايته ، وميسر بن فذكيّ التميمي على قراء أهل البصرة ، وصار أهل الكوفة إلى عبدالله بن بديل وعمار بن ياسر .

قال أبو مخنف : وحدّثني عبدالله بن يزيد بن جابر الأزدي ، عن القاسم مولى يزيد بن معاوية ، أن معاوية بعث على ميمنته ابن ذي الكلاع الحميري ، وعلى ميسرته حبيب بن مسلمة الفهري ، وعلى مقدّمته يوم أقبل من دمشق أبا الأعور السلمي - وكان على خيل أهل دمشق - وعمرو بن العاص على خيول أهل الشام كلها ، ومسلم بن عقبة المري على رجالة أهل دمشق ، والضحاك بن قيس على رجالة الناس كلها . وبايع رجال من أهل الشام على الموت ، فعقلوا أنفسهم بالعمائم ، فكان المقلون خمسة صفوف ، وكانوا يخرجون ويصفون عشرة صفوف ، ويخرج أهل العراق أحد عشر صفاً ، فخرجوا أول يوم من صفين فاقتتلوا . وعلى من خرج يومئذ من أهل الكوفة الأشتر ، وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة ، وذلك يوم الأربعاء ، فاقتتلوا قتالاً شديداً جلّ النهار ، ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض ، ثم خرج هاشم بن عتبة في خيل ورجال حسن عددها

وعُدَّتْهَا، وخرج إليه أبو الأعور، فاقتتلوا يومهم ذلك، يحمل الخيل على الخيل، والرجال على الرجال، ثم انصرفوا وقد كان القوم صبر بعضهم لبعض. وخرج اليوم الثالث عمّار بن ياسر، وخرج إليه عمرو بن العاص، فاقتتل الناس كأشد القتال، وأخذ عمّار يقول: يا أهل العراق، أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدتهما، وبغى على المسلمين، وظاهر المشركين، فلما رأى الله عز وجل يعز دينه ويظهر رسوله أتى النبي ﷺ فأسلم، وهو فيما نرى راهب غير راغب؛ ثم قبض الله عز وجل رسوله ﷺ! فوالله إن زال بعده معروفاً بعداوة المسلم، وهواة المجرم. فاثبتوا له وقائلاً فإنه يطفئ نور الله، ويظهر أعداء الله عز وجل. فكان مع عمّار زياد بن النضر على الخيل، فأمره أن يحمل في الخيل، فحمل، وقتله الناس وصبروا له، وشدّ عمّار في الرجال، فأزال عمرو بن العاص عن موقفه. وبارز يومئذ زياد بن النضر أخاً له لأنه يقال له عمرو بن معاوية بن المنتفق بن عامر بن عقيّل - وكانت أمهما امرأة من بني يزيد - فلما التقيا تعارفا فتواقفا، ثم انصرف كل واحد منهما عن صاحبه، وتراجع الناس.

فلما كان من الغد خرج محمد بن عليّ وعبيد الله بن عمر في جمعين عظيمين، فاقتتلوا كأشد القتال. ثم إن عبيد الله بن عمر أرسل إلى ابن الحنفية: أن أخرج إليّ؛ فقال: نعم، ثم خرج يمشي، فبصر به أمير المؤمنين فقال: من هذان المتبارزان؟ فقليل: ابن الحنفية وعبيد الله بن عمر؛ فحرك ذاقتته ثم نادى محمداً، فوقف له، فقال: أمسك دابتي، فأمسكها، ثم مشى إليه عليّ فقال: أبرز لك، هلّم إليّ؛ فقال: ليست لي في مبارزتك حاجة، فقال: بلى، فقال: لا، فرجع ابن عمر. فأخذ ابن الحنفية يقول لأبيه: يا أبت، لم منعني من مبارزته؟ فوالله لو تركتني لرجوت أن أقتله، فقال: لو بارزته لرجوت أن تقتله، وما كنت آمن أن يقتلك، فقال: يا أبت أو تبرز لهذا الفاسق! والله لو أبوه سألك المبارزة لرغبت بك عنه؛ فقال عليّ: يا بُنيّ، لا تقل في أبيه إلا خيراً. ثم إن الناس تحاجزوا وتراجعوا.

قال: فلما كان اليوم الخامس خرج عبدالله بن عباس والوليد بن عتبة فاقتتلوا قتالاً شديداً، ودنا ابن عباس من الوليد بن عتبة، فأخذ الوليد يسبّ بني عبدالمطلب، وأخذ يقول: يا ابن عباس، قطعتم أرحامكم، وقتلتم إمامكم، فكيف رأيتم الله صنع بكم؟! لم تعطوا ما طلبتم، ولم تدركوا ما أمّلتهم، والله إن شاء مهلككم وناصر عليكم. فأرسل إليه ابن عباس: أن أبرز لي، فأبى. وقاتل ابن عباس يومئذ قتالاً شديداً، - وغشي الناس بنفسه.

ثم خرج قيس بن سعد الأنصاري وابن ذي الكلاع الجُميريّ فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم انصرفا، وذلك في اليوم السادس.

ثم خرج الأشتر، وعاد إليه حبيب بن مسلمة اليوم السابع، فاقتتلا قتالاً شديداً، ثم انصرفا عند الظهر، وكل غير غالب، وذلك يوم الثلاثاء.

قال أبو مخنف: حدثني مالك بن أعين الجهنيّ، عن زيد بن وهب، أن علياً قال: حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بأجمعنا! فقام في الناس عشية الثلاثاء، ليلة الأربعاء بعد العصر، فقال: الحمد لله الذي لا يُبرم ما نَقَضَ، وما أبرم لا ينقضه الناقضون، لو شاء ما اختلف اثنان من خلقه، ولا تنازعت الأمة في شيء من أمره، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله، وقد ساقننا وهؤلاء القوم الأقدار، فلقت بيننا في هذا المكان، فنحن من

رَبَّنَا بِمَرَأَى وَمَسْمَع ، فَلَوْ شَاءَ عَجَّلَ النُّقْمَةَ ، وَكَانَ مِنْهُ التَّغْيِيرُ ، حَتَّى يَكْذِبَ اللَّهُ الظَّالِمَ ، وَيَعْلَمَ الْحَقُّ أَيْنَ مَصِيرُهُ ؛ وَلَكِنَّهُ جَعَلَ الدُّنْيَا دَارَ الْأَعْمَالِ ، وَجَعَلَ الْآخِرَةَ عِنْدَهُ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى . أَلَا إِنَّكُمْ لَأَقْوَامُ الْقَوْمِ غَدًا ، فَأُطِيلُوا اللَّيْلَةَ الْقِيَامَ ، وَأَكْثَرُوا تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ ، وَسَلُّوا اللَّهَ عِزَّ وَجَلَّ النَّصْرَ وَالصَّبْرَ ، وَالْقَوِّمَ بِالْجَدِّ وَالْحَزَمِ ، وَكُونُوا صَادِقِينَ . ثُمَّ انْصَرَفَ ، وَوَثِبَ النَّاسُ إِلَى سِيُوفِهِمْ وَرِمَاحِهِمْ وَنَبَاهِهِمْ يَصْلِحُونَهَا ، وَمَرَّ بِهِمْ كَعْبُ بْنُ جُعَيْلٍ التَّغْلَبِيُّ وَهُوَ يَقُولُ :

أَصْبَحَتِ الْأُمَّةُ فِي أَمْرِ عَجَبٍ وَالْمَلِكُ مَجْمُوعٌ غَدًا لِمَنْ غَلَبَ
فَقُلْتُ قَوْلًا صَادِقًا غَيْرَ كَذِبٍ إِنَّ غَدًا تَهْلِكُ أَعْلَامُ الْعَرَبِ

قال : فلما كان من الليل خرج عليٌّ فعَبَّى الناسَ ليلته كلها ، حتى إذا أصبح زحف بالناس ، وخرج إليه معاوية في أهل الشام ، فأخذ عليٌّ يقول : مَنْ هذه القبيلة؟ وَمَنْ هذه القبيلة؟ فَنُسِبَتْ لَهُ قِبَائِلُ أَهْلِ الشَّامِ ، حَتَّى إِذَا عَرَفَهُمْ وَرَأَى مَرَكَزَهُمْ قَالَ لِلْأَزْدِ : اكْفُونِي الْأَزْدَ ، وَقَالَ لِحِثْعَمَ : اكْفُونِي حِثْعَمَ . وَأَمَرَ كُلَّ قَبِيلَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ أَنْ تَكْفِيَهُ أَخْتَهَا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ قَبِيلَةٌ لَيْسَ مِنْهَا بِالشَّامِ أَحَدٌ فَيَصْرِفُهَا إِلَى قَبِيلَةٍ أُخْرَى تَكُونَ بِالشَّامِ ، لَيْسَ مِنْهُمْ بِالْعِرَاقِ وَاحِدٌ ، مِثْلَ بَنِي لَدٍّ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ بِالشَّامِ إِلَّا عَدَدٌ قَلِيلٌ ، فَصَرَفَهُمْ إِلَى حِثْعَمَ . ثُمَّ تَنَاهَضَ النَّاسُ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا نَهَارَهُمْ كُلَّهُ ، ثُمَّ انْصَرَفُوا عِنْدَ الْمَسَاءِ وَكُلُّ غَيْرِ غَالِبٍ ، حَتَّى إِذَا كَانَ غَدَاةَ الْخَمِيسِ صَلَّى عَلِيٌّ بَغْلَسَ .

قال أبو مخنف : حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جَنْدَبٍ الْأَزْدِيُّ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : مَا رَأَيْتُ عَلِيًّا غَلَسَ بِالصَّلَاةِ أَشَدَّ مِنْ تَغْلِيْسِهِ يَوْمَئِذٍ ، ثُمَّ خَرَجَ بِالنَّاسِ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ فَرَحَفَ إِلَيْهِمْ ، فَكَانَ يَبْدُوهُمْ فَيَسِيرُ إِلَيْهِمْ ، فإِذَا رَأَوْهُ قَدْ زَحَفَ إِلَيْهِمْ اسْتَقْبَلُوهُ بِوُجُوهِهِمْ .

قال أبو مخنف : حَدَّثَنِي مَالِكُ بْنُ أَعْيَنَ ، عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهَبِ الْجُهَنِيِّ ، أَنَّ عَلِيًّا خَرَجَ إِلَيْهِمْ غَدَاةَ الْأَرْبَعَاءِ فَاسْتَقْبَلَهُمْ فَقَالَ : اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ، الْمَحْفُوظِ الْمَكْفُوفِ ، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضًا لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَجَعَلْتَ فِيهِ مَجْرَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَمَنَازِلَ النُّجُومِ ، وَجَعَلْتَ سَكَّانَهُ سَبْطًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، لَا يَسْأَمُونَ الْعِبَادَةَ . وَرَبَّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَارًا لِلْأَنَامِ ، وَالْهَوَامِّ وَالْأَنْعَامِ ، وَمَا لَا يُحْصَى بِمَا لَا يُرَى وَمَا يُرَى مِنْ خَلْقِكَ الْعَظِيمِ . وَرَبَّ الْفُلْكِ الَّتِي تَحْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَرَبَّ السَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ ، وَرَبَّ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ الْمَحِيطِ بِالْعَالَمِ ، وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَادًا ، وَلِلْخَلْقِ مَتَاعًا ؛ إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا فَجَنَّبْنَا الْبَغْيَ ، وَسَدَّدْنَا لِلْحَقِّ ، وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنِي الشَّهَادَةَ ، وَاعْصِمْ بَقِيَّةَ أَصْحَابِي مِنَ الْفِتْنَةِ .

قال : وَازْدَلَفَ النَّاسُ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ فَاقْتَتَلُوا كَأَشَدِّ الْقِتَالِ يَوْمَهُمْ حَتَّى اللَّيْلِ ، لَا يَنْصَرِفُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ إِلَّا لِلصَّلَاةِ ، وَكَثُرَتِ الْقَتْلَى بَيْنَهُمْ ، وَتَحَاجَزُوا عِنْدَ اللَّيْلِ وَكُلُّ غَيْرُ غَالِبٍ ، فَأَصْبَحُوا مِنَ الْغَدِ ، فَصَلَّى بِهِمْ عَلِيٌّ غَدَاةَ الْخَمِيسِ ، فَغَلَسَ بِالصَّلَاةِ أَشَدَّ التَّغْلِيْسِ ، ثُمَّ بَدَأَ أَهْلَ الشَّامِ بِالْخُرُوجِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَدْ أَقْبَلَ إِلَيْهِمْ خَرَجُوا إِلَيْهِ بِوُجُوهِهِمْ ، وَعَلَى مِيمَنَتِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُدَيْلٍ ، وَعَلَى مِيسَرَتِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ ، وَقَرَّاءُ أَهْلِ الْعِرَاقِ مَعَ ثَلَاثَةِ نَفَرٍ : مَعَ عُمَارَ بْنِ يَاسِرٍ ، وَمَعَ قَيْسَ بْنِ سَعْدٍ ، وَمَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُدَيْلٍ ، وَالنَّاسُ عَلَى رَايَاتِهِمْ وَمَرَكَزِهِمْ ، وَعَلِيٌّ فِي الْقَلْبِ فِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَأَهْلِ الْبَصْرَةِ ، وَعُظُمَ مَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْأَنْصَارِ ، وَمَعَهُ مِنْ خُرَازَةِ عَدَدٌ حَسَنٌ ، وَمِنْ كِنَانَةَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ .

ثم زحف إليهم بالناس، ورفع معاوية قبةً عظيمة قد ألقى عليها الكرايس وبايعه عظم الناس من أهل الشام على الموت، وبعث خيل أهل دمشق فاحتاطت بقبته، وزحف عبدالله بن بُذيل في الميمنة نحو حبيب بن مسلمة، فلم يزل يحوزة، ويكشف خيله من الميسرة حتى اضطهرهم إلى قبة معاوية عند الظهر.

قال أبو مخنف: حدثني مالك بن أعين، عن زيد بن وهب الجهني، أن ابن بُذيل قام في أصحابه فقال: ألا إن معاوية ادعى ما ليس أهله، ونازع هذا الأمر من ليس مثله، وجادل بالباطل ليدحض به الحق، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب، قد زين لهم الضلالة، وزرع في قلوبهم حب الفتنة، ولبس عليهم الأمر، وزادهم رجساً إلى رجسهم، وأنتم على نور من ربكم، وبرهان مبين. فقاتلوا الطغاة الجفاة، ولا تخشوهم، فكيف تخشونهم وفي أيديكم كتاب الله عز وجل طاهراً مبروراً ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَلَّ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾، وقد قاتلناهم مع النبي ﷺ مرة، وهذه ثانية، والله ما هم في هذه باتقى ولا أزكى ولا أرشد، قوموا إلى عدوكم بارك الله عليكم! فقاتل قتالاً شديداً هو وأصحابه.

قال أبو مخنف: حدثني عبدالرحمن بن أبي غمرة الأنصاري، عن أبيه ومولى له، أن علياً حرّض الناس يوم صفين، فقال:

إن الله عز وجل قد دلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تُشفي بكم على الخير: الإيمان بالله عز وجل وبرسوله ﷺ، والجهاد في سبيل الله تعالى ذكره، وجعل ثوابه مغفرة الذنب، ومساكن طيبة في جنات عدن. ثم أخبركم أنه يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص؛ فسووا صفوفكم كالبنیان المرصوص، وقدموا الدارع، وأخروا الحاسر، وعصّوا على الأضراس، فإنه أنبى للسيوف عن الهام، والتّووا في أطراف الرماح، فإنه أصون للأسنة. وعصّوا الأبصار فإنه أربط للجأش، وأسكن للقلوب، وأميتوا الأصوات فإنه أطرّد للفشل، وأولى بالوقار. راياتكم فلا تُميلوها ولا تزيلوها، ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم، فإن المانع للدمار، والصابر عند نزول الحقائق، هم أهل الحفاظ الذين يحفون براياتهم ويكنفونها؛ يضربون حفافها خلفها وأمامها، ولا يضعونها. أجزأ امرؤ وقدرته - رحمكم الله - وآسى أخاه بنفسه، ولم يكل قرنه إلى أخيه، فيكسب بذلك لائمة، ويأتي به دناءة. وأنى لا يكون هذا هكذا! وهذا يقاتل اثنين، وهذا ممسك بيده يدخل قرنه على أخيه هارباً منه، أو قائماً ينظر إليه! من يفعل هذا يمقتة الله عز وجل، فلا تعرضوا لمقت الله سبحانه وإنما مردكم إلى الله، قال الله عز من قائل لقوم: ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذْ لَا تُنْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢). وإيم الله لئن سلمتم من سيف العاجلة لا تسلمون من سيف الآخرة. واستعينوا بالصدق والصبر، فإن بعد الصبر يُنزل الله النصر.

الجد في الحرب والقتال

قال أبو مخنف: حدثني أبو رزوق الهمداني، أن يزيد بن قيس الأرحبي حرّض الناس فقال: إن المسلم السليم من سليم دينه ورأيه، وإن هؤلاء القوم والله إن يقاتلوننا على إقامة دين رأونا ضيعناه، وإحياء حق

(١) سورة التوبة: ١٣، ١٤.

(٢) سورة الأحزاب: ١٦.

رأونا أمتناه ، وإن يقاتلوننا إلّا على هذه الدنيا ليكونوا جابرةً فيها ملوكاً ، فلو ظهوروا عليكم - لا أراهم الله ظهوراً ولا سروراً - لزموكم بمثل سعيد والوليد وعبدالله بن عامر السفية الضالّ ، يخبر أحدهم في مجلسه بمثل ديتة ودية أبيه وجده ، يقول : هذا لي ولا إثم عليّ ، كأنما أعطى ترائه عن أبيه وأمه ، وإنما هو مال الله عزّ وجلّ ، أفاءه علينا بأسيافنا وأرماحنا ، فقاتلوا عباد الله القوم الظالمين ، الحاكمين بغير ما أنزل الله ، ولا يأخذكم في جهادهم لومٌ لائم ، فإنهم إن يظهروا عليكم يُفسدوا عليكم دينكم ودنياكم ؛ وهم من قد عرفتم وخبرتم ؛ وإيّم الله ما ازدادوا إلى يومهم هذا إلّا شراً .

وقاتلهم عبدالله بن بُديل في الميمنة قتالاً شديداً حتى انتهى إلى قبة معاوية . ثم إن الذين تبايعوا على الموت أقبلوا إلى معاوية ، فأمرهم أن يصمدوا لابن بديل في الميمنة ، وبعث إلى حبيب بن مسلمة في الميسرة ، فحمل بهم وبمن كان معه على ميمنة الناس فهزمهم ، وانكشف أهل العراق من قبل الميمنة حتى لم يبقَ منهم إلّا ابن بُديل في مائتين أو ثلثمائة من القراء ، قد أسند بعضهم ظهره إلى بعض ، وانجفل الناس ، فأمر عليّ سهل بن حنيف فاستقدم فيمن كان معه من أهل المدينة ، فاستقبلتهم جموعُ أهل الشام عظيمة ، فاحتملتهم حتى ألحقهم بالميمنة ، وكان في الميمنة إلى موقف عليّ في القلب أهل اليمن ، فلما كُشفوا انتهت الهزيمة إلى عليّ ، فانصرف يتمشى نحو الميسرة ، فانكشفت عنه مضر من الميسرة ، وثبتت ربيعة .

قال أبو مخنف : حدّثني مالك بن أعين الجُهنيّ ، عن زيد بن وهب الجُهنيّ ، قال : مرّ عليّ معه بنوه نحو الميسرة ، [ومعه ربيعة وحدها] ، وإني لأرى النبل يمرّ بين عاتقه ومنكبه ، وما من بنيه أحد إلّا يقيه بنفسه ، [فيكره عليّ ذلك] ، فيتقدم [عليه] ، فيحول بين أهل الشام وبينه ، فيأخذه بيده إذا فعل ذلك فيلقيه بين يديه أو من ورائه ، فبصر به أحمر - مولى أبي سفيان ، أو عثمان ، أو بعض بني أمية - فقال [عليّ] : وربّ الكعبة ؛ قتلني الله إن لم أقتلك أو تقتلني ! فأقبل نحوه ، فخرج إليه كيّسان مولى عليّ ، فاختلفا ضربتين ، فقتله مولى بني أمية ، ويتهزه عليّ ، فيقع بيده في جيب درعه ، فيجذبه ، ثم حمله على عاتقه ؛ فكأنّي أنظر إلى رُجُلَيْتَيْهِ ، تختلفان على عنق عليّ ، ثم ضرب به الأرض فكسر منكبه وعُضديه ، وشدّ ابنه علي عليه : حسين ومحمد ، فضرباه بأسيافهما ، [حتى برّد] ، فكأنّي أنظر إلى علي قائماً وإلى شبله يضربان الرجل ، حتى إذا قتلاه وأقبلا إلى أبيهما ، والحسن قائماً قال له : يا بنيّ ، ما منعك أن تفعل كما فعل أخواك؟ قال : كَفَيَانِي يا أمير المؤمنين . ثم إن أهل الشام دنوا منه ووالله ما يزيده قربهم منه سرعةً في مشيه ، فقال له الحسن : ما ضرك لو سعت حتى تنتهي إلى هؤلاء الذين قد صبروا لعدوك من أصحابك؟ فقال : يا بنيّ ، إن لأبيك يوماً لن يعدّوه ولا يبطلّ به عند السعي ، ولا يعجل به إليه المشي ، إن أباك والله ما يبالي أوقع على الموت ، أو وقع الموت عليه .

قال أبو مخنف : حدّثني فضيل بن خديج الكنديّ ، عن مولى للأشتر ، قال : لما انهزمت ميمنة الحراق وأقبل عليّ نحو الميسرة ، مرّ به الأشتر يركض نحو الفرع قبل الميمنة ، فقال له عليّ : يا مالك ، قال : لبّيك ، قال : ائت هؤلاء القوم فقل لهم : أين فراركم من الموت الذي لن تُعجزوه ، إلى الحياة التي لن تبقى لكم ! فمضى فاستقبل الناس منهزمين ، فقال لهم هذه الكلمات التي قالها له

عليّ . وقال : إليّ أيّها الناس ، أنا مالك بن الحارث ، أنا مالك بن الحارث ، ثم ظنّ أنه بالأشتر أعرف في الناس ، فقال : أنا الأشتر ، إليّ أيّها الناس . فأقبلت إليه طائفة ، وذهبت عنه طائفة ، فنادى : أيّها الناس ، عضضتم بهنّ آبائكم ! ما أقبح ما قاتلتم منذ اليوم ! أيّها الناس ، أخلصوا إليّ مذججاً ، فأقبلت إليه مذجج ، فقال : عضضتم بصمّ الجندل ! ما أرضيتُم ربّكم ، ولا نصحتُم له في عدوكم ، وكيف بذلك وأنتم أبناء الحروب ، وأصحاب الغارات ، وفتيان الصباح ، وفرسان الطراد ، وحتوف الأقران ، ومذجج الطعان ؛ الذين لم يكونوا يُسبّقون بثأرهم ، ولا تُطلّ دماؤهم ، ولا يُعرفون في موطن بخسفٍ ، وأنتم حدّ أهل مصركم ، وأعدّ حيّ في قومكم ، وما تفعلوا في هذا اليوم ، فإنه ماثور بعد اليوم ؛ فاتقوا ماثور الأحاديث في غد ، واصدقوا عدوكم اللقاء فإن الله مع الصادقين . والذي نفسُ مالك بيده ما من هؤلاء - وأشار بيده إلى أهل الشام - رجلٌ على مثال جناح بعوضة من محمد ﷺ . أنتم ما أحسنتم القِرَاع ، أجّلوا سواد وجهي يرجع في وجهي دمي . عليكم بهذا السواد الأعظم ، فإنّ الله عزّ وجلّ لو قد فضّه تبعه من بجانبه كما يتبع مؤخّر السيل مقدّمه .

قالوا : خذ بنا حيث أحببت . وصمد نحو عظمهم فيما يلي الميمنة ، فأخذ يزحف إليهم ، ويردّهم ، ويستقبله شبابٌ من همدان - وكانوا ثمانمائة مقاتل يومئذٍ - وقد انهزموا آخر الناس ، وكانوا قد صبروا في الميمنة حتى أصيب منهم ثمانون ومائة رجل ، وقتل منهم أحد عشر رئيساً ، كلّما قُتل منهم رجل أخذ الراية آخر ، فكان الأوّل كُريب بن شُريح ، ثم شُرحبيل بن شُريح ، ثم مرثد بن شُريح ، ثم هُبيرة بن شُريح ، ثم يريم بن شُريح ، ثم سُمير بن شُريح ، فقتل هؤلاء الإخوة الستة جميعاً . ثم أخذ الراية سُفّيان بن زيد ، ثم عبد بن زيد ، ثم كُريب بن زيد ، فقتل هؤلاء الإخوة الثلاثة جميعاً ، ثم أخذ الراية عميرة بن بشير ، ثم الحارث بن بشير ، فقتلها ، ثم أخذ الراية وهب بن كُريب أخو القلوص ، فأراد أن يستقبل ، فقال له رجل من قومه : انصرف بهذه الراية - رحمك الله - فقد قُتل أشراف قومك حولها ، فلا تقتل نفسك ولا من بقي من قومك ؛ فانصرفوا وهم يقولون : ليت لنا عدتنا من العرب يحالفوننا على الموت ، ثم نستقدم نحن وهم فلا ننصرف حتى نقتل أو نظفر . فمروا بالأشتر وهم يقولون هذا القول ، فقال لهم الأشتر : إليّ أنا أحالفكم وأعاقدكم على ألا ترجع أبداً حتى نظفر أو نهلك . فأتوه فوقفوا معه ، ففي هذا القول قال كعب بن جُعيل التغلبيّ :

وَهَمْدَانُ زُرُقٌ تَبْتَغِي مَنْ تُحَالِفُ

وزحف الأشتر نحو الميمنة ، وثاب إليه ناس تراجعوا من أهل الصبر والحياء والوفاء ، فأخذ لا يصمّد لكتيبة إلاّ كشفها ، ولا لجمع إلاّ حازه وردّه ؛ فإنه لكذلك إذ مرّ بزياد بن النضر يحمل إلى العسكر ، فقال : من هذا ؟ فقيل : زياد بن النضر ، استلحم عبدالله بن بديل وأصحابه في الميمنة ، فتقدّم زياد فرفع لأهل الميمنة رايته ، فصبروا ، وقاتل حتى صُرع ، ثم لم يمكنوا إلاّ كلّ شيء حتى مرّ بيزيد بن قيس الأرحبيّ محمولاً نحو العسكر ، فقال الأشتر : من هذا ؟ فقالوا : يزيد بن قيس ، لما صُرع زياد بن النضر رفع لأهل الميمنة رايته ، فقاتل حتى صُرع ، فقال الأشتر : هذا والله الصبر الجميل ، والفعل الكريم ، ألا يستحي الرجل أن ينصرف لا يقتل ولا يُقتل ، أو يشفى به على القتل !

قال أبو مخنف : حدّثني أبو جنّاب الكلبيّ ، عن الحرّ بن الصّياح النّخعيّ ؛ أن الأشتر يومئذ كان يقاتل على فرس له في يده صفيحة يمانية ، إذا طأها خِلّت فيها ماء منصّباً ، وإذا رفعها كاد يُعْشي البصرَ شعاعُها ، وجعل يضرب بسيفه ويقول :

الْغَمَرَاتِ ثُمَّ يَنْجَلِينَا

قال : فبصر به الحارث بن جُمهان الجُعفّي والأشتر متقنّع في الحديد ، فلم يعرفه ، فدنا منه فقال له : جزاك الله خيراً منذ اليوم عن أمير المؤمنين ، وجماعة المسلمين ! فعرفه الأشتر ، فقال : يا ابن جُمهان ، مثلك يتخلف عن مثل موطني هذا الذي أنا فيه ! فنظر إليه ابن جُمهان فعرفه ، فكان أعظم الرجال وأطولّه - وكان في لحيته خِفة قليلة - فقال : جُعلت فداك ! لا والله ما علمت بمكانك إلا الساعة ، ولا أفارقك حتى أموت . قال : وراه منقذٌ وجميرُ ابنا قيس النّاعِطيّان ، فقال منقذٌ لحمير : ما في العرب مثل هذا ، إن كان ما أرى من قتاله على نَيْتِه ، فقال له حمير : وهل النّيّة إلا ما تراه يصنع ! قال : إني أخاف أن يكون يحاول مُلكاً .

قال أبو مخنف : حدّثني فضيل بن خديج ، عن مولى للأشتر ، أنه لما اجتمع إليه عظم من كان انهزم عن الميمنة حرّضهم ، ثم قال : عَضُّوا على النّواجذ من الأضراس ، واستقبلوا القوم بهامِكهم ، وشدّوا شِدّة قوم موتورين ثاراً بآبائهم وإخوانهم ، حِناقاً على عدوّهم ، قد وطّئوا على الموت أنفسهم كيلاً يُسبّقوا بوتر ، ولا يلحقوا في الدنيا عاراً ، وإيّم الله ما وُتر قوم قطّ بشيء أشدّ عليهم من أن يوتّروا دينهم ، وإنّ هؤلاء القوم لا يقاتلونكم إلا عن دينكم ليُميتوا السّنة ، ويُحيُوا البدعة ، ويعيدوكم في ضلالة قد أخرجكم الله عزّ وجلّ منها بحسن البصيرة . فطُيّبوا عباد الله أنفساً بدمائكم دون دينكم ، فإن ثوابكم على الله ، والله عنده جنّات النعيم . وإنّ الفِرار من الرّحف فيه السلب للعزّ ، والغلبة على الفِيء ، وذُلّ المحيّا والممات ، وعارُ الدنيا والآخرة .

وحَمَلَ عليهم حتى كشفهم ، فألحقهم بصفوف معاوية بين صلاة العصر والمغرب ، وانتهى إلى عبدالله بن بُديل وهو في عُصبة من القرّاء بين المائتين والثلاثمائة ، وقد لصقوا بالأرض كأنهم جُشاً فكشف عنهم أهل الشّام ، فأبصروا إخوانهم قد دنّوا منهم ، فقالوا : ما فعل أمير المؤمنين؟ قالوا: حيّ صالح في الميسرة ، يقاتل الناس أمامه ، فقالوا : الحمد لله ، قد كنا ظننا أن قد هلك وهلكتم . وقال عبدالله بن بُديل لأصحابه : استقدموا بنا ؛ فأرسل الأشتر إليه : ألا تفعل ، أثبت مع الناس فقاتل ، فإنّه خيرٌ لهم وأبقى لك ولأصحابك . فأبى ، فمضى كما هو نحو معاوية ، وحوله كأمثال الجبال ، وفي يده سيفان ، وقد خرج فهو أمام أصحابه ، فأخذ كلّما دنا منه رجلٌ ضربه فقتله ، حتى قتل سبعة ، ودنا من معاوية فنهض إليه الناس من كل جانب ، وأحيط به وبطائفة من أصحابه ، فقاتل حتى قُتل ، وقُتل ناس من أصحابه ، ورجعت طائفة قد جرحوا منهزمين ، فبعث الأشتر بن جُمهان الجعفيّ فحمل على أهل الشّام الذين يُتبعون من نجا من أصحاب ابن بُديل حتى نَفَسوا عنهم ، وانتهَوْا إلى الأشتر ، فقال لهم : ألم يكن رأيي لكم خيراً من رأيكم لأنفسكم ! ألم آمركم أن تثبّوا مع الناس ! وكان معاوية قال لابن بُديل وهو يضرب قُدماً : أترونه كبش القوم ! فلما قُتل أرسل إليه ، فقال : انظروا مَنْ هو؟ فنظر إليه

ناس من أهل الشام فقالوا: لا نعرفه، فأقبل إليه حتى وقف عليه، فقال: بلى، هذا عبدالله بن بُدَيْل، والله لو استطاعت نساء خُزاعة أن تقَاتِلُنَا فضلاً على رجالها لفعلت، مُدَّوه، فَمُدُّوه، فقال: هذا والله كما قال الشاعر:

أخو الحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الحَرْبُ عَضُّهَا وَإِنْ شَمَّرَتْ يَوْمًا بِهِ الحَرْبُ شَمَّرًا

والبيت لحاتم طي. وإن الأشر زحف إليهم فاستقبله معاوية بعك والأشعرين، فقال الأشر لمذحج: اكفونا عكاً، ووقف في همدان وقال لِكُنْدَةَ: اكفونا الأشعرين، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وأخذ يخرج إلى قومه فيقول: إنما هم عك، فاحملوا عليهم، فيجئون على الركب ويرتجزون:

يَا وَيْلَ أُمِّ مَذْحِجٍ مِنْ عَكٍّ هَاتِيكَ أُمِّ مَذْحِجٍ تُبْكِي

فقاتلوهم حتى المساء. ثم إنه قاتلهم في همدان وناس من طوائف الناس، فحمل عليهم فأزالهم عن مواقعهم حتى ألحقهم بالصفوف الخمسة المعقلة بالعمائم حول معاوية، ثم شَدَّ عليهم شدة أخرى فصرع الصفوف الأربعة، - وكانوا معقلين بالعمائم - حتى انتهوا إلى الخامس الذي حول معاوية، ودعا معاوية بفرس فركب - وكان يقول: أردت أن أنهزم فذكرت قول ابن الإطنابة من الأنصار - كان جاهلياً، والإطنابة امرأة من بَلَقَيْنَ:

أَبْتُ لِي عِقَّتِي وَحَيَاءُ نَفْسِي وَأَقْدَامِي عَلَى الْبَطْلِ الْمُشِيحِ
وَأَعْطَانِي عَلَى الْمَكْرُوهِ مَالِي وَأَخَذِي الْحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ
وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَّاتُ وَجَاشْتُ مَكَانَكَ تُحَمِّدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

فمنعني هذا القول من الفرار.

قال أبو مخنف: حدثني مالك بن أعيन الجهني، عن زيد بن وهب، أن علياً لما رأى ميمته قد عادت إلى مواقعها ومصافها وكشفت من بيازائها حتى ضاربوهم في مواقعهم ومراكزهم، أقبل حتى انتهى إليهم فقال: إني قد رأيت جولتكم وانحيازكم عن صفوفكم، يحوزكم الطغاة الجفاة وأعراف أهل الشام، وأنتم لهايمم العرب، والسنام الأعظم، وعُتَمَار الليل بتلاوة القرآن، وأهل دعوة الحق إذ ضلَّ الخاطئون؛ فلولا إقبالكم بعد إدباركم، وكركمكم بعد انحيازكم، وجب عليكم ما وجب على المولي يوم الزحف دبره، وكنتم من الهالكين؛ ولكن هونٌ وجدي، وشقى بعض أحاح نفسي، أي رأيتم بأخرة خزتموهم كما حازوكم، وأزلموهم عن مصافهم كما أزالوكم، تحسونهم بالسيوف، تركب أولاهم أخراهم كالإبل المطردة الهيم؛ فالآن فاصبروا، نزلت عليكم السكينة، وثبتكم الله عز وجل باليقين، ليعلم المهزم أنه مسخط ربّه، وموبق نفسه؛ إن في الفرار موجدة الله عز وجل عليه، والذلّ اللازم، والعار الباقي، واعتصار الفيء من يده، وفساد العيش عليه. وإن الفار منه لا يزيد في عمره، ولا يُرضي ربّه، فموت المرء مُحِقّاً قبل إتيان هذه الخصال، خير من الرضا بالتأنيس لها، والإقرار عليها.

قال أبو مخنف: حدثنا عبدالله بن جابر الأحمسي، أن راية بجيلة بصفين كانت في أحمس بن الغوث بن أثمار مع أبي شداد - وهو قيس بن مكشوح بن هلال بن الحارث بن عمرو بن جابر بن علي بن

أسلم بن أحس بن الغوث - وقالت له بجيلة : خذ رايتنا ؛ فقال : غيري خير لكم مني ، قالوا : ما نريد غيرك ، قال : والله لئن أعطيتُمونيها لا أنتهي بكم دون صاحب الترس المذهب قالوا : اصنع ما شئت ، فأخذها ثم زحف ، حتى انتهى بهم إلى صاحب الترس المذهب - وكان في جماعة عظيمة من أصحاب معاوية ، وذكروا أنه عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي - فاقتتل الناس هنالك قتالاً شديداً ، فشدّ بسيفه نحو صاحب الترس ، فتعرض له رومي ، مولى لمعاوية فيضرب قدّم أبي شدّاد فيقطعها ، ويضربه أبو شدّاد فيقتله ، وأشرعت إليه الأسنة فقتل ، وأخذ الراية عبد الله بن قلع الأحمسي وهو يقول :

لا يُبْعِدُ اللَّهُ أَبَا شَدَّادٍ حَيْثُ أَجَابَ دَعْوَةَ الْمَنَادِي
وَشَدَّ بِالسَّيْفِ عَلَى الْأَعَادِي نَعَمَ الْفَتَى كَانَ لَدَى الطَّرَادِ
وفي طِعَانِ الرَّجُلِ وَالْجِلَادِ

فقاتل حتى قُتِلَ ؛ فأخذ الراية أخوه عبد الرحمن بن قلع ، فقاتل حتى قُتِلَ ، ثم أخذها عَفِيفُ بْنُ إِيسَى ، فلم تزل في يده حتى تحاجز الناس ، وقُتِلَ حَازِمُ بْنُ أَبِي حَازِمٍ الْأَحْمَسِيُّ - أَخُو قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ - يَوْمَئِذٍ ، وقُتِلَ نُعَيْمُ بْنُ صُهَيْبٍ ، بِنِ الْعُلَيْيَةِ الْبَجَلِيِّ يَوْمَئِذٍ ، فَأَتَى ابْنُ عَمِّهِ وَاسْمُهُ نُعَيْمُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ الْعُلَيْيَةِ مُعَاوِيَةَ - وَكَانَ مَعَهُ - فَقَالَ : إِنَّ هَذَا الْقَتِيلَ ابْنُ عَمِّي ، فَهَبْ لِي أَدْفِنَهُ ، فَقَالَ : لَا تَدْفِنُهُ فَلَيْسَ لَذَلِكَ أَهْلًا ، وَاللَّهِ مَا قَدَرْنَا عَلَى دَفْنِ ابْنِ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَّا سَرًّا . قَالَ : وَاللَّهِ لَتَأْذَنَنَّ فِي دَفْنِهِ أَوْ لَأَحْقَنَنَّ بِهِمْ وَلَأَدْعَنَنَّكَ . قَالَ مُعَاوِيَةُ : أَتَرَى أَشْيَاخَ الْعَرَبِ قَدْ أَحَالَتْهُمْ أُمُورُهُمْ ، فَأَنْتَ تَسْأَلُنِي فِي دَفْنِ ابْنِ عَمِّكَ ! إِدْفِنْهُ إِنْ شِئْتَ أَوْ دَعُ . فَدَفَنَهُ .

قال أبو مخنف : حدثني الحارث بن حصيرة الأزدي ، عن أشياخ من النّير من الأزدي ، أن مَخْنَفَ بْنَ سُلَيْمٍ لما نُدِبَتْ الْأَزْدُ لِلْأَزْدِ ، حَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : إِنَّ مِنْ الْخَطِيئَةِ الْجَلِيلِ ، وَالْبَلَاءِ الْعَظِيمِ ، أَنَا صُرَفْنَا إِلَى قَوْمِنَا وَصُرِفُوا إِلَيْنَا ، وَاللَّهِ مَا هِيَ إِلَّا أَيْدِينَا نَقْطَعُهَا بِأَيْدِينَا ، وَمَا هِيَ إِلَّا أَجْنَحَتُنَا نَجِدُهَا بِأَسْيَافِنَا ، فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَوَاسِرْ جَمَاعَتَنَا ، وَلَمْ نَنَاصِصْ صَاحِبِنَا كُفْرَنَا ، وَإِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا فَعْرَضًا أَبْخُنَا ، وَنَارَنَا أَحْمَدْنَا ؛ فَقَالَ لَهُ جُنْدَبُ بْنُ زَهِيرٍ : وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا آبَاءَهُمْ وَوَلَدْنَاهُمْ - أَوْ كُنَّا أَبْنَاءَهُمْ وَوَلَدُونَا - ثُمَّ خَرَجُوا مِنْ جَمَاعَتِنَا ، وَطَعَنُوا عَلَى إِمَامِنَا ، وَإِذَا هُمْ الْحَاكِمُونَ بِالْجَوْرِ عَلَى أَهْلِ مِلَّتِنَا وَذِمَّتِنَا ، مَا افْتَرَقْنَا بَعْدَ أَنْ اجْتَمَعْنَا حَتَّى يَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ ، وَيَدْخُلُوا فِيهَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، أَوْ تَكْثُرَ الْقَتْلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ .

فقال له مخنف - وكان ابن خالته : أَعَزَّ اللَّهُ بِكَ النِّيَّةُ ؛ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ صَغِيرًا وَكَبِيرًا إِلَّا مَشْؤُومًا ، وَاللَّهِ مَا مِئْلَنَا الرَّأْيَ قَطُّ أَيُّهَا نَائِي أَوْ أَيُّهَا نَدْعُ - فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا بَعْدَ أَنْ أَسْلَمْنَا - إِلَّا اخْتَرْتَ أَعْسَرَهُمَا وَأَنْكَدَهُمَا ، اللَّهُمَّ إِنْ تُعَافِي أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْ تَبْتَلِي ، فَأَعْطِ كُلَّ امْرَأَةٍ مِمَّا مَا يَسْأَلُكَ .

وقال أبو بُرَيْدَةَ بْنُ عَوْفٍ : اللَّهُمَّ احْكُمْ بَيْنَنَا بِمَا هُوَ أَرْضَى لَكَ . يَا قَوْمَ إِنَّكُمْ تَبْصُرُونَ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ ، وَإِنَّ لَنَا الْأُسُوءَةَ بِمَا عَلَيْهِ الْجَمَاعَةُ إِنْ كُنَّا عَلَى حَقٍّ ، وَإِنْ يَكُونُوا صَادِقِينَ فَإِنَّ أُسُوءَةَ فِي الشَّرِّ - وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَا - ضَرُرٌّ فِي الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ .

وتقدّم جُنْدَبُ بْنُ زَهِيرٍ ، فَبَارَزَ رَأْسَ أَزْدِ الشَّامِ ، فَقَتَلَهُ الشَّامِيُّ ، وَقُتِلَ مِنْ رَهْطِهِ عَجَلٌ وَسَعْدُ ابْنَا عَبْدِ اللَّهِ مِنْ بَنِي ثَعْلَبَةَ ، وَقُتِلَ مَعَ مَخْنَفٍ مِنْ رَهْطِهِ عَبْدِ اللَّهِ وَخَالِدُ ابْنَا نَاجِدٍ ، وَعَمْرُو وَعَامِرُ ابْنَا عُوفٍ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَجَّاجِ وَجُنْدَبُ بْنُ زَهِيرٍ ، وَأَبُو زَيْنَبٍ بْنُ عَوْفٍ بْنُ الْحَارِثِ ، وَخَرَجَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي الْحَصِينِ الْأَزْدِيُّ فِي الْقُرَاءِ

الذين مع عمار بن ياسر فأصيب معه .

قال أبو مخنف: وحَدَّثني الحارث بن خَصِيرة ، عن أشياخ النُّمير ، أنَّ عقبة بن حديد النمري قال يوم صِفِّين : ألا إنَّ مرعى الدنيا [قد] أصبح هشيباً ، وأصبح شجرها خضيبداً ، وجديدها سَملاً ، وحلوها مرّاً المذاق . ألا وإني أنبئكم نبأ امرئ صادق : إني قد سئمت الدنيا وعزفت نفسي عنها ، وقد كنت أتمنى الشهادة ، وأتعرض لها في كل جيش وغارة ؛ فأبى الله عز وجل إلا أن يبلغني هذا اليوم . ألا وإني متعرض لها من ساعتي هذه ، قد طمعت ألا أحرمها ، فما تنتظرون عباد الله بجهاد من عادى الله ؟ خوفاً من الموت القادم عليكم ، الذاهب بأنفسكم لا محالة ، أو من ضربة كف بالسيف ! تستبدلون الدنيا بالنظر في وجه الله عز وجل وموافقة النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين في دار القرار ! ما هذا بالرأي السديد . ثم مضى فقال : يا إخوتي ، قد بعث هذه الدار بالتي أمامها ، وهذا وجهي إليها لا يبرح وجوهكم ، ولا يقطع الله عز وجل رجاءكم . فتبعه إخوته : عبيد الله وعوف ومالك ، وقالوا : لا نطلب رزق الدنيا بعدك ، فقُبِحَ الله العيش بعدك ! اللهم إنا نحسب أنفسنا عندك ! فاستقدموا فقاتلوا حتى قُتلوا .

قال أبو مخنف : حَدَّثني صلة بن زهير النهدي ، عن مسلم بن عبد الله الضَّبائي ، قال : شهدت صِفِّين مع الحَيِّ ومعنا شمر بن ذي الجوشن الضَّبائي ، فبارزه أدهم بن محرز الباهلي ، فضرب أدهم وجه شمر بالسيف ، وضربه شمر ضربة لم تضربه ، فرجع شمر إلى رَحْله فشرب شربة - وكان قد ظمىء - ثم أخذ الرمح ، فأقبل وهو يقول :

إني زعيم لأخي باهله بطعنة إن لم أصب عاجله
أو ضربته تحت القنا والوعى شبيهة بالقتل أو قاتله

ثم حمل على أدهم فصرعه ، ثم قال : هذه بتلك .

قال أبو مخنف : حَدَّثني عمرو بن عمرو بن عوف بن مالك الجُشمي أن بشر بن عِصمة المزني كان لحق بمعاوية ، فلما اقتتل الناس بصِفِّين بصر بشر بن عِصمة بمالك بن العَقْدِيَّة - وهو مالك بن الجلاح الجُشمي ، ولكن العَقْدِيَّة غلبت عليه - فراه بشر وهو يفري في أهل الشام قزياً عجيباً ، وكان رجلاً مسلماً شجاعاً ، فغاض بشراً ما رأى منه ، فحمل عليه فطعنه فصرعه ، ثم انصرف ، فندم لطعنته إيّاه جباراً ، فقال :

وإني لأرجو من مليكي تجاوزاً ومن صاحب الموسوم في الصدر هاجساً
دَلَفْتُ له تحت الغبار بطعنة على ساعة فيها الطعان تخالساً
فبلغت مقالته ابن العَقْدِيَّة ، فقال :

ألا أبليغاً بشر بن عِصمة أنني شغلْتُ وأهاني الذين أمارسُ
فصادفت مني غيرةً وأصبتها كذلك والأبطال ماضٍ وخالسُ

ثم حمل عبد الله بن الطفيل البَكائي على جمع لأهل الشام ، فلما انصرف حمل عليه رجل من بني تميم - يقال له قيس بن قُرّة ، من لحق بمعاوية من أهل العراق - فيضع الرمح بين كتفي عبد الله بن الطفيل ، ويعترضه يزيد ابن معاوية ، ابن عم عبد الله بن الطفيل ، فيضع الرمح بين كتفي التميمي ، فقال : والله لئن طعنته لأطعننك ،

فقال : عليك عهد الله وميثاقه لئن رفعتُ السنان على ظهر صاحبك لترفعنَّ سنانك عني ! فقال له : نعم ، لك بذلك عهدُ الله ؛ فرفع السَّنان عن ابن الطُّفيل ، ورفع يزيد السنانَ عن التُّميميِّ ، فقال : مَن أنت ؟ قال : من بني عامر ؛ فقال له : جعلني الله فداكم ! أينما أَلفكم أَلِفكم كراماً ، وإني لحادي عَشَرَ رجلاً من أهل بيتي ورهطي قتلتموهم اليوم ، وأنا كنت آخرهم . فلما رجع الناس إلى الكوفة عتب على يزيد بن الطُّفيل في بعض ما يعتب فيه الرجل على ابن عمِّه ، فقال له :

أَلَمْ تَرَنِي حَامِيْتُ عَنْكَ مُنَاصِحاً بِصِفِّينَ إِذْ خَلَكَ كُلُّ حَمِيمٍ
وَنَهَنْتُ عَنْكَ الْحَنْظَلِيَّ وَقَدْ أَتَى عَلَى سَابِحِ ذِي مَيْعَةٍ وَهَزِيمٍ !

قال أبو مخنف : حدَّثني فضيل بن خديج ، قال : خرج رجل من أهل الشام يدعو إلى المبارزة ، فخرج إليه عبد الرحمن بن محرز الكندي ، ثم الطَّمَجِيّ ، فتجاوزا ساعة . ثم إن عبد الرحمن حمل على الشاميّ قطعنه في ثَغْرَةِ نَحْرِهِ فصرعه ، ثم نزل إليه فسلبه درعه وسلاحه ، فإذا هو حبشيّ ، فقال : إنا لله ! لَمَنْ أخطرت نفسي ! لعبد أسودا وخرج رجل من عكّ يسأل المبارزة ، فخرج إليه قيس بن فُهْدان الكِنَانيّ ، ثم البَدَنِيّ ، فحمل عليه العكّيّ فضربه واحتمله أصحابه فقال قيس بن فُهْدان :

لَقَدْ عَلِمْتُ عَكَ بِصِفِّينَ أَنَا إِذَا التَّقَتِ الْخِيْلَانُ نَطْعُهَا شَزْرًا
وَنَحْمِلُ رَايَاتِ الطَّعَانِ بِحَقِّهَا فَتَوَرُّدُهَا بِيضًا وَنُصْدِرُهَا حُمْرًا

قال أبو مخنف : وحدَّثني فضيل بن خديج أن قيس بن فُهْدان كان يحرض أصحابه فيقول : شدّوا إذا شددتم جميعاً ، وإذا انصرفتم فأقبلوا معاً ، وغَضُّوا الأبصار ، وأقلُّوا اللفظ ، واعتوروا الأقران ، ولا يؤتَيْنَ من قبلكم العرب . قال : وقيل نُهَيْك بن عُزَيْر - من بني الحارث بن عديّ وعمرو بن يزيد من بني دُهل ، وسعيد بن عمرو - وخرج قيس بن يزيد وهو ممن فرَّ إلى معاوية من عليّ ، فدعا إلى المبارزة ، فخرج إليه أخوه أبو العَمَرُطة بن يزيد ، فتعارفا ، فتواقفا وانصرفا إلى الناس ، فأخبر كل واحد منهما أنه لقي أخاه .

قال أبو مخنف : حدَّثني جعفر بن حذيفة من آل عامر بن جوين الطائيّ ، أن طيئاً يوم صِفِّينَ قاتلت قتلاً تسديداً ، فعبيت لهم جموع كثيرة ، فجاءهم حمزة بن مالك الهمدانيّ ، فقال : مَن أنتم ، لله أنتم ! فقال عبد الله بن خليفة البُولَانيّ - وكان شاعراً خطيباً : نحن طييء السهل ، وطييء الرمل ، وطييء الجبل ، الممنوع ذي النخل ؛ نحن حماة الجبلين ، إلى ما بين العُدَيْب والعَيْن ، نحن طييء الرماح ، وطييء النُّطاح ، وفُرسان الصُّباح . فقال حمزة بن مالك : بخ بخ ! إنك لحسن الشئاء على قومك ؛ فقال :

إِنْ كُنْتُ لَمْ تَشْعُرْ بِنَجْدَةِ مَعْشَرٍ فَأَقْدِمِ عَلَيْنَا وَيَبْ غَيْرِكَ تَشْعُرِ

ثم اقتتل الناس أشدَّ القتال ، فأخذ يناديهم ويقول : يا معشر طييء ، فِدَى لَكُمْ طَارِفِي وَتَالِدِي ! قَاتِلُوا عَلَى الْأَحْسَابِ ، وأخذ يقول :

أَنَا الَّذِي كُنْتُ إِذَا الدَّاعِي دَعَا مُصَمِّمًا بِالسَّيْفِ نَذْبًا أَرْوَعَا
فَأَنْزِلِ الْمُسْتَلُومَ الْمُقْنَعَا وَأَقْتُلِ الْمُبَالِطَ السَّمِيدَعَا

وقال بشر بن العسوس الطائيّ ثم الملقطيّ :

يَا طَيْئِ السُّهولِ والأَجْبَالِ أَلَا انْهَدُوا بِالْبَيْضِ وَالْعَوَالِي
وَيَا كُفَّاءَ مِنْكُمْ الأَبْطَالِ فَقَارِعُوا أَيْمَةَ الْجُهَالِ
السَّالِكِينَ سُبُلَ الضَّلَالِ

فَفُتِّتَ يَوْمئذٍ عَيْنُ ابْنِ الْعَسُوسِ ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ :

أَلَا لَيْتَ عَيْنِي هَذِهِ مِثْلُ هَذِهِ فَلَمْ أَمْشِرْ فِي الْآنَاسِ إِلَّا بِقَائِدِ
وَيَا لَيْتَنِي لَمْ أَبْقَ بَعْدَ مُطَرِّفِ وَسَعِدَ وَبَعْدَ الْمُسْتَنْبِرِ بْنِ خَالِدِ
فَوَارِسَ لَمْ تَغْدُ الْحَوَاضِئُ مِثْلَهُمْ إِذَا الْحَرْبُ أَبَدَتْ عَنْ خِدَامِ الْخَرَّائِدِ
وَيَا لَيْتَ رَجُلِي ثُمَّ طُنْتُ بِنَصْفِهَا وَيَا لَيْتَ كَفِّي ثُمَّ طَاخَتْ بِسَاعِدِي

قال أبو مخنف : حَدَّثَنِي أَبُو الصَّلْتِ التِّيمِيُّ ، قَالَ : حَدَّثَنِي أَشْيَاخُ مُحَارِبٍ ، أَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ خَنْثَرُ بْنُ عُبَيْدَةَ بْنِ خَالِدٍ ، وَكَانَ مِنْ أَشْجَعِ النَّاسِ ، فَلَمَّا اقْتَتَلَ النَّاسَ يَوْمَ صِفِّينَ ، جَعَلَ يَرَى أَصْحَابَهُ مِنْهُمْ مَنْ هَزَمَ ، فَأَخَذَ يَنَادِي : يَا مَعْشَرَ قَيْسَ ، أَطَاعَةُ الشَّيْطَانِ أَثَرُ عِنْدَكُمْ مِنْ طَاعَةِ الرَّحْمَنِ ! الْفِرَارُ فِيهِ مَعْصِيَةُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَسَخَطُهُ ، وَالصَّبْرُ فِيهِ طَاعَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرِضْوَانُهُ ، فَتَخْتَارُونَ سَخَطَ اللَّهِ عَلَى رِضْوَانِهِ ، وَمَعْصِيَتَهُ عَلَى طَاعَتِهِ ! فَإِنَّمَا الرَّاحَةُ بَعْدَ الْمَوْتِ لِمَنْ مَاتَ مُحَاسِباً لِنَفْسِهِ . وَقَالَ :

لَا وَآلَتِ نَفْسُ امْرِئٍ وَلَّى الدُّبُرَ أَنَا الَّذِي لَا يَنْشَنِي وَلَا يَفِرُّ
وَلَا يُرَى مَعَ الْمَعَاذِلِ الْغُدُرُ

فَقَاتَلَ حَتَّى ارْتَثَ . ثُمَّ إِنَّهُ خَرَجَ مَعَ الْخُمْسَمَائَةِ الَّذِينَ كَانُوا اعْتَزَلُوا مَعَ فَرُوةَ بْنِ تَوْفَلِ الْأَشْجَعِيِّ ، فَزَلُّوا بِالْأَسْكَرَةِ وَالْبَنْدِجِيِّينَ ، فَقَاتَلَتِ النَّخَعُ يَوْمئذٍ قِتَالاً شَدِيداً ، فَأَصِيبَ مِنْهُمْ يَوْمئذٍ بَكْرُ بْنُ هُوْذَةَ وَحَيَّانُ بْنُ هُوْذَةَ وَشُعَيْبُ بْنُ نُعَيْمٍ مِنْ بَنِي بَكْرِ النَّخَعِ ، وَرَبِيعَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ وَهْبِيلَ ، وَأَبِيَّ بْنُ قَيْسٍ أَخُو عَلْقَمَةَ بْنِ قَيْسِ الْفَقِيهِ ، وَقُطِيعَتُ رَجُلٍ عَلْقَمَةَ يَوْمئذٍ ، فَكَانَ يَقُولُ : مَا أَحَبَّ أَنْ رَجُلِي أَصَحَّ مَا كَانَتْ ، وَلَئِنَّمَا لَهَا أَرْجُوهُ حَسَنَ الثَّوَابِ مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ . وَقَالَ : لَقَدْ كُنْتُ أَحَبَّ أَنْ أَرَى فِي نَوْمِي أَخِي أَوْ بَعْضَ إِخْوَانِي ، فَأَرَيْتُ أَخِي فِي النَّوْمِ فَقُلْتُ : يَا أَخِي ، مَاذَا قَدِمْتُمْ عَلَيْهِ ؟ فَقَالَ لِي : إِنَّا التَّقِينَا نَحْنُ وَالْقَوْمَ ، فَاحْتَجَجْنَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَحَجَجْنَاهُمْ ، فَمَا سُرَرْتُ مِنْذُ عَقَلْتُ سُرُورِي بِتِلْكَ الرُّؤْيَا .

قال أبو مخنف : حَدَّثَنِي سُؤَيْدُ بْنُ حَيَّةَ الْأَسَدِيُّ ، عَنْ الْحُضَيْنِ بْنِ الْمُنْدَرِ ، أَنَّ أَنَساً كَانُوا أَتَوْا عَلِيّاً قَبْلَ الْوُقُوعَةِ فَقَالُوا لَهُ : إِنَّا لَا نَرَى خَالِدَ بْنَ الْمُعَمَّرِ إِلَّا قَدْ كَاتَبَ مَعَاوِيَةَ ، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَتَابَعَهُ . فَبَعَثَ إِلَيْهِ عَلِيٌّ وَإِلَى رِجَالٍ مِنْ أَشْرَافِنَا ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ . ثُمَّ قَالَ : أَمَا بَعْدُ يَا مَعْشَرَ رَبِيعَةَ ، فَأَنْتُمْ أَنْصَارِي وَبِحَبِيبِ دَعْوَتِي وَمِنْ أَوْثَقِ حَيٍّ فِي الْعَرَبِ فِي نَفْسِي ، وَقَدْ بَلَّغْنِي أَنَّ مَعَاوِيَةَ قَدْ كَاتَبَ صَاحِبَكُمْ خَالِدَ بْنَ الْمُعَمَّرِ ، وَقَدْ أَتَيْتُ بِهِ ، وَجَعَلْتُمْ لِأَشْهَدَكُمْ عَلَيْهِ وَلِتَسْمَعُوا أَيْضاً مَا أَقُولُهُ . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : يَا خَالِدُ بْنُ الْمُعَمَّرِ ، إِنْ كَانَ مَا بَلَغْنِي حَقّاً فَلَا تُشْهِدُ اللَّهَ وَمَنْ حَضَرَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّكَ آمِنٌ حَتَّى تَلْحَقَ بِأَرْضِ الْعِرَاقِ أَوْ الْحِجَازِ أَوْ أَرْضِ لَا سُلْطَانَ لِمَعَاوِيَةَ فِيهَا ، وَإِنْ كُنْتَ مَكْذُوباً عَلَيْكَ ، فَإِنَّ صَدُورَنَا تَطْمَئِنُّ إِلَيْكَ . فَحَلَفَ بِاللَّهِ مَا فَعَلَ ، وَقَالَ رِجَالٌ مِمَّنَّا كَثِيرٌ : لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ فَعَلَ أَمِثْلُنَا ، فَقَالَ شَقِيقُ بْنُ ثَوْرٍ السُّدُوسِيُّ : مَا وَفَّقَ خَالِدَ بْنَ الْمُعَمَّرِ أَنْ نَصَرَ مَعَاوِيَةَ وَأَهْلَ

قال أبو جعفر: وقد ذكر أن عماراً لما قُتِل قال عليّ لربيعة وهمدان: أنتم درعي ورُحمي، فانتدب له نحو من اثني عشر ألفاً، وتقدّمهم عليّ على بغلته فحمل وحملوا معه حملة رجل واحد، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض، وقتلوا كل من انتهوا إليه، حتى بلغوا معاوية، وعليّ يقول:

أَضْرِبُهُمْ وَلَا أَرَى مَعَاوِيَةَ الْجَا حِظَّ الْعَيْنِ الْعَظِيمِ الْحَاوِيَةَ

ثم نادى معاوية، فقال عليّ: علام يُقْتَل الناس بيننا! هلّم أحاكمك إلى الله، فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور، فقال له عمرو: أنصفك الرجل، فقال معاوية: ما أنصف، وإنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله، قال له عمرو: وما يجمل بك إلا مبارزته، فقال معاوية: طمعت فيها بعدي.

قال هشام، عن أبي مخنف: قال: حدّثني عبدالله بن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن سليمان الحضرمي، قال: قلت لأبي عمرة: ألا تراهم، ما أحسن هيئتهم! يعني أهل الشام، ولا ترانا ما أقبح رعيّتنا! فقال: عليك نفسك فأصلحها، ودّع الناس فإنّ فيهم ما فيهم.

خبر هاشم بن عتبة المرقال وذكر ليلة الهريز

قال أبو مخنف: وحدّثني أبو سلمة؛ أنّ هاشم بن عتبة الزُّهريّ دعا الناس عند المساء: ألا من كان يريد الله والدار الآخرة فليّ، فأقبل إليه ناسٌ كثير، فشّد في عصابة من أصحابه على أهل الشام مراراً، فليس من وجه يحمل عليه إلا صبر له وقاتل فيه قتالاً شديداً، فقال لأصحابه: لا يهولنكم ما ترون من صبرهم، فوالله ما ترون فيهم إلا حمية العرب وصبراً تحت راياتها، وعند مراكزها، وإنهم لعلّ الضلال، وإنكم لعلّ الحق. يا قوم اصبروا وصابروا واجتمعوا، وامشوا بنا إلى عدونا على تودة وريداً، ثم اثبتوا وتناصروا، واذكروا الله، ولا يسأل رجل أخاه، ولا تُكثروا الالتفات، واصمدوا صمدهم، وجاهدوهم محتسبين، حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين.

ثم إنه مضى في عصابة معه من القراء، فقاتل قتالاً شديداً هو وأصحابه عند المساء حتى رأوا بعض ما يُسرون به، قال: فإنهم لكذلك إذ خرج عليهم فتى شاب وهو يقول:

أَنَا ابْنُ أَرَبَابِ الْمَلُوكِ غَسَّانُ وَالذَّائِنُ الْيَوْمَ بِدِينِ عَثْمَانَ
إِنِّي أَنَا خَيْرُ فَاشْجَانُ أَنَّ عَلِيًّا قَتَلَ ابْنَ عَفَّانَ

ثم يشدّ فلا ينثني حتى يضرب بسيفه، ثم يشتم ويلعن ويكثر الكلام، فقال له هاشم بن عتبة: يا عبدالله، إن هذا الكلام، بعده الخصام، وإنّ هذا القتال، بعده الحساب، فاتّق الله فإنك راجع إلى الله فسائلك عن هذا الموقف وما أردت به. قال: فإني أقاتلكم لأنّ صاحبكم لا يصليّ كما ذكر لي، وأنتم لا تصلّون أيضاً، وأقاتلكم لأنّ صاحبكم قتل خليفتنا، وأنتم أردتموه على قتله. فقال له هاشم: وما أنت وابن عفان! إنما قتله أصحاب محمد وأبناء أصحابه وقراء الناس، حين أحدث الأحداث، وخالف حكم الكتاب؛ وهم أهل الدين، وأولى بالنظر في أمور الناس منك ومن أصحابك، وما أظنّ أمر هذه الأمة وأمر هذا الدين أهمل طرفه عين. فقال له: أجل، والله لا أكذب، فإنّ الكذب يضر ولا ينفع. قال: فإنّ أهل هذا الأمر أعلم به؛ فخله وأهل العلم به. قال: ما أظنك والله إلا نصحت لي؛ قال: وأمّا قولك: إنّ صاحبنا لا يصليّ، فهو أوّل من

صلى، مع رسول الله وأفقه خلق الله في دين الله، وأولى بالرسول. وأما كل من ترى معي فكلهم قارىء لكتاب الله لا ينام الليل تهجداً، فلا يغوينك عن دينك هؤلاء الأشقياء المغرورون. فقال الفتى: يا عبد الله، إني أظنك امرأ صالحاً؛ فتخبرني: هل تجد لي من توبة؟ فقال: نعم يا عبد الله؛ تب إلى الله يتب عليك، فإنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويحب المتطهرين. قال: فحشر والله الفتى الناس راجعاً، فقال له رجل من أهل الشام: خدعك العراقي، خدعك العراقي، قال: لا، ولكن نصح لي. وقاتل هاشم قتالاً شديداً هو وأصحابه، وكان هاشم يدعى المرقال، لأنه كان يُرقل في الحرب، فقاتل هو وأصحابه حتى أبروا على من يليهم، وحتى رأوا الظفر، وأقبلت إليهم عند المغرب كتيبة لتنوخ فشذوا على الناس، فقاتلهم وهو يقول:

أعور يبغي أهله محلاً قد عالج الحياة حتى ملاً
يتلهم بذى الكعوب تلاً

فرعموا أنه قتل يومئذ تسعة أو عشرة. وحمل عليه الحارث بن المنذر التنوخى فطعنه فسقط، وأرسل إليه علي: أن قدم لواءك، فقال لرسوله: انظر إلى بطني، فإذا هو قد شق، فقال الأنصاري الحجاج بن غزيرة:

فلن تفخروا بآبن البديل وهاشم فنحن قتلنا ذا الكلاع وخوشبا
ونحن تركنا بعد معتريك اللقا أحاكم عبيد الله لحماً ملحبا
ونحن أحطنا بالبعير وأهله ونحن سقيناكم سماماً مقشبا

هشام، عن أبي مخنف، قال: حدثني مالك بن أعيان الجهني، عن زيد ابن وهب الجهني، أن علياً مر على جماعة من أهل الشام فيها الوليد بن عقبة، وهم يشتمونه، فحبر بذلك، فوقف فيمن يليهم من أصحابه فقال: انهذوا إليهم، عليكم السكينة والوقار، وقار الإسلام، وسما الصالحين، فوالله لأقرب قوم من الجهل قائدهم ومؤذنهم معاوية وابن النابغة، وأبو الأعور السلمي وابن أبي مغيث شارب الخمر المجلود حذاً في الإسلام، وهم أولى من يقومون فينقصوني ويجدونني، وقبل اليوم ما قاتلوني، وأنا إذ ذاك أدعوه إلى الإسلام، وهم يدعونني إلى عبادة الأصنام، الحمد لله، قديماً عاداني الفاسقون قعيدهم الله ألم يقبحوا! إن هذا هو الخطب الجليل؛ إن فساقاً كانوا غير مرضيين، وعلى الإسلام وأهله متخوفين، خدعوا شطر هذه الأمة، وأشربوا قلوبهم حب الفتنة، واستمالوا أهواءهم بالإفك والبهتان، قد نصبوا لنا الحرب في إطفاء نور الله عز وجل، اللهم فافضض خدمتهم، وشئت كلمتهم، وأبسلهم بخطاياهم فإنه لا يذل من وآيت، ولا يعز من عاديت.

قال أبو مخنف: حدثني غير بن وعلة، عن الشعبي، أن علياً مر بأهل راية فرآهم لا يزولون عن موقفهم، فحرض عليهم الناس، وذكر أنهم غسان، فقال: إن هؤلاء لن يزولوا عن موقفهم دون طعن ذراك يخرج منهم النسم، وضرب يفلق منه الهام، ويطيح بالعظام، وتسقط منه المعاصم والأكت، وحتى تصدع جباههم بعمد الحديد، وتنتشر حواجبهم على الصدور والأذقان. أين أهل الصبر، وطلاب الأجر فتاب إليه عصاية من المسلمين، فدعا ابنه محمداً، فقال: امش نحو أهل هذه الراية مشياً رويداً على هيئتك، حتى إذا أشرعت في صدورهم الرماح، فأمسك حتى يأتبك رأيي. ففعل، وأعد علي مثلهم، فلما دنا منهم فأشروع بالرماح في صدورهم أمر على الذين أعد فشذوا عليهم، وأنفض محمداً بمن معه في وجوههم، فزالوا عن مواقفهم، وأصابوا منهم رجالاً، ثم اقتتل الناس بعد المغرب قتالاً شديداً، فما صلى أكثر الناس إلا إيماء.

الشَّام على عليّ وربيعة؛ فقال زياد بن خُصَفة التَّيميّ: يا أمير المؤمنين، استوثق من ابن المعمر بالإيمان لا يغدرنك. فاستوثق منه، ثم انصرفنا. فلما كان يوم الخميس انهزم الناس من قِبَل الميمنة، فجاءنا عليّ حتى انتهى إلينا ومعه بنوه، فنأدى بصوت عالٍ جهير، كغير المكترث لما فيه الناس: لمن هذه الرايات؟ قلنا: رايات ربيعة، فقال: بل هي رايات الله عزّ وجلّ، عصم الله أهلها، فصبرهم، وثبت أقدامهم. ثم قال لي: يا فتى، ألا تُدني رايتك هذه ذراعاً؟ قلت: نعم والله عشرة أذرع؛ فقامت بها فأدنيتها، حتى قال: إنّ حسبك مكانك، فثبت حيث أمرني، واجتمع أصحابي.

قال أبو مخنف: حدثنا أبو الصلت التيميّ، قال: سمعتُ أشياخَ الحَيّ من تيم الله بن ثعلبة يقولون: إنّ راية ربيعة؛ أهل كوفتها وبصرتها، كانت مع خالد بن المعمر من أهل البصرة. قال: وسمعتهم يقولون: إنّ خالد بن المعمر وسُفيان بن ثور السُدوسيّ اصطلحا على أن وليا راية بكر بن وائل من أهل البصرة الحُضَيْن بن المنذر الذُهليّ، وتنافسَا في الرّاية، وقالوا: هذا فتى مثله حَسَب، نجعلها له حتى نرى من رأينا.

ثم إنّ عليّاً وليّ خالد بن المعمر بعد راية ربيعة كلّها. قال: وضرب معاوية لحمير بسهمهم على ثلاث قبائل، لم تكن لأهل العراق قبائل أكثر عدداً منها يومئذ: على ربيعة وهمدان ومذحج، فوقع سهم حمير على ربيعة، فقال ذو الكلاع: قبحك الله من سهم! كرهت الضراب! فأقبل ذو الكلاع في حمير ومن تعلقها، ومعهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب في أربعة آلاف من قراء أهل الشام، وعلى ميمنتهم ذو الكلاع، فحملوا على ربيعة، وهم ميسرة أهل العراق، وفيهم ابن عباس، وهو على الميسرة فحمل عليهم ذو الكلاع وعبيد الله بن عمر حملة شديدة بخيلهم ورجلهم، فتضعضت رايات ربيعة إلّا قليلاً من الأخيار والأبدال. قال: ثم إنّ أهل الشام انصرفوا، فلم يكتوا إلّا قليلاً حتى كروا، وعبيد الله بن عمر يقول: يا أهل الشام، إنّ هذا الحَيّ من أهل العراق قتلة عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وأنصار عليّ بن أبي طالب، وإن هزمتهم هذه القبيلة أدركتم ثأركم في عثمان وهلك عليّ بن أبي طالب وأهل العراق، فشَدّوا على الناس شدة، فثبت لهم ربيعة، وصبروا صبراً حسناً إلّا قليلاً من الضعفاء والفشلة، وثبت أهل الرايات وأهل الصبر منهم والحفاظ، فلم يزولوا، وقاتلوا قتالاً شديداً. فلما رأى خالد بن المعمر ناساً من قومه انصرفوا انصرف، ولما رأى أصحاب الرايات قد ثبتوا ورأى قومه قد صبروا رجع وصاح بمن انهزم، وأمرهم بالرجوع، فقال: مَنْ أراد من قومه أن يتهمه؛ أراد الانصراف. فلما رأنا قد ثبتنا رجع إلينا وقال هو: لما رأيت رجالاً منا انهزموا رأيتُ أن أستقبلهم وأردّهم إليكم، وأقبلت إليكم فيمن أطاعني منهم، فجاء بأمر مشبه.

قال أبو مخنف: حدثني رجل من بكر بن وائل، عن محرز بن عبد الرحمن العجليّ، أن خالداً قال يومئذ: يا معشر ربيعة، إنّ الله عزّ وجلّ قد أتى بكلّ رجل منكم من منبته ومسقط رأسه، فجمعكم في هذا المكان جمعاً لم يجمعكم مثله منذ نشركم في الأرض، فإن تمسكوا بأيديكم، وتناكروا عن عدوكم، وتزولوا عن مصافكم لا يرض الله فعلكم، ولا تقدّموا من الناس صغيراً أو كبيراً إلّا يقول: فضحت ربيعة الدمار، وحاصت عن القتال، وأثبت من قبلها العرب، فإياكم أن يتشام بكم العرب والمسلمون اليوم. وإنكم إن تمضوا مقبلين مقدمين، وتصيروا محتسبين فإن الإقدام لكم عادة، والصبر منكم سجيّة، واصبروا ونيّبتكم [صادقة] أن تؤجروا، فإن ثواب مَنْ نوى ما عند الله شرف الدنيا وكرامة الآخرة، ولن يُضيع الله أجر من أحسن عملاً.

فقام رجل من ربيعة فقال: ضاع والله أمر ربيعة حين جعلت إليك أمورها ! تأمرنا ألا نزول ولا نحول حتى تقتل أنفسنا ، وتسفك دماءنا ! ألا ترى الناس قد انصرف جُلهم ! فقام إليه رجال من قومه فنهروه وتناولوه بالسستهم . فقال لهم خالد : أخرجوا هذا من بينكم ، فإن هذا إن بقي فيكم ضرركم ، وإن خرج منكم لم ينقصكم ، هذا الذي لا ينقص العدد ، ولا يملأ البلد ، برّحك الله من خطيب قوم كرام ! كيف جُنبت السداد ! واشتد قتال ربيعة وحير وعبيد الله بن عمر حتى كثرت بينهم القتلى ، فقتل سُمير بن الريان بن الحارث العجلي ، وكان من أشد الناس بأساً .

قال أبو مخنف : حدثني جيفر بن أبي القاسم العبدى ، عن يزيد بن علقمة ، عن زيد بن بدر العبدى ، أن زياد بن خصفة أتى عبد القيس يوم صيفين وقد عييت قبائل حمير مع ذي الكلاع - وفيهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب - لبكر بن وائل ، فقتلوا قتالاً شديداً ، خافوا فيه الهلاك . فقال زياد بن خصفة : يا عبد القيس ، لا بكر بعد اليوم . فركبنا الخيول ، ثم مضينا فواقفناهم ، فما لبثنا إلا قليلاً حتى أصيب ذو الكلاع ، وقتل عبيد الله بن عمر رضي الله عنه ، فقالت همدان : قتله هانيء بن خطاب الأرحبي ، وقالت خضر موت : قتله مالك بن عمر والتنعبي ، وقالت بكر بن وائل : قتله محرز بن الصّحصح من بني عائش بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة ، وأخذ سيفه ذا الوشاح ، فأخذ به معاوية بالكوفة بكر بن وائل ، فقالوا : إنما قتله رجل منا من أهل البصرة ، يقال له : محرز بن الصّحصح ، فبعث إليه بالبصرة فأخذ منه السيف ، وكان رأس النمر بن قاسط عبد الله بن عمرو من بني تيم الله بن النمر .

قال هشام بن محمد : الذي قتل عبيد الله بن عمر رضي الله عنه محرز بن الصّحصح ، وأخذ سيفه ذا الوشاح ، سيف عمر ، وفي ذلك قول كعب بن جعيل التغلبي :

ألا إنما تبكي العيون لفارسٍ بصفين أجلت خيله وهو واقف
يبدل من أسماء أسياف وإبل وكان فتى لو أخطأته المتألف
تركن عبيد الله بالقاع مُسنداً تمج دَم الخرق العروق الدوارف

وهي أكثر من هذا . وقتل منهم يومئذ بشر بن مرة بن شرحبيل ، والحارث بن شرحبيل ، وكانت أسماء بنت عطار بن حاجب التميمي تحت عبيد الله بن عمر ، ثم خلف عليها الحسن بن علي .

قال أبو مخنف : حدثني ابن أخي غياث بن لقيط البكري أن علياً حيث انتهى إلى ربيعة ، تبارت ربيعة بينها ، فقالوا : إن أصيب علي فيكم وقد لجأ إلى رايتمكم افتضحتم . وقال لهم شقيق بن ثور : يا معشر ربيعة ، لا عذر لكم في العرب إن وُصل إلى علي فيكم وفيكم رجل حي ، وإن منعتموه فمجد الحياة اكتسبتموه . فقاتلوا قتالاً شديداً حين جاءهم علي لم يكونوا قاتلوا مثله ، ففي ذلك قال علي :

لَمِنْ رَايَةٍ سَوْدَاءٍ يُخْفِقُ ظِلُّهَا إِذَا قِيلَ قَدَمُهَا حُضَيْنٌ تَقَدَّمَا
يُقَدِّمُهَا فِي الْمَوْتِ حَتَّى يُزِيرَهَا حِيَاضُ الْمَنَايَا تَقْطُرُ الْمَوْتَ وَالْدَمَا
أَذَقْنَا ابْنَ حَرْبٍ طَعْنَنَا وَضَرَابَنَا بِأَسْيَافِنَا حَتَّى تَوَلَّى وَأَحْجَمَا
جَزَى اللَّهُ قَوْمًا صَابَرُوا فِي لِقَائِهِمْ لَدَى الْمَوْتِ قَوْمًا مَا أَعَفَّ وَأَكْرَمَا
وَأَطِيبَ أَخْبَاراً وَأَكْرَمَ شِيَمَةً إِذَا كَانَ أَصْوَاتُ الرِّجَالِ تَغْمَغُمَا

رَبِيعَةَ أَعْيَى أَهْلُ نَجْدَةٍ وَيَأْسٍ إِذَا لَاقُوا جَسِيماً عَرَمَرَمَا مَقْتَلِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ

قال أبو مخنف : حَدَّثَنِي عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ أَبِي حَرَّةٍ الْحَنْفِيُّ ، أَنَّ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَوْ أَعْلَمْتُ أَنَّ رِضَاكَ فِي أَنْ أَقْذِفَ بِنَفْسِي فِي هَذَا الْبَحْرِ لَفَعَلْتُهُ ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَوْ أَعْلَمْتُ أَنَّ رِضَاكَ فِي أَنْ أَضَعُ طَبَّةَ سَيْفِي فِي صَدْرِي ثُمَّ أَنْحِنِي عَلَيْهَا حَتَّى تُخْرِجَ مِنْ ظَهْرِي لَفَعَلْتُ ، وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ الْيَوْمَ عَمَلًا هُوَ أَرْضَى لَكَ مِنْ جِهَادِ هَؤُلَاءِ الْفَاسِقِينَ ، وَلَوْ أَعْلَمْتُ أَنَّ عَمَلًا مِنَ الْأَعْمَالِ هُوَ أَرْضَى لَكَ مِنْهُ لَفَعَلْتُهُ .

قال أبو مخنف : حَدَّثَنِي الصَّبَّعِيُّ بْنُ زُهَيْرٍ الْأَزْدِيُّ ، قَالَ : سَمِعْتُ عَمَّارًا يَقُولُ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى قَوْمًا لَيُضْرَبُكُمْ ضَرْبًا يَرْتَابُ مِنْهُ الْمُبْطِلُونَ ، وَإِيمَ اللَّهِ لَوْ ضَرَبُونَا حَتَّى يَبْلُغُوا بَنَاءَ سَعَفَاتِ هَجَرَ لَعَلِمْنَا أَنَّا عَلَى الْحَقِّ ، وَأَنَّهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ .

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ بَنِ مُوسَى ، قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا مُسْلِمُ الْأَعُورُ ، عَنْ حَبَّةَ بْنِ جُوَيْنٍ الْعُرَيْيِّ ، قَالَ : انْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو مَسْعُودٍ إِلَى حُدَيْفَةَ بِالْمَدَائِنِ ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ ، فَقَالَ : مَرْحَبًا بِكُمَا ، مَا خَلَفْتُمَا مِنْ قِبَالِ الْعَرَبِ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْكُمَا . فَأَسْنَدْتُهُ إِلَى أَبِي مَسْعُودٍ ، فَقُلْنَا : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، حَدَّثْنَا إِنَّا نَخَافُ الْفِتْنَةَ ؛ فَقَالَ : عَلَيْكُمَا بِالْفِتْنَةِ الَّتِي فِيهَا ابْنُ سَمِيَّةٍ ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : «تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَةُ النَّاكِبَةُ عَنِ الطَّرِيقِ ، وَإِنْ آخَرَ رِزْقَهُ ضَيَّاحٌ مِنْ لَبَنٍ» . قَالَ حَبَّةٌ : فَشَهِدْتُهِ يَوْمَ صِفِّينَ وَهُوَ يَقُولُ : ائْتُونِي بِآخِرِ رِزْقِي مِنْ الدُّنْيَا ، فَأَتَى بِضَيَّاحٍ مِنْ لَبَنٍ فِي قَدَحٍ أَرْوَحَ لَهُ حَلَقَةٌ حُمْرَاءُ ، فَمَا أَخْطَأَ حُدَيْفَةَ مِقْيَاسَ شَعْرَةٍ ، فَقَالَ :

الْيَوْمَ أَلْقَى الْأَحْبَبُ مُحَمَّدًا وَحَزْبَهُ

وَاللَّهُ لَوْ ضَرَبُونَا حَتَّى يَبْلُغُوا بَنَاءَ سَعَفَاتِ هَجَرَ لَعَلِمْنَا أَنَّا عَلَى الْحَقِّ وَأَنَّهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَجَعَلَ يَقُولُ : الْمَوْتُ تَحْتَ الْأَسَلِ ، وَالْجَنَّةُ تَحْتَ الْبَارِقَةِ .

حَدَّثَنِي مُحَمَّدٌ ، عَنْ خَلْفٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا مَنْصُورُ بْنُ أَبِي نُوبَةَ ، عَنْ أَبِي مَخْنَفٍ . وَحَدَّثْتُ عَنْ هِشَامِ بْنِ الْكَلْبِيِّ ، عَنْ أَبِي مَخْنَفٍ ، قَالَ : حَدَّثَنِي مَالِكُ بْنُ أَعْيَنَ الْجُهَنِيُّ ، عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ الْجُهَنِيِّ ، أَنَّ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ يَوْمَئِذٍ : أَيْنَ مَنْ يَبْتَغِي رِضْوَانَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَلَا يَتَوَّبُ إِلَى مَالٍ وَلَا وَلَدٍ ! فَأَتَتْهُ عَصَابَةٌ مِنَ النَّاسِ ، فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ، اقْصِدُوا بَنَاءَ نَحْوِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَبْغُونَ دَمَ ابْنِ عَفَّانٍ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ قَتَلَ مَظْلُومًا ، وَاللَّهُ مَا طَلَبْتُهُمْ بِدَمِهِ ، وَلَكِنَّ الْقَوْمَ ذَاقُوا الدُّنْيَا فَاسْتَحَبُّوْهَا وَاسْتَمَرُّوْهَا وَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ إِذَا لَزِمَهُمْ حَالٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَتَمَرَّغُونَ فِيهِ مِنْ دُنْيَاهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْقَوْمِ سَابِقَةٌ فِي الْإِسْلَامِ يَسْتَحَقُّونَ بِهَا طَاعَةَ النَّاسِ وَالْوِلَايَةَ عَلَيْهِمْ ، فَخَدَعُوا أَتْبَاعَهُمْ أَنْ قَالُوا : إِمَامُنَا قَتَلَ مَظْلُومًا ، لِيَكُونُوا بِذَلِكَ جَبَابِرَةً مَلُوكًا ، وَتِلْكَ مَكِيدَةُ بَلَّغُوا بِهَا مَا تَرَوْنَ ، وَلَوْلَا هِيَ مَا تَبِعَهُمْ مِنَ النَّاسِ رِجَالَانِ . اللَّهُمَّ إِنْ تَنْصَرْنَا فَطَالَمَا نَصَرْتَ ، وَإِنْ تَجْعَلَ لَهُمُ الْأَمْرَ فَادْخِرْ لَهُمْ بِمَا أَحْدَثُوا فِي عِبَادِكَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . ثُمَّ مَضَى ، وَمَضَتْ تِلْكَ الْعَصَابَةُ الَّتِي أَجَابَتْهُ حَتَّى دَنَا مِنْ عَمْرٍو فَقَالَ : يَا عَمْرٍو ، بَعَثَ دِينَكَ بِمَصْرَ ، تَبَّأُ لَكَ تَبًّا ! طَالَمَا بَغَيْتَ فِي الْإِسْلَامِ عَوَجًا . وَقَالَ لِعُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ : صَرَعَكَ اللَّهُ ! بَعَثَ دِينَكَ مِنْ عَدُوِّ الْإِسْلَامِ وَابْنِ عَدُوِّهِ ، قَالَ : لَا ، وَلَكِنْ أَطْلَبُ بِدَمِ عِثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ رِضَى اللَّهِ عَنْهُ ؛ قَالَ لَهُ : أَشْهَدُ عَلَى عِلْمِي فَيْكَ أَنَّكَ لَا تَطْلُبُ بِشَيْءٍ مِنْ فَعْلِكَ وَجْهَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ وَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَقْتُلِ الْيَوْمَ تَمُتْ

غداً ، فانظر إذا أعطيَ الناسُ على قدر نياتهم ما نيتك .

حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي ، قال : أخبرنا عبيد بن الصَّبَّاح ، عن عطاء بن مسلم ، عن الأعمش ، عن أبي عبد الرحمن السُّلَميِّ ، قال : سمعتَ عَمَّارَ بنَ ياسرَ بصيفين وهو يقول لعَمْرُو بنِ العاص : لقد قاتلتُ صاحبَ هذه الراية ثلاثاً مع رسول الله ﷺ ، وهذه الرابعة ما هي بأبر ولا أتقى .

حدثنا أحمد بن محمد ، قال : حدثنا الوليد بن صالح ، قال : حدثنا عطاء بن مسلم ، عن الأعمش ، قال : قال أبو عبد الرحمن السُّلَميِّ : كنا مع عليّ بصيفين ، فكنا قد وكلنا بفرسه رجلين يحفظانه ويمنعانه من أن يحمل ، فكان إذا حانت منها غفلةً يحمل فلا يرجع حتى يخضب سيفه ، وإنه حمل ذات يوم فلم يرجع حتى انثنى سيفه ، فאלقاه إليهم ، وقال : لولا أنه انثنى ما رجعتُ - فقال الأعمش : هذا والله ضربٌ غير مرتاب ، فقال أبو عبد الرحمن : سمع القوم شيئاً فأدوه وما كانوا بكذابين - قال : ورأيت عماراً لا يأخذ وادياً من أودية صيفين إلا تبعه من كان هناك من أصحاب محمد ﷺ ؛ ورأيتَه جاء إلى المِرْقَالِ هاشم بن عتبة وهو صاحب راية عليّ ، فقال : يا هاشم ، أعوراً وجنباً ! لا خير في أعورٍ لا يغشى البأس ، فإذا رجلٌ بين الصَّفيْنِ قال : هذا والله ليخلفن إمامه ، وليخذلن جنده ، وليصبرن جهده ، اركب يا هاشم ؛ فركب ، ومضى هاشم يقول :

أَعُورٌ يَبْغِي أَهْلَهُ مَحَلًّا قَدْ عَالَجَ الْحَيَاةَ حَتَّى مَلًّا
لَا بَدَّ أَنْ يَقْلُ أَوْ يُقْلَا

وعَمَّارٌ يقول : تقدّم يا هاشم ، الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت في أطراف الأسل ، وقد فُتِحت أبواب السماء ، وتزينت الحور العين .

اليوم ألقى الأحبة محمدًا وحزبه

فلم يرجعاً وقتلاً - قال : يفيد لك علمهما من كان هناك من أصحاب رسول الله ﷺ ، أنها كانا علماً - فلما كان الليل قلت : لأدخلن إليهم حتى أعلم : هل بلغ منهم قتل عَمَّارٍ ما بلغ منا ! وكنا إذا توادعنا من القتال تحدّثوا إلينا وتحَدَّثنا إليهم ، فركبت فرسي وقد هدأت الرجل ، ثم دخلت فإذا أنا بأربعة يتسايرون : معاوية ، وأبو الأعور السُّلَميِّ ، وعمرو بن العاص ، وعبد الله بن عمرو - وهو خير الأربعة - فادخلت فرسي بينهم مخافة أن يفوتني ما يقول أحد الشقيين ، فقال عبد الله لأبيه : يا أبت ، قتلتم هذا الرجل في يومكم هذا ، وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال ! قال : وما قال ؟ قال : ألم تكن معنا ونحن نبي المسجد ، والناس ينقلون حجراً حجراً ولينة لينة ، وعَمَّارٌ ينقل حجرتين حجرتين ولبنتين لبنتين ، فغشي عليه ، فاتاه رسول الله ﷺ ، فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول : «يحك يا بن سُمَيَّة ! الناس ينقلون حجراً حجراً ، ولينة لينة ، وأنت تنقل حجرتين حجرتين ولبنتين لبنتين رغبة منك في الأجر ! وأنت ويحك مع ذلك تقتلك الفئة الباغية !» . فدفع عمرو صدر فرسه ، ثم جذب معاوية إليه ، فقال : يا معاوية ، أما تسمع ما يقول عبد الله ! قال : وما يقول ؟ فأخبره الخبر ، فقال معاوية : إنك شيخ أخرق ، ولا تزال تحدّث بالحديث وأنت تدحض في بؤلك ! وأنحن قتلنا عَمَّاراً ! إنما قتل عَمَّاراً من جاء به . فخرج الناس من فساطيطهم وأخبثتهم يقولون : إنما قتل عَمَّاراً من جاء به ، فلا أدري من كان أصعب ؟ هو أو هم !

قال أبو مخنف : حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرِ الْكَنْدِيُّ ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبٍ الْمُرَادِيَّ قَتَلَ يَوْمَ صِفِّينَ ، فَمَرَّ بِهِ الْأَسْوَدُ بْنُ قَيْسٍ الْمُرَادِيَّ ، فَقَالَ : يَا أَسْوَدُ ، قَالَ : لَبَّيْكَ ! وَعَرَفَهُ وَهُوَ بَاخِرَ رَمَقٍ ، فَقَالَ : عَزَّ وَاللَّهِ عَلَيَّ مَصْرَعُكَ ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شَهِدْتُكَ لَأَسَيْتُكَ ، وَلَدَافَعْتُ عَنْكَ ، وَلَوْ عَرَفْتُ الَّذِي أَشْعُرُكَ لِأَحْبَبْتُ أَلَّا يَتَزَايِلَ حَتَّى أَقْتُلَهُ أَوْ أَلْحَقَ بِكَ . ثُمَّ نَزَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ : أَمَا وَاللَّهِ إِنْ كَانَ جَارُكَ لِيَأْمَنَ بِوَأَثْقِكَ ، وَإِنْ كُنْتَ لِمَنِ الذَّاكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا ، أَوْصِنِي رَحِمَكَ اللَّهُ ! فَقَالَ : أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَنْ تُنَاصِحَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتُقَاتِلَ مَعَهُ الْمُجَلِّينَ حَتَّى يَظْهَرَ أَوْ تَلْحَقَ بِاللَّهِ . قَالَ : وَأَبْلَغُهُ عَنِّي السَّلَامَ ، وَقُلْ لَهُ : قَاتِلْ عَنِ الْمَعْرَكَةِ حَتَّى تَجْعَلَهَا خَلْفَ ظَهْرِكَ ، فَإِنَّهُ مِنْ أَصْبَحٍ غَدًا وَالْمَعْرَكَةُ خَلْفَ ظَهْرِهِ كَانَ الْعَالِي ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ ، فَأَقْبَلَ الْأَسْوَدُ إِلَى عَلِيٍّ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ ! جَاهِدْ فِينَا عَدُوَّنَا فِي الْحَيَاةِ ، وَنُصَحْ لَنَا فِي الْوَفَاةِ .

قال أبو مخنف : حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ مَوْلَى بَنِي الْمُطَّلِبِ ، أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ حَنْبَلٍ الْجُمَحِيَّ ، هُوَ الَّذِي أَشَارَ عَلَى عَلِيٍّ بِهَذَا الرَّأْيِ يَوْمَ صِفِّينَ .

قال هشام : حَدَّثَنِي عَوَانَةُ ، قَالَ : جَعَلَ ابْنُ حَنْبَلٍ يَقُولُ يَوْمَئِذٍ :

إِنْ تَقْتُلُونِي فَأَنَا ابْنُ حَنْبَلٍ أَنَا الَّذِي قَدْ قُلْتُ فِيكُمْ نَعْتُلُ

رجع الحديث إلى حديث أبي مخنف : قال أبو مخنف : فاقتتل الناس تلك الليلة كلها حتى الصباح ؛ وهي ليلة الهَرِيرِ ، حَتَّى تَقْصُفَ الرِّمَاحُ وَتَفْدُ النَّبْلُ ، وَصَارَ النَّاسُ إِلَى السِّبْوَفِ ، وَأَخَذَ عَلِيٌّ يَسِيرُ فِيمَا بَيْنَ الْمَيْمَنَةِ وَالْمِيسَرَةِ ، وَيَأْمُرُ كُلَّ كَتِيبَةٍ مِنَ الْقُرَاءِ أَنْ تَقْدُمَ عَلَى الَّتِي تَلِيهَا ، فَلَمْ يَزَلْ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِالنَّاسِ وَيَقُومُ بِهِمْ حَتَّى أَصْبَحَ وَالْمَعْرَكَةُ كُلُّهَا خَلْفَ ظَهْرِهِ ، وَالْأَشْتَرُ فِي مَيْمَنَةِ النَّاسِ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ فِي الْمِيسَرَةِ ، وَعَلِيٌّ فِي الْقَلْبِ ، وَالنَّاسُ يَقْتَتِلُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَأَخَذَ الْأَشْتَرُ يَزْحَفُ بِالْمَيْمَنَةِ وَيُقَاتِلُ فِيهَا ، وَكَانَ قَدْ تَوَلَّاهَا عَشِيَّةَ الْخَمِيسِ وَلَيْلَةَ الْجُمُعَةِ إِلَى ارْتِفَاعِ الضُّحَى ، وَأَخَذَ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ : ازْحَفُوا قِيدَ هَذَا الرَّمْحِ ، وَهُوَ يَزْحَفُ بِهِمْ نَحْوَ أَهْلِ الشَّامِ ، فَإِذَا فَعَلُوا قَالَ : ازْحَفُوا قَادَ هَذَا الْقَوْسِ ، فَإِذَا فَعَلُوا سَأَلَهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ ، حَتَّى مَلَّ أَكْثَرَ النَّاسِ الْإِقْدَامَ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْأَشْتَرُ قَالَ : أَعِيزْكُمْ بِاللَّهِ أَنْ تَرْضَعُوا الْغَنَمَ سَائِرَ الْيَوْمِ ، ثُمَّ دَعَا بِفَرَسِهِ ، وَتَرَكَ رَايَتَهُ مَعَ حَيَّانَ بْنِ هُوَذَةَ النَّخَعِيِّ ، وَخَرَجَ يَسِيرُ فِي الْكَتَائِبِ وَيَقُولُ : مَنْ يَشْتَرِي نَفْسَهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَيُقَاتِلُ مَعَ الْأَشْتَرِ ، حَتَّى يَظْهَرَ أَوْ يَلْحَقَ بِاللَّهِ ! فَلَا يَزَالُ رَجُلٌ مِنَ النَّاسِ قَدْ خَرَجَ إِلَيْهِ ، وَحَيَّانَ بْنُ هُوَذَةَ .

قال أبو مخنف : عَنْ أَبِي جَنَابِ الْكَلْبِيِّ ، عَنْ عُمَارَةَ بْنِ رَبِيعَةَ الْجَرْمِيِّ ، قَالَ : مَرَّ بِي وَاللَّهِ الْأَشْتَرُ فَأَقْبَلْتُ مَعَهُ ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَاسٌ كَثِيرٌ ، فَأَقْبَلَ حَتَّى رَجَعَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ بِهِ الْمَيْمَنَةُ ، فَقَامَ بِأَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : شَدُّوا شَدَّةً - فِدَى لَكُمْ عَمِّي وَخَالِي - تُرْضُونَ بِهَا الرَّبَّ ، وَتُعِزُّونَ بِهَا الدِّينَ ، إِذَا شَدَدْتُ فُشِدُّوا ، ثُمَّ نَزَلَ فَضْرَبَ وَجْهَ دَابَّتِهِ ، ثُمَّ قَالَ لِصَاحِبِ رَايَتِهِ قَدَّمَ بِهَا ، ثُمَّ شَدَّ عَلَى الْقَوْمِ ، وَشَدَّ مَعَهُ أَصْحَابُهُ ، فَضْرَبَ أَهْلَ الشَّامِ حَتَّى انْتَهَى بِهِمْ إِلَى عَسْكَرِهِمْ ؛ ثُمَّ لَمَّ بِهِمْ قَاتِلُوهُ عِنْدَ الْعَسْكَرِ قِتَالًا شَدِيدًا ، فَقَتَلَ صَاحِبَ رَايَتِهِ ، وَأَخَذَ عَلِيٌّ - لَمَّا رَأَى مِنَ الظَّفَرِ مِنْ قَبْلِهِ - يُمَدُّهُ بِالرِّجَالِ .

حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ ، قَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي ، قَالَ : حَدَّثَنِي سُلَيْمَانُ قَالَ حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ ، عَنْ جَوِيرِيَّةَ ، قَالَ : قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ يَوْمَ صِفِّينَ لَوَرْدَانَ : تَدْرِي مَا مِثْلِي وَمِثْلُكَ ! مِثْلُ الْأَشْقَرِ إِنْ تَقَدَّمَ عُقْرٌ ، وَإِنْ تَأَخَّرَ نُجِرٌ ، لَسْتُ تَأَخَّرْتَ لِأَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ ، ائْتُونِي بِقَيْدٍ ، فَوَضَعَهُ فِي رَجْلَيْهِ فَقَالَ : أَمَا وَاللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ لَا وَرِدَنَّاكَ

حياض الموت، ضع يدك على عاتقي، ثم جعل يتقدم وينظر إليه أحياناً، ويقول: لأوردنك حياض الموت. رجع الحديث إلى حديث أبي مخنف. فلما رأى عمرو بن العاص أن أمر أهل العراق قد اشتد، وخاف في ذلك الهلاك، قال للمعاوية: هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا اجتماعاً، ولا يزيدهم إلا فرقة؟ قال: نعم؛ قال: نرفع المصاحف ثم نقول: ما فيها حكم بيننا وبينكم، فإن أبي بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول: بلى، ينبغي أن نقبل، فتكون فرقة تقع بينهم، وإن قالوا: بلى، نقبل ما فيها، رفعنا هذا القتال عنا وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين. فرفعوا المصاحف بالرمح وقالوا: هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم، من لثغور أهل الشام بعد أهل الشام ومن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق! فلما رأى الناس المصاحف قد رفعت، قالوا: نجيب إلى كتاب الله عز وجل وننيب إليه.

ما روي من رفعهم المصاحف ودعائهم إلى الحكومة

قال أبو مخنف: حدثني عبد الرحمن بن جندب الأزدي، عن أبيه أن علياً قال: عباد الله، امضوا على حقكم وصدقكم قتال عدوكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم، قد صحبتهم أطفالاً، وصحبهم رجالاً، فكانوا شر أطفال وشر رجال، ويحكم! إنهم ما رفعوها، ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودُّهناً ومكيدة، فقالوا له: ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله؛ فقال لهم: فإني إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم هذا الكتاب، فإنهم قد عصوا الله عز وجل فيما أمرهم ونسوا عهده، ونبدؤوا كتابه. فقال له مسعر بن فدكي التميمي وزيد بن حصين الطائي ثم السُّنْسي، في عصابة معهما من القراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك: يا علي، أجب إلى كتاب الله عز وجل إذ دعيت إليه، وإلا ندفعك برؤمك إلى القوم، أو نفعل كما فعلنا بابن عفان؛ إنه علينا أن نعمل بما في كتاب الله عز وجل فقبلناه؛ والله لتفعلنَّها أو لنفعلنَّها بك. قال: فاحفظوا عني نهي إياكم، واحفظوا مقالتيكم لي، أمّا أنا فإن تطيعوني تقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم! قالوا له: إمّا لا فابعث إلى الأشتر فليأتك.

قال أبو مخنف: حدثني فضيل بن خديج الكندي، عن رجل من النخع، أنه رأى إبراهيم بن الأشتر دخل على مصعب بن الزبير، قال: كنت عند علي حين أكرهه الناس على الحكومة، وقالوا: ابعث إلى الأشتر فليأتك، قال: فأرسل علي إلى الأشتر يزيد بن هاشم السبيعي: أن اثني؛ فأتاه فبلغه، فقال: قل له ليس هذه الساعة التي ينبغي لك أن تُزِيلني فيها عن موقعي، إني قد رجوت أن يُفْتَح لي، فلا تعجلني. فرجع يزيد بن هاشم إلى علي فأخبره، فما هو إلا أن انتهى إلينا، فارتفع الرَّهَج، وعلت الأصوات من قبل الأشتر، فقال له القوم: والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل؛ قال: من أين ينبغي أن تروا ذلك! رأيتُموني ساررته؟ أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية، وأنتم تسمعونني! قالوا: فابعث إليه فليأتك، وإلا والله اعتزلناك. قال له: ويحك يا يزيد! قل له: أقبل إلي فإن الفتنة قد وقعت، فأبلغه ذلك، فقال له: أرفع المصاحف؟ قال: نعم؛ قال: أما والله لقد ظننت حين رُفعت أنها ستوقع اختلافاً وفرقة، إنما مشورة ابن العاهرة، ألا ترى ما صنع الله لنا! أينبغي أن أدع هؤلاء وأنصرف عنهم! وقال يزيد بن هاشم: فقلت له: أتحب أنك ظفرت ها هنا، وأن أمير المؤمنين بمكانه الذي هو به يُفرج عنه أو يُسَلَّم؟ قال: لا والله، سبحان الله! قال: فإنهم قد قالوا: نُترسَلن إلى الأشتر

فليأتينك أولنقتلتك كما قتلنا ابن عَفَّان. فأقبل حتى انتهى إليهم فقال: يا أهل العراق، يا أهل الدَّلَّ والوَهْن،
 أحين علوتم القوم ظهراً، وظنوا أنكم لهم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها! وقد والله تركوا ما
 أمر الله عز وجل به فيها، وسنة من أنزلت عليه ﷺ، فلا تحببهم، أمهلوني عدو الفرس، فإني قد طمعت في
 النصر؛ قالوا: إذا ندخل معك في خطيتك؛ قال: فحدثوني عنكم، وقد قُتل أمائلكم، وبقي أراذلكم، متى
 كنتم محقين! أحين كنتم تقتالون وخياركم يقتلون! فأنتم الآن إذ أمسكتكم عن القتال مبطلون، أم الآن أنتم
 محقون، فقتلكم الذين لا تنكرون فضلهم فكانوا خيراً منكم في النار إذا! قالوا: دعنا منك يا أشر، قاتلناهم في
 الله عز وجل، ونَدَع قتالهم لله سبحانه، إنا لسنا مُطيعيك ولا صاحبك، فاجتنبنا، فقال: خُذْ عِزَّكُمْ وَاللَّهِ
 فَاخْذَعِمْ، ودُعِيتُمْ إلى وضع الحرب فأجبتُمْ. يا أصحاب الجباه السود، كنا نظنَّ صلواتكم زهادة في الدنيا
 وشوقاً إلى لقاء الله عز وجل، فلا أرى فراركم إلّا إلى الدنيا من الموت، ألا قبحاً يا أشباه النيب الجلالة! وما
 أنتم برائين بعدها عزاً أبداً، فابعدوا كما بَعَدَ القوم الظالمون! فسبّوه، فسبّهم، فضربوا وجه دابته بسياطهم،
 وأقبل يضرب بسوطه وجوه دوابهم، وصاح بهم عليّ فكفّوا؛ وقال للناس: قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبينهم
 حكماً، فجاء الأشعث بن قيس إلى عليّ فقال له: ما أرى الناس إلّا قد رضوا، وسرّهم أن يجيبوا القوم إلى ما
 دَعَوْهم إليه من حكم القرآن، فإن شئتُ أتيتُ معاوية فسألتُهُ ما يريد، فنظرتُ ما يسأل؛ قال: ائنه إن شئتُ
 فسَلُّهُ، فأثابه فقال: يا معاوية، لأيّ شيء رفعتم هذه المصاحف؟ قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله
 عز وجل به في كتابه، تبعثون منكم رجلاً ترضون به، ونبعث منّا رجلاً، ثم نأخذ عليهما أن يعملّا بما في كتاب
 الله لا يعدّوانه، ثم نتبع ما اتّفقا عليه، فقال له الأشعث بن قيس: هذا الحقّ، فانصرف إلى عليّ فأخبره
 بالذي قال معاوية؛ فقال الناس: إنا قد رضينا وقبلنا، فقال أهل الشام: إنا قد اخترنا عمرو بن العاص؛
 فقال الأشعث وأولئك الذين صاروا خوارج بعد: إنا قد رضينا بأبي موسى الأشعريّ، قال عليّ: فإنكم قد
 عصيتُموني في أول الأمر، فلا تعصوني الآن، إني لا أرى أن أوليّ أبا موسى. فقال الأشعث وزيد بن حُصَيْن
 الطائيّ ومسرّع بن فديك: لا نرضى إلّا به، فإنه ما كان يحذّرنا منه وقعنا فيه؛ قال عليّ: فإنه ليس لي بثقة، قد
 فارقتني، وخدّل الناس عني ثم هرب مني حتى آمنتُه بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس نولّيه ذلك، قالوا: ما
 نبالي أنت كنت أم ابن عباس! لا نريد إلّا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى واحد منكم بأدنى منه إلى
 الآخر، فقال عليّ: فإني أجعل الأشر.

قال أبو مخنف: حدّثني أبو جناب الكلبيّ، أن الأشعث قال: وهل سَعَر الأرض غير الأشر؟
 قال أبو مخنف؛ عن عبد الرحمن بن جُنْدَب، عن أبيه: إنّ الأشعث قال: وهل نحن إلّا في حكم الأشر!
 قال عليّ: وما حُكْمُهُ؟ قال: حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيف حتى يكون ما أردتُ وما أراد؛ قال: فقد
 أبَيْتُم إلّا أبا موسى! قالوا: نعم؛ قال: فاصنعوا ما أردتم؛ فبعثوا إليه وقد اعتزل القتال، وهو بعُرض، فأثابه
 مولى له؛ فقال: إنّ الناس قد اصطَلَحوا؛ فقال: الحمد لله ربّ العالمين! قال: قد جعلوك حكماً؟ قال: إنا لله
 وإنا إليه راجعون! وجاء أبو موسى حتى دخل العسكر، وجاء الأشر حتى أتى عليّاً فقال: إلزني بعمر بن
 العاص، فوالله الذي لا إله إلّا هو، لئن ملأتُ عيني منه لأقتلنّه؛ وجاء الأحنف فقال: يا أمير المؤمنين، إنك قد
 رُميتَ بحجر الأرض، ويمنّ حارب الله ورسوله أنفَ الإسلام، وإني قد عجمتُ هذا الرجل وحلبتُ أشطَره
 فوجدته كليل الشفرة، قريب القعر، وإنه لا يصلح هؤلاء القوم إلّا رجل يدنو منهم حتى يصير في أكفهم،

وببعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم ، فإن أبيت أن تجعلني حَكَمًا ، فاجعلي ثانياً أو ثالثاً ، فإنه لن يعقد عقدة إلا حللتها ، ولن يحل عقدة أعقدها إلا عقدت لك أخرى أحكم منها . فأبي الناس إلا أبا موسى والرضا بالكتاب ؛ فقال الأحنف : فإن أبيتم إلا أبا موسى فأدفيوا ظهره بالرجال . فكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم ؛ هذا ما تقاضى عليه عليّ أمير المؤمنين فقال عمرو : اكتب اسمه واسم أبيه ، هو أميركم فأما أميرنا فلا ، وقال له الأحنف : لا تمح اسم «إمارة المؤمنين» ، فأني أتخوف إن محوتها ألا ترجع إليك أبداً ، لا تمحها وإن قتل الناس بعضهم بعضاً ؛ فأبى ذلك عليّ ملياً من النهار ، ثم إن الأشعث بن قيس قال : امح هذا الاسم برحمة الله ! فمُحِي وقال : عليّ : الله أكبر ، سنة بسنة ، ومثل بمثل ، والله إني لكااتب بين يدي رسول الله ﷺ يوم الحديبية إذ قالوا : لست رسول الله ، ولا نشهد لك به ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فكتبه ، فقال عمرو بن العاص : سبحان الله ! ومثل هذا أن نشبه بالكفار ونحن مؤمنون ! فقال عليّ : يا ابن النابغة ، ومتى لم تكن للفاسقين ولياً ، وللمسلمين عدواً ! وهل تشبه إلا أملك التي وضعت بك ! فقام فقال : لا يجمع بيني وبينك مجلس أبداً بعد هذا اليوم ؛ فقال له عليّ : وإني لأرجو أن يطهر الله عز وجل مجلسي منك ومن أشباهك . وكتب الكتاب .

حدثني علي بن مسلم الطوسي ، قال : حدثنا حبان ، قال : حدثنا مبارك ، عن الحسن ، قال : أخبرني الأحنف ، أن معاوية كتب إلى عليّ أن امح هذا الاسم إن أردت أن يكون صلح ؛ فاستشار - وكانت له قبة يأذن لبني هاشم فيها ، ويأذن لي معهم - قال : ما ترون فيها كتب به معاوية أن امح هذا الاسم ؟ - قال مبارك : يعني أمير المؤمنين - قال : برحمة الله ! فإن رسول الله ﷺ حين وادع أهل مكة كتب : «محمد رسول الله» ، فأبوا ذلك حتى كتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله ؛ فقلت له : أيها الرجل مالك وما لرسول الله ﷺ ! إنا والله ما حابينك ببيعتنا ، وإنا لو علمنا أحداً من الناس أحق بهذا الأمر منك لباعناه ، ثم قاتلناك ، وإني أقسم بالله لئن محوت هذا الاسم الذي بايعت عليه وقاتلتهم لا يعود إليك أبداً . قال : وكان والله كما قال . قال : قلما وزن رأيه برأي رجل إلا رجح عليه .

رجع الحديث إلى حديث أبي مخنف . وكتب الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، قاضى عليّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين ، إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ، ولا يجمع بيننا غيره ، وإن كتاب الله عز وجل بيننا بين فاتحته إلى خاتمته ، نُحيي ما أحيا ، ونُمت ما أمت ، فما وجد الحكماء في كتاب الله عز وجل - وهما أبو موسى الأشعريّ عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص القرشي - عملاً به ، وما لم يجدوا في كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة . وأخذ الحكماء من عليّ ومعاوية ومن الجندين من العهود والميثاق والثقة من الناس ، أنها آمان على أنفسهما وأهليهما ، والأمة لها أنصار على الذي يتقاضيان عليه ، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كليهما عهد الله وميثاقه أنا على ما في هذه الصحيفة ، وأن قد وجبت قضيتهما على المؤمنين ، فإن الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أيها ساروا على أنفسهم وأهليهم وأمواهم ، وشاهدتهم وغائبهم ، وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ، ولا يرداها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا ، وأجل القضاء إلى رمضان . وإن أحبنا أن يؤخرا ذلك أخرناه على تراضٍ منها ، وإن توفى أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه ، ولا يألوا من أهل المعدلة والقسط ، وإن مكان قضيتهما الذي يقضيان فيه مكان

عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام ؛ وإن رضيًا وأحبًا فلا يحضرهما فيه إلا من أرادا ، ويأخذ الحَكَمَان من أرادا من الشهود، ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة ، وهم أنصارٌ على مَنْ ترك ما في هذه الصحيفة ، وأراد فيه إلحاداً وظُلماً . اللهم إنا نستنصرُكَ على مَنْ تَرَكَ ما في هذه الصحيفة .

شَهِد من أصحاب عليّ الأشعث بن قيس الكندي ، وعبدُ الله بن عباس ، وسعيد بن قيس الهمداني ، وورقاء بن سَمِيّ البَجَلِيّ ، وعبدالله بن مُحَلّ العَجَلِيّ ، وحُجْر بن عديّ الكِنْدِيّ ، وعبدالله بن الطفيل العامريّ ، وعقبة بن زياد الحَضْرَمِيّ ، ويزيد بن حَجِيّة التيميّ ، ومالك بن كعب الهمدانيّ . ومن أصحاب معاوية أبو الأعور السلميّ عمرو بن سفيان ، وحبيب مسلمة الفِهْرِيّ ، والمخارق بن الحارث الزُبَيْدِيّ ، وزمّل بن عمرو العَدْرِيّ ، وحمة بن مالك الهمدانيّ ، وعبدالرحمن بن خالد المخزوميّ ، وسُبيح بن يزيد الأنصاريّ ، وعلقمة بن يزيد الأنصاريّ ، وعُتْبة بن أبي سُفيان ، ويزيد بن الحرّ العبسيّ .

قال أبو مخنف : حدّثني أبو جناب الكلبيّ ، عن عُمارة بن ربيعة الجَرَمِيّ ، قال : لما كُتبت الصحيفة دُعِيَ لها الأشرَفُ قال : لا صَحِبْتُني يميني ، ولا نفعْتُني بعدها شمالي ، إن خُطَّ لي في هذه الصحيفة اسم على صلح ولا موادعة . أولستُ على يَمِينَةٍ من ربّي ، ومن ضلال عدويّ ! أولستم قد رأيتم الظَّفَر لو لم تُجْمِعُوا على الجور ! فقال له الأشعث بن قيس : إنك والله ما رأيْتَ ظَفَرًا ولا جَوْرًا ، هَلَمْ إلينا فإنه لا رغبة بك عنّا ؛ فقال : بلى والله لرغبة بي عنك في الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا والآخرة للآخرة ، ولقد سفَكَ الله عزّ وجلّ بسيفي هذا دماءَ رجال ما أنت عندي خيرٌ منهم ، ولا أحرم دماً ؛ قال عُمارة : فنظرتُ إلى ذلك الرجل وكأنا قُصع على أنفه الحُمم - يعني الأشعث .

قال أبو مخنف ، عن أبي جناب ، قال : خرج الأشعث بذلك الكتاب يقرؤه على الناس ، ويَعرِضه عليهم ، فيقرؤونه ، حتى مرّ به على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أدية ، وهو أخو أبي بلال ، فقرأه عليهم ، فقال عروة بن أدية : تحكّمون في أمر الله عزّ وجلّ الرجال ! لا حكم إلّا لله ؛ ثم شدّ بسيفه فضرب به عجزُ دابته ضربةً خفيفة ، وانددت الدّابة ، وصاح به أصحابه ، أن أملك يدك ، فرجع ، فغضب للأشعث قومه وناس كثير من أهل اليمن ، فمضى الأحنف بن قيس السعديّ ومَعْقِل بن قيس الرّياحيّ ، ومِسْعَر بن قَذَكِيّ ، وناس كثير من بني تميم ، فتنصّلوا إليه واعتذروا ؛ فقبل وصَفَح .

قال أبو مخنف : حدّثني أبو زيد عبد الله الأوديّ ، أن رجلاً من أود كان يقال له عمرو بن أوس ، قاتَلَ مع عليّ يومَ صِفّين ، فأسره معاوية في أسارى كثيرين ، فقال له عمرو بن العاص : اقتلهم ، فقال له عمرو بن أوس : إنك خالي ، فلا تقتلني ، وقامت إليه بنو أود فقالوا : هب لنا أخانا ؛ فقال : دعوه ، لعمرى لئن كان صادقاً فلنستغنين عن شفاعتكم ، ولئن كان كاذباً لتأتين شفاعتكم من ورائه ، فقال له : من أين أنا خالك ! فوالله ما كان بيننا وبين أود مصاهرة ؛ قال : فإن أخبرتُكَ فعرفته فهو أمانى عندك ؟ قال : نعم ؛ قال : ألسن تعلم أن أم حبيبة ابنة أبي سُفيان زوجُ النبي ﷺ ؟ قال : بلى ، قال : فإنّي ابنُها ، وأنت أخوها ، فأنت خالي ؛ فقال معاوية : لله أبوك ! ما كان في هؤلاء واحد يَفْطُن لها غيره . ثم قال للأوديين : أيسغني عن شفاعتكم ! خلّوا سبيله .

قال أبو مخنف : حدّثني ثُمَيْر بن وَعَلّة الهمدانيّ ، عن الشعبيّ ، أن أسارى كان أسرهم عليّ يومَ صِفّين

كثير، فخلّى سبيلهم ، فاتوا معاوية ، وإنّ عمرأ ليقول - وقد أسر أيضاً أسارى كثيرة: اقتلهم ، فما شعروا إلا بأسرائهم قد خلّى سبيلهم ، فقال معاوية: يا عمرو ، لو أطعناك في هؤلاء الأسرى وقعنا في قبيح من الأمر؛ ألا ترى قد خلّى سبيل أسارانا! وأمر بتخلية سبيل من في يديه من الأسارى .

قال أبو مخنف: حدّثني إسماعيل بن يزيد، عن حميد بن مسلم ، عن جندب بن عبدالله ، أن علياً قال للناس يوم صفّين : لقد فعلتم فعلة ضعضعت قوة ، وأسقطت مئة ، وأوهنت وأورثت وهناً وذلة ، ولما كنتم الأعلىين ، وخاف عدوكم الاجتياح ، واستحربهم القتل ووجدوا ألم الجراح ، رفعوا المصاحف ، ودعّوكم إلى ما فيها ليفثوكم عنهم ، ويقطعوا الحرب فيما بينكم وبينهم ، ويتربصوا [بكم] ربّ المنون خديعة ومكيدة ، فأعطيتموهم ما سألوا ، وأبيتهم إلا أن تُدهنوا وتجوّزوا! وإيم الله ما أظنكم بعدها توافقون رُشدأ ، ولا تصيبون باب حزم .

قال أبو جعفر: فكتب كتاب القضية بين علي ومعاوية - فيما قيل - يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين من الهجرة ، على أن يوافي علي ومعاوية موضع الحكمين بدومة الجندل في شهر رمضان ، مع كلّ واحد منهما أربعمائة من أصحابه وأتباعه .

فحدّثني عبدالله بن أحمد، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثني سليمان بن يونس بن يزيد، عن الزهريّ، قال: قال صعصعة بن صوحان يوم صفّين حين رأى الناس يتبارون: ألا اسمعوا واعقلوا، تعلّموا والله لئن ظهر علي ليكوننّ مثل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وإن ظهر معاوية لا يُقرّ لقائل بقول حقّ .

قال الزهريّ: فأصبح أهل الشام قد نشروا مصاحفهم ، ودّعوا إلى ما فيها، فهاب أهل العراقيين ، فعند ذلك حكموا الحكمين ، فاختر أهل العراق أبا موسى الأشعريّ ، واختار أهل الشام عمرو بن العاص ، فتفرّق أهل صفّين حين حكم الحكمين ، فاشترط أن يرفع القرآن ، ويخفّض ما خفّض القرآن ، وأن يختارا لامة محمد ﷺ ، وأنها يجتمعان بدومة الجندل ، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذرح .

فلما انصرف علي خالفت الحرورية وخرجت - وكان ذلك أول ما ظهرت - فأذنه بالحرب ، وردّوا عليه: إنّ حكم بني آدم في حكم الله عزّ وجلّ ، وقالوا: لا حكم إلا لله سبحانه ! وقاتلوا ، فلما اجتمع الحكمين بأذرح ، وافاهم المغيرة بن شعبة فيمن حضر من الناس ، فأرسل الحكمين إلى عبدالله بن عمرو بن الخطاب وعبدالله بن الزبير في إقبالهم في رجال كثير، ووافى معاوية بأهل الشام ، وأبى عليّ وأهل العراق أن يوافوا؛ فقال المغيرة بن شعبة لرجال من ذوي الرأي من قريش: أترون أحداً من الناس برأي يتدعه يستطيع أن يعلم أيجتمع الحكمين أم يتفرّقان؟ قالوا: لا نرى أحداً يعلم ذلك، قال: فوالله إنّي لأظنّ أنّي سأعلمه منهما حين أخلو بهما وأراجعهما . فدخل على عمرو بن العاص وبدأ به فقال: يا أبا عبدالله ، أخبرني عمّا أسألك عنه ، كيف ترانا معشر المعتزلة ، فإننا قد شككنا في الأمر الذي تبيّن لكم من هذا القتال ، ورأينا أن نستأني ونتنبّه حتى تجتمع الأمة ! قال: أراكم معشر المعتزلة خلف الأبرار ، وأمام الفجار! فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك ، حتى دخل على أبي موسى فقال له مثل ما قال لعمرو ، فقال أبو موسى : أراكم أثبت الناس رأياً ، فيكم بقية المسلمين ، فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك ، فلقى الذين قال لهم ما قال من ذوي

الرأي من قریش ، فقال : لا يجتمع هذان على أمر واحد ، فلما اجتمع الحَكَمَان وتكَلَّمَا قال عمرو بن العاص : يا أبا موسى ، رأيت أول ما تقضى به من الحق أن تقضي لأهل الوفاء بوفائهم ، وعلى أهل الغدر بغدرهم ؛ قال أبو موسى : وما ذاك؟ قال : ألسنت تعلم أن معاوية وأهل الشام قد وفوا ، وقَدِمُوا للموعد الذي واعدناهم إياه؟ قال : بلى ، قال عمرو : اكتبها ؛ فكتبها أبو موسى ؛ قال عمرو : يا أبا موسى ، أنت على أن نسَمِّي رجلاً يلي أمر هذه الأمة؟ فسَمِّه لي ، فإن أقدر على أن أتابعك فلك علي أن أتابعك ، وإلا فلي عليك أن تتابعني ! قال أبو موسى : أَسَمِّي لك عبدالله بن عمر ، وكان ابن عمر فيمن اعتزل ؛ قال عمرو : إني اسمي لك معاوية بن أبي سفيان ، فلم يبرحاً مجلسهما حتى استبأ ، ثم خرجا إلى الناس ، فقال أبو موسى : إني وجدت مثل عمرو مثل الذين قال الله عز وجل : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ ^(١) ، فلما سكت أبو موسى تكلم عمرو فقال : أيها الناس وجدت مثل أبي موسى كمثل الذي قال عز وجل : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ ^(٢) وكتب كل واحد منهما مثله الذي ضرب لصاحبه إلى الأمصار .

قال ابن شهاب : فقام معاوية عشيّة في الناس ، فأثنى على الله جلّ ثناؤه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فمن كان متكلماً في الأمر فليطلع لنا قرنه ، قال ابن عمر : فأطلقت حُبُوتِي ، فأردت أن أقول قولاً يتكلم فيه رجال قاتلوا أباك على الإسلام ، ثم خشيت أن أقول كلمة تفرّق الجماعة ، أو يُسفك فيها دم ، أو أحمل فيها على غير رأي ، فكان ما وعد الله عز وجل في الجنان أحب إليّ من ذلك . فلما انصرف إلى المنزل جاءني حبيب بن مسلمة فقال : ما منعك أن تتكلم حين سمعت الرجل يتكلم؟ قلت : أردت ذلك ، ثم خشيت أن أقول كلمة تفرّق بين جميع ، أو يُسفك فيها دم ، أو أحمل فيها على غير رأي ، فكان ما وعد الله عز وجل من الجنان أحب إليّ من ذلك . قال : قال حبيب : فقد عصمت .

رجع الحديث إلى حديث أبي مخنف : قال أبو مخنف : حدثني فضيل بن خديج الكندي ، قال : قيل لعلي بعد ما كتبت الصحيفة : إن الأشر لا يُقرّ بما في الصحيفة ، ولا يرى إلا قتال القوم ؛ قال علي : وأنا والله ما رضيت ولا أحببت أن ترضوا ، فإذا أبيتم إلا أن ترضوا فقد رضيت ، فإذا رضيت فلا يصلح الرجوع بعد الرضا ، ولا التبديل بعد الإقرار ، إلا أن يعصى الله عز وجل ويُتعدى كتابه ، فقاتلوا من ترك أمر الله عز وجل . وأما الذي ذكرتم من تركه أمري وما أنا عليه فليس من أولئك ، ولست أخافه على ذلك ، يا ليت فيكم مثله اثنين ! يا ليت فيكم مثله واحداً يرى في عدوي ما أرى ، إذا لخفت عليّ مئونتك ، ورجوت أن يستقيم لي بعض أودكم ؛ وقد نهيتكم عما أتيتم فعصيتُموني ، وكنت أنا وأنتم كما قال أخوهوازن :

وهل أنا إلا من غزيرة إن غوت غويت وإن ترشّد غزيرة أرشّد

فقلت طائفة ممن معه : ونحن ما فعلنا يا أمير المؤمنين إلا ما فعلت ؛ قال : نعم ، فلم كانت إجابتكم إياهم إلى وضع الحرب عنا ! وأما القضية فقد استوثقنا لكم فيها ، وقد طمعت ألا تضلوا إن شاء الله رب العالمين .

(١) سورة الأعراف : ١٧٥ .

(٢) سورة الجمعة : ٥ .

فكان الكتاب في صَفَر والأجل رمضان إلى ثمانية أشهر ، إلى أن يلتقي الحَكَمَان . ثم إنَّ الناس دفنوا قتلاهم ، وأمر عليُّ الأعور فنَادَى في الناس بالرحيل .

قال أبو مِخْنَف : حَدَّثَنِي عبد الرحمن بن جندب ، عن أبيه ، قال : لما انصرفنا من صفين أخذنا غير طريقنا الذي أَقْبَلْنَا فيه ؛ أخذنا على طريق البرِّ على شاطئِ الفرات ، حتى انتهينا إلى هَيْتَ ، ثم أخذنا على صَنْدُودَاءَ ، فخرج الأنصاريون بنو سعد بن حرام ، فاستقبلوا عليًّا ، فعرضوا عليه النزول ، فبات فيهم ثم غدا ، وأقبلنا معه ، حتى إذا جُزْنَا النُّخَيْلَةَ ، ورأينا بيوت الكوفة ، إذا نحن بشيخ جالس في ظلِّ بيت على وجهه أثر المرض ، فأقبل إليه عليٌّ ونحن معه حتى سلم عليه وسلمنا معه ، فردَّ رَدًّا حسنًا ظننا أن قد عرفه ، قال له علي : أرى وجهك منكفئًا فَمِنْ مَهْ ؟ أَمِنْ مرض ؟ قال : نعم ؛ قال : فلعلَّكَ كرهته ، قال : ما أحبُّ أنه بغيري ، قال : أليس احتساباً للخير فيما أصابك منه ؟ قال : بلى ، قال : فأبشِّر برحمة ربِّكَ وغفران ذنبيك . مَنْ أَنْتَ يَا عَبْدَ اللَّهِ ؟ قال : أنا صالح بن سُلَيْم ، قال : مِمَّنْ ؟ قال : أَمَّا الْأَصْلُ فَمِنْ سَلَامَانَ طَيْيٍّ ، وأما الجوار والدُّعْوَةُ ففي بني سُلَيْم بن منصور ؛ فقال : سبحان الله ! ما أَحْسَنَ اسْمَكَ واسمَ أبيك واسمَ أَدْعِيَاكَ واسمَ من اعتريت إليه ! هل شهدت معنا غزاتنا هذه ؟ قال : لا ، والله ما شهدتُها ، ولقد أردتها ولكن ما ترى من أثر لحبِّ الحمى خزلتي عنها ؛ فقال : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) . خَبَّرَنِي مَا تَقُولُ النَّاسُ فيما كان بيننا وبين أهل الشام ؟ قال : فيهم المسرور فيما كان بينك وبينهم - وأولئك أغشَاء الناس - وفيهم المكبوت الأسف بما كان من ذلك - وأولئك نصحاء الناس لك - فذهب لينصرف فقال : قد صدقت ، جعل الله ما كان من شكراك حطًّا لسبثاتك ، فإنَّ المرض لا أجرفيه ، ولكنه لا يدع على العبد ذنباً إلا حطَّه ، وإنما أجرفي القول باللسان والعمل باليد والرَّجْل ، وإنَّ الله جلَّ ثناؤه ليدخل بصدق النية والسريرة الصالحة عالماً جماً من عباده الجنة . قال : ثم مضى عليٌّ غير بعيد ، فلقية عبدالله بن وديعة الأنصاري ، فدنا منه ، وسلَّم عليه وسأله ، فقال له : ما سمعتَ الناس يقولون في أمرنا ؟ قال : منهم المعجَّب به ، ومنهم الكاره له ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ * إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ ﴿ (٢) . فقال له : فما قول ذَوِي الرَّأْيِ فيه ؟ قال : أما قولهم فيه فيقولون إنَّ عليًّا كان له جمع عظيم ففرَّقه ، وكان له حصن حصين فهُدِّمه ، فحتى متى يبني ما هدم ، وحتى متى يجمع ما فرَّق ! فلوأنه كان مضى بمن أطاعه - إذ عصاه من عصاه - فقاتل حتى يظفر أو يهلك إذا كان ذلك الحزم . فقال عليٌّ : أنا هدمت أم هم هدموا ! أنا فرقت أم هم فرقوا ! أما قولهم : إنه لو كان مضى بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه فقاتل حتى يظفر أو يهلك ، إذا كان ذلك الحزم ، فوالله ما غيبي عن رأيي ذلك ، وإن كنتُ لسخياً بنفسي عن الدنيا ، طيَّب النفس بالموت ، ولقد هممتُ بالإقدام على القوم ، فنظرت إلى هذين قد ابتدَراني - يعني الحسن والحسين - ونظرتُ إلى هذين قد استقدما - يعني عبدالله بن جعفر ومحمد بن علي - فعلمتُ أن هذين إنْ هلكا انقطع نسلُ محمد ﷺ من هذه الأُمَّة ، فكرهت ذلك ، وأشفقتُ على هذين أن يهلكا ، وقد علمتُ أن لولا مكاني لم يستقدما - يعني محمد بن علي وعبدالله ابن جعفر - وإيَّ الله لئن لقيتهم بعد يومي هذا لألقينهم وليسوا معي في عسكر ولا دار . ثم مضى حتى إذا

(١) سورة التوبة : ٩١ .

(٢) سورة هود : ١١٨ ، ١١٩ .

جُزْنَا بني عوف إذا نحن عن أيماننا بقبور سبعة أو ثمانية ، فقال عليٌّ : ما هذه القبور؟ فقال قدامة بن العجلان الأزديّ : يا أمير المؤمنين ، إنّ خَبَابَ بن الأرتّ توفّي بعد مخرجك ، فأوصى بأن يُدفن في الظُّهر ، وكان الناس إنما يُدفنون في دُورهم وأفنيّتهم ، فدفن بالظُّهر رحمه الله ، ودفن الناس إلى جنبه ، فقال عليٌّ : رحم الله خَبَاباً ، فقد أسلم راعباً ، وهاجر طائعاً ، وعاش مجاهداً ، وابْتُلِيَ في جسمه أحوالاً وإنّ الله لا يُضيق أجر من أحسن عملاً . ثم جاء حتى وقف عليهم فقال : السّلام عليكم يا أهل الديار الموحّشة ، والمحالّ المقفّرة ، من المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات . أنتم لنا سلف فارط ، ونحن لكم تبعٌ ، بكم عمّا قليل لاحقون . اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز بعفوك عنّا وعنهم ! وقال : الحمد لله الذي جعل منها خلقكم ، وفيها معادكم ، منها يبعثكم ، وعليها يحشركم ، طوبى لمن ذكر المعاد ، وعمل للحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضي عن الله عزّ وجلّ ! ثم أقبل حتى حاذى سكة الثوريين ، ثم قال : خُشُوا ، ادخلوا بين هذه الأبيات .

قال أبو مخنف : حدّثني عبدالله بن عاصم الفاشيّ ، قال : مرّ عليٌّ بالثوريين ، فسمع البكاء ، فقال : ما هذه الأصوات ؟ فقليل له : هذا البكاء على قتلى صَفّين ، فقال : أما إنّي أشهد لمن قُتل منهم صابراً محتسباً بالشهادة . ثم مرّ بالفائشيّين ، فسمع الأصوات ، فقال مثلاً ذلك ، ثم مضى حتى مرّ بالشباميين ، فسمع رجّة شديدة ، فوقف ، فخرج إليه حرب بن شُرْحبيل الشباميّ ، فقال عليٌّ : أيغلبكم نساؤكم ! ألا تنهونهن عن هذا الزّين ! فقال : يا أمير المؤمنين ، لو كانت داراً أو دارين أو ثلاثاً قدّرنا على ذلك ، ولكن قُتل من هذا الحيّ ثمانون ومائة قتيل ، فليس دار إلا وفيها بكاء ، فأما نحن معشر الرجال فإننا لا نبكي ، ولكن نفرح لهم ، ألا نفرح لهم بالشهادة ! قال عليٌّ : رحم الله قتلاكم وموتاكم ! وأقبل يمشي معه وعليّ ركب ، فقال له عليٌّ : ارجع ، ووقف ثم قال له : ارجع ، فإن مَشيّ مثلك مع مثلي فتنةٌ للوالي ، ومذلةٌ للمؤمن . ثم مضى حتى مرّ بالناعطيّين - وكان جُلّهم عثمانيّة - فسمع رجلاً منهم يقول له عبدالرحمن بن يزيد ، من بني عُبيد من الناعطيّين يقول : والله ما صنع عليّ شيئاً ، ذهب ثم انصرف في غير شيء ! فلما نظروا إلى عليّ أبلسوا ، فقال : وجوه قومٍ ما رأوا الشأم العام . ثم قال لأصحابه : قوم فارقناهم آنفاً خير من هؤلاء ، ثم أنشأ يقول :

أخوك الذي إنّ أجْرَصْتَكَ مُلْمَةً مِنْ الدُّهْرِ لَمْ يَبْرَحْ لِبَيْتِكَ وَاجِمَا
وليس أخوك بالذي إنّ تَشَعَّبَتْ عَلَيْكَ الْأُمُورُ ظَلَّ يَلْحَاكَ لَائِمَا

ثم مضى ، فلم يزل يذكر الله عزّ وجلّ حتى دخل القصر .

قال أبو مخنف : حدّثنا أبو جَنَاب الكلبيّ ، عن عُمارة بن ربيعة ، قال : خرجوا مع عليّ إلى صَفّين وهم متوادّون أحباء ، فرجعوا متباغضين أعداء ، ما برحوا من عسكرهم بصَفّين حتى فُشّا فيهم التحكيم ، ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويضطربون بالسياط ، يقول الخوارج : يا أعداء الله ، أدهتم في أمر الله عزّ وجلّ وحكمتم ! وقال الآخرون : فارقتم إمامنا . وفرقتم جماعتنا . فلما دخل عليّ الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حرّوراء ، فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً ، ونادى مناديهم : إنّ أمير القتال شَبَث بن ربعيّ التميميّ . وأمير الصلاة عبدالله بن الكوّاء اليشكُريّ ، والأمر سُورَى بعد الفتح ، والبيعة لله عزّ وجلّ ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

بعثة علي جعدة بن هبيرة إلى خراسان

وفي هذه السنة بعث علي جعدة بن هبيرة فيما قيل إلى خراسان .

ذكر الخبر عن ذلك :

ذكر علي بن محمد ، قال : أخبرنا عبد الله بن ميمون ، عن عمرو بن شجيرة ، عن جابر ، عن الشعبي ، قال : بعث علي بعدما رجع من صفين جعدة بن هبيرة المخزومي إلى خراسان ، فأنتهى إلى أبرشهر ، وقد كفروا وامتنعوا ، فقدم على علي . فبعث خليد بن قرّة اليربوعي ، فحاصر أهل نيسابور حتى صالحوه ، وصالحه أهل مرو ، وأصاب جارييتين من أبناء الملوك نزلتا بأمان ، فبعث بهما إلى علي ، فعرض عليهما الإسلام وأن يزوجهما ، قالتا : زوجنا ابنك ، فأبى ، فقال له بعض الدهاقين : ادفعهما إلي ، فإنه كرامة تكررني بها ، فدفعهما إليه ، فكانتا عنده ، يفرش لهما الديباج ، ويطعمهما في آنية الذهب ، ثم رجعتا إلى خراسان .

اعتزال الخوارج علياً وأصحابه ورجوعهم بعد ذلك

وفي هذه السنة اعتزل الخوارج علياً وأصحابه ، وحكموا ، ثم كلمهم علي فرجعوا ودخلوا الكوفة .

ذكر الخبر عن اعتزالهم علياً :

قال أبو مخنف في حديثه عن أبي جناب ، عن عمارة بن ربيعة ، قال : ولما قدم علي الكوفة وفارقت الخوارج ، وثبت إليه الشيعة فقالوا : في أعناقنا بيعة ثانية ، نحن أولياء من واليت ، وأعداء من عاديت ؛ فقالت الخوارج : استبقتم أنتم وأهل الشام إلى الكفر كفرسي رهان ، بايع أهل الشام معاوية على ما أحبوا وكرهوا ، وبايعتم علياً على أنكم أولياء من والى وأعداء من عادى ؛ فقال لهم زياد بن النضر : والله ما بسط علي يده فبايعناه قط إلا على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ، ولكنكم لما خالفتموه جاءت شيعته ، فقالوا : نحن أولياء من واليت ، وأعداء من عاديت ؛ ونحن كذلك ، وهو على الحق والهدى ، ومن خالفه ضال مضل . وبعث علي ابن عباس إليهم ، فقال : لا تعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك . فخرج إليهم حتى أتاهم ، فأقبلوا يكلمونه ، فلم يصبر حتى راجعهم ، فقال : ما نَقَمْتُم من الحكمين ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ (١) ! فكيف بأمة محمد ﷺ ! فقالت الخوارج : قلنا : أما ما جعل حكمه إلى الناس ، وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به ، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه ؛ حكم في الزاني مائة جلدة ، وفي السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا في هذا . قال ابن عباس : فإن الله عز وجل يقول : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ (٢) ، فقالوا : أوتجعل الحكم في الصيّد ، والحديث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين ! وقالت الخوارج : قلنا له : فهذه الآية بيننا وبينك ، أعذلّ عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا ! فإن كان عدلاً

(١) سورة النساء : ٣٥ .

(٢) سورة المائدة : ٩٥ .

فلسنا بعدول ونحن أهل حربه . وقد حكمتهم في أمر الله الرجال ، وقد أمضى الله عز وجل حكمه في معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا ، وقبل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله عز وجل فأبوه ، ثم كتبتم بينهم وبينه كتاباً ، وجعلتم بينهم وبينه المودعة والاستفاضة ، وقد قطع عز وجل الاستفاضة والمودعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة ، إلا من أقر بالجزية .

وبعث عليّ زياد بن النضر إليهم فقال : انظر بأي رؤوسهم هم أشد إطفاء ، فنظر فأخبره أنه لم يره عند رجل أكثر منهم عند يزيد بن قيس . فخرج عليّ في الناس حتى دخل إليهم ، فأتى فسطاط يزيد بن قيس ، فدخله فتوضأ فيه وصلى ركعتين ، وأمره على إصبعان والري ، ثم خرج حتى انتهى إليهم وهم يخاصمون ابن عباس ، فقال : انته عن كلامهم ، ألم أنهك رحمك الله ! ثم تكلم فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال : اللهم إن هذا مقام من أفلج فيه كان أولى بالفلح يوم القيامة ، ومن نطق فيه وأوعث فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً . ثم قال لهم : من زعيمكم ؟ قالوا : ابن الكواء . قال عليّ : فما أخرجكم علينا ؟ قالوا : حكومتكم يوم صفين . قال : أنشدكم بالله ، أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف فقلتم : نجيهم إلى كتاب الله قلت لكم : إني أعلم بالقوم منكم ؛ إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إني صحبتهم وعرفتهم أطفالاً ورجالاً ، فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال . امضوا على حقكم وصدقكم ، فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعةً وذهناً ومكيدة . فرددتم عليّ رأيي ، وقتلتم : لا ، بل نقبل منهم . فقلت لكم : اذكروا قولي لكم ، ومعصيتكم إليّ ، فلما أبيتم إلا الكتاب اشتطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ، وأن يميّتا ما أمات القرآن ، فإن حكماً بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكماً يحكم بما في القرآن ، وإن أبيّا فنحن من حكمهما برآء . قالوا له : فخيرنا أترأه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء ؟ فقال : إنا لسنا حكمنا الرجال ، إنما حكمنا القرآن ، وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين ، لا ينطق ، إنما يتكلم به الرجال ، قالوا : فخيرنا عن الأجل ، لم جعلته فيما بينك وبينهم ؟ قال : ليعلم الجاهل ، ويتثبت العالم ، ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة . ادخلوا مصركم رحمكم الله ! فدخلوا من عند آخرهم .

قال أبو مخنف : حدثني عبدالرحمن بن جندب الأزدي ، عن أبيه بمثل هذا .

وأما الخوارج فيقولون : قلنا : صدقت ، قد كنا كما ذكرت ، وفعلنا ما وصفت ، ولكن ذلك كان منا كفراً ، فقد تبنا إلى الله عز وجل منه ، فتب كما تبنا نبايعك ، وإلا فنحن مخالفون . فبايعنا عليّ وقال : ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى يجبي المال ، ويسمن الكراع ، ثم نخرج إلى عدونا . ولسنا نأخذ بقولهم ، وقد كذبوا .

وقدم معن بن يزيد بن الأخنس السلمي في استبطاء إمضاء الحكومة وقال لعليّ : إن معاوية قد وفى ، فف أنت لا يلفتك عن رأيك أعاريب بكر وتميم . فأمر عليّ بإمضاء الحكومة ، وقد كانوا افرقوا من صفين على أن يقدم الحكمين في أربعمئة أربعمئة إلى دومة الجندل .

وزعم الواقدي أن سعداً قد شهد مع من شهد الحكمين ، وأن ابنه عمر لم يدعه حتى أحضره

أذرح، فندم، فأحرم من بيت المقدس بعمرة.

اجتماع الحكمين بدومة الجندل

وفي هذه السنة كان اجتماع الحكمين.

ذكر الخبر عن اجتماعهما:

قال أبو مخنف: حدثني المجالد بن سعيد، عن الشعبي، عن زياد بن النضر الحارثي، أن علياً بعث أربعمئة رجل، عليهم شريح بن هانئ الحارثي، وبعث معهم عبدالله بن عباس، وهو يصلي بهم، ويولي أمورهم، وأبو موسى الأشعري معهم. وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمئة من أهل الشام، حتى توافوا بدومة الجندل بأذرح، قال: فكان معاوية إذا كتب إلى عمرو جاء الرسول وذهب لا يدري بما جاء به، ولا بما رجع به، ولا يسأله أهل الشام عن شيء؛ وإذا جاء رسول علي جاؤوا إلى ابن عباس فسألوه: ما كتب به إليك أمير المؤمنين؟ فإن كتمهم ظنوا به الظنون فقالوا: ما نراه كتب إلا بكذا وكذا. فقال ابن عباس: أما تعلقون! أما ترون رسول معاوية يجيء لا يعلم بما جاء به، ويرجع لا يعلم ما رجع به، ولا يسمع لهم صياح ولا لفظ، وأنتم عندي كل يوم تظنون الظنون!

قال: وشهد جماعتهم تلك عبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي وعبدالرحمن بن عبد يغوث الزهرري وأبو جهم بن حذيفة العدوي والمغيرة بن شعبة الثقفي؛ وخرج عمر بن سعد حتى أتى أباه على ماء لبني سليم بالبادية، فقال: يا أبت، قد بلغك ما كان بين الناس بصيفين، وقد حكم الناس أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص، وقد شهدهم نفر من قريش؛ فاشهدهم فإنك صاحب رسول الله ﷺ وأحد الشورى، ولم تدخل في شيء كرهته هذه الأمة، فاحضر فإنك أحق الناس بالخلافة. فقال: لا أفعل، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه تكون فتنة؛ خير الناس فيها الخلفي التقى»، والله لا أشهد شيئاً من هذا الأمر أبداً.

والتقى الحكمان، فقال عمرو بن العاص: يا أبا موسى، ألسنت تعلم أن عثمان رضي الله عنه قتل مظلوماً؟ قال: أشهد، قال: ألسنت تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه؟ قال: بلى؛ قال: فإن الله عز وجل قال: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾^(١)، فما يمنعك من معاوية ولي عثمان يا أبا موسى، وبيته في قريش كما قد علمت؟ فإن تخوفت أن يقول الناس: ولي معاوية وليست له سابقة؛ فإن لك بذلك حجة؛ تقول: إني وجدته ولي عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه، الحسن السياسة، الحسن التدبير، وهو أخو أم حبيبة زوجة النبي ﷺ، وقد صحبه، فهو أحد الصحابة. ثم عرض له بالسلطان، فقال: إن ولي أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة. فقال أبو موسى: يا عمرو، اتق الله عز وجل! فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف يولاه أهله، ولو كان على الشرف لكان هذا الأمر لآل أئمة بن الصبح، إنما هو لأهل الدين والفضل، مع أني لو كنت

(١) سورة الإسراء: ٣٣.

معطيّه أفضل قريش شرفاً أعطيته عليّ بن أبي طالب . وأما قولك : إنّ معاوية وليّ دم عثمان فولّه هذا الأمر ، فلاني لم أكن لأوليّه معاوية وأدعّ المهاجرين الأولين . وأما تعريضك لي بالسلطان ، فوالله لو خرج لي من سلطانه كلّ ما وليّته ، وما كنت لأرتشي في حكم الله عزّ وجلّ ، ولكنك إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطّاب .

قال أبو مخنف : حدّثني أبو جنّاب الكلبيّ ، أنه كان يقول : قال أبو موسى : أما والله لئن استطعت لأحيينّ اسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فقال له عمرو : إن كنت تحبّ بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابني وأنت تعرف فضله وصلاحه ! فقال : إنّ ابنك رجل صدّق ، ولكنك قد غمستّه في هذه الفتنة .

قال أبو مخنف : حدّثني محمد بن إسحاق ، عن نافع مولى ابن عمر ، قال : قال عمرو بن العاص : إنّ هذا الأمر لا يصلحه إلّا رجل له ضرس يأكل ويطعم ، وكانت في ابن عمر غفلة ، فقال له عبدالله بن الزبير : افطن ، فانتبه ، فقال عبدالله بن عمر : لا والله لا أرشو عليها شيئاً أبداً ، وقال : يابن العاص ، إنّ العرب أسندت إليك أمرها بعدما تقارعت بالسيوف ، وتناجرت بالرماح ، فلا تُردّئهم في فتنة .

قال أبو مخنف : حدّثني النضر بن صالح العبسيّ ، قال : كنت مع شريح بن هانئ في غزوة سيجستان ، فحدّثني أنّ عليّاً أوصاه بكلمات إلى عمرو بن العاص ، قال : قل له إذا أنت لقيته : إنّ عليّاً يقول لك : إنّ أفضل الناس عند الله عزّ وجلّ من كان العمل بالحقّ أحبّ إليه وإن نقصه وكرهه ، من الباطل وإن حنّ إليه وزاده ، يا عمرو ، والله إنك لتعلم أين موضع الحقّ ، فلم تجاهل؟ إن أوتيت طمعاً يسيراً كنت به لله وأوليائه عدواً ، فكأنّ والله ما أوتيت قد زال عنك ؛ ويحك ! فلا تكن للخائنين خصيماً ، ولا للظالمين ظهيراً . أمّا إني أعلم بيومك الذي أنت فيه نادم ، وهو يوم وفاتك ، تمنّى أنك لم تُظهر لمسلم عداوةً ، ولم تأخذ على حكم رشوة . قال : فبلغته ذلك ، فتمعّر وجهه ، ثم قال : متى كنت أقبل مشورة عليّ أو أنتهي إلى أمره ، أو أعتدّ برأيه ! فقلت له : وما يمنعك يابن النابغة أن تقبل من مولاك وسيّد المسلمين بعد نبيهم مشورته ! فقد كان من هو خير منك أبو بكر وعمر يستشيرانه ، ويعملان برأيه ، فقال : إنّ مثلي لا يكلم مثلك ، فقلت له : وبأيّ أبويك ترغب عني ! بأبيك الوشيط أم بأمك النابغة ! قال : فقام عن مكانه وقمت معه .

قال أبو مخنف : حدّثني أبو جنّاب الكلبيّ أنّ عمراً وأبا موسى حيث التقيا بدومة الجندل ، أخذ عمرو يقدّم أبا موسى في الكلام ، يقول : إنك صاحب رسول الله ﷺ وأنت أسنّ مني ، فتكلّم وأتكلّم . فكان عمرو قد عود أبا موسى أن يقدّمه في كلّ شيء ، اغترى بذلك كله أن يقدّمه فيبدأ بخلع عليّ . قال : فنظر في أمرهما وما اجتمعاً عليه ، فأراد عمرو على معاوية فأبى ، وأراد على ابنه فأبى ، وأراد أبو موسى عمراً على عبدالله ابن عمر فأبى عليه ، فقال له عمرو : خبرني ما رأيك ؟ قال : رأيي أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين ، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبّوا . فقال له عمرو : فإنّ الرأي ما رأيته ، فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون ، فقال : يا أبا موسى ، أعلمهم بأنّ رأينا قد اجتمع واتفق ، فتكلّم أبو موسى فقال : إنّ رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله

سنة ٣٧ ١١٣

عز وجل به أمر هذه الأمة . فقال عمرو: صدق وبر ، يا أبا موسى ، تقدّم فتكلّم . فتقدّم أبو موسى ليتكلّم ، فقال له ابنُ عباس : وَيْحَكَ ! واللّٰه إني لأظنه قد خدعك . إن كنتما قد اتفقتما على أمر ، فقدّمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك ، ثم تكلم أنت بعده ، فإنّ عمرأ رجل غادر ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه ، فإذا قمت في الناس خالفك - وكان أبو موسى مغفلاً - فقال له : إنا قد اتفقنا . فتقدّم أبو موسى فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال : أيّها الناس ، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ، ولا ألمّ لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه ؛ وهو أن نخلع علياً ومعاوية ، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولّوا منهم من أحبوا عليهم ، وإني قد خلعت علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وولّوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً ؛ ثم تنحى . وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : إنّ هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فإنّه وليّ عثمان بن عفان والطالب بدمه ، وأحقّ الناس بمقامه . فقال أبو موسى : ما لك لا وقفك الله ، غدرت وفجرت ! إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمّل عليه يلهث أو تتركه يلهث . قال عمرو : إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً . وحمل شريح بن هانئ على عمرو فقتله بالسوط ، وحمل على شريح ابنُ عمرو فضربه بالسوط ، وقام الناس فحجزوا بينهم . وكان شريح بعد ذلك يقول : ما ندمتُ على شيء ندامتي على ضرب عمرو بالسوط ألا أكون ضربته بالسيف آتياً به الدهر ما أتى . والتمس أهل الشام أبا موسى ، فركب راحلته ولحق بمكة .

قال ابن عباس : قُبِحَ الله رأي أبي موسى ! حدّرت وأمرته بالرأي فما عقل . فكان أبو موسى يقول : حدّرتني ابنُ عباس غدرة الفاسق ، ولكنني اطمأنتت إليه ، وظننت أنه لن يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة . ثم انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية ، وسلموا عليه بالخلافة ، ورجع ابن عباس وشريح بن هانئ إلى علي ، وكان إذا صلّى الغداة يفتن فيقول : اللهم إلعن معاوية وعمرأ وأبا الأعور السلمي وحبيبا وعبدالرحمن بن خالد والضحّاك بن قيس والوليد . فبلغ ذلك معاوية ، فكان إذا قنت لعن علياً وابن عباس والأشتر وحسناً وحسيناً .

وزعم الواقدي أن اجتماع الحَكَمين كان في شعبان سنة ثمان وثلاثين من الهجرة .

ذكر ما كان من خبر الخوارج عند توجيه علي الحَكَم للحكومة وخبر يوم النهر

قال أبو مخنف : عن أبي المغفل ، عن عون بن أبي جحيفة ، أنّ علياً لما أراد أن يبعث أبا موسى للحكومة ، أتاه رجلان من الخوارج : زُرعة بن البرج الطائي وحُرْقوص بن زهير السعدي ، فدخلا عليه ، فقالا له : لا حكم إلا لله ، فقال علي : لا حكم إلا لله ، فقال له حُرْقوص : تُب من خطيتك ، وارجع عن قضيتك ، واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا . فقال لهم علي : قد أردتكم على ذلك فعصيتُموني ، وقد كتبنا بيننا وبينهم كتاباً ، وشرطنا شروطاً ، وأعطينا عليها عهدنا ومواثيقنا ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ

اللَّهِ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١﴾ . فقال له حُرْقُوص : ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه ؛ فقال علي : ما هو ذنب ، ولكنه عَجَزَ من الرأي ، وضعفُ من الفعل ، وقد تقدّمت إليكم فيما كان منه ، ونهيتكم عنه . فقال له رُزْعة بن بُرْج : أما والله يا علي ، لئن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله عزّ وجلّ قاتلتك ؛ أطلبُ بذلك وجهَ الله ورضوانه ، فقال له علي : بؤساً لك ، ما أشقاك ! كأنني بك قتيلاً تسفي عليك الريح ؛ قال : وددتُ أن قد كان ذلك ؛ فقال له علي : لو كنت محقاً كان في الموت على الحقّ تعزية عن الدنيا ، إنّ الشيطان قد استهواكم ، فاتّقوا الله عزّ وجلّ ، إنه لا خيرَ لكم في دُنْيَا تقاتلون عليها ؛ فخرجوا من عنده يحكمّان .

قال أبو مخنف : فحدّثني عبد الملك بن أبي حرّة الحنفيّ ، أنّ عليّاً خرج ذات يوم يخطب ، فإنه لفي خطبته إذ حكمت المحكمة في جوانب المسجد ، فقال عليّ : الله أكبر ! كلمة حقّ يراد بها باطل ! إن سكتوا عممناهم ، وإن تكلموا حَجَجْنَاهم ، وإن خرجوا علينا قاتلناهم . فوثب يزيد بن عاصم المحاربيّ ، فقال : الحمد لله غير مودّع ربنا ولا مستغنى عنه . اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنيّة في ديننا ، فإن إعطاء الدنيّة في الدّين إذهابٌ في أمر الله عزّ وجلّ ، وذللّ راجع بأهله إلى سخط الله . يا عليّ ، أبالقتل تخوفنا ! أما والله إني لأرجو أن تضربكم بها عما قليل غير مصفّحات ، ثم لتعلمنّ أيّنا أولى بها صلياً . ثم خرج بهم هو وإخوة له ثلاثة هو رابعهم ، فأصيبوا مع الخوارج بالنّهر ، وأصيب أحدهم بعد ذلك بالنّخيلة .

قال أبو مخنف : حدّثني الأجلح بن عبد الله ، عن سلّمة بن كهيل ، عن كثير بن بهزّ الحضرميّ ، قال : قام عليّ في الناس يخطبهم ذات يوم ، فقال رجلٌ من جانب المسجد : لا حكمَ إلّا لله ، فقام آخرُ فقال مثلاً ذلك ، ثم توالى عدّة رجال يحكمون ، فقال عليّ : الله أكبر ؛ كلمة حقّ يلتبس بها باطل ! أما إن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتُمونا : لا نمنعكم مساجدَ الله أن تذكروا فيها اسمَه ، ولا نمنعكم الفياء ما دامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تبدؤونا ؛ ثم رجع إلى مكانه الذي كان فيه من خطبته .

قال أبو مخنف : وحدّثنا عن القاسم بن الوليد ، أن حكيم بن عبد الرحمن بن سعيد البكائيّ كان يرى رأي الخوارج ، فأتى عليّاً ذات يوم وهو يخطب ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) ، فقال عليّ : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٣) .

حدّثنا أبو كُريب ، قال : حدّثنا ابن إدريس ، قال : سمعت اسماعيل بن سميع الحنفيّ ؛ عن أبي رزين ، قال : لما وقع التحكيم ورجع علي من صِفِّين رجعوا مُباينين له ، فلمّا انتهوا إلى النهر أقاموا به ، فدخل علي في الناس الكوفة ، ونزلوا بحرّوراء ، فبعث إليهم عبد الله بن عباس ، فرجع ولم يصنع شيئاً ، فخرج إليهم عليّ فكلّمهم حتى وقع الرّضا بينه وبينهم ، فدخلوا الكوفة ، فأتاه رجل فقال : إنّ الناس قد تحدّثوا أنك رجعتَ لهم عن كُفرك . فخطب الناس في صلاة الظهر ، فذكر أمرهم فعابه ؛ فوثبوا من نواحي المسجد يقولون : لا حكمَ إلّا لله . واستقبله رجل منهم واضع إصبعيه في أذنيه ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ

(١) سورة النحل : ٩١ .

(٢) سورة الزمر : ٦٥ .

(٣) سورة الروم : ٦٠ .

إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١﴾ ، فقال علي : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّنَا الَّذِينَ لَا يُوَفُّونَ ﴾ .

حدَّثنا أبو كُرَيْب ، قال : حدَّثنا ابن إدريس ، قال : سمعت ليث بن أبي سليم يذكر عن أصحابه ، قال : جعل عليّ يقلب يديه يقول يديه هكذا وهو على المنبر ، فقال : حُكْمُ الله عزَّ وجلَّ يُنْتَظَرُ فيكم مرَّتين ، إنَّ لكم عندنا ثلاثاً : لا تمنعكم صلاةٌ في هذا المسجد ، ولا تمنعكم نصيبكم من هذا الفَيْءِ ما كانت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا .

قال أبو مخنف عن عبد الملك بن أبي حُرَّة : إنَّ علياً لما بعث أبا موسى لإِنفَازِ الحُكُومَةِ لقيت الخوارج بعضها بعضاً ، فاجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي ، فحمد الله عبدُ الله بن وهب وأثنى عليه ثم قال : أمَّا بعد ، فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن ، وينيبون إلى حُكْمِ القرآن ، أن تكون هذه الدنيا ، التي الرضا بها والركون بها والإيثار إياها عناء وتبار ، أثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمقول بالحق ، وإنَّ مَنْ وُضِرَ فإنه مَنْ يُمَنِّ وَيُضَرُّ في هذه الدنيا فإنَّ ثوابه يوم القيامة رضوان الله عزَّ وجلَّ والخلود في جنَّاته . فاخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كُور الجبال أو إلى بعض هذه المدائن ، منكرين لهذه البدع المضلَّة . فقال له حُرْقُوص بن زهير : إنَّ المتاع بهذه الدنيا قليل ، وإنَّ الفراق لها وشيك ، فلا تدعونكم زينتها وبهجتها إلى المقام بها ، ولا تلفتنكم عن طلب الحق ، وإنكار الظلم ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . فقال حمزة ابن سنان الأسدي : يا قوم ، إنَّ الرأي ما رأيتم ، فولوا أمركم رجلاً منكم ، فإنه لا بدَّ لكم من عماد وسناد وراية تحقون بها ، وترجعون إليها . فعرضوها على زيد بن حصين الطائي فأبى ، وعرضوها على حُرْقُوص بن زهير فأبى ، وعلى حمزة بن سنان وشريح بن أوفى العبسي فأبى ، وعرضوها على عبد الله ابن وهب ، فقال : هاتوها ، أما والله لا أخذها رغبة في الدنيا ، ولا أدعها فرقاً من الموت . فبايعوه لعشر خلون من شوال - وكان يقال له ذو الثُّفَينِ - ثم اجتمعوا في منزل شريح بن أوفى العبسي ، فقال ابن وهب : اشخصوا بنا إلى بلدة نجتمع فيها لإِنفَازِ حُكْمِ الله ، فإنكم أهل الحق . قال شريح : نخرج إلى المدائن فننزلها ، ونأخذ بأبوابها ، ونخرج منها سكَّانها ، ونبعث إلى إخواننا من أهل البصرة فيقدمون علينا . فقال زيد بن حصين : إنكم إن خرجتم مجتمعين أتبعتم ، ولكن اخرجوا وحُداً مستخفين ، فأما المدائن فإنَّ بها مَنْ يمنعكم ، ولكن سيروا حتى تنزلوا جسرَ النُّهروان ، وتكاتبوا إخوانكم من أهل البصرة . قالوا : هذا الرأي .

وكتب عبد الله بن وهب إلى مَنْ بالبصرة منهم يعلمهم ما اجتمعوا عليه ، ويحثهم على اللحاق بهم ، وسير الكتاب إليهم ، فأجابوه أنهم على اللحاق به . فلما عزموا على المسير تعبدوا ليلتهم - وكانت ليلة الجمعة ويوم الجمعة - وساروا يوم السبت ، فخرج شريح بن أوفى العبسي وهو يتلو قول الله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَذِينٌ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١) . وخرج معهم طرفة بن عدي بن حاتم الطائي ، فاتبعه أبوه فلم يقدر عليه ، فانهى إلى

(١) سورة القصص: ٢١، ٢٢ .

المدائن ثم رجع ، فلما بلغ ساباط لقيّه عبدالله بن وهب الراسي في نحو عشرين فارساً ، فأراد عبدالله قتله ، فمنعه عمرو بن مالك النّبّهاني وبشر بن زيد البّولاني . وأرسل عديّ إلى سعد بن مسعود عامل عليّ على المدائن يحذّره أمرهم ، فحذّر ، وأخذ أبواب المدائن ، وخرج في الخيل واستخلف بها ابن أخيه المختار بن أبي عبيد ، وسار في طلبهم ، فأخبر عبدالله بن وهب خبره فرأباً طريقه ، وسار على بغداد ، ولحقهم سعد بن مسعود بالكرّخ في خمسمائة فارس عند المساء ، فانصرف إليهم عبدالله في ثلاثين فارساً ، فاقتتلوا ساعة ، وامتنع القوم منهم ؛ وقال أصحاب سعد لسعد : ما تريد من قتال هؤلاء ولم يأتك فيهم أمر ! خلّهم فليذهبوا ، واكتب إلى أمير المؤمنين ، فإن أمرك باتّباعهم اتّبعتهم ، وإن كفّاكهم غيرك كان في ذلك عافية لك . فأبى عليهم ، فلما جنّ عليهم الليل خرج عبدالله بن وهب فعبر دجلة إلى أرض جُوخى ، وسار إلى النّهر وان ، فوصل إلى أصحابه وقد أيسوا منه ، وقالوا : إن كان هلك ولينا الأمر زيد بن حصين أو خرّوص بن زهير ، وسار جماعة من أهل الكوفة يريدون الخوارج ليكونوا معهم ، فردّهم أهلهم كرهاً ؛ منهم القعقاع بن قيس الطائي عم الطّرمّاح بن حكيم ، وعبدالله بن حكيم بن عبدالرحمن البكائي ، وبلغ عليّاً أن سالم بن ربيعة العبسي يريد الخروج ، فأحضره عنده ، ونهاه فانتهى .

ولما خرجت الخوارج من الكوفة أتى عليّاً أصحابه وشيعته فبايعوه وقالوا : نحن أولياء من واليت ، وأعداء من عاديت ، فشرط لهم فيه سنة رسول الله ﷺ ، فجاءه ربيعة بن أبي شدّاد الخثعمي - وكان شهد معه الجمل وصفيّ ، ومعه راية خثعم - فقال له : بايع على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ؛ فقال ربيعة : على سنة أبي بكر وعمر ؛ قال له عليّ : ويلك ! لو أنّ أبا بكر وعمر عملاً بغير كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لم يكونا على شيء من الحقّ ، فبايعه ، فنظر إليه عليّ وقال : أما والله لكأني بك وقد نفرت مع هذه الخوارج فقتلت ، وكأني بك وقد وطئت الخيل بحوافرها ، فقتل يوم النّهر مع خوارج البصرة .

وأما خوارج البصرة فإنهم اجتمعوا في خمسمائة رجل ، وجعلوا عليهم مسعر بن ذكّيّ التميمي ، فعلم بهم ابن عباس ، فأتبعهم أبا الأسود الدّؤليّ ، فلحقهم بالجرّ الأكبر ، فتواقفوا حتى حجز بينهم الليل ، وأدليج مسعر بأصحابه ، وأقبل يعترض الناس وعلى مقدّمته الأشرس بن عوف الشيبانيّ ، وسار حتى لحق بعبد الله بن وهب بالنّهر . فلما خرجت الخوارج وهرب أبو موسى إلى مكة ، وردّ عليّ ابن عباس إلى البصرة ، قام في الكوفة فخطبهم فقال : الحمد لله وإن أتى الدّهر بالخطب الفادح ، والحدّثان الجليل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ؛ أما بعد ، فإن المعصية تورث الحسرة ، وتُعقب الندم ، وقد كنت أمرتكم في هذين الرّجلين وفي هذه الحكومة أمري ، ونحلتكم رأيي ، لو كان لقصير أمراً ولكن أبيتم إلا ما أردتم ، فكنّت أنا وأنتم كما قال أخوهوازن :

أمرتُهُمُ أمري بمُنْعَرَجِ اللَّوْىِ فلم يَسْتَبِينُوا الرُّشْدَ إِلَّا ضُحَى الْغَدِ

ألا إنّ هذين الرّجلين اللذين اخترتموهما حكّمين قد نبّدا حكم القرآن وراء ظهورهما ، وأحييا ما أمات القرآن ، واتبّع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله ، فحكّما بغير حجّة بيّنة ، ولا سنة ماضية ، واختلفا في حكمهما ، وكلاهما لم يرشد ، فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين . استعبدوا وتأهبوا للمسير إلى

الشَّامَ ، وأصبحوا في معسكركم إن شاء الله يوم الاثنين . ثم نزل .

وكتب إلى الخوارج بالنهر: بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله علي أمير المؤمنين ، إلى زيد بن حصين وعبدالله بن وهب ومن معهما من الناس . أمّا بعد ، فإن هذين الرجلين اللذين ارتضينا حكمهما قد خالفا كتاب الله ، وأتبعاه أهواءهما بغير هدى من الله ، فلم يعملا بالسنة ، ولم ينفذا للقرآن حكماً ، فبرىء الله ورسوله منهما والمؤمنون ! فإذا بلغكم كتابي هذا فاقبلوا فإننا سائرون إلى عدونا وعدوكم ، ونحن على الأمر الأول الذي كنا عليه . والسلام .

وكتبوا إليه : أمّا بعد ، فإنك لم تغضب لربك ، إنما غضبت لنفسك ، فإن شهدت على نفسك بالكفر ، واستقبلت التوبة ، نظرنا فيما بيننا وبينك ، وإلا فقد نابذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين . فلما قرأ كتابهم أيس منهم ، فرأى أن يدعهم ويمضي بالناس إلى أهل الشام حتى يلقاتهم فيناجزهم .

قال أبو مخنف ، عن المعلي بن كليب الهمداني ، عن جبر بن نوف أبي الوداك الهمداني : إن علياً لما نزل بالنخيلة وأيس من الخوارج ، قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أمّا بعد ، فإنه من ترك الجهاد في الله وأدّهن في أمره كان على شفا هلكه إلا أن يتداركه الله بنعمة ؛ فاتقوا الله ، وقاتلوا من حادّ الله ، وحاول أن يطفئ نور الله ، قاتلوا الخاطئين الضالين ، القاسطين المجرمين ، الذين ليسوا بقراء للقرآن ، ولا فقهاء في الدين ، ولا علماء في التأويل ، ولا لهذا الأمر بأهل سابقة في الإسلام ، والله لو ولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل ، تيسروا وتهيئوا للمسير إلى عدوكم من أهل المغرب ، وقد بعثنا إلى إخوانكم من أهل البصرة ليقدموا عليكم ، فإذا قدموا فاجتمعتم شخصنا إن شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وكتب علي إلى عبدالله بن عباس مع عتبة بن الأحنس بن قيس ، من بني سعد بن بكر : أمّا بعد ، فإننا قد خرجنا إلى معسكرنا بالنخيلة ، وقد أجمعنا على المسير إلى عدونا من أهل المغرب ، فاشخص بالناس حتى يأتيتك رسولي ، وأقم حتى يأتيتك أمري . والسلام .

فلما قدم عليه الكتاب قرأه على الناس ، وأمرهم بالشخص مع الأحنف بن قيس ، فشخص معه منهم ألف وخمسمائة رجل ، فاستقلهم عبدالله بن عباس ، فقام في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أمّا بعد يا أهل البصرة ، فإنه جاءني أمر أمير المؤمنين يأمرني بإشخاصكم ، فأمرتكم بالنفير إليه مع الأحنف ابن قيس ، ولم يشخص معه منكم إلا ألف وخمسمائة ، وأنتم ستون ألفاً سوى أبنائكم وعبدانكم ومواليكم ! ألا انفروا مع جارية بن قدامة السعدي ، ولا يجملن رجل على نفسه سبيلاً ، فإنني موقّع بكل من وجدته متخلفاً عن مكتبه ، عاصياً لإمامه ، وقد أمرت أبا الأسود الدؤلي بحشركم ، فلا يلم رجل جعل السبيل على نفسه إلا نفسه .

فخرج جارية فعسكر ، وخرج أبو الأسود فحشر الناس ، فاجتمع إلى جارية ألف وسبعمائة ، ثم أقبل حتى وافاه علي بالنخيلة ، فلم يزل بالنخيلة حتى وافاه هذان الجيشان من البصرة ثلاثة آلاف ومائتا رجل ، فجمع إليهم رؤوس أهل الكوفة ، ورؤوس الأسباع ، ورؤوس القبائل ، ووجوه الناس . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أهل الكوفة ، أنتم إخواني وأنصاري ، وأعواني على الحق ، وصحابتي على جهاد عدوي المحليين

بكم، أضرب المذبر، وأرجو تمام طاعة المقبل، وقد بعثت إلى أهل البصرة فاستنفرتهم إليكم، فلم يأتي منهم إلا ثلاثة آلاف ومائتا رجل، فأعينوني بمناصرة جليلة خلية من الغش، إنكم..... مخرجنا إلى صفين، بل استجمعوا بأجمعكم، وإني أسألكم أن يكتب لي رئيس كل قوم ما في عشيرته من المقاتلة وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال وعبدان عشيرته ومواليهم، ثم يرفع ذلك إلينا.

فقام سعيد بن قيس الهمداني، فقال: يا أمير المؤمنين، سمعاً وطاعة، ووداً ونصيحة، أنا أول الناس جاء بما سألت، وبما طلبت. وقام معقل بن قيس الرياحي فقال له نحواً من ذلك، وقام عدي بن حاتم وزباد بن خصفة وحجر بن عدي وأشرف الناس والقبائل فقالوا مثلاً ذلك.

ثم إن الرووس كتبوا من فيهم، ثم رفعوهم إليه، وأمروا أبناءهم وعبيدهم ومواليهم أن يخرجوا معهم، والّا يتخلف عنهم أحد، فرفعوا إليه أربعين ألف مقاتل، وسبعة عشر ألفاً من الأبناء ممن أدرك، وثمانية آلاف من مواليهم وعبيدهم، وقالوا: يا أمير المؤمنين، أما من عندنا من المقاتلة وأبناء المقاتلة ممن قد بلغ الحلم، وأطاق القتال، فقد رفعنا إليك منهم ذوي القوة والجلد، وأمروناهم بالشخص معنا، ومنهم ضعفاء، وهم في ضياعنا وأشياء مما يصلحنا. وكانت العرب سبعة وخمسين ألفاً من أهل الكوفة، ومن مواليهم ومواليهم ثمانية آلاف، وكان جميع أهل الكوفة خمسة وستين ألفاً، وثلاثة آلاف ومائتي رجل من أهل البصرة، وكان جميع من معه ثمانية وستين ألفاً ومائتي رجل.

قال أبو مخنف، عن أبي الصلت التيمي: إن علياً كتب إلى سعد بن مسعود الثقفي - وهو عامله على المدائن: أما بعد، فإني قد بعثت إليك زياد بن خصفة فأشخص معه من قبلك من مقاتلة أهل الكوفة، وعجل ذلك إن شاء الله ولا قوة إلا بالله.

قال: وبلغ علياً أن الناس يقولون: لو سار بنا إلى هذه الحروية فبدأنا بهم، فإذا فرغنا منهم وجهنا من وجهنا ذلك إلى المجليين! فقام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإنه قد بلغني قولكم: لو أن أمير المؤمنين سار بنا إلى هذه الخارجة التي خرجت عليه فبدأنا بهم، فإذا فرغنا منهم وجهنا إلى المجليين؛ وإن غير هذه الخارجة أهم إلينا منهم، فدعوا ذكرهم، وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين ملوكاً، ويتخذوا عباد الله خولاً.

فتنادى الناس من كل جانب: سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت. قال: فقام إليه صفي بن فسيل الشيباني فقال: يا أمير المؤمنين، نحن جزبك وأنصارك، نعادي من عاديت، ونشايع من أناب إلى طاعتك، فسير بنا إلى عدوك؛ من كانوا وأينما كانوا؛ فإنك إن شاء الله لن تؤث من قلة عدد، ولا ضعف نية أتباع. وقام إليه مجيز بن شهاب التيمي من بني سعد فقال: يا أمير المؤمنين، شيعتك كقلب رجل واحد في الإجماع على نصرتك، والجد في جهاد عدوك، فأبشّر بالنصر، وسير بنا إلى أي الفريقين أحببت، فلما شيعتك الذين نرجو في طاعتك وجهاد من خالفك صالح الثواب، ونخاف في خذلانك والتخلف عنك شدة الوبال.

حدثني يعقوب، قال: حدثني إسماعيل، قال: أخبرنا أيوب، عن حميد بن هلال، عن رجل من عبد القيس كان من الخوارج ثم فارقه، قال: دخلوا قرية، فخرج عبدالله بن خباب صاحب رسول الله ذيراً يجر

رداءه، فقالوا: لم تُرْع؟ فقال: والله لقد دَعَرْتُمُونِي! قالوا: أنت عبد الله بن خَبَّاب صاحب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم؛ قالوا: فهل سمعت من أبيك حديثاً يحدث به عن رسول الله ﷺ أنه ذكر فتنة، القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي؟ قال: فإن أدركتم ذلك فكن يا عبد الله المقتول - قال أيوب: ولا أعلمه إلا قال: «ولا تكن يا عبد الله القاتل» - قال: نعم، قال: فقدّموه على ضِفَّة النهر، فضربوا عنقه، فسأل دمه كأنه شِراكٌ نعل، وبَقَرُوا بطنَ أمّ ولده عمّا في بطنها.

قال أبو خننف عن عطاء بن عجلان، عن حميد بن هلال: إنَّ الخارِجة التي أقبلت من البصرة جاءت حتى دنت من إخوانها بالنهر، فخرجت عصابة منهم، فإذا هم برجل يسوق بامرأة على حمار، فعبروا إليه، فدعوه فتهدّوه وأفرعوه، وقالوا له: من أنت؟ قال: أنا عبد الله بن خَبَّاب صاحب رسول الله ﷺ، ثم أهوى إلى ثوبه يتناوله من الأرض - وكان سقط عنه لما أفرعوه - فقالوا له: أفرعناك؟ قال: نعم؛ قالوا له: لا رَوْع عليك! فحدّثنا عن أبيك بحديث سمعه من النبي ﷺ، لعل الله ينفعنا به! قال: حدّثني أبي، عن رسول الله ﷺ، «أنَّ فتنة تكون، يموت فيها قلبُ الرجل كما يموتُ فيها بدنه، يمسي فيها مؤمناً ويصبحُ فيها كافراً، ويصبح فيها كافراً ويمسي فيها مؤمناً»، فقالوا: لهذا الحديث سألناك، [فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما خيراً، قالوا: ما تقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها؟ قال: إنه كان محمّلاً في أولها وفي آخرها، قالوا: فما تقول في عليّ قبل التحكيم وبعده؟ قال: إنه أعلم بالله منكم، وأشدّ توقُّفاً على دينه، وأنفدُ بصيرةً. فقالوا: إنك تتبّع الهوى، وتوالي الرجال على أسمائهم لا على أفعالهم]، والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً، فأخذوه فكشفوه ثم أقبلوا به وبامراته وهي حُبلى مُتِمٌّ حتى نزلوا تحت نخلٍ مَواقِر فسقطت منه رطبَةٌ، فأخذها أحدهم فقفذ بها في فمه، فقال أحدهم، بغير جَلِّها، وبغير ثمن! فلَفَظَها وألقاها من فمه، ثم أخذ سيفه فأخذ بيمينه، فمرَّ به خنزير لأهل الذمة فضرَّبه بسيفه، فقالوا: هذا فسادٌ في الأرض، فأث صاحب الخنزير فأرضاه من خنزيره، فلما رأى ذلك منهم ابن خَبَّاب قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى فما عليّ منكم بأس، إني لأسليم؛ ما أحدثت في الإسلام حدّثاً، ولقد آمَنتُمُونِي، قُلتُم: لا رَوْع عليك! فجاءوا به فأضجعوه فذبّحوه، وسأل دمه في الماء، وأقبلوا إلى المرأة، فقالت: إني إنما أنا امرأة، ألا تتقون الله! فَبَقَرُوا بطنها، ا وقتلوا ثلاث نسوة من طيِّء، وقتلوا أم سنان الصَّيداوية، فبلغ ذلك عليّاً ومن معه من المسلمين من قتلهم عبد الله بن خَبَّاب، واعتراضهم الناس، فبعث إليهم الحارث بن مرّة العبدِي ليأتيهم فينظر فيما بلغه عنهم، ويكتب به إليه على وجهه، ولا يكتمه. فخرج حتى انتهى إلى النهر لِيَسْأَلَهُم، فخرج القومُ إليه فقتلوه، وأث الخبرُ أمير المؤمنين والناس، فقام إليه الناس، فقالوا: يا أمير المؤمنين، عَلَامَ تَدْع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا! سرُّ بنا إلى القوم فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرُّنا إلى عدونا من أهل الشام. وقام إليه الأشعث بن قيس الكِنْدِي فكلمه بمثل ذلك. وكان الناس يَرَوْنَ أن الأشعث يَرَى رأيهم لأنه كان يقول يومَ صِفِّين: أنصفنا قوم يدعون إلى كتاب الله، فلما أمر عليّاً بالمسير إليهم علم الناس أنه لم يكن يَرَى رأيهم. فاجمع على ذلك، فنادى بالرحيل، وخرج فعَبَّرَ الجسر فصلى ركعتين بالقنطرة، ثم نزل ديرَ عبد الرحمن، ثم ديرَ أبي موسى، ثم أخذ على قرية شاهي، ثم على دَهاها، ثم على شاطئ الفرات، فلقيته في مسيره ذلك منجم، أشار عليه يسير وقت من النهار، وقال له: إن سرت في غير ذلك الوقت لقيت أنت وأصحابك ضراً شديداً. فخالفه، وسار في الوقت الذي نهاه عن السير فيه، فلما فرغ من النهر حمد الله وأثنى عليه ثم قال: لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها المنجم لقال الجهال الذين لا

يعلمون : سار في الساعة التي أمره بها المنجم فظفر .

قال أبو مخنف : حدثني يوسف بن يزيد ، عن عبدالله بن عوف ، قال : لما أراد عليّ المسير إلى أهل النهر من الأنبار ، قدّم قيس بن سعد بن عبادة وأمره أن يأتي المدائن فينزّلها حتى يأمره بأمره ، ثم جاء مقبلاً إليهم ، ووافاه قيس وسعد بن مسعود الثقفي بالنهر ، وبعث إلى أهل النهر : ادفعوا إلينا قتلّة إخواننا منكم نقتلهم بهم ، ثم أنا تارككم وكافّ عنكم حتى ألقى أهل الشام ؛ فلعلّ الله يقلّب قلوبكم ، ويردّكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم . فبعثوا إليه ، فقالوا : كلنا قتلّتهم ، وكلنا نستحلّ دماءهم ودماءكم .

قال أبو مخنف : فحدثني الحارث بن حصيرة ، عن عبدالرحمن بن عبيد أبي الكنود ، أن قيس بن سعد بن عبادة قال لهم : عباد الله ، أخرجوا إلينا طليبتنا منكم ، وادخلوا في هذا الأمر الذي منه خرجتم ، وعودوا بنا إلى قتال عدونا وعدوكم ، فإنكم ركبتم عظيم من الأمر ، تشهدون علينا بالشرك ، والشرك ظلم عظيم ، وتسفكون دماء المسلمين ، وتعدونهم مشركين ! فقال عبدالله بن شجرة السلمي : إن الحق قد أضاع لنا ، فلسنا نتابعكم أو تأتونا بمثل عمر ، فقال : ما نعلمه فينا غير صاحبنا ، فهل تعلمونه فيكم ؟ وقال : نشدتكم بالله في أنفسكم أن تهلكوها ، فإني لأرى الفتنة قد غلبت عليكم .

وخطبهم أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري ؛ فقال : عباد الله ، إنا وإياكم على الحال الأولى التي كنا عليها ، ليست بيننا وبينكم فرقة ، فعلام تقاتلوننا ؟ فقالوا : إنا لو بايعناكم اليوم حكمتكم غداً . قال : فإني أنشدكم الله أن تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتي في قابل .

قال أبو مخنف : حدثني مالك بن أعين ، عن زيد بن وهب ، أن علياً أتى أهل النهر فوقف عليهم فقال : آيتها العصابة التي أخرجتها عداوة المراء واللجاجة ، وصدها عن الحق المهوى ، وطمع بها النزق ، وأصبحت في اللبس والخطب العظيم ، إني نذير لكم أن تصبحوا تليفكم الأمة غداً صرعى بأثناء هذا النهر ، وبأهضام هذا الغائط ، بغير بيئة من ربكم ، ولا برهان بين . ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة ، وأخبرتكم أن طلب القوم إياها منكم دهن ومكيدة لكم ! ونبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وأنّي أعرف بهم منكم ، عرفتهم أطفالاً ورجالاً ، فهم أهل المكر والغدر ، وأنكم إن فارقتهم رأيي جانبتم الحزم ! فعصيتُموني ، حتى أقررت بأن حكمت ، فلما فعلت شرطت واستوثقت ، فأخذت على الحكمين أن يُحييا ما أحيا القرآن ، وأن يُميّتا ما أمت القرآن ، فاختلّفا وخالفاً حكم الكتاب والسنة ، فنبذنا أمرهما ، ونحن على أمرنا الأول ، فما الذي بكم ؟ ومن أين أتيتم ! قالوا : إنا حكمتنا ، فلما حكمتنا أثمنا ، وكنا بذلك كافرين ، وقد تبنا فإن تبّت كما تبنا فنحن منك ومعك ، وإن أبيت فاعتزلنا فإننا منابذك على سواء إن الله لا يحبّ الخائنين . فقال علي : أصابكم حاصب ، ولا بقي منكم وابر ! أبعّد إيماني برسول الله ﷺ وهجرتي معه ، وجهادي في سبيل الله ، أشهد على نفسي بالكفر ! لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين . ثم انصرف عنهم .

قال أبو مخنف : حدثني أبو سلمة الزهري - وكانت أمّه بنت أنس بن مالك - أن علياً قال لأهل النهر : يا هؤلاء ، إن أنفسكم قد سوّلت لكم فراق هذه الحكومة التي أنتم ابتدأتموها وسألتموها وأنا لها كاره ، وأنبأتكم أن القوم سألوكموها مكيدةً وذهناً ، فأبيتهم عليّ إباء المخالفين ، وعدلتهم عني عدول

النَّكْدَاءُ الْعَاصِينَ ، حتى صرفت رأيي إلى رأيكم ؛ وأنتم والله معاشر أخفاء الهام ، سُفْهَاءُ الْأَحْلَامِ ، فلم آت - لا أبا لكم - حراماً . والله ما خبلتكم عن أموركم ، ولا أخفيت شيئاً من هذا الأمر عنكم ، ولا أوطأتكم عشوة ، ولا دَنَيْتُ لَكُمْ الضَّرَاءَ ، وإن كان أمرنا لأمر المسلمين ظاهراً ، فأجمع رأيي مَلَيْتُكُمْ عَلَى أَنْ اخْتَارُوا رَجُلِينَ ، فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يَحْكُمَا بِنَا فِي الْقُرْآنِ وَلَا يَعْدُوَاهُ ، فَتَّاهَا وَتَرَكََا الْحَقَّ وَهَمَّا يُبْصِرَانِهِ ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا ، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَانُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ ، وَالصَّدِّ لِلْحَقِّ سُوءَ رَأْيِيهَا ، وَجَوْرُ حُكْمِيهَا . وَالثِّقَةُ فِي أَيْدِينَا لِأَنْفُسِنَا حِينَ خَالَفَا سَبِيلَ الْحَقِّ ، وَأَتَيَا بِنَا لَا يَعْرِفُ ؛ فَبَيَّنَّا لَنَا بِمَاذَا تَسْتَحِلُّونَ قِتَالَنَا ، وَالخُرُوجَ مِنْ جَمَاعَتِنَا ؛ إِنْ اخْتَارَ النَّاسُ رَجُلَيْنِ أَنْ تَضَعُوا أَسْيَافَكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ ، ثُمَّ تَسْتَعْرِضُوا النَّاسَ ، تَضْرِبُونَ رِقَابَهُمْ ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَهُمْ ! إِنْ هَذَا هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ . وَاللَّهُ لَوْ قَتَلْتُمْ عَلَى هَذَا دَجَاجَةً لَعَظُمَ عِنْدَ اللَّهِ قَتْلُهَا ، فَكَيْفَ بِالنَّفْسِ الَّتِي قَتَلَهَا عِنْدَ اللَّهِ حَرَامٌ ! .

فَتَنَادَا : لَا تُخَاطِبُوهُمْ ، وَلَا تَكَلِّمُوهُمْ ، وَتَهَيَّئُوا لِلْقَاءِ الرَّبِّ ، الرَّوَاحُ الرَّوَاحُ إِلَى الْجَنَّةِ ! فَخَرَجَ عَلَيَّ فَعَبَّأَ النَّاسَ ، فَجَعَلَ عَلَى مِيمَتِهِ حُجْرَ بْنَ عَدِيٍّ ، وَعَلَى مِيسِرَتِهِ شَبَّثَ بْنَ رُبْعِيٍّ - أَوْ مَعْقِلَ بْنَ قَيْسِ الرِّيَّاحِيِّ - . وَعَلَى الْخَيْلِ أَبَا أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ ، وَعَلَى الرِّجَالِ أَبَا قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيَّ ، وَعَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ - وَهُمْ سَبْعُمِائَةٍ أَوْ ثَمَانِمِائَةٍ رَجُلٍ - قَيْسَ بْنَ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ .

قال : وَعَبَّأْتُ الْخَوَارِجَ ، فَجَعَلُوا عَلَى مِيمَتِهِمْ زَيْدَ بْنَ حَصِينِ الطَّائِيَّ ، وَعَلَى الْمِيسِرَةِ شُرَيْحَ بْنَ أَوْفَى الْعَبْسِيِّ ، وَعَلَى خَيْلِهِمْ حَمْزَةَ بْنَ سَنَانَ الْأَسَدِيِّ ، وَعَلَى الرِّجَالِ حُرْقُوصَ بْنَ زُهَيْرِ السَّعْدِيِّ .

قال : وَبَعَثَ عَلَيَّ الْأَسْوَدَ بْنَ يَزِيدَ الْمُرَادِيَّ فِي أَلْفِي فَارَسَ ، حَتَّى أَتَى حَمْزَةَ بْنَ سَنَانَ وَهُوَ فِي ثَلَاثِمِائَةٍ فَارَسَ مِنْ خَيْلِهِمْ ، وَرَفَعَ عَلَيَّ رَايَةً أَمَانَ مَعَ أَبِي أَيُّوبَ ، فَنَادَاهُمْ أَبُو أَيُّوبَ : مَنْ جَاءَ هَذِهِ الرَّايَةَ مِنْكُمْ مَنَّمْ لَمْ يَقْتُلْ وَلَمْ يَسْتَعْرِضْ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ انْصَرَفَ مِنْكُمْ إِلَى الْكُوفَةِ أَوْ إِلَى الْمَدَائِنِ وَخَرَجَ مِنْ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ فَهُوَ آمِنٌ ؛ إِنَّهُ لَا حَاجَةَ لَنَا بَعْدَ أَنْ نَصِيبَ قَتْلَةَ إِخْوَانِنَا مِنْكُمْ فِي سَفْكِ دِمَائِكُمْ . فَقَالَ قُرُوءُ بْنُ نَوْفَلٍ الْأَشْجَعِيُّ : وَاللَّهِ مَا أَدْرِي عَلَى أَيِّ شَيْءٍ نَقَاتِلُ عَلِيًّا ! لَا أَرَى إِلَّا أَنْ أَنْصَرِفَ حَتَّى تَنْفُذَ لِي بِصِيرَتِي فِي قِتَالِهِ أَوْ اتِّبَاعِهِ . وَانْصَرَفَ فِي خَمْسِمِائَةٍ فَارَسَ ، حَتَّى نَزَلَ الْبَنْدَنِيَجِينَ وَالْدُّسْكَرَةَ ، وَخَرَجَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى مَتَفَرِّقِينَ فَنَزَلَتِ الْكُوفَةَ ، وَخَرَجَ إِلَى عَلِيٍّ مِنْهُمْ نَحْوُ مِائَةٍ ، وَكَانُوا أَرْبَعَةَ آلَافٍ ، فَكَانَ الَّذِينَ بَقُوا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَهَبٍ مِنْهُمْ أَلْفَيْنِ وَثَمَانِمِائَةٍ ، وَزَحَفُوا إِلَى عَلِيٍّ ، وَقَدَّمَ عَلِيٌّ الْخَيْلَ دُونَ الرِّجَالِ ، وَصَفَّ النَّاسَ وَرَاءَ الْخَيْلِ صَفَّيْنِ ، وَصَفَّ الْمَرَامِيَةَ أَمَامَ الصَّفِّ الْأَوَّلِ ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : كَفُّوا عَنْهُمْ حَتَّى يَبْدُوَكُمْ ، فَلَمِنْهُمْ لَوْ قَدْ شَدُّوا عَلَيْكُمْ - وَجُلَّهْمُ رَجَالٌ - لَمْ يَنْتَهُوا إِلَيْكُمْ إِلَّا لِأَغْيَبِينَ وَأَنْتُمْ رَادُّونَ حَامُونَ . وَأَقْبَلَتِ الْخَوَارِجُ ، فَلَمَّا أَنْ دَنَوْا مِنَ النَّاسِ نَادَا يَزِيدُ بْنُ قَيْسٍ ، فَكَانَ يَزِيدُ بْنُ قَيْسٍ عَلَى إِصْبَهَانَ فَقَالُوا : يَا يَزِيدُ بْنُ قَيْسٍ ، لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ، وَإِنْ كَرِهْتَ إِصْبَهَانَ ! فَنَادَاهُمْ عَبَّاسُ بْنُ شَرِيكَ وَقَبِيصَةُ بْنُ ضُبَيْعَةَ الْعَبْسِيَّانِ : يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ ، أَلَيْسَ فِيكُمْ شُرَيْحُ بْنُ أَوْفَى الْمُسْرِيفِ عَلَى نَفْسِهِ ؟ هَلْ أَنْتُمْ إِلَّا أَشْبَاهُهُ ! قَالُوا : وَمَا حَجَّتْكُمْ عَلَى رَجُلٍ كَانَتْ فِيهِ فِتْنَةٌ ، وَفِينَا تَوْبَةٌ ، ثُمَّ تَنَادَا : الرَّوَاحُ الرَّوَاحُ إِلَى الْجَنَّةِ ! فَشَدُّوا عَلَى النَّاسِ وَالْخَيْلِ أَمَامَ الرِّجَالِ ، فَلَمْ تَثْبِتْ خَيْلُ الْمُسْلِمِينَ لَشِدَّتِهِمْ ، وَافْتَرَقَتْ الْخَيْلُ فَرَقَتَيْنِ : فِرْقَةٌ نَحْوَ الْمِيمَنَةِ ، وَأُخْرَى نَحْوَ الْمِيسِرَةِ ، وَأَقْبَلُوا نَحْوَ الرِّجَالِ ، فَاسْتَقْبَلَتِ الْمَرَامِيَةَ وَجُوهَهُمْ بِالنَّبْلِ ، وَعَظَفَتْ عَلَيْهِمُ الْخَيْلُ مِنَ الْمِيمَنَةِ

والميسرة، ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف، فوالله ما لبثوهم أن أناموهم .

ثم إن حمزة بن سنان صاحب خيلهم لما رأى الهلاك نادى أصحابه أن انزلوا ، فذهبوا لينزلوا فلم يتقاروا حتى حمل عليهم الأسود بن قيس المرادي ، وجاءتهم الخيل من نحو علي ، فأهيدوا في الساعة .

قال أبو مخنف : فحدثني عبد الملك بن مسلم بن سلام بن ثمامة الحنفي ، عن حكيم بن سعد ، قال : ما هو إلا أن لقينا أهل البصرة ، فما لبثناهم ، فكأنما قيل لهم : موتوا ؛ فماتوا قبل أن تشتد شوكتهم ، وتعظم نكايتهم .

قال أبو مخنف : فحدثني أبو جناب ؛ أن أبا أيوب أتى علياً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قتل زيد بن حصين ، قال : فما قلت له وما قال لك؟ قال : طعنته بالرمح في صدره حتى نجم من ظهره ؛ قال : وقلت له : أبشري العدو الله بالنار! قال : ستعلم أننا أولى بها صلياً ؛ فسكت علياً عليها .

قال أبو مخنف ، عن أبي جناب : إن علياً قال له : هو أولى لها صلياً . قال : وجاء عائذ بن حملة التميمي ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قتل كلاباً ، قال : أحسنت ! أنت محق قتل مبطلاً . وجاء هانيء بن خطاب الأرحبي وزياد بن خصفة يحتجان في قتل عبدالله بن وهب الراسبي ، فقال لهما : كيف صنعتما؟ فقالا : يا أمير المؤمنين ، لما رأينا عرفناه ، وابتدرناه فطعناه برمحينا ، فقال علي : لا تختلفا ، كلاكما قاتل . وشد جيش بن ربيعة أبو المعتمر الكنائي على حرقوص بن زهير فقتله ، وشد عبدالله بن زحر الحولاني على عبدالله بن شجرة السلمي فقتله ، ووقع شريح بن أوفى إلى جانب جدار ، فقاتل على ثلثة فيه طويلاً من نهار ، وكان قتل ثلاثة من همدان ، فأخذ يرتجز ويقول :

قد علمت جارية عبسيه ناعمة في أهلها مكهيه
أني سألني ثلثي العشي

فشد عليه قيس بن معاوية الدهني فقطع رجله ، فجعل يقاتلهم ، ويقول :

القرم يحمي شوله معقولا

ثم شد عليه قيس بن معاوية فقتله ، فقال الناس :

اقتلت همدان يوماً ورجل
اقتتلوا من غداة حتى الأصل
ففتح الله همدان الرجل

وقال شريح :

أضربهم ولو أرى أبا حسن
ضربته بالسيف حتى يطمئن

وقال :

أضربهم ولو أرى علياً
البيضة أبيض مشرفياً

قال أبو مخنف : حدثني عبد الملك بن أبي حرّة ، أن علياً خرج في طلب ذي الثدية ومعه سليمان بن ثمامة الحنفي أبو جبرة ، والريان بن صبرة ابن هوزة ، فوجده الريان بن صبرة بن هوزة في حفرة على شاطئ

النهر في أربعين أو خمسين قتيلاً . قال : فلما استُخرجَ نظر إلى عَضِدِهِ ، فإذا لحم مجتمع على منكبيه كشدي المرأة ، له حلمة عليها شَعَرَاتٌ سَوْدٌ ، فإذا مُدَّتْ امتدَّتْ حتى تَحَاذِي طول يده الأخرى ، ثم تُتْرَك فتعود إلى منكبه كشدي المرأة ، فلما استُخرجَ قال علي : الله أكبر ! والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِّبْتُ ، أما والله لولا أن تنكلوا عن العمل ، لأخبرتكم بما قضى الله على لسان نبيه ﷺ لمن قاتلهم مستبصراً في قتالهم ، عارفاً للحق الذي نحن عليه . قال : ثم مرَّ وهم صرعى فقال : بؤساً لكم ! لقد ضرَّكم من غرَّكم ؛ فقالوا : يا أمير المؤمنين ، مَنْ غرَّهم ؟ قال : الشيطان ، وأنفسُ بالسوء أَمَّارة ، غرَّتْهم بالأمان ، وزينت لهم المعاصي ، ونبأتهم أنهم ظاهرون . قال : وطلب من به رمق منهم فوجدناهم أربعمائة رجل ، فأمر بهم علي فدفعوا إلى عشائرتهم ، وقال : احملوهم معكم فداووهم ، فإذا برثوا فوافوا بهم الكوفة ، وخذوا ما في عسكرهم من شيء .

قال : وأما السلاح والدواب وما شهدوا به عليه الحرب فقُسِّمَ بين المسلمين ، وأما المتاع والعبيد والإماء فإنه حين قدم ردَّه على أهله . وطلب عدي بن حاتم ابنه طرفة فوجده ، فدَفَنَهُ ، ثم قال : الحمد لله الذي ابتلاني بيومك على حاجتي إليك . ودَفَنَ رجالاً من الناس قتلناهم ، فقال أمير المؤمنين حين بلغه ذلك : ارتحلوا إذاً ، أتقتلونهم ثم تدفنونهم ! فارتحل الناس .

قال أبو مخنف عن مجاهد ، عن المحلِّ بن خليفة : أنَّ رجلاً منهم من بني سدوس يقال له العيزار بن الأخنس كان يرى رأي الخوارج ، خرج إليهم ، فاستقبل وراء المدائن عدي بن حاتم ومعه الأسود بن قيس والأسود بن يزيد المراديان ، فقال له العيزار حين استقبله : أسألم غانم ، أم ظالم آثم ؟ فقال عدي : لا ، بل سألم غانم ، فقال له المراديان : ما قلت هذا إلا لشُرِّ في نفسك ، وإنك لنعرفك يا عيزار برأي القوم ، فلا تفارقنا حتى نذهب بك إلى أمير المؤمنين فنخبره خبرك . فلم يكن بأوشك أن جاء علي فأخبراه خبره ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إنه يرى رأي القوم ، قد عرفناه بذلك ، فقال : ما يجلِّ لنا دمه ، ولكننا نجسسه ، فقال عدي بن حاتم : يا أمير المؤمنين ، ادفعه إليّ وأنا أضمن ألا يأتيك من قبله مكروه . فدفعه إليه .

قال أبو مخنف : حدَّثني عمران بن حدير ، عن أبي مجلز ، عن عبدالرحمن بن جندب بن عبدالله ، أنه لم يقتل من أصحاب عليٍّ إلا سبعة .

قال أبو مخنف ، عن ثُمَيْرِ بْنِ وَعْلَةَ الْيَنْعَافِيِّ ، عن أَبِي ذَرْدَاءٍ ، قال : كان علي لما فرغ من أهل النهروان حَمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله قد أحسن بكم ، وأعزَّ نصركم ، فتوجهوا من قوركم هذا إلى عدوكم . قالوا : يا أمير المؤمنين ، نفذتْ نبأنا ، وكَلَّتْ سيوفنا ، ونصَلَّتْ أسنَّةُ رماحنا ، وعاد أكثرها قِصْداً ، فارجع إلى مصرنا ، فلنستعِدَّ بأحسن عدتنا ، ولعلَّ أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدَّة من هلك منا ، فإنه أوفى لنا على عدونا . وكان الذي تولى ذلك الكلام الأشعث بن قيس ، فأقبل حتى نزل النخيلة ، فأمر الناس أن يلزموا عسكرهم ، ويوطنوا على الجهاد أنفسهم ، وأن يُقْلُوا زيارة نساءهم وأبنائهم حتى يسيروا إلى عدوهم ، فأقاموا فيه أياماً ، ثم تسلَّلوا من معسكرهم ، فدخلوا إلا رجلاً من وجوه الناس قليلاً ، وتُرك العسكر خالياً ، فلما رأى ذلك دخل الكوفة ، وانكسر عليه رأيه في السير .

قال أبو مخنف عَمَّن ذكره ، عن زيد بن وهب : إِنَّ عَلِيًّا قَالَ لِلنَّاسِ - وَهُوَ أَوَّلُ كَلَامٍ قَالَهُ لَهُمْ بَعْدَ النَّهْرِ :

أَيُّهَا النَّاسُ ، اسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَى عَدُوِّ فِي جِهَادِهِ الْقُرْبَةَ إِلَى اللَّهِ وَدَرَكَ الْوَسِيلَةَ عِنْدَهُ . حَيَارَى فِي الْحَقِّ ، جُفَاءً عَنِ الْكِتَابِ ، نُكِبَ عَنِ الدِّينِ ، يَعْمَهُونَ فِي الطَّغْيَانِ ، وَيُعَكِّسُونَ فِي غَمْرَةِ الضَّلَالِ ، فَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا !

قال : فلا هم نفروا ولا تيسروا ، فتركهم أياماً حتى إذا أيس من أن يفعلوا ، دعا رؤساءهم ووجوههم ، فسألهم عن رأيهم ، وما الذي يُنظرونهم ، فمنهم المعتل ، ومنهم المكروه ، وأقلهم من نَشِيط . فقام فيهم خطيباً ، فقال :

عِبَادَ اللَّهِ ، مَا لَكُمْ إِذَا أَمَرْتُكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا أَتَأْقِلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ! أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ، بِيَاللَّهِ وَالْهَوَانِ مِنَ الْعِزِّ أَوْ كَلِمًا نَدَبْتُكُمْ إِلَى الْجِهَادِ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ كَأَنكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي سَكْرَةٍ ، وَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ فَانْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ ! وَكَأَنَّ أَبْصَارَكُمْ كُتْمَةٌ فَانْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ . اللَّهُ أَنْتُمْ ! مَا أَنْتُمْ إِلَّا أَسْوَدُ الشَّرِّ فِي الدُّعَا ، وَتَعَالَى رَوَاغَةٌ حِينَ تُدْعَوْنَ إِلَى الْبَاسِ . مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي ، مَا أَنْتُمْ بِرُكْبٍ يُصَالُ بِكُمْ ، وَلَا ذِي عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهِ . لَعَمْرُ اللَّهِ ، لِبَشِّ حُشَّاشِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ ! إِنْكُمْ تُكَادُونَ وَلَا تُكِيدُونَ ، وَبِتَنْقُصِ أَطْرَافِكُمْ وَلَا تَتَحَاشُونَ ، وَلَا يُنَامُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ سَاهُونَ ؛ إِنْ أَخَا الْحَرْبِ الْيَقْظَانُ ذُو عَقْلٍ ، وَبَاتَ لَذَلٍّ مَنْ وَاذَعَ ، وَغَلَبَ الْمُتَجَادِلُونَ ، وَالْمَغْلُوبُ مَقْهُورٌ وَمَسْلُوبٌ . ثُمَّ قَالَ : أَمَا بَعْدَ ، فَإِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا ، وَإِنْ لَكُمْ عَلَيَّ حَقًّا ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالْنَّصِيحَةُ لَكُمْ مَا صَحَبْتُكُمْ ، وَتَوْفِيرُ فَيْثِكُمْ عَلَيْكُمْ ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْمَا لَا تَجْهَلُوا ، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْ تَعْلَمُوا ؛ وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ ، وَالنَّصِيحَةُ لِي فِي الْغَيْبِ وَالْمَشْهَدِ ، وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ ، فَإِنْ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ خَيْرًا انْتَرَعْتُمْ عَمَّا أَكْرَهَ ، وَتَرَجَعُوا إِلَى مَا أَحَبَّ ، تَنَالُوا مَا تَطْلُبُونَ ، وَتُدْرِكُوا مَا تَأْمَلُونَ .

وكان غير أبي مخنف يقول : كانت الوقعة بين عليٍّ وأهل النهر سنة ثمان وثلاثين ، وهذا القول عليه أكثر أهل السيرة .

ومما يصححه أيضاً ما حدَّثني به عُمارة الأسدي ، قال : حدَّثنا عبيد الله بن موسى ، قال : أخبرنا نعيم ، قال : حدَّثني أبو مريم أن شَبَثَ بْنَ رَبِيعٍ وَابْنَ الْكَوَاءِ خَرَجَا مِنَ الْكُوفَةِ إِلَى حَرُورَاءَ ، فَأَمَرَ عَلِيُّ النَّاسَ أَنْ يَخْرُجُوا بِسِلَاحِهِمْ ، فَخَرَجُوا إِلَى الْمَسْجِدِ حَتَّى امْتَلَأَ بِهِمْ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ : بَشِّ مَا صَنَعْتُمْ حِينَ تَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ بِسِلَاحِكُمْ ! أَذْهَبُوا إِلَى جَبَانَةٍ مُرَادَ حَتَّى يَأْتِيَكُمْ أَمْرِي .

قال أبو مريم : فانطلقنا إلى جبانة مُرَادَ فَكُنَّا بِهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، ثُمَّ بَلَّغْنَا أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ رَجَعُوا وَهُمْ زَاخِفُونَ . قَالَ : فَقُلْتُ : أَنْطَلِقْ أَنَا حَتَّى أَنْظَرَ إِلَيْهِمْ ، فَانْطَلَقْتُ حَتَّى أَتَخَلَّلَ صَفُوفَهُمْ ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى شَبَثَ بْنِ رَبِيعٍ وَابْنَ الْكَوَاءِ وَهُمَا واقفان متوركان على دابَّتيهما ، وَعِنْدَهُمَا رِجْلٌ عَلِيٌّ وَهُمَا يَنَاشِدُونَهَا اللَّهُ لَمَّا رَجَعَا بِالنَّاسِ ! وَيَقُولُونَ لَهُمْ : نَعِذْكُمْ بِاللَّهِ أَنْ تَعْجَلُوا بِفِتْنَةِ الْعَامِ خَشِيَةَ عَامٍ قَابِلٍ . فَقَامَ رَجُلٌ إِلَى بَعْضِ رِجْلِ عَلِيٍّ فَعَقَرَ دَابَّتَهُ ، فَزَلَّ الرَّجُلُ وَهُوَ يَسْتَرْجِعُ ، فَحَمَلَ سَرَجَهُ ، فَانْطَلَقَ بِهِ وَهُوَ يَقُولُونَ : مَا طَلَبْنَا إِلَّا

منازلتهم ، وهم يناشدونهم الله ، فمكثنا ساعة ، ثم انصرفوا إلى الكوفة كأنه يوم فطر أو أضحى .
 قال : وكان عليّ يحدثنا قبل ذلك أنّ قوماً يخرجون من الإسلام يَمُرُّون من الدين كما يَمُرُّقا السهم من الرميّة ، علامتهم رجل مخدج اليد . قال : وسمعتُ ذلك منه مراراً كثيرة ، قال : وسمعه نافع «المخدج» أيضاً - حتى رأيته يتكره طعامه من كثرة ما سمعه ، يقول : وكان نافع معنا يصلي في المسجد بالنهار ويبيت فيه بالليل ، وقد كنت كسوته بُرُئساً ، فلقيته من الغد ، فسألته : هل كان خرج مع الناس الذين خرجوا إلى خُرُوراء ؟ فقال : خرجت أريدُهم حتى إذا بلغت إلى بني سعد ، لقيني صبيان فنزعوا سلاجي ، وتلعبوا بي ، فرجعت حتى إذا كان الحول أو نحوه خرج أهل النهر ، وسار عليّ إليهم ، فلم أخرج معه وخرج أخي أبو عبدالله . قال : فأخبرني أبو عبدالله أنّ عليّاً سار إليهم حتى إذا كان حذاءهم على شطّ النهر وانطلق إليهم يناشدُهم الله ويأمرهم أن يرجعوا ، فلم تزل رسلُهُ تختلف إليهم ، حتى قتلوا رسولهُ ، فلما رأى ذلك نهض إليهم فقاتلهم حتى فرغ منهم ، ثم أمر أصحابه أن يلتمسوا المخدج ، فالتمسوه ، فقال بعضهم : ما نجدُهُ ، حتى قال بعضهم : لا ، ما هو فيهم . ثم إنه جاء رجل فبشره وقال : يا أمير المؤمنين ، قد وجدناه تحت قَتيلين في ساقية . فقال : اقطعوا يده المخدجة ، وأتوني بها ، فلما أتى بها أخذها ثم رفعها ، وقال : والله ما كذبتُ ولا كُذِّبتُ .

قال أبو جعفر : فقد أنبا أبو مريم بقوله : « فرجعت حتى إذا كان الحول أو نحوه ، خرج أهل النهر » ، أنّ الحرب التي كانت بين عليّ وأهل خُرُوراء كانت في السنة التي بعد السنة التي كان فيها إنكار أهل خُرُوراء على علي التحكيم ، وكان ابتداء ذلك في سنة سبع وثلاثين على ما قد ثبت قبل ، وإذا كان كذلك ، وكان الأمر على ما روينا من الخبر عن أبي مريم ، كان معلوماً أنّ الوقعة كانت بينه وبينهم في سنة ثمان وثلاثين .

وذكر علي بن محمد ، عن عبدالله بن ميمون ، عن عمرو بن شَجيرة ، عن جابر ، عن الشعبي ، قال : بعث عليّ بعدما رجع من صِفِّين جَعْدَةَ بن هبيرة المخزومي ، وأمّ جعدة أمّ هانئ بنت أبي طالب - إلى خُرَاسان ، فانتَهى إلى أبرشهر وقد كَفَرُوا وامتنعوا ، فقدم على علي ، فبعث خُليد بن قرة اليربوعي فحاصر أهل نيسابور حتى صالحوه ، وصالحه أهل مرو .

وحجّ بالناس في هذه السنة - أعني سنة سبع وثلاثين - عبيد الله بن عباس ، وكان عامل عليّ على اليَمَن ومخاليفها . وكان على مكة والطائف قُثم بن العباس ، وعلى المدينة سهل بن حُنَيْف الأنصاري ، وقيل : كان عليها تمام بن العباس . وكان على البصرة عبدالله بن العباس ، وعلى قضائها أبو الأسود الدُّؤليّ ، وعلى مصر محمد بن أبي بكر ، وعلى خُرَاسان خُليد بن قرة اليربوعي .

وقيل : إن عليّاً لما شخص إلى صِفِّين استخلف على الكوفة أبا مسعود الأنصاري ، حدّثني أحمد بن إبراهيم الدُّورقي ، قال : حدّثنا عبد الله بن إدريس ، قال : سمعتُ ليثاً ذكر عن عبد العزيز بن رُفيع ، أنه لما خرج عليّ إلى صِفِّين استخلف على الكوفة أبا مسعود الأنصاريّ عقبة بن عمرو . وأمّا الشام فكان بها معاوية بن أبي سفيان .

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ذكر ما كان فيها من الأحداث

فما كان فيها مَقْتَلُ مُحَمَّد بن أبي بكر بمصر ، وهو عاملٌ عليها ، وقد ذكرنا سببَ تولية عليٍّ إياه مصر ، وعزل قيس بن سعد عنها ، ونذكر الآن سببَ قتله ، وأين قتل ؟ وكيف كان أمره ؟ ونبدأ بذكر من تَمَّة حديث الزَّهْرِيِّ الذي قد ذكرنا أوله قبل ، وذلك ما حَدَّثنا عبدالله ، عن يونس ، عن الزَّهْرِيِّ ، قال : لما حَدَّث قيس بن سعد بمجيء محمد بن أبي بكر ، وأنه قادم عليه أميراً ، تلقَّاه وخلاً به وناجاه ، فقال : إنك -بَشَتْ من عند امرئ لا رأي له ، وليس عَزْلُكم إلَيَّيَّ بمانعي أن أنصح لكم ، وأنا من أمرِكم هذا على بصيرة ، وإني في ذلك على الذي كنت أكيد به معاوية وعمراً وأهل خِزْبَتنا ، فكأيدهم به ، فلأنك إن تكأيدهم بغيره تَهْلِك . ووصف قيس بن سعد المكايدة التي كان يكأيدهم بها ، واغتنشه محمد بن أبي بكر ، وخالف كل شيء أمره به . فلما قدم محمد بن أبي بكر وخرج قيس قبل المدينة بعث محمد أهل مصر إلى خِزْبَتنا ، فاقتلوا ، فهزِم محمد بن أبي بكر ، فبلغ ذلك معاوية وعمراً ، فساروا بأهل الشام حتى افتتحوا مصر ، وقتلوا محمد بن أبي بكر ، ولم تزل في حِيْز معاوية ، حتى ظهر . وقدم قيس بن سعد المدينة ، فأخافه مروان والأسود بن أبي البَخْتَرِيِّ ، حتى إذا خاف أن يؤخذ أو يُقْتَل ركب راحلته ، وظهر إلى علي . فكتب معاوية إلى مروان والأسود يتغيظ عليهما ويقول : أمددتما علياً بقيس بن سعد ورأيه ومكأيده ، فوالله لو أنكما أمددتماه بمائة ألف مقاتل ما كان بأغيظ إليَّ من إخراجكما قيس بن سعد إلى علي . فقدم قيس بن سعد على علي ، فلما بائه الحديث ، وجاءهم قتل محمد بن أبي بكر ، عرف أن قيس بن سعد كان يوازي أموراً عظماً من المكايدة ، وأن من كان يشير عليه بعزل قيس بن سعد لم ينصح له .

وأما ما قال في ابتداء أمر محمد بن أبي بكر في مصيره إلى مصر وولايته إياها أبو مخنف ، فقد تقدّم ذكرنا له ، ونذكر الآن بقية خبره في روايته ما روى من ذلك عن يزيد بن ظبيان الهمداني ، قال : ولما قتل أهل خِزْبَتنا ابن مضاهم الكلبي الذي وجهه إليهم محمد بن أبي بكر ، خرج معاوية بن حُديج الكندي ثم السُّكُونِي ، فدعا إلى الطالب بدم عثمان ، فأجابه ناس آخرون ، وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر ، فبلغ علياً وثوب أهل مصر على محمد بن أبي بكر ، واعتمادهم إياه ، فقال : ما لمصر إلا أحد الرجلين ! صاحبنا الذي عزلناه عنها - يعني قيساً - أو مالك بن الحارث - يعني الأشتر . قال : وكان علي حين انصرف من صِفِّين ردة الأشتر على عمله بالجزيرة ، وقد كان قال لقيس بن سعد : أقم معي على شُرْطِي حتى نفرغ من أمر هذه الحكومة ، ثم أخرج إلى أذربيجان ؛ فإن قيساً مقيم مع علي على شُرْطته . فلما انقضى أمر الحكومة كتب علي

إلى مالك بن الحارث الأشتر ، وهو يومئذ بنصيبين : أما بعد ، فإنك ممن استظهرته على إقامة الدين ، وأقمع به نخوة الأئيم ، وأشد به الثغر المخوف . وكنت وليت محمد بن أبي بكر مصر ، فخرجت عليه بها خوارج ، وهو غلامٌ حَدَثَ ليس بذي تجربة للحرب ، ولا بمجرب للأشياء ، فاقدم علي لسنظر في ذلك فيما ينبغي ، واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من أصحابك . والسلام .

فأقبل مالك إلى علي حتى دخل عليه ، فحدثه حديث أهل مصر ، وخبره خبر أهلها ، وقال : ليس لها غيرك ، أخرج رجمك الله ! فإني إن لم أوصيك اكتفيت برأيك . واستعين بالله على ما أمرك ، فاخلط الشدة باللين ، وارفق ما كان الرفق أبغ ، واعتزم بالشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة .

قال : فخرج الأشتر من عند علي فأتى رحله ، فتهيأ للخروج إلى مصر ، وأتت معاوية عيونه ، فأخبروه بولاية علي الأشتر ، فعظم ذلك عليه ، وقد كان طمع في مصر ، فعلم أن الأشتر إن قدمها كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر ، فبعث معاوية إلى الجليستار - رجل من أهل الخراج - فقال له : إن الأشتر قد ولي مصر ، فإن أنت كفتيته لم آخذ منك خراجاً ما بقيت ، فاحتل له بما قدرت عليه . فخرج الجليستار حتى أتى القلزم وأقام به ، وخرج الأشتر من العراق إلى مصر ، فلما انتهى إلى القلزم استقبله الجليستار ، فقال : هذا منزل ، وهذا طعامٌ وعَلَفٌ ، وأنا رجلٌ من أهل الخراج ، فنزل به الأشتر ، فأتاه الدهقان بعَلَفٍ وطعام ، حتى إذا طعم أتاها بشربة من عسل قد جعل فيها سماً فسقاه إياه ، فلما شربها مات . وأقبل معاوية يقول لأهل الشام : إن علياً وجه الأشتر إلى مصر ، فادعوا الله أن يكفيكموه . قال : فكانوا كل يوم يذعون الله على الأشتر ، وأقبل الذي سقاه إلى معاوية فأخبره بمهلك الأشتر ، فقام معاوية في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : أما بعد ، فإنه كانت لعلي بن أبي طالب يدان يمينان ، قطعت إحداهما يوم صفين - يعني عمار بن ياسر - وقطعت الأخرى اليوم - يعني الأشتر .

قال أبو مخنف : حدثني فضيل بن خديج ، عن مولى للأشتر ، قال : لما هلك الأشتر وجدنا في ثقله رسالة علي إلى أهل مصر :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله علي أمير المؤمنين إلى أمة المسلمين الذين غضبوا الله حين عصي في الأرض ، وضرب الجور بأرواقه على البر والفاجر ، فلا حق يُستراح إليه ، ولا منكر يُتناهى عنه . سلام عليكم ، فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو . أما بعد فقد بعثت إليكم عبداً من عبيد الله لا ينال أيام الخوف ، ولا ينكل عن الأعادي جذار الدوائر ، أشد على الكفار من حريق النار ، وهو مالك بن الحارث أخو مدحج ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فإنه سيفٌ من سيوف الله ، لا نأى الضريبة ، ولا كليل الحد ، فإن أمركم أن تقدموا فأقدموا ، وإن أمركم أن تنفروا فانفروا ، فإنه لا يقدم ولا يُججم إلا بأمرى ، وقد آثرتكم به على نفسي لنصيحه لكم ، وشدة شكيمته على عدوكم ، عصمكم الله بالهدى ، وثبتكم على اليقين . والسلام .

قال : ولما بلغ محمد بن أبي بكر أن علياً قد بعث الأشتر شق عليه ، فكتب علي إلى محمد بن أبي بكر عند مهلك الأشتر ، وذلك حين بلغه موجدة محمد بن أبي بكر لقدم الأشتر عليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله علي أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر ، سلام عليك ، أما بعد ؛ فقد بلغني موجدتك

من تسريحي الأشر إلى عمليكَ ، وإني لم أفعل ذلك استبطاءً لك في الجهاد ، ولا ازدياداً مني لك في الجِدِّ ، ولو نزعْتُ ما تحت يديكَ من سلطانك لوليتُك ما هو أيسرُ عليك في المثونة ، وأعجب إليك ولايةٌ منه . إنَّ الرجل الذي كنتَ وليته مصرَ كان لنا نصيحاً ، وعلى عدونا شديداً ، وقد استكمل أيامه ، ولاقى حِمَامَه ، ونحن عنه راضون ، فرضي الله عنه ، وضاعفَ له الثواب ، وأحسنَ فله المآب . اصبر لعدوك ، وشمر للحرب ، وادعُ إلى سبيلِ ربِّك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأكثر ذكرَ الله ، والاستعانة به ، والخوف منه ، يَكْفِيكَ ما أمَّكَ ، ويُعِينكَ على ما ولَّاكَ ، أعاننا الله وإياكَ على ما لا يُنال إلاَّ برحمته . والسلام عليك .

فكتب إليه محمد بن أبي بكر جواب كتابه :

بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عليُّ أمير المؤمنين من محمد بن أبي بكر، سلامٌ عليك ، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله غيره ، أما بعد ، فإني قد انتهيتُ إليَّ كتابُ أمير المؤمنين ، ففهِمته وعرفتُ ما فيه ، وليس أحد من الناس بأرضي مني برأي أمير المؤمنين ، ولا أجهد على عدوه ، ولا أراف بوليهِ مني ، وقد خرجتُ فعسكرتُ ، وأمَّنتُ الناس إلاَّ من نَصَبَ لنا حرباً ، وأظهر لنا خلافاً ، وأنا متَّبِعُ أمرَ أمير المؤمنين وحافظه ، وملتجئٌ إليه ، وقائمٌ به ، والله المستعان على كلِّ حال ، والسلام عليك .

قال أبو مخنف: حدَّثني أبو جَهْضَم الأزدِي - رجل من أهل الشام - عن عبد الله بن حوالة الأزدي ، أنَّ أهل الشام لما انصرفوا من صِفِّين كانوا ينتظرون ما يأتي به الحَكَمَان ، فلما انصرفا وتفرقا بايع أهل الشام معاوية بالخلافة ، ولم يزد إلاَّ قوَّة ، واختلف الناس بالعراق على علي ، فما كان لمعاوية همٌّ إلاَّ مصر ، وكان لأهلها هائباً خائفاً ، لقرههم منه ، وشدَّتْهم على من كان على رأي عثمان ، وقد كان على ذلك عليم أن بها قوماً قد ساءهم قتل عثمان ، وخالفوا علياً ، وكان معاوية يرجو أن يكون إذا ظهر عليها ظهر على حرب علي ، لعظم خراجها . قال : فدعا معاوية من كان معه من قريش : عمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة وبُسْر بن أبي أرطاة والضحاك بن قيس وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ؛ ومن غيرهم أبا الأعور عمرو بن سفيان السُّلَميَّ وحزرة بن مالك الهَمْداني ، وشُرَحْبِيل بن السَّمْط الكندي فقال لهم : أتدرون لم دعوتكم ؟ إني قد دعوتكم لأمرٍ مُهمٍّ أحبُّ أن يكون الله قد أعانَ عليه ، فقال القوم كلهم - أو من قال منهم : إنَّ الله لم يُطْلِع على الغيب أحداً ، وما يُدْرِينا ما تُريد ! فقال عمرو بن العاص : أرى والله أمر هذه البلاد الكثير خراجها ، والكثير عُدُّها وعدد أهلها ، أمَّكَ أمرها ، فدعوتنا إذا لتسألنا عن رأينا في ذلك ، فإن كنتَ لذلك دعوتنا ، وله جمعتنا ، فاعزم وأقِمْ ، ونعم الرأي رأيتُ ! ففي افتتاحها عزُّكَ وعزُّ أصحابك ، وكَبَّتْ عدوك ، وذللَّ أهل الخلاف عليك . قال له معاوية مجيباً : أمَّكَ يا بن العاص ما أمَّكَ - وذلك لأنَّ عمرو بن العاص كان صالح معاوية حين بايعه على قتال علي بن أبي طالب ، على أنَّ له مصرَ طُعْمَةً ما بقي - فأقبل معاوية على أصحابه فقال : إنَّ هذا - يعني عمرواً - قد ظنَّ ثم حَقَّق ظنَّه ، قالوا له : لكننا لا ندري ؛ قال معاوية : فإنَّ أبا عبد الله قد أصاب ، قال عمرو : وأنا أبو عبد الله ؛ قال : إنَّ أفضلَ الظُّنون ما أشبهه اليقين .

ثم إنَّ معاوية حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فقد رأيتُم كيف صنع الله بكم في حربكم عدوكم ، جاؤوكم وهم لا يرون إلاَّ أنهم سيقضون بِيضتكم ، ويُخربون بلادكم ، ما كانوا يرون إلاَّ أنكم في أيديهم ، فردَّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً مما أحبُّوا ، وحاكَمناهم إلى الله ، فحكم لنا عليهم . ثم جمع لنا

كلمتنا ، وأصلح ذات بيننا ، وجعلهم أعداء متفرقين يشهد بعضهم على بعض بالكفر ، ويسفك بعضهم دم بعض . والله إني لأرجو أن يتم لنا هذا الأمر ، وقد رأيت أن نحاول أهل مصر ، فكيف ترون ارتثاءنا لها ! فقال عمرو : قد أخبرتك عما سألتني عنه ، وقد أشرت عليك بما سمعت ؛ فقال معاوية : إن عمراً قد عزم وصرم ، ولم يفسر ، فكيف لي أن أصنع ! قال له عمرو : فإني أشير عليك كيف تصنع ، أرى أن تبعث جيشاً كثيفاً ، عليهم رجل حازم صارم تأمنه وتثق به ، فيأتي مصر حتى يدخلها ، فإنه سيأتيه من كان من أهلها على رأينا فيظاهره على من بها من عدونا ، فإذا اجتمع بها جندك ومن بها من شيعتك على من بها من أهل حربك ، رجوت أن يعين الله بنصرك ، ويظهر فلجك . قال له معاوية : هل عندك شيء دون هذا يعمل به فيما بيننا وبينهم ؟ قال : ما أعلمه ، قال : بلى ، فإن غير هذا عندي ، أرى أن نكتب من بها من شيعتنا ، ومن بها من أهل عدونا ، فأما شيعتنا فأمرهم بالثبات على أمرهم ، ثم أمنئهم قدومنا عليهم ، وأما من بها من عدونا فندعوهم إلى صلحنا ، ونمنئهم شكرنا ، ونخوفهم حربنا ، فإن صلح لنا ما قبلهم بغير قتال فذاك ما أحببنا ، وإلا كان حربهم من وراء ذلك كله . إنك يابن العاص امرؤ بورك لك في العجلة ، وأنا امرؤ بورك لي في التؤدة ؛ قال : فاعمل بما أراك الله ، فوالله ما أرى أمرك وأمرهم يصير إلا إلى الحرب العوان . قال : فكتب معاوية عند ذلك إلى مسلمة بن مخلد الأنصاري وإلى معاوية بن حديج الكندي - وكانا قد خالفا علياً : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن الله قد ابتعثكما لأمر عظيم أعظم به أجركما ، ورفع به ذكركما ، وزينكما به في المسلمين ؛ طلبكما بدم الخليفة المظلوم ، وغضبكما لله إذ ترك حكم الكتاب ، وجاهدتما أهل البغي والعدوان ، فأبشروا برضوان الله ، وعاجل نصر أولياء الله ، والمواساة لهما في الدنيا وسلطاننا حتى ينتهي في ذلك ما يرضيكما ، ونؤتي به حقكما إلى ما يصير أمركما إليه . فاصبروا وصابروا عدوكم ، وادعوا المدبر إلى هداكما وحفظكما ، فإن الجيش قد أضل عليكم ، فانقشع كل ما تكرهان ، وكان كل ما تهويان ؛ والسلام عليكما .

وكتب هذا الكتاب وبعث به مع مولى له يقال له سبيع .

فخرج الرسول بكتابه حتى قدم عليهما مصر ومحمد بن أبي بكر أميرها ، وقد ناصب هؤلاء الحرب بها ، وهو غير متخون بهايوم الإقدام عليه . فدفع كتابه إلى مسلمة بن مخلد وكتاب معاوية بن حديج ، فقال مسلمة : امض بكتاب معاوية إليه حتى يقرأه ، ثم القني به حتى أجيبه عني وعنه ، فانطلق الرسول بكتاب معاوية بن حديج إليه ، فأقرأه إياه ، فلما قرأه قال : إن مسلمة بن مخلد قد أمرني أن أرد إليه الكتاب إذا قرأته لكي يجيب معاوية عنك وعنه . قال : قل له فليفعل ؛ ودفع إليه الكتاب ، فاتاه . ثم كتب مسلمة عن نفسه وعن معاوية بن حديج : أما بعد ، فإن هذا الأمر الذي بذلنا له نفسنا ، واتبعنا أمر الله فيه ، أمر نرجو به ثواب ربنا ، والنصر ممن خالفنا ، وتعجيل النعمة لمن سعى على إمامنا ، وطأطأ الركض في جهادنا ، ونحن بهذا الحيز من الأرض قد نفينا من كان به من أهل البغي ، وأنهضنا من كان به من أهل القسط والعدل ، وقد ذكرت المواساة في سلطانك ودنياك ، وبالله إن ذلك لأمر ما له نهضنا ، ولا إياه أردنا ، فإن يجمع الله لنا ما نطلب ، ويؤتنا ما تمئنا ، فإن الدنيا والآخرة لله رب العالمين ، وقد يؤتيهما الله معاً عالماً من خلقه ، كما قال في كتابه ، ولا خلف لموعوده ، قال : **هـ** فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُجِيبُ

المُحْسِنِينَ ﴿١﴾ ، عَجَّلْ عَلَيْنَا خَيْلَكَ وَرَجُلَكَ ، فَإِنَّ عَدُوَّنَا قَدْ كَانَ عَلَيْنَا حَرْبًا ، وَكُنَّا فِيهِمْ قَلِيلًا ، فَقَدْ أَصْبَحُوا لَنَا هَائِثِينَ ، وَأَصْبَحْنَا لَهُمْ مَقْرِنِينَ ، فَإِنْ يَأْتِنَا اللَّهُ بِمَدَدٍ مِنْ قِبَلِكَ يَفْتَحِ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ؛ وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ .

قال : فجاءه هذا الكتاب وهو يومئذٍ بفلسطين ، فدعا النَّفَرَ الَّذِينَ سَمَّاهُمْ فِي الْكِتَابِ فَقَالَ : مَاذَا تَرُونَ ؟ قَالُوا : الرَّأْيُ أَنْ تَبْعَثَ جُنْدًا مِنْ قِبَلِكَ ، فَإِنَّكَ تَفْتَحُهَا بِإِذْنِ اللَّهِ . قَالَ معاوية : فَتَجَهَّزْ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِلَيْهَا - يَعْنِي عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ - قَالَ : فَبَعَثَهُ فِي سِتَّةِ آلَافِ رَجُلٍ ، وَخَرَجَ معاوية وودَّعه وقال له عند وداعه إِيَّاهُ : أَوْصِيكَ يَا عَمْرُو بِتَقْوَى اللَّهِ وَالرَّفْقِ فَإِنَّهُ يُنْجِي ، وَبِالْمَهْلِ وَالتُّؤَدَةِ ، فَإِنَّ الْعَجَلَةَ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَبِأَنْ تَقَبَلَ مَنْ أَقْبَلَ ، وَأَنْ تَعْفُو عَمَّنْ أَدْبَرَ ، فَإِنْ قَبَلَ فَبِهَا وَنِعْمَتْ ، وَإِنْ أَبَى فَإِنَّ السُّطُوءَ بَعْدَ الْمَعْدِرَةِ أَبْلَغُ فِي الْحِجَّةِ ، وَأَحْسَنُ فِي الْعَاقِبَةِ ، وَادْعُ النَّاسَ إِلَى الصِّلَحِ وَالْجَمَاعَةِ ، فَإِذَا أَنْتَ ظَهَرْتَ فَلْيَكُنْ أَنْصَارُكَ آثَرُ النَّاسِ عِنْدَكَ ، وَكُلُّ النَّاسِ فَأُولَئِكَ حُسْنًا . قَالَ : فَخَرَجَ عَمْرُو يَسِيرُ حَتَّى نَزَلَ أَدْنَى أَرْضِ مِصْرَ ، فَاجْتَمَعَتِ الْعُثْمَانِيَّةُ إِلَيْهِ ، فَأَقَامَ بِهِمْ ، وَكَتَبَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ :

أما بعد ، ففتحني عني بدمك يا بن أبي بكر ، فَإِنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ يَصِيبَكَ مِنْي ظَفَرٌ ، إِنْ النَّاسُ بِهَذِهِ الْبِلَادِ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى خِلَافِكَ ، وَرَفَضَ أَمْرِكَ ، وَنَدِمُوا عَلَى اتِّبَاعِكَ ، فَهَمُّ مُسْلِمٍ لَوْ قَدْ التَّقَتْ حَلَقَتَا الْبِطَانِ ، فَاخْرَجَ مِنْهَا ، فَإِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ؛ وَالسَّلَامُ .

وبعث إليه عمرو أيضاً بكتاب معاوية إليه :

أما بعد ، فَإِنَّ غَبَّ الْبَغْيِ وَالظُّلْمِ عَظِيمَ الْوَابِلِ ، وَإِنَّ سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ لَا يَسْلَمُ صَاحِبُهُ مِنَ النَّقْمَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَمِنَ التَّبِعَةِ الْمَوْبِقَةِ فِي الْآخِرَةِ ، وَإِنَّا لَا نَعْلَمُ أَحَدًا كَانَ أَعْظَمَ عَلَى عُثْمَانَ بَغْيًا ، وَلَا أَسْوَأَ لَهُ عَيْبًا ، وَلَا أَشَدَّ عَلَيْهِ خِلَافًا مِنْكَ ؛ سَعَيْتَ عَلَيْهِ فِي السَّاعِينَ ، وَسَفَكْتَ دَمَهُ فِي السَّافِكِينَ ، ثُمَّ أَنْتَ تَظُنُّ أَنِّي عَنْكَ نَائِمٌ أَوْ نَاسٍ لَكَ ، حَتَّى تَأْتِيَ فَتَأْمُرَ عَلَى بِلَادِ أَنْتَ فِيهَا جَارِي ، وَجُلَّ أَهْلِهَا أَنْصَارِي ، يَرَوْنَ رَأْيِي ، وَيَرْقُبُونَ قَوْلِي ، وَيَسْتَصْرِخُونِي عَلَيْكَ . وَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكَ قَوْمًا جِنَاقًا عَلَيْكَ ، يَسْتَسْقُونَ دَمَكَ ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ بِجَهَادِكَ ، وَقَدْ أَعْطَاكَ اللَّهُ عَهْدًا لِيُمَثِّلَنَّ بِكَ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ إِلَيْكَ مَا عَدَا قَتْلُكَ مَا حَدَّرْتُكَ وَلَا أَنْذَرْتُكَ ، وَلَا حُبِّتُ أَنْ يَقْتُلُوكَ بِظُلْمِكَ وَقَطِيعَتِكَ وَعَدُوِّكَ عَلَى عُثْمَانَ يَوْمَ يُطْعَنَ بِمِشَاقِصِكَ بَيْنَ خُشْشَائِهِ وَأَوْدَاجِهِ ، وَلَكِنْ أَكْرَهَ أَنْ أُمَثِّلَ بِقَرَشِيٍّ ، وَلَنْ يُسَلِّمَكَ اللَّهُ مِنَ الْقَصَاصِ أَبَدًا أَيْنَمَا كُنْتَ . وَالسَّلَامُ .

قال : فطوى محمد كتابيهما ، وبعث بهما إلى علي ، وكتب معهما :

أما بعد ، فَإِنَّ ابْنَ الْعَاصِ قَدْ نَزَلَ أَدْنَى أَرْضِ مِصْرَ ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ أَهْلُ الْبِلَادِ جُلُومٌ مِمَّنْ كَانَ يَرَى رَأْيَهُمْ ، وَقَدْ جَاءَ فِي جَيْشٍ لَجِبَ خُرَابٍ ، وَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ قِبَلِي بَعْضَ الْفُشْلِ ، فَإِنْ كَانَ لَكَ فِي أَرْضِ مِصْرَ حَاجَةٌ فَأَمْدَنِي بِالرِّجَالِ وَالْأَمْوَالِ ؛ وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ .

فكتب إليه علي :

أما بعد ، فقد جاءني كتابك تذكر أن ابن العاص قد نزل بأداني أرض مصر في لجب من جيشه خراب ، وإن من كان بها على مثل رأيه قد خرج إليه ، وخروج من يرى رأيه إليه خير لك من إقامتهم عندك . وذكرت أنك قد رأيت في بعض من قبلك فشلاً ، فلا تفشل ، وإن فشلوا فحضر قرينك ، واضم إليك شيعتك ، وانذب إلى القوم كنانة بن بشر المعروف بالنصيحة والنجدة والبأس ، فلما نادى إليك الناس على الصعب والدلول ، فاصبر لعدوك ، وامض على بصيرتك ، وقاتلهم على نيتك ، وجاهدهم صابراً محتسباً ، وإن كانت فتك أقل الفتين ؛ فإن الله قد يعز القليل ، ويخذل الكثير . وقد قرأت كتاب الفاجر ابن الفاجر معاوية ، والفاجر ابن الكافر عمرو ، المتحايين في عمل المعصية ، والمتوافقين المرتشيين في الحكومة ، المنكرين في الدنيا ، قد استمتعوا بخلاقهم كما استمتع الذين من قبلهم بخلاقهم ، فلا يهلك إرعاذهما وإبراقهما ، وأجبهما إن كنت لم تجبهما بما هما أهله ، فإنك تجد مقالاً ما شئت ؛ والسلام .

قال أبو مخنف: فحدثني محمد بن يوسف بن ثابت الأنصاري ، عن شيخ من أهل المدينة ، قال : كتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية بن أبي سفيان جواب كتابه :

أما بعد ، فقد أتاني كتابك تذكرني من أمر عثمان أمراً لا أعتذر إليك منه ، وتأمرني بالتحني عنك كأنك لي ناصح ، وتخوفني المثلة كأنك شفيق ، وأنا أرجو أن تكون لي الدائرة عليكم ، فأجتاحكم في الوقعة ، وإن توتوا النصر ويكن لكم الأمر في الدنيا ، فكم لعمري من ظالم قد نصرتم ، وكم من مؤمن قتلتم ومثلتم به ! وإلى الله مصيركم ومصيرهم ، وإلى الله مرّة الأمور ، وهو أرحم الراحمين ، والله المستعان على ما تصفون . والسلام .

وكتب محمد إلى عمرو بن العاص :

أما بعد ، فقد فهمت ما ذكرت في كتابك يا بن العاص ، زعمت أنك تكره أن يصيبني منك ظفر ، وأشهد أنك من المبطلين . وتزعم أنك لي نصيح ، وأقسم أنك عندي ظنين ، وتزعم أن أهل البلد قد رفضوا رأيي وأمري ، ونديموا على أتباعي ، فأولئك لك وللشيطان الرجيم أولياء ، فحسبنا الله رب العالمين ، وتوكلنا على الله رب العرش العظيم ؛ والسلام .

قال : أقبل عمرو بن العاص حتى قصد مصر ، فقام محمد بن أبي بكر في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ، ثم قال : أما بعد معاشر المسلمين والمؤمنين ، فإن القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمه ، وينعشون الضلال ، ويشبهون نار الفتنة ، ويتسلطون بالجبرية ، قد نصبوا لكم العداوة ، وساروا إليكم بالجنود . عباد الله ! فمن أراد الجنة والمغفرة فليخرج إلى هؤلاء القوم فليجاهدكم في الله ؛ انتدبوا إلى هؤلاء القوم رحمكم الله مع كنانة بن بشر .

قال : فانتدب معه نحو من ألفي رجل ، وخرج محمد في ألفي رجل ، واستقبل عمرو بن العاص كنانة وهو على مقدمة محمد ، فأقبل عمرو نحو كنانة ، فلما دنا من كنانة سرح الكتاب كتيبة بعد كتيبة ، فجعل كنانة لا تأتيه كتيبة من كتاب أهل الشام إلا شدد عليها بمن معه ، فيضربها حتى يقرها لعمرو بن العاص . ففعل ذلك مراراً ؛ فلما رأى ذلك عمرو بعث إلى معاوية بن حذيج السكوني ، فاتاه في مثل

الذَّهْم ، فأحاط بكنانة وأصحابه ، واجتمع أهل الشام عليهم من كلِّ جانب ، فلما رأى ذلك كنانة بن بشر نزل عن فرسه ، ونزل أصحابه وكنانة يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ (١) . فصار بهم بسيفه حتى استشهد رحمه الله .

وأقبل عمرو بن العاص نحو محمد بن أبي بكر ، وقد تفرَّق عنه أصحابه لما بلغهم قتل كنانة ، حتى بقي وما معه أحد من أصحابه . فلما رأى ذلك محمد خرج يمشي في الطريق حتى انتهى إلى خربة في ناحية الطريق ، فأوى إليها ، وجاء عمرو بن العاص حتى دخل الفسطاط ، وخرج معاوية بن حُذَيْج في طلب محمد حتى انتهى إلى علوج في قارعة الطريق ، فسألهم : هل مرَّ بكم أحد تنكرونه؟ فقال أحدهم : لا والله ، إلا أني دخلت تلك الخربة ، فإذا أنا برجل فيها جالس ، فقال ابن حُذَيْج : هو هو ورب الكعبة ؛ فانطلقوا يركضون حتى دخلوا عليه ، فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً ؛ فأقبلوا به نحو فسطاط مصر . قال : ووثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص - وكان في جنده فقال : أنقتل أخي صبراً ! ابعث إلى معاوية بن حُذَيْج فأنه ، فبعث إليه عمرو بن العاص يأمره أن يأتيه بمحمد بن أبي بكر ، فقال معاوية : أكذاك ! قتلتم كنانة بن بشر وأخلي أنا عن محمد بن أبي بكر ! هيهات ، ﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ (٢) . فقال لهم محمد : اسقوني من الماء ، قال له معاوية بن حُذَيْج : لا سقاها الله إن سقاك قطرة أبداً ! إنكم منعتُم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائماً مُحَرِّماً ، فتلقاه الله بالرحيق المختوم ، والله لأقتلنك بآبَن أبي بكر فيسقيك الله الحميم والغساق ! قال له محمد : يا بن اليهودية السَّاجَة ، ليس ذلك إليك وإلى من ذكرت ، إنما ذلك إلى الله عزَّ وجلَّ يسقي أوليائه ، ويُظيئ أعداءه ؛ أنتَ وضرباؤك ومن تولاه ، أما والله لو كان سيفي في يدي ما بلغت مني هذا ؛ قال له معاوية : أتدري ما أصنع بك؟ أدخلك في جوف حمار ، ثم أحرِّقه عليك بالنار ؛ فقال له محمد : إن فعلتم بي ذلك ، فطالما فعل ذلك بأولياء الله ! وإنني لأرجو هذه النار التي تُحْرِقني بها أن يجعلها الله عليّ برداً وسلاماً كما جعلها على خليله إبراهيم ، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك كما جعلها على نمرود وأوليائه ، إن الله يحرقك ومن ذكرته قبل وإمامك - يعني معاوية ، وهذا - وأشار إلى عمرو بن العاص - بنار تلظى عليكم ؛ كلِّمًا خَبَتْ زادها الله سعيراً . قال له معاوية : إني إنما أقتلك بعثمان ؛ قال له محمد : وما أنتَ وعثمان ! إنَّ عثمانَ عَمِلَ بالجور ، ونَبَذَ حَكَمَ القرآن ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٣) ، فنقمنا ذلك عليه فقتلناه ، وحسنت أنتَ له ذلك ونظراؤك ، فقد برأنا الله إن شاء الله من ذنبه ، وأنتَ شريكه في إثمه وعظم ذنبه ، وجاعلك على مثاله . قال : فغضب معاوية فقدمه فقتله ، ثم ألقاه في جيفة حمار ، ثم أحرقه بالنار ؛ فلما بلغ ذلك عائشة جرعت عليه جزعاً شديداً ، وقَتَّت عليه في دُبر الصلاة بدعو على معاوية وعمرو ، ثم قبضت عيالَ محمد إليها ، فكان القاسم بن محمد بن أبي بكر في عيالها .

(١) سورة آل عمران : ١٤٥ .

(٢) سورة القمر : ٤٣ .

(٣) سورة المائدة : ٤٧ .

وأما الواقدي فإنه ذكر لي أن سويد بن عبدالعزيز حدثه عن ثابت بن عجلان ، عن القاسم بن عبدالرحمن ، أن عمرو بن العاص خرج في أربعة آلاف ، فيهم معاوية بن حذيج ، وأبو الأعور السلمي ، فالتقوا بالمسناة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، حتى قتل كنانة بن بشر بن عتاب التميمي ، ولم يجد محمد بن أبي بكر مقاتلاً ، فانهزم ، فاختبأ عند جبلة بن مسروق ، فدل عليه معاوية بن حذيج ، فأحاط به ، فخرج محمد فقاتل حتى قتل .

قال الواقدي : وكانت المسناة في صفر سنة ثمان وثلاثين ، وأدرك في شعبان منها في عام واحد .

رجع الحديث إلى حديث أبي مخنف . وكتب عمرو بن العاص إلى معاوية عند قتله محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر :

أما بعد ، فلما لقينا محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر في جموع جمّة من أهل مصر ، فدعوناهم إلى الهدى والسنة وحكم الكتاب ، فرفضوا الحق ، وتوركو في الضلال ، فجاهدناهم ، واستنصرنا الله عليهم ، فضرب الله وجوههم وأدبارهم ، ومنحونا أكتافهم ، فقتل الله محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر وأمائل القوم ، والحمد لله رب العالمين ، والسلام عليك .

وفيها قتل محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

ذكر الخبر عن مقتله :

اختلف أهل السير في وقت مقتله ؛ فقال الواقدي : قتل في سنة ست وثلاثين . قال : وكان سبب قتله أن معاوية وعمراً سارا إليه وهو بمصر قد ضبطها ، فنزلا بعين شمس ، فعالجا الدخول ، فلم يقدرا عليه ، فخدعا محمد بن أبي حذيفة على أن يخرج في ألف رجل إلى العريش ، فخرج وخلف الحكم بن الصلت على مصر ، فلما خرج محمد بن أبي حذيفة إلى العريش تحصن ، وجاء عمرو فنصب المجانيق حتى نزل في ثلاثين من أصحابه ، فأنجلدوا فقتلوا . قال : وذلك قبل أن يبعث علي إلى مصر قيس بن سعد .

وأما هشام بن محمد الكلبي فإنه ذكر أن محمد بن أبي حذيفة إنما أخذ بعد أن قتل محمد بن أبي بكر ودخل عمرو بن العاص مصر وغلب عليها ، وزعم أن عمراً لما دخل هو وأصحابه مصر أصابوا محمد بن أبي حذيفة ، فبعثوا به إلى معاوية وهو بفلسطين ، فحبسه في سجن له ، فمكث فيه غير كثير ، ثم إنه هرب من السجن . وكان ابن خال معاوية - فأرى معاوية الناس أنه قد كره انفلاته ، فقال لأهل الشام : من يطلبه ؟ قال : وقد كان معاوية يحب فيما يرون أن ينجو ، فقال رجل من خشمهم - يقال له عبدالله بن عمرو بن ظلام ، وكان رجلاً شجاعاً ، وكان عثمانياً : أنا أطلبه فخرج في حالة حتى لحقه بأرض البلقاء بخوران وقد دخل في غار هناك ، فجاءت حمير تدخله ، وقد أصابها المطر ، فلما رأت الحمير الرجل في الغار فزعرت ، فنفرت ، فقال حصائدون كانوا قريباً من الغار : والله إن لنفّر هذه الحمير من الغار لشأناً . فذهبوا لينظروا ، فإذا هم به ، فخرجوا ، ويوافقهم عبدالله بن عمرو بن ظلام الخثعمي ، فسألهم عنه ، ووصفهم لهم ، فقالوا له : ها هو ذا في الغار ؛ قال : فجاء حتى استخرجه ، وكره أن يرجعه إلى معاوية فيخلى سبيله . فضرب عنقه .

قال هشام ، عن أبي مخنف : قال : وحدثني الحارث بن كعب بن فقيم ، عن جندب ، عن عبدالله بن

فقيم ، عمّ الحارث بن كعب . . . يستصرخ من قبل محمد بن أبي بكر إلى علي - ومحمد يومئذ أميرهم - فقام علي في الناس وقد أمر فتودّي : الصلّة جامعة ! فاجتمع الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد ﷺ ، ثم قال : أمّا بعد ، فإنّ هذا صريخُ محمد بن أبي بكر وإخوانكم من أهل مصر ، قد سار إليهم ابن النّابغة عدوّ الله ، ووليّ من عادى الله ، فلا يكوننّ أهل الضلال إلى باطلهم والركون إلى سبيل الطاغوت أشدّ اجتماعاً منكم على حقكم هذا ، فإنهم قد بدؤوكم وإخوانكم بالغزو ، فاعجلوا إليهم بالمؤاساة والنصر . عباد الله ، إنّ مصر أعظم من الشام ، أكثر خيراً ، وخيراً أهلاً ، فلا تغلبوا على مصر ، فإنّ بقاء مصر في أيديكم عزّ لكم ، وكبّت لعدوّكم ، اخرجوا إلى الجرعة بين الحيرة والكوفة ، فوافؤني بها هناك غدّاً إن شاء الله . قال : فلما كان من الغد خرج يمشي ، فنزلها بكراً ، فأقام بها حتى انتصف النهار يومه ذلك ، فلم يوافه منهم رجل واحد ، فرجع . فلما كان من العشيّ بعث إلى أشراف الناس ، فدخلوا عليه القصر وهو حزين كئيب ، فقال : الحمد لله على ما قضى من أمري ، وقدّر من فعلي ، وابتلاني بكم أيتها الفرقة ممن لا يطيع إذا أمرت ، ولا يُجيب إذا دُعوت ، لا أبا لغيركم ! ما تنتظرون بصبركم ، والجهاد على حقكم ! الموت والذلّ لكم في هذه الدنيا على غير الحق ، فوالله لئن جاء الموت - وليأتين - ليفرقنّ بيني وبينكم ، وأنا لصحبتيكم قال ؛ وبكم غير ضنين ، الله أنتم ! لا دينَ يجمعكم ، ولا حية تحميكم ، إذا أنتم سمعتم بعدوكم يرُدّ بلادكم ، ويشنّ الغارة عليكم . أوليس عجباً أنّ معاوية يدعو الجفّة الطغام فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة ! ويحيونه في السنة المّرتين والثلاث إلى أيّ وجه شاء ، وأنا أدعوكم - وأنتم أولو النّهيّ وبقيّة الناس - على المعونة وطائفة منكم على العطاء ، فتقومون عني وتعضّونني ، وتختلفون عليّ ! فقام إليه مالك بن كعب الهمداني ثم الأرحبي ، فقال : يا أمير المؤمنين ، اندب الناس فإنه لا عطر بعد عروس ؛ لمثل هذا اليوم كنت أدخر نفسي ، والأجر لا يأتي إلّا بالكثرة . اتقوا الله وأجيبوا إمامكم ، وانصروا دعوتَه ، وقتلوا عدوّه ، أنا أسير إليها يا أمير المؤمنين ؛ قال : فأمر علي مناديه سعداً ، فنادى في الناس : ألا انتدبوا إلى مصر مع مالك بن كعب .

ثمّ إنه خرج وخرج معه علي ، فنظر فإذا جميع من خرج نحو ألفي رجل ، فقال : سِرْ فوالله ما أخالك تُدرك القوم حتى ينقضّي أمرهم ؛ قال : فخرج بهم ، فسار خمساً . ثمّ إن الحجاج بن عَزِيّة الأنصاري ، ثم النّجاريّ قَدِم على علي من مصر ، وقَدِم عبد الرحمن بن شبيب الفزاري ، فأما الفزاريّ فكان عينه بالشام ، وأما الأنصاري فكان مع محمد بن أبي بكر ، فحدثه الأنصاري بما رأى وعيّن وبهلاك محمد ، وحدثه الفزاري أنّه لم يخرج من الشام حتى قدّمت البُشراء من قبل عمرو بن العاص تترى ، يتبع بعضها بعضاً بفتح مصر وقتل محمد بن أبي بكر ، وحتى أذن بقتله على المنبر ، وقال : يا أمير المؤمنين ، قلما رأيت قوماً قطّ أسرّ ، ولا سروراً قطّ أظهر من سرور رأيته بالشام حين أتاهم هلاكُ محمد بن أبي بكر . فقال علي : أما إنّ حُرّاًنا عليه على قدر سرورهم به ، لا بل يزيد أضعافاً . قال : وسرّح عليّ عبد الرحمن بن شريح الشّاميّ إلى مالك بن كعب ، فردّه من الطريق . قال : وحزن علي على محمد بن أبي بكر حتى رئي ذلك في وجهه ، وبيّن فيه ، وقام في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ﷺ ، وقال : ألا إنّ مصر قد افتتحها الفجّرة أولو الجور والظلم الذين صدّوا عن سبيل الله ، وبغوا الإسلام عوجاً . ألا وإنّ محمد بن أبي بكر قد استشهد رحمه الله ، فعند الله نحتسبه . أما والله إنّ كان ما علمت لمن ينتظر القضاء ، ويعمل

للجزاء ، ويُبغض شكل الفاجر ، ويحبّ هدى المؤمن ، إني والله ما ألوم نفسي على التقصير ، وإني لمقاساة الحرب لجدّ خبير ، وإني لأقدم على الأمر وأعريف وجه الحزم ، وأقوم فيكم بالرأي المصيب ، فأستصرخكم معلناً ، وأناديكم نداء المستغيث مُعرباً ، فلا تسمعون لي قولاً ، ولا تطيعون لي أمراً ، حتى تصيروني الأمور إلى عواقب المساءة ، فأنتم القوم لا يُدرّك بكم الثأر ، ولا تُنقض بكم الأوتار ؛ دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة فتجرجرتم جرجرة الحمل الأشدق ، وثناقلتم إلى الأرض ثناقل من ليس له نية في جهاد العدو ، ولا اكتساب الأجر ، ثم خرج إليّ منكم جُنيد متذائب كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون . فأفّ لكم ! ثم نزل . وكتب إلى عبدالله بن عباس وهو بالبصرة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله علي أمير المؤمنين إلى عبدالله بن عباس ، سلامٌ عليك ، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، أمّا بعد ، فإنّ مصر قد افتتحت ، ومحمد بن أبي بكر قد استشهد ، فعند الله نحتسبه ونذكره ، وقد كنت قمتُ في الناس في بدئه ، وأمرتهم بغياثه قبل الوقعة ، ودعوتهم سرّاً وجهراً ، وعوداً وبدءاً ، فمنهم من أتى كارهاً ، ومنهم من اعتلّ كاذباً ، ومنهم القاعد حالاً ، أسأل الله أن يجعل لي منهم فرجاً ومخرجاً ، وأن يُريحني منهم عاجلاً . والله لولا طمعي عند لقاء عدوي في الشهادة لأحببتُ ألا أبقى مع هؤلاء يوماً واحداً . عَزَمَ الله لنا ولك على الرُّشد ، وعلى تقواه وهداه ، إنه على كلّ شيء قدير . والسلام .

فكتب إليه ابنُ عباس :

بسم الله الرحمن الرحيم ؛ لعبد الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ، من عبد الله بن عباس . سلامٌ عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أمّا بعد ، فقد بلغني كتابك تذكر فيه افتتاح مصر ، وهلاك محمد بن أبي بكر ، فالله المستعان على كلّ حال ، ورحم الله محمد بن أبي بكر وآجرَكَ يا أمير المؤمنين ! وقد سألت الله أن يجعل لك من رعيّتك التي ابتليت بها فرجاً ومخرجاً ، وأن يُعزّك بالملائكة عاجلاً بالنصرة ، فإنّ الله صانعٌ لك ذلك ، ومعزّك ومجيب دعوتك ، وكابِتُ عدوك . أخبرك يا أمير المؤمنين أنّ الناس ربما تناقلوا ثم ينشطون ، فارق بهم يا أمير المؤمنين ، وداجنهم ومنهم ، واستعين بالله عليهم ، كفّاك الله ألهمهم . والسلام .

قال أبو مخنف : حدّثني فضيل بن خديج ، عن مالك بن الحور ، أنّ عليّاً قال : رَجِمَ الله محمداً ! كان غلاماً حدّثاً ، أمّا والله لقد كنتُ على أن أُولي المرقال هاشم بن عُتبة مصر ، أمّا والله لو أنه وليها ما نحلي لعمر بن العاص وأعوانه الفجّرة العرصة ، ولما قُتل إلاّ وسيفه في يده ، لا بلا دمٍ كمحمد . فرحم الله محمداً ، فقد اجتهد نفسه ، وقضى ما عليه .

وفي هذه السنة وجّه معاوية بعد مقتل محمد بن أبي بكر عبدالله بن عمرو بن الحضرميّ إلى البصرة للدعاء إلى الإقرار بحكم عمرو بن العاص فيه .

وفيها قُتل أعين بن ضبيعة المُجاشعي ، وكان عليّ وجهه لإخراج ابن الحضرميّ من البصرة .

ذكر الخبر عن أمر ابن الحضرمي وزياد وأعين وسبب قتل من قتل منهم

حدثني عمر بن شبة ، قال : حدثني علي بن محمد ، قال : حدثنا أبو الذّيال ، عن أبي نعمة ، قال : لما قُتل محمد بن أبي بكر بمصر ، خرج ابن عباس من البصرة إلى علي بالكوفة ، واستخلف زياداً ، وقدم ابن الحضرمي من قبل معاوية ، فنزل في بني تميم ، فأرسل زياد إلى حُضَيْن بن المنذر ومالك بن مسمع ، فقال : أنتم يا معشر بكر بن وائل من أنصار أمير المؤمنين وثقاته ، وقد نزل ابن الحضرمي حيث ترون ، - وأتاه من أتاه ، فامنعوني حتى يأتيني رأي أمير المؤمنين . فقال حُضَيْن : نعم ، وقال مالك - وكان رأيه مائلاً إلى بني أمية ، وكان مروان لجأ إليه يوم الجمل : هذا أمر لي فيه شركاء ، أستشير وأنظر . فلما رأى زياد ثقافت مالك خاف أن تختلف ربيعة ، فأرسل إلى نافع أن أشير علي ، فأشار عليه نافع بصبرة بن شيمان الحُدّاني ، فأرسل إليه زياد ، فقال : ألا تحبيري ! بيت مال المسلمين فإنه فيئكم ، وأنا أمين أمير المؤمنين . قال : بلى إن حملته إلي ونزلت داري . قال : فلإني حامله ، فحمله ، وخرج زياد حتى أتى الحُدّان ، ونزل في دار صبرة بن شيمان ، وحول بيت المال والمنبر ، فوضعه في مسجد الحُدّان ، وتحول مع زياد خمسون رجلاً ، منهم أبو أبي حاضر - وكان زياد يصلي الجمعة في مسجد الحُدّان ، ويطعم الطعام - فقال زياد لجابر بن وهب الرّاسبي : يا أبا محمد ، إني لا أرى ابن الحضرمي يكف ، لا أراه إلا سيقاتلكم ، ولا أدري ما عند أصحابك فأمرهم ، وانظر ما عندهم . فلما صلى زياد جلس في المسجد ، واجتمع الناس إليه ، فقال جابر : يا معشر الأزدي ، تميم تزعم أنهم هم الناس ، وأنهم أصبر منكم عند البأس ، وقد بلغني أنهم يريدون أن يسيروا إليكم حتى يأخذوا جاركم ، ويخرجوه من المصر قسراً ، فكيف أنتم إذا فعلوا ذلك وقد أجرتموه وبيت مال المسلمين ! فقال صبرة بن شيمان - وكان مفحماً : إن جاء الأحنف جئت ، وإن جاء الحنات جئت ، وإن جاء شُبّان ففينا شُبّان . فكان زياد يقول : إني استضحكت ونهضت ، وما كدت مكيدة قط كنت إلى الفضيحة بها أقرب مني للفضيحة يومئذ ؛ لما غلبني من الضحك . قال : ثم كتب زياد إلى علي : إن ابن الحضرمي أقبل من الشام فنزل في دار بني تميم ، ونعى عثمان ، ودعا إلى الحرب ، وبايعته تميم وجُل أهل البصرة ، ولم يبق معي من أمتنع به ، فاستجرت لنفسي ولبيت المال صبرة بن شيمان ، وتحولت فنزلت معهم ، فشيعة عثمان يختلفون إلى ابن الحضرمي ، فوجه علي أعين بن ضُبَيْعة المجاشعي ليفرق قومه عن ابن الحضرمي ، فانظر ما يكون منه ، فإن فرق جمع ابن الحضرمي فذلك ما تريد ، وإن ترقّت بهم الأمور إلى التمادي في العصيان فانفض إليهم فجاهدكم ، فإن رأيت ممن قبلك تشاقلاً ، وخفت ألا تبلغ ما تريد ، فدارهم وطاولهم ، ثم تسمع وأبصر ، فكان جنود الله قد أظلتك ، تقتل الظالمين . فقدم أعين فأتى زياداً ، فنزل عنده ، ثم أتى قومه ، وجمع رجالاً ونهض إلى ابن الحضرمي ، فدعاهم ، فشتموه وناوشوه ، فانصرف عنهم ، ودخل عليه قوم فقتلوه ، فلما قتل أعين ابن ضُبَيْعة ، أراد زياد قتالهم ، فأرسلت بنو تميم إلى الأزدي : إننا لم نعرض لجاركم ، ولا لأحد من أصحابه ، فماذا تريدون إلى جارنا وحربنا ! فكرهت الأزدي القتال ، وقالوا : إن عرضوا لجارنا منعناهم ، وإن يكفوا عن جارنا كفنا عن جارهم . فأمسكوا . وكتب زياد إلى علي : أن أعين بن ضُبَيْعة قديم فجمع من أطاعه

من عشيرته ، ثم نهض بهم بجَدٍّ وصدق نية إلى ابن الحضرمي ، فحثهم على الطاعة ، ودعاهم إلى الكفِّ والرجوع عن شقاقهم ، ووافقتهم عامة قوم ، فهاهم ذلك ، وتصدَّع عنهم كثير من كان معهم ، يمينهم نُصرتَه ، وكانت بينهم مناوشة . ثم انصرف إلى أهله ، فدخلوا عليه فاغتالوه فأصيب ، رحم الله أعياناً ! فأردت قتالهم عند ذلك ، فلم يخفَ معي من أقوى به عليهم ، وترأسل الحَيَّان ، فأمسك بعضهم عن بعض .

فلما قرأ عليُّ كتابه دعا جارية بن قدامة السعدي ، فوجهه في خمسين رجلاً من بني تميم ، وبعث معه شريك بن الأعور - ويقال بعث جارية خمسمائة رجل - وكتب إلى زياد كتاباً يصوب رأيه فيما صنع ، وأمره بمعونة جارية بن قدامة والإشارة عليه ، فقدم جارية البصرة ، فأق زياداً فقال له : احتفِز واحذر أن يصيبك ما أصاب صاحبك ، ولا تثقن بأحد من القوم . فسار جارية إلى قومه فقرأ عليهم كتاب علي ، ووعدهم ، فأجابه أكثرهم ، فسار إلى ابن الحضرمي فحصره في دار سُنبِل ، ثم أحرَق عليه الدار وعلى من معه ، وكان معه سبعون رجلاً - ويقال أربعون - وتفرَّق الناس ، ورجع زياد إلى دار الإمارة ، وكتب إلى علي مع ظُبيان ابن عُمارة ، وكان ممن قديم مع جارية وأن جارية قديم علينا فسار إلى ابن الحضرمي فقتله حتى اضطره إلى دار من دُور بني تميم ، في عدة رجال من أصحابه بعد الإعذار والإنذار ، والدعاء إلى الطاعة ، فلم ينيبوا ولم يرجعوا ، فأضرم عليهم الدار فأحرقهم فيها ، وهُدمت عليهم ، فبعداً لمن طغى وعصى ! فقال عمرو بن العَرَنَدَس العُودِي :

رَدَدْنَا زِيَاداً إِلَى دَارِهِ	وَجَارُ تَمِيمٍ دَخَاناً ذَهَبَ
لَحَى آلَهُ قَوْماً شَوَوْا جَارَهُمْ	وَلِشَاءِ بِالذُّرِّهَمِينَ الشُّصَبَ
يُنَادِي الْخِنَاقُ وَخُثَاها	وَقَدْ سَمَطُوا رَأْسَهُ بِاللَّهَبِ
وَنَحْنُ أَنْاسُ لَنَا عَادَةٌ	نَحَامِي عَنِ الْجَارِ أَنْ يُغْتَصَبَ
حَمِينَاهُ إِذْ حَلَّ أَبْيَاتُنَا	وَلَا تَمْنَعُ الْجَارَ إِلَّا الْحَسَبَ
وَلَمْ يَعْرِفُوا حُرْمَةَ لِلْجَوَا	رِ إِذْ أَعْظَمَ الْجَارَ قَوْمٌ نُجُبَ
كَفِعْلِهِمْ قَبْلَنَا بِالزُّبَيْرِ	عَشِيَّةً إِذْ بَرَّهَ يُسْتَلَبُ

وقال جرير بن عطية بن الخطفي :

عَذَرْتُمْ بِالزُّبَيْرِ فَمَا وَفَيْتُمْ	وَفَاءَ الْأَزْدِ إِذْ مَنَعُوا زِيَاداً
فَأَصْبَحَ جَارُهُمْ بِنَجَاةٍ عِزٍّ	وَجَارُ مُجَاشَعٍ أَمْسَى رَمَاداً
فَلَوْ عَاقَدْتُ حَبْلَ أَبِي سَعِيدٍ	لَذَاذَ الْقَوْمِ مَا حَمَلَ النَّجَادَ
وَأَذَى الْخَيْلِ مِنْ رَهَجِ الْمَنَايَا	وَأَغْشَاهَا الْأَسِنَّةُ وَالصُّعَادَا

وما كان في هذه السنة - أعني سنة ثمان وثلاثين - إظهار الخريّت بن راشد في بني ناجية الخلاف على علي وفراقه إياه ؛ كالذي ذكر هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ، عن الحارث الأزدي ، عن عمّه عبدالله بن فُقيم ، قال : جاء الخريّت بن راشد إلى علي - وكان مع الخريّت ثلاثمائة رجل من بني ناجية مقيمين مع علي بالكوفة ، قديموا معه من البصرة ، وكانوا قد خرجوا إليه يوم الجمل ، وشهدوا معه صقّين والنهروان - فجاء

إلى علي في ثلاثين راكباً من أصحابه يسير بينهم حتى قام بين يدي علي ، فقال له : والله يا علي لا أطيع أمرك ، ولا أصلي خلفك ، وإني غداً لفارقك . وذلك بعد تحكيم الحكمين . فقال له علي : ثكلتك أمك ! إذا عصي ربك ، وتنگت عهدك ، ولا تضر إلا نفسك . خبرني لم تفعل ذلك ؟ قال : لأنك حكمت في الكتاب ، وضعفت عن الحق إذ جد الجد ، وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم ، فأنا عليك زار ، وعليهم ناقيم ، ولكم جميعاً مباين . فقال له علي : هلم أدارسك الكتاب ، وأناظرك في السنن ، وأفاتحك أموراً من الحق أنا أعلم بها منك ، فلعلك تعرف ما أنت له الآن منك ، وتستبصر ما أنت عنه الآن جاهل . قال : فإني عائد إليك ؛ قال : لا يستهوينك الشيطان ، ولا يستخفّنك الجهل ، ووالله لئن استرشدتني واستنصحتني وقبلت مني لأهديك سبيل الرشاد .

فخرج من عنده منصرفاً إلى أهله ، فعجلت في أثره مسرعاً . وكان لي من بني عمّه صديق ، فأردت أن ألقى ابن عمّه ذلك فأعلمه بشأنه ، ويأمره بطاعة أمير المؤمنين ومناصحته ، ويخبره أنّ ذلك خير له في عاجل الدنيا وآجل الآخرة . فخرجت حتى انتهيت إلى منزله وقد سبقني ، فقامت عند باب داره ، وفي داره رجال من أصحابه لم يكونوا شهدوا معه دخوله على علي . قال : فوالله ما جزم شيئاً بما قال ، وبما ردّ عليه ، ثم قال لهم : يا هؤلاء ، إني قد رأيت أن أفارق هذا الرجل ، وقد فارقتُه على أن أرجع إليه من غد ، ولا أراني إلا مفارقه من غد . فقال له أكثر أصحابه : لا تفعل حتى تأتيه ، فإن أتاك بأمر تعرفه قبلت منه ، وإن كانت الأخرى فما أقدرك على فراقه . فقال لهم : فيعم ما رأيتم . قال : ثم إني استأذنت عليه ، فأذنوا لي ، فدخلت فقلت : أنشدك الله أن تفارق أمير المؤمنين ، وجماعة المسلمين ، وأن تجعل على نفسك سبيلاً ، وأن تقتل من أرى من عشيرتك ! إنّ عليّاً لعلى الحق . قال : فأنا أغدو إليه فأسمع منه حجته ، وأنظر ما يعرض عليّ به ويدكر ، فإن رأيت حقاً ورشداً قبلت ، وإن رأيت غيياً وجوراً تركت . قال : فخلوت بابن عمّه ذلك - قال : وكان أحد نفره الأذنين ، وهو مدرك بن الرّيان ، وكان من رجال العرب - فقلت له : إنّ لك عليّ حقاً لإخائك وودك ذلك عليّ بعد حقّ المسلم على المسلم . إنّ ابن عمك كان منه ما قد ذكر لك ، فأجدّ به ، فاردد عليه رأيّه ، وعظم عليه ما أتى ، فإني خائف إن فارق أمير المؤمنين أن يقتله نفسه وعشيرته . فقال : جزاك الله خيراً من أخ ! فقد نصحت وأشفقت ، إن أراد صاحبي فراق أمير المؤمنين فارقتُه وخالفته ، وكنت أشدّ الناس عليه . وأنا بعد فإني خال به ، ومشير عليه بطاعة أمير المؤمنين ومناصحته والإقامة معه ، وفي ذلك حظّه ورشدّه .

فقامت من عنده ، وأردت الرجوع إلى أمير المؤمنين لأعلمه بالذي كان ، ثم اطمأنتت إلى قول صاحبي ، فرجعت إلى منزلي فبت به ثم أصبحت ، فلما ارتفع الضحى أتيت أمير المؤمنين ، فجلست عنده ساعة وأنا أريد أن أحدثه بالذي كان من قوله لي على خلوة ، فأطلت الجلوس ، فلم يزد الناس إلا كثرة ، فدنوت منه ، فجلست وراءه ، فأصغى إليّ بأذنيه ، فخيرته بما سمعت من الحريّة بن راشد ، وبما قلت له ، وبما ردّ علي ، وبما كان من مقالتي لابن عمّه ، وبما ردّ عليّ ، فقال : دعه ، فإن عَرَفَ الحق وأقبل إليه عرفنا ذلك وقبلنا منه ، وإن أبى طلبناه . فقلت : يا أمير المؤمنين ، ولم لا تأخذه الآن وتستوثق منه وتحبسه ؟ فقال : إنا لو فعلنا هذا بكل من نتهمه من الناس ملأنا سجننا منهم ، ولا أراه - يعني الوثوب على الناس والحبس والعقوبة - حتى يُظهروا لنا الخلاف . قال : فسكت عنه ، وتنجّيت ، فجلست مع القوم .

ثم مكث ما شاء الله . ثم إنه قال : ادنُ مِنِّي ؛ فدنوتُ منه ، فقال لي مسرّاً : اذهب إلى منزل الرجل فاعلم لي ما فعل ، فإنه كلّ يوم لم يكن يأتي في إلا قبل هذه الساعة . فأتيتُ منزله ، فإذا ليس في منزله منهم ديار ، فدعوتُ على أبواب دور أخرى كان فيها طائفة من أصحابه ، فإذا ليس فيها داع ولا محيب ، فرجعت . فقال لي حين رأي : وطنوا فأمنوا ، أم جنبوا فظعنوا ! فقلت : بل ظعنوا فأعلنوا ، فقال : قد فعلوها ! بعداً لهم كما يعدتُ ثموداً أما لو قد أشرعتُ لهم الأسنة وصببتُ على هامهم السيوف ، لقد ندموا . إنّ الشيطان اليوم قد استهوهم وأضلّهم ، وهو غداً متبرئ منهم ، ومخلّ عنهم .

فقام إليه زياد بن خَصَفة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه لو لم يكن من مضرة هؤلاء إلا فراقهم إيانا لم يعظم فقدّمهم فنأسى عليهم ، فإنهم قلما يزيدون في عددنا لو أقاموا معنا ، وقلما ينقصون من عددنا بخروجهم عنا ، ولكننا نخاف أن يفسدوا علينا جماعة كثيرة ممن يقدمون عليه من أهل طاعتك ، فأذن لي في اتّباعهم حتى أردهم عليك إن شاء الله . فقال له علي : وهل تدري أين توجه القوم ؟ فقال : لا ، ولكنني أخرج فأسأل وأتبع الأثر . فقال له : أخرجُ رحمك الله حتى تنزل دير أبي موسى ، ثم لا تتوجّه حتى يأتيك أمري ، فإنهم إن كانوا خرجوا ظاهرين للناس في جماعة ، فإن عمالي سكتب إليّ بذلك ، وإن كانوا متفرّقين مستخفين فذلك أخفى لهم ، وسأكتب إليّ عمالي فيهم . فكتب نسخة واحدة فأخرجها إلى العمال :

أما بعد ، فإن رجلاً خرجوا هرباً ونظّهم وجّهوا نحو بلاد البصرة ، فسلّ عنهم أهل بلادك ، واجعل عليهم العيون في كلّ ناحية من أرضك ، واكتب إليّ بما ينتهي إليك عنهم ؛ والسلام .

فخرج زياد بن خَصَفة حتى أتى داره ، وجمع أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أمّا بعد يا معشر بكر بن وائل ، فإن أمير المؤمنين ندبني لأمر من أمره مُهمّ له ، وأمرني بالانكماش فيه ، وأنتم شيعته وأنصاره ، وأوثق حيّ من الأحياء في نفسه ، فانتدبوا معي الساعة ، واعجلوا . قال : فوالله ما كان إلا ساعة حتى اجتمع له منهم مائة وعشرون رجلاً أو ثلاثون ؛ فقال : اكتفينا ، لا نريد أكثر من هذا ، فخرجوا حتى قطعوا الجسر ، ثم دير أبي موسى ، فنزله ، فأقام فيه بقية يومه ذلك ينتظر أمر أمير المؤمنين .

قال أبو مخنف : فحدثني أبو الصلت الأعور التيمي ، عن أبي سعيد العُقيلي ، عن عبد الله بن وأل التيمي ، قال : واللّه إني لعند أمير المؤمنين إذ جاءه فيج ، كتابٌ بيديه ، من قبل قُرظة بن كعب الأنصاري :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أمّا بعد فإنّي أخبر أمير المؤمنين أنّ خيلاً مرّت بنا من قبل الكوفة متوجّهة نحو نقر ، وإن رجلاً من دهاقين أسفل الفرات قد صلى يقال له : زاذان فروخ ، أقبل من قبل أخواله بناحية نقر ، فعرضوا له ، فقالوا : أمسلم أنت أم كافر ؟ فقال : بل أنا مسلم ، قالوا : فما قولك في علي ؟ قال : أقول فيه خيراً ، أقول : إنه أمير المؤمنين ، وسيّد البشر ، فقالوا له : كفرت يا عدوّ الله ! ثم حملت عليه عصابة منهم فقطعوه ، ووجدوا معه رجلاً من أهل الدمة ، فقالوا : ما أنت ؟ قال : رجل من أهل الدمة ، قالوا : أمّا هذا فلا سبيل عليه ، فأقبل إلينا ذلك الذمي فأخبرنا هذا الخبر ، وقد سألت عنهم فلم يخبرني أحدٌ عنهم بشيء ، فليكتب إليّ أمير المؤمنين برأيه فيهم أنته إليه . والسلام .

فكتب إليه :

أما بعد ، فقد فهمتُ ما ذكرت من العصابة التي مرّت بك فقتلت البرّ المُسليم ، وأمين عندهم المخالف الكافر ، وإن أولئك قومٌ استهواهم الشيطان فضّلوا وكانوا كالذين حسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصمّوا ، فأسمع بهم وأبصر يوم تُخبر أعمالهم . والزم عملك ، وأقبل على خراجك فإنك كما ذكرت في طاعتك ونصيحتك ، والسلام .

قال أبو مخنف : وحدثني أبو الصلت الأعور التيمي عن أبي سعيد العُقيليّ ، عن عبدالله بن وأل ، قال : كتب عليّ عليه السلام معي كتاباً إلى زياد بن خَصْفة ، وأنا يومئذ شابّ حَدَث :

أما بعد ، فإنّي كنت أمرتك أن تنزل ديرَ أبي موسى حتى يأتِكَ أمري وذلك لأنّي لم أكن علمت إلى أيّ وجه نهبه القوم ، وقد بلغني أنهم أخذوا نحو قرية يقال لها نِفَر ، فاتّبع آثارهم ، وسلّ عنهم ، فإنهم قد قتلوا رجلاً من أهل السواد مصلياً ، فإذا أنت لحقتهم فارددهم إليّ ، فإن أبوا فناجزهم ، واستعين بالله عليهم ، فإنهم قد فارقوا الحقّ ، وسفكوا الدم الحرام ، وأخافوا السبيل . والسلام .

قال : فأخذتُ الكتاب منه ، فمضيتُ به غير بعيد ، ثم رجعتُ به ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ألا أمضي مع زياد بن خَصْفة إذا دفعْتُ إليه كتابك إلى عدوك ؟ فقال : يابن أخي ، افعَل ، فوالله إني أرجو أن تكون من أعواني على الحقّ ، وأنصاري على القوم الظالمين ؛ فقلت له : أنا والله يا أمير المؤمنين كذلك ومن أولئك ، وإنا حيث تحبّ .

قال ابن وأل : فوالله ما أحبّ أن لي بمقالة عليّ تلك حُمر النعم .

قال : ثمّ مضيتُ إلى زياد بن خَصْفة بكتاب عليّ وأنا على فرس لي رائع كريم ، وعليّ السلاح ، فقال لي زياد : يابن أخي ، والله ما لي عنك من غناء ، وإنّي لأحبّ أن تكون معي في وجهي هذا ؛ فقلت له : قد استأذنتُ في ذلك أمير المؤمنين فأذن لي ، فسرّ بذلك .

قال : ثمّ خرجنا حتى أتينا نِفَر ، فسألنا عنهم ، فقيل لنا : قد ارتفعوا نحو جَرَجَرَايا ، فاتّبعناهم ، فقيل لنا : قد أخذوا نحو المذار ، فلحقناهم وهم نزول بالمذار ، وقد أقاموا به يوماً وليلة ، وقد استراحوا وأعلفوا وهم جامّون ، فاتّبعناهم وقد تقطّعنا ولعَبْنَا وشَقِينَا ونَصَبْنَا ، فلما رأونا وثبوا على خيولهم فاستوتوا عليها ، وجئنا حتى انتهينا إليهم ، فواقفناهم ، ونادانا صاحبهم الحريّ بن راشد : يا عميان القلوب والأبصار ، أمع الله أنتم وكتابه وسنة نبيه ، أم مع الظالمين ؟ فقال له زياد بن خَصْفة : بل نحن مع الله ومَن الله وكتابه ورسوله أثر عند ثواب من الدنيا منذ خلقت إلى يوم تفتي ، أيها العمي الأبصار ، الصمّ القلوب والأسماع . فقال لنا : أخبروني ما تريدون ؟ فقال له زياد - وكان مجرباً رفيقاً - قد ترى ما بنا من اللُغوب والسغوب ، والذي جئنا له لا يُصلحه الكلام علانية على رؤوس أصحابي وأصحابك ، ولكن أنزل وتنزل ، ثم نخلو جميعاً فنتذكر أمرنا هذا جميعاً وننظر ، فإن رأيت ما جئناك فيه حظاً لنفسك قبلته ، وإن رأيت فيما أسمع منك أمراً أرجو فيه العافية لنا ولك لم أردّه عليك . قال : فانزل بنا ؛ قال : فأقبل إلينا زياد فقال : انزلوا بنا على هذا الماء ؛ قال : فأقبلنا حتى إذا انتهينا إلى الماء ، نزلناه فما هو إلا أن نزلنا ففترقنا ، ثم تحلقنا من عشرة وتسعة وثمانية وسبعة ، يضعون طعامهم

بين أيديهم فيأكلون ، ثم يقومون إلى ذلك الماء فيشربون . وقال لنا زياد : علّقوا على خيولكم ، فعلّقنا عليها نحاليها ، ووقف زياد بيننا وبين القوم ، وانطلق القوم فتنحّوا ناحية ، ثم نزلوا ، وأقبل إلينا زياد ، فلما رأى تفرّقنا وتحلّقنا قال : سبحان الله ، أنتم أهل حرب ؟ والله لو أنّ هؤلاء جاؤوكم الساعة على هذه الحال ما أرادوا من غيركم أفضل من حالكم التي أنتم عليها . اعجلوا ، قوموا إلى خيلكم ، فأسرعنا ، فتحشحشنا فمنا من يتنفّض ، ثم يتوضّأ ، ومنا من يشرب ، ومنا من يسقي فرسه ، حتى إذا فرغنا من ذلك كله ، أتانا زياد وفي يده عرق ينهشه ، فنهش منه نهشتين أو ثلاثاً ، وأتى بأداة فيها ماء ، فشرب منه ، ثم ألقى العرق من يده . ثم قال : يا هؤلاء ، إنا قد لقينا القوم ، والله إن عدّتكم كعدّتهم ، ولقد خزرتكم وإياهم فما أظنّ أحدَ الفريقين يزيّد على الآخر بخمسة نفر ، وإني والله ما أرى أمرهم وأمركم إلّا يرجع إلى القتال ، فإن كان إلى ذلك ما يصير بكم وبهم الأمور فلا تكونوا أعجزَ الفريقين . ثم قال لنا : لياخذ كلّ امرئ منكم بعنان فرسه حتى أدنو منهم ، وادعوا إليّ صاحبهم فأكلمه ، فإن بايعني على ما أريد وإلّا فإذا دعوتكم فاستوّوا على متون الخيل ، ثم أقبلوا إليّ معاً غير متفرّقين .

قال : فاستقدم أمامنا وأنا معه ، فأسمع رجلاً من القوم يقول : جاءكم القوم وهم كألّون معيُون ، وأنتم جامُون مستريحون ، فتركتموهم حتى نزلوا وأكلوا وشربوا واستراحوا ؛ هذا والله سوءُ الرأي ! والله لا يرجع الأمر بكم وبهم إلّا إلى القتال . فسكتوا ، وانتهينا إليهم ، فدعا زياد بن خصّفة صاحبهم ، فقال : اعتزل بنا فلننظر في أمرنا هذا ، فوالله لقد أقبل إليّ زياد في خمسة ، فقلت لزياد : ادع ثلاثة من أصحابنا حتى نلقاهم في عدّتهم ؛ فقال لي : ادع من أحببت منهم ، فدعوت من أصحابنا ثلاثاً ، فكنا خمسة وخمسة . فقال له زياد : ما الذي نقمتَ على أمير المؤمنين وعليّنا إذ فارقتنا؟ فقال : لم أرضَ صاحبكم إماماً ، ولم أرضَ سيرتكم سيرة ، فرأيتُ أن أعتزل مع من يدعو إلى الشورى من الناس ، فإذا اجتمع الناس على رجل لجمع الأمة رضاً كنت مع الناس . فقال له زياد : ويحك ! وهل يجتمع الناس على رجلٍ منهم يداني صاحبك الذي فارقتَه علماً بالله وبسنن الله وكتابه ، مع قرابته من الرسول ﷺ وسابقتها في الإسلام ! فقال له : ذلك ما أقول لك ؛ فقال له زياد : فقيم قتلَ ذلك الرجل المسلم ؟ قال : ما أنا قتلته ، إنّما قتلته طائفة من أصحابي ، قال : فادفعهم إلينا ؛ قال : ما إلى ذلك سبيل ؛ قال : كذلك أنت فاعل ؟ قال : هو ما تسمع ؛ قال : فدعونا أصحابنا ودعا أصحابه ، ثم أقبلنا ؛ فوالله ما رأينا قتالاً مثله منذ خلقتني ربّي ، قال : أطعنا والله بالرماح حتى لم يبقَ في أيدينا رُمح ، ثم اضطربنا بالسيوف حتى انحنت وعقير عامّة خيلنا وخيلهم ، وكثرت الجراح فيما بيننا وبينهم ، وقُتل منا رجلان : مولى زياد كانت معه رايته يدعى سويداً ، ورجلٌ من الأبناء يدعى وابد بن بكر ، وصرعنا منهم خمسة ، وجاء الليل يحجز بيننا وبينهم ، وقد والله كرهونا وكرهناهم ، وقد جرح زياد وجرحنا .

قال : ثم إنّ القوم تنحّوا وبثنا في جانب ، فمكثوا ساعة من الليل ، ثم إنهم ذهبوا واتّبعناهم حتى أتينا البصرة ، وبلغنا أنهم أتوا الأهواز ، فنزلوا بجانب منها ، وتلاحق بهم أناس من أصحابهم نحو من مائتين كانوا معهم بالكوفة ، ولم يكن لهم من القوّة ما يُنهضهم معهم حتى نهضوا فاتبعوهم فلحقوهم بأرض الأهواز ، فأقاموا معهم وكتب زياد بن خصّفة إلى علي :

أما بعد ، فإننا لقينا عدوّ الله الناجي بالمدار ، فدعوناهم إلى الهدى والحق وإلى كلمة السّواء ، فلم

ينزلوا على الحق ، وأخذتهم العزة بالإثم ، ورزّين لهم الشيطان أعمامهم فصدهم عن السبيل ، فقصدوا لنا ، وصمدنا صمدهم ، فاقتتلنا قتالاً شديداً ما بين قائم الظهيرة إلى دُلك الشمس ، فاستشهد منا رجلان صالحان ، وأصيب منهم خمسة نفر . وخلّوا لنا المعركة ، وقد فشت فينا وفيهم الجراح . ثم إن القوم لما لبسهم الليل خرجوا من تحتهم متنكبين إلى أرض الأهواز ، فبلغنا أنهم نزلوا منها جانباً ونحن بالبصرة نُدأوي جراحنا ، وننتظر أمرك رحمك الله والسلام عليك .

فلما أتيت به بكتابه قرأه على الناس ، فقام إليه معقل بن قيس ، فقال : أصلحك الله يا أمير المؤمنين ! إنما كان ينبغي أن يكون مع من يطلب هؤلاء مكان كل رجل منهم عشرة من المسلمين ، فإذا لحقهم استأصلوهم وقطعوا دابرهم ، فأما أن يلقاهم أعداؤهم فلعمري ليصبرن لهم ، هم قوم عرب ، والعدّة سمير للعدّة ، وتتصف منها . فقال : تجهّز يا معقل بن قيس إليهم . وندب معه ألفين من أهل الكوفة منهم يزيد بن المغفل الأزدي . وكتب إلى ابن عباس :

أما بعد ، فابعث رجلاً من قبلك صلياً شجاعاً معروفاً بالصّلاح في ألفي رجل ، فليتب معقلاً ، فإذا مرّ ببلاد البصرة فهو أمير أصحابه حتى يلقى معقلاً ، فإذا لقي معقلاً فمعقل أمير الفريقين ، وليسمع من معقل وليطعه ، ولا يخالفه ، ومُرّ زياد بن خَصْفة فليقبل ، فنعم المرء زياد ، ونعم القبيل قبيله !

قال أبو مخنف : وحَدَّثني أبو الصّيلت الأعور ، عن أبي سعيد العُقيليّ ، قال : كتب عليّ إلى زياد بن خَصْفة :

أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، وفهمت ما ذكرت من أمر الناجي وإخوانه الذين طبع الله على قلوبهم ، ورزّين لهم الشيطان أعمامهم فهم يعمهون ، ويحسبون أنهم يُحْسِنون صنْعاً ، ووصفت ما بلغ بك وبهم الأمر ، فأما أنت وأصحابك فله سعيكم ، وعلى الله تعالى جزاؤكم ! فأبشّر بثواب الله خير من الدنيا التي يقتل الجّهال أنفسهم عليها ، فإنّ ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ ولنجزينّ الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون . وأما عدوكم الذين لقيتموهم فحسبهم بخروجهم من الهدى إلى الضلال ، وارتكابهم فيه ، وردّهم الحق ، ولجأهم في الفتنة ، فذرهم وما يفترون ، ودعهم في طغيانهم يعمهون ، فتسمع وتبصر ، كأنك بهم عن قليل بين أسير وقتيل . أقبل إلينا أنت وأصحابك مأجورين ، فقد أطعتم وسمعتهم ، وأحسنتم البلاء ، والسلام .

ونزل الناجي جانباً من الأهواز ، واجتمع إليه علوج من أهلها كثير أرادوا كسر الخراج ، ولصوص كثيرة ، وطائفة أخرى من العرب ترى رأيه .

حدّثني عمر بن شبة ، قال : حدّثنا أبو الحسن ، عن عليّ بن مجاهد ، قال : قال الشعبي : لما قتل عليّ عليه السلام أهل النهروان ، خالفه قوم كثير ، وانتقضت عليه أطرافه ، وخالفه بنو ناجية ، وقدم ابن الحضرميّ البصرة ، وانتقض أهل الأهواز ، وطمع أهل الخراج في كسره ، ثم أخرجوا سهل بن حنيف من فارس ، وكان عامل عليّ عليها ، فقال ابن عباس لعليّ : أكفيك فارسَ بزياد ، فأمره عليّ أن يوجهه إليها ، فقدم ابن عباس البصرة ، ووجهه إلى فارس في جمع كثير ، فوطىء بهم أهل فارس ، فأدّوا الخراج .

رجع الحديث إلى حديث أبي مخنف . قال أبو مخنف : وحديثي الحارث بن كعب ، عن عبد الله بن فقيم الأزدي ، قال : كنت أنا وأخي كعب في ذلك الجيش مع معقل بن قيس ، فلما أراد الخروج أقبل إلى علي فودّعه فقال : يا معقل ، اتق الله ما استطعت ، فإنها وصية الله للمؤمنين ، لا تبغ على أهل القبلة ، ولا تظلم أهل الذمة ، ولا تتكبر فإن الله لا يحب المتكبرين . فقال : الله المستعان ؛ فقال له علي : خير مستعان ؛ قال : فخرج وخرجنا معه حتى نزلنا الأهواز ، فأقمنا ننتظر أهل البصرة ، وقد أبطئوا علينا ، فقام فينا معقل بن قيس فقال : يا أيها الناس ، إنا قد انتظرنا أهل البصرة ، وقد أبطئوا علينا ، وليس بحمد الله بنا قلة ولا وحشة إلى الناس ، فسيروا بنا إلى هذا العدو القليل الذليل ، فإني أرجو أن ينصركم الله وأن يهلكهم .

قال : فقام إليه أخي كعب بن فقيم ، فقال : أصبت - أرشدك الله - رأيك ! فوالله إني لأرجو أن ينصرنا الله عليهم ، وإن كانت الأخرى فإن في الموت على الحق تعزية عن الدنيا . فقال : سيروا على بركة الله ؛ قال : فسيرنا والله ما زال معقل لي مكرماً وأداً ، ما يعدل بي من الجند أحداً ؛ قال ولا يزال يقول : وكيف قلت : إن في الموت على الحق تعزية عن الدنيا ؟ صدقت والله وأحسنتم ووفقت ! فوالله ما سيرنا يوماً حتى أدركنا فيج يشتد بصحيفة في يده من عند عبد الله بن عباس : أما بعد ، فإن أدركك رسولي بالمكان الذي كنت فيه مقيماً ، أو أدركك وقد شخصت منه ، فلا تبرح المكان الذي ينتهي فيه إليك رسولي ، واثبت فيه حتى يقدم عليك بعثنا الذي وجهناه إليك ، فإني قد بعثت إليك خالد بن معدان الطائي ، وهو من أهل الإصلاح والدين والبأس والنجدة ، فاسمع منه ، واعرف ذلك له ؛ والسلام .

فقرأ معقل الكتاب على الناس ، وحمد الله ، وقد كان ذلك الوجه هالهم . قال : فأقمنا حتى قدم الطائي علينا ، وجاء حتى دخل على صاحبنا ، فسلم عليه بالإمرة ، واجتمعوا جميعاً في عسكر واحد . قال : ثم إنا خرجنا فسرنا إليهم ، فأخذوا يرتفعون نحو جبال رامهرمز يريدون قلعة بها حصينة وجاءنا أهل البلد فأخبرونا بذلك ، فخرجنا في آثارهم نبتعهم ، فلحقناهم وقد دنوا من الجبل ، فصففنا لهم ، ثم أقبلنا إليهم ، فجعل معقل على ميمته يزيد بن المغيرة ، وعلى يسارته منجاب بن راشد الضبي من أهل البصرة ، وصفت الحريث بن راشد الناجي من معه من العرب ، فكانوا ميمنة ، وجعل أهل البلد والعُلوّج ومن أراد كسر الخراج وأتباعهم من الأكراد ميسرة . قال : وسار فينا معقل بن قيس يحرضنا ويقول لنا : عباد الله ! لا تعدلوا القوم بأبصاركم ، غصوا الأبصار ، وأقلوا الكلام ، ووطنوا أنفسكم على الطعن والضرب ، وأبشروا في قتالهم بالأجر العظيم ، إنما تقتاتلون مارقة مرقّت من الدين ، وعُلوّجاً منعوا الخراج وأكراداً ، انظروني فإذا حملت فشدوا شدة رجل واحد . فمر في الصفّ كله يقول لهم هذه المقالة ، حتى إذا مرّ بالناس كلهم أقبل حتى وقف وسط الصفّ في القلب ، ونظرنا إليه ما يصنع ! فحرك رايته تحريكين ، فوالله ما صبروا لنا ساعة حتى ولّوا ، وشدّنا منهم سبعين عربياً من بني ناجية ، ومن بعض من اتبعهم من العرب ، وقتلنا نحواً من ثلاثمائة من العُلوّج والأكراد . قال كعب بن فقيم : ونظرتُ فيمن قُتل من العرب ، فإذا أنا بصديقي مدرك بن الرّيان قتيلاً ، وخرج الحريث ابن راشد وهو منهزم

حتى لحق بأسياف البحر ، وبها جماعة من قومه كثير ، فما زال بهم يسير فيهم ويدعوهم إلى خلاف علي ، ويبين لهم فراقه ، ويخبرهم أنّ الهدى في حربه ، حتى اتبعه منهم ناس كثير ، وأقام معقل بن قيس بأرض الأهواز ، وكتب إلى علي معي بالفتح ، وكنت أنا الذي قدمت عليه ، فكتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله علي أمير المؤمنين ، من معقل بن قيس . سلامٌ عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإننا لقينا المارقين ، وقد استظهروا علينا بالمشركين ، فقتلناهم قتل عاد وإرم ، مع أنّنا لم نعد فيهم سيرتك ، ولم نقتل من المارقين مدبراً ولا أسيراً ، ولم ندفع منهم على جريح ، وقد نصرك الله والمسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

قال : فقدمت عليه بهذا الكتاب ، فقرأه على أصحابه ، واستشارهم في الرأي ، فاجتمع رأي عاتتهم على قول واحد ، فقالوا له : نرى أن تكتب إلى معقل بن قيس فيتبع أثر الفاسق ، فلا يزال في طلبه حتى يقتله أو ينفيه ، فإننا لا نأمن أن يفسد عليك الناس . قال : فردني إليه ، وكتب معي :

أما بعد ، فالحمد لله على تأييد أوليائه ، وخذلان أعدائه ، جزاك الله والمسلمين خيراً ، فقد أحسنتم البلاء ، وقضيتهم ما عليكم ، وسل عن أخي بني ناجية ، فإن بلغك أنه قد استقر ببلد من البلدان فسر إليه حتى تقتله أو تنفيه ، فإنه لن يزال للمسلمين عدواً ، وللقاسطين ولياً ، ما بقي ؛ والسلام عليك .

فسأل معقل عن مستقره ، والمكان الذي انتهى إليه ، فنبىء بمكانه بالأسياف ، وأنه قدر قومه عن طاعة علي ، وأفسد من قبله من عبد القيس ومن والاهم من سائر العرب ، وكان قومه قد منعوا الصدقة عام صيفين ومنعوها في ذلك العام أيضاً ، فكان عليهم عقالان ، فسار إليهم معقل بن قيس في ذلك الجيش من أهل الكوفة وأهل البصرة ، فأخذ على فارس حتى انتهى إلى أسياف البحر ، فلما سمع الحزيت بن راشد بمسيره إليه أقبل على من كان معه من أصحابه ممن يرى رأي الخوارج ، فأسرهم : إني أرى رأيكم ، فإن علياً لن ينبغي له أن يحكم الرجال في أمر الله ، وقال للآخرين مندداً لهم : إن علياً حكم حكماً ورصي به ، فخلعه حكمه الذي ارتضاه لنفسه ، فقد رضى أنا من قضائه وحكمه ما ارتضاه لنفسه ، وهذا كان الرأي الذي خرج عليه من الكوفة . وقال سرّاً لمن يرى رأي عثمان : أنا والله على رأيكم ، قد والله قتل عثمان مظلوماً ، فأرضى كل صنف منهم ، وأراهم أنه معهم ، وقال لمن منع الصدقة : شدوا أيديكم على صدقاتكم ، وصلوا بها أرحامكم ، وعودوا بها إن شئتم على فقرائكم ، وقد كان فيهم نصارى كثير قد أسلموا ، فلما اختلف الناس بينهم قالوا : والله لديننا الذي خرجنا منه خير وأهدى من دين هؤلاء الذي هم عليه ؛ ما ينههم دينهم عن سفك الدماء ، وإخافة السبيل ، وأخذ الأموال . فرجعوا إلى دينهم ، فلقى الحزيت أولئك ، فقال لهم : ويحكم ! أتدرون حكم علي فيمن أسلم من النصارى ، ثم رجع إلى نصرانيته ؟ لا والله ما يسمع لهم قولاً ، ولا يرى لهم عذراً ، ولا يقبل منهم توبة ولا يدعوهم إليها ، وإن حكمه فيهم لضرب العنق ساعة يستمكن منهم .

فما زال حتى جمعهم وخذعهم ، وجاء من كان من بني ناجية ومن كان في تلك الناحية من غيرهم ،

واجتمع إليهم ناسٌ كثير .

فحدثني علي بن الحسن الأزدي ، قال : حدثنا عبدالرحمن بن سليمان ، عن عبد الملك بن سعيد بن حاب ، عن الحر ، عن عمار الدهني ، قال : حدثني أبو الطفيل ، قال : كنت في الجيش الذين بعثهم علي بن أبي طالب إلى بني نَاجِيَة ، فقال : فانتبهنا إليهم ، فوجدناهم على ثلاثِ فِرَق ، فقال أميرنا لفرقة منهم : ما أنتم؟ قالوا : نحن قومٌ نصارى ، لم نر ديناً أفضل من ديننا ، فثبتنا عليه ، فقال لهم : اعتزلوا ، وقال للفرقة الأخرى : ما أنتم؟ قالوا : نحن كنّا نصارى فأسلمنا ، فثبتنا على إسلامنا ، فقال لهم : اعتزلوا ؛ ثم قال للفرقة الأخرى الثالثة : ما أنتم؟ قالوا : نحن قومٌ كنّا نصارى ، فأسلمنا ، فلم نَرِ ديناً هو أفضل من ديننا الأول ؛ فقال لهم : أسلموا ، فأبوا ؛ فقال لأصحابه : إذا مسحُ رأسي ثلاثَ مرّات فشَدّوا عليهم ، فاقتلوا المُقاتلة ، واسبوا الذرية . فجاء بالذرية إلى علي ، فجاء مصقلةً هُبيرة ، فاشتراهم بمائتي ألف ، فجاء بمائة ألف فلم يقبلها علي ، فانطلق بالدرهم ، وعَمَد إليهم مصقلة فاعتقهم ولحق بعاوية ، فقيل لعلي : ألا تأخذ الذرية؟ فقال : لا ، فلم يَعْرِضْ لهم .

رجع الحديث إلى حديث أبي مخنف . قال أبو مخنف : وحدثني الحارث بن كعب ، قال : لما رجع إلينا معقل بن قيس قرأ علينا كتاباً من علي :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله علي أمير المؤمنين إلى من يُقرأ عليه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين ، والنصارى المرتدين . سلامٌ عليكم وعلى من أتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وكتابه والبعث بعد الموت وأوفى بعهد الله ولم يكن من الخائنين . أمّا بعد ، فإني أدعوكم إلى كتاب الله ، وسنة نبيه ، والعمل بالحق ، وبما أمر الله في الكتاب ، فمن رجع إلى أهله منكم وكفّ يده واعتزل هذا الهالك الحارِب الذي جاء يحارب الله ورسوله والمسلمين ، وسعى في الأرض فساداً ، فله الأمان على ماله ودمه ، ومن تابعه على حربنا والخروج من طاعتنا ، استعنا بالله عليه ، وجعلنا الله بيننا وبينه ، وكفى بالله نصيراً !

وأخرج معقل رايةً أمانٍ فنصبها ، وقال : مَنْ أتاها من الناس فهو آمن . إلا الخِزْيَة وأصحابه الذين حاربونا وبدؤونا أول مرة . ففترّق عن الخِزْيَة جُلٌّ مَنْ كان معه من غير قومه ، وعَبَأَ معقل بن قيس أصحابه ، فجعل على ميمته يزيد بن المغفل الأزدي ، وعلى ميسرته المنجاب بن راشد الضبي ، ثم زحف بهم نحو الخِزْيَة ، وحضر معه قومه مسلموهم ونصاراهم ومانعة الصدقة منهم .

قال أبو مخنف : وحدثني الحارث بن كعب ، عن أبي الصديق الناجي ، أَنَّ الخِزْيَة يومئذ كان يقول لقومه : امنعوا حريمكم ، وقَاتِلُوا عن نسائكم وأولادكم ، فوالله لئن ظهروا عليكم ليقْتُلُنكم وليسْبُنْكم . فقال له رجل من قومه : هذا والله ما جَنَّتْه علينا يَدَاكَ ولسانك . فقال : قَاتِلُوا الله أنتم ! سَبَقَ السيفُ العَدْلَ ، إِيَّاهُ والله لقد أصابت قومي داهية ! .

قال أبو مخنف : وحدثني الحارث بن كعب ، عن عبدالله بن فُقيم ، قال : سار فينا معقل فحرّض الناس فيما بين الميمنة والميسرة يقول : أيها الناس المسلمون ، ما تزيدون أفضل مما سبق لكم في هذا الموقف من الأجر العظيم ؛ إِنَّ الله ساقكم إلى قوم منعوا الصدقة ، وارتدوا عن الإسلام ، وَكَثَرُوا البيعة ظُلماً وعدواناً ، فأشهد لمن قُتِلَ منكم بالجنة ، وَمَنْ عاش فإنَّ الله مُقِرُّ عَيْنِهِ بالفتح والغنيمة . ففعل ذلك حتى مرَّ بالناس كلهم . ثم إنه

جاء حتى وقف في القلب برايته ، ثم إنه بعث إلى يزيد بن المغفل وهو في الميمنة : أن احمل عليهم ، فحمل عليهم ، فثبتوا وقتلوا قتالاً شديداً . ثم إنه انصرف حتى وقف موقفه الذي كان به في الميمنة ، ثم إنه بعث إلى منجباب ابن راشد الضبي وهو في الميسرة . ثم إن منجباباً حمل عليهم فثبتوا وقتلوا قتالاً شديداً طويلاً ، ثم إنه رجع حتى وقف في الميسرة ، ثم إن معقلاً بعث إلى الميمنة والميسرة : إذا حملت فاحملوا بأجمعكم . فحرك رايته وهزها ، ثم إنه حمل وحمل أصحابه جميعاً ، فصبروا ساعة لهم . ثم إن النعمان بن صُهبان الراسبي من جرم بصُر بالخريت بن راشد فحمل عليه ، فطعنه فصرعه عن دابته ، ثم نزل وقد جرحه فأثخنه ، فاختلعا ضربتين ، فقتله النعمان بن صُهبان ، وقُتل معه في المعركة سبعون ومائة ، وذهبوا يميناً وشمالاً ، وبعث معقل ابن قيس الخيل إلى رحاهم ، فسبى من أدرك منهم ، فسبى رجالاً كثيراً ونساءً وصبياناً . ثم نظر فيهم ؛ فأما من كان مسلماً فخلاه وأخذ بيعته وترك له عياله ، وأما من كان ارتد فعرض عليهم الإسلام . فرجعوا وخلي سبيلهم وسبيل عيالهم إلا شيخاً منهم نصرانياً يقال له : الرماحس بن منصور ؛ قال : والله ما زلت منذ عقلت إلا في خروجي من ديني ، دين الصدق إلى دينكم دين سوء ، لا والله لا أدع ديني ، ولا أقرب دينكم ما حييت . فقدمه فضرَب عنقه ، وجمع معقل الناس فقال : أدوا ما عليكم في هذه السنين من الصدقة . فأخذ من المسلمين عقالين ، وعَمَد إلى النصارى وعيالهم فاحتملهم مقبلاً بهم ، وأقبل المسلمون معهم يشيعونهم ، فأمر معقل بردهم ، فلما انصرفوا تصافحوا فبكوا ، وبكى الرجال والنساء بعضهم إلى بعض . قال : فأشهد أني رحمتهم رحمة ما رحمتها أحداً قبلهم ولا بعدهم .

قال : وكتب معقل بن قيس إلى علي : أما بعد ، فإنني أخبر أمير المؤمنين عن جُنْدِهِ وعدوّه ؛ إنا دفعنا إلى عدونا بالأسياف فوجدنا بها قبائل ذات عِدَّة وجِدَّة وجِد ، وقد جُمعت لنا ، وتحزبت علينا ، فدعوناهم إلى الطاعة والجماعة ، وإلى حُكم الكتاب والسنة ، وقرأنا عليهم كتاب أمير المؤمنين ، ورفعنا لهم راية أمان ، فمالت إلينا منهم طائفة ، وبقيت طائفة أخرى مُنايذة ، فقبلنا من التي أقبلت ، وصمَدنا صمداً للتي أدبرت ، فضرَب الله وجوههم ونصّرنا عليهم ؛ فأما من كان مسلماً فإننا منّا عليه وأخذنا بيعته لأمر المؤمنين ، وأخذنا منهم الصدقة التي كانت عليهم ، وأما من ارتد فإننا عرضنا عليه الرجوع إلى الإسلام وإلا قتلناه . فرجعوا غير رجل واحد ، فقتلناه ؛ وأما النصارى فإننا سبيناهم ، وقد أقبلنا بهم ليكونوا نكالا لمن بعدهم من أهل الذمة ، لكيلا يمنعوا الجزية ، ولكيلا يجترثوا على قتال أهل القبلة ، وهم أهل الصغار والذل ، رحمك الله يا أمير المؤمنين ، وأوجب لك جنات النعيم ؛ والسلام عليك !

ثم أقبل بهم حتى مرّ بهم على مصقلة بن هبيرة الشيباني ، وهو عامل علي على أردشير خُرو ، وهم خمسمائة إنسان ، فبكى النساء والصبيان ، وصاح الرجال : يا أبا الفضل ، يا حامي الرجال ، وفكّك العُناة ، أمني علينا فاشترنا وأعيقنا ؛ فقال مصقلة : أقسم بالله لأتصدقنّ عليهم ، إن الله يجزي المتصدقين . فبلغها عنه معقل ، فقال : والله لو أعلم أنه قاله توجعاً لهم ، وزراء عليكم ، لضربت عنقه ، ولو كان في ذلك تفاني تميم وبكر بن وائل . ثم إن مصقلة بعث دُهل بن الحارث الذهلي إلى معقل بن قيس فقال له : يعني بني ناجية ؛ فقال : نعم ، أبيعكم بألف ألف ، ودفعهم إليه ، وقال له : عجل بالمال إلى أمير المؤمنين ؛ فقال : أنا باعث الآن بصدر ، ثم أبعث بصدر آخر كذلك ؛ حتى لا يبقى منه شيء إن شاء الله تعالى . وأقبل معقل بن قيس إلى أمير المؤمنين ، وأخبره بما كان منه في ذلك ، فقال له : أحسنت وأصبحت ، وانتظر علي مصقلة أن يبعث إليه

سنة ٣٨ ١٤٧

بالمال ، وبلغ علياً أن مصقلة خلى سبيل الأسارى ولم يسألهم أن يُعينوه في فكّك أنفسهم بشيء ، فقال : ما أظنّ مصقلة إلا قد تحمل حمالةً ؛ ألا أراكم سترونه عن قريب ملبداً . ثم إنه كتب إليه : أما بعد ، فإن من أعظم الخيانة خيانة الأمة ، وأعظم الغش على أهل المصر غش الإمام ، وعندك من حق المسلمين خمسمائة ألف ، فابعث بها إليّ ساعة يأتيك رسولي ، وإلا فأقبل حين تنظر في كتابي ، فإني قد تقدّمت إلى رسولي إليك ألا يدعك أن تقيم ساعة واحدة بعد قدومه عليك إلا أن تبعث بالمال ؛ والسلام عليك .

وكان الرسول أبو جرة الحنفي ، فقال له أبو جرة : إن يبعث بالمال الساعة وإلا فاشخص إلى أمير المؤمنين . فلما قرأ كتابه أقبل حتى نزل البصرة ، فمكث بها أياماً . ثم إن ابن عباس سأل المال ، وكان عمال البصرة يُحمّلون من كور البصرة إلى ابن عباس ، ويكون ابن عباس هو الذي يبعث به إلى علي ؛ فقال له : نعم ، أنظرني أياماً ، ثم أقبل حتى أتى علي فآفره أياماً ، ثم سأل المال ، فأدى إليه مائتي ألف ، ثم إنه عجز فلم يقدر عليه .

قال أبو مخنف : وحديثي أبو الصلت الأعور ، عن ذهل بن الحارث ، قال : دعاني مصقلة إلى رحله فقدم عشاؤه ، فطعمنا منه ، ثم قال : والله إن أمير المؤمنين يسألني هذا المال ، ولا أقدر عليه ، فقلت : والله لو شئت ما مضت عليك جمعة حتى تجمع جميع المال ؛ فقال : والله ما كنت لأحملها قومي ، ولا أطلب فيها إلى أحد . ثم قال : أما والله لو أن ابن هند هو طالبي بها أو ابن عفان لتركها لي ؛ ألم تر إلى ابن عفان حيث أطعم الأشعث من خراج أذربيجان مائة ألف في كل سنة ! فقلت له : إن هذا لا يرى هذا الرأي ، لا والله ما هو بباذل شيئاً كنت أخذته ، فسكت ساعة ، وسكت عنه ، فلا والله ما مكث إلا ليلة واحدة بعد هذا الكلام حتى لحق بمعاوية . وبلغ ذلك علياً فقال : ما له برّحه الله ؛ فعل فعل السيّد ، وفرّ فرار العبد ، وخان خيانة الفاجرا أما والله لو أنه أقام فعجز ما زدنا على حبسه ، فإن وجدنا له شيئاً أخذناه ، وإن لم نقدر على مال تركناه . ثم سار إلى داره فنقضها وهدّمها ، وكان أخوه نعيم بن هبيرة شيعياً ، ولعليّ مناصحاً ، فكتب إليه مصقلة من الشام مع رجل من النصارى من بني تغلب يقال له حُلوان :

أما بعد ، فإني كلّمت معاوية فيك ، فوعدك الإمارة ، ومناك الكرامة ، فأقبل إليّ ساعة يلقاك رسولي إن شاء الله ؛ والسلام .

فأخذه مالك بن كعب الأرحبي ، فسرح به إلى علي ، فأخذ كتابه فقرأه ، فقطع يد النصراني ، فمات ، وكتب نعيم إلى أخيه مصقلة :

لا ترمين هداك الله معترضاً	بالظن منك فما بالي وحلوانا
ذاك الحريص على ما نال من طمع	وهو البعيد فلا يحزنك إذ خاننا
ماذا أردت إلى إرساله سفهاً	ترجو سقاط امرئ لم يلف وسنانا
عرضته لعلّ إنه أسد	يمشي العرضنة من أساد خفانا
قد كنت في منظر عن ذا ومستمع	تحوي العراق وتذعي خير شيانا
حتى تفحمت أمراً كنت تكبره	للاكابين له سرّاً وإعلانا

لو كُنْتُ أَذَيْتَ مَا لِلْقَوْمِ مُضْطَرِئاً لَلْحَقِّ أَحْيَيْتَ أَحْيَانَا وَمَوْتَانَا
لكن لَحِقْتَ بِأَهْلِ الشَّامِ مُلْتَمِئاً فَضَّلَ ابْنُ هِنْدٍ وَذَاكَ الرَّأْيَ أَشْجَانَا
فَالْيَوْمَ تَقْرَعُ سِنَّ الْغُرَمِ مِنْ نَدَمٍ مَاذَا تَقُولُ وَقَدْ كَانَ الَّذِي كَانَا
أَصْبَحْتَ تُبْغِضُكَ الْأَحْيَاءُ قَاطِبَةً لَمْ يَرْفَعْ اللَّهُ بِالْبَغْضَاءِ إِنْسَانَا

فلما وَقَعَ الكتابُ إليه عَلِمَ أَنَّ رسوله قد هلك ، ولم يلبث التغلبيون إلا قليلاً حتى بلغهم هلاكُ صاحبهم حلوان ، فاتوا مصقلةً فقالوا : إنك بعثت صاحبنا فاهلكته ، فإما أن نُحييه وإما أن تديّه ، فقال : أما أن أحييه فلا أستطيع ، ولكني سأديّه ، فَوَادَاه .

قال أبو مخنف : وحَدَّثني عبد الرحمن بن جندب ، قال : حَدَّثني أبي ، قال : لما بلغ علياً مصابُ بني ناجية وقتلُ صاحبهم قال : هَوَتْ أُمُّهُ ! ما كان أَنْقَصَ عَقْلَهُ ، وأَجْرَاهُ على رَبِّهِ ! فَإِنَّ جَائِئاً جَاءَنِي مَرَّةً فقال لي : في أصحابك رجالٌ قد خَشِيتُ أن يفارقوك ، فما ترى فيهم ؟ فقلت له : إِنِّي لا آخذُ على التَّهْمَةِ ، ولا أعاقبُ على الظَّنِّ ، ولا أَقاتلُ إلاَّ من خالَفَنِي وناصَبَنِي وأظهر لي العداوة ، ولست مُقاتِلُهُ حتى أدعوه وأعذرَ إليه ، فإن تاب ورجع إلينا قبلنا منه ، وهو أخونا ، وإن أبى إلاَّ الاعتزَامَ على حربنا استعنا عليه اللّهُ ، وناجَرنَاه . فكفَّ عني ما شاء الله . ثم جَئني مَرَّةً أخرى فقال لي : قد خَشِيتُ أن يَفْسُدَ عليك عبدُ الله بنُ وهب الراسبي وزيدُ بن حصين ، إني سمعتهما يَذْكُرَانِكَ بأشياء لو سمعتهما لم تُفَارِقْهُمَا عليهما حتى تقتلها أو توبِقْهُمَا ، فلا تفارقهما من حبسِكَ أبداً ، فقلت : إِنِّي مستشيرك فيهما ، فماذا تأمرني به ؟ قال : فَإِنِّي آمرك أن تدعَوْهُمَا ، فتضربَ رِقابَهُمَا ، فعلمت أنه لا وَرْعَ ولا عاقل ، فقلت : واللّهِ ما أَظُنُّكَ وَرِعاً ولا عاقِلاً نافعاً ، واللّهِ لقد كان ينبغي لك لو أردت قتلَهُم أن تقول : اتَّقِ اللّهُ ، لِمَ تستحلّ قتلَهُم ولم يقتلوا أحداً ، ولم ينادوك ، ولم يخرجوا من طاعتك !

وحجَّ بالناس في هذه السنة قُتُمُ بن العباس من قِبَلِ عليّ عليه السلام . حَدَّثني بذلك أحمد بن ثابت ، عن اسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر . وكان قُتُمُ يومئذٍ عاملَ عليّ على مكة ، وكان على اليمن عبيد الله بن العباس ، وعلى البصرة عبد الله بن العباس .

واختلف في عامله على خراسان فقيل : كان خليل بن قرّة اليربوعي ، وقيل : كان ابن أبزى ؛ وأما الشَّام ومصرَ فإنه كان بهما معاوية وعمّاله .

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين

فمما كان فيها من الأحداث المذكورة :

تفريق معاوية جيوشه في أطراف علي

فوجه النعمان بن بشير - فيما ذكر علي بن محمد بن عوانة - في ألفي رجل إلى عين التمر ، وبها مالك بن كعب مسلحة لعل في ألف رجل ، فأذن لهم ، فأتوا الكوفة ، وأتاه النعمان ، ولم يبق معه إلا مائة رجل ، فكتب مالك إلى علي يخبره بأمر النعمان ومن معه ، فخطب علي الناس ، وأمرهم بالخروج ، فتشاقلوا ، وواقع مالك النعمان ، والنعمان في ألفي رجل ومالك في مائة رجل ، وأمر مالك أصحابه أن يجعلوا جذر القرية في ظهورهم ، واقتتلوا . وكتب إلى مخنف بن سُلَيْم يسأله أن يمدّه وهو قريب منه ، فقاتلهم مالك بن كعب في العصابة التي معه كأشد القتال ، ووجه إليه مخنف ابنه عبدالرحمن في خمسين رجلاً ، فانتهوا إلى مالك وأصحابه ، وقد كسروا جفون سيوفهم ، واستقتلوا ، فلما رأهم أهل الشام وذلك عند المساء ، ظنوا أن لهم مدداً وانهزموا ، وتبعهم مالك ، فقتل منهم ثلاثة نفر ، ومضوا على وجوههم .

حدثني عبدالله بن أحمد بن شبيب المروزي ، قال : حدثنا أبي ، قال : حدثني سليمان ، عن عبدالله ، قال : حدثني عبدالله بن أبي معاوية ، عن عمرو بن حسان ، عن شيخ من بني فزارة ، قال : بعث معاوية النعمان بن بشير في ألفين ، فأتوا عين التمر ، فأغاروا عليها ، وبها عامل لعل يقال له ابن فلان الأرحبي في ثلثمائة ، فكتب إلى علي يستمدّه ، فأمر الناس أن ينهضوا إليه ، فتشاقلوا ، فصعد المنبر ، فأنتهيت إليه وقد سبقني بالشهد وهو يقول :

يا أهل الكوفة ، كلّمنا سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظلمكم وأغلق بابّه انجحر كلّ امرئ منكم في بيته انجحر الضب في جحره والضبع في وجارها ، المغرور من غررقوه ، ولئن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب . لا أحرار عند النداء ، ولا إخوان ثقة عند النجاء ، إنا لله وإنا إليه راجعون ! ماذا مئيت به منكم ! عمي لا تبصرون ، وبكم لا تنطقون ، وضّم لا تستمعون إنا لله وإنا إليه راجعون .

رجع الحديث إلى حديث عوانة . قال : وجه معاوية في هذه السنة سفيان بن عوف في ستة آلاف رجل ،

وأمره أن يأتي هيت فيقطعها ، وأن يُغيرَ عليها ، ثم يمضي حتى يأتي الأنبار والمدائن فيوقع بأهلها ، فسار حتى أتى هيت فلم يجد بها أحداً ، ثم أتى الأنبار وبها مسلحة لعلّي تكون خمسمائة رجل ، وقد تفرّقوا فلم يبقَ منهم إلا مائة رجل ، فقاتلهم ، فصبر لهم أصحاب عليّ مع قلتهم ، ثم حملت عليهم الخيل والرّجال ، فقتلوا صاحبَ المسلحة ، وهو أشرس بن حسان البكريّ في ثلاثين رجلاً ، واحتملوا ما كان في الأنبار من الأموال وأموال أهلها ، ورجعوا إلى معاوية . وبلغ الخبر عليّاً ، فخرج حتى أتى النخيلة ، فقال له الناس : نحن نكفيك ، قال : ما تكفوني ولا أنفسكم ؛ وسرّح سعيد ابن قيس في أثر القوم ، فخرج في طلبهم حتى جاز هيت ، فلم يلحقهم فرجع .

قال : وفيها وجّه معاوية أيضاً عبدالله بن مسعدة الفزاريّ في ألف وسبعمائة رجل إلى تبّاء ، وأمره أن يُصدّقَ من مرّ به من أهل البوادي ، وأن يقتل من امتنع من عطائه صدقة ماله ، ثم يأتي مكة والمدينة والحجاز ، يفعل ذلك ، واجتمع إليه بشرٌ كثير من قومه ، فلما بلغ ذلك عليّاً وجه المسيّب بن نجبة الفزاري ، فسار حتى لحق ابن مسعدة بتبّاء ، فاقتتلوا ذلك اليوم حتى زالت الشمس قتالاً شديداً ، وحمل المسيّب على ابن مسعدة فضربه ثلاث ضربات ، كلّ ذلك لا يلتبس قتله ويقول له : النجاء النجاء ! فدخل ابن مسعدة وعامة من معه الحصن ، وهرب الباقيون نحو الشام ، وانتهب الأعراب إبل الصدقة التي كانت مع ابن مسعدة ، وحصره ومن كان معه المسيّب ثلاثة أيام ، ثم ألقي الحطب على الباب ، وألقى النيران فيه ، حتى احترق ، فلما أحسوا بالهلاك أشرفوا على المسيّب فقالوا : يا مسيّب ، قومك ! فرق لهم ، وكره هلاكهم ، فأمر بالنار فأطفئت ، وقال لأصحابه : قد جاءني عيون فأخبروني أنّ جنداً قد أقبل إليكم من الشام ، فانضمّوا في مكان واحد . فخرج ابن مسعدة في أصحابه ليلاً حتى لحقوا بالشام ، فقال له عبدالرحمن بن شبيب : سِرْ بنا في طلبهم ، فأبى ذلك عليه ، فقال له : غششت أمير المؤمنين وداهنت في أمرهم .

وفيها أيضاً وجّه معاوية الضحّاك بن قيس ، وأمره أن يمرّ بأسفل واقصة ، وأن يُغيرَ على كلّ من مرّ به ممن هو في طاعة علي من الأعراب ، ووجّه معه ثلاثة آلاف رجل ، فسار فأخذ أموال الناس ، وقتل من لقي من الأعراب ، ومرّ بالثعلبية فأغار على مسالح علي ، وأخذ أمتعتهم ، ومضى حتى انتهى إلى القطّطانة ، فأتى عمرو بن عيسى بن مسعود ، وكان في خيل لعلّي وأمامه أهله ، وهو يريد الحجّ ، فأغار على من كان معه ، وحبسه عن المسير ، فلما بلغ ذلك عليّاً سرّح حُجْر بن غديّ الكنديّ في أربعة آلاف ، وأعطاهم خمسين خمسين ، فلحق الضحّاك بتدّمّر فقتل منهم تسعة عشر رجلاً ، وقُتل من أصحابه رجلاً ، وحال بينهم الليل ، فهرب الضحّاك وأصحابه ، ورجع حُجْر ومن معه .

وفيها سار معاوية بنفسه إلى دجلة حتى شارفها ، ثم نكص راجعاً ، ذكر ذلك ابن سعد ، عن محمد بن عمر ، قال : حدّثني ابن جريج ، عن ابن أبي مُليكة قال : لما كانت سنة تسع وثلاثين أشرف عليها معاوية .

وحَدّثني أحمد بن ثابت ، عمّن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر مثله .

واختلف فيمن حج بالناس في هذه السنة ، فقال بعضهم : حج بالناس فيها عبيد الله بن عباس من قبل علي . وقال بعضهم : حج بهم عبدالله بن عباس ؛ فحدثني أبو زيد عمر بن شبة ، قال : يقال إن علياً وجه ابن عباس ليشهد الموسم ويصلي بالناس في سنة تسع وثلاثين ، وبعث معاوية يزيد بن شجرة الرهاوي .

قال : وزعم أبو الحسن أن ذلك باطل ، وأن ابن عباس لم يشهد الموسم في عمل حتى قُتل علي عليه السلام ؛ قال : والذي نازعه يزيد بن شجرة قسم بن العباس ، حتى إنهما اصطلحا على شية بن عثمان ، فصلى بالناس سنة تسع وثلاثين .

وكالذي حكيت عن أبي زيد عن أبي الحسن ، قال أبو معشر في ذلك : حدثني بذلك أحمد بن ثابت الرازي ، عمن حدثه ، عن إسحاق بن عيسى عنه .

وقال الواقدي : بعث علي على الموسم في سنة تسع وثلاثين عبيد الله بن عباس ، وبعث معاوية يزيد بن شجرة الرهاوي ليقم للناس الحج ، فلما اجتمعا بمكة تنازعا ، وأبى كل واحد منهما أن يسلم لصاحبه ، فاصطلحا على شية بن عثمان بن أبي طلحة .

وكانت عمال علي في هذه السنة على الأمصار الذين ذكرنا أنهم كانوا عماله في سنة ثمان وثلاثين غير ابن عباس ، كان شخص في هذه السنة عن عمله بالبصرة ، واستخلف زياداً - الذي كان يقال له : زياد بن أبيه - على الخراج ، وأبا الأسود الدؤلي على القضاء .

وفي هذه السنة وجه ابن عباس زياداً عن أمر علي إلى فارس وكرمان عند منصرفه من عند علي من الكوفة إلى البصرة .

ذكر سبب توجيهه إياه إلى فارس :

حدثني عمر ، قال : حدثنا علي ؛ قال : لما قتل ابن الحضرمي واختلف الناس على علي ، طمع أهل فارس وأهل كerman في كسر الخراج ، فغلب أهل كل ناحية على ما يليهم ، وأخرجوا عمالهم .

حدثني عمر ، قال : حدثنا أبو القاسم ، عن سلمة بن عثمان ، عن علي بن كثير ، أن علياً استشار الناس في رجل يوليه فارس حين امتنعوا من أداء الخراج ، فقال له جارية بن قدامة : ألا أدلك يا أمير المؤمنين على رجل صليب الرأي ، عالم بالسياسة ، كافٍ لما ولي؟ قال : من هو؟ قال : زياد ؛ قال : هو لها ؛ فولاه فارس وكرمان ، ووجهه في أربعة آلاف ، فدوخ تلك البلاد حتى استقاموا .

حدثني عمر ، قال : حدثنا أبو الحسن ، عن علي بن مجاهد ، قال : قال الشعبي : لما انتقض أهل الجبال وطمع أهل الخراج في كسره ، وأخرجوا سهل بن حنيف من فارس - وكان عاملاً عليها لعلي - قال ابن عباس لعلي : أكفيك فارس ؛ فقدم ابن عباس البصرة ، ووجه زياداً إلى فارس في جمع كثير ، فوطىء بهم أهل فارس ، فأدوا الخراج .

حدثني عمر ، قال : حدثني أبو الحسن ، عن أيوب بن موسى ، قال : حدثني شيخ من أهل إصطخر

قال : سمعتُ أبي يقول : أدركتُ زياداً وهو أميرٌ على فارسَ وهي تَصْرَمُ ناراً ، فلم يزل بالمُدْاراةِ حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من الطاعة والاستقامة ، لم يقفْ موقفاً للحرب ، وكان أهل فارسَ يقولون : ما رأينا سيرةً أشبه بسيرة كِسْرَى أنوشِروان من سيرة هذا العربيِّ في اللين والمُدْاراةِ والعلم بما يأتي .

قال : ولما قَدِمَ زياد فارسَ بعث إلى رؤسائها ، فوعد مَنْ نَصَرَه ومَنّاه ، وخوَّفَ قوماً وتوعَّدَهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودلَّ بعضهم على عورةِ بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة ، فقتل بعضهم بعضاً ، وصفَّتْ له فارس ، فلم يَلْتَقَ فيها جمعاً ولا حرباً ، وفعل مِثْلَ ذلك بكُرْمان ، ثم رجع إلى فارسَ ، فسار في كُورِها ومَنّاهم ، فسَكَنَ الناسُ إلى ذلك ، فاستقامت له البلاد ، وأتى إِصْطَخْرَ فنزلها وحصَّنَ قلعةً بها ما بين بيضاء وإِصْطَخْرَ وإِصْطَخْرَ ، فكانت تسمى قلعةَ زياد ، فحمل إليها الأموال ، ثم تحصَّنَ فيها بعد ذلك منصورُ الپشكري ، فهي اليوم تسمى قلعةَ منصور .

ثم دخلت سنة أربعين ذكر ما كان فيها من الأحداث

فما كان فيها من ذلك توجيه معاوية بـسر بن أبي أرطاة في ثلاثة آلاف من المقاتلة إلى الحجاز .

فذكر عن زياد بن عبدالله البكائي ، عن عوانة ، قال : أرسل معاوية بن أبي سفيان بعد تحكيم الحكمين بـسر بن أبي أرطاة - وهو رجل من بني عامر بن لؤي في جيش - فساروا من الشام حتى قدموا المدينة ، وعامل علي على المدينة يومئذ أبو أيوب الأنصاري ، ففر منهم أبو أيوب ، فأق علياً بالكوفة ، ودخل بـسر المدينة ؛ قال : فصعد منبرها ولم يقاتله بها أحد ، فنادى على المنبر : يا دينار ، يا نجار ، يا زريق ، شيعي شيعي ! عهدي به بالأمس ، فأين هو ! يعني عثمان ، ثم قال : يا أهل المدينة ، واللّه لولا ما عهد إليّ معاوية ما تركتُ بها محتلياً إلا قتلته . ثم بايع أهل المدينة ، وأرسل إلى بني سلمة ، فقال : والله ما لكم عندي من أمان ولا مبايعة حتى تأتوني بجابر بن عبدالله ، فانطلق جابر إلى أم سلمة زوج النبي ﷺ فقال لها : ماذا تريين؟ إنني قد خشيتُ أن أقتل ، وهذه بيعة ضلالة ، قالت : أرى أن تبايع ، فإني قد أمرت ابني عمر بن أبي سلمة أن يبايع ، وأمرت ختني عبدالله بن زُمعة - وكانت ابنتها زينب ابنة أبي سلمة عند عبدالله بن زُمعة - فأتاه جابر فبايعه ، وهذم بـسر دوراً بالمدينة ، ثم مضى حتى أتى مكة ، فخافه أبو موسى أن يقتله ، فقال له بـسر : ما كنتُ لأفعل بصاحب رسول الله ﷺ ذلك ؛ فخلّى عنه ، وكتب أبو موسى قبل ذلك إلى اليمَن : إن خيلاً مبعوثاً من عند معاوية تقتل الناس ، تقتل من أبي أن يقر بالحكومة . ثم مضى بـسر إلى اليمَن ، وكان عليها عبيدالله بن عباس عاملاً لعلي ، فلما بلغه مسيره فرّ إلى الكوفة حتى أتى علياً ، واستخلف عبدالله بن عبدالمَدان الحارثي على اليمَن ، فأتاه بـسر فقتله وقتل ابنه ، ولقي بـسر ثقل عبيدالله بن عباس . وفيه ابنان له صغيران ، فذبحهما . وقد قال بعض الناس : إنه وجد ابني عبيدالله بن عباس عند رجل من بني كنانة من أهل البادية ، فلما أراد قتلهما قال الكناني : علام تقتل هذين ولا ذنب لهما ! فإن كنت قاتلهما فاقتلني ، قال : أفعَل ؛ فبدأ بالكِناني فقتله ، ثم قتلهما ثم رجع بـسر إلى الشام . وقد قيل : إن الكِناني قاتل عن الطفلين حتى قُتل ، وكان اسمُ أحدِ الطفلين اللذين قتلهما بـسر : عبدالرحمن ، والآخر قُثم . وقتل بـسر في مسيره ذلك جماعة كثيرة من شيعة علي باليمَن . وبلغ علياً خبر بـسر ، فوجه جارية بن قدامة في ألفين ، ووهب بن مسعود في ألفين ، فسار جارية حتى أتى نَجْرانَ فحرّق بها ، وأخذ ناساً من شيعة عثمان فقتلهم ، وهرب بـسر وأصحابه منه ، وأتبعهم حتى بلغ مكة ، فقال لهم جارية : بايعونا ؛ فقالوا : قد هلك أمير المؤمنين ، فليمن نبايع ؟ قال : لمن بايع له أصحاب علي ، فتأقّلوا ، ثم بايعوا . ثم سار حتى أتى المدينة وأبو هريرة يصلي

بهم ، فهرب منه ، فقال جارية : واللّٰه لو أخذتُ أبا سِنُور لضربتُ عنقه ، ثم قال لأهل المدينة : بايعوا الحسن بن علي ؛ فبايعوه وأقام يومه ، ثم خرج منصرياً إلى الكوفة ، وعاد أبو هريرة فصلّى بهم .

وفي هذه السنة - فيما ذكر - جرت بين عليّ وبين معاوية المهادنة - بعد مكاتبات جرت بينهما يطول بذكرها الكتاب - على وَضْعِ الحرب بينهما ، ويكون لعليّ العراق ولعائشة الشام ، فلا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو .

قال زياد بن عبد الله ؛ عن أبي إسحاق : لما لم يعط أحد الفريقين صاحبه الطاعة كتب معاوية إلى عليّ : أما إذا شئت فلك العراق وليّ الشام ، وتكفّ السيف عن هذه الأمة ، ولا تُهريق دماء المسلمين ؛ ففعل ذلك ، وتراضياً على ذلك ، فأقام معاوية بالشام بجنوده يجهزها وما حولها ، وعليّ بالعراق يجهزها ويقسمها بين جنوده .

وفيها خرج عبد الله بن العباس من البصرة ولحق مكة في قول عامة أهل السّير ، وقد أنكر ذلك بعضهم ، وزعم أنه لم يزل بالبصرة عاملاً عليها من قبل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام حتى قُتِل ، وبعد مقتل عليّ حتى صالح الحسن معاوية ، ثم خرج حينئذٍ إلى مكة .

ذكر الخبر عن سبب شخوصه إلى مكة وتركه العراق :

حدّثني عمر بن شبة ، قال : حدّثني جماعة عن أبي مخنف ، عن سليمان بن أبي راشد ، عن عبد الرحمن بن عبيد أبي الكنود ، قال : مرّ عبد الله بن عباس على أبي الأسود الدؤليّ ، فقال : لو كنت من البهائم كنت جملًا ، ولو كنت راعياً ما بلغت من المرعى ، ولا أحسنت مهنته في المشي . قال : فكتب أبو الأسود إلى عليّ :

أما بعد ، فإنّ الله جلّ وعلا جعلك والياً مؤتمناً ، وراعياً مستولياً ، وقد بلوناك فوجدناك عظيم الأمانة ، ناصحاً للرعية ، توفر لهم فيئتهم ، وتظلف نفسك عن دنياهم ، فلا تأكل أموالهم ، ولا ترتشي في أحكامهم . وإنّ ابن عمك قد أكل ما بلغت من المرعى ، ولا أحسنت مهنته في المشي . قال : فكتب أبو الأسود إلى عليّ :

فكتب إليه عليّ : أما بعد ، فبمثلك نصح الإمام والأمة ، وأدى الأمانة ، ودلّ على الحقّ ، وقد كتبتُ إلى صاحبك فيما كتبتُ إليّ فيه من أمره ، ولم أعلمه أنك كتبتَ ، فلا تدع إعلامي بما يكون بحضرتك مما النظر فيه للأمة صلاح ، فإنك بذلك جدير ، وهو حقّ واجب عليك ؛ والسلام .

وكتب إلى ابن عباس في ذلك ، فكتب إليه ابن عباس : أما بعد ، فإن الذي بلغك باطل ، وإنني لما تحت يدي ضابط قائم له وله حافظ ، فلا تصدّق الظنون ؛ والسلام .

قال : فكتب إليه عليّ : أما بعد ، فأعلمني ما أخذت من الجزية ، ومن أين أخذت ؟ وفيهم وضعت ؟ .

قال : فكتب إليه ابن عباس : أما بعد ، فقد فهمتُ تعظيمك مرّاة ما بلغك أنّي رزأته من مال أهل هذا البلد ، فابعت إلى عملك ففعلتُ ما فعلتُ ، فإني ظاعنٌ عنه ، والسلام .

ثم دعا ابن عباس أخواله بني هلال بن عامر ، فجاءه الضحّاك بن عبدالله وعبدالله بن زرين بن أبي عمرو الهلاليّان ، ثم اجتمعت معه قيس كلّها فحمل مالا .

قال أبو زيد : قال أبو عبيدة : كانت أرزاقاً قد اجتمعت ، فحمل معه مقدار ما اجتمع له ، فبعثت الأخماس كلها ، فلحقوه بالطّف ، فتوافقوا يريدون أخذ المال ، فقالت قيس : واللّه لا يُوصَل إلى ذلك وفينا عينٌ تطرف . وقال صبرة بن شيمان الحُدّانيّ : يا معشر الأزد ، واللّه إنّ قيساً لإخواننا في الإسلام ، وجيراننا في الدار ، وأعاوننا على العدو ، وإنّ الذي يصيبكم من هذا المال لو ردّ عليكم لقليل ، وهم غداً خيرٌ لكم من المال . قالوا : فما ترى ؟ قال : انصرفوا عنهم ودّعوهم ، فأطاعوه فانصرفوا ؛ فقالت بكر وعبدالقيس : نعم الرأي رأي صبرة لقومه ، فاعتزلوا أيضاً ، فقالت بنو تميم : والله لا نفارقهم ؛ نقاتلهم عليه . فقال الأحنف : قد ترك قتالهم من هو أبعد منكم رجماً ؛ فقالوا : واللّه لنقاتلهم ؛ فقال : إذا لا أساعدكم عليهم ، فاعتزلهم ؛ قال : فرأسوا عليهم ابن المُجاعة من بني تميم ، فقاتلوهم ، وحمل الضحّاك على ابن المُجاعة فطعنه ، واعتنقه عبدالله بن زرين ، فسقطا إلى الأرض يعتري كان ، وكثرت الجراح فيهم ، ولم يكن بينهم قتيل ؛ فقالت الأخماس : ما صنعنا شيئاً ، اعتزلناهم وتركناهم يتحاربون ، فضربوا وجوه بعضهم عن بعض ، وقالوا لبني تميم : لنحن أسخى منكم أنفساً حين تركنا هذا المال لبني عمكم ، وأنتم تقاتلونهم عليه ، إن القوم قد حمّلوا وحّموا ، فخلّوهم ، وإن أحببتهم فانصرفوا . ومضى ابن عباس ومعه نحو من عشرين رجلاً حتى قديم مكة .

وحديثي أبو زيد ، قال : زعم أبو عبيدة - ولم أسمعه منه - أنّ ابن عباس لم يبرح من البصرة حتى قُتل علي عليه السلام ، فشخص إلى الحسن ، فشهد الصلحَ بينه وبين معاوية ، ثم رجع إلى البصرة وثقله بها ، فحمّله ومالاً من بيت المال قليلاً ؛ وقال : هي أرزاقِي .

قال أبو زيد : ذكرتُ ذلك لأبي الحسن فأنكره ، وزعم أنّ علياً قُتل وابن عباس بمكة ، وأنّ الذي شهد الصلح بين الحسن ومعاوية عبيدُ الله بن عباس .

وفي هذه السنة قُتل علي بن أبي طالب عليه السلام ، واختُلف في وقت قتله ، فقال أبو معشر ما حدثني به أحمد بن ثابت ، قال : حَدَّثْتُ عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، قال : قُتل علي في شهر رمضان يوم الجمعة لسبع عشرة خلت منه سنة أربعين .

وكذلك قال الواقدي ، حَدَّثَنِي بذلك الحارث ، عن ابن سعد عنه ، وأما أبو زيد فحَدَّثَنِي عن علي بن محمد أنه قال : قُتل عليُّ بن أبي طالب بالكوفة يوم الجمعة لإحدى عشرة . قال : ويقال : لثلاث عشرة بقيت من شهر رمضان سنة أربعين . قال : وقد قيل في شهر ربيع الآخر سنة أربعين .

ذكر الخبر عن سبب قتله ومقتله :

حَدَّثَنِي موسى بن عثمان بن عبدالرحمن المسروقي ، قال : حَدَّثَنَا عبدالرحمن الحرّانيّ أبو عبدالرحمن ، قال : أَخْبَرَنَا إسماعيل بن راشد ، قال : كان من حديث ابن مُلْجَم وأصحابه أنّ ابن ملْجَم والبرك بن عبدالله وعمرو بن بكر التميمي اجتمعوا ، فتذكّروا أمر الناس ، وعابوا على ولايتهم ، ثم ذكروا أهل النهر ،

فترحموا عليهم ، وقالوا : ما نضنع بالبقاء بعدهم شيئاً ! إخواننا الذين كانوا دُعاة الناس لعبادة ربهم ، والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم ، فلو شَرِينَا أَنْفُسَنَا فَأَتَيْنَا أُمَّة الضلالة فالتمسنا قتلهم ، فأرحنا منهم البلاد ، وثأرنا بهم إخواننا ! فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم علي بن أبي طالب - وكان من أهل مصر - وقال النبي : أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان ؛ وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمرو بن العاص . فتأندوا وتوأنقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه . فأخذوا أسافهم ، فسموها ، واتعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان أن يثب كل واحد منهم على صاحبه الذي توجه إليه ، وأقبل كل رجل منهم إلى المصر الذي فيه صاحبه الذي يطلب .

فأما ابن ملجم المرادي فكان عِداده في كِنْدَةَ ، فخرج فلقي أصحابه بالكوفة ، وكانتهم أمره كراهة أن يُفهِرُوا شيئاً من أمره ، فإنه رأى ذات يوم أصحاباً من تيمم الرباب - وكان علي قتل منهم يوم النهر عشرة - فذكروا قتلهم ، ولقي من يومه ذلك امرأة من تيمم الرباب يقال لها : قَطَام ابنة الشَّجَنَةِ - وقد قتل أباهما رَأْساً ما يوم النهر ، وكانت فائقة الجمال - فلما رآها التبست بعقله ، ونسي حاجته التي جاء لها ؛ ثم خطبها ، فقالت : لا أتزوجك حتى تشفي لي قال : وما يشفيك ؟ قالت : ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علي بن أبي طالب ، قال : هو مهر لك ، فأما قتل علي فلا أراكِ ذكرته لي وأنت تريدينني ! قالت : بلى ، التمس غرته ، فإني أصبت شفيت نفسك ونفسي ، وبهينك العيش معي ، وإن قُتِلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها ؛ قال : فوالله ما جاء بي إلى هذا المصر إلا قتل علي ، فلك ما سألت . قالت : إني أطلب لك من يُسند ظهرَكَ ، ويساعدك على أمرِكَ ، فبعثت إلى رجل من قومها من تيمم الرباب يقال له : وَرْدَان فكلَّمته رُجاءها ، وأتى ابن ملجم رجلاً من أشجع يقال له شبيب بن بَجَرَة فقال له : هل لك في شرف الدنيا والآخرة ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : قتل علي بن أبي طالب ؛ قال : ثكلتك أمك ! لقد جئت شيئاً إداً ، كيف تقدر على علي ! قال : أكمن له في المسجد ، فإذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه ، فإن نجونا شفيْنَا أَنْفُسَنَا ، وأدركنا ثأرنا ، وإن قُتِلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها . قال : ويحك ! لو كان غير علي لكان أهون علي ، قد عرفت بلاءه في الإسلام ، وسابقتُه مع النبي ﷺ وما أجدي أنشرح لقتله . قال : أما تعلم أنه قتل أهل النهر العباد الصالحين ! قال : بلى ، قال : فنقتله بمن قتل من إخواننا ، فأجابه - فحاوروا قَطَام - وهي في المسجد الأعظم معتكِفة - فقالوا لها : قد أجمع رأينا على قتل علي ؛ قالت : فإذا أردتم ذلك فأتوني ، ثم عاد إليها ابن ملجم في ليلة الجمعة التي قُتل في صبيحتها علي سنة أربعين - فقال : هذه الليلة التي واعدت فيها صاحبِي أن يقتل كل منا صاحبه ، فدعت لهم بالحرير فعصبتهم به ، وأخذوا أسيافهم وجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي ، فلما خرج ضربه شبيب بالسيف . فوقع سيفه بعضادة الباب أو الطاق ، وضربه ابن ملجم في قرنه بالسيف ، وهرب وَرْدَان حتى دخل منزله ، فدخل عليه رجل من بني أبيه وهو ينزع الحرير عن صدره ، فقال : ما هذا الحرير والسيف ؟ فأخبره بما كان وانصرف فجاء بسيفه فعلا به وَرْدَان حتى قَتَله ، وخرج شبيب نحو أبواب كِنْدَةَ في الغلس ، وصاح الناس ، فلحقه رجل من حضرموت يقال له عُومِر ، وفي يد شبيب السيف ، فأخذه ، وجثم عليه الحضرمي ، فلما رأى الناس قد أقبلوا في طلبه ، وسيف شبيب في يده ، خشي على نفسه ، فتركه ، ونجا شبيب في غمار الناس ، فشَدُوا على ابن ملجم

فأخذه ، إلا أن رجلاً من همدان يُكنى أبا أذماء أخذ سيفه فضرب رجله ، فصّره ، وتأخّر علي ، ورفع في ظهره جعدة بن هبيرة بن أبي وهب ، فصلّى بالناس الغداة ، ثم قال علي : عليّ بالرجل ، فأدخل عليه ، ثم قال : أي عدوّ الله ، ألم أحسن إليك ! قال : بلى ، قال : فما حملك على هذا ؟ قال : شحذته أربعين صباحاً ، وسألت الله أن يقتل به شرّ خلقه ؛ فقال عليه السلام : لا أراك إلا مقتولاً به ، ولا أراك إلا من شرّ خلقه .

وذكروا أن ابن ملجم قال قبل أن يضرب علياً - وكان جالساً في بني بكر بن وائل إذ مرّ عليه بجنابة أبحر بن جابر العجليّ أبي حجار ، وكان نصرانياً ، والنصارى حوّه ، وأناس مع حجار لمنزلته فيهم يمشون في جانب وفيهم شقيق بن ثور - فقال ابن ملجم : ما هؤلاء ؟ فأخبر الخبر ، فأنشأ يقول :

لئن كان حجار بن أبحر مسلماً	لقد بُوعِدَتْ منه جنازة أبحر
وإن كان حجار بن أبحر كافراً	فما مثل هذا من كفور بمكر
أترضون هذا أن فيساً ومُسلماً	جميعاً لدى نعل ، فيا قُبْحَ مَنْظَر!
فلولا الذي أنوي تفرقت جمعهم	بأيّض مضقول الدّياس مشهر
ولكنني أنوي بذلك وسيلة	إلى الله أو هذا فخذ ذاك أو ذر

وذكر أن محمد بن الحنفية ، قال : كنت والله إني لأصلي تلك الليلة التي ضرب فيها علي في المسجد الأعظم ، في رجال كثير من أهل المصر ، يصلون قريباً من السدة ، ما هم إلا قيام وركوع وسجود ، وما يسأمون من أول الليل إلى آخره ، إذ خرج علي لصلاة الغداة ، فجعل ينادي : أيها الناس ، الصلاة الصلاة ! فما أدري أخرج من السدة فتكلّم بهذه الكلمات أم لا ! فنظرت إلى بريق ، وسمعت : الحكم لله يا علي لا لك ولا لأصحابك ، فرأيت سيفاً ، ثم رأيت ثانياً ، ثم سمعت علياً يقول : لا يفوتنكم الرجل ، وشدّ الناس عليه من كلّ جانب . قال : فلم أبرح حتى أخذ ابن ملجم وأدخل على علي ، فدخلت فيمن دخل من الناس ، فسمعت علياً يقول : النفس بالنفس ، إن أنا ميت فاقتلوه كما قتلتني ، وإن بقيت رأيت فيه رأيي .

وذكر أن الناس دخلوا على الحسن فزعين لما حدث من أمر علي ، فبينما هم عنده وابن ملجم مكتوف بين يديه ، إذ نادته أم كلثوم بنت علي وهي تبكي : أي عدوّ الله ، لا بأس على أبي ، والله مخزبك ! قال : فعلى من تبكين ؟ والله لقد اشتريته بألف ، وسمّته بألف ، ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل المصر ما بقي منهم أحد .

وذكر أن جندب بن عبد الله دخل على علي فسأله ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن فقدناك - ولا تفقدك - فنباع الحسن ؟ فقال : ما أمركم ولا أناكم ، أنتم أبصر . فردّ عليه مثلها ، فدعا حسناً وحسيناً ، فقال : أوصيكما بتقوى الله ، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تبكيا على شيء روي عنكما ، وقولاً الحق ، وارجعاً البيتيم ، وأغيشا الملهوف ، واصنعاً للأخرة ، وكونا للظالم خصماً ، وللمظلوم ناصراً ، واعملاً بما في الكتاب ، ولا تأخذكما في الله لومة لائم . ثم نظر إلى محمد بن الحنفية ، فقال : هل حفظت ما أوصيت به

أَخَوَيْكَ؟ قال: نعم ، قال : فإني أوصيك بمثله ، وأوصيك بتقوى أَخَوَيْكَ ، لعظيم حَقِّها عليك ، فاتبع أمرهما ، ولا تقطع أمراً دونهما . ثم قال : أوصيكُما به ، فإنه شقيقكما ، وابنُ أبيكما ، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه . وقال للحسن : أوصيك أي بُنَيَّ بتقوى الله ، وإقام الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة عند محلها ، وحسن الوضوء ، فإنه لا صلاة إلا بظهور ، ولا تُقبل صلاة من مانع زكاة ، وأوصيك بغفر الذنب ، وكظم الغيظ ، وصلة الرَّحِم ، والحلم عند الجهل ، والتفقه في الدين ، والتثبت في الأمر ، والتعاهد للقرآن ، وحسن الجوار ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، واجتناب الفواحش .

فلما حضرته الوفاة أوصى ، فكانت وصيته :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب ، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . ثم إنَّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ؛ ثم أوصيك يا حسن وجميع ولدي وأهلي بتقوى الله ربكم ، ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، فإني سمعت أبا القاسم عليه السلام يقول : «إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام» ! انظروا إلى ذوري أرحامكم فصلوهم يهون الله عليكم الحساب ، الله في الأيتام ، فلا تُعنوا أفواههم ، ولا يضيعنَّ بحضرتكم . والله الله في جيرانكم ، فإنهم وصية نبيكم صلى الله عليه وآله ، ما زال يُوصي به حتى ظننا أنه سيورثه . والله الله في القرآن ؛ فلا يسبقنَّكم إلى العمل به غيركم ، والله الله في الصلاة ، فإنها عمود دينكم ، والله الله في بيت ربكم فلا تُخلوه ما بقيتم ، فإنه إن ترك لم ينظر ، والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، والله الله في الزكاة ، فإنها تطفئ غضب الرب ، والله الله في ذمة نبيكم ، فلا يُظلمنَّ بين أظهركم ، والله الله في أصحاب نبيكم ، فإن رسول الله أوصى بهم ، والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معاشكم ، والله الله فيما ملكت أيما نكم . الصلاة الصلاة لا تخافنَّ في الله لومة لائم ، يكفيكم من أراذكُم وبغى عليكم . وقولوا للناس حسناً كما أمركم الله ، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيوئى الأمر شراركم ، ثم تدعون فلا يُستجاب لكم . وعليكم بالتواصل والتبادل ، وإياكم والتدابير والتقاطع والتفرق ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إنَّ الله شديد العقاب . حفظكم الله من أهل بيت ، وحفظ فيكم نبيكم . أستودعكم الله ، وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله .

ثم لم ينطق إلا «بلا إله إلا الله» حتى قبض رضي الله عنه ، وذلك في شهر رمضان سنة أربعين ، وغسله ابنه الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر ، وكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ، وكبر عليه الحسن تسع تكبيرات ، ثم ولى الحسن ستة أشهر .

وقد كان عليُّ بنِ الحُسن عن المثلة ، وقال : يا بني عبدالمطلب ، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين ، تقولون : قُتل أمير المؤمنين ، قُتل أمير المؤمنين ! ألا لا يقتلنَّ إلا قاتلي . انظر يا حسن ، إنَّ أنا ميت من ضربته هذه فاضربه ضربةً بضربة ، ولا تمثل بالرجل ، فإني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول : «إياكم والمثلة ، ولو

أنها بالكلب العقور . فلما قبض عليه السلام بعث الحسن إلى ابن ملجم ، فقال للحسن : هل لك في خصلة ؟ إني والله ما أعطيت الله عهداً إلا وفيت به ، إني كنت قد أعطيت الله عهداً عند الحطيم أن أقتل علياً ومعاوية أو أموت دونهما ، فإن شئت خلّيت بيني وبينه ، ولك الله عليّ إن لم أقتله - أو قتلته ثم بقيت - أن آتيك حتى أضع يدي في يدك . فقال له الحسن : أما والله حتى تعاین النار فلا . ثم قدّمه فقتله ، ثم أخذه الناس فأدرجوه في بواري ، ثم أحرّقه بالنار .

وأما البرك بن عبدالله فإنه في تلك الليلة التي ضرب فيها عليّ قعد لمعاوية ، فلما خرج ليصلي الغداة شدّ عليه بسيفه ، فوقع السيف في أليته ، فأخذ ، فقال : إنّ عندي خبراً أسرك به ، فإن أخبرتك فنافعي ذلك عندك ؟ قال : نعم ؛ قال : إنّ أخاً لي قتل علياً في مثل هذه الليلة ، قال : فلعله لم يقدر على ذلك ! قال : بلى ، إنّ علياً يخرج ليس معه من يحرسه ؛ فأمر به معاوية فقتل . وبعث معاوية إلى الساعدي - وكان طبيباً - فلما نظر إليه قال : اختر إحدى خصلتين : إما أن أجيّ حديدة فأضعها موضع السيف ، وإما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد ، وتبرأ منها ، فإن ضربتك مسمومة ، فقال معاوية : أما النار فلا صبر لي عليها ، وأما انقطاع الولد فإنّ في يزيد وعبدالله ما تقرّ به عيني . فسقاه تلك الشربة فبرأ ، ولم يولد له بعدها ، وأمر معاوية عند ذلك بالمقصورات وحرس الليل وقيام الشرطة على رأسه إذا سجّد .

وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو بن العاص تلك الليلة ، فلم يخرج ، وكان اشتكى بطنه ، فأمر خارجة بن حذافة ، وكان صاحب شرطته ، وكان من بني عامر بن لؤي ، فخرج ليصلي ، فشدّ عليه وهو يرى أنه عمرو ، فضربه فقتله ، فأخذه الناس ، فانطلقوا به إلى عمرو يسلمون عليه بالإمرة ، فقال : من هذا ؟ قالوا : عمرو ؛ قال : فمن قتلته ؟ قالوا : خارجة بن حذافة ، قال : أما والله يا فاسق ما ظننته غيرك ، فقال عمرو : أردتني وأراد الله خارجة ، فقدّمه عمرو فقتله ، فبلغ ذلك معاوية ، فكتب إليه :

وَقَتْلُ وَأَسْبَابُ الْمَنَايَا كَثِيرَةٌ
فِيَا عَمْرُو مَهْلًا إِنَّمَا أَنْتَ عَمُّهُ
نَجَوْتُ وَقَدْ بَلَ الْمُرَادِيُّ سَيْفُهُ
وَيَضْرِبُنِي بِالسَّيْفِ آخِرُ مِثْلُهُ
وَأَنْتَ تُنَاغِي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ
بِمِصْرِكَ بِيضًا كَالظُّبَاءِ السُّوَارِبِ

ولما انتهى إلى عائشة قتل علي - رضي الله عنه - قالت :

فَأَلَقْتُ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّتْ بِهَا النَّوَى
فَمَنْ قَتَلَهُ ؟ قِيلَ : رَجُلٌ مِنْ مُرَادٍ ؛ فَقَالَتْ :

فَإِنْ يَكُ نَائِيًا فَلَقَدْ نَعَاهُ
غُلَامٌ لَيْسَ فِيهِ الشُّرَابُ

فقالت زينب ابنة أبي سلمة : ألعليّ تقولين هذا ؟ فقالت : إني أنسى ، فإذا نسيت فذكروني . وكان الذي ذهب بنعيه سُفْيَانُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ الزُّهْرِيُّ . وقال ابن أبي مَيَّاسٍ المراديّ في قتل

علي :

ونحن ضربنا يا لك الخير خيذراً
ونحن خلعنا ملكه من نظامه
ونحن كرام في الصباح أعزة
وقال أيضاً :

ولم أر مهراً ساقه ذو سماحة
ثلاثة آلاف وعبد وقينة
فلا مهراً أغلى من علي وإن غلاً
كمهر قظام من فصيح وأعجم
وضرب علي بالحسام المصمم
ولا قتل إلا دون قتل ابن ملجم

وقال أبو الأسود الدؤلي :

ألا أبلغ معاوية بن حرب
أفي شهر الصيام فجعتُمونا
قتلتم خير من ركب المطايا
ومن ليس النعال ومن حذاها
إذا استقبلت وجه أبي حسين
لقد علمت قريش حيث كانت
فلا قرت عيون الشامتينا
بخير الناس طراً أجمعينا
ورحلها ومن ركب السفينا
ومن قرأ المثاني والمبينا
رأيت البدر راغ الناظرينا
بأنك خيرها حسباً ودينا

واختلف في سنة يوم قتل ، فقال بعضهم : قتل وهو ابن تسع وخمسين سنة .

وحدثت عن مصعب بن عبد الله ، قال : كان الحسن بن علي يقول : قتل أبي وهو ابن ثمان وخمسين سنة .

وحدثنا عن بعضهم ، قال : قتل وهو ابن خمس وستين سنة .

وحدثني أبو زيد ، قال : حدثني أبو الحسن ، قال : حدثني أيوب بن عمر بن أبي عمرو ، عن جعفر بن محمد ، قال : قتل علي وهو ابن ثلاث وستين سنة . قال : وذلك أصح ما قيل فيه .

حدثني عمر ، قال : حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني ، قال : حدثنا شريك ، عن أبي إسحاق ، قال : قتل علي عليه السلام وهو ابن ثلاث وستين سنة .

وقال هشام : ولي علي وهو ابن ثمان وخمسين سنة وأشهر ؛ وكانت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ، ثم قتله ابن ملجم - واسمه عبدالرحمن بن عمرو - في رمضان لسبع عشرة مضت منه ، وكانت ولايته أربع سنين وتسعة أشهر ، وقتل سنة أربعين وهو ابن ثلاث وستين سنة .

وحدثني الحارث ، قال : حدثني ابن سعد ، عن محمد بن عمر ، قال : قتل علي عليه السلام وهو ابن ثلاث وستين سنة صبيحة ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة أربعين ، ودُفن

عند مسجد الجماعة في قصر الإمارة.

حدثني الحارث ، قال : حدثنا ابن سعد ، قال : أخبرنا محمد بن عمر ، قال : ضُرب علي عليه السلام ليلة الجمعة ، فمكث يوم الجمعة وليلة السبت ، وتوفي ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة أربعين وهو ابن ثلاث وستين سنة .

وحدثني الحارث : قال : حدثنا ابن سعد ، قال : أخبرنا محمد بن عمر ، قال : حدثنا علي بن عمر وأبو بكر السبّري ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، قال : سمعتُ محمد بن الحنفية يقول سنة الجحاف [حين] دخلت سنة إحدى وثمانين هذه ولي خمس وستون سنة ، قد جاوزت سن أبي ؛ قيل : وكم كانت سنه يوم قُتل؟ قال : قُتل وهو ابن ثلاث وستين سنة .

وقال الحارث : قال ابن سعد : قال محمد بن عمر كذلك ، وهو الثَّبت عندنا .

ذكر الخبر عن قدر مدّة خلافته

حدثني أحمد بن ثابت ، قال : حدثت عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، قال : كانت خلافة علي خمس سنين إلا ثلاثة أشهر .

وحدثني الحارث ، قال : حدثني ابن سعد قال : قال محمد بن عمر : كانت خلافة علي خمس سنين إلا ثلاثة أشهر .

حدثني أبو يزيد ، قال : قال أبو الحسن : كانت ولاية علي أربع سنين وتسعة أشهر ، ويوماً أو غير يوم .

ذكر الخبر عن صفته

حدثني الحارث ، قال : حدثنا ابن سعد ، قال : أخبرنا محمد بن عمر ، قال : حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة ، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة ، قال : سألت أبا جعفر محمد بن علي ، قلت : ما كانت صفة علي عليه السلام؟ قال : رجل آدم شديد الأذمة ثقیل العينين عظيمهما ، ذوبطن ، أصلع ، هو إلى القصر أقرب .

ذكر نسبه عليه السلام

هو علي بن أبي طالب ، واسم أبي طالب عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف .

ذكر الخبر عن أزواجه وأولاده

فأول زوجة تزوجها فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده ، وكان لها منه من الولد : الحسن والحسين ، ويذكر أنه كان لها منه ابن آخر يسمى مُحَسِّنًا توفي صغيراً ، وزينب الكبرى ، وأم كلثوم الكبرى .

ثم تزوج بعد أم البنين بنت حزام - وهو أبو المجل بن خالد بن ربيعة بن الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب - فولد لها منه العباس ، وجعفر ، وعبد الله ، وعثمان ، قُتِلُوا مع الحسين عليه السلام بكرّ بلاء ، ولا بقية لهم غير العباس .

وتزوج ليلي بنت مسعود بن خالد بن مالك بن ربيعة بن سلمى بن جندل بن نَهْشَل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، فولدت له عبيد الله وأبا بكر . فزعم هشام بن محمد أنها قُتِلَا مع الحسين بالطّف . وأما محمد بن عمر فإنه زعم أن عبيد الله بن علي قتله المختار بن أبي عبيد بالمدار ، وزعم أنه لا بقية لعبيد الله ولا لأبي بكر ابني علي عليه السلام .

وتزوج أسماء بنت عُميس الخثعمية ، فولدت له - فيما حَدَّثَتْ عن هشام بن محمد - يحيى ومحمداً الأصغر ، وقال : لا عقب لهما .

وأما الواقدي فإنه قال فيما حَدَّثَنِي الحارث ، قال : حَدَّثَنَا ابن سعد ، قال : أَخْبَرَنَا الواقدي أن أسماء ولدت لعليّ يحيى وعوناً ابني علي . ويقول بعضهم : محمد الأصغر لأم ولد ، وكذلك قال الواقدي في ذلك ؛ وقال : قتل محمد الأصغر مع الحسين .

وله من الصّهباء - وهي أم حبيب بنت ربيعة بن بُجَيْر بن العبد بن علقمة بن الحارث بن عُتْبَة بن سعد بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل ، وهي أم ولد من السبي الذين أصابهم خالد بن الوليد حين أغار على عين التمر على بني تغلب بها - عمر بن علي ، ورقية ابنة علي ، فَعُمِّرَ عمر بن علي حتى بلغ خمساً وثمانين سنة ، فحاز نصف ميراث علي عليه السلام ، ومات بَيْنَع .

وتزوج أمامة بنت أبي العاصي بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ ، فولدت له محمداً الأوسط .

وله محمد بن علي الأكبر ، الذي يقال له : محمد بن الحنفية ، أمه خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدؤل بن حنيفة بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل ، توفي بالطائف فصلّى عليه ابن عباس .

وتزوج أم سعيد بنت عروة بن مسعود بن معتب بن مالك الثقفي ، فولدت له أم الحسن ورملة الكبرى .

وكان له بنات من أمهات شتى لم يسم لنا أسماء أمهاتهن ؛ منهن أم هانئ ، وميمونة ، وزينب الصغرى ، ورملة الصغرى ، وأم كلثوم الصغرى وفاطمة ، وأمامة ، وخديجة ، وأم الكرام ، وأم سلمة ، وأم جعفر ، وجُمَانَة ، ونفيسة بنات علي عليه السلام ؛ أمهاتهن أمهات أولاد شتى .

وتزوّج حبيّة بنت امرئ القيس بن عديّ بن أوس بن جابر بن كعب بن عُليم من كلب ، فولدت له جارية ، هلكت وهي صغيرة . قال الواقدي : كانت تخرج إلى المسجد وهي جارية فيقال لها : مَنْ أخوالكِ؟ فتقول وه ، وه - تعني كلباً .

فجميع ولد علي لصلبه أربعة عشر ذكراً ، وسبع عشرة امرأة .

حدّثني الحارث ، قال : حدّثنا ابن سعد عن الواقدي ، قال : كان النسل من ولد علي لخمسة : الحسن ، والحسين ، ومحمد ابن الحنفية ، والعباس ابن الكلابية ، وعمر بن التغلبيّة .

ذكر ولاته

وكان واليه على البصرة في هذه السنة عبد الله بن العباس ، وقد ذكرنا اختلاف المختلفين في ذلك ، وإليه كانت الصدقات والجند والمعاون أيام ولايته كلّها ، وكان يستخلف بها إذا شخص عنها على ما قد بينت قبل . وكان على قضائها من قبل علي أبو الأسود الدؤليّ ، وقد ذكرت ما كان من توليته زياداً عليها ، ثم إشخاصه إياه إلى فارس لحربها وخراجها ، فقتل وهو بفارس ، وعلى ما كان وجهه عليه .

وكان عامله على البحرين وما يليها واليمن ومخاليفها عبيد الله بن العباس ، حتى كان من أمره وأمرئسر ابن أبي أرتاة ما قد مضى ذكره .

وكان عامله على الطائف ومكة وما اتصل بذلك قثم بن العباس .

وكان عامله على المدينة أبو أيوب الأنصاريّ ، وقيل : سهل بن حنيف ، حتى كان من أمره عند قدوم بسر ما قد ذكر قبل .

ذكر بعض سيره عليه السلام

حدّثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا وهب ، قال : أخبرني ابن أبي ذئب ، عن عباس بن الفضل مولى بني هاشم ، عن أبيه ، عن جدّه ابن أبي رافع ، أنه كان خازناً لعلي عليه السلام على بيت المال ، قال : فدخل يوماً وقد زينت ابنته ، فرأى عليها لؤلؤة من بيت المال قد كان عرفها ، فقال : من أين لها هذه؟ لله عليّ أن أقطع يدّها ، قال : فلما رأيت جدّه في ذلك قلت : أنا والله يا أمير المؤمنين زينت بها ابنة أخي ، ومن أين كانت تقدّر عليها لو لم أعطيها! فسكت .

حدّثني إسماعيل بن موسى الفزاريّ ، قال : حدّثنا عبد السلام بن حرب ، عن ناجية القرشي ، عن عمّه يزيد بن عديّ بن عثمان ، قال : رأيت عليّاً عليه السلام خارجاً من همدان ، فرأى فئتين يقتتلان ، ففرّق بينهما ، ثم مضى فسمع صوتاً . يا غوثاً بالله ! فخرج يُحضر نحوه حتى سمعت خفق نعليه وهو يقول : أناك الغوث ، فإذا رجل يلازم رجلاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، بعث هذا ثوباً بتسعة دراهم ، وشرطت

عليه ألا يعطيني مغموراً ولا مقطوعاً - وكان شرطهم يومئذ - فأتيته بهذه الدراهم ليبدلها لي فأبى ، فلزمته فلطمني ، فقال : أبدله ؛ فقال : بيئتك على اللطمة ؛ فأتاه بالبينة ، فأقعده ثم قال : دونك فاقصص ؛ فقال : إني قد عفوت يا أمير المؤمنين ، قال : إنما أردت أن أحتاط في حقك ، ثم ضرب الرجل تسع درات ، وقال : هذا حق السلطان .

حدثني محمد بن عمارة الأسدي ، قال : حدثنا عثمان بن عبدالرحمن الأصبهاني ، قال : حدثنا المسعودي ، عن ناجية ، عن أبيه ، قال : كنا قياماً على باب القصر ، إذ خرج عليٌّ علينا ، فلما رأيناه تنحينا عن وجهه هيباً له ، فلما جاز صرنا خلفه ، فبينما هو كذلك إذ نادى رجل يا غوثاً بالله ! فإذا رجلان يقتتلان ، فلكز صدر هذا وصدر هذا ، ثم قال لهما : تنحيا ، فقال أحدهما : يا أمير المؤمنين ، إن هذا اشترى مني شاة ، وقد شرطت عليه ألا يعطيني مغموراً ولا محدفاً ، فأعطاني درهماً مغموراً ، فرددته عليه فلطمني ؛ فقال للآخر : ما تقول ؟ قال : صدق يا أمير المؤمنين ، قال فأعطه شرطه ، ثم قال للآخر : اجلس ، وقال للملطوم : اقصص . قال : أو أعفو يا أمير المؤمنين ؟ قال : ذاك إليك ؛ قال : فلما جاز الرجل قال علي : يا معشر المسلمين ، خذوه ؛ قال : فأخذوه ، فحُبل على ظهر رجل كما يُحمل صبيان الكتاب ، ثم ضربه خمس عشرة درة ، ثم قال : هذا نكال لما انتهكت من حرمة .

حدثني ابن سنان القرظي ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا سُكين بن عبدالعزيز ، قال : أخبرنا حفص بن خالد ، قال : حدثني أبي خالد بن جابر قال : سمعت الحسن يقول : لما قُتل علي عليه السلام وقد قام خطيباً ، فقال : لقد قتلت ليلة رجلاً في ليلة فيها نزل القرآن ، وفيها رُفع عيسى بن مريم عليه السلام ، وفيها قُتل يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام . والله ما سبقه أحد كان قبله ، ولا يدركه أحد يكون بعده ، والله إن كان رسول الله ﷺ ليعتبه في السرية وجبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا ثمانمائة - أو سبعمائة - أرضدها لخدمه .

ذكربيعة الحسن بن علي

وفي هذه السنة - أعني سنة أربعين - بويح للحسن بن علي عليه السلام بالخلافة ؛ وقيل : إن أول من بايعه قيس بن سعد ، قال له : ابسط يدك أبايعك على كتاب الله عز وجل ، وسنة نبيه ، وقتال المحلّين ؛ فقال له الحسن رضي الله عنه : على كتاب الله وسنة نبيه ؛ فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط ؛ فبايعه وسكت ، وبايعه الناس .

وحدثني عبدالله بن أحمد بن شبيب المروزي ، قال : حدثنا أبي قال : حدثنا سليمان ، قال : حدثنا عبدالله ، عن يونس ، عن الزهري ، قال : جعل علي عليه السلام قيس بن سعد على مقدمته من أهل العراق إلى قبل أذربيجان ، وعلى أرضها وشربة الخميس الذي ابتدعه من العرب ، وكانوا أربعين ألفاً ، بايعوا علياً عليه السلام على الموت ، ولم يزل قيس يداري ذلك البعث حتى قُتل علي عليه السلام ؛ واستخلف أهل العراق الحسن بن علي عليه السلام على الخلافة ، وكان الحسن لا يرى القتال ، ولكنه يريد

أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية ، ثم يدخل في الجماعة ، وعرف الحسن أن قيس بن سعد لا يوافق على رأيه ، فنزعه وأمر عبيد الله بن عباس ، فلما علم عبدالله بن عباس بالذي يريد الحسن عليه السلام أن يأخذه لنفسه كتب إلى معاوية يسأله الأمان ، ويشترط لنفسه على الأموال التي أصابها ، فشرط ذلك له معاوية .

وحدثني موسى بن عبدالرحمن المسروقي ، قال : حدثنا عثمان بن عبد الحميد أو ابن عبدالرحمن الحراني الخزاعي أبو عبدالرحمن ، قال : حدثنا اسماعيل بن راشد ، قال : بايع الناس الحسن بن علي عليه السلام بالخلافة ، ثم خرج بالناس حتى نزل المدائن ، وبعث قيس بن سعد على مقدمته في اثني عشر ألفاً ، وأقبل معاوية في أهل الشام حتى نزل مسكن ، فبينما الحسن في المدائن إذ نادى مناد في العسكر : ألا إن قيس بن سعد قد قُتل ، فانفروا ، فانفروا ونهبوا سُرَادِقَ الحسن عليه السلام حتى نازعوه بساطاً كان تحته ، وخرج الحسن حتى نزل المقصورة البيضاء بالمدائن ، وكان عم المختار بن أبي عبيد عاملاً على المدائن ، وكان اسمه سعد بن مسعود ، فقال له المختار وهو غلام شاب : هل لك في الغنى والشرف ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : توثق الحسن ، وتستأمن به إلى معاوية ، فقال له سعد : عليك لعنة الله ، أثب على ابن بنت رسول الله ﷺ فأوثقه ! بش الرجل أنت ! فلما رأى الحسن عليه السلام تفرق الأمر عنه بعث إلى معاوية يطلب الصلح ، وبعث معاوية إليه عبدالله بن عامر وعبدالرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس ، فقدموا على الحسن بالمدائن ، فأعطياه ما أراد ، وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف في أشياء اشترطها . ثم قام الحسن في أهل العراق فقال : يا أهل العراق ، إنه سَخَى بنفسي عنكم ثلاث : قتلكم أبي ، وطعنكم إياي ، وانتهابكم متاعي .

ودخل الناس في طاعة معاوية ، ودخل معاوية الكوفة ، فبايعه الناس .

قال زياد بن عبدالله ، عن عوانة ؛ وذكر نحو حديث المسروقي ، عن عثمان بن عبدالرحمن هذا ، وزاد فيه : وكتب الحسن إلى معاوية في الصلح ، وطلب الأمان ، وقال الحسن للحسين ولعبدالله بن جعفر : إني قد كتبت إلى معاوية في الصلح وطلب الأمان ؛ فقال له الحسين : نشدتك الله أن تصدق أحدثه معاوية ، وتكذب أحدثه علي ! فقال له الحسن : اسكت ، فأنا أعلم بالأمر منك . فلما انتهى كتاب الحسن بن علي عليه السلام إلى معاوية ، أرسل معاوية عبدالله بن عامر وعبدالرحمن بن سمرة ، فقدموا المدائن ، وأعطيا الحسن ما أراد ، فكتب الحسن إلى قيس بن سعد وهو على مقدمته في اثني عشر ألفاً يأمره بالدخول في طاعة معاوية ، فقام قيس بن سعد في الناس فقال : يأيها الناس ، اختاروا الدخول في طاعة إمام ضلالة ، أو القتال مع غير إمام ؛ قالوا : لا ، بل نختار أن ندخل في طاعة إمام ضلالة . فبايعوا لمعاوية ، وانصرف عنهم قيس بن سعد ، وقد كان صالح الحسن معاوية على أن جعل له ما في بيت ماله وخراج دارا بمجرد على الأُيُتَمِّم علي وهو يسمع . فأخذ ما في بيت ماله بالكوفة ، وكان فيه خمسة آلاف ألف .

وحج بالناس في هذه السنة المغيرة بن شعبه . حدثني موسى بن عبدالرحمن ، قال : حدثنا عثمان بن عبدالرحمن الخزاعي أبو عبدالرحمن ، قال : أخبرنا إسماعيل بن راشد قال : لما حضر الموسم - يعني في العام

الذي قُتِل فيه علي عليه السلام - كتب المغيرة بنُ شعبة كتاباً افتعلهُ على لسان معاوية ، فأقام للناس الحجَّ سنة أربعين ، ويقال : إنَّه عرّف يوم التروية ، ونحر يوم عرفة ، خوفاً أن يفتن بمكانه . وقد قيل : إنه إنما فعل ذلك المغيرة لأنه بلغه أن عُتْبَةَ بن أبي سُفْيَان مصبّحه والياً على الموسم ، فعجل الحجَّ من أجل ذلك .

وفي هذه السنة بويع لمعاوية بالخلافة بإيلياء ؛ حدّثني بذلك موسى بن عبدالرحمن ، قال : حدّثنا عثمان بن عبدالرحمن ، قال : أخبرنا إسماعيل بن راشد - وكان قبل يدعى بالشام أميراً - وحدّث عن أبي مسهر ، عن سعيد بن عبدالعزيز ، قال : كان علي عليه السلام يُدعى بالعراق أمير المؤمنين ، وكان معاوية يدعى بالشام : الأمير ، فلما قُتِل علي عليه السلام دُعي معاوية : أمير المؤمنين .

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فما كان فيها من ذلك تسليم الحسن بن علي عليه السلام الأمر إلى معاوية ودخول معاوية الكوفة ، وبيعة أهل الكوفة معاوية بالخلافة .

ذكر الخبر بذلك :

حدثني عبدالله بن أحمد المروزي ، قال : أخبرني أبي ، قال : حدثنا سليمان ، قال : حدثني عبدالله ، عن يونس ، عن الزُّهري ، قال : بايع أهل العراق الحسن بن علي بالخلافة ، فطفق يشترط عليهم الحسن : إنكم سامعون مطيعون ، تُسألون مَنْ سألْت ، وتحاربون مَنْ حاربت ، فارتاب أهل العراق في أمرهم حين اشترط عليهم هذا الشرط ، وقالوا : ما هذا لكم بصاحب ، وما يريد هذا القتال ؛ فلم يلبث الحسن عليه السلام بعد ما بايعوه إلا قليلاً حتى طعن طعنة أشوته ، فازداد لهم بغضاً ، وازداد منهم دُغراً ، فكتب معاوية ، وأرسل إليه بشروط ، قال : إن أعطيتني هذا فأنا سامع مطيع ، وعليك أن تفني لي به . ووقعت صحيفة الحسن في يد معاوية ، وقد أرسل معاوية قبل هذا إلى الحسن بصحيفة بيضاء ، مختوم على أسفلها ، وكتب إليه أن اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت فهو لك .

فلما أتت الحسن اشترط أضعاف الشروط التي سأل معاوية قبل ذلك ، وأمسكها عنده ، وأمسك معاوية صحيفة الحسن عليه السلام التي كتب إليه يسأله ما فيها ، فلما التقى معاوية والحسن عليه السلام ، سأله الحسن أن يعطيه الشروط التي شرط في السجل الذي ختم معاوية في أسفلها ، فأبى معاوية أن يعطيه ذلك ، فقال : لك ما كنت كتبت إليّ أولاً تسألني أن أعطيكَه ، فإنني قد أعطيتُك حين جاءني كتابك . قال الحسن عليه السلام : وأنا قد اشترطت حين جاءني كتابك ، وأعطيني العهد على الوفاء بما فيه . فاختلفا في ذلك ، فلم يُنفذ للحسن عليه السلام من الشروط شيئاً ، وكان عمرو بن العاص حين اجتمعوا بالكوفة قد كلم معاوية ، وأمره أن يأمر الحسن أن يقوم ويخطب الناس ، فكره ذلك معاوية ، وقال : ما تريد إلى أن يخطب الناس ! فقال عمرو : لكني أريد أن يبدؤ عيهُ للناس ؛ فلم يزل عمرو بمعاوية حتى أطاعه ، فخرج معاوية فخطب الناس ، ثم أمر رجلاً فنادى الحسن بن علي عليه السلام ؛ فقال : قم يا حسن فكلم الناس ، فتشهد في بديهة أمر لم يرو فيه ، ثم قال : أما بعد ، يا أيها الناس ، فإن الله قد هداكم بأولنا ، وحقق دماءكم بآخرنا ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دُول ، وإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : « وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّ فِتْنَةً لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ »^(١) ؛ فلما قالمها

(١) سورة الأنبياء : ١١١ .

قال معاوية : اجلس ، فلم يزل ضَرمًا على عمرو ، وقال : هذا من رأيك . ولحق الحسن عليه السلام بالمدينة .

حدثني عمر ، قال : حدّثنا علي بن محمد ، قال : سلّم الحسن بن علي عليه السلام إلى معاوية الكوفة ، ودخلها معاوية لخمسة بقين من ربيع الأول ، ويقال من جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين . وفي هذه السنة جرى الصلح بين معاوية وقيس بن سعد بعد امتناع قيس من بيعته . ذكر الخبر بذلك :

حدثني عبدالله بن أحمد ، قال : حدّثني أبي ، قال : حدّثني سليمان بن الفضل ، قال : حدثني عبدالله ، عن يونس ، عن الزُّهري ، قال : لما كتب عبيد الله بن عباس حين علم ما يريد الحسن من معاوية من طلب الأمان لنفسه إلى معاوية يسأله الأمان ، ويشترط لنفسه على الأموال التي قد أصاب ، فشرط ذلك له معاوية ، بعث إليه معاوية بن عامر في خيلٍ عظيمة ، فخرج إليهم عبيد الله ليلاً حتى لحق بهم ، ونزل وترك جنده الذي هو عليه لا أمير لهم ، فيهم قيس بن سعد ، واشترط الحسن عليه السلام لنفسه ، ثم بايع معاوية ، وأمرت شرطه الخميس قيس بن سعد على أنفسهم ، وتعاهدوا هو وهم على قتال معاوية حتى يشترط لشيعه علي عليه السلام ولمن كان أتبعه على أموالهم ودمائهم . وما أصابوا في الفتنة ؛ فخلص معاوية حين فرغ من عبيد الله بن عباس والحسن عليه السلام إلى مكايده رجل هو أهم الناس عنده مكايده ، ومعه أربعون ألفاً ، وقد نزل معاوية بهم وعمرو وأهل الشام ، وأرسل معاوية إلى قيس بن سعد يذكره الله ويقول : على طاعة من تقاتل ، وقد بايعني الذي أعطيت طاعتك ؟ فأبى قيس أن يلين له ، حتى أرسل إليه معاوية بسجّل قد ختم عليه في أسفله ، فقال : اكتب في هذا السجّل ما شئت ، فهو لك . قال عمرو لمعاوية : لا تُعطه هذا ، وقَاتِلْهُ ، فقال معاوية : على رسلك ! فإننا لا نخلص إلى قتل هؤلاء حتى يقتلوا أعداءهم من أهل الشام ، فما خير العيش بعد ذلك ! وإني والله لا أقاتله أبداً حتى لا أجد من قتاله بدءاً . فلما بعث إليه معاوية بذلك السجّل اشترط قيس فيه له ولشيعه علي الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال ، ولم يسأل معاوية في سجّله ذلك مالاً ، وأعطاه معاوية ما سأل ، فدخل قيس ومن معه في طاعته ، وكانوا يعدّون دهاة الناس حين ثارت الفتنة خمسة رهط ، فقالوا : ذو رأي العرب ومكيدتهم : معاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وقيس بن سعد ؛ ومن المهاجرين عبدالله بن بُذيل الخزاعي ؛ وكان قيس وابن بُذيل مع علي عليه السلام ، وكان المغيرة بن شعبة وعمرو مع معاوية ، إلا أن المغيرة كان معتزلاً بالطائف حتى حُكّم الحكماء ، فاجتمعوا بأُذرح .

وقيل : إن الصلح تم بين الحسن عليه السلام ومعاوية في هذه السنة في شهر ربيع الآخر ، ودخل معاوية الكوفة في غرة جمادى الأولى من هذه السنة ، وقيل : دخلها في شهر ربيع الآخر ، وهذا قول الواقدي . وفي هذه السنة دخل الحسن والحسين ابنا علي عليه السلام منصرفين من الكوفة إلى المدينة .

ذكر الخبر بذلك :

ولما وقع الصلح بين الحسن عليه السلام وبين معاوية بمسكن ، قام - فيما حدّثت عن زياد البكائي ، عن عوانة - خطيباً في الناس فقال : يا أهل العراق ، إنه سخى بنفسي عنكم ثلاث : قتلكم أبي ، وطعنكم إياي ،

وانتهابكم متاعي . قال : ثم إن الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر خرجوا بحشمتهم وأنقاهم حتى أتوا الكوفة ، فلما قدمها الحسن وبراً من جراحته ، خرج إلى مسجد الكوفة فقال : يا أهل الكوفة ، اتقوا الله في جيرانكم وضيفانكم ، وفي أهل بيت نبيكم ﷺ الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . فجعل الناس ييكون ، ثم تحملوا إلى المدينة . قال : وحال أهل البصرة بينه وبين خراج دارا بجرد ؛ وقالوا : فيثنا ، فلما خرج إلى المدينة تلقاه ناس بالقادسية فقالوا : يا مُدِلَّ العَرَب !

وفيهما خرجت الخوارج التي اعتزلت أيام علي عليه السلام بشهرزور على معاوية .

ذكر خبرهم :

حدثت عن زياد ، عن عوانة ، قال : قدم معاوية قبل أن يبرح الحسن من الكوفة حتى نزل النخيلة ، فقالت الحرورية الخمسمائة التي كانت اعتزلت بشهرزور مع فروة بن نوفل الأشجعي : قد جاء الآن ما لا شك فيه ، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه . فأقبلوا وعليهم فروة بن نوفل حتى دخلوا الكوفة ، فأرسل إليهم معاوية خيلاً من خيل أهل الشام ، فكشفوا أهل الشام ، فقال معاوية لأهل الكوفة : لا أمان لكم واللّه عندي حتى تكفوا بوائقكم ؛ فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلهم ، فقالت لهم الخوارج : ويلكم ! ما تبغون منا ! ليس معاوية عدونا وعدوكم ! دعونا حتى نقاتله ، وإن أصبنا كنا قد كفيناكم عدوكم ، وإن أصابنا كنتم قد كفيتونا ، قالوا : لا والله حتى نقاتلكم ؛ فقالوا : رحم الله إخواننا من أهل النهر ، هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة . وأخذت أشجع صاحبهم فروة بن نوفل - وكان سيد القوم - واستعملوا عليهم عبدالله بن أبي الحر - رجلاً من طيء - فقاتلهم ، فقتلوا ، واستعمل معاوية عبد الله بن عمرو بن العاص على الكوفة ، فأتاه المغيرة بن شعبه وقال لمعاوية : استعملت عبدالله بن عمرو على الكوفة وعمراً على مصر ، فتكون أنت بين الحبي الأسد! فعزل عبدالله ، واستعمل المغيرة بن شعبه على الكوفة ، وبلغ عمراً ما قال المغيرة لمعاوية ، فدخل عمرو على معاوية فقال : استعملت المغيرة على الكوفة؟ فقال : نعم ؛ فقال : أجعلته على الخراج؟ فقال : نعم ؛ قال : تستعمل المغيرة على الخراج فيغتال المال ، فيذهب فلا تستطيع أن تأخذ منه شيئاً ؛ استعمل على الخراج من يخافك ويهابك ويتقيك . فعزل المغيرة عن الخراج ، واستعمله على الصلاة ، فلقي المغيرة عمراً فقال : أنت المشير على أمير المؤمنين بما أشرت به في عبد الله؟ قال : نعم ؛ قال : هذه بتلك ؛ ولم يكن عبدالله بن عمرو بن العاص مضى فيها بلغني إلى الكوفة ولا أتاها .

وفي هذه السنة غلب حمران بن أبان على البصرة ، فوجه إليه معاوية بئراً ، أمره بقتل بني زياد .

ذكر الخبر عما كان من أمره في ذلك :

حدثني عمر بن شبة ، قال : حدثني علي بن محمد ، قال : لما صالح الحسن بن علي عليه السلام معاوية أول سنة إحدى وأربعين ، وثب حمران بن أبان على البصرة فأخذها ، وغلب عليها ، فأراد معاوية أن يبعث رجلاً من بني القين إليها ، فكلّمه عبيد الله بن عباس ألا يفعل ويبعث غيره ، فبعث بسر بن أبي أرطاة ، وزعم أنه أمره بقتل بني زياد .

فحدثني مسلمة بن محارب ، قال : أخذ بعض بني زياد فحبسه - وزياد يومئذ بفارس ، كان علي عليه السلام بعثه إليها إلى أكراد خرجوا بها ، فظفروهم زياد ، وأقام بإصطخر - قال : فركب أبو بكر إلى معاوية وهو بالكوفة ،

فاستأجل بُسراً ، فأجله أسبوعاً ذاهباً وراجعاً ، فسار سبعة أيام ، فقتل تحته دابّتين ، فكلمه ، فكتب معاوية بالكف عنهم .

قال : وحَدَّثني بعضُ علمائنا ؛ أنَّ أبا بكرة أقبل في اليوم السابع وقد طلعت الشمس ، وأخرج بُسرُ بني زياد ينتظر بهم غروب الشمس ليقْتلهم إذا وجبت ، فاجتمع الناس لذلك وأعينهم طامحة ينتظرون أبا بكرة ، إذ رُفِع علم على نجيب أو برذون يكذّه ويجهده ، فقام عليه ، فنزل عنه ، وألاح بثوبه ، وكبر وكبر الناس ، فأقبل يسعى على رجله حتى أدرك بُسراً قبل أن يقتلهم ، فدفع إليه كتاب معاوية ، فأطلقهم .

حَدَّثني عمر ، قال : حَدَّثنا علي بن محمد ، قال : خطب بُسرُ على منبر البصرة ، فَشَتَم عليّاً عليه السلام ، ثم قال : نشدّ الله رجلاً عَليم أني صادق إلا صدّقني ، أو كاذب إلا كذّبي ! قال : فقال أبو بكرة : اللهم إنا لا نعلمك إلا كاذباً ؛ قال : فأمر به فُخِّق ، قال : فقام أبو لؤلؤة الضبيّ فرمى بنفسه عليه ، فمنعه ، فأقطعه أبو بكرة بعد ذلك مائة جريب . قال : وقيل لأبي بكرة : ما أردت إلى ما صنعت ! قال : أينا شِدّنا بالله ثم لا نصدّقه ! قال : فأقام بُسرُ بالبصرة ستة أشهر ، ثم شَخَص لا نعلمه ولّى شرطته أحداً .

حَدَّثني أحمد بن زهير ، قال : حَدَّثنا علي بن محمد ، قال : أخبرني سليمان بن بلال ، عن الجارود بن أبي سبرة ، قال : صالح الحسنُ عليه السلام معاوية ، وشَخَص إلى المدينة ، فبعث معاوية بُسرَ بن أبي أرطاة إلى البصرة في رجب سنة إحدى وأربعين وزياد متحصّن بفارس ، فكتب معاوية إلى زياد : إنَّ في يديك مالا من مال الله ، وقد وليت ولاية فأد ما عندك من المال . فكتب إليه زياد : إنه لم يبقَ عندي شيء من المال ، وقد صرفت ما كان عندي في وجهه ، واستودعتُ بعضه قوماً لئلا زلة إن نزلت ، وحملت ما فضل إلى أمير المؤمنين رحمة الله عليه . فكتب إليه معاوية : أن أقبل إليّ ننظر فيما وليت ، وجرى على يديك ، فإن استقام بيننا أمر فهو ذاك ، وإلا رجعت إلى مأمّيك ؛ فلم يأت زياد ، فأخذ بُسرُ بني زياد الأكبر منهم ، فحبسهم : عبد الرحمن ، وعبيد الله ، وعبداداً ، وكتب إلى زياد : لتقدمنّ على أمير المؤمنين أو لأقتلنّ بنيك . فكتب إليه زياد : لستُ بارحاً من مكاني الذي أنا به حتى يحكم الله بيني وبين صاحبك ، فإن قتلت من في يديك من ولدي فالمصير إلى الله سبحانه ، ومن ورائنا وورائكم الحساب ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ . فهم يقتلهم ، فأناه أبو بكرة فقال : أخذت ولدي وولد أخيه غلماناً بلا ذنب ، وقد صالح الحسن معاوية على أمان أصحاب علي حيث كانوا ، فليس لك على هؤلاء ولا على أبيهم سبيل ؛ قال : إنَّ على أخيك أموالاً قد أخذها فامتنع من أدائها ؛ قال : ما عليه شيء ، فاكفف عن بني أخيه حتى آتيك بكتاب من معاوية بتخليّتهم . فأجله أياماً ، قال له : إن آتيتني بكتاب معاوية بتخليّتهم وإلا قتلتهم أو يُقبل زياد إلى أمير المؤمنين ؛ قال : فاتى أبو بكرة معاوية فكلمه في زياد وبنيه ، وكتب معاوية إلى بُسر بالكف عنه وتخليّ سبيلهم ، فخلّاهم .

حَدَّثني أحمد بن زهير ، قال : حَدَّثنا علي ، قال : أخبرني شيخٌ من ثقيف ، عن بُسر بن عبيد الله ، قال : خرج أبو بكرة إلى معاوية بالكوفة فقال له معاوية : يا أبا بكرة ، أذاً رجئت أم دعنتك إلينا حاجة ؟ قال : لا أقول باطلاً ، ما آتيت إلا في حاجة ! قال : تُشْفَع يا أبا بكرة ونرى لك بذلك فضلاً ، وأنت لذلك أهل ، فما هو ؟ قال : تؤمن أخيه زياداً ، وتكتب إلى بُسر بتخليّ ولده وبترك التعرّض لهم ؛ فقال : أما بنو زياد فنكتب لك

فيهم ما سألت ؛ وأما زياد ففي يده مالٌ للمسلمين ، فإذا أذاه فلا سبيل لنا عليه ؛ قال : يا أمير المؤمنين ، إن يكن عنده شيء فليس يحبسك عنك إن شاء الله . فكتب معاوية لأبي بكره إلى بسر ألا يتعرض لأحد من ولد زياد ، فقال معاوية لأبي بكره : أتعهد إلينا عهداً يا أبا بكره ؟ قال : نعم ، أعهد إليك يا أمير المؤمنين أن تنظر لنفسك ورعيّتك ، وتعمل صالحاً فإنك قد تقلدت عظيماً ، خلافة الله في خلقه ، فاتق الله فإن لك غاية لا تعدوها ، ومن ورائك طالب حثيث ، فأوشك أن تبلغ المدى ، فيلحق الطالب ، فتصير إلى من يسألك عما كنت فيه ، وهو أعلم به منك ، وإنما هي محاسبة وتوقيف ، فلا تؤثرن على رضا الله عز وجل شيئاً .

حدثني أحمد ، قال : حدثنا علي ، عن سلمة بن عثمان ، قال : كتب بسر إلى زياد : لئن لم تُقدم لأصلبنّ بنيك . فكتب إليه : إن تفعل فأهل ذلك أنت ، وإنما بعث بك ابن أكلة الأكباد . فركب أبو بكره إلى معاوية ، فقال : يا معاوية ، إن الناس لم يُعطوك بيعتهم على قتل الأطفال ، قال : وما ذاك يا أبا بكره ؟ قال : بسر يريد قتل أولاد زياد ، فكتب معاوية إلى بسر : أن خل من بيدك من ولد زياد .

وكان معاوية قد كتب إلى زياد بعد قتل علي عليه السلام بتوعده . فحدثني عمر بن شبة ، قال : «حدثني علي ، عن حبان بن موسى ، عن المجالد ، عن الشعبي ، قال : كتب معاوية حين قتل علي عليه السلام إلى زياد يتهدده ، فقام خطيباً فقال : العجب من ابن أكلة الأكباد ، وكهف النفاق ، ورئيس الأحزاب ؛ كتب إليّ يتهدّدي وبيني وبينه ابنا عم رسول الله ﷺ - يعني ابن عباس والحسن بن علي - في تسعين ألفاً ، واضععي سيوفهم على عواتقهم ، لا ينشئون ، لئن خلص إليّ الأمر ليجدني أحمر ضراباً بالسيف . فلم يزل زياد بفارس والياً حتى صالح الحسن عليه السلام معاوية ، وقدم معاوية الكوفة ، فتحصن زياد في القلعة التي يقال لها قلعة زياد .

وفي هذه السنة ولّى معاوية عبدالله بن عامر البصرة وحرب سجستان وخراسان .

ذكر الخبر عن سبب ولاية ذلك وبعض الكائن في أيام عمله لمعاوية بها :

حدثني أبوزيد ، قال : حدثنا علي قال : أراد معاوية توجية عتبة بن أبي سفيان على البصرة ، فكلّمه ابن عامر وقال : إن لي بها أموالاً وودائع ، فإن لم توجّهني عليها ذهبت . فولاه البصرة ، فقدمها في آخر سنة إحدى وأربعين وإليه خراسان وسجستان ، فأراد زيد بن جبلة على ولاية شرطته فأبى ، فولّى حبيب بن شهاب الشامي شرطته - وقد قيل : قيس بن الهيثم السلمي - واستقضى عميرة بن يثرب الضبي ، أخا عمرو بن يثرب الضبي .

حدثني أبوزيد ، قال : حدثنا علي بن محمد ، قال : خرج في ولاية ابن عامر لمعاوية يزيد مالِك الباهلي ، وهو الخطيم - وإنما سمّي الخطيم لضربة أصابته على وجهه - فخرج هو وسهم بن غالب الهجيمي فأصبحوا عند الجسر ، فوجدوا عبادة بن قرص الليثي أحد بني بجير - وكانت له صحبة - يصلي عند الجسر ، فأنكروه فقتلوه ، ثم سألوه الأمان بعد ذلك ، فأمنهم ابن عامر ، وكتب إلى معاوية : قد جعلت لهم ذمتك . فكتب إليه معاوية : تلك ذمة لو أخفرتها لا سئلت عنها ، فلم يزالوا آمنين حتى عُزل ابن عامر .

١٧٢ سنة ٤١

وفي هذه السنة ولد علي بن عبدالله بن عباس - وقيل : ولّد في سنة أربعين قبل أن يُقتل علي عليه السلام ، وهذا قول الواقدي .

وحجّ بالناس في هذه السنة عُتْبَةُ بن أبي سُفْيَان في قول أبي معشر ، حدّثني بذلك أحمد بن ثابت عمّن حدّثه ، عن إسحاق بن عيسى ، عنه .

وأما الواقدي فإنه ذكر عنه أنه كان يقول : حجّ بالناس في هذه السنة - أعني سنة إحدى وأربعين - عَنْبَسَةَ ابن أبي سُفْيَان .

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين ذكر ما كان فيها من الأحداث

ففيها غزا المسلمون اللان ، وغزوا أيضاً الروم ، فهزموهم هزيمة منكراً - فيما ذكروا - وقتلوا جماعة من بطارقتهم .

وقيل : في هذه السنة وُلد الحجاج بن يوسف .

وولّى معاوية في هذه السنة مروان بن الحكم المدينة ، فاستقضى مروان عبدالله بن الحارث بن نوفل . وعلى مكة خالد بن العاص بن هشام ، وكان على الكوفة من قبله المغيرة بن شعبة ، وعلى القضاء شريح ، وعلى البصرة عبدالله بن عامر ، وعلى قضائها عمرو بن يثرب ، وعلى خراسان قيس بن الهيثم من قبل عبدالله بن عامر .

وذكر علي بن محمد ، عن محمد بن الفضل العباسي ، عن أبيه ، قال : بعث عبدالله بن عامر قيس بن الهيثم على خراسان حين ولّاه معاوية البصرة وخراسان ، فأقام قيس بخراسان سنتين .

وقد قيل في أمر ولاية قيس ما ذكره حمزة بن أبي صالح السلمي ، عن زياد بن صالح ، قال : بعث معاوية حين استقامت له الأمور قيس بن الهيثم إلى خراسان ، ثم ضمّها إلى ابن عامر ، فترك قيساً عليها .

وفي هذه السنة تحركت الخوارج الذين انحازوا عمّن قُتل منهم بالنهر و من كان ارتث من جرحاهم بالنهر و ، فبرؤوا ، وعفا عنهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

ذكر الخبر عما كان منهم في هذه السنة :

ذكر هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ، قال : حدّثني النضر بن صالح بن حبيب ، عن جرير بن مالك بن زهير بن جذيمة العباسي ، عن أبي بن عمارة العباسي ، أن حيّان بن ظبيان السلمي كان يرى رأي الخوارج ، وكان ممن ارتث يوم النهروان ، فعفا عنه علي عليه السلام في الأربعمئة الذين كان عفا عنهم من المرتثين يوم النهر ،

فكان في أهله وعشيرته ، فلبث شهراً أو نحوَه . ثم إنه خرج إلى الرِّي في رجال كانوا يَرُون ذلك الرأي ، فلم يزالوا مقيمين بالرِّي حتى بلغهم قتلُ علي كرم الله وجهه ، فدعا أصحابه أولئك - وكانوا بضعةَ عشر رجلاً ، أحدهم سالم بن ربيعة العبسي - فأتوه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيُّها الإخوان من المسلمين ، إنه قد بلغني أنَّ أخاكم ابن ملجم أحمأ مُراد قُعد لقتل علي بن أبي طالب عند أغباش الصُّبح مقابل السُّدة التي في المسجد الكبير الجماعة ، فلم يبرح راكداً ينتظر خروجَه حتى خرج عليه حين أقام المقيمُ الصَّلَاة صلاة الصبح ، فشَدَّ عليه فضرب رأسه بالسيف ، فلم يَبْق إلاَّ ليلتين حتى مات ، فقال سالم بن ربيعة العبسي : لا يقطع الله يميناً علَّتْ قَدَالَةُ بالسيف ؛ قال : فأخذ القومُ يَحْمَدُونَ الله على قتله عليه السلام ورضيَ الله عنه ولا رضيَ عنهم ولا رحمهم ! .

قال النَّضْر بن صالح : فسألت بعد ذلك سالم بن ربيعة في إمارة مُصعب بن الزبير عن قوله ذلك في علي عليه السلام ، فأقر لي به ، وقال : كنت أرى رأيهم حيناً ، ولكن قد تركته ؛ قال : فكان في أنفسنا أنه قد تركه ؛ ها : فكان إذا ذكروا له ذلك يُرمضه . قال : ثم إنَّ حيَّان بن ظبيان قال لأصحابه : إنه والله ما يَبْقَى على الدهر باقٍ ، وما تلبث الليالي والأيام والسنون والشهور على ابن آدم حتى تُدَيِّقَه الموت ، فيفارق الإخوان الصالحين ، ويدع الدنيا التي لا يَبْقَى عليها إلاَّ العَجْزة ، ولم تزل ضارَّةً لمن كانت له همماً وشُجْناً ؛ فانصرفوا بنا رحمكم الله إلى مصرنا ، فلنأتِ إخواننا فلندعُهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإلى جهاد الأحزاب ، فإنه لا عذرَ لنا في القعود ، وولأئنا ظَلَمَ ، وسنة الهدى متروكة ، وثأرنا الذين قتلوا إخواننا في المجالس آمنون ، فإن يُظفرنا الله بهم نعيد بعد إلى التي هي أهْدَى وأَرْضَى وأَقْوَم ، وَيَشْفِي الله بذلك صدور قوم مُؤمنين ، وإن نقتل فإنَّ في مفارقة الظالمين راحةً لنا ، ولنا بأسلافنا أسوة . فقالوا له : كلُّنا قائل ما ذكرت ، وحاشا رأيك الذي رأيت ، فردَّ بنا المِصرَ فإننا معك راضون بهُذاك وأمرُك ؛ فخرج وخرجوا معه مقبلين إلى الكوفة ، فذلك حين يقول :

خليلي ما بي من عزاء ولا صبر
سوى نهضات في كتائب جمّة
إذا جاوَزَتْ قُسطانة الرِّي بغلتي
ولكنني سارٍ وإن قل ناصري
ولا إربة بعد المصابين بالنهر
إلى الله ما تدعو في الله ما تفري
فلست بسارٍ نحوها آخر الدهر
قريباً فلا أخزيكما مع من يسري

قال : وأقبل حتى نزل الكوفة ، فلم يزل بها حتى قديم معاوية ، وبعث المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة ، فأحب العافية ، وأحسن في الناس السيرة ، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم ، وكان يؤق فيقال له : إنَّ فلاناً يرى رأي الشيعة ، وإنَّ فلاناً يرى رأي الخوارج . وكان يقول : قضى الله ألاَّ تزالون مختلفين ، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون . فأمنه الناس ، وكانت الخوارج يَلْقَى بعضهم بعضاً ، ويتذاكرون مكان إخوانهم بالنَّهروان ويرون أن في الإقامة الغبن والوكف ، وأنَّ في جهاد أهل القبلة الفضل والأجر .

قال أبو مخنف : فحدثني النَّضْر بن صالح ، عن أبي بن عُمارة ، أنَّ الخوارج في أيام المغيرة بن شعبة فرعوا إلى ثلاثة نفر ؛ منهم المستورد بن علفة ، فخرج في ثلاثة رجل مقبلاً نحو جرجرايا على شاطئ دجلة .

قال أبو مخنف : وحدّثني جعفر بن حذيفة الطائي من آل عامر بن جُوين ، عن المحلّ بن خليفة ، أنّ الخوارج في أيام المغيرة بن شعبة فزعوا إلى ثلاثة نفر ؛ منهم المستورد بن علفة التيميّ من تيمّ الرباب ، وإلى حيّان بن ظبيان السلمي ، وإلى معاذ بن جُوين بن حصين الطائي السبسيّ - وهو ابن عمّ زيد بن حصين ، وكان زيد ممن قتله علي عليه السلام يوم النهروان ، وكان معاذ بن جُوين هذا في الأربعمئة الذين ارتشوا من قتلى الخوارج ، فعفا عنهم علي عليه السلام - فاجتمعوا في منزل حيّان بن ظبيان السلمي ، فتشاوروا فيمن يؤلّون عليهم . قال : فقال لهم المستورد : يا أيّها المسلمون والمؤمنون ، أراكم الله ماتحبّون ، وعزلّ عنكم ما تكرهون ، ولّوا عليكم من أحببتهم ، فوالذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ما أبالي من كان الوالي عليّ منكم ! وما شرف الدنيا نريد ، وما إلى البقاء فيها من سبيل ، وما نريد إلّا الخلود في دار الخلود . فقال حيّان بن ظبيان : أمّا أنا فلا حاجة لي فيها وأنا بك وبكلّ امرئ من إخواني راضٍ ، فانظروا من شئتم منكم فسمّوه ، فأنا أوّل من يبايعه . فقال لهم معاذ بن جُوين بن حصين : إذا قتلنا أنتم هذا وأنتم سيّد المسلمين ودّوا أنسابهم في صلاحيكم ودينكم وقدركم ، فمن يرئس المسلمين ، وليس كلّكم يصلح لهذا الأمر ! وإنما ينبغي أن يليّ على المسلمين إذا كانوا سواء في الفضل أبصرهم بالحرب ، وأفقههم في الدين ، وأشدّهم اضطلاعاً بما حمّل ، وأنتم بحمد الله ممن يرضى بهذا الأمر ، فليتولّه أحدكم . قالوا : فتولّه أنت ، فقد رضيناك ، فأنت والحمد لله الكامل في دينك ورأيك ، فقال لها : أنتم أسنّ مني ، فليتولّه أحدكم ، فقال حينئذ جماعة من حضرهما من الخوارج : قد رضينا بكم أيّها الثلاثة ، فولوا أيّكم أحببتهم ؛ فليس في الثلاثة رجل إلّا قال لصاحبه : تولّها أنت ، فإني بك راضٍ ، وإني فيها غير ذي رغبة . فلما كثر ذلك بينهم قال حيّان بن ظبيان ، فإنّ معاذ بن جُوين قال : إني لا أليّ عليكما وأنتم أسنّ مني ، وأنا أقول لك مثلاً ما قال لي ولك ، لا أليّ عليك وأنت أسنّ مني ، أبسط يدك أبايعك . فبسط يده فبايعه ، ثم بايعه معاذ بن جوين ، ثم بايعه القوم جميعاً ، وذلك في جمادى الآخرة . فاتعد القوم أن يتجهزوا ويتيسّروا ويستعدّوا ، ثم يخرجوا في غرة الهلال هلال شعبان سنة ثلاث وأربعين ، فكانوا في جهازهم وعدّتهم .

وقيل : في هذه السنة سار بسر بن أبي أرطاة العامري إلى المدينة ومكة واليمن ، وقتل من قتله في مسيره ذلك من المسلمين .

وذلك قول الواقدي ، وقد ذكرت من خالفه في وقت مسيره هذا السير .

وزعم الواقدي أن داود بن حيّان حدّثه ، عن عطاء بن أبي مروان ، قال : أقام بسر بن أبي أرطاة بالمدينة شهراً يستعرض الناس ، ليس أحد ممن يقال هذا أعان على عثمان إلّا قتله .

وقال عطاء بن أبي مروان : أخبرني حنظلة بن علي الأسلمي ، قال : وجد قوماً من بني كعب وغلمانهم على بئر لهم فآلقاهم في البئر .

وفي هذه السنة قديم زياد - فيما حدّثني عمر - قال : حدّثنا أبو الحسن ، عن سليمان بن أرقم ، قدم على معاوية من فارس ، فصالحه على مال يحمله إليه .

وكان سبب قدومه بعد امتناعه بقلعة من قلاع فارس ، ما حدّثني عمر قال : حدّثنا أبو الحسن ، عن مسلمة بن محارب ، قال : كان عبد الرحمن بن أبي بكر يلي ما كان لزياد بالبصرة ، فبلغ معاوية أنّ لزياد أموالاً

عند عبدالرحمن ، وخاف زياداً على أشياء كانت في يد عبدالرحمن لزياد ، فكتب إليه يأمره بإحرازها ، وبعث معاوية إلى المغيرة بن شعبة لينظر في أموال زياد ، فقدم المغيرة ، فأخذ عبدالرحمن ، فقال : لئن كان أساء إليّ أبوك لقد أحسن زياد . وكتب إلى معاوية : إني لم أصب في يد عبدالرحمن شيئاً يحل لي أخذه . فكتب معاوية إلى المغيرة أن عذبه . قال : وقال بعض المشيخة : إنه عذب عبدالرحمن بن أبي بكره إذ كتب إليه معاوية ، وأراد أن يُعذّر ويبلغ معاوية ذلك ، فقال : احتفظ بما أمرك به عمك ، فألقى على وجهه حريرةً ونضحها بالماء ، فكانت تلتزق بوجهه ، فغشي عليه ، ففعل ذلك ثلاث مرّات ، ثم خلاه ، وكتب إلى معاوية : إني عذبتّه ، فلم أصب عنده شيئاً ، فحفظ لزياد يده عنده .

حدّثني عمر ، قال حدّثنا أبو الحسن ، عن عبدالملك بن عبدالله الثقفّي ، عن أشياخ من ثقيف ، قالوا : دخل المغيرة بن شعبة على معاوية ، فقال معاوية حين نظر إليه .

إِنَّمَا مَوْضِعُ سِرِّ الْمَرْءِ إِنْ
بَاخَ بِالسَّرِّ أَخُوهُ لَمْ يُنْتَصَحْ
فَإِذَا بُخِتَ بِسِرِّ فِإِلَى نَاصِحٍ يَسْتُرُهُ أَوْ لَا تَبُحْ

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن تستودعني تستودع ناصحاً شقيقاً ورعاً وثيقاً ، فما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ذكرتُ زياداً واعتصامه بأرض فارس ، وامتناعه بها ، فلم أتم ليلتي ، فأراد المغيرة أن يطأطأ من زياد ، فقال : ما زياد هناك يا أمير المؤمنين ! فقال معاوية : بشس الوطء العجز ، داهية العرب معه الأموال ، متحصن بقلاع فارس ، يدبر ويربص الحيل ، ما يؤمني أن يبيع لرجل من أهل هذا البيت ، فإذا هو قد أعاد عليّ الحرب خُدعة فقال المغيرة : أتأذن لي يا أمير المؤمنين في إتيانه ، قال : نعم ، فأتته وتلففه له ، فأقى المغيرة زياداً ، فقال زياد حين بلغه قدوم المغيرة : ما قدّم إلا لأمر ، ثم أذن له ، فدخل عليه وهو في بهو له مستقبل الشمس ، فقال زياد : أفلح رائد ! فقال : إليك ينتهي الخبر أبا المغيرة ، إن معاوية استخفّه الوَجَل حتى بعثني إليك ، ولم يكن يعلم أحداً يمدد يده إلى هذا الأمر غير الحسن ، وقد بايع معاوية ، فخذ لنفسك قبل التوطي ، فيستغني عنك معاوية ، قال : أشير عليّ ، وارم الغرض الأقصى ، ودع عنك الفضول ، فإنّ المستشار مؤتمن ؛ فقال المغيرة : في تحض الرأي بشاعة ، ولا خير في المديق ، أرى أن تصلّ حبلك بحبله ، وتشخص إليه ؛ قال : أرى ويقضي الله .

حدّثني عمر ، قال : حدّثنا علي ، عن مسلمة بن محارب ، قال : أقام زياد في القلعة أكثر من سنة ، فكتب إليه معاوية : علام تُهلك نفسك ؟ إليّ فأعلمني علّم ما صار إليك مما اجتبيت من الأموال ، وما خرج من يدك ، وما بقي عندك ، وأنت أمين ، فإن أحببت المقام عندنا أقمت ، وإن أحببت أن ترجع إلى مأمّنك رجعت . فخرج زياد من فارس ، وبلغ المغيرة بن شعبة أن زياداً قد أجمع على إتيان معاوية ، فشخص المغيرة إلى معاوية قبل شخوص زياد من فارس ، وأخذ زياد من إصطخر إلى أرجان ، فأقى مائه بهزاذان ، ثم أخذ طريق حلوان حتى قدم المدائن ، فخرج عبدالرحمن إلى معاوية يخبره بقدوم زياد ، ثم قدّم زياد الشام ، وقدم المغيرة بعد شهر ، فقال له معاوية : يا مغيرة ، زياد أبعد منك بمسيرة شهر ، وخرجت قبله وسبقك . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ الأريب إذا كلّم الأريب أفحمه ؛ قال : خذ جذرك ، واطو عني سرك ، فقال : إنّ زياداً قدم يرجو الزيادة ، وقدمت الخوف النقصان ، فكان سيرنا على حسب ذلك ؛ قال : فسأل معاوية زياداً عما صار إليه من أموال فارس ، فأخبره بما حمل منها إلى علي رضي الله عنه ، وما أنفق منها في الوجوه التي يحتاج فيها إلى النفقة ،

فصدّقه معاوية على ما أنفق ، وما بقيّ عنده ، وقبضه منه ، وقال : قد كنت أميناً خلفائنا .

حدّثني عمر ، قال : حدّثنا علي ، قال : حدّثنا أبو مخنف وأبو عبد الرحمن الأصبهاني وسلمة بن عثمان وشيخ من بني تميم وغيرهم ممّن يوثق بهم ، قال : كتب معاوية إلى زياد وهو بفارس يسأله القدوم عليه ، فخرج زياد من فارس مع المنجاب بن راشد الضبيّ وحارثة بن بدر الغداني ، وسرح عبدالله بن خازم في جماعة إلى فارس ، فقال : لعلك تلقى زياداً في طريقك فتأخذه . فسار ابن خازم إلى فارس ، فقال بعضهم : لقيه به المنجاب الأهواز ، وقال بعضهم : لقيه بأرجان ، فأخذ ابن خازم بعنان زياد ، فقال : انزل يا زياد ، فصاح به المنجاب ابن راشد : تنح يا بن سوداء ، وإلا علقت يذك بالعنان . قال : ويقال : انتهى إليهم ابن خازم وزياد جالس ، فأغلظ له ابن خازم ، فشتم المنجاب بن خازم ، فقال له زياد : ما تريد يا بن خازم ؟ قال : أريد أن تحييء إلى البصرة ؛ قال : فإني آتيها ؛ فانصرف ابن خازم استحياءً من زياد .

وقال بعضهم : التقى زياد وابن خازم بأرجان ، فكانت بينهم منازعة ، فقال زياد لابن خازم قد أتاني أمان معاوية ، فأنا أريده ، وهذا كتابه إليّ . قال : فإن كنت تريد أمير المؤمنين فلا سبيل عليك ، فمضى ابن خازم إلى سابور ، ومضى زياد إلى ماهبهزاذان ، وقَدِم على معاوية ، فسأله عن أموال فارس ، فقال : دفعها يا أمير المؤمنين في أرزاق وأعطيات ومحالات ، وبقيت بقية أودعتها قوماً ، فمكث بذلك يرده ، وكتب زياد كتاباً إلى قوم منهم شعبة بن القلم : قد علمتم ما لي عندكم من الأمانة ، فتدبروا كتاب الله عز وجل : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ . . . ﴾^(١) . الآية ، فاحتفظوا بما قبلكم . وسمى في الكتب بالمبلغ الذي أقره لمعاوية ، ودس الكتب مع رسوله ، وأمره أن يعرض لبعض من يبلغ ذلك معاوية ، فتعرض رسوله حتى انتشر ذلك ، وأخذ فأتى به معاوية ، فقال معاوية لزياد : لئن لم تكن مكرت بي إنّ هذه الكتب من حاجتي . فقرأها ، فإذا هي بمثل ما أقر به ؛ فقال معاوية : أخاف أن تكون قد مكرت بي ، فصالحني على ما شئت ، فصالحه على شيء مما ذكره أنه عنده ، فحمله ، وقال زياد : يا أمير المؤمنين ، قد كان لي مال قبل الولاية ، فوددت أنّ ذلك المال بقي ، وذهب ما أخذت من الولاية . ثم سأل زياد معاوية أن يأذن له في نزول الكوفة فأذن له ، فشخص إلى الكوفة ، فكان المغيرة يكرمه ويعظمه ، فكتب معاوية إلى المغيرة : خذ زياداً وسليمان بن صرد وحجر بن عدي وشبث بن ربعي وابن الكواء وعمرو بن الحميّق بالصلاة في الجماعة ؛ فكانوا يحضرون معه في الصلاة .

حدّثني عمر بن شبة ، قال : حدّثنا علي ، عن سليمان بن أرقم ، قال : بلغني أنّ زياداً قدم الكوفة ، فحضرت الصلاة ، فقال له المغيرة : تقدّم فصل ؛ فقال : لا أفعل ، أنت أحقّ مني بالصلاة في سلطانتك . قال : ودخل عليه زياد وعند المغيرة أمّ أيوب بنت عمارة بن عقبة بن أبي معيط ، فأجلسها بين يديه ، وقال : لا تستتري من أبي المغيرة ، فلما مات المغيرة تزوّجها زياد وهي حادثة ، فكان زياد يأمر بفيل كان عنده ، فيوقف ، فتنظر إليه أمّ أيوب ، فسمي باب الفيل .

وحجّ بالناس في هذه السنة عنبة بن أبي سفيان ، كذلك حدّثني أحمد بن ثابت ، عمّن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر .

(١) سورة الأحزاب : ٨٢ .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك غزوة بُسر بن أبي أُرطاة الرّوم ومشته بأرضهم حتى بلغ القُسطنطينيّة - فيما زعم الواقدي - وقد أنكر ذاك قومٌ من أهل الأخبار ، فقالوا : لم يكن لبُسر بأرض الروم مشقٌّ قط .
وفيها مات عمرو بن العاص بمصرَ يومَ الفِطر ، وقبُلُ كان عمل عليها لعمرَ بن الخطاب رضي الله عنه أربعَ سنين ، ولعثمان أربعَ سنين إلا شهرين ، ولعاوية سنتين إلا شهراً .
وفيها ولّى معاويةَ عبد الله بن عمرو بن العاص مصرَ بعد موت أبيه ، فولّٰها له - فيما زعم الواقدي - نحواً من سنتين .

وفيها مات محمد بن مَسْلَمَة في صفر بالمدينة ، وصلى عليه مروان بن الحَكَم .
وفيها قُتِلَ المستورد بن عُلفة الخارجي ، فيما زعم هشام بن محمد . وقد زعم بعضهم أنه قتل في سنة اثنتين وأربعين .

ذكر الخبر عن مقتله :

قد ذكرنا ما كان من اجتماع بقايا الخوارج الذين كانوا ارتثوا يومَ النَّهر ، ومن كان منهم انحاز إلى الرّبي وغيرهم إلى النفر الثلاثة الذين سمّيت قبل ، الذين أحدهم المستورد بن عُلفة ، وذكرنا بيعتهم المستورد ، واجتماعهم على الخروج في غرة هلال شعبان من سنة ثلاث وأربعين .

فذكر هشام ، عن أبي مخنف ؛ أنّ جعفر بن حذيفة الطائيّ حدّثه عن المحلّ بن خليفة ، أنّ قُبَيْصَة بن الدّمون أقر المغيرة بن شُعبة - وكان على شُرطته - فقال : إن شمر بن جَعُونَة الكلابيّ جاءني فخبّرني أنّ الخوارج قد اجتمعوا في منزل حيّان بن ظبيان السُّلمي ، وقد اتّعدوا أن يخرجوا إليك في غرة شعبان ، فقال المغيرة بن شعبة لقبصة بن الدّمون - وهو حليف لثقيف ، وزعموا أنّ أصله كان من حضرموت من الصدف : سرّ بالشُرطة حتى تحيط بدارِ حيّان بن ظبيان فأُتِيَ به ، وهم لا يرون إلا أنه أمير تلك الخوارج . فسار قُبَيْصَة في الشُرطة وفي كثير من الناس ، فلم يشعر حيّان بن ظبيان ألاّ والرّجال معه في داره نصفَ النهار ، وإذا معه معاذ بن جُوَيْن ونحوهم عشرين رجلاً من أصحابها ، وثارت امرأته ؛ أمٌ ولد له ، فأخذت سيوفاً كانت لهم ، فالتفتها تحت الفِراش ، وفزع بعضُ القوم إلى سيوفهم فلم يجدوها ، فاستسلموا ، فانطلق بهم إلى المغيرة بن

شعبة ، فقال لهم المغيرة : ما حَمَلَكُم على ما أردتم من شَقِّ عصا المسلمين ؟ فقالوا : ما أردنا من ذلك شيئاً ؛ قال : بلى ، قد بلغني ذلك عنكم ، ثم قد صدّق ذلك عندي جماعتكم ؛ قالوا له : أمّا اجتماعنا في هذا المنزل فإنّ حيّان بن ظبيان أقرأنا القرآن ، فنحن نجتمع عنده في منزله فنقرأ القرآن عليه . فقال : اذهبوا بهم إلى السجن ، فلم يزالوا فيه نحواً من سنة ، وسمع إخوانهم بأخذهم فَحَذِرُوا ، وخرج صاحبهم المستورد بن عُلْفَة فنزل داراً بالخيرة إلى جنب قصر العدسيين من كَلْب ، فبعث إلى إخوانه ، وكانوا يختلفون إليه ويتجهّزون ، فلما كثّر اختلاف أصحابه إليه قال لهم صاحبهم المستورد بن عُلْفَة التيمي : تحوّلوا بنا عن هذا المكان ، فإنّي لا آمن أن يُطْلَعَ عليكم . فلم يلبث في ذلك يقول بعضهم لبعض : نأتي مكاناً كذا وكذا ، ويقول بعضهم : نأتي مكاناً كذا وكذا ؛ إذ أشرف عليهم حَجّار بن أبجر من دار كان هو فيها وطائفة من أهله ، فإذا هم بفارسين قد أقبلوا حتى دخلوا تلك الدار التي فيها القوم ، ثم لم يكن بأسرع من أن جاء آخران فدخلا ، ثم لم يكن إلا قليل حتى جاء آخر فدخل ، ثم آخر فدخل ، وكان ذلك يعنيه ، وكان خروجهم قد اقترب ، فقال حَجّار لصاحبة الدار التي كان فيها نازلاً وهي تُرضع صبيّاً لها : وَيْحَك ! ما هذه الخيل التي أراها تدخل هذه الدار؟ قالت : واللّه ما أدري ما هم ! إلا أنّ الرجال يختلفون إلى هذه الدار رجالاً وفُرساناً لا ينقطعون ، ولقد أنكرنا ذلك منذ أيام ، ولا ندري من هم ! فركب حَجّار فرسه ، وخرج معه غلام له ، فأقبل حتى انتهى إلى باب دارهم ، فإذا عليه رجل منهم ، فكلّمها أتى إنسان منهم إلى الباب دخل إلى صاحبه فأعلمه ، فأذن له ، فإن جاءه رجل من معروفهم دخل ولم يستأذن ، فلما انتهى إليه حَجّار لم يعرفه الرجل ، فقال : مَنْ أنتَ رحمك الله ؟ وما تريد؟ قال : أردت لقاء صاحبي ، قال له : وما اسمك؟ قال له : حَجّار بن أبجر ؛ قال : فكما أنت حتى أؤدّبهم بك . ثم أخرج إليك . فقال له حَجّار : ادخل راشداً ! فدخل الرجل ، وأتبعه حَجّار مسرعاً ، فأنتهى إلى باب صُفّة عظيمة هم فيها ، وقد دخل إليهم الرجل فقال : هذا رجل يستأذن عليك أنكرته فقلت له : من أنت؟ فقال : أنا حَجّار بن أبجر ، فسمعهم يتفرّعون ويقولون : حَجّار بن أبجر ! واللّه ما جاء حَجّار بن أبجر بخير . فلما سمع القول منهم أراد أن ينصرف ويكتفي بذلك من الاستراحة بأمرهم ، ثم أبت نفسه أن ينصرف حتى يعاينهم ، فتقدّم حتى قام بين سِجْفِيّ باب الصُفّة وقال : السلام عليكم ، فنظر فإذا هو بجماعة كثيرة ، وإذا سلاح ظاهر ودروع ، فقال حَجّار : اللهم اجمعهم على خير ، مَنْ أنتم عافاكم الله ؟ فعرفه علي بن أبي شمر بن الحصين ، من تيم الرّباب - وكان أحد الثمانية الذين انهمزوا من الخوارج يوم النهر ، وكان من فُرسان العرب ونسّاكهم وخيارهم - فقال له : يا حَجّار بن أبجر ، إن كنت إنما جاء بك التماس الخبر فقد وجدته ، وإن كنت إنما جاء بك أمرٌ غير ذلك فادخل ، وأخبرنا ما أتى بك ؛ فقال : لا حاجة لي في الدخول ، فانصرف ، فقال بعضهم لبعض : أدركوا هذا فاحبسوه ، فإنه مؤذّن بكم ، فخرجت منهم جماعة في أثره - وذلك عند تطفيل الشمس للإياب - فأنتهوا إليه وقد ركب فرسه ، فقالوا له : أخبرنا خبرك ، وما جاء بك؟ قال : لم آت لشيء يروّعكم ولا يهولكم ، فقالوا له : انتظر حتى ندنو منك ونكلّمك ، أو تدنو منا ؛ أخبرنا فنعلمك أمرنا ، ونذكر حاجتنا ، فقال لهم : ما أنا بداني منكم ، ولا أريد أن يدنو مني منكم أحد ؛ فقال له علي بن أبي شمر بن الحصين : أفمؤمّننا أنت من الإذن بنا هذه الليلة وأنت مُحسن ؟ فإنّ لنا قرابةً وحَقّاً ؟ قال : نعم ، أنتم آمنون من قبلي هذه الليلة وليالي الدهر كلّها ؛ ثم انطلق حتى دخل الكوفة وأدخل أهله معه . وقال الآخرون بعضهم لبعض : إنا لا نأمن أن يؤذّن بنا هذا ، فأخرجوا بنا من هذا الموضع ساعتنا هذه ؛ قال : فصلّوا المغرب ، ثم خرجوا من الخير

متفرّقين ، فقال لهم صاحبهم : الحقوا بي في دار سُليمان بن محدوج العبديّ من بني سَلِمة ، فخرج من الحيرة ، فمضى حتى أتى عبدالقيس ، فأقى بني سلمة ، فبعث إلى سُليمان بن محدوج - وكان له صهراً - فأتاه ، فأدخله وأصحاباً له خمسة أو ستة ، ورجع حَجَّار بن أبجر إلى رَحْله ، فأخذوا ينتظرون منه أن يبلغهم منه ذكرهم عند السلطان أو الناس ، فما ذكرهم عند أحد منهم ، ولا بلغهم عنه في ذلك شيء يكرهونه .

فبلغ الخبر المغيرة بن شُعْبة أنّ الخوارج خارجة عليه في أيامه تلك ، وأنهم قد اجتمعوا على رجل منهم ، فقام المغيرة بن شعبة في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أمّا بعد ، فقد علمتم أيها الناس أنّي لم أزل أحبّ لجماعتكم العافية ، وأكفّ عنكم الأذى ، وأني والله لقد خشيتُ أن يكون ذلك أدب سوء لسفهاكم ، فأما الخُلُفاء الأتقياء فلا ، وإيّم الله لقد خشيتُ ألا أجد بداً من أن يُعَصَّب الحليم التقي بذنب السفه الجاهل ، فكفُّوا أيها الناس سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم . وقد ذكر لي أنّ رجلاً منكم يريدون أن يظهرُوا في مصر بالشقاق والخلاف ، وإيّم الله لا يخرجون في حيٍّ من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدّتهم وجعلتهم نكالا لمن بعدهم ، فنظر قومٌ لأنفسهم قبل الندم ، فقد قمت هذا المقام إرادة الحجّة والإعذار .

فقام إليه معقل بن قيس الرّياحيّ فقال : أيها الأمير ، هل سُمّي لك أحدٌ من هؤلاء القوم ؟ فإن كانوا سُمُّوا لك فأعلمنا من هم ؟ فإن كانوا منا كَفِينَاكهم ، وإن كانوا من غيرنا أمرت أهل الطاعة من أهل مصرنا ، فأتتك كل قبيلة بسفهاها ، فقال : ما سُمّي لي أحد منهم ، ولكن قد قيل لي : إنّ جماعة يريدون أن يخرجوا بالمصر ؛ فقال له معقل : أصلحك الله ! فإني أسير في قومي ، وأكفيك ما هم فيه ، - فليكفك كل امرئ من الرؤساء قومه . فنزل المغيرة بن شعبة ، وبعث إلى رؤساء الناس فدعاهم ، ثم قال لهم : إنه قد كان من الأمر ما قد علمتم ، وقد قلت ما قد سمعتم ، فليكفني كلّ امرئ من الرؤساء قومه ، وإلا فوالذي لا إله غيره لأتحولنّ عما كنتم تعرّفون إلى ما تُنكرون ، وعما تحبون إلى ما تكرهون ، فلا يَلُم لائم إلا نفسه ، وقد أعذر من أنذر . فخرجت الرؤساء إلى عشائرهم ، فناشدوهم اللّه والإسلام إلا دلوهم على من يرون أنه يريد أن يهيج فتنة ، أو يفارق جماعة ؛ وجاء صَعَصُعة بن صُوحان فقام في عبد القيس .

قال هشام : قال أبو مخنف : فحدثني الأسود بن قيس العبديّ ، عن مرة بن النعمان ، قال : قام فينا صَعَصُعة بن صُوحان وقد والله جاءه من الخبر بمنزل التّيمي وأصحابه في دار سليمان بن محدوج ، ولكنه كره على فراقه إياهم وبغضه لرأيهم ، أن يؤخذوا في عشيرته ، وكره مساءة أهل بيت من قومه ، فقال : قولاً حسناً ، ونحن يومئذ كثير أشرافنا ، حسن عددنا ، قال : فقام فينا بعد ما صلى العصر ، فقال : يا معشر عباد الله ، إنّ الله - وله الحمد كثيراً - لما قسم الفضل بين المسلمين خصّكم منه بأحسن القسّم ، فأجبتم إلى دين الله الذي اختاره الله لنفسه ، وارتضاه ملائكته ورُسُله ، ثم أقمتُم عليه حتى قبض الله رسوله ﷺ ، ثم اختلف الناس بعده فثبت طائفة ، وارتدت طائفة ، وأدهنت طائفة ، وتربّصت طائفة ، فلزمت دين الله إيماناً به وبرسوله ، وقاتلت المرتدين حتى قام الدّين ، وأهلك الله الظالمين ، فلم يزل الله يزيدهم بذلك خيراً في كل شيء ، وعلى كل حال ، حتى اختلفت الأمة بينها ، فقالت طائفة : نريد طلحة والزبير وعائشة ، وقالت طائفة : نريد أهل المغرب ، وقالت طائفة : نريد عبدالله بن وهب الراسبي ، راسب الأزد ، وقلتم أنتم : لا نريد إلا أهل البيت الذين ابتدأنا الله من قبلهم بالكرامة ، تسديداً من الله لكم وتوفيقاً ، فلم تزالوا على الحق لازمين له ، آخذين به ، حتى أهلك الله بكم وبمن كان على مثل هداكم ورأيكم الناكثين يوم الجمل ، والمارقين يوم النهْر - وسكت

عن ذكر أهل الشام ، لأن السلطان كان حينئذٍ سلطانهم - ولا قوم أعدى لله ولكم ولأهل بيت نبيكم ولجماعة المسلمين من هذه المارقة الخاطئة ، الذين فارقوا إمامنا ، واستحلوا دماءنا ، وشهدوا علينا بالكفر ؛ فإياكم أن تؤوؤهم في دؤركم ، أو تكتموا عليهم ، فإنه ليس ينبغي لحَيٍّ من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم ، وقد والله ذكركم لي أن بعضهم في جانب من الحي ، وأنا باحث عن ذلك وسائل ، فإن كان حكي لي ذلك حقاً تقرّبت إلى الله تعالى بدمائهم ، فإنّ دماءهم حلال . ثم قال : يا معشر عبد القيس ، إنّ ولّنا هؤلاء هم أعرف شيء بكم وبرأيكم ، فلا تجعلوا لهم عليكم سبيلاً ، فإنهم أسرع شيء إليكم وإلى أمثالكم . ثم تنحى فجلس ، فكلّ قومه قال : لعنهم الله ! وقال : برىء الله منهم ، فلا والله فلا تؤوؤهم ، ولئن علمنا بمكانهم لنطعنك عليهم ؛ غير سليم بن محدوج ، فإنه لم يقل شيئاً ، فرجع إلى قومه كثيراً واجماً ، يكره أن يخرج أصحابه من منزله فيلوموه ، وقد كانت بينهم مصاهرة ، وكان لهم ثقة ، ويكره أن يطلبوا في داره فيهلكوا ويهلك . وجاء فدخل رحله ، وأقبل أصحاب المستورد يأتونه ، فليس منهم رجل إلا يخبره بما قام به المغيرة بن شعبة في الناس وبما جاءهم رؤسائهم ، وقاموا فيهم ، وقالوا له : اخرج بنا ، فوالله ما نأمن أن نؤخذ في عشائركم . قال : فقال لهم : أما ترون رأس عبد القيس قام فيهم كما قامت رؤساء العشائر في عشائركم ؟ قالوا : بلى والله نرى . قال : فإن صاحب منزلي لم يذكر لي شيئاً ؛ قالوا : نرى والله أنه استحيا منك ، فدعاه فاتاه ، فقال : يابن محدوج ؛ إنه قد بلغني أن رؤساء العشائر قاموا إليهم ، وتقدّموا إليهم في وفي أصحابي ، فهل قام فيكم أحدٌ يذكر لكم شيئاً من ذلك ؟ قال : فقال : نعم ، قد قام فينا صعصعة ابن صوحان ، فتقدّم إلينا في ألا نؤوي أحداً من طلبتهم ، وقالوا أقاويل كثيرة كرهت أن أذكرها لكم فتحسبوا أنه ثقل علي شيء من أمركم ؛ فقال له المستورد : قد أكرمت المثنى ، وأحسنتم الفعل ، ونحن إن شاء الله مترحّلون عنك ؛ ثم قال : أما والله لو أرادوك في رحلي ما وصلوا إليك ولا إلى أحد من أصحابك حتى أموت دونكم ، قال : أعاذك الله من ذلك !

وبلغ الذين في محبس المغيرة ما أجمع عليه أهل المصر من الرأي في نفي من كان بينهم من الخوارج وأخذهم ، فقال معاذ بن جوين بن حصين في ذلك :

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ	شَرَى نَفْسَهُ لِهَ أَنْ يَتَرَحَّلَا
أَقَمْتُمْ بدار الخاطئين جهالة	وَكُلُّ أَمْرٍ مِنْكُمْ يُصَادُّ لِيُقْتَلَا
فشدوا على القوم العداة فإنما	أَقَامْتُمْ لِلذَّبْحِ رَأْيَا مُضِلَّالَا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي	إِذَا ذُكِرَتْ كَانَتْ أَبْرَ وَأَعْدَلَا
فياليتني فيكم على ظهر سابع	شَدِيدِ الْقُصِيرَى دَارِعاً غَيْرَ أَعَزَلَا
وياليتني فيكم أعادي عدوكم	فَيَسْقِينِي كَأْسَ الْمَنِيَةِ أَوْ لَا
يعز علي أن تخافوا وتطرّدوا	وَلَمَّا أُجِرْدُ فِي الْمُجَلِّينِ مُنْصَلَا
ولما يفرق جمعهم كل ما جدي	إِذَا قُلْتُ قَدْ وَلَّى وَأَذَرْتُ أَقْبَلَا
مُشِيحاً بَنَصِلُ السِّيفِ فِي حَمْسِ الْوَعَى	يَرَى الصَّبْرَ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ أَمْثَلَا
وعز علي أن تضامروا وتنفقوا	وَأُصْبَحَ ذَا بَثٍّ أَسِيرًا مُكَبَّلَا

ولو أنني فيكم وقد قصدوا لكم
فيا ربّ جمّع قد فللت وغارة
أثرت إذا بين الفريقين قسّطلا
شهدت وقرن قد تركت مجدلا
فبعث المستورد إلى أصحابه فقال لهم : اخرجوا من هذه القبيلة لا يُصب امرأ مسلماً في سبينا بغير علم
معرفة . وكان فيهم بعض من يرى رأيهم ، فاتعدوا سوراً ، فخرجوا إليها متقطعين من أربعة وخمسة وعشرة ،
فتناموا بها ثلثمائة رجل ، ثم ساروا إلى الصّراة ، فباتوا بها ليلة .

ثم إن المغيرة بن شعبة أخبر خبرهم ، فدعا رؤساء الناس ، فقال : إن هؤلاء الأشقياء قد أخرجهم
الحين وسوء الرأي ، فمن ترون أبعث إليهم؟ قال : فقام إليه عدي بن حاتم ، فقال : كلنا لهم عدو ، ولرأيهم
مسفة ، وبطاعتك مستمسك ، فأينا شئت سار إليهم .

فقام معقل بن قيس ، فقال : إنك لا تبعث إليهم أحداً ممن ترى حولك من أشراف المصر إلى وجدته
سامعاً مطيعاً ، ولهم مفارقاً ، وهلاكهم محبباً ، ولا أرى أصلحك الله أن تبعث إليهم أحداً من الناس أعدى لهم
ولا أشد عليهم مني ، فابعثني إليهم فإني أكفيكمهم بإذن الله ؛ فقال : اخرج على اسم الله ؛ فجهّز معه ثلاثة
آلاف رجل .

وقال المغيرة لقبيصة بن الدثون : الصق لي بشيعة علي ، فأخرجهم مع معقل بن قيس ، فإنه كان من
رؤوس أصحابه ، فإذا بعثت بشيعته الذين كانوا يعرفون فاجتمعوا جميعاً ، استأنس بعضهم ببعض
وتناصحوا ، وهم أشد استحلالاً لدماء هذه المارقة ، وأجراً عليهم من غيرهم ، وقد قاتلوا قبل هذه المرة .

قال أبو مخنف : فحدثني الأسود بن قيس ، عن مرة بن منقذ بن النعمان ، قال : كنت أنا فيمن ندب
معه يومئذ ؛ قال : لقد كان صعصعة بن صوحان قام بعد معقل بن قيس وقال : ابعثني إليهم أيها الأمير ، فإنا
والله لدمائهم مستحل ، وبحملها مستقل ؛ فقال : اجلس ؛ فإنما أنت خطيب ، فكان أحفظه ذلك ، وإنما
قال ذلك لأنه بلغه أنه يعيب عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ويكثر ذكر علي ويفضله ، وقد كان دعاه ،
فقال : إياك أن يبلغني عنك أنك تعيب عثمان عند أحد من الناس ، وإياك أن يبلغني عنك أنك تظهر شيئاً من
فضل علي علانية ، فإنك لست بذاكر من فضل علي شيئاً أجعله ، بل أنا أعلم بذلك ، ولكن هذا السلطان قد
ظهر ، وقد أخذنا بإظهار عيبه للناس ، فنحن ندع كثيراً مما أمرنا به ، ونذكر الشيء الذي لا نجد منه بداً ،
ندفع به هؤلاء القوم عن أنفسنا تقية ، فإن كنت ذاكرأ فضله فاذكره بينك وبين أصحابك وفي منازلكم سرّاً ،
وأما علانية في المسجد فإن هذا لا يحتمله الخليفة لنا ، ولا يعذرنا به ، فكان يقول له : نعم أفعل ، ثم يبلغه أنه
قد عاد إلى ما ناه عنه ، فلما قام إليه وقال له : ابعثني إليهم ، وجد المغيرة قد حقد عليه خلافة إياه ، فقال :
اجلس فإنما أنت خطيب ، فأحفظه ، فقال له : أوأنا إلا خطيب فقط ! أجل والله ، إني للخطيب الصليب
الرئيس ، أما والله لو شهدتني تحت راية عبد القيس يوم الجمل حيث اختلفت القنا ، فشؤون تُفري ، وهامة
تُحتل ، لعلمت أني أنا الليث الهزبر ؛ فقال : حبك الآن ، لعمري لقد أوتيت لساناً فصيحاً ، ولم يلبث
فبيسة بن الدثون أن أخرج الجيش مع معقل ، وهم ثلاثة آلاف نقاوة الشيعة وفُرسانهم .

قال أبو مخنف : فحدثني النضر بن صالح ، عن سالم بن ربيعة ، قال : إني جالس عند المغيرة بن شعبة
حين أتاه معقل بن قيس يسلم عليه ويودعه ، فقال له المغيرة : يا معقل بن قيس ، إني قد بعثت معك فُرسان

أهل المصر ، أمرت بهم فانتخبوا انتخاباً ، فسر إلى هذه العصابة المارقة الذين فارقوا جماعتنا ، وشهدوا عليها بالكفر ، فادعهم إلى التوبة ، وإلى الدخول في الجماعة ، فإن فعلوا فاقبل منهم ، واكف عنهم ، وإن هم لم يفعلوا فناجزهم ، واستعين بالله عليهم .

فقال معقل بن قيس : سندعهم ونعذر ، وإيم الله ما أرى أن يقبلوا ، ولئن لم يقبلوا الحق لا نقبل منهم الباطل ، هل بلغك - أصلحك الله - أين منزل القوم ؟ قال : نعم ، كتب إلي سماك بن عبيد العبيسي - وكان عاملاً له على المدائن - يخبرني أنهم ارتحلوا من الصراة ، فأقبلوا حتى نزلوا بهرسير ، وأهم أرادوا أن يعبروا إلى المدينة العتيقة التي بها منازل كسرى وأبيص المدائن ، فمنعهم سماك أن يجوزوا ، فنزلوا بمدينة بهرسير مقيمين ، فاخرج إليهم ، وانكش في آثارهم حتى تلحقهم ، ولا تدعهم والإقامة في بلد ينتهي إليهم فيه أكثر من الساعة التي تدعوهم فيها ، فإن قبلوا ولأفناهم ، فإنهم لن يقيموا ببلد يومين إلا أفسدوا كل من خالطهم . فخرج من يومه فبات بسوار ، فأمر المغيرة مولاة وراداً ، فخرج إلى الناس في مسجد الجماعة ، فقال : أيها الناس ، إن معقل بن قيس قد سار إلى هذه المارقة ، وقد بات الليلة بسورا ، فلا يتخلقن عنه أحد من أصحابه . ألا وإن الأمير يخرج على كل رجل من المسلمين منهم ، ويعزم عليهم أن يبيتوا بالكوفة ، ألا وأياما رجل من هذا البعث وجدناه بعد يومنا بالكوفة فقد أحل بنفسه .

قال أبو مخنف : وحدثني عبد الرحمن بن جندب ، عن عبد الله بن عتبة الغنوي ، قال : كنت فيمن خرج مع المستورد بن علفة ، وكنت أحدث رجل فيهم . قال : فخرجنا حتى أتينا الصراة ، فأقمنا بها حتى تنامت جماعتنا ، ثم خرجنا حتى انتهينا إلى بهرسير ، فدخلناها ونذر بنا سماك بن عبيد العبيسي ، وكان في المدينة العتيقة ، فلما ذهبنا لنعبر الجسر إليهم قاتلنا عليه ، ثم قطعه علينا ، فأقمنا بهرسير . قال : فدعاني المستورد بن علفة ، فقال : أتكتب يا بن أخي ؟ قلت : نعم ، فدعا لي برق ودواة ، وقال : اكتب : من عبد الله المستورد أمير المؤمنين إلى سماك بن عبيد ، أما بعد ، فقد نقمنا على قومنا الجور في الأحكام ، وتعطيل الحدود ، والاستثارة بالفيء ، وإنا ندعوك إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ، وولاية أبي بكر وعمر رضوان الله عليهما ، والبراءة من عثمان وعلي ، لإحداثهما في الدين ، وتركهما حكم الكتاب ، فإن تقبل فقد أدركت رشدك ، ولأ تقبل فقد بالغنا في الإغدار إليك ، وقد آذناك بحرب ، فتبذنا إليك على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين . قال : فقال المستورد : انطلق إلى سماك بهذا الكتاب فادفعه إليه ، واحفظ ما يقول لك ، والقي .

قال : وكنت فتى حدثا حين أدركت ، لم أجرب الأمور ، ولا علم لي بكثير منها ، فقلت : أصلحك الله ! لو أمرتني أن أستعرض دجلة فألقي نفسي فيها ما عصيتك ، ولكن تأمن علي سماكاً أن يتعلق بي ، فيحبسني عنك ، فإذا أنا قد فاتني ما أترجاه من الجهاد فتبسم وقال : يا بن أخي ، إنما أنت رسول ، والرسول لا يعرض له ، ولو خشيت ذلك عليك لم أبعثك ، وما أنت على نفسك بأشفق مني عليك . قال : فخرجت حتى عبرت إليهم في معبر ، فأتيت سماك بن عبيد ، وإذا الناس حوله كثير . قال : فلما أقبلت نحوهم أبذوني أبصارهم ، فلما دنوت منهم ابتدرني نحو من عشرة ، وظننت والله أن القوم يريدون أخذني ، وأن الأمر عندهم ليس كما ذكر لي صاحبي ، فانتضيت سيفي ، وقلت : كلاً ، والذي نفسي بيده ، لا تصلون إلي حتى أعذر إلى الله فيكم ، قالوا

لي: يا عبد الله، من أنت؟ قلت: أنا رسول أمير المؤمنين المستورد بن علفة، قالوا: فلم انتضيت سيفك؟ قلت: لا بتداركم إلي، فحفت أن توثقوني وتغذروا بي. قالوا: فأنت آمن، وإنما أتيناك لنقوم إلى جنبك، ونمسك بقائم سيفك، وننظر ما جئت له، وما تسأل؛ قال: فقلت لهم: ألسن آمناً حتى تردوني إلى أصحابي؟ قالوا: بلى، فثبمت سيفي، ثم أتيت حتى قمت على رأس سماك بن عبيد وأصحابه قد انتشبووا بي، فمنهم ممسك بقائم سيفي، ومنهم ممسك بعصدي، فدفعني إليه كتاب صاحبي، فلما قرأه رفع رأسه إلي، فقال: ما كان المستورد عندي خليفاً لما كنت أرى من إخبائه وتواضعه أن يخرج على المسلمين بسيفه، يعرض على المستورد البراءة من علي وعثمان، ويدعوني إلى ولايته! فبئس والله الشيخ أنا إذا! قال: ثم نظر إلي فقال: يا بُني، اذهب إلى صاحبك فقل له: اتق الله وارجع عن رأيك، وادخل في جماعة المسلمين، فإن أردت أن أكتب لك في طلب الأمان إلى المغيرة فعلت، فإنك ستجده سريعاً إلى الإصلاح، محباً للعافية؛ قال: قلت له، وإن لي فيهم يومئذ بصيرة، هيهات! إنما طلبنا بهذا الأمر الذي أخافنا فيكم في عاجل الدنيا الأمان عند الله يوم القيامة؛ فقال لي: بؤساً لك! كيف أرحمك! ثم قال لأصحابه: إنهم خلأوا هذا. ثم جعلوا يقرؤون عليه القرآن ويتخضعون ويتباكون، فظن بهذا أنهم على شيء من الحق، إن هم إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً، والله ما رأيت قوماً كانوا أظهر ضلالة، ولا أبين شؤماً، من هؤلاء الذين ترون!.

قلت: يا هذا إنني لم آت لك لأشاتمك ولا أسمع حديثك وحديث أصحابك، حدثني، أنت تجيبني إلى ما في هذا الكتاب أم لا تفعل فارجع إلى صاحبي؟ فنظر إلي ثم قال لأصحابه: ألا تعجبون إلى هذا الصبي! والله إنني لأراي أكبر من أبيه، وهو يقول لي: أتجيبني إلى ما في هذا الكتاب! انطلق يا بُني إلى صاحبك، إنما تنذم لو قد اكتفتكم الخيل، وأشرعت في صدوركم الرماح، هناك تمنى لو كنت في بيت أمك! قال: فانصرفت من عنده فعبرت إلى أصحابي، فلما دنوت من صاحبي قال: ما رد عليك؟ قلت: ما رد خيراً؛ قلت له: كذا وقال لي: كذا، فقصصت عليه القصة؛ قال: فقال المستورد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم^(١).

قال: فلبنا بمكاننا ذاك يومين أو ثلاثة أيام، ثم استبان لنا مسير معقل بن قيس إلينا. قال: فجمعنا المستورد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن هذا الخرق معقل بن قيس قد وجه إليكم وهو من السبئية المفترين الكاذبين، وهو الله ولكم عدو، فأشيروا علي برأيكم. قال: فقال له بعضنا: والله ما خرجنا نريد إلا الله، وجهاد من عادى الله، وقد جاءونا فأين نذهب عنهم! بل نقيم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين. وقالت طائفة أخرى: بل نعتزل ونتنحى، ندعو الناس ونحتج عليهم بالدعاء.

فقال: يا معشر المسلمين، إني والله ما خرجت ألتمس الدنيا ولا ذكرها ولا فخرها ولا البقاء، وما أحب أنها لي بحذاقيرها، وأضعاف ما يتنافس فيه منها بقبال نعلي! وما خرجت إلا التماس الشهادة، وأن يهديني الله إلى الكرامة بهوان بعض أهل الضلالة، وإنني قد نظرت فيما استشرتكم فيه فرأيت ألا أقيم لهم حتى يقدموا علي وهم جامون متوافرون، ولكن رأيت أن أسير حتى أمعن، فإنهم إذا بلغهم ذلك خرجوا في طلبنا، فتقطعوا

(١) سورة البقرة: ٦.

وتبدّدوا ، فعَلَى تلك الحال ينبغي لنا قتالهم ، فاخرجوا بنا على اسم الله عزّ وجلّ .

قال : فخرجنا فمضينا على شاطئ دجلة حتى انتهينا إلى جرجرايا ، فعبرنا دجلة ، فمضينا كما نحن في أرض جُوخَى حتى بلغنا المذار ، فأقمنا فيها ، وبلغ عبدالله بن عامر مكاننا الذي كنا فيه ، فسأل عن المغيرة بن شعبة ، كيف صنع في الجيش الذي بعث إلى الخوارج؟ وكم عدّتهم؟ فأخبر بعدّتهم ، وقيل له : إنّ المغيرة نظر إلى رجل شريف رئيس قد كان قاتل الخوارج مع علي عليه السلام ، وكان من أصحابه ، فبعثه وبعث معه شيعته عليّ لعداوتهم لهم ، فقال : أصاب الرأي ، فبعث إلى شريك بن الأعور الحارثي - وكان يرى رأي عليّ عليه السلام - فقال له : اخرج إلى هذه المارقة فانخب ثلاثة آلاف رجل من الناس ، ثم أتبعهم حتى تُخرجهم من أرض البصرة أو تقتلهم . وقال له بينه وبينه : اخرج إلى أعداء الله بمن يستحلّ قتالهم من أهل البصرة ، فظنّ شريك به إنّما يعني شيعة علي عليه السلام ، ولكنه يكره أن يسميهم ، فانخب الناس ، وألحّ على فرسان ربيعة الذين كان رأيهم في الشيعة ، وكان تحييه العظماء منهم . ثمّ إنه خرج فيهم مقبلاً إلى المستورد بن علفه بالمذار .

قال أبو مخنف : وحَدَّثني حُصيرة بن عبدالله بن الحارث ، عن أبيه عبدالله بن الحارث ، قال : كنت في الذين خرجوا مع معقل بن قيس ، فأقبلت معه ، فوالله ما فارقت ساعة من نهار منذ خرجت ، فكان أول منزل نزلناه سوراً .

قال : فمكثنا يوماً حتى اجتمع إليه حُلُّ أصحابه ، ثمّ خرجنا مسرعين مبادرين لعدونا أن يفوتنا ، فبنا طليعةً ، فارتحلنا فنزلنا كوثى ، فأقمنا بها يوماً حتى لحق بنا من تخلف ، ثم أدلج بنا من كوثى ، وقد مضى من الليل هزيع ، فأقبلنا حتى دنونا من المدائن ، فاستقبلنا الناس فأخبرونا أنهم قد ارتحلوا ، فشق علينا والله ذلك ، وأيقنا بالنعاء وطول الطلب .

قال : وجاء معقل بن قيس حتى نزل باب مدينة بهرسير ، ولم يدخلها ، فخرج إليه سماك بن عبيد فسلم عليه ، وأمر غلمانَه ومواليه فأتوه بالجزر والشعير والقَت ، فجاءوه من ذلك بكلّ ما كفاه وكفى الجند الذين كانوا معه .

ثم إن معقل بن قيس بعد أن أقام بالمدائن ثلاثاً جمع أصحابه فقال : إن هؤلاء المارقة الضلال إنّما خرجوا فذهبوا على وجوههم إرادة أن تتعجلوا في آثارهم ، فتقطّعوا وتبدّدوا ، ولا تلحقوا بهم إلّا وقد تعبتم ونصبتهم ، وأنه ليس شيء يدخل عليكم من ذلك إلّا وقد يدخل عليهم مثله ، فخرج بنا من المدائن ، فقدم بين يديه أبو الرواغ الشاكريّ في ثلاثمائة فارس ، فأتبع آثارهم ، فخرج معقل في أثره ، فأخذ أبو الرواغ يسأل عنهم ، ويركب الوجه الذي أخذوا فيه ، حتى عبروا جرجرايا في آثارهم ، ثم سلك الوجه الذي أخذوا فيه ، فاتبعهم ، فلم يزل ذلك دأبه حتى لحقهم بالمذار مقيمين ، فلما دنا منهم استشار أصحابه في لقائهم وقتالهم قبل قدوم معقل عليه ، فقال له بعضهم : أقدم بنا عليهم فلنقاتلهم ، وقال بعضهم : والله ما نرى أن تعجل إلى قتالهم حتى يأتينا أميرنا ، ولنلقاهم بجماعتنا .

قال أبو مخنف : فحدّثني تليد بن زيد بن راشد الفاشي أنّ أباه كان معه يومئذ . قال : فقال لنا أبو الرواغ : إنّ معقل بن قيس حين سرّحني أمامه أمرني أن أتبع آثارهم ، فإذا لحقهم لم أعجل إلى قتالهم حتى يأتيني .

قال : فقال له جميع أصحابه : فالرأي الآن بين ، تنح بنا فلنكن قريباً منهم حتى يقدم علينا صاحبنا ، فتنحينا - وذلك عند المساء - قال : فبتنا ليلتنا كلها متحارسين حتى أصبحنا ، فارتفع الضحى ، وخرجوا علينا ، قال : فخرجنا إليهم وعدتهم ثلثمائة ونحن ثلثمائة ، فلما اقتربوا شدوا علينا ، فلا والله ما ثبت لهم منا إنسان ؛ قال : فانهزمت ساعة ، ثم إن أبا الرواغ صاح بنا وقال : يا فرسان السوء ، قبحكم الله سائر اليوم ! الكرة الكرة ! قال : فحمل وحملنا معه ، حتى إذا دنونا من القوم كربنا ، فانصرفنا وكروا علينا ، وكشفونا طويلاً ، ونحن على خيل معلمة جياد ، ولم يصب منا أحد ، وقد كانت جراحات يسيرة ، فقال لنا أبو الرواغ : ثكلتكم أمهاتكم ! انصرفوا بنا فلنكر قريباً منهم ، لا نزاي لهم حتى يقدم علينا أميرنا ، فما أقبح بنا أن نرجع إلى الجيش ، وقد انهزمنا من عدونا ولم نصبر لهم حتى يشتد القتال وتكر القتلى . قال : فقال رجل منا بيجيه : إن الله لا يستحي من الحق ، قد والله هزمونا ، قال أبو الرواغ : لا أكثر الله فينا ضربك ! إنا ما لم ندع المعركة فلم نهزم ، وإنا متى عطفنا عليهم وكنا قريباً منهم فنحن على حال حسنة حتى يقدم علينا الجيش ، ولم نرجع عن وجعنا ، إنه والله لو كان يقال : انهزم أبو حمران حمير بن بجير الحمداني ، ما باليت ، إنما يقال : انهزم أبو الرواغ ؛ فقفوا قريباً ، فإن أتوكم فعجزتم عن قتالهم فانحازوا ، فإن حملوا عليكم فعجزتم عن قتالهم فتأخروا وانحازوا إلى حامية ، فإذا رجعوا عنكم فاعطفوا عليهم ، وكونوا قريباً منهم ، فإن الجيش آتيكم إلى ساعة . قال : فأخذت الخوارج كلما حملت عليهم انحازوا وهم كانوا حامية ، وإذا أخذوا في الكرة عليهم ففرق جماعتهم قرب أبو الرواغ وأصحابه على خيلهم في آثارهم ، فلما رأوا أنهم لا يفارقونهم ، وقد طاردوهم هكذا من ارتفاع الضحى إلى الأولى . فلما حضرت صلاة الظهر نزل المستورد للصلاة ، واعتزل أبو الرواغ وأصحابه على رأس ميل منهم أو ميلين ، ونزل أصحابه فصلوا الظهر ، وأقاموا رجلين ريثة ، وأقاموا مكانهم حتى صلوا العصر . ثم إن فتى جاءهم بكتاب معقل بن قيس إلى أبي الرواغ ، وكان أهل القرى وعابرو السيل يرون عليهم ويرونهم يقتتلون ، فمن مضى منهم على الطريق نحو الوجه الذي يأتي من قبله معقل استقبل معقلاً فأخبره بالبقاء أصحابه والخوارج ، فيقول : كيف رأيتموهم يصنعون ؟ فيقولون : رأينا الحرورية تطرد أصحابك ، فيقول : أما رأيتم أصحابي يعطفون عليهم ويقاتلونهم ؟ فيقولون : بلى ، يعطفون عليهم وينهزمون : فقال : إن كان ظني بأبي الرواغ صادقاً لا يقدم عليكم منهزماً أبداً . ثم وقف عليهم ، فدعا حُجْرز ابن شهاب بن بجير بن سُفيان بن خالد بن منقر التميمي فقال له : تخلف في ضعة الناس ، ثم سربهم على مهل ، حتى تقدم بهم علي ، ثم ناد في أهل القوة : ليتعجل كل ذي قوة معي ، اعجلوا إلى إخوانكم ، فإنهم قد لاقوا عدوهم ، وإني لأرجو أن يهلكهم الله قبل أن تصلوا إليهم .

قال : فاستجمع من أهل القوة والشجاعة وأهل الخيل الجياد نحو من سبعمائة ، وسار فأسرع ، فلما دنا من أبي الرواغ قال أبو الرواغ : هذه غبرة الخيل ، تقدّموا بنا إلى عدونا حتى يقدم علينا الجند ، ونحن منهم قريب ، فلا يرون أننا تنحينا عنهم ولا هبناهم . قال : فاستقدم أبو الرواغ حتى وقف مقابل المستورد وأصحابه ، وغشيهم معقل في أصحابه ، فلما دنا منهم غربت الشمس ، فنزل فصل بأصحابه ، ونزل أبو الرواغ فصل بأصحابه في جانب آخر ، وصلى الخوارج أيضاً . ثم إن معقل بن قيس أقبل بأصحابه حتى إذا دنا من أبي الرواغ دعاه فاتاه ، فقال له : أحسنت أبا الرواغ ! هكذا الظن بك ، الصبر والمحافظة . فقال : أصلحك الله ! إن لهم شدات منكرات ، فلا تكن أنت تليها بنفسك ، ولكن قدّم بين يديك من يقاتلهم ،

وكن أنت من وراء الناس رداءً لهم ؛ فقال : نَعَمْ ما رأيت ! فواللّٰه ما كان إلّا رَيْثِمًا قالها حتى شدّوا عليه وعلى أصحابه ، فلما غَشَوْه انجفل عنه عامّة أصحابه ، وثبتّ ونزل ، وقال : الأرضُ الأرضُ يا أهلَ الإسلام ! ونزل معه أبو الرواغ الشاكري وناسٌ كثيرٌ من الفُرسان وأهلِ الحفاظ نحو مائتي رجل ، فلما غَشِيَهُم المستورد وأصحابه استقبلوهم بالرماح والسيوف ، وانجفلت خيلٌ معقل عنه ساعة ، ثم ناداهم مسكين بن عامر بن أنيف بن شريح بن عمرو بن عُدُس - وكان يومئذٍ من أشجع الناس وأشدّهم بأساً - فقال : يا أهلَ الإسلام ، أين الفرار ، وقد نزل أميركم ! ألا تستحيون ! إن الفرار نخزةٌ وعار ولؤم ، ثم كرّ راجعاً ، ورجعت معه خيلٌ عظيمة ، فشدّوا عليهم ومعقل بن قيس يضاربهم تحت رايته مع ناس نزلوا معه من أهل الصبر ، فضربوهم حتى اضطروهم إلى البيوت ، ثم لم يلبثوا إلّا قليلاً حتى جاءهم مُحَرِّز بن شهاب فيمن تخلف من الناس ، فلما أتوهم أنزلهم ثم صفت لهم ، وجعل ميمنةً وميسرةً ، فجعل أبا الرواغ على ميمنته ومحرز بن بُجير بن سُفيان على ميسرته ومسكين بن عامر على الخيل ، ثم قال لهم : لا تَبْرَحُوا مَصافِّكم حتى تصبحوا ، فإذا أصبَحتم تُرنا إليهم فناجزناهم ، فوقف الناس مواقفهم على مصافهم .

قال أبو مخنف : وحَدَّثني عبد الرحمن بن جندب ، عن عبد الله بن عُقبة الغنوي ، قال : لما انتهى إلينا معقل بن قيس قال لنا المستورد : لا تدعوا معقلاً حتى يعيبي لكم الخيل والرجل ، شدّوا عليهم شدّة صادقة ، لعلّ الله يصّرعه فيها . قال : فشددنا عليهم شدّة صادقة ، فانكشفوا فانفضوا ثم انجفلوا ووثب معقل عن فرسه حين رأى إدبار أصحابه عنه ، فرفع رايته ، ونزل معه ناس من أصحابه ، فقاتلوا طويلاً ، فصبروا لنا ، ثم إنهم تداعوا علينا ، فعطفوا علينا من كلّ جانب ، فانحزنا حتى جعلنا البيوت في ظهورنا ، وقد قاتلناهم طويلاً ، وكانت بيننا جراحةٌ وقتلٌ يسير .

قال أبو مخنف : حدّثني حصيرة بن عبد الله ، عن أبيه أنّ عُمير بن أبي أشاعة الأزدي قُتل يومئذٍ ، وكان فيمن نزل مع معقل بن قيس ، وكان رئيساً . قال : وكنت أنا فيمن نزل معه ، فواللّٰه ما أنسى قولَ عُمير بن أبي أشاعة ونحن نقتل وهو يضاربهم بسيفه قُدماً :

قد عِلِمْتُ أنّي إذا ما أقشعُوا عَنِّي والتأت اللئامُ الوُضْعُ
أخوسُ عند الرّوعِ نذبُ أروُعُ

وقاتل قتالاً شديداً ما رأيت أحداً قاتل مثله ، فَجَرَحَ رجالاً كثيراً ، وقُتل وما أدري أنه قتل ، ما عدا واحداً وقد علمت أنه اعتنقه ، فخرّ على صدره فذبّحه ، فما حَزَّ رأسه حتى حمل عليه رجلٌ منهم فطعنَه بالرمح في ثُغرة نَحْرِهِ ، فخرّ عن صدره ، وانجدل ميتاً ، وشددنا عليهم ، وحُزنّاهم إلى القرية ، ثم انصرفنا إلى معركتنا ، فأتيتُه وأنا أرجو أن يكون به رَمَقٌ ، فإذا هو قد فاظ ، فرجعتُ إلى أصحابي فوقفتُ فيهم .

قال أبو مخنف : وحَدَّثني عبد الرحمن بن جندب ، عن عبد الله بن عُقبة الغنوي ، قال : إنا المتواقفون أوّل الليل إذ أتانا رجل كنا بعثناه أوّل الليل ، وكان بعض من يمرّ الطريق قد أخبرنا أنّ جيشاً قد أقبل إلينا من البصرة ، فلم نكترث ، وقُلْنَا لرجل من أهل الأرض وجعلنا له جُعلاً : اذهب فاعلم هل أتانا من قبل البصرة جيش؟ فجاء ونحن مواقف أهل الكوفة ، وقال لنا : نعم ، قد جاءكم شريك بن الأعور ، وقد استقبلت طائفة على رأس فرسخ عند الأولى ، ولا أرى القوم إلّا نازلين بكم الليلة ، أو مُصَبِّحِكُم غُدوة . فأسقط في أيدينا .

وقال المستورد لأصحابه : ماذا ترون؟

قلنا: نرى ما رأيت ، قال: فإني لا أرى أن أقيم هؤلاء جميعاً ، ولكن نرجع إلى الوجه الذي جئنا منه ، فإنَّ أهل البصرة لا يتبعونا إلى أرض الكوفة ، ولا يتبعنا حينئذ إلا أهل مِصرنا ، فقلنا له : ولم ذاك؟ فقال: قتال أنزله مصر واحد أهون علينا من قتال أهل المِصرين ؛ قالوا : سير بنا حيث أحببت ، قال : فانزلوا عن ظهور دوابكم فأريحوا ساعة ، وأقضيتموها ، ثم انظروا ما أمركم به ؛ قال : فنزلنا عنها ، فأقضيمناها ؛ قال : وبيننا وبينهم حينئذ ساعة قد ارتفعوا عن القرية مخافة أن نبيتهم ؛ قال : فلما أرخناها وأقضيمناها أمرنا فاستوينا على منبرنا ، ثم قال : ادخلوا القرية ، ثم اخرجوا من ورائها ، وانطلقوا معكم بعليج يأخذ بكم من ورائها ، ثم يعود بكم حتى يردكم إلى الطريق الذي منه أقبلتم ، ودعوا هؤلاء مكانهم ، فإنهم لم يشعروا بكم عامة الليل ، أو حتى تصبحوا . قال : فدخلنا القرية وأخذنا عليجاً ، ثم خرجنا به أمامنا ، فقلنا : خذ بنا من وراء هذا الصّف حتى نعود إلى الطريق الذي منه أقبلنا . ففعل ذلك ، فجاء بنا حتى أقامنا على الطريق الذي منه أقبلنا ، فلزمناه راجعين ، ثم أقبلنا حتى نزلنا جرجرايا .

قال أبو مخنف : حدثني حُصيرة بن عبدالله ، عن أبيه عبدالله بن الحارث ، قال: إني أول من فطن لذهابهم ؛ قال: فقلت: أصلحك الله! لقد رابني أمر هذا العدو منذ ساعة طويلة ، إنهم كانوا موافقين نرى سوادهم ، ثم لقد خفي عليّ ذلك السواد منذ ساعة ، وإني لخائف أن يكونوا زالوا من مكانهم ليكيدوا الناس ؛ فقال: وما تخاف أن يكون من كيدهم؟ قلت: أخاف أن يبيتوا الناس ، قال: واللّه ما آمن ذلك ؛ قال: فقلت له: فاستعدّ لذلك ، قال: كما أنت حتى أنظر . يا عتّاب ، انطلق فيمن أحببت حتى تدنو من القرية فتتظّر هل ترى منهم أحداً أو تسمع لهم ركزا ! وسلّ أهل القرية عنهم .

فخرج في خمس الغزاة يركض حتى نظر القرية فأخذ لا يرى أحداً يكلمه ، وصاح بأهل القرية ، فخرج إليه منهم ناس ، فسألهم عنهم ، فقالوا : خرجوا فلا ندري كيف ذهبوا ! فرجع إليه عتّاب فأخبره الخبر ، فقال معقل : لا آمن البيات ، فأين مضر؟ فجاءت مضر فقال: قفوا هاهنا ، وقال: أين ربيعة؟ فجعل ربيعة في وجهه وتعباً في وجهه وهمدان في وجهه ، وبقية أهل اليمن في وجهه آخر ، وكان كلّ ربع من هؤلاء في وجهه وظهره مما يلي ظهر الربع الآخر ، وجال فيهم معقل حتى لم يدع ربعاً إلا وقف عليه ، وقال: أيها الناس ، لو أتوكم فبذّوا بغيركم فقاتلوهم فلا تبرّحوا أنتم مكانكم أبداً حتى يأتاكم أمري ، وليغنّ كلّ رجل منكم الوجه الذي هو فيه ، حتى نصبح فنرى رأينا . فمكثوا متحارسين يخافون بياتهم حتى أصبحوا ، فلما أصبحوا نزلوا فصلّوا ، وأتوا فأخبروا أن القوم قد رجعوا في الطريق الذي أقبلوا منه عودهم على بدئهم ، وجاء شريك بن الأعور في جيش من أهل البصرة حتى نزلوا بمعقل بن قيس فلقية ، فتساءلا ساعة ، ثم إن معقلاً قال لشريك : أنا متبع آثارهم حتى ألحقهم لعل الله أن يهلكهم ، فإني لا آمن إن قصرت في طلبهم أن يكثروا . فقام شريك فجمع رجالاً من وجوه أصحابه ، فيهم خالد بن معدان الطائي وبيّهس بن صهيب الجرمي ، فقال لهم : يا هؤلاء ، هل لكم في خير؟ هل لكم في أن تسيروا مع إخواننا من أهل الكوفة في طلب هذا العدو الذي هو عدوّ لنا ولهم حتى يستأصلهم الله ثم نرجع؟ فقال خالد بن معدان وبيّهس الجرمي : لا والله ، لا نفعل ، إنما أقبلنا نحوهم لننفيهم عن أرضنا ، ونمنعهم من دخولها ، فإن كفانا الله مؤنتهم فإننا منصرفون إلى مِصرنا ، وفي أهل الكوفة

من يَمْنَعُونَ بلادَهُم من هؤلاء الأكلب ؛ فقال لهم : وَيَحْكُم ! أطيعوني فيهم ، فإنهم قومٌ سوء ، لكم في قتالهم أجرٌ وحُظوة عند السلطان ، فقال له بيْهَس الجَرْمي : نحن والله إذاً كما قال أخو بني كنانة :

كَمْ رُضِيعَةٍ أَوْلَادُ أُخْرَى وَضِيعَتُ بَيْنَهَا فَلَمْ تَرْقَعْ بِذَلِكَ مَرْقَعًا

أما بَلْعَك أن الأكراد قد كفروا بجبال فارس ! قال : قد بلغني ، قال : فتأمرنا أن ننتقل معك نحيمي بلادَ أهل الكوفة ، ونقاتل عدوهم ، ونترك بلادنا ، فقال له : وما الأكراد ! إنما يكفهم طائفة منكم ؛ فقال له : وهذا العدو الذي تَدْبُنَا إليه إنما يكفيه طائفة من أهل الكوفة ، إنهم لَعَمْرِي لو اضطَرُّوا إلى نُصْرَتنا لكان علينا نُصْرَتُهُمْ ، ولكنهم لم يحتاجوا إلينا بعد ، وفي بلادنا فتقٌ مثل الفتق الذي في بلادهم ، فليُغْنُوا ما قَبْلَهُمْ ، وعلينا أن نغني ما قَبْلَنَا ، وَلَعَمْرِي لو أنا أطعناك في اتباعهم فأتبعتهم كنتَ قد اجترأت على أميرك ، وفعلتَ ما كان ينبغي لك أن تطلع فيه رأيهُ ، ما كان ليحتملها لك . فلما رأى ذلك قال لأصحابه : سيروا فارتحلوا ، وجاء حتى لقي معقلاً - وكانا متحابين على رأي الشيعة متوآدين عليه - فقال : أما والله لقد جهدتُ بمن معي أن يتبعوني حتى أسير معكم إلى عدوكم فغلبوني ، فقال له معقل : جزاك الله من أخٍ خيراً ! إنا لم نحتج إلى ذلك ، أما والله إني أرجو أن لو قد جهدوا لا يُفْلِت منهم نُحْبِر .

قال أبو مخنف : حَدَّثَنِي الصَّقْعَب بن زُهَيْر ، عن أبي أُمَامَةَ عُبَيْد الله بن جُنَادَةَ ، عن شَرِيك بن الأعور ، قال : حَدَّثَنَا بهذا الحديث شَرِيك بن الأعور . قال : فلما قال : والله إني لأرجو أن لو جَهِدُوا لا يُفْلِت منهم نُحْبِر ، كرهتها والله له ، وأشفقْتُ عليه ، وحسبت أن يكون شبه كلام البَغْي ؛ قال : وإيم الله ما كان من أهل البَغْي .

قال أبو مخنف : حَدَّثَنِي حُصَيْرَةُ بن عبد الله ، عن أبيهِ عبد الله بن الحارث الأزدي ، قال : لما أتانا آنَ المستورِد بن عُلفَةَ وأصحابه قد رجعوا عن طريقهم سُرْرُنَا بذلك ، وقلنا : نتبعهم ونستقبلهم بالمدائن ، وإن دنوا من الكوفة كان أهلكَ لهم ؛ وَدَعَا معقل بن قيس أبا الرواغ فقال له : أَتَبْعُهُ في أصحابك الذين كانوا معك حتى تحبسهُ عليّ حتى ألحقك ؛ فقال له : زدني منهم فإنه أقوى لي عليهم إن هم أرادوا مناجرتي قبل قدومك ، فإننا كنا قد لقينا منهم بَرَحًا ، فزاده ثلاثمائة ، فأتبعهم في ستمائة ، وأقبلوا سِراعاً حتى نزلوا جَرَجَرَا ، وأقبل أبو الرواغ في أثرهم مسرعاً حتى لحقهم بَجَرَجَرَا ، وقد نزلوا ، فنزل بهم عند طلوع الشمس ، فلما نظروا إذا هم بأبي الرواغ في المقدمة ، فقال بعضهم لبعض : إن قتالكم هؤلاء أهون من قتال من يأتي بعدهم .

قال : فخرجوا إلينا ، فأخذوا يُخْرِجُون لَنَا العَشْرَةَ فُرسَان منهم والعشرين فارساً ، فنخرج لهم مثلهم ، فتطارد الخيلان ساعةً يَنْتَصِفُ بعضُنا من بعض ، فلما رأوا ذلك اجتمعوا فشدوا علينا شدةً واحدةً صدقوا فيها الحملة .

قال : فصَرَفُونَا حتى تركناهم العُرْصَةَ . ثم إن أبا الرواغ نادى فيهم ، فقال : يا فُرسَان السوء ، يا حُمَاة السوء ، بش ما قاتلتكم القوم ! إليّ إليّ !

فعالجَ نحواً من مائة فارس ، فعطف عليهم ، وهو يقول :

إِنَّ الْفَتَى كُلَّ الْفَتَى مَنْ لَمْ يُهَلَّ إِذَا الْجَبَانُ حَادَ عَنْ وَقْعِ الْأَسْلِ

قد عَلِمْتُ أَنِّي إِذَا الْبَاسُ نَزَلَ أَرَوْعَ يَوْمِ الْهَيْجِ مِقْدَامَ بَطَلٍ

ثم عطف عليهم فقاتلهم طويلاً ، ثم عطف أصحابه من كل جانب ، فصدقوهم القتال حتى ردوهم إلى مكانهم الذي كانوا فيه ، فلما رأى ذلك المستورد وأصحابه ظنوا أنَّ معقلاً إن جاءهم على تفتية ذلك لم يكن دون قتله لهم شيء ؛ فمضى هو وأصحابه حتى قَطَعُوا دجلة ، ووقَّعُوا في أرض بَهرسير ، وقطع أبو الرواغ في آثارهم فاتَّبِعَهُمْ ، وجاء معقل بن قيس فاتَّبِعَ لِثَرَّ أَبِي الرِّوَاغِ ، فقطع في إثره دجلة ، ومضى المستورد نحو المدينة العتيقة ، وبلغ ذلك سِماك بن عُبَيْد ، فخرج حتى عبر إليها ، ثم خرج بأصحابه وبأهل المدائن ، فصفت على بابها ، وأجلس رجالاً رُمَاءَ على السُّور ، فبلغهم ذلك ، فانصرفوا حتى نزلوا سَابَاطَ ، وأقبل أبو الرواغ في طلب القوم حتى مرَّ بِسِمَاكِ بن عبيد بالمدائن ، فخبَّره بِوَجْهِهِم الذي أخذوا فيه ، فاتبعهم حتى نزل بهم سَابَاطَ .

قال أبو مخنف : حدَّثني عبدالرحمن بن جندب ، عن عبدالله بن عُقْبَةَ الْغَنَوِيِّ ، قال : لما نزل بنا أبو الرواغ دعا المستورد أصحابه ، فقال : إنَّ هؤلاء الذين نزلوا بكم مع أبي الرواغ هم خُرُّ أصحاب معقل ، ولا والله ما قَدِمَ إِلَيْكُمْ إِلَّا حُمَاتُهُ وَفُرْسَانُهُ ، والله لو أعلم أني إذا بادرت أصحابه هؤلاء إليه أدركته قبل أن يفارقوه بساعة لبادرتهم إليه ، فليخرج منكم خارج فيسأل عن معقل أين هو؟ وأين بلغ؟ قال : فخرجت أنا فاستقبلت عُلوْجاً أَقْبَلُوا من المدائن ، فقلت لهم : ما بلغكم عن معقل بن قيس؟ قالوا : جاء فَيَجَّ لسماك بن عبيد من قبله كان سَرَّحَهُ لِيَسْتَقْبَلَ معقلاً فينظر أين انتهى؟ وأين يريد أن ينزل؟ فجاءه فقال : تركته نزل ديلمايا - وهي قرية من قرى إستان بَهرسير إلى جانب دجلة ، كانت لُقْدَامَةَ بن العجلان الأزدي - قال : له : كم بيننا وبينهم من هذا المكان؟ قالوا : ثلاثة فراسخ ، أو نحو ذلك .

قال : فرجعتُ إلى صاحبي فأخبرته الخبر ، فقال لأصحابه : اركبوا ، فَرَكِبُوا ، فأقبل حتى انتهى بهم إلى جسر سَابَاطَ - وهو جسر نهر الملك ، وهو من جانبه الذي يلي الكوفة - وأبو الرواغ وأصحابه مما يلي المدائن ، قال : فجئنا حتى وقفنا على الجسر ، قال : ثم قال لنا : لتنزل طائفة منكم : قال : فنزل منا نحو من خمسين رجلاً ، فقال : اقطعوا هذا الجسر ، فنزلنا فقطعناه ، قال : فلما رأونا وَقُوفاً على الخيل ظنوا أننا نريد أن نُعْبِرَ إِلَيْهِمْ ؛ قال : فصقوا لنا ، وتعبوا ، واشتغلوا بذلك عنا في قَطَعْنَا الجسر . ثمَّ إِنَّا أَخَذْنَا من أهل سَابَاطَ دليلاً فقلنا له : احضر بين أيدينا حتى ننهي إلى ديلمايا ، فخرج بين أيدينا يسعى ، وخرجنا تلمع بنا خيلنا ، فكان الحَبِيبُ وَالْوَجِيفُ ، فما كان إلا ساعة حتى أطللنا على معقل وأصحابه وهم يتحملون ، فما هو إلا أن بَصُرْنَا وقد تفرَّق أصحابه عنه ، ومقدّمته ليست عنده ، وأصحابه قد استقدّم طائفة منهم ، وطائفة تَزَحَلُ ، وهم غَارَوْنَ لَا يَشْعُرُونَ . فلما رأنا نَصَبَ رَايَتِهِ ، ونزل ونادى : يا عباد الله ، الأرضُ الأرضُ ! فنزل معه نحو من مائتي رجل ؛ قال : فَأَخَذْنَا نحمل عليهم فَيَسْتَقْبِلُونَا بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ جُثَاةً على الرُّكْبِ فلا نُقَدِّرُ عَلَيْهِمْ . فقال لنا المستورد : دَعُوا هؤلاء إذا نزلوا وشُدُّوا على خيْلِهِمْ حتى تُحْمَلُوا بينها وبينهم ، فإنكم إن أصبتم خيْلَهُمْ فإنهم لكم عن ساعة جُزْرٌ ؛ قال : فَشُدُّدْنَا على خيْلِهِمْ ، فَحَلَّلْنَا بينهم وبينها ، وقطعنا أعنتها ، وقد كانوا قَرَنُوهَا ، فذهبت في كل جانب ؛ قال : ثُمَّ مِلْنَا على الناس المترحّلين والمتقدّمين ، فَحَمَلْنَا عَلَيْهِمْ حتى فرقنا بينهم ، ثم أقبلنا إلى معقل بن قيس وأصحابه جُثَاةً على الرُّكْبِ على حالهم التي كانوا عليها ، فَحَمَلْنَا عَلَيْهِمْ ، فلم يتحلّوا ، ثم حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ أخرى ، ففعلوا مِثْلَهَا ، فقال لنا المستورد : نازلوهم ، لينزل إليهم نصفكم ، فنزل نصفنا ، وبقي نصفنا معه على الخيل ، وكنتُ في أصحاب الخيل . قال : فلما نزل إليهم رجالاتنا قاتلتهم ، وأخذنا نحمل

عليهم بالخيل ، وطمعنا والله فيهم . قال : فوالله إنا لنقاتلهم ونحن نرى أن قد علوناهم إذ طلعت علينا مقدمة أصحاب أبي الرواغ ، وهم حر أصحابه وفرسائهم ، فلما دنونا منا حلوا علينا ، فعند ذلك نزلنا بأجمعنا فقاتلناهم حتى أصيب صاحبنا وصاحبهم . قال : فما علمته نجا منهم يومئذ أحدٌ غيري . قال : ولاني أحدثهم رجلاً فيما أرى .

قال أبو مخنف : حدثني عبدالرحمن بن جندب ، عن عبدالله بن عتبة الغنوي ، قال : وحدّثنا بهذا الحديث مرتين من الزمن ، مرة في إمارة مصعب ابن الزبير بباجئياً ، ومرة ونحن مع عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث بدير الجماجم . قال : فقتل والله يومئذ بدير الجماجم يوم الهزيمة ، وإنه لقبل عليهم يضاربهم بسيفه وأنا أراه ؛ قال : فقلت له بدير الجماجم : إنك قد حدثتني بهذا الحديث بباجئياً مع مصعب بن الزبير ، فلم أسألك كيف نجوت من بين أصحابك ؟ قال : أحدثك ، والله إن صاحبنا لما أصيب قُتل أصحابه إلا خمسة نفر أو ستة ؛ قال : فشددنا على جماعة من أصحابه نحو من عشرين رجلاً ، فأنكشفوا .

قال : وانتهيت إلى فرس واقف عليه سرجه ولجامه ، وما أدري ما قصة صاحبه أُقيل أم نزل عنه صاحبه ، يقاتل وتركه ! قال : فأقبلت حتى أخذت بلجامه ، وأضع رجلي في الركاب وأستوي عليه . قال : وشدّ والله أصحابه عليّ ، فانتبهوا إليّ ، وغمزت في جنب الفرس ، فإذا هو والله أجود ما سُخر ، ورخص منهم ناس في أثري فلم يعلقوا بي ، فأقبلت أركض الفرس ، وذلك عند المساء ، فلما علمت أني قد فتهم وأمنت ، أبخذت أسير عليه خبياً وتقريباً . ثم إنني سرت عليه بذلك من سيره ، ولقيت علجاً فقلت له : اسع بين يديّ حتى تُخرجني الطريق الأعظم ، طريق الكوفة ؛ ففعل ، فوالله ما كانت إلا ساعة حتى انتهيت إلى كوفى ، فجلت حتى انتهيت إلى مكان من النهر واسع عريض ، فأقحمت الفرس فيه ، فعبرته ، ثم أقبلت عليه حتى آت دبر كعب ، فنزلت فعقلت فرسي وأرحته وهومت تهومة ، ثم إنني هبت سريعاً ، فخلت في ظهر الفرس ، ثم سرت في قطع من الليل فالتحذت بقية الليل جلاً ، فصليت الغداة بالمزاحمية على رأس فرسخين من قُبَيْن ، ثم أقبلت حتى أدخل الكوفة حين مَنَع الضحى ، فأتى من ساعتى شريك بن ثملة المحاربي ، فأخبرته خبري وخبر أصحابه ، وسألته أن يلقي المغيرة بن شعبة فيأخذ لي منه أماناً ، فقال لي : قد أصبت الأمان إن شاء الله ، وقد جئت ببشارة ، والله لقد بت الليلة وإن أمر الناس ليهمني .

قال : فخرج شريك بن ثملة المحاربي حتى أت المغيرة مسرعاً فاستأذن عليه ، فأذن له ، فقال : إن عندي بُشْرَى ، ولي حاجة ، فاقض حاجتي حتى أبشرك ببشارتي ، فقال له : قُضيت حاجتك ، فهات بُشْرَاكَ ؛ قال : تؤمن عبدالله بن عتبة الغنوي ، فإنه كان مع القوم ، قال : قد آمنته ، والله لو دِدْتُ أنك أتيتني بهم كلهم فأمنتهم . قال : فأبشّر ، فإن القوم كلهم قد قُتلوا ، كان صاحبي مع القوم ، ولم ينبج منهم فيما حدثني غيره . قال : فما فعل معقل بن قيس ؟ قال : أصلحك الله ! ليس له بأصحابنا علم . قال : فما فرغ من منطقة حتى قدم عليه أبو الرواغ ومسكين بن عامر بن أنيف مبشرين بالفتح ، فأخبروا أن معقل بن قيس والمستورد بن علفة مَشَى كل واحد منهما إلى صاحبه ، بيّد المستورد الرمح ويّد معقل السيف ، فالتقيا ، فأشرع المستورد الرمح في صدر معقل حتى خرج السنان من ظهره ، فضربه معقل بالسيف على رأسه حتى خالط السيف أم الدماغ ، فخرّاً مَيَّتين .

قال أبو مخنف: حَدَّثَنِي حُصَيْرَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا رَأَيْنَا الْمُسْتَوْدَ بْنَ عُفْلَةَ وَقَدْ نَزَلْنَا بِهِ سَابَاطَ أَقْبَلَ إِلَى الْجِسْرِ فَقَطَعَهُ، كُنَّا نَظُنُّ أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَعْبُرَ إِلَيْنَا. قَالَ: فَارْتَفَعْنَا عَنْ مَظْلَمِ سَابَاطَ إِلَى الصُّحْرَاءِ الَّتِي بَيْنَ الْمَدَائِنِ وَسَابَاطَ فَتَعَبْنَا وَتَهَيَّأْنَا، فَطَالَ عَلَيْنَا أَنْ نَرَاهُمْ يَخْرُجُونَ إِلَيْنَا. قَالَ: فَقَالَ أَبُو الرَّوَاحِ: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشَأْنًا، أَلَا رَجُلٌ يَعْلَمُ لَنَا عِلْمَ هَؤُلَاءِ؟ فَقُلْتُ: أَنَا وَوَهَيْبُ بْنُ أَبِي أَشَاءَةَ الْأَزْدِيِّ: نَحْنُ نَعْلَمُ لَكَ عِلْمَ ذَلِكَ، وَنَأْتِيكَ بِخَبَرِهِمْ، فَقَرَّبْنَا عَلَى فَرَسَيْنَا إِلَى الْجِسْرِ فَوَجَدْنَاهُ مَقْطُوعًا، فَظَنَّنَا الْقَوْمَ لَمْ يَقْطَعُوهُ إِلَّا هَيْبَةً لَنَا وَرُغْبًا مِنَّا، فَجَعَلْنَا نَرْكُضُ سِرَاعًا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى صَاحِبِنَا، فَأَخْبَرْنَاهُ بِمَا رَأَيْنَا، فَقَالَ: مَا ظَنُّكُمْ؟ قَالَ: فَقُلْنَا: لَمْ يَقْطَعُوا الْجِسْرَ إِلَّا لَهَيْبَتِنَا وَلَمَّا أَدْخَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الرَّعْبِ مَنًا. قَالَ: لِعَمْرِي مَا خَرَجَ الْقَوْمُ وَهُمْ يَرِيدُونَ الْفِرَارَ، وَلَكِنَّ الْقَوْمَ قَدْ كَادُوكُمْ، أَتَسْمَعُونَ! وَاللَّهِ مَا أَرَاهُمْ إِلَّا قَالُوا: إِنَّ مَعْقِلًا لَمْ يَبْعَثْ إِلَيْكُمْ أَبَا الرَّوَاحِ إِلَّا فِي حَرِّ أَصْحَابِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ فَاتْرَكُوا هَؤُلَاءِ بِمَكَانِهِمْ هَذَا، وَجِدُّوا فِي السَّيْرِ نَحْوَ مَعْقِلِ وَأَصْحَابِهِ، فَإِنَّكُمْ تَجِدُونَهُمْ غَارِّينَ أَمِينِينَ إِنْ تَأْتَوْهُمْ؛ فَقَطَعُوا الْجِسْرَ لِكَيْمَا يَشْغَلُوكُمْ بِهِ عَنْ لِحَاقِكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَأْتُوا أَمِيرَكُمْ عَلَى غَرَّةٍ، النَّجَاءُ النَّجَاءُ فِي الْطَلَبِ! قَالَ: فَوَقَعَ فِي أَنْفُسِنَا أَنَّ الَّذِي قَالَ لَنَا كَمَا قَالَ. قَالَ: فَصَحْنَا بِأَهْلِ الْقَرْيَةِ؛ قَالَ: فَجَاؤُوا سِرَاعًا: فَقُلْنَا لَهُمْ: عَجِّلُوا عَقْدَ الْجِسْرِ، وَاسْتَحْشِنَانَهُمْ فَمَا لَبِثُوا أَنْ فَرَّغُوا مِنْهُ، ثُمَّ عَبَرْنَا عَلَيْهِ، فَاتَّبَعْنَاهُمْ سِرَاعًا مَا نَلْوِي عَلَى شَيْءٍ، فَلَزِمْنَا أَثَارَهُمْ، فَوَاللَّهِ مَا زَلْنَا نَسْأَلُ عَنْهُمْ، فَيَقَالُ: هُمُ الْآنَ أَمَامَكُمْ، لِحَقْتُمُوهُمْ، مَا أَقْرَبَكُمْ مِنْهُمْ، فَوَاللَّهِ مَا زَلْنَا فِي طَلَبِهِمْ حِرْصًا عَلَى لِحَاقِهِمْ حَتَّى كَانَ أَوَّلُ مَنْ اسْتَقْبَلَنَا مِنَ النَّاسِ فَلَهُمْ وَهُمْ مِنْهُمْ لَا يَلْوِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ. فَاسْتَقْبَلَهُمْ أَبُو الرَّوَاحِ، ثُمَّ صَاحَ بِالنَّاسِ: إِلَيَّ إِلَيَّ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، فَلَاذُوا بِهِ، فَقَالَ: وَيْلَكُمْ! مَا وَرَاءَكُمْ؟ فَقَالُوا: لَا نَدْرِي، لَمْ يَرُغْنَا إِلَّا وَالْقَوْمَ مَعَنَا فِي عَسْكَرِنَا وَنَحْنُ مَتَفَرِّقُونَ، فَشَدُّوا عَلَيْنَا، فَفَرَّقُوا بَيْنَنَا، قَالَ: فَمَا فَعَلَ الْأَمِيرُ؟ فَقَائِلٌ يَقُولُ: نَزَلَ وَهُوَ يِقَاتِلُ؛ وَقَائِلٌ يَقُولُ: مَا نَرَاهُ إِلَّا قُتِلَ؛ فَقَالَ لَهُمْ: أَيُّهَا النَّاسُ، ارْجِعُوا مَعِيَ، فَإِنَّ نَذْرَكَ أَمِيرِنَا حَيًّا نَقَاتِلُ مَعَهُ، وَإِنْ نَجَدَهُ قَدْ هَلَكَ قَاتَلْنَاهُمْ، فَنَحْنُ فُرْسَانُ أَهْلِ الْمِصْرِ الْمُتَخَبِّتُونَ لِهَذَا الْعَدُوِّ، فَلَا يَفْسُدَنَّ فِيكُمْ رَأْيُ أَمِيرِكُمْ بِالْمِصْرِ، وَلَا رَأْيُ أَهْلِ الْمِصْرِ، وَإِيْمُ اللَّهِ لَا يَنْبَغِي لَكُمْ إِنْ عَايَنْتُمُوهُ وَقَدْ قَتَلُوا مَعْقِلًا أَنْ تَفَارِقُوهُمْ حَتَّى تُبَيِّرُوهُمْ أَوْ تَبَارُوا، سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ. فَسَارُوا وَسِرْنَا، فَأَخَذَ لَا يَسْتَقْبِلُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا صَاحَ بِهِ وَرَدَهُ، وَنَادَى وَجْهَ أَصْحَابِهِ وَقَالَ: اضْرَبُوا وَجْهَ النَّاسِ وَرَدُّوهُمْ. قَالَ: فَأَقْبَلْنَا نَرَدُّ النَّاسَ حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الْعَسْكَرِ، فَإِذَا نَحْنُ بِرَايَةِ مَعْقِلِ بْنِ قَيْسٍ مَنْصُوبَةٍ، فَإِذَا مَعَهُ مَائَتَا رَجُلٍ أَوْ أَكْثَرُ فُرْسَانِ النَّاسِ وَوُجُوهُهُمْ لَيْسَ فِيهِمْ إِلَّا رَاجِلٌ، وَإِذَا هُمْ يَقْتَتِلُونَ أَشَدَّ قِتَالٍ سَمِعَ النَّاسُ بِهِ، فَلَمَّا طَلَعْنَا عَلَيْهِمْ إِذَا نَحْنُ بِالْخَوَارِجِ قَدْ كَادُوا يَعْطُونَ أَصْحَابَنَا، وَإِذَا أَصْحَابُنَا عَلَى ذَلِكَ صَابِرُونَ يَجَالِدُونَهُمْ، فَلَمَّا رَأَوْنَا كَرُّوا ثُمَّ شَدُّوا عَلَى الْخَوَارِجِ، فَارْتَفَعَتِ الْخَوَارِجُ عَنْهُمْ غَيْرَ بَعِيدٍ، وَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ، فَنَظَرَ أَبُو الرَّوَاحِ إِلَى مَعْقِلٍ فَإِذَا هُوَ مُسْتَقْدِمٌ يَذْمُرُ أَصْحَابَهُ وَيَحْرَضُهُمْ، فَقَالَ لَهُ: أَحْيِي أَنْتَ فِدَاكَ عَمِيَّ وَخَالِي! قَالَ: نَعَمْ؛ فَشَدَّ الْقَوْمَ، فَنَادَى أَبُو الرَّوَاحِ أَصْحَابَهُ: أَلَا تَرَوْنَ أَمِيرَكُمْ حَيًّا! شَدُّوا عَلَى الْقَوْمِ، قَالَ: فَحَمَلُوا وَحَمَلْنَا عَلَى الْقَوْمِ بِأَجْمَعِنَا، قَالَ: فَصَدَّمْنَا خَيْلَهُمْ صَدْمَةً مُنْكَرَةً، وَشَدَّ عَلَيْهِمْ مَعْقِلٌ وَأَصْحَابُهُ، فَنَزَلَ الْمُسْتَوْدُ، وَصَاحَ بِأَصْحَابِهِ: يَا مَعْشَرَ الشُّرَاةِ، الْأَرْضُ الْأَرْضُ، فَإِنَّمَا وَاللَّهِ الْجَنَّةُ! وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَمَنْ قَتَلَ صَادِقَ النَّيَّةِ فِي جِهَادِ هَؤُلَاءِ الظُّلَمَةِ وَجَلَّاحِهِمْ، فَتَنَازَلُوا مِنْ عِنْدِ آخِرِهِمْ، فَنَزَلْنَا مِنْ عِنْدِ آخِرِنَا، ثُمَّ مَضَيْنَا إِلَيْهِ مَنِصْلَتَيْنِ بِالسُّيُوفِ، فَاضْطَرَبْنَا بِهَا طَوِيلًا مِنَ النَّهَارِ كَأَشَدِّ قِتَالٍ اقْتَتَلَهُ النَّاسُ قَطًّا، غَيْرَ أَنَّ الْمُسْتَوْدَ نَادَى مَعْقِلًا فَقَالَ: يَا مَعْقِلُ، ابْرُزْ لِي، فَخَرَجَ إِلَيْهِ مَعْقِلٌ، فَقُلْنَا لَهُ: نَنْشُدُكَ أَنْ تَخْرُجَ إِلَى هَذَا الْكَلْبِ الَّذِي قَدْ آيَسَهُ اللَّهُ مِنْ

نفسه ! قال : لا والله لا يدعوني رجل إلى مبارزة أبداً فأكون أنا الناكل ، فمشى إليه بالسيف ، وخرج الآخر إليه بالرمح ، فنادينه أن ألقه برمح مثل رمحه ، فأبى ، وأقبل عليه المستورد فطعنه حتى خرج سنان الرمح من ظهره ، وضربه معقل بالسيف حتى خالط سيفه أم الدماغ ، فوقع ميتاً ، وقتل معقل ، وقال لنا حين برز إليه : إن هلكت فأميركم عمرو بن محرز بن شهاب السعدي ثم المنقري : قال : فلما هلك معقل أخذ الراية عمرو بن محرز ، وقال عمرو : إن قتلت فعليكم أبو الرواغ ، فإن قتل أبو الرواغ فأميركم مسكين بن عامر بن أنيف ، وإنه يومئذ لفتى حدث ، ثم شد برايته ، وأمر الناس أن يشدوا عليهم ، فما لبثوهم أن قتلوهم .

وما كان في هذه السنة تولية عبدالله بن عامر عبدالله بن خازم بن ظبيان خراسان وانصراف قيس بن الهيثم عنه ، وكان السبب في ذلك - فيما ذكر أبو مخنف عن مقاتل بن حيان - أن ابن عامر استبطأ قيس بن الهيثم بالخراج ، فأراد أن يعزله ، فقال له ابن خازم : ولني خراسان فأكفيكها وأكفيك قيس بن الهيثم . فكتب له عهده أو هم بذلك ، فبلغ قيساً أن ابن عامر وجد عليه لاستخفافه به ، وإمساكه عن الهدية ، وأنه قد ولّى ابن خازم ، فخاف ابن خازم أن يشاغبه ويحاسبه ، فترك خراسان ، وأقبل فازداد عليه ابن عامر غضباً ، وقال : ضيعت الثغرا فضرته وحبسه ، وبعث رجلاً من بني يشكر على خراسان .

قال أبو مخنف : بعث ابن عامر أسلم بن زُرعة الكلابي حين عزّل قيس بن الهيثم ، قال علي بن محمد : أخبرنا أبو عبد الرحمن الثقفي ، عن أشياخه ، أن ابن عامر استعمل قيس بن الهيثم على خراسان أيام معاوية ، فقال له ابن خازم : إنك وجهت إلى خراسان رجلاً ضعيفاً ، وإني أخاف إن لقيت حرباً أن ينهزم بالناس ، فتهلك خراسان ، وتفتضح أحوالك . قال ابن عامر : فما الرأي ؟ قال : تكتب لي عهداً : إن هو انصرف عن عدوك قمت مقامه . فكتب له ، فجاشت جماعة من طخارستان ، فشاور قيس بن الهيثم فأشار عليه ابن خازم أن ينصرف حتى يجتمع إليه أطرافه ؛ فانصرف ، فلما سار من مكانه مرحلة أو مرحلتين أخرج ابن خازم عهده ، وقام بأمر الناس ، ولقي العدو فهزمهم ، وبلغ الخبر المصريين والشام فغضب القيسية وقالوا : خدع قيساً وابن عامر ، فأثروا في ذلك حتى شكوا إلى معاوية ، فبعث إليه فقيماً ، فاعتذر بما قيل فيه ؛ فقال له معاوية : قم فاعتذر إلى الناس غداً ؛ فرجع ابن خازم إلى أصحابه فقال : إني قد أمرت بالخطبة ، ولست بصاحب كلام ، فاجلسوا حول المنبر ، فإذا تكلمت فصّدقوني ، فقام من الغد ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنما يتكلف الخطبة إمام لا يجد منها بدءاً ، أو أحق يهمر من رأسه لا يبالي ما خرج منه ، ولست بواحد منها ؛ وقد علم من عرفني أنني بصير بالفرص ، وثاب عليها ، وقاف عند المهالك ، أنفذ بالسرية ، وأقسم بالسوية ؛ أنشدكم بالله من كان يعرف ذلك مني لما صدقني ! قال أصحابه حول المنبر : صدقت ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنك ممن نشدك فقل بما تعلم ؛ قال : صدقت .

قال علي : أخبرنا شيخ من بني تميم يقال له معمر ، عن بعض أهل العلم أن قيس بن الهيثم قديم على ابن عامر من خراسان مراغماً لابن خازم ، قال : فضره ابن عامر مائة وحلقه وحبسه ، قال : فطلبت إليه أمه ، فأخرجته .

وحج بالناس في هذه السنة - فيما قيل - مروان بن الحَكَم ، وكان على المدينة ، وكان على مكة خالد بن العاص بن هشام ، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة ، وعلى قضائها شريح ، وعلى البصرة وفارس وسجستان وخراسان عبدالله بن عامر ، وعلى قضائها عمير بن يثري .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك دخول المسلمين مع عبدالرحمن بن خالد بن الوليد بلاد الروم ومشتاهم بها ، وغزو
بُسْر بن أبي أرطاة البحر .

وفي هذه السنة عزل معاوية عبدالله بن عامر عن البصرة .

ذكر الخبر عن سبب عزله :

كان سبب ذلك أن ابن عامر كان رجلاً ليناً كريماً ، لا يأخذ على أيدي السفهاء ، ففسدت البصرة بسبب
ذلك أيام عمله بها لمعاوية فحدثني عمر بن شبة ، قال : أخبرنا يزيد الباهلي ، قال : شكّا ابن عامر إلى زياد
فساد الناس وظهور الخُبث ، فقال : جرّد فيهم السيف ، فقال : إني أكره أن أصلحهم بفساد نفسي .

حدثني عمر ، قال : قال أبو الحسن : كان ابن عامر ليناً سهلاً ، سهل الولاية ، لا يعاقب في سلطانه ،
ولا يقطع لصاً ، فقبل له في ذلك ؛ فقال : أنا أتألف الناس ، فكيف أنظر إلى رجل قد قطعت أياه وأخاه !

حدثني عمر ، قال : حدثنا علي ، قال : حدثنا مسلمة بن محارب ، قال : وفد ابن الكوّاء ، واسم ابن
الكوّاء عبدالله بن أبي أوفى إلى معاوية ، فسأله عن الناس ، فقال ابن الكوّاء : أمّا أهل البصرة فقد غلب عليها
سفهاؤها ، وعاملها ضعيف ، فبلغ ابن عامر قول ابن الكوّاء ، فاستعمل طفيل بن عوف اليشكري على
خراسان ، وكان الذي بينه وبين ابن الكوّاء متباعداً ، فقال ابن الكوّاء : إن ابن دجاجة لقليل العلم فيّ ، أظنّ
أن ولاية طفيل خراسان تسوءني ! لوددت أنه لم يبق في الأرض يشكركي إلا عاداني ، وأنه ولاهم . فعزل معاوية
ابن عامر ، وبعث الحارث بن عبدالله الأزدي . قال : وقال القحذمي : قال ابن عامر : أيّ الناس أشدّ عداوةً
لابن الكوّاء ؟ قالوا : عبدالله بن أبي شيخ ، فولاه خراسان ؛ فقال ابن الكوّاء ما قال .

وذكر عن عمر ، عن أبي الحسن ، عن شيخ من ثقيف وأبي عبدالرحمن الإصبهاني ، أنّ ابن عامر أوفد
إلى معاوية وفداً ، فوافقوا عنده وفد أهل الكوفة ، وفيهم ابن الكوّاء اليشكري ، فسألهم معاوية عن العراق
وعن أهل البصرة خاصة ؛ فقال له ابن الكوّاء : يا أمير المؤمنين ، إنّ أهل البصرة أكلهم سفهاؤهم ، وضعف
عنهم سلطانهم ، وعجز ابن عامر وضعفه . فقال له معاوية : تكلم عن أهل البصرة وهم حضور ! فلما انصرف
الوفد إلى البصرة بلغوا ابن عامر ذلك ، فغضب ، فقال : أيّ أهل العراق أشدّ عداوةً لابن الكوّاء ! فقبل له :
عبدالله بن أبي شيخ اليشكري ، فولاه خراسان ، وبلغ ابن الكوّاء ذلك فقال ما قال .

حدثني عمر ، قال : حدثنا علي ، قال : لما ضعف ابن عامر عن عمله ، وانتشر الأمر بالبصرة عليه ،

كتب إليه معاوية يستزيه ، قال عمر : فحدثني أبو الحسن أن ذلك كان في سنة أربع وأربعين ، وأنه استخلف على البصرة قيس بن الهيثم ، فقدم على معاوية ، فردّه على عمله ، فلما ودّعه قال له معاوية : إني سائلك ثلاثاً ، فقل : هنّ لك . قال : هنّ لك وأنا ابن أمّ حكيم ، قال : تردّ علي عملي . ولا تغضب ، قال : قد فعلت ؛ قال : وتهب لي مالك بعرفة ؛ قال : قد فعلت . قال : وتهب لي دورك بمكة ؛ قال : قد فعلت ، قال : وصلّتك رجم ! قال : فقال ابن عامر : يا أمير المؤمنين ، إني سائلك ثلاثاً فقل : هنّ لك ؛ قال : هنّ لك وأنا ابن هند ؛ قال : تردّ علي مالي بعرفة ، قال : قد فعلت ، قال : ولا تحاسب لي عاملاً ، ولا تتبّع لي أثراً . قال : قد فعلت ، قال : وتذكّني ابتك هندا ؛ قال : قد فعلت .

قال : ويقال : إنّ معاوية قال له : اختر بين أن أتتبع أثرك وأحاسبك بما صار إليك ، وأردّك إلى عملك ، وبين أن أسوِّغك ما أصبت ، وتعتزل ، فاختر أن يسوِّغه ذلك ويعتزل .

وفي هذه السنة استلحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبي سفيان فيما قيل .

حدثني عمر بن شبة ، قال : وُعموا أنّ رجلاً من عبد القيس كان مع زياد لما وفد على معاوية ، فقال لزياد : إنّ لابن عامر عندي يداً ، فإن أذنت لي أتيتّه ، قال : على أن تحدّثني ما يجري بينك وبينه ؛ قال : نعم ، فأذن له فاتاه ، فقال له ابن عامر : هيه هيه ! وابن سمية يقبّح آثاري ، ويعرض بعَمالي ! لقد هممت أن آتي بقسامة من قريش يحلفون أنّ أبا سفيان لم ير سمية ؛ قال : فلما رجع سأله زياد ، فأبى أن يخبره ، فلم يدعه حتى أخبره ، فأخبر ذلك زياد معاوية ، فقال معاوية لحاجبه : إذا جاء ابن عامر فاضرب وجهه دابته عن أقصى الأبواب ، ففعل ذلك به ، فأتى ابن عامر يزيد ، فشكا إليه ذلك ، فقال له : هل ذكرت زياداً ؟ قال : نعم ، فركب معه يزيد حتى أدخله ، فلما نظر إليه معاوية قام فدخل ، فقال يزيد لابن عامر : اجلس فكم عسى أن تقعد في البيت عن مجلسه ! فلما أطلاا خرج معاوية وفي يده قضيب يضرب به الأبواب ، ويتمثل :

لنا سِياقٌ ولكم سِياقٌ قد علّمت ذلكم الرِّفاقُ

ثم قعد فقال : يا بن عامر ، أنت القاتل في زياد ما قلت ! أما والله لقد علّمت العرب أني كنت أعزّها في الجاهليّة ، وإنّ الإسلام لم يزدني إلّا عزّاً ، وأنّي لم أتكثر بزياد من قلّة ، ولم أتعزّز به من ذلّة ، ولكن عرفت حقاً له فوضعتّه موضعه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لرجع إلى ما يحبّ زياد ، قال : إذا رجع إلى ما تحبّ ، فخرج ابن عامر إلى زياد فترصّاه .

حدثني أحمد بن زهير ، قال : حدّثنا عبد الرحمن بن صالح ، قال : حدّثنا عمرو بن هاشم ، عن عمر بن بشير الهمداني ، عن أبي إسحاق ، أنّ زياداً لما قدم الكوفة ، قال : قد جئكم في أمر ما طلبتّه إلّا إليكم ، قالوا : ادعنا إلى ما شئت ، قال : تلحقون نسبي بمعاوية ؛ قالوا : أمّا بشهادة الزور فلا ؛ فأتى البصرة ، فشهد له رجل .

وحجّ بالناس في هذه السنة معاوية .

وفيها عمّل مروان المصورة ، وعمّلها - أيضاً فيما ذكر - معاوية بالشام . وكانت العمّال في الأمصار فيها العمّال الذين ذكرنا قبل أنهم كانوا العمّال في سنة ثلاث وأربعين .

ثم دخلت سنة خمس وأربعين ذكر الأحداث المذكورة التي كانت فيها

فمن ذلك استعمال معاوية الحارث بن عبد الله الأزدي فيها على البصرة . فحدثني عمر ، قال : حدثني علي بن محمد ، قال : عزل معاوية ابن عامر وولي الحارث بن عبد الله الأزدي البصرة في أول سنة خمس وأربعين ، فأقام بالبصرة أربعة أشهر ، ثم عزله . قال : وقد قيل : هو الحارث بن عمرو وابن عبد عمرو ، وكان من أهل الشام ، وكان معاوية عزل ابن عامر ليولي زياداً ، فولي الحارث كالفرس المحلل ، فولي الحارث شرطته عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي ، ثم عزله معاوية وولاه زياداً .

ذكر الخبر عن ولاية زياد البصرة

حدثني عمر ، قال : حدثنا علي ، قال : حدثنا بعض أهل العلم أن زياداً لما قدم الكوفة ظن المغيرة أنه قدم والياً على الكوفة ، فأقام زياد في دار سلمان بن ربيعة الباهلي ، فأرسل إليه المغيرة وائل بن حجر الحضرمي أبا هنيئة ، وقال له : اعلم لي علمه . فأتاه فلم يقدر منه على شيء ، فخرج من عنده يريد المغيرة ، وكان زاجراً ، فرأى غراباً ينقع ، فرجع إلى زياد فقال : يا أبا المغيرة ، هذا الغراب يرحلك عن الكوفة . ثم رجع إلى المغيرة ، وقدم رسول معاوية على زياد من يومه : أن سير إلى البصرة .

وأما عبد الله بن أحمد المروزي فحدثني ، قال : حدثني أبي ، قال : حدثني سليمان ، قال : حدثني عبد الله ، عن إسحاق - يعني ابن يحيى - عن معبد بن خالد الجدي ، قال : قدم علينا زياد - الذي يقال له ابن أبي سفيان - من عند معاوية ، فنزل دار سلمان بن ربيعة الباهلي ينتظر أمر معاوية . قال : فبلغ المغيرة بن شعبة - وهو أمير على الكوفة - أن زياداً ينتظر أن تحيي إمارته على الكوفة ، فدعا قطن بن عبد الله الحارثي فقال : هل فيك من خير؟ تكفيني الكوفة حتى آتيك من عند أمير المؤمنين ، قال : ما أنا بصاحب ذا ، فدعا عتبة بن النهاس العجلي ، فعرض عليه فقبل ، فخرج المغيرة إلى معاوية ، فلما قدم عليه سأل أن يعزله ، وأن يقطع له منازل بقرقيسيا بين ظهري قيس ، فلما سمع بذلك معاوية خاف بائقته ، وقال : والله لترجعن إلى عملك يا أبا عبد الله . فأبى عليه ، فلم يزد ذلك إلا تهمة ، فردّه إلى عمله ، فطرقنا ليلاً ، وإني لفوق القصر أحرسه ، فلما قرع الباب أنكرناه ، فلما خاف أن ندلي عليه حَجراً تسمى لنا ، فنزلت إليه فرحبت له وسلمت ، فتمثل :

بمثلي فافزعني يا أم عمرو إذا ما هاجني السُّفْرُ النُّعُورُ

إذهب إلى ابن سُمَيَّة فرَحِّله حتى لا يصبح إلّا من وراء الجسر . فخرجنا فأتينا زياداً ، فأخرجناه حتى طرحناه من وراء الجسر قبل أن يصبح .

فحدّثني عمر ، قال : حدّثنا علي ، قال : حدّثنا مسلمة والهذلي وغيرهما أنّ معاوية استعمل زياداً على البصرة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له الهند والبحرين وعمان ، وقدم البصرة في آخر شهر ربيع الآخر - أو غرة جمادى الأولى - سنة خمس ، والفُسق بالبصرة ظاهر ، فاش ، فخطب خطبة تبراء لم يحمّد الله فيها ، وقيل : بل حمد الله فقال : الحمد لله على إفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيد من نِعَمه ، اللهم كما رزقتنا نعماً ، فألهمنا شكراً على نعمتك علينا .

أما بعد ، فإنّ الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والفجر الموقد لأهله النار ، الباقي عليهم سعيهم ، ما يأتي سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حُلماؤكم ، من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى منها الكبير ، كان لم تسمعوا بآي الله ، ولم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، في الزمن السرمد الذي لا يزول . أ تكونون كمن طرفت عينه الدنيا ، وسدّت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدّث الذي لم تُسبقوا به ، من ترككم هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة ، في النهار المبصر ، والعدد غير قليل ! ألم تكن منكم نهاية تمنع الغواة عن دَلج الليل وغارة النهار ! قرّبتهم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتُغطّون على المختلس ، كلّ امرئٍ منكم يذب عن سفيهِه ، صنع من لا يخاف عقاباً ، ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلّماء ، ولقد اتّبعتم السفهاء ، ولم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حرّم الإسلام ، ثم أطرّقوا وراءكم كنوساً في مكائس الرّيب . حرّم عليّ الطعام والشراب حتى أسوّيها بالأرض هَدْماً وإحراقاً ، لاني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلّا بما صلح به أوّله ، لين في غير ضعف ، وشدة في غير جبريّة وعنف . ولاني أقسم بالله لأخذنّ الوليّ بالوليّ ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدير ، والصحيح منكم بالسقيم ، حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول : انجّ سعد فقد هلك سعيد ، أو تستقيم لي قناتكم . إنّ كذبة المنبر تبقى مشهورة ، فإذا تعلّقت عليّ بكذبة فقد حلّت لكم معصيتي ، وإذا سمعتموها مني فاغتمزوها فيّ واعلموا أن عندي أمثالها من بُيت منكم فانا ضامن لما ذهب له . إيتاي ودلج الليل ، فإني لا أوتى بمدليج إلّا سفكت دمه ، وقد أجلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليّ . وإيتاي ودعوى الجاهليّة ، فإني لا أجد أحداً دعاً بها إلّا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكلّ ذنب عقوبة ، فمن غرّق قوماً غرّقته ، ومن حرّق على قوم حرّقناه ، ومن نقّب بيتاً نقبت عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً ، فكفّوا عني أيديكم وألسنتكم أكفّت يدي وأذاي ، لا يظهر من أحد منكم خلافاً ما عليه عامتكم إلّا ضربت عنقه .

وقد كانت بيني وبين أقوام إخن ، فجعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً ، ومن كان مسيئاً فلينزح عن إساءته . إني لو علمت أنّ أحدكم قد قتله السُّل من بغضي لم أكشف له قناعاً ، ولم أهيك له سيراً ، حتى يُبدي لي صفحته ، فإذا فعل لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فربّ مبتسّ بقدومنا سيُسّر ، ومسرور بقدومنا سيُبتسّ .

أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسةً ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونزود عنكم

بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما وُلّينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم . واعلموا أني مهيا قصرت عنه فإني لا أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل ؛ ولا حابساً رزقاً ولا عطاءً عن إبانة ، ولا مجمراً لكم بعثاً . فادعوا الله بالصّلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدّبون لكم ، وكهفكم الذي إليه تأوون ، ومتى تصلحوا يصلحوا . ولا تُشربوا قلوبكم بغضهم ، فيشتدّ لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تُدركوا حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم كان شراً لكم .

أسأل الله أن يعين كلاً على كلّ ، وإذراً يتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله ، وإيم الله إن لي فيكم لصرعاً كثيرة ، فليحذر كلّ امرئ منكم أن يكون من صرعاي .

قال : فقام عبد الله بن الأهمتم فقال : أشهد أيها الأمير أنك قد أوتيت الحكمة وفُضِّلَ الخطاب ، فقال : كذبت ، ذاك نبي الله داود عليه السلام .

قال الأحنف : قد قلت فأحسنيت أيها الأمير ، والثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نُثني حتى نُبتلى ؛ فقال زياد : صدقت .

فقام أبو بلال مرداس بن أدية يهيمس وهو يقول : أنبا الله بغير ما قلت ، قال الله عز وجل : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿ ١ ﴾ ؛ فأوعدنا الله خيراً مما واعدت يا زياد ، فقال زياد : إنا لا نجد إلى ما تريد أنت وأصحابك سبيلاً حتى نخوض إليها الدماء .

حدّثني عمر ، قال : حدّثنا خلاد بن يزيد ، قال : سمعت من يخبر عن الشعبي ، قال : سمعت متكلماً قطّ تكلم فأحسن إلّا أحببت أن يسكت خوفاً أن يسيء إلّا زياداً ، فإنه كان كلما أكثر كان أجود كلاماً .

حدّثني عمر ، قال : حدّثنا علي ، عن مسلمة ، قال : استعمل زياد على شرطته عبد الله بن حصن ، فأهمل الناس حتى بلغ الخبر الكوفة ، وعاد إليه وصول الخبر إلى الكوفة ، وكان يؤخر العشاء حتى يكون آخر من يصلي ثم يصلي ؛ يأمر رجلاً فيقرأ سورة البقرة ومثلها ، يرتل القرآن ، فإذا فرغ أهمل بقدر ما يرى أن إنساناً يبلغ الخربة ، ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج ، فيخرج ولا يرى إنساناً إلّا قتله . قال : فأخذ ليلةً أعرابياً ، فأتى به زياداً فقال : هل سمعت النداء؟ قال : لا والله ، قدمت بحلوبة لي ، وغشيني الليل ، فاضطررتها إلى موضع ، فأقمت لأصبح ، ولا علم لي بما كان من الأمير . قال : أظنك واللّه صادقاً ، ولكن في قتلك صلاح هذه الأمة ؛ ثم أمر به فضربت عنقه .

وكان زياد أول من شدّ أمر السلطان ، وأكّد الملك لمعاوية ، وألزم الناس الطاعة ، وتقدّم في العقوبة ، وجرد السيف ، وأخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة ، وخافه الناس في سلطانته خوفاً شديداً ، حتى أبين الناس بعضهم بعضاً ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه ، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها ، وساس الناس سياسة لم ير مثلاً ، وهابه الناس هيبة لم يهاووها أحداً قبله ، وأدر العطاء ، وبنى مدينة الرّزق .

قال: وسمع زياد جرساً من دارِ عُمير ، فقال: ما هذا؟ فقليل: محترس. قال: فليكيف عن هذا، أنا ضامنٌ لما ذهب له ، ما أصاب من إصْطَخر .

قال: وجعل زياد الشرطَ أربعة آلاف ، عليهم عبدالله بن حصن ، أحد بني عُبيد بن ثعلبة صاحب مقبرة ابن حصن ، والجعد بن قيس النميري صاحب طاقِ الجعد ، وكانا جميعاً على شرطه ، فبينما زياد يوماً يسير وهما بين يديه يسيران بحربتين ، تنازعا بين يديه ، فقال زياد: يا جعد ، ألقِ الحربة ، فألقاها ، وثبت ابن حصن على شرطه حتى مات زياد .

وقيل: إنه ولّى الجعد أمرَ الفُسّاق ، وكان يتبعهم ؛ وقيل لزياد: إن السُّبُلَ مَخُوفَةٌ ؛ فقال: لا أعاني شيئاً سوى المصر حتى أغلب على المصر وأصلحه ، فإن غلبني المصر فغيره أشدَّ غلبة ؛ فلما ضبط المصر تكلف ما سوي ذلك فأحكّمه . وكان يقول: لو ضاع حبلٌ بيني وبين خراسان علمتُ مَنْ أخذه .

وكتب خمسمائة من مشيخة أهل البصرة في صحابته ، فرزقهم ما بين الثلاثمائة إلى الخمسمائة ، فقال فيه حارثة بن بدر الغُداني :

ألا مَنْ مُبْلَغٌ عَنِّي زِياداً	فنعم أخو الخليفة والأمير
فأنتَ إمامٌ مَعْدَلَةٌ وَقَصْدٌ	وحزمٌ حين تحضرك الأمور
أخوك خليفةُ الله ابنُ حَرْبٍ	وأنتَ وزيرُهُ ، نعم الوزير
تُصيب على الهوى منه وتأتي	مُجَبِّك ما يُجِنُّ لنا الضمير
بأمر الله مَنْصُورٌ مُعانٌ	إذا جَارَ الرعيَةُ لا تجور
يَدِرُّ على يَدَيْكَ لما أرادوا	من الدنيا لهم حَلَبٌ غزير
وتقسم بالسَّواءِ فلا غني	لضيمٍ يَشْتَكِيكَ ولا فقير
وكنتَ حياً وجئتَ على زمانٍ	خبيثٍ ، ظاهرٌ فيه شُرور
تَقاسمتِ الرِّجالُ به هواها	فما تُخفي ضغائنُها الصُّدور
وخافَ الحاضرون وكلُّ بادٍ	يُقيمُ على المخافة أو يسير
فلما قام سيفُ الله فيهم	زيادُ قام أبلجٌ مُستنير
قويٌّ لا مِنَ الحَدَثانِ غرٌّ	ولا جزعٌ ولا فانٍ كبير

حدّثني عمرُ بن شُبّة ، قال: حدّثنا علي بن محمد ، قال: استعان زيادُ بعدّة من أصحاب النبي ﷺ ، منهم عمران بن الحصين الخزاعي ولّاه قضاء البصرة ، والحكم بن عمرو الغفاري ولّاه خراسان ، وسُمرة ابن جندب ، وأنس بن مالك ، وعبدالرحمن بن سُمرة ؛ فاستعفاه عمران فأعفاه . واستنقضى عبدالله بن فضالة الليثي ، ثم أخاه عاصم بن فضالة ، ثم زُرارة بن أوفى الحرشي ، وكانت أخته لُبابة عند زياد .

وقيل: إنّ زياداً أوّل مَنْ سير بين يديه بالحراب ، ومُشي بين يديه بالعمد ، واتخذ الحرس رابطة خمسمائة ، واستعمل عليهم شيبان صاحب مقبرة شيبان ، من بني سعد ، فكانوا لا يبرحون المسجد .

حدّثني عمر ، قال : حدّثنا علي ، قال : جعل زيادٌ خُراسانَ أرباعاً ، واستعمل على مَرَوْ أَمِيرَ بنِ أحمَرِ الشُّكْرِيِّ ، وعلى أَبَرَشَهْر خُلَيْدِ بنِ عبدِالله الحنفي ، وعلى مَرَوْ الرُّوذِ والفارياب والطارقان قيسَ بنِ الهيثم ، وعلى هَرَاةَ وباز غيس وقادس وبوشنج نافع بن خالد الطاحي .

حدّثني عمر ، قال : حدّثنا علي ، قال : حدّثنا مسلمة بن محارب وابن أبي عمرو ؛ شيخ من الأزد ، أنّ زياداً عَتَبَ على نافع بن خالد الطاحي ، فحبسه ، وكتب عليه كتاباً بمائة ألف ، وقال بعضهم : ثمانمائة ألف ، وكان سبب مَوَجِدته عليه أنه بعث بِخُوَانٍ بازهر قوائمه منه ، فأخذ نافع قائمة ، وجعل مكانها قائمة من ذهب ، وبعث بالخُوَانِ إلى زياد مع غلام له يقال له زيد ، كان قيّمه على أمره كلّهُ ، فسعى زيادٌ بنافع ، وقال لزياد : إنه قد خانك ، وأخذ قائمة من قوائم الخُوَانِ ، وجعل مكانها قائمة من ذهب ، قال : فمشى رجال من وجوه الأزد إلى زياد ، فيهم سيف بن وهب المَعُولِيّ ، وكان شريفاً ، وله يقول الشاعر :

اعْمِدْ بِسَيْفٍ لِلْسَمَاحَةِ وَالنُّدَى واعْمِدْ بِصَبْرَةٍ لِلْفَعَالِ الْأَعْظَمِ

قال : فدخلوا على زياد وهو يَسْتَاكُ ، فتمثّل زيادٌ حين رآهم :

اذكر بنا مَوْقِفَ أَفْرَاسِنَا بالحنو إذ أنت إلينا فقير

قال : وأمّا الأزد فيقولون : بل تمثّل سيف بن وهب أبو طلحة المَعُولِيّ بهذا البيت حين دخل على زياد ، فقال : نعم . قال : ولما ذكره أيّام أجارَه صَبْرَةً ، فدعا زياد بالكتاب فمحاها بسواكه وأخرج نافعاً .

حدّثني عمر بن شَبّة ، قال : حدّثنا علي ، عن مسلمة ، أنّ زياداً عزل نافع بن خالد الطاحي وخُلَيْدِ بن عبدِالله الحنفي وأَمِيرَ بنِ أحمَرِ الشُّكْرِيِّ ، فاستعمل الحَكَمَ بنَ عمرو بنِ مجدّع بنِ جُدَيْمَ بنِ الحارث بن نُعَيْلَةَ بنِ مُلَيْك - ونُعَيْلَةَ أَخُو غِفَارِ بنِ مُلَيْك - ولكنهم قليل ، فصاروا إلى غِفَارِ .

قال مسلمة : أَمَرَ زيادٌ حاجبه فقال : ادع لي الحَكَمَ - وهو يريد الحَكَمَ بنَ أبي العاصِ الثَّقَفِيّ - فخرج الحاجبُ فرأى الحَكَمَ بنَ عمرو الغِفَارِيّ فأدخله ، فقال : زيادٌ : رجل له شَرَفٌ وله صحبةٌ من رسول الله ﷺ ، فعقد له على خُراسان ، ثم قال له : ما أردتُك ، ولكن الله عز وجل أرادك .

حدّثني عمر قال : حدّثنا علي قال : أَخْبَرَنَا أبو عبد الرحمن الثَّقَفِيّ ومحمد بن الفضل ، عن أبيه ؛ أنّ زياداً لما ولي العراق استعمل الحَكَمَ بنَ عمرو الغِفَارِيّ على خُراسان ، وجعل معه رجالاً على كُورٍ ، وأمرهم بطاعته ، فكانوا على جباية الخُراج ، وهم أسلم بن زُرعة ، وخُلَيْدِ بن عبدِالله الحنفي ، ونافع بن خالد الطاحي ، وربيعَةُ بن عَسَلِ اليربوعي ، وأَمِيرُ بنِ أحمَرِ الشُّكْرِيِّ ، وحاتمُ بن النعمان الباهلي ؛ فمات الحَكَمَ بن عمرو ، وكان قد غزا طُخَارِسْتَانَ ، فغنم غنائم كثيرة ، واستخلف أنس بن أبي أناس بن زُنَيْمَ ، وكان كَتَبَ إلى زياد : إني قد رضيتُ الله وللمسلمين ولك ، فقال زياد : اللهم إني لا أرضاه لدينك ولا للمسلمين ولا لي . وكتب زيادٌ إلى خُلَيْدِ بنِ عبدِالله الحنفي بولاية خُراسان ، ثم بعث الربيعَ بن زياد الحارثي إلى خُراسان في خمسين ألفاً ؛ من البصرة خمسة وعشرين ألفاً ، ومن الكوفة خمسة وعشرين ألفاً ، على أهل البصرة الربيع ، وعلى أهل الكوفة عبد الله بن أبي عَقِيلٍ ، وعلى الجماعة الربيع بن زياد .

وقيل : حجّ بالناس في هذه السنة مروان بن الحكم وهو على المدينة ، وكانت الولاة والعُمال على الأمصار في هذه السنة من تقدم ذكره قبل ؛ المغيرة بن شعبة على الكوفة ، وشريح على القضاء بها ، وزياد على البصرة ، والعُمال من قد سميت قبل .

وفي هذه السنة كان مَشْتَى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بأرض الروم .

ثم دخلت سنة ست وأربعين ذكر ما كان فيها من الأحداث

فما كان فيها من ذلك مَشَقَّ مالك بن عبدالله بأرض الروم ، وقيل : بل كان ذلك عبدالرحمن بن خالد ابن الوليد، وقيل بل كان مالك بن هُبيرة السَّكُونِيّ .

وفيهما انصرف عبدالرحمن بن خالد بن الوليد من بلاد الروم إلى حِمَص ، فدَسَّ ابن أثال النَّصْرانيّ إليه شَرِبَةً مسمومةً - فيما قيل - فشربها فقتلته .

ذكر الخبر عن سبب هلاكه :

وكان السبب في ذلك ما حدثني عمر، قال : حدثني علي، عن مسلمة بن محارب ؛ أن عبدالرحمن بن خالد بن الوليد كان قد عَظُم شأنه بالشام ، ومال إليه أهلها ، لما كان عندهم من آثار أبيه خالد بن الوليد ، ولغناؤه عن المسلمين في أرض الروم وبأبيه ، حتى خافه معاوية ، وخشي على نفسه منه ، لميل الناس إليه ، فأمر ابن أثال أن يحتال في قتله ، وضمين له إن هو فعل ذلك أن يضع عنه خراجَه ما عاش ، وأن يولِّيه جباية خراج حِمَص ، فلما قدم عبدالرحمن بن خالد حِمَصَ منصرفاً من بلاد الروم دَسَّ إليه ابن أثال شربةً مسمومةً مع بعض مماليكه ، فشربها فمات بِحِمَص ، فوفى له معاوية بما ضمّن له ، وولاه خراج حِمَص ، ووضع عنه خراجَه .

قال : وقَدِم خالد بن عبدالرحمن بن خالد بن الوليد المدينة ، فجلس يوماً إلى عُرْوَة بن الزُّبَيْر ، فسَلَّم عليه ، فقال له عُرْوَة : مَنْ أنت ؟ قال : أنا خالد بن عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ؛ فقال له عُرْوَة : ما فعل ابن أثال؟ فقام خالد من عنده، وشخص متوجّهاً إلى حِمَص ، ثم رَصَد بها ابن أثال ، فرآه يوماً ركباً ، فاعترض له خالد بن عبدالرحمن ، فضربه بالسيف ، فقتله ، فرفع إلى معاوية ، فحبسه أياماً ، وأغرَمه دِيَّتَه ، ولم يَقْدِه منه . ورجع خالد إلى المدينة ، فلما رجع إليها أتى عُرْوَة فسَلَّم عليه ، فقال له عُرْوَة : ما فعل ابن أثال؟ فقال : قد كَفَيْتُكَ ابن أثال ، ولكن ما فعل ابن جُرْمُوز؟ فسكت عُرْوَة . وقال خالد بن عبدالرحمن حين ضرب ابن أثال :

أنا ابن سيفِ الله فاعْرِفُونِي لم يَبْقَ إلَّا حَسَبِي وديني
وصارِمٌ صَلَّ به يَمِينِي

وفيهما خرج الحَظِيم وسهم بن غالب الهُجَيْمِيّ ، فحَكَّمَا ، وكان من أمرهما ما حدَّثني به عمر ، قال : حدَّثنا علي ، قال : لما وُلِّيَّ زياد خافه سهم بن غالب الهُجَيْمِيّ والحَظِيم - وهُوَ زياد بن مالك الباهلي - فأما سهم فخرج إلى الأهواز فأحدث وحَكَّم ، ثم رَجَعَ فاخْتَفَى وطلب الأمان ، فلم يُؤْمَنه زياد ، وطلبه حتى أخذه وقتله

سنة ٤٦

٢٠٣

وصلبه على بابه . وأما الخطيم فإن زياداً سيره إلى البحرين ، ثم أذن له فقديم ، فقال له : الزم مصرك ؛ وقال لمسلم بن عمرو : اضممه ؛ فأبى وقال : إن بات عن بيته أعلمتكم . ثم أتاه مسلم فقال : لم يبت الخطيم الليلة في بيته ، فأمر به فقتل ، وألقي في باهلة .

وحج بالناس في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان . وكان العمال والولاة فيها العمال والولاة في السنة التي قبلها .

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ذكر الأحداث التي كانت فيها

ففيها كان مَشَقَّى مالِك بن هُبَيْرَة بأرض الرُّوم ، ومَشَقَّى أَبِي عبد الرحمن القَيْنِيَّ بِأَنْطَاكِيَّة .
وفيها عُزِلَ عبد الله بنُ عمرو بنِ العاص عن مصر ، وَوَلِيَهَا معاويةُ بنُ حُذَيْج ، وسار - فيها ذكر
الواقدي - في المغرب ، وكان عثمانيًا . قال : ومَرَّ به عبد الرحمن بن أبي بكر وقد جاء من الإسكندرية ، فقال
له : يا معاوية ، قد لَعَمْرِي أَخَذْتَ من معاوية جزاءك ، قتلت محمد بن أبي بكر لأنَّ تليَ مصرَ ، فقد وليتها .
قال : ما قتلتُ محمد بنَ أبي بكر إلا بما صنع بعُثْمان ؛ فقال عبد الرحمن : فلو كنتُ إِنَّمَا تَطْلُبُ بدم عثمان لم
تشارك معاوية فيها صنع حيث صنع عمرو بن العاص بالأشعري ما صنع ، فوثبت أولُ الناس فبايعته .
وقال بعضُ أهلِ السَّيَر : وفي هذه السنة وجَّه زياد الحَكَم بن عمرو الغِفاريُّ إلى خُرَاسان أميراً ، فغزا
جبالَ الغُور وفراوندَه ، فقهرهم بالسيف غنوةً ففتحها ، وأصاب فيها مغانمَ كثيرة وسبايا ؛ وسأذكر من خالَف
هذا القولَ بعدُ إن شاء الله تعالى .
وذكرَ قائل هذا القول أن الحَكَم بن عمرو قَفَلَ مِنْ غَزْوَتِهِ هذه ، فمات بمَرَوْ .
واختلفوا فيمن حجَّ بالناس في هذه السنة ، فقال الواقدي : أقام الحجُّ في هذه السنة عُتْبَةُ بن أبي
سُفْيَان . وقال غيره : بل الذي حجَّ في هذه السنة عُنْبَسَة بن أبي سُفْيَان .
وكانت الولاية والعمال على الأمصار الذين ذكرت أنهم كانوا العمال والولاة في السنة التي قبلها .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ذكر الأحداث التي كانت فيها

وكان فيها مَشَتْى أبي عبد الرحمن القَيْنِي أنطاكية ، وصائفة عبد الله بن قيس الفزارِيّ وغزوة مالك بن هُبيرة السُّكُونِيّ البحر ، وغزوة عُقْبَة بن عامر الجهَنِيّ بأهل مصرَ البحر ، وبأهل المدينة ، وعلى أهل المدينة المنذرُ بنُ الزَّهير ، وعلى جميعهم خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد .

وقال بعضهم : فيها وَجَّه زيادُ غالبُ بن فضالة الليثِيّ على خُراسان ، وكانت له صحبةٌ من رسول الله ﷺ .

وحجَّ بالناس في هذه السنة مَرْوَانُ بن الحَكَم في قول عامة أهل السَّير ، وهو يتوقع العزلَ لِمَوْجِدَة كانت من معاويةَ عليه ، وارتجاعه منه فَذَكَ ، وقد كان وَهَبَهَا له .

وكانت وُلاة الأمصار وعمَّالُها في هذه السنة الذين كانوا في السنة التي قبلَها .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين

فكان فيها مَشَقَى مالِك بن هُبَيْرَة السَّكُونِيّ بأرض الروم .
 وفيها كانت غَزْوَةُ فَضَالَةَ بن عبيد جَرَبَةَ ، وَشَتَا بِجَرَبَةَ ، وَفَتِحْتُ على يديه ، وَأَصَابَ فيها سَبِيًّا كَثِيرًا .
 وفيها كانت صَائِفَةُ عَبْدِ اللَّهِ بن كُرْزِ الْبَجَلِيِّ .
 وفيها كانت غَزْوَةُ يَزِيد بن شَجَرَةَ الرَّهَاطِيِّ في البحر ، فَشَتَا بأهل الشام .
 وفيها كانت غَزْوَةُ عَقْبَةَ بن نافع البحر ، فَشَتَا بأهل مصر .
 وفيها كانت غَزْوَةُ يَزِيد بن معاوية الرُّومِ حَتَّى بَلَغَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ ، وَمَعَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عَمْرٍو ابْنُ الزَّيْبِرِ وَأَبُو
 أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ .
 وفيها عَزَلَ معاويةُ مِرْوَانَ بن الْحَكَمِ عن المدينة في شهر ربيع الأول .
 وَأَمَرَ فيها سَعِيدُ بن العاصِ على المدينة في شهر ربيع الآخر ؛ وَقِيلَ في شهر ربيع الأول .
 وكانت ولايةُ مِرْوَانَ كُلَّهَا بالمدينة لمعاوية ثمان سنينَ وشهرين .
 وكان على قضاء المدينة لمِرْوَانَ - فيما زعم الواقدي - حين عَزَلَ عبد الله بن الحارث بن نوفل ، فلما ولي
 سعيد بن العاص عَزَلَهُ عن القضاء ، واستَقْضَى أبا سَلَمَةَ بن عبد الرحمن بن عوف .
 وقيل : في هذه السنة وقع الطاعون بالكوفة ، فهرب المغيرةُ بن شُعْبَةَ من الطاعون ، فلما ارتفع الطاعون
 قيل له : لَوِجَعْتَ إلى الكُوفَةِ أَفَقَدِمَهَا فَطُعِنَ فَمَاتَ ؛ وَقَدْ قِيلَ : مات المغيرة سنة خمسين ، وَضُمَّ معاويةُ
 الكُوفَةَ إلى زياد ، فكان أوَّلَ من جَمَعَ له الكُوفَةُ والبصرة .
 وحجَّ بالناس في هذه السنة سعيدُ بن العاص .
 وكانت الولاية والعُمَالُ في هذه السنة الذين كانوا في السنة التي قبلها ، إلَّا عامل الكُوفَةِ فَإِنَّ في تاريخ
 هلاك المغيرة اختلافًا ، فقال : بعض أهل السَّيَرِ : كان هلاكُه في سنة تسع وأربعين ؛ وقال بعضهم : في سنة
 خمسين .

ثم دخلت سنة خمسين ذكر ما كان فيها من الأحداث

ففيها كانت غزوة بئر بن أبي أرطاة وسُفَيان بن عوف الأزدي أرض الروم .

وقيل : كانت فيها غزوة فضالة بن عبيد الأنصاري البحر .

وفيهما - في قول الواقدي والمدائني - كانت وفاة المغيرة بن شعبة . قال محمد بن عمر : حدثني محمد بن أبي موسى الثقفي ، عن أبيه ، قال : كان المغيرة بن شعبة رجلاً طوالاً ، مصاب الغين ، أصيب باليرموك ، توفي في شعبان سنة خمسين وهو ابن سبعين سنة .

وأما عوانة فإنه قال - فيما حدثت عن هشام بن محمد ، عنه : هلك المغيرة سنة إحدى وخمسين .

وقال بعضهم : بل هلك سنة تسع وأربعين .

حدثني عمر بن شبة ، قال : حدثني علي بن محمد ، قال : كان زياداً على البصرة وأعمالها إلى سنة خمسين ، فمات المغيرة بن شعبة بالكوفة وهو أميرها ، فكتب معاوية إلى زياد بعثه على الكوفة والبصرة ، فكان أول من جمع له الكوفة والبصرة ، فاستخلف على البصرة سمره بن جندب ، وشخص إلى الكوفة ، فكان زياد يقيم ستة أشهر بالكوفة ، وستة أشهر بالبصرة .

حدثني عمر ، قال : حدثني علي ، عن مسلمة بن محارب ، قال : لما مات المغيرة جمعت العراق لزياد ، فأتى الكوفة فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن هذا الأمر أتاني وأنا بالبصرة ، فأردت أن أشخص إليكم في ألفين من شرطة البصرة ، ثم ذكرت أنكم أهل حق ، وأن حقكم طالما دفع الباطل ، فأتيتكم في أهل بيتي ، فالحمد لله الذي رفع مني ما وضع الناس ، وحفظ مني ما ضيعوا . . . حتى فرغ من الخطبة ، فحصب على المنبر ، فجلس حتى أمسكوا ، ثم دعا قوماً من خاصته ، وأمرهم ، فأخذوا أبواب المسجد ، ثم قال : ليأخذ كل رجل منكم جلسه ، ولا يقولن : لا أدري من جلسي؟ ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد ، فدعاهم أربعة أربعة يحلفون بالله ما مينا من حصبك ، فمن خلف خلاه ، ومن لم يحلف حبسه وعزله ، حتى صار إلى ثلاثين ، ويقال : بل كانوا ثمانين ، ففقطع أيديهم على المكان .

قال الشعبي : فوالله ما تعلقنا عليه بكذبة ، وما وعدنا خيراً ولا شراً إلا أنفذه .

حدثني عمر قال : حدثنا علي ، عن سلمة بن عثمان ، قال : بلغني عن الشعبي أنه قال : أول رجل قتل زياد بالكوفة أوفى بن حصن ، بلغه عنه شيء فطلبه فهرب ، فعرض الناس زياد ، فمربه ، فقال : من هذا؟ قالوا : أوفى بن حصن الطائي ؛ فقال زياد : أتتلك بهائن رجلاه ، فقال أوفى :

إِنَّ زِيَاداً أَبَا الْمَغِيرَةِ لَا
خِيفَتِكَ وَاللَّهِ فَأَعْلَمَنْ خَلِيفِي
يَعَجِّلُ وَالنَّاسُ فِيهِمْ عَجَلُهُ
خَوْفُ الْخَفَافِ صَوْلَةُ الْأَصْلَةِ
يَكُنْ عَلَيْهَا لِخَائِفٍ وَأَلَّهُ

قال : ما رأيك في عثمان ؟ قال ختن رسول الله ﷺ على ابنتيه ، ولم أنكره ، ولي محصول رأي ، قال :
فما تقول في معاوية ؟ قال : جواد حليم ؛ قال : فما تقول في ؟ قال : بلغني أنك قلت بالبصرة : والله لأخذن
البريء بالسقيم ، والمقبل بالمدير ؛ قال : قد قلت ذلك ، قال : خبطتها عشواء ؛ قال زياد : ليس النفاخ بشر
الزمرة ، فقتله ؛ فقال عبدالله بن همام السلولي :

خَيْبَ اللَّهُ سَعْيَ أَوْفَى بْنِ حِصْنٍ
قَادَهُ الْحَيْنُ وَالشَّقَاءُ إِلَى لَيْءٍ
حِينَ أَضْحَى فَرُوجَةَ الرِّقَاءِ
بِ عَرِينٍ وَحَيَّةٍ صَمَاءِ

قال : ولما قدم زياد الكوفة أتاه عُمارة بن عُقبة بن أبي مُعيط ، فقال : إن عمرو بن الحُمق يجتمع إليه من
شيعه أبي تراب ، فقال له عمرو بن حُرَيْث : ما يدعوك إلى رفع ما لا تيقنه ولا تدري ما عاقبته ! فقال زياد :
كلاكما لم يُصب ، أنت حيث تكلمني في هذا علانية وعمرو حين يردك عن كلامك ، قوما إلى عمرو بن الحُمق
فقلوا له : ما هذه الزرافات التي تجتمع عندك ! مَنْ أرادك أو أردت كلامه ففي المسجد .

قال : ويقال : إن الذي رفع على عمرو بن الحُمق وقال له : قد أنغل المصيرين ، يزيد بن رُويم ، فقال
عمرو بن الحُرَيْث : ما كان قط أقبل على ما ينفعه منه اليوم ؛ فقال زياد ليزيد بن رُويم : أما أنت فقد أشطت
بدمه ، وأما عمرو فقد حَقَن دمه ، ولو علمت أن مع ساقه قد سال من بغضي ما هيجته حتى يخرج علي .
واتخذ زياد المقصورة حين حصبه أهل الكوفة .

وولى زياد حين شَخَص من البصرة إلى الكوفة سَمُرَةَ بن جُنْدَب . فحدثني عمر ، قال : حدثني
إسحاق بن إدريس ، قال : حدثني محمد بن سليم قال : سألت أنس بن سيرين : هل كان سَمُرَةُ قَتَلَ أَحداً ؟
قال : وهل يُحصى من قَتَلَ سَمُرَةَ بن جُنْدَب ! استخلفه زياد على البصرة ، وأق الكوفة ، فجاء وقد قتل ثمانية
آلاف من الناس ، فقال له : هل تخاف أن تكون قد قتلت أحداً بريئاً ؟ قال : لو قتلت إليهم مثلهم ما خشيت .
أو كما قال .

حدثني عمر ، قال : حدثني موسى بن إسماعيل ، قال : حدثنا نوح بن قيس ، عن أشعث الحُدَائي ،
عن أبي سَوار العدوي ، قال : قتل سَمُرَةَ من قومي في غداة سبعة وأربعين رجلاً قد جَمَعَ القرآن .

حدثني عمر ، قال : حدثني علي بن محمد ، عن جعفر الصَّدَاقِ ، عن عوف ، قال : أقبل سَمُرَةَ من
المدينة ، فلما كان عند دُور بني أسد خرج رجل من بعض أزقتهم ، ففجأ أوائل الخيل ، فحمل عليه رجل من
القوم فأوجره الحربة . قال : ثم مضت الخيل ، فأق عليه سَمُرَةَ بن جُنْدَب ، وهو متشط في دمه ، فقال : ما
هذا ؟ قيل : أصابته أوائل خيل الأمير ؛ قال : إذا سمعتم بنا قد ركبنا فائقوا أسنتنا .

حدثني عمر قال : حدثني زهير بن حرب ، قال : حدثنا وهب بن جرير ، قال : حدثنا غسان بن مضر ،
عن سعيد بن زيد ، قال : خرج قريب وزحاف ، وزياد بالكوفة ، وسَمُرَةَ بالبصرة ، فخرجا ليلاً ، فنزلا بني

يَشْكُر ، وهم سبعون رجلاً ، وذلك في رمضان ، فأتوا بني ضَبِيعَة وهم سبعون رجلاً ، فمروا بشيخ منهم يقال له حَكَاك ، فقال حين رآهم : مرحباً بأبي الشَّعْثَاء ! فرآه ابن حُصَيْن فقتلوه ، وتفَرَّقوا في مساجد الأزد ، وأتت فرقة منهم رَحْبَة بني علي ، وفرقة مسجد المعادل ، فخرج عليهم سيف بن وهب في أصحاب له ، فقتل مَنْ أتاه ، وخرج على قريب وزخاف شَبَاب من بني علي وشباب من بني راسب ، فرمَوْهم بالنبل . قال قريب : هل في القوم عبدالله بن أوس الطَّاحِي ؟ وكان يناضله ؛ قيل : نعم ؛ قال : فهلَمَّ إلى البراز ؛ فقتله عبدالله وجاء برأسه ، وأقبل زياداً من الكوفة فجعل يؤثبه ، ثم قال : يا معشر طاحيَّة ، لولا أنكم أصبتم في القوم لنفيتكم إلى السجن . قال : وكان قريب من إياد ، وزخاف من طَيِّء ، وكانا ابني خالة ، وكانا أوَّل من خرج بعد أهل النَّهر .

قال غَسَّان : سمعت سعيداً يقول : إنَّ أبا بلال قال : قريب لاقربه الله ، وإيُّم الله لأن أقع من السماء أحبَّ إليَّ من أن أصنع ما صنع - يعني الاستعراض .

حدَّثني عمر ، قال : حدَّثنا زهير ، قال : حدَّثني وهب ، قال : حدَّثني أبي أن زياداً اشتدَّ في أمر الحرورية بعد قريب وزخاف ، فقتلهم وأمر سَمُرَة بذلك ، وكان يستخلفه على البصرة إذا خرج إلى الكوفة ، فقتل سَمُرَة منهم بشراً كثيراً .

حدَّثني عمر ، قال : حدَّثنا أبو عبيدة ، قال : قال زياد يومئذٍ على المنبر : يا أهل البصرة ، والله لتكفني هؤلاء أولاً بئدأن بكم ، والله لئن أفلت منهم رجلٌ لا تأخذون العام من عطائكم درهماً ، قال : فنار الناس بهم فقتلهم .

قال محمد بن عمر : وفي هذه السنة أمر معاوية بمنبر رسول الله ﷺ ، أن يُحمَل إلى الشام ، فحرَّك ، فكُشِفَت الشمس حتى رُئِيت النجوم بادية يومئذ ، فأعظم الناس ذلك ، فقال : لم أرْ دَحمَةً ، إنما خفت أن يكون قد أَرِضَ ، فنظرت إليه . ثم كساه يومئذ .

وذكر محمد بن عمر ، أنه حدَّثه بذلك خالد بن القاسم ، عن شعيب بن عمرو الأموي .

قال محمد بن عمر : حدَّثني يحيى بن سعيد بن دينار ، عن أبيه ، قال : قال معاوية : إني رأيت أنَّ منبر رسول الله ﷺ وعصاه لا يُتركان بالمدينة ، وهم قَتَلَة أمير المؤمنين عثمان وأعداؤه ، فلما قدم طلب العصا وهي عند سعد القرظ ، فجاءه أبو هريرة وجابر بن عبدالله ، فقالا : يا أمير المؤمنين ؛ نذكرك الله عز وجل أن تفعل هذا ، فإنَّ هذا لا يصلح ، نُخرج منبر رسول الله ﷺ من موضع وضعه ، ونُخرج عصاه إلى الشام ؛ فانقل المسجد ؛ فأقصر وزاد فيه ست درجات ، فهو اليوم ثمانى درجات ، واعتذر إلى الناس مما صنع .

قال محمد بن عمر : وحدَّثني سُويد بن عبدالعزيز ، عن إسحاق بن عبدالله بن أبي فروة ، عن أبان بن صالح ، عن قبيصة بن ذؤيب ، قال : كان عبد الملك قد همَّ بالمنبر ، فقال له قبيصة بن ذؤيب : أذكرك الله عز وجل أن تفعل هذا ، وأن تحوِّله ! إنَّ أمير المؤمنين معاوية حرَّكه فكُشِفَت الشمس ، وقال رسول الله ﷺ : « من حلف على منبري آثماً فليتبوأ مقعده من النار » ، فتخرجه من المدينة وهو مقطَّع الحقوق بينهم بالمدينة ! فأقصر عبد الملك عن ذلك ، وكفَّ عن أن يذكره . فلما كان الوليد وحجَّ همَّ بذلك وقال : خبراني عنه ، وما

أراني إلا سأفعل : فأرسل سعيد بن المسيب إلى عمر بن عبدالعزيز ، فقال : كلّم صاحبك يتق الله عز وجل ولا يتعرض لله سبحانه ولسخطه ، فكلّمه عمر بن عبدالعزيز ، فأقصر وكف عن ذكره ، فلما حج سليمان بن عبد الملك أخبره عمر بن عبدالعزيز بما كان الوليد همّ به وإرسال سعيد بن المسيب إليه ، فقال سليمان : ما كنت أحب أن يذكر هذا عن أمير المؤمنين عبد الملك ولا عن الوليد ، هذا مكابرة ، وما لنا ولهذا ! أخذنا الدنيا فهي في أيدينا ، ونريد أن نعهد إلى علم من أعلام الإسلام يوفد إليه ، فنحمله إلى ما قبلنا ! هذا ما لا يصلح .

وفيها عزل معاوية بن حديج عن مصر ووُيِّ مسلمة بن مخلد مصر وإفريقية ، وكان معاوية بن أبي سفيان قد بعث قبل أن يولي مسلمة مصر وإفريقية عُقبة بن نافع الفهري إلى إفريقية ، فافتتحها ، واختط قيروانها ، وكان موضعه غيضة - فيما زعم محمد بن عمر - لا ترام من السباع والحيات وغير ذلك من الدواب . فدعا الله عز وجل عليها فلم يبق منها شيء إلا خرج هارباً ، حتى إن السباع كانت تحمل أولادها .

قال محمد بن عمر : حدثني موسى بن علي ، عن أبيه ، قال : نادى عُقبة بن نافع :

إنّا نازلونا فاطعنوا عزيّنا

فخرجن من جحرتهن هوارب .

قال : وحدثني الفضل بن فضالة ، عن زيد بن أبي حبيب ، عن رجل من جند مصر ، قال : قدّمنا مع عُقبة بن نافع ، وهو أول الناس اختطها وأقطعها للناس مساكن ودوراً ، وبني مسجدتها . فأقمنا معه حتى عزل ، وهو خير والٍ وخير أمير .

ثم عزل معاوية في هذه السنة - أعني سنة خمسين - معاوية بن حديج عن مصر ، وعُقبة بن نافع عن إفريقية ، وولي مسلمة بن مخلد مصر والمغرب كلّهُ ، فهو أول من جُمع له المغرب كله ومصر وبرقة وإفريقية وطرابلس ، فولّى مسلمة بن مخلد مولى له يقال له : أبو المهاجر إفريقية ، وعزل عُقبة بن نافع ، وكشفه عن أشياء ، فلم يزل والياً على مصر والمغرب ، وأبو المهاجر على إفريقية من قبله حتى هلك معاوية بن أبي سفيان .

وفي هذه السنة مات أبو موسى الأشعري ، وقد قيل : كانت وفاة أبي موسى سنة اثنتين وخمسين .

واختلّف فيمن حجّ بالناس في هذه السنة ، فقال بعضهم : حجّ بهم معاوية ، وقال بعضهم : بل حجّ بهم ابنه يزيد ، وكان الوالي في هذه السنة على المدينة سعيد بن العاص ، وعلى البصرة والكوفة والمشرق وسجستان وفارس والسند والهند زياد .

وفي هذه السنة طلب زياد الفرزدق ، واستعدت عليه بنو نهشل وفقيم ، فهرب منه إلى سعيد بن العاص - وهو يومئذ والي المدينة من قبل معاوية - مستجيراً به ، فأجاره .

ذكر الخبر عن ذلك :

حدثني عمر بن شبة ، قال : حدثنا أبو عبيدة وأبو الحسن المدائني وغيرهما ، أن الفرزدق لما هاجا بني نهشل وبني فقيم . لم يزد أبو زيد في إسناد خبره على ما ذكرت ، وأما محمد بن علي فإنه حدثني عن محمد بن سعد ، عن أبي عبيدة ، قال : حدثني أعين بن لبطة بن الفرزدق ، قال : حدثني أبي عن أبيه ، قال : لما هاجيت الأشهب بن ربيعة والبغيث فسقطا ، استعدت عليّ بنو نهشل وبنو فقيم زياد بن أبي سفيان . وزعم غيره أن

يزيد بن مسعود بن خالد بن مالك بن رُبَعي بن سلمى بن جندل بن نهشل استعدى أيضاً عليه . فقال أعين : فلم يعرفه زياد حتى قيل له : الغلام الأعرابي الذي أنهب ورقه وألقى ثيابه ؛ فعرفه .

قال أبو عبيدة : أخبرني أعين بن لَبْطَة ، قال : أخبرني أبي ، عن أبيه ، قال : بعثني أبي غالب في عير له وجلب أبيه وأمتار له واشتري لأهله كُساً ، فقدمت البصرة ، فبعث الجلب ، فأخذت ثمنه فجعلته في ثوبي أزاوله ، إذ عَرَض لي رجل أراه كأنه شيطان ، فقال : لَشَدَّ ما تستوثق منها ! فقلت : وما يمنعني ! قال : أما لو كان مكانك رجل أعرفه ما صبر عليها ؛ فقلت : ومن هو ؟ قال : غالب بن صَعَصعة ؛ قال : فدعوت أهل المِرْبَد فقلت : دُونكموها - ونثرتها عليهم - فقال لي قائل : ألقى رداءك يا بن غالب ، فآلقته . وقال آخر : ألقى قميصك ؛ فآلقته ، وقال آخر : ألقى عمامتك فآلقيتها حتى بقيت في إزار ، فقالوا : ألقى إزارك ، فقلت : لن ألقىه وأمشي مجرداً ، إني لست بمجنون . فبلغ الخبر زياداً ، فأرسل خيلاً إلى المِرْبَد ليأتوه بي ، فجاء رجل من بني الهُجَيم على فرس ؛ قال : آتيت فالنُجاء ! وأرذفني خلفه ، وَرَكَض حتى تغيب ، وجاءت الخيل وقد سبقت ، فأخذ زياد عَمِينَ لي : ذهيلاً والزخاف ابني صعصعة - وكانا في الدِّيوان على ألفين ألفين ، وكانا معه - فحبسهما فأرسلت إليهما : إن شئتما أتيتكما ، فبعثا إلي : لا تقربنا ، إنه زياد ! وما عسى أن يصنع بنا ، ولم نذنب ذنباً ! فمكثا أياماً . ثم كَلَّم زياد فيهما ، فقالوا : شيخان سامعان مطيعان ، ليس لهما ذنب مما صنع غلام أعرابي من أهل البادية ؛ فخلي عنهما ؛ فقالا لي : أخبرنا بجميع ما أمرك أبوك من ميرة أو كسوة ؛ فخبّرتهما به أجمع ، فاشترياه وانطلقت حتى لحقت بغالب ، وحملت ذلك معي أجمع ، فأتيته وقد بلغه خبري ، فسألني : كيف صنعت ؟ فأخبرته بما كان ؛ قال : وإنك لتحسن مثلاً هذا ! ومسح رأسي . ولم يكن يومئذ يقول الشعر ، وإنما قال الشعر بعد ذلك ، فكانت في نفس زياد عليه .

ثم وفد الأحنف بن قيس وجارية بن قدامة ، من بني ربيعة بن كعب بن سعد والجنون بن قتادة العبشمي والحُتات بن يزيد أبو منازل ، أحد بني حُوي بن سُفيان بن مجاشع إلى معاوية بن أبي سُفيان ، فأعطى كل رجل منهم مائة ألف ، وأعطى الحُتات سبعين ألفاً ، فلما كانوا في الطريق سأل بعضهم بعضاً ، فأخبروه بجوائزهم ، فكان الحُتات أخذ سبعين ألفاً ، فرجع إلى معاوية ، فقال : ما ردك يا أبا منازل ؟ قال : فضختني في بني تميم ، أما حسبي بصحيح ! أولستُ ذا سِن ! أولستُ مطاعاً في عشيرتي ! فقال معاوية : بلى ؛ قال : فما بالك حَسَسْتُ بي دون القوم ! فقال : إني اشتريت من القوم دينهم ووكلتك إلى دينك ورأيك في عثمان بن عفان - وكان عثمانياً - فقال : وأنا فاشترمني ديني ، فأمر له بتمام جائزة القوم . وطعن في جائزته ، فحبسها معاوية ، فقال الفرزدق في ذلك :

تُراثاً فيحتارُ التُّراثُ أقارِبُهُ
وميراثُ حربٍ جامدٌ لك ذائِبُهُ !
عَلِمْتُ مِنَ الْمَرْءِ الْقَلِيلُ حَلائِبُهُ
لنا حقُّنا أو غَصَّ بالماء شاربُهُ
لَصِمَّ غَضَبُ فَيْكٍ ماضٍ مَضارِبُهُ

أبوك وعمي يا معاويَ أورثا
فما بال ميراث الحُتات أخذته
فلو كان هذا الأمر في جاهليَّة
ولو كان في دين سوى ذا شئتُم
ولو كان إذ كنّا وفي الكف بسطة

- وأنشد محمد بن علي «وفي الكف مبسط»

خيَاطِفٌ عِلْوَدٌ صَعَابٌ مَرَاتِبُهُ
سَوَاكُ ، وَلَوْ مَالَتْ عَلَيَّ كِتَابُهُ
وَأَمْنَعُهُمْ جَاراً إِذَا ضَمِيمٌ جَانِبُهُ
كَمِثْلِي حَصَانٌ فِي الرِّجَالِ يِقَارِبُهُ
إِلَى صَعَصَعٍ يُنْمِي ، فَمَنْ ذَا يَنَاسِبُهُ !
وَمِنْ دُونِهِ الْبَذْرُ الْمَضِيءُ كَوَاكِبُهُ
وَعَرَقُ الثَّرَى عِرْقِي ، فَمَنْ ذَا يُحَاسِبُهُ !
عَلَى الدَّهْرِ إِذْ عَزَّتْ لِدَهْرٍ مَكَاسِبُهُ
أَغْرَى يَارِي الرِّيحِ مَا أَرْوَرُ جَانِبُهُ
أَبْسُوكَ الَّذِي مِنْ عِبْدِ شَمْسٍ يِقَارِبُهُ
كَرِيماً يُلَاقِي الْمَجْدَ مَا طَرَّ شَارِبُهُ
قَصِيٌّ وَعَبْدُ الشَّمْسِ مَمْنٌ يَخَاطِبُهُ

وَقَدْ رُمْتُ شَيْئاً يَا مَعَاوِيَ دُونَهُ
وَمَا كُنْتُ أُعْطَى النَّصْفَ مِنْ غَيْرِ قُدْرَةٍ
أَلَسْتُ أَعَزُّ النَّاسِ قَوْماً وَأَسْرَةً
وَمَا وَلَدْتُ بَعْدَ النَّبِيِّ وَآلِهِ
أَبِي غَالِبٍ وَالْمَرْءُ نَاجِيَةُ الَّذِي
وَبَيْتِي إِلَى جَنْبِ الثَّرِيَّا فِنَاوَهُ
أَنَا ابْنُ الْجَبَالِ الصُّمِّ فِي عَدَدِ الْحَصَى
أَنَا ابْنُ الَّذِي أَحْيَا الْوَيْدَ وَضَامِنُ
وَكَمْ مِنْ أَبٍ لِي يَا مَعَاوِيَ لَمْ يَزَلْ
نَمْتُهُ فِرْعَوْنَ الْمَالِكِينَ وَلَمْ يَكُنْ
تَرَاهُ كَنْصَلِ السَّيْفِ يَهْتَزُّ لِلْنَدَى
طَوِيلَ نِجَادِ السَّيْفِ مَذْكَانٍ لَمْ يَكُنْ

فَرْدٌ ثَلَاثِينَ أَلْفاً عَلَى أَهْلِهِ ، وَكَانَتْ أَيْضاً قَدْ أَغْضَبَتْ زِيَاداً عَلَيْهِ . قَالَ : فَلَمَّا اسْتَعَدَّتْ عَلَيْهِ نَهْشَلٌ وَفَقِيمٌ
ازْدَادَ عَلَيْهِ غَضَباً ، فَطَلَبَهُ فَهَرَبَ ، فَأَتَى عَيْسَى بْنُ خُصَيْلَةَ بْنِ مَعْتَبٍ بْنِ نَصْرِ بْنِ خَالِدِ الْبَهْزِيِّ ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي
سُلَيْمٍ ، وَالْحَجَّاجُ بْنُ عَلَاطٍ بْنِ خَالِدِ السُّلَمِيِّ .

قَالَ ابْنُ سَعْدٍ : قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : فَحَدَّثَنِي أَبُو مُوسَى الْفَضْلُ بْنُ مُوسَى بْنِ خُصَيْلَةَ ، قَالَ : لَمَّا طَرَدَ زِيَادُ
الْفَرَزْدَقُ جَاءَ إِلَى عَمِّي عَيْسَى بْنِ خُصَيْلَةَ لِيلاً فَقَالَ : يَا أَبَا خُصَيْلَةَ ، إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ أَخَافَنِي ، وَإِنَّ صَدِيقِي
وَجَمِيعَ مَنْ كُنْتُ أَرْجُو قَدْ لَفْظُونِي ، وَإِنِّي قَدْ أَتَيْتُكَ لَتَغَيِّبَنِي عَنْكَ ؛ قَالَ : مَرْحَباً بِكَ ! فَكَانَ عِنْدَهُ ثَلَاثَ لَيَالٍ ،
ثُمَّ قَالَ : إِنَّهُ قَدْ بَدَأَ لِي أَنْ أَلْحَقَ بِالشَّامِ ، فَقَالَ : مَا أَحْبَبْتُ ؛ إِنَّ أَقَمْتُ مَعِيَ فِي الرِّحْبِ وَالسَّعَةِ ؛ وَإِنْ
شَخَّصْتَ فَهَذِهِ نَاقَةُ أَرْحَبِيَّةٍ أَمْتَعُكَ بِهَا . قَالَ : فَرَكِبَ بَعْدَ لَيْلٍ ، وَبَعَثَ عَيْسَى مَعَهُ حَتَّى جَاوَزَ الْبَيْتَ ، فَأَصْبَحَ
وَقَدْ جَاوَزَ مَسِيرَةَ ثَلَاثَ لَيَالٍ ، فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ فِي ذَلِكَ :

مَنْ النَّاسِ وَالْجَانِي تُخَافُ جَرَائِمُهُ
فَضِيْفُكَ مُحْبُورٌ هَنِيٍّ مَطَاعِمُهُ
وَأَنَّ لَهَا اللَّيْلَ الَّذِي أَنْتَ جَاشِمُهُ
وَمَا صَدَرَتْ حَتَّى عَلَا النَّجْمُ عَاتِمُهُ
ظَلِيمٌ تَبَارَى جَنَحَ لَيْلٍ نَعَائِمُهُ
لَهَا الصَّبْحُ عَنْ صَعْلٍ أَسِيلٍ مَخَاطِمُهُ
بِدِجَلَةٍ إِلَّا خَطْمُهُ وَمَلَاغِمُهُ
وَأَعْرَضَ مِنْ قُلُجٍ وَرَائِي مَخَارِمُهُ

حَبَانِي بِهَا الْبَهْزِيُّ حُمَلَانٌ مَنْ أَبِي
وَمَنْ كَانَ يَا عَيْسَى يَوْتُبُ ضَيْفُهُ
وَقَالَ تَعَلَّمْ أَنَّهَا أَرْحَبِيَّةُ
فَأَصْبَحْتُ وَالْمَلَقَى وَرَائِي وَخَبَلُ
تَزَاوَرُ عَنْ أَهْلِ الْحُفَيْرِ كَأَنَّهَا
رَأَتْ بَيْنَ عَيْنَيْهَا دُويَّةً وَانْجَلَى
كَأَنَّ شَرَاعاً فِيهِ مَجْرَى زِمَامِهَا
إِذَا أَنْتَ جَاوَزْتَ الْغَرِيْبَيْنِ فَاسْلَمِي

وَقَالَ أَيْضاً :

وَمَنْ يَكُ مَوْلَاهُ فَلَيْسَ بِوَاحِدٍ

تَدَارَكُنِي أَسْبَابُ عَيْسَى مِنَ الرَّدَى

وهي قصيدة طويلة .

قال : وبلغ زياداً أنه قد شَخَصَ ، فأرسل علي بن زُهَدم ، أحد بني نولة بن فُقيم في طلبه .
قال أعينَ : فطلبه في بيت نصرانية يقال لها ابنة مَرَّار ، من بني قيس بن ثعلبة تنزل قَصِيمة كاظمة ؛
قال : فسَلَّته مِنْ كِسْرِ بيتها ، فلم يقدر عليه ؛ فقال في ذلك الفرزدق :

أتيت ابنةَ المَرَّار أهبلتَ تبغي وما يُبتَغى تحت السَّوِيَّة أمْهالي
ولكنْ بُغائي لو أردتَ لقاءنا فضاء الصَّحارى لا ابتغاء بأدغال

وقيل : إنها ربيعة بنت المَرَّار بن سلامة العجلي أم أبي النجم الرّاجز .

قال أبو عُبَيْدة : قال مِسْمَع بن عبد الملك : فأَتى الرُّوحاء ، فنزل في بكر بن وائل ، فأَمِنَ ، فقال
مدحهم :

وقد مَثَلْتُ أينَ المسيرُ فلم تجدْ لفَورِها كالحَيِّ بِكُربن وائل
أعفُ وأوفى ذِمَّةً يَعْقِدونها إذا وازَّنتُ شُمَّ الدُّرِّ بالكواهل

وهي قصيدة طويلة . ومدحهم بقصائد أخر غيرها .

قال : فكان الفرزدق إذا نزل زياد البصرة نزل الكوفة ، وإذا نزل زياد الكوفة نزل الفرزدق البصرة ،
وكان زياد ينزل البصرة ستة أشهر والكوفة ستة أشهر ، فبلغ زياداً ما صنع الفرزدق ، فكتب إلى عامله على
الكوفة عبد الرحمن بن عبيد : إنما الفرزدق فحلّ الوحوش يرعى القفار ، فإذا ورد عليه الناس دُعر ففارقهم إلى
أرض أخرى فرتع ؛ فاطلبه حتى تظفر به . قال الفرزدق : فطُلبت أشدَّ طلب ، حتى جعل مَنْ كان يُؤوي
يُخرجني من عنده ، فضاقت علي الأرض ، فبينما أنا ملقّف رأسي في كِسائي على ظهر الطريق ، إذ مرّ بي الذي
جاء في طلبي ، فلما كان الليل أتيت بعضَ أخواني من بني ضَبّة وعندهم عُرْس - ولم أكن طعمتُ قبل ذلك
طعاماً ، فقلت : آتيهم فأصيب من الطعام - قال : فبينما أنا قاعد إذ نظرت إلى هادي فرسٍ وصدر رُمح قد
جاوَزَ باب الدار داخلاً إلينا ، فقاموا إلى حائط قصب فرفعوه ، فخرجت منه ، وألقوا الحائط فعاد مكانه ، ثم
قالوا : ما رأيناه ، وبحوثا ساعة ثم خرجوا ، فلما أصبحنا جاؤوني فقالوا : اخرج إلى الحجاز عن جوار زياد لا
يظفر بك ، فلو ظفر بك البارحة أهلكتنا ؛ وجمعوا ثمن راحلتين ، وكلموا لي مقاعساً أحد بني تميم الله ابن
ثعلبة - وكان دليلاً يسافر للتجار - قال : فخرجنا إلى بانيقيا حتى انتهينا إلى بعض القصور التي تُنزل ، فلم يُفتح
لنا الباب ، فألقينا راحلتنا إلى جنب الحائط والليلة مُقيرة ، فقلت : يا مقاعس ، أرايت إن بعث زياد بعد ما
نصبح إلى العتيق رجلاً ، أبقدرون علينا ؟ قال : نعم ، يَرصُدوننا - ولم يكونوا جاوزوا العتيق وهو خندق كان
للجَم - قال : فقلت : ما تقول العرب ؟ قال : يقولون : أمهلّه يوماً وليلة ثم خذه . فارتحل ؛ فقال لي أخاف
السباع ، فقلت : السباع أهون من زياد ، فارتحلنا لا نرى شيئاً إلّا خلفناه ، ولزِمنا شخص لا يُفارقنا ،
فقلت : يا مقاعس ، أترى هذا الشخص ! لم تمرْ بشيء إلّا جاوزناه غيره ، فإنه يسايرنا منذ الليلة . قال :
هذا السُّبُع ، قال : فكأنه فهمَ كلامنا ، فتقدّم حتى رَبَضَ على مَتْن الطريق ، فلما رأينا ذلك نزلنا فشددنا أيدي
ناقيتنا بِشَنَائِنٍ وأخذت قوسي . وقال مقاعس : يا ثعلب ، أتدري مَن فررنا إليك ؟ من زياد ، فأخَصَبَ بَدَنه

وَحِضْنَيْنِ مِنْ ظِلْمَاءِ لَيْلٍ سَرِيْتُهُ
رَمَاهُ الْكَرَى فِي الرَّأْسِ حَتَّى كَانَهُ
مِنَ السَّيْرِ وَالْإِدْلَاجِ تَحْسِبُ أَمَّا
جَرَزْنَا وَقَدْ بَيْنَاهُ حَتَّى كَأَمَّا
بِأَغْيَدٍ قَدْ كَانَ النَّعَاسُ لَهُ سُكْرًا
أَمِيمٌ جَلَامِيدٍ تَرْكَنَ بِهِ وَقَرَا
سَقَاهُ الْكَرَى فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ تَحْمُرَا
يَرَى يَهْوَادِي الصُّبْحَ قَبْلَهُ شُقْرَا

قال : فمضينا وقَدِمْنَا المدينة وسعيد بن العاص بن أمية عليها ، فكان في جنازة ، فتبعته فوجدته قاعداً والميت يُدفن حتى قمت بين يديه ، فقلت : هذا مقامُ العائد من رجل لم يُصب دماً ولا مالاً ! فقال : قد أجزت إن لم تكن أصبت دماً ولا مالاً ؛ وقال : مَنْ أنت ؟ قلت : أنا هَمَامُ بن غالب بن صعصعة ، وقد أثنيْتُ على الأمير ، فإن رأى أن يأذن لي فأسمعه فليفعل ؛ قال : هاتِ ، فأنشدته :

وَكُومٍ تُنْعِمُ الْأَضْيَافَ عَيْنًا وَتُصْبِحُ فِي مَبَارِكِهَا ثِقَالًا
حتى أتيتُ إلى آخرها ؛ قال : فقال مروان :
قُعوداً ينظرون إلى سعيد

قلتُ : والله إنك لقايم يا أبا عبد الملك .

قال : وقال كعب بن جُعيل : هذه واللّه الرؤيا التي رأيت البارحة ؛ قال سعيد : وما رأيت ؟ قال : رأيت كأني أمشي في سكة من سكك المدينة ، فإذا أنا بابن قُترة في جُحر ، فكأنه أراد أن يتناولني ، فاتقيته ، قال : فقام الحطيئة فشق ما بين رجلين حتى تجاوز إليّ ، فقال : قل ما شئت فقد أدركت من مضى ، ولا يدركك من بقى . وقال لسعيد : هذا والله الشعر ، لا يعلل به منذ اليوم . قال : فلم نزل بالمدينة مرةً وبمكة مرة . وقال الفرزدق في ذلك :

أَلَا مَنْ مُبْلَغٌ عَنِّي زِيَادًا مُغْلَغَلَةٌ يَخْبُ بِهَا الْبَرِيدُ
بِأَنِّي قَدْ فَرَرْتُ إِلَى سَعِيدٍ وَلَا يُسْطَاعُ مَا يَحْمِي سَعِيدُ
فَرَرْتُ إِلَيْهِ مِنْ لَيْثٍ هَزْبِرٍ تَفَادَى عَنْ فَرِيْسَتِهِ الْأَسْوَدُ
فَإِنْ شِئْتَ أَنْتَسِبْتَ إِلَى النَّصَارَى وَإِنْ شِئْتَ أَنْتَسِبْتَ إِلَى الْيَهُودِ
وَإِنْ شِئْتَ أَنْتَسِبْتَ إِلَى فُقَيْمٍ وَنَاسِبِنِي وَنَاسِبَتِ الْقُرُودُ
وَيُرَوَى :

وناسبني وناسبت اليهود

وَأَبْغَضُهُمْ إِلَيَّ بَنُو فُقَيْمٍ وَلَكِنْ سَوْفَ آتِي مَا تَرِيدُ
وقال أيضاً :

أَتَانِي وَعَيْدٌ مِنْ زِيَادٍ فَلَمْ أَنْمِ وَسَيَلُ اللَّوَى دُونِي فَهَضْبُ التَّهَائِمِ
فَبِتُّ كَأَنِّي مُشْعَرٌ خَيْبَرِيَّةٌ سَرَتْ فِي عِظَامِي أَوْ سِمَامَ الْأَرَاقِمِ
زِيَادُ بْنُ حَرْبٍ لَنْ أَظُنُّكَ تَارِكِي وَذَا الضُّعْنِ قَدْ خَشِمْتُهُ غَيْرَ ظَالِمِ

قال: وأنشدني عمرو:

وبالضغن قد خشمتني غير ظالم
وقد كافحت مني العراق قصيدة
رجوم مع الماضي رؤوس المخارم
خفيفة أفواه الرواة ثقيلة
على قرنها نزالة بالمواسم

وهي طويلة . فلم نزل بين مكة والمدينة حتى هلك زياد .
وفي هذه السنة كانت وفاة الحكم بن عمرو الغفاري بمرو منصوره من غزوة أهل جبل الأشل .

ذكر الخبر

عن غزوة الحكم بن عمرو وجبل الأشل وسبب هلاكه

حدثني عمر بن شبة ، قال: حدثني حاتم بن قبيصة ، قال: حدثنا غالب بن سليمان ، عن عبد الله الرحمن بن صبح ، قال: كنت مع الحكم بن عمرو بخراسان ، فكتب زياد إلى عمرو: إن أهل جبل الأشل سلاحهم اللبود ، وآيتهم الذهب . فغزاهم حتى توسطوا ، فأخذوا بالشعاب والطرق ، فأحدقوا به ، فعي بالأمر ، فولى المهلب الحرب ، فلم يزل المهلب يحتال حتى أخذ عظيمًا من عظمائهم ، فقال له: اختر بين أن أقتلك ، وبين أن نخرجنا من هذا المضيق ؛ فقال له: أوفد النار حيال الطريق من هذه الطرق ، ومر بالأنقال فلتوجه نحوه ، حتى إذا ظن القوم أنكم قد دخلتم الطريق لتسلكوه فإنهم يستجمعون لكم ، ويعرون ما سواه من الطرق ، فبادرهم إلى غيره فإنهم لا يدركونك حتى تخرج منه . ففعلوا ذلك ، فنجوا وغنموا غنيمة عظيمة .

حدثني عمر ، قال: حدثنا علي بن محمد؛ قال: لما قفل الحكم بن عمرو من غزوة جبل الأشل ولى المهلب ساقته ، فسلخوا في شعاب ضيقة ، فعارضه الترك فأخذوا عليهم بالطرق ، فوجدوا في بعض تلك الشعاب رجالاً يتغنى من وراء حائط بيتين :

تَعَزَّ بِصَبْرٍ لَا وَجْدَكَ لَا تَرَى سَنَامُ الْحِمَى أُخْرَى اللَّيَالِي الْغَوَابِرِ
كَأَنَّ فَوَادِي مِنْ تَذْكُرِي الْحِمَى وَأَهْلُ الْحِمَى يَهْفُو بِهِ رِيَشُ طَائِرٍ

فأتى به الحكم ، فسأله عن أمره ، فقال: غايرت ابن عم لي ، فخرجت ترفعني أرض وتخفيضني أخرى ، حتى هبطت هذه البلاد . فحملة الحكم إلى زياد بالعراق .

قال: وتخلص الحكم من وجهه حتى أتى هراة ، ثم رجع إلى مرو .

حدثني عمر ، قال: حدثني حاتم بن قبيصة ، قال: حدثنا غالب بن سليمان ، عن عبد الرحمن بن صبح ، قال: كتب إليه زياد : والله لئن بقيت لك لأقطعن منك طابقاً سحتا ، وذلك أن زياداً كتب إليه لما ورد بالخبر عليه بما غنم : إن أمير المؤمنين كتب إلي أن اصطفي له صفراء وبيضاء والروائع فلا تحركن شيئاً حتى تخرج ذلك .

فكتب إليه الحكم : أما بعد ، فإن كتابك ورد ، تذكُر أن أمير المؤمنين كتب إلي أن أصطفي له كل صفراء وبيضاء والروائع ، ولا تحركن شيئاً ؛ فإن كتاب الله عز وجل قبل كتاب أمير المؤمنين ، وإنه والله لو كانت السموات والأرض رتقاً على عبد اتقى الله عز وجل جعل الله سبحانه وتعالى له تخرجاً .

وقال للناس : اغدوا على غنائمكم ؛ فغدا الناس ، وقد عزل الخمس ، فقسم بينهم تلك الغنائم ؛ قال : فقال الحكم : اللهم إن كان لي عندك خير فاقبضني ؛ فمات بخراسان بمرو .

قال عمر : قال علي بن محمد : لما حضرت الحكم الوفاة بمرو ، استخلف أنس بن أبي أناس ، وذلك في سنة خمسين .

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ذكر ما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها مَشَقٌّ فضالة بن عُبيد بأرض الروم ، وغزوة بُسْر بن أبي أُرطاة الصائفة ، ومَقْتَل حُجْر بن عَدِيٍّ وأصحابه .

ذكر سبب مقتله :

قال هشام بن محمد ؛ عن أبي مخنف ، عن المجالد بن سعيد ، والصقعب بن زهير ، وفضيل بن خديج ، والحسين بن عُبَبة المرادي ، قال : كُلُّ قَدٍ حَدَّثَنِي بَعْضُ هَذَا الْحَدِيثِ ، فَاجْتَمَعَ حَدِيثُهُمْ فِيمَا سُقِيَ مِنْ حَدِيثِ حُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ الْكِنْدِيِّ وَأَصْحَابِهِ : إِنَّ مَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ لَمَّا وَلِيَ الْمَغِيرَةَ بَنَ شُعْبَةَ الْكُوفَةِ فِي جُمَادَى سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ دَعَاهُ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ لِي الْيَوْمَ قَبْلَ الْيَوْمِ مَا تُقَرِّعُ الْعَصَا ، وَقَدْ قَالَ الْمُتَلَمَّسُ :

لِيَذِي الْحِلْمَ قَبْلَ الْيَوْمِ مَا تُقَرِّعُ الْعَصَا وَمَا عُلِّمَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِيَعْلَمَا
وقد يجزي عنك الحكيم بغير التعليم ، وقد أردت إيصاءك بأشياء كثيرة ، فأنا تاركها اعتماداً على بصرك بما يرضيني ويُسعد سلطانِي ، وَيُصْلِحُ بِهِ رِعْيَتِي ، وَلَسْتُ تَارِكاً إِيصَاءَكَ بِخَصْلَةٍ : لَا تَتَحَمَّ عَنْ شَتْمِ عَلِيٍّ وَذَمِّهِ ، وَالتَّرَحُّمِ عَلَى عَثْمَانَ وَالِاسْتِغْفَارِ لَهُ ، وَالْعَيْبِ عَلَى أَصْحَابِ عَلِيٍّ ، وَالْإِقْصَاءِ لَهُمْ ، وَتَرْكِ الْإِسْتِمَاعِ مِنْهُمْ ؛ وَبِإِطْرَاءِ شِيعَةِ عَثْمَانَ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَالْإِدْنَاءِ لَهُمْ ، وَالِاسْتِمَاعِ مِنْهُمْ . فَقَالَ الْمَغِيرَةُ : قَدْ جَرَّبْتُ وَجَرَّبْتُ ، وَعَمِلْتُ قَبْلَكَ لَغَيْرِكَ ، فَلَمْ يُذِمَّ بِي دَفْعٌ وَلَا رَفْعٌ وَلَا وَضْعٌ ، فَسَتَبْلَوْا فَتُحْمِدَ أَوْ تُذِمَّ . قَالَ : بَلْ نَحْمِدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

قال أبو مخنف : قال الصقعب بن زهير : سمعتُ الشعبي يقول : مَا وَلَيْنَا وَالٍ بَعْدَهُ مِثْلُهُ ، وَإِنْ كَانَ لَاحِقاً بِصَالِحٍ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْعَمَالِ .

وأقام المغيرة على الكوفة عاملاً لمعاوية سبع سنين وأشهرًا ، وهو من أحسن شيء سيرةً ، وأشدّه حبًّا للعافية ، غير أنه لا يدع ذمَّ عليٍّ والوقوع فيه والعيبَ لقتلة عثمان ، واللَّعنَ لهم ، والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار له ، والتزكية لأصحابه ، فكان حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ إِذَا سَمِعَ ذَلِكَ قَالَ : بَلِ إِيَّاكُمْ فَذَمَّ اللَّهُ وَلَعَنَ ! ثُمَّ قَامَ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ (١) ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ مَنْ تَذْمُونَ وَتَعَيِّرُونَ لِأَحَقِّ بِالْفَضْلِ ، وَأَنْ مَنْ تَزْكُونَ وَتُطْرُونَ أَوْلَى بِالذِّمِّ فَيَقُولُ الْمَغِيرَةُ : يَا حُجْرُ ، لَقَدْ رُبِمَ بِسَهْمِكَ ، إِذْ

كنتُ أنا الوالي عليك ، يا حُجْرَ وَيْحَكَ ! اتَّقِ السلطان ، اتق غضبه وسطوته ، فإنَّ غضبة السلطان أحياناً بما يُهلك أمثالك كثيراً . ثم يكف عنه ويصفح .

فلم يزل حتى كان في آخر إمارته قام المغيرة فقال في علي وعثمان كما كان يقول ، وكانت مقالته : اللهم ارحم عثمان بن عفان وتجاوز عنه ، وأجزه بأحسن عمله ، فإنه عَمِلَ بكتابك ، واتبع سنة نبيك ﷺ ، وجمع كلمتنا ، وحقق دماءنا ، وقتل مظلوماً ؛ اللهم فارحم أنصاره وأولياءه ومحبيه والطالين بدمه ! ويدعو على قتلته . فقام حُجْر بن عديّ فنعر نكرةً بالمغيرة سمعها كل من كان في المسجد وخارجاً منه ، وقال : إنك لا تدري بمن تولع من هَرَمَك ! أيها الإنسان ، مُرُّنا بأرزاقنا وأعطيائنا ، فإنك قد حبستنا عنا ، وليس ذلك لك ، ولم يكن يطمع في ذلك من كان قبلك ، وقد أصبحت مولعاً بذم أمير المؤمنين ، وتقريظ المجرمين . قال : فقام معه أكثر من ثلثي الناس يقولون : صدق والله حُجْر وبر ، مُرُّنا بأرزاقنا وأعطيائنا ، فإننا لا ننتفع بقولك هذا ، ولا يجدي علينا شيئاً ؛ وأكثروا في مثل هذا القول ونحوه . فنزل المغيرة ، فدخل واستأذن عليه فؤمه ، فأذن لهم ، فقالوا : علام تترك هذا الرجل يقول هذه المقالة ، ويجترى عليك في سلطانك هذه الجراءة ! إنك تجمع على نفسك بهذا خصلتين : أما أولهما فتُهوين سلطانك ، وأما الأخرى فإنَّ ذلك إن بلغ معاوية كان أسخط له عليه - وكان أشدهم له قولاً في أمر حُجْر والتعظيم عليه عبدالله أبي عقيل الثَّقَفِي - فقال لهم المغيرة : إني قد قتلته ؛ إنه سيأتي أميرٌ بعدي فيحسبه مثلي فيصنع به شبيهاً بما ترونه يصنع بي ، فيأخذه عند أول وهلة فيقتله شرقتة ؛ إنه قد اقترب أجلي ، وضعف عملي ، ولا أحب أن أبتدىء أهل هذا المصر بقتل خيارهم ، وسفك دمائهم ، فيسعدوا بذلك وأشقى ، ويعز في الدنيا معاوية ، ويذل يوم القيامة المغيرة ؛ ولكني قابلاً من محسنهم ، وعافٍ عن مسيئهم ، وحامداً لحليمهم ، وواعظاً سيفيهم ، حتى يفرق بيني وبينهم الموت ، سيدكرونني لو قد جربوا العمال بعدي .

قال أبو مخنف : سمعت عثمان بن عتبة الكندي ، يقول : سمعت شيخاً للحجّي يذكر هذا الحديث يقول : قد والله جربناهم فوجدناه خيرهم ، أحمدهم للبري ، وأغفرهم للمسيء ، وأقبلهم للعذر .

قال هشام : قال عوانة : فولي المغيرة الكوفة سنة إحدى وأربعين في جمادى ، وهلك سنة إحدى وخمسين ، فجمعت الكوفة والبصرة لزياد بن أبي سُفْيَان ، فأقبل زياد حتى دخل القصر بالكوفة ، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإننا قد جربنا وجربنا ، وسُسنا وساسنا السائسون ، فوجدنا هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح أوله ، بالطاعة اللينة المشبهة سرّها بعلانياتها ، وغيب أهلها بشاهدهم ، وقلوبهم بالسستهم ، ووجدنا الناس لا يصلحهم إلا لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، وإني والله لا أقوم فيكم بأمر إلا أمضيته على أدلاله ، وليس من كذبة الشاهد عليها من الله والناس أكبر من كذبة إمام على المنبر . ثم ذكر عثمان وأصحابه فقرّظهم ، وذكر قتلته ولعنهم . فقام حُجْر ففعل مثل الذي كان يفعل بالمغيرة ، وقد كان زياد قد رجع إلى البصرة وولي الكوفة عمرو بن الحريث ، ورَجَعَ إلى البصرة قبله أن حُجراً يجتمع إليه شيعة علي ، ويظهرون لعن معاوية والبراءة منه ، وأنهم حصّبوا عمرو بن الحريث ، فشخص إلى الكوفة حتى دخلها ، فأق القصر فدخله ، ثم خرج فصعد المنبر وعليه قباء سُندس ومُطرَف خَز أخضر ، قد فرق شعره ، وحُجْر جالس في المسجد حوله أصحابه أكثر ما كانوا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإن غيب

البغي والغبي وخيم ، إن هؤلاء جموا فأشيروا ، وأمنوني فاجتروا علي ، وإيم الله لئن لم تستقيموا لأدوينكم بدواؤكم ؛ وقال : ما أنا بشيء إن لم أمنع باحة الكوفة من حُجر وأدعه نكالا لمن بعده ! ويل أمك يا حُجر ! سَقَطَ العشاء بك على سرحان ، ثم قال :

أبلغ نصيحة أن راعي إبليها سَقَطَ العشاء به على سرحان

وأما غير عوانة ، فإنه قال في سبب أمر حُجر ما حدثني علي بن حسن قال : حدثنا مسلم الجرهمي ، قال : حدثنا مخلد بن الحسن ، عن هشام ، عن محمد بن سيرين ، قال : خطب زياد يوماً في الجمعة فأطال الخطبة وأخّر الصلاة ، فقال له حُجر بن عدي : الصلاة ! فمضى في خطبته ، ثم قال : الصلاة ! فمضى في خطبته ، فلما خشي حُجر قوت الصلاة ضرب بيده إلى كف من الحصى ، وثار إلى الصلاة وثار الناس معه ، فلما رأى ذلك زياد نزل فصلّى بالناس ، فلما فرغ من صلاته كتب إلى معاوية في أمره ، وكثر عليه .

فكتب إليه معاوية أن شُدّه في الحديد ، ثم أحمله إلي . فلما أن جاء كتاب معاوية أراد قوم حُجر أن يَمْنَعوه ، فقال : لا ، ولكن سمع وطاعة ، فشُدّ في الحديد ، ثم حُمِلَ إلى معاوية ، فلما دخل عليه قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال له معاوية : أمير المؤمنين ! أما والله لا أقيلك ولا أستقيلك ، أخرجوه فاضربوا عنقه ، فأخرج من عنده ، فقال حُجر للذين يُلَوْن أمره : دعوني حتى أصلي ركعتين ؛ فقالوا : صل ؛ فصلّى ركعتين خفف فيهما ، ثم قال : لولا أن تظنوا بي غير الذي أنا عليه لأحببت أن تكونا أطول مما كانتا ، ولئن لم يكن فيما مضى من الصلاة خيرٌ فما في هاتين خير ؛ ثم قال لمن حضره من أهله : لا تُطْلِقُوا عني حديداً ، ولا تغسلوا عني دماً ، فإني ألقى معاوية غداً على الجادة . ثم قُدّم فضربت عنقه .

قال مخلد : قال هشام : كان محمد إذا سئل عن الشهيد يُغَسَّل ، حدثهم حديث حُجر .

قال محمد : فلقبت عائشة أم المؤمنين معاوية - قال مخلد : أظنه بمكة - فقالت : يا معاوية ، أين كان جِلْمُك عن حُجر ! فقال لها : يا أم المؤمنين ، لم يحضرني رشيد !

قال ابن سيرين : فبلغنا أنه لما حضرته الوفاة جعل يُغْرِغُ بالصوت ويقول : يومي منك يا حُجر يومٌ طويل !

قال هشام ، عن أبي مخنف ، قال : حدثني إسماعيل بن نعيم النمرّي ، عن حسين بن عبد الله الهمداني ، قال : كنت في شُرط زياد ، فقال زياد : لينطلق بعضكم إلى حُجر فليدعه ؛ قال : فقال لي أمير الشُرطة - وهو شدّاد بن الهيثم الهلالي : اذهب إليه فادعه ؛ قال : فأتيتُه ، فقلت : أجب الأمير ؛ فقال أصحابه : لا يأتية ولا كرامة ! قال : فرجعت إليه فأخبرته ، فأمر صاحب الشُرطة أن يبعث معي رجالاً ، قال : فبعث نفراً ؛ قال : فأتيناه فقلنا : أجب الأمير ، قال : فسبونا وشتمونا ، فرجعنا إليه فأخبرناه الخبر ، قال : فوثب زياد بأشراف أهل الكوفة ، فقال : يا أهل الكوفة ، أتشجون بيد وتأسون بأخرى ! أبدانكم معي وأهواؤكم مع حُجر ! هذا الهجاءة الأحمق المذبوب أنتم معي وإخوانكم وأبناؤكم وعشائركم مع حُجر ! هذا والله من دُخسكم وغشكم ! والله لتظهرن لي براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم ! فوثبوا إلى زياد ، فقالوا : معاذ الله سبحانه أن يكون لنا فيما ها هنا رأي إلا طاعتك وطاعة أمير المؤمنين ، وكل ما ظننا أن فيه رضاك ، وما يستبين به طاعتنا وخلافنا لحُجر فمُرنا به ، قال : فليقم كل امرئ منكم إلى هذه الجماعة

حول حُجْر فليدُع كلَّ رجل منكم أخاه وابنه وذا قرابته ومن يطيعه من عشيرته ، حتى تقيموا عنه كلَّ مَنْ استطعتم أن تقيموه . ففعلوا ذلك ، فأقاموا جُلَّ من كان مع حُجْر بن عدي ، فلما رأى زياد أن جُلَّ مَنْ كان مع حُجْر أقيم عنه ، قال لشَدَّاد بن الهيثم الهلالي - ويقال : هيثم بن شَدَّاد أمير شرطته - : انطلق إلى حُجْر ، فإن تبعك فأتني به ، وإلا فمَرَّ من معك فليتنزعوا عُمَد السوق ، ثم يشدوا بها عليهم حتى يأتوني به ويضربوا مَنْ حال دونه . فأتاه الهلالي فقال : أجب الأمير ، قال : فقال أصحاب حُجْر : لا ولا نعمة عين ! لا نجيبه . فقال لأصحابه : شدوا على عُمَد السوق ، فاشتدوا إليها ، فأقبلوا بها قد انتزعوها ، فقال عمير بن يزيد الكندي من بني هند - وهو أبو العَمْرُطَة : إنه ليس معك رجل معه سيفٌ غيري ، وما يغني عنك ! قال : فما ترى ؟ قال : قُم من هذا المكان فالحق بأهلك يَمْنَعُكَ قومك . فقام زياد ينظر إليهم وهو على المنبر ، فغشوا بالعُمَد ، فضرب رجل من الحمراء - يقال له بكر بن عبيد - رأس عمرو بن الحَمِق بعمود فوق ، وأتاه أبو سُفْيَان بن عُيَيْر والعَجْلَان بن ربيعة - وهما رجلان من الأزد - فحملاه ، فأثبَّتا به دار رجل من الأزد - يقال له عبيد الله بن مالك - فخبَّاه بها ، فلم يزل بها متوارياً حتى خرج منها .

قال أبو مخنف : فحدثني يوسف بن يزيد ، عن عبد الله بن عوف بن الأحمر ، قال : لما انصرفنا من غزوة باجُجِرا قبل مقتل مُصعب بعام ، فإذا أنا بأحمرِّي يسايرني - والله ما رأيته من ذلك اليوم الذي ضرب فيه عمرو بن الحَمِق ، وما كنت أرى لورأيت أنه أعرفه - فلما رأيته ظننت أنه هو هو ؛ وذلك حين نظرنا إلى أبيات الكوفة ، فكرهت أن أسأله : أفت الضارب عمرو بن الحَمِق ؟ فيكابرني ، فقلت له : ما رأيته من اليوم الذي ضربت فيه رأس عمرو بن الحَمِق بالعمود في المسجد إلى يومي هذا ، ولقد عرفتك الآن حين رأيته ؛ فقال لي : لا تُعَدِّم بصرَكَ ، ما أثبتَ نظرك ! كان ذلك أمرُ الشيطان ، أما إنه قد بلغني أنه كان امرأ صالحاً ، ولقد ندمت على تلك الضربة ، فاستغفر الله . فقلت له : ألا ترى والله لا أفرق أنا وأنت حتى أضربك على رأسك مثل الضربة التي ضربتها عمرو بن الحَمِق أو أموت أو تموت ! فناشدني الله وسألني الله ، فأبيئت عليه ، ودعوت غلاماً لي يدعى رشيداً من سبئي أصبهان معه قنَّاة له صُلبَة ، فأخذتها منه ، ثم أحمل عليه بها ، فنزل عن دابته ، وألحقه حين استوت قَدَمَاه بالأرض ، فأصفع بها هامته ، فخرَّ لوجهه ، ومضيت وتركته . فبرأ بعد ؛ فلقينته مرَّتين من الدهر ، كلَّ ذلك يقول : الله بيني وبينك ! وأقول : الله عزَّ وجلَّ بينك وبين عمرو بن الحَمِق !

ثم رجع إلى أوَّل الحديث . قال : فلما ضرب عمرًا تلك الضربة وحمله ذاك الرجلان ، انحاز أصحاب حُجْر إلى أبواب كِنْدَة ، ويضرب رجلٌ من جُذَام كان في الشُرطة رجلاً يقال له عبدُ الله بن خليفة الطائي بعمود ، فضربه ضربةً فصرعه ، فقال وهو يرتجز :

قَدْ عَلِمْتُ يَوْمَ الْهِيَاكِ خُلْتُ أَنِّي إِذَا مَا فِيِّي تَوَلَّيْتُ
وَكَثُرَتْ عُذَاتُهَا أَوْ قَلَّتْ أَنِّي قَتَلْتُ غَدَاةً بَلَّتْ

وضربت يد عائذ بن حملة التميمي وكسرت نباه ، فقال :

إِنْ تَكْسِرُوا نَابِي وَعَظَمَ سَاعِدِي فَإِنَّ فِيِّي سُورَةَ الْمَنَاجِدِ
وَبَعْضَ شُعْبِ الْبَطَلِ الْمُبَالِدِ

ويتنزع عموداً من بعض الشُرطة ، فقاتل به وحمى حُجْرًا وأصحابه ؛ حتى خرجوا من تلقاء أبواب

كِنْدَةَ ، وبغلة حُجْر موقوفة ، فأق بها أبو العَمْرَطة إليه ، ثم قال : اركب لا أَبَ لغيرك ! فوالله ما أراك إلا قد قتلت نفسك ، وقتلتنا معك ؛ فوضع حُجْر رجله في الرُّكَّاب ؛ فلم يستطع أن ينهض ، فحملة أبو العَمْرَطة على بلغته ، ووثب أبو العَمْرَطة على فرسه ؛ فما هو إلا أن استوى عليه حتى انتهى إليه يزيد بن طريف المُسَلِّي - وكان يَغِيْزُ - فضرب أبا العَمْرَطة بالعمود على فخذه ، ويخترط أبو العَمْرَطة سيفه ، فضرب به رأس يزيد بن طريف ، فخرّ لوجهه . ثم إنه برأ بعدُ ، فله يقول عبدالله بن هَمَّام السَّلُولِي :

أَلُوْمَ ابْنِ لُوْمٍ مَا عَدَا بِكَ حَاسِرًا إِلَى بَطَلٍ ذِي جُرْأَةٍ وَشَكِيمٍ
مَعَاوِدَ ضَرْبِ الدَّارِعِينَ بِسَيْفِهِ عَلَى الْهَامِ عِنْدَ الرُّوْعِ غَيْرَ لَيْمٍ
إِلَى فَارِسِ الْغَارَيْنِ يَوْمَ تَلَاقِيَا بِصِفِّينَ قَرْمٍ خَيْرَ نَجَلٍ قُرُومٍ
حَسِبْتُ ابْنَ بَرْصَاءَ الْخِتَارِ قِتَالَهُ قِتَالَكَ زَيْدًا يَوْمَ دَارِ حَكِيمٍ

وكان ذلك السيف أول سيف ضرب به في الكوفة في الاختلاف بين الناس . ومضى حُجْر وأبو العَمْرَطة حتى انتهيا إلى دار حُجْر ، واجتمع إلى حُجْر ناس كثير من أصحابه ، وخرج قيس بن فهدان الكِنْدِيُّ على حمار له يسير في مجالس كِنْدَةَ ، يقول :

يَا قَوْمَ حُجْرٍ دَافِعُوا وَصَاوِلُوا وَعَنْ أَخِيكُمْ سَاعَةً فَقَاتِلُوا
لَا يُلْفِيَا مِنْكُمْ لِحْجَرٍ خَاذِلُ أَلَيْسَ فَيْكُمْ رَامِحٌ وَنَابِلُ
وَفَارِسٌ مُسْتَلْتِمٌ وَرَاجِلُ وَضَارِبٌ بِالسَّيْفِ لَا يُزَايِلُ

فلم يأت من كِنْدَةَ كثير أحد . وقال زياد وهو على المنبر : ليقم هَمْدَانُ وقيم وهَوَازُنُ وأبناء أعصُرَ ومذِجِ وأسدَ وعُظْفَانُ فليأتوا جَبَانَةَ كِنْدَةَ ، فليَمْضُوا مِنْ ثُمَّ إِلَى حُجْرٍ فليأتوني به . ثم إنه كره أن يسير طائفة من مضر مع طائفة من أهل اليَمَنِ فيقع بينهم شغب واختلاف ، وتفسد ما بينهم الحمية ، فقال : لتقم تميم وهَوَازُنُ وأبناء أعصُرَ وأسدَ وعُظْفَانُ ، ولتمضِ مَذِجِ وهَمْدَانُ إلى جَبَانَةَ كِنْدَةَ ، ثم لينهضوا إلى حُجْرٍ فليأتوني به ، وليسير سائر أهل اليَمَنِ حتى ينزلوا جَبَانَةَ الصَّائِدِيِّينَ فليَمْضُوا إِلَى صَاحِبِهِمْ ، فليأتوني به . فخرَجَتِ الْأَزْدُ وَبَجِيلَةُ وَخَثْعَمُ وَالْأَنْصَارُ وَخُرَاعَةُ وَقَضَاعَةُ ، فنزلوا جَبَانَةَ الصَّائِدِيِّينَ ، ولم تخرج حضرموت مع أهل اليَمَنِ لمكانهم من كِنْدَةَ ، وذلك أنَّ دعوة حضرموت مع كِنْدَةَ ، فكَرِهُوا الْخُرُوجَ فِي طَلَبِ حَجَرٍ .

قال أبو مخنف : حدثني يحيى بن سعيد بن مخنف ، عن محمد بن مخنف ، قال : إني لمع أهل اليَمَنِ في جَبَانَةَ الصَّائِدِيِّينَ إِذْ اجْتَمَعَ رُوُوسُ أَهْلِ اليَمَنِ يَتَشَاوِرُونَ فِي أَمْرِ حُجْرٍ ، فقال لهم عبدالرحمن بن مخنف : أنا مشير عليكم برأيي إن قبلتموه رجوت أن تسلموا من اللائمة والإثم ، أرى لكم أن تلبثوا قليلاً فإنَّ سُرْعَانَ شَبَابِ هَمْدَانَ وَمَذِجِ يَكْفُونَكُمْ مَا تَكْرَهُونَ أَنْ تَلُومُوا مِنْ مَسَاءَةِ قَوْمِكُمْ فِي صَاحِبِكُمْ قَالَ : فَأَجْمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا كَانَ إِلَّا كَلَا وَلَا حَتَّى أَتَيْنَا ، فَقِيلَ لَنَا : إِنَّ مَذِجِ وَهَمْدَانَ قَدْ دَخَلُوا فَأَخَذُوا كُلُّ مَنْ وَجَدُوا مِنْ بَنِي جَبَلَةَ . قَالَ : فَمَرَّ أَهْلُ اليَمَنِ فِي نَوَاحِي دُورِ كِنْدَةَ مَعْدَّةً ، فَبَلَغَ ذَلِكَ زِيَادًا ، فَأَتَى عَلَى مَذِجِ وَهَمْدَانَ وَذَمَّ سَائِرَ أَهْلِ اليَمَنِ . وَإِنَّ حُجْرًا لَمَّا أَتَى إِلَى دَارِهِ فَظَنَرَ إِلَى قَلَّةٍ مِنْ مَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ ، وَبَلَغَهُ أَنَّ مَذِجِ وَهَمْدَانَ نَزَلُوا جَبَانَةَ كِنْدَةَ وَسَائِرَ أَهْلِ اليَمَنِ جَبَانَةَ الصَّائِدِيِّينَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ : انصرفوا فوالله مالكم طاقة بمن قد اجتمع عليكم من قومكم ، وما أحب أن أعرضكم للهلاك ؛ فذهبوا لينصرفوا ، فلحقتهُم أَوَائِلُ خَيْلِ مَذِجِ وَهَمْدَانَ .

فعطف عليهم عمير بن يزيد وقيس بن يزيد وعبيدة بن عمرو البدي وعبدالرحمن بن مُحَرِّز الطَّمَحِيّ وقيس بن شِمْر ، فتقاتلوا معهم ، فقاتلوا عنه ساعة فجرحوا ، وأسير قيس بن يزيد ، وأفلت سائر القوم ، فقال لهم حُجْر : لا أبا لكم ! تفرّقوا لا تقاتلوا فلاني آخذُ في بعض السَّكك . ثم أخذ طريقاً نحو بني حرب ، فسار حتى انتهى إلى دار رجل منهم يقال له سليم بن يزيد ، فدخل داره ، وجاء القوم في طلبه حتى انتهوا إلى تلك الدار ، فأخذ سليم بن يزيد سيفه ، ثم ذهب ليخرج إليهم ، فبكت بناته ، فقال له حُجْر : ما تريد؟ قال : أريد والله أسألهم أن ينصرفوا عنك ، فإن فعلوا وإلا ضاربهم بسيفي هذا ما ثبت قائمه في يدي دونك ؛ فقال حُجْر : لا أبا لغيرك ! بش ما دخلت به إذاً على بناتك ! قال : إني والله ما أمونهن ، ولا رزقهن إلا على الحي الذي لا يموت ؛ ولا أشتري العار بشيء أبداً ، ولا تخرج من داري أسيراً أبداً وأنا حيّ أملك قائم سيفي ، فإن قتلت دونك فاصنع ما بدا لك . قال حُجْر : أما في دارك هذه حائط أقتحمه ، أو خوخة أخرج منها ، عسى أن يسلمني الله عز وجل منهم ويسلمك ، فإذا القوم لم يقدروا عليّ عندك لم يضروك ! قال : بلى هذه خوخة تخرجك إلى دور بني العنبر وإلى غيرهم من قومك ، فخرج حتى مربّني ذهل ، فقالوا له : مر القوم آنفاً في طلبك يقفون أثرك . فقال : منهم أهرّب ؛ قال : فخرج ومعه فتية منهم يتقصّون به الطريق ، ويسلكون به الأزقة حتى أفضى إلى النَّخع ، فقال لهم عند ذلك : إنصرفوا رحمكم الله ! فانصرفوا عنه ، وأقبل إلى دار عبدالله بن الحارث أخي الأشر فدخلها ، فإنه وكذلك قد ألقى له الفرش عبدالله ، وبسط له البسط ، وتلقاه ببسط الوجه ، وحسن البشر ، إذ أتى فقبل له : إن الشرط تسأل عنك في النَّخع - وذلك أنّ أمة سوداء يقال لها : أدماء ، لقيتهم ، فقالت : مَنْ تطلبون؟ قالوا : نطلب حُجْراً ؛ قالت : ها هو ذا قد رأيته في النَّخع ، فانصرفوا نحو النَّخع - فخرج من عند عبدالله متنكراً ، وربّك معه عبدالله بن الحارث ليلاً حتى أتى دار ربيعة بن ناجد الأزدي في الأزد ، فنزلها يوماً وليلة ، فلما أعجزهم أن يقدروا عليه دعا زياد بمحمد بن الأشعث فقال له : يا أبا ميثاء ، أما والله لتأتيني بحُجْر أو لا أدع لك نخلة إلا قطعتها ، ولا داراً إلا هدمتها ثم لا تسلم مني حتى أقطعك إرباً إرباً ؛ قال : أمهلني حتى أطلبه ؛ قال : قد أمهلتك ثلاثاً ، فإن جئت به وإلا عدّ نفسك مع الهلكى . وأخرج محمد نحو السجن منتقع اللون يتلأ عنيفاً ، فقال حُجْر بن يزيد الكندي لزياد : ضمّني وخلّ سبيله يطلب صاحبه ؛ فإنه غلّ سريته - أخرى أن يقدر عليه منه إذا كان محبوساً . فقال أتضمنه؟ قال : نعم ؛ قال : أما والله لشنّ حاصّ عنك لأزيرتك شعوب ، وإن كنت الآن عليّ كريماً . قال : إنه لا يفعل ، فخلّ سبيله .

ثم إن حُجْر بن يزيد كلمه في قيس بن يزيد ، وقد أتى به أسيراً ، فقال لهم : ما على قيس بأس ، قد عرفنا رأيته في عثمان ، وبلاءه يوم صفيين مع أمير المؤمنين ، ثم أرسل إليه فأتى به ، فقال له : إني قد علمت أنك لم تقاتل مع حُجْر ؛ أنك ترى رأيته ، ولكن قاتلت معه حمية قد غفرتها لك لما أعلم من حسن رأيك ، وحسن بلائك ؛ ولكن لن أدعك حتى تأتيني بأخيك عمير ؛ قال أجيئك به إن شاء الله ؛ قال : فهات من يضمّنه لي معك ، قال : هذا حُجْر بن يزيد يضمّنه لك معي ؛ قال حُجْر بن يزيد : نعم أضمنه لك ، على أن تؤمّنه على ماله ودمه ، قال : ذلك لك ، فانطلقا فأتيا به وهو جريح ، فأمر به فأوقر حديداً ، ثم أخذته الرجال ترفعه ، حتى إذا بلغ سرّرها ألّقوه ، فوقع على الأرض ، ثم رفعوه وألقوه ، ففعلوا به ذلك مراراً ، فقام إليه حُجْر بن يزيد فقال : ألم تؤمّنه على ماله ودمه أصلحك الله ! قال : بلى ، قد آمنت على ماله ودمه ، ولست أهرق له دماً ، ولا أخذ له مالاً . قال : أصلحك الله ! يُشقى به على الموت ؛ ودنا منه وقام من كان عنده من أهل اليمن ، فدناوا

منه وكلّموه ، فقال : أتضمنونه لي بنفسه ، فمتى ما أحدث حدثاً أتيتموني به؟ قالوا : نعم ؛ قال : وتضمنون لي أرض ضربة المسليّ ، قالوا : ونضمنها ؛ فخلّى سبيله .

ومكث حُجر بن عديّ في منزل ربيعة بن ناجد الأزديّ يوماً وليلة ، ثم بعث حُجر إلى محمد بن الأشعث غلاماً له يدعى رشيداً من أهل إصبهان : إنه قد بلغني ما استقبلك به هذا الجبار العنيد ، فلا يهولنك شيء من أمره ، فإني خارج إليك ، أجمع نفرأ من قومك ثم أدخل عليه فأسأله أن يؤمّنني حتى يبعث بي إلى معاوية فيرى في رأيّه .

فخرج ابن الأشعث إلى حُجر بن يزيد وإلى جرير بن عبدالله وإلى عبدالله بن الحارث أخي الأشتر ، فاتاهم فدخلوا إلى زياد فكلموه وطلبوا إليه أن يؤمّنه حتى يبعث به إلى معاوية فيرى فيه رأيّه ، ففعل ، فبعثوا إليه رسوله ذلك يعلمونه أن قد أخذنا الذي تسأل ، وأمروه أن يأتي ؛ فأقبل حتى دخل على زياد فقال زياد : مرحباً بك أبا عبدالرحمن ! حرب في أيام الحرب ، وحربٌ وقد سالم الناس ! على أهلها تحيّي براقيش . قال : ما خالعت طاعة ، ولا فارقت جماعة ، وإني لعلّى بيعتي ؛ فقال : هيهات هيهات يا حُجر ! تشجّ بيد وتأسو بأخرى ، وتريد إذ أمكن الله منك أن نرضى ! كلّاً واللّه . قال : ألم تؤمّنني حتى آتي معاوية فيرى في رأيّه ! قال : بلى قد فعلنا ، انطلقوا به إلى السجن ، فلما قُفيّ به من عنده قال زياد : أما والله لولا أمانه ما برح أو يلفظ مهجة نفسه .

قال هشام بن عروة : حدّثني عوانة ، قال : قال زياد : والله لأحرّصنّ على قطع خيط رقبتك .

قال هشام بن محمد ؛ عن أبي مخنف ، وحدثني المجالد بن سعيد ، عن الشعبي وزكرياء بن أبي زائدة ، عن أبي إسحاق ؛ أنّ حُجراً لما قُفيّ به من عند زياد نادى بأعلى صوته : اللهم إني على بيعتي ، لا أقبلها ولا أستقبلها ، سماعٌ لله والناس . وكان عليه بُرّس في غداة باردة ، فحبس عشرين ليال ، وزياد ليس له عمل إلاّ طلب رؤساء أصحاب حُجر ، فخرج عمرو بن الحِمق ورفاعة بن شدّاد حتى نزلا المدائن ، ثم ارتحلا حتى أتيا أرض الموصل ، فاتيا جبلاً فكمنّا فيه ، وبلغ عامل ذلك الرستاق أنّ رجلين قد كمنّا في جانب الجبل ، فاستنكر شأنهما - وهو رجل من همدان يقال له عبدالله بن أبي بلتعة - فسار إليهما في الخيل نحو الجبل ومعه أهل البلد ، فلما انتهى إليهما خرجا ، فأما عمرو بن الحِمق فكان مريضاً ، وكان بطئه قد سقى ، فلم يكن عنده امتناع ؛ وأما رفاعة بن شدّاد - وكان شاباً قوياً - فوثب على فرس له جواد ، فقال له : أقاتل عنك؟ قال : وما ينفعني أن تقاتل ! انجُ بنفسك إن استطعت ، فحمل عليهم ، فأفرجوا له ، فخرج تنفّر به فرسه ، وخرجت الخيل في طلبه - وكان رامياً - فأخذ لا يلحقه فارس إلاّ رماه فجرحه أو عقّره ، فانصرفوا عنه ، وأخذ عمرو بن الحِمق ، فسأله : من أنت؟ فقال : من إن تركتموه كان أسلم لكم ، وإن قتلتموه كان أضرّ لكم ؛ فسأله : فأبى أن يخبرهم ، فبعث به ابن أبي بلتعة إلى عامل الموصل - وهو عبدالرحمن بن عبدالله بن عثمان الثقفي - فلما رأى عمرو بن الحِمق عرفه ، وكتب إلى معاوية بخبره ، فكتب إليه معاوية : إنه زعم أنه طعن عثمان بن عفان تسع طعنات بمشاقص كانت معه ، وإنا لا نريد أن نعتدي عليه ، فاطعنه تسع طعنات كما طعن عثمان ، فأخرج فطعن تسع طعنات ، فمات في الأولى منهنّ أو الثانية .

قال أبو مخنف : وحدثني المجالد ، عن الشعبي وزكرياء بن أبي زائدة ، عن أبي إسحاق . قال : وجّه زياد في طلب أصحاب حُجر ، فأخذوا يهربون منه ، ويأخذ من قَدَر عليه منهم ، فبعث إلى قبيصة بن ضبيعة بن

حَرَمْلَةُ الْعَبْسِيِّ صَاحِبِ الشُّرْطَةِ - وَهُوَ شَدَّادُ بْنُ الْهَيْثَمِ - فِدْعَا قَبِيصَةَ فِي قَوْمِهِ ، وَأَخَذَ سَيْفَهُ ، فَأَتَاهُ رِبْعِيُّ بْنُ خِرَاشٍ بْنُ جَحْشِ الْعَبْسِيِّ وَرَجَالُ مِنْ قَوْمِهِ لَيْسُوا بِالكَثِيرِ ، فَأَرَادَ أَنْ يِقَاتِلَ ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُ الشُّرْطَةِ : أَنْتَ آمِنٌ عَلَى دَمِكَ وَمَالِكَ ، فَلِمَ تَقْتُلُ نَفْسَكَ ؟ فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ : قَدْ أُوْمِنْتَ ، فَعَلَامَ تَقْتُلُ نَفْسَكَ وَتَقْتُلُنَا مَعَكَ ! قَالَ : وَيَحْكُمُ ! إِنَّ هَذَا الدَّعْيِ ابْنُ الْعَاهِرَةِ ، وَاللَّهِ لَثَنُ وَقَعْتُ فِي يَدِهِ لَا أَفْلَتُ مِنْهُ أَبَدًا أَوْ يَقْتُلَنِي ؛ قَالُوا : كَلَّا ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي أَيْدِيهِمْ ، فَأَقْبَلُوا بِهِ إِلَى زِيَادٍ ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ زِيَادٌ : وَحْيَ عَبْسٍ تُعْزَوْنِي عَلَى الدِّينِ ، أَمَا وَاللَّهِ لِأَجْعَلَ لَكَ شَاغِلًا عَنْ تَلْقِيحِ الْفِتَنِ ، وَالتَّوْتُبِ عَلَى الْأُمَرَاءِ ؛ قَالَ : إِنِّي لَمْ أَتْكَ إِلَّا عَلَى الْأَمَانِ ؛ قَالَ : انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى السَّجَنِ ، وَجَاءَ قَيْسُ بْنُ عَبَادِ الشَّيْبَانِيِّ إِلَى زِيَادٍ فَقَالَ لَهُ : إِنَّ أَمْرًا مَنَا مِنْ بَنِي هِمَامٍ يُقَالُ لَهُ : صَيْفِيُّ بْنُ فَسِيلٍ مِنْ رُؤُوسِ أَصْحَابِ حُجْرٍ ، وَهُوَ أَشَدُّ النَّاسِ عَلَيْكَ ، فَبَعَثْ إِلَيْهِ زِيَادٌ ، فَأَتَى بِهِ ، فَقَالَ لَهُ زِيَادٌ : يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، مَا تَقُولُ فِي أَبِي تَرَابٍ ؟ قَالَ : مَا أَعْرِفُ أَبَا تَرَابٍ ؛ قَالَ : مَا أَعْرِفُكَ بِهِ ؛ قَالَ : مَا أَعْرِفُهُ ، قَالَ : أَمَا تَعْرِفُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : فَذَاكَ أَبُو تَرَابٍ ، قَالَ : كَلَّا ، ذَاكَ أَبُو الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُ الشُّرْطَةِ : يَقُولُ لَكَ الْأَمِيرُ : هُوَ أَبُو تَرَابٍ ، وَتَقُولُ أَنْتَ : لَا ؛ قَالَ : وَإِنْ كَذَبَ الْأَمِيرُ أَتُرِيدُ أَنْ أَكْذِبَ وَأَشْهَدَ لَهُ عَلَى بَاطِلٍ كَمَا شَهِدَ ! قَالَ لَهُ زِيَادٌ : وَهَذَا أَيْضًا مَعَ ذَنْبِكَ ! عَلِيٌّ بِالْعَصَا ، فَأَتَى بِهَا ، فَقَالَ : مَا قَوْلُكَ [فِي عَلِيٍّ ؟] ، قَالَ : أَحْسَنُ قَوْلٍ أَنَا قَائِلُهُ فِي عَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ [أَقُولُهُ فِي] الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : إِضْرِبُوا عَاتِقَهُ بِالْعَصَا حَتَّى يَلْصُقَ بِالْأَرْضِ ، فَضْرِبَ حَتَّى لَزِمَ الْأَرْضَ . ثُمَّ قَالَ : أَقْلِعُوا عَنْهُ ، إِلَيْهِ ، مَا قَوْلُكَ فِي عَلِيٍّ ؟ قَالَ : وَاللَّهِ لَوْ شَرَحْتَنِي بِالْمَوَاسِي وَالْمُدَى مَا قُلْتُ إِلَّا مَا سَمِعْتُ مِنِّْي ؛ قَالَ لِتَلْعَنَهُ أَوْ لِضَرْبِ عُنُقِكَ ؛ قَالَ : إِذَا تَضَرَّبَهَا وَاللَّهِ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَإِنْ أَبَيْتُ إِلَّا أَنْ تَضَرَّبَهَا رَضِيْتُ بِاللَّهِ ، وَشَقِيتُ أَنْتَ ؛ قَالَ : ادْفَعُوا فِي رَقَبَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ : أَوْقِرُوهُ حَدِيدًا ، وَأَلْقُوهُ فِي السَّجَنِ .

ثُمَّ بَعَثَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَلِيفَةَ الطَّائِيِّ - وَكَانَ شَهِدَ مَعَ حُجْرٍ وَقَاتَلَهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا - فَبَعَثَ إِلَيْهِ زِيَادٌ بُكَيْرَ بْنَ حُمُرَانَ الْأَحْمَرِيَّ - وَكَانَ تَبِيعَ الْعَمَّالِ - فَبَعَثَهُ فِي أَنْاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَأَقْبَلُوا فِي طَلَبِهِ فَوَجَدُوهُ فِي مَسْجِدٍ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ، فَأَخْرَجُوهُ ، فَلَمَّا أَرَادُوا أَنْ يَذْهَبُوا بِهِ - وَكَانَ عَزِيزُ النَّفْسِ - امْتَنَعَ مِنْهُمْ فَحَارَبَهُمْ وَقَاتَلَهُمْ ، فَشَجَّوهُ وَزَمَوْهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى سَقَطَ ، فَنَادَتْ مِثْلًا أُخْتُهُ : يَا مَعْشَرَ طَيْئِ ، اتَّسَلُّمُونَ ابْنَ خَلِيفَةَ لِسَانِكُمْ وَسِنَانِكُمْ !

فَلَمَّا سَمِعَ الْأَحْمَرِيُّ نِدَاءَهَا خَشِيَ أَنْ تَجْتَمَعَ طَيْئُهُ فِيهِلِكَ ، فَهَرَبَ وَخَرَجَ نِسْوَةً مِنْ طَيْئِهِ فَأَدْخَلَتْهُ دَارًا ، وَانْطَلَقَ الْأَحْمَرِيُّ حَتَّى أَتَى زِيَادًا ، فَقَالَ : إِنَّ طَيْئًا اجْتَمَعَتْ إِلَيَّ فَلَمْ أَطْقِهِمْ ، فَأَتَيْتُكَ ، فَبَعَثَ زِيَادٌ إِلَى عَدِيِّ - وَكَانَ فِي الْمَسْجِدِ - فَحَبَسَهُ وَقَالَ : جِئْتَنِي بِهِ - وَقَدْ أَخْبَرَ عَدِيَّ بِخَبَرِ عَبْدِ اللَّهِ - فَقَالَ عَدِيٌّ : كَيْفَ أَتَيْتَكَ بِرَجُلٍ قَدْ قَتَلَهُ الْقَوْمُ ؟ قَالَ : جِئْتَنِي حَتَّى أَرَى أَنْ قَدْ قَتَلُوهُ ، فَاغْتَلَّ لَهُ وَقَالَ : لَا أَدْرِي أَيْنَ هُوَ ، وَلَا مَا فَعَلَ ! فَحَبَسَهُ ، فَلَمْ يَبْقَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمِصْرَ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ وَرَبِيعَةَ وَمَضَرَ إِلَّا فَرَعَ لِعَدِيِّ ، فَأَتُوا زِيَادًا فَكَلَّمُوهُ فِيهِ ، وَأَخْرَجَ عَبْدُ اللَّهِ فَتَغَيَّبَ فِي بُحْتَرٍ ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَدِيِّ : إِنْ شِئْتَ أَنْ أَخْرِجَ حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِكَ فَعَلْتُ ؛ فَبَعَثَ إِلَيْهِ عَدِيٌّ : وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ تَحْتَ قَدَمِيَّ مَا رَفَعْتُهُمَا عَنْكَ . فِدْعَا زِيَادٌ عَدِيًّا ، فَقَالَ لَهُ : إِنِّي أَخْلَيْ سَبِيلَكَ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ لِي لِتْنَفِيَّهُ مِنَ الْكُوفَةِ ، وَلِتَسِيرَ بِهِ إِلَى الْجَبَلَيْنِ ؛ قَالَ : نَعَمْ ، فَارْجِعْ وَأَرْسِلْ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَلِيفَةَ : أَخْرِجْ ، فَلَوْ قَدْ سَكَنَ غَضَبُهُ لَكَلَّمْتَهُ فِيكَ حَتَّى تَرْجِعَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ؛ فَخَرَجَ إِلَى الْجَبَلَيْنِ .

وأَيُّ زِيَادٍ بِكَرِيمِ بْنِ عَفِيفٍ الْخَثْعَمِيِّ فَقَالَ: مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: أَنَا كَرِيمُ بْنُ عَفِيفٍ؛ قَالَ: وَيَحْكُ، أَوْ وَيَلِكُ! مَا أَحْسَنَ اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ، وَأَسْوَأَ عَمَلِكَ وَرَأْيِكَ! قَالَ: أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّ عَهْدَكَ بِرَأْيٍ لِمَنْ ذَا قَرِيبٍ، ثُمَّ بَعَثَ زِيَادٌ إِلَى أَصْحَابِ حُجْرٍ حَتَّى جَمَعَ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا فِي السِّجْنِ. ثُمَّ إِنَّهُ دَعَا رُؤُوسَ الْأَرْبَاعِ، فَقَالَ: إِشْهَدُوا عَلَى حُجْرٍ بِمَا رَأَيْتُمْ مِنْهُ - وَكَانَ رُؤُوسَ الْأَرْبَاعِ يَوْمَئِذٍ: عَمْرُو بْنُ حُرَيْثٍ عَلَى رُبْعِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَخَالِدُ بْنُ عَرْفُطَةَ عَلَى رُبْعِ تَمِيمٍ وَهَمْدَانَ، وَقَيْسُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ مِنَ الْمَغِيرَةِ عَلَى رُبْعِ رِبِيعَةٍ وَكِنْدَةَ، وَأَبُو بُرْدَةَ بْنُ أَبِي مُوسَى عَلَى مَذْحِجٍ وَأَسَدٍ - فَشَهِدَ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةَ أَنَّ حُجْرًا جَمَعَ إِلَيْهِ الْجُمُوعَ، وَأَظْهَرَ شَتَمَ الْخَلِيفَةِ، وَدَعَا إِلَى حَرْبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؛ وَزَعَمَ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَصْلَحُ إِلَّا فِي آلِ أَبِي طَالِبٍ، وَوَثَبَ بِالْمَصْرِ وَأَخْرَجَ عَامِلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَظْهَرَ عَذْرَ أَبِي تَرَابٍ وَالتَّرَحُّمَ عَلَيْهِ، وَالْبِرَاءَةَ مِنْ عَدُوِّهِ وَأَهْلِ حَرْبِهِ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الَّذِينَ مَعَهُ هُمُ رُؤُوسُ أَصْحَابِهِ، وَعَلَى مِثْلِ رَأْيِهِ وَأَمْرِهِ. ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ لِيُخْرِجُوا، فَأَتَاهُ قَيْسُ بْنُ الْوَلِيدِ فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ هَؤُلَاءِ إِذَا خُرِجَ بِهِمْ عَرَضَ لَهُمْ. فَبَعَثَ زِيَادٌ إِلَى الْكُنَاسَةِ فَابْتِاعَ إِبْلًا صِعَابًا، فَشَدَّ عَلَيْهَا الْمَحَامِلَ، ثُمَّ حَمَلَهُمْ عَلَيْهَا فِي الرَّحْبَةِ أَوَّلَ النَّهَارِ، حَتَّى إِذَا كَانَ الْعِشَاءُ قَالَ زِيَادٌ: مَنْ شَاءَ فَلْيُعْرِضْ، فَلَمْ يَتَحَرَّكْ مِنْ النَّاسِ أَحَدٌ، وَنَظَرَ زِيَادٌ فِي شَهَادَةِ الشُّهُودِ فَقَالَ: مَا أَظُنُّ هَذِهِ الشَّهَادَةَ قَاطِعَةً، وَإِنِّي لِأَحِبُّ أَنْ يَكُونَ الشُّهُودُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعَةٍ.

قَالَ أَبُو مُخَنَفٍ: فَحَدَّثَنِي الْحَارِثُ بْنُ حُصَيْرَةَ، عَنْ أَبِي الْكَنُودِ - وَهُوَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُبَيْدٍ - وَأَبُو مُخَنَفٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَنْدَبٍ وَسُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي رَاشِدٍ، عَنْ أَبِي الْكَنُودِ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ الشُّهُودِ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا شَهِدَ عَلَيْهِ أَبُو بُرْدَةَ بْنُ أَبِي مُوسَى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ شَهِدَ أَنَّ حُجْرَ بْنَ عَدِيٍّ خَلَعَ الطَّاعَةَ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، وَلَعَنَ الْخَلِيفَةَ، وَدَعَا إِلَى الْحَرْبِ وَالْفِتْنَةِ، وَجَمَعَ إِلَيْهِ الْجُمُوعَ يَدْعُوهُمْ إِلَى نَكْثِ الْبَيْعَةِ وَخُلَعِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَعَاوِيَةَ، وَكَفَرِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَفْرًا صُلْعًا.

فَقَالَ زِيَادٌ: عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الشَّهَادَةِ فَاشْهَدُوا، أَمَّا وَاللَّهِ لِأَجْهَدَنَّ عَلَى قَطْعِ خَيْطِ عُنُقِ الْخَائِنِ الْأَحَقِّ، فَشَهِدَ رُؤُوسَ الْأَرْبَاعِ الثَّلَاثَةَ الْآخَرُونَ عَلَى مِثْلِ شَهَادَتِهِ - وَكَانُوا أَرْبَعَةً - ثُمَّ إِنَّ زِيَادًا دَعَا النَّاسَ فَقَالَ: إِشْهَدُوا عَلَى مِثْلِ شَهَادَةِ رُؤُوسِ الْأَرْبَاعِ. فَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ، فَقَامَ أَوَّلُ النَّاسِ عِنَاقُ بْنُ شُرْحَبِيلَ بْنِ أَبِي دَهْمٍ التَّمِيمِيُّ تَيْمَ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، فَقَالَ: بَيْنَا اسْمِي، فَقَالَ زِيَادٌ: ابْدُؤُوا بِأَسَامِي قَرِيشٍ، ثُمَّ اكْتُبُوا اسْمَ عِنَاقٍ فِي الشُّهُودِ، وَمَنْ نَعْرِفُهُ وَيَعْرِفُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصِيحَةِ وَالْإِسْتِقَامَةِ. فَشَهِدَ إِسْحَاقُ بْنُ طَلْحَةَ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَمُوسَى بْنُ طَلْحَةَ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ طَلْحَةَ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَالْمَنْذَرُ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَعُمَارَةُ بْنُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ هُنَّادٍ، وَعَمْرُو بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعَامِرُ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ خَلْفٍ، وَمُحَرِّزُ بْنُ جَارِيَةَ بْنِ رِبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، وَعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُسْلِمٍ بْنُ شُعْبَةَ الْحَضْرَمِيِّ، وَعِنَاقُ بْنُ شُرْحَبِيلَ بْنِ أَبِي دَهْمٍ، وَوَائِلُ بْنُ حُجْرٍ الْحَضْرَمِيِّ، وَكَثِيرُ بْنُ شَهَابٍ بْنُ حَصِينِ الْحَارِثِيِّ، وَقُطْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُصَيْنٍ، وَالسَّرِيُّ بْنُ وَقَّاصِ الْحَارِثِيِّ - وَكُتِبَ شَهَادَتُهُ وَهُوَ غَائِبٌ فِي عَمَلِهِ - وَالسَّائِبُ بْنُ الْأَقْرَعِ الثَّقَفِيُّ، وَشَبْتُ بْنُ رَبِيعٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي عَقِيلٍ الثَّقَفِيُّ، وَمَصْقَلَةُ بْنُ هُبَيْرَةَ الشَّيْبَانِيُّ، وَالْقَعْقَاعُ بْنُ شُورٍ الذَّهْلِيُّ، وَشَدَّادُ بْنُ الْمَنْذَرِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ وَعْلَةَ الذَّهْلِيِّ - وَكَانَ يَدْعِي ابْنَ بُزَيْعَةَ، فَقَالَ: مَا لِهَذَا أَبُ يُنْسَبُ إِلَيْهِ! أَلْقُوا هَذَا مِنَ الشُّهُودِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ أَنْخُو الْحَضْرَمِيِّينَ، وَهُوَ ابْنُ الْمَنْذَرِ؛ قَالَ: فَانْسُبُوهُ إِلَى أَبِيهِ، فَانْسَبَ إِلَى أَبِيهِ، فَلَبِغْتُ شَدَّادًا، فَقَالَ: وَيْلِي عَلَى ابْنِ الزَّانِيَةِ! أَوَلَيْسَتْ أُمُّهُ أَعْرَفَتْ مِنْ أَبِيهِ! وَاللَّهِ مَا يَنْسَبُ إِلَّا إِلَى

أُمّه سَمِيّة . وَحَجَّار بن أبجر العجليّ فغضبت ربيعة على هؤلاء الشهود الذين شهدوا من ربيعة وقالوا لهم : شهدتم على أوليائنا وحلفائنا ! فقالوا : ما نحن إلّا من الناس ، وقد شهد عليهم ناس من قومهم كثير - وعمر بن الحجاج الزبيديّ وليد بن عطار التميمي ، ومحمد بن عُمير بن عطار التميمي ، وسويد بن عبد الرحمن التميمي من بني سعد ، وأسما بن خارجة الفزاريّ - كان يعتذر من أمره - وشير بن ذي الجوشن العامريّ ، وشداد ومروان ابنا الهيثم الهلاليّان ، وعفّر بن ثعلبة من عائدة قريش ، والهيثم بن الأسود النخعي - وكان يعتذر إليهم - وعبد الرحمن بن قيس الأسدي ، والحارث وشداد ابنا الأزعم الهمدانيّان ، ثم الوداعيّان ، وكريب بن سلمة بن يزيد الجعفي ، وعبد الرحمن بن أبي سبرة الجعفيّ ، وزحر بن قيس الجعفيّ ، وقدامة بن العجلان الأزديّ وعزرة بن عزرة الأحسيّ - ودعا المختار بن أبي عبيد وعروة بن المغيرة بن شعبة ليشهدوا عليه ، فراغوا - وعمر بن قيس ذي اللحية وهاء بن أبي حية الوداعيّان .

فشهد عليه سبعون رجلاً ، فقال زياد : ألقوهم إلّا من قد عُرف بحسب وصّلاح في دينه ، فألقوا حتى صُيروا إلى هذه العدة ، وألقيت شهادة عبدالله بن الحجاج الثعلبيّ ، وكتبَت شهادة هؤلاء الشهود في صحيفة ، ثم دفعها إلى وائل بن حُجر الحضرمي وكثير بن شهاب الحارثي ، وبعثهما عليهم ، وأمرهما أن يخرجاهم . وكتب في الشهود شريح بن الحارث القاضي وشريح بن هانئ الحارثي ؛ فأما شريح فقال : سألني عنه ، فأخبرته أنه كان صوّماً قواماً ، وأما شريح بن هانئ الحارثي فكان يقول : ما شهدت ، ولقد بلغني أن قد كتبَت شهادتي ، فأكذبتهُ ولُتته ، وجاء وائل بن حُجر وكثير بن شهاب فأخرج القوم عشيةً ، وسار معهم صاحب الشرطة حتى أخرجهم من الكوفة .

فلما انتهوا إلى جبانة عَزَمَ نظر قَبِيصة بن ضُبَيْعة العبسي إلى داره وهي في جبانة عَزَمَ ، فإذا بناته مشرفات ، فقال لوائل وكثير : ائذنا لي فأوصي أهلي ، فأذنا له ، فلما دنا منه وهنَّ يبكين ، سكت عنهن ساعة ثم قال : اسكتن ؛ فسكتن ، فقال : اتقين الله عز وجل ، واصبرن ، فإني أرجو من ربّي في وجهي هذا إحدى الحُسَيْنَيْن ؛ إمّا الشهادة ، وهي السعادة ؛ وإمّا الانصراف إليكنّ في عافية ، وإن الذي كان يرزُقكنّ ويكفيني مؤنتكنّ هو الله تعالى - وهو حيّ لا يموت - أرجو ألاّ يضيّعكنّ وأن يحفظني فيكنّ ثم انصرف فمرّ بقومه ، فجعل القوم يدعون الله له بالعافية ، فقال : إنه لَمّا يعدل عندي خطر ما أنا فيه هلاكٌ قومي . يقول : حيث لا ينصروني ، وكان رجا أن يتخلّصوه .

قال أبو مخنف : فحدّثني النضر بن صالح العبسي ، عن عبيد الله بن الحرّ الجعفيّ ، قال : والله إني لواقف عند باب السريّ بن أبي وقاص حين مرّوا بحجر وأصحابه ، قال : فقلت : ألا عشرة رَهْط أستنقذ بهم هؤلاء الأَخسة ! قال : فجعل يتلَهف ، قال : فلم يجبني أحدٌ من الناس ؛ قال : فمضوا بهم حتى انتهوا بهم إلى الغرّيين ، فلحقهم شريح بن هانئ معه كتاب ، فقال لكثير : بلّغ كتابي هذا إلى أمير المؤمنين ، قال : ما فيه ؟ قال : لا تسألني فيه حاجتي ؛ فأبى كثير وقال : ما أحبّ أن آتي أمير المؤمنين بكتاب لا أدري ما فيه ، وعسى ألا يوافقه ! فأبى به وائل بن حُجر فقبّله منه . ثم مضوا بهم حتى انتهوا بهم إلى مَرْج عَدْرَاء ، وبينها وبين دمشق اثنا عشر ميلاً .

تسمية الذين بعث بهم إلى معاوية

حُجْر بن عديّ بن جَبَلَة الكنديّ ، والأرقم بن عبدالله الكندي من بني الأرقم ، وشريك بن شدّاد الحضرمي ، وصيفيّ بن فسيل ، وقبيصة بن ضبيعة بن حرملة العبسي ، وكريم بن عفيف الخثعمي ، من بني عامر بن شهران ثم من قحافة ، وعاصم بن عوف البجليّ ، وورقاء بن سُمَيّ البجليّ ، وكدام بن حيّان ، وعبدالرحمن بن حَسّان العَنَزِيّان من بني هُمَيّم ، ومحرز بن شهاب التميميّ من بني مَنقر ، وعبدالله بن حَوَيّة السعديّ من بني تميم ؛ فمَضَوْا بهم حتى نزلوا مَرَجَ عذراء ، فحُبَسُوا بها . ثم إنَّ زياداً أتبعهم برجلين آخرين مع عامر بن الأسود العَجَلِيّ ؛ بعتبة بن الأخنس من بني سعد بن بكر بن هوازن ، وسعيد بن ثمران الهمدانيّ ثم الناعطيّ ، فتَمَّوْا أربعة عشر رجلاً ، فبعث معاوية إلى وائل بن حُجْر وكثير بن شهاب فأدخلهما ، وفَضَّ كتابهما ، فقرأه على أهل الشام ، فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله معاوية أمير المؤمنين من زياد بن أبي سُفْيَان . أمّا بعد ، فإنَّ الله قد أحسن عند أمير المؤمنين البلاء ، فكاد له عدوّه ، وكفاه مؤنة من بَغَى عليه . إن طواغيت من هذه التُّرابيّة السبئية ، رأسهم حُجْر بن عدي خالفوا أمير المؤمنين ، وفارقوا جماعة المسلمين ، ونصبوا لنا الحرب ، فأظهرنا الله عليهم ، وأمكنا منهم ، وقد دعوتُ خيارَ أهل المِصر وأشرافهم وذوي السنّ والدين منهم ، فشهدوا عليهم بما رأوا وعملوا ، وقد بعثتُ بهم إلى أمير المؤمنين ، وكتبتُ شهادةً صلحاء أهل المِصر وخيارهم في أسفل كتابي هذا .

فلما قرأ الكتاب وشهادة الشهود عليهم ، قال : ماذا تَرَوْنَ في هؤلاء النفر الذين شهد عليهم قومهم بما تستمعون ؟ فقال له يزيد بن أسد البجليّ : أرى أن تفرّقهم في قرى الشام فيكفيهم طواغيثها .

ودفع وائل بن حُجْر كتابَ شريح بن هانئ إلى معاوية ، فقرأه فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله معاوية أمير المؤمنين من شريح بن هانئ أما بعد ؛ فإنه بلغني أن زياداً كتب إليك بشهادتي على حُجْر بن عديّ ، وأنَّ شهادتي على حُجْر أنه ممن يقيم الصلاة ، ويؤتي الزكاة ، ويديم الحجّ والعمرة ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، حرام الدّم والمال ، فإن شئت فاقته ، وإن شئت فدّعه . فقرأ كتابه على وائل بن حُجْر وكثير ، فقال : ما أرى هذا إلّا قد أخرج نفسه من شهادتكم .

فحبس القوم بمَرَجَ عذراء ، وكتب معاوية إلى زياد : أما بعد ، فقد فهمتُ ما اقتصصت به من أمر حُجْر وأصحابه ، وشهادة من قبلك عليهم ، فنظرتُ في ذلك ، فأحياناً أرى قتلهم أفضل من تركهم ، وأحياناً أرى العفر عنهم أفضل من قتلهم . والسلام .

فكتب إليه زياد مع يزيد بن حُجَيّة بن ربيعة التيمي : أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، وفهمت رأيك في حُجْر وأصحابه ، فعجبت لاشتباه الأمر عليك فيهم ، وقد شهد عليهم بما قد سمعت من هو أعلم بهم ، فإن كانت لك حاجة في هذا المِصر فلا تَرُدَّن حُجراً وأصحابه إليّ .

فأقبل يزيد بن حُجَيّة حتى مرّ بهم بعذراء . فقال : يا هؤلاء ، أما والله ما أرى براءتكم ، ولقد جئتُ

بكتاب فيه الذبح ، فمروني بما أحببت مما ترون أنه لكم نافع أعمل به لكم وأنطق به . فقال حُجر : أبلغ معاوية أنا على بيعتنا ، لا نستقبلها ولا نُقبلها ، وأنه إنما شهد علينا الأعداء والأظناء . فقدم يزيد بالكتاب إلى معاوية فقرأه ، وبلغه يزيد مقالة حُجر ؛ فقال معاوية : زياد أصدق عندنا من حُجر ؛ فقال عبدالرحمن بن أم الحكم الثقفي - ويقال : عثمان بن عمير الثقفي : جُذاذاها جُذاذاها ؛ فقال له معاوية : لا تَعَنَّ أبرأ . فخرج أهل الشام ولا يدرون ما قال معاوية وعبدالرحمن ، فأتوا النعمان بن بشير فقالوا له مقالة ابن أم الحكم ، فقال النعمان : قتل القوم ، وأقبل عامر بن الأسود العجلي وهو بعذر يريد معاوية ليعلمه علم الرجلين اللذين بعث بهما زياد ، فلما ولي ليمضي قام إليه حُجر بن عديّ يَرُسُف في القيود ، فقال : يا عامر ، اسمع مني ، أبلغ معاوية أن دماءنا عليه حرام ، وأخبره أنا قد أومئنا وصالحناه ، فليقت الله ، ولينظر في أمرنا . فقال له نحواً من هذا الكلام ، فأعاد عليه حُجر مراراً ، فكان الآخر عَرَض ، فقال قد فهمت لك - أكثرت ، فقال له حُجر : إني ما سمعت بعب ، وعلى آية تلوم ! إنك والله تُحبى وتُعطى ، وإن حُجراً يُقدَّم ويقتل ، فلا ألومك أن تستنقل كلامي ، اذهب عنك ، فكأنه استحيا ، فقال : لا والله ما ذلك بي ، ولا بلغن ولا جهدن ، وكأنه يزعم أنه قد فعل ، وأن الآخر .

أبى .
فدخل عامر على معاوية فأخبره بأمر الرجلين . قال : وقام يزيد بن أسد البجلي فقال : يا أمير المؤمنين ، هب لي ابني عمي - وقد كان جرير بن عبدالله كتب فيهما : إن امرأتين من قومي من أهل الجماعة والرأي الحسن ، سعى بهما ساع ظنين إلى زياد ، فبعث بهما في نفر الكوفيين الذين وجه بهم زياد إلى أمير المؤمنين وهما ممن لا يُحدث حدثاً في الإسلام ولا بغياً على الخليفة ، فلينفعهما ذلك عند أمير المؤمنين - فلما سألهما يزيد ذكر معاوية كتاب جرير ، فقال : قد كتب إليّ ابن عمك فيهما جرير ، محسناً عليها الثناء ، وهو أهل أن يصدق قوله ، وتقبل نصيحته ، وقد سألتني ابني عمك ، فهما لك . وطلب وائل بن حُجر في الأرقم فتركه له ، وطلب أبو الأعور السلمي في عتبة بن الأخنس فوهبه له ، وطلب حمزة بن مالك الهمداني في سعيد بن ثمران الهمداني فوهبه له ، وكلّمه حبيب بن مسلمة في ابن حوثة ، فخلّى سبيله .

وقام مالك بن هبيرة السكوني ، فقال لمعاوية : يا أمير المؤمنين ، دَع لي ابن عمي حُجراً ، فقال : إن ابن ابن عمك حُجراً رأس القوم ، وأخاف إن خلّيت سبيله أن يُفسد عليّ مضرري ، فيضطربنا غداً إلى أن نُشخصك وأصحابك إليه بالعراق . فقال له : والله ما أنصفتني يا معاوية ، قاتلت معك ابن عمك فتلقاني منهم يوم كيوم صيفين ، حتى ظفرت كفاً ، وعلا كعبك ولم تُخف الدوائر ، ثم سألتك ابن عمي فسطوت وبسطت من القول بما لا أنتفع به ؛ ونحوّت فيما زعمت عاقبة الدوائر ! ثم انصرف فجلس في بيته ، فبعث معاوية هُدبة بن فياض القضاعي من بني سلامان بن سعد والحصين بن عبدالله الكلابي وأبا شريف البدي ، فأتوهم عند المساء ، فقال الخثعمي حين رأى الأعور مقبلاً : يُقتل نصفنا وينجو نصفنا . فقال سعيد بن ثمران : اللهم اجعلني ممن ينجو وأنت عني راض ؛ فقال عبدالرحمن بن حسان العنزي : اللهم اجعلني ممن يُكرّم بهوائهم وأنت عني راض ؛ فطالما عرّضت نفسي للقتل ، فأبى الله إلا ما أراه !

فجاء رسول معاوية إليهم بتخلية ستة وبقتل ثمانية ، فقال لهم رسول معاوية : إننا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علي واللعن له ، فإن فعلتم تركناكم ، وإن أبيتم قتلناكم ، وإن أمير المؤمنين يزعم أن دماءكم قد حلت له بشهادة أهل مضر كم عليكم ، غير أنه قد عفا عن ذلك ، فابروا من هذا الرجل نُخلّ سبيلكم .

قالوا: اللهم إنا لسنا فاعلي ذلك . فأمر بقبورهم فحفرت ، وأدنيث أكفانهم ، وقاموا الليل كله يصلون ، فلما أصبحوا قال أصحاب معاوية : يا هؤلاء ، لقد رأيناكم البارحة قد أطلتكم الصلاة ، وأحسستم الدعاء ، فأخبرونا ما قولكم في عثمان؟ قالوا: هو أول من جاري الحكم ، وعمل بغير الحق ؛ فقال أصحاب معاوية : أمير المؤمنين كان أعلم بكم ؛ ثم قاموا إليهم فقالوا: تبرؤون من هذا الرجل ! قالوا: بل نتولاه ونتبرأ عن تبرأ منه ؛ فأخذ كل رجل منهم رجلاً ليقتله ، ووقع قبيصة بن ضبيعة في يدي أبي شريف البدي ، فقال له قبيصة : إن الشر بين قومي وقومك أمن ، فليقتلني سواك ؛ فقال له : بررتك رجم ! فأخذ الحضرمي فقتله ، وقتل القضاعي قبيصة بن ضبيعة .

قال : ثم إن حُجراً قال لهم : دعوني أتوضأ ، قالوا له : توضأ ، فلما أن توضأ قال لهم : دعوني أصل ركعتين فأتمن الله ما توضأت قط إلا صليت ركعتين ؛ قالوا : لتصل ؛ فصل ، ثم انصرف فقال : والله ما صليت صلاة قط أقصر منها ، ولولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لأحببت أن أستكثر منها . ثم قال : اللهم إنا نستعديك على أمتنا ، فإن أهل الكوفة شهدوا علينا ، وإن أهل الشام يقتلوننا ، أما والله لئن قتلتموني بها إني لأول فارس من المسلمين هلك في واديهما ، وأول رجل من المسلمين نبخته كلابها . فمشى إليه الأعور هذبة بن فياض بالسيف ، فأرعدت خصائله ، فقال : كلاً ، زعمت أنك لا تجزع من الموت ؛ فأنا أدعك فأبرأ من صاحبك ، فقال : ما لي لا أجزع وأنا أرى قبراً محفوراً ، وكفناً منشوراً ، وسيفاً مشهوراً ؛ وإني والله إن جزع من القتل لا أقول ما يسخط الرب . فقتله ؛ وأقبلوا يقتلونهم واحداً واحداً حتى قتلوا ستة . فقال عبد الرحمن بن حسان العنزي وكريم بن عفيف الخثعمي : إبعثوا بنا إلى أمير المؤمنين ، فنحن نقول في هذا الرجل مثل مقالته ؛ فبعثوا إلى معاوية يخبرونه بمقاتلتها ؛ فبعث إليهم أن آتوني بهما .

فلما دخلا عليه قال الخثعمي : الله الله يا معاوية ، فإنك منقول من هذه الدار الزائلة إلى الدار الآخرة الدائمة ، ثم مسؤول عما أردت بقتلنا ، وفيهم سفكت دماءنا ؛ فقال معاوية : ما تقول في علي؟ قال : أقول فيه قولك ، قال : أتبرأ من دين علي الذي كان يدين الله به؟ فسكت ، وكره معاوية أن يجيبه .

وقام شمر بن عبد الله من بني قحافة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هب لي ابن عمي ؛ قال : هولك ؛ غير أني حاسبه شهراً ، فكان يرسل إليه بين كل يومين فيكلمه ، وقال له : إني لأنفس بك على العراق أن يكون فيهم مثلك . ثم إن شمرأ عاوده فيه الكلام ؛ فقال : بُرِّك على هبة ابن عمك ، فدعاه فخل سبيله على ألا يدخل إلى الكوفة ما كان له سلطان ، فقال : تخير أي بلاد العرب أحب إليك أن أسيرك إليها ؛ فاختار الموصل ، فكان يقول : لو قد مات معاوية قدمت مصر ، فمات قبل معاوية بشهر .

ثم أقبل على عبد الرحمن العنزي فقال : إيه يا أخا ربعة ! ما قولك في علي؟ قال ؛ دعني ولا تسألني فإنه خير لك ؛ قال : والله لا أدعك حتى تخبرني عنه ؛ قال : أشهد أنه كان من الدآكرين الله كثيراً ، ومن الأمرين باحق ، والقائمين بالقسط ، والعافين عن الناس ؛ قال : فما قولك في عثمان ؟ قال : هو أول من فتح باب الظلم ، وأرتج أبواب الحق ؛ قال : قتلت نفسك ؛ قال : بل إياك قتلت ؛ ولا ربعة بالوادي - يقول حين كلم شمر الخثعمي في كريم بن عفيف الخثعمي ، ولم يكن له أحد من قومه يكلمه فيه - فبعث به معاوية إلى زياد ،

وكتب إليه : أما بعد ، فإنّ هذا العنزّي شرّ من بعثت ، فعاقبه عقوبته التي هو أهلها ، واقتله شرّ قتلة . فلما قدّم به على زياد بعث به زياد إلى قسّ الناطف ، فدُفن به حيّاً .

قال : ولما جُبل العنزّي والختعمي إلى معاوية قال العنزّي لحجر : يا حُجر ، لا يبعدنك الله ، فنعم أخو الإسلام كنت ! وقال الختعمي : لا تَبْعَد ولا تُفَقِد ، فقد كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . ثم ذهب بهما وأتبعهما بصره ، وقال : كفى بالملوت قطعاً لحبل القرائن ! فذهب بعُتْبة بن الأخنس وسعيد بن نمران بعد حُجر بأيام ، فخلّى سبيلهما .

تسمية من قتل من أصحاب حُجر رحمه الله

حُجر بن عديّ ، وشريك بن شدّاد الحضرميّ ، وصَيْفِيّ بن فسيل الشيبانيّ ، وقَيْبِصَة بن ضبيعة العبسيّ ، ومُحَرِّز بن شهاب السعديّ ثم المنقريّ ، وكدام بن حَيّان العنزّيّ ، وعبدالرحمن بن حسان العنزّيّ ؛ فبعث به إلى زياد فدُفن حيّاً بقسّ الناطف ، فهم سبعة قُتلوا وكُفّنوا وصُلى عليهم .

قال : فزعموا أن الحسن لما بلغه قتل حُجر وأصحابه ، قال : صلّوا عليهم ، وكفّنوهم ، واستقبلوا بهم القبلة ، قالوا : نعم ؛ قال : حُجّوهم وربّ الكعبة

تسمية من نجا منهم

كريم بن عفيف الختعمي ، وعبدالله بن حوّة التميمي ، وعاصم بن عوف البجليّ ، وورقاء بن سُميّ البجليّ ، والأرقم بن عبدالله الكنديّ ، وعُتْبة بن الأخنس ، من بني سعيد بن بكر ، وسعيد بن ثمران الهمدانيّ فهم سبعة .

وقال مالك بن هُبيرة السكوني حين أبى معاوية أن يهب له حُجراً وقد اجتمع إليه قومه من كِنْدَة والسُّكُون وناس من اليَمَن كثير ، فقال : والله لنحن أغنى عن معاوية من معاوية عنا ، وإنّا لنجد في قومه منه بدلاً ، ولا يجد منا في الناس خلفاً ، سيروا إلى هذا الرجل فلنُخلّله من أيديهم ؛ فأقبلوا يسيرون ولم يشكّوا أنهم بَعْدُراء لم يُقتلوا ، فاستقبلتهم قَتَلَتهم قد خرجوا منها ، فلما رأوه في الناس ظنّوا أنما جاء بهم ليخلص حُجراً من أيديهم ، فقال لهم : ما وراءكم ؟ قال : تاب القوم ، وجئنا لنخبر معاوية . فسكت عنهم ، ومضى نحو عذرءاء ، فاستقبله بعض من جاء منها فأخبره أنّ القوم قد قُتلوا ، فقال : عليّ بالقوم ! وتبعتهم الخيل وسبقوهم حتى دخلوا على معاوية فأخبروه خبر ما أتى له مالك بن هُبيرة ومن معه من الناس ، فقال لهم معاوية : اسكنوا ، فإنما هي حرارة يجدها في نفسه ، وكأنها قد طفئت ، ورجع مالك حتى نزل في منزله ، ولم يأت معاوية ، فأرسل إليه معاوية فأبى أن يأتيه ، فلما كان الليل بعث إليه بمائة ألف درهم ، وقال له : إنّ أمير المؤمنين لم يمنعه أن يشفعك في ابن عمك إلّا شفقة عليك وعلى أصحابك أن يُعيدوا لكم حرباً أخرى ، وإن حُجر بن عديّ لو قد بقي خشيت أن يكلّفك وأصحابك الشخوص إليه ، وأن يكون ذلك من البلاء على المسلمين ما هو أعظم من قتل حُجر ؛ فقبلها ، وطابت نفسه ، وأقبل إليه من غده في جموع قومه حتى دخل عليه ورضي عنه .

قال أبو مخنف: وحَدَّثني عبد الملك بن نوفل بن مساحق ، أنَّ عائشة رضي الله عنها بعثت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية في حُجر وأصحابه ، فقدم عليه وقد قَتَلهم ، فقال له عبد الرحمن : أين غاب عنك حلمُ أبي تُفَيان؟ قال: غاب عني حين غاب عني مثلك من حُلَماء قومي ، وحَمَلني ابن سُمَيَّة فاحتملت .

قال أبو مخنف: قال عبد الملك بن نوفل : كانت عائشة تقول : لولا أنا لم تَغَيَّر شيئاً إلَّا آلت بنا الأمور إلى أشدِّ مما كنا فيه لغيرنا قتل حُجر ، أما والله إن كان ما علمتُ لمسلماً حَجَّاجاً معتبِراً .

قال أبو مخنف: وحَدَّثني عبد الملك بن نوفل ، عن سعيد المقبري ، أنَّ معاوية حين حجَّ مرَّ على عائشة - رضوانُ الله عليها - فاستأذن عليها ، فأذِنَتْ له ، فلما قعد قالت له : يا معاوية ، أأَمِنْتَ أن أخبأ لك من يقتلك؟ قال: بَيْتُ الأمن دخلت ، قالت: يا معاوية ، أما خشيتَ الله في قَتْل حُجر وأصحابه؟ قال: لستُ أنا قَتَلتهم ، إنما قَتَلهم مَنْ شهد عليهم .

قال أبو مخنف: حَدَّثني زكرياء بن أبي زائدة ، عن أبي إسحاق ، قال: أدركتُ الناسَ وهم يقولون : إن أوَّل دُل دخل الكوفة موتُ الحسن بن علي وقَتْل حُجر بن عدي ، ودعوة زياد .

قال أبو مخنف: وزعموا أنَّ معاوية قال عند موته : يومٌ لي من ابن الأديب طويل! ثلاث مرَّات - يعني حُجراً .

قال أبو مخنف: عن الصقعب بن زهير، عن الحسن، قال: أربع خصال كنَّ في معاوية؛ لو لم يكن فيه منهنَّ إلَّا واحدة لكانت مُريقة: انتراؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتَرَّها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصَّحابة وذو الفضيلة؛ واستخلافه ابنه بعده سَكيراً خَجيراً ، يلبس الحرير ويضرب بالطناير؛ وادِّعَاؤه زياداً؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر»، وقتله حُجراً، ويلاً له من حُجرٍ! مرَّتين .

وقالت هند ابنة زيد بن مخزومة الأنصارية ، وكانت تشيعُ ترثي حُجراً :

تَرْفَعُ أَيُّهَا الْقَمَرُ الْمَنِيرُ	تَبْصُرُ هَلْ تَرَى حُجْراً يَسِيرُ
يَسِيرُ إِلَى مَعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ	لِنَيْقَتُلَهُ كَمَا زَعَمَ الْأَمِيرُ
تَجَبَّرَتِ الْجَبَابِرُ بَعْدَ حُجْرٍ	وَطَابَ لَهَا الْخَوَزَنْقُ وَالسَّيْدِيرُ
وَأَصْبَحَتِ الْبِلَادُ بِهَا مُحُولاً	كَأَنَّ لَمْ يُحْيِهَا مُزْنٌ مَطِيرُ
أَلَا يَا حُجْرَ حَجْرَ بَنِي عَدِيٍّ	تَلَقَّيْتُكَ السَّلَامَةَ وَالسُّرُورُ
أَخَافُ عَلَيْكَ مَا أَرَدَى عَدِيٌّ	وَشَيْخاً فِي دِمَشْقَ لَهُ زَيْرُ
يَرَى قَتْلَ الْخِيَارِ عَلَيْهِ حَقّاً	لَهُ مِنْ شَرِّ أُمَّتِهِ وَزَيْرُ
أَلَا يَا لَيْتَ حُجْراً مَاتَ مَوْتاً	وَلَمْ يُنَحَرَ كَمَا نُحِرَ الْبَعِيرُ
فَإِنْ تَهْلِكُ فَكُلُّ زَعِيمٍ قَوْمٍ	مِنَ الدُّنْيَا إِلَى هَلِكٍ يَصِيرُ

وقالت الكنديَّة ترثي حُجراً - ويقال : بل قائلها هذه الأنصارية :

دُمُوعٌ عَيْنِي دِيمَةٌ تَقْطُرُ	تَبْكِي عَلَى حُجْرٍ وَمَا تَفْتُرُ
لَوْ كَانَتِ الْقَوْسُ عَلَى أَسِرِهِ	مَا حَمَلَ السَّيْفُ لَهُ الْأَعُورُ

وقال الشاعر يحرّض بني هند من بني شيبان على قيس بن عباد حين سعى بصيفي بن فسيل :

دَعَا ابْنُ فَسِيلٍ يَالَ مُرَّةَ دَعْوَةً وَلَا قَى ذَبَابَ السِّيفِ كَفًّا وَمِعْصَمًا
فَحَرَّضُ بَنِي هِنْدٍ إِذَا مَا لَقِيَتْهُمْ وَقُلْ لِغِيَاثٍ وَابْنِهِ يَتَكَلَّمًا
لِتَبْكُ بَنِي هِنْدٍ قَتِيلَةً مِثْلَ مَا بَكَتْ عِرْسُ صَيْفِي وَتَبَعْتُ مَأْتَمًا

غياث بن عمران بن مرة بن الحارث بن دُبّ بن مرة بن ذهل بن شيبان ، وكان شريفاً ، وقَتِيلَةُ أخت قيس بن عباد ، فعاش قيس بن عباد حتى قاتل مع ابن الأشعث في موطنه ، فقال حَوْشَبُ للحجاج بن يوسف : إن منّا امرأً صاحب فتنة ووثوب على السلطان ، لم تكن فتنة في العراق قطّ إلّا وثب فيها ، وهو ترابي ، يلعن عثمان ، وقد خرج مع ابن الأشعث فشهد معه في موطنه كلها ، يحرّض الناس حتى إذا أهلكهم الله ، جاء فجلس في بيته ، فبعث إليه الحجاج فضرب عنقه ، فقال بنو أبيه لآل حوشب : إنما سعيتم بنا سعيًا ، فقالوا لهم : وأنتم إنما سعيتم بصاحبنا سعيًا .

فقال أبو مخنف : وقد كان عبدالله بن خليفة الطائيّ شهد مع حُجْر بن عديّ ، فطلبه زياد فتواري ، فبعث إليه الشرط ، وهم أهل الحمراء يومئذ ، فأخذوه ، فأخرجت أخته النّوار فقالت : يا معشر طيّء ، أتسلمون سنّاكم ولسانكم عبدالله بن خليفة ! فشدد الطائيون على الشرط فضربوهم وانتزعوا منهم عبدالله بن خليفة ، فرجعوا إلى زياد ، فأخبروه ، فوثب على عديّ بن حاتم وهو في المسجد ، فقال : اثني بعبدالله بن خليفة ؛ قال : وما له ! فأخبره ، قال : فهذا شيء كان في الحيّ لا علم لي به ؛ قال : والله لتأثيني به ؛ قال : لا ، والله لا آتيك به أبداً ، أحيثك بآبن عمّي تقتله ! والله لو كان تحت قدمي ما رفعتهما عنه . قال : فأمر به إلى السجن ؛ قال : فلم يبق بالكوفة يمانيّ ولا رباعيّ إلّا آتاه وكلمه ، وقالوا : تفعل هذا بعديّ بن حاتم صاحب رسول الله ﷺ ! قال : فإني أخرجته على شرط ، قالوا : ما هو ؟ قال : يخرج ابن عمّه عني فلا يدخل الكوفة ما دام لي بها سلطان . فأتى عديّ فأخبر بذلك ، فقال : نعم ، فبعث عديّ إلى عبدالله بن خليفة فقال : يا بن أخي ، إنّ هذا قد لجّ في أمرك ، وقد أبى إلّا إخراجك عن مِصرِكَ ما دام له سلطان ، فالحق بالجليلين ، فخرج ؛ فجعل عبدالله بن خليفة يكتب إلى عدي ، وجعل عديّ يُبَيِّنُه ، فكتب إليه :

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى وَالشَّبِيَّةَ أَغْصُرَا وَوَلَّى الشَّبَابُ فَافْتَقَدْتُ غُضُونَهُ
فَدَعُ عَنْكَ تَذْكَارَ الشَّبَابِ وَفَقْدَهُ وَبَكَ عَلَى الْخُلَانِ لَمَّا تُخْرِمُوا
دَعَتْهُمْ مَنَايَاهُمْ وَمَنْ حَانَ يَوْمُهُ أَوْلَيْتُكَ كَانُوا شَيْعَةً لِي وَمَوْئِلًا
وَمَا كُنْتُ أَهْوَى بَعْدَهُمْ مُتَعَلِّلًا أَقُولُ وَلَا وَاللَّهِ أَنْسِي أَدْكَارَهُمْ
عَلَى أَهْلِ عَذَاءِ السَّلَامِ مُضَاعَفًا وَذَكَرُ الصَّبَا بَرَحَ عَلَى مَنْ تَذَكَّرَا
فِيَا لَكَ مِنْ وَجْدٍ بِهِ حِينَ أَذْبَرَا وَأَثَارُهُ إِذْ بَانَ مِنْكَ فَأَقْصَرَا
وَلَمْ يَجِدُوا عَنْ مَنَهْلِ الْمَوْتِ مَصْدَرَا مِنَ النَّاسِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَنْ يُوْخَرَا
إِذَا الْيَوْمُ أُلْفِيَ ذَا احْتِدَامٍ مُذَكَّرَا بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا أَنْ أَعْمَرَا
سَجِيسَ اللَّيَالِي أَوْ أَمُوتَ فَأَقْبَرَا مِنَ اللَّهِ وَلَيْسَتْ الْغَمَامُ الْكَنْهَوْرَا

وَلَا قَىٰ بِهَا حُجْرٌ مِّنَ اللَّهِ رَحِمَةً
وَلَا زَالَ تَهْطَالُ مُلْكٌ وَدِيمَةً
فِيَا حُجْرٌ مِّنَ الْخَيْلِ تُدْمَىٰ نُحُورُهَا
وَمَنْ صَادِغٌ بِالْحَقِّ بَعْدَكَ نَاطِقٌ
فَنِعْمَ أَخُو الْإِسْلَامِ كُنْتَ وَإِنِّي
وَقَدْ كُنْتَ تَعْطَى السَّيْفَ فِي الْحَرْبِ حَقَّهُ
فِيَا أَخَوَيْنَا مِنْ هُمِيمٍ عُصِمْتُمَا
وَبَا أَخَوَيَّ الْخَنْدِفِيِّينَ أَبْشِرَا
وَبَا إِخْوَتَا مِنْ حُضْرَمُوتٍ وَغَالِبٍ
سَعِدْتُمْ فَلَمْ أَسْمَعْ بِأَصُوبٍ مِنْكُمْ
سَابِكِيكُمْ مَا لَاحَ نَجْمٌ وَغَرَدَ الْـ
فَقُلْتُ وَلَمْ أَظْلَمَ أَغْوِثَ بَنَ طِيٍّ
هَبِلْتُمْ أَلَا قَاتَلْتُمْ عَنْ أَخِيكُمْ
فَفَرَجْتُمْ عَنِّي فَعُودِرْتُ مُسْلِمًا
فَمِنْ لَكُمْ مِثْلِي لَدَى كُلِّ غَارَةٍ
وَمِنْ لَكُمْ مِثْلِي إِذَا الْحَرْبُ قَلَصَتْ
فَهَا أَنَا ذَا دَارِي بِأَجْبَالِ طِيٍّ
نَفَانِي عَدُوِّي ظَالِمًا عَنْ مُهَاجِرِي
وَأَسْلَمْنِي قَوْمِي لَغَيْرِ جَنَابَةٍ
فَإِنْ أَلَفْتُ فِي دَارٍ بِأَجْبَالِ طِيٍّ
فَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَرَى مُتَغَرِّبًا
لِحَا اللَّهِ قَتَلَ الْحُضْرَمِيِّينَ وَائِلًا
وَلَا قَى الرَّدَى الْقَوْمُ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا
فَلَا يَدْعُنِي قَوْمٌ لَغَوِثَ بَنِ طِيٍّ
فَلَمْ أَغْزِهِمْ فِي الْمُعْلَمِينَ وَلَمْ أَثُرْ
فَبَلَغَ خَلِيلِي إِنْ رَحَلَتْ مُشْرِقًا
وَنَبْهَانَ وَالْأَفْنَاءَ مِنْ جِذْمِ طِيٍّ
أَلَمْ تَذْكُرُوا يَوْمَ الْعَذِيبِ أَلَيْتِي
وَكُرِّي عَلَى مِهْرَانَ وَالْجَمْعُ حَاسِرٌ
وَيَوْمَ جَلُولَاءِ الْوَقِيعَةِ لَمْ أَلَمْ
وَتَسَوْنِي يَوْمَ الشَّرِيعَةِ وَالْقَنَا

فَقَدْ كَانَ أَرْضَى اللَّهَ حَجْرٌ وَأَعْدَرَا
عَلَى قَبْرِ حُجْرٍ أَوْ يَنَادِي فَيُحْشِرَا
وَلِلْمَلِكِ الْمُغْزِي إِذَا مَا تَغْشَمَا
يَتَقَوَّى وَمَنْ إِنْ قِيلَ بِالْجَوْرِ غَيْرَا
لَأَطْمَعُ أَنْ تُؤْتِيَ الْخُلُودَ وَتُحْبَرَا
وَتَعْرِفَ مَعْرُوفًا وَتَنْكَرُ مُنْكَرَا
وَيُسْرَتُمَا لِلصَّالِحَاتِ فَأَبْشِرَا
فَقَدْ كُنْتُمَا حَيِّتُمَا أَنْ تُبْشِرَا
وَشِيْبَانٍ لُقِيْتُمْ حَسَابًا مُبْسِرَا
حِجَابًا لَدَى الْمَوْتِ الْجَلِيلِ وَأَصْبَرَا
حَمَامٍ يَبْطُنُ الْوَادِيَيْنِ وَقَرَقَرَا
مَتَى كُنْتُ أَخْشَى بَيْنَكُمْ أَنْ أُسِيرَا!
وَقَدْ ذَبْتُ حَتَّى مَالِ ثُمَّ تَجَوَّرَا
كَأَنِّي غَرِيبٌ فِي إِيَادٍ وَأَعْصُرَا
وَمِنْ لَكُمْ مِثْلِي إِذَا الْبَأْسُ أَصْحَرَا
وَأَوْضَعَ فِيهَا الْمُسْتَمِيتُ وَشَمَّرَا
طَرِيدًا وَلَوْ شَاءَ إِلَهُ لَغَيْرَا
رَضِيتُ بِمَا شَاءَ إِلَهُ وَقَدَّرَا
كَأَنْ لَمْ يَكُونُوا لِي قَبِيلًا وَمَعَشَرَا
وَكَانَ مَعَانًا مِنْ عُصَيْرٍ وَمَحْضَرَا
لِحَا اللَّهِ مِنْ لَاحَى عَلَيْهِ وَكَثُرَا
وَلَا قَى الْفَنَاءَ مِنَ السَّنَانِ الْمَوْفُرَا
عَلَيْنَا وَقَالُوا قَوْلَ زُورٍ وَمُنْكَرَا
لَأَنْ دَهْرُهُمْ أَشَقَى بِهِمْ وَتَغْيِرَا
عَلَيْهِمْ عَجَاجًا بِالْكَوَيْفَةِ أَكْذَرَا
جَدِيلَةَ وَالْحَيِّينَ مَعْنًا وَبُحْثَرَا
أَلَمْ أَكُ فَيْكُمْ ذَا الْغَنَاءِ الْعَشْنَزَرَا!
أَمَامَكُمْ أَلَا أَرَى الدَّهْرَ مُدْبِرَا!
وَقَتْلِي الْهُمَامِ الْمُسْتَمِيتِ الْمُسَوَّرَا
وَيَوْمَ نِهَازِنَدِ الْفُتُوحِ وَتُسْتَرَا
بِصَقِّينَ فِي أَكْتَافِهِمْ قَدْ تَكْسَرَا

بَرَفْضِي وَخِذْلَانِي جَزَاءُ مُوَفَّرَا
عَشِيَّةً مَا أَغْنَتْ عَدِيَّكَ جِزْمَرَا !
وَكُنْتُ أَنَا الْخَصَمَ الْأَلَدُ الْعَدُّورَا
رَأُونِي لَيْثًا بِالْأَبَاءَةِ مُخَدَّرَا
بَعِيدُ وَقَدْ أُفِرِدْتُ نَصْرًا مُؤَزَّرَا
سَجِينًا وَأَنْ أُولَى الْهَوَانِ وَأَوْسَرَا
فَلَمْ تُغْنِ بِالْمِيعَادِ عَنِّي حَبْرَا
أَهْرَهْرُ إِنْ رَاعَى الشُّوْبَهَاتِ هَرْهَرَا
وَلَمْ أَتْرُكِ الْقِرْنَ الْكَمِيَّ مُقْطَرَا
إِذَا النَّكْسُ مَشَى الْقَهْقَرَى ثُمَّ جَرَجَرَا
مُيَمِّمَةً عَلَيَا سِجَاسٍ وَأَبْهَرَا
كَوْرِدِ الْقَطَاثِمِ انْحَدَرْتُ مُظْفَرَا
بَقَزَوِينَ أَوْ شَرَوِينَ أَوْ أَغَزُ كُنْدَرَا
وَأَصْبَحَ لِي مَعْرُوفُهُ قَدْ تَنَكَّرَا
وَكُنْتُ الْمُضَاعَ فِيهِمْ وَالْمُكْفَرَا
وَإِنْ كُنْتُ عَنْهُمْ نَائِي الدَّارِ مُخَصَّرَا

جَزَى رَبُّهُ عَنِّي عَدِيَّ بَنِ حَاتِمِ
أَتَسَّى بِلَاثِي سَادِرًا يَا بَنِ حَاتِمِ
فَدَافَعْتُ عَنْكَ الْقَوْمَ حَتَّى تَخَازِلُوا
فَوَلُّوا وَمَا قَامُوا مَقَامِي كَأَنَّمَا
نَصَرْتُمْكُمْ إِذْ حَامَ الْقَرِيبُ وَأَبْعَطَ الْـ
فَكَانَ جِزَائِي أَنْ أَجَرَّدَ بَيْنَكُمْ
وَكَمْ عِدَّةٌ مِنْكَ أَنْكَ رَاجِعِي
فَأَصْبَحْتُ أَرْغَى النَّيْبِ طَوْرًا وَتَارَةً
كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لَغَارَةً
وَلَمْ أَعْتَرِضْ بِالسَّيْفِ خَيْلًا مُغِيرَةً
وَلَمْ أَسْتَحِثَّ الرِّكْضَ فِي إِثْرِ غُصْبَةٍ
وَلَمْ أَذْعُرِ الْأَبْلَامَ مِنِّي بَغَارَةً
وَلَمْ أَرْ فِي خَيْلٍ تُطَاعِنُ بِالْقَنَا
فَذَلِكَ دَهْرٌ زَالَ عَنِّي حَمِيدُهُ
فَلَا يَبْعَدُنْ قَوْمِي وَإِنْ كُنْتُ غَائِبًا
وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَلَا الْعِشْرِ بَعْدَهُمْ

فمات بالجبلين قبل موت زياد .

وقال عُبَيْدَةُ الْكِنْدِيُّ ثُمَّ الْبَدَيْ ، وَهُوَ يَمِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ بِخِذْلَانِهِ حُجْرًا :

أَسْلَمْتَ عَمَّكَ لَمْ تُقَاتِلْ دُونَهُ
وَقَتَلْتَ وَافِدَ آلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ
لَوْ كُنْتُ مِنْ أَسَدٍ عَرَفْتُ كِرَامَتِي
فَرَقًا وَلَوْلَا أَنْتَ كَانَ مِنِّيَعَا
وَسَلَبْتَ أَسِيْفًا لَهُ وَدُرُوعَا
وَرَأَيْتَ لِي بَيْتَ الْحُبَابِ شَفِيعَا

وفي هذه السنة وجّه زيادُ الرِّبِيعُ بْنُ زِيَادِ الْحَارِثِيِّ أَمِيرًا عَلَى خُرَاسَانَ بَعْدَ مَوْتِ الْحَكَمِ بْنِ عَمْرِو الْغِفَارِيِّ ، وَكَانَ الْحَكَمُ قَدْ اسْتَخْلَفَ عَلَى عَمَلِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ أَنْسُ بْنُ أَبِي أَنْاسٍ ، وَأَنْسُ هُوَ الَّذِي صَلَّى عَلَى الْحَكَمِ حِينَ مَاتَ فَدُفِنَ فِي دَارِ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَخِي خُلَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْحَنْفِيِّ ، وَكَتَبَ بِذَلِكَ الْحَكَمُ إِلَى زِيَادٍ ، فَعَزَلَ زِيَادُ أَنْسَا ، وَوَلَّى مَكَانَهُ خُلَيْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَنْفِيِّ .

فَحَدَّثَنِي عَمْرٌ ، قَالَ : حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ ، قَالَ : لَمَّا عَزَلَ زِيَادُ أَنْسَا وَوَلَّى مَكَانَهُ خُلَيْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَنْفِيِّ قَالَ أَنْسُ :

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي زِيَادًا
أَتَعَزَّلَنِي وَتَطْعِمُنِي خُلَيْدًا
عَلَيْكُمْ بِالْإِمَامَةِ فَاحْرُثُوهَا
مُغْلَغَلَةً يَخْبُ بِهَا الْبَرِيدُ
لَقَدْ لَاقَتْ حَنِيفَةً مَا تَرِيدُ
فَأُولُوكُمْ وَأَخْرُكُمُ عَبِيدُ

فولى خليداً شهراً ثم عزله ، وولى خراسان ربيع بن زياد الحارثي في أول سنة إحدى وخمسين ، فنقل الناس عيالاتهم إلى خراسان ، ووطنوا بها ، ثم عزل الربيع .

فحدثني عمر ، قال : حدثني علي ، عن مسلمة بن محارب وعبدالرحمن بن أبان القرشي ، قالوا : قدم ربيع خراسان ففتح بلخ صلحاً ، وكانوا قد أغلقوها بعدما صالحهم الأحنف بن قيس ، وفتح قهستان عنوةً ، وكانت بناحيها أتراك ، فقتلهم وهزمهم ، وكان ممن بقي منهم نيزك طرخان ، فقتله قتيبة بن مسلم في ولايته .

حدثني عمر ، قال : حدثنا علي ، قال : غزا الربيع فقطع النهر ومعه غلامه فروخ وجاريته شريفة ، فغنم وسلم ، فأعتق فروخاً ، وكان قد قطع النهر قبله الحكم بن عمرو في ولايته ولم يفتح .

فحدثني عمر ، عن علي بن محمد ، قال : كان أول المسلمين شرب من النهر مولى للحكم ، إغترف بنرسه فشرب ، ثم ناوّل الحكم فشرب ، وتوضأ وصلى من وراء النهر ركعتين ، وكان أول الناس فعل ذلك ، ثم قفل .

وحج بالناس في هذه السنة يزيد بن معاوية ؛ حدثني بذلك أحمد بن ثابت عمّن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، وكذلك قال الواقدي .

وكان العامل في هذه السنة على المدينة سعيد بن العاص ، وعلى الكوفة والبصرة والمشرق كله زياد ، وعلى قضاء الكوفة شريح ، وعلى قضاء البصرة عميرة بن يثرب .

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين

فزعم الواقدي أنّ فيها كانت غزوة سُفْيَان بن عوف الأزدي ، ومشتاه بأرض الروم ، وأنه توفي بها ، واستخلف عبدالله بن مسعدة الفزاري .

وقال غيره : بل الذي شتا بأرض الروم في هذه السنة بالناس بُسْر بن أبي أُرْطاة ، ومعه سُفْيَان بن عوف الأزدي ، وغزا الصائفة في هذه السنة محمد بن عبدالله الثَّقَفِي .

وحجّ بالناس في هذه السنة سعيد بن العاص في قول أبي معشر والواقدي وغيرهما .

وكانت عمّال الأمصار في هذه السنة هم العمّال عليها كانوا في سنة إحدى وخمسين .

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين ذكر ما كان فيها من الأحداث

فما كان فيها من ذلك مَشَقَّ عبدالرحمن بن أمِّ الحَكَمِ الثَّقَفِيِّ بِأَرْضِ الرُّومِ .

وفيهما فتحت رُودُس ، جزيرة في البحر ، ففتحها جُنادة بن أبي أمية الأُردِّي ، فنزلها المسلمون - فيما ذكر محمد بن عمر - وَزَرَعُوا وَاتَّخَذُوا بِهَا أَمْوَالًا وَمَوَاشِيًا يَرْعَوْنَهَا حَوْلَهَا ، فَإِذَا أَمْسَوْا أَدْخَلُوهَا الْحَصْنَ ، وَلَهُمْ نَاطُورٌ يَحْدَرُهُمْ مَا فِي الْبَحْرِ مِمَّنْ يَرِيدُهُمْ بِكَيْدٍ ، فَكَانُوا عَلَى حَذَرٍ مِنْهُمْ ، وَكَانُوا أَشَدَّ شَيْءَ عَلَى الرُّومِ ، فَيَعْتَرِضُونَهُمْ فِي الْبَسْرِ فَيَقْطَعُونَ سَفَنَهُمْ ، وَكَانَ مَعَاوِيَةُ يُدِيرُ لَهُمُ الْأَرْزَاقَ وَالْعَطَاءَ ، وَكَانَ الْعَدُوُّ قَدْ خَافَهُمْ ، فَلَمَّا مَاتَ مَعَاوِيَةُ أَقْفَلَهُمْ يَزِيدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ .

وفيهما كانت وفاةُ زياد بن سُمَيَّةَ ؛ حَدَّثَنِي عُمَرُ ، قَالَ : حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ ، قَالَ : حَدَّثَنَا وَهَيْبٌ ، قَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الرَّبِيعِ ، عَنْ فَيْلٍ مَوْلَى زِيَادٍ ، قَالَ : مَلَكَ زِيَادُ الْعِرَاقَ خَمْسَ سِنِينَ ، ثُمَّ مَاتَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ .

حَدَّثَنِي عُمَرُ ، قَالَ ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ ، قَالَ : لَمَّا نَزَلَ زِيَادٌ عَلَى الْعِرَاقِ بَقِيَ إِلَى سَنَةِ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ ، ثُمَّ مَاتَ بِالْكُوفَةِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَخَلِيفَتُهُ عَلَى الْبَصْرَةِ سُمُرَةُ بْنُ جَنْدَبٍ .

ذكر سبب مهلك زياد بن سُمَيَّةَ

حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ الْمُرُوزِيُّ ، قَالَ : حَدَّثَنَا أَبِي ، قَالَ حَدَّثَنِي سُلَيْمَانٌ ، قَالَ : حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ ، قَالَ : أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَوْذَبٍ ، عَنْ كَثِيرِ بْنِ زِيَادٍ ، أَنَّ زِيَادًا كَتَبَ إِلَى مَعَاوِيَةَ : إِنِّي ضَبَطْتُ الْعِرَاقَ بِشِمَالِي ، وَبِمِثْلِي فَارِغَةً . فَضَمَّ إِلَيْهِ مَعَاوِيَةُ الْعُرُوضَ - وَهِيَ الْيَمَامَةُ وَمَا يَلِيهَا - فَدَعَا عَلَيْهِ ابْنُ عَمَرَ ، فَطُغِنَ وَمَاتَ . فَقَالَ ابْنُ عَمَرَ حِينَ بَلَغَهُ الْخَبَرُ : أَذْهَبَ إِلَيْكَ ابْنُ سُمَيَّةَ ، فَلَا الدُّنْيَا بَقِيَتْ لَكَ ، وَلَا الْآخِرَةُ أَدْرَكَتْ .

حَدَّثَنِي عُمَرُ ، قَالَ : حَدَّثَنَا عَلِيُّ ، قَالَ : كَتَبَ زِيَادٌ إِلَى مَعَاوِيَةَ : قَدْ ضَبَطْتُ لَكَ الْعِرَاقَ بِشِمَالِي وَبِمِثْلِي فَارِغَةً ، فَاشْغُلْهَا بِالْحِجَازِ ، وَبِعَثْ فِي ذَلِكَ الْهَيْثُمُ بْنُ الْأَسْوَدِ النَّخَعِيِّ ، وَكُتِبَ لَهُ عَهْدُهُ مَعَ الْهَيْثُمِ ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ أَهْلَ الْحِجَازِ أَقْبَلَ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : ادْعُوا اللَّهَ عَلَيْهِ يَكْفِيكُمْوهُ ، فَاسْتَقْبَلَ الْقَبْلَةَ وَاسْتَقْبَلُوهَا فَدَعَا وَدَعَا ، فَخَرَجَتْ طَاعُونَةٌ عَلَى أَصْبَعِهِ ، فَأَرْسَلَ إِلَى شَرِيحٍ - وَكَانَ قَاضِيَهُ - فَقَالَ : حَدَّثَ بِي مَا تَرَى ، وَقَدْ أَمَرْتُ بِقَطْعِهَا ، فَأَشِيرْ عَلَيَّ ؛ فَقَالَ لَهُ شَرِيحٌ : إِنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ الْجَرَّاحُ

على يدك ، والألم على قلبك ، وأن يكون الأجل قد دنا ، فتلقي الله عز وجل أجذم ، وقد قطعت يدك كراهيةً للقاءه ، أو أن يكون في الأجل تأخير وقد قطعت يدك فتعيش أجذم وتغير ولدك . فتركها ؛ وخرج شريح فسألوه ، فأخبرهم بما أشار به ، فلاموه وقالوا : هلاً أشرت عليه بقطعها ! فقال : قال رسول الله ﷺ : « المستشار مؤتمن » .

حدثني عبدالله بن أحمد المروزي ، قال : حدثني أبي ، قال : حدثني سليمان ، قال : قال عبدالله : سمعت بعض من يحدث أنه أرسل إلى شريح يستشيريه في قطع يده ، فقال : لا تفعل ؛ إنك إن عشت صرت أجذم ، وإن هلك إياك جانياً على نفسك ، قال : أنام والطاعون في لحاف ! فعزم أن يفعل ، فلما نظر إلى النار والمكاوي جزع وترك ذلك .

حدثني عمر ، قال : حدثنا عبد الملك بن قُريب الأصمعي ، قال : حدثني ابن أبي زياد ، قال : لما حضرت زياداً الوفاة قال له ابنه : يا أبت ، قد هيأت لك ستين ثوباً أكفئك فيها ؛ قال : يا بني ، قد دنا من أهلك لباس خيراً من لباسه هذا ، أو سلب سريع ؛ فمات فدفن بالثوبية إلى جانب الكوفة ، وقد توجه يزيد إلى الحجاز والياً عليها ، فقال مسكين بن عامر بن شريح بن عمرو بن عُدس بن زيد بن عبدالله بن دارم :

رَأَيْتُ زِيَادَةَ الْإِسْلَامِ وَلَّتْ جَهَاراً حِينَ وَدَّعْنَا زِيَاداً
وقال الفرزدق لمسكين - ولم يكن هجا زياداً حتى مات :

أَمْسِكِينُ أَبْكَى اللَّهُ عَيْنَكَ إِنَّمَا
بَكَيْتُ امْرَأً مِنْ آلِ مَيْسَانَ كَافِراً
أَقُولُ لَهُ لَمَّا أَتَانِي نَعِيُّهُ
جَازِي فِي ضَلَالٍ دَمْعُهَا فَتَحَدَّرَا
كَكْسَرَى عَلَى عَدَانِهِ أَوْ كَقَيْصَرَا
بِهِ لَا يَظُنِّي بِالصَّرِيمَةِ أَعْفَرَا
فأجابه مسكين ، فقال :

أَلَا أَيُّهَا الْمَرْءُ الَّذِي لَسْتُ نَاطِقاً
فَجِئْتَنِي بِعَمٍ مِثْلٍ عَمِّي أَوْ أَبٍ
كَعَمْرٍو بَنِ عَمْرٍو أَوْ زُرَّارَةَ وَالِدَا
وَمَا زَالِ بِي مِثْلُ الْقَنَاقَةِ وَسَابِحٍ
فَهَذَا لِأَيَّامِ الْحِفَاطِ وَهَذِهِ
لِرَحْلِي وَهَذَا عُذَّةٌ لَارْتِحَالِي !

وقال الفرزدق :

أَبْلَغُ زِيَاداً إِذَا لَأَقَيْتَ مَضْرَعَهُ
طَارَتْ فَمَا زَالِ يُنْمِيهَا قَوَادِمُهَا
أَنَّ الْحَمَامَةَ قَدْ طَارَتْ مِنَ الْحَرَمِ
حَتَّى اسْتَغَاثَتْ إِلَى الْأَنْهَارِ وَالْأَجَمِ

حدثني عبدالله بن أحمد ، قال : حدثني أبي ، عن سليمان ، قال : حدثني عبدالله ، عن جرير بن حازم ، عن جرير بن يزيد ، قال : رأيت زياداً فيه حُمرة ، في عينه اليمنى أنكسار ، أبيض اللحية مخروطها ، عليه قميص مرقوع ، وهو على بغلة عليها لجامها قد أرسنها .

وفي هذه السنة كانت وفاة الربيع بن زياد الحارثي ، وهو عامل زياد على خراسان .

ذكر الخبر عن سبب وفاته :

حدثني عمر ، قال : حدثني علي بن محمد ، قال : ولي الربيع بن زياد خراسان سنتين وأشهرًا ، ومات في العام الذي مات فيه زياد ، واستخلف ابنه عبدالله بن الربيع ، فولي شهرين ، ثم مات عبدالله . قال : فقدّم عهده من قبل زياد على خراسان وهو يذفن ، واستخلف عبدالله بن الربيع على خراسان خُليد بن عبدالله الحنفي .

قال علي : وأخبرني محمد بن الفضل ، عن أبيه ، قال : بلغني أنّ الربيع بن زياد ذكر يوماً بخراسان حُجْر بن عدي ، فقال : لا تزال العرب تقتل صبراً بعده ، ولو نفرت عند قتله لم يقتل رجل منهم صبراً ، ولكنها أقرت فذلت ، فمكث بعد هذا الكلام جمعة ، ثم خرج في ثياب بياض في يوم جمعة ، فقال : أيها الناس ، إني قد مللت الحياة ، وإني داع بدعوة فأمنوا . ثم رفع يده بعد الصلاة ، وقال : اللهم إنّ كان لي عندك خيرٌ فاقبضني إليك عاجلاً . وأمن الناس فخرج ، فما توارث ثيابه حتى سقط فحمل إلى بيته ، واستخلف ابنه عبدالله ، ومات من يومه ، ثم مات ابنه ، فاستخلف خُليد بن عبدالله الحنفي ، فأقره زياد ، فمات زياد وخُليد على خراسان ، وهلك زياد وقد استخلف على عمله على الكوفة عبدالله بن خالد بن أسيد ، وعلى البصرة سُمرة بن جندب الفزاري .

فحدثني عمر بن شبة ، قال : حدثني علي ، قال : مات زياد وعلى البصرة سُمرة بن جندب خليفة له ، وعلى الكوفة عبدالله بن خالد بن أسيد ، فأقر سُمرة على البصرة ثمانية عشر شهراً .

قال عمر : وبلغني عن جعفر بن سليمان الضبيّ ، قال : أقر معاوية سُمرة بعد زياد ستة أشهر ، ثم عزّله ، فقال سُمرة : لعن الله معاوية ! والله لو أطعت الله كما أطعت معاوية ما عذّبتني أبداً .

حدثني عمر ، قال : حدثني موسى بن إسماعيل ، قال : حدثني سليمان بن مسلم العجليّ ، قال : سمعتُ أبي يقول : مررت بالمسجد ، فجاء رجلٌ إلى سُمرة فأدى زكاة ماله ، ثم دخل فجعل يصلي في المسجد ، فجاء رجل فضرب عنقه ، فإذا رأسه في المسجد ، وبدنه ناحية ، فمرّ أبو بكر ، فقال : يقول الله سبحانه : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿ ١ ﴾ ، قال أبي : فشهدتُ ذلك ، فما مات سُمرة حتى أخذه الزُمهرير ، فمات شرميّة ، قال : وشهدته وأنا بناس كثير وأناس بين يديه فيقول للرجل : ما دينك؟ فيقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنّ محمداً عبده ورسوله وأنا بريء من الحرورية ، فيقدّم فيضرب عنقه حتى مرّ بضعة وعشرون .

وحجّ بالناس في هذه السنة سعيد بن العاص في قول أبي معشر الواقدي وغيرهما .

وكان العامل فيها على المدينة سعيد بن العاص ، وعلى الكوفة بعد موت زياد عبدالله بن خالد بن أسيد ، وعلى البصرة بعد موت زياد سُمرة بن جندب ، وعلى خراسان خُليد بن عبدالله الحنفي .

ثم دخلت سنة أربع وخمسين ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ففيها كان مَشْتَى محمد بن مالك أرضَ الرُّومِ ، وصائفة مَعْن بن يزيد السُّلَمِي .
وفيها - فيما زعم الواقدي - فَتَحَ جُنَادَةُ بن أبي أُمَيَّةَ جزيرةً في البحر قريبةً من قُسْطَنْطِينِيَّةَ يقال لها أُرُود .
وذكر محمد بن عمر أنَّ المسلمين أقاموا بها دَهْرًا ؛ فيها يقال سبع سنين ، وكان فيها مجاهد بن جَبْر .
قال : وقال تُبَيْع ابنُ امرأةٍ كعب : تروُن هذه الدرجة؟ إذا انقلعت جاءت قفلتنا . قال : فهاجت ريحٌ شديدة
فقلعت الدرجة ، وجاء نعي معاوية وكتاب يزيد بالقفل فقفَلْنَا ، فلم تَعْمُرْ بعد ذلك وَخَرِبَتْ ، وأمن الروم .
وفيها عَزَلَ معاوية سعيْدَ بن العاص عن المدينة ، واستعمل عليها مَرْوَانَ بن الحكم .
ذكر سبب عزل معاوية سعيْدًا واستعمال مَرْوَانَ :

حدَّثني عمر ، قال : حدَّثنا علي بن محمد ، عن جُويرية بن أسماء ، عن أشياخه ، أنَّ معاوية كان يُغري بين
مَرْوَانَ وسعيْدَ بن العاص ، فكتب إلى سعيْدَ بن العاص وهو على المدينة : إهْدِم دَارَ مَرْوَانَ ؛ فلم يَهْدِمَهَا ،
فأعاد عليه الكتابَ بهدمها ، فلم يَفْعَلْ ، فعزَّله وولَّى مروان .

وأما محمد بن عمر ؛ فإنه ذكر أنَّ معاوية كتب إلى سعيْدَ بن العاص يأمره بقبض أموالِ مروانَ كُلِّها
فيجعلها صافيةً ، ويقبضَ فَذَكَ مِنْهُ - وكان وهبها لها ، فراجعَ سعيْدَ بن العاص في ذلك ، وقال : قرابته
قريبة . فكتب إليه ثانية يأمره باصطفاء أموالِ مَرْوَانَ ، فأبى ، وأخذ سعيْدَ بن العاص الكتابَيْن فوضعهما عند
جارية ، فلما عَزَلَ سعيْدَ عن المدينة فولَّيَهَا مروان ، كتب معاويةً إلى مَرْوَانَ بن الحكم يأمره بقبض أموالِ
سعيْدَ بن العاص بالحجاز ، وأرسل إليه بالكتاب مع ابنه عبد الملك ، فخبَّره أنه لو كان شيئاً غير كتاب أمير
المؤمنين لتجافيتُ ، فدعا سعيْدَ بن العاص بالكتابَيْن اللَّذَيْن كتب بهما معاويةً إليه في أموالِ مَرْوَانَ يأمره فيهما
بقبض أموالِه ، فذهب بهما إلى مَرْوَانَ ، فقال : هوَ كان أوصلَ لنا مِنَّا له ! وكفَّ عن قبض أموالِ سعيْدَ .

وكتب سعيْدُ بن العاص إلى معاوية : العَجَبُ مما صنع أمير المؤمنين بنا في قرابتنا ، أن يُضغِنَ بعضنا على
بعض ! فأمر المؤمنين في جَلَمه وصبره على ما يكره من الأجنبيِّين ، وعفوه وإدخاله القطيعة بيننا والشحناء ،
وتوارث الأولاد ذلك ، فوالله لو لم تكن بني أب واحد إلَّا بما جمعنا الله عليه من نصر الخليفة المظلوم ، واجتماع
كلمتنا ، لكان حقًّا علينا أن نرعى ذلك ، والذي أدركنا به خير . فكتب إليه يتنصّل من ذلك ، وأنه عائدٌ إلى
أحسن ما يَعهده .

عاد الحديث إلى حديث عمر، عن علي بن محمد، قال: فلما ولي مروان كتب إليه: إهدم دار سعيد، فأرسل الفعلة، وركب ليهدمها، فقال له سعيد: يا أبا عبد الملك، أتهدم داري! قال: نعم، كتب إلي أمير المؤمنين، ولو كتب في هدم داري لفعلت؛ قال: ما كنت لأفعل؛ قال: بلى، والله لو كتب إليك لهدمتها، قال: كلاً أبا عبد الملك. وقال لغلامه: انطلق فجنني بكتاب معاوية؛ فجاء بكتاب معاوية إلى سعيد بن العاص في هدم دار مروان بن الحكم، قال: مروان كتب إليك يا أبا عثمان في هدم داري، فلم تهدم ولم تعلمني. قال: ما كنت لأهدم دارك، ولا أؤمن، عليك؛ وإنما أراد معاوية أن يخرض بيننا، فقال مروان: فذاك أبي وأمي! وأنت والله أكثرنا ريشاً وعقباً. ورجع مروان ولم يهدم دار سعيد.

حدثني عمر، قال: حدثنا علي، قال: حدثنا أبو محمد بن ذكوان القرشي، قال: قدم سعيد بن العاص على معاوية، فقال له: يا أبا عثمان، كيف تركت أبا عبد الملك؟ قال: تركته ضابطاً لعملي، منفذاً لأمر. قال: إنه كصاحب الخبزة كفي نضجها فأكلها، قال: كلا، والله يا أمير المؤمنين، إنه لمع قوم لا يحمل بهم السوط، ولا يحمل لهم السيف، يتهادون كوقع النبل، سهم لك وسهم عليك؛ قال: ما باعد بينك وبينه؟ قال: خافني على شرفه، وخيفته على شرفي، قال: فماذا له عندك؟ قال: أسره غائباً، وأسرته شاهداً؛ قال: تركتنا يا أبا عثمان في هذه الهنات؛ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فتحملت الثقل، وكفيت الحزم، وكنت قريباً لودعوت أجبت، ولو ذهبت رفعت.

وفي هذه السنة كان عزل معاوية سمرة بن جندب عن البصرة، واستعمل عليها عبد الله بن عمرو بن غيلان. فحدثني عمر، قال: حدثني علي بن محمد قال: عزل معاوية سمرة وولي عبد الله بن عمرو بن غيلان، فأقره ستة أشهر، فولى عبد الله بن عمرو شرطته عبد الله بن حصن. وفي هذه السنة ولي معاوية عبيد الله بن زياد خراسان.

ذكر سبب ولاية ذلك:

حدثني عمر؛ قال: حدثني علي بن محمد، قال: حدثنا مسلمة بن محارب ومحمد بن أبان القرشي، قالوا: لما مات زياد وفد عبيد الله إلى معاوية فقال له: من استخلف أخيه على عمله بالكوفة؟ قال: عبد الله بن خالد بن أسيد؛ قال: فمن استعمل على البصرة؟ قال: سمرة بن جندب الفزاري، فقال له معاوية: لو استعملك أبوك استعملتك، فقال له عبيد الله: أنشدك الله أن يقوها إلي أحد بعدك؛ لو لأك أبوك وعمك لوليتك!

قالا: وكان معاوية إذا أراد أن يولي رجلاً من بني حرب ولأه الطائف، فإن رأى منه خبراً وما يعجبه ولأه مكة معها، فإن أحسن الولاية وقام بما وُلي قياماً حسناً جمع له معها المدينة، فكان إذا ولي الطائف رجلاً قيل: هو في أبي جاد، فإذا ولأه مكة قيل: هو في القرآن، فإذا ولأه المدينة قيل: هو قد حذق.

قالا: فلما قال عبيد الله ما قال ولأه خراسان، ثم قال له حين ولأه: إني قد عهدت إليك مثل عهدي إلى عمالي، ثم أوصيك وصية القرابة لخاصتك عندي: لا تبعن كثيراً بقليل، وخذ لنفسك من نفسك، واكتف فيما بينك وبين عدوك بالوفاء تخف عليك المؤونة وعلينا منك، وافتح بابك للناس تكن في العلم منهم أنت وهم سواء، وإذا عزمتم على أمر فأخرجه إلى الناس، ولا يكن لأحد فيه مطمع، ولا يرجع عنك وأنت تستطيع،

وإذا لقيت عدوك فغلّبوك على ظهر الأرض فلا يغلبوك على بطنها ، وإن احتاج أصحابك إلى أن تؤاسيهم بنفسك فأسيهم .

حدّثني عمر ، قال : حدّثني علي ، قال : أخبرنا علي بن مجاهد ، عن ابن إسحاق ، قال : استعمل معاوية عبيد الله بن زياد وقال :

استمسك الفسّاس إن لم يقطع

وقال له : اتق الله ولا تؤثّر على تقوى الله شيئاً ، فإن في تقواه عوضاً ، وفي عرضك من أن تُدّسه ، وإذا أعطيت عهداً فف به ، ولا تبعن كثيراً بقليل ، ولا تُخرجن منك أمراً حتى تُبرمه ، فإذا خرج فلا يُردن عليك ، وإذا لقيت عدوك فكن أكثر من معك ، وقاسمه على كتاب الله ، ولا تطمعن أحداً في غير حقه ، ولا تؤيسن أحداً من حق له . ثم ودّعه .

حدّثني عمر ، قال : حدّثنا علي ، قال : حدّثنا مسلمة ، قال : سار عبيد الله إلى خراسان في آخر سنة ثلاث وخمسين وهو ابن خمس وعشرين سنة من الشام وقدم إلى خراسان أسلم بن زُرعة الكلابي ، فخرج ، فخرج معه من الشام الجعد بن قيس النّمري يَرْجُز بين يديه بمرثية زياد يقول فيها :

وحَدّثني عمر مرّة أخرى في كتابه الذي سمّاه كتاب «أخبار أهل البصرة» ، فقال : حدّثني أبو الحسن المدائني قال : لما عقد معاوية لعبيد الله بن زياد على خراسان خرج وعليه عِمامة - وكان وضيئاً - والجعد بن قيس يُنشد مرثية زياد :

أَبْقِ عَلَيَّ عَازِلِي مِنَ اللَّوْمِ	فِيمَا أُزِيلْتُ نِعَمَتِي قَبْلَ الْيَوْمِ
قَدْ ذَهَبَ الْكَرِيمُ وَالظَّلُّ الدَّوْمِ	وَالنَّعْمُ الْمُؤْتَلُّ الدَّثَرُ الْحَوْمِ
وَالْمَاشِيَاتُ مَشِيَّةٌ بَعْدَ النَّوْمِ	لَيْتَ الْجِيَادَ كُلَّهَا مَعَ الْقَوْمِ
سُقَيْنَ سَمٌّ سَاعَةً قَبْلَ الْيَوْمِ	لَأَرْبَعَ مَضِيْنٍ مِنْ شَهْرِ الصَّوْمِ

ومنها :

يَوْمُ الثَّلَاثَاءِ الَّذِي كَانَ مَضَى	يَوْمٌ قَضَى فِيهِ الْمَلِكُ مَا قَضَى
وَفَاةَ بَرٍّ مَاجِدٍ جَلِيدِ الْقَوَى	حَرِيهِ نَوَالُ جَعْدٍ وَالتَّظَى
كَانَ زِيَادٌ جَبَلًا ضَعْبَ الدَّرَى	شَهْمًا إِذَا شَتُمَ نَقِصَاتِ أَبِي

لا يُعِيدُ اللَّهُ زِيَادًا إِذْ تَوَى

وبكى عبيد الله يومئذ حتى سقطت عمامته عن رأسه ، قال : وقَدِمَ عبيد الله خراسان ثم قطع النهر إلى جبال بُخارى على الإبل ، فكان هو أوّل من قطع إليهم جبال بُخارى في جند ، ففتح رامثين ونصف بيكند - وهما من بخارى - فمِنَ ثَمَ أصاب البخارية .

قال علي : أَخْبَرَنَا الحسن بن رشيد ، عن عمّه ، قال : لقي عبيد الله بن زياد التُّركَ بِبُخارى ومع مَلِكِهِم امرأته قبيح خاتون ، فلما هزمهم الله أعجلوها عن لبس خُفْيَها ، فلبست أحدهما وبقي الآخر ، فأصابه المسلمون ، فَقَوْمُ الْجَوْرَبِ بِمِائَتِي أَلْفِ دِرْهَمٍ .

قال : وحَدَّثني محمد بن حفص ، عن عُبَيْد الله بن زياد بن معمر ، عن عُبَادَة بن حصن ، قال : ما رأيت أحداً أشدَّ بأساً من عُبَيْد الله بن زياد ، لقينا زحفً من الترك بخُراسان ، فرأيتُه يقاتل فيَحْمِل عليهم فيَطعن فيهم ويغيب عنا ، ثم يرفع رايته تَقْطُر دماً .

قال علي : وأخبرنا مسلمة أن البخارية الذين قدم بهم عُبَيْد الله بن زياد البصرة ألفان ، كلهم جيّد الرمي بالنشاب .

قال مسلمة : كان زحفُ الترك ببُخارى أيامَ عُبَيْد الله بن زياد من زُحُوف خُراسان التي تُعدُّ ؛ قال : وأخبرنا الهذليُّ ، قال : كانت زُحُوفُ خُراسانَ خمسةً : أربعة لقيها الأحنف بن قيس ؛ الذي لقيه بين قُهِسْتان وأَبْرَشهر ، والزُحُوف الثلاثة التي لقيها بالمرغاب ، والزحف الخامس زُحُف قارِن ، فَضَّه عبدالله بن خازم .

قال علي : قال مسلمة : أقام عُبَيْد الله بن زياد بخُراسان سنتين .

وحجَّ بالناس في هذه السنة مروان بن الحَكَم ، كذلك حَدَّثني أحمد بن ثابت ، عَمَّن حَدَّثه ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، وكذلك قال الواقدي وغيره .

وكان على المدينة في هذه السنة مروان بن الحَكَم ، وعلى الكوفة عبدالله خالد بن أسيد ؛ وقال بعضهم : كان عليها الضحَّاك بن قيس ، وعلى البصرة عبدالله بن عمرو بن غيلان .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ذكر الخبر عن الكائن فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك مَشَى سُفْيَانُ بْنُ عَوْفٍ الْأَزْدِيُّ بِأَرْضِ الرُّومِ فِي قَوْلِ الْوَاقِدِيِّ .
وقال بعضهم : بل الذي كان شَتَا بِأَرْضِ الرُّومِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ عَمْرُو بْنُ مُحَرَّزٍ .
وقال بعضهم : بل الذي شَتَا بِهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ الْفَزَارِيُّ .
وقال بعضهم : بل ذلك مَالِكُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ .
وفيهَا عَزَلَ مُعَاوِيَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ غِيْلَانَ عَنِ الْبَصْرَةِ وَوَلَّاهَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ .

ذكر الخبر عن سبب عزل معاوية عبدالله بن عمرو بن غيلان وتوليته عبيدالله البصرة

حَدَّثَنِي عُمَرُ ، قَالَ : حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ هِشَامٍ وَعَلِيٌّ بْنُ مُحَمَّدٍ - قَالَ : وَاخْتَلَفَا فِي بَعْضِ الْحَدِيثِ - قَالَا :
خَطَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنُ غِيْلَانَ عَلَى مَنبَرِ الْبَصْرَةِ ، فَحَصَّبَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي ضَبَّةٍ - قَالَ عُمَرُ : قَالَ أَبُو الْحَسَنِ :
يُدْعَى جَبْرِ بْنُ الضَّحَّاكِ أَحَدَ بَنِي ضِرَارٍ - فَأَمَرَ بِهِ فَقُطِعَتْ يَدُهُ ، فَقَالَ :

السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَالتَّسْلِيمُ خَيْرٌ وَأَعْفَى لِبَنِي تَمِيمٍ

فَأَتَتْهُ بَنُو ضَبَّةٍ ، فَقَالُوا : إِنَّ صَاحِبَنَا جَنَى مَا جَنَى عَلَى نَفْسِهِ ، وَقَدْ بَالَغَ الْأَمِيرُ فِي عَقُوبَتِهِ ، وَنَحْنُ لَا
نَأْمَنُ أَنْ يَبْلُغَ خَبْرَهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَيَأْتِي مِنْ قِبَلِهِ عَقُوبَةٌ تَخْصُصُ أَوْ تَعْمُ ، فَإِنْ رَأَى الْأَمِيرُ أَنْ يَكْتُبَ لَنَا كِتَابًا
يُخْرِجُ بِهِ أَحَدَنَا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يُخْبِرُهُ أَنَّهُ قَطَعَهُ عَلَى شُبْهَةٍ وَأَمَرَ لَمْ يَضِحْ ، فَكُتِبَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى
مُعَاوِيَةَ ، فَأَمْسَكُوا الْكِتَابَ حَتَّى بَلَغَ رَأْسَ السَّنَةِ - وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ : لَمْ يَزِدْ عَلَى سِتَّةِ أَشْهُرٍ - فَوَجَّهَ إِلَى
مُعَاوِيَةَ ، وَوَفَّاهُ الضُّبِّيُّونَ ، فَقَالُوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّهُ قَطَعَ صَاحِبَنَا ظُلْمًا ، وَهَذَا كِتَابُهُ إِلَيْكَ ، وَقَرَأَ
الْكِتَابَ ، فَقَالَ : أَمَا الْقَوْدُ مِنْ عَمَّالِي فَلَا يَصَحُّ ، وَلَا سَبِيلُ إِلَيْهِ ، وَلَكِنْ إِنْ شِئْتُمْ وَدَيْتُمْ صَاحِبَكُمْ ؛ قَالُوا :
فَدِهِ ؛ فَوَدَّاهُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ ، وَعَزَلَ عَبْدُ اللَّهِ ، وَقَالَ لَهُمْ : اخْتَارُوا مَنْ تَحِبُّونَ أَنْ أُولِّيَ بَلَدَكُمْ ؛ قَالُوا : يَتَخَيَّرُ
لَنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَدْ عَلِمَ رَأْيَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فِي ابْنِ عَامِرٍ ؛ فَقَالَ : هَلْ لَكُمْ فِي ابْنِ عَامِرٍ؟ فَهُوَ مَنْ قَدْ عَرَفْتُمْ
فِي شَرَفِهِ وَعَفَافِهِ وَطَهَارَتِهِ ، قَالُوا : أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَعْلَمُ ، فَجَعَلَ يُرَدِّدُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ لِيَسْبِرَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : قَدْ
وَلَّيْتُ عَلَيْكُمْ ابْنَ أَخِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ .

قال عمر: حدّثني علي بن محمد، قال: عَزَلَ معاويةُ عبدَ الله بنَ عمرو وولى عُبَيْدَ الله بنَ زيادَ البصرةَ في سنة خمسٍ وخمسين وولى عبيد الله أسلم بن زُرْعَةَ خُراسان فلم يَغْزُ ولم يفتح بها شيئاً ، وولى شُرْطَه عبد الله بن حصن ، والقضاءَ زُرارةَ بن أوفى ثم عَزَلَه ، وولى القضاء ابن أذينة العبدى .
وفي هذه السنة عزل معاويةُ عبدَ الله بن خالد بن أسيد عن الكوفة وولّاها الضحّاك بن قيس الفهري .
وحجّ بالناس في هذه السنة مروانُ بن الحَكَم ؛ حدّثني بذلك أحمدُ بن ثابت ، عمّن حدّثه ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر .

ثم دخلت سنة ست وخمسين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

ففيها كان مَشَقُّ جُنَادَةِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ بِأَرْضِ الرُّومِ ؛ وقيل : عبدالرحمن بن مسعود .

وقيل غزا فيها في البحر يزيد بن شَجَرَةَ الرَّهَآوِيِّ ، وفي البرِّ عِيَاضُ بْنُ الْحَارِثِ .

وحجَّ بالناس - فيما حدَّثني أحمد بن ثابت عمن حدَّثه ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر - الوليد ابن عُتْبَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ .

وفيهما اعْتَمَرَ معاوية في رجب .

وفيهما دعا معاوية الناسَ إلى بيعَةِ ابنه يزيدَ من بعده ، وجعله وليَّ العهد .

ذكر السبب في ذلك :

حدَّثني الحارث ، قال : حدَّثنا علي بن محمد ، قال : حدَّثنا أبو إسماعيل الهمداني وعلي بن مجاهد ، قالوا : قال الشعبي : قَدِمَ المَغِيرَةُ عَلَى معاويةَ واستعفاه وشكا إليه الضَّعْفَ ، فأعفاه ، وأراد أن يولِّيَ سَعِيدَ بْنَ العَاصِ ، وبلغ كاتب المَغِيرَةَ ذلك ، فأقَى سَعِيدَ بْنَ العَاصِ فَأخبره وعنده رجل من أهل الكوفة يقال له ربيعة - أو الربيع - من خُزَاعَةَ ، فأقَى المَغِيرَةَ فقال : يا مَغِيرَةَ ، ما أرى أميرَ المؤمنين إلَّا قد قَلَكَ ، رأيتُ ابنَ حُنَيْسٍ كَاتِبَكَ عند سَعِيدِ بْنِ العَاصِ يخبره أَنَّ أميرَ المؤمنين يُولِّيهِ الكُوفَةَ ، قال المَغِيرَةُ : أفلا يقول كما قال الأعشى :

أَمْ غَابَ رَبُّكَ فَأَعْتَرْتُكَ خِصَاصَةً وَلَعَلَّ رَبُّكَ أَنْ يَعُودَ مُؤَيَّدًا

رُؤْيِدًا ! ادخل على يزيد ؛ فدخل عليه فعرض له بالبيعة ، فأدَّى ذلك يزيد إلى أبيه ، فردَّ معاوية المَغِيرَةَ إلى الكوفة ، فأمره أن يعمل في بيعة يزيد ، فشَخَّصَ المَغِيرَةَ إلى الكوفة ، فأتاه كاتبه ابن حُنَيْسٍ ، فقال : والله ما غَشَّسْتُكَ وَلَا خُنْتُكَ ، وَلَا كَرِهْتُ وَلَا يَتُّكَ ، ولكنَّ سَعِيدًا كانت له عندي يدٌ وبلاءٌ ، فشكرتُ ذلك له ، فرضيَ عنه وأعادَه إلى كتابته ، وعَمِلَ المَغِيرَةُ في بيعة يزيد ، وأوفد في ذلك وافداً إلى معاوية .

حدَّثني الحارث ، قال : حدَّثنا علي ، عن مَسْلَمَةَ ، قال : لما أراد معاوية أن يبايع ليزيد كتب إلى زياد يستشيرَه ، فبعث زياد إلى عبيد بن كعب النُمَيْرِيِّ ، فقال : إنَّ لكلَّ مستشير ثقةً ، ولكلَّ سرٍّ مستودعٍ ، وإنَّ الناسَ قد أبدعت بهم خَصْلَتَانِ : إذاعة السرِّ ، وإخراج النصيحة إلى غير أهلها ، وليس موضع السرِّ إلَّا أحد رجلين : رجلٌ آخره يرجو ثواباً ، ورجلٌ دُنْيَا لَهُ شَرَفٌ فِي نَفْسِهِ وَعَقْلٌ يَصُونُ حَسَبَهُ ، وقد عجمتُهما منك ، فأحمدت الذي قبلك ، وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصُّحُفِ ؛ إنَّ أميرَ المؤمنين كتب إليّ يزعم أنه قد

عزم على بيعة يزيد ، وهو يتخوف نفرة الناس ، ويرجو مطابقتهم ، ويستشيرني ، وعلاقة أمر الإسلام وضمائه عظيم ، ويزيد صاحب رسالة وتهاون ، مع ما قد أولع به من الصيد ، فالتق أمير المؤمنين مؤدياً عني ؛ فأخبره عن فَعَلات يزيد ؛ فقال له : رُوَيْدَكَ بالأمر ، فأَقَمَنْ أن يتم لك ما تريد ، ولا تَعَجَلْ فَإِنْ دَرَكَا في تأخير خير من تعجيل عاقبته الفُوت . فقال عُبيد له : أفلا غير هذا ! قال : ما هو؟ قال : لا تُفْسِد على معاوية رأيَه ، ولا تَمَقَّتْ إليه ابنته ، وألقى أنا يزيد سراً من معاوية فأخبره عنك أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك في بيعته ، وأنت تخوفُ خلاف الناس لهَنَاتٍ ينقمونها عليه ، وأنت ترى له ترك ما يُنقَمُ عليه ، فيستحكم لأمير المؤمنين الحجة على الناس ، ويسهل لك ما تريد ، فتكون قد نصحت يزيد وأرضيت أمير المؤمنين ؛ فسلمت مما تخاف من علاقة أمر الأمة . فقال زياد : لقد رميت الأمر بحجره ، إشخص على بركة الله ، فإن أصبت فما لا ينكر ، وإن يكن خطأ فغير مستغش وأبعد بك إن شاء الله من الخطأ ، قال : تقول بما ترى ، ويقضي الله بغيب ما يعلم . فقدم على يزيد فذاكره ذلك . وكتب زياد إلى معاوية يأمره بالتؤدة ، وألا يعجل ، فقبل ذلك معاوية ، وكفَّ يزيد عن كثير مما كان يصنع ، ثم قدم عُبيد على زياد فأقطعه قطيعه .

حدَّثني الحارث ، قال : حدَّثنا علي ، قال : لما مات زياد دجا معاوية بكتاب فقرأه على الناس باستخلاف يزيد ، إن حَدَثَ به حدثُ الموت فيزيد وليّ عهد ، فاستوسق له الناس على البيعة ليزيد غير خمسة نفر .

فحدَّثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدَّثنا إسماعيل بن إبراهيم ، قال : حدَّثنا ابن عون ، قال : حدَّثني رجل بنخلة ، قال : بايع الناس ليزيد بن معاوية غير الحسين بن علي وابن عمر وابن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر وابن عباس ؛ فلما قدم معاوية أرسل إلى الحسين بن علي ، فقال : يا بن أخي ، قد استوسق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر من قريش أنت تقودهم ؛ يا بن أخي ، فما إربك إلى الخلاف؟ قال : أنا أقودهم ! قال : نعم ، أنت تقودهم ؛ قال : فأرسل إليهم ، فإن بايعوا كنت رجلاً منهم ، وإلا لم تكن عجلت عليّ بأمر ؛ قال : وتفعل؟ قال : نعم ؛ قال : فأخذ عليه ألا يُخبر بحدثهم أحداً ، قال : فالتوى عليه ، ثم أعطاه ذلك ، فخرج وقد أقعد له ابن الزبير رجلاً بالطريق قال : يقول لك أخوك ابن الزبير : ما كان؟ فلم يزل به حتى استخرج منه شيئاً .

ثم أرسل بعده إلى ابن الزبير ، فقال له : قد استوسق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر من قريش أنت تقودهم ؛ يا بن أخي ! فما إربك إلى الخلاف؟ قال : أنا أقودهم ! قال : نعم ، أنت تقودهم ؛ قال : فأرسل إليهم ، فإن بايعوا كنت رجلاً منهم ، وإلا لم تكن عجلت عليّ بأمر ؛ قال : وتفعل؟ قال : نعم ؛ قال : فأخذ عليه ألا يُخبر بحدثهم أحداً ؛ قال : يا أمير المؤمنين ، نحن في حرم الله عز وجل ، وعهد الله سبحانه ثقيل ، فأب عليه ، وخرج .

ثم أرسل بعده إلى ابن عمر فكلّمه بكلام هو ألين من كلام صاحبه ، فقال : إنّي أُرهب أن أدع أمة محمد بعدي كالضأن لا راعي لها ، وقد استوسق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر من قريش أنت تقودهم ، فما إربك إلى الخلاف ! قال : هل لك في أمر يُذهب الدّم ، ويحقن الدم ، وتُدرِك به حاجتك؟ قال : وددت ! قال : تبرز سريرك ، ثم أجيء فأبايعك ، على أني أدخل بعدك فيما تجتمع عليه الأمة ، فوالله لو أن الأمة اجتمعت بعدك على عبد حبشي لدخلت فيما تدخل فيه الأمة ؛ قال : وتفعل؟ قال : نعم ، ثم خرج فأق منزله فاطبق بابَه ،

وجعل الناس يجيئون فلا يأذن لهم .

فأرسل إلى عبدالرحمن بن أبي بكر ، فقال : يا بن أبي بكر ، بآية يد أو رجل تُقدِّم على معصيتي ! . قال : أرجو أن يكون ذلك خيراً لي ؛ فقال : والله لقد هممتُ أن أقتلك ؛ قال : لو فعلت لأتبعك الله به لعنة في الدنيا ، وأدخلك به في الآخرة النار .

قال : ولم يذكر ابن عباس .

وكان العامل على المدينة في هذه السنة مروان بن الحكم ، وعلى الكوفة الضحّاك بن قيس ، وعلى البصرة عبيد الله بن زياد ، وعلى خراسان سعيد بن عثمان .

وكان سبب ولايته خراسان ما حدّثني عمر ، قال : حدّثني علي ، قال : أخبرني محمد بن حفص ، قال : سألت سعيد بن عثمان معاوية أن يستعمله على خراسان ، فقال : إنّ بها عبيد الله بن زياد ، فقال : أما لقد اصطنعك أبي ورّفاك حتى بلغت باصطناعه المذى الذي لا يُجارى إليه ولا يُسامى ، فما شكرت بلاءه ، ولا جازيته بآلائه ، وقَدِّمت عليّ هذا - يعني يزيد بن معاوية - وبايعت له ؛ والله لأنا خير منه أباً وأماً ونفساً ؛ فقال : فقال معاوية : أما بلاء أبيك فقد يحقّ عليّ الجزاء به ، وقد كان من شكري لذلك أني طلبتُ بدمه حتى تكشفتم الأمور ، ولست بلائم لنفسي في التّشمير ؛ وأما فضل أبيك على أبيه فأبوك والله خيرٌ مني وأقرب برسول الله ﷺ ؛ وأما فضل أمك على أمه فما يُنكر ، امرأة من قريش خير من امرأة من كلب ، وأما فضلك عليه فوالله ما أحبّ أن الغوطة دُحِسَتْ ليزيد رجلاً مثلك . فقال له يزيد : يا أمير المؤمنين ، ابنُ عمك ، وأنت أحقّ من نظري في أمره ، وقد عتبّ عليك فأعتبه ، قال : فولّاه حرب خراسان ، وولى إسحاق بن طلحة خراجها ، وكان إسحاق ابن خالة معاوية ، أمّه أمّ أبان ابنة عتبة بن ربيعة ، فلما صار بالرّيّ مات إسحاق بن طلحة فولّي سعيد خراج خراسان وحربها .

حدّثني عمر ، قال : حدّثني علي ، قال : أخبرنا مسلمة ، قال : خرج سعيد إلى خراسان وخرج معه أوس بن ثعلبة التّيمي صاحب قصر أوس ؛ وطلحة بن عبدالله بن خلف الخزاعيّ والمهلب بن أبي صفرة وربيعه بن عسل أحد بني عمرو بن يربوع ؛ قال : وكان قومٌ من الأعراب يقطعون الطريق على الحاجّ بطن فلج ، فقليل لسعيد : إنّ ها هنا قوماً يقطعون الطريق على الحاجّ ويخيفون السبيل ، فلو أخرجتهم معك ! قال : فأخرج قوماً من بني تميم ، منهم مالك بن الرّيب المازنيّ في فتیان كانوا معه ، وفيهم يقول الراجز :

الله أنجاك من القصيم ومن أبي حردبّة الأثيم
ومن عُوثٍ فاتح العُكُوم ومالكٍ وسيفه المسموم

قال عليّ : قال مسلمة : قدم سعيد بن عثمان ، فقطع النهر إلى سمرقند ، فخرج إليه أهل الصغد ، فتوافقوا يوماً إلى الليل ثم انصرفوا من غير قتال ، فقال مالك بن الرّيب يذم سعيداً :

ما زلت يوم الصغد تُرعدُ واقفاً من الجبن حتى خفتُ أن تنصّرا
وما كان في عثمان شيءٌ علمته سوى نسليه في رهطه حين أدبرا
ولولا بنو حرب لظلت دماؤكم بطون العظايا من كسير وأعورا

قال : فلما كان الغد خرج إليهم سعيد بن عثمان ، وناهضه الصغد ، فقاتلهم فهزمهم وحصرهم في مدينتهم ، فصالحوه وأعطوه رهناً منهم خمسين غلاماً يكونون في يده من أبناء عظمائهم ، وعبر فأقام بالترمد ، ولم يف لهم ، وجاء بالغلّمان الرهن معه إلى المدينة .

قال : وقدم سعيد بن عثمان خراسان وأسلم بن زُرعة الكلابي بها من قبل عبّيد الله بن زياد ، فلم يزل أسلم بن زُرعة بها مقيماً حتى كتب إليه عبّيد الله بن زياد بعهدده على خراسان الثانية ، فلما قدّم كتاب عبّيد الله على أسلم طرق سعيد بن عثمان ليلاً ، فأسقطت جارية له غلاماً ، فكان سعيد يقول : لأقتلن به رجلاً من بني حرب ؛ وقدم على معاوية فشكا أسلم إليه ، وغضبت القيسية ؛ قال : فدخل همّام بن قبيصة النّمري فنظر إليه معاوية محمراً العينين ، فقال : يا همّام ، إنّ عينيك لمحمّرتان ؛ قال همّام : كانتا يوم صِفّين أشدّ حمرة ؛ فغمّ معاوية ذلك ، فلما رأى ذلك سعيد كفّ عن أسلم ، فأقام أسلم بن زُرعة على خراسان والياً لعبّيد الله بن زياد سنتين .

ثم دخلت سنة سبع وخمسين

وكان فيها مَشَقَّ عبد الله بن قيس بأرض الروم .
 وفيها صُرف مروانُ عن المدينة في ذي القعدة في قول الواقدي ؛ وقال غيره : كان مروانُ إلى المدينة في
 هذه السنة .
 وقال الواقدي : استعمل معاويةُ على المدينة حين صَرف عنها مروانَ الوليدَ بن عُتبة بن أبي سُفيان .
 وكالذي قال الواقدي قال أبو معشر ، حَدَّثني بذلك أحمدُ بن ثابت الرازي ، عَمَّن حَدَّثه ، عن إسحاق
 ابن عيسى ، عنه .
 وكان العامل على الكوفة في هذه السنة الضحَّاكُ بنُ قيس ، وعلى البصرة عُبيد الله بن زياد ، وعلى
 خُراسانَ سعيد بن عثمان بن عفَّان .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فيها نزح معاوية مروان عن المدينة في ذي القعدة في قول أبي معشر، وأمر الوليد بن عتبة بن أبي سفيان عليها؛ حدثني بذلك أحمد بن ثابت عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عنه . وفيها غزا مالك بن عبدالله الخثعمي أرض الروم .

وفيها قتل يزيد بن شجرة في البحر في السفن في قول الواقدي . قال : ويقال عمرو بن يزيد الجهني ، رثاه الذي شتا بأرض الروم ، وقد قيل : إن الذي غزا في البحر في هذه السنة جنادة بن أبي أمية .

وحج بالناس في هذه السنة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، كذلك حدثني أحمد بن ثابت عمّن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، وكذلك قال الواقدي وغيره .

وفي هذه السنة ولي معاوية الكوفة عبدالرحمن بن عبدالله بن عثمان بن ربيعة الثقفي ، وهو ابن أم الحَكَم أخت معاوية بن أبي سفيان ، وعزل عنها الضحّاك بن قيس ، ففي عمله في هذه السنة خرجت الطائفة الذين كان المغيرة بن شعبة حبسهم في السجن من الخوارج الذين كانوا بايعوا المستورد بن علفة ، فظفر بهم فاستودعهم السجن ، فلما مات المغيرة خرجوا من السجن .

فذكر هشام بن محمد أنّ أبا مخنف ، حدثه عن عبدالرحمن بن جندب ، عن عبدالله بن عتبة الغنوي أنّ حيّان بن ظبيان السلمي جمع إليه أصحابه ، ثم إنه حمّد الله وأثنى عليه ثم قال لهم : أمّا بعد ، فإنّ الله عزّ وجلّ كسب علينا الجهاد ، فمنا من قضى نحبه ، ومنا من ينتظر ، وأولئك الأبرار الفائزون بفضلهم ، ومنّ يكن منا من ينتظر فهو من سلفنا القاصين نحبهم ، السابقين بإحسان ؛ فمن كان منكم يريد الله وثوابه فليسلك سبيل أصحابه وإخوانه يؤثّر الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله مع المحسنين .

قال معاذ بن جوين الطائي : يا أهل الإسلام ، إنا والله لو علمنا أنا إذا تركنا جهاد الظلمة وإنكار الجور ، كان لنا به عند الله عذر ، لكان تركه أيسر علينا ، وأخفّ من ركوبه ، ولكنّا قد علمنا واستيقنا أنه لا عذر لنا ، وقد جعل لنا القلوب والأسماع حتى ننكر الظلم ، ونغيّر الجور ، ونجاهد الظالمين ؛ ثم قال : أبسط يدك نبايعك ، فبايعه وبايعة القوم ، فضربوا على يد حيّان بن ظبيان ، فبايعوه ، وذلك في إمارة عبدالرحمن بن عبدالله بن عثمان الثقفي ، وهو ابن أم الحَكَم ، وكان على شرطته زائدة بن قدامة الثقفي .

ثم إن القوم اجتمعوا بعد ذلك بأيام إلى منزل معاذ بن جوين بن حصين الطائي . فقال لهم حيّان بن

ظُبَيَّان : عبادَ الله ، أشيروا برأيكم ، أين تأمروني أن أخرج ؟ فقال له معاذ : إني أرى أن تسير بنا إلى حُلوان حتى ننزلها ، فإنها كورةٌ بين السهل والجبل ، وبين المِصرِ والثغر - يعني بالشعر الرّي - فمن كان يرى رأيَنا من أهل المِصرِ والثغر والجبال والسواد لحق بنا . فقال له حَيَّان : عدوكم مُعاجلك قبل اجتماع الناس إليك ، لَعَمري لا يتركونكم حتى يجتمعوا إليكم ، ولكن قد رأيت أن أخرجَ معكم في جانب الكوفة والسَّبْخَة أو زُرارة والحِيرة ، ثم نقاتلهم حتى نلحق برَبِّنا ، فإني والله لقد علمتُ أنكم لا تقدرون وأنتم دون المائة رجل أن تهزموا عدوكم ، ولا أن تشتدَّ نكايتكم فيهم ؛ ولكن متى علم الله أنكم قد أجهدتم أنفسكم في جهادِ عدوّه وعدوكم كان لكم به العذر ، وخرجتم من الإثم . قالوا : رأيَنا رأيك ، فقال لهم عِتريس بن عُرقوب أبو سليمان الشيباني : وإنني لا أرى رأيَ جماعتكم ، فانظروا في رأي لكم ، إني لا إخالكم تُجهلون معرفتي بالحرب ، وتجربتي بالأمر ، فقالوا له : أَجَل ، أنت كما ذكرت ، فما رأيك ؟ قال : ما أرى أن تخرجوا على الناس بالمِصر ، إنكم قليل في كثير ، والله ما تزيدون على أن تحزروهم أنفسكم ؛ وتقرؤوا أعينهم بقتلكم ، وليس هكذا تكون المكايدة إذ أترتم أن تخرجوا على قومكم ، فكيّدوا عدوكم ما يضرهم ؛ قالوا : فما الرأي ؟ قال : تسيرون إلى الكورة التي أشار بنزولها معاذ بن جُوَيْن بن حصين - يعني حُلوان - أو تسيرون بنا إلى عَيْن التمر فنقيم بها ، فإذا سمع بنا إخواننا أتونا من كلّ جانبٍ وأوب ؛ فقال له حَيَّان بن ظُبَيَّان : إنك والله لو سرتَ بنا أنت وجميع أصحابك نحو واحد هذين الوجهين ما اطمأننتم به حتى يلحق بكم خيولُ أهل المِصر ، فأني تشفون أنفسكم ! فوالله ما عدتكم بالكثيرة التي ينبغي أن تطمعوها بالنصر في الدنيا على الظالمين المعتدين ، فأخرجوا بجانب من مِصرهم هذا فقاتلوا عن أمر الله من خالف طاعة الله ، ولا تربصوا ولا تنتظروا فإنكم إنما تبادرون بذلك إلى الجنة ، وتُخرجون أنفسكم بذلك من الفتنة . قالوا : أما إذا كان لا بدّ لنا فإننا لن نخالفك ، فأخرج حيث أحببت .

فمكث حتى إذا كان آخر سنة من سِنِي ابن أمّ الحَكَم في أول السنة - وهو أوّل يوم من شهر ربيع الآخر - اجتمع أصحابُ حَيَّان بن ظُبَيَّان إليه ، فقال لهم : يا قوم ، إن الله قد جمعكم لخير وعلى خير ، والله الذي لا إله غيره ما سررتُ بشيء قطّ في الدنيا بعدما أسلمت سُروري لمُخرجي هذا على الظلّمة الأثمة ، فوالله ما أحبّ أن الدنيا بحذافيرها لي وأن الله حَرَمَني في مُخرجي هذا الشهادة . وإني قد رأيت أن نخرج حتى ننزل جانب دار جرير ، فإذا خرج إليكم الأحزابُ ناجزتموهم . فقال عِتريس بن عُرقوب البَكْرِي : أمّا أن نقاتلهم في جوف المِصرِ فإنه يقاتلنا الرّجال ، وتُصعدُ النساءُ والصّبيان ، والإماء فيرموننا بالحجارة ؛ فقال لهم رجل منهم : إنزلوا بنا إذاً من وراء المِصرِ الجسر - وهو موضع زُرارة ، وإنما بنيت زُرارة بعد ذلك إلا أبيتاً يسيرة كانت منها قبل ذلك - فقال لهم معاذ بن جوين بن حصين الطائي : لا ، بل سيروا بنا فلننزل بأنقياً فما أسرع ما يأتاكم عدوكم ، فإذا كان ذلك استقبلنا القومُ بوجوهنا ، وجعلنا البيوت في ظهورنا ، فقاتلناهم من وجه واحد . فأخرجوا ، فبعث إليهم جيش ، فقتلوا جميعاً .

ثم إن عبد الرحمن بن أمّ الحَكَم طرده أهل الكوفة ، فحدّثت عن هشام بن محمد ، قال : استعمل معاوية ابن أمّ الحَكَم على الكوفة فأساء السيرة فيهم ، فطرده ، فلحق بمعاوية وهو خاله ، فقال له : أولئك خيرٌ منها ؛ مِصرٌ ؛ قال : فولاه ، فتوجه إليها ، وبلغ معاوية بن حُديج السَّكُونِي الخبر ، فخرج فاستقبله على مرّحلتين من مِصر ، فقال : إرجع إلى خالك فلعمري لا تسير فينا سيرتك في إخواننا من أهل الكوفة .

قال : فرجع إلى معاوية ، وأقبل معاوية بن حُذَيج وافداً ؛ وقال : وكان إذا جاء قُلِّسَتْ له الطريق - يعني ضُربت له قِباب الرِّيحان - قال : فدخل على معاوية وعنده أم الحكم ، فقالت : مَنْ هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : بخ ! هذا معاوية بن حُذَيج ؛ قالت : لا مرحباً به ! تَسْمَع بالمُعَيَّدِي خَيْرٍ مِنْ أن تراه ؛ فقال : على رَسْلِكَ يا أم الحكم ! أما والله لقد تزوجتِ فما أكرمتِ ، وولدتِ فما أُنَجَّيتِ ، أردتِ أن يلي ابنك الفاسق علينا فيسير فينا كما سار في إخواننا من أهل الكوفة ؛ ما كان الله لِيُريه ذلك ، ولو فعل ذلك لضربناه ضرباً يطأطأ به منه ، وإن كره ذلك إبليس . فالتفت إليها معاوية ، فقال : كُفِّي .

وفي هذه السنة اشتدَّ عبيد الله بن زياد على الخوارج ، فقتل منهم صبراً جماعة كثيرة ، وفي الحرب جماعة أخرى ، ومن قتل منهم صبراً عروة بن أدية ، أخو أبي بلال مرداس بن أدية .
ذكر سبب قتله إياهم :

حدثني عمر ، قال : حدثني زهير بن حرب ، قال : حدثنا وهب بن جرير ، قال : حدثني أبي ، قال : حدثني عيسى بن عاصم الأسدي ، أن ابن زياد خرج في رهان له ، فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع الناس وفيهم عروة بن أدية أخو أبي بلال ، فأقبل على ابن زياد فقال : خمس كن في الأمم قبلنا ، فقد صرنا فينا : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴾ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿ ١ ﴾ . وخصلتين آخرين لم يحفظهما جرير : فلما قال ذلك ظنَّ ابن زياد أنه لم يجترأ على ذلك إلا ومعه جماعة من أصحابه ، فقام وركب وترك رهانه ، فقبل لعروة : ما صنعت ! تعلمن والله ليقتلنك . قال : فتواري ، فطلبه ابن زياد ، فأتى الكوفة ، فأخذ بها ، فقدم به على ابن زياد ، فأمر به فقطعت يداه ورجلاه ، ثم دعا به فقال : كيف ترى ؟ قال : أرى أنك أفسدت دنيائي وأفسدت آخرتك ؛ فقتله ، وأرسل إلى ابنته فقتلها .

وأما مرداس بن أدية فإنه خرج بالأهواز وقد كان ابن زياد قبل ذلك حبسه - فيما حدثني عمر ، قال : حدثني خلاد بن يزيد الباهلي ، قال : حبس ابن زياد - فيمن حبس - مرداس بن أدية ، فكان السجن يرى عبادته واجتهاده ، وكان يأذن له في الليل ، فيصرف ، فإذا طلع الفجر أتاها حتى يدخل السجن ، وكان صديقاً لمرداس يسامره ابن زياد ، فذكر ابن زياد الخوارج ليلة فعزم على قتلهم إذا أصبح ، فانطلق صديق مرداس إلى منزل مرداس فأخبرهم ، وقال : أرسلوا إلى أبي بلال في السجن فليعهد فإنه مقتول ، فسمع ذلك مرداس ، وبلغ الخبر صاحب السجن ، فبات بليلة سوء إشفاقاً من أن يعلم الخبر مرداس فلا يرجع ، فلما كان الوقت الذي كان يرجع فيه إذا به قد طلع ، فقال له السجن : هل بلغك ما عزم عليه الأمير ؟ قال : نعم ؛ قال : ثم غدوت ! قال : نعم ، ولم يكن جزاؤك مع إحسانك أن تعاقب بسببي ؛ وأصبح عبيد الله فجعل يقتل الخوارج ، ثم دعا بمرداس ، فلما حضر وثب السجن - وكان ظمراً لعبيد الله - فأخذ بقدمه ، ثم قال : هب لي هذا ؛ وقص عليه قصته ، فوهبه له وأطلقه .

حدثني عمر ، قال : حدثنا زهير بن حرب ، قال : حدثنا وهب بن جرير ، قال : حدثنا أبي ، قال : حدثني يونس بن عبيد ، قال : خرج مرداس أبو بلال - وهو من بني ربيعة بن حنظلة - في أربعين رجلاً إلى

الأهواز ، فبعث إليهم ابنُ زياد جيشاً عليهم ابنُ حصن التميمي ، فقتلوا في أصحابه وهزموه ، فقال رجلٌ من بني تميم الله بن ثعلبة :

وَيَقْتُلُهُمْ بِأَسْكَ أَرْبَعُونَ	أَأَلْفَا مُؤْمِنٍ مِنْكُمْ زَعَمْتُمْ
وَلَكِنْ الْخَوَارِجُ مُؤْمِنُونَ	كَذَبْتُمْ لَيْسَ ذَاكَ كَمَا زَعَمْتُمْ
عَلَى الْفِئَةِ الْكَثِيرَةِ يُنْصَرُونَ	هِيَ الْفِئَةُ الْقَلِيلَةُ قَدْ عَلِمْتُمْ

قال عمر: البيت الأخير ليس في الحديث ، أنشدنيهِ خلاد بن يزيد الباهلي .
 وقيل : مات في هذه السنة عميرة بن يثري قاضي البصرة ، واستُضيي مكانه عليها هشام بن هُبيرة .
 وكان على الكوفة في هذه السنة عبدالرحمن بن أمّ الحَكَم . وقال بعضهم : كان عليها الضحّاك بن قيس الفِهْرِي ، وعلى البصرة عُبيدالله بن زياد ، وعلى قضاء الكوفة شريح .
 وحجّ بالناس الوليدُ بنُ عُتبة في هذه السنة ، كذلك قال أبو معشر والواقدي .

ثم دخلت سنة تسع وخمسين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

ففيها كان مَشَقَى عمرو بن مَرَّة الجُهَنِيّ أرض الروم في البرّ ؛ قال الواقدي : لم يكن عامئذٍ غزو في البحر . وقال غيره : بل غزا في البحر جُنادة بن أبي أمية .

وفيهما عَزَلَ عبد الرحمن بن أمّ الحكم عن الكوفة ، واستُعْمِلَ عليها النعمان بن بشير الأنصاري ؛ وقد ذكرنا قبلُ سبب عزل ابن أمّ الحَكَم عن الكوفة .

وفي هذه السنة ولَّى معاوية عبد الرحمن بن زياد بن سُمَيَّة خراسان .

ذكر سبب استعمال معاوية لإيَّاه على خراسان :

حدثني الحارث بن محمد ، قال : حدَّثنا علي بن محمد ، قال : حدَّثنا أبو عمرو ، قال : سمعتُ أشياخنا يقولون : قدم عبد الرحمن بن زياد وافداً على معاوية ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أَمَا لنا حقٌّ ؟ قال : بَلَى ؛ قال : فماذا تولّيتني ؟ قال : بالكوفة النعمان رشيدٌ ، وهو رجل من أصحاب النبي ﷺ ، وعبيد الله بن زياد على البصرة وخراسان ، وعبد بن زياد على سجستان ، ولست أرى عملاً يُشبهك إلا أن أشركك في عمل أخيك عبيد الله ؛ قال : أشركني ؛ فإنَّ عمله واسع يحتمل الشركة ، فولَّاه خراسان .

قال علي : وذكر أبو حفص الأزدي ، قال : حدَّثني عمر ، قال : قدم علينا قيس بن الهيثم السلمي ، وقد وجَّهه عبد الرحمن بن زياد ، فأخذ أسلم بن زُرْعَة فحبسه ، ثم قدِم عبد الرحمن ، فأغرَم أسلم بن زُرْعَة ثلاثمائة ألف درهم .

قال : وذكر مصعب بن حيَّان ، عن أخيه مُقاتل بن حيَّان ، قال : قدِم عبد الرحمن بن زياد خراسان ، فقدِم رجلٌ سخيٌّ حريصٌ ضعيفٌ لم يغزُ غزوةً واحدةً ، وقد أقام بخراسان سنتين .

قال علي : قال عوانة : قدِم عبد الرحمن بن زياد على يزيد بن معاوية من خراسان بعد قتل الحسين عليه السلام ، واستخلف على خراسان قيس بن الهيثم .

قال : وحدَّثني مسلمة بن محارب وأبو حفص ، قالا : قال يزيد لعبد الرحمن بن زياد : كم قدمت به معك من المال من خراسان ؟ قال : عشرين ألف ألف درهم ؛ قال : إن شئتَ حاسبناك وقبضناها منك ، ورددناك على عملك ، وإن شئتَ سوَّغناك وعزَّلناك ، وتعطي عبد الله بن جعفر خمسمائة ألف درهم ؛ قال : بل تسوَّغني ما قلت ، ويُستعمل عليها غيري . وبعث عبد الرحمن بن زياد إلى عبد الله بن جعفر بألف ألف درهم ، وقال :

خمسائة ألف من قبل أمير المؤمنين ، وخمسائة ألف من قبلي .

وفي هذه السنة وفد عبيد الله بن زياد على معاوية في أشراف أهل البصرة ، فعزله عن البصرة ، ثم رده عليها وجدد له الولاية .

ذكر من قال ذلك :

حدثني عمر ، قال : حدثني علي ، قال : وفد عبيد الله بن زياد في أهل العراق إلى معاوية فقال له : ائذن لوفدك على منازلهم وشرفهم ، فأذن لهم ، ودخل الأحنف في آخرهم ، وكان سبيء المنزلة من عبيد الله ، فلما نظر إليه معاوية رحب به ، وأجلسه معه على سريريه ، ثم تكلم القوم فأحسنوا الثناء على عبيد الله ، والأحنف ساكت ، فقال : ما لك يا أبا بحر لا تتكلم ؟ قال : إن تكلمت خالفت القوم . فقال : انهضوا فقد عزلته عنكم ، واطلبوا والياً ترضونه ، فلم يبق في القوم أحد إلا أتى رجلاً من بني أمية أو من أشراف أهل الشام ، كلهم يطلب ، وقعد الأحنف في منزله ، فلم يأت أحداً ، فليثوا أياماً ، ثم بعث إليهم معاوية فجمعهم ، فلما دخلوا عليه قال : من اخترتم ؟ فاختلفت كلمتهم ، وسمى كل فريق منهم رجلاً والأحنف ساكت ، فقال له معاوية : ما لك يا أبا بحر لا تتكلم ؟ قال : إن وليت علينا أحداً من أهل بيتك لم نعدل بعبيد الله أحداً ، وإن وليت من غيرهم فانظر في ذلك ، قال معاوية : فإني قد أعدته عليكم ، ثم أوصاه بالأحنف ، وقبح رأيه في مبادئه ، فلما هاجت الفتنة لم يف لعبيد الله غير الأحنف .

وفي هذه السنة كان ما كان من أمر يزيد بن مفرغ الحميري وعبد بن زياد وهجاء يزيد بن زياد .

ذكر سبب ذلك :

حدثت عن أبي عبيدة معمر بن المثنى أن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري كان مع عبد بن زياد بسجستان ، فاشتغل عنه بحرب الترك ، فاستبطأه ، فأصاب الجند مع عبد ضيقاً في أعلاف دوابهم ، فقال ابن مفرغ :

أَلَا لَيْتَ اللَّحَى عَادَتْ حَشِيشاً فَنَعْلِفُهَا خِيُولَ الْمُسْلِمِينَ !

وكان عبد بن زياد عظيم اللحية ، فألمح شعره إلى عبد ؛ وقيل : ما أراد غيرك ، فطلبه عبد ، فهرب منه ، وهجاه بقصائد كثيرة ، فكان مما هجاه به قوله :

إِذَا أَوْدَى مُعَاوِيَةَ بْنُ حَرْبٍ فَبَشِّرْ شَعْبَ قَعْبِكَ بِانْصِدَاعِ
فَأَشْهَدْ أَنَّ أَمْرَكَ لَمْ تُبَاشِرْ أَبَا سُفْيَانَ وَاضْعَةَ الْقِنَاعِ
وَلَكِنْ كَانَ أَمراً فِيهِ لَبْسٌ عَلَى وَجَلٍ شَدِيدٍ وَارْتِيَاعِ

وقوله :

أَلَا أَبْلَغُ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ مَغْلَغَلَةً مِنَ الرَّجُلِ الْيَمَانِي
أَتَغْضَبُ أَنْ يُقَالَ أَبُوكَ عَفٌ وَتَرْضَى أَنْ يُقَالَ أَبُوكَ زَانٍ
فَأَشْهَدْ أَنَّ رَحِمَكَ مِنْ زِيَادٍ كَرَحِمِ الْفِيلِ مِنْ وَلَدِ الْأَتَانِ

فحدّثني أبو زيد، قال: لما هجا ابن المفرغ عبّاداً فارقه مقبلاً إلى البصرة، وعبيد الله يومئذ وافد على معاوية، فكتب عبّاد إلى عبيد الله ببعض ما هجاه به، فلما قرأ عبيد الله الشعر دخل على معاوية فأنشده إياه، واستأذنه في قتل ابن مفرغ، فأبى عليه أن يقتله، وقال: أدّبه ولا تبلغ به القتل، وقدم ابن مفرغ البصرة، فاستجار بالأحنف بن قيس، فقال: إنا لا نجير على ابن سمية، فإن شئت كفيئتك شعراء بني تميم؛ قال: ذاك ما لا أبالي أن أكفاه، فأقى خالد بن عبد الله فوعده، وأقى أمية فوعده، ثم أقى عمر بن عبد الله بن معمر فوعده، ثم أقى المنذر بن الجارود فأجاره، وأدخله داره، وكانت بحرية بنت المنذر عند عبيد الله، فلما قدم عبيد الله البصرة أخبر بمكان ابن مفرغ عند المنذر، وأقى المنذر عبيد الله مسلماً، فأرسل عبيد الله الشرط إلى دار المنذر، فأخذوا ابن مفرغ، فلم يشعر المنذر وهو عند عبيد الله إلاّ بآب من مفرغ قد أقيم على رأسه، فقام إلى عبيد الله وقال: أيها الأمير، إني قد أجرتك، قال: والله يا منذر ليمدحك وأباك ويهجوني أنا وأبي، ثم تجيره عليّ! فأمر به فسقي دواءً، ثم حمل على حمار عليه إكاف فجعل يطاف به وهو يسأل في ثيابه، فيمرّ به في الأسواق، فمرّ به فارسيّ فرآه، فسأل عنه، فقال: إين جيت؟ ففهمها ابن مفرغ، فقال:

آب است نبید است عصارات زيب است
سمية روسيد است

ثم هجا المنذر ابن الجارود:

تركت قريشاً أن أجاور فيهم وجاورت عبد القيس أهل المشقر
أناس أجارونا فكان جوارهم أعاصير من فسو العراق المبذر
فأصبح جاري من جذيمة نائماً ولا يمنع الجيران غير المشمر

وقال لعبيد الله:

يغسل الماء ما صنعت وقولي راسخ منك في العظام البوالي

ثم حمله عبيد الله إلى عبّاد بسجستان، فكلّمت اليمانية فيه بالشام معاوية، فأرسل رسولاً إلى عبّاد، فحمل ابن مفرغ من عنده حتى قدّم على معاوية، فقال في طريقه:

عَدَسْ ما لِعَبَّادِ عَلَيْكَ إِمَارَةً نَجَوْتُ وهذا تحمّلين طليق
لَعَمْرِي لقد نَجَاكَ من هُوَةِ الرَّدَى إِمَامٌ وَحُبْلٌ لِلْأَنَامِ وَثِيقٌ
سَأَشْكُرُ ما أَوْلَيْتَ من حُسْنِ نِعْمَةٍ ومثلي بِشُكْرِ الْمُنْعِمِينَ حَقِيقٌ

فلما دخل على معاوية بكى، وقال: ركبّ مني ما لم يُركب من مسلم على غير حدّ ولا جريرة! قال: أولست القائل:

ألا أبلغ معاوية بن حرب مُغلغلةً من الرُّجُلِ اليماني
القصيد - قال: لا والذي عظم حقّ أمير المؤمنين ما قلتُ هذا؛ قال: أفلم تقل:
فأشهد أن أمك لم تُباشِر أباً سُفِيانَ واضعة القِناع

في أشعار كثيرة هجوت بها ابن زياد! اذهب فقد عفونا لك عن جرمك ، أما لو إيانا تعامل لم يكن مما كان شيء ، فانطلق ؛ وفي أي أرض شئت فانزل . فنزل الموصل ، ثم إنه ارتاح إلى البصرة ، فقدمها ، ودخل على عبيد الله فآمنه .

وأما أبو عبيدة فإنه قال في نزول ابن مفرغ الموصل عن الذي أخبرني به أبو زيد ، قال : ذكر أن معاوية لما قال له : ألسن القائل :

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلقة من الرجل اليماني
الآيات ، حلف ابن مفرغ أنه لم يقله ، وأنه إنما قاله عبد الرحمن بن أم الحکم أخو مروان ، واتخذني ذريعة إلى هجاء زياد ، وكان عتب عليه قبل ذلك ، فغضب معاوية على عبد الرحمن بن أم الحکم وحرمه عطاءه ، حتى أضربه ، فكلم فيه ، فقال : لا أرضى عنه حتى يرضى عبيد الله ؛ فقدم العراق على عبيد الله ، فقال عبد الرحمن له :

لأنت زيادة في آل حرب أحب إلي من إحدى بني
أراك أحمأ وعمأ وابن عم ولا أدري يغيب ما تراني

فقال : أراك والله شاعر سوء! فرضي عنه ، فقال معاوية لابن مفرغ : ألسن القائل :

فأشهد أن أمك لم تُباشِر أباً سُفیان واضعة القناع

الآيات ! لا تعودن إلى مثلها ، عفونا عنك . فأقبل حتى نزل الموصل ، فتزوج امرأة ، فلما كان في ليلة بنائها خرج حين أصبح إلى الصيد ، فلقي ذهاناً أو عطاراً على حمار له ، فقال له ابن مفرغ : من أين أقبلت؟ قال : من الأهواز ؛ قال : وما فعل ماء مسرفان ؟ قال : على حاله ؛ قال : فخرج ابن مفرغ فتوجه قبل البصرة ، ولم يعلم أهله بمسيره ، ومضى حتى قدم على عبيد الله بن زياد بالبصرة ، فدخل عليه فآمنه ، ومكث عنده حتى استأذنه في الخروج إلى كرمان ، فأذن له في ذلك ، وكتب إلى عامله هنالك بالوصاة والإكرام له ، فخرج إليها . وكان عامل عبيد الله يومئذ على كرمان شريك ابن الأعور الحارثي .

وحج بالناس في هذه السنة عثمان بن محمد بن أبي سُفیان ، حدثني بذلك أحمد بن ثابت ، عمّن حدثه ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، وكذلك قال الواقدي وغيره .

وكان الوالي على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سُفیان ، وعلى الكوفة النعمان بن بشير ، وعلى قضائها شريح ، وعلى البصرة عبيد الله بن زياد ، وعلى قضائها هشام بن هبيرة ، وعلى خراسان عبد الرحمن بن زياد ، وعلى سجستان عباد بن زياد ، وعلى كرمان شريك بن الأعور من قبل عبيد الله بن زياد .

ثم دخلت سنة ستين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

ففي هذه السنة كانت غزوة مالك بن عبدالله سُورِيَّة ودخولُ جُنَادَةَ بن أبي أمية رودس ، وهدمه مدينتها ، في قول الواقدي .

وفيهما كان أخذ معاوية على الوفد الذين وفدوا إليه مع عُبيد الله بن زياد البيعة لابنه يزيد ، وعهد إلى ابنه يزيد حين مرض فيها ما عهد إليه في النفر الذين امتنعوا من البيعة ليزيد حين دعاهم إلى البيعة .

وكان عهده الذي عهد ، ما ذكر هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ، قال : حَدَّثَنِي عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن عبدالله بن نَحْرَمَةَ ؛ أَنَّ معاوية لما مَرِضَ مرضته التي هلك فيها دعا يزيد ابنه ، فقال : يا بني ، إني قد كَفَيْتَكَ الرَّحْلَةَ وَالتَّرْحَالَ ، وَوَطَّأْتُ لَكَ الْأَشْيَاءَ ، وَذَلَّلْتُ لَكَ الْأَعْدَاءَ ، وَأَخَضَعْتُ لَكَ أَعْنَاقَ الْعَرَبِ ، وَجَمَعْتُ لَكَ مِنْ جَمْعٍ وَاحِدٍ ، وَإِنِّي لَا أَتَخَوَّفُ أَنْ يَنَازِعَكَ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي اسْتَبَّ لَكَ إِلَّا أَرْبَعَةَ نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ : الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزَّيْبِرِ ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ ؛ فَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍ فَرَجُلٌ قَدْ وَقَّدَتْهُ الْعِبَادَةُ ، وَإِذَا لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ غَيْرُهُ بَايَعَكَ ، وَأَمَّا الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ فَإِنَّ أَهْلَ الْعِرَاقِ لَنْ يَدَعُوهُ حَتَّى يُخْرِجُوهُ ، فَإِنْ خَرَجَ عَلَيْكَ فَظَفَرْتَ بِهِ فَاصْفَحْ عَنْهُ فَإِنَّ لَهُ رَجَاءً مَاسَّةً وَحَقًّا عَظِيمًا ؛ وَأَمَّا ابْنُ أَبِي بَكْرٍ فَرَجُلٌ إِنْ رَأَى أَصْحَابَهُ صَنَعُوا شَيْئًا صَنَعَ مِثْلَهُمْ ، لَيْسَ لَهُ هِمَّةٌ إِلَّا فِي النِّسَاءِ وَاللَّهْوِ ، وَأَمَّا الَّذِي يَجْثُمُ لَكَ جِثْمُ الْأَسَدِ ، وَيَرَاوِغُكَ مَرَاوِغَةُ الثَّعْلَبِ ، فَإِذَا أَمَكَّتْهُ فَرَصَةٌ وَثَبَ ، فَذَاكَ ابْنُ الزَّيْبِرِ ، فَإِنْ هُوَ فَعَلَهَا بِكَ فَقَدَرْتَ عَلَيْهِ فَقَطَّعْهُ إِرْبًا إِرْبًا .

قال هشام : قال عوانة : قد سمعنا في حديث آخر أَنَّ معاوية لما حضره الموت - وذلك في سنة ستين - وكان يزيد غائبًا ، فدعا بالضحَّاك بن قيس الفهري - وكان صاحب شرطته - ومسلم بن عقبة المرِّي ، فأوصى إليهما فقال : بلغا يزيدَ وصيتي ، انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك ، فأكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب ، وانظر أهل العراق ، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملًا فافعل ، فإن عزَّلَ عاملَ أَحَبِّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تُشْهِرَ عَلَيْكَ مِائَةَ أَلْفِ سَيْفٍ ، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وَعَيْيَتَكَ ، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم ، فإذا أصبته فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم ؛ وإني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة : حسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن الزبير ؛ فأما ابن عمر فرجل قد وَقَّاهُ الدِّينُ ، فَلَيْسَ مُلْتَمَسًا شَيْئًا قَبْلَكَ ، وَأَمَّا الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ فَإِنَّهُ رَجُلٌ خَفِيفٌ ، وَأَرْجُو أَنْ يَكْفِيكَهُ اللَّهُ بِمَنْ قَتَلَ أَبَاهُ ، وَخَذَلَ أَخَاهُ ، وَإِنَّ لَهُ رَجَاءً مَاسَّةً ، وَحَقًّا عَظِيمًا ، وَقَرَابَةً مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَلَا أَظُنُّ أَهْلَ الْعِرَاقِ تَارِكِيهِ حَتَّى يُخْرِجُوهُ ، فَإِنْ قَدَرْتَ عَلَيْهِ فَاصْفَحْ عَنْهُ ، فَإِنِّي لَوَأْنِي صَاحِبَهُ عَفَوْتُ عَنْهُ ، وَأَمَّا ابْنُ الزَّيْبِرِ فَإِنَّهُ خَبٌّ صَبٌّ ،

سنة ٦١ : ٢٦١

فإذا شَخَصَ لك فالبدُّ له ، إلَّا أن يلتبس منك صُلْحاً ؛ فإن فعل فاقبل ، وأحَقَّنْ دماء قومك ما استطعت .
وفي هذه السنة هلك معاوية بن أبي سفيان بدمشق ، فاختُلِفَ في وقت وفاته بعد إجماع جميعهم على أنَّ هلاكه كان في سنة ستين من الهجرة ، وفي رجب منها ، فقال هشام بن محمد : مات معاوية لهلال رجب من سنة ستين .

وقال الواقدي : مات معاوية للنصف من رجب .

وقال علي بن محمد : مات معاوية بدمشق سنة ستين يوم الخميس لثمانٍ بَقِينَ من رَجَب ؛ حَدَّثَنِي بذلك الحارث عنه .

ذكر الخبر عن مدة ملكه

حدَّثني أحمد بن ثابت الرازي ، قال : حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ إِسْحَاقَ بْنَ عِيسَى يَذْكُرُ عَنْ أَبِي مَعْشَرٍ ، قال : بُويعَ لمعاوية بأذْرَحَ ، بايعه الحسنُ بنُ علي في جُمَادَى الأولى سنة إحدى وأربعين ، وتوفيَّ معاوية في رجب سنة ستين ، وكانت خلافته تسعَ عشرة سنةً وثلاثة أشهر .

وحدَّثني الحارث ، قال : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ ، قال : أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو ، قال : حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ بْنُ دِينَارٍ السَّعْدِيُّ ، عَنْ أَبِيهِ ، قالوا : توفيَّ معاوية ليلةَ الخميس للنصف من رجب سنة ستين ، وكانت خلافته تسعَ عشرة سنةً وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يوماً .

وحدَّثني عمر ، قال : حَدَّثَنَا عَلِيٌّ ، قال : بايع أهل الشام معاوية بالخلافة في سنة سبع وثلاثين في ذي القعدة حين تفرَّقَ الحَكَمَانِ ، وكانوا قَبْلَ بايعوه على الطلب بدم عثمان ، ثم صالحه الحسنُ بنُ علي ، وسلم له الأمر سنة إحدى وأربعين ، لخمس بقين من شهر ربيع الأول ، فبايع الناسُ جميعاً معاوية ، فقبل : عام الجماعة ؛ ومات بدمشق سنة ستين ، يوم الخميس لثمانٍ بَقِينَ من رجب . وكانت ولايته تسعَ عشرة سنةً وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يوماً .

قال : ويقال : كان بين موت علي عليه السلام وموت معاوية تسعَ عشرة سنةً وعشرة أشهر وثلاث ليال .

وقال هشام بن محمد : بُويعَ لمعاوية بالخلافة في جُمَادَى الأولى سنة إحدى وأربعين ، فولى تسعَ عشرة سنةً وثلاثة أشهر إلَّا أياماً ، ثم مات لهلال رجب من سنة ستين .

واختَلَفُوا في مدَّةِ عمره ، وكم عاش ؟ فقال بعضهم : مات يوم مات وهو ابن خمسٍ وسبعين سنة .

ذكر من قال ذلك :

حدَّثني عمر ، قال : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى ، قال : أَخْبَرَنِي هِشَامُ بْنُ الْوَلِيدِ ، قال : قال ابن شهاب الزهري : سألني الوليدُ عن أعمار الخلفاء ، فأخبرته أنَّ معاوية مات وهو ابن خمسٍ وسبعين سنة ؛ فقال : بَخٍ ! إن هذا للعمر .

وقال آخرون : مات وهو ابن ثلاث وسبعين سنة .

ذكر من قال ذلك :

٢٦٣ سنة ٦٠

حدَّثني عمر، قال : حدَّثني أحمد بن زهير قال : قال علي بن محمد : مات معاوية وهو ابن ثلاث وسبعين ؛ قال : ويقال ابن ثمانين سنة .

وقال آخرون : توفي وهو ابن ثمان وسبعين سنة .

ذكر من قال ذلك :

حدَّثني الحارث ، قال : حدَّثنا محمد بن سعد ، قال : أخبرنا محمد بن عمر، قال : حدَّثني يحيى بن سعيد بن دينار ، عن أبيه ، قال : توفي معاوية وهو ابن ثمان وسبعين سنة .

وقال آخرون : توفي وهو ابن خمس وثمانين سنة ، حدَّثت بذلك عن هشام بن محمد أنه كان يقوله عن أبيه .

حدَّثني الحارث ، قال : حدَّثنا محمد بن سعد ، قال : حدَّثنا أبو عبيدة ، عن أبي يعقوب الثقفي ، عن عبد الملك بن عمير ، قال : لما ثَقُلَ معاوية وحَدَّث الناس أنه الموت ، قال لأهله : احشُوا عيني إثمداً ، وأوسعوا رأسي دهنًا ، ففعلوا ، وبرقوا وجهه بالدهن ، ثم مهَّد له ، فجلس وقال : أسدوني ، ثم قال : ائذنوا للناس فليسلّموا قياماً ، ولا يجلس أحدٌ ، فجعل الرجل يدخل فيسلّم قائماً فيراه مكتحلاً مدهناً فيقول : يقول الناس : هو لمآبه ، وهو أصحّ الناس ، فلما خرجوا من عنده قال معاوية :

وَتَجَلَّدِي لِلشَّامِتِينَ أَرِيهِمْ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ
وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

قال : وكان به التفات ، فمات من يومه ذلك .

حدَّثني أحمد بن زهير ، عن علي بن محمد ، عن إسحاق بن أيوب ، عن عبد الملك بن مينا الكلبى ، قال : قال معاوية لابنتيه في مرضه الذي مات فيه وهما تغلبانه : تَغْلِبَانِ حَوْلًا قُلُوبًا ، جمع المال من شُبِّ إلى دُبِّ إن لم يدخل النار ، ثم تمثّل :

لَقَدْ سَعَيْتُ لَكُمْ مِنْ سَعْيِي ذِي نَصَبٍ وَقَدْ كَفَيْتُكُمْ التَّطَوَّافَ وَالرَّحَالَ

ويقال : « من جمع ذي حسب » .

حدَّثني أحمد بن زهير ، عن علي ، عن سليمان بن أيوب ، عن الأوزاعي وعلي بن مجاهد ، عن عبد الأعلى بن ميمون ، عن أبيه ؛ أَنَّ معاوية قال في مرضه الذي مات فيه : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَسَانِي قَمِيصًا فَرَفَعْتُهُ . وَقَلَمَ أَظْفَارَهُ يَوْمًا ، فَأَخَذْتُ قَلَامَتَهُ فَجَعَلْتُهَا فِي قَارُورَةٍ ، فَإِذَا مَتَّ فَاَلْبَسُونِي ذَلِكَ الْقِمِصَ ، وَقَطَعُوا تِلْكَ الْقَلَامَةَ ، وَاسْحَقُوهَا وَذَرُّوْهَا فِي عَيْنِي ، وَفِي فِيّ ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَرْحَمَنِي بِبَرَكَتِهَا ! ثم قال متمثلاً بشعر الأشهب بن رُمَيْلة النُّهْشَلِيِّ يمدح به القُبَاع :

إِذَا مَتَّ مَاتَ الْجُودُ وَانْقَطَعَ النَّدَى مِنْ النَّاسِ إِلَّا مِنْ قَلِيلٍ مَصْرَدٍ
وَرَدَّتْ أَكْفُ السَّائِلِينَ وَأَمْسَكُوا مِنَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا بِخَلْفٍ مُجَدِّدٍ

فَقَالَتْ لِأَحَدِي بَنَاتِهِ - أَوْ غَيْرَهَا : كَلَّا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، بَلْ يَدْفَعُ اللَّهُ عَنْكَ ؛ فَقَالَ مَتَمَثَّلًا :

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها ألفيت كلّ تميّة لا تنفع
ثم أغيمّي عليه ، ثم أفاق ، فقال لمن حضره من أهله : اتقوا الله عزّ وجلّ ، فإنّ الله سبحانه يقي من
اتّقه ، ولا واقّي لمن لا يتقي الله ؛ ثم قضى .
حدّثنا أحمد ، عن علي ، عن محمد بن الحكم ، عمّن حدّثه أنّ معاوية لما حضر أوصى بنصف ماله أن يُردّه
إلى بيت المال ، كان أراد أن يطيب له الباقي ، لأنّ عمر قاسم عمّاله .

ذكر الخبر عمّن صلى على معاوية حين مات

حدّثني أحمد بن زهير ، عن علي بن محمد ، قال : صلى على معاوية الضحّاك بن قيس الفهري ، وكان يزيد
غائباً حين مات معاوية .

وحُدّثت عن هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ، قال : حدّثني عبد الملك بن نوفل بن مُساجق بن
عبد الله بن نحرمة ، قال : لما مات معاوية خرج الضحّاك بن قيس حتى صعد المنبر وأكفّان معاوية على يديه
تلوح ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنّ معاوية كان عود العرب ، وحدّ العرب ، قطع الله عزّ وجلّ به
الفتنة ، وملكه على العباد ، وفتح به البلاد . ألاّ إنه قد مات ، فهذه أكفانه ، فنحن مُدْرِجوه فيها ، ومُدْخلوه
قبره ، ومُخلّون بينه وبين عمله ، ثم هو البرزخ إلى يوم القيامة ، فمن كان منكم يريد أن يشهده فليحضر عند
الأولى . وبعث البريد إلى يزيد بوجع معاوية ، فقال يزيد في ذلك :

جاء البريدُ بقرطاسٍ يخبُّ بهِ	فأوجسَ القلبُ من قرطاسِهِ فزعا
قلنا: لك الويلُ ماذا في كتابِكُم؟	قالوا: الخليفةُ أمسى مُتَبَتِّاً وجعا
فمادتِ الأرضُ أو كادتْ تَميدُ بنا	كأنَّ أغْبَرَ من أركانها انقطعا
من لا تزلُ نفسُهُ تُوفي على شَرَفٍ	توشكُ مقاليدُ تلك النفسِ أن تقعا
لما انتهينا وبابُ الدار مُنْصَفِقُ	وصوتُ رَمَلَةٍ ريعَ القلبُ فانصدعا

حدّثني عمر ، قال : حدّثنا علي ، عن إسحاق بن خُلَيْد ، عن خُلَيْد بن عَجْلان مولى عبّاد ، قال : مات
معاويةُ ويزيدُ بِحُوارين ، وكانوا كتبوا إليه حين مرض ، فأقبل وقد دُفِنَ ، فأقْبَقَ قبره فصلى عليه ، ودعا له ، ثم
أتى منزله ، فقال : « جاء البريد بقرطاس . . . » الأبيات .

ذكر الخبر عن نسبه وكنيته

أما نسبه فإنه ابن أبي سُفْيَان ، واسم أبي سُفْيَان صَخْر بن حَرْب بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن
قصي بن كلاب ، وأمّه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، وكنيته أبو عبد الرحمن .

ذكر نسائه وولده

من نسائه مَيْسُون بنت بَحْدَل بن أنيف بن وَلَجَة بن قُنافَة بن عدي بن زهير بن حارثة بن جناب الكلبي ، ولدت له يزيد بن معاوية . قال علي : ولدت ميسون لمعاوية مع يزيد أمة - ربّ المشارق - فماتت صغيرة ، ولم يذكرها هشام في أولاد معاوية .

ومنهنّ فاختة بنة قَرْظَة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف . ولدت له عبد الرحمن وعبد الله بني معاوية ، وكان عبد الله محمّلاً ضعيفاً ، وكان يُكنى أبا الخير. حدّثني أحمد ، عن علي بن محمد ، قال : مرّ عبد الله بن معاوية يوماً بطحّان قد شدّ بغله في الرّحا للطحن ، وجعل في عنقه جَلّاجِل ، فقال له : لِمَ جعلت في عنق بغلك هذه الجلاجل ؟ فقال الطحّان : جعلتها في عنقه لأعلم إنّ قد قام فلم تذر الرّحا ، فقال له : أرايت إنّ هو قام وحرك رأسه كيف تعلم أنه لا يدير الرّحا ؟ فقال له الطحّان : إنّ بغلي هذا - أصلح الله الأمير - ليس له عقلٌ مثل عقل الأمير ! وأما عبد الرحمن فإنه مات صغيراً .

ومنهنّ نائلة بنت عُمارة الكلبيّة ، تزوّجها ؛ فحدّثني أحمد ، عن علي قال : لما تزوج معاوية نائلة قال لميسون : انطلقني فانظري إلى ابنة عمك ، فنظرت إليها ، فقال : كيف رأيتهَا ؟ فقالت : جميلة كاملة ، ولكن رأيت تحت سرّتها خالاً ليوضعنّ رأس زوجها في جحرها ، فطلّقها معاوية ، فتزوّجها حبيب بن مسلمة الفهري ، ثم خلف عليها بعد حبيب النعمان بن بشير الأنصاري ، فقتل ، ووضع رأسه في جحرها . ومنهنّ كَثُوة بنت قرظة أخت فاختة ، فغزا قُبُرس وهي معه ، فماتت هنالك .

ذكر بعض ما حضرنا من ذكر أخباره وسيره

حدّثني أحمد بن زهير ، عن علي ، قال : لما بويع لمعاوية بالخلافة صيّر على شرطته قيس بن حمزة الهمداني ، ثم عزله ، واستعمل زُمَيْل بن عمرو العُدَريّ - ويقال السُّكْسَكِيّ . وكان كاتبه وصاحباً أمره سرجون بن منصور الرّومي ، وعلى حرسه رجلٌ من الموالي يقال له المختار ؛ وقيل : رجل يقال له مالك ، ويكنى أبا المخارق ، مولى لحمير . وكان أوّل من اتّخذ الحرس . وكان على حجّابه سعد مولاة ، وعلى القضاء فضالة بن عبيد الأنصاري ، فمات فاستقضى أبا إدريس عائذ الله بن عبد الله الحفولاني . إلى ها هنا حديث أحمد ، عن علي .

وقال غير علي : وكان على ديوان الخاتم عبد الله بن محصن الحميري ، وكان أوّل من اتّخذ ديوان الخاتم . قال : وكان سبب ذلك أن معاوية أمر لعمرو بن الزبير في معونته وقضاء دينه بمائة ألف درهم ، وكتب بذلك إلى زياد بن سُمَيّة وهو على العراق ، ففضّ عمرو الكتاب وصيّر المائة مائتين ، فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية ، فأخذ عمرأ بردها وحبسه ، فأذاها عنه أخوه عبد الله بن الزبير ، فأحدث معاوية عند ذلك ديوان الخاتم ونحزم الكتب ، ولم تكن تُنحزم .

حدّثني عبد الله بن أحمد بن شَبَّويه ، قال : حدّثني أبي ، قال : حدّثني سليمان ، قال : حدّثني عبد الله بن المبارك ، عن ابن أبي ذئب ، عن سعيد المقبري ، قال : قال عمر بن الخطاب : تذكرون كسرى

وقيصراً ودهاءهما وعندكم معاوية ! .

حدّثني عبدالله بن أحمد ، قال : حدّثني أبي ، قال : حدّثني سليمان ، قال : قرأت على عبدالله ، عن فليح ، قال : أخبرت أنّ عمرو بن العاص وفد إلى معاوية ومعه أهل مصر ، فقال لهم عمرو : انظروا ، إذا دخلتم على ابن هند فلا تُسلموا عليه بالخلافة ، فإنه أعظم لكم في عينه ، وصغروه ما استطعتم . فلما قدموا عليه قال معاوية لحجابه : إني كأني أعرف ابن النابغة وقد صغر أمري عند القوم ، فانظروا إذا دخل الوفد فتعتموهم أشدّ تَعْتَمَةً تقدرون عليها ، فلا يبلغني رجل منهم إلّا وقد همّته نفسه بالتلف . فكان أول من دخل عليه رجل من أهل مصر يقال له ابن الخياط ، فدخل وقد تُعَبَّع ، فقال : السّلام عليك يا رسول الله ، فتتابع القوم على ذلك ، فلما خرجوا قال لهم عمرو : لعنكم الله ! نهيتمكم أن تسلموا عليه بالإمارة ، فسلمتم عليه بالنبوة ! .

قال : ولبس معاوية يوماً عمامته الحرقانيّة واكتحل ، وكان من أجمل الناس إذا فعل ذلك . شكّ عبدالله فيه سمعه أو لم يسمعه .

حدّثني أحمد بن زهير ، عن علي بن محمد ، قال : حدّثنا أبو محمد الأمويّ ، قال : خرج عمر بن الخطاب إلى الشام ، فرأى معاوية في موكب يتلقاه ، وراح إليه في موكب ، فقال له عمر : يا معاوية ، تروّح في موكب وتغدو في مثله ، وبلغني أنك تُصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك ! قال : يا أمير المؤمنين ، إنّ العدو بها قريب منا ، ولهم عيون وجواسيس ، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزّاً ؛ فقال له عمر : إنّ هذا لكيدٌ رجل لبيب ، أو خُدعةٌ رجل أريب ؛ فقال معاوية : يا أمير المؤمنين ، مُرني بما شئتَ أصيرُ إليه ؛ قال : ويحك ! ما ناظرْتُك في أمر أعيب عليك فيه إلّا تركتني ما أدري آمرك أم أناك !

حدّثني عبدالله بن أحمد ، قال : حدّثني أبي ، قال : حدّثني سليمان ، قال : حدّثني عبدالله ، عن مَعْمَر ، عن جعفر بن بُرقان ، أنّ المغيرة كتب إلى معاوية : أمّا بعد ، فإنني قد كبرتُ سني ، ودقّ عظمي ، وشنفتُ لي قریش ، فإن رأيت أن تعزّلني فاعزّلني .

فكتب إليه معاوية : جاءني كتابك تذكر فيه أنه كبرتُ سنك ، فلعمري ما أكل عمرك غيرك ، وتذكر أنّ قریشاً شنفتُ لك ، ولعمري ما أصبتَ خيراً إلّا منهم . وتَسألني أن أعزّلك ، فقد فعلت ؛ فإنّ تك صادقاً فقد شفّعتك ، وإنّ تك مخادعاً فقد خدعتك .

حدّثني أحمد ، عن علي بن محمد ، عن علي بن مجاهد ، قال : قال معاوية : إذا لم يكن الأمويّ مصلحاً لماله ، حليماً ، لم يشبه من هو منه ، وإذا لم يكن الهاشميّ سخياً جواداً لم يشبه من هو منه ، ولا يقدمك من الهاشميّ اللسان والسخاء والشجاعة .

حدّثني أحمد ، عن علي ، عن عوانة وخلاد بن عيدة ، قال : تغدّى معاوية يوماً وعنده عُبيد الله بن أبي بكر ، ومعه ابنه بشير - ويقال : غير بشير - فأكثر من الأكل ، فلحظه معاوية ، وفطن عبيد الله بن أبي بكر ، فأراد أن يغمز ابنه ، فلم يمكنه ، ولم يرفع رأسه حتى فرغ ، فلما خرج لأمه على ما صنع ، ثم عاد إليه وليس معه ابنه ، فقال معاوية : ما فعل ابنك التلقامة ؟ قال : اشتكى ؛ فقال : قد علمتُ أن أكله سيورثه داءً .

حدّثني أحمد ، عن علي ، عن جويرية بن أسماء ، قال : قدم أبو موسى على معاوية ، فدخل عليه في بُرُسٍ

أسود ، فقال : السّلام عليك يا أمينَ الله ، قال : وعليك السّلام ؛ فلما خرج قال معاوية : قدم الشيخ لأوليّه ، ولا والله لا أوليّه .

حدّثني عبدالله بن أحمد ، قال : حدّثني أبو صالح سليمان بن صالح قال : حدّثني عبدالله بن المبارك ، عن سليمان بن المغيرة ، عن حميد بن هلال ، عن أبي بُردة ، قال : دخلتُ على معاوية حيث أصابته قَرَحَتُهُ ، فقال : هلّم يا بن أخي ، نحوي فانظر ، فنظرتُ فإذا هي قد سُيرتُ ، فقلت : ليس عليك بأس يا أميرَ المؤمنين ، فدخل يزيدُ فقال معاوية : إن وليتُ من أمر الناس شيئاً فاستوصَ بهذا ، فإن أباه كان لي خليلاً أو نحو ذلك من القول غير أني رأيتُ في القتال ما لم يَرَهُ .

حدّثني أحمد ، عن علي ، عن شهاب بن عبيدالله ، عن يزيد بن سويد ، قال : أذن معاوية للأحنف وكان يبدأ بإذنه ، ثم دخل محمد بن الأشعث فجلس بين معاوية والأحنف ، فقال معاوية : إنا لم نأذن له قبلك فتكونُ دونه ، وقد فعلتُ فعّالاً من أحسن من نفسه ذُلّاً ، إنا كما نملكُ أموركم نملكُ إذْلكم ، فأريدوا منا ما نريد منكم ، فإنه أبقي لكم .

حدّثني أحمد ، عن علي ، عن سُحيم بن حفص ، قال : خطب ربيعة بن عَسل اليربوعي إلى معاوية ، فقال معاوية : اسقوه سَريقاً ؛ وقال له معاوية : ياربعة ، كيف الناسُ عندكم ؟ قال : مختلفون على كذا وكذا فرقةً ؛ قال : فيمن أتيتهم أنت ؟ قال : ما أنا على شيء من أمرهم ؛ فقال معاوية : أراهم أكثرَ مما قلت ؛ قال : يا أمير المؤمنين ، أعني في بناء داري باثني عشرَ ألفَ جِذْع ؛ قال معاوية : أين دارُك ؟ قال : بالبصرة ، وهي أكثر من فرسخين في فرسخين ؛ قال : فدارُك في البصرة ، أو البصرة في دارك ! فدخل رجلٌ من ولده على ابن هُبيرة فقال : أصلح الله الأمير ! أنا ابنُ سيّد قومه ، خطب أبي إلى معاوية ، فقال ابن هُبيرة لسُلم بن قتيبة : ما يقول هذا ؟ قال : هذا ابن أحق قومه ؛ قال ابن هُبيرة : هل زوج أباك معاوية ؟ قال : لا ، قال : فلا أرى أباك صنع شيئاً .

حدّثني أحمد ، عن علي ، عن أبي محمد بن ذكوان القرشي ، قال : تنازع عُتبة وعنيسة ابنا أبي سُفيان - وأمّ عتبة هند وأمّ عنيسة ابنة أبي أزيهر الدؤسي - فأغلظ معاوية لعنيسة ، وقال عنيسة : وأنت أيضاً يا أمير المؤمنين ! فقال : يا عنيسة ، إن عُتبة ابنُ هند ، فقال عنيسة :

كُنّا بخير صالحاً ذاتُ بيننا	قديماً فأُمت فرقتُ بيننا هندُ
فإن تك هندٌ لم تلدني فإنني	ليضاء ينميها غطارفة نُجدُ
أبوها أبو الأضياف في كل شتوة	ومأوى ضعافٍ لا تنوء من الجهدِ
جُفَيّاته ما إن تزال مُقيمة	لمن خاف من غوري تهامة أو نجدِ

فقال معاوية : لا أعيدها عليك أبداً .

حدّثني عبدالله بن أحمد ، قال : حدّثني أبي ، قال : حدّثني سليمان ، قال : حدّثني عبدالله ، عن حرملة بن عمران ، قال : أتى معاوية في ليلة أن يقصرَ قصد له في الثاس ، وأن نائِل بن قيس الجُدامي غلب فلسطين وأخذ بيتَ مالها ، وأن المصريين الذين كان سجنهم هربوا ، وأن علي بن أبي طالب قصد له في الناس ، فقال لمؤذنه :

أذن هذه الساعة - وذلك نصف الليل - فجاء عمرو بن العاص ، فقال : لم أرسلت إلي؟ قال : أنا ما أرسلت إليك ؛ قال : ما أذن المؤذن هذه الساعة إلا من أجلي ؛ قال : رُميت بالقسي الأربع ؛ قال عمرو : أما هؤلاء الذين خرجوا من سجنك ، فإنهم إن خرجوا من سجنك فهم في سجن الله عز وجل ، وهم قوم سُراة لا رحلة بهم ، فاجعل لمن أذاك برجل منهم أو برأسه دية ، فإنك ستؤق بهم ، وانظر قيصر فوادعه ، وأعطه مالا وحُللاً من حُلل مصر ، فإنه سيرضى منك بذلك ، وانظر ناتل بن قيس ، فلعمري ما أغضبه الدين ، ولا أراد إلا ما أصاب ، فاكتب إليه ، وهب له ذلك ، وهنته إياه ، فإن كانت لك قدرة عليه ، وإن لم تكن لك فلا تأس عليه ، واجعل حدك وحديدك لهذا الذي عنده دم ابن عمك . قال : وكان القوم كلهم خرجوا من سجنه غير أبرهة بن الصَّبَّاح ، قال معاوية : ما منعك من أن تخرج مع أصحابك؟ قال : ما منعني منه بغض لعي ، ولا حب لك ، ولكني لم أقدر عليه ؛ فحُلَّ سبيله .

حدثني عبدالله ، قال : حدثني أبي ، قال : حدثني سليمان ، قال : حدثني عبدالله بن المبارك ، عن جرير ابن حازم ، قال : سمعت محمد بن الزبير يحدث ، قال : حدثني عبدالله بن مسعدة بن حَكَمَة الفزاري مربي بني آل بدر ، قال : انتقل معاوية من بعض كور الشام إلى بعض عمله ، فنزل منزلاً بالشَّام ، فَبَسَطَ له على ظهر إجار مُشْرِف على الطريق ، فأذن لي ، فقعدت معه ، فمرَّت القَطْرَات والرَّحَائِل والجواري والخيول ، فقال : يا بن مسعدة ، رحم الله أبا بكر! لم يُرد الدنيا ولم تُرد الدنيا ، وأما عمر - أو قال : ابن حَنُتَمَة - فأرادته الدنيا ولم يردّها ، وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصابته منه ؛ وأما نحن فتمرَّغنا فيها ؛ ثم كأنه ندم فقال : والله إنه لَمُلْك آتانا الله إياه .

حدثني أحمد ، عن علي بن محمد ، عن علي بن عبيد الله ، قال : كتب عمرو بن العاص إلى معاوية يسأله لابنه عبدالله بن عمرو ما كان أعطاه أباه من مصر ، فقال معاوية : أراد أبو عبدالله أن يكتب فهذر ، أشهدكم أني إن بقيت بعده فقد خلعت عهده . قال : وقال عمرو بن العاص : ما رأيت معاوية متكثراً قطّ واضعاً إحدى رجليه على الأخرى كاسراً عينه يقول لرجل : تكلم ، إلا رجته .

قال أحمد : قال علي بن محمد : قال عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين ، ألسنتُ أنصح الناس لك؟ قال : بذلك نلت ما نلت .

قال أحمد : قال علي : عن جويرية بن أسماء ، أنّ بسر بن أبي أرطاة نال من عليّ عند معاوية وزيد بن عمر بن الخطاب جالس ، فعلاه بعضاً فشججه ، فقال معاوية لزيد : عمدت إلى شيخ من قريش سيّد أهل الشَّام فضربتّه ! وأقبل على بسر فقال : تشتمُّ عليّاً وهو جدّه وابن الفاروق على رءوس الناس ، أو كنت ترى أنه يصبر على ذلك ! ثم أرضاهما جميعاً . قال : وقال معاوية : إني لأرفع نفسي من أن يكون ذنب أعظم من عفوي ، وجهل أكثر من حلمي ، أو عورة لا أوارها بستري ، أو إساءة أكثر من إحساني . قال : وقال معاوية : زين الشريف العفّاف ؛ قال : وقال معاوية : ما من شيء أحب إليّ من عين خمرارة ، في أرض خَوّارة ، فقال عمرو بن العاص : ما من شيء أحب إليّ من أن أبيت عروساً بعقيلة من عقائل العرب ؛ فقال وَرْدَان مولى عمرو بن العاص : ما من شيء أحب إليّ من الإفضال على الإخوان ، فقال معاوية : أنا أحقّ بهذا منك ؛ قال : ما تحب فافعل .

حدثني أحمد ، عن علي ، عن محمد بن إبراهيم ، عن أبيه ، قال : كان عامل معاوية على المدينة إذا أراد أن

يُبرِد بريداً إلى معاوية أمر مُناديه فنَادَى : مَنْ له حاجةٌ يَكْتُب إلى أمير المؤمنين ؛ فكتب زُرّ بن حُبَيْش - أو آيْن بن خُرَيْم - كتاباً لطيفاً وَرَمَى به في الكُتُب ، وفيه :

إذا الرجالُ وَلَدَتْ أولادُها وأضطربت من كِبَر أعضادُها
وَجَعَلْتُ أسقامُها تَعْتادُها فهي زُرُوعٌ قد دَنَا حِصادُها

فلَمَّا وردت الكتب عليه فقرأ هذا الكتاب ؛ قال : نعمي إلي نفسي .

قال : وقال معاوية : ما من شيء أَلَذَّ عندي من غيظ أَمْجَرَّعه .

قال : وقال معاوية لعبدالرحمن بن الحَكَم بن أبي العاص : يا بن أخي ، إنك قد لَهَجْتَ بالشعر ، فإِيَّاكَ : تشبيبٌ بالنساء فتَعَرَّ الشريفة ، والهجاء فتَعَرَّ كريماً ، وتستثير لثيماً ، والمدح ، فإنه طُعْمَةُ الوَقاح ، ولكن افخر بَمَخْرَجِ قومك ، وقل من الأمثال ما تزين به نفسك ، وتؤدِّب به غيرَكَ .

حدَّثني أحمد ، عن علي ، قال : قال الحسن بن حماد : نظر معاويةُ إلى الثُّمَالِ في عباءة ، فازدراه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنَّ العبءَ لا تَكَلِّمُك ، وإنما يَكَلِّمُك مَنْ فيها .

حدَّثني أحمد ، عن علي ، عن سليمان ، قال : قال معاوية : رجلان إن ماتا لم يموتا ، ورجُلٌ إن مات مادَّ ، أنا إن مِتَّ خَلَفَنِي ابني ، وسعيد إن مات خلفه عمرو ، وعبدالله بن عامر إن مات مات ؛ فبلغ مروان ، فقال : أما ذكر ابني عبدالملك ؟ قالوا : لا ؛ قال : ما أحبُّ أن لي بابني ابنيهما .

حدَّثني أحمد ، عن علي ، قال : حدَّثنا عبدالله بن صالح ، قال : قال رجل لمعاوية : أيُّ الناس أحبُّ إليك ؟ قال : أشدُّهم لي تحبباً إلى الناس . قال : وقال معاوية : العقل والحلم أفضل ما أُعْطِيَ العبد ، فإذا ذُكِرَ ذَكَرَ ، وإذا أُعْطِيَ شُكِرَ ، وإذا ابْتُلِيَ صَبِرَ ، وإذا غَضِبَ كَظُمَ ، وإذا قَدِرَ غَفِرَ ، وإذا أَسَاءَ اسْتَغْفَرَ ، وإذا وَعَدَ أَتَمَّجَزَ .

حدَّثني أحمد ، عن علي ، عن عبدالله وهشام بن سعد ، عن عبدالملك ابن عُمَيْر ، قال : أغلَظَ رجلٌ لمعاوية فأكثر ، فقليل له : أتلحَّمُ عن هذا ؟ فقال : إني لا أحوُلُ بين الناس وألستهم ما لم يُحُولُوا بيننا وبين مُلْكِنَا .

حدَّثني أحمد ، عن علي ، عن محمد بن عامر ، قال : لأم معاوية عبدالله بن جعفر على الغناء ، فدخل يوماً على معاوية ومعه بُدْيَيْحٌ ، ومعاوية واضع رجلاً على رجل ، فقال عبدالله لبُديح : إيه يا بُديح ! فتغنى ، فحرك معاوية رجله ، فقال عبدالله : مه يا أمير المؤمنين ! فقال معاوية : إن الكريم طروب .

قال : وقَدِمَ عبدالله بن جعفر على معاوية ومعه سائب خاثر - وكان مولى لبني لَيْث ، وكان فاجراً فقال له : ارفع حوائجَكَ ؛ ففعل ، ورفع فيها حاجة سائب خاثر ؛ فقال معاوية : مَنْ هذا ؟ فخبَّره ؛ فقال : أدخِله ، فلَمَّا قام على باب المجلس غنَّى :

لِمَنْ الديارُ رُسُومُها قَفُرُ لَعِبَتْ بها الأرواحُ والقَطُرُ
وَحَلَّالُها من بعد ساكِينِها جَجَجُ خَلَوْنَ ثَمَانُ أو عَشْرُ
والزَّعْفَرانُ على تَرائِبِها شَرِقاً به اللَّبَّاتُ والنُّحُرُ

فقال أحسنت ، وقضى حوائجه .

حدّثني عبدالله بن أحمد ، قال : حدّثني أبي ، قال : حدّثني سليمان ، قال : حدّثني عبدالله ، عن معمر ، عن همام بن منبه ، قال : سمعت ابن عباس يقول : ما رأيت أحداً أخلق للملك من معاوية ، إن كان ليردّ الناس منه على أرجاء وإرخاب ، ولم يكن كالضيق الخُضخض ، الحصر - يعني ابن الزبير .

حدّثني عبدالله ، قال : حدّثني أبي ، قال : حدّثني سليمان ، قال : حدّثني عبدالله ، عن سُفيان بن عيينة ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن قبيصة بن جابر الأسديّ قال : ألا أخبركم من صحبت؟ صحبتُ عمر بن الخطاب فما رأيت رجلاً أفقه فقهاً ، ولا أحسن مُدارسة منه ؛ ثم صحبتُ طلحة بن عبيدالله ، فما رأيت رجلاً أعطى للجزيل من غير مسألة منه ؛ ثم صحبتُ معاوية فما رأيت رجلاً أحبّ رفيقاً ، ولا أشبه سريرةً بعلانية منه ، ولو أنّ المغيرة جُعِل في مدينة لا يُخرج من أبوابها كلّها إلّا بالغدر لخرج منها .

خلافة يزيد بن معاوية

وفي هذه السنة بويح ليزيد بن معاوية بالخلافة بعد وفاة أبيه ، للنصف من رجب في قول بعضهم ، وفي قول بعض : لثمانٍ بقيّن منه - على ما ذكرنا قبل من وفاة والده معاوية - فأقرّ عبيدالله بن زياد على البصرة ، والنعمان بن بشير على الكوفة .

وقال هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ؛ ولي يزيد في هلال رجب سنة ستين ، وأمير المدينة الوليد بن عُتبة ابن أبي سُفيان ، وأمير الكوفة النعمان بن بشير الأنصاري ، وأمير البصرة عُبيد الله بن زياد ، وأمير مكة عمرو بن سعيد بن العاص ، ولم يكن ليزيد همّة حين ولي إلّا ببيعة النفر الذين أبوا على معاوية الإجابة إلى بيعة يزيد حين دعا الناس إلى بيعته ، وأنه ولي عهده بعده ، والفراغ من أمرهم ، فكتب إلى الوليد :

بسم الله الرحمن الرحيم . من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة ، أما بعد ، فإنّ معاوية كان عبداً من عباد الله ، أكرمه الله واستخلفه ، وخوّله ، ومكّن له ، فعاش بقدر ، ومات بأجل ، فرحمه الله ، فقد عاش محموداً ، ومات براً تقياً ، والسلام .

وكتب إليه في صحيفة كأنها أدن فارة :

أما بعد ، فخذ حسناً وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا ؛ والسلام .

فلما أتاه نعيّ معاوية فُظِع به ، وكبر عليه ، فبعث إلى مروان بن الحكم فدعاه إليه - وكان الوليد يوم قدم المدينة قديماً مروان متكارهاً - فلما رأى ذلك الوليد منه شتمه عند جلسائه ، فبلغ ذلك مروان ، فجلس عنه وصمره ، فلم يزل كذلك حتى جاء نعيّ معاوية إلى الوليد ، فلما عظم على الوليد هلاك معاوية وما أمر به من أخذ هؤلاء الرّهط بالبيعة ، فرز عند ذلك إلى مروان ، ودعاه ، فلما قرأ عليه كتاب يزيد ، استرجع وترحم عليه ، واستشاره الوليد في الأمر وقال : كيف ترى أن نصنع ؟ قال : فإني أرى أن تبعث الساعة إلى هؤلاء النفر فتدعوهم إلى البيعة والدّخول في الطاعة ، فإن فعلوا قَبِلت منهم ، وكففت عنهم ، وإن أبوا قدّمتهم فضربت

أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية ، فإنهم إن علموا بموت معاوية وثَبَّ كل امرئ منهم في جانب ، وظهر الخلاف. والمنابذة ، ودعا إلى نفسه لا أدري ؛ أما ابنُ عمرَ فلإني لا أراه يرى القتال ، ولا يحبُّ أنه يُؤلَّى على الناس ، إلا أن يُدْفَعَ إليه هذا الأمرُ عُفْواً . فأرسل عبدالله بن عمرو بن عثمان - وهو إذ ذاك غلامٌ حَدَث - إليهما . فوجدهما في المسجد وهما جالسان ، فأتاهما في ساعة لم يكن الوليد يجلس فيها للناس ، ولا يأتيانه في مثلها ، فقال : أجيئاً ، الأميرُ يدعوكما ، فقال له : انصرف ؛ الآن نأتيه . ثم أقبل أحدهما على الآخر ، فقال عبدالله بن الزبير للحسين : ظُنَّ فيما تراه بعث إلينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها ! فقال حسين : قد ظننتُ ، أرى طاعيتهم قد هلك ، فبعث إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يَفْشَوْا في الناس الخبر ؛ فقال : وأنا ما أظنَّ غيره . قال : فما تريد أن تصنع ؟ قال : أجمعُ فتياني الساعة ، ثم أمشي إليه ، فإذا بلغت الباب احتبستهم عليه ، ثم دخلت عليه . قال : فإني أخافه عليك إذا دخلت ؛ قال : لا آتيه إلا وأنا على الامتناع قادر . فقام فخرج إليه موالئهُ وأهل بيته ، ثم أقبل يمشي حتى انتهى إلى باب الوليد وقال لأصحابه : إني داخلٌ ، فإن دعوتكم أو سمعتم صوتهُ قد علا فاقتحموا علي بأجمعكم ، وإلا فلا تبرحوا حتى أخرج إليكم ، فدخل فسلم عليه بالإمرة ومروانُ جالسٌ عنده ، فقال حسين ؛ كأنه لا يظنُّ ما يظنُّ من موت معاوية : الصَّلَّة خيرٌ من القطيعة ، أصلحَ الله ذاتَ بينكما ! فلم يجيباه في هذا بشيء ، وجاء حتى جلس ، فأقرأه الوليد الكتاب ، ونعى له معاوية ، ودعاه إلى البيعة ، فقال حسين : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ورَّجِمَ الله معاوية ، وعظَّم لك الأجر ! أما ما سألتني من البيعة فإنَّ مثلي لا يُعطي ببيعته سراً ، ولا أراك تجترئ بهما مني سراً دون أن تُظهرها على رؤوس الناس علانية ؛ قال : أجل ، قال : فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس فكان أمراً واحداً ؛ فقال له الوليد - وكان يحب العافية : فانصرف على اسم الله حتى تأتينا مع جماعة الناس ؛ فقال له مروان : والله لئن فارقت الساعة ولم يُبايع لا قدرتُ منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه ، احبس الرجل ، ولا يَخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه ؛ فوثب عند ذلك الحسين ، فقال : يا بن الزُّرقاء ، أنت تقتلني أم هو ! كذبت والله وأثمت ، ثم خرج فمرَّ بأصحابه ، فخرجوا معه حتى أتى منزله . فقال مروان للوليد : عصيتني ، لا والله لا يَمُكِّنكَ مِن مثلها مِن نفسه أبداً ؛ قال الوليد : وَيَخُفُّ غيرُك يا مروان ، إنك اخترت لي التي فيها هلاك ديني ، والله ما أحبُّ أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا ومُلْكِها ، وأني قتلتُ حُسَيْناً ، سبحانه الله ! أقتل حُسَيْناً أن قال : لا أبايع ! والله إني لا أظنُّ أمراً يُحاسبُ بدمِ حسين الخفيف الميزان عند الله يوم القيامة . فقال له مروان : فإذا كان هذا رأيك فقد أصبتَ فيما صنعت ، يقول هذا له وهو غير الحامد له على رأيه .

وأما ابن الزبير ، فقال : الآن آتيكم ، ثم أتى داره فكمين فيها ، فبعث الوليد إليه فوجده مجتمعاً في أصحابه متحرِّزاً ، فألحَّ عليه بكثرة الرُّسل والرجال في إثر الرجال ؛ فأما حسين فقال : كُفَّ حتى تنظر وننظر ، وتري وتري ؛ وأما ابنُ الزبير فقال : لا تعجلوني فإني آتيكم ، أمهلوني ، فألحوا عليهما عشيتهما تلك كلها وأول نيلهما ، وكانوا على حسين أشدَّ إبقاءً ، وبعث الوليد إلى ابن الزبير موالٍ له فشتموه وصاحوا به : يا بن الكاهلية ، والله لتأتين الأميرَ أوليقتلنك ، فلبث بذلك نهاري كله وأول ليلة يقول : الآن أجيء ، فإذا استحثَّوه قال : والله لقد استربت بكثرة الإرسال ، وتتابع هذه الرجال ، فلا تُعجلوني حتى أبعث إلى الأمير من يأتيني برأيه وأمره ، فبعث إليه أخاه جعفر بن الزبير فقال : رحمك الله ! كَفَّ عن عبدالله فإنك قد أفرغته وذعرتَه بكثرة

رُسلك ، وهو آتيك غداً إن شاء الله ، فمُرْ رُسلك فلينصرفوا عنا . فبعث إليهم فانصرفوا ، وخرج ابن الزبير من تحت الليل فأخذ طريق الفُرع هو وأخوه جعفر ، ليس معها ثالث ، وتجنب الطريق الأعظم مخافة الطلب ، وتوجه نحو مكة ، فلما أصبح بعث إليه الوليد فوجده قد خرج ، فقال مروان : والله إن أخطأ مكة فسرُح في أثره الرجال ، فبعث راكباً من موالي بني أمية في ثمانين راكباً ، فطلبوه فلم يقدروا عليه ، فرجعوا ، فتشاغلوا عن حسين بطلب عبدالله يومهم ذلك حتى أمسوا ، ثم بعث الرجال إلى حسين عند المساء فقال : أصبحوا ثم ترون ونرى ، فكفوا عنه تلك الليلة ، ولم يلحوا عليه ، فخرج حسين من تحت ليلته ، وهي ليلة الأحد ليومين بقياً من رجب سنة ستين .

وكان مخرج ابن الزبير قبله بلييلة ، خرج ليلة السبت فأخذ طريق الفُرع ، فبينما عبدالله بن الزبير يسائر أخاه جعفرأ إذ تمثل جعفر بقول صبرة الحنظلي :

وكل بني أم سيمسون ليلة ولم يبق من أعقابهم غير واحد

فقال عبدالله ! سبحان الله ، ما أردت إلى ما أسمع يا أخي ! قال : والله يا أخي ما أردت به شيئاً مما تكره ؛ فقال : فذاك والله أكره إلي أن يكون جاء على لسانك من غير تعمّد - قال : وكأنه تطير منه - وأما الحسين فإنه خرج بينه وإخوته وبني أخيه وجل أهل بيته ، إلا محمد بن الحنفية فإنه قال له : يا أخي ، أنت أحب الناس إلي ، وأعزهم علي ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك ، تنح بتبعك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت ، ثم ابعث رُسلك إلى الناس فادعهم إلى نفسك فإن بايعوا لك حدث الله على ذلك ، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ، ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك ، إني أخاف أن تدخل مضراً من هذه الأمصار وتأتي جماعة من الناس ، فيختلفون بينهم ، فمنهم طائفة معك ، وأخرى عليك ، فيقتتلون فتكون لأول الأسنة ، فإذا خیر هذه الأمة كلها نفساً وأباً ، وأما أضيّعها دماً وأذلها أهلاً ؛ قال له الحسين : فإني ذاهب يا أخي ؛ قال : فانزل مكة فإن اطمأنت بك الدار فسيب ذلك ، وإن نبت بك لحقت بالرمال ، وشغف الجبال ، وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنظر إلى ما يصير أمر الناس ، وتعرف عند ذلك الرأي ، فإنك أضوب ما تكون رأياً وأحزمه عملاً حين تستقبل الأمور استقبالاً ، ولا تكون الأمور عليك أبداً أشكل منها حين تستدبرها استدباراً ؛ قال : يا أخي ، قد نصحت فأشفقت ، فأرجو أن يكون رأيك سديداً موقفاً .

قال أبو مخنف : وحدثنني عبدالملك بن نوفل بن مساحق ، عن أبي سعد المقرئ ، قال : نظرت إلى الحسين داخلأ مسجد المدينة وإنه ليمشي وهو معتمد على رجلين ، يعتمد على هذا مرة وعلى هذا مرة ، وهو يتمثل بقول ابن مفرغ :

لا دَعَرْتُ السَّوَامَ فِي فَلَقِ الصَّبِّ ح مُغِيرًا وَلَا دُعَيْتُ يَزِيدًا
يَوْمَ أُعْطِيَ مِنَ الْمَهَابَةِ ضِمًّا وَالْمَنَايَا يَرْصُدُنِي أَنْ أَحِيدًا

قال : فقلت في نفسي : والله ما تمثل بهذين البيتين إلا لشيء يريد ، قال : فما مكث إلا يومين حتى بلغني أنه سار إلى مكة .

ثم إن الوليد بعث إلى عبدالله بن عمر فقال: بايع لي زيد، فقال: إذا بايع الناس بايعت؛ فقال رجل: ما يمنعك أن تباع؟ إنما تريد أن يختلف الناس فيقتلوا ويتفانوا، فإذا جهدهم ذلك قالوا: عليكم بعبدالله بن عمر، لم يبق غيره، بايعوه! قال عبدالله: ما أحب أن يقتلوا ولا يختلفوا ولا يتفانوا، ولكن إذا بايع الناس ولم يبق غيري بايعت؛ قال: فتركوه وكانوا لا يتخوفونه.

قال: ومضى ابن الزبير حتى أتى مكة وعليها عمرو بن سعيد، فلما دخل مكة قال: إنما أنا عائد، ولم يكن يصلي بصلاتهم، ولا يفيض بإفاضتهم، كان يقف هو وأصحابه ناحية، ثم يفيض بهم وحده، ويصلي بهم وحده، قال: فلما سار الحسين نحو مكة، قال: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١). فلما دخل مكة قال: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(٢).

وفي هذه السنة عزل يزيد الوليد بن عتبة عن المدينة، عزله في شهر رمضان، فأقر عليها عمرو بن سعيد الأشدق.

وفيها قديم عمرو بن سعيد بن العاص المدينة في رمضان، فزعم الواقدي أن ابن عمر لم يكن بالمدينة حين ورد نعي معاوية وبيعة يزيد على الوليد، وأن ابن الزبير والحسين لما دُعيا إلى البيعة ليزيد آتيا وخرجا من ليلتهما إلى مكة، فلقيهما ابن عباس وابن عمر جائيين من مكة، فسألاهما، ما وراءكما؟ قالوا: موت معاوية والبيعة ليزيد؛ فقال لهما ابن عمر: اتقيا الله ولا تفرقا جماعة المسلمين؛ وأما ابن عمر فقدم فأقام أياماً، فانتظر حتى جاءت البيعة من البلدان، فتقدم إلى الوليد بن عتبة فبايعه، وبايعه ابن عباس.

وفي هذه السنة وجه عمرو بن سعيد عمرو بن الزبير إلى أخيه عبدالله بن الزبير لحربه.

ذكر الخبر عن ذلك:

ذكر محمد بن عمر أن عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق قديم المدينة في رمضان سنة ستين فدخل عليه أهل المدينة، فدخلوا على رجل عظيم الكبر مفوه.

قال محمد بن عمر: حدثنا هشام بن سعيد، عن شيبه بن نصاح، قال: كانت الرسل تجري بين يزيد بن معاوية وابن الزبير في البيعة، فحلف يزيد ألا يقبل منه حتى يؤق به في جامعة، وكان الحارث بن خالد المخزومي على الصلاة، فمنعه ابن الزبير، فلما منعه كتب يزيد إلى عمرو بن سعيد؛ أن ابعت جيشاً إلى ابن الزبير، وكان عمرو بن سعيد لما قدم المدينة ولّى شرطته عمرو بن الزبير، لما كان يعلم ما بينه وبين عبدالله بن الزبير من البغضاء، فأرسل إلى نفر من أهل المدينة فضربهم ضرباً شديداً.

قال محمد بن عمر: حدثني شرحبيل بن أبي عون، عن أبيه، قال: نظر إلى كل من كان يهوى هوى ابن الزبير فضربه، وكان ممن ضرب المنذر بن الزبير، وابنه محمد بن المنذر، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد

(١) سورة القصص: ٢١.

(٢) سورة القصص: ٢٢.

يفوث ، وعثمان بن عبدالله بن حكيم بن حزام ، وخبيب بن عبدالله بن الزبير ، ومحمد بن عمار بن ياسر ، ففرضهم الأربعين إلى الخمسين إلى الستين ، وفرّ منه عبدالرحمن بن عثمان وعبدالرحمن بن عمرو بن سهل في أناس إلى مكة ، فقال عمرو بن سعيد لعمرو بن الزبير: مَنْ رجلٌ نوجّه إلى أخيك؟ قال: لا توجّه إليه رجلاً أبداً أنكأ له مني ، فأخرج لأهل الديوان عشرات ، وخرج من موالي أهل المدينة ناسٌ كثير ، وتوجّه معه أنيس بن عمرو الأسلمي في سبعمائة ، فوجّهه في مقدّمته ، فعسكر بالجرف ، فجاء مروان بن الحَكَم إلى عمرو بن سعيد فقال: لا تغزُ مكة ، واتّق الله ، ولا تُحِلّ حرمة البيت ، وخلّوا ابن الزبير فقد كبر ، هذا له بضْع وستون سنة ، وهو رجلٌ لجوج ، والله لئن لم تقتلوه ليموتنّ ، فقال عمرو بن الزبير . والله لنقاتلنه ولنغزونه في جوف الكعبة على رغم أنف من رَغِم ؛ فقال مروان : والله إنّ ذلك ليسوعي ؛ فسار أنيس بن عمرو الأسلمي حتى نزل بذي طُوًى ، وسار عمرو بن الزبير حتى نزل بالأبطح ، فأرسل عمرو بن الزبير إلى أخيه : بَرِّمَيْنَ الخليفة ، واجعل في عنقك جامعة من فضّة لا ترى ، لا يضرب الناس بعضهم بعضاً ، واتّق الله فإنك في بلد حرام .

قال ابن الزبير: موعذك المسجد؛ فأرسل ابن الزبير عبدالله بن صفوان الجمحيّ إلى أنيس بن عمرو من قبل ذي طُوًى ، وكان قد ضوى إلى عبدالله بن صفوان قومٌ من نزل حول مكة ، فقاتلوا أنيس بن عمرو ، فهزم أنيس بن عمرو أقبح هزيمة ، وتفرّق عن عمرو جماعة أصحابه ، فدخل دارَ علقمة ، فأثابه عبيدة بن الزبير فأجاره ، ثم جاء إلى عبدالله بن الزبير فقال : إني قد أجرتّه ؛ فقال : أتخير من حقوق الناس! هذا ما لا يصلح .

قال محمد بن عمر: فحدّث هذا الحديث محمد بن عُبَيْد بن عمير فقال : أخبرني عمرو بن دينار ، قال : كتب يزيد بن معاوية إلى عمرو بن سعيد: أن استعمل عمرو بن الزبير على جيش ، وابعثه إلى ابن الزبير ، وابعث معه أنيس بن عمرو؛ قال: فسار عمرو بن الزبير حتى نزل في داره عند الصّفا ، ونزل أنيس بن عمرو بذي طُوًى ، فكان عمرو بن الزبير يصلي بالناس ، ويصلي خلفه عبدالله بن الزبير ، فإذا انصرف شبّك أصابعه في أصابعه ، ولم يبق أحدٌ من قريش إلا أتى عمرو بن الزبير ، وقعد عبدالله بن صفوان فقال : مالي لا أرى عبدالله بن صفوان ! أما والله لئن سرت إليه ليعلمنّ أن بني جُمح ومنّ ضوى إليه من غيرهم قليل ، فبلغ عبدالله بن صفوان كلمته هذه ، فحرّكته ، فقال لعبدالله بن الزبير: إني أراك كأنك تريد البُقيا على أخيك ، فقال عبدالله : أنا أبقي عليه يا أبا صفوان! والله لو قدرت على عون الدّرّ عليه لاستعنت بها عليه ؛ فقال ابن صفوان : فأنا أكفيك أنيس بن عمرو ، فاكفني أخاك؛ قال ابن الزبير: نعم ؛ فسار عبدالله بن صفوان إلى أنيس بن عمرو وهو بذي طُوًى ، فلاقاه في جمع كثير من أهل مكة وغيرهم من الأعوان ، فهزم أنيس بن عمرو ومن معه ، وقتلوا مدبرهم ، وأجهزوا على جريحهم ، وسار معصب بن عبدالرحمن إلى عمرو ، وتفرّق عنه أصحابه حتى تخلّص إلى عمرو بن الزبير ، فقال عبيدة بن الزبير لعمرو : تعال أنا أجيرك . فجاء عبدالله بن الزبير ، فقال : قد أجرت عمراً ، فأجره لي ، فأبى أن يجيره ، وضربه بكلّ من كان ضارباً بالمدينة ، وحبسّه بسجن عارم .

قال الواقدي : قد اختلفوا علينا في حديث عمرو بن الزبير ، وكتبت كلّ ذلك .

حدّثني خالد بن إلياس ، عن أبي بكر بن عبدالله بن أبي الجهم ، قال : لما قدم عمرو بن سعيد المدينة والياً ، قدم في ذي القعدة سنة ستين ، فولّى عمرو بن الزبير شرطته ، وقال : قد أقسم أمير المؤمنين ألا يقبل بيعة ابن الزبير إلا أن يؤتى به في جامعة ، فليبرّمين أمير المؤمنين ، فإني أجعل جامعة خفيفة من ورق أو ذهب ، ويلبس عليها برّساً ، ولا تُرى إلا أن يُسمع صوتها ، وقال :

حُذِّهَا فَلَيْسَتْ لِلْعَزِيزِ بِخُطَّةٍ وفيها مقالٌ لامرئٍ مُتَذَلِّلٍ
أَعَامِرُ إِنَّ الْقَوْمَ سَامُوكَ خُطَّةً ومالكٌ في الجيران عدلٌ مُعَدِّلٌ

قال محمد : وحدّثني رياح بن مسلم ، عن أبيه ، قال : بُعث إلى عبدالله بن الزبير عمرو بن سعيد ، فقال له أبو شريح : لا تَغْزُ مَكَّةَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول : « إنما أذن الله لي في القتال بمكة ساعة من نهار ، ثم عادت كحرمتها » ؛ فأبى عمرو أن يسمع قوله ، وقال : نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ ؛ فبعث عمرو جيشاً مع عمرو ومعه أنيس بن عمرو الأسلمي ، وزيد غلام محمد بن عبدالله بن الحارث بن هشام ، - وكانوا نحو ألفين - فقاتلهم أهل مكة ، فقتل أنيس بن عمرو والمهاجر مولى القلّمس في ناس كثير ، وهُزم جيشُ عمرو ، فجاء عبيدة بن الزبير ، فقال لأخيه عمرو : أنت في ذمتي ، وأنا لك جار ، فانطلق به إلى عبدالله ، فدخل على ابن الزبير فقال : ما هذا الدّم الذي في وجهك يا خبيث ! فقال عمرو :

لَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُّوْمُنَا ولكنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدِّمَاءُ

فحبسه وأخفر عبيدة ، وقال : أمرتُك أن تحير هذا الفاسقَ المستجِلَّ لحرَمَاتِ اللَّهِ ؛ ثم أقادَ عمراً من كلّ من ضربه إلا المنذر وابنه ، فإنها أبيتاً أن يستقيدا ، ومات تحت السّياط . قال : وإنما سمّي سجن عارم لعبد كان يقال له : زيد عارم ، فسَمّي السّجنُ به ، وحَبَسَ ابنُ الزبير أخاه عمراً فيه .

قال الواقدي : حدّثنا عبدالله بن أبي يحيى ، عن أبيه ، قال : كان مع أنيس بن عمرو ألفان .

وفي هذه السنة وجّه أهل الكوفة الرسل إلى الحسين عليه السلام وهو بمكة يدعونه إلى القدوم عليهم ، فوجه إليهم ابن عمّه مُسلم بن عَقِيل بن أبي طالب رضي الله عنه .

ذكر الخبر عن مراسلة الكوفيّين الحسين عليه السلام للمصير إلى ما قبلهم وأمر مسلم بن عقيل رضي الله عنه

حدّثني زكرياء بن يحيى الضرير ، قال : حدّثنا أحمد بن جناب المصيصي - ويكنى أبا الوليد - قال : حدّثنا خالد بن يزيد بن أسد بن عبدالله القسري ، قال : حدّثنا عمار الدّهني ، قال : قلت لأبي جعفر : حدّثني بمقتل الحسين حتّى كأنّي حضرته ؛ قال : مات معاوية والوليد بن عُتبة بن أبي سُفْيَان على المدينة ، فأرسل إلى الحسين بن علي ليأخذ بيعته ، فقال له : أخرني وارفق ، فأخره ، فخرج إلى مكة ، فاتاه أهل الكوفة ورُسلهم : إنا قد حبسنا أنفسنا عليك ، ولسنا نحضر الجُمعة مع الوالي ، فأقدم علينا - وكان النعمان بن بشير الأنصاري على الكوفة ؛ قال : فبعث الحسين إلى مسلم بن عَقِيل بن أبي طالب ابن عمّه فقال له : سرّ إلى

الكوفة فانظر ما كتبوا به إليّ ، فإن كان حقاً خرجنا إليهم . فخرج مسلم حتى أتى المدينة ، فأخذ منها دليلين ، فمرا به في البرية ، فأصابهم عطش ، فمات أحدهما الدليلين ، وكتب مسلم إلى الحسين يستعفيه ، فكتب إليه الحسين : أن امض إلى الكوفة .

فخرج حتى قَدِمها ، ونزل على رجل من أهلها يقال له ابن عَوْسجة ؛ قال : فلما تحدّث أهل الكوفة بمَقْدَمه دَبُّوا إليه فبايعوه ، فبايعه منهم اثنا عشر ألفاً . قال : فقام رجل من يَهُوى يزيد بن معاوية إلى النعمان بن بشير ، فقال له : إنك ضعيف أو متضعف ؛ قد فسد البلاد فقال له النعمان : أن أكون ضعيفاً وأنا في طاعة الله أحب إليّ من أن أكون قوياً في معصية الله ، وما كنت لأهتك ستراً ستره الله .

فكتب بقول النعمان إلى يزيد ، فدعا مولى له يقال له : سَرَجُون ؛ - وكان يستشير - فأخبره الخبر ، فقال له : أكنتَ قابلاً من معاوية لو كان حياً؟ قال : نعم ؛ قال : فاقبل مني ؛ فإنه ليس للكوفة إلاّ عُبيد الله بن زياد ، فولّها إليّ - وكان يزيد عليه ساخطاً ، وكان همّ بعزله عن البصرة - فكتب إليه برضائه ، وأنه قد ولّاه الكوفة مع البصرة ، وكتب إليه أن يطلب مسلم بن عَقِيل فيقتله إن وجده .

قال : فاقبل عُبيد الله في وجوه أهل البصرة حتى قدم الكوفة متلثماً ، ولا يمرّ على مجلس من مجالسهم فيسلم إلاّ قالوا : عليك السلام يابن بنت رسول الله - وهم يظنون أنه الحسين بن علي عليه السلام - حتى نزل القصر ، فدعا مولى له فأعطاه ثلاثة آلاف ، وقال له : اذهب حتى تسأل عن الرجل الذي يبايع له أهل الكوفة فأعلمه أنك رجل من أهل حمص جئت لهذا الأمر ، وهذا مالٌ تدفعه إليه ليتقوى . فلم يزل يتلطّف ويرفق به حتى دُلّ على شيخ من أهل الكوفة يلي البيعة ، فلقّيه فأخبره ، فقال له الشيخ : لقد سرّني لقاءك إليّ ، وقد ساءني ؛ فأما ما سرّني من ذلك فما هداك الله له ، وأما ما ساءني فإنّ أمرنا لم يستحكم بعد . فأدخله إليه ، فأخذ منه المال وبايعه ، ورجع إلى عبيد الله فأخبره .

فتحوّل مسلم حين قدم عُبيد الله بن زياد من الدار التي كان فيها إلى منزل هانء بن عروة المرادي ، وكتب مسلم بن عَقِيل إلى الحسين بن عليّ عليه السلام يخبره ببيعة اثني عشر ألفاً من أهل الكوفة ، ويأمره بالقدوم . وقال عبيد الله لوجوه أهل الكوفة : ما لي أرى هانء بن عروة لم يأتني فيمن أتاني؟ قال : فخرج إليه محمد بن الأشعث في ناس من قومه وهو على باب داره ، فقالوا : إنّ الأمير قد ذكرك واستبطأك ، فانطلق إليه ، فلم يزالوا به حتى ركب معهم وسار حتى دخل على عُبيد الله وعنده شريح القاضي ، فلما نظر إليه قال لشريح : « أتتكَ بحائِثٍ رجلاه » ؛ فلما سلّم عليه قال : يا هانء ، أين مسلم؟ قال : ما أدري ؛ فأمر عبيد الله مولاه صاحب الدراهم فخرج إليه ، فلما رآه قطع به ، فقال : أصلح الله الأمير! والله ما دعوتُه إلى منزلي ولكنه جاء فطرح نفسه عليّ ؛ قال : اثني به ؛ قال : والله لو كان تحت قدميّ ما رفعتها عنه ؛ قال : أدنوه إليّ ، فأدني فضربه على حاجبه فشجّه ، قال : وأهوى هانء إلى سيف شريطيّ ليسله ، فدفع عن ذلك ، وقال : قد أحلّ الله دمك ، فأمر به فحُيس في جانب القصر .

وقال غير أبي جعفر: الذي جاء بهانء بن عروة إلى عُبيد الله بن زياد عمرو بن الحجاج الزبيدي :

ذكر من قال ذلك :

حدّثنا عمرو بن علي ، قال : حدّثنا أبو قُتيبة ، قال : حدّثنا يونس بن أبي إسحاق ، عن العِزّار بن

حُرَيْث ، قال : حَدَّثَنَا عُمَارَةُ بْنُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ ، فَجَلَسَ فِي مَجْلِسِ ابْنِ زِيَادٍ فَحَدَّثَ ، قَالَ : طَرَدْتُ الْيَوْمَ حُمْرًا فَأَصَبْتُ مِنْهَا حِمَارًا فَعَقَرْتُهُ ، فَقَالَ لَهُ عَمْرُو بْنُ الْحَجَّاجِ الزُّبَيْدِيُّ : إِنَّ حِمَارًا تَعَقِّرُهُ أَنْتَ لِحِمَارٍ حَائِنٍ ، فَقَالَ : أَلَا أَخْبِرُكَ بِأَحْيَيْنَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ! رَجُلٌ جِيءَ بِأَبِيهِ كَافِرًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُضْرَبَ عُنُقُهُ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ فَمَنْ لِلصَّبِيَّةِ؟ قَالَ : النَّارُ ، فَأَنْتَ مِنَ الصَّبِيَّةِ ، وَأَنْتَ فِي النَّارِ؛ قَالَ : فَضَحَكَ ابْنُ زِيَادٍ .

رَجَعَ الْحَدِيثُ إِلَى حَدِيثِ عَمَّارِ الدَّهْنِيِّ ؛ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ . قَالَ : فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ خَرَجَ الْخَبَرُ إِلَى مَذْحِجٍ ، فَلِذَا عَلَى بَابِ الْقَصْرِ جَلَبَتِ سَمْعَهَا عِبِيدُ اللَّهِ ، فَقَالَ : مَا هَذَا؟ فَقَالُوا : مَذْحِجٌ ، فَقَالَ لَشُرَيْحٍ : أَخْرِجْ إِلَيْهِمْ فَأَعْلِمِهِمْ أَنِي إِنَّمَا حَبِسْتَهُ لِأَسْأَلُهُ ، وَبَعَثَ عَيْنًا عَلَيْهِ مِنْ مَوَالِيهِ يَسْمَعُ مَا يَقُولُ ، فَمَرَّ بِهِانِيءُ بْنُ عُرْوَةَ ، فَقَالَ لَهُ هَانِيءٌ : اتَّقِ اللَّهَ يَا شُرَيْحَ ، فَإِنَّهُ قَاتِلِي ، فَخَرَجَ شُرَيْحٌ حَتَّى قَامَ عَلَى بَابِ الْقَصْرِ ، فَقَالَ : لَا بَأْسَ عَلَيْهِ ، إِنَّمَا حَبَسَهُ الْأَمِيرُ لِأَسْأَلُهُ ، فَقَالُوا : صَدَقَ ، لَيْسَ عَلَى صَاحِبِكُمْ بَأْسٌ ، فَتَفَرَّقُوا ، فَأَتَى مُسْلِمُ الْخَبَرِ ، فَنَادَى بِشَعَارِهِ ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ ، فَقَدَّمَ مَقْدَمَتَهُ ، وَعَبَّى مَيْمَنَتَهُ وَمِيسَرَتَهُ ، وَسَارَ فِي الْقَلْبِ إِلَى عُبَيْدِ اللَّهِ ، وَبَعَثَ عُبَيْدُ اللَّهِ إِلَى وَجْهِ أَهْلِ الْكُوفَةِ فَجَمَعَهُمْ عِنْدَهُ فِي الْقَصْرِ ، فَلَمَّا سَارَ إِلَيْهِ مُسْلِمٌ فَانْتَهَى إِلَى بَابِ الْقَصْرِ أَشْرَفُوا عَلَى عِشَائِرِهِمْ فَجَعَلُوا يَكْلُمُونَهُمْ وَيُرَدُّونَهُمْ ، فَجَعَلَ أَصْحَابُ مُسْلِمٍ يَتَسَلَّلُونَ حَتَّى أَمْسَى فِي خَمْسَمِائَةٍ ، فَلَمَّا اخْتَلَطَ الظَّلَامُ ذَهَبَ أَوْلَثُكَ أَيْضًا .

فَلَمَّا رَأَى مُسْلِمٌ أَنَّهُ قَدْ بَقِيَ وَحْدَهُ يَتَرَدَّدُ فِي الطَّرِيقِ أَقْبَى أَبَا فُزْلٍ عَلَيْهِ ، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ ، فَقَالَ لَهَا : إِسْقِينِي ، فَسَقَتْهُ ، ثُمَّ دَخَلَتْ فَمَكْنَتْ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ خَرَجَتْ فَلِذَا هُوَ عَلَى الْبَابِ ؛ قَالَتْ : يَا عَبْدَ اللَّهِ ، إِنَّ مَجْلِسَكَ مَجْلِسُ رِيبةٍ ، فَقُمْ ؛ قَالَ : إِنِّي أَنَا مُسْلِمُ بْنُ عَقِيلٍ ، فَهَلْ عِنْدَكَ مَأْوَى؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، ادْخُلْ ، وَكَانَ ابْنُهَا مَوْلَى لِمُحَمَّدِ بْنِ الْأَشْعَثِ ، فَلَمَّا عَلِمَ بِهِ الْغَلَامُ انْطَلَقَ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأَخْبَرَهُ ، فَاِنْطَلَقَ مُحَمَّدٌ إِلَى عِبِيدِ اللَّهِ فَأَخْبَرَهُ ، فَبَعَثَ عُبَيْدُ اللَّهِ عَمْرُو بْنَ حَرِثِ بْنِ الْمُخَزُومِيِّ - وَكَانَ صَاحِبَ شُرْطَةٍ - إِلَيْهِ ، وَمَعَهُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَشْعَثِ ، فَلَمْ يَعْلَمْ مُسْلِمٌ حَتَّى أَحِيطَ بِالْدارِ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مُسْلِمٌ خَرَجَ إِلَيْهِمْ بِسَيْفِهِ فَقَاتَلَهُمْ ، فَأَعْطَاهُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَمَانَ ، فَأَمَكَنَ مِنْ يَدِهِ ، فَجَاءَ بِهِ إِلَى عِبِيدِ اللَّهِ ، فَأَمَرَ بِهِ فَأَصْعَدَ إِلَى أَعْلَى الْقَصْرِ فَضْرَبَتْ عُنُقُهُ ، وَالْقَى جُثَّتَهُ إِلَى النَّاسِ ، وَأَمَرَ بِهِانِيءُ فَسُحِبَ إِلَى الْكُنَاسَةِ ، فَصُلِبَ هُنَاكَ ، وَقَالَ شَاعِرُهُمْ فِي ذَلِكَ :

فَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِيْنَ مَا الْمَوْتُ فَانْظُرِي إِلَى هَانِيءٍ فِي السُّوقِ وَابْنَ عَقِيلٍ
أَصَابَهُمَا أَمْرٌ الْإِمَامُ فَأَصْبَحَا أَحَادِيثٌ مَنْ يَسْعَى بِكُلِّ سَبِيلٍ
أَيْرُكُبُ أَسْمَاءَ الْهَمَالِيجِ آمِنًا وَقَدْ طَلَبْتُهُ مَذْحِجٌ بِدُحُولِ

وَأَمَّا أَبُو يُحْنَفٍ فَإِنَّهُ ذَكَرَ مِنْ قِصَّةِ مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ وَشَخْصِهِ إِلَى الْكُوفَةِ وَمَقْتَلَهُ قِصَّةً هِيَ أَشْبَعُ وَأَتَمُّ مِنْ خَبَرِ عَمَّارِ الدَّهْنِيِّ عَنْ أَبِي جَعْفَرِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ ؛ مَا حَدَّثْتُ عَنْ هِشَامِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، عَنْهُ ، قَالَ : حَدَّثَنِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ جُنْدَبٍ ، قَالَ : حَدَّثَنِي عُقْبَةُ بْنُ سَمْعَانَ مَوْلَى الرَّبَابِ ابْنَةَ امْرِئِ الْقَيْسِ الْكَلْبِيَّةِ امْرَأَةَ حُسَيْنٍ - وَكَانَتْ مَعَ سُكَيْنَةَ ابْنَةِ حُسَيْنٍ ، وَهُوَ مَوْلَى لِأَبِيهَا ، وَهِيَ إِذْ ذَاكَ صَغِيرَةٌ - قَالَ : خَرَجْنَا فَلَزِمْنَا الطَّرِيقَ الْأَعْظَمَ ، نَتَّالٍ لِلْحُسَيْنِ أَهْلُ بَيْتِهِ : لَوْ تَنَكَّبْتَ الطَّرِيقَ الْأَعْظَمَ كَمَا فَعَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ لَا يُلْحِقُكَ الطَّلَبُ ؛ قَالَ : لَا ، وَاللَّهِ لَا أَفَارِقُهُ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ مَا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ ، قَالَ : فَاسْتَقْبَلَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُطِيعٍ فَقَالَ لِلْحُسَيْنِ : جُعِلَتْ فِدَاكَ ! أَيْنَ تَرِيدُ؟ قَالَ : أَمَا الْآنَ فَإِنِّي أُرِيدُ مَكَّةَ ، وَأَمَا بَعْدَهَا فَإِنِّي أَسْتَخِيرُ اللَّهَ ، قَالَ : خَارَ اللَّهُ لَكَ ، وَجَعَلْنَا فِدَاكَ ؛ فَإِذَا أَنْتَ

أتيت مكة فإياك أن تقرّب الكوفة، فإنها بلدة مشؤومة، بها قُتل أبوك، ونُحِل أخوك، واغتيل بطعنة كادت تأتي على نفسه؛ الزم الحرم؛ فإنك سيّد العرب، لا يعدل بك والله أهل الحجاز أحداً، ويتداعى إليك الناس من كل جانب؛ لا تفارق الحرم فذاك عمي وخالي، فوالله لئن هلكت لنسترقنّ بعدك.

فأقبل حتى نزل مكة، فأقبل أهلها يختلفون إليه ويأتونه ومن كان بها من المعتمرين وأهل الآفاق، وابن الزبير بها قد لزم الكعبة، فهو قائم يصلي عندها عامة النهار ويطوف، ويأتي حسينا فيمن يأتيه، فيأتيه اليومين المتواليين، ويأتيه بين كل يومين مرة، ولا يزال يشير عليه بالرأي وهو أثقل خلق الله على ابن الزبير، قد عرف أنّ أهل الحجاز لا يبايعونه ولا يتابعونه أبداً ما دام حسين بالبلد، وأنّ حسينا أعظم في أعينهم وأنفسهم منه، وأطوع في الناس منه.

فلما بلغ أهل الكوفة هلاك معاوية أرجف أهل العراق بيزيد، وقالوا: قد امتنع حسين وابن الزبير، ولحقا بمكة، فكتب أهل الكوفة إلى حسين، وعليهم النعمان بن بشير.

قال أبو مخنف: فحدثني الحجاج بن علي، عن محمد بن بشر الهمداني، قال: اجتمعت الشيعة في منزل سليمان بن صرد، فذكرنا هلاك معاوية، فحمدنا الله عليه، فقال لنا سليمان بن صرد: إنّ معاوية قد هلك، وإنّ حسينا قد تقبض على القوم ببيعته، وقد خرج إلى مكة، وأنتم شيعة وشيعة أبيه، فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا إليه، وإن خفتهم الوهل والفشل فلا تغرّوا الرجل من نفسه، قالوا: لا، بل نقاتل عدوه ونقتل أنفسنا دونه؛ قال: فاكتبوا إليه، فكتبوا إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم. لحسين بن علي من سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد وحبيب بن مظاهر وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة. سلام عليك، فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد الذي انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها، وغصبها فيئتها، وتأمّر عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارها، واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها، فبعداً له كما بغدت ثمود! إنه ليس علينا إمام، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق. والنعمان بن بشير في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في الجمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو قد بلغنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام إن شاء الله؛ والسلام ورحمة الله عليك.

قال: ثم سرحنا بالكتاب مع عبدالله بن سبيع الهمداني وعبدالله بن وال، وأمرناهما بالنجاء؛ فخرج الرجلان مسرعين حتى قدما على حسين لعشر مضين من شهر رمضان بمكة، ثم لبثنا يومين، ثم سرحنا إليه قيس بن مسهر الصيداوي وعبد الرحمن بن عبدالله بن الكدن الأرحبي وعمارة بن عبيد السلولي، فحملوا معهم نحواً من ثلاثة وخمسين صحيفة؛ الصحيفة من الرجل والاثنين والأربعة.

قال: ثم لبثنا يومين آخرين، ثم سرحنا إليه هانيء بن هانيء السبيعي وسعيد بن عبدالله الحنفي، وكتبنا معها:

بسم الله الرحمن الرحيم. لحسين بن علي من شيعته من المؤمنين والمسلمين، أما بعد، فحيها، فإن الناس ينتظرونك، ولا رأي لهم في غيرك، فالعجل العجل؛ والسلام عليك.

وكتب شَبَّ بن رُبَيْعٍ وَحِجَار بن أَبَجَرٍ ويزيد بن الحارث بن يزيد بن رُوَيْم وَعَزْرَة بن قيس وعَمرو بن الحجاج الزُبَيْدِيَّ ومحمد بن عُمير التميمي :

أما بعد ، فقد اخضرَّ الجَنَاب ، وأينعت الثمار ، وطمَّت الجِمام ، فإذا شئت فاقدم على جندٍ لك مجندٌ ، والسلام عليك .

وتلاقت الرُّسل كلها عنده ، فقرأ الكتب ، وسأل الرسل عن أمر الناس ، ثم كتب مع هانيء بن هانيء السَّبيعي وسعيد بن عبدالله الحنفي ، وكانا آخر الرسل :

بسم الله الرحمن الرحيم . من حسين بن علي إلى الملا من المؤمنين والمسلمين ؛ أما بعد ، فإن هانئاً وسعيداً قدِمَا عليّ بكتبكم ، وكانا آخر مَنْ قدم عليّ من رسلكم ، وقد فهمت كلَّ الذي اقتصصتم وذكرتم ، ومقالة جُلُكم : إنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعلَّ الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق . وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي ، وأمرته أن يكتب إليّ بحالكم وأمركم ورأيكم ، فإن كتب إليّ أنه قد أجمع رأي مِليكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت عليّ به رُسُلكم ، وقرأت في كُتُبكم ، أقدم عليكم وشيكاً إن شاء الله ، فلعمري ما الإمام إلَّا العامل بالكتاب ، والأخذ بالقسط ، والدائن بالحق ، والحابس نفسه على ذات الله . والسلام .

قال أبو مخنف : وذكر أبو المخارق الراسبي ، قال : اجتمع ناس من الشيعة بالبصرة في منزل امرأة من عبد القيس يقال لها مارية ابنة سعد - أو منقذ - أياماً ، وكانت تشيع ، وكان منزلها لهم مألفاً يتحدثون فيه ، وقد بلغ ابن زياد إقبال الحسين ، فكتب إلى عامله بالبصرة أن يضع المناظر ويأخذ بالطريق .

قال : فأجمع يزيد بن بُيَيط الخروج - وهو من عبد القيس - إلى الحسين ، وكان له بنون عشرة ، فقال : أيُكم يخرج معي ؟ فانتدب معه ابنان له : عبدالله وعبيدالله ، فقال لأصحابه في بيت تلك المرأة : إني قد أزمعتُ على الخروج ، وأنا خارج ، فقالوا له : إنا نخاف عليك أصحاب ابن زياد ، فقال : إني والله لو قد استوت أخافهما بالجَدِّ لَهَان عليّ طلب من طلبني .

قال : ثم خرج فتقدَّى في الطريق حتَّى انتهَى إلى الحسين عليه السلام ، فدخل في رحله بالأبطح ، وبلغ الحسين مجيئه ، فجعل يطلبه ، وجاء الرجل إلى رَحْل الحسين ، فقبل له : قد خرج إلى منزلك ، فأقبل في أثره ، ولما لم يجده الحسين جلس في رحله ينتظره ، وجاء البصري فوجدَه في رَحله جالساً ، فقال : ﴿ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ قال : فسلم عليه ، وجلس إليه ، فخبَّره بالذي جاء له ، فدعا له بخير ، ثم أقبل معه حتى أتى فقاتل معه ، فقتل معه هو وابناه . ثم دعا مسلم بن عَقِيل فسرحه مع قيس بن مُسهر الصيدائي وعمارة بن عبيد السُّلويَّ وعبد الرحمن بن عبدالله بن الكدن الأرحبي ، فأمره بتقوى الله وكتمانٍ أَرِه ، واللطف ، فإن رأى الناس مجتمعين مستوسقين عَجَل إليه بذلك .

فأقبل مسلم حتَّى أتى المدينة فصلَّى في مسجد رسول الله ﷺ ، وودَّع من أحبَّ من أهله ، ثم استأجر -ليلين من قيس ، فأقبل به ، فضلاً الطريق وجارا ، وأصابهم عطش شديد ، وقال الدَّليلان : هذا الطريق حتَّى تنتهي إلى الماء ، وقد كادوا أن يموتوا عطشاً . فكتب مسلم بن عَقِيل مع قيس بن مسهر الصيدائي إلى حسين ، وذلك بالمُضيق من بطن الحُبَيْت :

أما بعد ، فإني أقبلت من المدينة معي دليلان لي ، فجارا عن الطريق وضلاً ، واشتد علينا العطش ، فلم يلبثا أن ماتا ، وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء ، فلم ننج إلا بحشاشة أنفسنا ، وذلك الماء بمكان يدعى المضيق من بطن الحُبَيْت ؛ وقد تطيرت من وجهي هذا ، فإن رأيت أعفيتني منه ، ويعثت غيري ، والسلام .

فكتب إليه حسين :

أما بعد ، فقد خشيت ألا يكون حَمَلَك على الكتاب إليّ في الاستعفاء من الوجه الذي وجهتك له إلا الجُبْن ، فامض لوجهك الذي وجهتك له ؛ والسلام عليك .

فقال مسلم لمن قرأ الكتاب : هذا مالست أخوفه على نفسي ؛ فأقبل كما هو حتى مر بماء لطِيء ، فنزل بهم ، ثم ارتحل منه ، فإذا رجل يرمي الصَّيْد ، فنظر إليه قد رمى ظَبياً حين أشرف له ، فصصره ، فقال مُسْلِم : يُقتل عدوُّنا إن شاء الله ؛ ثم أقبل مسلم حتى دخل الكوفة ، فنزل دار المختار بن أبي عبيد - وهي التي تدعى اليوم دار مسلم بن المسيب - وأقبلت الشيعة تختلف إليه ، فلما اجتمعت إليه جماعة منهم قرأ عليهم كتاب حسين ، فأخذوا يبكون .

فقام عابس بن أبي شبيب الشاكري ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإني لا أخبرك عن الناس ، ولا أعلم ما في أنفسهم ، وما أغرك منهم ، والله لأحدثنك عما أنا موطن نفسي عليه ، والله لأجيبنكم إذا دعوتهم ، ولأقاتلن معكم عدوكم ، ولأضربن بسيفي دونكم حتى ألقى الله ، لا أريد بذلك إلا ما عند الله .

فقام حبيب بن مظاهر الفَقْعَسِيّ ؛ فقال : رحمك الله ! قد قضيت ما في نفسك ، بواجز من قولك ؛ ثم قال : وأنا والله الذي لا إله إلا هو على مثل ما هذا عليه .

ثم قال الحنفيّ مثل ذلك . فقال الحجاج بن عليّ : فقلت لمحمد بن بشر : فهل كان منك أنت قول؟ فقال : إن كنت لأحب أن يعز الله أصحابي بالظفر ، وما كنت لأحب أن أقتل ، وكرهت أن أكذب .

واختلفت الشيعة إليه حتى عُلِم مكانه ، فبلغ ذلك النعمان بن بشير .

قال أبو نُحَيْف : حدّثني مُعمر بن وُعلة ، عن أبي الودّاع ، قال : خرج إلينا النعمان بن بشير فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فاتقوا الله عباد الله ولا تُسارعوا إلى الفتنة والفرقة ، فإنّ فيهما يهلك الرجال ، وتُسْفك الدماء ، وتُغْضَب الأموال - وكان حليماً ناسكاً يحب العافية - قال : إني لم أقاتل من لم يقاتلني ، ولا أثب على من لا يثب عليّ ، ولا أشاتمكم ، ولا أتحرش بكم ، ولا آخذ بالقرْف ولا الظنّة ولا التُّهْمَة ، ولكنكم إن أبديتُم صفحتكم لي ، ونكثتم بيعتكم ، وخالفتم إمامكم ، فوالله الذي لا إله غيره لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمهُ في يدي ، ولو لم يكن لي منكم ناصر . أما إني أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يُرديه الباطل .

قال : فقام إليه عبدالله بن مسلم بن سعيد الحضرمي حليف بني أمية فقال : إنه لا يصلح ما ترى إلا الغشْم ، إن هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوِّك رأيُ المستضعفين ؛ فقال : أن أكون من المستضعفين في طاعة الله أحب إليّ من أن أكون من الأعزّين في معصية الله ؛ ثم نزل .

وخرج عبدالله بن مسلم ، وكتب إلى يزيد بن معاوية : أما بعد ، فإن مسلم بن عقيل قد قدم الكوفة

فبايعته الشيعة للحسين بن علي ، فإن كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً ينفذ أمرَكَ ، ويعمل مثل عملك في عدوك ، فإن النعمان بن بشير رجل ضعيف ؛ أو هو يتضعف . فكان أول من كتب إليه .

ثم كتب إليه عمار بن عقبة بنحو من كتابه ، ثم كتب إليه عمر بن سعد بن أبي وقاص بمثل ذلك .

قال هشام : قال عوانة : فلما اجتمعت الكتب عند يزيد ليس بين كتبهم إلا يومان ، دعا يزيد بن معاوية سرجون مولى معاوية فقال : ما رأيك ؟ فإن حسيناً قد توجه نحو الكوفة ، ومسلم بن عقيل بالكوفة يبايع للحسين ، وقد بلغني عن النعمان ضعف وقول سيء - وأقرأه كتبهم - فما ترى من استعمل على الكوفة ؟ وكان يزيد عاتباً على عبيد الله بن زياد ؛ فقال سرجون : أرايت معاوية لو نشر لك ، أكنت آخذاً برأيه ؟ قال : نعم ؛ فأخرج عهد عبيد الله على الكوفة فقال : هذا رأي معاوية ، ومات وقد أمر بهذا الكتاب . فأخذ برأيه وضم المصيرين إلى عبيد الله ، وبعث إليه بعهد على الكوفة .

ثم دعا مسلم بن عمرو الباهلي - وكان عنده - فبعثه إلى عبيد الله بعهد إلى البصرة ، وكتب إليه معه : أما بعد ، فإنه كتب إلي شيعتي من أهل الكوفة يخبروني أن ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع لشق عصا المسلمين ؛ فسير حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتي أهل الكوفة فتطلب ابن عقيل كطلب الحرزة حتى تتفق فتوثقه أو تقتله أو تنفيه ؛ والسلام .

فأقبل مسلم بن عمرو حتى قدم على عبيد الله بالبصرة ، فأمر عبيد الله بالجهاز والتهيؤ والمسير إلى الكوفة من الغد .

وقد كان حسين كتب إلى أهل البصرة كتاباً ؛ قال هشام : قال أبو مخنف : حدثني الصقعب بن زهير ، عن أبي عثمان النهدي ، قال : كتب حسين مع مولى لهم يقال له : سليمان ، وكتب بنسخة إلى رؤوس الأخماس بالبصرة وإلى الأشراف ؛ فكتب إلى مالك بن مسعم البكري ، وإلى الأحنف بن قيس ، وإلى المنذر بن الجارود ، وإلى مسعود بن عمرو ، وإلى قيس بن الهيثم ، وإلى عمرو بن عبيد الله بن معمر ، فجاءت منه نسخة واحدة إلى جميع أشرافها : أما بعد ، فإن الله اصطفى محمداً ﷺ على خلقه ، وأكرمته بنبوته ، واختاره لرسالته ، ثم قبضه الله إليه وقد نصح لعباده ، وبلغ ما أرسل به ﷺ ، وكنا أهله وأوليائه وأوصيائه وورثته وأحق الناس بمقامه في الناس ، فاستأثر علينا قومنا بذلك ، فرضينا وكرهنا الفرقة ، وأحببنا العافية ، ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا من تولاه ، وقد أحسنوا وأصلحوا ، وتحروا الحق ، فرحمهم الله ، وغفر لنا ولهم . وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب ، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، فإن السنة قد أميتت ، وإن البدعة قد أحييت ، وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدى لكم سبيل الرشاد ، والسلام عليكم ورحمة الله .

فكل من قرأ ذلك الكتاب من أشراف الناس كتبه ، غير المنذر بن الجارود ، فإنه خشي بزعمه أن يكون دسيساً من قبل عبيد الله ، فجاء بالرسول من العشي التي يريد صبيحتها أن يسبق إلى الكوفة ، وأقرأه كتابه ، فقدم الرسول فضرب عنقه . وصعد عبيد الله منبر البصرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد ، فوالله ما تقرر بي الصعبة ، ولا يقعق لي بالشنان ، وإن لي لكل لمن عاداني ، وسم لمن حاربني ، أنصف القارة من راماها . يا أهل البصرة ، إن أمير المؤمنين ولاني الكوفة وأنا غاد إليها الغداة ، وقد

استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أبي سفيان ، وإياكم والخلاف والإرجاف ، فوالذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلافت لأقتلنه وعريفه ووليّه ، ولأخذن الأدنى بالأقصى حتى تستمعوا لي ، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق ، أنا ابن زياد ، أشبهته من بين من وطىء الحصى ولم ينتزعني شبه خال ولا ابن عم .

ثم خرج من البصرة واستخلف أخاه عثمان بن زياد ، وأقبل إلى الكوفة ومعه مسلم بن عمرو الباهلي ، وشريك بن الأعور الحارثي وحشمه وأهل بيته ، حتى دخل الكوفة وعليه عمامة سوداء ، وهو متلثم والناس قد بلغهم إقبال حسين إليهم ، فهم ينتظرون قدومه ، فظنوا حين قدم عبيد الله أنه الحسين ، فأخذ لا يمر على جماعة من الناس إلا سلموا عليه ، وقالوا : مرحباً بك يا بن رسول الله ! قدمت خير مقدّم ، فرأى من تباشيرهم بالحسين عليه السلام ما ساءه ، فقال مسلم بن عمرو لما أكثروا : تأخروا ، هذا الأمير عبيد الله بن زياد ، فأخذ حين أقبل على الظهر ، وإنما معه بضعة عشر رجلاً ، فلما دخل القصر وعلم الناس أنه عبيد الله بن زياد دخلهم من ذلك كآبة وحزن شديد ، وغاز عبيد الله ما سمع منهم ، وقال : ألا أرى هؤلاء كما أرى .

قال هشام : قال أبو مخنف : فحدثني المعلّى بن كليب ، عن أبي وداك ، قال : لما نزل القصر نوادي : الصلاة جامعة ؛ قال : فاجتمع الناس ، فخرج إلينا فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإن أمير المؤمنين أصلحه الله ولآني مصركم وثغركم ، وأمرني بإنصاف مظلومكم ، وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، وبالشدّة على مريبكم وعاصيكم ، وأنا متبّع فيكم أمره ، ومنفذ فيكم عهده ، فأنا لمحسنكم ومطيعكم كالوالد البرّ ، وسوطي وسيفي على من ترك أمري ، وخالف عهدي ، فليبق امرؤ على نفسه . الصديق ينبيء عنك لا الوعيد ؛ ثم نزل .

فأخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً ، فقال : اكتبوا إليّ الغرباء ، ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين ، ومن فيكم من الحرورية وأهل الرّيب الذين رأيهم الخلاف والشقاق ، فمن كتبهم لنا فبرئ ، ومن لم يكتب لنا أحداً ، فيضمن لنا ما في عرافته ألا يخالفنا منهم مخالف ، ولا يبغى علينا منهم باغ ، فمن لم يفعل برئت منه الذّمة ، وحلال لنا ماله وسفك دمه ، وأما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إلينا صلب على باب داره ، وألقيت تلك العرافة من العطاء ، وسير إلى موضع بعمان الزّارة .

وأما عيسى بن يزيد الكناني فإنه قال - فيما ذكر عمر بن شبّة ، عن هارون بن مسلم ، عن علي بن صالح ، عنه - قال : لما جاء كتاب يزيد إلى عبيد الله بن زياد ، انتخب من أهل البصرة خمسمائة ، فيهم عبدالله بن الحارث بن نوفل ، وشريك بن الأعور - وكان شيعة لعلي ، فكان أول من سقط بالناس شريك ، فيقال : إنه تساقط غمرة ومعه ناس - ثم سقط عبدالله بن الحارث وسقط معه ناس ، ورجحوا أن يلوي عليهم عبيد الله ويسبقه الحسين إلى الكوفة ، فجعل لا يلتفت إلى من سقط ، ويمضي حتى ورد القادسية ، وسقط مهران مولا ، فقال : أيا مهران ، على هذه الحال ، إن أمسكت عنك حتى تنظر إلى القصر فلك مائة ألف ، قال : لا ، والله ما أستطيع . فنزل عبيد الله فأخرج ثياباً مقطعة من مقطعات اليمّن ، ثم اعتجر بمعجرة يمانية ، فركب بغلته ، ثم انحدر راجلاً وحده ، فجعل يمرّ بالمحارس فكلموا نظروا إليه لم يشكوا أنه الحسين ، فيقولون : مرحباً بك يا بن رسول الله ! وجعل لا يكلمهم ، وخرج إليه الناس من دورهم ويؤتتهم ، وسمع بهم النعمان بن بشير فغلق عليه وعلى خاصته ، وانتهى إليه عبيد الله وهو لا يشك أنه الحسين ، ومعه الخلق

يضجّون ، فكلمه النعمان ، فقال : أنشدك الله إلا تنحيت عني ! ما أنا بمسلم إليك أمانتي ، وما لي في قتلك من أرب ؛ فجعل لا يكلمه . ثم إنه دنا وتدلى الآخر بين شرفتين ، فجعل يكلمه فقال : افتح لافتح ، فقد طال ليئلك ، فسمعها إنسان خلفه ، فتكفى إلى القوم ، فقال : أي قوم ، ابن مرجانة ، والذي لا إله غيره ! فقالوا : ويحك ! إنما هو الحسين ، ففتح له النعمان ، فدخل ، وضربوا الباب في وجوه الناس ، فانقضوا ، وأصبح فجلس على المنبر فقال : أيها الناس ، إني لأعلم أنه قد سار معي ، وأظهر الطاعة لي من هو عدو للحسين حين ظن أن الحسين قد دخل البلد وغلب عليه ، والله ما عرفت منكم أحداً ؛ ثم نزل .

وأخبر أن مسلم بن عقيل قدم قبله بليلة ، وأنه بناحية الكوفة ، فدعا مولى لبني تميم فأعطاه مالا ، وقال : انتحل هذا الأمر ، وأعظمهم بالمال ، واقصد هانيء ومسلم وانزل عليه ؛ فجاء هانئا فأخبره أنه شيعة ، وأن معه مالا . وقدم شريك بن الأعور شاكياً ، فقال لهانيء : مَرُّ مسلماً يكن عندي ، فإن عبيد الله يعودني ؛ وقال شريك لمسلم : أرايتك إن أمكنتك من عبيد الله أضاربه أنت بالسيف ؟ قال : نعم والله . وجاء عبيد الله شريكاً يعود في منزل هانيء - وقد قال شريك لمسلم : إذا سمعتني أقول : اسقوني ماءً فاخرج عليه فاضربه - وجلس عبيد الله على فراش شريك ، وقام على رأسه مهران ، فقال : اسقوني ماء ، فخرجت جارية بقدر ، فرأت مسلماً ، فزالت ، فقال شريك : اسقوني ماء ؛ ثم قال الثالثة : ويلكم تحموني الماء ! اسقوني ولو كانت فيه نفسي ؛ ففطن مهران فغمز عبيد الله ، فوثب ، فقال شريك : أيها الأمير ، إني أريد أن أوصي إليك ؛ قال : أعود إليك ، فجعل مهران يطرده ؛ وقال : أراد والله قتلك ؛ قال : وكيف مع إكرامي شريكاً وفي بيت هانيء ويد أبي عنده يد ! فرجع فأرسل إلى أسماء بن خازجة ومحمد بن الأشعث فقال : اثنياني بهانيء ، فقالا له : إنه لا يأتي إلا بالأمان ؛ قال : وما له ولالأمان ! وهل أحدث حدثاً ! انطلقا فإن لم يأت بالأمان فآمناه ، فأتياه فدعوا ، فقال : إنه إن أخذني قتلتني ، فلم يزالا به حتى جاء به وعبيد الله يخطب يوم الجمعة ، فجلس في المسجد ، وقد رجل هانيء غديريته ، فلما صلى عبيد الله ، قال : يا هانيء ، فتبعه ، ودخل فسلم ، فقال عبيد الله : يا هانيء ، أما تعلم أن أبي قديم هذا البلد فلم يترك أحداً من هذه الشيعة إلا قتله غير أبيك وغير حُجر ، وكان من حُجر ما قد علمت ، ثم لم يزل يُحسن صُحبتك ، ثم كتب إلى أمير الكوفة : إن حاجتي قبلك هانيء ؟ قال : نعم ، قال : فكان جزائي أن خبأت في بيتك رجلاً ليقتلني ! قال : ما فعلت ، فأخرج التميمي الذي كان عيناً عليهم ، فلما رآه هانيء علم أن قد أخبره الخبر ، فقال : أيها الأمير ، قد كان الذي بلغك ، ولن أضيع يدك عني ، فأنت آمن وأهلك ، فسر حيث شئت .

فكَبَا عبيد الله عندها ، ومهران قائم على رأسه في يده معكزة ، فقال : واذلّاه ! هذا العبد الخائن يؤمنك في سلطانك ! فقال : خذه ؛ فطرح المعكزة ، وأخذ بصفيرتي هانيء ، ثم أقنع بوجهه ، ثم أخذ عبيد الله المعكزة فضرب بها وجه هانيء ، ونذر الزُج ، فارتز في الجدار ، ثم ضرب وجهه حتى كسر أنفه وجبينه ، وسمع الناس الهَيْعة ، وبلغ الخبر مدحج ، فأقبلوا ، فأطافوا بالدار ، وأمر عبيد الله بهانيء فألقي في بيت ، وصيح المذحجيون ، وأمر عبيد الله مهران أن يدخل عليه شريحاً ، فخرج ، فأدخله عليه ، ودخلت الشرط معه ، فقال : يا شريح ، قد ترى ما يصنع بي ! قال : أراك حياً ؛ قال : وحي أنامع ما ترى ! أخبر قومي أنهم إن انصرفوا قتلني ؛ فخرج إلى عبيد الله فقال : قد رأيته حياً ، ورأيت أثراً سيئاً ؛ قال : وتُكر أن يعاقب الوالي رعيته ! أخرج إلى هؤلاء فأخبرهم ، فخرج ، وأمر عبيد الله الرجل فخرج معه ، فقال لهم شريح : ما هذه الرعة

السَّيِّئَةُ الرجل حيٌّ ، وقد عاتبه سلطانه بضرب لم يبلغ نفسه ، فانصرفوا ولا تُحِلُّوا بأنفسكم ولا بصاحبكم . فانصرفوا .

وذكر هشام ، عن أبي مخنف ، عن المعلِّ بن كليب ، عن أبي الوَدَّاح ، قال : نزل شريك بن الأعور على هانيء بن عروة المرادي ، وكان شريك شيعياً ، وقد شهد صفين مع عمار .

وسمع مسلم بن عقيل بمجيء عبيد الله ومقاتله التي قالها ، وما أخذ به العرفاء والناس ، فخرج من دار المختار - وقد عَلِمَ به - حتى انتهى إلى دار هانيء بن عروة المرادي ، فدخل بابه ، وأرسل إليه أن أخرج ، فخرج إليه هانيء ، فكره هانيء مكانه حين رآه ، فقال له مسلم : أتيتك لتجبرني وتُضَيِّفَني ؛ فقال : رحمك الله ! لقد كلَّفَتَنِي شَطَطًا ، ولولا دخولك داري وثقتك لأحببتُ ولسألتك أن تخرج عني ، غير أنه يأخذني من ذلك ذمامٌ ، وليس مردود مثلي على مثلك عن جهل ؛ ادخل .

فأواه ، وأخذت الشيعة تختلف إليه في دار هانيء بن عروة ، ودعا ابن زياد مولياً له يقال له معقل ، فقال له : خذ ثلاثة آلاف درهم ، ثم اطلب مسلم بن عقيل ، واطلب لنا أصحابه ، ثم أعطهم هذه الثلاثة آلاف ؛ فقل لهم : استعينوا بها على حرب عدوكم ، وأعلمهم أنك منهم ، فإنك لو قد أعطيتها إياهم الممانوا إليك ، ووثقوا بك ، ولم يكتموك شيئاً من أخبارهم ؛ ثم اغد عليهم ورُحْ . ففعل ذلك ، فجاء حتى أتى إلى مسلم بن عوسجة الأسدي من بني سعد بن ثعلبة في المسجد الأعظم وهو يصلي ، وسمع الناس يقولون : إن هذا يبايع للحسين ، فجاء فجلس حتى فرغ من صلاته ثم قال : يا عبد الله ، إني امرؤ من أهل الشام ، مولى لذي الكلاع ، أنعم الله عليَّ بحب أهل هذا البيت وحب من أحبهم ، فهذه ثلاثة آلاف درهم أردت بها لقاء رجلٍ منهم بلغني أنه قدم الكوفة يبايع لابن بنت رسول الله ﷺ ، وكنت أريد لقاءه فلم أجد أحداً يدلني عليه ولا يعرف مكانه ، فإني لجالسٌ آنفاً في المسجد إذ سمعتُ نقرأ من المسلمين يقولون : هذا رجلٌ له علمٌ بأهل هذا البيت ؛ وإني أتيتك لتقبض هذا المال وتدخلني على صاحبك فأبأه ، وإن شئت أخذت بيعتي له قبل لقائه ، فقال : إحمد الله على لقائك إياي ، فقد سررتني ذلك لتنال ما تحب ، ولينصر الله بك أهل بيت نبيه ﷺ ، ولقد ساءني معرفتك إياي بهذا الأمر من قبل أن ينمي نخافة هذا الطاغية وسطوته .

فأخذ بيعته قبل أن يبرح ، وأخذ عليه الموائيق المغلظة ليناصحه وليكتمن ، فأعطاه من ذلك ما رضى به ، ثم قال له : اختلف إليَّ أياماً في منزلي ، فأنا طالبٌ لك الإذن على صاحبك . فأخذ يختلف مع الناس ، فطلب له الإذن . فمرض هانيء بن عروة ، فجاء عبيد الله عائداً له ، فقال له عمارة بن عبيد السلوي : إنما جماعتنا وكيدنا قتل هذا الطاغية ، فقد أمكنك الله منه فاقتله ؛ قال هانيء : ما أحب أن يُقتل في داري ، فخرج فلما مكث إلا جمعة حتى مرض شريك بن الأعور - وكان كريماً على ابن زياد وعلى غيره من الأمراء ، وكان شديد التشيع - فأرسل إليه عبيد الله : إني رائجٌ إليك العشيّة ؛ فقال لمسلم : إن هذا الفاجر عائدي العشيّة ، فإذا جلس فاخرج إليه فاقتله ، ثم اقعِد في القصر ، ليس أحدٌ يحول بينك وبينه ، فإن برئت من وجعي هذا أيامي هذه سررتُ إلى البصرة وكفيتك أمرها .

فلما كان من العشي أقبل عبيد الله لعيادة شريك ، فقام مسلم بن عقيل ليدخل ، وقال له شريك : لا يفوتك إذا جلس ؛ فقام هانيء بن عروة إليه فقال : إني لا أحب أن يُقتل في داري - كأنه استقبح ذلك - فجاء

عبيد الله بن زياد فدخل فجلس ، فسأل شريكاً عن وجعه ، وقال : ما الذي تجدُّ؟ ومتى أشكيت؟ فلما طال سؤاله إياه ، ورأى أن الآخر لا يخرج ، خشي أن يفوته ، فأخذ يقول :

ما تنتظرون بسلمي أن تُحيوها

إسقينها وإن كانت فيها نفسي ، فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً ؛ فقال عبيد الله ، ولا يَفطن ما شأنه : أترؤنه بهجر؟ فقال له هانيء : نعم أصلحك الله ! ما زال هذا ديدنه قبيل عماية الصبح حتى ساعته هذه . ثم إنه قام فأنصرف ، فخرج مسلم ، فقال له شريك : ما منعك من قتله؟ فقال : خَصَلتان : أما إحداها فكرهة هانيء أن يُقتل في داره ، وأما الأخرى فحديثٌ حدّثه الناس عن النبي ﷺ : « إِنَّ الْإِيمَانَ قَيْدُ الْفِتْنَةِ ، وَلَا يَفْتَكُ مَوْمِنٌ » ؛ فقال هانيء : أما والله لو قتلته لقتلت فاسقاً فاجراً كافراً غادراً ، ولكن كرهت أن يُقتل في داري . فنبش شريك بن الأعور بعد ذلك ثلاثاً ثم مات ، فخرج ابن زياد فصلّى عليه ، وبلغ عُبيد الله بعد ما قتل مسلماً : « إِنَّا أَنْزَلْنَا ذَلِكَ الْكِتَابَ فِي هَذِهِ الْمَسْجِدِ لِتُذَكَّرَ فِيهِ الْآيَاتُ الْكُبْرَى ، وَلِتُزَكَّى بِهَا الْقُلُوبُ ، وَلِتُعْلَمَ أَنَّ الْإِيمَانَ قَيْدُ الْفِتْنَةِ ، وَلَا يَفْتَكُ مَوْمِنٌ » . فقال عبيد الله : والله لا أصلي على جنازة رجل من أهل العراق أبداً ، والله لولا أن قبر زياد فيهم لنُبِشتُ شريكاً .

ثم إن معقلاً مولى ابن زياد الذي دسّه بالمال إلى ابن عَقِيل وأصحابه ، اختلف إلى مسلم بن عَوسجة أياماً ليدخله على ابن عَقِيل ، فأقبل به حتى أدخله عليه بعد موت شريك بن الأعور ، فأخبره خبره كله ، فأخذ ابن عَقِيل يبعثه ، وأمر أبا ثُمَامَةَ الصائدي ، فقبض ماله الذي جاء به - وهو الذي كان يقبض أموالهم ، وما يعين به بعضهم بعضاً ، يشتري لهم السلاح ، وكان به بصيراً ، وكان من فرسان العرب ووجوه الشيعة - وأقبل ذلك الرجل يختلف إليهم ، فهو أول داخل وآخر خارج ، يسمع أخبارهم ، ويعلم أسرارهم ، ثم ينطلق بها حتى يُقرّها في أذن ابن زياد . قال : وكان هانيء يغدو ويروح إلى عُبيد الله ، فلما نزل به مسلم انقطع من الاختلاف زماماً ، فجعل لا يخرج ، فقال ابن زياد لجلسائه : مالي لا أرى هائناً فقالوا : هو شاك ، فقال : لو علمتُ بمرضه لعدتُه .

قال أبو مخنف : فحدثني المجالد بن سعيد ، قال : دعا عبيد الله محمد بن الأشعث وأسماء بن خارجة .

قال أبو مخنف : حدثني الحسن بن عَقْبَةَ المرادي أنه بعث معها عمرو بن الحجاج الزبيدي .

قال أبو مخنف : وحدثني ثُمَيْر بن وعلة ، عن أبي الودّاع ، قال : كانت رُوعَة أخت عمرو بن الحجاج تحت هانيء بن عروة ، وهي أم يحيى بن هانيء . فقال لهم : ما يمنع هانيء بن عروة من إتياننا؟ قالوا : ما ندرى أصلحك الله ! وإنه ليتشكّى ؛ قال : قد بلغني أنه قد برأ ، وهو يجلس على باب داره ، فالحقوه ، فمروه ألا يدع ما عليه في ذلك من الحق ، فإنّي لا أحب أن يفسد عندي مثله من أشرف العرب . فأتوه حتى وقفوا عليه عشيّة وهو جالس على بابهِ ، فقالوا : ما يمنعك من لقاء الأمير ؛ فإنه قد ذكرك ، وقد قال : لو أعلم أنه شاك لعدتُه؟ فقال لهم : الشكوى تمنعني ، فقالوا له : يبلغه أنك تجلس كل عشيّة على باب دارك ، وقد استبطأك ، والإبطاء والجفاء لا يحتمله السلطان ، أقسمنا عليك لما ركبت معنا! فدعا بشابه فلبسها ، ثم دعا ببغلة فركبها حتى إذا دنا من القصر ؛ كأن نفسه أحسّت ببعض الذي كان ، فقال لحسان بن أسماء بن خارجة : يا ابن أخي ، إني والله لهذا الرجل لحائف ، فما ترى؟ قال : أي عمّ ، والله ما اتخوف عليك شيئاً ، ولم تجعل على نفسك سبيلاً وأنت

بريء؟ وزعموا أن أسياء لم يعلم في أي شيء بعث إليه عبيد الله؛ فأما محمد فقد علم به؛ فدخل القوم على ابن زياد، ودخل معهم، فلما طلع قال عبيد الله: أتتكم بخائن رجلاه! وقد عرس عبيد الله إذ ذاك بأماً نافع ابنة عمارة بن عتبة؛ فلما دنا من ابن زياد وعنده شريح القاضي التفت نحوه، فقال:

أريد حباءه ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

وقد كان له أول ما قدم مكرماً ملطفاً، فقال له هات؛ وما ذاك أيها الأمير؟ قال: إيه يا هاتى بن عروة! ما هذه الأمور التي تربص في دورك لأمر المؤمنين وعامة المسلمين! جئت بمسلم بن عقيل فدخلته دارك، وجهمت له السلاح والرجال في السدور حولك، وظننت أن ذلك يخفى عليّ لك! قال: ما فعلت، وما مسلم عندي، قال: بلى قد فعلت؛ قال: ما فعلت؛ قال: بلى، فلما كثر ذلك بينهما، وأبى هاتى إلا مجاحدته ومناكرته، دعا ابن زياد معقلاً ذلك العين، فجاء حتى وقف بين يديه فقال: أتعرف هذا؟ قال: نعم، وعلم هاتى عند ذلك أنه كان عيناً عليهم، وأنه قد آتاه بأخبارهم، فسقط في خلدّه ساعة. ثم إن نفسه راجعته، فقال له: اسمع مني، وصدق مقالتي، فوالله لا أكذبك، والله الذي لا إله غيره ما دعوته إلى منزلي، ولا علمت بشيء من أمره، حتى رأيته جالساً على بابي، فسألني النزول عليّ، فاستحييت من رده، ودخلني من ذلك إمام، فأدخلته داري ووضفته وآويته، وقد كان من أمره الذي بلغك، فإن شئت أعطيت الآن موثقاً مغلظاً وما تصسن إليه ألا أبغيك سوءاً، وإن شئت أعطيتك رهينة تكون في يدك حتى آتيك، وأنطلق إليه فأمره أن يخرج من داري إلى حيث شاء من الأرض، فأخرج من ذمامه وجواره؛ فقال: لا والله لا تفارقني أبداً حتى تأتيني به؛ فقال: لا، والله لا أجيتك أبداً، أنا أجيتك بضيفي تقتله! قال: والله لتأتيني به، قال: والله لا آتيك به.

فلما كثر الكلام بينها قام مسلم بن عمرو الباهلي - وليس بالكوفة شامي ولا بصري غيره - فقال: أسمع الله الأمير! خلني وإياه حتى أكلّمه، لما رأى لجأته وتآبّيه على ابن زياد أن يدفع إليه مسلماً، فقال لهاتى: قم إليّ ها هنا حتى أكلّمك؛ فقام فخلاً به ناحية من ابن زياد، وهما منه على ذلك قريب حيث يراها؛ إذ أرفعا أصواتهما سمع ما يقولان، وإذا خفّضا خفي عليه ما يقولان؛ فقال له مسلم: يا هاتى، إني أنشدك الله أن تقتل نفسك، وتدخل البلاء على قومك وعشيرتك! فوالله إني لأنفس بك عن القتل، وهو يرى أن عشيرته ستحرك في شأنه أن هذا الرجل ابن عم القوم، وليسوا قاتليه ولا ضائريه، فادفعه إليه فإنه ليس عليك بذلك مخزاة ولا منقصة، إنما تدفعه إلى السلطان، قال: بلى، والله إن عليّ في ذلك للخزي والعار، أنا أدفع جاري وضيفي وأنا حيّ صحيح أسمع وأرى، شديد الساعد، كثير الأعوان! والله لو لم أكن إلا واحداً ليس لي ناصر لم أدفعه حتى أموت دونه. فأخذ يناشده وهو يقول: والله لا أدفعه إليه أبداً؛ فسمع ابن زياد ذلك، فقال: أدنوه مني، فأدنوه منه، فقال: والله لتأتيني به أولاً ضرباً عنقك؛ قال: إذا تكثرت البارقة حول دارك، فقال: والها عليك! أبالبارقة تخوفني! وهو يظن أن عشيرته سيمنعونه؛ فقال ابن زياد: أدنوه مني، فأدني، فاستعرض وجهه بالقضيب فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وخدّه حتى كسر أنفه، وسيل الدماء على ثيابه، ونثر لحم خديّه وجبينه على لحيته حتى كسر القضيب، وضرب هاتى بيده إلى قائم سيف شرطي من تلك الرجال، وجابذه الرجل ومنع، فقال عبيد الله: أحزوري سائر اليوم! أحللت بنفسك، قد حلّ لنا قتلك، خذوه فآلقوه في بيت من بيوت الدار، وأغلقوا عليه بابه، واجعلوا عليه حرساً، ففعل ذلك به، فقام إليه

أسماء بن خارجة فقال : أُرْسِلْ غَدْرُ سائر اليوم ! أَمَرْتَنَا أَنْ نَجِيثَكَ بِالرَّجُلِ حَتَّى إِذَا جِئْنَاكَ بِهِ وَأَدْخَلْنَاهُ عَلَيْكَ هَشِمْتُمْ وَجْهَهُ ، وَسَيَّلْتُمْ دَمَهُ عَلَى لَحْيَتِهِ ، وَزَعَمْتُمْ أَنَّكَ تَقْتُلُهُ ! فَقَالَ لَهُ عُبَيْدُ اللَّهِ : وَإِنَّكَ لَهَا هُنَا ! فَأَمَرَ بِهِ فَلِهَزْرَ وَنُعَيْتِهِ بِهِ ، ثُمَّ تَرَكَ فَحَبَسَ .

وأما محمد بن الأشعث فقال : قد رَضِينَا بِمَا رَأَى الْأَمِيرُ ؛ لَنَا كَانَ أُمُّ عَلَيْنَا ، إِنَّمَا الْأَمِيرُ مُؤَدَّبٌ . وَبَلَغَ - عمرو بن الحجاج أن هَانِئًا قَدْ قُتِلَ ، فَأَقْبَلَ فِي مَذْحِجٍ حَتَّى أَحَاطَ بِالْقَصْرِ وَمَعَهُ جَمْعٌ عَظِيمٌ ، ثُمَّ نَادَى : أَنَا عَمْرُو بْنُ الْحَجَّاجِ ، هَذِهِ فُرْسَانُ مَذْحِجٍ وَوُجُوهُهَا ، لَمْ تَخْلَعْ طَاعَةً ، وَلَمْ تَفَارِقْ جَمَاعَةً ، وَقَدْ بَلَغْتُمْ أَنَّ صَاحِبَهُمْ يُقْتَلُ ، فَأَعْظَمُوا ذَلِكَ ؛ فَقِيلَ لِعُبَيْدِ اللَّهِ : هَذِهِ مَذْحِجٌ بِالْبَابِ ، فَقَالَ لِشَرِيحٍ الْقَاضِي : ادْخُلْ عَلَى صَاحِبِهِمْ فَاَنْظُرْ إِلَيْهِ ، ثُمَّ اخْرُجْ فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ حَيٌّ لَمْ يُقْتَلْ ، وَأَنَّكَ قَدْ رَأَيْتَهُ ، فَدَخَلَ إِلَيْهِ شَرِيحٌ فَنَظَرَ إِلَيْهِ .

فَقَالَ أَبُو مَخْنَفٍ : فَحَدَّثَنِي الصَّقْعَبُ بْنُ زَهِيرٍ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شَرِيحٍ ، قَالَ : سَمِعْتُهُ يَحْدُثُ إِسْمَاعِيلَ بْنَ طَلْحَةَ ، قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى هَانِئٍ ، فَلَمَّا رَأَى قَالَ : يَا اللَّهُ يَا لِلْمُسْلِمِينَ ! أَهْلَكْتُ عَشِيرَتِي؟ فَأَيْنَ أَهْلُ الدِّينِ ! وَأَيْنَ أَهْلُ الْمِصْرِ تَفَاقَدُوا ! يُخْلُونِي ، وَعَدَوْهُمْ وَابْنَ عَدُوِّهِمْ ! وَالِدُمَاءُ تَسِيلُ عَلَى لَحْيَتِهِ ، إِذْ سَمِعَ التَّرَجَّةَ عَلَى بَابِ الْقَصْرِ ، وَخَرَجَتْ وَاتَّبَعَنِي ، فَقَالَ : يَا شَرِيحُ ، إِنِّي لِأُظَنُّهَا أَصَوَاتُ مَذْحِجٍ وَشِيعَتِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، إِنْ دَخَلَ عَلَيَّ عَشْرَةُ نَفَرٍ أَنْقَذُونِي ؛ قَالَ : فَخَرَجْتُ إِلَيْهِمْ وَمَعِيَ حُمَيْدُ بْنُ بَكِيرٍ الْأَحْمَرِيُّ - أَرْسَلَهُ مَعِيَ ابْنُ زَيْدٍ ، وَكَانَ مِنْ شَرْطِهِ مَن يَقُومُ عَلَى رَأْسِهِ - وَابْنُ اللَّهِ لَوْلَا مَكَانُهُ مَعِيَ لَكُنْتُ أَبْلَغْتُ أَصْحَابَهُ مَا أَمَرَنِي بِهِ ؛ فَلَمَّا خَرَجْتُ إِلَيْهِمْ قُلْتُ : إِنَّ الْأَمِيرَ لَمَّا بَلَغَهُ مَكَانُكُمْ وَمَقَالَتُكُمْ فِي صَاحِبِكُمْ أَمَرَنِي بِالْدُخُولِ إِلَيْهِ ، فَأَتَيْتُهُ فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَلْقَاكُمْ ، وَأَنْ أَعْلِمَكُمْ أَنَّهُ حَيٌّ ، وَأَنْ الَّذِي بَلَغَكُمْ مِنْ قَتْلِهِ كَانَ بَاطِلًا . فَقَالَ عَمْرُو وَأَصْحَابُهُ : فَأَمَّا إِذْ لَمْ يُقْتَلْ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ ؛ ثُمَّ انصرفوا .

قَالَ أَبُو مَخْنَفٍ : حَدَّثَنِي الْحَجَّاجُ بْنُ عَلِيٍّ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ بِشْرِ الْهَمْدَانِيِّ ، قَالَ : لَمَّا ضَرَبَ عُبَيْدُ اللَّهِ هَانِئًا وَحَبَسَهُ خَشِيَ أَنْ يَثْبُتَ النَّاسُ بِهِ ، فَخَرَجَ فَصَعِدَ الْمَنْبَرَ وَمَعَهُ أَشْرَافُ النَّاسِ وَشَرْطُهُ وَحَشْمُهُ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ ، أَيُّهَا النَّاسُ ، فَاغْتَصِمُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ أَثِمَتِكُمْ ، وَلَا تَخْتَلِفُوا وَلَا تَفَرَّقُوا فَتَهْلِكُوا وَتَذَلُّوا وَتَقْتُلُوا وَتُحْفَوُا وَتَحْرَمُوا ، إِنَّ أَخَاكَ مَن صَدَقَكَ ، وَقَدْ أَعْدَرَ مَن أُنْذِرَ .

قَالَ : ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنْزِلَ ، فَمَا نَزَلَ عَنِ الْمَنْبَرِ حَتَّى دَخَلَتْ النُّظَارَةُ الْمَسْجِدَ مِنْ قَبْلِ التَّمَارِينَ يَشْتَدُّونَ وَيَقُولُونَ : قَدْ جَاءَ ابْنُ عَقِيلٍ ! قَدْ جَاءَ ابْنُ عَقِيلٍ ! فَدَخَلَ عُبَيْدُ اللَّهِ الْقَصْرَ مُسْرِعًا ، وَأَغْلَقَ أَبْوَابَهُ .

قَالَ أَبُو مَخْنَفٍ : حَدَّثَنِي يَوْسُفُ بْنُ يَزِيدٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَازِمٍ ، قَالَ : أَنَا وَاللَّهُ رَسُولُ ابْنِ عَقِيلٍ إِلَى انْقِصَارِ لَأَنْظُرَ إِلَى مَا صَارَ أَمْرُ هَانِئٍ ؛ قَالَ : فَلَمَّا ضُرِبَ وَحُبِسَ رَكِبْتُ فَرَسِي وَكُنْتُ أَوَّلَ أَهْلِ الدَّارِ دَخَلَ عَلَى مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ بِالْخَبَرِ ، وَإِذَا نِسْوَةٌ لِمُرَادِ مَجْتَمَعَاتٍ يَنَادِينَ : يَا عَثْرَتَاهُ ! يَا تُكْلَاهُ ! فَدَخَلْتُ عَلَى مُسْلِمِ بْنِ عَقِيلٍ بِالْخَبَرِ ، فَأَمَرَنِي أَنْ أُنَادِيَ فِي أَصْحَابِهِ وَقَدْ مَلَأْتُهُمُ الدُّورَ حَوْلَهُ ، وَقَدْ بَايَعَهُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفًا ، وَفِي الدُّورِ أَرْبَعَةَ أَلْفٍ رَجُلٍ ، فَقَالَ لِي : نَادِ : يَا مَنْصُورُ أَمْتُ ؛ فَنَادَيْتُ : يَا مَنْصُورُ أَمْتُ ؛ وَتَنَادَى أَهْلُ الْكَوْفَةِ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، فَعَقَدَ مُسْلِمُ لِعُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَزِيزٍ الْكَنْدِيِّ عَلَى رُبْعِ كَنْدَةٍ وَرَبِيعَةٍ ، وَقَالَ : سِرُّ أُمَامِي فِي الْخَيْلِ ، ثُمَّ عَقَدَ لِمُسْلِمِ بْنِ عَوْسَجَةَ الْأَسَدِيِّ عَلَى رُبْعِ مَذْحِجٍ وَأَسَدٍ ، وَقَالَ : انْزِلْ فِي الرِّجَالِ فَأَنْتَ عَلَيْهِمْ ؛ وَعَقَدَ لِأَبِي ثُمَامَةَ الصَّائِدِيِّ عَلَى رُبْعِ تَمِيمٍ وَهَمْدَانَ ، وَعَقَدَ لِعَبَّاسِ بْنِ جَعْدَةَ الْجُدَيْيِّ عَلَى رُبْعِ الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ نَحْوَ الْقَصْرِ ،

فلما بلغ ابن زياد إقباله تحرّز في القصر ، وغلّق الأبواب .

قال أبو مخنف : وحَدَّثني يونس بن أبي إسحاق ، عن عباس الجذلي قال : خرجنا مع ابن عقيل أربعة آلاف ، فما بلغنا القصر إلا ونحن ثلثمائة . قال : وأقبل مسلم يسير في الناس من مراد حتى أحاط بالقصر ، ثم إن الناس تداعوا إلينا واجتمعوا ، فوالله ما لبثنا إلا قليلاً حتى امتلأ المسجد من الناس والسوق ، وما زالوا يثوبون حتى المساء ، فضاق بعبيد الله ذرعه ، وكان كُبر أمره أن يتمسك بباب القصر ، وليس معه إلا ثلاثون رجلاً من الشُرط وعشرون رجلاً من أشراف الناس وأهل بيته ومواليه ، وأقبل أشراف الناس يأتون ابن زياد من قبل الباب الذي يلي دار الروميين ، وجعل من بالقصر مع ابن زياد يُشرفون عليهم ، فينظرون إليهم فيتقون أن يرْمُوهم بالحجارة ، وأن يشتموهم وهم لا يفترون على عبيد الله وعلى أبيه . ودعا عبيد الله كثير بن شهاب بن الحصين الحارثي فأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج ، فيسير بالكوفة ، ويخذل الناس عن ابن عقيل ويخوفهم الحرب ، ويحذرهم عقوبة السلطان ، وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة وحَضْرَمَوْت ، فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس ، وقال مثل ذلك للقعقاع بن شُور الدهلي وشبث بن ربعي التميمي وحجّار بن أبجر العجلي وشمر بن ذي الجوشن العامري ، وحبس سائر وجوه الناس عنده استيحاشاً إليهم لفلة عدد من معه من الناس ، وخرج كثير بن شهاب يُخذل الناس عن ابن عقيل .

قال أبو مخنف : فحدَّثني أبو جَنَاب الكلابي أن كثيراً ألقى رجلاً من كلب يقال له عبد الأعلى بن يزيد ، قد لبس سلاحه يريد ابن عقيل في بني فُتيان ، فأخذه حتى أدخله على ابن زياد ، فأخبره خبره ، فقال لابن زياد : إنما أردتك ؛ قال : وكنت وعدتني ذلك من نفسك ؛ فأمر به فحبس ، وخرج محمد بن الأشعث حتى وقف عند دور بني عمارة ، وجاءه عمارة بن صلّحب الأزدّي وهو يريد ابن عقيل ، عليه سلاحه ، فأخذه فبعث به إلى ابن زياد فحبسه ، فبعث ابن عقيل إلى محمد بن الأشعث من المسجد عبدالرحمن بن شريح الشبامي ، فلما رأى محمد بن الأشعث كثرة من أتاه ، أخذ يتنحى ويتأخر ، وأرسل القعقاع بن شُور الدهلي إلى محمد بن الأشعث : قد جُلْتُ على ابن عقيل من العرار ، فتأخّر عن موقفه ، فأقبل حتى دخل على ابن زياد من قبل دار الروميين ، فلما اجتمع عند عبيد الله كثير بن شهاب ومحمد والقعقاع فيمن أطاعهم من قومهم ، قال له كثير - وكانوا مناصحين لابن زياد : أصلح الله الأمير ! معك في القصر ناس كثير من أشراف الناس ومن شُرطك وأهل بيتك ومواليك ، فاخرج بنا إليهم ، فأبى عبيد الله ، وعقد لشبث بن ربعي لواءً ، فأخرجه ، وأقام الناس مع ابن عقيل يكبرون ويثوبون حتى المساء ، وأمرهم شديد ، فبعث عبيد الله إلى الأشراف فجمعهم إليه ، ثم قال : أشرفوا على الناس فمَنُوا أهل الطاعة الزيادة والكرامة ، وخوفوا أهل المعصية الحرمان والعقوبة ، وأعلموهم فصول الجنود من الشام إليهم .

قال أبو مخنف : حدَّثني سليمان بن أبي راشد ، عن عبدالله بن خازم الكثيري من الأزد ، من بني كثير ، قال : أشرف علينا الأشراف ، فتكلم كثير بن شهاب أول الناس حتى كادت الشمس أن تُحب ، فقال : أيها الناس ، الحقوا بأهاليكم ، ولا تعجلوا الشر ، ولا تعرضوا أنفسكم للقتل ، فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت ، وقد أعطى الله الأمير عهداً : لئن أتممت على حربيه ولم تنصرفوا من عشيّتكم أن يُجرم ذريّتكم لعطاء ، ويفرق مقاتلتكم في مغازي أهل الشام على غير طمع ، وأن يأخذ البريء بالسقيم ، والشاهد الغائب ، حتى لا يبقى له فيكم بقية من أهل المعصية إلا أذاقها وبال ما جرّت أيديها ؛ وتكلم الأشراف بنحو

من كلام هذا ؛ فلما سمع مقاتلتهم الناس أخذوا يتفرقون ، وأخذوا ينصرفون .

قال أبو مخنف : فحدثني المجالد بن سعيد ؛ أن المرأة كانت تأتي ابنها أو أخاها فتقول : انصرف ؛ الناس يكفونك ؛ ويحيي الرجل إلى ابنه أو أخيه فيقول : غداً يأتيك أهل الشام ، فما تصنع بالحرب والشر ؟ انصرف . فيذهب به ؛ فما زالوا يتفرقون ويتصدعون حتى أمسى ابن عقيل وما معه ثلاثون نفساً في المسجد ، حتى صليت المغرب ، فما صلى مع ابن عقيل إلا ثلاثون نفساً . فلما رأى أنه قد أمسى وليس معه إلا أولئك النفوس خرج متوجهاً نحو أبواب كندة ، وبلغ الأبواب ومعه منهم عشرة ، ثم خرج من الباب وإذا ليس معه إنسان ، والتفت فإذا هو لا يحسّ أحداً يده على الطريق ، ولا يده على منزله ولا يواسيه بنفسه إن عرض له عدو ، فمضى على وجهه يتلذذ في أرقّة الكوفة لا يدري أين يذهب ! حتى خرج إلى دور بني جبلة من كندة ، فمضى حتى انتهى إلى باب امرأة يقال لها طوعة - لم ولد كانت للأشعث بن قيس ، فأعتقها ، فتزوجها الحضرمي فولدت له بلالاً ، وكان بلال قد خرج مع الناس وأمه قائمة تنتظره - فسلم عليها ابن عقيل ، فردت عليه ، فقال لها : يا أمة الله ، اسقيني ماءً ، فدخلت فسقته ، فجلس وأدخلت الإنياء ، ثم خرجت فقالت : يا عبدالله ألم تشرب ! قال : بلى ، قالت : فاذهب إلى أهلِكَ ؛ فسكت ؛ ثم عادت فقالت مثل ذلك ، فسكت ؛ ثم قالت له : في الله ، سبحان الله يا عبدالله ! فمر إلى أهلِكَ عافاك الله ؛ فإنه لا يصلح لك الجلوس على بابي ، ولا أحله لك ؛ فقام فقال : يا أمة الله ، ما لي في هذا المصر منزل ولا عشيرة ؛ فهل لك إلى أجر ومعروف ، ولعلي مكافئك به بعد اليوم ! فقالت : يا عبدالله ، وما ذاك ؟ قال : أنا مسلم بن عقيل ، كذّبي هؤلاء القوم وغروني ؛ قالت : أنت مسلم ! قال : نعم . قالت : ادخل ، فأدخلته بيتاً في دارها غير البيت الذي تكون فيه ، وفرشت له ، وعرضت عليه العشاء فلم يتعش ، ولم يكن بأسرع من أن جاء ابنها فرأها تكثر الدخول في البيت والخروج منه ، فقال : والله إنه ليربني كثرة دخولك هذا البيت منذ الليلة وخروجك منه ! إن لك لشأناً ؛ قالت : يا بني ، أله عن هذا ؛ قال لها : والله لتخبرني ؛ قالت : أقبل على شأنك ولا تسألني عن شيء ، فألح عليها ، فقالت : يا بني ، لا تحدّث أحداً من الناس بما أخبرك به ؛ أخذت عليه الأيمان ، فحلف لها ، فأخبرته ، فاضطجع وسكت - وزعموا أنه قد كان شريداً من الناس . وقال بعضهم : كان يشرب مع أصحاب له - ولما طال على ابن زياد ، وأخذ لا يسمع لأصحاب ابن عقيل صوتاً كما كان يسمعه قبل ذلك قال لأصحابه : أشرفوا فانظروا هل ترون منهم أحداً ! فأشرفوا فلم يروا أحداً ؛ قال : فانظروا لعلهم تحت الظلال قد كمنوا لكم ؛ ففرعوا بحاجب المسجد ، وجعلوا يخفّضون شعل النار في أيديهم ، ثم ينظرون : هل في الظلال أحد ؟ وكانت أحياناً تضيء لهم ، وأحياناً لا تضيء لهم كما يريدون ، فدلّوا القناديل وأنصاف الطنان تشدّ بالحبال ، ثم تجعل فيها النيران ، ثم تدلّ ، حتى تنتهي إلى الأرض ، ففعلوا ذلك في أقصى الظلال وأدناها وأوسطها حتى فعلوا ذلك بالظلة التي فيها المنبر ، فلما لم يروا شيئاً أعلموا ابن زياد ، ففتح باب السدة التي في المسجد . ثم خرج فصعد المنبر ، وخرج أصحابه معه ، فأمرهم فجلسوا حوله قبيل العتمة ، وأمر عمرو بن نافع فنادى : ألا برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء أو المناكب أو المقاتلة صلى العتمة إلا في المسجد ؛ فلم يكن له إلا ساعة حتى امتلأ المسجد من الناس ؛ ثم أمر مناديه فأقام الصلاة ، فقال الحُصَيْن بن تميم : إن شئت صليت بالناس ، أو يصلي بهم غيرك ، ودخلت أنت فصليت في القصر ، فلاي لا آمن أن يغتالك بعض أعدائك ! فقال : مرّ حرسى فليقوموا ورائي كما كانوا يقفون ، ودّر فيهم فلاي لست بداخل إذا . فصلّى بالناس ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإن

ابن عَقِيل السفيه الجاهل ، قد أتى ما قد رأيتم من الخلاف والشقاق ، فبرئت ذمة الله من رجل وجدناه في داره ، ومن جاء به فله دِيته . اتقوا الله عباد الله ، والزَمُوا طاعتكم وبيعتكم ، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً . يا حُصَيْن بن تميم ، ثكلتك أمك إن صاح باب سكة من سكك الكوفة ، أو خرج هذا الرجل ولم تأتني به ؛ وقد سلطتك على دور أهل الكوفة ، فابعث مرابضة على أفواه السكك ، وأصبح غداً واستبّر الدور وجس خلاها حتى تأتيني بهذا الرجل - وكان الحصين على شرطه ، وهو من بني تميم - ثم نزل ابن زياد فدخل وقد عقد لعمرو بن حُرَيْث رايةً وأمره على الناس ، فلما أصبح جلس مجلسه وأذن للناس فدخلوا عليه ، وأقبل محمد بن الأشعث فقال : مَرحباً بمن لا يُستَغش ولا يُتَهَم ! ثم أقعده إلى جنبه ، وأصبح ابن تلك العجوز وهو بلال بن أسيد الذي آوت أمه ابن عَقِيل ، فغدا إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فأخبره بمكان ابن عَقِيل عند أمه ؛ قال : فأقبل عبد الرحمن حتى أتى أباه وهو عند ابن زياد ، فسأره ، فقال له ابن زياد : ما قال لك ؟ قال : أخبرني أن ابن عَقِيل في دار من دورنا ، فنَخَس بالقضيب في جنبه ثم قال : قم فأتني به الساعة .

قال أبو مخنف : فحدثني قدامة بن سعيد بن زائدة بن قدامة الثقفي ، أن ابن الأشعث حين قام لياثية بابن عَقِيل بعث إلى عمرو بن حُرَيْث وهو في المسجد خليفته على الناس ؛ أن ابعت مع ابن الأشعث ستين أو سبعين رجلاً كلهم من قيس - وإنما كره أن يبعث معه قومه لأنه قد علم أن كل قوم يكرهون أن يُصادفَ فيهم مثل ابن عَقِيل - فبعث معه عمرو بن عبيد الله بن عباس السلمي في ستين أو سبعين من قيس ، حتى أتوا الدار التي فيها ابن عَقِيل ، فلما سمع وقع حوافر الخيل وأصوات الرجال عَرَف أنه قد أتى ، فخرج إليهم بسيفه ، واقتحموا عليه الدار ، فشده عليهم يضربهم بسيفه حتى أخرجهم من الدار ، ثم عادوا إليه ، فشده عليهم كذلك ، فاختلف هو وبُكَيْر بن حُرَّان الأحمري ضربتين ، فضرب بُكَيْرَ فَمَ مسلم فقطع شفته العليا ، وأشرع السيف في السفلى ، ونصلت لها ثنيته ، فضربه مسلم ضربة في رأسه مُنكرة ، ونئى بأخرى على حبل العاتق كادت تطلع على جوفه . فلما رأوا ذلك أشرفوا عليه من فوق ظهر البيت ، فأخذوا يرمونه بالحجارة ، ويلهبون النار في أطنان القصب ، ثم يقبلونها عليه من فوق البيت ، فلما رأى ذلك خرج عليهم مضلتاً بسيفه في السكة فقاتلهم ، فأقبل عليه محمد بن الأشعث فقال : يا فتى ، لك الأمان ، لا تقتل نفسك ؛ فأقبل يقاتلهم ، وهو يقول :

أَقَسَمْتُ لَا أَقْتُلُ إِلَّا حُرّاً وَإِنْ رَأَيْتُ الْمَوْتَ شَيْئاً نُكْسَرَا
كُلُّ امْرِئٍ يَوْمًا مُلَاقٍ شَرّاً وَيُخْلَطُ الْبَارِدُ سُخْنًا مُرّاً
رُدُّ شُعَاعِ الشَّمْسِ فَاسْتَقْرَا أَخَافُ أَنْ أَكْذَبَ أَوْ أَغْرَا

فقال له محمد بن الأشعث : إنك لا تُكذِّب ولا تُخَدِّع ولا تُغَرّ ، إن القوم بنوعك ، وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك ، وقد أئخن بالحجارة ، وعجز عن القتال وأنبهر ، فأسند ظهره إلى جنب تلك الدار ؛ فدنا محمد بن الأشعث فقال : لك الأمان ، فقال : آمن أنا؟ قال : نعم ؛ وقال القوم : أنت آمن ؛ غير عمرو بن عبيد الله بن العباس السلمي فإنه قال : لا ناقة لي في هذا ولا جمل ، وتنحى .

وقال ابن عَقِيل : أما لو لم تؤمنوني ما وضعت يدي في أيديكم . وأتت ببغلة فحمل عليها ، واجتمعوا حوله ، وانتزعوا سيفه من عنقه ، فكانه عند ذلك آيس من نفسه ، فدمعت عيناه ، ثم قال : هذا أول الغدر ؛

قال محمد بن الأشعث : أرجو ألا يكون عليك بأس ؛ قال : ما هو إلا الرجاء ؛ أين أمانكم ! إنا لله وإنا إليه راجعون ! وبكى ؛ فقال له عمرو بن عبّيد الله بن عباس : إن من يطلب مثل الذي تطلب إذا نزل به مثل الذي نزل بك لم يبك ، قال : إني والله ما لنفسي أبكي ، ولا لها من القتل أرثي ، وإن كنت لم أحب لها طرفة عين تلفاً ، ولكن أبكي لأهلي المقبلين إليّ ، أبكي لحسين وآل حسين ! ثم أقبل على محمد بن الأشعث فقال : يا عبداً لله ، إني أراك والله ستعجز عن أمان ، فهل عندك خيراً تستطيع أن تبعث من عندك رجلاً على لساني يبلغ حسيناً ، فإني لا أراه إلا قد خرج إليكم اليوم مقبلاً ، أو هو خرج غداً هو وأهل بيته ، وإن ما ترى من جزعي لذلك ، فيقول : إن ابن عَقِيل بعثني إليك ، وهو في أيدي القوم أسير لا يرى أن تمشي حتى تقتل ، وهو يقول : ارجع بأهل بيتك ، ولا يغرك أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل ؛ إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبوني ، وليس لمكذب رأي ؛ فقال ابن الأشعث : والله لأفعلن ، ولأعلمن ابن زياد أي قد أمّنتك .

قال أبو مخنف : فحدّثني جعفر بن حذيفة الطائي - وقد عرف سعيد بن شيبان الحديث - قال : دعا محمد بن الأشعث إياس بن العثل الطائي من بني مالك بن عمرو بن ثمامة ، وكان شاعراً ، وكان لمحمد زوّاراً ، فقال له : إلّق حسيناً فأبلغه هذا الكتاب ، وكتب فيه الذي أمره ابن عَقِيل ، وقال له : هذا زادك وجهائك ، ومُتعة لعيالك ؛ فقال : من أين لي براحة ، فإن راحتي قد أنضيتُها ؟ قال : هذه راحلة فاركبها برحلتها . ثم خرج فاستقبله بزُبالَة لأربع ليال ، فأخبره الخبر ، وبُلبغه الرسالة ، فقال له حسين : كل ما حُمّ نازل ، وعند الله نحتسب أنفسنا وفساد أمّتنا .

وقد كان مسلم بن عَقِيل حيث تحوّل إلى دار هانيء بن عروة وبأيعه ثمانية عشر ألفاً ، قدّم كتاباً إلى حسين مع عابس بن أبي شبيب الشاكري : أما بعد ، فإن الرائد لا يَكْذِبُ أهلَه ، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، فعجّل الإقبال حين يأتيك كتابي ، فإن الناس كلهم معك ، ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوى ؛ والسلام .

وأقبل محمد بن الأشعث بابن عَقِيل إلى باب القصر ، فاستأذن فأذن له ، فأخبر عبداً لله خبر ابن عَقِيل وضرب بُكَيْرٍ إياه ، فقال : بُعداً له ! فأخبره محمد بن الأشعث بما كان منه وما كان من أمانه إياه ، فقال عبداً لله : ما أنت والأمان ! كأننا أرسلناك تؤمّنهُ ! إنما أرسلنا لتأتينا به ؛ فسكت . وانتهى ابن عَقِيل إلى باب القصر وهو عطشان ، وعلى باب القصر ناسٌ جلوس ينتظرون الإذن ، منهم عمارة بن عُقبة بن أبي مُعَيْط ، وعمرو بن حُرَيْث ، ومسلم بن عمرو ، وكثير بن شهاب .

قال أبو مخنف : فحدّثني قدامة بن سعد أن مسلم بن عَقِيل حين انتهى إلى باب القصر فإذا قُلّة باردة موضوعة على الباب ، فقال ابن عَقِيل : اسقوني من هذا الماء ، فقال له مسلم بن عمرو : أتراها ما أبردها ! والله لا تذوق منها قطرة أبداً حتى تذوق الحميم في نار جهنم ! قال له ابن عَقِيل : ويحك ! مَنْ أنت ؟ قال : أنا ابن من عرف الحق إذ أنكرته ، ونصح لإمامه إذ غششته ، وسمع وأطاع إذ عصيته وخالفته ، أنا مسلم بن عمرو الباهلي ؛ فقال ابن عَقِيل : لأملك الثكل ! ما أجفاك ، وما أفظك ؛ وأقسى قلبك وأغلظك ! أنت يابن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنم مني ؛ ثم جلس متسانداً إلى حائط .

قال أبو مخنف: فحدثني قدامة بن سعد أن عمرو بن حريث بعث غلاماً يدعى سليمان ، فجاءه بماء في قلة فسقاه .

قال أبو مخنف : وحدثني سعيد بن مدرك بن عُمارة ، أن عُمارة بن عُقبة بعث غلاماً له يدعى قيساً ، فجاءه بقلّة عليها منديل ومعه قدح فصبّ فيه ماءً ، ثم سقاه ، فأخذ كلّمَا شرب امتلأ القدح دماً ، فلما ملأ القدح المرّة الثالثة ذهب ليشرب فسقطت ثنيتاه فيه ، فقال : الحمد لله ! لو كان لي من الرزق المقسوم شربته . وأدخل مسلّم على ابن زياد فلم يسلم عليه بالإمرة ، فقال له الحرسيّ : ألا تسلم على الأمير ! فقال له : إن كان يريد قتلي فما سلامي عليه ! وإن كان لا يريد قتلي فلعمري ليكثرن سلامي عليه ؛ فقال له ابن زياد : لعمري لتقتلن ؛ قال : كذلك ؟ قال : نعم ؛ قال : فدعني أوصر إلى بعض قومي ، فنظر إلى جلساء عبيد الله وفيهم عمر بن سعد ، فقال : يا عمر ، إن بني وبينك قرابة ، ولي إليك حاجة ، وقد يجب لي عليك نُججٌ حاجتي ، وهو سرّ ، فأبى أن يمكّنه من ذكرها ، فقال له عبيد الله : لا تمتنع أن تنظر في حاجة ابن عمك ، فقام معه فجلس حيث ينظر إليه ابن زياد ، فقال له : إن عليّ بالكوفة ذنباً استندته منذ قدمت الكوفة ، سبعمائة درهم ، فاقضها عني ، وانظر جثتي فاستوهبها من ابن زياد ، فوارها ، وابعث إلى حسين من يرده ، فإني قد كتبت إليه أعلمه أن الناس معه ، ولا أراه إلا مقبلاً ؛ فقال عمر لابن زياد : أتدري ما قال لي ؟ إنه ذكر كذا وكذا ؛ قال له ابن زياد : إنه لا يخونك الأمين ، ولكن قد يؤتمن الخائن ، أمّا مالك فهو لك ، ولسنا نمنعك أن تصنع فيه ما أحببت ؛ وأما حسين فإنه إن لم يردنا لم نردّه ، وإن أرادنا لم نكفّ عنه ، وأما جثته فإننا لن نشقّك فيها ، إنه ليس بأهل منا لذلك ، قد جاهدنا وخالفنا ، وجهد على هلاكنا . وزعموا أنه قال : أما جثته فإننا لا نبالي إذ قتلناه ما صنع بها . ثم إن ابن زياد قال : إياه يابن عقيل ! أتيت الناس وأمرهم جميع ، وكلمتهم واحدة ، لتشتتهم ، وتفرق كلمتهم ، وتحمل بعضهم على بعض ! قال : كلاً ، لست أتيت ، ولكن أهل المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم ، وسفك دماءهم ، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر ، فأتيناهم لنامر بالعدل وندعوا إلى حكم الكتاب ، قال : وما أنت وذاك يا فاسق ! أولم تكن تعمل بذلك فيهم إذ أنت بالمدينة تشرب الخمر ! قال : أنا أشرب الخمر والله إن الله ليعلم أنك غير صادق ، وأنت قلت بغير علم ، وأني لست كما ذكرت . وإن أحقّ بشرب الخمر مني وأولى بها من يلغ في دماء المسلمين ولعاً ، فيقتل النفس التي حرّم الله قتلها ، ويقتل النفس بغير النفس ، ويسفك الدّم الحرام ، ويقتل على الغضب والعداوة وسوء الظنّ ، وهو يلهو ويلعب كأن لم يصنع شيئاً . فقال له ابن زياد : يا فاسق ، إن نفسك تمنيك ما حال الله دونه ، ولم يركأ هداً ؛ قال : فمن أهله يابن زياد ؟ قال : أمير المؤمنين يزيد فقال : الحمد لله على كلّ حال ، رضيينا بالله حكماً بيننا وبينكم ؛ قال كأنك تظنّ أن لك في الأمر شيئاً ! قال : والله ما هو بالظنّ ، ولكنه اليقين ؛ قال : قتلتني الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد في الإسلام ! قال : أما إنك أحقّ من أحدث في الإسلام ما لم يكن فيه ، أما إنك لا تدع سوء القتلة ، وقبح المثلة ، وتحبّ السيرة ، ولؤم الغلبة ، ولا أحد من الناس أحقّ بها منك . وأقبل ابن شمية يشتمه ويشتم حسينا وعلياً وعقيلاً ، وأخذ مسلم لا يكلمه . وزعم أهل العلم أن عبيد الله أمر له بماء فسقي بخزفة ، ثم قال له : إنه لم يمنعنا أن نسقيك فيها إلا كراهة أن تحرّم بالشرب فيها ، ثم نقتلك ، ولذلك سفينك في هذا ، ثم قال : اصعدوا به فوق القصر فاضربوا عنقه ، ثم أتبعوا جسده رأسه ، فقال : يابن الأشعث ، أما والله لولا أنك آمننتي ما استسلمت ؛ قم بسيفك دوني فقد أخفرت ذمتك ، ثم قال : يابن زياد ، أما والله لو كانت بيني وبينك قرابة ما قتلتني ؛ ثم قال

ابن زياد: أين هذا الذي ضرب ابن عَقِيلَ رأسه بالسيف وعاتقه؟ فدُعِيَ، فقال: اصْعَدُ فكن أنت الذي تضرب عنقه، فصُعد به وهو يكبر ويستغفر ويصلي على ملائكة الله ورسله وهو يقول: اللهم احكم بيننا وبين قوم غرّونا وكذبونا وأذّلّونا. وأشرف به على موضع الجزارين اليوم، فضربت عنقه، وأتبع جسده رأسه.

قال أبو مخنف: حدثني الصقعب بن زهير، عن عون بن أبي جحيفة قال: نزل الأحمر بن بكير بن حمران الذي قتل مسلماً، فقال له ابن زياد: قتلتَه؟ قال: نعم، قال: فما كان يقول وأنتم تصعدون به؟ قال: كان يكبر ويسبح ويستغفر، فلما أدنيته لأقتله قال: اللهم احكم بيننا وبين قوم كذبونا وغرّونا وخدّلونا وقتلونا؛ فقلت له: ادن مني، الحمد لله الذي أقادني منك، فضربته ضربة لم تغن شيئاً؛ فقال أما ترى في خدش تخدشنيهِ وفاءً من دمك أيها العبد! فقال ابن زياد: أوفخراً عند الموت! قال: ثم ضربته الثانية فقتلته.

قال: وقام محمد بن الأشعث إلى عبيد الله بن زياد فكلّمه في هانيء بن عروة، وقال: إنك قد عرفت منزلة هانيء بن عروة في المصر، وبيته في العشيرة، وقد علم قومه أنني وصاحبي سقناه إليك، فأنشدك الله لما وهبته لي، فإني أكره عداوة قومه، هم أعز أهل المصر، وعدد أهل اليمن!

قال: فوعده أن يفعل، فلما كان من أمر مسلم بن عقيل ما كان، بدا له فيه، وأبى أن يفني له بما قال. قال: فأمر بهانيء بن عروة حين قُتل مسلم بن عقيل فقال: أخرجوا إلى السوق فاضربوا عنقه، قال: فأخرج بهانيء حتى انتهى إلى مكان من السوق كان يُباع فيه الغنم وهو مكتوف، فجعل يقول: وامتدحجاء! ولا مدحج لي اليوم! وامتدحجاء؛ وأين مني مدحج! فلما رأى أن أحداً لا ينصره جذب يده فترعها من الكتاف، ثم قال: أما من عصاً أو سكين أو حجر أو عظم يُحاشس به رجل عن نفسه!

قال: ووثبوا إليه فشدّوه وثاقاً، ثم قيل له: امدد عنقك، فقال: ما أنا بمجد سخي، وما أنا بمعينكم على نفسي.

قال: فضربه مولى لعبيد الله بن زياد - تركي يقال له رشيد - بالسيف، فلم يصنع سيفه شيئاً، فقال هانيء: إلى الله المعاد! اللهم إلى رحمتك ورضوانك! ثم ضربه أخرى فقتله.

قال: فبصر به عبدالرحمن بن الحصين المرادي بخازر، وهو مع عبيد الله بن زياد؛ فقال الناس: هذا قاتل هانيء بن عروة؛ فقال ابن الحصين: قتلتني الله إن لم أقتله أو أقتل دونه! فحمل عليه بالرمح فطعنه فقتله. ثم إن عبيد الله بن زياد لما قتل مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة دعا بعبد الأعلى الكلبي الذي كان أخذه كثير بن شهاب في بني فتيان، فأتي به، فقال له: أخبرني بأمرك؛ فقال: أصلحك الله! خرجت لأنظر ما يصنع الناس، فأخذني كثير بن شهاب؛ فقال له: فعليك وعليك، من الأيمان المغلظة، إن كان أخرجك إلا ما زعمت! فأبى أن يحلف، فقال عبيد الله: إنطلقوا بهذا إلى جبانة السبيع فاضربوا عنقه بها؛ قال: فانطلق به فاضربت عنقه؛ قال: وأخرج عمارة بن صلخب الأزدي - وكان ممن يريد أن يأتي مسلم بن عقيل بالنصرة لينصره - فأتي به أيضاً عبيد الله فقال له: ممن أنت؟ قال: من الأزدي. قال: انطلقوا به إلى قومه، فضربت عنقه فيهم، فقال عبد الله بن الزبير الأسدي في قتلة مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة المرادي - ويقال: قاله

الفرزدق :

إن كنت لا تدريين ما الموتُ فانظري
إلى بطلٍ قد هشمَ السيفُ وجهَهُ
أصابهما أُمُّ الأُمير فأصبحا
ترى جسداً قد غيرَ الموتُ لونهُ
فقي هو أحياء من فتاةٍ حيَّة
أبركَبُ أسماءُ الهماليجِ آمناً
تُطيفُ حوالِيه مُرادٌ وكلُّهم
فإن أنتم لم تشاروا بأخيكمُ
إلى هانيء في السوقِ وآبن عَقيل
وآخر يهوي من طمارٍ قَتيل
أحاديث من يسري بكلِّ سبيل
ونضح دمٍ قد سال كلَّ مَسيل
وأقطع من ذي شَفرتين صَقيل
وقد طلبته مَذحجٌ بِذُحول !
على رَقبة من سائل ومَسُول
فكونوا بغايا أَرْضِيَتْ بقليل

قال أبو مخنف: عن أبي جُناب يحيى بن أبي حَيَّة الكلبي ، قال : ثم إن عبيد الله بن زياد لما قتل مسلماً وهانئاً بعث برؤوسهما مع هانيء بن أبي حَيَّة الوادعي والزبير بن الأرواح التميمي إلى يزيد بن معاوية ، وأمر كاتبه عمرو بن نافع أن يكتب إلى يزيد بن معاوية بما كان من مسلم وهانيء ، فكتب إليه كتاباً أطال فيه - وكان أول من أطال في الكتب - فلما نظر فيه عبيد الله بن زياد كرهه وقال : ما هذا التطويل وهذه الفضول؟ اكتُب :

أما بعد ، فالحمد لله الذي أخذ لأمر المؤمنين بحقه ، وكفاه مؤنة عدوه . أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله أن مسلم بن عَقيل لجأ إلى دار هانيء بن عروة المُرادي ، وأني جعلت عليهما العيون ، ودسستُ إليهما الرجال ، وكذبتُهما حتى استخرجتهما ، وأمكن الله منهما ، فقذمتُهما فضربتُ أعناقهما ، وقد بعثتُ إليك برؤوسهما مع هانيء بن أبي حَيَّة الهُمَداني والزبير بن الأرواح التميمي - وهما من أهل السمع والطاعة والنصيحة - فليسالهما أمير المؤمنين عما أحب من أمر ، فإن عندهما علماً وصدقاً ، وفهماً وورعاً ؛ والسلام .

فكتب إليه يزيد : أما بعد ، فإنك لم تعد أن كنت كما أحب ، عملتَ عملَ الحازم ، وصُلّت صَوْلَةَ الشجاع الرابط الجأش ، فقد أغنيتَ وكفيت ، وصدقتَ ظني بك ، ورأيي فيك ، وقد دعوتُ رسوليك فسألتهما ، وناجيتُهما فوجدتهما في رأيهما وفضلهما كما ذكرت ؛ فاستوص بهما خيراً ، وإنه قد بلغني أن الحسين بن علي قد توجه نحو العراق ؛ فضعِ المناظر والمسالح ، واحترس على الظن ، وتخذ على التهمة ، غير ألا تقتل إلا من قاتلك ، واكتب إلي في كل ما يحدث من الخبر ؛ والسلام عليك ورحمة الله .

قال أبو مخنف : حدَّثني الصقعب بن زهير ، عن عون بن أبي جُحيفة ، قال : كان مُخرَج مسلم بن عَقيل بالكوفة يوم الثلاثاء لثمان ليال مضين من ذي الحجة سنة ستين - ويقال يوم الأربعاء لسبع مضين سنة ستين من يوم عرفة بعد مُخرَج الحسين من مكة مقبلاً إلى الكوفة بيوم - قال : وكان مُخرَج الحسين من المدينة إلى مكة يوم الأحد لليلتين بقيتا من رجب سنة ستين ، ودخل مكة ليلة الجمعة لثلاث مضين من شعبان ، فأقام بمكة شعبان وشهر رمضان وشوالاً وذا القعدة ، ثم خرج منها لثمان مضين من ذي الحجة يوم الثلاثاء يوم التروية في اليوم الذي خرج فيه مسلم بن عَقيل .

وذكر هارون بن مسلم ، عن علي بن صالح ، عن عيسى بن يزيد ، أن المختار بن أبي عبيد وعبد الله بن الحارث بن نوفل كانا خرجا مع مسلم ، خرج المختار براية خضراء ، وخرج عبد الله براية حمراء ، وعليه ثياب

حُرّ ، وجاء المختار برأيته فركزها على باب عمرو بن حُرَيْث ، وقال : إنما خرجت لأمنع عمراً ، وإن ابن الأشعث والقعقاع بن شُور وشَبَّث بن رُبَيْعٍ قاتلوا مسلماً وأصحابه عشيّة سار مسلم إلى قصر ابن زياد قتالاً شديداً ، وأن شَبَّثاً جعل يقول : انتظروا بهم الليل ينفروا ؛ فقال له القعقاع : إنك قد سددت على الناس وجهه مصيرهم ، فافرج لهم ينسربوا ؛ وإن عُبيد الله أمر أن يطلب المختار وعبد الله بن الحارث ، وجعل فيهما جُعلاً ، فأتي بهما فحُيسا .

وفي هذه السنة كان خروج الحسين عليه السلام من مكّة متوجّهاً إلى الكوفة .

ذكر الخبر عن مسيره إليها وما كان من أمره في مسيره ذلك :

قال هشام عن أبي مخنف : حدثني الصقعب بن زهير ، عن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي ، قال : لما قدمتُ كُتُب أهل العراق إلى الحسين وتهيّأ للمسير إلى العراق ، أتيتُه فدخلتُ عليه وهو بمكة ، فحمدت الله وأثنيتُ عليه ، ثم قلت : أما بعد ، فإني أتيتك يابن عم لحاجة أريد ذكرها لك نصيحة ، فإن كنت ترى أنك تستنصحنني وإلا كففتُ عما أريد أن أقول ؛ فقال : قل ، فوالله ما أظنك بسوء الرأي ، ولا هو للقبيح ، الأمر والفعل ؛ قال : قلت له : إنه قد بلغني أنك تريد المسير إلى العراق ، وإني مشفقٌ عليك من مسيرك ؛ إنك تأتي بلداً فيه عماله وأمرؤه ، ومعهم بيوت الأموال ، وإنما الناس عبيدٌ لهذا الدرهم والدينار ، ولا آمنُ عليك أن يقاتلك مَنْ وعدك نصره ، ومَنْ أنت أحبُّ إليه من يقاتلك معه ؛ فقال الحسين : جزاك الله خيراً يابن عمّ ؛ فقد والله علمتُ أنك مشيتُ بنصح ، وتكلّمت بعقل ، ومهما يُقضى من أمري يكن ، أخذتُ برأيك أو تركته ، فأنت عندي أحمدُ مُشير ، وأنصح ناصح .

قال : فانصرفتُ من عنده فدخلتُ على الحارث بن خالد بن العاص بن هشام ، فسألني : هل لقيتُ حسيناً؟ فقلتُ له : نعم ؛ فقال : فما قال لك ، وما قلتُ له؟ قال : فقلتُ له : قلتُ كذا وكذا ، وقال كذا وكذا ؛ فقال : نصحتَه وربُّ المروة الشهباء ، أما وربُّ البنية إنَّ الرأي كما رأيته ، قَبِلُهُ أو تركه ، ثم قال :

رُبُّ مُسْتَنْصَحٍ يَغْشُ وَيُرْدِي وَظَنِينٍ بِالْغَيْبِ يُلْفَى نَصِيحاً

قال أبو مخنف : وحدثني الحارث بن كعب الوالبي ، عن عقبه بن سَمْعَانَ ، أن حسيناً لما أجمع المسير إلى الكوفة أتاه عبد الله بن عباس فقال : يابن عمّ ، إنك قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق ، فبين لي ما أنت صانع؟ قال : إني قد أجمعتُ المسير في أحد يومي هذين إن شاء الله تعالى ؛ فقال له ابن عباس : فإني أعيذك بالله من ذلك ، أخبرني رحمك الله ! أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونَفَوْا عَدُوَّهُمْ؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم ، وإن كانوا إنما دَعَوْكَ إليهم وأميرهم عليهم قاهرهم ، وعمّاله تُجِيبُ بلادهم ، فإنهم إنما دَعَوْكَ إلى الحرب والقتال ، ولا آمنُ عليك أن يغروك ويكذبوك ، ويخالفوك ويخذلوك ، وأن يستنفروا إليك فيكونوا أشدَّ الناس عليك ؛ فقال له حسين : وإني أستخير الله وأنظر ما يكون .

قال : فخرج ابن عباس من عنده ، فاتاه ابن الزبير فحدثه ساعة ، ثم قال : ما أدري ما تَرَكْنَا هؤلاء القوم وكُفْنَا عنهم ، ونحن أبناء المهاجرين ، وولادة هذا الأمر دونهم ! أخبرني ما تريد أن تصنع ؟ فقال الحسين : والله لقد حدثت نفسي بإتيان الكوفة ، ولقد كُتِبَ إليّ شيعتي بها وأشرافُ أهلها ، وأستخير الله ، فقال له ابن

الزبير : أما لو كان لي بها مثلُ شيعتك ما عدلتُ بها ؛ قال : ثم إنه خشيَ أن يَتهمه فقال : أما إنك لو أقمتَ بالحجاز ثم أردتَ هذا الأمرَ ها هنا ما خولفَ عليك إن شاء الله ؛ ثم قام فخرج من عنده ، فقال الحسين : ها إن هذا ليس شيء يُؤتاه من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق ، وقد علم أنه ليس له من الأمر معي شيء ، وأن الناس لم يعدلوه بي ، فودَّ أني خرجت منها لتخلو له .

قال : فلما كان من العشي أو من الغد ، أتى الحسينُ عبد الله بن العباس فقال : يابن عمِّ إني أتصبر ولا أصبر ، إني أتحوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال ؛ إن أهل العراق قوم غدر ، فلا تقرّبهم ، أقم بهذا البلد فإنك سيّد أهل الحجاز ؛ فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم ، ثم أقدم عليهم ، فإن أبيت إلا أنه تُخرج فسر إلى اليمَن فإن بها حصوناً وشعباً ، وهي أرضٌ عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة ، وأنت عن الناس في عزلة ، فتكتب إلى الناس وترسل ، وتبث دُعائك ، فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية ؛ فقال له الحسين : يابن عمِّ ، إني والله لأعلم أنك ناصحٌ مشفقٌ ، ولكني قد أزمعتُ وأجمعتُ على المسير ؛ فقال له ابن عباس : فإن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيّتك ، فوالله إني لخائف أن تُقتل كما قُتل عثمان ونساؤه ولده ينظرون إليه . ثم قال ابن عباس : لقد أقررت عين ابن الزبير بتخليّتك إياه والحجاز والخروج منها ، وهو اليوم لا ينظر إليه أحدٌ معك ، والله الذي لا إله إلا هو لو أعلم أنك إذا أخذتُ بشعرك وناصيتك حتى يجتمع عليّ وعليك الناسُ أطعني لفعلتُ ذلك . قال : ثم خرج ابن عباس من عنده ، فمرَّ بعبد الله بن الزبير ، فقال : قرّت عينك يابن الزبير ! ثم قال :

يا لك من قُبرة بمَعْمَرٍ خَلَا لَكَ الجَوْ فَبِيضِي وَأَصْفِرِي
وَنَقَرِي مَا شِئْتَ أَنْ تَنْقَرِي

هذا حسينُ يخرج إلى العراق ، وعليك بالحجاز .

قال أبو مخنف : قال أبو جناب يحيى بن أبي حية ، عن عديّ بن حرملة الأسديّ ، عن عبد الله بن سليم والمذريّ بن المشمعلّ الأسديّين قالا : خرجنا حاجّين من الكوفة حتى قدمنا مكة ، فدخلنا يوم التروية ، فإذا نحن بالحسين وعبد الله بن الزبير قائمين عند ارتفاع الضحى فيما بين الحُجر والباب ، قالا : فتقرّبنا منهما ، فسمعنا ابن الزبير وهو يقول للحسين : إن شئت أن تقيم أقمت فوليتَ هذا الأمر ، فأزرنك وساعدناك ، ونصحنّا لك وباعناك ؛ فقال له الحسين : إن أبي حدثني أن بها كبشاً يستحلّ حرمتها ، فما أحبّ أن أكون أنا ذلك الكبش ؛ فقال له ابن الزبير : فأقم إن شئت وتولّيني أنا الأمر فتطاع ولا تُعصى ؛ فقال : وما أريد هذا أيضاً ؛ قالا : ثم إنهما أخفيا كلامهما دوننا ، فما زالا يتناجيان حتى سمعنا دعاء الناس راثحين متوجّهين إلى منى عند الظهر ؛ قالا : فطاف الحسين بالبيت وبين الصفا والمروة ، وقصّ من شعره ، وحدّ من عمرته ، ثم توجه نحو الكوفة ، وتوجّهنا نحو الناس إلى منى .

قال أبو مخنف : عن أبي سعيد عَقِيصَى ، عن بعض أصحابه ، قال : سمعتُ الحسينَ بنَ عليٍّ وهو بمكة وهو واقف مع عبد الله بن الزبير ، فقال له ابن الزبير إليّ يابن فاطمة ، فأصغى إليه ، فسأره ، قال : ثم التفت إلينا الحسين فقال : أتدرون ما يقول ابنُ الزبير؟ فقلنا : لا ندري ، جعلنا الله فداك ! فقال : قال : أقم في هذا المسجد أجمع لك الناس ؛ ثم قال الحسين : والله لأن أقتل خارجاً منها بشير أحبّ إليّ من أن أقتل

داخلاً منها بشبر ، وإيمُ الله لو كنت في جُحر هامة من هذه الهوامّ لاستخرجوني حتى يقضوا في حاجتهم ، والله ليعتدُن عليّ كما اعتدت اليهود في السَّبْت .

قال أبو مخنف : حدّثني الحارث بن كعب الوالبيّ ، عن عُقبة بن سِمعان قال : لما خرج الحسين من مكة اعترضه رُسلُ عمرو بن سعيد بن العاص ، عليهم يحيى بن سعيد ، فقالوا له : انصرف ؛ أين تذهب ! فأبى عليهم ومضى ، وتَدافَع الفريقان ، فاضطربوا بالسيّاط . ثم إن الحسين وأصحابه امتنعوا امتناعاً قوياً ، ومضى الحسين عليه السلام على وجهه ، فنادوه : يا حسين ، ألا تتقي الله ! تَخْرُج من الجماعة ، وتفرّق بين هذه الأمة ! فتأوّل حسين قول الله عزّ وجلّ : ﴿ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

قال : ثم إن الحسين أقبل حتى مرّ بالتّنعيم ، فلقِيَ بها عيراً قد أقبل بها من اليمن ، بعث بها بحير بن ريسان الحِميريّ إلى يزيد بن معاوية ، - وكان عامله على اليمن - وعلى العير الورس والحلّل يُنطَلَق بها إلى يزيد فأخذها الحسين ، فانطلق بها ؛ ثم قال لأصحاب الإبل : لا أكرهكم ، مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمْضِيَ معنا إلى العراق أَوْفِينَا كِرَاءه وأحسننا صحبته ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَفَارِقَنَا من مكاننا هذا أعطينا من الكِرَاء على قدر ما قطع من الأرض ؛ قال : فمن فارقه منهم حوسب فأوفي حقه ، وَمَنْ مضى منهم معه أعطاه كِرَاءه وكساه .

قال أبو مخنف ؛ عن أبي جناب ، عن عديّ بن حرْملة ، عن عبد الله بن سليم والمذري قالوا : أقبلنا حتى انتهينا إلى الصّفاح ، فلقينا الفرزدق بن غالب الشاعر ، فواقف حسيناً فقال له : أعطاك الله سؤلك وأملك فيما تحبّ ، فقال له الحسين : بَيْنَ لَنَا نَبَأُ النَّاسِ خَلْفَكَ ، فقال له الفرزدق : مِنَ الْخَيْرِ سَأَلْتُ ، قُلُوبُ النَّاسِ مَعَكَ ، وسيوفهم مع بني أميّة ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء ؛ فقال له الحسين : صدقت ، لله الأمر ، والله يفعل ما يشاء ، وكلّ يوم ربُّنا في شأن ، إن نزل القضاء بما نحبّ فنحمد الله على نعمائه ، وهو المستعان على أداء الشكر ، وإن حال القضاء دون الرّجاء فلم يعتدّ مَنْ كَانَ الْحَقُّ نَيْتَهُ ، والتقوى سريره ، ثم حرّك الحسين راحلته فقال : السلام عليك ؛ ثم افترقا .

قال هشام ، عن عوانة بن الحكم ، عن لَبْطَة بن الفرزدق بن غالب ، عن أبيه ، قال : حججتُ بأمي ، فأنا أسوق بغيرها حين دخلت الحرم في أيام الحجّ ، وذلك في سنة ستين ، إذ لقيت الحسين بن علي خارجاً من مكة معه أسيافه ورتاسه ، فقلت : لمن هذا القطار ؟ فقل : للحسين بن علي ، فأتيته فقلت : بأبي وأمي يا بن رسول الله ! ما أعجلك عن الحجّ ؟ فقال : لو لم أعجل لأخِذْتُ ، قال : ثم سألتني : مَنْ أَنْتَ ؟ فقلت له : امرؤ من العراق ؛ قال : فوالله ما فتّشني عن أكثر من ذلك ، واكتفى بها مني ، فقال : أخبرني عن الناس خلفك ؟ قال : فقلت له : القلوب معك ، والسيوف مع بني أميّة ، والقضاء بيد الله ؛ قال : فقال لي : صدقت ؛ قال : فسألته عن أشياء ، فأخبرني بها من نذور ومناسك ؛ قال : وإذا هو ثقل اللسان من برسام أصابه بالعراق ؛ قال : ثم مضيتُ فإذا بفسطاط مضروب في الحرم ، وهيئة حسنة ، فأتيته فإذا هو لعبد الله بن عمرو بن العاص ، فسألني ، فأخبرته بقاء الحسين بن علي ، فقال لي : ويلك ! فهلاً اتبعته ، فوالله ليملكنّ ، ولا يجوز السلاح فيه ولا في

أصحابه ، قال : فهمت والله أن ألحق به ، ووقع في قلبي مقاتله ، ثم ذكرت الأنبياء وقتلهم ، فصددني ذلك عن اللحاق بهم ، فقدمت على أهلي بعُسفان ، قال : فوالله إني لعندهم إذ أقبلت غير قد امتارت من الكوفة ، فلما سمعت بهم خرجت في آثارهم حتى إذا أسمعتهم الصوت وعجلت عن إتيانهم صرخت بهم : ألا ما فعل الحسين بن علي ؟ قال : فردوا علي : ألا قد قُتل ؛ قال : فانصرفت وأنا ألعنُ عبدالله بن عمرو بن العاص ؛ قال : وكان أهل ذلك الزمان يقولون ذلك الأمر ، ويتنظرونه في كل يوم وليلة . قال : وكان عبدالله بن عمرو يقول : لا تبلغ الشجرة ولا النخلة ولا الصغير حتى يظهر هذا الأمر ؛ قال : فقلت له : فما يمنعك أن تبع الوَهْط ؟ قال : فقال لي : لعنة الله على فلان - يعني معاوية - وعليك ؛ قال : فقلت : لا ، بل عليك لعنة الله ؛ قال : فزادني من اللعن ولم يكن عنده من حشيه أحد فآلقى منهم شراً ؛ قال : فخرجت وهو لا يعرفني - والوهْط حائطٌ لعبدالله بن عمرو بالطائف ؛ قال : وكان معاوية قد ساومَ به عبدالله بن عمرو ، وأعطاه به مالاً كثيراً ، فأبى أن يبيعه بشيء - قال : وأقبل الحسين مُغْذاً لا يلوي على شيء حتى نزل ذات عِرْق .

قال أبو مخنف : حدثني الحارث بن كعب الوالبي ، عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قال : لما خرجنا من مكة كتب عبدالله بن جعفر بن أبي طالب إلى الحسين بن علي مع ابنه : عون ومحمد : أما بعد ، فإنني أسألك بالله لما انصرفت حين تنظر في كتابي ، فإنني مُشَفِّقٌ عليك من الوجه الذي توجّه له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك ، إن هلكت اليوم طَفَىء نور الأرض ، فإنك عَلمُ المهتدين ؛ ورجاء المؤمنين ؛ فلا تعجل بالسير فإنني في أثر الكتاب ؛ والسلام .

قال : وقام عبدالله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد بن العاص فكلّمه . وقال : اكتب إلى الحسين كتاباً فجعل له فيه الأمان ، وتمنيّه فيه البرّ والصّلة ، وتوثق له في كتابك ، وتسأله الرجوع لعله يطمئن إلى ذلك فيرجع ؛ فقال عمرو بن سعيد : اكتب ما شئت وأتني به حتى أختمه ، فكتب عبدالله بن جعفر الكتاب ، ثم أتى به عمرو بن سعيد فقال له : إختمه ، وأبعث به مع أخيك يحيى بن سعيد ، فإنه أخرى أن تطمئن نفسه إليه ، ويعلم أنه الجُد منك ، ففعل ؛ وكان عمرو بن سعيد عاملَ يزيد بن معاوية على مكة ؛ قال : فلحقه يحيى وعبدالله بن جعفر ، ثم انصرفا بعد أن أقرأه يحيى الكتاب ، فقالا : أقرأناه الكتاب ، وجهدنا به ، وكان مما اعتذر به إلينا أن قال : إني رأيت رؤيا فيها رسولُ الله ﷺ ، وأمرت فيها بأمر أنا ماضٍ له ، عليٌّ كان أولي ؛ فقالا له : فما تلك الرؤيا ؟ قال : ما حدثت أحداً بها ، وما أنا محدّث بها حتى ألقى ربي .

قال : وكان كتاب عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علي : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علي ، أما بعد ، فإنني أسأل الله أن يصرفك عمّا يوبقك ، وأن يهديك لما يرشدك ؛ بلغني أنك قد توجهت إلى العراق ، وإني أعيدك بالله من الشقاق ، فإنني أخاف عليك فيه الهلاك ، وقد بعثت إليك عبدالله بن جعفر ويحيى بن سعيد ، فأقبل إليّ معهما ، فإنّ لك عندي الأمان والصّلة والبرّ وحسن الجوار لك ، الله عليّ بذلك شهيداً وكفيلٌ ، ومُراعٍ ووكيلٌ ؛ والسلام عليك .

قال : وكتب إليه الحسين : أما بعد ؛ فإنه لم يشاققني الله ورسوله من دعا إلى الله عزّ وجلّ وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ؛ وقد دعوت إلى الأمان والبرّ والصّلة ، فخير الأمان أمانُ الله ، ولن يؤمنَ الله يوم القيامة من لم يخفه في الدنيا ، فنسأل الله مخافةً في الدنيا تُوجب لنا أمانة يوم القيامة ، فإن كنت نويت بالكتاب صلتي وبرّي ، فجزيت خيراً في الدنيا والآخرة ، والسلام .

رجع الحديث إلى حديث عمار الدهني عن أبي جعفر. فحدثني زكرياء بن يحيى الضرير، قال: حدثنا أحمد بن جناب المصيصي قال: حدثنا خالد بن يزيد بن عبدالله القسري قال: حدثنا عمار الدهني قال: قلت لأبي جعفر: حدثني عن مقتل الحسين حتى كأني حضرته؛ قال: فأقبل حسين بن علي بكتاب مسلم بن عقيل كان إليه، حتى إذا كان بينه وبين القادسية ثلاثة أميال، لقيه الحر بن يزيد التميمي، فقال له: أين تريد؟ قال: أريد هذا المصّر؛ قال له: ارجع فإنني لم أدع لك خلفي خيراً أرجوه، فهم أن يرجع، وكان معه إخوة مسلم بن عقيل، فقالوا: والله لا نرجع حتى نصيب بثأرنا أو نُقتل؛ فقال: لا خير في الحياة بعدكم! فسار فلقيته أوائل خيل عبيد الله، فلما رأى ذلك عدل إلى كربلاء فأسند ظهره إلى قصباء وخلاً كثيراً يقاتل إلا من وجه واحد، فنزل وضرب أبيته، وكان أصحابه خمسة وأربعين فارساً ومائة راجل، وكان عمر بن سعد بن أبي وقاص قد ولّاه عبيد الله بن زياد الري وعهد إليه عهده فقال: اكفني هذا الرجل؛ قال: أعفني، فأبى أن يعفنيه؛ قال: فانظري الليلة؛ فأخره، فنظر في أمره فلما أصبح غداً عليه راضياً بما أمر به، فتوجه إليه عمر بن سعد، فلما أتاه قال له الحسين: اختر واحدة من ثلاث: إما أن تدعوني فأنصرف من حيث جئت، وإما أن تدعوني فأذهب إلى يزيد، وإما أن تدعوني فألحق بالثغور؛ فقبل ذلك عمر، فكتب إليه عبيد الله: لا ولا كرامة حتى يضع يده في يدي! فقال له الحسين: لا والله لا يكون ذلك أبداً، فقاتله فقتل أصحاب الحسين كلهم، وفيهم بضعة عشر شاباً من أهل بيته، وجاء سهم فأصاب ابنه له معه في حجره، فجعل يمسح الدم عنه ويقول: اللهم احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا فقتلونا؛ ثم أمر بحجرة فشققها، ثم لبسها وخرج بسيفه، فقاتل حتى قتل صلوات الله عليه؛ قتله رجل من مدحج وحز رأسه، وانطلق به إلى عبيد الله وقال:

أَوْقِرْ رِكَابِي فِضَّةً وَذَهَبًا فَقَدْ قَتَلْتُ الْمَلِكَ الْمُحَجَّبَا
قَتَلْتُ خَيْرَ النَّاسِ أُمًّا وَأَبَا وَخَيْرُهُمْ إِذْ يَنْسِبُونَ نَسَبَا

وأوفده إلى يزيد بن معاوية ومعه الرأس، فوضع رأسه بين يديه وعنده أبو برزة الأسلمي، فجعل ينكت بالقضيب على فيه ويقول:

يُفْلَقْنَ هَاماً مِنْ رَجَالٍ أَعَزَّة عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا

فقال له أبو برزة: ارفع قضيبك، فوالله لربما رأيت فارساً رسول الله ﷺ على فيه يلثمه! وسرح عمر بن سعد بحرمة وعياله إلى عبيد الله، ولم يكن بقي من أهل بيت الحسين بن علي عليه السلام إلا غلام كان مريضاً مع النساء، فأمر به عبيد الله ليقتل، فطرحته زينب نفسها عليه وقالت: والله لا يقتل حتى تقتلوني! فرق لها، فتركه وكف عنه.

قال: فجهازهم وحملهم إلى يزيد، فلما قدموا عليه جمع من كان بحضرته من أهل الشام، ثم سخلوهم، فهنؤوه بالفتح، قال رجل منهم أزرق أحمر ونظر إلى وصيفة من بناتهم فقال: يا أمير المؤمنين، هب لي هذه، فقالت زينب: لا والله ولا كرامة لك ولا له إلا أن يخرج من دين الله، قال: فأعادها الأزرق، فقال له يزيد: كف عن هذا؛ ثم أدخلهم على عياله، فجهازهم وحملهم إلى المدينة، فلما دخلوها خرجت امرأة من بني عبد المطلب ناشرة شعرها، واضعة كمها على رأسها تلقاهم وهي تبكي وتقول:

مَاذَا تَقُولُونَ إِنَّهُ قَالَ النَّبِيُّ لَكُمْ مَاذَا فَعَلْتُمْ وَأَنْتُمْ آخِرُ الْأُمَمِ!

بعثرتي وبأهلي بَعْدَ مُفْتَقِدِي منهم أَسَارَى وَقَتْلَى ضُرْجُوا بِدَمٍ
ما كان هذا جزائي إِذْ نَصَحْتُ لَكُمْ أَنْ تُخْلِفُونِي بِسَوْءٍ فِي ذَوِي رَجِيي!

حدَّثني الحسين بن نصر قال: حدَّثنا أبو ربيعة ، قال: حدَّثنا أبو عوانة ، عن حصين بن عبد الرحمن قال: بَلَّغْنَا أَنَّ الحسين عليه السلام . . . وحدَّثنا محمد بن عمار الرازي ، قال: حدَّثنا سعيد بن سليمان ، قال: حدَّثنا عباد بن العوام قال: حدَّثنا حصين ، أَنَّ الحسين بن علي عليه السلام كتب إليه أهل الكوفة: إنه معك مائة ألف ، فبعث إليهم مسلم بن عَقِيل ، فقدم الكوفة ، فنزل دار هانيء بن عروة ، فاجتمع إليه الناس ، فأخبر ابن زياد بذلك . زاد الحسين بن نصر في حديثه: فأرسل إلى هانيء فأتاه ، فقال: أَلَمْ أُوقِرْكَ! أَلَمْ أَكْرَمْكَ! أَلَمْ أَفْعَلْ بِكَ! قال: بلى ، قال: فما جزاء ذلك؟ قال: جزاؤه أَنْ أَمْنَعَكَ ؛ قال: تمنعني! قال: فأخذ قضيباً مكابيه فضربه به ، وأمر فكَتِفَ ثم ضرب عنقه ، فبلغ ذلك مسلم بن عَقِيل ، فخرج ومعه ناس كثير ، فبلغ ابن زياد ذلك ، فأمر بباب القصر فأغلق ، وأمر منادياً فنادى: يا خيلَ اللَّهِ اركبي ، فلا أحد يجيبه ، فظنَّ أنه في ملا من الناس .

قال حصين : فحدَّثني هلال بن يساف قال : لقيتهم تلك الليلة في الطريق عند مسجد الأنصار ، فلم يكونوا يمدون في طريق يميناً ولا شمالاً إلاَّ وذهبت منهم طائفة ؛ الثلاثون والأربعون ، ونحو ذلك . قال : فلما بلغ السوق ، وهي ليلة مظلمة ، ودخلوا المسجد ، قيل لابن زياد : والله ما نرى كثيراً أحد ، ولا نسمع أصوات كثير أحد ، فأمر بسقف المسجد فقلع ، ثم أمر بمرادتي فيها النيران ، فجعلوا ينظرون ، فإذا قريب خمسين رجلاً . قال : فنزل فصعد المنبر وقال للناس : تميّزوا أربعاً أربعاً ؛ فانطلق كل قوم إلى رأس رُبعهم ، فنهض إليهم قومٌ يقاتلونهم ، فجرح مسلم جراحةً ثنائية ، وقتل ناس من أصحابه ، واهزموا ؛ فخرج مسلم فدخل داراً من دور كندة ، فجاء رجل إلى محمد بن الأشعث وهو جالس إلى ابن زياد ، فسأله : فقال له : إنَّ مسلماً في دار فلان ، فقال ابن زياد : ما قال لك؟ قال : إنَّ مسلماً في دار فلان ، قال ابن زياد لرجلين : انطلقا فأتيا به ، فدخلوا عليه وهو عند امرأة قد أوقدت له النار ، فهو يغسل عنه الدماء ، فقالا له : انطلق ، الأمير يدعوك ، فقال : اعقدا لي عقداً ؛ فقالا : ما نملك ذلك ؛ فانطلق معهما حتى أتاه فأمر به فكَتِفَ ثم قال : هية هية يابن خلية - قال الحسين في حديثه : يابن كذا - جثت لتنزغ سلطاني ! ثم أمر به فضربت عنقه . قال حصين : فحدَّثني هلال بن يساف أَنَّ ابن زياد أمر بأخذ ما بين واقصة إلى طريق الشام إلى طريق البصرة ، فلا يدعون أحداً يليج ولا أحداً يخرج ، فأقبل الحسين ولا يشعر بشيء حتى لقي الأعراب ، فسألهم ، فقالوا : لا والله ما ندري ، غير أننا لا نستطيع أن نليج ولا نخرج ؛ قال : فانطلق يسير نحو طريق الشام نحو يزيد ، فلقيته الخيول بكرّبلاء ، فنزل يناشدهم الله والإسلام ، قال : وكان بعث إليه عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن وحصين بن نمير ، فناشدهم الحسين الله والإسلام أن يسيروه إلى أمير المؤمنين ، فيضع يده في يده ، فقالوا : لا ، إلاَّ على حكم ابن زياد ؛ وكان فيمن بعث إليه الحر بن يزيد الخنظلي ثم النهشل على خيل ، فلما سمع ما يقول الحسين قال لهم : ألا تقبلوا من هؤلاء ما يعرضون عليكم ! والله لو سألكم هذا الترك والدليل ما حلّ لكم أن تردّوه! فأبوا إلاَّ على حكم ابن زياد ، فصرف الحرّ وجهه فرسه ، وانطلق إلى الحسين وأصحابه ، فظنوا أنه إنما جاء ليقاتلهم ، فلما دنا منهم قلب ثرّسه وسلم عليهم ، ثم كرّ على أصحاب ابن زياد فقاتلهم ، فقتل منهم رجلين ، ثم قتل رحمة الله عليه .

وذكر أن زهير بن القين البجلي لقي الحسين وكان حاجاً ، فأقبل معه ، وخرج إليه ابن أبي بحريّة المرادي ورجلان آخران وعمر بن الحجاج ومعن السلمي ؛ قال الحصين : وقد رأيتهما .

قال الحصين : وحدثني سعد بن عبيدة ، قال : إن أشياخاً من أهل الكوفة لوقوف على التلّ يكون يقولون : اللهم أنزل نصرك ، قال : قلت : يا أعداء الله ، ألا تنزلون فتنصرونه ! قال : فأقبل الحسين بكلم من بعث إليه ابن زياد ، قال : وإني لأنظر إليه وعليه جبة من برود ، فلما كلمهم انصرف ، فرماه رجل من بني تميم يقال له : عمر الطهويّ بسهم ، فإني لأنظر إلى السهم بين كتفيه متعلقاً في جبته ، فلما أبوا عليه رجع إلى مصافه ، وإني لأنظر إليهم ، وإنهم لقريب من مائة رجل ، فيهم لصلب علي بن أبي طالب عليه السلام خمسة ، ومن بني هاشم ستة عشر ، ورجل من بني سليم حليف لهم ، ورجل من بني كنانة حليف لهم ، وابن عمر بن زياد .

قال : وحدثني سعد بن عبيدة ، قال : إنا لمستنقعون في الماء مع عمر بن سعد ، إذ أتاه رجل فسأره وقال نه . ثم بعث إليك ابن زياد جويرية بن بدر التميمي ، وأمره إن لم تقاتل القوم أن يضرب عنقك ؛ قال : فوثب إلى فرسه فركبه ، ثم دعا سلاحه فلبسه ، وإنه على فرسه ، فنهض بالناس إليهم فقاتلوهم ، فجيء برأس الحسين إلى ابن زياد ، فوضع بين يديه ، فجعل ينكت بقضييه ، ويقول : إن أبا عبد الله قد كان شميّ ؛ قال : وجيء بنسائه وبناته وأهله ، وكان أحسن شيء صنعته أن أمر لهن بمنزل في مكان معتزل ، وأجرى عليهن رزقاً ، وأمر لهن بنفقة وكسوة . قال : فانطلق غلامان منهم لعبد الله بن جعفر - أو ابن ابن جعفر - فأتيا رجلاً من طيء فلجأ إليه ، فضرب أعناقهما ، وجاء برؤوسهما حتى وضعهما بين يدي ابن زياد ؛ قال : فهم بضرب عنقه ، وأمر بداره فهدمت .

قال : وحدثني مولى لمعاوية بن أبي سفيان قال : لما أتى يزيد برأس الحسين فوضع بين يديه ، قال : رأيته يبكي ، وقال : لو كان بينه وبينه رجم ما فعل هذا .

قال حصين : فلما قتل الحسين لبثوا شهرين أو ثلاثة ، كأنما تلتطخ الحوائط بالدماء ساعة تطلع الشمس حتى ترتفع .

قال : وحدثني العلاء بن أبي عاتة قال : حدثني رأس الجالوت ، عن أبيه قال : ما مررت بكربلاء إلا وأنا أركض دابتي حتى أخلف المكان ، قال : قلت : لم ؟ قال : كنا نتحدث أنّ ولد نبيّ مقتول في ذلك المكان ؛ قال : ودمت أخاف أن أكون أنا ، فلما قتل الحسين قلنا : هذا الذي كنا نتحدث . قال : وكنت بعد ذلك إذا مررت بذلك المكان أسير ولا أركض .

حدثني الحارث ، قال : حدثنا ابن سعد ، قال : حدثني علي بن محمد ، عن جعفر بن سليمان الضبيّ قال : قال الحسين : والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي ، فإذا فعلوا سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من فرم الأمة ؛ فقدم للعراق فقُتل بينووى يوم عاشوراء سنة إحدى وستين .

قال الحارث : قال ابن سعد : أخبرنا محمد بن عمر ، قال : قُتل الحسين بن علي عليه السلام في صفر سنة إحدى وستين وهو يومئذ ابن خمس وخمسين .

حدَّثني بذلك أفلح بن سعيد، عن ابن كعب القُرظي، قال الحارث : حدَّثنا ابن سعد، قال : أخبرنا محمد بن عمر، عن أبي معشر، قال : قُتِلَ الحسين لعشر خلون من المحرم . قال الواقدي : هذا أثبت .

قال الحارث : قال ابن سعد : أخبرنا محمد بن عمر، قال : أخبرنا عطاء بن مسلم، عن ابن أخبره، عن عاصم بن أبي النُّجود، عن زُرِّ بن حُبَيْش، قال : أول رأس رُفِعَ على خشبة، رأس الحسين رضي الله عنه وصلى الله على رُوحه .

قال أبو مخنف : عن هشام بن الوليد، عن شهد ذلك، قال : أقبل الحسين بن علي بأهله من مكة ومحمد بن الحنفية بالمدينة، قال : قبله خبره وهو يتوضأ في طُسْتٍ ؛ قال : فبكى حتى سمعت دموعه في الطُسْتِ .

قال أبو مخنف : حدَّثني يونس بن أبي إسحاق السَّبيعي، قال : ولما بلغ عبيد الله إقبال الحسين من مكة إلى الكوفة، بعث الحصين بن تميم صاحب شُرطه حتى نزل القادسية ونظم الخيل ما بين القادسية إلى خَفَّان : وما بين القادسية إلى القُطْقُطانة وإلى لُعلج، وقال الناس : هذا الحسين يريد العراق .

قال أبو مخنف : وحدَّثني محمد بن قيس أنَّ الحسين أقبل حتى إذا بلغ الحاجر من بطن الرُّمَّة بعث قيس بن مُسهَر الصَّيداوي إلى أهل الكوفة، وكتب معه إليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنَّ كتابَ مسلم بن عَقِيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم، واجتماع ملئكم على نصرنا، والطلب بحقنا، فسألت الله أن يُحسن لنا الصُّنع، وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر، وقد شخصت إليكم من مكة يومَ الثلاثاء لثمان مضي من ذي الحجة يوم التروية، فإذا قدم عليكم رسولي فاكمشوا أمركم وجدوا، فإني قادم عليكم في أيامي هذه إن شاء الله؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكان مسلم بن عَقِيل قد كان كتب إلى الحسين قبل أن يُقتل لسبع وعشرين ليلة : أما بعد، فإنَّ الرائد لا يكذب أهله، إنَّ جَمع أهل الكوفة معك، فأقبل حين تقرأ كتابي؛ والسلام عليك .

قال : فأقبل الحسين بالصَّبيان والنساء معه لا يلوي على شيء، وأقبل قيس بن مُسهَر الصَّيداوي إلى الكوفة بكتاب الحسين، حتى إذا انتهى إلى القادسية أخذته الحصين بن تميم فبعث به إلى عبيد الله بن زياد، فقال له عبيد الله : اصعد إلى القصر فسبِّ الكذاب ابن الكذاب؛ فصعد ثم قال : أيها الناس، إنَّ هذا الحسين بن علي خير خلق الله؛ ابن فاطمة بنت رسول الله، وأنا رسوله إليكم، وقد فارقت بالهاجر، فأجيبوه؛ ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه، واستغفر لعلي بن أبي طالب . قال : فأمر به عبيد الله ابن زياد أن يُرمى به من فوق القصر، فرمي به، فتقطع فمات . ثم أقبل الحسين سيرا إلى الكوفة، فانتهى إلى ماء من مياه العرب، فإذا عليه عبد الله بن مطيع العَدَوِّي، وهو نازل ها هنا، فلما رأى الحسين قام إليه، فقال : بأبي أنت وأمي يابن رسول الله ! ما أقدمك ! واحتمله فأنزله، فقال له الحسين : كان من موت معاوية ما قد بلغك؛ فكتب إليَّ أهل العراق يدعونني إلى أنفسهم، فقال له عبد الله بن مطيع : أذكرك الله يابن رسول الله وحرمة الإسلام أن

تُنْتَهَك ! أنشدك الله في حُرمة رسول الله ﷺ ! أنشدك الله في حُرمة العرب ! فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقْتُلَنَّكَ ، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً . والله إنها لحُرمة الإسلام تُنْتَهَك ، وحُرمة قريش وحُرمة العرب ، فلا تفعل ، ولا تأت الكوفة ، ولا تعرّض لبني أمية ؛ قال : فأبى إلا أن يمضي ، قال : فأقبل الحسين حتى كان بالماء فوق زُرُود .

قال أبو مخنف : فحدثني السدي ، عن رجل من بني فزارة قال : لما كان زمن الحجاج بن يوسف كنا في دار - حارث بن أبي ربيعة التي في التمارين ، التي أقطعت بعد زهير بن القين ، من بني عمرو بن يشكر من بجيلة ، وكان أهل الشام لا يدخلونها ، فكنا مُحْتَبِثِينَ فيها ، قال : فقلت للفزاري : حدثني عنكم حين أقبلتم مع الحسين بن علي ؛ قال : كنا مع زهير بن القين البجلي حين أقبلنا من مكة نساير الحسين ، فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسايره في منزل ، فإذا سار الحسين تخلف زهير بن القين ، وإذا نزل الحسين تقدّم زهير ، حتى نزلنا يومئذ في منزل لم نجد بُدّاً من أن ننازله فيه ، فنزل الحسين في جانب ، ونزلنا في جانب ، فبينما نحن جلوس نتغذى من طعام لنا ، إذ أقبل رسول الحسين حتى سلّم ، ثم دخل فقال : يا زهير بن القين ، إنّ أبا عبد الله الحسين بن علي بعثني إليك لتأتيه ؛ قال : فطرح كلّ إنسان ما في يده حتى كأننا على رؤوسنا الطير .

قال أبو مخنف : فحدثني دهم بنت عمرو امرأة زهير بن القين ، قالت : فقتل له : أيّبعث إليك ابن رسول الله ثم لا تأتيه ! سبحان الله ! لو أتيتّه فسمعت من كلامه ! ثم انصرفت ؛ قالت : فأناه زهير بن القين ، فما لبث أن جاء مستبشراً قد أسفر وجهه ؛ قالت : فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه فقدم ، ومحل إلى الحسين ، ثم قال لا مراة : أنت طالق ، إلحقي بأهلك ، فإنّي لا أحب أن يصيبك من سببي إلا خيراً ، ثم قال لأصحابه : من أحبّ منكم أن يتبعني وإلا فإنه آخر العهد ، إني سأحدثكم حديثاً ، غزونا بلنجر ، ففتح الله علينا ، وأصبنا غنائم ، فقال لنا سلّمان الباهلي : أفرحتم بما فتح الله عليكم ، وأصبتم من الغنائم ! فقلنا : نعم ، فقال لنا : إذ أدركتم شباب آل محمد فكونوا أشدّ فرحاً بقتالكم معهم منكم بما أصبتم من الغنائم ، فأما أنا فإنّي أستودعكم الله ؛ قال : ثم والله ما زال في أوّل القوم حتى قُتل .

قال أبو مخنف : حدثني أبو جناب الكلبي ، عن عدي بن حرملة الأسدي ، عن عبد الله بن سليم والمذري بن المشمعل الأسديين قالا : لما قضينا حجاجاً لم يكن لنا همّة إلا اللحاق بالحسين في الطريق لننظر ما يكون من أمره وشأنه ، فأقبلنا تُرْقِل بن ناختاناً مسرعين حتى لحقناه بزُرُود ، فلما دنونا منه إذا نحن برجل من أهل الكوفة قد عدل عن الطريق حين رأى الحسين ؛ قالا : فوقف الحسين كأنه يريد ، ثم تركه ، ومضى ومضينا نحوه ، فقال أحدهما لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا فلنسأله ، فإن كان عنده خبر الكوفة علمناه ، فمضينا حتى انتهينا إليه ، فقلنا : السلام عليك ، قال : وعليكم السلام ورحمة الله ، ثم قلنا : فَمَن الرجل ؟ قال : أسدي ؛ فقلنا : فنحن أسديان فَمَن أنت ؟ قال : أنا بكير بن المثعبة ، فانتسبنا له ، ثم قلنا : أخبرنا عن الناس وراءك ؛ قال : نعم ، لم أخرج من الكوفة حتى قُتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة ، فرأيتهما يُجْران بأرجلهما في السوق ؛ قالا : فأقبلنا حتى لحقنا بالحسين ، فسايرناه حتى نزل الثعلبية ممسياً ، فجنّاه حين نزل ، فسلّمنا عليه فردّ علينا ، فقلنا له : يرحمك الله ؛ إنّ عندنا خبراً ، فإن شئت حدثنا علانية ، وإن شئت سراً ؛ قال : فنظر إلى أصحابه وقال : ما دون هؤلاء سرّ ؛ فقلنا له : رأيت الراكب الذي استقبلك عشاء أمس ؟ قال : نعم ، وقد

أردتُ مسألتَه ؛ فقلنا : قد استبرأنا لك خبرَه ، وكفيناك مسألتَه ، وهو امرؤٌ من أسد منا ، ذو رأيٍ وصدق ، وفضل وعقل ، وإنه حدَّثنا أنه لم يخرج من الكوفة حتى قُتل مسلم بن عَقِيل وهانيء بن عروة ، وحتى رآهما يُجْران في السوق بأرجلهما ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! رحمة الله عليهما ، فردَّد ذلك مراراً ، فقلنا : نَشُدُّكَ اللَّهَ في نفسك وأهل بيتك إلا انصرفت من مكانك هذا ، فإنه ليس لك بالكوفة ناصرٌ ولا شيعة ، بل نتخوَّف أن تكون عليك ! قال : فوثب عند ذلك بنو عَقِيل بن أبي طالب .

قال أبو مخنف : حدَّثني عمر بن خالد ، عن زيد بن علي بن حسين ، وعن داود بن علي بن عبدالله بن عباس ، أن بني عقيل قالوا : لا والله لا نبرح حتى ندرِكَ ثأرنا ، أو نذوقَ ما ذاق أخونا .

قال أبو مخنف : عن أبي جناب الكلبي ، عن عدي بن حرملة ، عن عبدالله بن سُليم والمذري بن المشمعل الأسديين ، قالوا : فنظر إلينا الحسين فقال : لا خير في العيش بعد هؤلاء ؛ قالوا : فعلمنا أنه قد عزم له رأيُه على المسير ؛ قالوا : فقلنا : خارَ الله لك ! قالوا : فقال : رحمكما الله ! قالوا : فقال له بعض أصحابه : إنك والله ما أنت مثل مسلم بن عَقِيل ، ولو قدمت الكوفة لكان الناسُ إليك أسرع ؛ قال الأسديان : ثم انتظر حتى إذا كان السَّحَر قال لفتيانه وعلمانه : أكثروا من الماء فاستقُّوا وأكثروا ، ثم ارتحلوا وساروا حتى انتهوا إلى رُبالة .

قال أبو مخنف : حدَّثني أبو علي الأنصاري ، عن بكر بن مصعب المزني ، قال : كان الحسين لا يمرُّ بأهل ماء إلا اتبعوه حتى إذا انتهى إلى رُبالة سقط إليه مَقْتل أخيه من الرضاعة ، مَقْتل عبدالله بن بُقَطْر ، وكان سرَّحه إلى مسلم بن عَقِيل من الطريق وهو لا يدري أنه قد أصيب ، فتلقاه خيلُ الحصين بن تميم بالفادسيَّة ، فسرح به إلى عُبيد الله بن زياد ، فقال : إصعد فوق القصر فالعنِ الكذاب ابنَ الكذاب ، ثم انزل حتى أرى فيك رأيي ! قال : فصعد ، فلما أشرف على الناس قال : أيها الناس ، إني رسول الحسين بن فاطمة بنتِ رسول الله ﷺ لتنصروه وتوازيروه على ابنِ مَرْجانة ابنِ سميَّة الدعي . فأمر به عُبيد الله فألقِيَ من فوق القصر إلى الأرض ، فكسرت عظامُه ، وبقي به رَمَق ، فأتاه رجل يقال له عبد الملك بن عُمير اللُّخمي فذبحه ، فلما عيب ذلك عليه قال : إنما أردت أن أريحه .

قال هشام : حدَّثنا أبو بكر بن عياش عمَّن أخبره ، قال : والله ما هو عبد الملك بن عمير الذي قام إليه فذبحه ، ولكنه قام إليه رجل جعْد طوال يشبه عبد الملك بن عمير . قال : فأق ذلك الخبرُ حسيناً وهو رُبالة ، فأخرج للناس كتاباً ، فقرأ عليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإنه قد أتانا خبر فظيع ، قتل مُسلم بن عقيل وهانيء بن عروة وعبدالله بن بُقَطْر ، وقد خذلنا شيعتنا ، فمن أحبَّ منكم الانصراف فلينصرف ، ليس عليه منا ذمام .

قال : فتفرَّق الناس عنه تفرّقاً ، فأخذوا يميناً وشمالاً حتى بقي في أصحابه الذين جاؤوا معه إلى المدينة ، وإنما فعل ذلك لأنه ظنَّ أنما اتَّبعه الأعراب ، لأنهم ظنُّوا أنه يأتي بلداً قد استقامت له طاعةُ أهله ، فكره أن يسيروا معه إلا وهم يعلمون عَلام يقدمون ، وقد علم أنهم إذا بينَ لهم لم يصحبه إلا من يريد مواساته والموت معه . قال : فلما كان من السَّحَر أمر فتياه فاستقُّوا الماء وأكثروا ، ثم سار حتى مرَّ ببطنِ العَقبة ، فنزل بها .

قال أبو مخنف : فحدَّثني لوزان أحد بني عكرمة أن أحدَ عمومته سأل الحسين عليه السلام أين تريد ؟

فحدّثه ، فقال له : إني أنشدك الله لما انصرفت ، فوالله لا تقدم إلّا على الأسنة وحدّ السيوف ، فإن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ، ووطؤوا لك الأشياء فقدمت عليهم كان ذلك رأياً ، فأما على هذه الحال التي تذكرها فإني لا أرى لك أن تفعل . قال : فقال له : يا عبدالله ، إنه ليس يخفى عليّ ، الرأي ما رأيته ، ولكن الله لا يغلب على أمره ؛ ثم ارتحل منها .

ونزع يزيد بن معاوية في هذه السنة الوليد بن عتبة عن مكة ، ولأها عمرو بن سعيد بن العاص ، وذلك في شهر رمضان منها ، فحجّ بالناس عمرو بن سعيد في هذه السنة ؛ حدّثني بذلك أحمد بن ثابت ، عمّن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر .

وكان عامله على مكة والمدينة في هذه السنة بعدما عزل الوليد بن عتبة عمرو بن سعيد ، وعلى الكوفة والبصرة وأعمالهما عبيدالله بن زياد ، وعلى قضاء الكوفة شريح بن الحارث ، وعلى قضاء البصرة هشام بن هُبيرة .

ثم دخلت سنة إحدى وستين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك مَقْتَلُ الحسين رضوان الله عليه ، قُتِلَ فيها في المحرم لعشر خلون منه ، كذلك حَدَّثَنِي أحمد بن ثابت ، قال : حَدَّثَنِي مُحَمَّدٌ ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر . وكذلك قال الواقدي وهشام بن الكلبي ؛ وقد ذكّرنا ابتداء أمر الحسين في مسيره نحو العراق وما كان منه في سنة ستين ، ونذكر الآن ما كان من أمره في سنة إحدى وستين وكيف كان مَقْتَلُهُ .

حُدِّثَ عن هشام ، عن أبي مخنف ، قال : حَدَّثَنِي أبو جناب ، عن عدي بن حرملة ، عن عبد الله بن سليم والمذري بن المشمعل الأسديين قالا : أقبل الحسين عليه السلام حتى نزل شراف ، فلما كان في السحر أمر فتياناه فاستقوا من الماء فأكثروا ، ثم ساروا منها ، فرسموا صدر يومهم حتى انتصف النهار . ثم إن رجلاً قال : الله أكبر! فقال الحسين : الله أكبر ما كبرت؟ قال : رأيت النخل ، فقال له الأسديان : إن هذا المكان ما رأينا به نخلة قط ؛ قالا : فقال لنا الحسين : فما تريانه رأي؟ قلنا : نراه رأي هوادي الخيل ؛ فقال : وأنا والله أرى ذلك ؛ فقال الحسين : أما لنا ملجأ نلجأ إليه ، نجعله في ظهورنا ، ونستقبل القوم من وجه واحد؟ فقلنا له : بلى ، هذا ذو حُسْمٍ إلى جنبك ، تميل إليه عن يسارك ، فإن سبقت القوم إليه فهو كما تريد ؛ قالا : فأخذ إليه ذات اليسار ؛ قالا : وملنا معه فما كان بأسرع من أن طلعت علينا هوادي الخيل ، فتبيننا ، وعدنا ، فلما رأونا وقد عدلنا عن الطريق عدلوا إلينا كأن أسنتهم اليعاسيب ، وكان رأياتهم أجنحة الطير ، قال : فاستبقنا إلى ذي حُسْمٍ ، فسبقناهم إليه ، فنزل الحسين ، فأمر بأبنتيه فضربت ، وجاء القوم وهم ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي اليربوعي حتى وقف هو وخيله مقابل الحسين في حر الظهيرة ، والحسين وأصحابه معتمون متقلدو أسيافهم ، فقال الحسين لفتياناه : اسقوا القوم وأرووهم من الماء ورشّفوا الخيل ترشيفاً ، فقام فتياناه فرشّفوا الخيل ترشيفاً ، فقام فتية وسقوا القوم من الماء حتى أرووهم ، وأقبلوا يملؤون القصاع والأثوار والطساس من الماء ثم يدنونها من الفرس ، فإذا عبّ فيه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً عزلت عنه ، وسقوا آخر حتى سقوا الخيل كلها .

قال هشام : حَدَّثَنِي لَقِيط ، عن علي بن الطعان المحاربي : كنت مع الحر بن يزيد ، فجئت في آخر من جاء من أصحابه ، فلما رأى الحسين ما بي وبفرسي من العطش قال : أنخ الراوية - والراوية عندي السقاء - ثم قال : يابن أخ ، أنخ الجمل ، فأنخته ، فقال : اشرب ، فجعلت كلما شربت سأل الماء من السقاء ، فقال الحسين : إخنث السقاء - أي اعطفه - قال : فجعلت لا أدري كيف أفعل! قال : فقام الحسين فخنّته ، فشربت وسقيت فرسي . قال : وكان محيي الحر بن يزيد ومسيره إلى الحسين من القادسيّة ، وذلك أن

عبيد الله بن زياد لما بلغه إقبال الحسين بعث الحصين بن تميم التميمي - وكان على شُرطه - فأمره أن ينزل القادسيّة ، وأن يضع المسالِحَ فينظم ما بين القطّقطانة إلى خَفّان ، وقَدَمَ الحُرّ بن يزيد بين يديه في هذه الألف من القادسيّة ، فيستقبل حسيناً . قال : فلم يزل موافقاً حسيناً حتى حضرت الصّلاة صلاة الظهر ، فأمر الحسين الحجاج بن مسروق الجعفي أن يؤدّن ، فأدّن ، فلما حضرت الإقامة خرج الحسين في إزار ورداء ونعلين ، فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه ثم قال : أيّها الناس ، إنا معذرة إلى الله عزّ وجلّ وإليكم ؛ إني لم أتكم حتى أتتني كتبكم ، وقدمت عليّ رُسُلُكم : أن أقدمَ علينا ، فإنه ليس لنا إمام ، لعلّ الله يجمعنا بك على الهدى ؛ فإن كنتم على ذلك فقد جئتمكم ، فإن تعطوني ما أطمئنُّ إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصرّكم ، وإن لم تفعلوا وكنتم لمُقدمي كارهين انصرفتُ عنكم إلى المكان الذي أقبلتُ منه إليكم . قال : فسكتوا عنه وقالوا للمؤدّن : أقم ، فأقام الصّلاة ، فقال الحسين عليه السلام للحُرّ : أتريد أن تصلي بأصحابك؟ قال : لا ، بل تصلي أنت ونصلي بصلاتك ؛ قال : فصلّي بهم الحسين ، ثم إنه دخل واجتمع إليه أصحابه ، وانصرف الحُرّ إلى مكانه الذي كان به ، فدخل خيمةً قد ضُربت له ، فاجتمع إليه جماعةٌ من أصحابه ، وعاد أصحابه إلى صَفْهِم الذي كانوا فيه ، فأعادوه ، ثم أخذ كلّ رجلٍ منهم بعنان دابّته وجلس في ظلّها ، فلما كان وقت العصر أمر الحسين أن يتهيؤوا للرّحيل . ثم إنه خرج فأمر مناديه فنادى بالعصر ، وأقام فاستقدم الحسين فصلّي بالقوم ثم سلم ، وانصرف إلى القوم بوجهه فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحقّ لأهله يكن أرضى الله ، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجور والعدوان ، وإن أنتم كرهتمونا ، وجهلتم حقنا ، وكان رأيكم غير ما أتتني كتبكم ، وقدمت به عليّ رُسُلُكم ، انصرفتُ عنكم ، فقال له الحُرّ بن يزيد : إنا والله ما ندري ما هذه الكتب التي تذكرها فقال الحسين : يا عقبة بن سَمْعان ، أخرج الخرجين اللّذين فيهما كتبهم إليّ ، فأخرج خرّجين مملوءين صُحفاً ، فنشرها بين أيديهم ؛ فقال الحُرّ : فإننا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك ، وقد أمرنا إذا نحن لقيناك ألاّ نفارقك حتى نُقدمك على عبيد الله بن زياد ؛ فقال له الحسين : الموت أدنى إليك من ذلك ، ثم قال لأصحابه : قوموا فاركبوا ، فركبوا وانتظروا حتى ركبَت نساؤهم ، فقال لأصحابه : انصرفوا بنا ، فلما ذهبوا لينصرفوا حالّ القوم بينهم وبين الانصراف ، فقال الحسين للحُرّ : ثكلتك أمك ! ما تريد ؟ قال : أما والله لو غيرك من العرب يقولها لي وهو على مثل الحال التي أنت عليها ما تركتُ ذكر أمةٍ بالثكل أن أقوله كائناً من كان ، ولكنّ والله ما لي إلى ذكر إمك من سبيل إلاّ بأحسن ما يقدر عليه ؛ فقال له الحسين : فما تريد؟ قال الحُرّ : أريد والله أن أنطلق بك إلى عبيد الله بن زياد ، قال له الحسين : إذن والله لا أتبعك ؛ فقال له الحُرّ : إذن والله لا أدعك ؛ فترادّا القول ثلاث مرّات ، ولما كثر الكلام بينهما قال له الحُرّ : إني لم أؤمر بقتالك ، ولما أمرت ألاّ أفارقك حتى أقدمك الكوفة ، فإذا أبيت فخذ طريقاً لا تُدخلك الكوفة ، ولا تردّك إلى المدينة ، تكون بيني وبينك نصفاً حتى أكتب إلى ابن زياد ، وتكتب أنت إلى يزيد بن معاوية إن أردت أن تكتب إليه ، أو إلى عبيد الله بن زياد إن شئت ، فلعلّ الله إلى ذاك أن يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من أن ابتلى بشيء من أمرك ؛ قال : فخذها هنا فتياسر عن طريق العذيب والقادسيّة ، وبينه وبين العذيب ثمانية وثلاثون ميلاً . ثم إنّ الحسين سار في أصحابه والحُرّ يسايره .

قال أبو مخنف : عن عقبة بن أبي العيزار ، إنّ الحسين خطب أصحابه وأصحاب الحُرّ بالبِضّة ، فحمِدَ

الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إن رسول الله ﷺ قال : « من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ، ناكثاً لعهد الله ، مخالفاً لسنة رسول الله ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ، فلم يغير عليه بفعل ولا قول ، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله » . ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفيء ، وأحلوا حرام الله ، وحرموا حلاله ، وأنا أحق من غير ، قد أثنى كتبكم ، وقدمت عليّ رُسُلكم ببيعتكم ؛ أنكم لا تُسلموني ولا تُخذلوني ، فإن تمتمت على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، فانا الحسين بن علي ، وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، نفسي مع أنفسكم ، وأهلي مع أهليكم ، فلکم في أسوة ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتي من أعناقكم ، فلعمري ما هي لكم بُنكر ، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم ، والمغرور من اغتر بكم ، فحفظكم أخطائكم ، ونصيبكم ضيعتكم ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، وسيُغني الله عنكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وقال عقبة بن أبي العيزار : قام حسين عليه السلام بذي حُسم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون ، وإن الدنيا قد تغيرت وتناكرت ، وأدبر معروفها واستمرت جدّاً ، فلم يبقَ منها إلا ضيابة كضبابة الإناء ، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل . ألا ترون أن الحق لا يعمل به ، وأن الباطل لا يتناهى عنه ! ليرغب المؤمن في لقاء الله محققاً ، فإني لا أرى الموت إلا شهادة ، ولا الحياة مع الظالمين إلا برماً .

قال : فقام زهير بن القين البجلي فقال لأصحابه : تكلمون أم أنكلم؟ قالوا : لا ، بل تكلم ؛ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : قد سمعنا هداك الله يابن رسول الله مقالتك ، والله لو كانت الدنيا لنا باقية ، وكنا فيها مخلدين ، إلا أن فراقها في نصرك ومواساتك ، لاثرنا الخروج معك على الإقامة فيها .

قال : فدعا له الحسين ثم قال له خيراً ؛ وأقبل الحر يسايره وهو يقول له : يا حسين ، إني أذكرك الله في نفسك ، فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن ، ولئن قوتلت لتهلكن فيما أرى ؛ فقال له الحسين : أقبالوت تخوفني ! وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني ! ما أدري ما أقول لك ! ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه ، ولقيته وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ ، فقال له : أين تذهب ؟ فإنك مقتول ؛ فقال :

سأمضي وما بالموت عارٌ على الفتى إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلماً
وآسى الرجال الصالحين بنفسه وفارق مشوراً يغش وُرعماً

قال : فلما سمع ذلك منه الحر تنحى عنه ، وكان يسير بأصحابه في ناحية وحسين في ناحية أخرى ، حتى انتهوا إلى عذيب الهجانات ، وكان بها هجائن النعمان ترعى هنالك ، فإذا هم بأربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة على رواحلهم ، يجنبون فرساً لنافع بن هلال يقال له الكامل ، ومعهم دليلهم الطرماح بن عدي على فرسه ، وهو يقول :

يا ناقتي لا تُدعري من زجري وشمري قبل طلوع الفجر
بخير رُكبٍ وخير سفير حتى تحلي بكريم النجر
الماجد الحر رحيب الصدر أتى به الله خير أمر

تُمت أبقاء بقاء الدهر

قال : فلما انتهوا إلى الحسين أنشدوه هذه الأبيات ، فقال : أما والله إني لأرجو أن يكون خيراً ما أراد الله بنا ، قُتِلنا أم ظَفَرنا ؛ قال : وأقبل إليهم الحرّ بن يزيد فقال : إن هؤلاء النفر الذين من أهل الكوفة ليسوا بمن أقبل معك ، وأنا حابسهم أو رادهم ، فقال له الحسين : لأمنعهم مما أمنع منه نفسي ، إنما هؤلاء أنصاري وأعواني ، وقد كنت أعطيتني ألا تعرض لي بشيء حتى يأتيك كتاب من ابن زياد ، فقال : أجل ، لكن لم يأتوا معك ؛ قال : هم أصحابي ، وهم بمنزلة من جاء معي ، فإن تمت على ما كان بيني وبينك وإلا ناجزتك ؛ قال : فكف عنهم الحرّ ؛ قال : ثم قال لهم الحسين : أخبروني خبر الناس وراءكم ، فقال له مجمع بن عبد الله العائدي ، وهو أحد نفر الأربعة الذين جاؤوه : أما أشرف الناس فقد أعظمت رشوتهم ، ومثلت غرائرهم ، يستمال ودّهم ، ويستخلص به نصيحتهم ، فهم ألبّ واحد عليك ، وأما سائر الناس بعد ، فإن أفئدتهم تهوي إليك ، وسيوفهم غداً مشهورة عليك ؛ قال : أخبروني ، فهل لكم برسولي إليكم ؟ قالوا : من هو ؟ قال : قيس بن مسهر الصيدائي ؛ فقالوا : نعم ، أخذه الحصين بن تميم فبعث به إلى ابن زياد ، فأمره ابن زياد أن يلعنك ويلعن أباك ، فصلى عليك وعلى أبيك ، ولعن ابن زياد وأباه ، ودعا إلى نصرتك ، وأخبرهم بقدمك ، فأمر به ابن زياد فألقي من طمار القصر ؛ فترقت عينا حسين عليه السلام ولم يملك دمه ، ثم قال : ﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بُدَيْلاً ﴾ . اللهم اجعل لنا ولهم الجنة نزلاً ، واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك ، ورغائب مذخور ثوابك !

قال أبو مخنف : حدّثني جميل بن مرثد بن بني معن ، عن الطرماح بن عدي ، أنه دنا من الحسين فقال له : والله إني لأنظر فما أرى معك أحداً ، ولو لم يقاقلك إلا هؤلاء الذين أراهم ملازمتك لكان كفي بهم ؛ وقد رأيت قبل خروجي من الكوفة إليك بيوم ظهر الكوفة وفيه من الناس ما لم تر عينا في صعيد واحد جمعا أكثر منه ، فسألت عنهم ، فقليل : اجتمعوا ليعرضوا ، ثم يسرحون إلى الحسين ، فأنشدك الله إن قدرت على ألا تقدم عليهم شبراً إلا فعلت ! فإن أردت أن تنزل بلداً يمنعك الله به حتى ترى من رأيك ، ويستبين لك ما أنت صانع ، فسر حتى أنزلك مناع جبلنا الذي يدعى أجأ ، إمتنعنا والله به من ملوك غسان وحمير ومن النعمان بن المنذر ، ومن الأسود والأحمر ، والله إن دخل علينا ذل قط ؛ فأسير معك حتى أنزلك القرية ، ثم نبعث إلى الرجال ممن بأجأ وسلمى من طيء ، فوالله لا يأتي عليك عشرة أيام حتى تأتيك طيء رجالاً وركباً ، ثم أقم فينا ما بدا لك ، فإن هاجك هيج فأننا زعيم لك بعشرين ألف طائي يضربون بين يديك بأسياهم ، والله لا يوصل إليك أبداً ومنهم عين تطرف ؛ فقال له : جزاك الله وقومك خيراً ! إنه قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قول لسنا نقدر معه على الانصراف ، ولا ندري علام تنصرف بنا وبهم الأمور في عاقبه !

قال أبو مخنف : فحدّثني جميل بن مرثد ، قال : حدّثني الطرماح بن عدي ، قال : فودعته وقلت له : دفع الله عنك شرّ الجن والإنس ، إني قد امترت لأهلي من الكوفة ميرة ، ومعني نفقة لهم ، فأتيتهم فأضع ذلك فيهم ، ثم أقبل إليك إن شاء الله ، فإن ألحقك فوالله لأكونن من أنصارك ؛ قال : فإن كنت فاعلاً فعجل رحك الله ؛ قال : فعلمت أنه مستوحش إلى الرجال حتى يسألني التعجيل ؛ قال : فلما بلغت أهلي وضعت عندهم ما يصلحهم ، وأوصيت ، فأخذ أهلي يقولون : إنك لتصنع مترك هذه شيئاً ما كنت تصنعه قبل اليوم ، فأخبرتهم بما أريد ، وأقبلت في طريق بني ثعل حتى إذا دنوت من عذيب الهجانات ، استقبلني سماعة بن بدر ، فنعاها إلي ، فرجعت ؛ قال : ومضى الحسين عليه السلام حتى انتهى إلى قصر بني مقاتل ، فنزل به ، فإذا هو

بفسطاط مضروب .

قال أبو مخنف : حدثني المجالد بن سعيد ، عن عامر الشعبي ، أن الحسين بن علي رضي الله عنه قال : لمن هذا الفسطاط؟ فقليل : لعبيد الله بن الحر الجعفي ؛ قال : ادعوه لي ، وبعت إليه ، فلما أتاه الرسول ، قال : هذا الحسين بن علي يدعوك ؛ فقال عبيد الله بن الحر : إنا لله وإنا إليه راجعون ! والله ما خرجت من الكوفة إلا كراهة أن يدخلها الحسين وأنا بها ، والله ما أريد أن أراه ولا يراني ، فأتاه الرسول فأخبره ، فأخذ الحسين نعليه فانتعل ، ثم قام فجاءه حتى دخل عليه ، فسلم وجلس ، ثم دعاه إلى الخروج معه ، فأعاد إليه ابن الحر تلك المقالة ، فقال : فلأ تنصرتنا فأتق الله أن تكون ممن يقاتلنا ، فوالله لا يسمع واعتنا أحد ثم لا ينصرتنا إلا هلك ؛ قال : أما هذا فلا يكون أبداً إن شاء الله . ثم قام الحسين عليه السلام من عنده حتى دخل رحله .

قال أبو مخنف : حدثني عبد الرحمن بن جندب ، عن عقبة بن سميعة قال : لما كان في آخر الليل أمر الحسين بالاستقاء من الماء ، ثم أمرنا بالرحيل ، ففعلنا ؛ قال : فلما ارتحلنا من قصر بني مقاتل وسرنا ساعة خفي الحسين برأسه تحفة ، ثم انتبه وهو يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله رب العالمين ؛ قال : ففعل ذلك مرتين أو ثلاثاً ، قال : فأقبل إليه ابنته علي بن الحسين على فرس له فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله رب العالمين ، يا أبت ، جعلت فداك ! مم حدثت الله واسترجعت؟ قال : يا بني ، إني خفقت برأسي تحفة فعن لي فارس على فرس فقال : القوم يسرون والمنايا تسري إليهم ، فعلمت أنها أنفسنا نعت إلينا ، قال له : يا أبت ، لا أراك الله سوءاً ، ألسنا على الحق ؟ قال : بلى والذي إليه مرجع العباد ؛ قال : يا أبت ، إذا لا نبالي ؛ ثموت محقين ؛ فقال له : جزاك الله من ولي خير ما جرى ولداً عن والده ؛ قال : فلما أصبح نزل فصلى الغداة ، ثم عجل الركوب ، فأخذ يتياسر بأصحابه يريد أن يفرقهم ، فيأتيه الحر بن يزيد فيردهم فيرده ، فجعل إذا ردهم إلى الكوفة رداً شديداً امتنعوا عليه فارتفعوا ، فلم يزالوا يتسايرون حتى انتهوا إلى نينوى ؛ المكان الذي نزل به الحسين ؛ قال : فإذا راكب على نجيب له وعليه السلاح متنكب قوساً مقبل من الكوفة ، فوقفوا جميعاً ينتظرونه ، فلما انتهى إليهم سلم على الحر بن يزيد وأصحابه ، ولم يسلم على الحسين عليه السلام وأصحابه ، فدفع إلى الحر كتاباً من عبيد الله بن زياد فإذا فيه : أما بعد ، فجئنا بالحسين حين يبلغك كتابي ، ويقدم عليك رسولي ، فلا تنزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء ، وقد أمرت رسولي أن يلزمك ولا يفارقك حتى يأتيك بإنفاذك أمري ؛ والسلام .

قال : فلما قرأ الكتاب قال لهم الحر : هذا كتاب الأمير عبيد الله بن زياد يأمرني فيه أن أجمع بكم في المكان الذي يأتي فيه كتابه ، وهذا رسوله ، وقد أمره ألا يفارقي حتى أنفذ رأيته وأمره ، فنظر إلى رسول عبيد الله يزيد بن زياد بن المهاصر أبو الشعثاء الكندي ثم البهدي فعن له ، فقال : أمالك بن النسيير البدي ؟ قال : نعم - وكان أحد كندة - فقال له يزيد بن زياد : ثكلتك أمك ! ماذا جئت فيه ؟ قال : وما جئت فيه ! أطعت إمامي ، ووفيت ببيعتي ، فقال له أبو الشعثاء : عصيت ربك ، وأطعت إمامك في هلاك نفسك ، كسبت العار والنار ، قال الله عز وجل : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (١) ، فهو إمامك .

قال : وأخذ الحُرْبَن يزيّد القوم بالنزول في ذلك المكان على غير ماء ولا في قرية ، فقالوا : دَعْنَا نَنْزِلَ في هذه القرية ، يعنون نِينَوَى - أو هذه القرية - يعنون الغاضرية - أو هذه الأخرى - يعنون شُقَيَّة . فقال : لا والله ما أستطيع ذلك ، هذا رجل قد بُعِثَ إليَّ عِيناً ، فقال له زهير بن القَيْن : يابن رسول الله ، إن قتال هؤلاء أهْوَنُ من قتال من يأتينا من بعدهم ، فَلَعَمْرِي ليأتينا من بُعدٍ مَنْ تَرى ما لا قبل لنا به ، فقال له الحسين : ما كنتُ لأبدأهم بالقتال ؛ فقال له زهير بن القَيْن : سرُّبنا إلى هذه القرية حتى تنزلها فإنها حصينة ، وهي على شاطئ الفرات ، فإنْ منعونا قاتلناهم ، فقتلناهم أهْوَنُ علينا من قتال من يجيء من بعدهم ؛ فقال له الحسين : وأية قرية هي ؟ قال : هي العَقْر ، فقال الحسين : اللهم إني أعوذ بك من العَقْر ، ثم نزل ، وذلك يوم الخميس ، وهو اليوم الثاني من المحرم سنة إحدى وستين . فلما كان من الغد قدم عليهم عمر بن سعد بن أبي وقاص من الكوفة في أربعة آلاف . قال : وكان سبب خروج ابن سعد إلى الحسين عليه السلام أن عبيد الله بن زياد بعثه على أربعة آلاف من أهل الكوفة يسير بهم إلى دُسْتَبَى ، وكانت الديلم قد خرجوا إليها وغلبوا عليها ، فكتب إليه ابن زياد عهدَه على الرِّي ، وأمرَه بالخروج .

فخرج معسكراً بالناس بحمّام أعين ، فلما كان من أمر الحسين ما كان وأقبل إلى الكوفة دعا ابن زياد عمر بن سعد ، فقال : سرُّ إلى الحسين ، فإذا فرغنا مما بيننا وبينه سرتُ إلى عملك ؛ فقال له عمر بن سعد : إن رأيتُ رحمك الله أن تُعَفِّينِي فافعل ؛ فقال له عبيد الله : نعم ، على أن تردّ لنا عهدنا ؛ قال : فلما قال له ذلك قال عمر بن سعد : أمهلني اليوم حتى أنظر ؛ قال فانصرف عمر يستشير نَصَحاءه ، فلم يكن يستشير أحداً إلّا نهاه ؛ قال : وجاء حمزة بن المغيرة بن شعبة - وهو ابن أخته - فقال : أنشدك الله يا خال أن تسير إلى الحسين فتأثم برَبِّك ، وتقطعَ رَحِمَكَ ! فوالله لأن تخرج من دينك وما لك وسلطان الأرض كلّها لو كان لك ، خير لك من أن تلقى الله بدم الحسين ! فقال له عمر بن سعد : فإني أفعل إن شاء الله .

قال هشام : حدّثني عَوانة بن الحَكَم ، عن عَمَّار بن عبد الله بن يسار الجُهَنِي ، عن أبيه ، قال : دخلتُ على عمر بن سعد ، وقد أمر بالمسير إلى الحسين ، فقال لي : إن الأمير أمرني بالمسير إلى الحسين ، فأبيتُ ذلك عليه ، فقلتُ له : أصاب الله بك ، أرشدك الله ، أجل فلا تفعل ولا تسرُّ إليه . قال : فخرجتُ من عنده ، فأتاني آتٍ وقال : هذا عمر بن سعد يندب الناس إلى الحسين ؛ قال : فأتيتُه فإذا هو جالس ، فلما رأيته أعرض بوجهه فعرفتُ أنه قد عزم على المسير إليه ، فخرجتُ من عنده ؛ قال : فأقبل عمر بن سعد إلى ابن زياد فقال : أصلحك الله ! إنك وليّتي هذا العمل ، وكتبت لي العهد ، وسمعت به الناس ، فإن رأيتُ أن تنفذ لي ذلك فافعلْ وابعث إلى الحسين في هذا الجيش من أشرف الكوفة مَنْ لستُ بأغنى ولا أجزأ عنك في الحرب منه ؛ فسمي له أناساً ، فقال له ابن زياد : لا تُعَلِّمني بأشرف أهل الكوفة ، ولستُ أستاذمرك فيمن أريد أن أبعث . إن سرتُ بجندنا ، وإلّا فأبعث إلينا بعهدنا ، فلما رآه قد لَجَّ قال : فإني سائر ؛ قال : فأقبل في أربعة آلاف حتى نزل الحسين من الغد من يوم نزل الحسين نِينَوَى .

قال : فبعث عمر بن سعد إلى الحسين عليه السلام عَزْرَة بن قيس الأحسمي ، فقال : ائته فسَلِّه ما ألذي جاء به ؟ وماذا يريد ؟ وكان عزرة ممن كتب إلى الحسين فاستحيا منه أن يأتيه . قال : فعرض ذلك على الرؤساء الذين كاتبوه ، فكلُّهم أبى وكرهه . قال : وقام إليه كثير بن عبد الله الشعبي - وكان فارساً شجاعاً ليس يرُد وجهه

شيء - فقال : أنا أذهب إليه ، والله لئن شئت لأفتكن به ، فقال له عمر بن سعد : ما أريد أن يفتك به ، ولكن أئته فسله ما الذي جاء به ؟ قال : فأقبل إليه ، فلما رآه أبو ثمامة الصائدي قال للحسين : أصلحك الله أبا عبد الله ! قد جاءك شر أهل الأرض وأجرؤه على دم وأفتكه ، فقام إليه ، فقال : ضع سيفك ؛ قال : لا والله ولا كرامة ، إنما أنا رسول ، فإن سمعتم مني أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، وإن أبيتم انصرفت عنكم ؛ فقال له : فلاني آخذ بقائم سيفك ، ثم تكلم بحاجتك ، قال : لا والله ، لائمسه فقال له : أخبرني ما جئت به وأنا أبلغه عنك ، ولا أدعك تدنونه ، فإنك فاجر ؛ قال : فاستبأ ، ثم انصرف إلى عمر بن سعد فأخبره الخبر ؛ قال : فدعا عمر قرّة بن قيس الحنظلي فقال له : ويحك يا قرّة ! التّق حسيناً فسله ما جاء به ؟ وماذا يريد ؟ قال : فاتاه قرّة بن قيس ، فلما رآه الحسين مقبلاً قال : أتعرفون هذا ؟ فقال حبيب بن مظاهر : نعم ، هذا رجل من حنظلة تميمي ، وهو ابن أختنا ، ولقد كنت أعرفه بحسن الرأي ، وما كنت أراه يشهد هذا المشهد ؛ قال : فجاء حتى سلّم على الحسين ، وأبلغه رسالة عمر بن سعد إليه له ، فقال الحسين : كتب إليّ أهل مصركم هذا أن أقدم ، فأما إذا كرهوني فأنا أنصرف عنهم ؛ قال : ثم قال له حبيب بن مظاهر : ويحك يا قرّة بن قيس ! أنى ترجع إلى القوم الظالمين ! انصر هذا الرجل الذي بآبائه أيّدك الله بالكرامة وإيانا معك ؛ فقال له قرّة : أرجع إلى صاحبي بجواب رسالته ، وأرى رأيي ؛ قال : فانصرف إلى عمر بن سعد فأخبره الخبر ، فقال له عمر بن سعد : إني لأرجو أن يعافيني الله من حربه وقتاله .

قال هشام ، عن أبي مخنف ، قال : حدّثني النضر بن صالح بن حبيب بن زهير العبسي ، عن حسان بن فائد بن بكير العبسي ، قال : أشهد أن كتاب عمر بن سعد جاء إلى عبيد الله بن زياد وأنا عنده فإذا فيه :
بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فلاني حيث نزلت بالحسين بعثت إليه رسولي ، فسألته عما أقدمه ، وماذا يطلب ويسأل ، فقال : كتب إليّ أهل هذه البلاد وأتتني رسلهم ، فسألوني القدوم ففعلت ؛ فأما إذ كرهوني فبدا لهم غير ما أتتني به رسلهم فأنا منصرف عنهم ، فلما قرىء الكتاب على ابن زياد قال :
الآن إذ عُلِّقَتْ مَخَالِبُنَا بِهِ يَرْجُو النِّجَاةَ وَلَا تَجِيْنَ مَنَاصِر !

قال : وكتب إلى عمر بن سعد :

بسم الله الرحمن الرحيم ؛ أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، وفهمت ما ذكرت ، فاعرض على الحسين أن يبيع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه ، فإذا فعل ذلك رأينا رأينا ، والسلام .

قال : فلما أتى عمر بن سعد الكتاب ، قال : قد حسبت ألا يقبل ابن زياد العافية .

قال أبو مخنف : حدّثني سليمان بن أبي راشد ، عن حميد بن مسلم الأزدي ، قال : جاء من عبيد الله بن زياد كتاب إلى عمر بن سعد : أما بعد ، فحل بين الحسين وأصحابه وبين الماء ، ولا يذوقوا منه قطرة ، كما صنع بالزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان . قال : فبعث عمر بن سعد عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس ، فنزلوا على الشريعة ، وحالوا بين حسين وأصحابه وبين الماء أن يسقوا منه قطرة ، وذلك قبل قتل الحسين بثلاث . قال : ونارّه عبد الله بن أبي حصين الأزدي - وعداده في بجيله - فقال : يا حسين ، ألا تنظر إلى الماء كأنه كبّ السماء ! والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشاً ؛ فقال حسين : اللهم اقلته عطشاً ، ولا تغفر له أبداً . قال حميد بن مسلم : والله لعدته بعد ذلك في مرضه ، فوالله

الذي لا إله إلا هو لقد رأيته يشرب حتى بَغَر ، ثم بقي ، ثم يعود فيشرب حتى ييغر فما يَرَوِي ، فما زال ذلك دأبه حتى لَفَظَ عصبه . يعني نفسه - قال : ولما اشتدَّ على الحسين وأصحابه العطش دعا العباس بن علي بن أبي طالب أخاه ، فبعثه في ثلاثين فارساً وعشرين رجلاً ، وبعث معهم بعشرين قربةً ، فجاءوا حتى دنوا من الماء ليلاً واستقدم أمامهم باللواء نافع بن هلال الجملي ، فقال عمرو بن الحجاج الزبيدي : من الرجل؟ فجيء فقال : ما جاء بك؟ قال : جئنا نشرب من هذا الماء الذي حلائمونا عنه ، قال : فاشرب هنيئاً ، قال : لا والله ، لا أشرب منه قطرةً وحسين عطشان ومن ترى من أصحابه ، فطلَّعوا عليه ، فقال : لا سبيل إلى سقي هؤلاء ، إنما وُضِعنا بهذا المكان لنمنعهم الماء ، فلما دنا منه أصحابه قال لرجاله : املثوا قِرْبكم ، فشَدَّ الرِّجَالُ فملثوا قِرْبهم ، وثار إليهم عمرو بن الحجاج وأصحابه ، فحمل عليهم العباس بن علي ونافع بن هلال فكفَّوهم ، ثم انصرفوا إلى رحالهم ، فقالوا : امضوا ، ووقفوا دونهم ، فعطف عليهم عمرو بن الحجاج وأصحابه وأطردوا قليلاً . ثم إن رجلاً من صُداء طُعين من أصحاب عمرو بن الحجاج ، طعنه نافع بن هلال ، فظنَّ أنها ليست بشيء ، ثم إنها انتقضت بعد ذلك ، فمات منها ، وجاء أصحاب حسين بالقرب فأدخلوها عليه .

قال أبو مخنف : حدَّثني أبو جَنَاب ، عن هانئ بن ثبَّيت الحضرمي - وكان قد شهد قتل الحسين ، قال : بعث الحسين عليه السلام إلى عمر بن سعد عمرو بن قرظة بن كعب الأنصاري : أن ألقني الليل بين عسكري وعسكري . قال : فخرج عمر بن سعد في نحو من عشرين فارساً ، وأقبل حسين في مثل ذلك ، فلما التقوا أمر حسين أصحابه أن ينتحوا عنه ، وأمر عمر بن سعد أصحابه بمثل ذلك ؛ قال : فانكشفنا عنهما بحيث لا نسمع أصواتهما ولا كلامهما ؛ فتكلما فأطالا حتى ذهب من الليل هزيع ، ثم انصرف كل واحد منهما إلى عسكريه بأصحابه ، وتحدث الناس فيما بينهما ؛ ظناً يظنونه أن حسيناً قال لعمر بن سعد : اخرج معي إلى يزيد بن معاوية وندع العسكريين ؛ قال عمر : إذن تهدم داري ؛ قال : أنا أبنيتها لك ، قال : إذن تؤخذ ضياعي ؛ قال : إذن أعطيك خيراً منها من مالي بالحجاز . قال : فتكره ذلك عمر ؛ قال : فتحدث الناس بذلك ، وشاع فيهم من غير أن يكونوا سمعوا من ذلك شيئاً ولا علموه .

قال أبو مخنف : وأمّا ما حدَّثنا به المجالد بن سعيد والصَّقْعَب بن زهير الأزدي وغيرهما من المحدثين ، فهو ما عليه جماعة المحدثين ، قالوا : إنه قال : اختاروا مني خصالاً ثلاثاً : إمّا أن أرجع إلى المكان الذي أقبلت منه ، وإمّا أن أضع يدي في يد يزيد بن معاوية فيرى فيما بيني وبينه رأيته ، وإمّا أن يسيروني إلى أيّ ثغر من ثغور المسلمين شئت ، فأكون رجلاً من أهله ، لي ما لهم وعليّ ما عليهم .

قال أبو مخنف : فأما عبد الرحمن بن جندب فحدَّثني عن عقبه بن سَمْعَانَ قال : صحبتُ حسيناً فخرجتُ معه من المدينة إلى مكة ، ومن مكة إلى العراق ، ولم أفارقه حتى قتل ، وليس من مخاطبته الناس كلمة بالمدينة ولا بمكة ولا في الطريق ولا بالعراق ولا في عسكر إلى يومٍ مقتله إلا وقد سمعته . ألا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون ؛ من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية ، ولا أن يسيره إلى ثغر من ثغور المسلمين ، ولكنه قال : دعوني فلاذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظر ما يصير أمر الناس .

قال أبو مخنف : حدَّثني المجالد بن سعيد الهمداني والصَّقْعَب بن زهير ، أنهما كانا التقيا مراراً ثلاثاً

أو أربعاً ؛ حسين وعمر بن سعد ؛ قال : فكتب عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد : أما بعد ، فإن الله قد أطفأ النائرة ، وجمع الكلمة ، وأصلح أمر الأمة ، هذا حسين قد أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي منه أتى ، أو أن نسيّره إلى أيّ ثغر من ثغور المسلمين شئنا ، فيكون رجلاً من المسلمين له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، أو أن يأتي يزيد أمير المؤمنين فيضع يده في يده ، فيرى فيما بينه وبينه رأيه ، وفي هذا لكم رضا ، وللأمة صلاح . قال : فلما قرأ عبيد الله الكتاب قال : هذا كتاب رجل ناصح لأمره ، مشفق على قومه ، نعم قد قبلت . قال : فقام إليه شمر بن ذي الجوشن ، فقال : أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك إلى جنبك ! والله لئن رحل من بلدك ، ولم يضع يده في يدك ، ليكون أولى بالقوة والعزة وتكونن أولى بالضعف والعجز ، فلا تعطيه هذه المنزلة فإنها من الوهن ، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه ، فإن عاقبت فأنت ولي العقوبة ، وإن غفرت كان ذلك لك ، والله لقد بلغني أن حسيناً وعمر بن سعد يجلسان بين العسكرين فيتحدثان عامة الليل ، فقال له ابن زياد : نعم ما رأيت ! الرأي رأيك .

قال أبو مخنف : فحدثني سليمان بن أبي راشد ، عن حميد بن مسلم ، قال : ثم إن عبيد الله بن زياد دعا شمر بن ذي الجوشن فقال له : اخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكي ، فإن فعلوا فليبعث بهم إليّ سلماً ، وإن هم أبوا فليقاتلهم ، فإن فعل فاسمع له وأطع ، وإن هو أبى فقاتلهم ، فأنت أمير الناس ، وثب عليه فاضرب عنقه ، وابعث إليّ برأسه .

قال أبو مخنف : حدثني أبو جناب الكلبي ، قال : ثم كتب عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد : أما بعد ، فإنني لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ولا لتطاوله ، ولا لتمنيته السلامة والبقاء ، ولا لتعده له عندي شافعاً . . انظر ، فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا ، فابعث بهم إليّ سلماً ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قتل حسين فأوطىء الخيل صدره وظهره ، فإنه عاق مشاق ، قاطع ظلوم ، وليس دهري في هذا أن يضر بعد الموت شيئاً ، ولكن عليّ قول لو قد قتلته فعلت هذا به . إن أنت مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع ، وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا ، وخل بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر ، فلما قد أمرناه بأمرنا ؛ والسلام .

قال أبو مخنف : عن الحارث بن حصيرة ، عن عبد الله بن شريك العامري ، قال : لما قبض شمر بن ذي الجوشن الكتاب قام هو وعبد الله بن أبي المحل - وكانت عمته أم البنين ابنة حزام عند علي بن أبي طالب عليه السلام ، فولدت له العباس وعبد الله وجعفر وعثمان - فقال عبد الله بن أبي المحل بن حزام بن خالد بن ربيعة بن الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب : أصلح الله الأمير إن بني أختنا مع الحسين ، فإن رأيت أن تكتب لهم أماناً فعلت ؛ قال : نعم ونعمة عين . فأمر كاتبه ، فكتب لهم أماناً ، فبعث به عبد الله بن أبي المحل مع مولى له يقال له : كزمان ، فلما قدم عليهم دعاهم ، فقال : هذا أمان بعث به خالكم ؛ فقال له الفتية : أقرئ خالنا السلام ، وقل له : أن لا حاجة لنا في أمانكم ، أمان الله خير من أمان ابن سمية . قال : فأقبل شمر بن ذي الجوشن بكتاب عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد ، فلما قدم به عليه فقرأه قال له عمر : ما لك وئلك ! لا قرب الله دارك ، وقبح الله ما قدمت به علي ! والله إني لأظنك أنت ثنيته أن يقبل ما كتبت به إليه ، أفسدت علينا أمراً كنا رجونا أن يصلح ، لا يستسلم والله حسين ، إن نفساً أبيّة لبين جنيته ،

فقال له شمر : أخبرني ما أنت صانع ؟ أتمضي لأمر أميرك وتقتل عدوّه ، وإلا فخلّ بيني وبين الجند والعسكر ؛ قال : لا ولا كرامة لك ، وأنا أتولّى ذلك ؛ قال : فدونك ، وكن أنت على الرجال ؛ قال : فنهض إليه عشية الخميس لتسع مضين من المحرم ؛ قال : وجاء شمر حتى وقف على أصحاب الحسين ، فقال : أين بنو أختنا ؟ فخرج إليه العباس وجعفر وعثمان بنو علي ، فقالوا له : ما لك وما تريد ؟ قال : أنتم يا بني أختي آمنون ؛ قال له الفتية : لعنك الله ولعن أمانك ! لئن كنت خالنا أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له ! قال : ثم إن عمر بن سعد نادى : يا خيل الله اركبي وأبشري . فركب في الناس ، ثم زحف نحوهم بعد صلاة العصر ، وحسين جالس أمام بيته محتبياً بسيفه ، إذ خفق برأسه على ركبتيه ، وسمعت أخته زينب الصيحة فدنّت من أخيها ، فقالت : يا أخي ، أما تسمع الأصوات قد اقتربت ! قال : فرجع الحسين رأسه فقال : إنّي رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقال لي : إنك تروح إلينا ؛ قال : فلطمت أخته وجهها وقالت : يا ويلتا ! فقال : ليس لك الويل يا أختي ، اسكني رحمتك الرحمن ! وقال العباس بن علي : يا أخي ، أذاك القوم ؛ قال : فنهض ؛ ثم قال : يا عباس ، إركب بنفسك أنت يا أخي حتى تلقاهم فتقول لهم : ما لكم ؟ وما بدا لكم ؟ وتسالهم عما جاء بهم ؟ فاتاهم العباس ؛ فاستقبلهم في نحو من عشرين فارساً فيهم زهير بن القين وحبيب بن مظاهر ، فقال لهم العباس : ما بدا لكم ؟ وما تريدون ؟ قالوا : جاء أمر الأمير بأن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو ننزلكم ؛ قال : فلا تعجلوا . حتى أرجع إلى أبي عبدالله فأعرض عليه ما ذكرتم ؛ قال : فوقفوا ثم قالوا : إلّقه فأعلمه ذلك ، ثم القنا بما يقول ؛ قال : فانصرف العباس راجعاً يركض إلى الحسين يُخبره بالخبر ، ووقف أصحابه يخاطبون القوم ، فقال حبيب بن مظاهر لزهير بن القين : كلّم القوم إن شئت . وإن شئت كلمتهم ، فقال له زهير : أنت بدأت بهذا ، فكن أنت تكلمهم ، فقال له حبيب بن مظاهر : أما والله لبشّ القوم عند الله غداً قومٌ يقدّمون عليه قد قتلوا ذرية نبيّه عليه السلام وعترته وأهل بيته ﷺ وعباد أهل هذا المصر المجتهدين بالأسحار ، والذاكرين الله كثيراً ؛ فقال له عزرة بن قيس : إنك لتزكي نفسك ما استطعت ؛ فقال له زهير : يا عزرة ، إن الله قد زكّاها وهداها ، فاتّق الله يا عزرة فإني لك من الناصحين ، أنشدك الله يا عزرة أن تكون ممن يعين الضلال على قتل النفوس الزكية ! قال : يا زهير ، ما كنت عندنا من شيعة أهل هذا البيت ، إنما كنت عثمانياً ؛ قال : أفلست تستدلّ بموقفي هذا أنّي منهم ! أما والله ما كتبت إليه كتاباً قط ، ولا أرسلت إليه رسولاً قط ، ولا وعدته نصرتي قط ، ولكن الطريق جمع بيني وبينه ، فلما رأيته ذكرتُ به رسول الله ﷺ ومكانه منه ، وعرفت ما يقدم عليه من عدوّه وحزبكم ، فرأيت أن أنصره ، وأن أكون في حزبه ، وأن أجعل نفسي دون نفسه ، حفظاً لما ضيّعتم من حقّ الله وحقّ رسوله عليه السلام . قال : وأقبل العباس بن علي يركض حتى انتهى إليهم ، فقال : يا هؤلاء ، إن أبا عبدالله يسألكم أن تنصرفوا هذه العشية حتى ينظر في هذا الأمر ، فإنّ هذا أمر لم يجز بينكم وبينه فيه منطلق ، فإذا أصبحنا التقينا إن شاء الله ، فلما رضيناه فأتينا بالأمر الذي تسألونه وتسومونه ، أو كرهنّا فردّدناه ، وإنما أراد بذلك أن يردّهم عنه تلك العشية حتى يأمر بأمره ، ويوصي أهله ، فلما أتاهم العباس بن علي بذلك قال عمر بن سعد : ما ترى يا شمر ؟ قال : ما ترى أنت ، أنت الأمير والرأي رأيك ؛ قال : قد أردت ألا أكون ؛ ثم أقبل على الناس فقال : ماذا ترون ؟ فقال عمرو بن الحجاج بن سلمة الزبيدي : سبحان الله ! والله لو كانوا من الدّيلم ثم سألوكم هذه المنزلة لكان ينبغي لك أن تجيبهم إليها ، وقال قيس بن الأشعث : أجّبهم إلى ما

سألوكم ، فَلَعَمْرِي لِيصْبُحُنَا بِالْقَتَالِ غُدْوَةً ؛ فقال : والله لو أعلم أن يفعلوا ما أخرجتهم العشيّة ؛ قال : وكان العباس بن علي حين أتى حسيناً بما عرض عليه عمر بن سعد قال : إرجع إليهم ، فإن استطعت أن تؤخّرهم إلى غُدْوَةٍ وتُدْفَعَهُمْ عِنْدَ الْعِشْيَةِ لَعَلَّنَا نَصْلِي لربنا الليلة ونُدْعُوهُ ونستغفره ، فهو يعلم أنني قد كنتُ أحب الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار .

قال أبو مخنف : حدّثني الحارث بن حصيرة ، عن عبد الله بن شريك العامريّ ، عن علي بن الحسين قال : أتانا رسولٌ من قبل عمر بن سعد فقام مثل حيث يُسمَعُ الصوت فقال : إنا قد أجلناكم إلى غد ، فإن استسلمتم سرّحنا بكم إلى أميرنا عُبيد الله بن زياد ، وإن أبيتم فلنسنا تاريككم .

قال أبو مخنف : وحدّثني عبد الله بن عاصم الفاشي ، عن الضحّاك بن عبد الله المشرقي . - بطن من همدان - أن الحسين بن علي عليه السلام جمع أصحابه .

قال أبو مخنف : وحدّثني أيضاً الحارث بن حصيرة ، عن عبد الله بن شريك العامريّ ، عن علي بن الحسين ، قال : جمع الحسين أصحابه بعد ما رجع عمر بن سعد ، وذلك عند قرب المساء ، قال علي بن الحسين : فدنوتُ منه لأسمع وأنا مريض ، فسمعتُ أبي وهو يقول لأصحابه : أثنى على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء ، وأحمدته على السراء والضراء ؛ اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة ، وعلمتنا القرآن ، وفقهتنا في الدين ، وجعلت لنا أسماً وأبصاراً وأفئدة ، ولم تجعلنا من المشركين ؛ أما بعد ، فإنني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي ، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً ؛ ألا وإنني أظنّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً ، ألا وإنني قد رأيت لكم فانطلقوا جميعاً في حلّ ، ليس عليكم مني ذمام ، هذا ليلٌ قد غشيكم ، فاتخذوه جَمَلاً .

قال أبو مخنف : حدّثنا عبد الله بن عاصم الفاشي - بطن من همدان - عن الضحّاك بن عبد الله المشرقي ، قال : قدمت ومالك بن النضر الأرحبي على الحسين ، فسلمنا عليه ، ثم جلسنا إليه ، فردّ علينا ، ورحب بنا ، وسألنا عما جئنا له ، فقلنا : جئنا لنسلم عليك ، وندعوا لك بالعافية ، ونحدّث بك عهداً ، ونخبرك خبر الناس ، وإنا نحدّثك أنهم قد جمعوا على حربك فر رأيتك . فقال الحسين عليه السلام : حسبي الله ونعم الوكيل ! قال : فتذمنا وسلمنا عليه ، ودعونا الله له ، قال : فما يمنعكما من نصرتي ؟ فقال مالك بن النضر : عليّ دين ، ولي عيال ، فقلتُ له : إنّ عليّ ديناً ، وإنّ لي لعيالاً ، ولكنك إن جعلتني في حلّ من الانصراف إذا لم أجد مقاتلاً قاتلت عنك ما كان لك نافعاً ، وعنك دافعاً ! قال : قال : فأنت في حلّ ؛ فأقمْتُ معه ، فلما كان الليل قال : هذا الليل قد غشيكم ، فاتخذوه جَمَلاً ، ثم ليأخذ كلّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ، تفرّقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرّج الله ، فإنّ القوم إنما يطلبوني ، ولو قد أصابوني هُؤَلا عن طلب غيري ؛ فقال له إخوته وأبنائهم وأبنو أخيه وأبنا عبد الله بن جعفر : لم نفعل لنبي بعدك ، لا أرانا الله ذلك أبداً ؛ بدأهم بهذا القول العباس بن علي . ثم إنهم تكلموا بهذا ونحوه ، فقال الحسين عليه السلام : يا بني عقيل ، حسبكم من القتل بمسلم ، اذهبوا قد أذنت لكم ؛ قالوا : فما يقول الناس ! يقولون إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومنا خير الأعمام ، ولم نرم معهم بسهم ، ولم نطعن معهم برمح ، ولم نضرب معهم بسيف ، ولا ندري ما صنعوا ! لا والله لا نفعل ، ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا ، ونقاتل معك حتى نردّ

مُورِدَكَ ، ففجح الله العيش بعدَكَ !

قال أبو مخنف : حدّثني عبدالله بن عاصم ، عن الضحّاك بن عبدالله المِشْرَقِيّ ، قال : فقام إليه مسلم بن عَوْسَجَة الأسديّ فقال : أنحنّ نخليّ عنك ولَمّا نُعْذِرْ إلى الله في أداء حقك ! أما والله حتى أكسر في صدورهم رُمحي ، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمُهُ في يدي ، ولا أفارقك ؛ ولولم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقدفّتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك . قال : وقال سعيد بن عبدالله الحنفي : والله لا نخليّك حتى يعلم الله أنا حفظنا غيبة رسول الله ﷺ فيك ، والله لو علمتُ أني أقتل ثم أحيّا ثم أحرّق حيّا ثم أذّر ، يُفَعَّلُ ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك ، فكيف لا أفعل ذلك ! وإنما هي قَتْلَة واحدة ، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً .

قال : وقال زهير بن القَيْن : والله لوددتُ أني قُتِلْتُ ثم نِشِرْتُ ثم قُتِلْتُ حتى أقتلَ كذا ألف قتلة ، وأن الله دفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك . قال : وتكلم جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد ، فقالوا : واللّٰه لا نفارقك ، ولكنّ أنفسنا لك الفداء ، نقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا ، فإذا نحن قُتِلْنَا كُنَّا وَفِينَا ، وَقَضِينَا ما علينا .

قال أبو مخنف : حدّثني الحارث بن كعب وأبو الضحّاك ، عن علي بن الحسين بن علي قال : إني جالس في تلك العشيّة التي قُتِلَ أبي صبيحَتها ، وعمتي زينب عندي تمرّضني ، إذ اعتزل أبي أصحابه في خِباء له ، وعنده حُويّ ، مولى أبي ذَرّ الغفاريّ ، وهو يعالج سيفه ويصلّحه وأبي يقول :

يا دهرُ أفت لك من خليلٍ كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيلٍ والدهرُ لا يقنع بالبديل
وإنما الأمرُ إلى الجليلِ وكلُّ حيٍّ سالك السبيل

قال : فأعادها مرّتين أو ثلاثاً حتى فهمتها ، فعرفت ما أراد ، فخنقني عبرتي ، فرددت دمعِي ولزمت السكون ، فعلمتُ أنّ البلاء قد نزل ؛ فأما عمتي فإنها سمعت ما سمعت ، وهي امرأة ، وفي النساء الرقة والجزع ، فلم تملك نفسها أن وثبتت تجرّ ثوبها ، وإنها لحاسرة حتى انتهت إليه ؛ فقالت : واثكلاه ! ليت الموت أعدمني الحياة ! اليوم ماتت فاطمة أُمي وعليّ أبي وحسن أخي ، يا خليفة الماضي ، وثمان الباقي ؛ قال : فنظر إليها الحسين عليه السلام فقال : يا أُخِيّة ، لا يُذهبنُ حنمك الشيطان ؛ قالت : بأبي أنت وأُمي يا أبا عبدالله ! استقتلت نفسي فداك ؛ فردّ غصّته ، وترقرقت عيناه ، وقال : لو ترك القَطَا لَيْلاً لنام ؛ قالت : يا ويْلتي ، أفتغصب نفسك اغتصاباً ، فذلك أفرح لقلبي ، وأشدُّ على نفسي ! ولطمت وجهها ، وأهوت إلى جِبيها وشقّته ، وخرّت مغشياً عليها ، فقام إليها الحسين فصبّ على وجهها الماء ، وقال لها : يا أُخِيّة ، اتقي الله وتعزّي بعزاء الله ، واعلمي أنّ أهل الأرض يموتون ، وأنّ أهل السماء لا يبقون ، وأنّ كلّ شيء هالك إلا وجه الله الذي خلق الأرض بقدرته ، ويبعث الخلق فيعودون ، وهو فرد وحده ، أبي خيرٌ مني ، وأُمي خيرٌ مني ، وأخي خيرٌ مني ، ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة ؛ قال : فعزاها بهذا ونحوه ، وقال لها : يا أُخِيّة ، إني أقسم عليك فأبري قسَمي ، لا تشقي عليّ جيباً ، ولا تخمِشي عليّ وجهاً ، ولا تدعي عليّ بالبُور والتُّبور إذا أنا

هلكت ؛ قال : ثم جاء بها حتى أجلسها عندي ، وخرج إلى أصحابه فأمرهم أن يقربوا بعض بيوتهم من بعض ، وأن يدخلوا الأطناب بعضها في بعض ، وأن يكونوا هم بين البيوت إلا الوجه الذي يأتيهم منه عدوهم .

قال أبو مخنف : عن عبدالله بن عاصم ، عن الضحّاك بن عبدالله المَشْرَقِيّ ، قال : فلما أُمسى حسين وأصحابه قاموا الليل كله يصلّون ويستغفرون ، ويدعون ويتضرعون ؛ قال : فتمرّ بنا خيلٌ لهم تحرسنا ، وإنّ حسينا ليقرأ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيُزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ * مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴿١﴾ . فسمِعها رجل من تلك الخيل التي كانت تحرسنا ، فقال : نحن وربّ الكعبة الطيّبون ، مُّيزنا منكم . قال : فعرفته فقلت لبُرَيْر بن حُصَيْر : تدري من هذا؟ قال : لا ؛ قلت هذا أبو حَرْب السَّيِّعِيّ عبدالله بن شهر - وكان مضحاكاً بطّالاً ، وكان شريفاً شجاعاً فاتكاً ، وكان سعيد بن قيس ربما حبسه في جناية - فقال له بُرَيْر بن حُصَيْر : يا فاسق ، أنت يجعلك الله في الطيّبين ! فقال له : من أنت؟ قال : أنا بُرَيْر بن حُصَيْر ؛ قال : إنا لله ! عزّ عليّ ! هلك والله ، هلك والله يا بُرَيْر ! قال : يا أبا حرب ، هل لك أن تتوب إلى الله من ذنوبك العظام ! فوالله إنا لنحن الطيّبون ، ولكنكم لأنتم الخبيثون ؛ قال : وأنا على ذلك من الشاهدين ، قلت : ويحك ! أفلا ينفعك معرفتك ! قال : جعلت فداك ! فمن ينادم يزيد بن عذرة العَنَزِيّ من عَنَز بن وائل ! قال : ها هو ذا معي ؛ قال : قبح الله رأيك على كلّ حال ! أنت سفيه . قال : ثم انصرف عنا ، وكان الذي يحرسنا بالليل في الخيل عَزرة بن قيس الأحمسيّ ، وكان على الخيل ؛ قال : فلما صلّى عمر بن سعد الغداة يوم السبت - وقد بلغنا أيضاً أنه كان يوم الجمعة ، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء - خرج فيمن معه من الناس .

قال : وعبّا الحسين أصحابه ، وصلّى بهم صلاة الغداة ، وكان معه اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً ، فجعل زهير بن القين في ميمنة أصحابه ، وحبيب بن مظاهر في ميسرة أصحابه ، وأعطى رايته العباس بن علي أخاه ، وجعلوا البيوت في ظهورهم ، وأمر بحطب وقصب كان من وراء البيوت يُحرق بالنار مخافة أن يأتوهم من ورائهم . قال : وكان الحسين عليه السلام أتى بقصب وحطب إلى مكان من ورائهم منخفض كأنه ساقية ، فحفروه في ساعة من الليل ، فجعلوه كالخندق ، ثم ألْقَوْا فيه ذلك الحطب والقصب ، وقالوا : إذا عدّوا علينا فقاتلونا ألقينا فيه النار كيلاً نُؤْتَى من ورائنا ، وقاتلنا القوم من وجه واحد . ففعلوا ، وكان لهم نافعاً .

قال أبو مخنف : حدّثني فضيل بن خديج الكندي ، عن محمد بن بشر ، عن عمرو الحضرمي ، قال : لما خرج عمر بن سعد بالناس كان على رُبْع أهل المدينة يومئذ عبدالله بن زهير بن سليم الأزديّ ، وعلى رُبْع مَدْحِج وأسد عبدالرحمن بن أبي سبرة الجعفي ، وعلى رُبْع ربيعة وكندة قيس بن الأشعث بن قيس ، وعلى رُبْع تميم وهمدان الحرّ بن يزيد الرياحيّ ؛ فشهد هؤلاء كلّهم مَقْتَلَ الحسين إلّا الحرّ بن يزيد فإنه عدل إلى الحسين ، وقُتِل معه . وجعل عمر على ميمنته عمرو بن الحجاج الزبيديّ ، وعلى ميسرته شمر بن ذي الجوشن بن شُرْحَبِيل بن الأعور بن عمر بن معاوية - وهو الضُّباب بن كلاب - وعلى الخيل عَزرة بن قيس الأحمسيّ ، وعلى الرّجال شَبَث بن ربيع الرياحيّ ، وأعطى الراية ذُوَيْدًا مولاة .

قال أبو مخنف: حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ مَرْةَ الْجَمَلِيِّ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ الْحَنْفِيِّ، عَنْ غَلَامٍ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ مَوْلَايَ، فَلَمَّا حَضَرَ النَّاسَ وَأَقْبَلُوا إِلَى الْحُسَيْنِ، أَمَرَ الْحُسَيْنُ بِفُسْطَاطٍ فُضِرِبَ، ثُمَّ أَمَرَ بِمَسْكٍ فَمِيتَ فِي جَفْنَةٍ عَظِيمَةٍ أَوْ صَحْفَةٍ؛ قَالَ: ثُمَّ دَخَلَ الْحُسَيْنُ ذَلِكَ الْفُسْطَاطَ فَتَطَلَّى بِالنُّورَةِ. قَالَ: وَمَوْلَايَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ وَبُرَيْرُ بْنُ حُضَيْرٍ الْهَمْدَانِيُّ عَلَى بَابِ الْفُسْطَاطِ تَحْتَكَ مَنَاكِبَهُمَا، فَازْدَحَمَا إِلَيْهَا يَطْلِي عَلَى أَثَرِهِ، فَجَعَلَ بُرَيْرٌ يَهَازِلُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: دَعْنَا، فَوَاللَّهِ مَا هَذِهِ بِسَاعَةٍ بَاطِلٍ، فَقَالَ لَهُ بُرَيْرٌ: وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمَ قَوْمِي أَنِّي مَا أَحْبَبْتُ الْبَاطِلَ شَأْبًا وَلَا كَهْلًا، وَلَكِنْ وَاللَّهِ إِنِّي لَمُسْتَبْشِرٌ بِمَا نَحْنُ لَا قُوْنَ، وَاللَّهُ إِنَّ نَنَا وَبَيْنَ الْحُورِ الْعَيْنِ إِلَّا أَنْ يَمِيلَ هَؤُلَاءُ عَلَيْنَا بِأَسْيَافِهِمْ، وَلَوَدِدْتُ أَنَّهُمْ قَدْ مَالُوا عَلَيْنَا بِأَسْيَافِهِمْ. قَالَ: فَلَمَّا فَرَّغَ الْحُسَيْنُ دَخَلْنَا فَاطِلِينَا؛ قَالَ: ثُمَّ إِنَّ الْحُسَيْنَ رَكِبَ دَابَّتَهُ وَدَعَا بِمَصْحَفٍ فَوَضَعَهُ أَمَامَهُ؛ قَالَ: فَاقْتَتَلَ أَصْحَابُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ قِتَالًا شَدِيدًا، فَلَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ قَدْ صَرِعُوا أَفْلَتَ وَتَرَكْتُهُمْ.

قال أبو مخنف، عن بعض أصحابه، عن أبي خالد الكاهلي، قال: لما صَبَّحتُ الْخَيْلَ الْحُسَيْنِ رَفَعَ الْحُسَيْنُ يَدَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ تُقِي فِي كُلِّ كَرْبٍ، وَرَجَائِي فِي كُلِّ شِدَّةٍ، وَأَنْتَ لِي فِي كُلِّ أَمْرٍ نَزَلَ بِي ثِقَةٌ وَعُدَّةٌ، كَمْ مِنْ هَمٍّ يَضْعُفُ فِيهِ الْفُؤَادُ، وَتَقَلُّ فِيهِ الْحِيلَةُ، وَيَخْذُلُ فِيهِ الصَّدِيقُ، وَيَشْتَمُ فِيهِ الْعَدُوُّ، أَنْزَلْتَهُ بِكَ، وَشَكَوْتَهُ إِلَيْكَ، رَغْبَةً مِنِّي إِلَيْكَ عَمَّنْ سِوَاكَ، فَفَرَّجْتَهُ وَكَشَفْتَهُ، فَأَنْتَ وَلِيَّ كُلِّ نِعْمَةٍ، وَصَاحِبُ كُلِّ حَسَنَةٍ، وَمُنْتَهَى كُلِّ رَغْبَةٍ.

قال أبو مخنف: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَاصِمٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي الضَّحَّاكُ الْمِشْرَقِيُّ، قَالَ: لَمَّا أَقْبَلُوا نَحُونَا فَنَظَرُوا إِلَى النَّارِ تَضْطَرِمُ فِي الْحَطَبِ وَالْقَصَبِ الَّذِي كُنَّا أَهْلُبْنَا فِيهِ النَّارَ مِنْ وَرَائِنَا لَثَلًا يَأْتُونَا مِنْ خَلْفِنَا، إِذْ أَقْبَلَ إِلَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلٌ يَرْكُضُ عَلَى فَرَسٍ كَامِلِ الْأَدَاةِ، فَلَمْ يَكَلِّمْهُنَا حَتَّى مَرَّ عَلَيَّ أَبْيَاتِنَا، فَنَظَرَ إِلَى أَبْيَاتِنَا فَإِذَا هُوَ لَا يَرَى إِلَّا حَطَبًا تَلْتَهَبُ النَّارُ فِيهِ، فَارْجَعَ رَاجِعًا، فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا حُسَيْنَ، اسْتَعْجَلْتَ النَّارَ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ! فَقَالَ الْحُسَيْنُ: مَنْ هَذَا؟ كَانَ شِمْرُ بْنُ ذِي الْجَوْشَنِ! فَقَالُوا: نَعَمْ، أَصْلَحَكَ اللَّهُ! هُوَ هُوَ، فَقَالَ: يَا بَنَ رَاعِيَةِ الْمُعْزَى، أَنْتَ أَوَّلِي بِهَا صِلِيًّا؛ فَقَالَ لَهُ مُسْلِمُ بْنُ عَوْسَجَةَ: يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ، جُعِلَتْ فِدَاكَ! أَلَا أَرَمِيهِ بِسَهْمٍ! فَإِنَّهُ قَدْ أَمَكَّنِي، وَلَيْسَ يَسْقُطُ [مِنْ] سَهْمٍ، فَالْفَاسِقُ مِنْ أَعْظَمِ الْجَبَّارِينَ؛ فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ: لَا تَرَمِهِ، فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَبْدَاهُمْ، وَكَانَ مَعَ الْحُسَيْنِ فَرَسٌ لَهُ يُدْعَى لَاحِقًا حَمَلٌ عَلَيْهِ ابْنُهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ؛ قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ الْقَوْمُ عَادَ بِرَاحِلَتِهِ فَرَكَبَهَا، ثُمَّ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ دُعَاءً يُسْمِعُ جُلُ النَّاسِ: أَيُّهَا النَّاسُ؛ اسْمَعُوا قَوْلِي، وَلَا تُعْجِلُونِي حَتَّى أُعْظِمَ بِمَا لَحِقَ لَكُمْ عَلِيٌّ، وَحَتَّى أَعْتَذَرَ إِلَيْكُمْ مِنْ مَقْدَمِي عَلَيْكُمْ، فَإِنْ قَبِلْتُمْ عَذْرِي، وَصَدَّقْتُمْ قَوْلِي، وَأَعْطَيْتُمُونِي النِّصْفَ، كُنْتُمْ بِذَلِكَ أَسْعَدَ، وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ عَلِيٌّ سَبِيلَ، وَإِنْ لَمْ تَقْبَلُوا مِنِّي الْعَذْرَ، وَلَمْ تُعْطُوا النِّصْفَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُون﴾^(١)؛ ﴿إِنْ وَلِيَّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾^(٢). قَالَ: فَلَمَّا سَمِعَ أَخَوَاتِهِ كَلَامَهُ هَذَا صَحْنٌ وَبِكَيْنٌ، وَبَكَى بِنَاتُهُ فَارْتَفَعَتْ أَصَوَاتُهُنَّ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِنَّ أَخَاهُ الْعَبَّاسُ بَلَّ عَلِيٍّ وَعَلِيًّا ابْنَهُ، وَقَالَ لَهَا: أَسْكِنْتَاهُنَّ، فَلَعَمْرِي لِيَكْثُرَنَّ بَكَاءُهُنَّ؛ قَالَ: فَلَمَّا ذَهَبَا لِيُسْكِنَاهُنَّ قَالَ: لَا يَتَّعِدُ ابْنُ

(١) سورة يونس: ٨١.

(٢) سورة الأعراف: ١٩٦.

عباس ؛ قال : فظننا أنه إنما قالها حين سُمِعَ بكَاؤُهم ، لأنه قد كان نهاه أن يخرج بهن ، فلما سكتن حميد الله وأنثى عليه ، وذكر الله بما هو أهله ، وصلى على محمد صلى الله عليه وعلى ملائكته وأنبيائه ، فذكر من ذلك ما الله أعلم وما لا يُحصى ذكره . قال : فوالله ما سمعتُ متكلماً قطُّ قبله ولا بعده أبلغ في منطق منه ؛ ثم قال : أما بعد ، فانسوني فانظروا مَنْ أنا ، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتِبُوها ، فانظروا ؛ هل يحلُّ لكم قتلي وانتهاكُ حرمتي ؟ ألسْتُ ابنُ بنتِ نبيِّكم ﷺ وابنَ وصيِّه وابنِ عمِّه ، وأوَّلُ المؤمنين بالله والمصدِّق لرسوله بما جاء به من عند ربِّه ! أوليس حمزة سيد الشهداء عمُّ أبي ! أوليس جعفر الشهيد الطيّار ذو الجناحين عمِّي ! أولم يبلغكم قول مستفيض فيكم : إنّ رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال لي ولأخي : « هذان سيِّدا شبابِ أهل الجنة » ! فإن صدَّقتموني بما أقول - وهو الحق - فوالله ما تعمَّد كذباً مذ علمتُ أنّ الله يمقت عليه أهله ، ويضرب به من اختلقه ، وإن كذبتُموني فإن فيكم مَنْ إن سألتُموه عن ذلك أخبركم ؛ سلُّوا جابرَ بنَ عبد الله الأنصاري ، أو أبا سعيد الخُدري ، أو سهل بن سعد الساعدي ، أو زيد بن أرقم ، أو أنس بن مالك ؛ يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله ﷺ لي ولأخي . أفما في هذا حاجز لكم عن سَفْكِ دمي ! فقال له شِمْر بن ذِي الجوشن : هو يعبد الله على حَرْفٍ إن كان يدري ما يقول ! فقال له حبيب بن مُظاهر : والله إني لأراك تعبُد الله على سبعين حرفاً ، وأنا أشهد أنك صادق ما تدري ما يقول ؛ قد طبع الله على قلبك ؛ ثم قال لهم الحسين : فإن كنتم في شك من هذا القول أفتشكون أثراً ما أتى ابنُ بنتِ نبيِّكم ! فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيٍّ غيري منكم ولا من غيركم ، أنا ابن بنتِ نبيِّكم خاصّة . أخبروني ، أطلبوني بقتيل منكم قتلته ، أو مالٍ لكم استهلكته ، أو بَقِصاص من جراحة ؟ قال : فأخذوا لا يكلمونه ؛ قال : فنادى : يا شُبَّانُ بنِ رُبَيْعٍ ، ويا حُجَّارَ بنَ أبجر ، ويا قيس بن الأشعث ، ويا يزيد بن الحارث ، ألم تكتبوا إليّ أن قد أَيْبَعَتِ الثمار ، واخضرَّ الجَناب ، وطمَّتِ الجمام ، وإنما تقدّم على جند لك مُجَنَّد ، فأقبل ! قالوا له : لم نفعل ؛ فقال : سبحان الله ! بلى والله ، لقد فعلتم ؛ ثم قال : أيها الناس ، إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مَأْمَنِي من الأرض ؛ قال : فقال له قيس بن الأشعث : أولاً تنزل على حكم بني عمِّك ، فإنهم لن يُروك إلّا ما تحب ، ولن يصل إليك منهم مكروه ؟ فقال الحسين : أنت أخو أخيك ، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عَقِيل ؛ لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاءً الدليل ، ولا أقرُّ إقرارَ العبيد . عباد الله ، إني عُدْتُ برَبِّي وربِّكم أن ترجُّون أعوذ بربي وربكم من كلِّ متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ؛ قال : ثم إنه أناخ راحلته ، وأمر عقبة بن سِمْعان فَعَقَلَهَا ، وأقبلوا يزحفون نحوه .

قال أبو مخنف : فحدَّثني علي بن حنظلة بن أسعد الشامي ، عن رجل من قومه شهد مقتل الحسين حين قُتِلَ يقال له كثير بن عبد الله الشعبي ؛ قال : لما زحفنا قِبَلَ الحسين خرج إلينا زهير بن قَيْنَ على فرس له ذَنُوب ، شاكٍ في السلاح ، فقال : يا أَهْلَ الكوفة ، نذاري لكم من عذاب الله نذارا إنّ حقاً على المسلم نصيحةٌ أخيه المسلم ، ونحن حتى الآن إخوة ، وعلى دين واحد ومِلَّة واحدة ، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، وأنتم للنصيحة منا أَهْلٌ ، فإذا وقع السيف انقطعت العِصمة ، وكنا أمةً وأنتم أمة ، إنّ الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد ﷺ لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، إنا ندعوكم إلى نصرهم وخِذلان الطاغية عُبيدِ الله بن زياد ، فإنكم لا تدركون منها إلّا بسوء عُمَرُ سلطانها كُلُّه ، ليسملاً أعينكم ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ، ويمثلان بكم ، ويرفعانكم على جُدُوع النخل ، ويقتلان أمثالكم وقراءكم ، أمثال حُجر بن عدي وأصحابه ، وهناء بن عروة

وأشباهه ؛ قال : فسبوه ، وأثنوا على عُبيد الله بن زياد ، ودَعَوْا له ، وقالوا : والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه ، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عُبيد الله سِلْمًا ؛ فقال لهم : عباد الله ، إنَّ ولد فاطمة رضوان الله عليها أحقُّ بالودِّ والنصر من ابن سُمَيَّة ، فإنَّ لم تنصروهم فأعيدكم بالله أن تقتلوهم ؛ فخلَّوا بين الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية ، فلعمري إنَّ يزيد ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ؛ قال : فرماه شمر بن ذي الجوشن بسهم وقال : اسكتْ أسكتْ الله نأمتك ، أبرمتنا بكثرة كلامك ! فقال له زهير : يابن البَّوال على عَقِبَيْهِ ، ما إِيَّاكَ أخاطب ، إنما أنت هيمه ، والله ما أظنك تُحكِم من كتاب الله آيتين ، فأبشِرْ بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم ؛ فقال له شمر : إنَّ الله قاتلك وصاحبك عن ساعة ؛ قال : أقبالوت تُخَوِّفني ! فوالله للموت معه أحبُّ إليَّ من الخلد معكم ؛ قال : ثمَّ أقبل على الناس رافعاً صوته ، فقال : عباد الله ، لا يغرنكم من دينكم هذا الجُلُف الجافي وأشباهه ، فوالله لا تنال شفاعَةُ محمد ﷺ قوماً هَرَّاقوا دماء ذُرَيْتِه وأهل بيته ، وقتلوا من نصرهم وذَبَّ عن حريمهم ؛ قال : فناده رجل فقال له : إنَّ أبا عبد الله يقول لك : أقبِل ، فلعمري لئن كان مؤمناً آل فرعون نصح لقومه وأبلَّغ في الدعاء ، لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصيح والإبلاغ !

قال أبو مخنف : عن أبي جناب الكلبي ، عن عدي بن حرملة ، قال : ثمَّ إنَّ الحُرَّ بن يزيد لما زحف عمر ابن سعد قال له : أصلحك الله ! مُقاتِل أنت هذا الرجل ؟ قال : إي والله قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي ؛ قال : أفما لكم في واحدة من الخصال التي عرض عليكم رضا ؟ قال عمر بن سعد : أما والله لو كان الأمر لي لفعلت ، ولكنَّ أميرك قد أبى ذلك ؛ قال : فأقبل حتى وقف من الناس موقفاً ، ومعه رجل من قومه يقال له قرّة بن قيس ، فقال : يا قرّة ، هل سقيتَ فرسك اليوم ؟ قال : لا ؛ قال : إنما تريد أن تسقيه ؟ قال : فظننت والله أنه يريد أن يتنحى فلا يشهد القتال ، وكره أن أراه حين يصنع ذلك ، فيخاف أن أرفعه عليه ؛ فقلت له : لم أسقه ، وأنا منطلق فساقه ؛ قال : فاعتزلت ذلك المكان الذي كان فيه ؛ قال : فوالله لو أنه أطلعني على الذي يريد لخرجت معه إلى الحسين ؛ قال : فأخذ يدنو من حُسين قليلاً قليلاً ، فقال له رجل من قومه يقال له المهاجر بن أوس : ما تريد يابن يزيد ؟ أتريد أن تحمل ؟ فسكت وأخذته مثل العُرَّاء ، فقال له يابن يزيد ، والله إنَّ أمرك لمريب ، والله ما رأيْتُ منك في موقف قطُّ مثل شيء أراه الآن ، ولوقيل لي : مَنْ أشجع أهل الكوفة رجالاً ما عدوتك ، فما هذا الذي أرى منك ! قال : إني والله أخير نفسي بين الجنة والنار ، والله لا أختار على الجنة شيئاً ولو قُطعتُ وحُرِّقت ؛ ثم ضرب فرسه فليح بحسين عليه السلام ، فقال له : جعلني الله فداك يابن رسول الله ! أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع ، وسأيرُتك في الطريق ، وجعجت بك في هذا المكان ، والله الذي لا إله إلا هو ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضت عليهم أبداً ، ولا يبلغون منك هذه المنزلة . فقلت في نفسي : لا أبالي أن أطيع القوم في بعض أمرهم ، ولا يرون أني خرجت من طاعتهم . وأما هم فسيقبلون من حسين هذه الخصال التي يعرض عليهم ، والله لو ظننت أنهم لا يقبلونها منك ما ركبتها منك ؛ وإني قد جئتُك تائباً بما كان مني إلى ربي ، ومواسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك ، أفترى ذلك لي توبة ؟ قال : نعم ، يتوب الله عليك ، ويغفر لك ، ما اسمك ؟ قال : أنا الحُرَّ بن يزيد ؛ قال : أنت الحُرَّ كما سمَّتك أمك ، أنت الحُرَّ إن شاء الله في الدنيا والآخرة ؛ إنزل ؛ قال : أنا لك فارساً خير مني رجلاً ، أقاتلهم على فرسي ساعة ، وإلى النزول ما يصير آخر أمري . قال الحسين : فاصنع يرحمك الله ما بدا لك . فاستقدم أمام أصحابه ثم قال : أيها القوم ، ألا تقبلون من حسين خصلة من هذه الخصال التي عرض عليكم فيعافاكم الله من حربه

وقتاله؟ قالوا: هذا الأمير عمر بن سعد فكلمه ، فكلمه بمثل ما كلمه به قبل ، وبمثل ما كلمه به أصحابه ؛ قال عمر : قد حرصتُ ، لو وجدتُ إلى ذلك سبيلاً فعلت ، فقال : يا أهل الكوفة ، لأُكم الهبل والعُبر إذْ دعوتوه حتى إذا أتاكم أسلمتُموه ، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لتقتلوه ، أمسكتُم بنفسه ، وأخذتم بكُظمه ، وأحطتم به من كل جانب ، فمنعتموه التوجه في بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته ، وأصبح في أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعا ، ولا يدفع ضرراً ، وحلائمه ونساءه وأصبيته وأصحابه عن ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهودي والمجوسي والنصراني ، وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ، وها هم أولاء قد صرعهم العطش ، بشما خلقتُم محمداً في ذريته ! لا سقاكم الله يومَ الظل إن لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم هذه . فحملت عليه رجالة لهم ترميه بالنبل ؛ فأقبل حتى وقف أمام الحسين .

قال أبو مخنف ، عن الصَّعْب بن زهير وسليمان بن أبي راشد ، عن حميد بن مسلم ، قال : وزحف عمر ابن سعد نحوهم ، ثم نادى : يا ذؤيد ، أذن رايك ؛ قال : فادناها ثم وضع سهمه في كبد قوسه ، ثم رمى فقال : أشهدوا أي أول من رمى .

قال أبو مخنف : حدثني أبو جناب ، قال : كان منّا رجل يدعى عبد الله بن عمير ، من بني عُليم ، كان قد نزل الكوفة ، واتخذ عند بئر الجعد من همدان داراً ، وكانت معه امرأة له من النمر بن قاسط يقال لها أم وهب بنت عبد ، فرأى القوم بالنخيلة يُعرضون لُسرّحوا إلى الحسين ، قال : فسأل عنهم ، فقيل له : يسرّحون إلى حسين بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ؛ فقال : والله لقد كنتُ على جهاد أهل الشرك حريضاً ، وإنّي لأرجو ألا يكون جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيهم أسيراً ثواباً عند الله من ثوابه إياي في جهاد المشركين ؛ فدخل إلى امرأته فأخبرها بما سمع ، وأعلمها بما يريد ، فقالت : أصبت أصاب الله بك أرشد أمورك ، افعل وأخرجني معك ؛ قال : فخرج بها ليلاً حتى أتى حسيناً ، فأقام معه ، فلما دنا منه عمر بن سعد ورمى بسهم ارتقى الناس ، فلما ارتموا خرج يسار مولى زياد بن أبي سفيان وسالم مولى عبيد الله بن زياد ، فقالا : من يبارز؟ ليخرج إلينا بعضكم ، قال : فوثب حبيب بن مظاهر وبرير بن خضير ، فقال لهما حسين : اجلسا ؛ فقام عبد الله بن عمير الكلبي فقال : أبا عبد الله ، رحمك الله ! ائذن لي فلاخرج إليهما ؛ فرأى حسين رجلاً آدم طويلاً شديداً الساعدين بعيداً ما بين المنكبين ، فقال حسين : إني لأحسبه للأقران قتلاً ، اخرج إن شئت ؛ قال : فخرج إليهما ، فقالا له : من أنت؟ فانتسب لهما ، فقالا : لا نعرفك ، ليخرج إلينا زهير بن القين أو حبيب بن مظاهر أو برير بن خضير ، ويسار مُستنبلُ أمّ سالم ، فقال له الكلبي : يابن الزانية ، وبك رغبة عن مبارزة أحد من الناس ، وما يخرج إليك أحد من الناس إلا وهو خير منك ؛ ثم شدّ عليه فضربه بسيفه حتى برد ، فإنه لمشتغل به يضربه بسيفه إذ شدّ عليه سالم ، فصاح به : قد رهقك العبد ؛ قال : فلم يأبه له حتى غشيته فبدره الضربة ، فأتقاه الكلبي بيده اليسرى ، فأطار أصابع كفّه اليسرى ، ثم مال عليه الكلبي فضربه حتى قتله ، وأقبل الكلبي مرتجذاً وهو يقول ، وقد قتلها جميعاً :

إِنْ تُنْكَرُونِي فَأَنَا ابْنُ كَلْبٍ حَسْبِي بَيْتِي فِي عُلَيْمٍ حَسْبِي
إِنِّي امْرُؤٌ ذُو مِرَّةٍ وَعَصَبٍ وَلَسْتُ بِالْخَوَارِ عِنْدَ النَّكْبِ
إِنِّي زَعِيمٌ لِكَ أُمٍّ وَهَبٍ بِالطَّعْنِ فِيهِمْ مُقْدِمًا وَالضَّرْبِ
ضَرَبِ غُلَامٍ مُؤْمِنٍ بِالرَّبِّ

فأخذت أم وهب امرأته عموداً ، ثم أقبلت نحو زوجها تقول له : فذاك أبي وأمي ! قاتِلْ دون الطيبين ذرية محمد ، فأقبل إليها يردّها نحو النساء فأخذت تجاذب ثوبه ، ثم قالت : إني لن أدعك دون أن أموت معك ، فنادها حسين ، فقال : جُزيتم من أهل بيت خيراً ، ارجعي رحمك الله إلى النساء فاجلسي معهنّ ؛ فإنه ليس على النساء قتال ؛ فانصرفت إليهنّ . قال : وحمل عمرو بن الحجاج وهو على ميمنة الناس في الميمنة ، فلما أن دنا من حسين جثوا له على الركب ، وأشرعوا الرماح نحوهم ، فلم تقدم خيلهم على الرماح ، فذهبت الخيل لترجع ، فرشقوهم بالنبل ، فصرعوا منهم رجالاً ، وجرحوا منهم آخرين .

قال أبو مخنف : فحدثني حسين أبو جعفر ، قال : ثم إن رجلاً من بني تميم - يقال له عبدالله بن حوزة - جاء حتى وقف أمام الحسين ، فقال : يا حسين ، يا حسين ! فقال حسين : ما تشاء ؟ قال : أبشر بالنار ؛ قال : كلا ، إني أقدم على ربّ رحيم ، وشفيع مطاع ، من هذا ؟ قال له أصحابه : هذا ابن حوزة ؛ قال : ربّ حُرّه إلى النار ؛ قال : فاضطرب به فرسه في جذول فوق فيه ، وتعلقت رجله بالركاب ، ووقع رأسه في الأرض ، ونفّر الفرس ، فأخذ يمرّ به فيضرب برأسه كل حجر وكل شجرة حتى مات .

قال أبو مخنف : وأما سويد بن حية ؛ فزعم لي أن عبدالله بن حوزة حين وقع فرسه بقيت رجله اليسرى في الركاب ، وارتفعت اليمنى فطارت ، وعدّا به فرسه يضرب رأسه كل حجر وأصل شجرة حتى مات .

قال أبو مخنف : عن عطاء بن السائب ، عن عبد الجبار بن وائل الحضرمي ، عن أخيه مسروق بن وائل ، قال : كنت في أوائل الخيل من سار إلى الحسين ، فقلت : أكون في أوائلها لعلّي أصيب رأس الحسين ، فأصيب به منزلة عند عبيد الله بن زياد ؛ قال : فلما انتهينا إلى حسين تقدّم رجل من القوم يقال له ابن حوزة ، فقال : أفياكم حسين ؟ قال : فسكت حسين ؛ فقالها ثانية ، فأسكت حتى إذا كانت الثالثة قال : قولوا له : نعم ، هذا حسين ، فما حاجتك ؟ قال : يا حسين ، أبشر بالنار ؛ قال : كذبت ، بل أقدم على ربّ غفور وشفيع مطاع ، فمن أنت ؟ قال : ابن حوزة ؛ قال : فرفع الحسين يديه حتى رأينا بياض إبطيه من فوق الثياب ثم قال : اللهم حُرّه إلى النار ؛ قال : فغضب ابن حوزة ، فذهب ليُقمح إليه الفرس وبينه وبينه نهر ؛ قال : فعَلقت قدمه بالركاب ، وجالت به الفرس فسقط عنها ؛ قال : فانقطعت قدمه وساقه وفخذه ، وبقي جانبه الآخر متعلقاً بالركاب . قال : فرجع مسروق وترك الخيل من ورائه ؛ قال : فسألته ، فقال : لقد رأيت من أهل هذا البيت شيئاً لا أقاتلهم أبداً ؛ قال : ونشب القتال .

قال أبو مخنف : وحدثني يوسف بن يزيد ، عن عفيف بن زهير بن أبي الأخنس - وكان قد شهد مقتل الحسين - قال : وخرج يزيد بن معقل من بني عميرة بن ربيعة وهو حليف لبني سليمة من عبد القيس ، فقال : يا بُرير بن حُضير ، كيف ترى الله صنع بك ! قال : صنع الله والله بي خيراً ، وصنع الله بك شراً ؛ قال : كذبت ، وقبل اليوم ما كنت كذاباً ، هل تذكر وأنا أماشيكي في بني لوزان وأنت تقول : إن عثمان بن عفان كان على نفسه مسرفاً ، وإن معاوية بن أبي سفيان ضالّ مضلّ ، وإن إمام الهدى والحق علي بن أبي طالب ؟ فقال له برير : أشهد أن هذا رأيي وقولي ؛ فقال له يزيد بن معقل : فلما أشهد أنك من الضالين ؛ فقال له بُرير بن حُضير : هل لك فلاّ باهلك ، ولنذعُ الله أن يلعن الكاذب وأن يقتل المبطل ، ثم اخرج فلاّ بارزك ؛ قال : فخرجاً فرفعا أيديهما إلى الله يدعوانه أن يلعن الكاذب ، وأن يقتل المحقّ المبطل ؛ ثم برز كل واحد منهما

لصاحبه ، فاختلفا ضربتين ، فَضْرَبَ يَزِيدُ بْنُ مَعْقِلٍ بُرَيْرَ بْنَ حُضَيْرٍ ضَرْبَةً خَفِيفَةً لَمْ تَضَرْهُ شَيْئاً ، وَضَرْبَهُ بَرِيرِ بْنِ حُضَيْرٍ ضَرْبَةً قَدَّتْ الْمَغْفَرُ ، وَبَلَغَتْ الدَّمَاعُ ، فَخَرَّ كَأَنَّمَا هَوَى مِنْ حَالِقٍ ، وَإِنْ سَيْفُ بْنُ حُضَيْرٍ لَثَابَتْ فِي رَأْسِهِ ، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يُتَضَنُّضُهُ مِنْ رَأْسِهِ ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ رَضِيَّ بْنُ مُنْقِذِ الْعَبْدِيِّ فَاعْتَنَقَ بُرَيْراً ، فَاعْتَرَكَا سَاعَةً . ثُمَّ إِنَّ بُرَيْراً قَعَدَ عَلَى صَدْرِهِ فَقَالَ رَضِيٌّ : أَيْنَ أَهْلُ الْمِصْبَاعِ وَالِدَفَاعِ؟ قَالَ : فَذَهَبَ كَعَبِ بْنِ جَابِرِ بْنِ عَمْرِو الْأَزْدِيِّ لِيَحْمَلَ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ : إِنَّ هَذَا بُرَيْرِ بْنِ حُضَيْرِ الْقَارِيءِ الَّذِي كَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي الْمَسْجِدِ ؛ فَحَمَلَ عَلَيْهِ بِالرَّمْحِ حَتَّى وَضَعَهُ فِي ظَهْرِهِ ، فَلَمَّا وَجَدَ مَسَّ الرَّمْحِ بَرَكَ عَلَيْهِ فَعَضَّ بِوَجْهِهِ ، وَقَطَعَ طَرَفَ أَنْفِهِ ، فَطَعَنَهُ كَعَبُ بْنُ جَابِرٍ حَتَّى أَلْقَاهُ عَنْهُ ، وَقَدْ غَيَّبَ السِّنَانُ فِي ظَهْرِهِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ يَضْرِبُهُ بِسَيْفِهِ حَتَّى قَتَلَهُ ؛ قَالَ عَفِيفٌ : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الْعَبْدِيِّ الصَّرِيعِ قَامَ يَنْفُضُ التَّرَابَ عَنْ قَبَائِهِ ، وَيَقُولُ : أَنْعَمْتَ عَلَيَّ يَا أَخَا الْأَزْدِ نِعْمَةً لَنْ أَنْسَاهَا أَبَداً ؛ قَالَ : فَقُلْتُ : أَنْتَ رَأَيْتَ هَذَا؟ قَالَ : نَعَمْ ، رَأَيْتُ عَيْنِي وَسَمِعْتُ أُذُنِي .

فلما رجع كعب بن جابر قالت له امرأته ، أو أخته النوار بنت جابر : أعنتَ على ابن فاطمة ، وقتلتَ سيِّدَ القراء ؛ لقد أتيت عظيمًا من الأمر ، والله لا أكلمك من رأسي كلمة أبداً .

وقال كعب بن جابر :

سَلِي تُخْبِرِي عَنِّي وَأَنْتِ ذَمِيمَةٌ	غَدَاةَ حُسَيْنٍ وَالرَّمَاخُ شَوَارِعُ
أَلَمْ آتِ أَقْصَى مَا كَرِهْتَ وَلَمْ يُخْلَ	عَلَيَّ غَدَاةَ الرَّوْعِ مَا أَنَا صَانِعُ
مَعِي يَزْنِي لَمْ تَخُنْهُ كَعُوبُهُ	وَأَبْيَضُ مَخْشُوبُ الْغَرَارِينَ قَاطِعُ
فَجَرَّدْتُهُ فِي عُصْبَةٍ لَيْسَ دِينُهُمْ	بِدِينِي وَإِنِّي بَابِنِ حَرْبٍ لِقَانِعُ
وَلَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُمْ فِي زَمَانِهِمْ	وَلَا قَبْلَهُمْ فِي النَّاسِ إِذْ أَنَا يَافِعُ
أَشَدُّ قِرَاعاً بِالسَّيْفِ لَدَى الْوَعَى	أَلَا كُلُّ مَنْ يَحْمِي الدَّمَارَ مُقَارِعُ
وَقَدْ صَبَرُوا لِلطَّعْنِ وَالضَّرْبِ حُسْرًا	وَقَدْ نَازَلُوا لَوْ أَنَّ ذَلِكَ نَافِعُ
فَأَبْلَغُ عَبِيدِ اللَّهِ إِمَّا لِقَيْتِهِ	بَأَنِّي مُطِيعٌ لِلْخَلِيفَةِ سَامِعُ
قَتَلْتُ بُرَيْراً ثُمَّ حَمَلْتُ نِعْمَةً	أَبَا مُنْقِذٍ لِمَا دَعَا: مَنْ يُمَاضِعُ؟

قال أبو مخنف : حدَّثني عبد الرحمن بن جندب ، قال : سمعته في إمارة مُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ ؛ وَهُوَ يَقُولُ : يَا رَبِّ إِنَّا قَدْ وَفَّيْنَا ، فَلَا تَجْعَلْنَا يَا رَبِّ كَمَنْ قَدْ غَدَرَ ؛ فَقَالَ لَهُ أَبِي : صَدَقَ ، وَلَقَدْ وَفَّى وَكَرُمَ ، وَكَسَبَتْ لِنَفْسِكَ شَرًّا ؛ قَالَ : كَلَّا ، إِنِّي لَمْ أَكْسِبْ لِنَفْسِي شَرًّا ، وَلَكِنِّي كَسَبْتُ لَهَا خَيْرًا .

قال : وَزَعَمُوا أَنَّ رَضِيَّ بْنَ مُنْقِذِ الْعَبْدِيِّ رَدَّ بَعْدُ عَلَى كَعَبِ بْنِ جَابِرٍ جَوَابَ قَوْلِهِ ، فَقَالَ :

لَوْ شَاءَ رَبِّي مَا شَهِدْتُ قِتَالَهُمْ	وَلَا جَعَلَ النُّعْمَاءَ عِنْدِي ابْنُ جَابِرٍ
لَقَدْ كَانَ ذَاكَ الْيَوْمَ عَارًا وَسُبَّةً	يُعِيرُهُ الْأَبْنَاءُ بَعْدَ الْمَعَاشِرِ
فِيَا لَيْتَ أَنِّي كُنْتُ مِنْ قَبْلِ قَتْلِهِ	وَيَوْمَ حُسَيْنٍ كُنْتُ فِي رِمْسٍ قَابِرٍ

قال : وَخَرَجَ عَمْرُو بْنُ قَرْظَةَ الْأَنْصَارِيِّ يُقَاتِلُ دُونَ حُسَيْنٍ وَهُوَ يَقُولُ :

قَدْ عَلِمْتُ كَتِيبَةَ الْأَنْصَارِ أَنِّي سَاحِجِي حَوْزَةَ الدَّمَارِ

صَرَبَ غُلَامٌ غَيْرِنُكْسٍ شَارِي دُونِ حَسَنِ مُهَجِّي وَدَارِي

قال أبو مخنف: عن ثابت بن هبيرة، فقتل عمرو بن قرظة بن كعب، وكان مع الحسين، وكان علي أخوه مع عمر بن سعد، فنادى علي بن قريظة: يا حسين، يا كذاب ابن الكذاب، أضللت أخي وغررته حتى قتلته. قال: إن الله لم يضل أخاك، ولكنه هذى أخاك وأضلك؛ قال: قتلني الله إن لم أقتلك أو أموت دونك؛ فحمل عليه، فاعترضه نافع بن هلال المرادي، فطعنه فصرعه، فحملة أصحابه فاستنقذوه، فدوي بعد فبراً.

قال أبو مخنف: حدثني النضر بن صالح أبو زهير العبيسي أن الحر بن يزيد لما لحق بحسين قال رجل من بني تميم من بني شقرة وهم بنو الحارث بن تميم، يقال له يزيد بن سفيان: أما والله لو أني رأيت الحر بن يزيد حين خرج لأتبعته السنان؛ قال: فبينما الناس يتجاولون ويقتتلون والحر بن يزيد يحمل على القوم مقدماً ويتمثل قول عنترة:

مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِشُغْرَةٍ نَحْرِهِ وَلَبَانِهِ حَتَّى تَسْرِبَلَ بِالْدُمِ

قال: وإن فرسه لمضروب على أذنيه وحاجبه، وإن دماه لتسيل، فقال الحصين بن تميم - وكان على شرطة عبيد الله، فبعثه إلى الحسين، وكان مع عمر بن سعد، فولاه عمر مع الشرطة المجففة - ليزيد بن سفيان: هذا الحر بن يزيد الذي كنت تتمنى؛ قال: نعم فخرج إليه فقال له: هل لك يا حر بن يزيد في المبارزة؟ قال: نعم قد شئت، فبرز له؛ قال: فأنا سمعت الحصين بن تميم يقول: والله لأبرز له؛ فكأنما كانت نفسه في يده، فما لبثه الحر حين خرج إليه أن قتله.

قال هشام بن محمد، عن أبي مخنف، قال: حدثني يحيى بن هانيء بن عروة، أن نافع بن هلال كان يقاتل يومئذ وهو يقول: «أنا الجحلي، أنا على دين علي».

قال: فخرج إليه رجل يقال له مزاحم بن حريث، فقال: أنا على دين عثمان، فقال له: أنت على دين شيطان، ثم حمل عليه فقتله، فصاح عمرو بن الحجاج بالناس: يا حمقى، أتدرون من تقتلون؟ فرسان المصر؛ قوماً مستميتين، لا يبرزن لهم منكم أحد، فإنهم قليل، وقلما يبقون، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم؛ فقال عمر بن سعد: صدقت، الرأي ما رأيته، وأرسل إلى الناس يعزم عليهم ألا يبارزوا رجلاً منكم رجلاً منهم.

قال أبو مخنف: حدثني الحسين بن عقبة المرادي، قال: الزبيدي: إنه سمع عمرو بن الحجاج حين دنا من أصحاب الحسين يقول: يا أهل الكوفة، الزموا طاعتكم وجماعتكم، ولا ترتابوا في قتل من مرق من الدين، وخالف الإمام، فقال له الحسين: يا عمرو بن الحجاج، أعلي تحرض الناس؟ نحن مرقنا وأنتم ثبتتم عليه؟ أما والله لتعلمن لو قد قبضت أرواحكم، وميت على أعمالكم، أيما مرق من الدين، ومن هو أولى بصلي النار؟ قال: ثم إن عمرو بن الحجاج حمل على الحسين في ميمنة عمر بن سعد من نحو الفرات، فاضطربوا ساعة؛ فصريع مسلم بن عوسجة الأسدي أول أصحاب الحسين، ثم انصرف عمرو بن الحجاج وأصحابه، وارتفعت الغبرة، فإذا هم به صريع، فمشى إليه الحسين فإذا به رمق، فقال: رحمك ربك يا مسلم بن

عوسجة ، ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ (١). ودنا منه حبيب بن مظاهر فقال : عز علي مصرعك يا مسلم ، أبشر بالجنة ، فقال له مسلم قولاً ضعيفاً : بشرك الله بخير ! فقال له حبيب : لولا أني أعلم أني في أثرك لاحق بك من ساعتي هذه لأحببت أن توصيني بكل ما أهمك حتى أحفظك في كل ذلك بما أنت أهل له في القرابة والدين ؛ قال : بل أنا أوصيك بهذا رحمك الله - وأهوى بيده إلى الحسين - أن تموت دونه ؛ قال : أفعل ورب الكعبة ؛ قال : فما كان بأسرع من أن مات في أيديهم ، وصاحت جارية له فقالت : يا بن عوسجة ! يا سيده ! فتنادى أصحاب عمرو بن الحجاج : قتلنا مسلم بن عوسجة الأسدي ؛ فقال شبت لبعض من حوله من أصحابه : ثكلتكم أمهاتكم ! إنما تقتلون أنفسكم بأيديكم ، وتذللون أنفسكم لغيركم ، تفرحون أن يقتل مثل مسلم بن عوسجة ! أما والذي أسلمت له لرُب موقف له قد رأيته في المسلمين كريم ! لقد رأيته يوم سلق أذربيجان قتل ستة من المشركين قبل تمام خيول المسلمين ، أفيقتل منكم مثله وتفرحون !

قال : وكان الذي قتل مسلم بن عوسجة مسلم بن عبدالله الضبائي وعبدالرحمن بن أبي خشكاره البجلي . قال : وحمل شمر بن ذي الجوشن في الميسرة على أهل الميسرة فثبوا له ، فطاعنوه وأصحابه ، وحمل على حسين وأصحابه من كل جانب ، فقتل الكلبي وقد قتل رجلين بعد الرجلين الأولين ، وقاتل قتلاً شديداً ، فحمل عليه هانيء بن ثبيت الحضرمي وبكير بن حي التيمي . من تيم الله بن ثعلبة ، فقتلاه ، وكان القتيل الثاني من أصحاب الحسين ، وقاتلهم أصحاب الحسين قتلاً شديداً ، وأخذت خيلهم تحمل وإنما هم اثنان وثلاثون فارساً ، وأخذت لا تحمل على جانب من خيل أهل الكوفة إلا كشفت ، فلما رأى ذلك عزرة بن قيس - وهو على خيل أهل الكوفة - أن خيله تنكشف من كل جانب ، بعث إلى عمر بن سعد عبدالرحمن بن حصن ، فقال : أما ترى ما تلقى خيلي مذ اليوم من هذه العدة اليسيرة ! ابعث إليهم الرجال والرماة ؛ فقال لشبت بن ربعي : ألا تقدم إليهم ! فقال : سبحان الله ! أتعبد إلى شيخ مضر وأهل مصر عامة تبعته في الرماة ! لم تجد من تندب لهذا ويجزيء عنك غيري ! قال : وما زالوا يرون من شبت الكراهة لقتاله . قال : وقال أبو زهير العسبي : فانا سمعته في إمارة مصعب يقول : لا يعطي الله أهل هذا المصر خيراً أبداً ، ولا يسددهم لرشد ، ألا تعجبون أنا قاتلنا مع علي بن أبي طالب ومع ابنه من بعده آل أبي سفيان خمس سنين ، ثم عدونا على ابنه وهو خير أهل الأرض نقاتله مع آل معاوية وابن سمية الزانية ! ضلال يا لك من ضلال !

قال : ودعا عمر بن سعد الحصين بن تميم فبعث معه المجففة وخمسمائة من المرامية ، فأقبلوا حتى إذا دنوا من الحسين وأصحابه رشقوهم بالنبل ، فلم يلبثوا أن عقروا خيولهم ، وصاروا رجالة كلهم .

قال أبو مخنف : حدثني ثمر بن وعله أن أيوب بن مشرح الخيواني كان يقول : أنا والله عقرت بالحرب بن يزيد فرسه ، حشائته سهماً ، فلما لبث أن أرعد الفرس واضطرب وكبا ، فوثب عنه الحر كأنه ليث والسيوف في يده وهو يقول :

إِنْ تَعْقِرُوا بِي فَأَنَا ابْنُ الْحُرِّ أَشْجَعُ مِنْ ذِي لَبَدٍ هَزْبَر

قال : فما رأيت أحداً قط يفري فرسه ؛ قال : فقال له أشياخ من الحي : أنت قتلتته ؟ قال : لا والله ما أنا قتلتته ، ولكن قتله غيري ، وما أحب أني قتلتته ، فقال له أبو الوداك : ولم ؟ قال : إنه كان زعموا من الصالحين ،

فوالله لئن كان ذلك إثماً لأن ألقى الله بإثم الجراحة والموقف أحب إلي من أن ألقاه بإثم قتل أحد منهم ؛ فقال له أبو الوداك : ما أراك إلا ستلقى الله بإثم قتلهم أجمعين ؛ أرايت لو أنك رميت ذا فعقرت ذا ، ورميت آخر ، ووقفت موقفاً ، وكررت عليهم ، وحرّضت أصحابك ، وكثرت أصحابك ، وحمل عليك فكرهت أن تفر ، وفعل آخر من أصحابك كفعلك ، وآخر وآخر ، كان هذا وأصحابه يقتلون ! أنتم شركاء كلكم في دمائهم ؛ فقال له : يا أبا الوداك ، إنك لتقنطننا من رحمة الله ، إن كنت وليّ حسابنا يوم القيامة فلا غفر الله لك إن غفرت لنا ! قال : هو ما أقول لك ؛ قال : وقتلوهم حتى انتصف النهار أشد قتال خلقه الله ، وأخذوا لا يقدرّون على أن يأتوهم إلا من وجه واحد لاجتماع أبنيّتهم وتقارب بعضها من بعض .

قال : فلما رأى ذلك عمر بن سعد أرسل رجالاً يقوّضونها عن أيمانهم وعن شمائلهم ليحيطوا بهم ؛ قال : فأخذ الثلاثة والأربعة من أصحاب الحسين يتخلّلون البيوت فيشدّون على الرجل وهو يقوّض وينتهب فيقتلونه ويرمونه من قريب ويعقرونه ، فأمر بها عمر بن سعد عند ذلك فقال : أحرقوها بالنار ، ولا تدخلوا بيتاً ولا تقوّضوه ، فجاؤوا بالنار ، فأخذوا يحرقون ، فقال حسين : دعوهم فليحرقوها ، فإنهم لو قد حرّقوها لم يستطيعوا أن يجوزوا إليكم منها ، وكان ذلك كذلك ، وأخذوا لا يقاتلونهم إلا من وجه واحد . قال : وخرجت امرأة الكلبي تشي إلى زوجها حتى جلست عند رأسه تمسح عنه التراب وتقول : هنيئاً لك الجنة ! فقال شمر بن ذي الجوشن لغلّام يسمّى رستم : إضرب رأسها بالعمود ؛ فضرب رأسها فشذخه ، فماتت مكانها ؛ قال : وحمل شمر بن ذي الجوشن حتى طعن فسطاط الحسين برمح ، ونادى : عليّ بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله ؛ قال : فصاح النساء وخرجن من الفسطاط ؛ قال : وصاح به الحسين : يابن ذي الجوشن ، أنت تدعو بالنار لتحرق بيتي على أهلي ، حرّقك الله بالنار !

قال أبو مخنف : حدّثني سليمان بن أبي راشد ، عن حميد بن مسلم ، قال : قلت لشمر بن ذي الجوشن : سبحان الله ! إن هذا لا يصلح لك ، أتريد أن تجمع على نفسك خصلتين : تعذب بعذاب الله ، وتقتل الولدان والنساء ! والله إن في قتلك الرجال لما ترضى به أميرك ؛ قال : فقال : من أنت ؟ قال : قلت : لا أخبرك من أنا ، قال : وخشيت والله أن لو عرفني أن يضربني عند السلطان ؛ قال : فجاءه رجل كان أطوّع له مني ؛ شبّه بن رباعي . قال : ما رأيت مثلاً أسوأ من قولك ، ولا موقفاً أقيح من موقفك ، أمرعياً للنساء صرت ! قال : فاشهد أنه استحيا ، فذهب لينصرف . وحمل عليه زهير بن القين في رجال من أصحابه عشرة ، فشذ على شمر بن ذي الجوشن وأصحابه ، فكشفهم عن البيوت حتى ارتفعوا عنها ، فصرعوا أبا عزة الضبائي فقتلوه ، فكان من أصحاب شمر ، وتعطف الناس عليهم فكثروهم ، فلا يزال الرجل من أصحاب الحسين قد قتل ، فإذا قتل منهم الرجل والرجلان تبيّن فيهم ، وأولئك كثير لا يتبيّن فيهم ما يقتل منهم ؛ قال : فلما رأى ذلك أبو ثمامة عمرو بن عبد الله الصائدي قال للحسين : يا أبا عبد الله ، نفسي لك الفداء إني أرى هؤلاء قد اقتربوا منك ، ولا والله لا تقتل حتى أقتل دونك إن شاء الله ، وأحب أن ألقى ربي وقد صليت هذه الصلاة التي دنا وقتها ؛ قال : فرفع الحسين رأسه ثم قال : ذكرت الصلاة ، جعلك الله من المصلين الذاكرين ! نعم ، هذا أول زيتها ؛ ثم قال : سلوهم أن يكفّوا عنا حتى نصلي ؛ فقال لهم الحصين بن تميم : إنها لا تقبل ؛ فقال له حبيب بن مظاهر : لا تقبل زعمت ! الصلاة من آل رسول الله ﷺ لا تقبل وتقبل منك يا حمارا ! قال : فحمل عليهم حصين بن تميم ، وخرج إليه حبيب بن مظاهر ، فضرب وجه فرسه بالسيف ، فشبّ ووقع عنه ، وحمله

أصحابه فاستنقذوه ، وأخذ حبيب يقول :

أَقْسِمُ لَوْ كُنَّا لَكُمْ أَعْدَادًا أَوْ شَطَرَكُمُ وَلَيْتُمْ أَكْتَادَا
يَا شَرَّ قَوْمٍ حَسْبًا وَآدَا

قال : وجعل يقول يومئذ :

أَنَا حَبِيبٌ وَأَبِي مُظَاهِرُ فَارِسُ هِجَاءٍ وَحَرْبُ تُسْعَرُ
أَنْتُمْ أَعْدُ عُدَّةً وَأَكْثَرُ وَنَحْنُ أَوْفَى مِنْكُمْ وَأَضْبَرُ
وَنَحْنُ أَعْلَى حُجَّةً وَأَظْهَرُ حَقًّا وَأَتَقَى مِنْكُمْ وَأَعْدَرُ

وقاتل قتالاً شديداً ، فحمل عليه رجل من بني تميم فضربه بالسيف على رأسه فقتله - وكان يقال له :
بديل بن صريم من بني عُقْفَان - وحمل عليه آخر من بني تميم فطعنه فوق ، فذهب ليقوم ، فضربه الحصين بن
تميم على رأسه بالسيف ، فوقع ، ونزل إليه التميمي فاحتز رأسه ، فقال له الحصين : إني لشريكك في قتله ،
فقال الآخر : والله ما قتله غيري ؛ فقال الحصين : أعطنيه أعلقه في عنق فرسي كيما يرى الناس ويعلموا أني
شركت في قتله ؛ ثم خذه أنت بعد فامض به إلى عبيد الله بن زياد ، فلا حاجة لي فيما تعطاه على قتلك إياه .
قال : فابى عليه ، فأصلح قومه فيما بينهما على هذا ، فدفع إليه رأس حبيب بن مظاهر ، فجال به في العسكر قد
علقه في عنق فرسه ، ثم دفعه بعد ذلك إليه ، فلما رجعوا إلى الكوفة أخذ الآخر رأس حبيب فعلقه في لبنان
فرسه ، ثم أقبل به إلى ابن زياد في القصر فبصر به ابنه القاسم بن حبيب ، وهو يومئذ قد راهق ، فأقبل مع
الفراس لا يفارقه ، كلما دخل القصر دخل معه ، وإذا خرج خرج معه ، فارتاب به ، فقال : ما لك يا بني
تتبعني ! قال : لا شيء ، قال : بلى ، يا بني أخبرني ، قال له : إن هذا الرأس الذي معك رأس أبي ، أفتعطينيه
حتى أدفنه ؟ قال : يا بني ، لا يرضى الأمير أن يدفن ، وأنا أريد أن يثيبي الأمير على قتله ثواباً حسناً ؛ قال له
الغلام : لكن الله لا يثيبك على ذلك إلا أسوأ الثواب ؛ أما والله لقد قتلت خيراً منك ، وبكى . فمكث الغلام
حتى إذا أدرك لم يكن له همّة إلا أتباع أثر قاتل أبيه ليجد منه غرة فيقتله بأبيه ، فلما كان زمان مصعب بن الزبير
وغزا مصعب باجميرا دخل عسكر مصعب فإذا قاتل أبيه في فسطاطه ، فأقبل يختلف في طلبه والتماس غرته ،
فدخل عليه وهو قاتل نصف النهار فضربه بسيفه حتى برد .

قال أبو مخنف : حدثني محمد بن قيس ، قال : لما قُتل حبيب بن مظاهر هذ ذلك حسيناً وقال عند ذلك :
أَحْتَسِبُ نَفْسِي وَهَمَّةَ أَصْحَابِي ، قال : فأخذ الحرير تجز ويقول :

أَلَيْتُ لَا أَقْتُلُ حَتَّى أَقْتُلَا وَلَنْ أَصَابَ الْيَوْمَ إِلَّا مُقْبَلَا
أَضْرِبُهُمْ بِالسِّيفِ ضَرْباً مَقْصَلَا لَا نَاكِلاً عَنْهُمْ وَلَا مُهْلَلَا

وأخذ يقول أيضاً :

أَضْرِبُ فِي أَعْرَاضِهِمْ بِالسِّيفِ عَنْ خَيْرٍ مَنْ حَلَّ مِنْى وَالْخَيْفِ

فقاتل هو وزهير بن القين قتالاً شديداً ، فكان إذا شداً أحدهما ؛ فإن استلجم شد الآخر حتى يخلصه ،
ففعلاً ذلك ساعة . ثم إن رجالة شددت على الحر بن يزيد فقتل ، وقتل أبو ثمامة الصائدي ابن عم له كان عدواً

له ، ثم صلّوا الظهر ، صلى بهم الحسين صلاة الخوف ، ثم اقتتلوا بعد الظهر فاشتد قتالهم ، ووُصل إلى الحسين ، فاستقدم الحنفى أَمَامَهُ ، فاستهدف لهم يرمونه بالنبل يميناً وشمالاً قائماً بين يديه ، فما زال يُرمى حتى سقط . وقاتل زهير بن القَيْن قتالاً شديداً ، وأخذ يقول :

أنا زُهَيْرٌ وأنا ابنُ القَيْنِ أذودُهُم بالسيفِ عن حسين
قال : وأخذ يضرب على منكب حسين ويقول :

أَقْدِمْ هُدَيْتَ هَادِياً مَهْدِياً فالسَّيْفُ تَلْقَى جَدَّكَ النَّبِيَّ
وَحَسَناً وَالْمَرْتَضَى عَلِيّاً وَذَا الْجَنَاحَيْنِ الْفَتَى الْكَمِيّاً
وَأَسَدَ اللَّهِ الشَّهِيدَ الْحَيّاً

قال : فشَدَّ عليه كثيرُ بن عبد الله الشعبي ومهاجرُ بن أَوْس فَقَتَلَاهُ ، قال : وكان نافع بن هلال الجملي قد كتب اسمه على أفواق نبله ، فجعل يرمي بها مسومةً وهو يقول : « أنا الجَمَلِي ، أنا على دينِ علي » .

فَقَتَلَ اثني عشر من أصحاب عمر بن سعد سوى مَنْ جرح ؛ قال : فضرب حتى كُسرت عضداه وأخذ أسيراً ؛ قال : فأخذه شمر بن ذي الجوشن ومعه أصحاب له يسوقون نافعاً حتى أتى به عمر بن سعد ، فقال له عمر بن سعد : وَيْحَكَ يا نافع ! ما حَمَلَكَ على ما صنعتَ بنفسك ! قال : إِنَّ رَبِّي يَعْلَمُ ما أَرَدْتُ ؛ قال : والدماء تسيل على لحيتي وهو يقول : والله لقد قتلْتُ منكم اثني عشر سِوَى مَنْ جرحْتُ ، وما ألوم نفسي على الجهد ، ولو بقيت لي عضد وساعد ما أسرتموني ؛ فقال له شمر : أَقْتُلْهُ أَصْلَحَكَ اللهُ ! قال : أنت جئتَ به ، فإن شئتَ فاقتله ، قال : فانتضى شمر سيفه ، فقال له نافع : أما والله أن لو كنت من المسلمين لَعَظُمَ عليك أن تلقى اللهَ بدمائنا ، فالحمد لله الذي جعل مناينا على يدي شِرَارِ خلقه ؛ فقتله .

قال : ثم أقبل شمر يحمل عليهم وهو يقول :

خَلُّوا عُدَاةَ اللَّهِ خَلُّوا عَنْ شَمِرٍ يَضْرِبُهُمْ بِسَيْفِهِ وَلَا يَفِرُّ
وهو لكم صابٌ وسَمٌّ وَمَقَرُّ

قال : فلما رأى أصحابُ الحسين أنهم قد كُثِرُوا ، وأنهم لا يقدرُونَ على أن يمنعوا حسيناً ولا أنفسهم ، تنافسوا في أن يُقَتِّلُوا بين يديه ، فجاءه عبد الله وعبد الرحمن ابنا عَزْرَةَ الْغِفَارِيَّانِ ، فقالا : يا أبا عبد الله ، عليك السلام ، حَارَزْنَا الْعَدُوَّ إِلَيْكَ ، فَأَحْبَبْنَا أَنْ نُقَتَلَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، نَمْنَعُكَ وَنُدْفِعُ عَنْكَ ، قال : مرحباً بكما ! ادنُوا مِنِّي ، فدَنُوا منه ، فجعلوا يقاتلان قريباً منه ، وأحدهما يقول :

قَدْ عَلِمْتُ حَقًّا بَنُو غِفَارٍ وَحِينَئِذٍ بَعْدَ بَنِي نِزَارٍ
لَنَضْرِبَنَّ مَعْشَرَ الْفُجَّارِ بِكُلِّ عَضْبٍ صَارِمٍ بَتَّارٍ
يا قوم ذُودُوا عَنْ بَنِي الْأَحْزَارِ بِالْمَشْرِفِيِّ وَالْقَنَا الْخَطَّارِ

قال : وجاء الْفَتَيَانِ الْجَابِرِيَانِ : سيف بن الحارث بن سُرَيْع ، ومالك بن عبد بن سريع ، وهما ابنا عم ، وأخوان لأم ، فأتيا حسيناً فدَنُوا منه وهما يبكيان ، فقال : أَيُّ ابْنِي أَخِي ، ما يُبْكِيكُمَا؟ فوالله إني لأرجو أن تكونا عن ساعة قريرتي عين ، قالوا : جعلنا الله فِدَاكَ ! لا والله ما على أنفسنا نبكي ، ولكننا نبكي عليك ، نراك قد

أحيط بك ، ولا نقدر على أن نمنعك ؛ فقال : جزاكم الله يا بني أخي بوحدكما من ذلك ومواساتكما إياي بأنفسكما أحسن جزاء المتقين ؛ قال : وجاء حنظلة بن أسعد الشامي فقام بين يدي حسين ، فأخذ ينادي : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ * مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿^(١) يَا قَوْمِ تَقْتُلُوا حَسِينًا فَيُسْجَنُكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴾^(٢) فقال له حسين : يا ابن أسعد ، رحمك الله ، إنهم قد استوجبوا العذاب حين ردوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق ، ونهضوا إليك ليستبيحوك وأصحابك ، فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين ؟ قال : صدقت ، جعلت فداك ! أنت أفقه مني وأحق بذلك ، أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بإخواننا ؟ فقال : رُحْ إلى خير من الدنيا وما فيها ، وإلى مُلْكٍ لَا يَبُلُّ ، فقال : السلام عليك أبا عبدالله ، صلى الله عليك وعلى أهل بيتك ، وعرف بيننا وبينك في جنته ، فقال : آمين آمين ؛ فاستقدم فقاتل حتى قُتل .

قال : ثم استقدم الفتيان الجابريان يلتفتان إلى حسين ويقولان : السلام عليك يا ابن رسول الله ، فقال : وعليكما السلام ورحمة الله ؛ فقاتلا حتى قُتلا ؛ قال وجاء عابس بن أبي شبيب الشاكري ومعه شوذب مولى شاكرا ، فقال : يا شوذب ، ما في نفسك أن تصنع ؟ قال : ما أصنع ! أقاتل معك دون ابن بنت رسول الله ﷺ حتى أقتل ؛ قال : ذلك الظن بك ، أما لا فتقدم بين يدي أبي عبدالله حتى يحتسبك كما احتسب غيرك من أصحابه ، وحتى احتسبك أنا ، فإنه لو كان معي الساعة أحد أنا أولي به مني بك لسرني أن يتقدم بين يدي حتى احتسبه ، فإن هذا يوم ينبغي لنا أن نطلب الأجر فيه بكل ما قدرنا عليه ، فإنه لا عمل بعد اليوم ، وإنما هو الحساب ؛ قال : فتقدم فسلم على الحسين ، ثم مضى فقاتل حتى قُتل . ثم قال عابس بن أبي شبيب : يا أبا عبدالله ، أما والله ما أمتى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعز علي ولا أحب إلي منك ؛ ولو قدرت على أن أدفع عنك الضيم والقتل بشيء أعز علي من نفسي ودمي لفعلته ؛ السلام عليك يا أبا عبدالله ، أشهد الله أني على هديك وهدي أبيك ؛ ثم مشى بالسيف مصلئا نحوهم وبه ضربة على جبينه .

قال أبو مخنف : حدثني ثمر بن وُعلة ، عن رجل من بني عبد من همدان يقال له ربيع بن تميم شهد ذلك اليوم ، قال : لما رأيته مقبلاً عرفته وقد شاهدته في المغازي ، وكان أشجع الناس ، فقلت : أيها الناس ، هذا الأسد الأسود ، هذا ابن أبي شبيب ؛ لا يخرجن إليه أحد منكم ، فأخذ ينادي : ألا رجل لرجل ! فقال عمر بن سعد : إرضخوه بالحجارة ؛ قال : فرمى بالحجارة من كل جانب ، فلما رأى ذلك ألقي درعه ومغفره ، ثم شدد على الناس ، فوالله لرأيت يكرُد أكثر من مائتين من الناس ؛ ثم إنهم تعطفوا عليه من كل جانب ، فقتل ؛ قال : فرأيت رأسه في أيدي رجال ذوي عُدَّة ؛ هذا يقول : أنا قتلت ، وهذا يقول : أنا قتلت ، فأتوا عمر بن سعد فقال : لا تحتصموا ، هذا لم يقتله سينان واحد ، ففرق بينهم بهذا القول .

قال أبو مخنف : حدثني عبدالله بن عاصم ، عن الضحّاك بن عبدالله المشرقي ، قال : لما رأيت أصحاب الحسين قد أصيبوا ، وقد خلص إليه وإلى أهل بيته ، ولم يبق معه غير سويد بن عمرو بن أبي المطاع الخثعمي

(١) سورة غافر : ٣٠ - ٣٣ .

(٢) سورة طه : ٦١ .

وَبُشِيرَ بِنَ عَمْرٍو الْحَضْرَمِيَّ ، قُلْتُ لَهُ : يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ ، قَدْ عَلِمْتُ مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ؛ قُلْتُ لَكَ : أَقَاتِلْ عَنْكَ مَا رَأَيْتُ مُقَاتِلًا ، فَإِذَا لَمْ أَرِ مُقَاتِلًا فَأَنَا فِي حِلٍّ مِنَ الْإِنْصِرَافِ ، فَقُلْتُ لِي : نَعَمْ ؛ قَالَ : فَقَالَ : صَدَقْتَ ، وَكَيْفَ لَكَ بِالْإِنْجَاءِ ! إِنْ قَدَّرْتَ عَلَى ذَلِكَ فَأَنْتَ فِي حِلٍّ ؛ قَالَ : فَأَقْبَلْتُ إِلَى فَرسِي وَقَدْ كُنْتُ حَيْثُ رَأَيْتُ خَيْلَ أَصْحَابِنَا تُعَقِّرُ ، أَقْبَلْتُ بِهَا حَتَّى أَدْخَلْتُهَا فُسْطَاطًا لِأَصْحَابِنَا بَيْنَ الْبُيُوتِ ، وَأَقْبَلْتُ أَقَاتِلُ مَعَهُمْ رَاجِلًا ، فَقَتَلْتُ يَوْمَئِذٍ بَيْنَ يَدَيِ الْحُسَيْنِ رَجُلَيْنِ ، وَقَطَعْتُ يَدَ آخَرَ ، وَقَالَ لِي الْحُسَيْنُ يَوْمَئِذٍ مَرَارًا : لَا تُثْشِلْ ، لَا يَقْطَعُ اللَّهُ يَدَكَ ، جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكَ ﷺ ! فَلَمَّا أُذِّنَ لِي اسْتَخْرَجْتُ الْفَرَسَ مِنَ الْفُسْطَاطِ ، ثُمَّ اسْتَوَيْتُ عَلَى مَتْنِهَا ، ثُمَّ ضَرَبْتُهَا حَتَّى إِذَا قَامَتْ عَلَى السَّنَابِكِ رَمَيْتُ بِهَا عُرْضَ الْقَوْمِ ، فَأَفْرَجُوا لِي ، وَاتَّبَعَنِي مِنْهُمْ خَمْسَةُ عَشَرَ رَجُلًا حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى شُقْفِيَّةٍ ؛ قَرْيَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ شَاطِئِ الْفُرَاتِ ، فَلَمَّا لَحَقُونِي عَطَفْتُ عَلَيْهِمْ ، فَعَرَفَنِي كَثِيرٌ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ الشَّعْبِيِّ وَأَيُّوبَ بْنِ مِشْرَحِ الْخَثَوَانِيِّ وَقَيْسَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الصَّائِدِيِّ ، فَقَالُوا : هَذَا الضُّحَّاكُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمِشْرَقِيِّ ، هَذَا ابْنُ عَمَّنَا ، نَشُدُّكَمُ اللَّهَ مَا كَفَفْتُمْ عَنْهُ ! فَقَالَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ كَانُوا مَعَهُمْ : بَلَى وَاللَّهِ لَنَجِيبَنَّ إِخْوَانَنَا وَأَهْلَ دَعْوَتِنَا إِلَى مَا أَحْبَبُوا مِنَ الْكَفِّ عَنْ صَاحِبِهِمْ ؛ قَالَ : فَلَمَّا تَابَعَ التَّمِيمِيُّونَ أَصْحَابِي كَفَّ الْآخَرُونَ ؛ قَالَ : فَجَنَانِي اللَّهُ .

قَالَ أَبُو مَخْنَفٍ : حَدَّثَنِي فَضِيلُ بْنُ خُذَيْجٍ الْكَنْدِيُّ أَنَّ يَزِيدَ بْنَ زِيَادٍ ، وَهُوَ أَبُو الشَّعْثَاءِ الْكَنْدِيُّ مِنْ بَنِي بَهْدَلَةَ جَنَّا عَلَى رَكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيِ الْحُسَيْنِ ، فَرَمَى بِمِائَةِ سَهْمٍ مَا سَقَطَ مِنْهَا خَمْسَةُ أَسْهُمٍ ، وَكَانَ رَامِيًا ، فَكَانَ كُلَّمَا رَمَى قَالَ : أَنَا ابْنُ بَهْدَلَةَ ، فَرَسَانِ الْعَرَجَلَةَ ؛ وَيَقُولُ حُسَيْنٌ : اللَّهُمَّ سَدِّدْ رَمِيَّتَهُ ، وَاجْعَلْ ثَوَابَهُ الْجَنَّةَ ؛ فَلَمَّا رَمَى بِهَا قَامَ فَقَالَ : مَا سَقَطَ مِنْهَا إِلَّا خَمْسَةُ أَسْهُمٍ ، وَلَقَدْ تَبَيَّنَ لِي أَنِّي قَدْ قَتَلْتُ خَمْسَةَ نَفَرٍ ، وَكَانَ فِي أَوَّلِ مَنْ قُتِلَ ، وَكَانَ رَجُلُهُ يَوْمَئِذٍ :

أَنَا يَزِيدُ وَأَبِي مُهَاصِرُ أَشْجَعُ مِنْ لَيْثٍ بِغِيلٍ خَادِرُ
يَا رَبِّ إِنِّي لِلْحُسَيْنِ نَاصِرُ وَلَا بِنَ سَعْدٍ تَارِكُ وَهَاجِرُ

وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ زِيَادٍ مِنَ الْمُهَاصِرِ مَنْ خَرَجَ مَعَ عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ إِلَى الْحُسَيْنِ ، فَلَمَّا رَدُّوا الشُّرُوطَ عَلَى الْحُسَيْنِ مَالَ إِلَيْهِ فَقَاتَلَ مَعَهُ حَتَّى قُتِلَ ، فَأَمَّا الصِّدَاوِيُّ عُمَرُ بْنُ خَالِدٍ ، وَجَابِرُ بْنُ الْحَارِثِ السَّلْمَانِيُّ ، وَسَعْدُ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ خَالِدٍ ، وَمَجْمَعُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْعَائِذِيُّ ، فَأَنْهَمُ قَاتَلُوا فِي أَوَّلِ الْقِتَالِ ؛ فَشَدُّوا مُقَدِّمِينَ بِأَسْيَافِهِمْ عَلَى النَّاسِ ، فَلَمَّا وَغَلُوا عَطَفَ عَلَيْهِمُ النَّاسُ فَأَخَذُوا يَحْزُونُهُمْ ، وَقَطَعُوهُمْ مِنْ أَصْحَابِهِمْ غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَحَمَلَ عَلَيْهِمُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَلِيٍّ فَاسْتَنْقَذَهُمْ ، فَجَاوَزُوا قَدْ جُرِّحُوا ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُمْ عَدُوَّهُمْ شَدُّوا بِأَسْيَافِهِمْ فَقَاتَلُوا فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ حَتَّى قُتِلُوا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ .

قَالَ أَبُو مَخْنَفٍ : حَدَّثَنِي زَهْرَبْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَهْرَبِ الْخَثْعَمِيِّ ، قَالَ : كَانَ آخِرَ مَنْ بَقِيَ مَعَ الْحُسَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ سُؤَيْدُ بْنُ عَمْرٍو بْنُ أَبِي الْمَطَاعِ الْخَثْعَمِيِّ ، قَالَ : وَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ مِنْ بَنِي أَبِي طَالِبٍ يَوْمَئِذٍ عَلِيُّ الْأَكْبَرُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَأُمُّهُ لَيْلَى ابْنَةُ أَبِي مُرَّةَ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودِ الثَّقَفِيِّ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَخَذَ يَشُدُّ عَلَى النَّاسِ وَهُوَ يَقُولُ :

أَنَا عَلِيُّ بْنُ حُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ نَحْنُ وَرَبُّ الْبَيْتِ أَوْلَى بِالنُّبِيِّ
تَاللَّهِ لَا يَحْكُمُ فِينَا ابْنُ الدُّعْيِ

قال : ففعل ذلك مراراً ، فَبَصَرَهُ مُرَّةً بن منقذ بن النعمان العبدِيّ ثُمَّ اللَّيْثِيّ ، فقال : عَلِيٌّ أَثَامُ الْعَرَبِ إِنَّ مَرْبِيَّ يَفْعَلُ مِثْلَ مَا كَانَ يَفْعَلُ إِنَّ لَمْ أَثْكِلْهُ أَبَاهُ ؛ فَمُرِّشِدْ عَلَى النَّاسِ بِسَيْفِهِ ، فاعترضه مُرَّةً بن منقذ ، فطعنه فَصُرْعَ ، واحتلَّه الناس ففقطعوه بأسيا فمهم .

قال أبو مخنف : حدَّثني سليمان بن أبي راشد ، عن حميد بن مسلم الأزديّ ، قال : سمعُ أذني يومئذ من الحسين يقول : قتل الله قوماً قتلوك يا بنيّ ! ما أجراًهم على الرحمن ، وعلى انتهاك حرمة الرسول ! على الدنيا بعدك العَفَاء . قال : وكأني أنظر إلى امرأة خرجت مسرعةً كأنها الشمس الطالعة تنادي : يا أخِيَاهُ ! ويا بن أخِيَاهُ ! قال : فسألتُ عليها ، فقيل : هذه زينب ابنة فاطمة ابنة رسول الله ﷺ ، فجاءت حتى أكَبَّتْ عليه ، فجاءها الحسين فأخذ بيدها فردّها إلى الفسطاط ، وأقبل الحسين إلى ابنه ، وأقبل فتياه إليه ، فقال : إحمِلوا أخاكم ، فحملوه مِنْ مَصْرَعِهِ حتى وضعوه بين يديّ الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه . قال : ثُمَّ إِنَّ عَمْرُو بن صُبَيْح الصَّدَائِيَّ رَمَى عَبْدَ اللَّهِ بن مسلم بن عَقِيلٍ بسهم فوضع كَفَّهُ على جبهته ، فأخذ لا يستطيع أن يحرِّكَ كَفَّهُ ، ثُمَّ انْتَحَى لَهُ بِسَهْمٍ آخَرَ ففلق قلبه ، فاعتورهم الناس من كلّ جانب ، فحمل عبدالله بن قطبة الطائيّ ثُمَّ النَّبْهَانِيّ على عون بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب فقتله ، وحمل عامر بن نَهْشَلُ التيميّ على محمد بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب فقتله ؛ قال : وشدّ عثمان بن خالد بن أسير الجُهْنِيّ ، وبشر بن سوط الهمدانيّ ثُمَّ الْقَابِضِيّ على عبدالرحمن بن عَقِيلٍ بن أبي طالب فقتلاه ، ورمى عبدالله بن عزرة الخثعميّ جعفر بن عَقِيلٍ بن أبي طالب فقتله .

قال أبو مخنف : حدَّثني سليمان بن أبي راشد ، عن حميد بن مسلم ، قال : خرج إلينا غلام كأن وجهه شقّة قمر ، في يده السيف ، عليه قميص وإزار ونعلان قد انقطع شِسْعُ أحدهما ، ما أنسى أنها اليسرى ، فقال لي عمرو بن سعد بن نُفَيْلٍ الأزديّ : والله لأشدنّ عليه ؛ فقلت له : سبحان الله ! وما تريد إلى ذلك ! يكفيك قتل هؤلاء الذين تراهم قد احتلّوهم ؛ قال : فقال : والله لأشدنّ عليه ؛ فشدّ عليه فما ولى حتى ضرب رأسه بالسيف ، فوقع الغلام لوجهه ، فقال : يا عمّاه ! قال : فجلى الحسين كما يجليّ الصقر ، ثم شدّ شدّةً لِيثٍ غُضْبٍ ، فضرب عمرًا بالسيف ، فاتقاه بالساعد ، فأطنها من لَدُنِ المِرْفَقِ ، فصاح ، ثُمَّ تَنَحَّى عنه ، وحملت خيلٌ لأهل الكوفة ليستنقذوا عمرًا من حسين ، فاستقبلت عمرًا بصدورها ، فحرّكت حوافرها وجالت الخيل بفرسانها عليه ، فوطئته حتى مات ، وانجلت الغبرة ، فإذا أنا بالحسين قائمٌ على رأس الغلام ، والغلام يَفْحَصُ برجليه ؛ وحسين يقول : بُعْدًا لِقَوْمٍ قَتَلُوا ؛ ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدُّك ! ثُمَّ قَالَ : عَزَّ وَاللَّهِ عَلَى عَمِّكَ أَنْ تَدْعُوهُ فَلَا يُجِيبُكَ ، أَوْ يُجِيبُكَ ثُمَّ لَا يَنْفَعُكَ ! صَوْتُ وَاللَّهِ كَثْرَ وَاتِرُهُ ، وَقَلَّ نَاصِرُهُ . ثُمَّ احتمله فكأنني أنظر إلى رجليّ الغلام يخطّان في الأرض ، وقد وضع حسين صدره على صدره ؛ قال : فقلتُ في نفسي : ما يصنع به ! فجاء به حتى ألقاه مع ابنه علي بن الحسين وقتلته حوله من أهل بيته ، فسألتُ عن الغلام ، فقيل : هو القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب . قال : ومكث الحسين طويلاً من النهار كلّما انتهى إليه رجل من الناس انصرف عنه ، وكره أن يتولّى قتله وعظيم إثمه عليه ؛ قال : وإن رجلاً من كِنْدَةَ يقال له مالك بن النُسير من بني بَدَاء ، أتاه فضرّبه على رأسه بالسيف ، وعليه بُرُوسٌ له ، ففقطع البرنس ، وأصاب السيف رأسه ، فأدمى رأسه ، فامتلاّ البرنس دماً ، فقال له الحسين : لا أكلت بها ولا شربت ، وحشرك الله مع الظالمين ! قال : فألقى ذلك البرنس ، ثُمَّ دَعَا بِقَلَنْسَوَةٍ فلبسها ، واعتَمَّ ، وقد أعيا وبَلَدٌ ، وجاء

الكندي حتى أخذ البرنس - وكان من خز - فلما قدم به بعد ذلك على امرأته أم عبدالله ابنة الحر أخت حسين بن الحر البدي ، أقبل يغسل البرنس من الدم ، فقالت له امرأته : أسلب ابن بنت رسول الله ﷺ تدخل بيتي ! أخرجه عني ؛ فذكر أصحابه أنه لم يزل فقيراً بشر حتى مات . قال : ولما قعد الحسين أتى بصبي له فأجلسه في حجره زعموا أنه عبدالله بن الحسين .

قال أبو مخنف : قال عتبة بن بشير الأسدي : قال لي أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين : إن لنا فيكم يا بني أسد دمًا ؛ قال : قلت : فما ذنبي أنا في ذلك رحمك الله يا أبا جعفر ! وما ذلك ؟ قال : أتى الحسين بصبي له ، فهو في حجره ، إذ رماه أحدكم يا بني أسد بسهم فذبّحه ، فتلقى الحسين دمه ، فلما ملأ كفيه صبه في الأرض ثم قال : رب إنك حبست عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير ، وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين ؛ قال . ورمى عبدالله بن عقبة الغنوي أبا بكر بن الحسين بن علي بسهم فقتله ، فلذلك يقول الشاعر ؛ وهو ابن أبي عقبة :

وَعِنْدَ غَنِيٍّ قَطْرَةٌ مِنْ دِمَائِنَا وَفِي أَسَدٍ أُخْرَى تَعْدُ وَتُذَكَّرُ

قال : وزعموا أن العباس بن علي قال لإخوته من أمه : عبدالله ، وجعفر وعثمان : يا بني أمي ، تقدّموا حتى أرتكم ، فإنه لا ولد لكم ، ففعلوا ، فقتلوا . وشدّ هانيء بن ثبيت الحضرمي على عبدالله بن علي بن أبي طالب فقتله ، ثم شدّ على جعفر بن علي فقتله وجاء برأسه ، ورمى خولي بن يزيد الأصبحي عثمان بن علي بن أبي طالب بسهم ، ثم شدّ عليه رجل من بني أبان بن دارم فقتله ، وجاء برأسه ، ورمى رجل من بني أبان بن دارم محمد بن علي بن أبي طالب فقتله وجاء برأسه

قال هشام : حدّثني أبو الهذيل - رجل من السكون - عن هانيء بن ثبيت الحضرمي ، قال : رأيته جالساً في مجلس الحضرميين في زمان خالد بن عبدالله وهو شيخ كبير ؛ قال : فسمعتُه وهو يقول : كنت ممن شهد قتل الحسين ، قال : فوالله إني لواقف عاشر عشرة ليس منّا رجل إلا على فرس ، وقد جالت الخيل وتصعصعت ، إذ خرج غلام من آل الحسين وهو ممسك بعود من تلك الأبنية ، عليه إزار وقميص ، وهو مدعور ، يتلفت يمينا وشمالاً ، فكأنني أنظر إلى دُرّتين في أذنيه تدبذبان كلما التفت ، إذ أقبل رجل يركض ، حتى إذا دنا منه مال عن فرسه ، ثم اقتصد الغلام فقطعه بالسيف .

قال هشام : قال السكوني : هانيء بن ثبيت هو صاحب الغلام ، فلما عتب عليه كفى عن نفسه .

قال هشام : حدّثني عمرو بن شمر ، عن جابر الجعفي ، قال : عطش الحسين حتى اشتدّ عليه العطش ، فدنا ليشرب من الماء ، فرماه حصين بن تميم بسهم ، فوقع في فمه ، فجعل يتلقى الدم من فمه ، ويرمي به إلى السماء ، ثم حمد الله وأثنى عليه ، ثم جمع يديه فقال : اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تدّر على الأرض منهم أحداً .

قال هشام ، عن أبيه محمد بن السائب ، عن القاسم بن الأصبغ بن نباتة ، قال : حدّثني من شهد الحسين في عسكره أن حسينا حين غلب على عسكره ركب المسناة يريد الفرات ، قال : فقال رجل من بني أبان بن دارم : ويلكم ! حولوا بينه وبين الماء لا تتأم إليه شيعة ؛ قال : وضرب فرسه ، وأتبعه الناس حتى حالوا بينه

وبين الفرات ، فقال الحسين : اللهم أظميه ، قال : وبتنزع الأباني بسهم ، فأنبته في حنك الحسين ، قال : فانتزع الحسين السهم ، ثم بسط كفيه فامتلاّت دماً ، ثم قال الحسين : اللهم إني أشكو إليك ما يُفعل بابن بنت نبيك ؛ قال : فوالله إن مكث الرجل إلا يسيراً حتى صبّ الله عليه الظمأ ، فجعل لا يروى .

قال القاسم بن الأصبغ : لقد رأيته فيمن يروح عنه والماء يبرد له فيه السكر وعساس فيها اللبن ، وقلال فيها الماء ، وإنه ليقول : ويلكم ! اسقوني قتلي الظمأ ، فيعطى القلة أو العسّ كان مروياً أهل البيت فيشربه ، فإذا نزعه من فيه اضطجع الهنيئة ثم يقول : ويلكم ! اسقوني قتلي الظمأ ؛ قال : فوالله ما لبث إلا يسيراً حتى انقذ بطنه انقداد بطن البعير .

قال أبو مخنف في حديثه : ثم إن شمر بن ذي الجوشن أقبل في نفر نحو من عشرة من رجالة أهل الكوفة قبل منزل الحسين الذي فيه ثقله وعبأه ، فمشى نحوه ، فحالوا بينه وبين رجليه ، فقال الحسين : ويلكم ! إن لم يكن لكم دين ، وكنتم لا تخافون يوم المعاد ، فكونوا في أمر دنياكم أحراراً ذوي أحساب ، امنعوا رجلي وأهلي من طغامكم وجهالكم ؛ فقال ابن ذي الجوشن : ذلك لك يا بن فاطمة ؛ قال : وأقدم عليه بالرجالة ، منهم أبو الجنوب - واسمه عبدالرحمن الجعفي - والقشعم بن عمرو بن يزيد الجعفي ، وصالح بن وهب اليزني ، وسنان بن أنس النخعي ، وخولي بن يزيد الأصبحي ، فجعل شمر بن ذي الجوشن يحرضهم ، فمر بأبي الجنوب وهو شاك في السلاح فقال له : أقدم عليه ؛ قال : وما يمنعك أن تقدم عليه أنت ! فقال له شمر : ألي تقول ذا ! قال : وأنت لي تقول ذا ! فاستبأ ، فقال له أبو الجنوب - وكان شجاعاً - والله لهممت أن أخضخص السنان في عينك ؛ قال : فانصرف عنه شمر وقال : والله لئن قدرت على أن أضرك لأضرك قال : ثم إن شمر بن ذي الجوشن أقبل في الرجالة نحو الحسين ؛ فأخذ الحسين يشد عليهم فينكشفون عنه . ثم إنهم أحاطوا به إحاطة ، وأقبل إلى الحسين غلام من أهله ، فأخذته أخته زينب ابنة علي لتحبسه ، فقال لها الحسين : احبسيه ، فإني الغلام ، وجاء يشتد إلى الحسين ، فقام إلى جنبه ؛ قال : وقد أهوى بحر بن كعب بن عبيدالله - من بني تميم الله بن ثعلبة بن عكابة - إلى الحسين بالسيف ، فقال الغلام : يا بن الحبيثة ، أقتل عمي ! فضره بالسيف ، فاتقاه الغلام بيده فأطنها إلا الجلد ، فإذا يده معلقة ، فنادى الغلام : يا أمته ! فأخذه الحسين فضمه إلى صدره ، وقال : يا بن أخي ؛ اصبر على ما نزل بك ، واحتسب في ذلك الخير ، فإن الله يلحقك ببائلك الصالحين ؛ برسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب وحمة وجعفر والحسن بن علي ؛ صلى الله عليهم أجمعين .

قال أبو مخنف : حدثني سليمان بن أبي راشد ، عن حميد بن مسلم ، قال : سمعت الحسين يومئذ وهو يقول : اللهم أمسك عنهم قطر السماء ، وامنعهم بركات الأرض ، اللهم فإن متعتهم إلى حين ففرقهم فرقا ، واجعلهم طرائق قديداً ، ولا ترض عنهم الولاة أبداً ، فإنهم دعونا لينصرونا ، فعَدُوا علينا فقتلونا . قال : وضارب الرجالة حتى انكشفوا عنه ؛ قال : ولما بقي الحسين في ثلاثة رهط أو أربعة ، دعا بسرًا ويل محقة يلمع فيها البصر ، يماني محقق ، ففرزه ونكته لكيلا يسلبه ، فقال له بعض أصحابه : لولبت تحت ثبانا ! قال : ذلك ثوب مذلة ، ولا ينبغي لي أن ألبسه ؛ قال : فلما قتل أقبل بحر بن كعب فسلبه إياه فتركه مجرداً .

قال أبو مخنف : فحدثني عمرو بن شعيب ، عن محمد بن عبدالرحمن أن يدي بحر بن كعب كانتا في الشتاء تنضجان الماء ، وفي الصيف تيبسان كأنهما عود .

قال أبو مخنف: عن الحجاج، عن عبد الله بن عمار بن عبد يغوث البارقى، وعُتِبَ على عبد الله بن عمار بعد ذلك مشهده قتل الحسين، فقال عبد الله بن عمار: إن لي عند بني هاشم ليداً، قلنا له: وما يدُك عندهم؟ قال: حملتُ على حسين بالرمح فانتهيت إليه، فوالله لو شئت لطحنته، ثم انصرفتُ عنه غير بعيد، وقلت: ما أصبَحَ بأن أتولى قتله! يقتله غيري. قال: فشَدَّ عليه رَجالةٌ ممن عن يمينه وشماله، فحمل على مَنْ عن يمينه حتى ابذعروا، وعلى مَنْ عن شماله حتى ابذعروا، وعليه قميص له من خَزٍّ وهو معتمٌ؛ قال: فوالله ما رأيتُ مكسوراً قطُّ قد قُتِلَ ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جاشاً، ولا أمضى جناناً ولا أجراً مقدماً منه، والله ما رأيتُ قبله ولا بعده مثله؛ أن كانت الرَجالة لتتكشف من عن يمينه وشماله انكشافَ المعزى إذا شَدَّ فيها الذئب؛ قال: فوالله إنه لكذلك إذ خرجتُ زينبُ ابنة فاطمة أخته، وكأني أنظر إلى قُرطها يجول بين أذنيها وعاتقها وهي تقول: ليت السماء تطابقت على الأرض! وقد دنا عمر بن سعد من حسين؛ فقالت: يا عمر بن سعد، أيقُتِلَ أ. عبد الله وأنت تنظر إليه! قال: فكأني أنظر إلى دموع عمر وهي تسيل على خديهِ ولحيته؛ قال: وصرف بوجهه عنها.

قال أبو مخنف: حدَّثني الصُّقْعُ بن زهير، عن حميد بن مسلم، قال: كانت عليه جُبة من خَزٍّ، وكان معتماً، وكان مخضوباً بالوسمة، قال: وسمعتُه يقول قبل أن يُقتَلَ، وهو يقاتل على رجله قتالَ الفارس الشجاع يتقي الرمية، ويفترض العورة، ويشدُّ على الخيل، وهو يقول: أَعلى قتلي مُحاثون! أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله الله أسخطَ عليكم لقتله مني؛ وإيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون، أما والله أن لو قد قتلتموني لقد ألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم، ثم لا يرضى لكم حتى يضاعفَ لكم العذاب الأليم. قال: ولقد مكث طويلاً من النهار ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا، ولكنهم كان يتقي بعضهم ببعض، ويحبُّ هؤلاء أن يكفِيهم هؤلاء؛ قال: فنادى شمر في الناس: ويحكم؛ ماذا تنظرون بالرجل! اقتلوه تَكِلْتُكم أمهاتكم! قال: فحمل عليه من كلِّ جانب، فضربت كفه السرى ضربة، ضربها زُرْعَةُ بن شريك التميمي، وضرب على عاتقه، ثم انصرفوا وهو ينوء ويكبو؛ قال: وحمل عليه في تلك الحال سنان بن أنس بن عمرو النخعي فطعنه بالرمح فوق، ثم قال الخولي بن يزيد الأصبحي: احتز رأسه، فأراد أن يفعل، فضعف فأرعد، فقال له سنان بن أنس: فتَّ الله عضدك، وأبان يدك! فنزل إليه فدَبَحَه واحتز رأسه، ثم دُفِعَ إلى خولي بن يزيد، وقد ضرب قبل ذلك بالسيوف.

قال أبو مخنف، عن جعفر بن محمد بن علي، قال: وُجِدَ بالحسين عليه السلام حين قُتِلَ ثلاثٌ وثلاثون طعنة وأربعٌ وثلاثون ضربة؛ قال: وجعل سنان بن أنس لا يدنو أحداً من الحسين إلا شَدَّ عليه مخافة أن يُغلب على رأسه، حتى أخذ رأس الحسين فدفعه إلى خولي؛ قال: وسلب الحسين ما كان عليه، فأخذ سراويله بحر بن كعب، وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته - وكانت من خَزٍّ، وكان يسمى بعد قيس قطيفة - وأخذ نعليه رجل من بني أود يقال له الأسود، وأخذ سيفه رجل من بني نهشل بن دارم، فوقع بعد ذلك إلى أهل حبيب بن بُذيل، قال: ومال الناس على الورس والحلل والإبل وانتهبوها؛ قال: ومال الناس على نساء الحسين ونقله ومناعه، فإن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تُغلب عليه فيذهب به منها.

قال أبو مخنف: حدَّثني زهير بن عبد الرحمن الخثعمي، أن سويد بن عمرو بن أبي المطاع كان صُرع

فأثخن ، فوقع بين القتلئ مُثَخِّنًا ، فسمعهم يقولون : قُتِلَ الحسين ، فوجد إفاقةً ، فإذا معه سكين وقد أخذ سيفه ، فقاتلهم بسكينه ساعةً ، ثم إنه قُتِلَ ، قَتَلَهُ عروة بن بطار التغلبي ، وزيد بن رقاد الجنبي ، وكان آخر قتيل .

قال أبو مخنف : حدَّثني سليمان بن أبي راشد ، عن حميد بن مسلم ، قال ، انتهيتُ إلى علي بن الحسين بن علي الأصغر وهو منبسط على فراش له ، وهو مريض ، وإذا شمر بن ذي الجوشن في رجالة معه يقولون : ألا نقتل هذا؟ قال : فقلتُ : سبحان الله ! أنقتل الصبيان ! إنما هذا صبي ، قال : فما زال ذلك دأبي أدفع عنه كلَّ مَنْ جاء حتى جاء عمر بن سعد ، فقال : ألا لا يدخلن بيتَ هؤلاء النسوة أحد ، ولا يعرضن لهذا الغلام المريض ، ومن أخذ من متاعهم شيئاً فليردّه عليهم . قال : فوالله ما ردّ أحد شيئاً ؛ قال : فقال علي بن الحسين : جُزيت من رجل خيراً ! فوالله لقد دفع الله عني بمقاتلك شراً ؛ قال : فقال الناس لسنان بن أنس : قتلتَ حسين بن علي وابن فاطمة ابنة رسول الله ﷺ ، قتلتَ أعظم العرب خطراً ؛ جاء إلى هؤلاء يريد أن يزيلهم عن ملكهم ، فأتى أمراءك فاطلب ثوابك منهم ، لو أعطوك بيوت أموالهم في قتل الحسين كان قليلاً ؛ فأقبل على فرسه ، وكان شجاعاً شاعراً ، وكانت به لوثه ، فأقبل حتى وقف على باب فسطاط عمر بن سعد ، ثم نادى بأعلى صوته :

أوقِرْ ركابي فضّةً وذَهَباً أنا قتلتُ المَلِكَ المحجَّبا
قتلتُ خيرَ الناسِ أمّا وأباً وخيرَهم إذ يُنسبون نسباً

فقال عمر بن سعد : أشهد إنك لمجنون ما صححتَ قطّ ، أدخلوه عليّ ، فلما أدخل حَدَفَهُ بالقضيب ثم قال : يا مجنون ، أنتكلم بهذا الكلام ! أما والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك ؛ قال : وأخذ عمر بن سعد عُقْبَةَ بن سِمْعَانَ - وكان مولىً للرّباب بنت امرئ القيس الكلبيّة ، وهي أمّ سَكينة بنت الحسين - فقال له : ما أنت؟ قال : أنا عبدٌ مملوك ، فخليّ سبيله ، فلم ينبُجْ منهم أحدٌ غيره ، إلّا أن المرقّع بن ثمامة الأسديّ كان قد نثر نبْلَهُ وجثا على ركبتيه ، فقاتل ، فجاءه نفر من قومه ، فقالوا له : أنت آمين ، أخرج إلينا ، فخرج إليهم ، فلما قدم بهم عمر بن سعد على ابن زياد وأخبره خبره سيّره إلى الزارة . قال : ثم إن عمر بن سعد نادى في أصحابه : مَنْ يَتَنَدَّبُ للحسين ويوطئه فرسه؟ فانتدب عشرة : منهم إسحاق بن حَيَّوة الحضرمي ، وهو الذي سلب قميصَ الحسين - فبرص بعد - وأحبش بن مرثد بن علقمة بن سلامة الحضرمي ، فأتوا فداسوا الحسين بخيولهم حتى رَضُّوا ظهره وصدره ، فبلغني أنّ أحبش بن مرثد بعد ذلك بزمان أتاه سهمٌ غَرَبَ ؛ وهو واقف في قتال ففلق قلبه ، فمات ؛ قال : فقتل من أصحاب الحسين عليه السلام اثنان وسبعون رجلاً ، ودُفِنَ الحسين وأصحابه أهلُ الغاضريّة من بني أسد بعدما قُتِلوا بيوم ، وقتل من أصحاب عمر بن سعد ثمانية وثمانون رجلاً سوى الجرّحي ، فصلّى عليهم عمر بن سعد ودَفَنهم ؛ قال : وما هو إلّا أن قُتِلَ الحسين ، فسرح برأسه من يومه ذلك مع خَوَلِيّ بن يزيد وحميد بن مسلم الأزدي إلى عُبيدالله بن زياد ، فأقبل به خَوَلِيّ فأراد القصر ، فوجد بابَ القصر مغلقاً ، فأتى منزله فوضعه تحت إِجَانَةٍ في منزله ، وله امرأتان : امرأة من بني أسد ، والأخرى من الحضرميين يقال لها النّوار ابنة مالك بن عقرب ، وكانت تلك الليلة ليلة الحضرمية .

قال هشام : فحدّثني أبي ، عن النّوار بنت مالك ، قالت : أقبل خَوَلِيّ برأس الحسين فوضعه تحت إِجَانَةٍ في

الدار ، ثم دخل البيت ، فأوى إلى فراشه ، فقلت له : ما الخبر؟ ما عندك؟ قال : جئتُك بغنى الدهر ، هذا رأس الحسين معك في الدار؛ قالت : فقلت : ويلك - جاء الناس بالذهب والفضة وجئتُ برأس ابن رسول الله ﷺ ! لا والله لا يجمع رأسي ورأسك بيتاً أبداً ؛ قالت : فقلت من فراشي ، فخرجتُ إلى الدار ، فدعا الأسدية فأدخلها إليه ، وجلستُ أنظر ، قالت : فوالله ما زلت أنظر إلى نور يسطع مثل العمود من السماء إلى الإحانة ، ورأيت طيراً بيضاً ترفرف حولها . قال : فلما أصبح غدا بالرأس إلى عبيد الله بن زياد ، وأقام عمر بن سعد يومه ذلك والغد ، ثم أمر حميد بن بكير الأحمري فأذن في الناس بالرحيل إلى الكوفة ، وحمل معه بنات الحسين وأخواته ومن كان معه من الصبيان ، وعلي بن الحسين مريض .

قال أبو مخنف : فحدثني أبو زهير العبيسي ، عن قرّة بن قيس التميمي قال : نظرت إلى تلك النسوة لما مررن بحسين وأهله وولده صحن ولطمن وجوههن . قال : فاعترضتهن على فرس ، فما رأيت منظرًا من نسوة قط كان أحسن من منظر رأيت منهن ذلك [اليوم] ، والله لمن أحسن من مهائرين . قال : فما نسيت من الأشياء لا أنس قول زينب ابنة فاطمة حين مرت بأخيها الحسين صريعاً وهي تقول : يا محمداه ، يا محمداه ! صلى عليك ملائكة السماء ، هذا الحسين بالعراء ، مرمل بالدماء ، مقطّع الأعضاء ، يا محمداه ! وبناتك سبايا ، وذريتك مقتلة ، تسفي عليها الصبا . قال : فأبكت والله كلّ عدو وصديق ؛ قال : وقطف ورؤوس الباقين ، فشرح باثنين وسبعين رأساً مع شمر بن ذي الجوشن وقيس بن الأشعث وعمرو بن الحجاج وعزرة بن قيس ، فأقبلوا حتى قدموا بها على عبيد الله بن زياد .

قال أبو مخنف : حدثني سليمان بن أبي راشد ، عن حميد بن مسلم ، قال : دعاني عمر بن سعد فسرّحني إلى أهله لأبشرهم بفتح الله عليه وبعاثيته ، فأقبلتُ حتى أتيتُ أهله ، فأعلمتهم ذلك ، ثم أقبلتُ حتى أدخل فاجد ابن زياد قد جلس للناس ، وأجد الوفد قد قدموا عليه ؛ فأدخلهم ، وأذن للناس ، فدخلتُ فيمن دخل ، فإذا رأس الحسين موضوع بين يديه ، وإذا هويكتُ بقضيب بين ثنيتيه ساعة ، فلما رآه زيد بن أرقم لا يُنجم عن نكته بالقضيب ، قال له : أعلُ هذا القضيب عن هاتين الثنيتين ، فوالذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلهما ، ثم انفضخ الشيخ يبكي ؛ فقال له ابن زياد : أبكى الله عينيك ! فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربتُ عنقك ؛ قال : فنهض فخرج ، فلما خرج سمعتُ الناس يقولون : والله لقد قال زيد بن أرقم قولاً لو سمعه ابن زياد لقتله ؛ قال : فقلت : ما قال؟ قالوا : مرّ بنا وهو يقول : ملك عبدٌ عبداً ، فاتخذهم تُلداً ؛ أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم ، قتلتم ابن فاطمة ، وأمرتم ابن مُرجانة ، فهو يقتل خياركم ، ويستعبد شراركم ، فرضيتم بالذلّ ، فبعداً لمن رضي بالذلّ ! .

قال : فلما دخل برأس حسين وصبيان وأخواته ونسائه على عبيد الله بن زياد لبست زينب ابنة فاطمة أرذل ثيابها ، وتنگرت ، وحفّت بها إماؤها ، فلما دخلتُ جلست ، فقال عبيد الله بن زياد : من هذه الجالسة؟ فلم تكلمه ؛ فقال ذلك ثلاثاً ، كلّ ذلك لا تكلمه ، فقال بعض إمائها : هذه زينب ابنة فاطمة ؛ قال : فقال لها عبيد الله : الحمد لله الذي فضحككم وقتلكم وأكذبَ أحدوئتكم ! فقالت : الحمد لله الذي أكرمنا بحمد ﷺ وطهرنا تطهيراً ، لا كما تقول أنت ، إنما يفتضح الفاسق ، ويكذب الفاجر؛ قال : فكيف رأيت صنع الله بأهل

بيتك! قالت: كُتِبَ عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاجون إليه، وتخاصمون عنده؛ قال: فغضب ابن زياد واستشاط؛ قال: فقال له عمرو بن حريث: أصلح الله الأمير! إنما هي امرأة، وهل تؤاخذ المرأة بشيء من منطقتها! إنها لا تؤاخذ بقول، ولا تُلام على خطئ، فقال لها ابن زياد: قد أسفى الله نفسي من طاغيتك، والعصاة المردة من أهل بيتك؛ قال: فبكث ثم قالت: لعمري لقد قتلت كَهْلِي، وأبرت أهلي، وقطعت فرجي، واجتثت أصلي، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت، فقال لها عبيد الله: هذه شجاعة، قد لعمري كان أبوك شاعراً شجاعاً؛ قالت: ما للمرأة والشجاعة! إن لي عن الشجاعة لشغلاً، ولكن نفني ما أقول.

قال أبو مخنف، عن المجالد بن سعيد: إن عبيد الله بن زياد لما نظر إلى علي بن الحسين قال لشرطي: انظر هل أدرك ما يدرك الرجال؟ فكشط إزاره عنه، فقال: نعم، قال انطلقوا به فاضربوا عنقه، فقال له علي: إن كان بينك وبين هؤلاء النسوة قرابة فابعث معهن رجلاً يحافظ عليهن، فقال له ابن زياد: تعال أنت، فبعته معهن.

قال أبو مخنف: وأما سليمان بن أبي راشد، فحدثني عن حميد بن مسلم قال: إني لقائم عند ابن زياد حين عرض عليه علي بن الحسين فقال له: ما اسمك؟ قال: أنا علي بن الحسين، قال: أألم يقتل الله علي بن الحسين! فسكت، فقال له ابن زياد: ما لك لا تتكلم! قال: قد كان لي أخ يقال له أيضاً علي، فقتله الناس، قال: إن الله قد قتله، قال: فسكت علي، فقال له: ما لك لا تتكلم! قال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾^(١) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٢)، قال: أنت والله منهم، ويحك! انظروا هل أدرك؟ والله إني لأحسبه رجلاً؛ قال: فكشف عنه مومي بن معاذ الأحمري، فقال: نعم قد أدرك؛ فقال: اقلته؛ فقال علي بن الحسين: من توكّل بهؤلاء النسوة؟ وتعلقت به زينب عمته فقالت: يابن زياد، حسبك منا، أما رويت من دماننا! وهل أبقيت منا أحداً! قال: فاعتنقته فقالت: أسألك بالله إن كنت مؤمناً إن قتلتك لما قتلتي معي! قال: وناداه علي فقال: يابن زياد، إن كانت بينك وبينهن قرابة فابعث معهن رجلاً تقياً يصحبهن بصحبة الإسلام؛ قال: فنظر إليها ساعة، ثم نظر إلى القوم فقال: عجباً للرحم! والله إني لأظنها ودت لو أتي قتلته أتي قتلتها معي؛ دعوا الغلام، انطلق مع نسائك.

قال حميد بن مسلم: لما دخل عبيد الله القصر ودخل الناس، نودي: الصلاة جامعة! فاجتمع الناس في المسجد الأعظم، فصعد المنبر ابن زياد فقال: الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه، وقتل الكذاب ابن الكذاب، الحسين بن علي وشيعته؛ فلم يفرغ ابن زياد من مقالته حتى وثب إليه عبد الله بن عفيف الأزدي ثم الغامدي، ثم أحد بني والبة - وكان من شيعة علي كرم الله وجهه، وكانت عينه اليسرى ذهباً يوم الجمل مع علي، فلما كان يوم صقين ضرب على رأسه ضربة، وأخرى على حاجبه، فذهبت عينه الأخرى، فكان لا يكاد يفارق المسجد الأعظم يصلي فيه إلى الليل ثم ينصرف - قال: فلما سمع مقالة ابن زياد، قال: يابن مرجانة، إن الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك والذي ولآك وأبوه؛ يابن

(١) سورة الزمر: ٤٢.

(٢) سورة آل عمران: ٤٥.

مرجانة، أتقتلون أبناء النبيين، وتكلمون بكلام الصديقين! فقال ابن زياد: عليّ به؛ قال: فوثبت عليه الجلاوزة فأخذه؛ قال: فنادى بشعار الأزد: يا مبرور - قال: وعبدالرحمن بن مخنف الأزدي جالس - فقال: ويح غيرك! أهلك نفسك، وأهلك قومك، قال: وحاضر الكوفة يومئذ من الأزد سبعمائة مقاتل؛ قال: فوثب إليه فتية من الأزد فانتزعوه فأتوا به أهله، فأرسل إليه من أتاه به، فقتله وأمر بصلبه في السبخة، فصُلب هنالك.

قال أبو مخنف: ثم إن عبيد الله بن زياد نصب رأس الحسين بالكوفة، فجعل يدار به في الكوفة، ثم دعا زحر بن قيس فسرح معه برأس الحسين ورؤوس أصحابه إلى يزيد بن معاوية، وكان مع زحر أبو بردة بن عوف الأزدي وطارق بن أبي ظبيان الأزدي، فخرجوا حتى قدموا بها الشام على يزيد بن معاوية.

قال هشام: فحدثني عبدالله بن يزيد بن رُوح بن زُنباع الجذامي، عن أبيه، عن الغاز بن ربيعة الجُرشي، من حمير، قال: والله إنا لعند يزيد بن معاوية بدمشق إذ أقبل زحر بن قيس حتى دخل على يزيد بن معاوية، فقال له يزيد: ويلك! ما وراءك؟ وما عندك؟ فقال: أبشريا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره، ورد علينا الحسين بن علي في ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته، فسرنا إليهم، فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيد الله بن زياد أو القتال؛ فاختاروا القتال على الاستسلام، فعدونا عليهم مع شروق الشمس، فأحطنا بهم من كل ناحية، حتى إذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم، يهربون إلى غير وذر، ويلوذون منا بالأكام والحفر، لوإذا كما لا ذ الحماثم من صقر، فوالله يا أمير المؤمنين ما كان إلا جزر جزور أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم، فهاتيك أجسادهم مجردة، وثيابهم مرملة، وخدودهم معقرة، تصهرهم الشمس، وتسفى عليهم الريح، رؤايرهم العقبان والرخم بقي سبب. قال: فدمعت عين يزيد، وقال: قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سمية! أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه، فرحم الله الحسين! ولم يصله بشيء.

قال: ثم إن عبيد الله أمر بنساء الحسين وصبياناه فجُهنن، وأمر بعلي بن الحسين فغل إلى عنقه، ثم سرح بهم مع مخز بن ثعلبة الباعلي، عاتدة قریش ومع شمر بن ذي الجوشن، فانطلقا بهم حتى قدموا على يزيد، فلم يكن علي بن الحسين يكلم أحدا منها في الطريق كلمة حتى بلغوا، فلما انتهوا إلى باب يزيد رفع مخز بن ثعلبة صوته، فقال: هذا مخز بن ثعلبة أتى أمير المؤمنين باللثام الفجرة، قال: فأجابه يزيد بن معاوية: ما ولدت أم مخز شر وألم.

قال أبو مخنف: حدثني الصقعب بن زهير، عن القاسم بن عبدالرحمن مولى يزيد بن معاوية، قال: لما وضعت الرؤوس بين يدي يزيد - رأس الحسين وأهل بيته وأصحابه - قال يزيد:

يُفْلَقْنَ هَاماً مِنْ رَجَالٍ أَعِزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا

أما والله يا حسين، لو أنا صاحبك ما قتلتك.

قال أبو مخنف: حدثني أبو جعفر العباسي، عن أبي عمارة العباسي، قال: فقال يحيى بن الحكم أخو مروان بن الحكم:

لَهَامٌ بَجَنِبِ الطُّفِّ أَذْنَى قَرَابَةً من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل
سُمِّيَةُ أُمْسَى نَسْلُهَا عَدَدُ الْحَصَى وبنت رسول الله ليس لها نسل

قال : فضرب يزيد بن معاوية في صدر يحيى بن الحَكَم وقال : اسكت .

قال : ولما جلس يزيد بن معاوية دعا أشراف أهل الشام فأجلسهم حوله ، ثم دعا بعلي بن الحسين وصبيان الحسين ونسائه ، فأدخلوا عليه والناس ينظرون ، فقال يزيد لعلي : يا علي ، أبوك الذي قطع رحمي ، وجعل حقي ، ونازعني سلطاني ، فصنع الله به ما قد رأيت ! قال : فقال علي : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ (١) ، فقال يزيد لابنه خالد : اردد عليه ؛ قال : فما ذرى خالد ما يرد عليه ؛ فقال له يزيد : قل : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (٢) ، ثم سكّت عنه ؛ قال : ثم دعا بالنساء والصبيان فأجلسوا بين يديه ، فرأى هيئة قبيحة ، فقال : قبح الله ابن مرجانة ! لو كانت بينه وبينكم رحم أو قرابة ما فعل هذا بكم ، ولا بعث بكم هكذا .

قال أبو مخنف ، عن الحارث بن كعب ، عن فاطمة بنت علي ، قالت : لما أجلسنا بين يدي يزيد بن معاوية رق لنا ، وأمر لنا بشيء ، وألطفنا ؛ قالت : ثم إن رجلاً من أهل الشام أحمر قام إلى يزيد فقال : يا أمير المؤمنين ، هب لي هذه - يعني ، وكنت جارية وضيئة - فأرعدت وفرقت ، وظننت أن ذلك جائز لهم ، وأخذت بشاب أخي زينب ؛ قالت : وكانت أختي زينب أكبر مني وأعقل ، وكانت تعلم أن ذلك لا يكون ، فقالت : كذبت والله ولؤمت ! ما ذلك لك وله ، فغضب يزيد ، فقال : كذبت والله ، إن ذلك لي ، ولو شئت أن أفعله لفعلت ؛ قالت : كلاً والله ، ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا ، وتدين بغير ديننا ؛ قالت : فغضب يزيد واستطار ، ثم قال : إياي تستقبلين بهذا ! إنما خرج من الدين أبوك وأخوك ؛ فقالت زينب : بدين الله ودين أبي ودين أخي وجدي اهتديت أنت وأبوك وجدك ، قال : كذبت يا عدوة الله ؛ قالت : أنت أمير مسلط ، تشتم ظالمًا ، وتقهر بسلطانك ؛ قالت : فوالله لكانه استحيا ؛ فسكت ، ثم عاد الشامى فقال : يا أمير المؤمنين ، هب لي هذه الجارية ؛ قال : اعزب . وهب الله لك حَتَفًا قاضيًا ؛ قالت : ثم قال يزيد بن معاوية : يا نعمان بن بشير ، جهّزهم بما يصلحهم ، وابعث معهم رجلاً من أهل الشام أميناً صالحاً ، وابعث معه خيلاً وأعواناً فيسير بهم إلى المدينة ، ثم أمر بالنسوة أن ينزلن في دار على حدة ، معهن ما يصلحهن ، وأخوهن معهن علي بن الحسين ، في الدار التي هن فيها . قال : فخرجن حتى دخلن دار يزيد فلم تبق من آل معاوية امرأة إلا استقبلتهن تبكي وتنوح على الحسين ، فأقاموا عليه المناحة ثلاثاً ، وكان يزيد لا يتغذى ولا يتعشى إلا دعا علي بن الحسين إليه ؛ قال : فدعاه ذات يوم ، ودعا عمر بن الحسن بن علي وهو غلام صغير ، فقال لعمر بن الحسن : أقاتل هذا الفتى ؟ يعني خالد ابنه ، قال : لا ، ولكن أعطني سكيناً وأعطه سكيناً ، ثم أقاتله ، فقال له يزيد ؛ وأخذه فضمه إليه ثم قال : « شَيْئِنَا أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمِ » ؛ هل تلبّد الحية إلا حية ؛ قال : ولما أرادوا أن يخرجوا دعا يزيد علي بن الحسين ثم قال : لعن الله ابن مرجانة ، أما والله لو أني صاحبه ما سألني خصلة أبداً إلا أعطيتها إياه ، ولدفعته الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي ، ولكن الله قضى ما رأيت ، كاتبتني وأنه كل

(١) سورة الحديد : ٢٢ .

(٢) سورة الشورى : ٣٠ .

حاجة تكون لك ؛ قال : وكساهم وأوصى بهم ذلك الرسول ؛ قال : فخرج بهم وكان يسايرهم بالليل فيكونون أمامه حيث لا يفوتون طرفه ، فإذا نزلوا تنحى عنهم وتفرق هو وأصحابه حولهم كهيئة الحرس لهم ، وينزل منهم بحيث إذا أراد إنسان منهم وضوءاً أو قضاء حاجة لم يحتشم ، فلم يزل يُنازلهم في الطريق هكذا ، ويسألهم عن حوائجهم ، ويُلطفهم حتى دخلوا المدينة .

وقال الحارث بن كعب : فقالت لي فاطمة بنت علي : قلت لأختي زينب : يا أختي ، لقد أحسنَ هذا الرجل الشامي إلينا في صحبتنا ، فهل لك أن نصليه ؟ فقالت : والله ما معنا شيء نصليه به إلا حُلِينَا ؛ قالت لها : فنعطيه حُلِينَا ؛ قالت : فأخذت سوارِي ودُمْلَجِي وأخذت أختي سوارها ودُمْلَجها ، فبعثنا بذلك إليه ، واعتذرنا إليه ، وقلنا له : هذا جزاؤك بصحبتك إِيَّانا بالحسن من الفعل ؛ قال : فقال : لو كان الذي صنعتُ إنما هو للدنيا كان في حُلِيكُن ما يرضيني ودونَه ، ولكن والله ما فعلته إلا لله ، ولقرابتكم من رسول الله ﷺ .

قال هشام : وأما عَوَانَةُ بن الحَكَم الكلبِي فإنه قال : لما قُتِل الحسين وجيء بالأنفال والأسارى حتى وردوا بهم الكوفة إلى عُبيد الله ، فبينما القوم محتسبون إذ وقع حجر في السجن ، معه كتاب مربوط ، وفي الكتاب خرج البريد بأمركم في يوم كذا وكذا إلى يزيد بن معاوية ، وهو سائر كذا وكذا يوماً ، وراجع في كذا وكذا ، فإن سمعتم التكبير فأيقنوا بالقتل ، وإن لم تسمعوا تكبيراً فهو الأمان إن شاء الله ؛ قال : فلما كان قبل قدوم البريد بيومين أو ثلاثة إذا حجر قد أُلقي في السجن ، ومعه كتاب مربوط ومُوسَى ، وفي الكتاب : أوصوا واعهدوا فإنما يُنتظر البريد يوم كذا وكذا . فجاء البريد ولم يُسمع التكبير ، وجاء كتاب بأن سرح الأسارى إليّ . قال : فدعا عبيدالله بن زياد مُحَفِّز بن ثعلبة وشمر بن ذي الجوشن ، فقال : انطلقوا بالثقل والرأس إلى أمير المؤمنين يزيد بن معاوية ؛ قال : فخرجوا حتى قدموا على يزيد ، فقام مُحَفِّز بن ثعلبة فنادى بأعلى صوته : جئنا برأس أحمق الناس والأمهم ؛ فقال يزيد : ما ولدت أم مُحَفِّز الأم وأحمق ، ولكنه قاطع ظالم ؛ قال : فلما نظر يزيد إلى رأس الحسين ، قال :

يَفْلُقَن هَاماً مِنْ رَجَالٍ أَعَزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعْقَ وَأَظْلَمَا

ثم قال : أتدرون من أين أتى هذا ؟ قال : أبي علي خير من أبيه ، وأمِّي فاطمة خير من أمه ، وجدِّي رسول الله خير من جدّه ، وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر منه ؛ فأما قوله : «أبوه خير من أبي» ، فقد حاجَّ أبي أباه ، وعلم الناس أيهما حكم له ؛ وأما قوله : «أمي خير من أمه» ، فلعمري فاطمة ابنة رسول الله ﷺ خير من أمي ؛ وأما قوله : «جدِّي خير من جدّه» ، فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً ولا يذاً ، ولكنه إنما أتى من قبل فقهه ، ولم يقرأ : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُدْهِلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) . ثم أدخل نساء الحسين على يزيد ، فصاح نساء آل يزيد وبنات معاوية وأهله وولولن . ثم إنهن أدخلن على يزيد ، فقالت فاطمة بنت الحسين : وكانت أكبر من سُكينة : أبنات رسول الله سبايا يا يزيد ! فقال يزيد : يا ابنة أخي ، أنا لهذا كنت أكره ؛ قالت : والله ما ترك لنا خُرُص ، قال : يا ابنة أخي ما أت إليك أعظم مما أخذ منك ، ثم أخرجن فأدخلن دارَ يزيد بن معاوية ، فلم تبق امرأة من آل يزيد إلا أتتهن ، وأقمن المأتم ، وأرسل يزيد إلى كل امرأة : ماذا أخذ

(١) سورة آل عمران : ٢٦ .

لك؟ وليس منهن امرأة تدعي شيئاً بالغاً ما بلغ إلا قد أضعفه لها، فكانت سكينه تقول: ما رأيت رجلاً كافراً بالله خيراً من يزيد بن معاوية. ثم أدخل الأسارى إليه وفيهم علي بن الحسين، فقال له يزيد: إيه يا علي! فقال علي: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١﴾ فقال يزيد: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ ﴿٢﴾ ثم جهزه وأعطاه مالا، وسرّحه إلى المدينة.

قال هشام، عن أبي مخنف، قال: حدثني أبو حمزة الثمالي، عن عبدالله الثمالي، عن القاسم بن بخيت، قال: لما أقبل وفد أهل الكوفة برأس الحسين دخلوا مسجد دمشق، فقال لهم مروان بن الحكم: كيف صنعتم؟ قالوا: ورد علينا منهم ثمانية عشر رجلاً، فأتينا والله على آخرهم، وهذه الرؤوس والسبايا، فوثب مروان فانصرف، وأتاهم أخوه يحيى بن الحكم، فقال: ما صنعتم؟ فأعادوا عليه الكلام، فقال: حُجِبتُم عن محمد يوم القيامة؛ لن أجامعكم على أمر أبداً ثم قام فانصرف، ودخلوا على يزيد فوضعوا الرأس بين يديه، وحدثوه الحديث. قال: فسمعت دُورَ الحديث هند بنت عبدالله بن عامر بن كُرَيْز - وكانت تحت يزيد بن معاوية - فتفتحت بثوبها، وخرجت فقالت: يا أمير المؤمنين، رأس الحسين بن فاطمة بنت رسول الله! قال: نعم فأعولني عليه، وحُدِّي على ابن بنت رسول الله ﷺ وصريحة قريش؛ عجل عليه ابن زياد فقتله قتلته الله! ثم أذن للناس فدخلوا والرأس بين يديه، ومع يزيد قضيب فهو يَنْكُت به في ثغره، ثم قال: إِنَّ هَذَا وَإِيَّانَا كَمَا قَالَ الْحُصَيْنُ بْنُ الْحَمَامِ الْمُرِّي:

يَفْلُقْنَ هَاماً مِنْ رَجَالٍ أَحْبَبَ إِلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَتْ وَأَظْلَمَا

قال: فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له أبو برزة الأسلمي: أتنتك بقضيبك في ثغر الحسين! أما لقد أخذت قضيبك من ثغره مأخذاً، لربما رأيت رسول الله ﷺ يرشفه، أما إنك يا يزيد تحيي يوم القيامة وابن زياد شفيحك، ويحيي هذا يوم القيامة ومحمد ﷺ شفيعه؛ ثم قام فولى.

قال هشام: حدثني عَوَانَةُ بن الحكم، قال: لما قُتِلَ عبيد الله بن زياد الحسين بن علي وجيء برأسه إليه، دعا عبد الملك بن أبي الحارث السلمي فقال: انطلق حتى تقدم المدينة على عمرو بن سعيد بن العاص فبشره بقتل الحسين - وكان عمرو بن سعيد بن العاص أمير المدينة يومئذ - قال: فذهب ليعتَلَّ له، فزجره - وكان عبيد الله لا يُصْطَلَى بناره - فقال: انطلق حتى تأتِي المدينة، ولا يسبقك الخبر؛ وأعطاه دنانير، وقال: لا تعتَلَّ، وإن قامت بك راحلتك فاشتر راحلة؛ قال عبد الملك: فقدمت المدينة، فلقيني رجل من قريش، فقال: ما الخبر، فقلت: الخبر عند الأمير، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! قُتِلَ الحسين بن علي؛ فدخلت على عمرو بن سعيد فقال: ما وراءك؟ فقلت: ما سرُّ الأمير، قُتِلَ الحسين بن علي؛ فقال: نادِ بقتله، فناديت بقتله، فلم أسمع والله واعيَّة قط مثل واعيَّة نساء بني هاشم في دُورهنَّ على الحسين، فقال عمرو بن سعيد وضحك:

عَجَّتْ نِسَاءُ بَنِي زِيَادٍ عَجَّةً كَعَجِيجِ نِسْوَتِنَا غَدَاةَ الْأَرْزَبِ

(١) سورة الحديد: ٢٢، ٢٣.

(٢) سورة الشورى: ٣٠.

والأرنب : وقعة كانت لبني زُبَيْد على بني زياد من بني الحارث بن كعب ، من رهط عبدالمدان ، وهذا البيت لعمرو بن معد يكرب ، ثم قال عمرو : هذه واعية بواعية عثمان بن عفان ، ثم صعد المنبر فأعلم الناس قتله .

قال هشام ، عن أبي مخنف ، عن سليمان بن أبي راشد ، عن عبد الرحمن بن عبيد أبي الكنود ، قال : لما بلغ عبدالله بن جعفر بن أبي طالب مقتل ابنه مع الحسين ، دخل عليه بعض مواليه والناس يعزونه - قال : ولا أظن مولاه ذلك إلا أبا اللّسلاس - فقال : هذا ما لقينا ودخل علينا من الحسين ! قال : فحذفه عبد الله بن جعفر بنعنه ، ثم قال : يابن اللّخناء ، أللّحسين تقول هذا ! والله لو شهدته لأحببت ألافارقه حتى أقتل معه ، والله إنه لما يسخي بنفسي عنهما ، ويهون عليّ المصاب بهما ، أنهما أصيبا مع أخي وابن عمي مواسيين له ، صابرين معه . ثم أقبل على جلسائه فقال : الحمد لله عز وجل على مصرع الحسين ، إلا تكن آست حسينا يدي ، فقد آساه ولدي . قال : ولما أتى أهل المدينة مقتل الحسين خرجت ابنة عقيل بن أبي طالب ومعها نساؤها وهي حاسرة تلوي بثوبها وهي تقول :

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ماذا فعلتم وأنتم آخرو الأمم
بعثرتي وبأهلي بعد مقتدي منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم!

قال هشام : عن عوانة ، قال : قال عبيد الله بن زياد لعمرو بن سعد بعد قتله الحسين : يا عمر ، أين الكتاب الذي كتبت به إليك في قتل الحسين ؟ قال : مضيت لأمرك وضاع الكتاب ؛ قال : لتجيئن به ؛ قال : ضاع ؛ قال : والله لتجيئنني به ؛ قال : ترك والله يقرأ على عجائز قريش اعتذاراً إليهن بالمدينة ، أما والله لقد نصحتك في حسين نصيحة لو نصحتها أبي سعد بن أبي وقاص كنت قد أدت حقه ، قال عثمان بن زياد أخو عبيد الله : صدق والله ، لوددت أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزيمة إلى يوم القيامة وأن حسينا لم يقتل ؛ قال : فوالله ما أنكر ذلك عليه عبيد الله .

قال هشام : حدثني بعض أصحابنا ، عن عمرو بن أبي المقدام ، قال : حدثني عمرو بن عكرمة ، قال : أصبحنا صبيحة قتل الحسين بالمدينة ، فإذا مولى لنا يحدثنا ، قال : سمعت البارحة منادياً ينادي وهو يقول :

أيها القاتلون جهلاً حسيناً أبشروا بالعذاب والتنكيل
كل أهل السماء يدعوا عليكم من نبي وملاك وقبيل
قد لعنتم على لسان ابن داود وموسى وحامل الإنجيل

قال هشام : حدثني عمر بن حيزوم الكلبي ، عن أبيه ، قال : سمعت هذا الصوت .

ذكر أسماء من قتل من بني هاشم مع الحسين عليه السلام
وعدد من قتل من كل قبيلة من القبائل التي قاتلته

قال هشام : قال أبو مخنف : ولما قتل الحسين بن علي عليه السلام جيء برؤوس من قتل معه من أهل بيته وشيعته وأنصاره إلى عبيد الله بن زياد ، فجاءت كندة بثلاثة عشر رأساً ، وصاحبهم قيس بن الأشعث ، وجاءت هوازن بعشرين رأساً وصاحبهم شمر بن ذي الجوشن ، وجاءت تميم بسبعة عشر رأساً ، وجاءت بنو

أسد بستانه أروؤس ، وجاءت مَدَجِج بسبعة أروؤس ، وجاء سائر الجيش بسبعة أروؤس ، فذلك سبعون رأساً . قال : وقُتل الحسين - وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ - قتله سنان بن أنس النخعي ثم الأصبحي وجاء برأسه . خولي بن يزيد ، وقُتل العباس بن علي بن أبي طالب - وأمه أم البنين ابنة حزام بن خالد بن ربيعة بن الوحيد ، قتله زيد بن رُقَاد الجني - وحكيم بن الطفيل السنيسي ، وقتل جعفر بن علي بن أبي طالب - وأمه أم البنين أيضاً - وقُتل عبدالله بن علي بن أبي طالب - وأمه أم البنين أيضاً - وقُتل عبدالله بن علي بن أبي طالب - وأمه أم البنين أيضاً - وقُتل عبدالله بن علي بن أبي طالب - وأمه أم ولد - قتله رجل من بني أبان بن دارم ، وقتل أبو بكر بن علي بن أبي طالب - وأمه ليلى ابنة مسعود بن خالد بن مالك بن ربعي بن سلمى بن جندل بن نَهْشَل بن دارم ، وقد شُكَّ في قتله - وقُتل علي بن الحسين بن علي - وأمه ليلى ابنة أبي مرة بن عروة بن مسعود بن معتب الثقفي ، وأمه ميمونة ابنة أبي سفيان بن حرب - قتله مرة بن مُنْقِذ بن النعمان العبدي ، وقتل عبدالله بن الحسين بن علي - وأمه الرِّباب ابنة امرئ القيس بن عدي بن أوس بن جابر بن كعب بن عُليم من كُلب - قتله هانئ بن ثببت الحضرمي ، واستصغر علي بن الحسين بن علي فلم يُقتل ، وقُتل أبو بكر بن الحسن بن علي بن أبي طالب - وأمه أم ولد - قتله عبدالله بن عقبة الغنوي ، وقُتل عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب - وأمه أم ولد - قتله حرملة بن الكاهن ، رماه بسهم ؛ وقتل القاسم بن الحسن بن علي - وأمه أم ولد - قتله سعد بن عمرو بن نُفَيْل الأزدي ، وقتل عون بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب وأمه حمانه ابنة المسيب بن نَجْبة بن ربيعة بن رياح من بني فزارة - قتله عبدالله بن قُطَبة الطائي ثم النُّبْهاني ، وقُتل محمد بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب - وأمه الخوصاء ابنة خَصْفة بن ثقيف بن ربيعة بن هانئ بن الحارث بن تيم الله بن ثعلبة من بكر بن وائل - قَتَلَه عامر بن نَهْشَل التيمي ، وقُتل جعفر بن عقيل بن أبي طالب - وأمه أم البنين ابنة الشقر بن الهضاب - قتله بشر بن حَوْط الهمداني ، وقُتل عبدالرحمن بن عَقِيل - وأمه أم ولد - قتله عثمان بن خالد بن أسير الجُهني ، وقتل عبدالله بن عقيل بن أبي طالب - وأمه أم ولد - رماه عمرو بن صُبَيْح الصدائي فقتله ؛ وقتل مسلم بن عَقِيل بن أبي طالب - وأمه أم ولد ، وُلِدَ بالكوفة - وقُتل عبدالله بن مسلم بن عَقِيل بن أبي طالب - وأمه رُقَيَّة ابنة علي بن أبي طالب وأمه أم ولد - قتله عمرو بن صبيح الصدائي ؛ وقيل : قتله أسيد بن مالك الحضرمي ، وقتل محمد بن أبي سعيد بن عقيل - وأمه أم ولد - قتله لقيط بن ياسر الجهني ، واستصغر الحسن بن الحسن بن علي ، وأمه خولة ابنة منظور بن زَبَّان بن سيار الفَزَارِي ، واستصغر عمر بن الحسن بن علي فترك فلم يُقتل - وأمه أم ولد - وقُتل من الموالي سليمان مولى الحسين بن علي ، قتله سليمان بن عوف الحضرمي ، وقتل مُنْجِج مولى الحسين بن علي ، وقتل عبدالله بن بَقَطْر رضيع الحسين بن علي .

قال أبو مخنف : حدّثني عبدالرحمن بن جندب الأزدي ، أن عبید الله بن زياد بعد قتل الحسين تقدّ أشراف أهل الكوفة ، فلم ير عبید الله بن الحرّ ، ثم جاءه بعد أيام حتى دخل عليه ، فقال : أين كنت يا بن الحرّ؟ قال : كنت مريضاً ؛ قال : مريض القلب ، أو مريض البدن ؟ قال : أما قلبي فلم يمرض ، وأما بدني فقد منّ الله عليّ بالعافية ، فقال له ابن زياد : كذبت ؛ ولكنك كنت مع عدوّنا ؛ قال : لو كنت مع عدوّك لرئي مكاني ، وما كان مثل مكاني يخفى ؛ قال : وغفل عنه ابن زياد غفلةً ، فخرج ابن الحرّ فقعده على فرسه ، فقال ابن زياد : أين ابن الحرّ؟ قالوا : خرج الساعة ؛ قال : عليّ به ؛ فأحضرت الشّرط فقالوا له : أجب الأمير ؛ فدفع فرسه ثم

قال : أبلغوه أني لا آتية والله طائعاً أبداً ؛ ثم خرج حتى أتى منزل أحمر بن زياد الطائي فاجتمع إليه في منزله أصحابه ، ثم خرج حتى أتى كربلاء فنظر إلى مصارع القوم ، فاستغفر لهم هو وأصحابه ، ثم مضى حتى نزل المدائن ، وقال في ذلك :

يقول أمير غادر حق غادر :
فيا ندمي ألا أكون نصرته
وإنني لأنني لم أكن من حماته
سقى الله أرواح الدين تأزروا
وقفت على أجداثهم ومجالهم
لعمري لقد كانوا مصاليت في الوغى
تأسوا على نصر ابن بنت نبيهم
فإن يقتلوا فكل نفس تقيّة
وما إن رأى الرأؤون أفضل منهم
أتقتلهم ظلماً وترجو وداذنا
لعمري لقد راغمتمونا بقتلهم
أهم مراراً أن أسير بجحفل
فكفوا وإلا ذذتكم في كتائب

ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمة !
ألا كل نفس لا تسدد نادمه
لذو حسرة ما إن تفارق لازمه
على نصره سقى من الغيث دائمة
فكاد الحشا ينفض والعين ساجمه
سراعاً إلى الهيجا حماة خضارمه
بأسياهم أساد غيل ضراغمه
على الأرض قد أضحت لذلك واجمه
لدى الموت سادات وزهراً قماقمه
فدع خطة ليست لنا بملائمه !
فكم ناقيم منّا عليكم وناقمه
إلى فئة زاغت عن الحق ظالمه
أشدّ عليكم من زحوف الديالمة

وفي هذه السنة قتل أبو بلال مرداس بن عمرو بن حدير ، من ربيعة بن حنظلة .

ذكر سبب مقتله :

قال أبو جعفر الطبري ، قد تقدم ذكر سبب خروجه ، وما كان من توجيه عبيد الله بن زياد إليه أسلم بن زُرعة الكلابي في ألفي رجل ، والتقاتلهم بأسك وهزيمة أسلم وجيشه منه ومن أصحابه فيما مضى من كتابنا هذا .

ولما هزم مرداس أبو بلال أسلم بن زُرعة ، وبلغ عبيد الله بن زياد ، سرح إليه - فيما حدثت عن هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ، قال : حدثني أبو المخارق الراسبي - ثلاثة آلاف ، عليهم عبّاد بن الأخضر التميمي ، فأتبعه عبّاد يطلبه حتى لحقه بتّوج ، فصفت له ، فحمل عليهم أبو بلال وأصحابه ، فثبتوا ، وتعطف الناس عليهم فلم يكونوا شيئاً . وقال أبو بلال لأصحابه : مَنْ كان منكم إنما خرج للدنيا فليذهب ، ومن كان منكم إنما أراد الآخرة ولقاء ربّه فقد سبق ذلك إليه ، وقرأ : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصيبٍ ﴾ (١) ، فنزل ونزل أصحابه معه لم يفارقه منهم إنسان ، فقتلوا من عند آخرهم ، ورجع عبّاد بن الأخضر ، وذلك الجيش الذي كان معه إلى البصرة ، وأقبل عبّادة بن هلال معه ثلاثة نفر هو رابعهم ، فرصد عبّاد بن الأخضر ، فأقبل يريد قصر الإمارة وهو مردف ابنه له غلاماً ، صغيراً ، فقالوا : يا عبدالله ، قف حتى نستفتيك ؛ فوقف ، فقالوا : نحن إخوة أربعة ، قُتل أخونا ، فما ترى؟ قال : استعدّوا الأمير ، قالوا : قد استعدّينا فلم يُعِدنا ؛ قال : فاقتلوه ، قتله الله ! فوثبوا عليه فحكّموا ،

(١) سورة الشورى : ٢٠ .

وألقي ابنه فقتلوه .

وفي هذه السنة ولَّى يزيد بن معاوية سَلَمَ بن زياد سِجِسْتَانَ وَخُرَاسَانَ .

ذكر سبب توليته إياه :

حدَّثني عمر، قال : حدَّثني علي بن محمد، قال : حدَّثنا مَسْلَمَةُ بن مُحَارِب بن سلم بن زياد، قال : وفد سَلَمُ بن زياد على يزيد بن معاوية وهو ابن أربع وعشرين سنة، فقال له يزيد : يا أبا حرب ، أولئك عمل أخويك : عبدالرحمن وعَبَّاد ؟ فقال : ما أَحَبُّ أمير المؤمنين ؛ فولاه خُراسان وسِجِسْتَانَ ، فوجه سَلَمُ الحارث بن معاوية الحارثي جدَّ عيسى بن شبيب من الشَّام إلى خُراسان ، وقَدِم سلم البصرة ، فتجهز وسار إلى خُراسان ، فأخذ الحارث بن قيس بن الهيثم السُّلَمِيَّ فحبسه ، وضرب ابنه شبيباً ، وأقامه في سراويل ، ووجه أخاه يزيد بن زياد إلى سِجِسْتَانَ . فكتب عبيدالله بن زياد إلى عباد أخيه - وكان له صديقاً - يخبره بولاية سَلَمَ ، فقسم عباد ما في بيت المال في عبيده ، وَفَضَّلَ فَضْلَ فَنَادَى مناديه : من أراد سلفاً فليأخذ ، فأسلف كل من أتاه ، وخرج عباد عن سِجِسْتَانَ . فلما كان بِجِزْرِفَ بلغه مكان سَلَمَ - وكان بينهما جبل - فعدل عنه ، فذهب لِعَبَّاد تلك الليلة ألف مملوك ، أَقْلُ ما مع أحدهم عشرة آلاف . قال : فأخذ عباد على فارس ، ثم قدم على يزيد ، فقال له يزيد : أين المال ؟ قال كنتُ صاحبُ ثغر ، فقسمتُ ما أصبتُ بين الناس . قال : ولما شَخَصَ سَلَمُ إلى خُراسان شخص معه عمران بن القَصيل البُرْجِي ، وعبدالله بن خازم السَلَمِي ، وطلحة بن عبدالله بن خَلَف الخُزَاعِي ، والمهلب بن أبي صُفْرَةَ ، وحَنْظَلَةُ بن عَرَادَةَ ، وأبو حُرَّابَةَ الوليد بن نَهيك أحد بني ربيعة بن حَنْظَلَةَ ، ويحيى بن يَعْمَر العَدَوَانِي حليف هُذَيْل ، وخلق كثير من فُرسان البصرة وأشرافهم ، فَقَدِمَ سَلَمُ بن زياد بكتاب يزيد بن معاوية إلى عبيدالله بن زياد بُنْخَبَةَ أَلْفِي رجل ينتخبهم - وقال غيره : بل بُنْخَبَةَ سِتَّةِ آلاف - قال : فكان سَلَمُ ينتخب الوجوه والفُرسان . ورغب قوم في الجهاد فطلبوا إليه أن يُخرجهم ، فكان أوَّل من أخرجهم سلم حَنْظَلَةُ بن عَرَادَةَ ، فقال له عبيدالله بن زياد : دعه لي ؛ قال : هو بيني وبينك ، فإن اختارك فهو لك ، وإن اختارني فهو لي ، قال : فاختر سَلَمًا ؛ وكان الناس يكلمون سَلَمًا ويطلبون إليه أن يكتبهم معه ، وكان صلة بن أَشِيم العَدَوِيَّ يأتي الديوان فيقول له الكاتب : يا أبا الصَّهْبَاء ، ألا أثبت اسمك ، فإنه وجهٌ فيه جهادٌ وَفَضْلٌ ؟ فيقول له : أستخير الله وأنظر ؛ فلم يزل يدافع حتى فرغ من أمر الناس ، فقالت له امرأته مُعَاذَةُ ابنة عبدالله العَدَوِيَّة : ألا تكتب نفسك ؟ قال : حتى أنظر ، ثم صلى واستخار الله ؛ قال : فرأى في منامه آتياً أتاه ، فقال له : اخرج فإنك تَرَبِّح وتُفْلِح وتُنْجِح ؛ فأتى الكاتب فقال له : أثبتني ؛ قال : قد فرغنا ولن أدعَكَ ، فأثبتته وابنه ، فخرج سَلَمُ فصيرَه سلم مع يزيد بن زياد فسار إلى سِجِسْتَانَ .

قال : وخرج سلم وأخرج معه أمَّ محمد ابنة عبدالله بن عثمان بن أبي العاص الثقفي ، وهي أوَّل امرأة من العرب قُطِع بها النهر .

قال : وذكر مَسْلَمَةُ بن محارب وأبو حفص الأزدي عن عثمان بن حفص الكرماني أن عُمَال خُراسان كانوا يَغْزُونَ ، فإذا دخل الشتاء قفلوا من مغازيهم إلى مَرَو الشاهيجان ، فإذا انصرف المسلمون اجتمع ملوك خُراسان في مدينة من مدائن خُراسان ممَّا يلي خَارَزْمَ ، فيتعاقدون ألا يغزَوْ بعضهم بعضاً ، ولا يهيج أحد أحداً ، ويتشاورون في أمورهم ، فكان المسلمون يطلبون إلى أمرائهم في غزو تلك المدينة فيأبون عليهم ، فلما قَدِم

خُراسان غزا فشتا في بعض مغازيه ؛ قال : فالحَّ عليه المهلب ، وسأله أن يوجَّهه إلى تلك المدينة ، فوجَّهه في ستة آلاف - ويقال أربعة آلاف - فحاصره ، فسألهم أن يُدْعِنُوا له بالطاعة ، فطلبوا إليه أن يصلحهم على أن يقدوا أنفسهم ، فأجابهم إلى ذلك ، فصالحوه على نَيْفٍ وعشرين ألف ألف ؛ قال : وكان في صلحهم أن يأخذ منهم عروضاً ، فكان يأخذ الرأس بنصف ثمنه ، والدابة بنصف ثمنها ، والكَيْمُخْت بنصف ثمنه ، فبلغت قيمة ما أخذ منهم خمسين ألف ألف ، فحظي بها المهلب عند سلم ، واصطفى سلم من ذلك ما أعجبه ، وبعث به إلى يزيد مع مرزبان مرو ، وأوفد في ذلك وفداً .

قال مسلمة وإسحاق بن أيوب : غزا سلم سمرقند بامرأته أم محمد ابنة عبدالله ، فولدت لسلم ابناً ، فسماه صُغْدِي .

قال علي بن محمد : ذكر الحسن بن رشيد الجوزجاني ، عن شيخ من خزاعة ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال : غزوت مع سليم بن زياد خوارزم ، فصالحوه على مال كثير ، ثم عبر إلى سمرقند فصالحه أهلها ، وكانت معه امرأته أم محمد ، فولدت له في غزاته تلك ابناً ، وأرسلت إلى امرأة صاحب الصُغْد تستعير منها حلياً ، فبعثت إليها بتاجها ؛ وقفلوا ، فذهبت بالتاج .

وفي هذه السنة عزل يزيد عمرو بن سعيد عن المدينة وولّاها الوليد بن عتبة ، حدّثني بذلك أحمد بن ثابت ، عمن جدّه ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، قال : نزع يزيد بن معاوية عمرو بن سعيد ، هلال ذي الحجة ، وأمر الوليد بن عتبة على المدينة ، فحجَّ بالناس حجّتين سنة إحدى وستين وسنة اثنتين وستين .

وكان عامل يزيد بن معاوية في هذه السنة على البصرة والكوفة عبيدالله بن زياد ، وعلى المدينة في آخرها الوليد بن عتبة ، وعلى خراسان وسجستان سلم بن زياد ، وعلى قضاء البصرة هشام بن هُبيرة ، وعلى قضاء الكوفة شريح .

وفيها أظهر ابن الزبير الخلاف على يزيد وخلّعه . وفيها بويح له .

ذكر سبب عزل يزيد عمرو بن سعيد عن المدينة
وتولّيته عليها الوليد بن عتبة

وكان السبب في ذلك وسبب إظهار عبد الله بن الزبير الدعاء إلى نفسه - فيما ذكر هشام ، عن أبي مخنف ، عن عبد الملك بن نوفل - قال : حدّثني أبي ، قال : لما قُتل الحسين عليه السلام قام ابن الزبير في أهل مكة وعظم مَقْتَلُهُ ، وعاب على أهل الكوفة بخاصّة ، ولأهل العراق عامّة ، فقال بعد أن حَمِدَ الله وأثنى عليه وصَلَّى على محمد ﷺ : إنّ أهل العراق عُذْرٌ فُجِرَ إلّا قليلاً ، وإنّ أهل الكوفة شِراءُ أهل العراق ؛ وإنهم دَعَوْا حُسَيْناً لينصروه ويولّوه عليهم ، فلما قَدِمَ عليهم ثاروا إليه ، فقالوا له : إمّا أن تضع يدك في أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمّية سلماً فيمضي فيك حكمه ، وإمّا أن تحارب ؛ فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل في كثير ، وإن كان الله عز وجل لم يُطلع على الغيب أحداً أنه مقتول ، ولكنّه اختار الميتة الكريمة على الحياة الدميّة ، فرحم الله حُسَيْناً ، وأخزى قاتل حُسَيْنَ العَمري لقد كان من خلفهم إيّاه وعصيانهم ما كان في مثله واعظ وإنه عنهم ،

ولكنه ما حُمّ نازل ، وإذا أراد الله أمراً لن يُدْفَع . أفبعد الحسين نظمتمنّ إلى هؤلاء القوم ونصدّق قولهم ونقبل لهم عهداً لا ، ولا نراهم لذلك أهلاً ؛ أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه ، كثيراً في النهار صيامه ، أحقّ بما هم فيه منهم وأولى به في الدين والفضل ، أما والله ما كان يبذل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحُداء ، ولا بالصيام شرب الحرام ، ولا بالمجالس في خلق الذكر الرّكض في تَطْلَاب الصيد - يعرض بيزيد - فسوف يلقون غيّاً .

فثار إليه أصحابه فقالوا له : أيها الرجل أظهر بيعتك ، فإنه لم يبقَ أحدٌ إذْ هَلَكَ حسين ينزعك هذا الأمر . وقد كان يبايع الناس سرّاً ، ويُظهر أنه عائد بالبيت ، فقال لهم : لا تعجلوا - وعمرو بن سعيد بن العاص يومئذ عامل مكة ، وقد كان أشدّ شيء عليه وعلى أصحابه ، وكان مع شدّته عليهم يداري ويرفق - فلما استقرّ عند يزيد بن معاوية ما قد جمع ابن الزبير من الجُمُوع بمكة ، أعطى الله عهداً لثبوتّه في سلسلة ، فبعث بسلسلة من فضة ، فمر بها البريد على مروان بن الحَكَم بالمدينة ، فأخبر خبر ما قدم له وبالسلسلة التي معه ، فقال مروان :

خُذْهَا فليست للعزیز بِخُطَّةٍ وفيها مقالٌ لِأمرى مُتَضَعَفٍ

ثم مضى من عنده حتى قدم على ابن الزبير ، فأقْبَلَ ابنُ الزبير فأخبره فمرّ البريد على مروان ، وتمثّل مروان بهذا البيت ، فقال ابن الزبير : لا والله لا أكون أنا ذلك المتضعّف ؛ وردّ ذلك البريد ردّاً رقيقاً .
وعلا أمر ابن الزبير بمكة ، وكاتبه أهل المدينة ، وقال الناس : أمّا إذْ هَلَكَ الحسين عليه السلام فليس أحدٌ ينازع ابن الزبير .

حدّثنا نوح بن حبيب القومسيّ ، قال : حدّثنا هشام بن يوسف . وحدّثنا عبيدالله بن عبدالكريم ، قال : حدّثنا عبدالله بن جعفر المدينيّ قال : حدّثنا هشام بن يوسف - واللفظ لحديث عبيدالله - قال : أخبرني عبدالله بن مصعب ، قال : أخبرني موسى بن عُقبة ، عن ابن شهاب ، قال : أخبرني عبدالعزيز بن مروان ، قال : لما بعث يزيد بن معاوية بن عِضاه الأشعري ومُسَعْدَة وأصحابها إلى عبدالله بن الزبير بمكة ليؤثّق به في جامعة لتبرّي يمين يزيد ، بعث معهم بجامعة من ورق وبرُس خَزْ ، فأرسلني أبي وأخي معهم وقال : إذا بلغته رُسُلُ يزيد الرسالة فتعرّضاً له ، ثم ليتمثّل أحدكما :

فُخِذْهَا فليست للعزیز بِخُطَّةٍ وفيها مقالٌ لِأمرى مُتَضَعَفٍ
أَعَامِرَ إِنَّ الْقَوْمَ سَامُوكَ خُطَّةٍ وذلك في الجيران غَزْلَ بِمَغْزَلٍ
أَرَاكَ إِذَا مَا كُنْتَ لِلْقَوْمِ نَاصِحاً يُقَالُ لَهُ بِالذَّلْوِ أَذْبَرُ وَأَقْبَلُ

قال : فلما بلغته الرُسُلُ الرسالة تعرّضنا ، فقال لي أخي : إكفنيها ، فسمعتني ، فقال : أي ابني مروان ، قد سمعتُ ما قلتها ، وعلمتُ ما ستقولانه ، فأخبراً أباكما :

إِنِّي لِمِنْ نَبْعَةٍ صُمِّمَ مَكَايَرُهَا إِذَا تَنَافَحَتِ الْقَضَبَاءُ وَالْعُشَرُ
فَلَا أَلِينُ لغير الحقِّ أَسْأَلُهُ حتى يلين لِضَرْسِ المَاضِغِ الحَجَرُ

قال : فما أدري أيهما كان أعجب !

٣٤٨ سنة ٦١

زاد عبدالله في حديثه ، عن أبي علي ، قال : فذاكرت بهذا الحديث مُصَعَّب بن عبدالله بن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير ، فقال : قد سمعته من أبي عليّ نحو الذي ذكرت له ، ولم أحفظ إلا ذلك .

قال هشام ، عن خالد بن سعيد ، عن أبيه سعيد بن عمرو بن سعيد : إنّ عمرو بن سعيد لما رأى الناس قد اشرأبوا إلى ابن الزبير ومدّوا إليه أعناقهم ، ظنّ أنّ تلك الأمور تامةٌ له ، فبعث إلى عبدالله بن عمرو بن العاص - وكانت له صُحبة ، وكان مع أبيه بمصر ، وكان قد قرأ كتب دنياك هنالك ، وكانت قريش في ذلك تعدّه عالماً - فقال له عمرو بن سعيد : أخبرني عن هذا الرجل ، أترى ما يطلب تامةً له؟ وأخبرني عن صاحبي إلى ما ترى أمره صائراً إليه؟ فقال : لا أرى صاحبك إلا أحد الملوك الذين تتمّ لهم أمورهم حتى يسيروا وهم ملوك . فلم يزد عند ذلك إلا شدةً على ابن الزبير وأصحابه ، مع الرفق بهم ، والمداراة لهم . ثم إنّ الوليد بن عتبة وناساً معه من بني أمية قالوا ليزيد بن معاوية : لو شاء عمرو بن سعيد لأخذ ابن الزبير وبعث به إليك ، فسرّح الوليد بن عتبة على الحجاز أميراً ، وعزل عمراً .

وكان عزل يزيد عمراً عن الحجاز وتأميره عليها الوليد بن عتبة في هذه السنة - أعني سنة إحدى وستين ؛ قال أبو جعفر : حدثت عن محمد بن عمر قال : نزع يزيد عمرو بن سعيد بن العاص لهلال ذي الحجة سنة إحدى وستين وولّى الوليد بن عتبة ، فأقام الحجة سنة إحدى وستين بالناس ، وأعاد ابن ربيعة العامريّ على قضائه .

وحدثني أحمد بن ثابت ، قال : حدثت عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، قال : حجّ بالناس في سنة إحدى وستين الوليد بن عتبة ، وهذا مما لا اختلاف فيه بين أهل السير .

وكان الوالي في هذه السنة على الكوفة والبصرة عبيدالله بن زياد ، وعلى قضاء الكوفة شريح ، وعلى قضاء البصرة هشام بن هبيرة ، وعلى خراسان سلّم بن زياد .

ثم دخلت سنة اثنتين وستين ذكر الخبر عما كان في هذه السنة من الأحداث

فمن ذلك مَقْدَم وفد أهل المدينة على يزيد بن معاوية .

ذكر الخبر عن سبب مقدمهم عليه :

وكان السبب في ذلك - فيما ذكر لوط بن يحيى ، عن عبد الملك بن نوفل بن مُساحق ، عن عبد الله بن عروة - أن يزيد بن معاوية لما سَرَّح الوليد بن عُتْبَةَ على الحجاز أميراً ، وعَزَلَ عمرو بن سعيد ، قدم الوليدُ المدينة فأخذ غلماناً كثيراً لعمرو وموالي له ، فحبَسَهم ، فكلَّمهم فيهم عمرو ، فأبى أن يخلِّيهم ، وقال له : لا تجزع يا عمرو ؛ فقال أخوه أبان بن سعيد بن العاص : أعمرو ويَجزع ! والله لو قبضتم على الجُمُر وقبض عليه ما تَرَكه حتى تتركوه ؛ وخرج عمرو سائراً حتى نزل من المدينة على ليلتين ، وكتب إلى غلمانه ومواليه وهم نحو من ثلثمائة رجل : إني باعث إلى كل رجل منكم جَمَلاً وحقيَّةً وأداته ، وتُناخ لكم الإبل في السوق ، فإذا أتاكم رسولي فاكسروا باب السجن ، ثم ليقيم كل رجل منكم إلى جَمَله فليركبه ، ثم أقبلوا عليّ حتى تأتوني ؛ ف جاء رسوله حتى اشترى الإبل ، ثم جهَّزها بما ينبغي لها ، ثم أناخها في السوق ، ثم أتاهم حتى أعلمهم ذلك ، فكسروا باب السجن ، ثم خرجوا إلى الإبل فاستَوَوْا عليها ، ثم أقبلوا حتى انتهوا إلى عمرو بن سعيد فوجدوه حين قدم على يزيد بن معاوية فلما دخل عليه رَحَّب به وأدنى مجلسه . ثم إنه عاتبه في تقصيره في أشياء كان يأمره بها في ابن الزبير ، فلا ينفذ منها إلا ما أراد ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، الشاهدُ يَرى ما لا يَرى الغائب ، وإن جُلَّ أهل مكة وأهل المدينة قد كانوا مألواً إليه وهُوَ وأعطوه الرضا ، ودعا بعضهم بعضاً سراً وعلانية ، ولم يكن معي جند أقوى بهم عليه لو ناهضته ، وقد كان يحذرنى ويتحرَّز مني ، وكنت أرفق به وأداريه لأستمكر منه فأنب عليه ، مع أني قد ضَيِّقْتُ عليه ، ومنعته من أشياء كثيرة لو تركته وإياها ما كانت له إلا معونة ، وجعلتُ على مكة وطُرُقها وشعابها رجالاً لا يَدْعون أحداً يدخلها حتى يكتبوا إليّ باسمه واسم أبيه ، ومن أي بلاد الله هو ، وما جاء به وما يريد ؛ فإن كان من أصحابه أو ممن أرى أنه يريد رددته صاغراً ، وإن كان ممن لا أتهم ، خَلَيْتُ سبيلَه . وقد بعثت الوليد ، وسيأتيك من عمله وأثره ما لعلك تعرف به فضل مبالغتي في أمرك ، ومناصحتي لك إن شاء الله ؛ واللَّهُ يصنع لك ، ويكتب عدوك يا أمير المؤمنين .

فقال له يزيد : أنت أصدق ممن رَقَى هذه الأشياء عنك ، وحمَلَنِي بها عليك ، وأنت ممن أثق به ، وأرجو معونته ، وأدخره لرأب الصَّدْع ، وكفاية المُهمِّ ، وكشفِ نوازل الأمور العظام ؛ فقال له عمرو : وما أرى يا أمير المؤمنين أن أحداً أولى بالقيام بتشديد سلطانك ، وتوهين عدوك ، والشدة على من نابذك مني . وأقام الوليد بن

عتبة يريد ابن الزبير فلا يجده إلا متحذراً متمنعاً، وثار نجدة بن عامر الحنفي باليماة حين قُتل الحسين، وثار ابن الزبير، فكان الوليد يُفيض من المُعرَف، وتُفيض معه عامة الناس، وابن الزبير واقف وأصحابه ونجدة واقف في أصحابه، ثم يفيض ابن الزبير بأصحابه ونجدة بأصحابه، لا يُفيض واحد منهم بإفاضة صاحبه. وكان نجدة يلقى ابن الزبير فيكثر حتى ظن الناس أنه سيبيعه. ثم إن ابن الزبير عمل بالمكر في أمر الوليد بن عتبة، فكتب إلى يزيد بن معاوية: إنك بعثت إلينا رجلاً أخرق، لا يتجه لأمر رُشد، ولا يَرعوي لعظة الحكيم، ولو بعثت إلينا رجلاً سهلاً الحلق، لين الكتف، رجوت أن يسهل من الأمور ما استوعر منها، وأن يجتمع ما تفرق، فانظر في ذلك، فإن فيه صلاح خواصنا وعمومنا إن شاء الله؛ والسلام.

فبعث يزيد بن معاوية إلى الوليد فعزله وبعث عثمان بن محمد بن أبي سُفيان - فيما ذكر أبو مخنف، عن عبد الملك بن نوفل بن مساحق، عن حميد بن حمزة؛ مولى لبني أمية - قال: فقَدِم فتى غرَّ حَدَثَ غَمْرٌ لم يُجرب الأمور، ولم يحنكه السن، ولم تُضرسه التجارب؛ وكان لا يكاد ينظر في شيء من سلطانه ولا عمله، وبعث إلى يزيد وفداً من أهل المدينة فيهم عبدالله بن حنظلة الغسيل الأنصاري وعبدالله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي، والمنذر بن الزبير، ورجالاً كثيراً من أشراف أهل المدينة، فقدموا على يزيد بن معاوية، فأكرمهم، وأحسن إليهم، وأعظم جوائزهم. ثم انصرفوا من عنده، وقدِموا المدينة كلهم إلا المنذر بن الزبير فإنه قدم على عبيدالله بن زياد بالبصرة - وكان يزيد قد أجازته بمائة ألف درهم - فلما قدم أولئك نفر الوفد المدينة قاموا فيهم فأظهروا شتم يزيد وعتبة، وقالوا: إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطنابير، ويضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسامر الخراب والفتيان، وإنا نُشهدكم أنا قد خلعناه؛ فتابههم الناس.

قال لوط بن يحيى: فحدَّثني عبد الملك بن نوفل بن مساحق، أن الناس أتوا عبدالله بن حنظلة الغسيل فبايعوه وولوه عليهم.

قال لوط: وحدثني أيضاً محمد بن عبدالعزيز بن عبد الرحمن بن عوف: ورجع المنذر من عند يزيد بن معاوية، فقَدِم على عبيدالله بن زياد بالبصرة، فأكرمه وأحسن ضيافته، وكان لزياد صديقاً، إذ سقط إليه كتاب من يزيد بن معاوية حيث بلغه أمر أصحابه بالمدينة. أن أوثق المنذر بن الزبير وأحبسه عندك حتى يأتيك فيه أمري؛ فكره ذلك عبيدالله بن زياد لأنه ضيفه، فدعاه فأخبره بالكتاب وأقرأه إياه، وقال له: إنك كنت لزياد وداً وقد أصبحت لي ضيفاً، وقد آتيت إليك معروفاً، فأنا أحب أن أسدي ذلك كله بإحسان، فإذا اجتمع الناس عندي فقم فقل: ائذن لي فلا نصرف إلى بلادي، فإذا قلت: لا بل أقم عندي فإن لك الكرامة والمواساة والأثرة، فقل: لي ضيعة وشغل، لا أجد من الانصراف بداً فأذن لي، فإني آذن لك عند ذلك؛ فالحق بأهلك.

فلما اجتمع الناس عند عبيدالله قام إليه فاستأذنه فقال: لا بل أقم عندي فإني مُكرمك ومواسيك وموثرك؛ فقال له: إن لي ضيعة وشغلاً، ولا أجد من الانصراف بداً فأذن لي؛ فأذن له. فانطلق حتى لحق بالحجاز؛ فأتى أهل المدينة، فكان فيمن يحرض الناس على يزيد، وكان من قوله يومئذ: إن يزيد والله لقد أجازني بمائة ألف درهم، وإنه لا يمنعني ما صنع إلي أن أخبركم خبره، وأصدقكم عنه، والله إنه لي شرب

سنة ٦٢ ٣٥١

الخمر ، وإنه ليسكر حتى يدع الصلاة ؛ وعابه بمثل ما عابه به أصحابه الذين كانوا معه وأشد ، فكان سعيد بن عمرو يحدث بالكوفة أن يزيد بن معاوية بلغه قوله فيه فقال : اللهم إني آثرته وأكرمته ، ففعل ما قد رأيت ، فاذكره بالكذب والقطيعة .

قال أبو مخنف : فحدثني سعيد بن زيد أبو المثلث أن يزيد بن معاوية بعث النعمان بن بشير الأنصاري فقال له : ائت الناس وقومك فافتأهم عما يريدون ، فإنهم إن لم ينهضوا في هذا الأمر لم يجترأء الناس على خلافي ، وبها من عشيرتي من لا أحب أن ينهض في هذه الفتنة فيهلك .

فاقبل النعمان بن بشير فأتى قومه ، ودعا الناس إليه عامّة ، وأمرهم بالطاعة ولزوم الجماعة ، وخوفهم الفتنة ، وقال لهم : إنه لا طاقة لكم بأهل الشام ؛ فقال عبدالله بن مطيع العدوي : ما يملكك يا نعمان على تفريق جماعتنا ، وفساد ما أصلح الله من أمرنا ! فقال النعمان : أما والله لكأني بك لو قد نزلت تلك التي تدعو إليها ، وقامت الرجال على الركب تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيوف ، ودارت رحا الموت بين الفريقين قد هربت على بغلتك تضرب جنبها إلى مكة ، وقد خلفت هؤلاء المساكين - يعني الأنصار - يقتلون في سبكهم ومساجدهم ، وعلى أبواب دورهم ! فعصاه الناس ، فانصرف . وكان والله كما قال .

وحجّ بالناس في هذه السنة الوليد بن عتبة . وكانت العمال في هذه السنة على العراق وخراسان العمّال الذين ذكروا في سنة إحدى وستين .

وفي هذه السنة ولد - فيما ذكر - محمد بن عبدالله بن العباس .

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك ما كان من إخراج أهل المدينة عامل يزيد بن معاوية عثمان بن محمد بن أبي سفيان من المدينة ، وإظهارهم خلعة يزيد بن معاوية ، وحصارهم من كان بها من بني أمية ؛ ذكر هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ، عن عبد الملك بن نوفل بن مساحق ، عن حبيب بن كثر ، أن أهل المدينة لما بايعوا عبدالله بن حنظلة الغسيل على خلعة يزيد بن معاوية ، وثبوا على عثمان بن محمد بن أبي سفيان ومن بالمدينة من بني أمية ومواليهم ومن رأى رأيهم من قريش ، فكانوا نحواً من ألف رجل ، فخرجوا بجماعتهم حتى نزلوا دار مروان بن الحكم ، فحاصروهم الناس فيها حصاراً ضعيفاً . قال : فدعت بنو أمية حبيب بن كثر ، وكان الذي بعث إليه منهم مروان بن الحكم وعمرو بن عثمان بن عفان ، وكان مروان هو يدبر أمرهم . فأما عثمان بن محمد بن أبي سفيان فإنما كان غلاماً حدثاً لم يكن له رأي . قال عبد الملك بن نوفل : فحدثني حبيب بن كثر ، قال : كنت مع مروان ، فكتب معي هو وجماعة من بني أمية كتاباً إلى يزيد بن معاوية ، فأخذ الكتاب عبد الملك بن مروان حتى خرج معي إلى ثنية الوداع ، فدفع إلي الكتاب وقال : قد أجلت لك اثنتي عشرة ليلة ذاهباً واثنتي عشرة ليلة مقيبلاً ، فوافني لأربع وعشرين ليلة في هذا المكان تجدي إن شاء الله في هذه الساعة جالساً أنتظر . وكان الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد ، فإنه قد حصرنا في دار مروان بن الحكم ، ومُنِعنا العذب ، ورُمينا بالجُبوب ، فياغوثاه يا غوثاه !

قال : فأخذت الكتاب ومضيت به حتى قدمت على يزيد وهو جالس على كُرسي ، واضع قدميه في ماء طست من وجع كان يجده فيهما - ويقال : كان به النقرس - فقرأه ثم قال فيما بلغنا متمثلاً :

لقد بدّلوا الجلم الذي من سَجِيَّتِي فبدلتُ قومي غِلظةً بليانٍ

ثم قال : أما يكون بنو أمية ومواليهم ألف رجل بالمدينة؟ قال : قلت : بلى ، والله وأكثر ؛ قال : فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار ! قال : فقلت : يا أمير المؤمنين ، أجمع الناس كلهم عليهم ، فلم يكن لهم بجمع الناس طاقة ؛ قال : فبعث إلى عمرو بن سعيد فأقرأه الكتاب ، وأخبره الخبر ، وأمره أن يسير إليهم في الناس ، فقال له : قد كنت ضبطت لك البلاد ، وأحكمت لك الأمور ، فأما الآن إذ صارت إنما هي دماء قريش تُهراق بالصعيد ، فلا أحب أن أكون أنا أتولى ذلك ، يتولّاها منهم من هو أبعد منهم مني . قال : فبعثني بذلك الكتاب إلى مسلم بن عقبة المري - وهو شيخ كبير ضعيف مريض - فدفعته إليه الكتاب ، فقرأه ، وسألني عن الخبر فأخبرته ، فقال لي مثل مقالة يزيد : أما يكون بنو أمية ومواليهم وأنصارهم بالمدينة ألف رجل ! قال :

قلت: بلى يكونون ؛ قال : فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعةً من نهار ! ليس هؤلاء بأهل أن يُنصروا حتى يجهدوا أنفسهم في جهاد عدوّهم ، وعزّ سلطانهم ؛ ثم جاء حتى دخل على يزيد فقال: يا أمير المؤمنين ، لا تنصر هؤلاء فإنهم الأذلاء ؛ أما استطاعوا أن يقاتلوا يوماً واحداً أو شطّره أو ساعةً منه ! دَعهم يا أمير المؤمنين حتى يجهدوا أنفسهم في جهاد عدوّهم ، وعزّ سلطانهم ، ويستين لك من يقاتل منهم على طاعتك ، ويصبر عليها أو يستسلم ؛ قال : وَيَحْك ! إنه لا خير في العيش بعدهم ، فاخرج فأنبئي نَبَاكَ ، وسرّ بالناس ؛ فخرج مناديه فنادى : أن سيروا إلى الحِجاز على أخذِ أعطياتكم كَمَلاً ومَعونة مائة دينار توضعُ في يد الرجل من ساعته ، فانتدب لذلك اثنا عشر ألف رجل .

حدّثنا ابن حميد قال : حدّثنا جرير ، عن مغيرة ، قال : كتب يزيد إلى ابن مَرْجانة : أن اغزِ ابنَ الزبير ؛ فقال : لا أجمعهما للفاسق أبداً ، أقتل ابن بنت رسولِ الله ﷺ ، وأغزو البيت !

قال : وكانت مَرْجانة امرأة صدق ، فقالت لعبيد الله حين قتل الحسين عليه السلام : وَيْلَكَ ! ماذا صنعت ! وماذا ركبت !

رجع الحديث إلى حديث حبيب بن كُرة . قال : فأقبلت حتى أوافيَ عبد الملك بن مروان في ذلك المكان في تلك الساعة أو بُعيدَها شيئاً . قال : فوجدته جالساً متقنّعاً تحت شجرة ، فأخبرته بالذي كان ، فسرّ به ، فانطلقنا حتى دخلنا دار مروان على جماعة بني أمية ، فنبّأهم بالذي قدِمْتُ به ، فحمدوا الله عزّ وجلّ .

قال عبد الملك بن نوفل : حدّثني حبيب ، أنه بلغه في عشرة . قال : فلم أبرح حتى رأيت يزيد بن معاوية خرج إلى الخيل يتصفّحها وينظر إليها ؛ قال : فسمعتُه وهو يقول وهو متقلّد سيفاً ، متنكبّ قوساً عربيّة :

أبلغ أبا بكر إذا الليل سرى وهبط القوم على وادي القرى
عشرون ألفاً بين كهل وفتى أجمع سكران من القوم ترى !
أم جمع يقظان نفي عنه الكرى ! يا عجباً من ملجِدٍ يا عجباً !
مُخادع في الدين يقفو بالعرى

قال عبد الملك بن نوفل : وفصل ذلك الجيش من عند يزيد وعليهم مُسلم بن عُقبة ، وقال له : إن حدث بك حدّث فاستخلف على الجيش حُصين بن ثُمير السكوني ؛ وقال له : ادعُ القوم ثلاثاً ، فإن هم أجابوك وإلا فقاتلهم ، فإذا أظهرت عليهم فأبّخها ثلاثاً ، فما فيها من مالٍ أو رِقّةٍ أو سلاحٍ أو طعامٍ فهو للجنّد ، فإذا مضت الثلاث فاكفّف عن الناس ؛ وانظر علي بن الحسين ، فاكفّف عنه ، واستوص به خيراً ، وأدين مجلسه ، فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه ، وقد أتاني كتابه . وعلي لا يعلم بشيء مما أوصي به يزيد بن معاوية مُسلم بن عُقبة ، وقد كان علي بن الحسين لما خرج بنو أمية نحو الشام أوى إليه ثقل مروان بن الحكم ، وامرأته عائشة بنت عثمان بن عفّان ، وهي أم أبان بن مروان .

وقد حدّثت عن محمد بن سعد ، عن محمد بن عمر ، قال : لما أخرج أهل المدينة عثمان بن محمد من المدينة ، كلّم مروان بن الحكم بن عمر أن يغيبَ أهلَه عنده ، فأبى ابن عمر أن يفعل ، وكلّم علي بن الحسين ، وقال : يا أبا الحسن ، إن لي رجماً ، وحُرْمي تكون مع حُرْمك ، فقال : أفعل ؛ فبعث بحُرْمه إلى علي بن الحسين ، فخرج بحُرْمه وحُرْم مروان حتى وضعهم بيننغ ، وكان مروان شاكراً لعلي بن الحسين ، مع

صداقة كانت بينهما قديمة .

رجع الحديث إلى حديث أبي مخنف عن عبد الملك بن نوفل ، قال : وأقبل مسلم بن عقبة بالجيش حتى إذا بلغ أهل المدينة إقباله وثبوا على من معهم من بني أمية ، فحصرهم في دار مروان ، وقالوا : والله لا نكف عنكم حتى نستنزلكم ونضرب أعناقكم ، أو نعطونا عهد الله وميثاقه لا تبغونا غائلة ، ولا تدلونا على عورة ، ولا تظاهروا علينا عدواً ، فنكف عنكم ونخرجكم عنا ، فأعطوهم عهد الله وميثاقه لا نبغيكم غائلة ، ولا ندل لكم على عورة ؛ فأخرجوهم من المدينة ، فخرجت بنو أمية بأثقالهم حتى لقوا مسلم بن عقبة بوادي القرى ، وخرجت عائشة بنت عثمان بن عفان إلى الطائف ، فتمربع علي بن حسين وهو بمال له إلى جنب المدينة قد اعتزلها كراهية أن يشهد شيئاً من أمرهم ، فقال لها : إحلمي ابني عبدالله معك إلى الطائف ، فحملته إلى الطائف حتى نُقِضت أمور أهل المدينة .

ولما قدمت بنو أمية على مسلم بن عقبة بوادي القرى دعا بعمرو بن عثمان بن عفان أول الناس فقال له : أخبرني خبر ما وراءك ، وأشير عليّ ؛ قال : لا أستطيع أن أخبرك ، أخذ علينا العهد والمواثيق ألا ندل على عورة ، ولا نظاهروا عدواً ، فانتهره ثم قال : والله لولا أنك ابن عثمان لضربت عنقك ، وإيم الله لا أقبلها قرشياً بعدك . فخرج بما لقي من عنده إلى أصحابه ، فقال مروان بن الحكم لابنه عبد الملك : ادخل قبلي لعله يجترىء بك عني ، فدخل عليه عبد الملك ، فقال : هات ما عندك ، أخبرني خبر الناس ، وكيف ترى ؟ فقال له : نعم أرى أن تسير بمن معك ؛ فتنكب هذا الطريق إلى المدينة ، حتى إذا انتهيت إلى أدنى نخل بها نزلت ، فاستظل الناس في ظله ، وأكلوا من صقره ؛ حتى إذا كان الليل أذكت الحرس الليل كله عقبا بين أهل العسكر ، حتى إذا أصبحت صليت بالناس الغداة ، ثم مضيت بهم وتركت المدينة ذات اليسار ، ثم أذرت بالمدينة حتى تأتيتهم من قبل الحرة مشرقاً ، ثم تستقبل القوم ، فإذا استقبلتهم وقد أشرقت عليهم وطلعت الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك ، فلا تؤذيهم ، وتقع في وجوههم فيؤذيهم حرها ، ويصيبهم أذاها ، ويرون ما دمتهم مشرقين من أثلاثهم يبيضكم وجرايكم ، وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم وسواعدكم ما لا ترونه أنتم لشيء من سلاحهم ما داموا مغربين ، ثم قاتلهم واستعجن بالله عليهم ، فإن الله ناصرُك ؛ إذ خالفوا الإمام ، وخرجوا من الجماعة . فقال له مسلم : لله أبوك ! أي امرئ ولد إذ ولدك ! لقد رأى بك خلفاً . ثم إن مروان دخل عليه فقال له : إيه ! قال : أليس قد دخل عليك عبد الملك ! قال : بلى ، وأي رجل عبد الملك ! قلما كلمت من رجال قريش رجلاً به شبيهاً ؛ فقال له مروان : إذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني ؛ قال : أجل ، ثم ارتحل من مكانه ذلك ، وارتحل الناس معه حتى نزل المنزل الذي أمره به عبد الملك ، فصنع فيه ما أمره به ، ثم مضى في الحرة حتى نزلها ، فأتاهم من قبل المشرق . ثم دعاهم مسلم بن عقبة ، فقال : يا أهل المدينة ، إن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية يزعم أنكم الأصل ، وإني أكره هراقة دمايكم ، وإني أوجلكم ثلاثاً ، فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه ، وانصرفت عنكم ، وسرت إلى هذا الملحد الذي بمكة ، وإن أبيتم كنا قد أعدنا إليكم - وذلك في ذي الحجة من سنة أربع وستين ؛ هكذا وجدته في كتابي ، وهو خطأ ، لأن يزيد هلك في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ، وكأنت وقعة الحرة في ذي الحجة من سنة ثلاث وستين يوم الأربعاء لليلتين بقيتا منه .

ولما مضت الأيام الثلاثة قال : يا أهل المدينة ، قد مضت الأيام الثلاثة ، فما تصنعون ؟ أتسلمون أم تحاربون ؟ فقالوا : بل نحارب ؛ فقال لهم : لا تفعلوا ، بل ادخلوا في الطاعة ، ونجعل حدنا وشوكتنا على هذا

الملحد الذي قد جمع إليه المُرَّاق والفُسَّاق من كلِّ أَوْب . فقالوا لهم : يا أعداء الله ، والله لو أردتم أن تجوزوا إليهم ما تركناكم حتى نقاتلكم ، نحن ندعكم أن تأتوا بيت الله الحرام ، وتخيفوا أهله ، وتلحدوا فيه ، وتستحلُّوا حرمة ! لا والله لا نفعل .

وقد كان أهل المدينة اتَّخذوا خندقاً في جانب المدينة ، ونزله جمع منهم عظيمٌ ، وكان عليهم عبدالرحمن بن زهير بن عبد عوف ابن عمِّ عبدالرحمن بن عوف الزهري ، وكان عبدالله بن مطيع على ريع آخر في جانب المدينة ، وكان معقل بن سنان الأشجعيّ على ريع آخر في جانب المدينة ، وكان أمير جماعتهم عبدالله بن حنظلة الغسيل الأنصاري ، في أعظم تلك الأرباع وأكثرها عدداً .

قال هشام : وأما عوانة بن الحكم الكلبي ، فذكر أنَّ عبدالله بن مطيع كان على قريش من أهل المدينة ، وعبدالله بن حنظلة الغسيل على الأنصار ، ومعقل بن سنان على المهاجرين .

قال هشام ، عن أبي مخنف : قال عبدالملك بن نوفل : وصمد مسلم بن عقبة بجميع من معه ، فأقبل من قبل الحرّة حتى ضرب فسطاطه على طريق الكوفة ، ثم وجّه الخيل نحو ابن الغسيل ، فحمل ابن الغسيل على الخيل في الرجال الذين معه حتى كشف الخيل ، حتى انتهوا إلى مسلم بن عقبة ، فنهض في وجوههم بالرجال ، وصاح بهم ، فانصرفوا فقاتلوا قتالاً شديداً ثم إن الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب جاء إلى عبدالله بن حنظلة الغسيل فقاتل في نحو من عشرين فارساً قتالاً شديداً حسناً ، ثم قال لعبدالله : مُر من معك فارساً فليأتني فليقتلني فليقتلني ، فإذا حملت فليحملوا ، فوالله لا أنتهي حتى أبلغ مسلماً ، فإمّا أن أقتله ، وإمّا أن أقتل دونه . فقال عبدالله بن حنظلة لعبدالله بن الضحّاك من بني عبدالأشهل من الأنصار : ناد في الخيل فلتقف مع الفضل بن العباس ، فنادى فيهم فجمعهم إلى الفضل ، فلما اجتمعت الخيل إليه حمل على أهل الشام فانكشفوا ، فقال لأصحابه : ألا ترونهم كُشفاً لثاماً ! احمِلوا أخرى جُعِلَتْ فداكم ! فوالله لئن عاينت أميرهم ، لأقتلنه أو لأقتلن دونه ، إن صبر ساعة مُعقِبٌ سرور أبدي ، إنه ليس بعدُ لصبرنا إلّا النصر . ثم حمل وحمل أصحابه معه ، فانفرجت خيل أهل الشام عن مسلم بن عقبة في نحو من خمسمائة راجل جُشاة على الرُكْب ، مشرعي الأسنة نحو القوم ، ومضى كما هو نحو رايته حتى يضرب رأس صاحب الراية ، وإن عليه لمغفراً ، فقط المغفر ، وفلق هامته فخر ميتاً ، فقال : خذها مني وأنا ابن عبد المطلب ! فظن أنه قُتل مسلماً ، فقال : قتلت طاغية القوم ورب الكعبة ، فقال مسلم : أخطأت استك الحفرة ! وإنما كان ذلك غلاماً له ، يقال له : رومي ، وكان شجاعاً ، فأخذ مسلم رايته ونادى : يا أهل الشام ، أهذا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم ، وأن يُعزّوا به نصر إمامهم ! قُبِحَ الله قتالكم منذ اليوم ! ما أوجعني لقلبي ، وأغيطه لنفسي ، أمّا والله ما جزاؤكم عليه إلّا تُحرموا العطاء ، وأن تجمّروا في أقاصي الثُغُور . شدّوا مع هذه الراية ، تَرَحَّ الله وجوهكم إن لم تُعْتَبُوا ! فمشى برايته ، وشدّت تلك الرجال أمام الراية ، فصّرع الفضل بن عباس ، فقتل وما بينه وبين أطناب مسلم بن عقبة إلّا نحو من عشر أذرع ، وقتل معه زيد بن عبد الرحمن بن عوف ، وقُتل معه إبراهيم بن نعيم العدويّ ، في رجال من أهل المدينة كثير .

قال هشام ، عن عوانة : وقد بلغنا في حديث آخر أنَّ مسلم بن عقبة كان مريضاً يوم القتال ، وأنه أمر بسرير وكرسی فوضع بين الصّفيّين ، ثم قال : يا أهل الشام ، قاتلوا عن أميركم أو دَعُوا . ثم زحفوا نحوهم

فأخذوا لا يصمدون لرُبْعٍ من تلك الأرباع إلا هزموه ، ولا يقاتلون إلا قليلاً حتى تولّوا . ثم إنه أقبل إلى عبدالله بن حنظلة فقاتله أشدَّ القتال ، واجتمع من أراد القتال من تلك الأرباع إلى عبدالله بن حنظلة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فحمل الفضل بن العباس بن ربيعة في جماعة من وجوه الناس وفُرسانهم يريد مسلم بن عقبة ، ومسلم على سرير مريض ، فقال : احمِلوني فضعوني في الصفِّ ، فوضعه بعد ما حملوه أمام فسطاطه في الصفِّ ، وحمل الفضل بن العباس هو وأصحابه أولئك حتى انتهى إلى السرير ، وكان الفضل أحمر ، فلما رفع السيف ليضربه صاح بأصحابه : إن العبد الأحمر قاتلي ، فأين أنتم يا بني الحرائر ! أشجروه بالرَّماح ، فوثبوا إليه فطعنوه حتى سقط .

قال هشام : قال أبو مخنف : ثم إنَّ خيل مسلم ورجاله أقبلت نحو عبدالله بن حنظلة الغسيل ورجاله بعده - كما حدَّثني عبدالله بن مُنْقِذ - حتى دَنَوْا منه ، وركب مُسلم بن عُقبة فرساً له ، فأخذ يسير في أهل الشام ويحرضهم ويقول : يا أهل الشام ، إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها ولا أنسابها ، ولا أكثرها عدداً ، ولا أوسعها بلداً ، ولم يخصكم الله بالذي خصكم به من النصر على عدوكم ، وحسن المنزلة عند أئمتكم ، إلا بطاعتكم واستقامتكم ؛ وإنَّ هؤلاء القوم وأشباههم من العرب غيَّروا فغير الله بهم ، فتمَّوا على أحسن ما كنتم عليه من الطاعة يتمم الله لكم أحسن ما ينيلكم من النصر والفُلج . ثم جاء حتى انتهى إلى مكانه الذي كان فيه ، وأمر الخيل أن تقدم على ابن الغسيل وأصحابه ، فأخذت الخيل إذا أقدمت على الرجال فثاروا في وجوهها بالرَّماح والسيوف نفرت وابتدعرت وأحجمت ، فنادى فيهم مسلم بن عقبة : يا أهل الشام ، ما جعلهم الله أولى بالأرض منكم ، يا حُصَيْن بن ثَمَر ، إنزل في جندك ؛ فنزل في أهل جَمَص ، فمشى إليهم ، فلما رآهم قد أقبلوا يمَشون تحت راياتهم نحو ابن الغسيل قام في أصحابه فقال : يا هؤلاء ؛ إنَّ عدوكم قد أصابوا وجه القتال الذي كان ينبغي أن تقاتلوهم به ، وإني قد ظننت ألا تلبثوا إلا ساعة حتى يفصل الله بينكم وبينهم إمَّا لكم وإمَّا عليكم . أمَّا إنكم أهل البصيرة ودار الهجرة ، والله ما أظنَّ ربكم أصبح عن أهل بلد من بلدان المسلمين بأرضٍ منه عنكم ، ولا على أهل بلد من بلدان العرب بأسخط منه على هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم . إنَّ لكم امرئ منكم مِيتةً هو مِيت بها ، والله ما من مِيتة بأفضل من مِيتة الشهادة ، وقد ساقها الله إليكم فاغتنموها ، فوالله ما كلَّ ما أردتموها وجدتموها . ثم مشى برايته غير بعيد ، ثم وقف ، وجاء ابن ثمر برايته حتى أذناها ، وأمر مسلم بن عُقبة عبدالله بن عضاه الأشعري فمشى في خمسمائة مُرامٍ حتى دَنَوْا من ابن الغسيل وأصحابه ، فأخذوا ينضحونهم بالنَّبل ، فقال ابن الغسيل : علام تستهدفون لهم ! من أراد التعجُّل إلى الجنة فليلزم هذه الراية ؛ فقام إليه كلُّ مستميت ، فقال : الغدو إلى ربكم ، فوالله إني لأرجو أن تكونوا عن ساعة قَرِيرِي عَيْنٍ ؛ فنهض القوم بعضهم إلى بعض فاقتتلوا أشدَّ قتال رُئي في ذلك الزمان ساعةً من نهار ، وأخذ يقدِّم بنيه أمامه واحداً واحداً حتى قتلوا بين يديه ، وابن الغسيل يضرب بسيفه ، ويقول :

بُعْدًا لِمَنْ رَامَ الْفُسَادَ وَطَغَى
وَجَانِبَ الْحَقِّ وَآيَاتِ الْهُدَى
لَا يُبْعِدُ الرَّحْمَنُ إِلَّا مَنْ عَصَى

فُقُتِل ، وقُتِل معه أخوه لأمه محمد بن ثابت بن قيس بن شماس ، استقدم فقاتل حتى قُتِل ، وقال : ما أحبُّ أن الديلم قتلوني مكان هؤلاء القوم ؛ ثم قاتل حتى قُتِل وقُتِل معه محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري ،

فمرّ عليه مروان بن الحَكَم وكأنه برطيل من فضّة، فقال: رحمك الله! فربّ سارية قد رأيتك تطيل القيام في الصلاة إلى جنبها .

قال هشام: فحدّثني عوانة، قال: فبلغنا أن مسلم بن عقبة كان يجلس على كرسي ويحمّله الرجال وهو يقاتل ابن الغسيل يوم الحرّة وهو يقول:

أَحْيَا أَبَاهُ هَاشِمُ بْنُ حَرْمَلَةَ يَوْمَ الْهَبَاتَيْنِ وَيَوْمَ الْيَعْمَلَةِ
كُلُّ الْمُلُوكِ عِنْدَهُ مُغْرِبَلَةٌ وَرُمَحُهُ لِلْوَالِدَاتِ مَشْكَلَةٌ
لَا يُلَبِّثُ الْقَتِيلَ حَتَّى يَجْدِلَهُ يَقْتُلُ ذَا الذَّنْبِ وَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ

قال هشام، عن أبي مخنف: وخرج محمد بن سعد بن أبي وقاص يومئذ يقاتل، فلما انهزم الناس مال عليهم يضربهم بسيفه حتى غلبته الهزيمة، فذهب فيمن ذهب من الناس، وأباح مسلم المدينة ثلاثاً يقتلون الناس ويأخذون الأموال؛ فأفرغ ذلك من كان بها من الصحابة، فخرج أبو سعيد الخدري حتى دخل في كهف في الجبل، فبصر به رجل من أهل الشام، فجاء حتى اقتحم عليه الغار .

قال أبو مخنف: فحدّثني الحسن بن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري، قال: دخل إليّ الشامي يمشي بسيفه، قال: فانتضيت سيفي فمشيت إليه لأرعبه لعله ينصرف عني، فأبى إلا الإقدام عليّ، فلما رأيت أن قد جدّ شمت سيفي، ثم قلت له: ﴿لَنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، فقال لي: من أنت لله أبوك! فقلت: أنا أبو سعيد الخدري؛ قال: صاحب رسول الله ﷺ؟ قلت: نعم؛ فانصرف عني .

قال هشام: حدّثني عوانة، قال: دعا الناس مسلم بن عقبة بقبّاء إلى البيعة، وطلب الأمان لرجلين من قريش: ليزيد بن عبد الله بن زَمْعَةَ بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ومحمد بن أبي الجهم بن حذيفة العدوي ولمعقل بن سنان الأشجعي، فأتي بهما بعد الواقعة بيوم فقال: بايعا، فقال القرشيّان: نبايعك على كتاب الله وسنة نبيّه؛ فقال: لا والله لا أقبلكم هذا أبداً، فقدّمهما فضرب أعناقهما، فقال له مروان: سبحان الله! أتقتل رجلين من قريش أتيا ليؤمنا فضربت أعناقهما! فنخس بالفضيب في خاصرته ثم قال: وأنت والله لو قلت بمقاتلتهما ما رأيت السهء إلا بركة .

قال هشام: قال أبو مخنف: وجاء معقل بن سنان، فجلس مع القوم، فدعا بشارب ليُسقى، فقال له مسلم: أي الشراب أحب إليك؟ قال: العسل، قال: اسقوه، فشرب حتى ارتوى، فقال له: أقضيت ربك من شرابك؟ قال: نعم، قال: لا والله لا تشرب بعده شراباً أبداً إلا الحميم في نار جهنم، أتذكر مقاتلك لأمر المؤمنين: سرت شهرأ، ورجعت شهرأ، وأصبحت صيفراً، اللهم غيّر - تعني يزيداً فقدّمه فضرب عنقه .

قال هشام: وأمّا عوانة بن الحَكَم فذكر أن مسلم بن عقبة بعث عمرو بن محرز الأشجعي فاتاه بمعقل بن سنان فقال له مسلم: مرحباً بأبي محمد! أراك عطشان! قال: أجل، قال: شربوا له عسلاً بالثلج الذي حملتموه معنا - وكان له صديقاً قبل ذلك - فشابهوه له، فلما شرب معقل قال له: سقاك الله من شراب الجنة؛ فقال له

(١) سورة المائدة: ٢٨ .

مسلم: أما والله لا تشرب بعدها شراباً أبداً حتى تشرب من شراب الحميم؛ قال: أنشدك الله والرحم! فقال له مسلم: أنت الذي لقيتني بطبرية ليلة خرجت من عند يزيد، فقلت: سرنا شهراً ورجعنا من عند يزيد صفراً، نرجع إلى المدينة فنخلع هذا الفاسق، ونبايع لرجل من أبناء المهاجرين! فيم غطفان وأشجع من الخلع والخلافة! إني آليت بيمين لا ألقاك في حرب أقدر فيه على ضرب عنقك إلا فعلت ثم أمر به فقتل.

قال هشام: قال عوانة: وأتي يزيد بن وهب بن زُمعة؛ فقال: بايع، قال: أبايحك على سنة عمر؛ قال: أقتلوه؛ قال: أنا أبايح، قال: لا والله لا أقبلك عثرتك، فكلّمه مروان بن الحكم - لصهر كان بينهما - فأمر بمروان فوجئت عنقه، ثم قال: بايعوا على أنكم خول ليزيد بن معاوية، ثم أمر به فقتل.

قال هشام: قال عوانة، عن أبي مخنف. قال: قال عبد الملك بن نوفل بن مساحق: ثم إن مروان أتي بعلي بن الحسين، وقد كان علي بن الحسين حين أخرجت بنو أمية منع ثقل مروان وامراته وآواها، ثم خرجت إلى الطائف، فهي أم أبان ابنة عثمان بن عفان، فبعث ابنه عبدالله معها، فشكر ذلك له مروان - وأقبل علي بن الحسين يمشي بين مروان وعبد الملك يلتمس بهما عند مسلم الأمان، فجاء حتى جلس عنده بينهما، فدعا مروان بشراب ليتحرم بذلك من مسلم، فأتي له بشراب، فشرب منه مروان شيئاً يسيراً، ثم ناوله علياً، فلما وقع في يده قال له مسلم: لا تشرب من شرابنا، فأرعدت كفه، ولم يأمنه على نفسه، وأمسك القدح بكفه لا يشربه ولا يضعه، فقال: إنك إنما جئت تمشي بين هؤلاء لتأمن عندي؛ والله لو كان هذا الأمر إليهما لقتلتك، ولكن أمير المؤمنين أوصاني بك، وأخبرني أنك كاتبته، فذلك نافعك عندي، فإن شئت فاشرب شرابك الذي في يدك، وإن شئت دعونا بغيره، فقال: هذه التي في كفي أريد؛ قال: إشر بها، ثم قال: إليّ ها هنا، فأجلسه معه.

قال هشام: وقال عوانة بن الحكم: لما أتى بعلي بن الحسين إلى مسلم، قال: من هذا؟ قالوا: هذا علي بن الحسين؛ قال: مرحباً وأهلاً، ثم أجلسه معه على السرير والطنفسة، ثم قال: إن أمير المؤمنين أوصاني بك قبلاً، وهو يقول: إن هؤلاء الخبيثاء شغلوني عنك وعن وصلتك؛ ثم قال لعلي: لعل أهلك فزعوا! قال: إي والله، فأمر بدابته فأسرجه، ثم حمله فردّه عليها.

قال هشام: وذكر عوانة أنّ عمرو بن عثمان لم يكن فيمن خرج من بني أمية، وأنه أتى به يومئذ إلى مسلم بن عقبة فقال: يا أهل الشام، تعرفون هذا؟ قالوا: لا؛ قال: هذا الخبيث ابن الطيّب، هذا عمرو بن عثمان بن عفان أمير المؤمنين، هيه يا عمرو! إذا ظهر أهل المدينة قلت: أنا رجل منكم، وإن ظهر أهل الشام قلت: أنا ابن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، فأمر به ففتفت لحيته، ثم قال: يا أهل الشام، إن أمّ هذا كانت تدخل الجعل في فيها ثم تقول: يا أمير المؤمنين حاجيتك، ما في فمي؟ وفي فمها ما ساءها وناءها، فخلّ سبيلها، وكانت أمّه من دؤس.

قال أبو جعفر الطبري: فحدثني أحمد بن ثابت، عمّن حدّثه، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر. وحدثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، عن محمد بن عمر، قالوا: كانت وقعة الجرة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ثلاث وستين. وقال بعضهم: لثلاث ليالٍ بقيت منه.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبدالله بن الزبير. حدّثني الحارث، قال: حدّثنا ابن سعد، أخبرنا

محمد بن عمر ، قال : حدّثني عبدالله بن جعفر ، عن ابن عوف ، قال : حجّ ابن الزبير بالناس سنة ثلاث وستين ، وكان يسمّى يومئذٍ العائد ، ويرون الأمر شورى . قال : فلما كانت ليلة هلال المحرم ونحن في منزلنا إذ قدم علينا سعيد مولى المسور بن مخرمة ، فخبّرنا بما أوقع مسلم بأهل المدينة وما نيل منهم ، فجاءهم أمر عظيم ، فرأيت القوم شهروا وجدّوا وأعدّوا وعرفوا أنه نازل بهم .

وقد ذكر من أمر وقعة الحرّة ومقتل ابن الغسيل أمر غير الذي روي عن أبي مخنف ، عن الذين روى ذلك عنهم ، وذلك ما حدّثني أحمد بن زهير قال : حدّثنا أبي ، قال : حدّثنا وهب بن جرير ، قال : حدّثنا جويرية بن أسماء ، قال : سمعتُ أشياخ أهل المدينة يحدثون أنّ معاوية لما حضرته الوفاة دعا يزيد فقال له : إنّ لك من أهل المدينة يوماً ، فإنّ فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة ، فإنه رجل قد عرفته نصيحتي . فلما هلك معاوية وفد إليه وفد من أهل المدينة ، وكان ممن وفد عليه عبدالله بن حنظلة بن أبي عامر ، وكان شريفاً فاضلاً سيّداً عابداً ، معه ثمانية بنين له ، فأعطاه مائة ألف درهم ، وأعطى بنيه لكل واحد منهم عشرة آلاف سوى كسوتهم ومُحلاتهم ، فلما قدم المدينة عبدالله بن حنظلة أتاه الناس فقالوا : ما وراءك ؟ قال : جئتكم من عند رجل والله لو لم أجد إلاّ بني هؤلاء لجاهدته بهم ؛ قالوا : قد بلغنا أنه أجداك وأعطاك وأكرمك ؛ قال : قد فعل ، وما قبلت منه إلاّ لأنقوي به ؛ وحضض الناس فبايعوه ، فبلغ ذلك يزيد ، فبعث مسلم بن عقبة إليهم ، وقد بعث أهل المدينة إلى كلّ ماء بينهم وبين الشام ، فصبّوا فيه زقاً من قطران ، وغور ، فأرسل الله السماء عليهم ، فلم يستقوا بدلو حتى وردوا المدينة ، فخرج إليهم أهل المدينة بجموع كثيرة ، وهيئة لم ير مثلاً . فلما رآهم أهل الشام هابوهم وكرهوا قتالهم ، ومسلم شديد الوجع ، فبينما الناس في قتالهم إذ سمعوا التكبير من خلفهم في جوف المدينة ، وأقحم عليهم بنو حارثة أهل الشام ، وهم على الجّد ، فانهمز الناس ، فكان من أصيب في الخندق أكثر من قتل من الناس ، فدخلوا المدينة ، وهزم الناس وعبدالله بن حنظلة مستند إلى أحد بنيه يغطّ نوماً ، فنّبّه ابنه ، فلما فتح عينيه فرأى ما صنع الناس أمر أكبر بنيه ، فتقدّم حتى قتل ، فدخل مسلم بن عقبة المدينة ، فدعا الناس للبيعة على أنهم خولّ ليزيد بن معاوية ، يحكم في دماهم وأموالهم وأهليهم ما شاء .

ثم دخلت سنة أربع وستين ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

قال أبو جعفر: فمن ذلك مسير أهل الشام إلى مكة لحرب عبدالله بن الزبير ومن كان على مثل رأيه في الامتناع على يزيد بن معاوية .

ولما فرغ مسلم بن عقبة من قتال أهل المدينة وإنهاب جنده أموالهم ثلاثاً ، شَخَصَ بمن معه من الجند متوجّهاً إلى مكة ، كالذي ذكر هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ، قال: حَدَّثَنِي عبد الملك بن نوفل ، أَنَّ مسلماً خرج بالناس إلى مكة يريد ابن الزبير ، وخلف على المدينة رَوْح بن زنباع الجُدّامي .

وأما الواقدي فإنه قال : خلف عليها عمرو بن محرز الأشجعي ، قال ويقال : خلف عليها رَوْح بن زنباع الجُدّامي .

ذكر موت مسلم بن عقبة ورمي الكعبة وإحراقه

رجع الحديث إلى أبي مخنف . قال : حتى إذا انتهى إلى المشلل - ويقال : إلى قفا المشلل - نزل به الموت ، وذلك في آخر المحرم من سنة أربع وستين ، فدعا حصين بن غمير السُّكُوفِيَّ فقال له : يا بن بردعة الحمار ، أما والله لو كان هذا الأمر إليّ ما وليتُك هذا الجند ، ولكنّ أمير المؤمنين ولّاك بعدي ، وليس لأمر أمير المؤمنين مرْدٌ ؛ خُذْ عني أربعاً: أسرع السير ، وعجل الوقاع ، وعمّ الأخبار ، ولا تُمكن قُرَشِيّاً من أذنك . ثم إنه مات ، فدفن بقفا المشلل .

قال هشام بن محمد الكلبي : وذكر عَوَانة أَنَّ مسلم بن عقبة شَخَصَ يريد ابن الزبير ، حتى إذا بلغ ثنية هَرَشَا نزل به الموت ، فبعث إلى رؤوس الأجناد ، فقال : إنّ أمير المؤمنين عهد إليّ إنّ حَدَثَ بي حَدَثُ الموت أن أستخلف عليكم حصين بن غمير السُّكُوفِيَّ ، والله لو كان الأمر إليّ ما فعلت ، ولكن أكره معصية أمير المؤمنين عند الموت ؛ ثم دعا به فقال : انظر يا بردعة الحمار فاحفظ ما أوصيك به ؛ عمّ الأخبار ، ولا تُرْعِ سمعك قريشاً أبداً ، ولا تردّن أهل الشام عن عدوهم ، ولا تقيمّن إلا ثلاثاً حتى تناجز ابن الزبير الفاسق ؛ ثم قال : اللهم إني لم أعمل عملاً قطّ بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله أحبّ إليّ من قتلي أهل المدينة ، ولا أرجي عندي في الآخرة . ثم قال لبني مُرّة : زُرّاعتي التي بحوران صدقة على مرّة ، وما أغلقت عليه فلانة بابها فهو لها - يعني أمّ وليده - ثم مات .

وما مات خرج حصين بن غنير بالناس ، فقدم على ابن الزبير مكة وقد بايعه أهلها وأهل الحجاز .
قال هشام : قال عوانة : قال مسلم قبل الوصية : إن ابني يزعم أن أمّ ولدي هذه سقتني السم ؛ وهو كاذب ، هذا دائماً يُصيّنا في بطوننا أهل البيت . قال : وقدم عليه - يعني ابن الزبير - كل أهل المدينة ، وقد قدم عليه نجدة بن عامر الحنفي في أناس من الخوارج يمنعون البيت ، فقال لأخيه المنذر : ما لهذا الأمر ولدفع هؤلاء القوم غيري وغيرك - وأخوه المنذر ممن شهد الحرّة ، ثم لحق به - فجرد إليهم أخاه في الناس ، فقاتلهم ساعة قتالاً شديداً ثم إن رجلاً من أهل الشام دعا المنذر إلى المبارزة - قال : والشامي على بغلة له - فخرج إليه المنذر ، فضرب كل واحد منهما صاحبه ضربة خرساً صاحبه لها ميتاً ، فجثا عبد الله بن الزبير على ركبتيه وهو يقول : يا رب أبرها من أصلها ولا تشدها ، وهو يدعو على الذي بارز أخاه . ثم إن أهل الشام شدوا عليه شدة منكرة ، وانكشف أصحابه انكشافاً ، وعثرت بغلته فقال : تعساً ! ثم نزل وصاح بأصحابه : إليّ ؛ فأقبل إليه المسور بن عخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة ، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهري ، فقاتلوا حتى قتلوا جميعاً . وصار بهم ابن الزبير يجالدهم حتى الليل ، ثم انصرفوا عنه ؛ وهذا في الحصار الأول . ثم إنهم أقاموا عليه يقاتلونه بقيّة المحرم وصفر كله ، حتى إذا مضت ثلاثة أيام من شهر ربيع الأول يوم السبت سنة أربع وستين قذفوا البيت بالمجانيق ، وحرّقوه بالنار ، وأخذوا يرتجزون ويقولون :

خُطارةٌ مثلُ الفنيقِ المزيّدِ نَرْمِي بها أَعْوَادَ هذا المَسْجِدِ

قال هشام : قال أبو عوانة : جعل عمرو بن حوط السدوسي يقول :

كَيْفَ تَرَى صَنِيعَ أُمِّ فَرَوَةَ تَأْخُذُهُمْ بَيْنَ الصِّفَا وَالْمَرَوَةِ

يعني بأمّ فروة المنجنيق .

وقال الواقدي : سار الحُصين بن غنير حين دُفن مسلم بن عقبة بالمشلل لسبع بقين من المحرم ، وقدم مكة لأربع بقين من المحرم ، فحاصر ابن الزبير أربعاً وستين يوماً حتى جاءهم نعي يزيد بن معاوية لهلal ربيع الآخر .

وفي هذه السنة حُرقت الكعبة .

ذكر السبب في إحراقها :

قال محمد بن عمر : احترقت الكعبة يوم السبت لثلاث ليال خلون من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين قبل أن يأتي نعي يزيد بن معاوية بتسعة وعشرين يوماً ، وجاء نعيه لهلal ربيع الآخر ليلة الثلاثاء .

قال محمد بن عمر : حدّثنا رياح بن مسلم ، عن أبيه ، قال : كانوا يوقدون حول الكعبة ، فأقبلت شرّرة هبت بها الريح ، فاحترقت ثياب الكعبة ، واحترق خشب البيت يوم السبت لثلاث ليال خلون من ربيع الأول .

قال محمد بن عمر : وحدّثني عبد الله بن زيد ، قال : حدّثني عروة بن أذينة ، قال : قدمت مكة مع أمي يوم احترقت الكعبة قد خلّصت إليها النار ، ورأيتهما مجرّدة من الحرير ، ورأيت الركن قد اسود وانصدع في ثلاثة أمكنة ، فقلت : ما أصاب الكعبة ؟ فأشاروا إلى رجل من أصحاب عبد الله بن الزبير ، قالوا : هذا احترقت

بسببه ، أخذ قَبَساً في رأس رمح له فطِيرَت الرِيحُ به ، ففَضَرَت أَسْتَارَ الكعبة ما بين الركن اليماني والأسود .
وفيها هلك يزيدُ بنُ معاوية ، وكانت وفاته بقرية من قُرى حمصَ يقال لها حُوارين من أرض الشام ، لأربع
عشرة ليلةً خلت من ربيع الأول سنة أربع وستين وهو ابن ثمان وثلاثين سنةً في قول بعضهم .

حدَّثني عمر بن شُبَّة ، قال : حدَّثنا محمد بن يحيى ، عن هشام بن الوليد المخزومي ، أنَّ الزَّهري كتب
لجدِّه أَسَنَانَ الخلفاء ، فكان فيما كَتَب من ذلك : ومات يزيدُ بن معاوية وهو ابن تسع وثلاثين ؛ وكانت ولايته
ثلاث سنين وستة أشهر في قول بعضهم ، ويقال : ثمانية أشهر .

وحدَّثني أحمد بن ثابت عمَّن حدَّثه ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، أنه قال : توفي يزيدُ بنُ
معاوية يومَ الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، وكانت خلافته ثلاث سنين وثمانية أشهر إلا
ثمان ليالٍ ، وصلَّى على يزيدَ ابنه معاوية بن يزيد .

وأما هشام بن محمد الكلبي فإنه قال في سنِّ يزيدَ خلافَ الذي ذكره الزهري ؛ والذي قال هشام في ذلك
- فيما حدَّثنا عنه - : استُخلف أبو خالد يزيد بن معاوية بن أبي سُفْيَان وهو ابن اثنتين وثلاثين سنةً وأشهر في
هلاجل رجب سنة ستين ، وولى سنتين وثمانية أشهر ، وتوفي لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ثلاثٍ
وستين وهو ابن خمس وثلاثين ، وأمه مَيْسُون بنت بَحْدَل بن أنيف بن وَلَجَة بن قُنافَة بن عدي بن زهير بن حارثة
الكلبي .

ذكر عدد ولده

فمنهم معاوية بن يزيد بن معاوية ، يُكنى أبا ليل ، وهو الذي يقول فيه الشاعر :
إني أرى فتنةً قد حان أولُها ، والمُلكُ بعد أبي لَيْلى لِمَن غلبَا
وخالد بن يزيد - وكان يُكنى أبا هاشم ، وكان يقال : إنه أصاب عمل الكيمياء - وأبو سُفْيَان ، وأُمُّها أم
هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، تزوّجها بعد يزيد مروان ، وهي التي يقول لها
الشاعر :

إنعِمي أُمَّ خالدٍ رُبَّ ساعٍ لقاعدٍ

وعبد الله بن يزيد ، قيل : إنه من أُرْمى العرب في زمانه ، وأُمُّه أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر ، وهو
الأسوار ، وله يقول الشاعر :

زَعَمَ النَّاسُ أَنَّ خَيْرَ قَرِيشٍ كُلَّهُمْ حِينَ يُذَكَّرُ الْأَسْوَارُ

وعبد الله الأصغر ، وعُمر ، وأبو بكر ، وعُتْبَة ، وحَرْب ، وعبد الرحمن ، والربيع ، ومحمد ؛ لأمهات
أولاد شقّى .

خلافة معاوية بن يزيد

وفي هذه السنة بويع لمعاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سُفْيَان بالشام بالخلافة ، ولعبد الله بن الزُّبَيْر

بالحجاز .

ولما هلك يزيد بن معاوية مكث الحصين بن نمير وأهل الشام يقاتلون ابن الزبير وأصحابه بمكة - فيما ذكر هشام عن عوانة - أربعين يوماً ، قد حصروهم حصاراً شديداً ، وضيقوا عليهم . ثم بلغ موته ابن الزبير وأصحابه ، ولم يبلغ الحصين بن نمير وأصحابه ؛ فحدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل ، قال : حدثنا عبدالعزيز بن خالد بن رستم الصنعاني أبو محمد قال : حدثنا زياد بن جيل ، قال : بينا حصين بن نمير يقاتل ابن الزبير ، إذ جاء موت يزيد ؛ فصاح بهم ابن الزبير ، فقال : إن طاعيتكم قد هلك ، فمن شاء منكم أن يدخل فيما دخل فيه الناس فليفعل ، فمن كره فليلحق بشأمة فعدوا عليه يقاتلونه . قال : فقال ابن الزبير للحصين بن نمير : أدن مني أحدثك ، فدنا منه فحدثه ، فجعل فرس أحدهما يجفل - والجفل : الروث - فجاء حمام الحرم يلتقط من الجفل ، فكف الحصين فرسه عنهن ، فقال له ابن الزبير : مالك ؟ قال : أخاف أن يقتل فرسي حمام الحرم ؛ فقال له ابن الزبير : أتحرج من هذا وتريد أن تقتل المسلمين ! فقال له : لا أقاتلك ؛ فأذن لنا نطف بالبيت ، ونصرف عنك ، ففعل فانصرفوا .

وأما عوانة بن الحكم فإنه قال - فيما ذكر هشام ، عنه - قال : لما بلغ ابن الزبير موت يزيد - وأهل الشام لا يعلمون بذلك ، قد حصروه حصاراً شديداً وضيقوا عليه - أخذ يناديهم هو وأهل مكة : علام تقاتلون ؟ قد هلك طاعيتكم ؛ وأخذوا لا يصدقونه حتى قدم ثابت بن قيس بن المنقر النخعي من أهل الكوفة في رؤوس أهل العراق ، فمر بالحصين بن نمير - وكان له صديقاً ، وكان بينهما صهر ، وكان يراه عند معاوية ، فكان يعرف فضله وإسلامه وشرقه - فسأل عن الخبر ، فأخبره بهلاك يزيد ، فبعث الحصين بن نمير إلى عبدالله بن الزبير ، فقال : موعداً ما بيننا وبينك الليلة الأبطح ، فالتقيا ، فقال له الحصين : إن يك هذا الرجل قد هلك فانت أحن الناس بهذا الأمر ؛ هلم فلنبايعك ، ثم أخرج معي إلى الشام ، فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسائهم ، فوالله لا يختلف عليك اثنان ، وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك ، والتي كانت بيننا وبين أهل الحرة ؛ فكان سعيد بن عمرو يقول : ما منعه أن يبايعهم ويخرج إلى الشام إلا تطير ، لأن مكة التي منعه الله بها ؛ وكان ذلك من جند مروان ، وإن عبدالله والله لو سار معهم حتى يدخل الشام ما اختلف عليه منهم اثنان . فزعم بعض قريش أنه قال : أنا أهدر تلك الدماء ! أما والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة ، وأخذ الحصين يكلمه سراً ، وهو يجهر جهراً ، وأخذ يقول : لا والله لا أفعل ، فقال له الحصين بن نمير : قبح الله من يعدك بعد هذه داهياً قط أو أدبيراً ! قد كنت أظن أن لك رأياً . ألا أراني أكلمك سراً وتكلمني جهراً ، وأدعوك إلى الخلافة ، وتعدني القتل والهلكة !

ثم قام فخرج وصاح في الناس ، فأقبل فيهم نحو المدينة ، وندم ابن الزبير على الذي صنع ، فأرسل إليه : أما أن أسير إلى الشام فلست فاعلاً ، وأكره الخروج من مكة ، ولكن بايعوا لي هنالك فإني مؤمنكم وعادل فيكم . فقال له الحصين : أرايت إن لم تقدم بنفسك ، ووجدت هنالك أناساً كثيراً من أهل هذا البيت يطلبونها يجيبهم الناس ، فما أنا صانع ؟ فأقبل بأصحابه ومن معه نحو المدينة ؛ فاستقبله علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ومعه قت وشعير ، وهو علي راحلة له ، فسلم على الحصين ، فلم يكذ يلتفت إليه ، ومع الحصين بن نمير فرس له عتيق ، وقد فني قته وشعيره ، فهو غرض ، وهو يسب غلامه ويقول : من أين نجد هنا لدابتنا علفاً ! فقال له علي بن الحسين : هذا علف عندنا ، فاعلف منه دابتك ، فأقبل علي علي عند ذلك بوجهه ، فأمر له بما

كان عنده من علف، واجترأ أهل المدينة وأهل الحجاز على أهل الشام فذلّوا حتى كان لا ينفرد منهم رجل إلا أخذ بلجام دابته ثم نُكس عنها ، فكانوا يجتمعون في معسكرهم فلا يفترون . وقالت لهم بنو أمية : لا تبرحوا - - - - - تحملونا معكم إلى الشام ، ففعلوا ، ومضى ذلك الجيش حتى دخل الشام ، وقد أوصى يزيد بن معاوية البعثة لابنه معاوية بن يزيد ، فلم يلبث إلا ثلاثة أشهر حتى مات .

وقال عوانة : استخلف يزيد بن معاوية ابنه معاوية بن يزيد ، فلم يمكث إلا أربعين يوماً حتى مات .
وحَدَّثني عمر ، عن علي بن محمد ، قال : لما استُخلف معاوية بن يزيد وجمع عُمّال أبيه ، وبويع له بدمشق ، هلك بها بعد أربعين يوماً من ولايته .

ويُكنى أبا عبدالرحمن ، وهو أبوليلي ، وأمه أم هاشم بنت أبي هاشم بن عُتبة بن ربيعة ، وتوفي وهو ابن ثلاث عشرة سنة وثمانية عشر يوماً .

وفي هذه السنة بايع أهل البصرة عبيد الله بن زياد ، على أن يقوم لهم بأمرهم حتى يصطليح الناس على إمام يرتضونه لأنفسهم ، ثم أرسل عبيد الله رسولا إلى الكوفة يدعوهم إلى مثل الذي فعل من ذلك أهل البصرة ، فأبوا عليه ، وحصبوا الوالي الذي كان عليهم ، ثم خالفه أهل البصرة أيضاً ، فهاجت بالبصرة فتنة ، ولحق عبيد الله بن زياد بالشام .

ذكر الخبر عما كان من أمر عبيد الله بن زياد

وأمر أهل البصرة معه بها بعد موت يزيد

وحَدَّثني عمر بن شبة ، قال : حَدَّثني موسى بن إسماعيل ، قال : حَدَّثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن الحسن ، قال : كتب الضحّاك بن قيس إلى قيس بن الهيثم حين مات يزيد بن معاوية : سلام عليك ، أما بعد ، فإنّ يزيد بن معاوية قد مات ، وأنتم إخواننا ، فلا تسبقونا بشيء حتى نختار لأنفسنا .

حَدَّثني عمر ، قال : حَدَّثنا زهير بن حرب ، قال : حَدَّثنا وهب بن حمّاد ، قال : حَدَّثنا محمد بن أبي عيّنة ، قال : حَدَّثني شهرک ، قال : شهدت عُبيد الله بن زياد حين مات يزيد بن معاوية قام خطيباً ، فَحَمِدَ اللَّهَ وأثنى عليه ثم قال :

يا أهل البصرة ، انسبوني ، فوالله لتجدنّ مهاجر والدي ومولدي فيكم ، وداري ، ولقد وليتكم وما أحصى ديوان مقاتلتكم إلا سبعين ألف مقاتل ولقد أحصى اليوم ديوان مقاتلتكم ثمانين ألفاً ، وما أحصى ديوان عمالكم إلا تسعين ألفاً ، ولقد أحصى اليوم مائة وأربعين ألفاً ، وما تركت لكم ذا ظنة أخافه عليكم إلا وهو في سجنكم هذا . وإن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية قد توفي ، وقد اختلف أهل الشام ، وأنتم اليوم أكثر الناس عدداً ، وأعرض فناءً ، وأغناه عن الناس ، وأوسع بلداداً ، فاختراروا لأنفسكم رجلاً ترتضونه لدينكم وجماعتكم ، فأنّا أول راض من رضيتموه وتابع ، فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترتضونه ، دخلتم فيما دخل فيه المسلمون ، وإن كرهتم ذلك كنتم على جدّيلتكم حتى تعطوا حاجتكم ، فما بكم إلى أحد من أهل البلدان حاجة ، وما يستغني الناس عنكم .

فقامت خطباء أهل البصرة فقالوا : قد سمعنا مقالَتك أيُّها الأمير ، وإنا والله ما نعلم أحداً أقوى عليها منك ، فهلّم فلنبايعك ؛ فقال : لا حاجة لي في ذلك ، فاختاروا لأنفسكم ؛ فأبوا عليه ، وأبى عليهم ، حتى كرّروا ذلك عليه ثلاث مرّات ، فلما أبوا بسط يده فبايعوه ، ثم انصرفوا بعد البيعة وهم يقولون : لا يظنّ ابن مرجانة أنّا نستقاد له في الجماعة والفرقة ، كذّب والله ! ثم وثبوا عليه .

حدّثني عمر ، قال زهير : قال : حدّثنا وهب ، قال . وحدّثنا الأسود بن شيبان ، عن خالد بن سمير ، أنّ شقيق بن ثور ومالك بن مسمع وحضين بن المنذر أتوا عبيد الله ليلاً وهو في دار الإمارة ، فبلغ ذلك رجلاً من الحيّ من بني سدّوس ؛ قال : فانطلقت فلزمت دار الإمارة ، فلبثوا معه حتى مضى عليه الليل ، ثم خرجوا ومعهم بغلٌ موقرٌ مالا ؛ قال : فأتيت حضيناً فقلت : مُرّ لي من هذا المال بشيء ، فقال : عليك ببني عمك ، فأتيت شقيقاً فقلت : مُرّ لي من هذا المال بشيء . قال : وعلى المال مولى له يقال له : أيوب . فقال : يا أيوب ، أعطه مائة درهم ؛ قلت : أما مائة درهم والله لا أقبلها ، فسكت عني ساعة ، وسارَ هيّته ، فأقبلت عليه فقلت : مُرّ لي من هذا المال بشيء ، فقال : يا أيوب ، أعطه مائتي درهم ، قلت : لا أقبل والله مائتين ، ثم أمر بثلاثمائة ثم أربعمائة ، فلما انتهينا إلى الطفاوة قلت : مُرّ لي بشيء ؛ قال : أرايت إنّ لم أفعل ما أنت صانع ؟ قلت : أنطقت والله حتى إذا توسّطت دورَ الحيّ وضعت إصبعي في أذنيّ ، ثم صرخت بأعلى صوتي : يا معشر بكر بن وائل ، هذا شقيق بن ثور وحضين بن المنذر ومالك بن المسمع ، قد انطلقوا إلى ابن زياد ، فاختلفوا في دمائكم ؛ قال : ما له فعّل الله به وفعل ! ويليكَ أعطه خمسمائة درهم ؛ قال : فأخذتها ثم صبّحت غادياً على مالك . قال وهب : فلم أحفظ ما أمر له به مالك . قال : ثم رأيت حضيناً فدخلت عليه ، فقال : ما صنع ابن عمك ؟ فأخبرته وقلت : أعطني من هذا المال ، فقال : إنّنا قد أخذنا هذا المال ونجونا به ، فلن نخشى من الناس شيئاً ، فلم يعطيني شيئاً .

قال أبو جعفر : وحدّثني أبو عبيدة معمر بن المثنى أنّ يونس بن حبيب الجرّمي حدّثه ، قال : لما قتل عبيد الله بن زياد الحسين بن علي عليه السلام وبني أبيه ، بعث برؤوسهم إلى يزيد بن معاوية ، فسُرّ بقتلهم أولاً ، وحسنت بذلك منزلة عبيد الله عنده ، ثم لم يلبث إلّا قليلاً حتى ندم على قتل الحسين ، فكان يقول : وما كان عليّ لو احتملت الأذى وأنزلته معي في داري ، وحكمته فيما يريد ؛ وإن كان عليّ في ذلك وكفّ ووهن في سلطاني ، حفّظاً لرسول الله ﷺ ورعاية لحقه وقرايته ! لعن الله ابن مرجانة ، فإنه أخرجه واضطره ، وقد كان سأله أن يُخْلِ سبيله ويرجع فلم يفعل ، أو يضع يده في يدي ، أو يلحق بثغر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه الله عزّ وجلّ فلم يفعل ، فأبى ذلك وردّه عليه وقتله ، فبغضني بقتله إلى المسلمين ، وزرع لي في قلوبهم العداوة ، فبغضني البرّ والفاجر ، بما استعظم الناس من قتلي حسيناً ؛ ما لي ولا بن مرجانة لعن الله وغضب عليه !

ثم إنّ عبيد الله بعث مولى يقال له أيوب بن مُهران إلى الشام ليأتيه بخبر يزيد ، فركب عبيد الله ذات يوم حتى إذا كان في رحبة القصابين ، إذا هو بأيوب بن مُهران قد قديم ، فلحقه فأسرّ إليه موت يزيد بن معاوية ، فرجع عبيد الله من مسيره ذلك فأبى منزله ، وأمر عبد الله بن حصن أحد بني ثعلبة بن يربوع فنادى : الصلاة جامعة .

قال أبو عبيدة : وأما عمير بن معن الكاتب ، فحدّثني قال : الذي بعثه عبيد الله مُهران مولاه ، فعاد عبيد

الله عبدالله بن نافع أخيه زياد لأمه ، ثم خرج عبيدالله ماشياً من خَوْخَة كانت في دار نافع إلى المسجد ، فلما كان في صحنه إذا هو بمولاه حُمران أدنى ظلمة عند المساء - وكان حُمران رسولَ عبيدالله بن زياد إلى معاوية حياته وإلى يزيد . فلما رآه لوم يكن أن له أن يقدم - قال : مَهَيْم ! قال : خيرٌ ، قال : وما وراءك؟ قال : أدنو منك؟ قال : نعم - وأسرَّ إليه موتَ يزيد واختلاف أمر الناس بالشام ، وكان يزيدُ مات يوم الخميس للنصف من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين - فأقبل عبيدالله من قُورِهِ ، فأمر منادياً فنَادَى : الصلاة جامعة ، فلما اجتمع الناس صَعِدَ المنبرَ فنَغَى يزيدَ ، وعَرَضَ بثلبه لِقَصْدِ يزيد إياه قبل موته حتى يخافه عبيدالله ، فقال الأحنف لعبيدالله : إنه قد كانت ليزيدَ في أعناقنا بَيْعَة ، وكان يقال : أَعْرِضْ عن ذي فَنَنْ ، فأعَرَضَ عنه ، ثم قام عبيدالله يذكر اختلاف أهل الشام ، وقال : إِنِّي قد وليتكم . . . ثم ذكر نحو حديث عمر بن شَبَّة ، عن زهير بن حرب إلى : فبايعوه عن رضاً منهم ومشورة . ثم قال : فلما خرجوا من عنده جعلوا يمسحون أكفهم بباب الدار وحيطانه ، فيقولون : ظَنَّ ابن مرجانة أنا نوليه أمرنا في الفرقة ! قال : فأقام عبيدالله أميراً غيرَ كثير حتى جعل سلطانه يَخُفُّ ، ويأمرنا بالأمر فلا يقضَى ، ويرى الرأي فيردَّ عليه ، ويأمر بحبس المخطيء فيُحال بين أعوانه وبينه .

قال أبو عبيدة : فسمعتُ غيلانَ بن محمد يحدث عن عثمان البَتيّ ، قال : حدَّثني عبدالرحمن بن جَوْشَرٍ ، قال : تبعْتُ جنازةً فلما كان في سوق الإبل إذا رجلٌ على فرس شهباء متقنَّ سلاح وفي يده لواء ، وهو يقول : أيها الناس ، هلموا إليَّ أدعُكم إلى ما لم يدعُكم إليه أحد ، أدعُكم إلى العائد بالحرم - يعني عبدالله بن الزبير . قال : فتجمَّع إليه نُويْسٌ ، فجعلوا يصفقون على يديه ، ومضيئنا حتى صلينا على الجنازة ، فلما رجعنا إذا هو قد انضمَّ إليه أكثرُ من الأولين ، ثم أخذ بين دار قيس بن الهيثم بن أسماء بن الصلت السلمي ودار الحارثيين قَبْلَ بني تميم في الطريق الذي يأخذ عليهم ، فقال : ألا مَنْ أرادني فأنا سَلَمَة بن دُؤيب - وهو سَلَمَة بن دُؤيب بن عبدالله بن محكم بن زيد بن رباح بن يربوع بن حنظلة - قال : فلقيني عبدالرحمن بن بكر عند الرَّحبة ، فأخبرته بخبر سَلَمَة بعد رجوعي ، فأقْبَلَ عبدالرحمن عبيدالله فحدَّثه بالحديث عني ، فبعث إليَّ ، فأتيتُه ، فقال : ما هذا الذي خَبَر به عنك أبو بَحْرٍ؟ قال : فاقتصصت عليه القِصَّة حتى أتيتُ على آخرها ، فأمر فنودي على المكان : الصلاة جامعة ، فتجمَّع الناس ، فأنشأ عبيدالله يقصُّ أمره وأمرهم ، وما قد كان دعاهم إلى مَنْ يرتضونه ، فيبايعه معهم ، وإنكم أبيتم غيري ، وإنه بلغني أنكم مسحتم أكفكم بالحيطان وباب الدار ، وقتلتم ما قلتُم ، وإني أمرُ بالأمر فلا يُنفَذ ، وُردَّ عليَّ رأيي ، وتحول القبائل بين أعواني وطلبتي ، ثم هذا سَلَمَة ابن دُؤيب يدعو إلى الخلاف عليكم ، إرادة أن يفرِّق جماعتكم ، ويضرب بعضكم جباه بعض بالسيف . فقال الأحنف صَخْر بن قيس بن معاوية بن حصين بن عباد بن النزال بن مُرة بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، والناس جميعاً : نحن نأتيك بسَلَمَة ؛ فأتوا سَلَمَة ، فإذا جمعة قد كُتِفَ ، وإذا الفَتْق قد اتَّسع على الرَّاقي ، وامتنع عليهم ، فلما رأوا ذلك قَعَدُوا عن عبيدالله بن زياد فلم يأتوه .

قال أبو عبيدة : فحدَّثني غيرُ واحد ، عن شُبَّرة بن الجارود الهذليّ ، عن أبيه الجارود ، قال : وقال عبدالله في خطبته : يا أهل البصرة ، والله لقد لبسنا الخرز واليُمَنة واللَّين من الثياب فَنَحْنُ لقد أجهنا ذلك وأجهته جلودنا ، فما بنا إلى أن نُعقِبها الحديدَ ! يا أهل البصرة ، والله لو اجتمعتم على دُئْب غير ليكسروه ما كسرهموه . قال الجارود : فوالله ما رُمي بجُمَاح حتى هَرَب ، فتَوَارَى عند مسعود فلما قُتل مسعود لحق بالشام .

قال يونس : وكان في بيت مال عبيد الله يومَ خطب الناس قبل خروج سلمة ثمانية آلاف ألف أو أقل - وقال علي بن محمد : تسعة عشر ألف ألف - فقال للناس : إن هذا فيكم ، فخذوا أعطياتكم وأرزاق ذرائعكم منه ، وأمر الكتبة بتحصيل الناس وتخريج الأسماء ، واستعجل الكتّاب في ذلك حتى وكل بهم من يجسهم بالليل في الديوان ، وأسرجوا بالشمع . قال : فلما صنعوا ما صنعوا وقعدوا عنه ، وكان من خلاف سلمة عليه ما كان ، كفّ عن ذلك ، ونقلها حين هرب ، فهي إلى اليوم تردّد في آل زياد ، فيكون فيهم العرس أو الماتم فلا يرى في قريش مثلهم ، ولا في قريش أحسن منهم في الغضارة والكسوة . فدعا عبيد الله رؤساء خاصة السلطان ، فأرادهم أن يقاتلوا معه ، فقالوا : إن أمرنا قوادنا قاتلنا معك ، فقال إخوة عبيد الله لعبيد الله : والله ما من خليفة فتقاتل عنه فإن هُزمت فتت إليه وإن استمدته أمدك ، وقد علمت أن الحرب دُول ، فلا ندري لعلها تدول عليك ، وقد اتخذنا بين أظهر هؤلاء القوم أموالاً ، فإن ظفروا أهلكونا وأهلكوها ، فلم تبق لك باقية . وقال له أخوه عبد الله لأبيه وأمه مرجانة : والله لئن قاتلت القوم لأعتمدن على طبة السيف حتى يخرج من صُلبي . فلما رأى ذلك عبيد الله أرسل إلى حارث بن قيس بن صُهبان بن عون بن علاج بن مازن بن أسود بن جَهْضَم بن جذيمة بن مالك بن فهم ، فقال له : يا حار ، إن أبي كان أوصاني إن احتججت إلى الهرب يوماً أن اختاركم ، وإن نفسي تأبى غيركم ، فقال الحارث : قد أبلوك في أبيك ما قد علمت ، وأبلوه فلم يجدوا عنده ولا عندك مكافأة ، وما لك مرد إذا اخترتنا ، وما أدري كيف أتأتى لك إن أخرجتك نهراً ! إني أخاف ألا أصِل بك إلى قومي حتى تُقتل وأقتل ، ولكني أقيم معك حتى إذا وارى دمس دمساً وهذأت القدم ، ردت خلفي لثلا تُعرف ، ثم أخذتك على أحوالي بني ناجية ، قال عبيد الله : نعم ما رأيت ، فأقام حتى إذا قيل : أخوك أم الذئب ، حمله خَلْفَه ، وقد نَقَلَ تلك الأموال فأحرزها ، ثم انطلق به يمرّ به على الناس ، وكانوا يتحارسون مخافة الحرورية فيسأل عبيد الله أين نحن ؟ فيخبره ؛ فلما كانوا في بني سليم قال عبيد الله : أين نحن ؟ قال : في بني سليم ؛ قال : سلّمنا إن شاء الله ، فلما أتى بني ناجية قال : أين نحن ؟ قال : في بني ناجية ؛ قال : نجونا إن شاء الله ؛ وقال بنو ناجية : مَنْ أنت ؟ قال : الحارث بن قيس ؛ قالوا : ابن أختكم ؛ وعرف رجل منهم عبيد الله فقال : ابن مرجانة ! فأرسل سهماً فوقه في عمامته ، ومضى به الحارث حتى ينزله دار نفسه في الجهاضم ، ثم مضى إلى مسعود بن عمرو بن عدي بن محارب بن صُنَيْم بن مُلَيْح بن شَرطان بن مَعْن بن مالك بن فهم ، فقالت الأزد ومحمد بن أبي عيينة ، فلما رآه مسعود قال : يا حار ، قد كان يتعوذ من سوء طوارق الليل ، فتعوذ بالله من شر ما طرقتنا به ؛ قال الحارث : لم أطرقك إلا بخير ، وقد علمت أن قومك قد أنجوا زياداً فوقوا له ، فصارت لهم مكرمة في العرب يفتخرون بها عليهم ، وقد بايعتم عبيد الله ببيعة الرضا ؛ رضاً عن مشورة ، وبيعة أخرى قد كانت في أعناقكم قبل البيعة - يعني بيعة الجماعة - فقال له مسعود : يا حار ، أترى لنا أن نعاذي أهل بصيرنا في عبيد الله ، وقد أبلينا في أبيه ما أبلينا ، ثم لم نكافأ عليه ، ولم نُشكر ما كنتُ أحسب أن هذا من رأيك ؛ قال الحارث : إنه لا يُعاديك أحد على الوفاء ببيعتك حتى تبلغه مأمته .

قال أبو جعفر : وأما عمر فحدثني قال : حدثني زهير بن حرب ، قال : حدثنا وهب بن جرير ، قال : حدثنا أبي ، عن الزبير بن الجريت ، عن أبي ليبد الجهمسي ، عن الحارث بن قيس ، قال : عرض نفسه - يعني عبيد الله بن زياد - عليّ ، فقال : أما والله إني لأعرف سوء رأي كان في قومك ؛ قال : فوقفت له ، فأردفته على بغلي - وذلك ليلاً - فأخذت على بني سليم ، فقال : مَنْ هؤلاء ؟ قلت : بنو سليم ؛ قال : سلّمنا إن شاء الله ؛ ثم

مَرَرْنَا ببني ناجية وهم جُلُوسٌ ومعهم السلاح - وكان الناس يتحارسون إذ ذاك في مجالسهم - فقالوا: مَنْ هذا؟ قلت: الحارث بن قيس، قالوا: امض راشداً، فلما مضينا قال رجل منهم: هذا والله ابن مرجانة خلفه، فرماه بسهم، فوضعه في كُورِ عِمَامَتِهِ، فقال: يا أبا محمد، مَنْ هؤلاء؟ قال: الذين كنت تزعم أنهم من قريش، هؤلاء بنونا ناجية؛ قال: نَجُونَا إن شاء الله، ثم قال: يا حارث، إنك قد أحسنت وأجملت، فهل أنت صانع ما أشير عليك؟ قد علمت منزلة مسعود بن عمرو في قومه وشرفه وسنّه وطاعة قومه له، فهل لك أن تذهب بي إليه فأكون في داره، فهي وسط الأزد، فإنك إن لم تفعل صدع عليك أمر قومك؛ قلت: نعم؛ فانطلقت به، فما شعر مسعود بشيء حتى دخلنا عليه وهو جالس ليلتئذ يوقد بقضيب على لبنة، وهو يعالج خفيه قد خلج أحدهما وبقي الآخر، فلما نظر في وجوهنا عرفنا وقال: إنه كان يتعوذ من طوارق السوء، فقلت له: أفتُخرجه بعدما دخل عليك بيتك! قال: فأمره فدخل بيت عبدالغافر بن مسعود - وامرأة عبدالغافر يومئذ خيرة بنت خفاف بن عمرو - قال: ثم ركب مسعود من ليلته ومعه الحارث وجماعة من قومه، فطافوا في الأزد ومجالسهم، فقالوا: إن ابن زياد قد فقِدَ، وإنا لا نأمن أن تلطخوا به، فأصبحوا في السلاح، وفقد الناس ابن زياد فقالوا: أين توجه؟ فقالوا: ما هو إلا في الأزد.

قال وهب: فحدثنا أبو بكر بن الفضل، عن قبيصة بن مروان أنهم جعلوا يقولون: أين ترونه توجه؟ فقالت عجوز من بني عقيل: أين ترونه توجه! اندحس والله في أجمة أبيه.

وكانت وفاة يزيد حين جاءت ابن زياد وفي بيوت مال البصرة ستة عشر ألف ألف، ففرق ابن زياد طائفة منها في بني أبيه، وحمل الباقي معه، وقد كان دعا البخارية إلى القتال معه، ودعا بني زياد إلى ذلك فأبوا عليه.

حدثني عمر، قال: حدثني زهير بن حرب، قال: حدثنا الأسود بن شيبان، عن عبدالله بن جرير المازني، قال: بعث إلي شقيق بن ثور فقال لي: إنه قد بلغني أن ابن منجوف هذا وابن مسمع يدلجان بالليل إلى دار مسعود ليروا ابن زياد إلى الدار ليصلوا بين هذين الغارين، فيهرقوا دماءكم، ويُعزّوا أنفسهم، ولقد هممت أن أبعث إلى ابن منجوف فأشده وثاقاً، وأخرجه عني؛ فاذهب إلى مسعود فاقراً عليه السلام مني، وقال له: إن ابن منجوف وابن مسمع يفعلان كذا وكذا، فأخرج هذين الرجلين عنك. قال: وكان معه عبيدالله وعبدالله ابنا زياد. قال: فدخلت على مسعود وابنا زياد عنده: أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، فقلت: السلام عليك أبا قيس، قال: وعليك السلام؛ قلت: بعثني إليك شقيق بن ثور يقرأ عليك السلام ويقول لك: إنه بلغني، فرد الكلام بعينه إليّ «فأخرجهما عنك»؛ قال مسعود: والله فعلت ذاك؛ فقال عبيدالله: كيف أبا ثور - ونسي كنيته، إنما كان يكنى أبا الفصل - فقال أخوه عبدالله: إنا والله لا نخرج عنكم، قد أجزمونا، وعقدتم لنا ذمتكم، فلا نخرج حتى نُقتل بين أظهركم، فيكون عاراً عليكم إلى يوم القيامة.

قال وهب: حدثنا الزبير بن الحريث، عن أبي لبيد، أن أهل البصرة اجتمعوا فقلدوا أمرهم النعمان بن صُهبان الراسبي ورجلاً من مضر ليختاراهم رجلاً فيؤلوه عليهم، وقالوا: من رضىتنا لنا فقد رضىناه. وقال غير أبي لبيد: الرجل المضري قيس بن الهيثم السلميّ. قال أبو لبيد: ورأي المضري في بني أمية، ورأي النعمان في بني هاشم، فقال النعمان: ما أرى أحداً أحق بهذا الأمر من فلان - لرجل من بني أمية - قال: وذلك رأيك؟ قال: نعم؛ قال: قد قلدتك أمري، ورضيت من رضىت. ثم خرجا إلى الناس، فقال

المضري: قد رَضِيتُ مَنْ رَضِيَ النعمان ، فمن سَمَى لكم فأنا به راضٍ ؛ فقالوا للنعمان : ما تقول ! فقال : ما أرى أحداً غيرَ عبدالله بن الحارث - وهو بَبة - فقال المضري : ما هذا الذي سَمَّيتَ لي ؟ قال : بلى ، لعمري إنه هو ، فرضيَ الناس بعبدالله وبايعوه .

قال أصحابنا : دعت مُضَرُّ إلى العباس بن الأسود بن عوف الزهري ، ابن أخي عبدالرحمن بن عوف ، ودَعَتِ اليمَن إلى عبدالله بن الحارث بن نوفل ، فتراضى الناس أن حَكَمُوا قيس بن الهيثم والنعمان بن صُهَبان الراسبيّ لينظرا في أمر الرجلين ، فاتفق رأيهما على أن يوليا المضري الهاشمي إلى أن يجتمع أمرُ الناس على إمام ؛ ففعل في ذلك :

نَزَعْنَا وَوَلَّيْنَا وَبَكَرُ بْنُ وَائِلٍ تَجَرُّ خُصَاهَا تَبْتَغِي مِنْ تَحَالِفٍ
فلما أمروا بَبة على البصرة ولَّى شرطته هِثيان بن عديّ السَّدُوسِيّ .

قال أبو جعفر : وأما أبو عُبَيْدة فإنه - فيما حَدَّثني محمد بن علي ، عن أبي سعدان ، عنه - قصَّ من خبر مسعود وعبيدالله بن زياد وأخيه غيرَ القِصَّة التي قصَّها وهب بن جرير ، عَمَّن روى عنهم خبرهم ، قال : حَدَّثني مسلمة بن محارب بن سلم بن زياد وغيره من آل زياد ، عَمَّن أدرك ذلك منهم ومِنْ موالِيهم والقوم أعلم بحديثهم ، أنَّ الحارث بن قيس لم يكَلِّم مسعوداً ، ولكنه آمنَ عبيدالله ، فحمل معه مائة ألف درهم ، ثم أتى بها إلى أم بسطام امرأة مسعود ، وهي بنت عمِّه ، ومعه عُبَيْدالله وعبدالله ابنا زياد ، فاستأذنَ عليها ، فأذنت له ، فقال لها الحارث : قد أَتَيْتُكَ بأمرِ تَسُودِينَ به نساءكِ وتَمَيَّنَ به شرف قومكِ ، وتَعَجَّلِينَ غنىً ودنياً لكِ خاصَّة ، هذه مائة ألف درهم فاقبضيها ، فهي لك ، وَضَمِّي عبيدالله . قالت ، إني أخاف ألا يرضى مسعود بذلك ولا يقبله ؛ فقال الحارث : ألبسيه ثوباً من أثوابي ، وأدخله بيتك ، وخلي بيننا وبين مسعود ؛ فقبضت المال ، وفعلت ، فلما جاء مسعود أخبرته ، فأخذ برأسها ، فخرج عبيدالله والحارث من حَجَلتها عليه ، فقال عبيدالله : قد أجارَني ابنة عمِّك عليك ، وهذا ثوبك عليّ ، وطعامُك في بطني ، وقد التفتَ عليّ بيتُك ، وشهد له على ذلك الحارث ، وتلطَّفا له حتى رضي .

قال أبو عُبَيْدة : وأعطى عبيدالله الحارث نحواً من خمسين ألفاً ، فلم يزل عبيدالله في بيت مسعود حتى قُتِل مسعود ؛ قال أبو عُبَيْدة : فَحَدَّثني يزيد بن سُمَيْر الجَرَمِيّ ، عن سَوَّار بن عبدالله بن سعيد الجَرَمِيّ ؛ قال : فلما هرب عبيدالله غَبرَ أهلُ البَصْرَةِ بغير أمير ، فاختلفوا فيمن يؤمِّرونَ عليهم ، ثم تراضوا برجلين يختارانَ لهم خَيرةً ، فيرضون بها إذا اجتمعوا عليها ، فتراضوا بـقيس بن الهيثم السُّلَمِيّ ، وبنعمان بن سُفْيَان الراسبيّ - راسب بن جَرْم بن رَبَّان بن حُلُوان بن عمران بن الحاف بن قُضاعة - أن يختارا مَنْ يرضيانَ لهم ، فذَكَرَا عبدالله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب - وأمه هند بنت أبي سُفْيَان بن حرب بن أُمَيَّة - وكان يلقب بَبة ، وهو جدُّ سليمان بن عبدالله بن الحارث ، وذكرَا عبدالله بن الأسود الزَّهْرِيّ . فلما أطبقا عليهما اتَّعَدَا المِرْبَد ، وواعدا الناس أن تجتمع آراؤهم على أحد هذين .

قال : فحضر الناس ، وحضرت معهم قارعة المِربَد ؛ أي أعلاه ، فجاء قيس بن الهيثم ، ثم جاء النعمان بعد ، فتجاوَل قيس والنعمان ، فأرى النعمان قيساً أنَّ هواه في ابن الأسود ، ثم قال : إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نتكلم معاً ، وأراد أن يجعل الكلام إليه ، ففعل قيس وقد اعتقد أحدهما على الآخر ، فأخذ النعمان على الناس

عهداً ليرضون بما يختار. قال: ثم أتى النعمانُ عبدَ الله بن الأسود فأخذ بيده ، وجعل يشترط عليه شرائطَ حتى ظنَّ الناس أنه مبايعه ، ثم تركه ، وأخذ بيد عبد الله بن الحارث ، فاشترط عليه مثلَ ذلك ، ثم حمد الله تعالى وأثنى عليه ، وذكر النبي ﷺ وحقَّ أهل بيته وقرابته ، ثم قال : يا أيها الناس ، ما تنقمون من رجل من بني عمِّ نبيكم ﷺ ، وأمه هند بنت أبي سفيان ! فإن كان فيهم فهو ابن أختكم ؛ ثم صفق على يده وقال : ألا إني قد رضيت لكم به ، فنادوا : قد رَضِينَا ؛ فأقبلوا بعبد الله بن الحارث إلى دار الإمارة حتى نزلها ، وذلك في أول جمادى الآخرة سنة أربع وستين ، واستعمل على شرطته هيمان بن عديّ السدوسيّ ، ونادى في الناس : أن احضروا البيعة ، فحضروا فبايعوه ، فقال الفرزدق حين بايعه :

وبايعتُ أقواماً وفيت بعهدِهِم وببئةٍ قد بايعتُهُ غيرَ نادِم

قال أبو عبيدة : فحدثني زهير بن هُنَيْد ، عن عمرو بن عيسى ، قال : كان منزل مالك بن مَسْمَع الجَحْدَرِيّ في الباطنة عند باب عبد الله الإصبهاني في خُطّ بني جَحدر ، الذي عند مسجد الجامع ، فكان مالك يحضر المسجد ، فبينما هو قاعد فيه - وذلك بعد يسيرٍ من أمر ببة - وفي الحلقة رجلٌ من ولد عبد الله عامر بن كُرَيْز القرشي يريد ببة ، ومعه رسالة من عبد الله بن خازم ، وبيعته بهرة ، فتنازعوا ، فأغلظ القرشيُّ للملك ، فلطم رجلٌ من بكر بن وائل القرشيّ ، فتهايج من ثم من مضر وربيعة ، وكثرتهم ربيعة الذين في الحلقة ، فنادى رجل : يالَ تميم ! فسمعت الدعوة عصبية من ضبة ابن أدّ - كانوا عند القاضي - فأخذوا رماح حرس من المسجد وترسّتهم ، ثم شدّوا على الرّبعين فهزموهم ، وبلغ ذلك شقيق بن ثور السدوسي - وهو يومئذ رئيس بكر بن وائل - فأقبل إلى المسجد فقال : لا تجدنّ مضرٍ إلا قتلتموه ، فبلغ ذلك مالك بن مسمع ، فأقبل متفضلاً يسكن الناس ، فكفّ بعضهم عن بعض ، فمكث الناس شهراً أو أقلّ ، وكان رجل من بني يشكر يجالس رجلاً من بني ضبة في المسجد ، فتذاكرا لطمة البكريّ القرشيّ ، ففخر اليشكريّ . قال : ثم قال : ذهبت ظلفاً . فأحفظ الضبّي بذلك ، فوجأ عنقه ، فوقّذه الناس في الجمعة ، فحُمِل إلى أهله ميتاً - أعني اليشكري - فنارت بكر إلى رأسهم أشيم بن شقيق ، فقالوا : سرُّ بنا ؛ فقال : بل أبعث إليهم رسلاً ، فإن سيّونا لحقنا وإلا سرنا إليهم ، فأبى ذلك بكر ، فاتوا مالك بن مسمع - وقد كان قبل ذلك ملكاً عليهم قبل أشيم ، فغلب أشيم على الرئاسة حين شخص أشيم إلى يزيد بن معاوية ؛ فكتب له إلى عبيد الله بن زياد أن ردّوا الرئاسة إلى أشيم ، فأبى اللّهّازم ، وهم بنو قيس بن ثعلبة وحلفاؤهم عنزة وشيخ اللات وحلفاؤها عجل حتى توافوا هم وآل ذهل بن شيان وحلفاؤها يشكر ، وذهل بن ثعلبة وحلفاؤها ضبيعة بن ربيعة بن نزار ؛ أربع قبائل وأربع قبائل ، وكان هذا الحلف في أهل الوبر في الجاهلية ، فكانت حنيفة بقيت من قبائل بكر لم تكن دخلت في الجاهلية في هذا الحلف ، لأنهم أهل مدر ، فدخلوا في الإسلام مع أخيهم عجل ، فصاروا لهزمة ، ثم تراضوا بحكم عمران بن عصام العنزيّ أحد بني هُثَيْم ، وردّها إلى أشيم ، فلما كانت هذه الفتنة استخفت بكر مالك بن مسمع ، فخفت وجمع وأعدّ ، فطلب إلى الأزد أن يجددوا الحلف الذي كان بينهم قبل ذلك في الجماعة على يزيد بن معاوية ، فقال حارثة بن بدر في ذلك :

نزعنا وأمّرنا وبكرُ بن وائل تجر خُصاها تبتغي من تحالف
وما بات بكريّ من الدهر ليلةً فيُضبح إلا وهو ليلٌ عارف

قال : فبلغ عبيد الله الخبر - وهو في رُحْل مسعود - من تباعد ما بين بكر وتميم ، فقال لمسعود : إلقِ مالكاً فجدّد الحلف الأول ؛ فلقِيَه ، فترادّا ذلك ، وتابى عليهما نفر من هؤلاء وأولئك ، فبعث عبيد الله أخاه عبدالله مع مسعود ، فأعطاه جزيلاً من المال ، حتى أنفق في ذلك أكثر من مائتي ألف درهم على أن يبايعوهما ، وقال عبيد الله لأخيه : استوثق من القوم لأهل اليمن ، فجددوا الحلف ، وكتبوا بينهم كتاباً سوى الكتابين اللذين كانا كُتِبَا بينهما في الجماعة ، فوضعوا كتاباً عند مسعود بن عمرو .

قال أبو عبيدة : فحدثني بعض ولد مسعود ، أن أول تسمية من فيه ، الصلت بن حُرَيْث بن جابر الحنفي ، ووضعوا كتاباً عند الصلت بن حريث أول تسميته ابن رجاء العوذّي ، - من عوذ بن سُود ، وقد كان بينهم قبل هذا حلف .

قال أبو عبيدة : وزعم محمد بن حفص ويونس بن حبيب وهبيرة بن حُدَيْر وزهير بن هنيذ ، أن مضر كانت تكثر ربيعة بالبصرة ، وكانت جماعة الأزدي آخر من نزل بالبصرة ، كانوا حيث مُصِّرَت البصرة ، فحول عمر بن الخطاب رحمه الله من تنوخ من المسلمين إلى البصرة ، وأقامت جماعة الأزدي لم يتحولوا ، ثم لحقوا بالبصرة بعد ذلك في آخر خلافة معاوية ، وأول خلافة يزيد بن معاوية ، فلما قدموا قالت بنو تميم للأحنف : بادِر إلى هؤلاء قبل أن تسبقنا إليهم ربيعة ، وقال الأحنف : إن أتوكم فاقبلوهم ، وإلا لا تأتوهم فإنكم إن أتيتموهم صرتم لهم أتباعاً . فأتاهم مالك بن مسمع ورئيس الأزدي يومئذ مسعود بن عمرو والمعني ، فقال مالك : جدّدوا حلفنا وحلف كندة في الجاهلية ، وحلف بني دُهل بن ثعلبة في طيء بن أد من ثعل ؛ فقال الأحنف : أما إذا أتوهم فلن يزالوا لهم أتباعاً أذناباً .

قال أبو عبيدة : فحدثني هبيرة بن حُدَيْر ، عن إسحاق بن سويد ، قال : فلما أن جرت بكر إلى نصر الأزدي على مضر ، وجدّدوا الحلف الأول ، وأرادوا أن يسيروا ، قالت الأزدي : لا نسير معكم إلا أن يكون الرئيس منا ، فرأسوا مسعوداً عليهم .

قال أبو عبيدة : فحدثني مسلمة بن محارب ، قال : قال مسعود لعبيد الله : سر معنا حتى نعيذك في الدار ؛ فقال : ما أقدر على ذلك ، إمض أنت ، وأمر برواحله فشدوا عليها أدواتها وسوادها ، وتزمل في أهبة السفر ، وألقوا له كرسيّاً على باب مسعود ، فقعده عليه ؛ وسار مسعود ، وبعث عبيد الله غلماناً له على الخيل مع مسعود ، وقال لهم : إني لا أدري ما يحدث فأقول : إذا كان كذا ؛ فليأتني بعضكم بالخبر ، ولكن لا يحدثن خير ولا شر إلا أتاني بعضكم به ، فجعل مسعود لا يأتي على سكة ، ولا يتجاوز قبيلة إلا أتى بعض أولئك الغلمان بخبر ذلك ، وقدم مسعود ربيعة ، وعليهم مالك بن مسمع ، فأخذوا جميعاً سكة المريد ، فجاء مسعود حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، وعبد الله بن الحارث في دار الإمارة ، فقليل له : إن مسعوداً وأهل اليمن وربيعة قد ساروا ، وسيهيج بين الناس شر ، فلو أصلحت بينهم أو ركبت في بني تميم عليهم ! فقال : أبعدهم الله ! لا والله لا أفسدت نفسي في إصلاحهم ، وجعل رجل من أصحاب مسعود يقول :

لأنك حننٌ ببنة جارية في قبنة
تمشط رأس لغبة

فهذا قول الأزدي وربيعة ، فأما مضر فيقولون : إن أمه هند بنت أبي سفيان كانت ترقصه وتقول هذا ؛ فلما

لم يحل أحد بين مسعود وبين صعود المنبر ، خرج مالك بن مسمع في كتيبته حتى علا الجبان من سكة المزبد ، ثم جعل يمر بعداد دور بني تميم حتى دخل سكة بني العدوية من قبل الجبان ، فجعل يحرق دورهم للشحناء التي في صدورهم ، لقتل الضبي الشكري ، ولاستعراض ابن خازم ربعة بهرة ؛ قال فبينما هو في ذلك إذ أتوه فقالوا : قتلوا مسعوداً ، وقالوا : سارت بنو تميم إلى مسعود ، فأقبل حتى إذا كان عند مسجد بني قيس في سكة المربد ، وبلغه قتل مسعود ، وقف .

قال أبو عبيدة : فحدثني زهير بن هنيذ ، قال : حدثنا الضحاك - أو الوضاح بن خيثمة أحد بني عبدالله بن دارم - قال : حدثني مالك بن دينار ، قال : ذهبت في الشباب الذين ذهبوا إلى الأحنف ينظرون ؛ قال : فأتيت وأتته بنو تميم ، فقالوا : إن مسعوداً قد دخل الدار وأنت سيدنا ، فقال : لست بسيدكم ، إنما سيدكم الشيطان .

وأما هبيرة بن حدير ، فحدثني عن إسحاق بن سويد العدوي ، قال : أتيت منزل الأحنف في النظارة ، فأتوا الأحنف فقالوا : يا أبا بحر ، إن ربعة والأزد قد دخلوا الرحبة ، فقال : لستم بأحق بالمسجد منهم ؛ ثم أتوه فقالوا : قد دخلوا الدار ؛ فقال : لستم بأحق بالدار منهم ؛ فتسرع سلمة بن ذؤيب الرياحي ، فقال : إلي يا معشر الفتيان ، فإنما هذا جيس لا خير لكم عنده ، فبدرت ذؤيان بني تميم فانتدب معه خمسمائة ، وهم مع ماه أفريدون ، فقال لهم سلمة : أين تريدون ؟ قالوا : إياكم أردنا ؛ قال : فتقدموا .

قال أبو عبيدة : فحدثني زهير بن هنيذ ، عن أبي نعامة ، عن ناشب بن الحسحاس وحيد بن هلال ، قال : أتينا منزل الأحنف بحضرة المسجد ، قال : فكنا فيمن ينظر ، فأتته امرأة بمجمر فقالت : ما لك وللرياسة ! تجمر فإنما أنت امرأة ؛ فقال : است المرأة أحق بالمجمر ، فأتوه فقالوا : إن علية بنت ناجية الرياحي - وهي أخت مطر ، وقال آخرون : عزة بنت الحر الرياحية - قد سلبت خلاخيلها من ساقها ، وكان منزلها شارعاً في رحبة بني تميم على الميضأة ، وقالوا : قتلوا الصباغ الذي على طريقك ، وقتلوا المقعد الذي كان على باب المسجد ، وقالوا : إن مالك بن مسمع قد دخل سكة بني العدوية من قبل الجبان ، فحرق دوراً ، فقال الأحنف : أقيموا البيعة على هذا ، ففي دون هذا ما يحل قتلهم ؛ فشهدوا عنده على ذلك ، فقال الأحنف : أجا عباد ؟ وهو عباد بن حصين بن يزيد بن عمرو بن أوس بن سيف بن عزم بن جلزة بن بيان بن سعد بن الحارث الحبطة بن عمرو بن تميم ؛ قالوا : لا ، ثم مكث غير طويل ، فقال : أجا عباد ؟ قالوا : لا ؛ قال : فهل ها هنا عبس بن طلق بن ربعة بن عامر بن بسطام بن الحکم بن ظالم بن صريم بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد ؟ فقالوا : نعم ؛ فدعاه ، فانتزع معجراً في رأسه ، ثم جثا على ركبتيه ، فعقده في رُمح ثم دفعه إليه ، فقال : سر . قال : فلما ولي قال : اللهم لا تُخزها اليوم ، فإنك لم تخزها فيما مضى . وصاح الناس : هاجت زبراء - وزبراء أمة الأحنف ، وإنما كنوا بها عنه - قالوا : فلما سار عبس جاء عباد في ستين فارساً فسأل ، ما صنع الناس ؟ فقالوا : ساروا ؛ قال : ومن عليهم ؟ قالوا : عبس بن طلق الصريمي ؛ فقال عباد : أنا أسير تحت لواء عبس ! فرجع والفرسان إلى أهله .

فحدثني زهير : قال : حدثنا أبو ربحانة العُرَني ، قال : كنت يوم قتل مسعود تحت بطن فرس الزرد بن عبدالله السعدي أعذو حتى بلغنا شريعة القديم .

قال إسحاق بن سويد فأقبلوا : فلما بلغوا أفواه السكك وقفوا ، فقال لهم ماه أفريدون بالفارسية : ما لكم يا معشر الفتيان؟ قالوا : تلقونا بأسنة الرماح ؛ فقال لهم بالفارسية : صكّوهم بالفنجان - أي بخمس نشابات في رمية ، بالفارسية - والأساوره أربعمائه ، فصكّوهم بألفي نشابة في دفعة ، فأجلوا عن أبواب السكك ، وقاموا على باب المسجد ، ودلّفت التميمية إليهم ، فلما بلغوا الأبواب وقفوا ، فسألهم ماه أفريدون : ما لكم؟ قالوا . أسندوا إلينا أطراف رماحهم ؛ قال : ارموهم أيضاً ؛ فرمّوهم بألفي نشابة ، فأجلوهم عن الأبواب ، فدخلوا المسجد ، فأقبلوا ومسعود يخطب على المنبر ويحضض ، فجعل غطفان بن أنيف بن يزيد بن فهدة ، أحد بني كعب بن عمرو بن تميم ، وكان يزيد بن فهدة فارساً في الجاهلية يقاتل ويحضّ قومه ويرتجز :

يال تميم إنها مذكورة إن فات مسعود بها مشهورة
فاستمسكوا بجانب المقصورة

قال إسحاق بن يزيد : فأتوا مسعوداً وهو على المنبر يحضّ ، فاستنزلوه فقتلوه ، وذلك في أول شوال سنة أربع وستين ، فلم يكن القوم شيئاً ، فانهزموا . وبادر أشيم بن شقيق القوم بباب المقصورة هارباً ، فطعنه أحدّهم ، فنجى بها ، ففي ذلك يقول الفرزدق :

لو أن أشيم لم يسبق أسنتنا وأخطأ الباب إذ نيراننا تقد
إذا لصاحب مسعوداً وصاحبه وقد تهافت الأعفاج والكبد

قال أبو عبيدة : فحدثني سلام بن أبي خيرة ، وسمعتُه أيضاً من أبي الحسناء كُسيب العنبري يحدث في حلقة يونس ، قال : سمعنا الحسن بن أبي الحسن يقول في مجلسه في مسجد الأمير : فأقبل مسعود من ها هنا - وأشار بيده إلى منازل الأزد في أمثال الطير - معلماً بقاء ديباج أصفر مغير بسواد ، يأمر الناس بالسنة ، وينهى عن الفتنة : ألا إن من السنة أن تأخذ فوق يديك ، وهم يقولون : القمر القمر ، فوالله ما لبثوا إلا ساعة حتى صار قمرهم قميراً ، فأتوه فاستنزلوه عن المنبر وهو عليه - قد علم الله - فقتلوه .

قال سلام في حديثه : قال الحسن : وجاء الناس من هاهنا - وأشار بيده إلى دور بني تميم .

قال أبو عبيدة : فحدثني مسلمة بن محارب ، قال : فأتوا عبيد الله فقالوا : قد صعد مسعود المنبر ، ولم يرم دون الدار بكتاب ، فبيناه في ذلك يتهيأ ليجيء إلى الدار ، إذ جاؤوا فقالوا : قد قتل مسعود ، فاغترز في ركابه فلحق بالشام ، وذلك في شوال سنة أربع وستين .

قال أبو عبيدة : فحدثني رواد الكعبي ، قال : فأتى مالك بن مسمع أناس من مضر ، فحصروه في داره ، وحرّقوا ، ففي ذلك يقول غطفان بن أنيف الكعبي في أرجوزة :

وأصبح ابن مسمع محصوراً يبغي قصوراً دونه ودوراً
حتى شبيها حوله السعيرا

ولما هرب عبيد الله بن زياد أتبعوه ، فأعجز الطلبة ، فانتهبوا ما وجدوا له ، ففي ذلك يقول وافد بن خليفة بن أسماء ، أحد بني صخر بن منقر بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد :

يا ربّ جبّار شديد كلبه قد صار فينا تاجه وسلبه

مِنْهُمْ عُبَيْدُ اللَّهِ حِينَ نَسْلُبُهُ جِيَادَهُ وَبَزَهُ وَنَهَبُهُ
يَوْمَ التَّقَى مِقْنَبُنَا وَمِقْنَبُهُ لَوْلَمْ يُنَجِّ ابْنَ زِيَادٍ هَرَبُهُ

وقال جرهم بن عبدالله بن قيس ، أحد بني العدوية في قتل مسعود في كلمة طويلة :

وَمَسْعُودَ بْنَ عَمْرٍو إِذْ أَتَانَا صَبَحْنَا حَدَّ مَطْرُورٍ سَنِينَا
رَجَا التَّأْمِيرَ مَسْعُودٌ فَأَصْحَى صَرِيحاً قَدْ أَزْرَنَاهُ الْمَنُونَا

قال أبو جعفر محمد بن جرير : وأما عمر ؛ فإنه حدثني في أمر خروج عبيد الله إلى الشام ، قال حدثني زهير ، قال : حدثنا وهب بن جرير بن حازم ، قال : حدثنا الزبير بن الجريت ، قال : بعث مسعود مع ابن زياد مائة من الأزد ، عليهم قرّة بن عمرو بن قيس ، حتى قدموا به الشام .

وحدثني عمر ، قال : حدثنا أبو عاصم النبيل ، عن عمرو بن الزبير وخلاد بن يزيد الباهلي والوليد بن هشام ، عن عمه ، عن أبيه ، عن عمرو بن هبيرة ، عن يساف بن شريح الشكري ، قال ؛ وحدثني علي بن محمد ، قال - قد اختلفوا فزاد بعضهم على بعض - إن ابن زياد خرج من البصرة ، فقال ذات ليلة : إنه قد ثقل عليّ ركوب الإبل ، فوطئوا لي على ذي حافر ؛ قال : فألقيت له قطيعة على حمار ، فركبه وإن رجليه لتكادان تحذّان في الأرض . قال الشكري : فإنه ليسير أمامي إذ سكت سكّنة فأطالها ، فقلت في نفسي : هذا عبيد الله أمير العراق أمس نائم الساعة على حمار ، لو قد سقط منه أعنته ؛ ثم قلت : والله لئن كان نائماً لأنغصن عليه نومَه فدنوت منه ، فقلت : أناثم أنت ؟ قال : لا ؛ قلت : فما أسكتك ؟ قال : كنت أحدث نفسي ؛ قلت : أفلا أحدثك ما كنت تحدث به نفسك ؟ قال : هات ، فوالله ما أراك تكيس ولا تصيب ، قال : قلت : كنت تقول : ليتني لم أقتل الحسين ، قال : وماذا ؟ قلت : تقول ليتني لم أكن قتلته من قتلت ؛ قال : وماذا ؟ قلت : كنت تقول : ليتني لم أكن بنيت البيضاء ؛ قال : وماذا ؟ قلت : تقول : ليتني لم أكن استعملت الدّهاقين ، قال : وماذا ؟ قلت : تقول : ليتني كنت أسخي مما كنت ؛ قال : فقال : والله ما نطقَت بصواب ، ولا سكت عن خطي ، أما الحسين فإنه سار إليّ يريد قتلي ، فاخترت قتله على أن يقتلني ؛ وأما البيضاء فإني اشتريتها من عبدالله بن عثمان الثقفي ، وأرسل يزيد بألف ألف فأنفقتها عليها ، فإن بقيت فلاهلي ، وإن هلكت لم آس عليها مما لم أعنف فيه ؛ وأما استعمال الدّهاقين فإن عبد الرحمن بن أبي بكره وزاذان فروخ وقعا في عند معاوية حتى ذكرا قشور الأرض ، فبلّغا بخراج العراق مائة ألف ألف ، فخيرني معاوية بن الضّمان والعزل ؛ فكرهت العزل ، فكنيت إذا استعملت الرجل من العرب فكسر الخراج ، فتقدّمت إليه أو أغرمت صدور قومه ، أو أغرمت عشيرته أضمرت بهم ، وإن تركته تركت مال الله وأنا أعرف مكانه ، فوجدت الدّهاقين أبصر بالجباية ، وأوفى بالأمانة ، وأهون في المطالبة منكم ، مع أي قد جئتكم أمنا عليهم لئلا يظلموا أحداً . وأما قولك في السخاء ، فوالله ما كان لي مال فأجود به عليكم ، ولو شئت لأخذت بعض مالكم فخصصت به بعضكم دون بعض ، فيقولون : ما أسخاه ! ولكني سمعتكم ، وكان عندي أنفع لكم . وأما قولك : ليتني لم أكن قتلته من قتلت ؛ فما عملت بعد كلمة الإخلاص عملاً هو أقرب إلى الله عندي من قتلي من قتلته من الخوارج ، ولكني سأخبرك بما حدثت به نفسي ؛ قلت : ليتني كنت قاتلت أهل البصرة ، فإنهم بايعوني طائعين غير مكرهين ، وآيم الله لقد حرصت

على ذلك ؛ ولكن بني زياد أتوني فقالوا : إنك إذا قاتلتهم فظهروا عليك لم يبقوا منا أحداً ، وإن تركتهم تغيب الرجل منا عند أخواله وأصحاره ، فرفت لهم فلم أقاتل : وكنت أقول : ليتني كنت اخرجت أهل السجن فضربت أعناقهم ، فأما إذا فاتت هاتان فليتني كنت أقدم الشام ولم يُبرموا أمراً . قال بعضهم : فقدم الشام ولم يُبرموا أمراً ، فكأنما كانوا معه صبياناً ؛ وقال بعضهم : قدم الشام وقد أبرموا ، فنقض ما أبرموا إلى رأيه .

وفي هذه السنة طرد أهل الكوفة عمرو بن حريث وعزلوه عنهم ، واجتمعوا على عامر بن مسعود .

ذكر الخبر عن عزلهم عمرو بن حريث وتأمرهم عامراً

قال أبو جعفر : ذكر الهيثم بن عدي ، قال : حدثنا ابن عيَّاش ، قال : كان أول من جُمع له المصران : الكوفة والبصرة زياداً وابنه ، فقتلا من الخوارج ثلاثة عشر ألفاً ، وحبس عبيد الله منهم أربعة آلاف ، فلما هلك يزيد قام خطيباً ، فقال : إن الذي كنا نقاتل عن طاعته قد مات ، فإن أمرتموني جيت فيكم ، وقاتلت عدوكم . وبعث بذلك إلى أهل الكوفة مقاتل بن مسمع وسعيد بن قرحا ، أحد بني مازن ، وخليفته على الكوفة عمرو بن حريث ، فقاما بذلك ، فقام يزيد بن الحارث بن رويم الشيباني فقال : الحمد لله الذي أراحنا من ابن سُميَّة ، لا ولا كرامة ! فأمر به عمرو فلبَّ ومُضي به إلى السجن ، فحالت بكر بينهم وبينه ، فانطلق يزيد إلى أهله خائفاً ، فأرسل إليه محمد بن الأشعث : إنك على رأيك ، وتتابع على الرُّسل بذلك ، وصعد عمرو المنبر فحصبوه ، فدخل داره ، واجتمع الناس في المسجد فقالوا : نؤمُّ رجلاً إلى أن يجتمع الناس على خليفة ، فأجمعوا على عمر بن سعد ، فجاءت نساء همدان يكيبن حُسيناً ، ورجلهم متقلدوا السيوف ، فأطافوا بالمنبر ، فقال محمد بن الأشعث : جاء أمر غير ما كنا فيه ، وكانت كُندة تقوم بأمر عمر بن سعد لأنهم أخواله ، فاجتمعوا على عامر بن مسعود ، وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير ، فأقره .

وأما عوانة بن الحَكَم ؛ فإنه قال فيما ذكر هشام بن محمد عنه : لما بايع أهل البصرة عُبيد الله بن زياد بعث وافدين من قبله إلى الكوفة : عمرو بن مسمع ، وسعد بن القرحا التميمي ، ليعلم أهل الكوفة ما صنع أهل البصرة ، ويسألانهم البيعة لعُبيد الله بن زياد ، حتى يصطلح الناس ، فجمع الناس عمرو بن حريث ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هذين الرجلين قد أتياكم من قِبل أميركم يدعوانكم إلى أمر يجتمع الله به كلمتكم ، ويُصلح به ذات بينكم ، فاسمعوا منها ، واقبلوا عنهما ، فإنها برئيد ما أتياكم .

فقام عمرو بن مسمع ، فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر أهل البصرة واجتماع رأيهم على تأمر عُبيد الله بن زياد حتى يرى الناس رأيهم فيمن يولون عليهم ؛ وقد جئناكم لنجمع أمرنا وأمركم فيكون أميرنا وأمركم واحداً ، فإنما الكوفة من البصرة والبصرة من الكوفة ، وقام ابن القرحا فتكلم نحواً من كلام صاحبه . قال : فقام يزيد بن الحارث بن يزيد الشيباني - وهو ابن اويم - فحصبها أول الناس ، ثم حصبها الناس بعد ، ثم قال : نحن نبايع لابن مرجانة ! لا ولا كرامة ؛ فشرفت تلك الفعلة يزيد في المصّر ورفعته ، ورجع الوفد إلى البصرة فأعلم الناس الخبر فقالوا : أهل الكوفة يخلعونهم ، وأنتم تولونه وتبايعونه ! فوثب به الناس ، وقال : ما كان في ابن زياد وصمة إلا استجارته بالأزد .

قال : فلما نابذه الناس استجار بمسعود بن عمرو الأزدي ، فأجاره ومنعه ، فمكث تسعين يوماً بعد موت

يزيد ، ثم خرج إلى الشام ، وبعث الأزد وبكر بن وائل رجالاً منهم معه حتى أوردوه الشام ، فاستخلف حين توجه إلى الشام مسعود بن عمرو على البصرة ، فقالت بنو تميم وقيس : لا نرضى ولا نجيز ولا نولي إلا رجلاً ترضاه جماعتنا ، فقال مسعود : فقد استخلفني فلا أدع ذلك أبداً ؛ فخرج في قومه حتى انتهى إلى القصر فدخله ، واجتمعت تميم إلى الأحنف بن قيس فقالوا له : إن الأزد قد دخلوا المسجد ؛ قال ودخل المسجد فمما إنما هو لكم ولهم ، وأنتم تدخلونه ؛ قالوا : فإنه قد دخل القصر ، فصعد المنبر . وكانت خوارج قد خرجوا ، فنزلوا بنهر الأساورة حين خرج عبيد الله بن زياد إلى الشام ، فزعم الناس أن الأحنف بعث إليهم أن هذا الرجل الذي قد دخل القصر لنا ولكم عدو ، فما يمنعكم من أن تبدؤوا به ! فجاءت عصابة منهم حتى دخلوا المسجد ، ومسعود بن عمرو على المنبر يبائع من أتاها ، فيرميه علق يقال له : مسلم من أهل فارس ، دخل البصرة فأسلم ثم دخل في الخوارج ، فأصاب قلبه فقتله وخرج ، وجال الناس بعضهم في بعض فقالوا : قتل مسعود بن عمرو ، قتله الخوارج ، فخرجت الأزد إلى تلك الخوارج فقتلوا منهم وجرحوا ، وطردوهم عن البصرة ، ودفنوا مسعوداً ، فجاءهم الناس فقالوا لهم : تعلمون أن بني تميم يزعمون أنهم قتلوا مسعود بن عمرو ، فبعثت الأزد تسأل عن ذلك ؛ فإذا أناس منهم يقولونه ، فاجتمعت الأزد عند ذلك فرأسوا عليهم زياد بن عمرو العتكي ، ثم ازدلفوا إلى بني تميم وخرجت مع بني تميم قيس ، وخرج مع الأزد مالك بن مسمع وبكر بن وائل فأقبلوا نحو بني تميم . وأقبلت تميم إلى الأحنف يقولون : قد جاء القوم ، اخرج . وهو متمكث ، إذ جاءت امرأة من قومه بمجمر فقالت : يا أحنف اجلس على هذا ، أي إنما أنت امرأة ؛ فقال : استك أحق بها ، فما سمع منه بعد كلمة كانت أرفث منها ، وكان يعرف بالحلم . ثم إنه دعا برايته فقال : اللهم انصرها ولا تسللها ، وإن نصرتها ألا يظهر بها ولا يظهر عليها ؛ اللهم احقن دماءنا ، وأصلح ذنوبنا . ثم سار وسار ابن أخيه إياس بن معاوية بين يديه ، فالتقى القوم فاقتتلوا أشد القتال ، فقتل من الفريقين قتلى كثيرة ، فقالت لهم بنو تميم : الله الله يا معشر الأزد في دمائنا ودمائكم ! بيننا وبينكم القرآن ومن شئتم من أهل الإسلام - فإن كانت لكم علينا بينة أننا قتلنا صاحبكم ، فاختاروا أفضل رجل فينا فاقتلوه بصاحبكم ، وإن لم تكن لكم بينة فإننا نحلف بالله ما قتلنا ولا أمرنا ، ولا نعلم لصاحبكم قاتلاً ، وإن لم تريدوا ذلك فنحن ندي صاحبكم بمائة ألف درهم . فاصطلحوا ، فأتاهم الأحنف بن قيس في وجه مضر إلى زياد بن عمرو العتكي ، فقال : يا معشر الأزد ، أنتم جبرتنا في الدار ، وإخوتنا عند القتال ، وقد أتيناكم في رحالكم لإطفاء حشيتكم ، وسل سخيمتكم ، ولكم الحكم مرسلاً ، فقولوا على أحلامنا وأموالنا ، فإنه لا يتعاضدنا ذهاب شيء من أموالنا كان فيه صلاح بيننا ، فقالوا : أتدون صاحبنا عشر ديات ؟ قال : هي لكم ؛ فانصرف الناس واصطلحوا ؛ فقال الهيثم بن الأسود :

أَعْلَى بِمَسْعُودِ النَّاعِي فَقُلْتُ لَهُ
أَوْفَى ثَمَانِينَ مَا يَسْتَطِيعُهُ أَحَدٌ
أَوَى ابْنُ حَرْبٍ وَقَدْ سَدَّتْ مَذَاهِبُهُ
حَتَّى تَوَارَتْ بِهِ أَرْضٌ وَعَامِرُهَا
وَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنِ الْحُرِّ :

مَا زِلْتُ أَرْجُو لِأَزْدٍ حَتَّى رَأَيْتُهَا
تَقْصُرُ عَنْ بَنِيهَا الْمَتَطَوِّلِ

أَيُقْتَلُ مَسْعُودٌ وَلَمْ يَشَأْرُوا بِهِ وصَارَتْ سِوْفُ الْأَزْدِ مِثْلَ الْمَنَاجِلِ
وَمَا خَيْرُ عَقْلٍ أَوْرَثَ الْأَزْدَ ذِلَّةً تَسَبُّ بِهِ أَحْيَاؤُهُمْ فِي الْمَحَافِلِ
عَلَى أَنَّهُمْ شُمُطٌ كَأَنَّ لِحَاهُمْ تَعَالِبُ فِي أَعْنَاقِهَا كَالْجَلَا جِلِ

واجتمع أهل البصرة على أن يجعلوا عليهم منهم أميراً يصلي بهم حتى يجتمع الناس على إمام ، فجعلوا عبد الملك بن عبد الله بن عامر شهراً ، ثم جعلوا ببةً - وهو عبد الله بن الحارث بن عبد المطلب - فصلى بهم شهرين ، ثم قدم عليهم عمر بن عبيد الله بن معمر من قبل ابن الزبير ، فمكث شهراً ، ثم قدم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي بعزله ، فولياها الحارث وهو القُبَاع .

قال أبو جعفر : وأما عمر بن شبة ؛ فإنه حدثني في أمر عبد الملك بن عبد الله بن عامر بن كُرَيْزٍ وأمر ببةً ومسعود وقتله ، وأمر عمر بن عبيد الله غير ما قال هشام عن عوانة . والذي حدثني عمر بن شبة في ذلك أنه قال : حدثني علي بن محمد ، عن أبي مُقَرَّنٍ عبيد الله الذهني ، قال : لما بايع الناس ببةً ولَّى ببةً شُرْطَتَهُ هَمِيَّانَ بن عديٍّ ، وقدم على ببةً بعض أهل المدينة ، وأمر هَمِيَّانَ بن عديٍّ بإنزاله قريباً منه ، فأقى هَمِيَّانَ داراً للفيل مولى زياد التي في بني سليم وهم بتفريغها لِيُنْزَلَهَا إِلَيْهِ ، وقد كان هرب وأقفل أبوابه ، فمَنَعَتْ بنو سليم هَمِيَّانَ حتى قاتلوه ، واستصرخوا عبد الملك بن عبد الله بن عامر بن كُرَيْزٍ ، فأرسل بُخَارِيَّتَهُ ومواليه في السلاح حتى طردوا هَمِيَّانَ ومنعوه الدار ، وغدا عبد الملك من الغد إلى دار الإمارة ليسلم على ببةً ، فلقيه على الباب رجل من بني قيس بن ثعلبة ، فقال : أنت المعين علينا بالأمس ! فرفع يده فلطمه ، فضرب قوم من البخارية يد القيسي فإطارها ؛ ويقال : بل سليم القيسي ، وغضب ابن عامر فرجع ، وغضبت له مضر فاجتمعت وأتت بكر بن وائل أشيم بن شقيق بن ثور فاستصرخوه ، فأقبل ومعه مالك بن مسمع حتى صعد المنبر فقال : أي مضرٍ وجدتموه فاسلبوه . وزعم بنو مسمع أن مالكاً جاء يومئذ متفضلاً في غير سلاح ليرد أشيم عن رأيه . ثم انصرفت بكر وقد تحاجزوا هم والمضرية ، واغتنم الأزد ذلك ، فحالفوا بكرًا ، وأقبلوا مع مسعود إلى المسجد الجامع ، وفزعت تميم إلى الأحنف ، فعقد عمامته على قناة ، ودفعها إلى سلمة بن ذؤيب مراحٍ ، فأقبل بين يديه الأساورة حتى دخل المسجد ومسعود يخطب ، فاستنزلوه فقتلوه ، وزعمت الأزد أن الأزارقة قتلوه ، فكانت الفتنة ، وسفر بينهم عمر بن عبد الله بن معمر وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام حتى رَضِيَتْ الأزد من مسعود بعشر ديات ، ولزم عبد الله بن الحارث بيته ، وكان يتدين ، وقال : ما كنت لأصلح الناس بفساد نفسي .

قال عمر : قال أبو الحسن : فكتب أهل البصرة إلى ابن الزبير ، فكتب إلى أنس بن مالك يأمره بالصلاة بالناس ، فصلى بهم أربعين يوماً .

حدثني عمر ، قال : حدثنا علي بن محمد ، قال كتب ابن الزبير إلى عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي بعهدته على البصرة ، ووجه به إليه ، فوافقه وهو متوجه يريد العُمرة ، فكتب إلى عبيد الله يأمره أن يصلي بالناس ، فصلى بهم حتى قدم عمر .

حدثني عمر ، قال : حدثني زهير بن حرب ، قال : حدثنا وهب بن جرير ، قال : حدثني أبي ، قال : سمعتُ محمد بن الزبير ، قال : كان الناس اصطَلَحُوا على عبد الله بن الحارث الهاشمي ، فولى أمرهم أربعة أشهر ، وخرج نافع بن الأزرق إلى الأهواز ، فقال الناس لعبد الله : إن الناس قد أكل بعضهم بعضاً ؛

تؤخذ المرأة من الطريق فلا يَمْنَعُهَا أحد حتى تُفَضَّحَ ؛ قال : فتريدون ماذا؟ قالوا : تَضَعُ سَيْفَكَ ، وتَشُدُّ على الناس ؛ قال : ما كنت لأصلحهم بفساد نفسي ، يا غلام ، ناولني نعلي ، فانتعل ثم لحق بأهله ، وأمر الناس عليهم عُمَرُ بن عبد الله بن مَعْمَر التيمي ؛ قال أبي ، عن الصَّعْب بن زيد : إن الجارَف وقع وعبد الله على البصرة ، فمات أمه في الجارَف ، فما وجدوا لها من يَحْمِلُها حتى استأجروا لها أربعة أعلاج فحملوها إلى حُفْرَتِها ، وهو الأمير يومئذ .

حدَّثني عمر ، قال : حدَّثني علي بن محمد ، قال : كان بَيْتٌ قد تناول في عمله على البصرة أربعين ألفاً من بيت المال ، فاستودعها رجلاً ، فلما قدم عمر بن عبيد الله أميراً أخذ عبد الله بن الحارث فحبسه ، وعذَّب مولى له في ذلك المال حتى أغرمه إياه .

حدَّثني عمر قال : حدَّثني علي بن محمد ، عن القافلاني ، عن يزيد بن عبد الله بن الشَّخِير ، قال : قلت لعبد الله بن الحارث بن نوفل : رأيتك زمان استعملت علينا أصبَّت من المال ، وأتقيت الدم ، فقال : إن تَبِعَ المال أهون من تَبِعَ الدم .

وفي هذه السنة ولَّى أهل الكوفة عامر بن مسعود أمرهم ، فذكر هشام بن محمد الكلبي ، عن عوانة بن الحكم ، أنهم لما ردّوا وافذَّي أهل البصرة اجتمع اشراف أهل الكوفة ، فاصطلحوا على أن يصليَ بهم عامر بن مسعود - وهو عامر بن مسعود بن خلف القرشي ، وهو دحرجة الجُعَل الذي يقول فيه عبد الله بن هَمَّام السُّلُولي :

اشدُّ يدِيكَ بزيْدٍ إن ظَفِرْتَ بِهِ واشفِ الأراِمِلَ من دُحْرُوجَةِ الجعل

وكان قصيراً - حتى يرى الناس رأيهم ، فمكث ثلاثة أشهر من مهلك يزيد بن معاوية ، ثم قدم عليهم عبد الله بن يزيد الأنصاري ثم الخطمي على الصلاة ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله على الخراج ، فاجتمع لابن الزبير أهل الكوفة وأهل البصرة ومن بالقبلة من العرب وأهل الشام ، وأهل الجزيرة إلا أهل الأردن .

وفي هذه السنة بُويع لمروان بن الحكم بالخلافة بالشام .

ذكر السبب في البيعة له :

حدَّثني الحارث ، قال : حدَّثنا ابن سعد ، قال : حدَّثنا محمد بن عمر ، قال : لما بُويع عبد الله بن الزبير ولَّى المدينة عُبيدة بن الزبير ، وعبد الرحمن بن جَحْدَم الفهريّ مصرَ ، وأخرج بني أمية ومروان بن الحكم إلى الشام - وعبد الملك بن عبد الله بن ثمان وعشرين - فلما قدم حصين بن غير ومن معه إلى الشام أخبر مروان بما خلَّف عليه ابن الزبير ، وأنه دعا إلى البيعة ، فأبى فقال له ولبي أمية : نراكم في اختلاط شديد ، فأقيموا أمركم قبل أن يدخل عليكم شأمكم ، فتكون فتنة عمياء صمًا ؛ فكان من رأي مروان أن يرسل فينطلق إلى ابن الزبير فيبايعه ، فقدم عبيد الله بن زياد واجتمعت عنده بنو أمية ، وكان قد بلغ عبيد الله ما يريد مروان ، فقال له : استحييت لك مما تريد ! أنت كبير قریش وسيدها ، تصنع ما تصنعه ! فقال : ما فات شيء بعد ؛ فقام معه بنو أمية ومواليهم ، وتجمَّع إليه أهل اليمن ، فسار وهو يقول : ما فات شيء بعد ؛ فقدم دمشق ومن معه ، والضحاك بن قيس الفهريّ قد بايعه أهل دمشق على أن يصليَ بهم ؛ وقيمَ لهم أمرهم حتى يجتمع أمر أمّة محمد .

وأما عوانة فإنه قال - فيما ذكر هشام عنه - إن يزيد بن معاوية لما مات وابنه معاوية من بعده ، وكان معاوية بن يزيد بن معاوية - فيما بلغني - أمر بعد ولايته فنودي بالشام : الصلاة جامعة ! فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإني قد نظرت في أمركم فضعتُ عنه ، فابتغيت لكم رجلاً مثلَ عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فرغ إليه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت لكم ستّة في الشورى مثل ستّة عمر ، فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم ، فاختروا له من أحببتُم . ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس ، وتغيّب حتى مات . فقال بعض الناس : دُسّ إليه فسُقي سماً ، وقال بعضهم : طعن .

رجع الحديث إلى حديث عوانة . ثم قدم عبيد الله بن زياد دمشق وعليها الضحاك بن قيس الفهري فثار زُفر بن الحارث الكلابيّ بقنّسرين يبايع لعبد الله بن الزبير ، وبايع النعمان بن بشير الأنصاري بجمّص الزبير ، وكان حسان بن مالك بن بحدل الكلابيّ بفلسطين عاملاً لمعاوية بن أبي سفيان ، ثم ليزيد بن معاوية بعده ، وكان يهوى هوى بني أمية ، وكان سيّد أهل فلسطين ، فدعا حسان بن مالك بن بحدل الكلابيّ زُوح بن زنباع الجذامي ، فقال : إني مستخلفك على فلسطين ، وأدخل هذا الحيّ من لحْم وجُذام ، ولست بدون رجل إذ كنت عينهم قاتلت بمن معك من قومك . وخرج حسان بن مالك إلى الأردنّ واستخلف زُوح بن زنباع على فلسطين ، فثار ناتل بن قيس بروح بن زنباع فأخرجه ، فاستولى على فلسطين ، وبايع لابن الزبير ، وقد كان عبد الله بن الزبير كتب إلى عامله بالمدينة أن ينفي بني أمية من المدينة ، فنُفوا بعيالهم ونسائهم إلى الشام ، فقدمت بنو أمية دمشق وفيها مروان بن الحكم ، فكان الناس فريقين : حسان بن مالك بالأردنّ يهوى هوى بني أمية ، ويدعو إليهم ؛ والضحاك بن قيس الفهري بدمشق يهوى هوى عبد الله بن الزبير ، ويدعو إليه . قال : فقام حسان بن مالك بالأردن ، فقال : يا أهل الأردن - ما شهدتكم على ابن الزبير وعلى قتل أهل الحرّة ؟ قالوا : نشهد أنّ ابن الزبير منافق وأنّ قتل أهل الحرّة في النار ؛ قال : فما شهدتكم على يزيد بن معاوية وقتلاكهم بالحرّة ؟ قالوا : نشهد أنّ يزيد على الحقّ ، وأنّ قتلنا في الجنة ؛ قال : وأنا أشهد لئن كان دينُ يزيد بن معاوية وهو حيّ حقاً يومئذ إنه اليوم وشيعته على حقّ ؛ وإن كان ابن الزبير يومئذ وشيعته على باطل إنه اليوم على باطل وشيعته ؛ قالوا له : قد صدقت ، نحن نبايعك على أن نقاتل من خالفك من الناس ، وأطاع ابن الزبير ، على أن تجنّبنا هذين الغلامين ، فإننا نكره ذلك - يعنون ابني يزيد بن معاوية عبد الله وخالداً - فإنها حديثه أسنانها ، ونحن نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي . وقد كان الضحاك بن قيس بدمشق يهوى هوى ابن الزبير ؛ وكان يمنعه من إظهار ذلك أنّ بني أمية كانوا بحضرته ، وكان يعمل في ذلك سرّاً ، فبلغ ذلك حسان بن مالك بن بحدل ، فكتب إلى الضحاك كتاباً يعظم فيه حقّ بني أمية ، ويذكر لطاعة الجماعة وحسن بلائ بني أمية عنده وصنيعهم إليه ، ويدعوه إلى طاعتهم ، ويذكر ابن الزبير ويقع فيه ويشتمه ، ويذكر أنه منافق ، قد خلع خليفَتين ، وأمره أن يقرأ كتابه على الناس . ودعا رجلاً من كُلب يدعى ناغضة فسرح بالكتاب معه إلى الضحاك بن قيس ، وكتب حسان بن مالك نسخة ذلك الكتاب ، ودفعه إلى ناغضة ، وقال : إن قرأ الضحاك كتابي على الناس وإلاّ فقم فاقرا هذا الكتاب على الناس ؛ وكتب حسان إلى بني أمية يأمرهم أن يحضروا ذلك ، فقدم ناغضة بالكتاب على الضحاك فدفعه إليه ودفع كتاب بني أمية إليهم ، فلما كان يوم الجمعة صعد الضحاك المنبر فقام إليه ناغضة ، فقال : أصلح الله الأمير ! ادع بكتاب حسان فاقرأه على الناس ، فقال له الضحاك : اجلس ، فجلس ؛ ثم قام إليه الثانية فقال له : اجلس ؛ ثم قام إليه الثالثة فقال له : اجلس ؛

فلما رآه ناغضة لا يفعل أخرج الكتاب الذي معه فقرأه على الناس ، فقام الوليد بن عتبة بن أبي سفيان فصداً حسناً وكذب ابن الزبير وشتمه ، وقام يزيد بن أبي النمى الغساني ، فصداً مقالة حسناً وكتابه ، وشتم ابن الزبير ، وقام سفيان بن الأبرد الكلبي فصداً مقالة حسناً وكتابه ، وشتم ابن الزبير .

وقام عمرو بن يزيد الحكمي فشتهم حسناً وأثنى على ابن الزبير ، واضطرب الناس تبعاً لهم ، ثم أمر الضحاك بالوليد بن عتبة ويزيد بن أبي النمى وسفيان بن الأبرد الذين كانوا صدقوا مقالة حسناً وشتموا ابن الزبير فحبسوا ، وجال الناس بعضهم في بعض ، ووثب كلب على عمرو بن يزيد الحكمي فضربوه وحرقوه بالنار ، وخرقوا ثيابه .

وقام خالد بن يزيد بن معاوية فصعد مرقأتين من المنبر وهو يومئذ غلام ، والضحاك بن قيس على المنبر ، ثم دخل فجاءت كلب فأخرجوا سفيان بن الأبرد ، وجاءت غسان فأخرجوا يزيد بن أبي النمى ، فقال الوليد بن عتبة : لو كنت من كلب أو غسان أخرجت .

قال : فجاء ابن يزيد بن معاوية : خالد وعبد الله معهما أخوالهما من كلب فأخرجوه من السجن ، فكان ذلك اليوم يسميه أهل الشام يوم جبرون الأول . وأقام الناس بدمشق ، وخرج الضحاك إلى مسجد دمشق ، فجلس فيه فذكر يزيد بن معاوية ، فوقع فيه ، فقام إليه شاب من كلب بعضاً معه فضربه بها ، والناس جلوس في الحلق متقلدي السيوف ، فقام بعضهم إلى بعض في المسجد ، فاقتتلوا ، قيس تدعو إلى ابن الزبير ونصرة الضحاك ، وكلب تدعو إلى بني أمية ثم إلى خالد بن يزيد ، ويتعصبون ليزيد ، ودخل الضحاك دار الإمارة ، وأصبح الناس فلم يخرج إلى صلاة الفجر ، وكان من الأجناد ناس يهون هوى بني أمية ، وناس يهون هوى ابن الزبير ، فبعث الضحاك إلى بني أمية فدخلوا عليه من الغد ، فاعتذر إليهم ، وذكر حسن بلائهم عند مواليه وولده ، وأنه ليس يريد شيئاً يكرهونه .

قال : فتكتبون إلى حسان ونكتب ، فيسير من الأردن حتى ينزل الجابية ، ونسير نحن وأنتم حتى نوافيه بها ، فنبايع لرجل منكم ، فرضيت بذلك بنو أمية ، وكتبوا إلى حسان ، وكتب إليه الضحاك ، وخرج الناس وخرجت بنو أمية واستقبلت الرايات ، وتوجهوا يريدون الجابية ، فجاء ثور بن معن بن يزيد بن الأخنس السلمى إلى الضحاك ، فقال : دعوتنا إلى طاعة ابن الزبير فبايعناك على ذلك ، وأنت تسير إلى هذا الأعرابي من كلب تستخلف ابن أخيه خالد بن يزيد ! فقال له الضحاك : فما الرأي ؟ قال : الرأي أن نظهر ما كنا نسر ونسعى إلى طاعة ابن الزبير ، ونقاتل عليها ، فمال الضحاك بمن معه من الناس فعطفهم ، ثم أقبل يسير حتى نزل بمرج راهط .

واختلف في الوقعة التي كانت بمرج راهط بين الضحاك بن قيس ومروان بن الحكم ، فقال محمد بن عمر الواقدي : بويح مروان بن الحكم في المحرم سنة خمس وستين ، وكان مروان بالشام لا يحدث نفسه بهذا الأمر حتى أطمعه فيه عبيد الله بن زياد حين قدم عليه من العراق ، فقال له : أنت كبير قریش ورئيسها ، يلي عليك الضحاك بن قيس ! فذلك حين كان ما كان ، فخرج إلى الضحاك في جيش ، فقتلهم مروان والضحاك يومئذ في طاعة ابن الزبير ، وقتلت قيس بمرج راهط مقتلة لم يقتل مثلها في موطن قط .

قال محمد بن عمر: حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي الزِّنَاد، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ قَالَ: قُتِلَ الضَّحَّاكُ يَوْمَ مَرْجِ رَاهِطٍ عَلَى أَنَّهُ يَدْعُو إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ، وَكُتِبَ بِهِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ لَمَّا ذُكِرَ عَنْهُ مِنْ طَاعَتِهِ وَحَسَنِ رَأْيِهِ.

وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ: كَانَتْ الْوَقْعَةُ بِمَرْجِ رَاهِطٍ بَيْنَ الضَّحَّاكِ وَمُرْوَانَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ.

وَقَدْ حَدَّثْتُ عَنْ ابْنِ سَعْدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو، قَالَ حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ يَعْقُوبَ، عَنْ أَبِي الْحُوَيْرِثِ، قَالَ: قَالَ أَهْلُ الْأُرْدُنِّ وَغَيْرُهُمْ لِمُرْوَانَ: أَنْتَ شَيْخٌ كَبِيرٌ، وَابْنُ يَزِيدَ غَلَامٌ وَابْنُ الزَّبِيرِ كَهْلٌ، وَإِنَّمَا يُقْرَعُ الْجَدِيدُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، فَلَا تَبَارِهِ بِهَذَا الْغَلَامِ، وَارْمِ بِنَحْرِكَ فِي نَحْرِهِ، وَنَحْنُ نَبَايِعُكَ، ابْسُطْ يَدَكَ، فَبَسَطَهَا، فَبَايَعُوهُ بِالْجَابِيَةِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ لثَلَاثَ خُلُوفٍ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو: وَحَدَّثَنِي، مَصْعَبُ بْنُ ثَابِتٍ، عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ الضَّحَّاكَ لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ مُرْوَانَ هَدَّ بَايِعَهُ مِنْ بَايِعِهِ عَلَى الْخِلَافَةِ، بَايَعَ مِنْ مَعَهُ لَابْنَ الزَّبِيرِ، ثُمَّ سَارَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى صَاحِبِهِ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا، فَقُتِلَ الضَّحَّاكُ وَأَصْحَابُهُ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو: وَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي الزِّنَاد، عَنْ أَبِيهِ؛ قَالَ: لَمَّا وَلى الْمَدِينَةَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الضَّحَّاكِ كَانَ فَتًى شَابًّا، فَقَالَ: إِنَّ الضَّحَّاكَ بْنُ قَيْسٍ قَدْ كَانَ دَعَا قَيْسًا وَغَيْرَهَا إِلَى الْبَيْعَةِ لِنَفْسِهِ، فَبَايَعَهُمْ يَوْمَئِذٍ عَلَى الْخِلَافَةِ، فَقَالَ لَهُ زُفَرُ بْنُ عَقِيلٍ الْفَهْرِيُّ: هَذَا الَّذِي كُنَّا نَعْرِفُ وَنَسْمَعُ، وَإِنَّ بَنِي الزَّبِيرِ يَقُولُونَ: إِذَا كَانَ بَايِعُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ، وَخَرَجَ فِي طَاعَتِهِ حَتَّى قَتَلَ، الْبَاطِلُ وَاللَّهُ يَقُولُونَ: كَانَ أَوَّلَ ذَلِكَ أَنَّ قَرِيشًا دَعَتْهُ إِلَيْهَا، فَأَبَى عَلَيْهَا حَتَّى دَخَلَ فِيهَا كَارِهًا.

ذَكَرَ الْخَبْرَ عَنِ الْوَقْعَةِ بِمَرْجِ رَاهِطٍ بَيْنَ الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسٍ وَمُرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ وَتَمَامَ الْخَبْرَ عَنِ الْكَائِنِ مِنْ جَلِيلِ الْأَخْبَارِ وَالْأَحْدَاثِ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: حَدَّثَنَا نُوحُ بْنُ حَبِيبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَوَانَةَ بْنِ الْحَكَمِ الْكَلْبِيِّ، قَالَ: مَالُ الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسٍ مِمَّنْ مَعَهُ مِنَ النَّاسِ حِينَ سَارَ يَرِيدُ الْجَابِيَةَ لِلِقَاءِ حَسَّانَ بْنِ مَالِكٍ، فَعَطَّفَهُمْ، ثُمَّ أَقْبَلَ يَسِيرُ حَتَّى نَزَلَ بِمَرْجِ رَاهِطٍ، وَأَظْهَرَ الْبَيْعَةَ لَابْنِ الزَّبِيرِ وَخَلَعَ بَنِي أُمَيَّةَ، وَبَايَعَهُ عَلَى ذَلِكَ جُلٌّ أَهْلُ دِمَشْقَ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ وَغَيْرِهِمْ.

قَالَ: وَسَارَتْ بَنُو أُمَيَّةَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ حَتَّى وَافَوْا حَسَّانَ بِالْجَابِيَةِ، فَصَلَّى بِهِمْ حَسَّانُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَالنَّاسُ يَتَشَاوَرُونَ، وَكُتِبَ الضَّحَّاكُ إِلَى النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ وَهُوَ عَلَى حِمصَ، وَإِلَى زُفَرِ بْنِ الْحَارِثِ وَهُوَ عَلَى قَنْسَرِينَ، وَإِلَى نَاتِلِ بْنِ قَيْسٍ وَهُوَ عَلَى فِلَسْطِينَ يَسْتَمِدُّهُمْ، وَكَانُوا عَلَى طَاعَةِ ابْنِ الزَّبِيرِ، فَأَمَدَّهُ النُّعْمَانُ بِشَرْحَبِيلِ بْنِ ذِي الْكَلَّاعِ، وَأَمَدَّهُ زُفَرٌ بِأَهْلِ قَنْسَرِينَ، وَأَمَدَّهُ نَاتِلُ بِأَهْلِ فِلَسْطِينَ، فَاجْتَمَعَتِ الْأَجْنَادُ إِلَى الضَّحَّاكِ بِالْمَرْجِ.

وَكَانَ النَّاسُ بِالْجَابِيَةِ لَهُمْ أَهْوَاءٌ مُخْتَلِفَةٌ، فَأَمَّا مَالِكُ بْنُ هُبَيْرَةَ السُّكُونِيُّ فَكَانَ يَهْوَى هَوَى بَنِي يَزِيدَ مِنْ مَعَاوِيَةِ، وَيَحِبُّ أَنْ تَكُونَ الْخِلَافَةُ فِيهِمْ، وَأَمَّا الْحَصِينُ بْنُ نَمِيرٍ السُّكُونِيُّ فَكَانَ يَهْوَى أَنْ تَكُونَ الْخِلَافَةُ لِمُرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ، فَقَالَ مَالِكُ بْنُ هُبَيْرَةَ لِحَصِينِ بْنِ نَمِيرٍ: هَلُمَّ فَلْنَبَايِعْ لِهَذَا الْغَلَامِ الَّذِي نَحْنُ وَلَدُنَا أَبَاهُ، وَهُوَ ابْنُ أَخْتِنَا، فَقَدْ عَرَفْتَ مَنَزَلَتَنَا كَانَتْ مِنْ أَبِيهِ، فَإِنَّهُ يَحْمِلُنَا عَلَى رِقَابِ الْعَرَبِ غَدًا - يَعْنِي خَالِدَ بْنَ يَزِيدَ - فَقَالَ الْحَصِينُ: لَا، لَعَمْرُ اللَّهِ، لَا تَأْتِينَا الْعَرَبُ بِشَيْخٍ وَنَأْتِيهِمْ بِصَبِيٍّ؛ فَقَالَ مَالِكُ: هَذَا وَلَمْ تَرِدِي تَهَامَةً وَلَمَّا يَبْلُغُ الْحَزَامُ الطُّبْيَيْنِ؛ فَقَالُوا: مَهْلًا يَا أَبَا سَلِيمَانَ! فَقَالَ لَهُ مَالِكُ: وَاللَّهِ لَنْ اسْتَخْلَفْتَ مُرْوَانَ وَآلَ مُرْوَانَ لِيَحْسُدَنَّكَ عَلَى

سوطك، وشراك نعلك وظلّ شجرة تستظلّ بها ؛ إنّ مروان أبو عشيّرة ، وأخو عشيّرة ، وعمّ عشيّرة ، فإن بايعتموه كنتم عبيداً لهم ، ولكن عليكم بآبن أختكم خالد ، فقال حصين : إني رأيت في المنام قنديلاً معلقاً من السماء ، وإنّ من يمدّ عنقه إلى الخلافة تناوله فلم ينله ، وتناوله مروان فناله ، والله لنستخلفنه ؛ فقال له مالك : ويحك يا حصين ! أتبايع لمروان وآل مروان وأنت تعلم أنهم أهل بيت من قيس ! فلما اجتمع رأيهم للبيعة مروان بن الحكم قام روح بن زنباع الجذاميّ ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيّها الناس ، إنكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب وصحبته من رسول الله ﷺ ، وقدمه في الإسلام ، وهو كما تذكرون ولكن ابن عمر رجل ضعيف ، وليس بصاحب أمة محمد الضعيف ، وأمّا ما يذكر الناس من عبد الله بن الزبير ويدعون إليه من أسره فهو والله كما يذكرون بأنه لابن الزبير حواريّ رسول الله ﷺ وابن أسماء ابنة أبي بكر الصديق ذات المناقبين ، وهو بعد كما تذكرون في قدّمه وقضله ؛ ولكن ابن الزبير منافق ، قد خلع خليفتين : يزيد وابنه معاوية ابن يزيد ، وسفك الدماء ، وشقّ عصا المسلمين ، وليس صاحب أمر أمة محمد ﷺ المنافق ؛ وأمّا مروان بن الحكم ؛ فوالله ما كان في الإسلام صدع قطّ إلّا كان مروان من يشعب ذلك الصدع ، وهو الذي قتال عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ، والذي قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل ، ولما نرى للناس أن يبايعوا الكبير ويستشعروا الصغير - يعني بالكبير مروان بن الحكم ، وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية - قال : فأجمع رأي الناس على البيعة لمروان ، ثم لخالد بن يزيد من بعده ، ثم لعمر بن سعيد بن العاص من بعد خالد ، على أن إمارة دمشق لعمر بن سعيد بن العاص ، وإمارة حمص لخالد بن يزيد بن معاوية وقال : فدعا حسان بن مالك بن بحدل خالد بن يزيد فقال : أئني أختي ، إنّ الناس قد أبوك لحدائث سنك ، وإني والله ما أريد هذا الأمر إلّا لك ولأهل بيتك ، وما أبايع مروان إلّا نظراً لكم ؛ قال له خالد بن يزيد : بل عجزت عنّا ، قال : لا والله ما عجزت عنك ، ولكن الرأي لك ما رأيت . ثم دعا حسان بمروان فقال : يا مروان ، إن الناس والله ما كلهم يرضى بك ، فقال له مروان : إن يرد الله أن يعطينيها لا يمنعني إياها أحد من خلقه ، وإن يرد أن يمنعيها لا يعطينيها أحد من خلقه . قال : فقال له حسان : صدقت ، وصعد حسان المنبر يوم الاثنين ، فقال : يا أيّها الناس ، إنا نستخلف يوم الخميس إن شاء الله ؛ فلما كان يوم الخميس بايع لمروان ، وبايع الناس له . وسار مروان إلى الجابية في الناس حتى نزل مرجّ راهط على الضحاك في أهل الأردنّ من كلب ، وأتته السكاسك والسكون وغسان ، وربع حسان بن مالك بن بحدل إلى الأردنّ . قال : وعلى ميمته - أعني مروان - عمرو بن سعيد بن العاص وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد ، وعلى ميمته الضحاك زياد بن عمرو بن معاوية العقيليّ وعلى ميسرته رجل آخر لم أحفظ اسمه ، وكان يزيد بن أبي النمس الغسانيّ لم يشهد الجابية ؛ وكان محتبباً بدمشق ، فلما نزل مروان مرجّ راهط ثار يزيد بن أبي غمس بأهل دمشق في عبيدها ، فغلب عليها ، وأخرج عامل الضحاك منها ، وغلب على الخزائن وبيت المال ، وبايع لمروان وأمدّه بالأموال والرجال والسلاح ، فكان أول فتح فتح على بني أمية . قال وقاتل مروان الضحاك عشرين ليلة كان ، ثم هزم أهل المرج ، وقتلوا وقتل الضحاك ، وقتل يومئذ من أشرف الناس من أهل الشام ممن كان مع الضحاك ثمانون رجلاً كلهم كان يأخذ القطيفة ، الذي كان يأخذ القطيفة يأخذ ألفين في العطاء ، وقتل أهل الشام يومئذ مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها قطّ من القبائل كلها ، وقتل مع الضحاك يومئذ رجل من كلب من بني عليم يقال له مالك بن يزيد بن مالك بن كعب ، وقتل يومئذ صاحب لواء قضاة حيث دخلت أنضاعة الشام ، وهو جدّ مدلج بن المقدم بن زمل بن

عمرو بن ربيعة بن عمرو الجرشي ، وقُتل ثور بن معن بن يزيد السلمي ، وهو الذي كان ردّ الضحاك عن رأيه . قال : وجاء برأس الضحاك رجل من كلب ؛ وذكروا أنّ مروان حين أتى برأسه ساءه ذلك وقال : الآن حين كبرت سني ودق عظمي وصرت في مثل ظمء الحمار ، أقبلت بالكتائب أضرب بعضها ببعض !

قال : وذكروا أنه مرّ يومئذ برجل قتيل فقال :

وَمَا ضَرُّهُمْ غَيْرَ حَيْنِ النُّفُو سِرَ أَيُّ أَمِيرِي قَرِيشٍ غَلَبَ

وقال مروان حين بُويع له ودعا إلى نفسه :

لَمَّا رَأَيْتُ الْأَمْرَ أَمْرًا نَهَبَا سَيَّرْتَ غَسَّانَ لَهُمْ وَكَلَبَا
وَالسُّكُوكِيِّينَ رَجَالًا غَلَبَا وَطَيْئًا تَأْبَاهُ إِلَّا ضَرْبَا
وَالْقَيْنَ تَمْشِي فِي الْحَدِيدِ نَكَبَا وَمِنْ تَنُوحٍ مَشْمُخِرًا صَعْبَا
لَا تَأْخُذُونَ الْمُلْكَ إِلَّا غَضَبَا وَإِنْ دَنْتَ قَيْسٌ فَقُلْ لَا قَرَبَا

قال هشام بن محمد : حدّثني أبو مخنف لوط بن يحيى ؛ قال : حدّثني رجل من بني عبد ودّ من أهل الشام ، قال : حدّثني من شهد مقتل الضحاك بن قيس ، قال : مرّ بنا رجل من كلب يقال له زُحنة بن عبدالله ، كأنما يرمي بالرجال الجدّاء ، ما يطعن رجلاً إلا صرعه ، ولا يضرب رجلاً إلا قتله ، فجعلت أنظر إليه أتعجب من فعله ومن قتله الرجال ، إذ حمل عليه رجل فصّره زُحنة وتركه ، فأتيته فنظرت إلى المقتول فإذا هو الضحاك بن قيس ، فأخذت رأسه فأتيت به إلى مروان ، فقال : أنت قتلت؟ فقلت : لا ، ولكن قتله زُحنة بن عبدالله الكلبي ، فأعجبه صدقي إياه ، وتركني ادعاءه ، فأمر لي بمعروف ، وأحسن إلى زحنة .

قال أبو مخنف : وحدّثني عبدالملك بن نوفل بن مساحق ، عن حبيب بن كرة ، قال : والله إنّ راية مروان يومئذ لمعي ، وإنه ليدفع بنعل سيفه في ظهري ، وقال : أدنُ برايتك لا أبالك ! إنّ هؤلاء لو قد وجدوا لهم حدّ السيوف انفرجوا انفراج الرأس ، وانفراج الغنم عن راعيها . قال : وكان مروان في ستة آلاف ، وكان على خيله عبيدالله بن زياد ، وكان على الرجال مالك بن هُبيرة ؛ قال عبدالملك بن نوفل : وذكروا أن بشر بن مروان كانت معه يومئذ راية يقاتل بها وهو يقول :

إِنَّ عَلَى الرَّئِيسِ حَقًّا حَقًّا أَنْ يَخْضِبَ الصُّغْدَةَ أَوْ تَنْدَقَّا

قال : وصُرع يومئذ عبدالعزيز بن مروان ؛ قال : ومرّ مروان يومئذ برجل من محارب وهو في نفر يسير تحت راية يقاتل عن مروان ، فقال مروان : يرحمك الله ! لو أنك انضممت بأصحابك ، فإني أراك في قلة ! فقال : إنّ معنا يا أمير المؤمنين من الملائكة مدداً أضعاف من تأمرنا ننضمّ إليه ، قال : فسُرّ بذلك مروان وضحك ، وضمّ أناساً إليه من كان حوله ؛ قال : وخرج الناس من هزيمة من المرج إلى أجنادهم ، فانتهى أهل حمص إلى حمص والنعمان بن بشير عليها ، فلما بلغ النعمان الخبر خرج هارباً ليلاً ومعه امرأته نائلة بنت عُمارة الكلبيّة ، ومعه ثقله وولده ، فتحير ليلته كلّها ، وأصبح أهل حمص فطلبوه ؛ وكان الذي طلبه رجل من الكلاعيين يقال له عمرو بن الحليّ فقّته ، وأقبل برأس النعمان بن بشير وبناثلة امرأته وولدها ، فألقى الرأس في حجر أم أبان ابنة النعمان التي كانت تحت الحجاج بن يوسف بعد . قال : فقالت نائلة : ألقوا الرأس إليّ فأنا أحقّ به منها ،

فَأَلْقَى الرَّأْسُ فِي جِجْرَهَا ، ثُمَّ أَقْبَلُوا بِهِمْ وَبِالرَّأْسِ حَتَّى انْتَهَوْا بِهِمْ إِلَى جَمْعٍ ، فَجَاءَتْ كَلْبٌ مِنْ أَهْلِ حِصَصٍ فَأَخَذُوا نَائِلَةً وَوَلَدَهَا ؛ قَالَ : وَخَرَجَ زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ مِنْ قِنْسَرِينَ هَارِباً فَلَحِقَ بِقَرْقِيسِيَا ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهَا وَعَلَيْهَا عِيَاضُ الْجُرْشِيِّ وَهُوَ ابْنُ أَسْلَمَ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكِ بْنِ لَغْزِ بْنِ أَسْوَدَ بْنِ كَعْبِ بْنِ حَدَسِ بْنِ أَسْلَمَ - وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ وَلَاهُ قَرْقِيسِيَا ، فَحَالَ عِيَاضُ بَيْنَ زُفَرٍ وَبَيْنَ دُخُولِ قَرْقِيسِيَا ، فَقَالَ لَهُ زُفَرُ : أَوْتُقُ لَكَ بِالطَّلَاقِ وَالْعِتَاقِ إِذَا أَنَا دَخَلْتُ حَمَامَهَا أَنْ أَخْرِجَ مِنْهَا ؛ فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهَا وَدَخَلَهَا لَمْ يَدْخُلْ حَمَامَهَا وَأَقَامَ بِهَا ، وَأَخْرَجَ عِيَاضاً مِنْهَا ، وَتَحَصَّنَ زُفَرُ بِهَا وَثَابَتَ إِلَيْهِ قَيْسٌ . قَالَ : وَخَرَجَ نَاتِلُ بْنُ قَيْسِ الْجُدَامِيِّ صَاحِبَ فِلَسْطِينَ هَارِباً ، فَلَحِقَ بِابْنِ الزَّبِيرِ بِمَكَّةَ ، وَأَطْبَقَ أَهْلَ الشَّامِ عَلَى مِرْوَانَ ، وَاسْتَوْثَقُوا لَهُ ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهَا عَمَّالَهُ .

قَالَ أَبُو نَخْفٍ : حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ وَدٍّ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ - يَعْنِي الشَّرْقِي - قَالَ : وَخَرَجَ مِرْوَانُ حَتَّى أَقَى مَصْرَ بَعْدَمَا اجْتَمَعَ لَهُ أَمْرُ الشَّامِ ، فَقَدِمَ مَصْرَ وَعَلَيْهَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ جَحْدَمٍ الْقُرَشِيُّ يَدْعُو إِلَى ابْنِ الزَّبِيرِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ فِيمَنْ مَعَهُ مِنْ بَنِي فَهْرٍ ، وَبَعَثَ مِرْوَانُ عَمْرُو بْنَ سَعِيدِ الْأَشْدُقِ مِنْ وَرَائِهِ حَتَّى دَخَلَ مَصْرَ ، وَقَامَ عَلَى مَنْبَرِهَا يَخُطِّبُ النَّاسَ ، وَقِيلَ لَهُمْ : قَدْ دَخَلَ عَمْرُو مَصْرَ ، فَارْجِعُوا ، وَأَمَرَ النَّاسُ مِرْوَانَ وَبَايَعُوهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ رَاجِعاً نَحْوَ دِمَشْقَ ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْهَا بَلَغَهُ أَنَّ ابْنَ الزَّبِيرِ قَدْ بَعَثَ أَخَاهُ مَصْعَبَ بْنَ الزَّبِيرِ نَحْوَ فِلَسْطِينَ ، فَسَرَّحَ إِلَيْهِ مِرْوَانُ عَمْرُو بْنَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ فِي جَيْشٍ ، وَاسْتَقْبَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ الشَّامَ ، فَقَاتَلَهُ فَهَزَمَ أَصْحَابُ مَصْعَبٍ ، وَكَانَ مَعَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عُذْرَةَ يُقَالُ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ حُرَيْثِ بْنِ سَلِيمٍ ، وَهُوَ خَالَ بَنِي الْأَشْدُقِ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَ مَصْعَبِ بْنِ الزَّبِيرِ رَجُلًا قَطُّ أَشَدَّ قِتَالًا فَارِسًا وَرَاجِلًا ، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي الطَّرِيقِ يَتَرَجَّلُ فَيُطْرَدُ بِأَصْحَابِهِ ، وَيَشُدُّ عَلَى رَجْلَيْهِ ، حَتَّى رَأَيْتُهُمَا قَدْ ذَمِيَتَا . قَالَ : وَانْصَرَفَ مِرْوَانُ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ بِهِ دِمَشْقُ ، وَرَجَعَ إِلَيْهِ عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ .

قَالَ : وَيُقَالُ : إِنَّهُ لَمَّا قَدِمَ عَبِيدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ مِنَ الْعِرَاقِ ، فَزَلَ الشَّامَ أَصَابَ بَنِي أُمَيَّةَ بِتَدْمُرَ ، قَدْ نَفَاهُمْ ابْنُ الزَّبِيرِ مِنَ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ ، وَمِنْ الْحِجَازِ كُلِّهِ ، فَزَلُوا بِتَدْمُرَ ، وَأَصَابُوا الضَّحَّاكَ بْنَ قَيْسٍ أَمِيرًا عَلَى الشَّامِ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ ، فَقَدِمَ ابْنُ زِيَادٍ حِينَ قَدِمَ وَمِرْوَانُ يَرِيدُ أَنْ يَرْكَبَ إِلَى ابْنِ الزَّبِيرِ فَيُبَايِعُهُ بِالْخِلَافَةِ ، فَيَأْخُذُ مِنْهُ الْأَمَانَ لِبَنِي أُمَيَّةَ ؛ فَقَالَ لَهُ ابْنُ زِيَادٍ : أَنْشُدْكَ اللَّهَ تَفْعَلُ ، لَيْسَ هَذَا بِرَأْيٍ أَنْ تَنْطَلِقَ وَأَنْتَ شَيْخُ قُرَيْشٍ إِلَى أَبِي خُبَيْبٍ بِالْخِلَافَةِ ، وَلَكِنْ ادْعِ أَهْلَ تَدْمُرَ فَبَايِعِهِمْ ، ثُمَّ سَرَّ بِهِمْ وَبِمَنْ مَعَكَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ إِلَى الضَّحَّاكَ بْنَ قَيْسٍ حَتَّى تَخْرُجَهُ مِنَ الشَّامِ ؛ فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ : صَدَقَ وَاللَّهِ عَبِيدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ ، ثُمَّ أَنْتَ سَيِّدُ قُرَيْشٍ وَفِرْعَا ، وَأَنْتَ أَحَقُّ النَّاسِ بِالْقِيَامِ بِهَذَا الْأَمْرِ ، إِنَّمَا يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَى هَذَا الْغَلَامِ - يَعْنِي خَالِدَ بْنَ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ - فَتَزَوَّجَ أُمُّهُ فَيَكُونُ فِي جِجْرِكَ ؛ قَالَ : فَفَعَلَ مِرْوَانُ ذَلِكَ ، فَتَزَوَّجَ أُمَّ خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ ، وَهِيَ فَاخْتَةُ ابْنَةِ أَبِي هَاشِمٍ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ . ثُمَّ جَمَعَ بَنِي أُمَيَّةَ فَبَايَعُوهُ بِالْإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ ، وَبَايَعَهُ أَهْلُ تَدْمُرَ ثُمَّ سَارَ فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ إِلَى الضَّحَّاكَ بْنَ قَيْسٍ ، وَهُوَ يَوْمُئِذٍ بِدِمَشْقَ ، فَلَمَّا بَلَغَ الضَّحَّاكَ مَا صَنَعَ بَنُو أُمَيَّةَ وَمَسِيرُهُمْ إِلَيْهِ ، خَرَجَ بِمَنْ تَبِعَهُ مِنْ أَهْلِ دِمَشْقَ وَغَيْرِهِمْ ، فِيهِمْ زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ ، فَالْتَقَوْا بِمَرْجٍ رَاهِطٍ ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا فَقَتِلَ الضَّحَّاكَ بْنُ قَيْسِ الْفِهْرِيِّ وَعَامَّةُ أَصْحَابِهِ ، وَانْهَزَمَ بِقِيَّتِهِمْ ، فَتَفَرَّقُوا ، وَأَخَذَ زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ وَجْهًا مِنْ تِلْكَ الْوُجُوهِ ، هُوَ وَشَابَانُ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ فَجَاءَتْ خَيْلُ مِرْوَانَ تَطْلُبُهُمْ ، فَلَمَّا خَافَ السُّلَمِيَّانَ أَنْ تَلْحَقَهُمَا خَيْلُ مِرْوَانَ قَالَا لَزُفَرٍ : يَا هَذَا ، انْجُ بِنَفْسِكَ ، فَأَمَّا نَحْنُ فَمَقْتُولَانِ ، فَمَضَى زُفَرُ وَتَرَكَهُمَا حَتَّى أَقَى قَرْقِيسِيَا ، فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قَيْسٌ ، فَرَأَسُوهُ عَلَيْهِمْ ، فَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ :

أَرَى الْحَرْبَ لَا تَزْدَادُ إِلَّا تَمَادِيَا
مَقِيدُ دَمِي أَوْ قَاطِعٌ مِنْ لِسَانِيَا
إِذَا نَحْنُ رَفَعْنَا لَهُنَّ الْمَثَانِيَا
وَلَا تَفْرَحُوا إِنْ جِئْتُكُمْ بِلِقَائِيَا
وَبَقِيَ حَزَاوَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَا
وَتُتْرَكَ قَتْلَى رَاهِطٌ هِيَ مَا هِيَا!
لِحَسَّانٍ صَدْعاً بَيْنَا مَتْنَانِيَا
وَمَقْتَلٍ هَمَامٍ أُمْنَى الْأَمَانِيَا
فِرَارِي وَتَرْكِي صَاحِبِي وَرَائِيَا
مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَنْ عَلَيَّ وَلَا لِيَا
بِصَالِحِ أَيَّامِي وَحُسْنِ بَلَاثِيَا
وَتَشَارَ مِنْ نِسْوَانٍ كُلِّ نِسَائِيَا
تَنُوحُوا وَحَيَّ طَيِّءٌ مِنْ شِفَائِيَا

أَرِينِي سِلَاحِي لَا أَبَا لِكَ إِنِّي
أَتَانِي عَنْ مَرَوَانَ بِالْغَيْبِ أَنَّهُ
فِي الْعِيسِ مَنْجَاةٌ وَفِي الْأَرْضِ مَهْرَبٌ
فَلَا تَحْبِسُونِي إِنْ تَغَيَّبْتُ غَائِلًا
فَقَدْ يَنْبُتُ الْمَرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى
أَتَذْهَبُ كُلُّ لَمْ تَنْلَهَا رِمَاحُنَا
لَعَمْرِي لَقَدْ أَبَقْتُ وَقِيعَةً رَاهِطٍ
أَبْعَدُ ابْنِ عَمْرٍو وَابْنَ مَعْنٍ تَابِعَا
فَلَمْ تَرِ مَنِّي نَبُوءَةً قَبْلَ هَذِهِ
عَشِيَّةً أَعْدُو بِالْقِرَانِ فَلَا أَرَى
أَيُّذْهَبُ يَنْوَمُ وَاحِدًا إِنْ أَسَأْتُهُ
فَلَا صُلْحٌ حَتَّى تَنْحِطَ الْخَيْلُ بِالْقَنَا
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تُصَيِّرُ غَارَتِي

فاجابه جَوَّاسُ بْنُ قَعْلٍ :

عَلَى زُفَرٍ دَاءٌ مِنَ الدَّاءِ بَاقِيَا
وَبَيْنَ الْحَشَا أَغْيَا الطَّيِّبِ الْمُدَاوِيَا
وَدُثْيَانٍ مَعْذُورًا وَتُبْكِي الْبَوَاكِيَا
سُيُوفَ جَنَابٍ وَالطُّوَالَ الْمَذَاكِيَا
إِذَا شَرَعُوا نَحْرَ الطَّعْمَانِ الْعَوَالِيَا

لَعَمْرِي لَقَدْ أَبَقْتُ وَقِيعَةً رَاهِطٍ
مَقِيمًا نَوَى بَيْنَ الضُّلُوعِ مَحْلُهُ
تُبْكِي عَلَى قَتْلِ سُلَيْمٍ وَعَامِرٍ
دَعَا بِسِلَاحٍ ثُمَّ أَحْجَمَ إِذْ رَأَى
عَلَيْهَا كَأْسِدَ الْغَابِ فِتْيَانِ نَجْدَةٍ

فاجابه عمر بن المِخْلَةَ الْكَلْبِيُّ مِنْ تَيْمِ اللَّاتِ بْنِ رُقَيْدَةَ ، فَقَالَ :

بَعْبَرَةَ عَيْنٍ مَا يَجِفُّ سُجُومُهَا
تَجَاوَبُهُ هَامُ الْقِفَارِ وَبُومُهَا
وَوَلَّتْ شِلَالًا وَاسْتَبِيحَ حَرِيمُهَا
يُرْجِي نِزَارًا أَنْ تَوُوبَ حُلُومُهَا
بِحَسْرَةِ نَفْسٍ لَا تَنَامُ هُمُومُهَا
تَخْبِطُ فِعْلَ الْمُصْعَبَاتِ قُرُومُهَا
فَمِنْ ذَا إِذَا عَزَّ الْخُطُوبُ يَرُومُهَا

بَكَى زُفَرُ الْقَيْسِيِّ مِنْ هُلَاكِ قَوْمِهِ
يُبْكِي عَلَى قَتْلِ أُصَيِّتِ بَرَاهِطٍ
أَبْحَنَا جَمَى لِلْحَيِّ قَيْسٍ بَرَاهِطٍ
يُبْكِيهِمْ حَرَانَ تَجْرِي دُمُوعُهُ
فُمْتُ كَمْدًا أَوْ عِشْ ذَلِيلًا مَهْضُمًا
إِذَا خَطَرَتْ حَوْلِي قَضَاعَةٌ بِالْقَنَا
خَبَطْتُ بِهِمْ مِنْ كَادَنِي مِنْ قَبِيلَةٍ

وَقَالَ زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ أَيْضًا :

فِيحْيَا وَأَمَّا ابْنُ الرُّبَيْرِ فَيُقْتَلُ

أَفِي اللَّهِ أَقِيَا بَخْدَلٍ وَابْنُ بَخْدَلٍ

كَذَبْتُمْ وَيَتِيَّ اللَّهُ لَا تَقْتُلُونَهُ
وَلَمَّا يَكُنْ لِلْمَشْرِفِيَّةِ فَوْقَكُمْ
وَلَمَّا يَكُنْ يَوْمُ أَغْرُمُ مَحْجَلُ
شُعَاعُ كَقَرْنِ الشَّمْسِ حِينَ تَرَجُلُ

فأجابه عبدالرحمن بن الحكم ، أخو مروان بن الحكم ، فقال :

أَتَذْهَبُ كَلْبٌ قَدْ حَمَّتْهَا رِمَاحُهَا
لَحَا اللَّهُ قَيْسًا قَيْسَ عَيْلَانَ إِنَّهَا
وَتَتْرُكُ قَتْلَى رَاهِطٍ مَا أَجْنَبَتْ!
أَضَاعَتْ تُغُورَ الْمُسْلِمِينَ وَوَلَّتْ
فَبَاهٍ بِقَيْسٍ فِي الرِّخَاءِ وَلَا تَكُنْ
أَخَاهَا إِذَا مَا الْمَشْرِفِيَّةُ سُلَّتْ

قال أبو جعفر: ولما بايع حصين بن غير مروان بن الحكم وعصى مالك بن هبيرة فيما أشار به عليه من بيعة خالد بن يزيد بن معاوية ، واستقرّ لمروان بن الحكم الملك ، وقد كان الحصين بن غير اشترط على مروان أن ينزل البلقاء من كان بالشام من كندة ، وأن يجعلها لهم مأكلة ، فأعطاه ذلك ؛ وإن بني الحكم لما استوثق الأمر لمروان ، وقد كانوا اشترطوا لخالد بن يزيد بن معاوية شروطاً ؛ قال مروان ذات يوم وهو جالس في مجلسه ومالك بن هبيرة جالس عنده: إن قوماً يدعون شروطاً منهم عطارة مكحلة - يعني مالك بن هبيرة وكان رجلاً يتطيّب ويكتحل - فقال مالك بن هبيرة: هذا ولما تردي تهامة ، ولما يبلغ الحزام الطّيبين ؛ فقال مروان: مهلاً يا أبا سليمان ، إنما داعبنك ؛ فقال مالك: هو ذاك . وقال عويج الطائي يمتدح كلباً وحيد بن بحدل:

لَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ وَقَعَ ابْنُ بَحْدَلٍ
يَقُودُونَ أَوْلَادَ الْوَجِيهِ وَلاحِقٍ
وَأُخْرَى عَلَيْهِمْ إِنْ بَقِيَ سَيَعِيدُهَا
مِنَ الرَّيْفِ شَهْرًا مَا يَبْنِي مِنْ يَقُودِهَا
فَهَذَا لِهَذَا ثُمَّ إِنِّي لِنَافِضٍ
عَلَى النَّاسِ أَقْوَامًا كَثِيرًا حُدُودُهَا
فَلَوْلَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَأَصْبَحَتْ
قُضَاعَةُ أَرْبَابًا وَقَيْسُ عَيْدُهَا

وفي هذه السنة بايع جند خراسان لسلم بن زياد بعد موت يزيد بن معاوية ، على أن يقوم بأمرهم حتى يجتمع الناس على خليفة .

وفيهما كانت فتنة عبدالله بن خازم بخراسان .

ذكر الخبر عن ذلك :

حدثني عمر بن شبة ، قال : حدثنا علي بن محمد ، قال : أخبرنا مسلمة بن محارب ، قال : بعث سلم بن زياد بما أصاب من هدايا سمرقند وخوارزم إلى يزيد بن معاوية مع عبدالله بن خازم ، وأقام سلم والياً على خراسان حتى مات يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد ، فبلغ سلماً موته ، وأتاه مقتل يزيد بن زياد في سجستان وأسر أبي عبيدة بن زياد ، وكتب الخبر سلم ، فقال ابن عرادة :

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُغْلَقُ بَابُهُ
قَتَلَى بِجُنْزَةِ الْوَالِدِينَ بِكَابِلٍ
وَيَزِيدُ أَعْلَنَ شَأْنُهُ الْمَكْتُومُ
أَبْنِي أُمِّيَّةَ إِنْ آخِرَ مَلِكِكُمْ
جَسَدٌ بِحَوَارِينَ ثُمَّ مُقِيمٌ
طَرَقَتْ مَبْنِيَّتُهُ وَعِنْدَ وَسَادِهِ
كُوبٌ وَزِقٌ رَاعِفٌ مَرْتُومٌ
وَمِرْنَةٌ تَبْكِي عَلَى نَشْوَانِهِ
بِالصَّنَجِ تَقْعُدُ تَارَةً وَتَقُومُ
بِالْصَّنَجِ تَقْعُدُ تَارَةً وَتَقُومُ

قال مسلمة: فلما ظهر شعر ابن عرادة أظهر سلم موت يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد، ودعا الناس إلى البيعة على الرضا حتى يستقيم أمر الناس على خليفة، فبايعوه، ثم مكثوا بذلك شهرين، ثم نكثوا به.

قال علي بن محمد: وحدثنا شيخ من أهل خراسان، قال: لم يحب أهل خراسان أميراً قط حُبهم سلم بن زياد، فسُمي في تلك السنين التي كان بها سلم أكثر من عشرين ألف مولود بسلم، من حُبهم سلماً.

قال: وأخبرنا أبو حفص الأزدي، عن عمه قال: لما اختلف الناس بخراسان ونكثوا بيعة سلم عن خراسان وخلف عليها المهلب بن أبي صفرة، فلما كان بسرّحس لقيه سليمان بن مرثد أحد بني قيس بن ثعلبة، فقال له: مَنْ خَلَفْتَ على خراسان؟ قال: المهلب؛ فقال: ضاقت عليك نزار حتى ولّيت رجلاً من أهل اليمن! فولاه مرو الروذ والفارياب والطارقان والجوزجان، وولى أوس بن ثعلبة بن زفر - وهو صاحب قصر أوس بالبصرة - هراة، ومضى فلما صار بنيسابور لقيه عبدالله بن خازم فقال: مَنْ ولّيت خراسان؟ فأخبره، فقال: أما وجدت في مضر رجلاً تستعمله حتى فرقت خراسان بين بكر بن وائل وزون عمان؟ قال له: اكتب لي عهداً على خراسان؛ قال: أوالي خراسان أنا! قال: اكتب لي عهداً ونحلاك ذم. قال: فكتب له عهداً على خراسان؛ قال: فأعني الآن بمائة ألف درهم فأمر له بها، وأقبل إلى مرو، وبلغ الخبر المهلب بن أبي صفرة، فأقبل واستخلف رجلاً من بني جشم بن سعد بن زيد مناة بن تميم.

قال: وأخبرنا المفضل بن محمد الضبي، عن أبيه، قال: لما صار عبدالله بن خازم إلى مرو بعهد سلم بن زياد، منعه الجشمي، فكانت بينهما مناوشة، فأصاب الجشمي رمية بحجر في جبهته، وتحاجزوا وخلق الجشمي بين مرو الروذ وبينه، فدخلها ابن خازم، ومات الجشمي بعد ذلك بيومين.

قال علي بن محمد المدائني: حدثنا الحسن بن رشيد الجوزجاني، عن أبيه، قال: لما مات يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد وثب أهل خراسان بعمّالهم فأخرجوهم، وغلب كل قوم على ناحية، ووقعت الفتنة، وغلب ابن خازم على خراسان، ووقعت الحرب.

قال أبو جعفر: وأخبرنا أبو الذئال زهير بن هنيذ، عن أبي نعمة، قال: أقبل عبدالله بن خازم فغلب على مرو، ثم سار إلى سليمان بن مرثد فلقه بمرّ الروذ، فقاتله أياماً، فقتل سليمان بن مرثد، ثم سار عبدالله بن خازم إلى عمرو بن مرثد وهو بالطارقان في سبعمائه، وبلغ عمراً إقبالاً عبدالله إليه وقتله أخاه، فأقبل إليه، فالتقوا على نهر أن يتوآفي إلى ابن خازم أصحابه، فأمر عبدالله من كان معه فنزلوا، فنزل وسأل عن زهير بن ذؤيب العدري، فقالوا: لم ينجى حتى أقبل وهو على حاله، فلما أقبل قيل له: هذا زهير قد جاء، فقال له عبدالله: تقدّم، فالتقوا فاقتتلوا طويلاً، فقتل عمرو بن مرثد، وانهمز أصحابه، فلحقوا بهراة بأوس بن ثعلبة، ورجع عبدالله بن خازم إلى مرو.

قال: وكان الذي ولي قتل عمرو بن مرثد زهير بن حيّان العدويّ فيما يروون فقال الشاعر:

أَتَذْهَبُ أَيَّامَ الْحُرُوبِ وَلَمْ تُبَيِّءْ زَهِيرَ بْنَ حَيَّانٍ بَعْمُرَ بْنَ مَرْثَدٍ

قال: وحدثنا أبو السريّ الخراساني - وكان من أهل هراة - قال: قتل عبدالله بن خازم سليمان وعمراً ابني مرثد المرثديين من بني قيس بن ثعلبة ثم رجع إلى مرو، وهرب من كان بمرّ الروذ من بكر بن وائل إلى

هَراة، وانضم إليها من كان بَكُور خُراسان من بكر بن وائل، فكان لهم بها جمعٌ كثير عليهم أوس بن ثعلبة؛ قال: فقالوا له: نبايعك على أن تسير إلى ابن خازم، وتُخرج مُضَرَ من خُراسان كُلِّها؛ فقال لهم: هذا بُغْيٌ، وأهلُ البغي مَخْذُولون، أقيموا مكانكم هذا، فإن ترككم ابن خازم - وما أراه يفعل - فاضربوا هذه الناحية، وخلّوه وما هو فيه؛ فقال بنو صُهيّب - وهم موالي بني جَحْدَر: لا والله لا نرضى أن نكون نحن ومُضَر في بلد، وقد قتلوا ابني مَرْتَد، فإن أجبتنا إلى هذا وإلا أمرنا علينا غيرك؛ قال: إنما أنا رجلٌ منكم، فاصنعوا ما بدا لكم؛ فبايعوه، وسار إليهم ابن خازم، واستخلف ابنه موسى، وأقبل حتى نزل على واد بين عسكره وبين هَراة؛ قال: فقال البكريون لأوس: اخرج فخذق خندقاً دون المدينة فقاتلهم فيه، وتكون المدينة من ورائنا، فقال لهم أوس: الزموا المدينة فإنها حصينة، وخلّوا ابن خازم ومنزله الذي هو فيه؛ فإنه إن طال مُقامه ضجر فأعطاكم ما ترضون به، فإن اضطررتم إلى القتال قاتلتهم، فأبوا وخرجوا دونها، فقاتلهم ابن خازم نحواً من سنة.

قال وزعم الأحنف بن الأشهب الضبي، وأخبرنا أبو الذيال زهير بن الهندي؛ سار ابن خازم إلى هَراة وفيها جمعٌ كثير لبكر بن وائل قد خندقوا عليهم، وتعاهدوا على إخراج مُضَرَ إن ظفروا بخُراسان، فنزل بهم ابن خازم، فقال له هلال الضبي أحد بني ذهل، ثم أحد بني أوس: إنما تقاتل إخوتك من بني أبيك، والله إن يلت منهم فما تريد ما في العيش بعدهم من خير، وقد قتلت بمرور الروذ منهم من قتلت، فلو أعطيتهم شيئاً يرضون به، أو أصلحت هذا الأمر! قال: والله لو خرجت لهم عن خُراسان ما رضوا به، ولو استطاعوا أن يخرجوكم من الدنيا لأخرجوكم؛ قال: لا، والله لا أرمي معك بسهم، ولا رجلٌ يطيعني من خندق حتى تُعذر إليهم؛ قال: فأنت رسولي إليهم فأرضهم، فأقى هلال إلى أوس بن ثعلبة فناشدته الله والقراءة، وقال: أذكرك الله في نزار أن تسفك دماءها، وتضرب بعضها ببعض! قال: لقيت بني صهيّب؟ قال: لا والله؛ قال: فالحقهم؛ فخرج فلقي أرقم بن مطرف الحنفي، وضُمضم بن يزيد - أو عبدالله بن ضمضم بن يزيد - وعاصم بن الصلت بن الحريث الحنفيين، وجماعة من بكر بن وائل وكلمهم بمثل ما كلم به أوساً، فقالوا: هل لقيت بني صُهيّب؟ فقال: لقد عظم الله أمر بني صُهيّب عندكم، لا لم ألقهم، قالوا: القهم، فأقى بني صهيّب فكلمهم، فقالوا: لولا أنك رسول لقتلناك؛ قال: أفما يرضيكم شيء؟ قالوا: واحدة من اثنتين، إما أن تخرجوا عن خُراسان ولا يدعوا فيها لمُضَر دافع، وإما أن تقيموا وتنزلوا لنا عن كل كراع وسلاح وذهب وفضة؛ قال: أفما شيء غير هاتين؟ قالوا: لا، قال: حسبنا الله ونعم الوكيل! فرجع إلى ابن خازم، فقال: ما عندك؟ قال: وجدت إخوتنا قطعاً للرَّحِم، قال: قد أخبرتك أن ربيعة لم تزل غَضاباً على ربها منذ بعث الله النبي ﷺ من مُضَر.

قال أبو جعفر: وأخبرنا سليمان بن مجالد الضبي، قال: أغارت الترك على قصر إسفاد وابن خازم بهَراة، فحاصروا أهلها، وفيه ناس من الأزد هم أكثر من فيه، فهزمتهم، فبعثوا إلى من حولهم من الأزد فجاءوا لينصروهم فهزمتهم الترك، فأرسلوا إلى ابن خازم، فوجه إليهم زهير بن حيان في بني تميم وقال له: إياك وأولاء الترك، إذا رأيتموهم فاحملوا عليهم، فأقبل فوافاهم في يوم بارد، قال: فلما التقوا شدوا عليهم فلم يثبتوا لهم، وانهمزت الترك وأتبعوهم حتى مضى عامّة الليل حتى انتهوا إلى قصر في المفازة، فأقامت الجماعة من بني زهير في فوارس يتبعهم، وكان عالماً بالطريق، ثم رجع في نصف من الليل؛ وقد يسست يده على رُحبه من البرد، فدعا غلامه كعباً، فخرج إليه، فأدخله، وجعل يُسخن له الشحم فيضعه على يده، ودهنوه وأوقدوا له ناراً حتى لآن ودفيء؛ ثم رجع إلى هَراة، فقال في ذلك كعب بن معدان الأشقري:

دُرُوعٌ وَبَيْضُ حَشَوْنٍ تَمِيمٍ
فَضَمُّهُمْ يَوْمَ اللَّقَاءِ صَمِيمٍ
ضُرُوعٌ عَرِيضَاتِ الْخَوَاصِرِ كَوْمٍ

أَتَاكَ أَتَاكَ الْغَوْتُ فِي بَرْقٍ عَارِضٍ
أَبَوَا أَنْ يَضُمُّوا حَشُو مَا تَجْمَعُ الْقُرَى
وَرَزَقَهُمْ مِنْ رَائِحَاتٍ تَزِينُهَا

وقال ثابت قُطْنَةُ :

على ما كان من ضَنْكِ الْمُقَامِ
أَحَامِي حِينَ قَلَّ بِهِ الْمُحَامِي
أَذُوهُمْ بِذِي شَطْبٍ حُسَامِ
كَتَرَ الشَّرْبِ آبِيَةَ الْمُدَامِ
وَضَرَبِي قَوْنَسَ الْمَلِكِ الْهُمَامِ
أَمَامَ التُّرْكِ بِأَيْدِيهِ الْخِدَامِ

فَدَتِ نَفْسِي قَوَارِسَ مِنْ تَمِيمٍ
بِقَضْرِ الْبَاهِلِيِّ وَقَدْ أَرَانِي
بِسَيْفِي بَعْدَ كَسْرِ الرُّمَحِ فِيهِمْ
أَكْرَ عَلَيْهِمُ الْيَحْمُومَ كَرًّا
فَلَوْلَا اللَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكَ
إِذَا فَاظَلَتْ نِسَاءُ بَنِي دِثَارٍ

قال أبو جعفر: وحدثني أبو الحسن الخراساني، عن أبي حماد السلمي قال: أقام ابن خازم بهراً يقاتل أوس بن ثعلبة أكثر من سنة، فقال يوماً لأصحابه: قد طال مقامنا على هؤلاء، فنأدوهم: يا معشر ربيعة، إنكم قد اعتصمتم بخندقكم، أفرضيتم من خراسان بهذا الخندق! فأحفظهم ذلك، فتنادى الناس للقتال، فقال لهم أوس بن ثعلبة: الزموا خندقكم وقاتلوهم كما كنتم تقتلونهم، ولا تخرجوا إليهم بجماعتكم؛ قال: فعصوه وخرجوا إليهم، فالتقى الناس، فقال ابن خازم لأصحابه: اجعلوه يومكم فيكون الملك لمن غلب، فإن قُتِلَ فأميركم شماس بن دثار العطاردي، فإن قُتِلَ فأميركم بكير بن وشاح الثقفي.

قال علي: وحدثنا أبو الذئال زهير بن هنيذ، عن أبي نعام العدوي عن عبيد بن نقيذ، عن إياس بن زهير بن حيّان: لما كان اليوم الذي هرب فيه أوس بن ثعلبة وظفر ابن خازم ببكر بن وائل، قال ابن خازم لأصحابه حين التقوا: إني قَلْعٌ، فشددوني على السرج، واعلموا أن علي من السلاح ما لا أقتل قدرَ جَزَرِ جَزُورَيْنِ، فإن قبل لكم: إني قد قُتِلْتُ فلا تصدقوا. قال: وكانت راية بني عدي مع أبي وأنا على فرس مُحْرَّمٍ، وقد قال لنا ابن خازم: إذا لقيتم الخيل فاطعنوها في مناخرها، فإنه لن يطعن فرسٌ في نُخْرَتِهِ إلا أدبر أو رمى بصاحبه، فلما سمع فرسي قَعْقَعَةَ السلاح وثب بي وادياً كان بيني وبينهم؛ قال: فتلقاني رجل من بكر بن وائل فطعن فرسه في نُخْرَتِهِ، فصصره، وحمل أبي بني عدي، واتبعته بنو تميم من كل وجه، فاقتتلوا ساعة، فانهزمت بكر بن وائل حتى انتهوا إلى خندقهم وأخذوا يميناً وشمالاً، وسقط ناسٌ في الخندق فقتلوا قتلاً ذريعاً، وهرب أوس بن ثعلبة وبه جراحات، وحلف ابن خازم لا يؤقُّ بأسيرٍ إلا قتله حتى تغيب الشمس، فكان آخر من أتى به رجلٌ من بني حنيفة يقال له حَمِيَّةٌ فقالوا لابن خازم: قد غابت الشمس، قال: وقوا به القتل؛ فُقِلَ.

قال: فأخبرني شيخٌ من بني سعد بن زيد مناة أن أوس بن ثعلبة هرب وبه جراحاتٌ إلى سجستان، فلما صار بها أو قريباً منها مات.

وفي مقتل ابن مرثد وأمر أوس بن ثعلبة يقول المغيرة بن حُبَاء، أحد بني ربيعة بن حنظلة:

قتيلاً ومَسْجُوناً بِهَا وَمُسَيِّراً
فلم تجدوا إلا الخنادق مَقْبَراً

وفي الحرب كنتم في خراسان كلها
ويوم احتواكم في الحفير ابن خازم

وَيَوْمَ تَرَكْتُمْ فِي الْغَبَارِ ابْنَ مَرْثِدٍ وَأَوْسًا تَرَكْتُمْ حَيْثُ سَارَ وَعَسْكَرًا
قال: وَأَخْبَرَنِي أَبُو الذِّيَالِ زَهِيرُ بْنُ هَنِيدٍ، عَنْ جَدِّهِ أَبِي أُمِّهِ، قَالَ: قُتِلَ مِنْ بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ يَوْمَ ثَمَانِيَةِ
آلَافٍ.

قال: وَحَدَّثَنَا التَّمِيمِيُّ، رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ خُرَّاسَانَ، عَنْ مَوْلَى لَابْنِ خَازِمٍ، قَالَ: قَاتَلَ ابْنَ خَازِمٍ أَوْسُ بْنُ
ثَعْلَبَةَ وَبَكْرُ بْنُ وَاثِلٍ، فَظَفِيرُ بَهْرَاءَ، وَهَرَبَ أَوْسٌ وَغَلِبَهُ ابْنُ خَازِمٍ عَلَى هَرَاءَ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهَا ابْنَهُ مُحَمَّدًا، وَضَمَّ
إِلَيْهِ شَمَّاسُ بْنُ دَنَّارِ الْعُطَارِدِيِّ، وَجَعَلَ بُكَيْرُ بْنُ وَشَّاحٍ عَلَى شُرَطَتِهِ، وَقَالَ لَهَا: رِيَّاهُ فَإِنَّ ابْنَ أَخْتِكَمَا، فَكَانَتْ
أُمُّهُ مِنْ بَنِي سَعْدٍ يَقَالُ لَهَا صَفِيَّةٌ، وَقَالَ لَهُ: لَا تَخَالَفْهُمَا، وَرَجِعَ ابْنُ خَازِمٍ إِلَى مَرَوْ.

قال أبو جعفر: وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ تَحَرَّكَتِ الشَّيْعَةُ بِالْكُوفَةِ، وَاتَّعَدُوا الْاجْتِمَاعَ بِالنُّخَيْلَةِ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِّينَ
لِلْمَسِيرِ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ لِلطَّلَبِ بِدَمِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَتَكَاتَبُوا فِي ذَلِكَ.

ذَكَرَ الْخَبَرُ عَنْ مَبْدَأِ أَمْرِهِمْ فِي ذَلِكَ :

قال هشام بن محمد: حَدَّثَنَا أَبُو غَخَفٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي يُونُسُ بْنُ يَزِيدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَوْفٍ بْنِ الْأَحْمَرِ
الْأَزْدِيِّ، قَالَ: لَمَّا قُتِلَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ وَرَجَعَ ابْنُ زِيَادٍ مِنْ مُعَسَّكِرِهِ بِالنُّخَيْلَةِ، فَدَخَلَ الْكُوفَةَ، تَلَاقَتْ الشَّيْعَةُ
بِالتَّلَاوُمِ وَالتَّنَدُّمِ، وَرَأَتْ أَنَّهَا قَدْ أَخْطَأَتْ خَطَأً كَبِيرًا أَبْدَعَتْهُمْ الْحُسَيْنَ إِلَى النُّصْرَةِ وَتَرَكَهُمْ لِجَانِبَتِهِ، وَمَقْتَلِهِ إِلَى
جَانِبِهِمْ لَمْ يَنْصُرُوهُ، وَرَأَوْا أَنَّهُ لَا يُغْسَلُ عَارُهُمْ وَالْإِثْمُ عَنْهُمْ فِي مَقْتَلِهِ إِلَّا بِقَتْلِ مَنْ قَتَلَهُ، أَوْ الْقَتْلُ فِيهِ، فَفَزَعُوا
بِالْكُوفَةِ إِلَى خَمْسَةِ نَفَرٍ مِنْ رُؤُوسِ الشَّيْعَةِ إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ الْحُزَاعِيِّ، وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِلَى
الْمُسَيَّبِ بْنِ نَجْبَةَ الْفَزَارِيِّ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ وَخِيَارِهِمْ، وَإِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ نَفِيلِ الْأَزْدِيِّ، وَإِلَى
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَالٍ التَّمِيمِيِّ، وَإِلَى رِفَاعَةَ بْنِ شَدَّادِ الْبَجَلِيِّ.

ثُمَّ إِنْ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الْخَمْسَةِ اجْتَمَعُوا فِي مَنْزِلِ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ، وَكَانُوا مِنْ خِيَارِ أَصْحَابِ عَلِيٍّ، وَمَعَهُمْ
أَنَاسٌ مِنَ الشَّيْعَةِ وَخِيَارِهِمْ وَوُجُوهُهُمْ.

قال: فَلَمَّا اجْتَمَعُوا إِلَى مَنْزِلِ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ بَدَأَ الْمُسَيَّبُ بْنُ نَجْبَةَ الْقَوْمَ بِالْكَلَامِ، فَتَكَلَّمَ فَحَمَدَ اللَّهَ
وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ :

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَا قَدْ ابْتُلِينَا بِطَوْلِ الْعُمَرِ، وَالتَّعَرُّضِ لِأَنْوَاعِ الْفِتَنِ فَنَرْغَبُ إِلَى رَبِّنَا أَلَّا يَجْعَلَنَا مِنْ يَقُولِ لَهُ
غَدًا: ﴿أَوَلَمْ نَعْمُرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾^(١)، فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: الْعُمَرُ الَّذِي أَعْذَرَ اللَّهُ
فِيهِ إِلَى ابْنِ آدَمَ سِتُونَ سَنَةً، وَلَيْسَ فِينَا رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ بَلَغَهُ، وَقَدْ كُنَّا مُغْرَمِينَ بِتَرْكِئَةِ أَنْفُسِنَا، وَتَقْرِيطِ شَيْعَتِنَا،
حَتَّى بَلََا اللَّهُ أَحْيَارَنَا فَوَجَدَنَا كَاذِبِينَ فِي مَوَاطِنَ مِنْ مَوَاطِنِ ابْنِ ابْنَةِ نَبِيِّنَا ﷺ، وَقَدْ بَلَغْتُنَا قَبْلَ ذَلِكَ كُتْبُهُ، وَقَدِمَتْ
عَلَيْنَا رُسُلُهُ، وَأَعْذَرَ إِلَيْنَا يَسْأَلُنَا نَصْرَهُ عَوْدًا وَبَدَاءً، وَعِلَانِيَةً وَسِرًّا، فَبَخَلْنَا عَنْهُ بِأَنْفُسِنَا حَتَّى قُتِلَ إِلَى جَانِبِنَا، لَا
سَحْنَ نَصْرِنَاهُ بِأَيْدِينَا؛ وَلَا جَادَلْنَا عَنْهُ بِأَلْسِنَتِنَا؛ وَلَا قَوَيْنَاهُ بِأَمْوَالِنَا، وَلَا طَلَبْنَا لَهُ النُّصْرَةَ إِنْ عَشَائَرْنَا، فَمَا عَظُرْنَا إِلَى
تَنَاوَعِنَا لِقَاءِ نَبِيِّنَا ﷺ. وَقَدْ قُتِلَ فِينَا وَلَدُهُ وَحَبِيبُهُ، وَذَرِيَّتُهُ وَنَسْلُهُ لَا وَاللَّهِ، لَا عُدْرَةَ دُونَ أَنْ تَقْتُلُوا قَاتِلَهُ وَالْمَوَالِينَ
عَلَيْهِ، أَوْ تَقْتُلُوا فِي طَلَبِ ذَلِكَ، فَعَسَى رَبَّنَا أَنْ يَرْضَى عَنَّا عِنْدَ ذَلِكَ، وَمَا أَنَا بَعْدَ لِقَائِهِ لِعَقُوبَتِهِ بِآمِنٍ. أَيُّهَا

القوم ، ولّوا عليكم رجلاً منكم فإنه لا بدّ لكم من أمير تفرّعون إليه ، وراية تحفّون بها ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

قال : فبدر القوم رفاعه بن شدّاد بعد المسيّب الكلام ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال : أما بعد ، فإن الله قد هداك لأصوب القول ، ودعوت إلى أرشد الأمور ، بدأت بحمد الله والثناء عليه ، والصلاة على نبيه ﷺ ، ودعوت إلى جهاد الفاسقين وإلى التوبة من الذنب العظيم ، فمسموع منك ، مستجاب لك ، مقبول قولك ؛ قلت : ولّوا أمركم رجلاً منكم تفرّعون إليه ، وتحفّون برايته ، وذلك رأيي قد رأينا مثله الذي رأيته ، فإن تكن أنت ذلك الرجل تكن عندنا مرضياً ، وفينا مُتَنَصِّحاً ، وفي جماعتنا محباً ، وإن رأيته رأي أصحابنا ذلك ولينا هذا الأمر شيخ الشيعة صاحب رسول الله ﷺ ، وذا السابقة والقدم سليمان بن صُرد المحمود في بأسه ودينه ، والموثوق بحزمه . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

قال : ثم تكلم عبدالله بن والٍ وعبدالله بن سعد ، فحمد الله وأثنى عليه ، وتكلما بنحو من كلام رفاعه ابن شدّاد ، فذكرا المسيّب بن نجبة بفضلّه ، وذكر سليمان بن صُرد بسابقته ، ورضاها بتوليّته ، فقال المسيّب ابن نجبة : أصبتم ووفقتم ، وأنا أرى مثله الذي رأيتم ، فولّوا أمركم سليمان بن صُرد .

قال أبو مخنف : فحدثت سليمان بن أبي راشد بهذا الحديث ، فقال : حدثني حميد بن مسلم ، قال : والله إنّي لشاهد هذا اليوم ، يوم ولّوا سليمان بن صُرد ، وإنّا يومئذ لأكثر من مائة رجل من فرسان الشيعة وجوههم في داره .

قال : فتكلّم سليمان بن صرد فشدد ، وما زال يردّد ذلك القول في كل جمعة حتى حفظته ، بدأ فقال : أثنى على الله خيراً ، وأحمد آلاءه وبلاءه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمداً رسوله ، أمّا بعد ، فإنّي والله لخائف ألا يكون آخرنا إلى هذا الدهر الذي نكدت فيه المعيشة ، وعظمت فيه الرزية وشمل فيه الجور أولى الفضل من هذه الشيعة لما هو خير ؛ إنا كنا نمدّ أعناقنا إلى قدوم آل نبينا ، ونغنيهم النصر ، ونحثهم على القدوم ، فلما قدّموا ونينا وعجزنا ، وأدّهنّا ، وتربّصنا ، وانتظرنا ما يكون حتى قُتل فينا ولّد نبينا وسلالته وعصارته وبضعة من لحمه ودمه ، إذ جعل يستصرخ فلا يُصْرخ ، ويسأل النصف فلا يُعطاه ، اتّخذ الفاسقون غرضاً للنبل ، ودريّة للرّماح حتى أقصدوه ، وعدّوا عليه فسلبوه . ألا انفضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله ، والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله ، أو تُبَيروا . ألا لا تهابوا الموت فوالله ما هابه امرؤ قطّ إلا ذلّ ، كونوا كالأولى من بني إسرائيل إذ قال لهم نبيهم : ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ ﴾ (١) ، فما فعل القوم ؟ جثوا على الركب واللى ، ومدّوا الأعناق ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل ، فكيف بكم لو قد دُعيتُم إلى مثل ما دُعي القوم إليه ! اشحذوا السيوف ، وركبوا الأسنة ، ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ (٢) ، حتى تدعوا حين تُدْعَوْنَ تُستنفرون .

(١) سورة البقرة : ٥٤ .

(٢) سورة الأنفال : ٦٠ .

قال : فقام خالد بن سعد بن نُفيل ، فقال : أما أنا فوالله لو أعلم أن قتلي نفسي يُخرجني من ذنبي ويُرضي ربي لقتلتها ؛ ولكن هذا أمر به قوم كانوا قبلنا ونُهينا عنه ، فأشهد الله ومَن حضر من المسلمين أن كل ما أصبحت أملكه سوى سلاحي الذي أقاتل به عدوي صدقةً على المسلمين ، أقويهم به على قتال القاسطين .

وقام أبو المعتمر حَنَش بن ربيعة الكِنَاني فقال : وأنا أشهدكم على مثل ذلك .

فقال سليمان بن صُرَد : حَسْبُكُمْ ؛ مَنْ أراد من هذا شيئاً فليأت بماله عبد الله بن وال التيمي تيم بكر بن وائل ، فإذا اجتمع عنده كل ما تريدون إخراجَه من أموالكم جهّزنا به ذوي الخلة والمسكنة من أشياعكم .

قال أبو مخنف لوط بن يحيى ، عن سليمان بن أبي راشد ، قال : حدثنا حميد بن مسلم الأزدي أن سليمان بن صُرَد قال لخالد بن سعد بن نفيل حين قال له : والله لو علمت أن قتلي نفسي يُخرجني من ذنبي ويُرضي ربي لقتلتها ، ولكن هذا أمر به قوم غيرنا كانوا من قبلنا ونُهينا عنه ، قال : أخوكم هذا غداً فريس أول السنة ؛ قال : فلما تصدق بماله على المسلمين قال له : أبشر بجزيل ثواب الله للذين لأنفسهم يمهّدون .

قال أبو مخنف : حدّثني الحصين بن يزيد بن عبد الله بن سعد بن نفيل قال : أخذت كتاباً كان سليمان بن صُرَد كتب به إلى سعد بن حذيفة بن اليمان بالمدائن ، فقرأته زماناً ولي سليمان - قال : فلما قرأته أعجبني ، فتعلمته فما نسيتُه ، كتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم . من سليمان بن صُرَد إلى سعد بن حذيفة ومَن قبله من المؤمنين . سلام عليكم ، أما بعد ؛ فإن الدنيا دارٌ قد أدبر منها ما كان معروفاً ، وأقبل منها ما كان منكراً ، وأصبحت قد تشنأت إلى ذوي الأبواب ، وأزَمَعَ بالترحال منها عبادةُ الله الأخيار ، وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى بجزيل مثوبة عند الله لا تَفنى . إن أولياء من إخوانكم ، وشيعة آل نبيكم نظروا لأنفسهم فيما ابتلوا به من أمر ابن بنت نبيهم الذي دُعي فأجاب ، ودعا فلم يَجِب ، وأراد الرجعة فحس ، وسأل الأمان فمُنِع ، وترك الناس فلم يتركوه ، وعَدُّوا عليه فقتلوه ، ثم سلبوه وجردوه ظلماً وعدواناً وغرةً بالله وجهلاً ، ويعين الله ما يعلمون ، وإلى الله ما يرجعون ، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (١) ، فلما نظروا إخوانكم وتدبروا عواقب ما استقبلوا رأوا أن قد خطئوا بخذلان الزكي الطيب وإسلامه وترك مواساته ، والنصر له خطأ كبيراً ليس لهم منه مخرج ولا توبة ، دون قتل قاتليه أو قتلهم حتى تَفنى على ذلك أرواحهم ؛ فقد جَدَّ إخوانكم فجَدُّوا ، وأعدُّوا واستعدُّوا ، وقد ضربنا لإخواننا أجلاً يوافوننا إليه ، وموطناً يلقوننا فيه ؛ فأما الأجل فغرة شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين ، وأما الموطن الذي يلقوننا فيه فالنخيلة . أنتم الذين لم تزالوا لنا شيعة وإخواناً ، وإلا وقد رأينا أن ندعوكم إلى هذا الأمر الذي أراد الله به إخوانكم فيما يزعمون ، ويظهرون لنا أنهم يتوبون ، وإنكم جُدَّاء بتطلاب الفضل ، والتماس الأجر ، والتوبة إلى ربكم من الذنب ، لو كان في ذلك حَزُّ الرقاب ، وقتل الأولاد ، واستيفاء الأموال ، وهلاك العشائر ؛ ما ضرَّ أهل عذراء الذين قُتلوا ألا يكونوا اليوم أحياء عند ربهم يُرزقون ، شهداء قد لُقوا الله صابرين محتسبين ، فثابهم ثواب الصابرين - يعني حُجراً وأصحابه - وما ضرَّ إخوانكم

(١) سورة الشعراء : ٢٢٧ .

المُقتَلين صَبْرًا، المُصلِّين ظُلُمًا، والمُمثل بهم، المعتدى عليهم، ألا يكونوا أحياء مبتلين بخطاياكم، قد خيرَ لهم فلقوا ربهم، ووقاهم الله إن شاء الله أجرهم، فاصبروا رحمكم الله على البأساء والضراء وحين البأس، وتوبوا إلى الله عن قريب؛ فوالله إنكم لأحرياء ألا يكون أحدٌ من إخوانكم صبر على شيء من البلاء إرادة ثوابه إلا صبرتم التماسَ الأجر فيه على مثله، ولا يطلب رضا الله طالب بشيء من الأشياء ولو أنه القتلُ إلا طلبتم رضا الله به. إن التقوى أفضلُ الزاد في الدنيا، وما سوى ذلك يبور ويفنى، فلتعزف عنها أنفسكم، ولتكن رغبتكم في دار عافيتكم، وجهادِ عدو الله وعدوكم، وعدو أهل بيت نبيكم حتى تقدموا على الله تائبين زاغين، أحياناً الله وإياكم حياة طيبة، وأجارنا وإياكم من النار، وجعل مناينا قتلًا في سبيله على يدي أبغض خلقه إليه وأشدهم عداوة له؛ إنه القدير على ما يشاء، والصانع لأوليائه في الأشياء؛ والسلام عليكم.

قال: وكتب ابن صرد الكتاب وبعث به إلى سعد بن حذيفة بن اليمان مع عبدالله بن مالك الطائي، فبعث به سعد حين قرأ كتابه إلى من كان بالمدائن من الشيعة، وكان بها أقوامٌ من أهل الكوفة قد أعجبتهم فأوطنوها وهم يقدمون الكوفة في كل حين عطاءً ورزقاً، فيأخذون حقوقهم، وينصرفون إلى أوطانهم، فقرأ عليهم سعد كتاب سليمان بن صرد. ثم إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإنكم قد كنتم مجتمعين مُزْمِعِينَ على نصر الحسين وقتال عدوه، فلم يَفْجَأْكم أولٌ من قتله، والله مثيبيكم على حُسن النية وما أجمعتم عليه من النصر أحسنَ المثوبة، وقد بعث إليكم إخوانكم يستجدونكم ويستمدونكم، ويدعونكم إلى الحق وإلى ما ترجون لكم به عند الله أفضلُ الأجر والحظ، فماذا ترون؟ وماذا تقولون؟ فقال القوم بأجمعهم: نجيبهم ونقاتل معهم، ورأينا في ذلك مثل رأيهم؟

فقام عبدالله بن الحنظل الطائي ثم الحزيمري، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإننا قد أجبنا إخواننا إلى ما دعونا إليه، وقد رأينا مثل الذي قد رأوا، فسرّحني إليهم في الخيل، فقال له: رويداً، لا تعجل، استعدوا للعدو، وأعدوا له الحرب، ثم نسروا وتسيرون.

وكتب سعد بن حذيفة بن اليمان إلى سليمان بن صرد مع عبدالله بن مالك الطائي:

بسم الله الرحمن الرحيم. إلى سليمان بن صرد، من سعد بن حذيفة ومن قبله من المؤمنين، سلام عليكم، أما بعد، فقد قرأنا كتابك، وفهمنا الذي دعوتنا إليه من الأمر الذي عليه رأيُ الملائكة من إخوانك، فقد هديت لحظك، ويسرت لرشدك، ونحن جادون مجدون، معدون مسرجون ملجمون ننتظر الأمر، ونستمع الداعي؛ فإذا جاء الصريخ أقبلنا ولم نعرّج إن شاء الله؛ والسلام.

فلما قرأ كتابه سليمان بن صرد قرأه على أصحابه، فسروا بذلك.

قالوا: وكتب إلى المثنى بن مخزبة العبدي نسخة الكتاب الذي كان كتب به إلى سعد بن حذيفة بن اليمان وبعث به مع ظبيان بن عُمارة التميمي من بني سعد، فكتب إليه المثنى: أما بعد، فقد قرأت كتابك، وأقرأته إخوانك، فحمدوا رأيك، واستجابوا لك، فنحن مؤفوك إن شاء الله للأجل الذي ضربت وفي الموطن الذي ذكرت؛ والسلام عليك. وكتب في أسفل كتابه:

تبصّر كأنّي قد أتيتك مُعلِّماً
طويل القراً نهدي الشّوأة مقلّصاً
على أنلج الهادي أجشّ هزيم
مليح على فأس اللجام أزوم

بِكُلِّ فَي لا يَمْلَأُ الرُّوْعَ نَحْرَهُ مُعِجَسٌ لِمَحْضِ الْحَرْبِ غَيْرِ سَوْمٍ
أَخِي نَمَّةٌ يَنْوِي الإِلَهَ بِسَعْيِهِ نَسْرُوبٌ، يَنْصَلِلُ السِّيفِ غَيْرِ أَثِيمٍ

قال أبو مخنف لوط بن يحيى ، عن الحارث بن حصيرة ، عن عبد الله بن سعد بن نفيل ، قال : كان أول ما ابتدعوا به من أمرهم سنة إحدى وستين ، وهي السنة التي قُتِلَ فيها الحسين رضي الله عنه ، فلم يزل القوم في جمع آله الحرب والاستعداد للقتال ، ودعاء الناس في السر من الشيعة وغيرها إلى الطلب بدم الحسين ، فكان يجيئهم القوم بعد القوم ، والنفر بعد النفر .

فلم يزلوا كذلك وفي ذلك حتى مات يزيد بن معاوية يوم الخميس ، لأربع عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ، وكان بين قتل الحسين وملاك يزيد بن معاوية ثلاث سنين وشهران وأربعة أيام ، وبهلك يزيد وأمير العراق عبيد الله بن زياد ، وهو بالبصرة ، وخليفته بالكوفة عمرو بن حريث المخزومي ، فجاء إلى سليمان أصحابه من الشيعة ، فقالوا : قد مات هذا الطاغية ، والأمر الآن ضعيف ، فإن شئت وثبنا على عمرو بن حريث فأخرجناه من القصر ، ثم أظهرنا الطلب بدم الحسين ، وتبعنا قتله ، ودعونا الناس إلى أهل هذا البيت المستأثر عليهم ، المدفوعين عن حقتهم ، فقالوا في ذلك فأكثرنا ؛ فقال لهم سليمان بن صرد : رويداً ، لا تعجلوا ، إني قد نظرت فيما تذكرون ، فرأيت أن قتلة الحسين هم أشراف أهل الكوفة ، وفُرسان العرب وهم المطالبون بدمه ، ومتى علموا ما تريدون ، وعلموا أنهم المطلوبون ، كانوا أشد عليكم . ونظرت فيمن تبني منكم فعلمت أنهم لو خرجوا لم يدرکوا ثأرهم ، ولم يشفوا أنفسهم ، ولم ينكوا في عدوهم ، وكانوا لهم جزراً ، ولكن بثوا دعاتكم في مصر ، فادعوا إلى أمركم هذا ، شيعتكم وغير شيعتكم ، فإني أرجو أن يكون الناس اليوم حيث هلك هذا الطاغية أسرع إلى أمركم استجابةً منهم قبل هلاكه . ففعلوا ؛ وخرجت طائفة منهم دعاة يدعون الناس ، فاستجاب لهم ناس كثير بعد هلاك يزيد بن معاوية أضعاف من كان استجاب لهم قبل ذلك .

قال هشام : قال أبو مخنف : وحدثنا الحسين بن يزيد ، عن رجل من مزيعة قال : ما رأيت من هذه الأمة أحداً كان أبلغ من عبيد الله بن عبد الله المري في منطق ولا عظة ، وكان من دعاة أهل مصر زمان سليمان بن صرد ، وكان إذا اجتمعت إليه جماعة من الناس فوعظهم بدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله ﷺ ، ثم يقول : أما بعد ، فإن الله اصطفى محمداً ﷺ على خلقه بنبوته ، وخصه بالفضل كله ، وأعزكم باتباعه وأكرمكم بالإيمان به ، فحقن به دماءكم المسفوكة ، وأمن به سبلكم المخوفة ، ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ^(١) . فهل خلق ربكم في الأولين والآخرين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيها؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها؟ لا والله ، ما كان ولا يكون . لله أنتم ! ألم تروا وبلغكم ما اجترم إلى ابن بنت نبيكم ! أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمة ، واستضعافهم وحدته ، وترميلهم إياه بالدم ، وتجاريهموه على الأرض ! لم يرقبوا فيه ربهم ولا قرابته من الرسول ﷺ ؛ اتخذوه للنبل غرضاً ، وغادروه للضباع جزراً ، فإله عينا من رأى مثله ! والله حسين بن علي ، ماذا غادروا به ذا صديق وصبر ، وذا أمانة ونجدة وحزم ! ابن أول المسلمين إسلاماً ، وابن

(١) سورة آل عمران : ١٠٣ .

بنت رسول رب العالمين، قُلتُ حُماته، وكثرت عُدائته حوله، فقتله عدوه، وخجلته وليه. فويل للقاتل، وملامة للخاذل! إن الله لم يجعل لقاتله حُجة، ولا لخاذله مَعذِرَةً، إلا أن ينصح الله في التوبة، فيجاهد القاتلين، وينابذ القاسطين؛ فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة، ويُقيل العثرة؛ إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، والطلب بدماء أهل بيته، وإلى جهاد المُجَلِّين والمارقين، فإن قُتِلنا فما عند الله خيرٌ للأبرار، وإد ظَهَرنا ردَدنا هذا الأمر إلى أهل بيت نبينا.

قال: وكان يعيد هذا الكلام علينا في كل يوم حتى حفظه عامتنا. قال: ووثب الناس على عمرو بن حُرَيْث عند هلاك يزيد بن معاوية، فأخرجوه من القصر، واصطَلَحوا على عامر بن مسعود بن أمية بن خلف الجُمَحِيّ. وهو دُخْرُوجَةُ الجُعَل الذي قال له ابنُ هَمَام السُّلُويّ:

اشدد يديك يزيد إن ظفرت به واشف الأرامِل من دُخْرُوجَةِ الجُعَل.

وكان كأنه إبهامٌ قَصراً، وزيد مولاه وخازنُهُ، فكان يصلي بالناس. وبائع لابن الزبير، أيام يزل أصحاب سليمان بن صُرْد يدعون شيعتهم وغيرهم من أهل مصرهم حتى كثرتهم، وكان الناس إلى اتباعهم بعد هلاك يزيد بن معاوية أسرع منهم قبل ذلك، فلما مضت سنة أشهر من هلاك يزيد بن معاوية، قدم المختار بن أبي عُبَيْد الكوفة، فقدم في النصف من شهر رمضان يوم الجمعة. قال: وقَدِمَ عبدالله بن يزيد الأنصاري ثم الخطمي من قبل عبدالله بن الزبير أميراً على الكوفة على حربها وتغريها، وقدم معه من قبل ابن الزبير إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيدالله الأعرج أميراً على خراج الكوفة، كان قدوم عبدالله بن يزيد الأنصاري ثم الخطمي يوم الجمعة لثمانٍ بقين من شهر رمضان سنة أربع وستين.

قال: وقدم المختار قبل عبدالله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بثمانية أيام، ودخل المختار الكوفة، وقد اجتمعت رؤوس الشيعة ووجوهها مع سليمان بن صُرْد فليس يعدلونه به، فكان المختار إذا دعاهم إلى نفسه وإلى الطلب بدم الحسين قالت له الشيعة: هذا سليمان بن صُرْد شيخ الشيعة، قد انقادوا له واجتمعوا عليه، فأخذ يقول للشيعة: إني قد جئتكم من قبل المهدي محمد بن علي بن الحنفية مؤمناً مأموناً، منتجباً ووزيراً، فوالله ما زال بالشيعة حتى انشعبت إليه طائفة تُعَظِّمُه وتجييه، وتنتظر أمره، وعُظُمُ الشيعة مع سليمان بن صُرْد، فسليمان أنقل خلق الله على المختار.

وكان المختار يقول لأصحابه: أتدرون ما يريد هذا؟ يعني سليمان بن صُرْد - إنما يريد أن يخرج فيقتل نفسه ويقتلكم، ليس له بصراً بالحزوب، ولا له علمٌ بها.

قال: وأتى يزيد بن الحارث بن يزيد بن رُوَيْم الشيباني عبد الله بن يزيد الأنصاري فقال: إن الناس يتحدثون أن هذه الشيعة خارجة عليك مع ابن صُرْد، ومنهم طائفة أخرى مع المختار، وهي أقل الطائفتين عدداً، والمختار فيما يذكر الناس لا يريد أن يخرج حتى ينظر إلى ما يصير إليه أمر سليمان بن صُرْد، وقد اجتمع له أمره، وهو خارج من أيامه هذه، فإن رأيت أن تجتمع الشرط والمقاتلة ووجوه الناس، ثم تنهض إليهم، ونهض معك، فإذا دفعت إلى منزله دعوته - فإن أجابك فحسبه، وإن قاتلك قاتلته، وقد جمعت له وعبات وهو مغتر، فإني أخاف عليك إن هو بدأك وأقررت حتى يخرج عليك أن تشتد شوكته، وأن يتفاقم أمره.

فقال عبدالله بن يزيد : الله بيننا وبينهم ، إن هم قاتلونا قاتلناهم ، وإن تركونا لم نطلبهم ، حَدَّثَنِي ما يريد الناس ؟ قال : يذكر الناس أنهم يطلبون بدم الحسين بن علي ؛ قال : فأنا قتلتُ الحسين ! لعن الله قاتلَ الحسين ! قال : وكان سليمان بن صُرد وأصحابه يريدون أن يثبوا بالكوفة ، فخرج عبدالله بن يزيد حتى صعد المنبر ، ثم قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أمّا بعد ، فقد بلغني أنّ طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألتُ عن الذي دعاهم إلى ذلك ما هو ؟ فقل لي : زعموا أنهم يطلبون بدم الحسين بن علي ، فرحم الله هؤلاء القوم ، قد والله دُلِّيتُ على أماكنهم ، وأمرت بأخذهم ، وقيل : ابدأهم قبل أن يسدّوك ، فأبيت ذلك ، فقلت : إن قاتلوني قاتلتهم ، وإن تركوني لم أطلبهم ؛ وعلاّم يقاتلونني ! فوالله ما قتلتُ حسيناً ، ولا أنا من قاتله ، ولقد أصِبتُ بمقتله رحمة الله عليه ! فإن هؤلاء القوم آمنون ، فليخرجوا ويُنشِروا ظاهرين ليسيروا إلى مَنْ قاتل الحسين ، فقد أقبل إليهم ، وأنا لهم على قاتله ظهير ؛ هذا ابن زياد والحسين ، وقاتل خياركم وأمايلكم ، قد توجّه إليكم ؛ عَهْدُ العاهد به على مسيرة ليلة من جسر منبج ، فوالله والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم ، فيقتل بعضكم بعضاً ، ويسفك بعضكم ماءً حياً ، فيبلاقكم ذلك العدو غداً وقد رققتم ، وتلك والله أمانة عدوكم ، وإنه قد أقبل إليكم أعدى خلق الله لكم ، مَنْ وُلِّيَ عليكم هو وأبوه سبع سنين ، لا يُقْلِعَان عن قتل أهل العفاف والدين ، هو الذي قتلكم ، ومن قَبْلَهُ أُنْتِمَ ، والذي قتل مَنْ ثارون بدمه ، قد جاءكم فاستقبلوه بحدكم وشوكتكم ، واجعلوها به ، ولا تجعلوها أنفسكم ؛ إني لم ألكم نصحاً ، جمع الله لنا كلمتنا ، وأصلح لنا أئمتنا !

قال : فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة : أيها الناس ، لا يغرركم من السيف والغشم مقالة هذا المداهن المودع ، والله لئن خرج علينا خارج لنقتلنه ، ولئن استقيناً أن قوماً يريدون الخروج علينا لنأخذن الوالد بولده والنوايا بوالده ، ولنأخذن الحميم بالحميم ، والعريف بما في عرافته حتى يدينوا للحق ، ويدلّوا للطاعة . فوثب إليه المسيّب بن نجبة فقطع عليه منطقه ثم قال : يابن الناكثين ، أنت تهذّدا بسيفك وغشمك ! أنت والله أذل من ذلك ؛ إنا لا نلومك على بغضنا ، وقد قتلنا أباك وجدك ، والله إني لأرجو ألا يخرجك الله من بين ظهرائي أهل هذا المنصب حتى يثأروا بك جدك وأباك ، وأمّا أنت أيها الأمير فقد قلتَ قولاً سديداً ، وإني والله لأظن من يريد هذا الأمر مستنصحاً لك ، وقابلاً قولك .

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة : إي والله ، ليقتلن وقد أدهن ثم أعلن . فقام إليه عبدالله بن وال التيمي ، فقال : ما اعتراضك يا أخا بني تميم بن مرة فيما بيننا وبين أميرنا ! فإني ما أنت علينا بأمير ، ولا لك علينا سلطان ، إنما أنت أمير الجزية ، فأقبل على خراجك ، فلعمرك الله لئن كنت مفسداً ما أفسد أمر هذه الأمة إلا والدك وجدك الناكثان ، فكانت بهما اليدان ، وكانت عليهما دائرة السوء .

قال : ثم أقبل مسيب بن نجبة وعبدالله بن وال على عبدالله بن يزيد فقالا : أمّا رأيك أيها الأمير فوالله إنا أرجو أن تكون به عند العامة محموداً وأن تكون عند الذي عنيّت واعتريت مقبولاً . فغضب أناس من عمال إبراهيم بن محمد بن طلحة وجماعة ممن كان معه ، فتشائموا دونه ، فشتّمهم الناس وخصّموهم .

فلما سمع ذلك عبدالله بن يزيد نزل ودخل ، وانطلق إبراهيم بن محمد وهو يقول : قد داهن عبدالله بن

يزيد أهل الكوفة ، والله لا كتبت بذلك إلى عبدالله بن الزبير ، فأق شئت بن ربي التميمي عبدالله بن يزيد . فأخبره بذلك ، فركب به ويزيد بن الحارث بن رويم حتى دخل على إبراهيم بن محمد بن طلحة ، فحلف له بالله ما أردت بالقول الذي سمعت إلا العافية وصلاخ ذات البين ، إنما أتاني يزيد بن الحارث بكذا وكذا . فرأيت أن أقوم فيهم بما سمعت إرادة ألا تختلف الكلمة ، ولا تتفرق الألفة ، وألا يقع بأس هؤلاء القوم بينهم . فعذره وقيل منه .

قال : ثم إن أصحاب سليمان بن صرد خرجوا ينشرون السلاح ظاهرين ، ويتجهزون يجاهزون بجهازهم وما يصلحهم .

وفي هذه السنة فارق عبدالله بن الزبير الخوارج الذين كانوا قداموا عليه مكة ، فقاتلوا معه حصين بن نمير السكوني ، فصاروا إلى البصرة ، ثم افترقت كلمتهم فصاروا أحزاباً .

ذكر الخبر عن فراقهم ابن الزبير والسبب الذي من أجله فارقوه والذي من أجله افترقت كلمتهم :

حدثت عن هشام بن محمد الكلبي ، عن أبي مخنف لوط بن يحيى قال : حدثني أبو المخارق الراسبي ، قال : لما ركب ابن زياد من الخوارج بعد قتل أبي بلال ما ركب ، وقد كان قبل ذلك لا يكف عنهم ولا يستبقيهم خبر أنه بعد قتل أبي بلال تجرد لاستئصالهم وهلاكهم ، واجتمعت الخوارج حين ثار ابن الزبير بمكة ، وسار إليه أهل الشام ، فتذاكروا ما أتى إليهم ، فقال لهم نافع بن الأزرق : إن الله قد أنزل عليكم الكتاب ، وفرض عليكم فيه الجهاد ، واحتج عليكم بالبيان ، وقد جرد فيكم السيوف أهل الظلم وأولو العدا والغشم ، وهذا من قد ثار بمكة ، فخرجوا بنا نأت البيت ونلق هذا الرجل فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو ، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا ، ونظرنا بعد ذلك في أمورنا . فخرجوا حتى قدموا على عبدالله بن الزبير ، فسرو بمقدمهم ، ونباههم أنه على رأيهم ، وأعطاهم الرضا من غير توثئة ، ولا تفتيش ، فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية ، وانصرف أهل الشام عن مكة . ثم إن القوم لقي بعضهم بعضاً ، فقالوا : إن هذا الذي صنعتهم أمس بغير رأي ولا صواب من الأمر ، تقاتلون مع رجل لا تدرون لعله ليس على رأيكم ، إنما كان أمس يقاتلكم هو وأبوه ينادي : يال ثارات عثمان ! فأتوه وسلوه عن عثمان ، فإن برىء منه كان وليكم ، وإن أبي كان عدوكم . فمشوا نحوه فقالوا له : أيها الإنسان ، إنا قد قاتلنا معك ، ولم نفتشك عن رأيك حتى نعلم أين أنت أم من عدونا ! خبرنا ما مقالتك في عثمان ؟ فنظر فإذا من حوله من أصحابه قليل ، فقال لهم : إنكم أتيتموني فصادتموني حين أردت القيام ، ولكن روحوا إلي العشي حتى أعلمكم من ذلك الذي تريدون . فانصرفوا ، وبعث إلى أصحابه فقال : البسوا السلاح ، واحضروني بأجمعكم العشي ، ففعلوا ، وجاءت الخوارج ، وقد أقام أصحابه حوله سباطين عليهم السلاح ، وقامت جماعة منهم عظيمة على رأسه بأيديهم الأعمدة ، فقال ابن الأزرق لأصحابه : خشي الرجل غائلتكم ، وقد أزمع بخلافكم واستعد لكم ؛ ما ترون ؟ .

فدنا منه ابن الأزرق ، فقال له : يا ابن الزبير ، أتق الله ربك ، وأبغض الخائن المستأثر ، وعاد أول من سن الضلالة ، وأحدث الأحداث ، وخالف حكم الكتاب ، فإنك إن فعل ذلك ترض ربك ، وتنج من العذاب الأليم نفسك ، وإن تركت ذلك فأنت من الذين استمتعوا بخلافهم ، وأذهبوا في الحياة الدنيا طيباتهم .

يا عبدة بن هلال، صِف لهذا الإنسان ومن معه أَمَرْنَا الذي نحن عليه ، والذي ندعو الناس إليه ، فتقدّم عبدة بن هلال .

قال هشام : قال أبو مخنف : وحدّثني أبو علقمة الخثعمي ، عن قبيصة بن عبد الرحمن القحافي ، من خثعم ، قال : أنا والله شاهدٌ عبدة بن هلال ، إذ تقدم فتكلّم ، فما سمعت ناطقاً قطّ ينطق كان أبلغ ولا أصوب قولاً منه ، وكان يرى رأي الخوارج .

قال : وإن كان ليجمع القول الكثير ، في المعنى الخطير ، في اللفظ اليسير .

قال : فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإن الله بعث محمداً ﷺ يدعو إلى عبادة الله ، وإخلاص الدين ، فدعا إلى ذلك ، فأجابه المسلمون ، فعجل فيهم بكتاب الله وأمره ، حتى قبضه الله إليه ﷺ ، واستخلف أبا بكر ، واستخلف أبو بكر عمر ، فكلّاهما عمل بالكتاب وسنة رسول الله ، فالحمد لله رب العالمين .

فإنّ الناس استخلفوا عثمان بن عفان ، فحمى الأحماء ، وآثر القربى ، واستعمل الفتى ورفع الدرّة ، ووضع الحرم ، ومزق الكتاب ، وحقر المسلم وضرب منكري الجور ، وآوى طريد الرسول ﷺ ، وضرب السابقين الفضل ، وسيرهم وحرمهم ، ثم أخذ فيء الله الذي أفاءه عليهم فقسّمه بين فساق قريش ، ومجان العرب ، فسارت إليه طائفة من المسلمين أخذ الله ميثاقهم على طاعته ، لا يبالون في الله لومة لائم ، فقتلوه ، فنحن لهم أولياء ، ومن ابن عفان وأوليائه برّاء ، فما تقول أنت يابن الزبير؟ قال : فحمد الله ابن الزبير وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فقد فهمت الذي ذكرتم ، وذكرت به النبي ﷺ ، فهو كما قلت ﷺ وفوق ما وصفته ، وفهمت ما ذكرت به أبا بكر وعمر ، وقد وفقت وأصبت ، وقد فهمت الذي ذكرت به عثمان بن عفان رحمة الله عليه ، وإنّي لا أظنّ كان أحد من خلق الله اليوم أعلم بابن عفان وأمره منّي ، كنت معه حيث نقم القوم عليه ، واستعبوه ثم يدع شيئاً استعبته القوم فيه إلّا أعتبهم منه . ثم إنهم رجعوا إليه بكتاب له يزعّمون أنه كتبه فيهم ، يأمر فيه بالتلبس فقال لهم : ما كتبته ، فإن شئتم فهايتوا بيئتكم ؛ فإن لم تكن حلفت لكم ؛ فوالله ما جاؤوه ببينة ، ولا استخلفوه . ووثبوا عليه فقتلوه ، وقد سمعت ما عبته به ، فليس كذلك ، بل هو لكل خير أهل ، وأنا أشهدكم ومن حضر أني ولي لابن عفان في الدنيا والآخرة ، وولي أوليائه ، وعدوّ أعدائه ، قالوا : فبرئ الله منك يا عدوّ الله ؛ قال : فبرئ الله منكم يا أعداء الله .

وتفرّق القوم ، فأقبل نافع بن الأزرق الحنظلي ، وعبد الله بن صفّار السعديّ من بني صريم بن معاعس ، وعبد الله بن إباح أيضاً من بني صريم ، وحنظلة بن بيهس ، وبنو الماحوز : عبد الله ، وعبيد الله ، والزبير ، من بني سليط بن يربوع ، حتى أتوا البصرة ، وانطلق أبو طالوت من بني زُمان بن مالك بن صعب بن علي بن مالك بن بكر بن وائل وعبد الله بن ثور أبو قديك من بني قيس بن ثعلبة وعطية بن الأسود اليشكري إلى اليمامة ، فوثبوا باليمامة مع أبي طالوت ، ثم أجمعوا بعد ذلك على نجدة ابن عامر الحنفي ، فأما البصريون منهم فإنهم قديموا البصرة وهم مجمعون على رأي أبي بلال .

قال هشام : قالوا أبو مخنف لوط بن يحيى : فحدّثني أبو المثنى ، عن رجل من إخوانه من أهل البصرة ، أنهم اجتمعوا فقالت العامة منهم : لو خرج منا خارجون في سبيل الله ، فقد كانت منّا فترة منذ خرج أصحابنا ، فيقوم علماؤنا في الأرض فيكونون مصابيح الناس يدعونهم إلى الدين ، ويخرج أهل الورع والاجتهاد فيلحقون

بالربِّ ، فيكونون شهداء مـرزوقين عند الله أحياء .

فانتدب لها نافع بن الأزرق ، فاعتقد على ثلثمائة رجل ، فخرج ، وذلك عند وثوب الناس بعبيد الله بن زياد ، وكسّر الخوارج أبواب السجون وخروجهم منها ، واشتغل الناس بقتال الأزدي وبيعة وبني تميم وقيس في دم مسعود بن عمرو ، فاغتنمت الخوارج اشتغال الناس بعضهم ببعض ، فتهيؤوا واجتمعوا ، فلما خرج نافع بن الأزرق تبعوه ، واصطلح أهل البصرة على عبيد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب يصلي بهم ، وخرج ابن زياد إلى الشام ، واصطلحت الأزد وبنو تميم ، فتجرد الناس للخوارج ، فاتبعهم وأخافوهم حتى خرج من بقي منهم بالبصرة ، فلحق بابن الأزرق ، إلا قليلاً منهم من لم يكن أراد الخروج يومه ذلك ، منهم عبد الله بن صتار ، وعبد الله بن إباح ، ورجالٌ معهما على رأيهما . ونظر نافع بن الأزرق ، ورأى أن ولاية من تخلف عنه لا تنبغي ، وأن من تخلف عنه لا نجاة له ، فقال لأصحابه : إن الله قد أوتيكم بمخرجكم ، وبصركم ما عمي عنه غيركم ؛ ألسنتم تعلمون أنكم إنما خرجتم تطلبون شريعته وأمره ؛ فأمره لكم قائد ، والكتاب لكم إمام ، وإنما تتبعون سُننه وأثره ، فقالوا : بلى ؛ فقال : أليس حكمكم في وليكم النبي ﷺ في وليه ، وحكمكم في عدوكم حكم النبي ﷺ في عدوه ، وعدوكم اليوم عدو الله وعدو النبي ﷺ ، كما أن عاد النبي ﷺ يومئذ هو عدو الله وعدوكم اليوم ؛ فقالوا : نعم ؛ قال : فقد أنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَنَّ ﴾ (٢) ، فقد حرم الله ولايتهم ، والمقام بين أظهرهم ، وإجازة شهادتهم ، وأكل ذبائحهم وقبول علم الدين عنهم ، ومناكحتهم ، ومواريتهم ، وقد احتج الله علينا بمعرفة هذا ، وحق علينا أن نعلم هذا الدين الذين خرجنا من عندهم ، ولا نكتم ما أنزل الله ، والله عز وجل يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ (٣) ، فاستجاب له إلى هذا الرأي جميع أصحابه .

فكتب : من عبيد الله نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن صفار وعبد الله بن إباح ومن قبلهما من الناس . سلامٌ على أهل طاعة الله من عباد الله ، فإن من الأمريت وكيّت ؛ فقص هذه القصة ، ووصف هذه الصفة ، ثم بعث بالكتاب إليهما ، فأتيا به ، فقرأه عبد الله بن صفار ، فأخذه فوضعه خلفه ، فلم يقرأه على الناس خشية أن يتفرقوا ويختلفوا ، فقال له عبد الله بن إباح : ما لك لله أبوك ! أي شيء أصبت ! أن قد أصيب إخواننا ، أو أسير بعضهم ! فدفع الكتاب إليه ، فقرأه - فقال : قاتله الله ! ، أي رأي رأي ! صدق نافع بن الأزرق ، لو كان القوم مشركين كان أصوب الناس رأياً وحكماً فيما يشير به ، وكانت سيرته كسيرة النبي ﷺ في المشركين ، ولكنه قد كذب وكذبنا فيما يقول ، إن القوم كفار بالنعم والأحكام ، وهم برأء من الشرك ، ولا تحل لنا إلا دماؤهم ، وما سوى ذلك من أموالهم فهو علينا حرام ؛ فقال ابن صفار : برىء الله منك ، فقد قصرت ، وبرىء الله من ابن الأزرق فقد غلا ، برىء الله منكما جميعاً ؛ وقال الآخر : فبرىء الله منك ومنه .

(١) سورة التوبة : ١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٢١ .

(٣) سورة البقرة : ١٥٩ .

وتفرّق القوم، واشتدّت شوكة ابن الأزرق، وكثرت جُوعه، وأقبل نحو البصرة حتى دنا من الجسر، نبعث إليه عبدالله بن الحارث مسلم بن عُبَيْس بن كُرَيْز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف في أهل البصرة .

قال أبو جعفر: وفي النصف من شهر رمضان من هذه السنة كان مقدّم المختار بن أبي عُبَيْد الكوفة .

ذكر الخبر عن سبب مقدمه إليها :

قال هشام بن محمد الكلبي : قال أبو مخنف : قال النضر بن صالح : كانت الشيعة تشتم المختار وتعتبه لما كان منه في أمر الحسن بن علي يوم طعن في مظلم ساباط ، فحمل إلى أبيّص المدائن ، حتى إذا كان زمن الحسين ، وبعث الحسين مسلم بن عقيل إلى الكوفة ، نزل دار المختار ، وهي اليوم دار سلم بن المسيّب ، فبايعه المختار بن أبي عُبَيْد فيمن بايعه من أهل الكوفة ، وناصحه ودعا إليه من أطاعه ، حتى خرج ابن عقيل يوم خرج والمختار في قرية له بخطر نية تدعى لقفا ، فجاءه خبر ابن عقيل عند الظهر أنه قد ظهر بالكوفة ، فلم يكن خروجه يوم خرج على ميعاد من أصحابه ، إنما خرج حين قيل له : إنّ هاني بن عروة المرادي قد ضرب وحبس ، فأقبل المختار في موالٍ له حتى انتهى إلى باب الفيل بعد الغروب ، وقد عقد عبيدالله بن زياد لعمر بن حُرَيْث راية على جميع الناس ، وأمره أن يقعد لهم في المسجد ، فلما كان المختار وقف على باب الفيل مرّ به هاني بن أبي حية الوادعي ، فقال للمختار : ما وقوفك ها هنا ! لا أنت مع الناس ، ولا أنت في رحلك ؛ قال : أصبح رأيي مرتجاً لعظم خطيئتك ، فقال له : أظنك والله قاتلاً نفسك ، ثم دخل على عمرو بن حُرَيْث فأخبره بما قال للمختار وما ردّ عليه المختار .

قال أبو مخنف : فأخبرني النضر بن صالح ، عن عبدالرحمن بن أبي عمير الثَّقَفي ؛ قال : كنت جالساً عند عمرو بن حُرَيْث حين بلغه هاني بن أبي حية عن المختار هذه المقالة ، فقال لي : قم إلى ابن عمك فأخبره أن صاحبه لا يدري أين هو ! فلا يجعلن على نفسه سبيلاً ، فقامت لآتيه ، ووُثِبَ إليه زائدة بن قدامة بن مسعود ، فقال له : يأتيك على أنه أمين ؟ فقال له عمرو بن حُرَيْث : أمّا مني فهو آمن ، وإن رُقّي إلى الأمير عبيدالله بن زياد شيء من أمره أقمت له بمحضره الشهادة ، وشَفَعْتُ له أحسن الشفاعة ، فقال له زائدة بن قدامة : لا يكونن مع هذا إن شاء الله إلّا خير .

قال عبدالرحمن : فخرجت ، وخرج معي زائدة إلى المختار ، فأخبرناه بمقالة ابن أبي حية وبمقالة عمرو بن حُرَيْث ، وناشدناه بالله ألا يجعل على نفسه سبيلاً ، فنزل إلى ابن حُرَيْث ، فسلم عليه ، وجلس تحت رايته حتى أصبح ، وتذاكر الناس أمر المختار وفعله ، فمشى عمارة بن عقبة بن أبي مُعَيْط بذلك إلى عبيدالله بن زياد ، فذكر له ، فلما ارتفع النهار فُتِحَ باب عبيدالله بن زياد وأذن للناس ، فدخل المختار فيمن دخل ، فدعاه عبيدالله ، فقال له : أنت المقبل في الجموع لتنصر ابن عَقِيل ! فقال له : لم أفعل ، ولكنني أقبلت ونزلت تحت راية عمرو بن حُرَيْث ، وبِتّ معه وأصبحت ، فقال له عمرو : صدق أصلحك الله ! قال : فرفع القضيب ، فاعترض به وجه المختار فخطب به عينه فشتّرها وقال : أوّل لك ! أمّا والله لولا شهادة عمرو لك لضربت عنقك ؛ انطلقوا به إلى السجن فانطلقوا به إلى السجن فحبس فيه فلم يزل في السجن حتى قُتِلَ الحسين . ثم أنّ المختار بعث إلى زائدة بن قدامة ، فسأله أن يسير إلى عبدالله بن عمر بالمدينة فيسأله أن يكتب له إلى يزيد بن معاوية ،

فيكتب إلى عبيد الله بن زياد بتخلية سبيله ، فركب زائدة إلى عبد الله بن عمر فقدم عليه ، فبلغه رسالة المختار ، وعلمت صفة أخت المختار بمحس أخيها وهي تحت عبد الله بن عمر ، فبكت وجزعت ، فلما رأى ذلك عبد الله بن عمر كتب مع زائدة إلى يزيد بن معاوية : أما بعد ، فإن عبيد الله بن زياد حبس المختار ، وهو صهري ، وأنا أحب أن يعافى ويصلح من حاله ، فإن رأيت رحمتنا الله ، وإياك أن تكتب إلى ابن زياد فتأمره بتخليته فعلت . والسلام عليك .

فمضى زائدة على راحله بالكتاب حتى قدم به على يزيد بالشام ، فلما قرأه ضحك ثم قال : يشفع أبو عبد الرحمن ، وأهل ذلك هو . فكتب له إلى ابن زياد : أما بعد ، فخل سبيل المختار بن أبي عبيد حين تنظر في كتابي ، والسلام عليك .

فأقبل به زائدة حتى دفعه ، فدعا ابن زياد بالمختار ، فأخرجه ، ثم قال له قد أجلتك ثلاثاً ، فإن أدركت بالكوفة بعدها قد برئت منك الذمة . فخرج إلى رحله . وقال ابن زياد : والله لقد اجترأ علي زائدة حين يرحل إلى أمير المؤمنين حتى يأتي بالكتاب في تخلية رجل قد كان من شأني أن أطيل حبسه ، علي به . فمر به عمرو بن نافع أبو عثمان - كاتب لابن زياد - وهو يطلب ، وقال له : النجاء بنفسك ، واذكرها يداً لي عندك .

قال : فخرج زائدة ، فتوارى يومه ذلك . ثم إنه خرج في أناس من قومه حتى أتى القعقاع بن شور الذهلي ، ومسلم بن عمرو الباهلي ، فأخذا له من ابن زياد الأمان .

قال هشام : قال أبو مخنف : ولما كان اليوم الثالث خرج المختار إلى الحجاز ، قال : فحدثني الصقعب بن زهير ، عن ابن العرق ، مولى لثقيف . قال : أقبلت من الحجاز حتى إذا كنت بالبسيطة من وراء واقصة استقبلت المختار بن أبي عبيد خارجاً يريد الحجاز حين خلى سبيله ابن زياد ، فلما استقبلته رجبت به ، وعطفت إليه ، فلما رأيت شتر عينه استرجعت له ، وقلت له بعدما توجهت له : ما بال عينك ، صرف الله عنك السوء ! فقال : خبط عيني ابن الزانية بالقضيب خبطة صارت إلى ما ترى . فقلت له : ما له شلت أنامله ! فقال المختار : قتلي الله إن لم أقطع أنامله وأباجله وأعضاءه إرباً إرباً ؛ قال : فعجبت لمقالته ، فقلت له : ما علمك بذلك رحمك الله ؟ فقال لي : ما أقول لك فاحفظه عني حتى ترى مصداقه .

قال : ثم طفق يسألني عن عبد الله بن الزبير ، فقلت له : لجأ إلى البيت ، فقال : إنما أنا عائذ برب هذه البنية ، والناس يتحدثون أنه يبايع سراً ، ولا أراه إلا لو قد اشتدت شوكته واستكنف من الرجال إلا سيظهر الخلاف ؛ قال : أجل ، لا شك في ذلك ، أما إنه رجل العرب اليوم ، أما إنه إن يخطط في أثري ، ويسمع قولي أكفه أمر الناس ، وإلا يفعل فوالله ما أنا بدون أحد من العرب ، يابن العرق ، إن الفتنة قد أرعدت وأبرقت . وكان قد انبعثت فوطت في خطامها ، فإذا رأيت ذلك وسمعت به بمكان قد ظهرت فيه فقل : إن المختار في عصابه من المسلمين ، يطلب بدم المظلوم الشهيد المقتول بالطف ، وابن سيدها ، الحسين بن علي ، فوربك لأقتلن بقتله عدّة القتلى التي قتلت على دم يحيى بن زكرياء عليه السلام ؛ قال : فقلت له : سبحان الله ! وهذه أعجوبة مع الأحداث الأولى ؛ فقال : هو ما أقول لك فاحفظه عني حتى ترى مصداقه . ثم حرك راحلته ، فمضى ومضيت معه ساعة أدعو الله له بالسلام ، وحسن الصحابة . قال : ثم إنه وقف فأقسم علي لما انصرف ، فأخذت بيده ! فودعته ، وسلمت عليه ، وانصرفت عنه ، فقلت في نفسي : هذا الذي يذكر لي

هذا الإنسان ، - يعني المختار - مما يزعم أنه كائن ، شيءٌ حَدَّثَ به نفسه ! والله ما أطلع الله على الغيب أحداً ، وإنما هو شيءٌ يَتَمَنَّاه فيرى أنه كائن ، فهو يوجب رأيَه ، فهذا والله الرأيُ الشعاع ، فوالله ما كلُّ ما يرى الإنسان أنه كائن يكون ؛ قال : فوالله ما مُتَّ حتى رأيتُ كلَّ ما قاله . قال : فوالله لئن كان ذلك من علمٍ ألقى إليه لقد أثبت له ، ولئن كان ذلك رأياً رآه ، وشيئاً تَمَنَّاه ، لقد كان .

قال أبو مخنف : فحدَّثني الصقعب بن زهير . عن ابن العرق ، قال : فحدَّثت بهذا الحديث الحجاج بن يوسف ، فضحك ثم قال لي : إنه كان يقول أيضاً :

ورافعة ذيلها وداعية ويلها
بدجلة أو حوَّها

فقلت له : أترى هذا شيئاً كان يخترعه ، وتخترعاً يتخرَّصه ، أم هو من علم كان أوتيه ؟ فقال : والله ما أدري ما هذا الذي تسألني عنه ، ولكن لله دره ! أي رجل ديناً ، ومُسَعَّرَ حرب ، ومقارع أعداء كان !

قال أبو مخنف : فحدَّثني أبو سيف الأنصاري من بني الخزرج ، عن عباس بن سهل بن سعد ، قال : قدم المختار علينا مكة ، فجاء إلى عبدالله بن الزبير وأنا جالسٌ عنده ، فسلم عليه ، فردَّ عليه ابن الزبير ، ورَّحَّبَ به ، وأوسع له ، ثم قال : حدَّثني عن حال الناس بالكوفة يا أبا إسحاق ؛ قال : هم لسلطانهم في العلانية أولياء ، وفي السرِّ أعداء ؛ فقال له ابن الزبير : هذه صفة عبید السوء ، إذا رأوا أربابهم خدومهم وأطاعوهم ، فإذا غابوا عنهم شتموهم ولعنوهم ؛ فقال : فجلس معنا ساعة ، ثم إنه مال إلى ابن الزبير كأنه يُسارَه ، فقال له : ما تنتظر ! ابسط يدك أبايعك ، وأعطنا ما يُرضينا ، وثب على الحجاز فإن أهل الحجاز كلهم معك . وقام المختار فخرج ، فلم يُرجحوا ؛ ثم إنِّي بينا أنا جالسٌ مع ابن الزبير إذ قال لي ابن الزبير : متى عهدك بالمختار بن أبي عبيد ؟ فقلت له : ما لي به عهد منذ رأيته عندك عاماً أوَّل ؛ فقال : أين تراه ذهب ! لو كان بمكة ، لقد رثي بها بعد ، فقلت له : إني انصرفت إلى المدينة بعد إذ رأيته عندك بشهر أو شهرين ، فلبثت بالمدينة أشهراً ، ثم إني قدمت عليك ، فسمعت نفرًا من أهل الطائف جاؤوا معتمرين يزعمون أنه قدم عليهم الطائف ، وهو يزعم أنه صاحب الغضب ، ومُبيِّر الجبارين ، قال : قاتله الله ! لقد انبعث كذاباً متكهنًا ، إن الله إن يهلك الجبارين يكن المختار أحدهم . فوالله ما كان إلَّا ريث فراغنا من منطلقنا حتى عنَّ لنا في جانب المسجد ، فقال ابن الزبير : اذكرو غائباً تره ؛ أين تظنُّه يهوي ؟ فقلت : أظنه يريد البيت ، فأقى البيت فاستقبل الحجر ، ثم طاف بالبيت أسبوعاً ، ثم صلى ركعتين عند الحجر ، ثم جلس ، فما لبث أن مرَّ به رجال من معارفه من أهل الطائف وغيرهم من أهل الحجاز ، فجلسوا إليه ، واستبطأ ابن الزبير قيامه إليه ، فقال : ما ترى شأنه لا يأتينا ! قلت : لا أدري ، وسأعلم لك علمه ، فقال : ما شئت ، وكان ذلك أعجبه .

قال : فقممتُ فمررتُ به كأنِّي أريد الخروج من المسجد ، ثم التفتُ إليه ، فأقبلت نحوه ثم سلَّمت عليه ، ثم جلستُ إليه ، وأخذت بيده ، فقلت له : أين كنت ؟ وأين بلغت بعدي ؟ أبا الطائف كنت ؟ فقال لي : كنتُ بالطائف وغير الطائف ، وعَمَس عليَّ أمره ، فملتُ إليه ، فناجيتُه ، فقلت له : مثلك يغيب عن مثل ما قد اجتمع عليه أهل الشرف وبيوتات العرب من قريش والأنصار وثقيف ! لم يبق أهل بيت ولا قبيلة إلَّا وقد جاء زعيمهم وعميدهم فبايع هذا الرجل ، فعجباً لك ولرأيك ألا تكون أتيتَه فبايعته ، وأخذت بحظك من هذا

الأمر! فقال لي: وما رأيتي؟ أتيتته العام الماضي، فأشرت عليه بالرأي، فطوى أمره دوني، وإنني لما رأيته استغنى عني أحببت أن أريه أنني مستغن عنه، إنه والله هو أحوج إليّ مني إليه؛ فقلت له: إنك كلمته بالذي كلمته وهو ظاهر في المسجد، وهذا الكلام لا ينبغي أن يكون إلا والستور دونه مِرْخاة والأبواب دونه مُغلقة، إلقه الليلة إن شئت وأنا معك؛ فقال لي: فإني فاعل إذا صليتنا العتمة أتيناها، واتعدنا الحجر.

قال: فهضت من عنده، فخرجت ثم رجعت إلى ابن الزبير، فأخبرته بما كان من قولي وقوله، فسر بذلك، فلما صليتنا العتمة، التقينا بالحجر، ثم خرجنا حتى أتينا منزل ابن الزبير، فاستأذنا عليه، فأذن لنا، فقلت: أجليكما؟ فقالا جميعاً: لا سراً دونك، فجلست، فإذا ابن الزبير قد أخذ بيده، فصافحه ورَّسب به، فسأله عن حاله وأهل بيته، وسكتا جميعاً غير طويل.

فقال له المختار وأنا أسمع بعد أن تبدأ في أول منطقة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنه لا خير في الإكثار من المنطق، ولا في التقصير عن الحاجة، إني قد جئتك لأبايعك على ألا تقضي الأمور دوني، وعلى أن أكون في أول مَنْ تأذن له، وإذا ظهرت استعنت بي على أفضل عملك. فقال له ابن الزبير: أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ فقال: وشراً غلماي أنت مبايعه على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، مالي في هذا الأمر من الحظ ما ليس لأقصى الخلق منك؛ لا والله لا أبايعك أبداً إلا على هذه الخصال.

قال عباس بن سهل: فالتقمت أذن ابن الزبير، فقلت له: اشتر منه دينه حتى ترى من رأيك؛ فقال له ابن الزبير: فإن لك ما سألته، فبسط يده فبايعه، ومكث معه حتى شاهد الحصار الأول حين قدم الحصين بن نمير السكوني مكة؛ فقاتل في ذلك اليوم، فكان من أحسن الناس يومئذ بلاءً، وأعظمهم غناءً. فلما قُتل المنذر بن الزبير والمسور بن مخرمة ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، نادى المختار: يا أهل الإسلام، إليّ! أنا ابن أبي عبيد بن مسعود، وأنا ابن الكرار لا الفرار، أنا ابن المقدمين غير المحجمين؛ إليّ يا أهل الحِفاظ وحمّة الأوتار، فحمي الناس يومئذ، وأبلى وقاتل قتالاً حسناً.

ثم أقام مع ابن الزبير في ذلك الحصار حتى كان يوم أحرق البيت، فإنه أحرق يوم السبت لثلاث مضين من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين، فقاتل المختار يومئذ في عصابة معه نحو من ثلاثمائة أحسن قتالاً قتاله أحد من الناس، إن كان ليقاتل حتى يتبلد، ثم يجلس ويحيط به أصحابه، فإذا استراح نهض فقاتل، فما كان يتوجه نحو طائفة من أهل الشام إلا ضاربهم حتى يكشفهم.

قال أبو مخنف: فحدثني أبو يوسف محمد بن ثابت، عن عباس بن سهل بن سعد، قال: تولى قتال أهل الشام يوم تحريق الكعبة عبدالله بن مطيع وأنا والمختار، قال: فما كان فينا يومئذ رجل أحسن بلاءً من المختار.

قال: وقاتل قبل أن يطلع أهل الشام على موت يزيد بن معاوية بيوم قتالاً شديداً، وذلك يوم الأحد لخمس عشرة ليلة مضت من ربيع الآخر سنة أربع وستين، وكان أهل الشام قد رجوا أن يظفروا بنا، وأخذوا علينا سيكك مكة.

قال: وخرج ابن الزبير، فبايعه رجال كثير على الموت؛ قال: فخرجت في عصابة معي أقاتل في جانب، والمختار في عصابة أخرى يقاتل في جميعية من أهل اليمامة في جانب، وهم خوارج، وإنما قاتلوا ليدافعوا عن البيت، فهم في جانب، وعبدالله بن المطيع في جانب.

قال: فشدد أهل الشام عليّ، فحازوني في أصحابي حتى اجتمعت أنا والمختار وأصحابه في مكان واحد، فلم أكن أصنع شيئاً إلا صنع مثله، ولا يصنع شيئاً إلا تكلفت أن أصنع مثله، فما رأيت أشد منه قط؛ قال: فلما لنتقاتل إذ شدت علينا رجال وخيل من خيل أهل الشام، فاضطروني وإياه في نحو من سبعين رجلاً من أهل الصبر إلى جانب دار من دور أهل مكة، فقاتلهم المختار يومئذ، وأخذ يقول رجل لرجل: لا وألت نفس امرئ يفر

قال: فخرج المختار، وخرجت معه، فقلت: ليخرج منكم إلي رجل فخرج إلي رجل وإليه رجل آخر، فمشيت إلى صاحبي فأقتله، ومشى المختار إلى صاحبه فقتله، ثم صحننا بأصحابنا، وشددنا عليهم، فوالله لضربناهم حتى أخرجناهم من السكك كلها، ثم رجعنا إلى صاحبينا اللذين قتلنا. قال: فإذا الذي قتل رجل أحمر شديد الحمرة كأنه رومي، وإذا الذي قتل المختار رجل أسود شديد السواد، فقال لي المختار: تعلم والله إنني لأظن قتلينا هذين عبيدين؛ ولو أن هذين قتلتنا لقمع بنا عشائرننا ومن يرجونا، وما هذان وكلبان من الكلاب عندي إلا سواء، ولا أخرج بعد يومي هذا لرجل أبداً إلا لرجل أعرفه؛ فقلت له: وأنا والله لا أخرج إلا لرجل أعرفه.

وأقام المختار مع ابن الزبير حتى هلك يزيد بن معاوية، وانقضى الحصار، ورجع أهل الشام إلى الشام، واصطَلَح أهل الكوفة على عامر بن مسعود، بعد ما هلك يزيد يصلي بهم حتى يجتمع الناس على إمام يرصونه، فلم يلبث عامر إلا شهراً حتى بعث ببيغته وتبعية أهل الكوفة إلى ابن الزبير، وأقام المختار مع ابن الزبير خمسة أشهر بعد مهلك يزيد وأياماً.

قال أبو مخنف: فحدثني عبد الملك بن نوفل بن مساحق، عن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص، قال: والله إنني لمع عبدالله بن الزبير ومعه عبدالله بن صفوان بن أمية بن خلف، ونحن نطوف بالبيت، إذ نظر ابن الزبير فإذا هو بالمختار، فقال لابن صفوان: انظر إليه؛ فوالله هو أحذر من ذئب قد أطافت به السباع؛ قال: فمضى ومضينا معه، فلما قضينا طوافنا وصلينا الركعتين بعد الطواف لحقنا المختار، فقال لابن صفوان: ما الذي ذكرني به ابن الزبير؟ قال: فكنته، وقال: لم يذكرك إلا بخير؛ قال: بلى ورب هذه البنية إن كنت لمن شأنكم، أما والله ليخطن في أثري أو لأقدنها عليه سعراً. فأقام معه خمسة أشهر، فلما رآه لا يستعمله جعل لا يقدم عليه أحد من الكوفة إلا سأل عن حال الناس وهيئتهم.

قال أبو مخنف: فحدثني عطية بن الحارث أبو روق الهمداني، أن هانيء بن أبي حية الوادعي قدم مكة يريد عمرة رمضان، فسأله المختار عن حاله وحال الناس بالكوفة وهيئتهم؛ فأخبره عنهم بصلاح واتساق على طاعة ابن الزبير، إلا أن طائفة من الناس إليهم عدد أهل المصر لو كان لهم رجل يجمعهم على رأيهم أكل بهم الأرض في يومٍ ما؛ فقال له المختار: أنا أبو إسحاق أنا والله لهم! أنا أجمعهم على مَرِّ الحق، وأنفي بهم ركب الباطل، أنزل بهم كل جبار عنيد؛ فقال له هانيء بن أبي حية: ويحك يابن أبي عبيد! إن استطعت ألا توضع في الضلال ليكن صاحبهم غيرك، فإن صاحب الفتنة أقرب شيء أجلاً، وأسوأ الناس عملاً؛ فقال له المختار: إنني لا أدعو إلى الفتنة إنما أدعو إلى الهدى والجماعة، ثم وثب فخرج وركب راحلته، فأقبل نحو الكوفة حتى إذا كان بالقرعاء لقيه سلمة بن مرثد أخو بنت مرثد القابضي من همدان - وكان من أشجع العرب، وكان ناسكاً - فلما

التقيا تصافحا وتساءلا ، فخبّره المختار ، ثم قال لسلمة بن مرثد : حدّثني عن الناس بالكوفة ؛ قال : هم كغنم ضلّ راعيها ؛ فقال المختار بن أبي عبيد : أنا الذي أحسين رعايتها ، وأبلغ نهايتها ، فقال له سلمة : اتق الله واعلم أنك ميت ومبعوث ، ومحاسب ومجزئ بعملك إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ثم افترقا . وأقبل المختار حتى انتهى إلى بحر الحيرة يوم الجمعة ، فنزل فاعتسل فيه ، وأدهن دهنأ يسيراً ، ولبس ثيابه واعتّم ، وتقلّد سيفه ، ثم ركب راحلته فمرّ بمسجد السكون وجبّانة كندة ؛ لا يمرّ بمجلس إلّا سلم على أهله ، وقال : أبشروا بالنصر والفلاح ، أناكم ما تحبون ، وأقبل حتى مرّ بمسجد بني ذهل وبني حُجر ، فلم يجد ثمّ أحداً ، ووجد الناس قد راحوا إلى الجمعة ، فأقبل حتى مرّ ببني بداء ، فوجد عبدة بن عمرو البدي من كندة ، فسلم عليهم ، ثم قال : أبشروا بالنصر واليسر والفلاح ، إنك أبا عمرو على رأي حسن ، لن يدع الله لك معه مائتا إلّا غفره ، ~~ولا~~ ذنباً إلّا ستره . قال : وكان عبدة من أشجع الناس وأشعرهم ، وأشدّهم حباً لعلي رضي الله عنه ، وكان لا يصبر عن الشراب . فلما قال له المختار هذا القول قال له عبدة : بشرك الله بخير إنك قد بشرتنا ، فهل أنت مفسر لنا ؟ قال : نعم ، فالقني في الرّحل الليلة ثم مضى .

قال أبو مخنف : فحدّثني فضيل بن خديج ، عن عبدة بن عمرو قال : قال لي المختار هذه المقالة ، ثم قال لي : القني في الرّحل ، وبلغ أهل مسجدكم هذا عني أنهم قوم أخذ الله ميثاقهم على طاعته ، يقتلون المحلّين ، ويطلبون بدماء أولاد النّبیین ، ويهدهم للنور المين ، ثم مضى فقال لي : كيف الطريق إلى بني هند ؟ فقلت له : أنظرني أدلك ، فدعوتُ بفرسي وقد أسرج لي فركبته ؛ قال : ومضيت معه إلى بني هند ، فقال : دُلني على منزل اسماعيل بن كثير . قال : فمضيتُ به إلى منزله ، فاستخرجته ، فحيّاه ورّحب به ، وصافحه وبشّره ، وقال له : القني أنت وأخوك الليلة وأبو عمرو فإنّي قد أتيتكم بكل ما تحبون ؛ قال : ثم مضى ومضينا معه حتى مرّ بمسجد جُهيّنة الباطنة ، ثم مضى إلى باب الفيل ، فأناخ راحلته ، ثم دخل المسجد واستشرف له الناس ، وقالوا : هذا المختار قد قدّم ، فقام المختار إلى جنب سارية من سوازي المسجد ، فصلّى عندها حتى أقيمت الصلاة ، فصلّى مع الناس ثم ركد إلى سارية أخرى فصلّى ما بين الجمعة والعصر ، فلما صلى العصر مع الناس انصرف .

قال أبو مخنف : فحدّثني المجالد بن سعيد ، عن عامر الشعبي ، أنّ المختار مرّ على حلقة همدان وعليه ثياب السّفَر ، فقال : أبشروا ، فإنّي قد قدمت عليكم بما يسرّكم ، ومضى حتى نزل داره ، وهي الدار التي تُدعى دار سلّم بن المسيّب ، وكانت الشيعة تختلف إليها وإليه فيها .

قال أبو مخنف : فحدّثني فضيل بن خديج ، عن عبدة بن عمرو ، وإسماعيل بن كثير من بني هند ، قالوا : أتينا من الليل كما وعدنا ، فلما دخلنا عليه وجلسنا ساءلنا عن أمر الناس وعن حال الشيعة ، فقلنا له : إنّ الشيعة قد اجتمعت لسليمان بن صرّد الخزاعي ، وإنه لن يلبث إلّا يسيراً حتى يخرج ؛ قال : فحيد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال : أما بعد ، فإنّ المهدي ابن الوصي ، محمد بن علي ، بعثني إليكم أميناً ووزيراً ومنتخباً وأميراً ، وأمرني بقتال الملحدين ، والطلب بدماء أهل بيته والدفع عن الضعفاء .

قال أبو مخنف : قال فضيل بن خديج : فحدّثني عبدة بن عمرو وإسماعيل بن كثير ، أنها كانا أول خلق الله إجابةً وضرباً على يده ، وبايعاه . قال : وأقبل المختار يبعث إلى الشيعة وقد اجتمعت عند سليمان بن

صُرد، فيقول لهم: إني قد جئتكم من قبل وليّ الأمر، ومعدن الفضل، ووصيّ الوصيّ والإمام المهدي، بأمر فيه الشفاء، وكشف الغطاء، وقتل الأعداء، وتمام النعماء؛ إنّ سليمان بن صُرد يرحمنا الله وإياه إنما هو عَشمَة من العَشم وجَفش بال، ليس بذئ تجرّبة للأمور، ولا له علمٌ بالحروب؛ إنما يريد أن يُخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم. إني إنما أعمل على مثال قد مُثِّل لي، وأمر قد بُيِّن لي، فيه عزّ وليكم، وقتل عدوّكم، وشفاء صدوركم، فاسمعوا مني قولي، وأطيعوا أمري، ثم أبشروا وتباشروا؛ فإني لكم بكل ما تأملون خيرٌ زعيم . قال: فوالله ما زال بهذا القول ونحوه حتى استمال طائفةً من الشيعة، وكانوا يختلفون إليه ويعظمونه، وينظرون أمره، وعظم الشيعة يومئذ ورؤساؤهم مع سليمان بن صُرد، وهو شيخ الشيعة وأسَنهم، فليس يعدّلون به أحداً؛ إلّا أن المختار قد استمال منهم طائفةً ليسوا بالكثير، فسليمان بن صُرد أثقل خلق الله على المختار، وقد اجتمع لابن صُرد يومئذ أمره، وهو يريد الخروج والمختار لا يريد أن يتحرّك، ولا أن يهيج أمراً حتى ينظر إلى ما يصير إليه أمر سليمان، رجاء أن يستجمع له أمر الشيعة، فيكون أقوى له على درك ما يطلب، فلما خرج سليمان بن صُرد ومضى نحو الجزيرة قال عمر بن سعد بن أبي وقاص وشبّ بن ربعي ويزيد بن الحارث بن رُويم لعبدالله بن يزيد الخطمي وإبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبدالله: إنّ المختار أشدّ عليكم من سليمان ابن صُرد، إن سليمان إنما خرج يقاتل عدوّكم، ويدلّ لهم لكم، وقد خرج عن بلادكم، وإن المختار إنما يريد أن يثبّ عليكم في مصركم، فسيروا إليه فأوثقوه في الحديد، وخلّدوه في السجن حتى يستقيم أمر الناس، فخرجوا إليه في الناس، فما شعر بشيء حتى أحاطوا به وبداره فاستخرجوه، فلما رأى جماعتهم قال: ما بالكم! فوالله بُعد ما ظفرت أكفكم! قال: فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبدالله لعبدالله بن يزيد: شدّه كُتافاً، ومثّنه حافياً؛ فقال له عبدالله بن يزيد: سبحان الله! ما كنت لأمشيه ولا لأحفيه ولا كنت لأفعل هذا برجل لم يُظهر لنا عداوة ولا حرباً، وإنما أخذناه على الظنّ. فقال له إبراهيم بن محمد: ليس بعُشك فاذرُجي، ما أنت وما يبلغنا عنك يابن أبي عبيد! فقال له: ما الذي بلغك عني إلّا باطل، وأعوذ بالله من غشّ كغشّ أبيك وجذك! .

قال: فُضِّل: فوالله إني لأنظرُ إليه حين أخرج وأسمع هذا القول حين قال له، غير أنّي لا أدري أسمع منه إبراهيم أم لم يسمعه؛ فسكت حين تكلم به؛ قال: وأتى المختار ببغلة دهماء يركبها، فقال إبراهيم لعبدالله بن يزيد: ألا تشدّ عليه القيود؟ فقال: كفى له بالسجن قيلاً .

قال أبو مخنف: وأما يحيى بن أبي عيسى فحدّثني أنه قال: دخلت إليه مع حميد بن مسلم الأزدي نزوره ونتعاهده، فرأيتُه مقيداً؛ قال: فسمعتُه يقول: أما وربّ البحار، والنخيل والأشجار، والمهائم والقفار، والملائكة الأبرار، والمصطفين الأخيار، لأقتلن كلّ جبار، بكلّ لذنّ خطّار، ومهنّدٍ بشار، في جُوع من الأضرار، ليسوا بميل أغمار، ولا بُعزل أشرار، حتى إذا أقمتُ عمود الدين، ورأيتُ شعب صدّع المسلمين، رسفيتُ غليل صدور المؤمنين، وأدركتُ بشار النبيّين، ولم يكبر عليّ زوال الدنيا ولم أحفل بالموت إذا أتى .

قال: فكان إذا أتياه وهو في السجن ردّد علينا هذا القول حتى خرج منه؛ قال: وكان يتشجّع لأصحابه بعدما خرج ابن صُرد .

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة هدم ابن الزبير الكعبة، وكانت قد مال حيطانها مما رُميت به من حجارة

المجانيق ، فذكر محمد بن عمر الواقدي أنّ إبراهيم بن موسى حدّثه عن عكرمة بن خالد ، قال : هدم ابن الزبير البيتَ حتى سوّاه بالأرض ، وحفر أساسه . وأدخل الحجر فيه ، وكان الناس يطوفون من وراء الأساس ، ويصلّون إلى موضعه ، وجعل الركن الأسود عنده في تابوت في سرقة من حرير ، وجعل ما كان من حلي البيت وما وجد فيه من ثياب أو طيب عند الحجة في خزانة البيت ، حتى أعادها لما أعاد بناءه .

قال محمد بن عمر : وحدّثني معقل بن عبدالله ، عن عطاء ، قال : رأيت ابن الزبير هدم البيت كله حتى وضعه بالأرض .

وحجّ بالناس في هذه السنة عبدالله بن الزبير .

وكان عامله على المدينة فيها أخوه عبدة بن الزبير ، وعلى الكوفة عبدالله بن يزيد الخطمي ، وعلى قضائها سعيد بن ثمران .

وأبى شريح أن يقضي فيها ، وقال فيما ذكر عنه : أنا لا أقضي في الفتنة . وعلى البصرة عمر بن عبيدالله بن معمر التيمي ، وعلى قضائها هشام بن هبيرة ، وعلى خراسان عبدالله بن خازم .

ثم دخلت سنة خمس وستين ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث الجلية

فمن ذلك ما كان من أمر التوأمين وشيوخهم للطلب بدم الحسين بن علي إلى عبيد الله بن زياد .
قال هشام : قال أبو مخنف : حدثني أبو يوسف ، عن عبد الله بن عوف الأحمري ، قال : بعث سليمان بن صرد إلى وجوه أصحابه حين أراد الشيوخ وذلك في سنة خمس وستين ، فأتوه ، فلما استهل الهلال هلال شهر ربيع الآخر ، خرج في وجوه أصحابه ، وقد كان واعد أصحابه عامة للخروج في تلك الليلة للمعسكر بالنخيلة فخرج حتى أتى عسكره ، فدار في الناس ووجوه أصحابه ، فلم يعجبه عدة الناس ، فبعث حكيم بن منقذ الكندي في خيل ، وبعث الوليد بن غصين الكناني في خيل ، وقال : اذهبا حتى تدخلوا الكوفة فناديا : يا لثارات الحسين ! وأبلغا المسجد الأعظم فناديا بذلك ، فخرجا ، وكانا أول خلق الله دعوا : يا لثارات الحسين ! قال : فأقبل حكيم بن منقذ الكندي في خيل والوليد بن غصين في خيل ، حتى مرّا ببني كثير ، وإن رجلاً من بني كثير من الأزد يقال له عبد الله بن خازم مع امرأته سهلة بنت سبرة بن عمرو من بني كثير ، وكانت من أجل الناس وأحبهم إليه ، سمع الصوت : يا لثارات الحسين ! وما هو ممن كان يأتيهم ، ولا استجاب لهم . فوثب إلى ثيابه فلبسها ، ودعا بسلاحه ، وأمر بإسراج فرسه ، فقالت له امرأته : ويحك ! أجننت ! قال : لا والله ، ولكني سمعت داعي الله ، فانا مجيبه ، أنا طالب بدم هذا الرجل حتى أموت ، أويقضي الله من أمري ما هو أحب إليه ، فقالت له : إلى من تدعُ بنيك هذا ؟ قال : إلى الله وحده لا شريك له ؛ اللهم إني أستودعك أهلي وولدي ، اللهم احفظني فيهم ؛ وكان ابنه ذلك يُدعى عذرة ، فبقي حتى قتل بعدُ مع مصعب بن الزبير ؛ وخرج حتى لحق بهم ، فقعدت امرأته تبكيه واجتمع إليها نساؤها ، ومضى مع القوم ، وطافت تلك الليلة الخيل بالكوفة ، حتى جاؤوا المسجد بعد العتمة ، وفيه ناسٌ كثير يصلُّون ، فنادوا : يا لثارات الحسين ! وفيهم أبو عذرة القابضي وكرب بن ثمران يصلِّي ، فقال : يا لثارات الحسين ! أين جماعة القوم ؟ قيل : بالنخيلة ، فخرج حتى أتى أهله ، فأخذ سلاحه ، ودعا بفرسه ليركبه ، فجاءته ابنته الرُّواح - وكانت تحت ثبيت بن مرثد القابضي . فقالت : يا أبت ، مالي أراك قد تقلدت سيفك ، ولبست سلاحك ! فقال لها : يا بنية ، إن أباك يفر من ذنبه إلى ربّه ، فأخذت تتعجب وتبكي ، وجاءه أصهاره وبنو عمه ، فودّعهم ، ثم خرج فلحق بالقوم ؛ قال : فلم يصبح سليمان بن صرد حتى أتاه نحو من كان في عسكره حين دخله ؛ قال : ثم دعا بديوانه لينظر فيه إلى عدة من بآيعه حين أصبح ، فوجدهم ستة عشر ألفاً ، فقال : سبحان الله ! ما وافانا إلا أربعة آلاف من ستة عشر ألفاً .

قال أبو مخنف: عن عطية بن الحارث، عن حميد بن مسلم، قال: قلت لسليمان بن صرد: إن المختار والله يثبّط الناس عنك، إني كنت عنده أوّل ثلاث، فسمعتُ نقرأ من أصحابه يقولون: قد كُملنا ألفي رجل؛ فقال: وهب أن ذلك كان؛ فأقام عنّا عشرة آلاف، أما هؤلاء بمؤمنين! أما يخافون الله! أما يذكرون الله، وما أعطونا من أنفسهم من العهود والمواثيق ليُجاهدُنَّ وليُنصرُنَّ! فأقام بالنخيلة ثلاثاً يبعثُ ثقاته من أصحابه إلى مَنْ تخلف عنه يذكّرهم الله وما أعطوه من أنفسهم، فخرج إليه نحو من ألف رجل، فقام المسيّب بن نجبة إلى سليمان بن صرد، فقال: رحمك الله، إنه لا ينفعك الكاره، ولا يقاتل معك إلّا مَنْ أخرجته النية، فلا ننظرنَّ أحداً، واکمُش في أمرك. قال: فإنك والله لنعماً رأيت! فقام سليمان بن صرد في الناس متوكّئاً على قوس له عربيّة. فقال: أيها الناس، مَنْ كان إنّما أخرجته إرادة وجه الله وثواب الآخرة فذلك منّا ونحن منه، فحرمة الله عليه حيّاً وميتاً، ومَنْ كان إنّما يريد الدنيا وحرثها فوالله ما نأتي فيثاً نستفيثه، ولا غنيمةً نغنمها، ما خلا رضوان الله ربّ العالمين، وما معنا من ذهب ولا فضة، ولا خَز ولا حرير، وما هي إلّا سيوفنا في عواتقنا، ورماحنا في أكفنا، وزاد قدر البلغة إلى لقاء عدونا، فمن كان غير هذا ينوي فلا يصحبنا.

فقام صُخير بن حذيفة بن هلال بن مالك المزني، فقال: أتاك الله رشدك، ولقّاك حُجبتك؛ والله الذي لا إله غيره ما لنا خير في صحبة من الدنيا همته ونيتته. أيها الناس، إنّما أخرجتنا التوبة من ذنبنا، والطلب بدم من نبينا، ﷺ ليس معنا دينار ولا درهم، إنّما نقدم على حدّ السيوف وأطراف الرماح؛ فتنادي الناس من كلّ جانب: إنّنا لا نطلب الدنيا، وليس لها خرجنا.

قال أبو مخنف: عن إسماعيل بن يزيد الأزدي، عن السريّ بن كعب الأزدي، قال: أتينا صاحبنا عبدالله بن سعد بن نفيل نوّده، قال: فقام فقمنا معه، فدخل على سليمان ودخلنا معه، وقد أجمع سليمان بالمسير، فأشار عليه عبدالله بن سعد بن نفيل أن يسير إلى عبيدالله بن زياد، فقال هو ورؤوس أصحابه: الرأي ما أشار به عبدالله بن سعد بن نفيل أن يسير إلى عبيدالله بن زياد قاتل صاحبنا، ومن قبله أتيننا، فقال له عبدالله بن سعد وعنده رؤوس أصحابه جلوس حوله: إني قد رأيت رأياً إن يكن صواباً فالله وفق، وإن يكن ليس بصواب فمن قبلي، فإني ما ألوكم ونفسي نصحاً؛ خطأ كان أم صواباً، إنّما خرجنا نطلب بدم الحسين، وقتلة الحسين كلهم بالكوفة، منهم عمر بن سعد بن أبي وقاص، ورؤوس الأرباع وأشرف القبائل، فأتى نذهب ها هنا وندع الاقتال والأوتار! فقال سليمان بن صرد: فماذا ترون؟ فقالوا: والله لقد جاء برأي، وإنّ ما ذكر لكم ذكر، والله ما نلقى من قتلة الحسين إنّ نحن مضينا نحو الشام غير ابن زياد، وما طلبتُنا إلّا ها هنا بالمصر؛ فقال سليمان بن صرد: لكن أنا ما أرى ذلك لكم، إنّ الذي قتل صاحبكم، وعبّا الجنود إليه، وقال: لا أمان له عندي دون أن يستسلم فامضي فيه حُكمي هذا الفاسق ابن الفاسق ابن مرجانة، عبيدالله بن زياد؛ فسيروا إلى عدوكم على اسم الله؛ فإن يُظهركم الله عليه رجونا أن يكون من بعده أهون شوكة منه، ورجونا أن يدين لكم من وراءكم من أهل مصركم في عافية، فتنظرون إلى كل من شرك في دم الحسين فتقاتلونه ولا تغشمو، وإن تُستشهدوا فلنما قاتلتهم المحلّين، وما عند الله خير للبرّار والصدّيقين؛ إني لأحب أن تجعلوا حدّكم وشوكتكم بأول المحلّين القاسطين. والله لو قاتلتهم غداً أهل مصركم ما عدم رجل أن يرى رجلاً قد قتل أخاه وأباه وحميته، أو رجلاً لم يكن يريد قتله، فاستخبروا الله وسيروا. فتهيأ الناس للشخص. قال: وبلغ عبدالله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة خروج ابن صرد وأصحابه، فنظروا في أمرهما، فرأيا أن يأتيهما

فيعرضوا عليهم الإقامة ، وأن تكون أيديهم واحدة ، فإن أبوا إلا الشخص سألوههم النظرة حتى يعبوا معهم جيشاً فيقاتلوا عدوهم بكثفٍ وحدٍ ؛ فبعث عبدالله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة سويد بن عبدالرحمن إلى سليمان بن صرد ، فقال له : إن عبدالله وإبراهيم يقولان : إننا نريد أن نجيثك الآن لأمر عسى الله أن يجعل لنا ولك فيه صلاحاً ؛ فقال : قل لهما فليأتينا ، وقال سليمان لرفاعه بن شداد البجلي : قم أنت فأحسب تعبئة الناس ؛ فإن هذين الرجلين قد بعثا بكيت وكيت ، فدعارؤوس أصحابه فجلسوا حوله فلم يكتثوا إلا ساعة حتى جاء عبدالله بن يزيد في أشراف أهل الكوفة والشُّرط وكثير من المقاتلة ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة في جماعة من أصحابه ، فقال عبدالله بن يزيد لكل رجل معروف قد علم أنه قد شرك في دم الحسين : لا تصحبني إليهم مخافة أن ينظروا إليه فيعدوا عليه ؛ وكان عمر بن سعد تلك الأيام التي كان سليمان معسكراً فيها بالنخيلة لا يبيت إلا في قصر الإمارة مع عبدالله بن يزيد مخافة أن يأتيه القوم في داره ، ويذمروا عليه في بيته وهو فاعل لا يعلم فيقتل . وقال عبدالله بن يزيد : يا عمرو بن حريث ، إن أنا أبطأت عنك فصل بالناس الظهر .

فلما انتهى عبدالله بن يزيد وإبراهيم بن محمد إلى سليمان بن صرد دخلا عليه ، فحمد الله عبدالله بن يزيد وأثنى عليه ثم قال : إن المسلم أخو المسلم لا يخنونه ، ولا يغشاه ، وأنتم إخواننا ، وأهل بلدنا ، وأحب أهل مصر خلقه الله إلينا ، فلا تفجعونا بأنفسكم - ولا تستبدوا علينا برأيكم ، ولا تنقصوا عُدَّتنا بخروجكم من جماعتنا ؛ أقيموا معنا حتى نتيسر وننتهي ، فإذا علمنا أن عدونا قد شارف بلدنا خرجنا إليهم بجماعتنا فقاتلناهم . وتكلم إبراهيم بن محمد بنحو من هذا الكلام . قال : فحمد الله سليمان بن صرد وأثنى عليه ثم قال لهما : إني قد علمت أنكما قد تحضمتا في النصيحة واجتهدتما في المشورة ، فنحن بالله وله ، وقد خرجنا لأمر ، ونحن نسأل الله العزيمة على الرشد والتسديد لأصوبه ، ولا نرانا إلا شاخصين إن شاء الله ذلك . قال عبدالله بن يزيد : فأقيموا حتى نعبىء معكم جيشاً كثيفاً ، فتلحقوا عدوكم بكثفٍ وجمعٍ وحدٍ . فقال سليمان : تنصرفون ، ونرى فيما بيننا ، وسيأتاكم إن شاء الله رأيي .

قال أبو مخنف : عن عبد الجبار - يعني ابن عباس الهمداني - عن عون بن أبي جحيفة السوائي ، قال : ثم إن عبدالله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة عَرَضَا على سليمان أن يقيم معهما حتى يلقوا جموع أهل الشام على أن يخصاه وأصحابه بخراج جُوحى خاصة لهم دون الناس ، فقال لهما سليمان : إننا ليس للدنيا خرجنا ؛ وإنما فعلاً ذلك لما قد كان بلغهما من إقبال عُبيدالله بن زياد نحو العراق . وانصرف إبراهيم بن محمد وعبدالله بن يزيد إلى الكوفة ، وأجمع القوم على الشخص واستقبال ابن زياد ، ونظروا فإذا شيعتهم من أهل البصرة لم يوافوهم لميعادهم ولا أهل المدائن ، فأقبل ناس من أصحابه يلزمونهم ، فقال سليمان : لا تلزموهم فإني لا أراهم إلا سيُسرعون إليكم ، لو قد انتهى إليهم خبركم وحين مسيركم ، ولا أراهم خلفهم ولا أقدحهم إلا قلة النفقة وسوء العدة ، فأقيموا ليتيسروا ويتجهزوا ويلحقوا بكم وبهم قوة ، وما أسرع القوم في آثاركم . قال : ثم إن سليمان بن صرد قام في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد أيها الناس ، فإن الله قد علم ما تنوون ، وما خرجتم تطلبون ، وإن للدنيا تجاراً ، وللآخرة تجاراً ، فأما تاجر الآخرة فساع إليها ، متنصب بتطلابها ، لا يشتري بها ثمناً ، لا يرى إلا قائماً وقاعداً ، وراكعاً وساجداً ، لا يطلب ذهباً ولا فضة ، ولا دنيا ولا لذة ، وأما تاجر الدنيا فمكب عليها ، راتع فيها ، لا يبتغي بها بدلاً ؛ فعليكم يرحمكم الله في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل ، وبذكر الله كثيراً على كل حال ،

وتقربوا إلى الله جل ذكره بكل خير قدرتم عليه، حتى تلقوا هذا العدو والمحل القاسط فتجاهدوه، فإن تترسلوا إلى ربكم بشيء هو أعظم عنده ثواباً من الجهاد والصلاة؛ فإن الجهاد سنأمر العمل. جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين، المجاهدين الصابرين على السلاواء وإنا مُدبجون الليلة من منزلنا هذا إن شاء الله فادَّبجوا فادَّبج عشية الجمعة لخمسة مضيئ من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين للهجرة.

قال: فلما خرج سليمان وأصحابه من النخيلة دعا سليمان بن صرد حكيماً بن منقذ فنأدى في الناس: ألا لا يبيت رجل منكم دون دَيْر الأعور. فبات الناس بدير الأعور، وتخلَّف عنه ناسٌ كثير، ثم سار حتى نزل الأقسام؛ أقسام مالك على شاطئ الفرات، فعرض الناس، فسقط منهم نحو ألف رجل، فقال ابن صرد: ما أحب أن من تخلَّف عنكم معكم، ولو خرجوا معكم ما زادوكم إلا خبالاً؛ إن الله عزّ وجلّ كره انبعاثهم فنبطهم، وخصمكم بفضل ذلك، فاحمدوا ربكم. ثم خرج من منزله ذلك دُجَّةً، فصبَّحوا قبر الحسين، فأقاموا به ليلةً ويوماً يصلُّون عليه، ويستغفرون له؛ قال: فلما انتهى الناس إلى قبر الحسين «ما دوا صيحةً واحدة، وبكوا؛ فما رُئي يومٌ كان أكثر باكياً منه.

قال أبو مخنف: وقد حدَّث عبد الرحمن بن جندب، عن عبد الرحمن بن غزوة، قال: لما انتهينا إلى قبر الحسين عليه السلام بكى الناس بأجمعهم، وسمعتُ جُلَّ الناس يتمنون أنهم كانوا أصيبوا معه؛ فقال سليمان: اللهم ارحم حسيناً الشهيد ابن الشهيد، المهدي ابن المهدي، الصديق ابن الصديق، اللهم إنا نُشهدك أننا على دينهم وسبيلهم، وأعداء قاتليهم، وأولياء محبيهم. ثم انصرف ونزل، ونزل أصحابه.

قال أبو مخنف: حدَّثنا الأعمش، قال: حدَّثنا سلمة بن كهيل، عن أبي صادق، قال: لما انتهى سليمان بن صرد وأصحابه إلى قبر الحسين نادوا صيحةً واحدةً: يا رب إنا قد خذَلنا ابن بنت نبينا، فاغفر لنا ما مضى منا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، وارحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصديقين، وإنا نُشهدك يا رب أنا على مثل ما قُتلوا عليه، فإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين؛ قال: فأقاموا عنده يوماً وليلة يصلُّون عليه ويبكون ويتضرعون؛ فما انفك الناس من يومهم ذلك يترحمون عليه وعلى أصحابه، حتى صلُّوا الغداة من الغد عند قبره، وزادهم ذلك حنقا. ثم ركبوا، فأمر سليمان الناس بالمسير، فجعل الرجل لا يمضي حتى يأتي قبر الحسين فيقوم عليه، فيترحم عليه، ويستغفر له، قال: فوالله لראيتهم ازدحموا على قبره أكثر من ازدحام الناس على الحجر الأسود.

قال: ووقف سليمان عند قبره، فكلَّم دعا له قوم وترحموا عليه قال لهم المسيب بن نجبة وسليمان بن صرد: الحقوا بإخوانكم رحمكم الله! فما زال كذلك حتى بقي نحو من ثلاثين من أصحابه، فأحاط سليمان بالقبر هو وأصحابه، فقال سليمان: الحمد لله الذي لو شاء أكرمنا بالشهادة مع الحسين، اللهم إذ حرمتموها معه فلا تحرموها فيه بعده.

وقال عبد الله بن وال: أما والله إني لأظن حسيناً وأباه وأخاه أفضل أمة محمد ﷺ وسيلةً عند الله يوم القيامة، أفما عجبت لما ابتليت به هذه الأمة منهم! إنهم قتلوا اثنين، وأشفوا بالثالث على القتل؛ قال: يقول المسيب بن نجبة: فأننا من قتلهم ومن كان على رأيهم بريء، إياهم أعادي وأقاتل. قال فاحسن الرؤوس كلهم المنطق، وكان المثني بن مخربة صاحب أحد الرؤوس والأشراف، فسأني حيث لم أسمعته تكلم مع القوم

بنحو ما تكلموا به ؛ قال : فوالله ما لبث أن تكلم بكلماتٍ ما كنَّ بدون كلامٍ أحدٍ من القوم ، فقال : إن الله جعل هؤلاء الذين ذكرتهم بمكانهم من نبيهم ﷺ أفضل ممن هو دون نبيهم ، وقد قتلهم قوم نحن لهم أعداء ، ^{بهم براء} وقد خرجنا من الديار والأهلين والأموال إرادةً استئصال من قتلهم ؛ فوالله لو أن القتال فيهم بمغرب الشمس أو بمنقطع التراب يحق علينا طلبه حتى نناله ، فإن ذلك هو الغنم ، وهي الشهادة التي ثوابها الجنة ، فقلنا له : صدقت وأصبحت ووفقت .

قال : ثم إن سليمان بن صُرد سار من موضع قبر الحسين وسرنا معه ، فأخذنا على الحصاصة ، ثم على الأنبار ، ثم على الصدود ، ثم على القيارة .

قال أبو مخنف : عن الحارث بن حصيرة وغيره : إن سلمان بعث على مقدمته كُرب بن يزيد الحميري قال أبو مخنف : حدثني الحصين بن يزيد ، عن السري بن كعب ، قال : خرجنا مع رجال الحبيّ نسيهم ، فلما انتهينا إلى قبر الحسين وانصرف سليمان بن صُرد وأصحابه عن القبر ، ولزموا الطريق ، استقدمهم عبدالله بن عوف بن الأحمر على فرس له مهلوب كُميت مربع ، يتأكل تأكلًا ، وهو يرتجز ويقول .

خَرَجْنَ يَلْمَعْنَ بِنَا أَرْسَالَا عَوَاسًا يَحْمِلُنَا أَبْطَالَا
نُرِيدُ أَنْ نَلْقَى بِهِ الْأَقْتَالَا الْقَاسِطِينَ الْغُدْرَ الضُّلَالَا
وَقَدْ رَفَضْنَا الْأَهْلَ وَالْأَمْوَالَا وَالْخَفِرَاتِ الْبَيْضَ وَالْحِجَالَا
نُرْضِي بِهِ إِذَا النُّعْمُ الْمِفْضَالَا

قال أبو مخنف : عن سعد بن مجاهد الطائي ، عن المُحل بن خليفة الطائي ، أن عبدالله بن يزيد كتب إلى سليمان بن صُرد ، أحسبه قال : بعثني به ، فلاحقته بالقيارة ، واستقدم أصحابه حتى ظن أن قد سبقهم ؛ قال : فوقف وأشار إلى الناس ، فوقفوا عليه ، ثم أقرأهم كتابه ، فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله بن يزيد إلى سليمان بن صُرد ومن معه من المسلمين . سلام عليكم ، أما بعد فإن كتابي هذا إليكم كتابٌ ناصح ذي إرعاء ، وكم من ناصح مستغش ، وكم من غاش مستنصح مُحَب ، إنه بلغني أنكم تريدون المسير بالعَدَد السير إلى الجمع الكثير ، وإنه من يُرد أن ينقل الجبال عن مراتبها تكل معاولة ، وينزع وهو مذموم العقل والفعل . يا قومنا لا تطمعوا عدوكم في أهل بلادكم ، فإنكم خيارٌ كلكم ، ومتى ما يُصيبكم عدوكم يعلموا أنكم أعلامٌ مصركم ، فيطمعهم ذلك فيمن وراءكم يا قومنا ، [﴿] إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَأَ [﴾] (١) ، يا قوم ، إن أيدينا أيديتكم اليوم واحدة ، وإن عدونا وعدوكم واحد ، ومتى تجتمع كلمتنا نظهر على عدونا ، ومتى تختلف تهن شوكتنا على من خالفنا ؛ يا قومنا لا تستغشوا نصحي ، ولا تحالفوا أمري ، وأقبلوا حين يُقرأ عليكم كتابي ، أقبل الله بكم إلى طاعته ، وأدبر بكم عن معصيته ، والسلام .

قال : فلما قرئ الكتاب على ابن صرد وأصحابه قال للناس : ما ترون ؟ قالوا : ماذا ترى ؟ قد أبينا هذا عليكم وعليهم ، ونحن في مصرنا وأهلنا ، فالآن خرجنا ووطننا أنفسنا على الجهاد ، ودنونا من أرض عدونا ! ما هذا ! برأي . ثم نادوه أن أخبرنا برأيك ، قال : رأيي والله أنكم لم تكونوا قط أقرب من إحدى الحسينين منكم

يومكم هذا ؛ الشهادة والفتح ، ولا أرى أن تنصرفوا عما جمعكم الله عليه من الحق ، وأردتم به من الفضل ؛ إنا وهؤلاء مختلفون ؛ إن هؤلاء لو ظهروا دعونا إلى الجهاد مع ابن الزبير ، ولا أرى الجهاد مع ابن الزبير إلا ضللاً ، وإنا إن نحن ظهرنا ردّدنا هذا الأمر إلى أهلنا ، وإن أصبنا فعلنا نياتنا ، تأثيين من ذنوبنا ، إن لنا شكلاً ، وإن لابن الزبير شكلاً ؛ إنا وإياهم كما قال أخو بني كنانة :

أرى لك شكلاً غير شكلي فأقصيري عني اللوم إذ بُدلت واختلف الشكل

قال : فانصرف الناس معه حتى نزل هيت ، فكتب سليمان :

بسم الله الرحمن الرحيم . للأمير عبدالله بن يزيد ، من سليمان بن صرد ومن معه من المؤمنين ، سلام عليك ، أما بعد ، فقد قرأنا كتابك ، وفهمنا ما نويت ، فنعّم والله الوالي ، ونعّم الأمير ، ونعّم أخو المشيرة ، أنت والله من تأمنه بالغيب ، ونستنصحه في المشورة ، ونحمده على كل حال ؛ إنا سمعنا الله عز وجل يقول في كتابه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ - إلى قوله : ﴿ يَشْرِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) . إن القوم قد استبشروا ببيعتهم التي بايعوا ، إنهم قد تابوا من عظيم جرّمهم ، وقد استجهوا إلى الله ، وتوكلوا عليه ورضوا بما قضى الله ، ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ ^(٢) ، والسلام عليك .

قلما أتاه هذا الكتاب قال : استمنا القوم ، أول خبر يأتيكم عنهم قتلهم ، وإيم الله ليقتلن كراماً مسلمين ، ولا والذي هوربهم لا يقتلهم عدوهم حتى تشتد شوكتهم ، وتكثر القتلى فيما بينهم .

قال أبو مخنف : فحدثني يوسف بن يزيد ، عن عبد الله بن عوف بن الأحمر ، وعبد الرحمن بن جندب ، عن عبد الرحمن بن غزوة ، قال : خرجنا من هيت حتى انتهينا إلى قريسيّا ، فلما دنونا منها وقف سليمان بن صرد فعبأنا تعبئة حسنة حتى مررنا بجانب قريسيّا ، فنزلنا قريباً منها ، وبها رُفِر بن الحارث الكلابي قد تحصّن بها من القوم ، ولم يخرج إليهم ، فبعث سليمان المسيّب بن نجبة ، فقال : انت ابن عمك هذا فقل له : فليخرج إلينا سوقاً ، فإننا لسنا إياه نريد ، إنما صمّدنا هؤلاء المحجلين . فخرج المسيّب بن نجبة حتى انتهى إلى باب قريسيّا ، فقال : افتحوا ، ممن تحصّنون؟ فقالوا : من أنت؟ قال : أنا المسيّب بن نجبة ، فأق الهذيل بن زفر أباه فقال : هذا رجل حسن الهيئة ، يستأذن عليك ، وسألناه من هو؟ فقال : المسيّب بن نجبة - قال : وأنا إذ ذاك لا علم لي بالناس ، ولا أعلم أي الناس هو - فقال لي أبي : أما تدري أي بُني من هذا؟ هذا فارس مضر الحمراء كلها ، وإذا عُد من أشرافها عشرة كان أحدهم ، وهو بعد رجل ناسك له دين ، ائذن له . فأذنت له ، فأجلسه أبي إلى جانبه ، وساء له وألففه في المسألة ، فقال المسيّب بن نجبة : ممن تتحصّن؟ إنا والله ما إياكم نريد ، وما اعترينا إلى شيء إلا أن تُعيننا على هؤلاء القوم الظلمة المحجلين ، فاخرج لنا سوقاً فإننا لا نبتغي بساحتكم إلا يوماً أو بعض يوم ؛ فقال له رُفِر بن الحارث : إنا لم نُغلق أبواب هذه المدينة إلا لنعلم إيانا اعتريتم أم غيرنا ! إنا والله ما بنا عجز عن الناس ما لم تدهمنا حيلة ، وما نحب أن بلينا بقتالكم ؛ وقد بلغنا عنكم

(١) سورة التوبة : ١١١ ، ١١٢ .

(٢) سورة الممتحنة : ٤ .

صلاح، وسيرة حسنة جميلة .

ثم دعا ابنه فأمره أن يضع لهم سوقاً، وأمر للمسبب بألف درهم وفرس، فقال له المسبب : أما المال فلا حاجة لي فيه ، والله ما له خرجنا ، ولا إياه طلبنا ، وأما الفرس فلاني أقبلة لعلني أحتاج إليه إن ظلع فرسي ، أو غزيت محبي . فخرج به حتى أتى أصحابه وأخرجت لهم السوق ، فتسوقوا ، وبعث زفر بن الحارث إلى المسبب بن نبرة بعد إخراج الأسواق والأعلاف والطعام الكثير بعشرين جزوراً ، وبعث إلى سليمان بن صرد مثل ذلك ، وقد كان زفر أمر ابنه أن يسأل عن وجوه أهل العسكر ، فسُئِلَ له عبدالله بن سعد بن نفل وعبدالله بن وال بن ربيعة بن شداد ، وسُئِلَ له أمراء الأرباع . فبعث إلى هؤلاء الرؤوس الثلاثة بعشر جزائر عشر جزائر ، وبعث كثير وطعام ، وأخرج للعسكر عيراً عظيمة وشعيراً كثيراً ، فقال غلمان زفر : هذه غير فاجتروا منها ما أنتم فيه ، وهذا شعير فاحتملوا منه ما أردتم ، وهذا دقيق فتزودوا منه ما أطقتم ، فظل القوم يومهم ذلك في السوق . لم يحتاجوا إلى شراء شيء من هذه الأواق التي وضعت ، وقد كفوا اللحم والدقيق والشعير إلا أن يشتري القوم من ثوباً أو سوطاً . ثم ارتحلوا من الغد ، وبعث إليهم زفر : إني خارج إليكم فمشيئكم ؛ فاتاهم وقد بعث إليهم عبيته حسنة ، فسأيرهم ، فقال زفر لسليمان : إنه قد بعث خمسة أمراء قد فصلوا من الرقة فيهم الحارث بن غير السكوني ، وشرحبيل بن ذي كلاع ، وأدهم بن محرز الباهلي وأبو مالك بن أدهم ، وربيع بن المضاري الغنوي ، وجبل بن عبدالله الخثعمي ؛ وقد جاءوكم في مثل الشوك والشجر ، أناكم عدد كثير ، وحد حديد ، وإيم الله لقل ما رأيتم رجالاً هم أحسن هيئة ولا عدة ، ولا أنتم بكنل خير من رجال أراهم معكم ؛ ولكنه قد بلغني أنه قد أقبلت إليكم عدة لا تحصى ؛ فقال ابن صرد : على الله توكلنا ، وعليه فليتوكل المتوكلون ، ثم قال زفر : فهل لكم في أمر أعرضه عليكم ؛ لعل الله أن يجعل لنا ولكم فيه خيراً ؟ إن شئتم فتحنا لكم مدينتنا فدخلتموها فكان أمرنا واحداً وأيدينا واحدة ، وإن شئتم نزلتم على باب مدينتنا ، وخرجنا فعسكرنا إلى جانبكم ؛ فإذا جاءنا هذا العدو فقاتلناهم جميعاً . فقال سليمان لزفر : قد أرادنا أهل مصرنا على مثل ما أردتنا عليه ، وذكرنا مثل الذي ذكرت ، وكتبوا إلينا به بعدما فصلنا ، فلم يوافقنا ذلك ، فلما فاعلين ؛ فقال زفر : فانظروا ما أشير به عليكم فاقبلوه ، واخذوا به ، فلني للقوم عدو ، وأحب أن يجعل الله عليهم الدائرة ، وأنا لكم واد ، أحب أن يحوطكم الله بالعافية ؛ إن القوم قد فصلوا من الرقة ، فبادروهم إلى عين الوردة ، فاجعلوا المدينة في ظهوركم ويكون الرستاق والماء والماد في أيديكم ، وما بين مدينتنا ومدينتكم فأنتم له آمنون ، والله لو أن خيولي كرجالي لأمدتكم ، أطوا المنازل الساعة إلى عين الوردة فإن القوم يسرون سير العساكر ، وأنتم على خيول ، والله أني ما رأيته جماعة خيل قط أكرم منها ؛ تأهبوا لها من يومكم هذا فإني أرجو أن تسبقوهم إليها ، وإن بدرتموهم إلى عين الوردة فلا تقاتلوهم في فضاء ترامونهم وتطاعنونهم ، فإنه ليس لكم مثل عددهم ، فإن استهدفتهم لهم لم يأتوكم أن يصرعوكم ، ولا تصفوا لهم حين تلقونهم ، فلني لا أرى معكم رجالة ، ولا أراكم كلكم إلا فرساناً ، والقوم لأقوكم بالرجال والفرسان ؛ فالفرسان تحمي رجالها ، والرجال تحمي فرسانها ، وأنتم ليس أنكم رجال تحمي فرسانكم ، فالقوهم في الكتائب والمقانب ، ثم بشوها ما بين ميمنتهم وميسرتهم ، واجعلوا مع كل كتبية كتبية إلى جانبها فإن حمل على إحدى الكتيبتين ترجلت الأخرى فنفست عنها الخيل والرجال ، ومتى ما شئت كتبية ارتفعت ، ومتى ما شئت كتبية انحطت ، ولركنتم في صف واحد فزحفت إليكم الرجال فدفعتم

عن الصف انتقض وكانت الهزيمة ؛ ثم وقف فودّعهم ، وسأل الله أن يصحبهم وينصرهم . فأثنى الناس عليه ، ودّعوا له ، فقال له سليمان بن صرد : نِعْمَ المُنزول به أنت ! أكرمت النزول ، وأحسنّت الضيافة ، ونصحت في المشورة . ثم إن القوم جدّوا في المسير ، فجعلوا يجعلون كلّ مرحلتين مرحلة ؛ قال : فمررنا بالمدن حتى بلغنا ساعاً . ثم إن سليمان بن صرد عبى الكتائب كما أمره زُفر ، ثم أقبل حتى انتهى إلى عين الوردة فنزل في غربيتها ، وسبق القوم إليها ، فعسكروا ، وأقام بها خمساً لا يبرح ، واستراحوا واطمأنوا ، وأراحوا خيالهم .

قال هشام : قال أبو مخنف ، عن عطية بن الحارث ، عن عبدالله بن غزّية ، قال : أقبل أهل الشام في عساكرهم حتى كانوا من عين الوردة على مسيرة يوم وليلة ، قال عبدالله بن غزّية : فقام فينا سليمان فحمد الله فأطال ، وأثنى عليه فأطنب ، ثم ذكر السماء والأرض ، والجبال والبحار وما فيهنّ من الآيات ، وذكر آلاء الله ونعمه ، وذكر الدنيا فزهّد فيها ، وذكر الآخرة فرغب فيها ، فذكر من هذا ما لم أحصه ، ولم أقدر على حفظه ، ثم قال : أما بعد ، فقد أتاكم الله بعدوكم الذي دأبتم في المسير إليه آناء الليل والنهار ، تريدون فيما تظهرون التوبة النصوح ، ولقاء الله معذرين ، فقد جاؤوكم بل جئتموهم أنتم في دارهم وحيزهم ، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ، ولا يوليّهم امرؤ دُبره إلّا متحرّفاً لقتال أو متجيزاً إلى فئة : لا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم ، إلّا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه ، أو يكون من قتل إخواننا بالطفّ رحمة الله عليهم ؛ فإنّ هذه كانت سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في أهل هذه الدعوة . ثم قال سليمان : إن أنا قتلت فأميرُ الناس المسيّب بن نجبة فإن أصيب المسيّب فأميرُ الناس عبدالله بن سعد بن نفيل ، فإن قُتل عبدالله بن سعد فأميرُ الناس عبدالله بن والٍ ، فإن قُتل عبدالله بن والٍ فأميرُ الناس رفاعة بن شدّاد ، رحم الله امرأ صدق ما عاهد الله عليه ! ثم بعث المسيّب بن نجبة في أربع مائة فارس ، ثم قال : سرّ حتى تلقى أوّل عسكر من عساكرهم فشَنّ فيهم الغارة ، فإذا رأيت ما تحبّه وإلّا انصرفت إليّ في أصحابك ؛ وإياك أن تنزل أو تدع أحداً من أصحابك أن ينزل ، أو يستقبل آخر ذلك ، حتى لا تجد منه بداً .

قال أبو مخنف : فحدثني أبي عن حميد بن مسلم أنه قال : أشهد أني في حيل المسيّب بن نجبة تلك ، إذ أقبلنا نسير آخر يومنا كلّه وليلتنا ، حتى إذا كان في آخر السحر نزلنا فعلقنا على دوابنا نخاليتها ، ثم هوّمتا تهويّة بمقدار تكون مقدار قضيها ثم ركبناها ، حتى إذا انبلج لنا الصبح نزلنا فصلينا ، ثم ركب فركبنا . فبعث أبا الجؤيرة العبدي بن الأحمر في مائة من أصحابه ، وعبدالله بن عوف بن الأحمر في مائة وعشرين ، وحش بن ربيعة أبا المعتمر الكناني في مثلها ، وبقي هو في مائة ؛ ثم قال : انظروا أوّل من تلقون فأثوني به ، فكان أوّل من لقينا أعرابي يطرد أحيرة وهو يقول :

يا مال لا تعجل إلى صخبي وأسرح فإنك آمن السّرْب

قال : يقول عبدالله بن عوف بن الأحمر : يا حميد بن مسلم ، أبشر بشري وربّ الكعبة ، فقال له ابن عوف بن الأحمر : ممّن أنت يا أعرابي ؟ قال : أنا من بني تغلب ؛ قال : غلبتم وربّ الكعبة إن شاء الله . فأنتهى إلينا المسيّب بن نجبة ، فأخبرناه بالذي سمعنا من الأعرابي وأتينا به ، فقال المسيّب

ابن نجبة . أما لقد سُررتُ بقولك : أبشر ، ويقولك : يا حميد بن مسلم ، وإنني لأرجو أن تبشروا بما يسركم ، وإنما سرّكم أن تحمدوا أمركم ، وأن تسلموا من عدوكم ، وإنّ هذا الفأل لهو الفأل الحسن ، وقد كان رسول الله ﷺ يعجبه الفأل . ثم قال المسيّب بن نجبة للأعرابي : كم بيننا وبين أدنى هؤلاء القوم منّا ؟ قال : أدنى عسكر من عساكرهم منك عسكرُ ابن ذي الكلاع ، وكان بينه وبين الحصين اختلاف ، ادّعى الحصين أنه على جماعة الناس ، وقال ابن ذي الكلاع : ما كنت لتولّي عليّ ، وقد تكتبنا إلى عبيد الله بن زياد ، فهما ينتظران أمره ، فهذا عسكر ابن ذي الكلاع منكم على رأس ميل ؛ قال : فتركنا الرجل ، فخرجنا نحوهم مُسرّعين ، فوالله ما شعروا حتى أشرّفنا عليهم وهم غارون ، فحملنا في جانب عسكرهم فوالله ما قاتلوا كثيرَ قتال حتى انهزموا ، فأصبنا منهم رجالاً ، وجرّنا فيهم فأكثرنا الجراح ، وأصبنا لهم دوابّ ، وخرجوا عن عسكرهم وخلّوه لنا ، فأخذنا منه ما خفّ علينا ، فصاح المسيّب فينا : الرجعة ، إنكم قد نصّرتهم ، وغنمتم وسلّمتم ، فانصرفوا ، فانصرفنا حتى أتينا سليمان .

قال : فأتى الخبرُ عبيد الله بن زياد ، فسرح إلينا الحُصَيْن بن نمير مسرعاً حتى نزل في اثني عشر ألفاً ، فخرجنا إليهم يوم الأربعاء لثمانِ بَقِين من جُمادى الأولى ؛ فجعل سليمان بن صُرد عبد الله بن سعد بن نَفيْل على ميمته ، وعلى ميسرته المسيّب بن نجبة ، ووقف هو في القلب ، وجاء حصين بن نمير وقد عبّأ لنا جُنْدَه ، فجعل على ميمته جبلة بن عبد الله ، وعلى ميسرته زُبَيْعَة بن الكَعْبَارِقي الغَنَوِيّ ، ثم زحفوا إلينا ، فلما دَنَوْا دَعَوْنَا إلى الجماعة على عبد الملك بن مروان وإلى الدخول في طاعته ، ودَعَوْنَاهُمْ إلى أن يدفعوا إلينا عبيد الله بن زياد فنقتله ببعض من قتل من إخواننا ، وأن يخلعوا عبد الملك بن مروان ، وإلى أن يُخْرَجَ من بلادنا من آل ابن الزبير ، ثم نردّ هذا الأمر إلى أهل بيت نبينا الذين آتانا الله من قبلهم بالنعمة والكرامة ؛ فأبى القوم وأبينا .

قال حميد بن مسلم : فحملتُ ميمتنا على ميسرتهم وهزمتهم ، وحملتُ ميسرتنا على ميمتهم - وحمل سليمان في القلب على جماعتهم ، فهزمتناهم حتى اضطرنّاهم إلى عسكرهم ، فما زال الظفر لنا عليهم حتى حجز الليلُ بيننا وبينهم ، ثم انصرفنا عنهم وقد حجزناهم في عسكرهم ، فلما كان الغد صبّحهم ابن ذي الكلاع في ثمانية آلاف ، أمدهم بهم عبيد الله بن زياد ، وبعث إليه يشتمه ، ويقع فيه ، ويقول : إنما عملتُ عمَلُ الأَغمار ، تُضَيِّعُ عسكرك ومسالحك ! سر إلى الحصين بن نمير حتى توافيه وهو على الناس ، فجاءه ، فغدّوا علينا وغاديناهم ، فقاتلناهم قتالاً لم يَرَ الشَّيْبُ والمُرْدُ مثله قطّ يومنا كلّهُ ، لا يحجز بيننا وبين القتال إلا الصلاة حتى أمسينا فتحاجزنا ، وقد والله أكثروا فينا الجراح ، وأفشينّاها فيهم ؛ قال : وكان فينا قُصَّاصٌ ثلاثة : رفاعَة بن شدّاد البَجَلِيّ ، وصُحَيْر بن حذيفة بن هلال بن مالك المَرِّيّ ، وأبو الجَوَيرِيّة العبديّ ، فكان رفاعَة يقصّ ويُحَضِّضُ الناس في الميمة ، لا يبرّحها ، وجرح أبو الجويرية اليوم الثاني في أوّل النهار ، فلزم الرّحال ، وكان صُحَيْر ليلته كلها يدور فينا ويقول : أبشروا عباد الله بكرامة الله ورضوانه ، فحثّ والله لمن ليس بينه وبين لقاء الأحبة ودخول الجنة والراحة من إبرام الدنيا وأذاها إلا فراق هذه النفس الأمّارة بالسوء أن يكون بفراقها سَخِيّاً ، وبلقاء

ربه مسروراً . فمكثنا كذلك حتى أصبحنا ، وأصبح ابن نمير وأدهم بن محرز الباهلي في نحو من عشرة آلاف ، فخرجوا إلينا ، فاقتتلنا اليوم الثالث يوم الجمعة قتالاً شديداً إلى ارتفاع الضحى . ثم إن أهل الشام كثرونا وتعطفوا علينا من كل جانب ، ورأى سليمان بن صرد ما لقي أصحابه ، فنزل فنادى : عباد الله ، من أراد البكور إلى ربه ، والتوبة من ذنبه ، والوفاء بعهده ، إليّ ؛ ثم كسر جفن سيفه ، ونزل معه ناس كثير ، فكسروا جفون سيوفهم ، ومشوا معه ، وانزوت خيلهم حتى اختلطت مع الرجال ، فقاتلوهم حتى نزلت الرجال تشتتاً مُصلتةً بالسيوف ، وقد كسروا الجفون ، فحمل الفرسان على الخيل ولا يثبتون ، فقاتلوهم وقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة ، وجرحوا فيهم فأكثروا الجراح . فلما رأى الحصين بن نمير صبر القوم وبأسهم - بعث الرجال ترميهم بالنبل ، واكتنفتهم الخيل والرجال ، فقتل سليمان بن صرد رحمه الله ، رماه يزيد بن الحصين بسهم فوقه ، ثم وثب ثم وقع ؛ قال : فلما قتل سليمان بن صرد أخذ الراية المسيب بن نجبة ، وقال لسليمان بن صرد : رحمك الله يا أخي ! فقد صدقت ووفيت بما عليك ، وبقي ما علينا ، ثم أخذ الراية فشد بها ، فقاتل ساعة ثم رجع ، ثم شد بها فقاتل ثم رجع ، ففعل ذلك مراراً يشد ثم يرجع ، ثم قتل رحمه الله .

قال أبو مخنف : وحدّثنا فروة بن لقيط ، عن مولى للمسيب بن نجبة الفزاري ، قال : لقيته بالمدائن وهو مع شبيب بن يزيد الخارجي فجرى الحديث حتى ذكرنا أهل عين الوردية .

قال هشام عن أبي مخنف ؛ قال : حدّثنا هذا الشيخ ، عن المسيب بن نجبة ، قال : واللّه ما رأيت أشجع منه إنساناً قط ، ولا من العصاة التي كان فيهم ، ولقد رأيته يوم عين الوردية يقاتل قتالاً شديداً ما ظننت أن رجلاً واحداً يقدر أن يبلّى مثل ما أبلى ، ولا ينكأ في عدوه مثل ما نكأ ، لقد قتل رجلاً ؛ قال : وسمعتُه يقول قبل أن يُقتل وهو يقاتلهم :

قد علمت مباله الذوائب واضحه اللّبات والترائب
أنّي غداة الرّوع والتّغالب أشجع من ذي ليد موائب
قطّاع أقران مخوف الجانب

قال أبو مخنف : حدّثني أبي وخالي ، عن حميد بن مسلم وعبدالله بن غزّية . قال أبو مخنف : وحدّثني يوسف بن يزيد ، عن عبدالله بن عوف ، قال : لما قتل المسيب بن نجبة أخذ الراية عبدالله بن سعد بن نفيّل ، ثم قال رحمه الله : أخويّ منهم من قضى نحبه ، ومنهم من يتنظر وما بدّلوا تبديلاً . وأقبل بمن كان معه من الأزد ، فحقّوا برايته ، فوالله إنا لذلك إذ جاءنا فرسان ثلاثة : عبدالله بن الخضيل الطائي ، وكثير بن عمرو المزنّي ، وسعر بن أبي سعر الحنفي ، كانوا خرجوا مع سعد بن حذيفة بن اليمان في سبعين ومائة من أهل المدائن ، فسرحهم يوم خرج في آثارنا على خيول مقلّمة مقدّحة ، فقال لهم : اطّووا المنازل حتى تلحقوا بإخواننا فتبشّروهم بخروجنا إليهم لتشتدّ بذلك ظهورهم ، وتخبروهم بمجيء أهل البصرة أيضاً ، كان المشني بن مخربة العبدّي أقبل في ثلثمائة من أهل البصرة ، فجاء حتى نزل مدينة بهرُسِير بعد خروج سعد بن حذيفة من المدائن لخمس ليال ، وكان خروجه من البصرة قبل ذلك قد بلغ سعد بن حذيفة قبل أن يخرج من المدائن ، فلما انتهوا إلينا

قالوا: أبشروا فقد جاءكم إخوانكم من أهل المدائن وأهل البصرة؛ فقال عبدالله بن سعد بن نُفَيْل: ذلك لو جاؤونا ونحن أحياء؛ قال: فنظروا إلينا، فلما رأوا مصارع إخوانهم وما بنا من الجراح، بكى القوم وقالوا: وقد بلغ منكم ما نرى! إنا لله وإنا إليه راجعون! قال: فنظروا والله إلى ما ساء أعينهم؛ فقال لهم عبدالله بن نُفَيْل: إنا لهذا خرجنا، ثم أقتلنا فما اضطربنا إلا ساعة حتى قتل المزي، وطعن الحنفي فوقع بين القتل، ثم ارتث بعد ذلك فنجنا، وطعن الطائي فجزم أنفه، فقاتل قتالاً شديداً، وكان فارساً شاعراً. فأخذ يقول:

قد علمت ذات القَوامِ الرُودِ أن لستُ بالواني ولا الرُعَديدِ
يوماً ولا بالفرقِ الحَيُودِ

قال: فحمل علينا ربيعة بن المخارق حملةً منكراً، فاقتلنا قتالاً شديداً. ثم إنه اختلف هو وعبدالله بن سعد بن نفيل ضربتين، فلم يصنع سيفهما شيئاً، واعتنق كل واحد منهما صاحبه، فوقعا إلى الأرض، ثم قاما فاضطربا، ويحمل ابن أخي ربيعة بن المخارق على عبدالله بن سعد، فطعنه في ثغرة نحره، فقتله، ويحمل عبدالله بن عوف بن الأحمر على ربيعة بن المخارق، فطعنه فصرعه. فلم يُصَبْ مَقْتلاً؛ فقام فكرّ عليه الثانية، فطعنه أصحاب ربيعة فصرعوه ثم إن أصحابه استنقذوه. وقال خالد بن سعد بن نفيل: أروني قاتل أخي، فأريناه ابن أخي ربيعة بن المخارق؛ فحمل عليه فقتله بالسيف واعتنقه الآخر فخر إلى الأرض، فحمل أصحابه وحملنا، وكانوا أكثر منا فاستنقذوا صاحبهم، وقتلوا صاحبنا، وبقيت الراية ليس عندها أحد. قال: فناديناه عبدالله بن والٍ بعد قتلهم فرساننا، فإذا هو قد استلحم في عصابة معه إلى جانبنا، فحمل عليه رفاعه بن شداد، فكشفهم عنه، ثم أقبل إلى رايته وقد أمسكها عبدالله بن خازم الكثيري، فقال لابن وال: أمسك عني رايتك؛ قال: أمسكها عني رحمك الله، فإنني بي مثل حالك فقال له: أمسك عني رايتك، فإنني أريد أن أجاهد؛ قال: فإن هذا الذي أنت فيه جهاد وأجر؛ قال: فصيحنا: يا أبا عزة، أطع أميرك يرحمك الله! قال: فأمسكها قليلاً، ثم إن ابن والٍ أخذها منه.

قال أبو مخنف: قال أبو الصلت التيمي الأعور: حدثني شيخ للحي كان معه يومئذ، قال: قال لنا ابن وال: من أراد الحياة التي ليس بعدها موت، والراحة التي ليس بعدها نصب، والسُرور الذي ليس بعده حزن، فليقترب إلى ربه بجهاد هؤلاء المحلين، والرواح إلى الجنة رحمكم الله! وذلك عند العصر؛ فشدد عليهم، وشددنا معه، فأصبنا والله منهم رجالاً، وكشفناهم طويلاً، ثم إنهم بعد ذلك تعطفوا علينا من كل جانب، فحازونا حتى بلغوا بنا المكان الذي كنا فيه، وكنا بمكان لا يقدر أن يأتونا فيه إلا من وجه واحد، وولي قتلنا عند المساء أدهم بن مُحَرِّز الباهلي، فشدد علينا في خيله ورجاله، فقتل عبدالله بن وال التيمي.

قال أبو مخنف، عن فروة بن لقيط، قال سمعت أدهم بن مُحَرِّز الباهلي في إمارة الحجاج بن يوسف وهو يحدث ناساً من أهل الشام، قال دفعت إلى أحد أمراء العراق؛ رجل منهم يقولون له عبدالله بن وال وهو يقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ

يُرْزُقُونَ * فَرِحِينَ . . . ﴿١﴾ ، الآيات الثلاث ، قال : فغاضني ، فقلت في نفسي : هؤلاء يَعْدُونَا بِمَنْزِلَةِ أَهْلِ الشَّرْكِ ، يَزُونُ أَنَّ مِنْ قَتَلْنَا مِنْهُمْ كَانَ شَهِيداً . فحملتُ عليه أَضْرَبُ يَدَهُ الْيَسْرَى فَأَطْنَنْتُهَا ، وَتَنَحَّيْتُ قَرِيباً ، فَقَتَلَ لَه : أَمَا إِنِّي أَرَاكَ وَدِدْتُ أَنَّكَ فِي أَهْلِكَ ، فَقَالَ : بِشَسَا رَأَيْتُ ! أَمَا وَاللَّهِ مَا أَحَبَّ أَنَّهُ يَدُكَ الْآنَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِي فِيهَا مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ مَا فِي يَدِي ؛ قَالَ : فَقُلْتُ لَهُ : لَمْ ؟ قَالَ : لَكَيْمَا يَجْعَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَزْرَهَا ، وَيُعْظِمَ لِي أَجْرَهَا ؛ قَالَ : فغاضني فجمعتُ خيلي ورجالي ؛ ثُمَّ حَمَلْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ ، فَدَفَعْتُ إِلَيْهِ فَطَعَنْتُهُ فَقَتَلْتُهُ ، وَإِنَّمَا لَمَقْبَلُ إِلَيَّ مَا يَزُولُ ؛ فَرَعَمُوا بَعْدُ أَنَّهُ كَانَ مِنْ فَقْهَاءِ أَهْلِ الْعِرَاقِ الَّذِينَ كَانُوا يُكْثِرُونَ الصُّومَ وَالصَّلَاةَ وَيُفْتُونَ النَّاسَ .

قال أبو مخنف : وحدثني الثقة ، عن حميد بن مسلم وعبدالله بن غزوة قال : لما هلك عبدالله بن والٍ نظرنا ، فإذا عبدالله بن خازم قتل إلى جنبه ، ونحن نرى أنه رفاعه بن شداد البجلي ، فقال له رجل من بني كنانة يقال له الوليد بن غضين : أمسك رايتك ؛ قال : لا أريدها ؛ فقلت له : إن الله ! ما لك ! فقال : ارجعوا بنا لعل الله يجمعنا ليوم شرٍّ لهم ، فوثب عبدالله بن عوف بن الأحمر إليه ، فقال : أهلكتنا ، والله لئن انصرفت ليركبُنْ أَكْتَفَانَا فَلَا نَبْلُغُ فَرْسَخاً حَتَّى نَهْلِكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيرِنَا ، فَإِنْ نَجَا مِنَّا نَاجَ أَخَذَهُ الْأَعْرَابُ وَأَهْلُ الْقُرَى ، فَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِمْ بِهِ فَيَقْتُلُ صَبْرًا ، أَنَشِدُكَ اللَّهَ أَنْ تَفْعَلَ ، هَذِهِ الشَّمْسُ قَدْ طَفَلَتْ لِلْمَغِيبِ ، وَهَذَا اللَّيْلُ قَدْ غَشَيْنَا ، فَنَقَاتِلُهُمْ عَلَى خَيْلِنَا هَذِهِ فَإِنَّا الْآنَ مَمْتَنِعُونَ ، فَإِذَا غَسَقَ اللَّيْلُ رَكِبْنَا خَيْولَنَا أَوَّلَ اللَّيْلِ فَرَمِينَا بِهَا ، فَكَانَ ذَلِكَ الشَّأْنُ حَتَّى نُصْبِحَ وَنَسِيرَ وَنَحْنُ عَلَى مَهَلٍ ، فَيَحْمِلُ الرَّجُلُ مِنَّا جَرِيحَهُ وَيَنْتَظِرُ صَاحِبَهُ ، وَتَسِيرُ الْعَشْرَةُ وَالْعَشْرُونَ مَعاً ، وَيَعْرِفُ النَّاسُ الْوَجْهَ الَّذِي يَأْخُذُونَ ، فَيَتَّبِعُ فِيهِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ؛ وَلَوْ كَانَ الَّذِي ذَكَرْتُ لَمْ تَقِفْ أُمَّ عَلَى وَلَدِهَا ، وَلَمْ يَعْرِفْ رَجُلٌ وَجْهَهُ ، وَلَا أَيْنَ يَسْقُطُ ؛ وَلَا أَيْنَ يَذْهَبُ ! وَلَمْ نَصْيحْ إِلَّا وَنَحْنُ بَيْنَ مَقْتُولٍ وَمَأْسُورٍ . فَقَالَ لَهُ رِفَاعَةُ بْنُ شَدَادٍ : فَإِنَّكَ نَعَمْ مَا رَأَيْتُ ؛ قَالَ : ثُمَّ أَقْبَلَ رِفَاعَةُ عَلَى الْكَنَانِيِّ فَقَالَ لَهُ : أَتُمْسِكُهَا أَمْ أَخَذَهَا مِنْكَ ؟ فَقَالَ لَهُ الْكَنَانِيُّ : إِنِّي لَا أَرِيدُ مَا تَرِيدُ ، إِنِّي أَرِيدُ لِقَاءَ رَبِّي ، وَاللَّحَاقَ بِإِخْوَانِي ، وَالْخُرُوجَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ ، وَأَنْتَ تَرِيدُ وَرَقَ الدُّنْيَا ، وَتَهْوَى الْبَقَاءَ ، وَتَكْرَهُ فِرَاقَ الدُّنْيَا ؛ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّ لَكَ أَنْ تُرْشِدَ ، ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْهِ الرَايَةَ ، وَذَهَبَ لِيَسْتَقْدِمَ . فَقَالَ لَهُ ابْنُ أَحْمَرَ : قَاتِلْ مَعَنَا سَاعَةً رَحِمَكَ اللَّهُ وَلَا تُلْقِ بِيَدِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، فَمَا زَالَ بِهِ يَنَاشِدُهُ حَتَّى احْتَبَسَ عَلَيْهِ ، وَأَخَذَ أَهْلُ الشَّامِ يَتَنَادَوْنَ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَهُمْ ؛ فَأَقْدَمُوا عَلَيْهِمْ فَافْرَغُوا مِنْهُمْ قَبْلَ اللَّيْلِ . فَأَخَذُوا يَقْدَمُونَ عَلَيْهِمْ ، فَيَقْدَمُونَ عَلَى شَوْكَةٍ شَدِيدَةٍ ؛ وَيَقَاتِلُونَ فُرْسَانًا شَجْعَانًا لَيْسَ فِيهِمْ سَقَطٌ رَجُلٌ ، وَلَيْسُوا لَهُمْ بِمُضْجَرِينَ فَيَتِمَكِنُوا مِنْهُمْ ؛ فَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى الْعِشَاءَ قِتَالًا شَدِيدًا ، وَقَتَلَ الْكَنَانِيُّ قَبْلَ الْمَسَاءِ ، وَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَزِيزٍ الْكَنْدِيُّ وَمَعَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ غِلَامٌ صَغِيرٌ ، فَقَالَ : يَا أَهْلَ الشَّامِ ، هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ مِنْ كَنْدَةٍ ؟ فَخَرَجَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ رَجَالٌ ، فَقَالُوا : نَعَمْ ، نَحْنُ هَؤُلَاءِ ، فَقَالَ لَهُمْ : دُونَكُمْ أَخَوَكُمْ فَابْعَثُوا بِهِ إِلَى قَوْمِكُمْ بِالْكُوفَةِ ، فَأَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَزِيزٍ الْكَنْدِيُّ ، فَقَالُوا لَهُ : أَنْتَ ابْنُ عَمَّنَا ، فَإِنَّكَ آمِنٌ ؛ فَقَالَ لَهُمْ : وَاللَّهِ لَا أَرْغَبُ عَنْ مَصَارِعِ إِخْوَانِي الَّذِينَ كَانُوا لِلْبِلَادِ نَوْرًا ، وَلِلْأَرْضِ أَوْتَادًا ، وَمِثْلُهُمْ كَانَ اللَّهُ يُذَكِّرُ ؛ قَالَ : فَأَخَذَ ابْنُهُ يَبْكِي فِي أَثَرِ أَبِيهِ ، فَقَالَ : يَا بَنِيَّ ، لَوْ أَنَّ شَيْئًا كَانَ آثَرَ عِنْدِي مِنْ طَاعَةِ رَبِّي إِذَا لَكُنْتُ أَنْتَ ، وَنَاشَدَهُ قَوْمُهُ الشَّامِيُّونَ لَمَّا رَأَوْا مِنْ جَزَعِ ابْنِهِ وَيَكَاثِهِ فِي أَثَرِهِ ، وَأَرَوْا الشَّامِيِّينَ لَهُ وَلَابَنَهُ رِقَّةً شَدِيدَةً حَتَّى جَزَعُوا وَبَكَوْا ، ثُمَّ اعْتَزَلَ الْجَانِبَ الَّذِي خَرَجَ إِلَيْهِ مِنْهُ قَوْمُهُ ، فَشَدَّ عَلَى صَفِّهِمْ عِنْدَ الْمَسَاءِ ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ .

قال أبو مخنف : حَدَّثَنِي فضيل بن خديج ، قال : حَدَّثَنِي مسلم بن زحر الحولاني ، أن كريب بن زيد الحميري مشى إليهم عند المساء ومعه راية بلقاء في جماعة ، قلما تنقص من مائة رجل إن نقصت ، وقد كانوا تحدّثوا بما يريد رفاة أن يصنع إذا أمسى ، فقام لهم الحميري وجمع إليه رجالاً من حمير وهمدان ، فقال : عباد الله ! رُوحوا إلى ربكم ، والله ما في شيء من الدنيا خَلَفَ من رضاء الله والتوبة إليه ، إنه قد بلغني أن طائفة منكم يريدون أن يرجعوا إلى ما خرجوا منه إلى دنياهم ، وإن هم ركنوا إلى دنياهم رجعوا إلى خطاياهم ، فأما أنا فوالله لا أرى هذا العدو ظهري حتى أريد موارد إخواني ؛ فأجابوه وقالوا : رأينا مثل رأيك . ومضى برايته حتى دنا من القوم ، فقال ابن ذي الكلاع : والله إني لأرى هذه الراية حميرية أو همدانية ، فدنا منهم فسألهم ، فأخبروه ، فقال لهم : إنكم آمنون ، فقال له صاحبهم : إنا قد كنا آمنين في الدنيا ، وإنما خرجنا نطلب أمان الآخرة ؛ فقاتلوا القوم حتى قتلوا ، ومشى صخير بن حذيفة بن هلال بن مالك المزني في ثلاثين من مُزينة ، فقال لهم : لا تهابوا الموت في الله ، فإنه لا يقبلكم ، ولا ترجعوا إلى الدنيا التي خرجتم منها إلى الله فإنها لا تبقى لكم ، ولا ترهّدوا فيما رغبتم فيه من ثواب الله فإن ما عند الله خير لكم ؛ ثم مضوا فقاتلوا حتى قتلوا ، فلما أمسى الناس ورجع أهل الشام إلى معسكرهم ، نظر رفاة إلى كل رجل قد عُقر به ، وإلى كل جريح لا يُعين على نفسه ؛ فدفعه إلى قومه ، ثم سار بالناس ليلته كلها حتى أصبح بالثنيير فعبر الخابور ، وقطع المعابر ، ثم مضى لا يمر بمعبر إلا قطعه ، وأصبح الحصين بن غير فبعث فوجدهم قد ذهبوا ، فلم يبعث في آثارهم أحداً ، وسار بالناس فأسرع ، وخلف رفاة وراءهم أبا الجوزية العبدى في سبعين فارساً يسترون الناس ؛ فإذا مروا برجل قد سقط حمله ، أو مبتاع قد سقط قبضه حتى يعرفه ، فإن طلب أو ابتغى بعث إليه فأعلمه ، فلم يزلوا كذلك حتى مروا بقرقيسياً من جانب البر ، فبعث إليهم زُفر من الطعام والعلف مثل ما كان بعث إليهم في المرة الأولى ، وأرسل إليهم الأطباء وقال : أقيموا عندنا ما أحببت ، فإن لكم الكرامة والمواساة ، فأقاموا ثلاثاً ، ثم زود كل امرئ منهم ما أحب من الطعام والعلف ؛ قال : وجاء سعد بن حذيفة بن اليمان حتى انتهى إلى هيت ، فاستقبله الأعراب فأخبروه بما لقي الناس ، فانصرف ، فتلقى المثني بن مخربة العبدى بصندوداء ، فأخبره ، فأقاموا حتى جاءهم الخبر : إن رفاة قد أظلكم ، فخرجوا حين دنا من القرية ، فاستقبلوه فسلم الناس بعضهم على بعض ، وبكى بعضهم إلى بعض ، وتناصعوا إخوانهم فأقاموا بها يوماً وليلة ؛ فانصرف أهل المدائن إلى المدائن ، وأهل البصرة إلى البصرة ، وأقبل أهل الكوفة إلى الكوفة ، فإذا المختار محبوس .

قال هشام : قال أبو مخنف ، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن أدهم بن مُحرز الباهلي ، أنه أتى عبد الملك بن مروان ببشارة الفتح ، قال : فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإن الله قد أهلك من رؤوس أهل العراق مُلقح فتنة ، ورأس ضلالة ، سليمان بن صرد ، ألا وإن السيوف تركت رأس المسيب بن نجبة خذاريق ، ألا وقد قتل الله من رؤوسهم رأسين عظيمين ضالين مضلين : والله بن سعد أخا الأزدي ، وعبد الله بن وال أخا بكر بن وائل ، فلم يبق بعد هؤلاء أحد عنده دفاع ولا امتناع .

قال هشام ، عن أبي مخنف : وحُدثت أن المختار مكث نحواً من خمس عشرة ليلة ، ثم قال لأصحابه : عدّوا لغازيكم هذا أكثر من عشر ، ودون الشهر ، ثم يبيحكم نبا هتر ، من طعن نتر ، وضرب

هبر ، وقتل جم ، وأمر رجم . فَمَنْ لها؟ أنا لها ، لا تُكذِّبُنَّ ، أنا لها .

قال أبو مخنف : حدَّثنا الحصين بن يزيد ، عن أبان بن الوليد ، قال : كتب المختار وهو في السجن إلى رفاعَةَ بن شدَّاد حين قَدِمَ من عين الوردَة : أما بعد ، فمرحباً بالعَصَب الذين أعظم الله لهم الأجر حين انصرفوا ، ورضيَ انصرافهم حين قَفَلوا . أما وربّ البنية التي بنى ما خطا خاطٍ منكم خطوةً ، ولا رتاً رتوةً ، إلّا كان ثوابُ الله له أعظم من مُلك الدنيا . إنّ سليمان قد قضى ما عليه ، وتوفاه الله فجعل روحه مع أرواح الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين ، ولم يكن بصاحبكم الذي به تُنصرون ، إني أنا الأمير المأمور ، والأمين المأمون ، وأمير الجيش ، وقاتل الجبارين ، والمنتقم من أعداء الدّين ، والمقيد من الأوتار ، فأعدّوا واستعدّوا ، وأبشروا واستبشروا ؛ أدعوكم إلى كتاب الله ، وسنة نبيّه ﷺ ، وإلى الطلب بدماء أهل البيت والدفع عن الضّعفاء ، وجهاد المُحلّين ؛ والسلام .

قال أبو مخنف : وحدّثني أبو زهير العبيسي ، أنّ الناس تحدّثوا بهذا مِنْ أمر المختار ، فبلغ ذلك عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد ، فخرجوا في الناس حتى أتيا المختار ، فأخذه .

قال أبو مخنف : فحدّثني سليمان بن أبي راشد ، عن حميد بن مسلم قال : لما تهيّأنا للانصراف قام عبد الله بن غزّية ووقف على القتل فقال : يرحمكم الله ، فقد صدقتم وصبرتم ، وكذبنا وفررنا ؛ قال : فلما سرنا وأصبحنا إذا عبد الله بن غزّية في نحو من عشرين قد أرادوا الرجوع إلى العدو والاستقتال ، فجاء رفاعَة وعبد الله بن عوف بن الأحمر وجماعة الناس فقالوا لهم : ننشدكم الله ألا تزيدونا قُلولا ونقصاناً ، فإننا لا نزال بخير ما كان فينا مثلكم من ذوي النّيّات ، فلم يزلوا بهم كذلك ينشدونهم حتى ردّوهم غير رجل من مزينة يقال له عُبيدة بن سُفيان ، رحل مع الناس ، حتى إذا غُفِل عنه انصرف حتى لقي أهل الشام ، فشدّ بسيفه يضاربهم حتى قُتل .

قال أبو مخنف : فحدّثني الحصين بن يزيد الأزديّ ، عن حميد بن مسلم الأزديّ ، قال : كان ذلك المزنيّ صديقاً لي ، فلما ذهب لينصرف ناشدته الله ، فقال : أما إنك لم تكن لتسألني شيئاً من الدنيا إلّا رأيت لك من الحقّ عليّ إيتاءكهُ ، وهذا الذي تسألني أريد الله به ؛ قال : ففارقني حتى لقي القوم فقتل ؛ قال : فوالله ما كان شيء بأحبّ إليّ من أن ألقى إنساناً يحدّثني عنه كيف صنّع حين لقي القوم ؛ قال : فلقيتُ عبد الملك بن جزء بن الحذرّجان الأزديّ بمكة ، فجرى حديث بيننا ، جرى ذكر ذلك اليوم ، فقال : أعجب ما رأيت يومَ عين الوردَة بعد هلاك القوم أنّ رجلاً أقبلَ حتى شدّ عليّ بسيفه ، فخرجنا نحوه ، قال : فأنتهى إليه وقد عقربه وهو يقول :

إني من الله إلى الله أفرّ رضوانك اللهم أبدي وأسرّ

قال : فقلنا له : ممن أنت؟ قال : من بني آدم ؛ قال : فقلنا : ممن؟ قال : لا أحبّ أن أعريفكم ولا أن تعرفوني يا مخربي البيت الحرام ؛ قال : فنزل إليه سليمان بن عمرو بن محصن الأزديّ من بني الخيار ؛ قال وهو يومئذ من أشدّ الناس ؛ قال : فكلاهما أئحَن صاحبه ؛ قال : وشدّ الناس عليه من كلّ جانب ، فقتلوه ؛ قال : فوالله ما رأيت واحداً قطّ هو أشدّ منه ؛ ، فلما ذكر لي ، وكنتُ أحبّ أن أعلم علمه ، دمت عينا ي ، فقال : أئينك وبينه قرابة ؟ فقلت له : لا ، ذلك رجل من مضر كان لي وداً وأخاً ، فقال لي : لا أرقأ الله دمعك ،

أَتَبْكِي عَلَى رَجُلٍ مِنْ مُضَرٍّ قُتِلَ عَلَى ضِلَالَةٍ ! ! قَالَ : قُلْتُ : لَا ، مَا قُتِلَ عَلَى ضِلَالَةٍ ، وَلَكِنَّهُ قُتِلَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَهُدًى ، فَقَالَ لِي : أَدْخَلَكَ اللَّهُ مَدْخَلَهُ ؛ قُلْتُ : آمِينَ ، وَأَدْخَلَكَ اللَّهُ مَدْخَلَ حَصِينِ بْنِ غَيْرٍ ، ثُمَّ لَا أَرْقَا لَكَ عَلَيْهِ دَمْعًا ؛ ثُمَّ قَمْتُ وَقَامَ .

وكان مما قيل من الشعر في ذلك قولُ أعشى همدان ، وهي إحدى المكتئمان ، كنَّ يُكْتَمَنُ في ذلك الزمان :

فَحَيِّتِ عَنَّا مِنْ حَبِيبٍ مُجَانِبٍ
لَهُمْ عَرَانِي مِنْ فِرَاقِكَ نَاصِبٍ
إِلَيْنَا مَعَ الْبَيْضِ الْوَسَامِ الْخِرَاعِبِ
لَطِيفَةِ طَيِّ الْكَشْحِ رِيًّا الْحَقَائِبِ
كَشَمْسِ الضُّحَى تَنْكُلُ بَيْنَ السَّحَابِ
بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا وَضُنْتُ بِحَاجِبِ
فَأَحْبَبْتُ بِهَا مِنْ خُلَّةٍ لَمْ تُصَاقِبِ
وَحُبُّ تَصَافِي الْمُعْصِرَاتِ الْكَوَاعِبِ
لُعَابًا وَسُقْيَا لِلْخَدِيدِ الْمُقَارِبِ
رَزِيئَةً مِخْبَاتِ كَرِيمِ الْمَنَاصِبِ
وَتَقْوَى الْإِلَهِ خَيْرُ تَكْسَابِ كَاسِبِ
وَتَابَ إِلَى اللَّهِ الرَّفِيعِ الْمَرَاتِبِ
فَلَسْتُ إِلَيْهَا مَا حَيِّتُ بِأَيِّبِ
وَيَسْعَى لَهُ السَّاعُونَ فِيهَا بِرَاغِبِ
إِلَى ابْنِ زِيَادٍ فِي الْجُمُوعِ الْكَبَاكِبِ
مَصَالِيْتُ أَنْجَادِ سُرَاةٍ مَنَاجِبِ
وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِلْأَمِيرِ الْمُخَاطِبِ
وَأَخَّرَ مِمَّا جَرَّ بِالْأَمْسِ تَائِبِ
إِلَيْهِمْ فَحَسُّوهُمْ بَيْضَ قَوَاضِبِ
بَخِيلِ عِتَاقِ مُقَرَّبَاتِ سَلَاهِبِ
جُمُوعِ كَمُوجِ الْبَحْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ ثُمَّ غَيْرُ عَصَائِبِ
تُعَاوِرُهُمْ رِيحُ الصَّبَا وَالْجَنَائِبِ
كَأَنَّ لَمْ يَقَاتِلْ مَرَّةً وَيُحَارِبِ
شُنُوءَةَ وَالتَّيْمِيَّ هَادِي الْكِتَابِ
وَزَيْدُ بْنُ بَكْرٍ وَالْحُلَيْسُ بْنُ غَالِبِ
إِذَا شَدَّ لَمْ يَنْكُلْ كَرِيمُ الْمَكَاسِبِ

أَلَمْ خَيَالٌ مِنْكَ يَا أُمُّ غَالِبِ
وَمَا زِلْتُ لِي شَجَوًّا وَمَا زِلْتُ مُقْصِدًا
فَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ أَنْفَتَالِكَ فِي الضُّحَى
تَرَاءَتْ لَنَا هَيْفَاءَ مَهْضُومَةِ الْحَشَا
مُبْتَلَّةَ غُرَاءَ ، رُوْدُ شَبَابِهَا
فَلَمَّا تَغَشَّاهَا السَّحَابُ وَحَوْلَهُ
فَتَلَكَ الْهَوَى وَهِيَ الْجَوَى لِي وَالْمَنَى
وَلَا يُبْعِدُ اللَّهُ الشَّبَابَ وَذِكْرَهُ
ويزدادُ مَا أَحْبَبْتُهُ مِنْ عِتَابِنَا
فإِنِّي وَإِنْ لَمْ أَنَسَهُنَّ لَذَاكِرُ
تَوَسَّلَ بِالتَّقْوَى إِلَى اللَّهِ صَادِقًا
وَحَلَّى عَنِ الدُّنْيَا فَلَمْ يَلْتَبَسْ بِهَا
تَحَلَّى عَنِ الدُّنْيَا وَقَالَ أَطْرَحْتُهَا
وَمَا أَنَا فِيهَا يُكَبِّرُ النَّاسُ فَقَدَهُ
فَوَجَّهَهُ نَحْوَ الثُّبُورِ سَائِرًا
بِقَوْمِ هُمْ أَهْلُ التَّقِيَّةِ وَالنُّهَى
مَضَوْا تَارِكِي رَأْيِي ابْنَ طَلْحَةَ حَسْبُهُ
فَسَارُوا وَهُمْ مِنْ بَيْنِ مُلْتَمِسِ التَّقَى
فَلَاقُوا بَعِينَ الْوَرْدَةِ الْجَيْشِ فَاصِلًا
يَمَانِيَّةً تَذْرِي الْأَكْفَ وَتَارَةً
فَجَاءَهُمْ جَمْعٌ مِنَ الشَّامِ بَعْدَهُ
فَمَا بَرَحُوا حَتَّى أُبِيدَتْ سُرَاتُهُمْ
وَعَوِدَ أَهْلُ الصَّبْرِ صَرَعَى فَأَصْبَحُوا
فَأَضْحَى الْخَزَاعِيُّ الرَّئِيسُ مُجَدَّلًا
وَرَأْسُ بَنِي شَمْخٍ وَفَارِسُ قَوْمِهِ
وَعَمْرُو بْنُ بَشْرِ وَالْوَلِيدُ وَخَالِدُ
وَضَارِبُ مِنْ هَمْدَانَ كُلِّ مُشِيعِ

ومن كل قومٍ قد أصيبَ زعيمُهُم
أَبُوا غَيْرَ ضَرْبٍ يَفْلِقُ الهَامَ وَقَعَةً
وإنَّ سَعِيداً يَوْمَ يَذْمُرُ عَامِراً
فيا خَيْرَ جيشٍ للعِراقِ وأهلِهِ
فلا يَتَعَدَّنَ فُرساننا وَهَمَاتنا
فإن يُقْتَلُوا فالقَتْلُ أَكْرَمُ مِيتَةٍ
وما قُتِلُوا حتى أَثَارُوا عِصَابَةً
وذو حَسَبٍ في ذِرْوَةِ المجدِ ثاقِبٍ
وطَعَنَ بِأَطرافِ الأَسِنَّةِ صائبٍ
لأَشْجَعُ من لَيْثٍ بِدُرْنى مُواثِبٍ
سُقَيْتِمَ رَوايا كُلِّ أَسَحَمٍ ساكِبٍ
إذا البِضُّ أَبَدَتْ عن خِدامِ الكِواكِبِ
وكل فتى يوماً لإحدى الشَّواكِبِ
مُحْلِنٌ ثُوراً كاللُّيُوثِ الضَّوَارِبِ

وَقُتِلَ سَليمانُ بْنُ صُرْدٍ ومن قُتِلَ معه بَعينُ الوردَةِ من التَّوَّابِينَ في شَهرِ رَبيعِ الآخرِ . ؟

وفي هذه السَّنة أَمَرَ مَروانُ بَنَ الحَكَمِ أَهْلَ الشَّامِ بِالبِيعَةِ من بَعدِهِ لابنِهِ عَبدِالمَلِكِ وعَبدِالعَزيزِ ،
وَجَعَلَهُما وَلِيَّ العَهدِ .

ذَكَرَ الخَبَرُ عَن سَبَبِ عَقْدِ مَروانَ ذَلِكَ لَهَا :

قال هِشامُ ، عَن عِوانَةَ قالَ : لَمَّا هَزَمَ عَمرو بَنَ سَعيدِ بَنَ العاصِ الأَشْدُقَ مَصعَبَ بَنَ الزَيرِ حينَ وَجَّهَهُ
أَخوهُ عَبدُاللهِ إلى فَلَسطينَ وانصَرَفَ راجِعاً إلى مَروانَ ، ومَروانُ يَومئِذٍ بِدِمَشقَ ، قد غَلَبَ على الشَّامِ كُلِّها
ومَصَرَ ، وبلغَ مَروانُ أَنَّ عَمراً يَقولُ : إنَّ هَذا الأَمْرَ لي مِن بَعدِ مَروانَ ، ويَدَّعي أَنَّهُ قد كانَ وَعَدَهُ وَعَداً ،
فَدَعَا مَروانُ حَسانَ بَنَ مالِكِ بَنَ بَحدَلٍ فَأخْبَرَهُ أَنَّهُ يَريدُ أنْ يَبايعَ لِعَبدِالمَلِكِ وعَبدِالعَزيزِ ابنَيهِ مِن بَعدِهِ ،
وأخْبَرَهُ ما بَلَغَهُ عَن عَمرو بَنَ سَعيدِ ، فَقالَ : أنا أَكفِيكَ عَمراً ، فَلَمَّا اجتمعَ النَّاسُ عَندَ مَروانَ عَشيّاً قامَ ابنُ
بَحدَلٍ فَقالَ : إِنَّهُ قد بَلَغنا أَنَّ رَجالاً يَتَمَنونَ أَمانيّ ، قُوموا فبايعوا لِعَبدِالمَلِكِ ولِعَبدِالعَزيزِ مِن بَعدِهِ ؛ فقامَ
النَّاسُ ، فبايعوا مِن عَندِ آخِرِهِم .

وفي هذه السَّنة ماتَ مَروانُ بْنُ الحَكَمِ بِدِمَشقَ مُستَهلَّ شَهرِ رَمَضانَ .

ذَكَرَ الخَبَرُ عَن سَبَبِ هَلاكِهِ :

حَدَّثني الحارِثُ ، قالَ : حَدَّثنا ابنُ سَعدٍ ، قالَ : أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بَنَ عَمَرَ قالَ : حَدَّثني مُوسى بَنَ يَعقوبَ ،
عَن أَبِي الحَويْثِ ، قالَ : لَمَّا حَضَرَتِ مَعاوِيَةُ بَنَ يَزِيدَ أبَا لَيلَى الوفاةَ ، أبى أنْ يَسْتَخلفَ أَحَداً ، وكانَ
حَسانُ بَنَ مالِكِ بَنَ بَحدَلٍ يَريدُ أنْ يَجْعَلَ الأَمْرَ بَعدَ مَعاوِيَةَ بَنَ يَزِيدَ لأَخِيهِ خالِدِ بَنَ يَزِيدَ بَنَ مَعاوِيَةَ ، وكانَ
صَغيراً ، وهو خالُ أبِيهِ يَزِيدَ بَنَ مَعاوِيَةَ ، فبايعَ لِمَروانَ ، وهو يَريدُ أنْ يَجْعَلَ الأَمْرَ بَعدَهُ لَخالِدِ بَنَ يَزِيدَ ، فَلَمَّا
بايعَ لِمَروانَ وبايعَهُ مَعَهُ أَهْلُ الشَّامِ قَيلَ لِمَروانَ : تَزَوَّجْ أُمَّ خالِدٍ - وأُمُّ خالِدِ ابنةُ أَبِي هِشامِ بَنَ عَتبَةَ - حتى
تُصَغَّرَ شائِهِ ، فلا يَطْلُبُ الخِلافَةَ ؛ فَتَزَوَّجَها ، فَدَخَلَ خالِدٌ يَوماً على مَروانَ وَعَندَهُ جَماعَةٌ كَثيرَةٌ ، وهو يَمشي بَينَ
الصَّفِّينَ ، فَقالَ : إِنَّهُ واللهِ ما عَلِمْتُ لأَحمقَ ، تَعالَى يا بَنَ الرُّطْبَةِ الاسْتِ - يَقصِّرُ بِهِ لِبَاسُ قَظَةٍ مِن أَعينِ أَهْلِ
الشَّامِ - فَرجَعَ إلى أُمِّهِ فَأخْبَرَها ، فَقالتَ لَهُ أُمُّهُ : لا يُعرِفَنَّ ذَلِكَ مِنكَ ، واسكُتْ فَإني أَكفِيكَ ؛ فَدَخَلَ عَلَيْها
مَروانُ فَقالَ لَها : هَلْ قالَ لَكَ خالِدٌ في شَيْئاً ؟ فَقالتَ : وَخالِدٌ يَقولُ فيكَ شَيْئاً ! خالِدٌ أَشَدُّ لَكَ إِعظاماً مِن أنْ
يَقولَ فيكَ شَيْئاً ؛ فَصَدَّقَها ، ثُمَّ مَكَثَتْ أَياماً ، ثُمَّ إِنَّ مَروانَ نَامَ عَندَها ، فَغَطَّتْهُ بِالوِسادَةِ حتى قَتَلَتْهُ .

قال أبو جعفر: وكان هلاك مروان في شهر رمضان بدمشق ، وهو ابن ثلاث وستين سنة في قول الواقدي ؛ وأما هشام بن محمد الكلبي فإنه قال : كان يوم هلك ابن إحدى وستين سنة ؛ وقيل : توفي وهو ابن إحدى وسبعين سنة ؛ وقيل : ابن إحدى وثمانين سنة ؛ وكان يُكنى أبا عبد الملك ، وهو مروان بن الحُكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، وأمه أمية بنت علقمة بن صفوان بن أمية الكناني ، وعاش بعد أن بويج له بالخلافة تسعة أشهر ؛ وقيل : عاش بعد أن بويج له بالخلافة عشرة أشهر إلا ثلاث ليال ، وكان قبل هلاكه قد بعث بعثين : أحدهما إلى المدينة ، عليهم حُبَيْش بن دُلْجَة القيني ، والآخر منها إلى العراق عبيد الله بن زياد ، فأما عبيد الله بن زياد فسار حتى نزل الجزيرة ، فأتاه الخبر بها بموت مروان ، وخرج إليه التوابون من أهل الكوفة طالبين بدم الحسين ، فكان من أمرهم ما قد مضى ذكره ، وسنذكر إن شاء الله باقي خبره إلى أن قُتل ؟

وفي هذه السنة قتل حُبَيْش بن دُلْجَة . وأما حُبَيْش بن دُلْجَة ؛ فإنه سار حتى انتهى - فيما ذكر عن هشام ، عن عوانة بن الحُكم إلى المدينة ، وعليهم جابر بن الأسود بن عوف ، ابن أخي عبد الرحمن بن عوف ؛ من قبل عبد الله بن الزبير ، فهرب جابر من حُبَيْش . ثم إن الحارث بن أبي ربيعة - وهو أخو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة - وجّه جيشاً من البصرة ، وكان عبد الله بن الزبير قد ولّاه البصرة ، عليهم الحنيف بن السجف التميمي لحرب حُبَيْش بن دُلْجَة ، فلما سمع حُبَيْش بن دُلْجَة سار إليهم من المدينة ، وسرّح عبد الله بن الزبير عباس بن سهل بن سعد الأنصاري على المدينة ، وأمره أن يسير في طلب حُبَيْش بن دُلْجَة حتى يوافي الجند من أهل البصرة الذين جاءوا ينصرون ابن الزبير ، عليهم الحنيف ، وأقبل عباس في آثارهم مُسرِعاً حتى لحقهم بالرَبْدَة ، وقد قال أصحاب ابن دلجة له : دَعُهم ، لا تعجل إلى قتالهم ؛ فقال : لا أنزل حتى آكل من مُقَنَّدهم ، - يعني السويق الذي فيه القند - فجاءه سهم غَرَب فقتله ، وقتل معه المنذر بن قيس الجذامي ، وأبو عتاب مولى أبي سُفْيَان ، وكان معه يومئذ يوسف بن الحُكم ، والحجاج بن يوسف ، وما نَجُوا يومئذ إلا على جمل واحد ، وتحوَّز منهم نحو من خمسمائة في عمود المدينة ، فقال لهم عباس : انزلوا على حُكمي ، فنزلوا على حُكمه فضرب أعناقهم ، ورجع فل حُبَيْش إلى الشام .

حدَّثني أحمد بن زهير ، عن علي بن محمد أنه قال : الذي قتل حُبَيْش بن دُلْجَة يوم الرَبْدَة يزيد بن سِيَاه الأسواري ، رماه بُشَابَة فقتله ، فلما دخلوا المدينة وقف يزيد بن سِيَاه على بِرْدُون أشهب وعليه ثياب بياض ، فما لبث أن اسودَّت ثيابه ، ورأيتُه ممّا مسح الناس به ومما صبوا عليه من الطيب .

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة وقع بالبصرة الطاعون الذي يقال له الطاعون الجارف ، فهلك به خلق كثير من أهل البصرة .

حدَّثني عمر بن شُبَّة ، قال : حدَّثني زهير بن حرب ، قال حدَّثنا وهب بن جرير ، قال حدَّثني أبي ، عن المصعب بن زيد أن الجارف وقع وعبيد الله بن عبيد الله بن معمر على البصرة ، فماتت أمه في الجارف ، فما وجدوا لها من يحملها حتى استأجروا لها أربعة عُلوّج فحملوها إلى حُفرتها وهو الأمير يومئذ .

وفي هذه السنة اشتدَّت شوكة الخوارج بالبصرة ، وقتل فيها نافع بن الأزرق .

ذكر الخبر عن مقتله :

حدَّثني عمر بن شبة ، قال : حدَّثنا زهير بن حرب ، قال حدَّثنا وهب بن جرير ، قال حدَّثنا أبي ، عن محمد بن الزبير ، أنَّ عبيدالله بن عبيدالله بن معمر بعث أخاه عثمان بن عبيدالله إلى نافع بن الأزرق في جيش ، فلقاهم بدولاب ، فقتل عثمان وهُزِمَ جيشه .

قال عمر : قال زهير : قال وهب : وحدَّثنا محمد بن أبي عيينة ، عن سبرة بن نخف ، أنَّ ابن معمر عبيدالله بعث أخاه عثمان إلى ابن الأزرق ، فهُزِمَ جنده وقُتِل ؛ قال وهب : فحدَّثنا أبي أنَّ أهل البصرة بعثوا جيشاً عليهم حارثة بن بدر ، فلقاهم ، فقال لأصحابه :

كَرْبُيُوسَا وَدَوْلَبُوسَا وَحَيْثُ شَتَمْتُمْ فَأَذْهَبُوا

حدَّثنا عمر ، قال : حدَّثنا زهير ، قال : حدَّثنا وهب ، قال : حدَّثنا أبي ومحمد بن أبي عيينة ، قال : حدَّثنا معاوية بن قرة ، قال : خرجنا مع ابن عبيس فلقيناهم ، فقتل ابن الأزرق وابنان أو ثلاثة للماحوز ، وقُتِل ابن عبيس .

قال أبو جعفر : وأمّا هشام بن محمد فإنه ذكر عن أبي مخنف ، عن أبي المخارق الراسبي من قصة ابن الأزرق ، وبني الماحوز قصة هي غير ما ذكره عمر ، عن زهير بن حرب ، عن وهب بن جرير ؛ والذي ذكر من خبرهم أنَّ نافع بن الأزرق اشتدَّت شوكته باشتغال أهل البصرة بالاختلاف الذي كان بين الأزد وربيعة وتقيم بسبب مسعود بن عمرو ، وكثرت جموعه ، فأقبل نحو البصرة حتى دنا من الجسر ، فبعث إليه عبدالله بن الحارث مُسلم بن عبيس بن كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبدمناف في أهل البصرة ، فخرج إليه ، فأخذ يُحَوِّزُه عن البصرة ، ويدفعه عن أرضها ، حتى بلغ مكاناً من أرض الأهواز يقال له : دُولَاب ، فتهيأ الناس بعضهم لبعض وتزاحفوا ، فجعل مسلم بن عبيس على ميمته الحجاج بن باب الحَمِيرِي ، وعلى ميسرته حارثة بن بدر التميمي ، ثم الغدافي ، وجعل ابن الأزرق على ميمته عبيدة بن هلال اليَشْكُرِي ، وعلى ميسرته الزبير بن الماحوز التميمي ؛ ثم التقوا فاضطربوا ، فاقتتل الناس قتالاً لم يُرَ قتال قط أشدَّ منه ، فقتل مسلم بن عبيس أمير أهل البصرة ، وقتل نافع بن الأزرق رأس الخوارج ، وأمر أهل البصرة عليهم الحجاج بن باب الحميري ، وأمرت الأزارقة عليهم عبدالله بن الماحوز ، ثم عادوا فاقتتلوا أشدَّ قتال ، فقتل الحجاج بن باب الحميري أمير أهل البصرة ، وقتل عبدالله بن الماحوز أمير الأزارقة . ثم إنَّ أهل البصرة أمروا عليهم ربيعة الأجدم التميمي ، وأمرت الخوارج عليهم عبيدالله بن الماحوز ، ثم عادوا فاقتتلوا حتى أمسوا ، وقد كره بعضهم بعضاً ، وملأوا القتال ، فإنهم لتتوافقون متحاجزون حتى جاءت الخوارج سرية لهم جامعة لم تكن شهدت القتال ، فحملت على الناس من قبل عبد القيس ، فانهزم الناس ، وقاتل أمير البصرة ربيعة الأجدم ، فقتل ، وأخذ راية أهل البصرة حارثة بن بدر ، فقاتل ساعة وقد ذهب الناس عنه ، فقاتل من وراء الناس في حماهم ، وأهل الصبر منهم ، ثم أقبل بالناس حتى نزل بهم منزلاً بالأهواز ففي ذلك يقول الشاعر من الخوارج :

يَا كَبِدَا مِنْ غَيْرِ جُوعٍ وَلَا ظَمْئٍ وَيَا كَبِيدِي مِنْ حُبِّ أُمِّ حَكِيمٍ

ولو شهدتني يوم دُولَابْ أَبْصَرْتُ طَعَانَ أَمْرِي فِي الْحَرْبِ غَيْرَ لَثِيمِ
غَدَاةَ طَفْتُ فِي الْمَاءِ بِكُرْبْنِ وَائِلِ وَغَجْنَا صُدُورَ الْخَيْلِ نَحْوَ تَمِيمِ
وَكَانَ لِعَبْدِ الْقَيْسِ أَوَّلُ حَدَّنَا وَذَلْتُ شَيْوُخَ الْأَزْدِ وَهِيَ تَعُومُ

وبلغ ذلك أهل البصرة ، فهاهم وأفزعهم ، وبعث ابن الزبير الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة القرشي على تلك الحرّة ، فقدم ، وعزل عبدالله بن الحارث ، فأقبلت الخوارج نحو البصرة ، وقدم المهلب بن أبي صفرة على تلك من حال الناس من قبل عبدالله بن الزبير ، معه عهده على خراسان ، فقال الأحنف للحارث بن أبي ربيعة وللناس عامة : لا والله ، ما لهذا الأمر إلا المهلب بن أبي صفرة ، فخرج أشراف الناس ، فكلّموه أن يتولّى قتال الخوارج ؛ فقال : لا أفعل ، هذا عهد أمير المؤمنين معي على خراسان ، فلم أكن لأدع عهده وأمره ، فدعاه ابن أبي ربيعة فكلّمه في ذلك ، فقال له مثل ذلك ، فاتفق رأي ابن أبي ربيعة ورأي أهل البصرة على أن كتبوا على لسان ابن الزبير :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله بن الزبير إلى المهلب بن أبي صفرة ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن الحارث بن عبدالله كتب إليّ أنّ الأزارقة المارقة أصابوا جُنْدًا للمسلمين كان عددهم كثيراً ، وأشرفهم كثيراً ، وذكر أنهم قد أقبلوا نحو البصرة ، وقد كنت وجهتك إلى خراسان ، وكتبت لك عليها عهداً ، وقد رأيت حيث ذكر هذه الخوارج أن تكون أنت تلي قتالهم ، فقد رجوت أن يكون ميموناً طائرك ، مباركاً على أهل مصرِك والأجر في ذلك أفضل من المسير إلى خراسان ، فسر إليهم راشداً ، فقاتل عدوّ الله وعدوك ، ودافع عن حقك وحقوق أهل مصرِك ، فإنه لن يفوتك من سلطانتنا خراسان ولا غير خراسان إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله .

فأتى بذلك الكتاب ، فلما قرأه قال : فإني والله لا أسير إليهم إلا أن تجعلوا لي ما غلبت عليه ، وتُعْطُونِي من بيت المال ما أقوى به من معي ، وأنتخب من فُرسان الناس ووجوهم وذوي الشرف من أحببت ؛ فقال جميع أهل البصرة : ذلك لك ؛ قال : فاكتبوا لي على الأُخماس بذلك كتاباً ففعلوا ، إلا ما كان من مالك بن مسمع وطائفة من بكر بن وائل ، فاضطغنها عليهم المهلب ، وقال الأحنف وعبيدالله بن زياد بن ظبيان وأشرف أهل البصرة للمهلب : وما عليك ألا يكتب لك مالك بن مسمع ولا من تابعه من أصحابه ، إذا أعطاك الذي أردت من ذلك جميع أهل البصرة ! ويستطيع مالك خلاف جماعة الناس أوله ذلك ! انكمش أيها الرجل ، واعزم على أمرِك ، وسر إلى عدوك ؛ ففعل ذلك المهلب ، وأمر على الأُخماس ، فأمر عبيدالله بن زياد بن ظبيان على خمس بكر بن وائل ، وأمر الحريش بن هلال السعدي على خمس بني تميم ، وجاءت الخوارج حتى انتهت إلى الجسر الأصغر ، عليهم عبيدالله بن الماحوز ، فخرج إليهم في أشرف الناس وفُرسانهم ووجوهم ، فحازهم عن الجسر ، ودفعهم عنه ، فكان أول شيء دفعهم عنه أهل البصرة ، ولم يكن بقي لهم إلا أن يدخلوا ؛ فارتفعوا إلى الجسر الأكبر . ثم إنه عبأ لهم ، فسار إليهم في الخيل والرّجال ، فلما أن رأوا أن قد أظّل عليهم ، وانتهى إليهم ، ارتفعوا فوق ذلك مرحلة أخرى ، فلم يزل يحوزهم ويرفعهم مرحلة بعد مرحلة ، ومنزلة بعد منزلة ، حتى انتهوا إلى منزل من منازل الأهواز يقال له سَلَى وسَلْبَرَى ، فأقاموا به ؛ ولما بلغ حارثة بن بدر الغداني أن المهلب قد أمر على قتال الأزارقة ، قال لمن معه من الناس :

كَرَّيْبُوا وَذُولِبُوا وَحَيْثُ شَتَّمْتُمْ فَأَذْهَبُوا
قَدْ أُمِّرَ الْمَهْلَبُ

فأقبل من كان معه نحو البصرة ، فصرفهم الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة إلى المهلب ؛ ولما نزل المهلب بالقوم خَنَدَقَ عليه ، ووضع المسالِحَ ، وأذكى العيون ، وأقام الأحراس ، ولم يزل الجندُ على مصافِّهم ، والناس على راياتهم وأخماسهم ، وأقواب الخنادق عليها رجال موكلون بها ، فكانت الخوارج إذا أرادوا بَيَاتَ المهلب وجدوا أمراً مُحْكَمًا ، فرجعوا ، فلم يقاتلهم إنسانٌ قطَّ كان أشدَّ عليهم ولا أغيظَ لقلوبهم منه .

قال أبو مخنف : فحدَّثني يوسف بن يزيد ، عن عبدالله بن عوف بن الأحمر ، أن رجلاً كان في تلك الخوارج حدَّته أنَّ الخوارج بعثت عبيدة بن هلال والزبير بن الماحوز في خيلين عظيمين ليلاً إلى عسكر المهلب ، فجاء الزبير من جانبه الأيمن ، وجاء عبيدة من جانبه الأيسر ، ثم كبروا وصاحوا بالناس ، فوجدوهم على تعبيتهم ومصافِّهم خَلاَءَ مُغْذَّيْن ، فلم يصيبوا للقوم غرَّةً ، ولم يظفروا منهم بشيء ، فلما ذهبوا ليرجعوا ناداهم عبيدُالله بن زياد بن ظُبَيَّان فقال :

وَجَدْتُمُونَا وَقُرّاً أَنْجَادَا لَا كُشْفَاً خُوراً وَلَا أَوْغَادَا

هيهات ! إنا إذا صيَحَ بنا أَتَيْنَا ، يا أهل النار ، ألا ابكروا إليها غداً ، فإنها مأواكم ومثواكم ؛ قالوا : يا فاسق ، وهل تُدْخِرُ النار إلا لك ولأشباهك ! إنها أعدت للكافرين وأنت منهم ؛ قال : أسمعوني ! كلُّ مملوك لي حرٌّ إن دخلتم أنتم الجنة إن بقيَ فيما بين سَفَوَانِ إلى أقصى حجر من أرض خُراسانَ مجوسياً ينكح أمه وابنته وأخته إلا دخلها ؛ قال له عبيدة : اسكت يا فاسق فإنما أنت عبد للجبَّار العنيد ، ووزيرٌ للظالم الكفور ؛ قال : يا فاسق ، وأنت عدوُّ المؤمن التقيِّ ، ووزير الشيطان الرجيم ؛ فقال الناس لابن ظُبَيَّان : وفَّقك الله يابن ظُبَيَّان ؛ فقد والله أجبتُ الفاسق بجوابه ، وصَدَّقته . فلما أصبح الناس أخرجهم المهلب على تعبيتهم وأخماسهم ، ومواقفهم الأزد ، وتميم ميمنة الناس ، وبكر بن وائل وعبد القيس ميسرة الناس ، وأهل العالية في القلب وسط الناس .

وخرجت الخوارج على ميمنتهم عبيدة بن هلال اليشكري ، وعلى ميسرتهم الزبير بن الماحوز ، وجاؤوا وهم أحسن عُدةً ، وأكرم خيولاً ، وأكثر سلاحاً من أهل البصرة ؛ وذلك لأنهم تَخَرَّوا الأرض وجرَّدوها ، وأكلوا ما بين كَرْمان إلى الأهواز فجاؤوا عليهم مَغَافِرُ تَضْرِبُ إلى صدورهم ، وعليهم دُرُوعٌ يَسْحَبُونَهَا ، وسوق من زَرَدٍ يَشْدُونَهَا بكلاليب الحديد إلى مناطقهم ، فالتقى الناس فاقتتلوا كأشدَّ القتال ، فصبر بعضهم عامَّةَ النهار . ثم إنَّ الخوارج شَدَّتْ على الناس بأجمعها شدةً منكراً فأجفل الناس وانصاعوا منهزمين لا تلوى أمٌّ على ولد حتى بلغ البصرة هزيمة الناس ، وخافوا السَّيَاءَ ، وأسرع المهلب حتى سبقهم إلى مكان يَفَاعُ في جانب عن سنن المنهزمين .

ثم إنه نادى الناس : إِلَيَّ إِلَيَّ عبادَ الله ، فثاب إليه جماعة من قومه ، وثابت إليه سَرِيَّةُ عُمَّانِ فاجتمع إليه منهم نحو من ثلاثة آلاف ، فلما نظر إلى مَنْ قد اجتمع رضي جماعتهم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم

في الطريق والآخاذ والقريّ ، والحمد لله رب العالمين ، والسلام عليك ورحمة الله .
فلما أتى هذا الكتابُ الحارثُ بن عبدالله بن أبي ربيعة بعثَ به إلى الزبير فقرأه على الناس ،
بمكة .

وكتب الحارث بن أبي ربيعة إلى المهلب :

أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، تذكر فيه نصر الله إليك ، وظفر المسلمين فهنيئاً لك يا أخا الأزد
بشرف الدنيا وعزّها ، وثواب الآخرة وفضلها ، والسلام عليك ورحمة الله .
فلما قرأ المهلب كتابه ضحك ثم قال : أما تظنونه يعرفني إلا بأخي الأزد! ما أهل مكة إلا
أعراب .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو المُخارق الراسبيّ أن أبا علقمة اليحمديّ قاتلَ يوم سِلى وسلبرى
قتالاً لم يقاتله أحدٌ من الناس ؛ وأنه أخذ ينادي في شباب الأزد وفتيان اليحمّد : أعيرونا جماجمكم
ساعةً من نهار ؛ فأخذ فتیان منهم يكرّون ، فيقاتلون ثم يرجعون إليه ؛ يضحكون ويقولون : يا أبا
علقمة ، القدورُ تُستعار! فلما ظهر المهلب ورأى من بلاته ما رأى وقاه مائة ألف .

وقد قيل : إنّ أهل البصرة قد كانوا سألوا الأحنف قبل المهلب أن يقاتل الأزارقة ، وأشار عليهم
بالمهلب ، وقال : هو أقوى على حربهم مني ، وإن المهلب إذ أجابهم إلى قتالهم شرط على أهل
البصرة أنّ ما غلب عليه من الأرض فهو له ولمن خفّ معه من قومه وغيرهم ثلاث سنين ، وأنه ليس
لمن تخلف عنه منه شيء . فأجابوه إلى ذلك ، وكتب بذلك عليهم كتاباً ، وأوفدوا بذلك وفدًا إلى ابن
الزبير .

وإن ابن الزبير أمضى تلك الشروط كلّها للمهلب وأجازها له ، وإنّ المهلب لما أجيب إلى ما
سأل وجه ابنه حبيباً في ستمائة فارس إلى عمرو القنا ، وهو معسكر خلف الجسر الأصغر في ستمائة فارس ، فأمر
المهلب بعقد الجسر الأصغر ، فقطع حبيب الجسر إلى عمرو ومنّ معه ؛ فقاتلهم حتى نفاهم عما بين الجسر ،
وانهمزوا حتى صاروا من ناحية الفرات ، وتجهّز المهلب فيمن خفّ من قومه معه ، وهم اثنا عشر ألف رجل ، ومن
سائر الناس سبعون رجلاً ، وسار المهلب حتى نزل الجسر الأكبر ، وعمرو القنا بإزائه في ستمائة . فبعث
المغيرة بن المهلب في الخيل والرّجال ، فهزمتهم الرّجال بالنبل - واتبعتهم الخيل ، وأمر المهلب بالجسر فعقد ،
فعبّر هو وأصحابه ، فلحق عمرو القنا حينئذٍ بابن الماحوز وأصحابه ؛ وهو بالفتح ، فأخبروهم الخبر ، فساروا
فحسروا دون الأهواز بثمانية فراسخ ، وأقام المهلب بقية سنته ، فجبى كور دجلة ، ورزق أصحابه ؛
وأتاه المدد من أهل البصرة لما بلغهم ذلك ؛ فأثبتهم في الديوان وأعطاهم حتى صاروا ثلاثين ألفاً .

قال أبو جعفر : فعلى قول هؤلاء كانت الوقعة التي كانت فيها هزيمة الأزارقة وارتحالهم عن
نواحي البصرة والأهواز إلى ناحية أصبهان وكرمان في سنة ست وستين . وقيل : إنهم ارتحلوا عن
الأهواز وهم ثلاثة آلاف ، وإنه قتل منهم في الوقعة التي كانت بينهم وبين المهلب بسلى وسلبرى سبعة
آلاف .

في الطريق والآخاذ والقريّ ، والحمد لله رب العالمين ، والسلام عليك ورحمة الله .
فلما أتى هذا الكتابُ الحارثُ بن عبدالله بن أبي ربيعة بعثَ به إلى الزبير فقرأه على الناس ،
بمكة .

وكتب الحارث بن أبي ربيعة إلى المهلب :

أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، تذكر فيه نصر الله إليك ، وظفر المسلمين فهنيئاً لك يا أخا الأزد
بشرف الدنيا وعزّها ، وثواب الآخرة وفضلها ، والسلام عليك ورحمة الله .
فلما قرأ المهلب كتابه ضحك ثم قال : أما تظنونه يعرفني إلا بأخي الأزد! ما أهل مكة إلا
أعراب .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو المُخارق الراسبيّ أن أبا علقمة اليحمديّ قاتلَ يوم سِلى وسلبرى
قتالاً لم يقاتله أحدٌ من الناس ؛ وأنه أخذ ينادي في شباب الأزد وفتيان اليحمّد : أعيروننا جماً بكم
ساعةً من نهار ؛ فأخذ فتیان منهم يكرّون ، فيقاتلون ثم يرجعون إليه ؛ يضحكون ويقولون : يا أبا
علقمة ، القدورُ تُستعار! فلما ظهر المهلب ورأى من بلاتة ما رأى وقاه مائة ألف .

وقد قيل : إنّ أهل البصرة قد كانوا سألوا الأحنف قبل المهلب أن يقاتل الأزارقة ، وأشار عليهم
بالمهلب ، وقال : هو أقوى على حربهم مني ، وإن المهلب إذ أجابهم إلى قتالهم شرط على أهل
البصرة أنّ ما غلب عليه من الأرض فهو له ولمن خفّ معه من قومه وغيرهم ثلاث سنين ، وأنه ليس
لمن تخلف عنه منه شيء . فأجابوه إلى ذلك ، وكتب بذلك عليهم كتاباً ، وأوفدوا بذلك وفدًا إلى ابن
الزبير .

وإن ابن الزبير أمضى تلك الشروط كلّها للمهلب وأجازها له ، وإنّ المهلب لما أجيب إلى ما
سأل وجه ابنه حبيباً في ستمائة فارس إلى عمرو القنا ، وهو معسكر خلف الجسر الأصغر في ستمائة فارس ، فأمر
المهلب بعقد الجسر الأصغر ، فقطع حبيب الجسر إلى عمرو ومَن معه ؛ فقاتلهم حتى نفاهم عما بين الجسر ،
وانهزموا حتى صاروا من ناحية الفُرات ، وتجهّز المهلب فيمن خفّ من قومه معه ، وهم اثنا عشر ألف رجل ، ومن
سائر الناس سبعون رجلاً ، وسار المهلب حتى نزل الجسر الأكبر ، وعمرو القنا بإزائه في ستمائة . فبعث
المغيرة بن المهلب في الخيل والرّجال ، فهزمتهم الرّجال بالنبل - واتبعتهم الخيل ، وأمر المهلب بالجسر فعقد ،
فعبّر هو وأصحابه ، فلحق عمرو القنا حينئذٍ بابن الماحوز وأصحابه ؛ وهو بالفتح ، فأخبروهم الخبر ، فساروا
فعمسكروا دون الأهواز بثمانية فراسخ ، وأقام المهلب بقية سنته ، فجبى كُور دجلة ، ورزق أصحابه ؛
وأتاه المدد من أهل البصرة لما بلغهم ذلك ؛ فأثبتهم في الديوان وأعطاهم حتى صاروا ثلاثين ألفاً .

قال أبو جعفر : فعلى قول هؤلاء كانت الوقعة التي كانت فيها هزيمة الأزارقة وارتحالهم عن
نواحي البصرة والأهواز إلى ناحية أصبّهان وكرمان في سنة ست وستين . وقيل : إنهم ارتحلوا عن
الأهواز وهم ثلاثة آلاف ، وإنه قتل منهم في الوقعة التي كانت بينهم وبين المهلب بسلى وسلبرى سبعة
آلاف .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة وجّه مروان بن الحكم قبل مهلكه ابنه محمداً إلى الجزيرة ، وذلك قبل مسيره إلى مصر .

وفي هذه السنة عزل عبدالله بن الزبير عبدالله بن يزيد عن الكوفة ، وولّاها عبدالله بن مطيع ، ونزع عن المدينة أخاه عبيدة بن الزبير ، وولّاها أخاه مصعب بن الزبير ، وكان سبب عزله أخاه عبيدة عنها أنه - فيما ذكر الواقدي - خطب الناس فقال لهم : قد رأيتم ما صنّع بقوم في ناقة قيمتها خمسمائة درهم ، فسُمّيَ مقومُ الناقة ؛ وبلغ ذلك ابن الزبير فقال : إنّ هذا لهو التكلف .

وفي هذه السنة بنى عبدالله بن الزبير البيت الحرام ، فأدخل الحجر فيه .

أخبرنا إسحاق بن أبي إسرائيل ، قال : حدّثني عبدالعزيز بن خالد بن رستم الصنعانيّ أبو محمد ، قال : حدّثني زياد بن جيل أنه كان بمكة يوم غلب ابن الزبير ، فسمعه يقول : إنّ أمي أسماء بنت أبي بكر حدّثني أنّ رسولَ الله ﷺ قال لعائشة : لولا حادثُ عهد قومك بالكفر رددت الكعبة على أسس إبراهيم ؛ فأزيد في الكعبة من الحجر . فأمر به ابن الزبير فحفر ، فوجدوا قلاعاً أمثال الإبل ، فحركوا منها صخرة ، فبرقت بارقة فقال : أقرّوها على أساسها ، فبناها ابن الزبير ، وجعل لها بابين : يُدخل من أحدهما ويُخرج من الآخر .

قال أبو جعفر : وحجّ بالناس في هذه السنة عبدالله بن الزبير ، وكان على المدينة أخوه مصعب بن الزبير ، وعلى الكوفة في آخر السنة عبدالله بن مطيع ، وعلى البصرة الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي ؛ وهو الذي يقال له القُبّاع . وعلى قضائها هشام بن هُبيرة ، وعلى خراسان عبدالله بن خازم .

وفي هذه السنة خالف من كان بخراسان من بني تميم عبدالله بن خازم حتى وقعت بينهم حرب .

ذكر الخبر عن سبب ذلك :

وكان السبب في ذلك - فيما ذكر - أن من كان بخراسان من بني تميم أعانوا عبدالله بن خازم على من كان بها من ربيعة ، وعلى حرب أوُس بن ثعلبة حتى قتل من قتل منهم ، وظفّر به ؛ وصفا له خراسان ، فلما صفا له ولم ينازعه به أحد جفاهم . وكان قد ضمّ هَراة إلى ابنه محمد واستعمله عليها ؛ وجعل بكير بن وشاح على شُرطته ، وضمّ إليه شماس بن دثار العطاردي ؛ وكانت أمّ ابنه محمد امرأة من تميم تدعى صفية ، فلما جفا ابن خازم بني تميم أتوا ابنه محمداً بهَراة فكتب ابن خازم إلى بكير وشماس يأمرهما بمنع بني تميم من دخول هَراة ؛ فأما شماس بن دثار فأبى ذلك ، وخرج من هَراة ، فصار من بني تميم ، وأما بكير فمنعهم من الدخول .

فذكر عليّ بن محمد أن زهير بن الهنيد حدّثه أن بكير بن وشاح لما منع بني تميم من دخول هَراة أقاموا ببلاد هَراة ، وخرج إليهم شماس بن دثار فأرسل بكير إلى شماس : إني أعطيك ثلاثين ألفاً ، وأعطي كلّ رجل من بني تميم ألفاً على أن ينصرفوا ، فأبوا ، فدخلوا المدينة ، وقتلوا محمد بن عبدالله بن خازم . قال عليّ : فأخبرنا الحسن بن رُشيد ، عن محمد بن عزيز الكنديّ قال : خرج

محمد بن عبدالله بن خازم يتصيد بهرة ، وقد منع بني تميم من دخولها ، فرصدوه ، فأخذوه فشدّوه وثاقاً ، وشربوا ليلتهم ، وجعل كلّمًا أراد رجل منهم البول بال عليه ، فقال لهم شماس بن دثار : أما إذ بلغت هذا منه فاقتلوه بصاحبكما اللذين قتلها بالسياط . قال : وقد كان أخذ قبيل ذلك رجلين من بني تميم ، فضربهما بالسياط حتى ماتا . قال : فقتلوه ، قال : فزعم لنا عمّن شهد قتله من شيوخهم أن جيهان بن مشجعة الضبيّ نهاهم عن قتله ، وألقى نفسه عليه ، فشكر له ابن خازم ذلك ، فلم يقتله فيمن قتل يوم قرّنا . قال : فزعم عامر بن أبي عمر أنه سمع أشياخهم من بني تميم يزعمون أن الذي ولى قتل محمد بن عبدالله بن خازم رجلان من بني مالك بن سعد ، يقال لأحدهما : عَجَد ، وللآخر كُسيب . فقال ابن خازم : بش ما اكتسب كُسيب لقومه ، ولقد عجل عَجلة لقومه شراً .

قال عليّ : حدّثنا أبو الدّيال زهير بن هنيّد العدويّ ، قال : لما قتل بنو تميم محمد بن عبدالله بن خازم انصرفوا إلى مَرُو ، فطلبهم بُكير بن وشاح فأدرك رجلاً من بني عطارديّ يقال له شُمَيْخ ؛ فقتله ، وأقبل شماس وأصحابه إلى مَرُو ، فقالوا لبني سعد : قد أدركنا لكم بثأركم ؛ فقتلنا محمد بن عبدالله بن خازم بالجشمي الذي أصيب بمَرُو ، فأجمعوا على قتال ابن خازم ، وولّوا عليهم الحريش بن هلال القرعيّ .

قال : فأخبرني أبو الفوارس عن طُفيل بن مرداس ، قال : أجمع أكثر بني تميم على قتال عبدالله بن خازم ، قال : وكان مع الحريش فرسان لم يدرك مثلهم ؛ إنما الرجل منهم كتيبة ؛ منهم شماس بن دثار ، وبجير بن ورقاء الصُريمي ؛ وشعبة بن ظهير النهشليّ ، ووَرْد بن الفلق العبّري ، والحجاج بن ناشب العدويّ - وكان من أرمى الناس - وعاصم بن حبيب العدويّ ، فقاتل الحريش بن هلال عبدالله بن خازم سنتين .

قال : فلمّا طالت الحرب والشرّ بينهم ضجّروا ، قال فخرج الحريش فنادى ابن خازم ، فخرج إليه فقال : قد طالت الحرب بيننا ؛ فعلاّم تقتل قومي وقومك ! ابرز لي ، فأبنا قتل صاحبه صارت الأرض له ؛ فقال ابن خازم : وأبيك لقد أنصفتني ؛ فبرز له ، فتصاولا تصاولَ الفحلين ، لا يقدر أحدُ منهما على ما يريد . وتغفّل بن خازم غفلة ، وضربه الحريش على رأسه ، فرمى بفروة رأسه على وجهه ، وانقطع ركابا الحريش ، وانتزع السيف . قال : فلزم ابن خازم عُنق فرسه راجعاً إلى أصحابه وبه ضربة قد أخذت من رأسه ، ثم غاداهم القتال ، فمكثوا بذلك بعد الضربة أيّاماً ؛ ثم ملّ الفريقان فتفرّقوا ثلاث فرّق ؛ فمضى بحير بن ورقاء إلى أبرشهر في جماعة ، وتوجّه شماس بن دثار العطارديّ ناحية أخرى ، وقيل : أتى سجستان ، وأخذ عثمان بن بشر بن المحتفز إلى قرّنا ، فنزل قصرأ بها ، ومضى الحريش إلى ناحية مَرُو الرّوذ - فاتبعه ابن خازم ؛ فلحقه بقرية من قرأها يقال لها قرية الملحمة - أو قصر الملحمة - والحريش بن هلال في اثني عشر رجلاً ؛ وقد تفرّق عنه أصحابه ؛ فهم في خربة ؛ وقد نصب رماحاً كانت معه وترّسة .

قال : وانتهى إليه ابن خازم ؛ فخرج إليه في أصحابه ، ومع ابن خازم مولى له شديد البأس ،

فحمل على الحريش فضربه فلم يصنع شيئاً ، فقال رجل من بني ضَبَّة للحريش : أما ترى ما يصنع العبد ! فقال له الحريش : عليه سلاح كثير ، وسيفي لا يعمل في سلاحه ، ولكن انظر لي خشبة ثقيلة ؛ فقطع له عوداً ثقيلاً من عُنَاب - ويقال : أصابه في القصر - فأعطاه إِيَّاه ؛ فحمل به على مولى ابن خازم ؛ فضربه فسقط وَقِيداً . ثم أقبل على ابن خازم ؛ فقال : ما تريد إليّ وقد خلّيتك والبلاد ! قال : إنك تعود إليها ، قال : فلإني لا أعود ، فصالحه على أن يخرج له من خُراسان ولا يعود إلى قتاله ، فوصله ابن خازم بأربعين ألفاً . قال : وفتح له الحريش باب القصر ، فدخل ابن خازم ، فوصله وضمن له قضاء دينه ، وتحدّثا طويلاً . قال : وطارت قُطْنة كانت على رأس ابن خازم مُلصقة على الضربة التي كان الحريش ضربه ، فقام الحريش فتناولها ، فوضعها على رأسه ، فقال له ابن خازم : مَسْك اليوم يا أبا قُدّامة ألّين من مَسْك أمس ، قال : معذرة إلى الله وإليك ؛ أما والله لولا أن ركابي انقطعاً لخالط السيف أضراسك ، فضحك ابن خازم ، وانصرف عنه ، وتفرّق جمع بني تميم ، فقال بعض شعراء بني تميم :

فلو كُنتُم مثلَ الحَريشِ صَبَرْتُم وكُنتُم بقصرِ المَلح خَيْرَ فوَارِسِ
إِذَا لَسَقَيْتُم بِالْعَوَالِي ابْنَ خَازِمِ سَجَالَ دَمٍ يُورِثُنْ طُولَ وَسَاوِسِ

قال : وكان الأشعث بن ذؤيب أخو زهير بن ذؤيب العدويّ قتل في تلك الحرب ، فقال له أخوه زهير وبه رَمَق : مَنْ قَتَلَكَ ؟ قال : لا أدري ؛ طعني رجل على بِرْدُون أَصْفَر ، قال : فكان زهير لا يرى أحداً على بِرْدُون أَصْفَر إلّا حمل عليه ؛ فمنهم مَنْ يقتله ، ومنهم من يهرب ؛ فتحامى أهل العسكر البراذين الصُّفْر ؛ فكانت مخلاةً في العسكر لا يركبها أحد . وقال الحريش في قتاله ابن خازم :

أَزَالَ عَظْمَ يَمِينِي عَنْ مُرْكَبِهِ حَمَلُ الرُّدَيْنِيِّ فِي الإِدْلَاجِ وَالسَّحَرِ
حَوْلَيْنِ مَا اغْتَمَضْتُ عَيْنِي بِمَنْزِلَةٍ إِلَّا وَكُفِّي وَسَادُّ لِي عَلَى حَجَرِ
بَزَى الْحَدِيدُ وَسَرْبَالِي إِذَا هَجَعْتُ عَنِّي الْعَيُونُ مِحَالُ الْقَارِحِ الذُّكْرِ

ثم دخلت سنة ست وستين

ذكر الخبر عن الكائن الذي كان فيها من الأمور الجليلة

فمما كان فيها من ذلك وثوب المختار بن أبي عبيد بالكوفة طالباً بدم الحسين بن علي بن أبي طالب وإخراجه منها عامل ابن الزبير عبد الله بن مطيع العدوي .

ذكر الخبر عما كان من أمرهما في ذلك وظهور المختار للدعوة إلى ما دعا إليه الشيعة بالكوفة :

ذكر هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ، أن فضيل بن خديج ، حدثه عن عبيدة بن عمرو وإسماعيل بن كثير من بني هند ؛ أن أصحاب سليمان بن صرد لما قدموا كتب إليهم المختار :

أما بعد ؛ فإن الله أعظم لكم الأجر ، وخط عنكم الوزر ، بمفارقة القاسطين ، وجهاد المحلين ؛ إنكم لم تنفقوا نفقة ، ولم تقطعوا عقبة ، ولم تخطوا خطوة إلا رفع الله لكم بها درجة ، وكتب لكم بها حسنة ، إلى ما لا يحصىه إلا الله من التضعيف ؛ فأبشروا فإنني لو قد خرجت إليكم قد جرّدت فيما بين المشرق والمغرب في عدوكم السيف بإذن الله ، فجعلتهم بإذن الله رُكاماً ؛ وقتلتهم فداً وتوأمّاً ؛ فرحب الله بمن قارب منكم واهتدى ؛ ولا يبعد الله إلا مَنْ عصى وأبى ؛ والسلام يا أهل الهدى .

فجاءهم بهذا الكتاب سيحان بن عمرو ، من بني ليث من عبد القيس قد أدخله في قلنسوته فيما بين الظهارة والبطانة ؛ فأق بالكتاب رفاعه بن شداد والمثنى بن محربة العبدي وسعد بن حذيفة بن اليمان ويزيد بن أنس وأحمر بن شميظ الأحسي وعبد الله بن شداد البجلي وعبد الله بن كامل ؛ فقرأ عليهم الكتاب ؛ فبعثوا إليه ابن كامل ؛ فقالوا : قل له : قد قرأنا الكتاب ؛ ونحن حيث يسرك ؛ فإن شئت أن نأتيك حتى نخرجك فعلنا . فأتاه ، فدخل عليه السجن ؛ فأخبره بما أرسل إليه به ؛ فسُرّ باجتماع الشيعة له ؛ وقال لهم : لا تريدوا هذا ؛ فإني أخرج في أيامي هذه .

قال : وكان المختار قد بعث غلاماً يُدعى زريباً إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وكتب إليه :

أما بعد ؛ فإني قد حبست مظلوماً ، وطنّ بي الولاة ظنوناً كاذبة ؛ فاكتب فيّ يرحمك الله إلى هذين الظالمين كتاباً لطيفاً ؛ عسى الله أن يخلصني من أيديهما بلطفك وبركتك ويمنك ؛ والسلام عليك .

فكتب إليهما عبد الله بن عمر :

أما بعد ؛ فقد علمتُمَا الذي بيني وبين المختار بن أبي عبيد من الصهر ، والذي بيني وبينكما من الود ؛ فأقسمت عليكما بحق ما بيني وبينكما لما خلتما سبيله حين تنظران في كتابي هذا ، والسلام عليكما ورحمة الله .

فلما أتى عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة كتاب عبد الله بن عمر دعوا للمختار بكفلاء يضمّنونه بنفسه ، فأتاه أناس من أصحابه كثير ، فقال يزيد بن الحارث بن يزيد بن رؤيم لعبد الله بن يزيد : ما تصنع بضمان هؤلاء كلهم ! ضمّنه عشرة منهم أشرفاً معروفين ، ودع سائرهم . ففعل ذلك ، فلما ضمّنوه ، دعا به عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة فحلّاه بالله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم ؛ لا يبيغيهما غائلة ، ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان ؛ فإن هو فعل فعليه ألف بدنة ينحرها لدى رتاج الكعبة ؛ وماليك كلهم ذكرهم وأنشاهم أحرار . فحلف لهما بذلك ، ثم خرج فجاء داره فنزها .

قال أبو مخنف : فحدثني يحيى بن أبي عيسى ، عن حميد بن مسلم ، قال : سمعت المختار بعد ذلك يقول : قاتلهم الله ! ما أحققهم حين يرونني أفي لهم بأيمانهم هذه ! أمّا حلفي لهم بالله ؛ فإنه ينبغي لي إذا حلفت على يمين فرأيت ما هو خير منها أن أدع ما حلفت عليه وآتي الذي هو خير ؛ وأكفر يميني ، وخروجي عليهم خير من كفي عنهم ؛ وأكفر يميني ؛ وأمّا هذي ألف بدنة فهو أهون عليّ من بصفة ؛ وما ثمن ألف بدنة فيهنولي ! وأمّا عتق ممالئكي فوالله لوددت أنه قد استتب لي أمري ، ثم لم أملك مملوكاً أبداً .

قال : ولما نزل المختار داره عند خروجه من السجن ، اختلف إليه الشيعة واجتمعت عليه ؛ واتفق رأيها على الرضا به ، وكان الذي يبايع له الناس وهو في السجن خمسة نفر : السائب بن مالك الأشعري ، ويزيد بن أنس ، وأحمر بن شميطة ، ورفاعة بن شداد الفتياني ، وعبد الله بن شداد الجشمي . قال : فلم تزل أصحابه يكثررون ، وأمره يقوى ويشتد حتى عزل ابن الزبير عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة ، وبعث عبد الله بن مطيع على عملهما إلى الكوفة .

قال أبو مخنف : فحدثني الصّقعب بن زهير ، عن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، قال : دعا ابن الزبير عبد الله بن مطيع أخا بني عديّ بن كعب والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي ؛ فبعث عبد الله بن مطيع على الكوفة ، وبعث الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة على البصرة . قال فبلغ ذلك بحير بن ريسان الحميري ؛ فلقّيهما ، فقال لهما : يا هذان ؛ إن القمر الليلة بالناطح ، فلا تسيرا . فأما ابن أبي ربيعة ؛ فأطاعه ؛ فأقام يسيراً ثم شخص إلى عمله فسلم ؛ وأمّا عبد الله بن مطيع فقال له : وهل نطلب إلا النّطح ! قال : فلقني والله نطحاً وبطحاً ، قال : يقول عمر : والبلاء موكل بالقول .

قال عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام : بلغ عبد الملك بن مروان أنّ ابن الزبير بعث عمالاً على البلاد ؛ فقال : من بعث على البصرة ؟ فقليل : بعث عليها الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة ؛ قال : لا حُرّ بوادي عوف ، بعث عوفاً وجلس ! ثم قال : من بعث على الكوفة ؟ قالوا : عبد الله بن مطيع ، قال : حازم وكثيراً ما يسقط ، وشجاع وما يكره أن يفرّ ، قال : من بعث على المدينة ؟ قالوا : بعث أخاه مُصعب بن الزبير ، قال : ذاك اللئيم النّهد ، وهو رجل أهل بيته .

قال هشام : قال أبو مخنف : وقديم عبد الله بن مطيع الكوفة في رمضان سنة خمس وستين يوم الخميس لخمس بقين من شهر رمضان ، فقال لعبد الله بن يزيد : إن أحببت أن تقيم معي أحسنّت صحبتك ، وأكرمت مثواك ؛ وإن لحقت بأمر المؤمنين عبد الله بن الزبير فبك عليه كرامة ، وعلى من قبله من المسلمين . وقال لإبراهيم بن محمد بن طلحة : الحق بأمر المؤمنين ؛ فخرج إبراهيم حتى قدم المدينة ، وكسر على ابن الزبير

الخراج ؛ وقال : إنما كانت فتنة ؛ فكف عنه ابن الزبير .

قال : وأقام ابن مطيع على الكوفة على الصلاة والخراج ؛ وبعث على شرطته إياس بن مضارب العجلي ، وأمره أن يحسن السيرة والشدة على المريب .

قال أبو مخنف : فحدثني حصيرة بن عبدالله بن الحارث بن دريد الأزدي - وكان قد أدرك ذلك الزمان ، وشهد قتل مُصعب بن الزبير - قال : إني لشاهد المسجد حيث قدم عبدالله بن مطيع ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، قال : أما بعد ؛ فإن أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير بعثني على مصركم وثغوركم ، وأمرني بجباية فيثكم ؛ وألا أحمل فضل فيثكم عنكم إلا برضاً منكم ، ووصية عمر بن الخطاب التي أوصى بها عند وفاته ، وبسيرة عثمان بن عفان التي سار بها في المسلمين ؛ فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا ، وخذوا على أيدي سفهائكم ؛ وألا تفعلوا فلوهموا أنفسكم ولا تلوموني ؛ فوالله لأوقعن بالسقيم العاصي ؛ ولأقيمن ذرء الأصعر المرتاب . فقام إليه السائب بن مالك الأشعري ، فقال : أما أمر ابن الزبير إياك ألا تحمل فضل فيثنا عنا إلا برضانا فإننا نشهدك أننا لا نرضى أن تحمل فضل فيثنا عنا ؛ وألا يقسم إلا فينا ، وألا يسار فينا إلا بسيرة علي بن أبي طالب التي سار بها في بلادنا هذه حتى هلك رحمة الله عليه ، ولا حاجة لنا في سيرة عثمان في فيثنا ولا في أنفسنا ؛ فإنها إنما كانت أثره وهوى ، ولا في سيرة عمر بن الخطاب في فيثنا ؛ وإن كانت أهون السيرتين علينا ضرراً ؛ وقد كان لا يالو الناس خيراً . فقال يزيد بن أنس : صدق السائب بن مالك وبر ، رأينا مثل رأيه ، وقولنا مثل قوله . فقال ابن مطيع : نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها وهويتموها ثم نزل . فقال : يزيد بن أنس الأسدي : ذهبت بفضلها يا سائب ؛ لا يعدمك المسلمون ! أما والله لقد قممت وإني لأريد أن أقوم فأقول له نحواً من مقالتي ، وما أحب أن الله ولي الرد عليه رجلاً من أهل المصر ليس من شيعتنا .

وجاء إياس بن مضارب إلى ابن مطيع ، فقال له : إن السائب بن مالك من رؤوس أصحاب المختار ، ولست آمن المختار ؛ فابعث إليه فليأتك ؛ فإذا جاءك فاحبسه في سجنك حتى يستقيم أمر الناس ؛ فإن عيوني قد أتتني فخبرتني أن أمره قد استجمع له ؛ وكأنه قد وثب بالمصر . قال : فبعث إليه ابن مطيع زائدة بن قدامة وحسين بن عبدالله البرسمي من همدان ، فخدلا عليه ، فقالا : أجب الأمير ، فدعا بشيابه وأمر بإسراج دابته . وتحشش للذهاب معها ؛ فلما رأى زائدة بن قدامة ذلك قرأ قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (١) ، ففهمها المختار ، فجلس ثم ألقى ثيابه عنه ، ثم قال : ألقوا علي القطيفة ؛ ما أراني إلا قد وعكت ؛ إني لأجد قفقة شديدة ، ثم تمثّل قول عبد العزى بن صهل الأزدي :

إِذَا مَا مَعْشَرٌ تَرَكُوا نَدَاهُمْ وَلَمْ يَأْتُوا الْكَرِيهَةَ لَمْ يُهَابُوا

ارجعوا إلى ابن مطيع ، فأعلمناه حالي التي أنا عليها . فقال له زائدة بن قدامة : أما أنا ففاعل ؛ فقال : وأنت يا أخا همدان فاعذرني عنده فإنه خير لك .

قال أبو مخنف : فحدثني إسماعيل بن نعيم الهمداني ، عن حسين بن عبدالله ، قال : قلت في نفسي : والله إن أنا لم أبلغ عن هذا ما يرضيه ما أنا بآمن من أن يظهر غداً فيهلكني . قال : فقلت له ، نعم ،

أنا أضع عند ابن مطيع عذرَكَ ، وأبلغه كلَّ ما تحبُّ ؛ فخرجنا من عنده ؛ فإذا أصحابه على بابهِ ، وفي دارهِ منهم جماعة كثيرة . قال : فأقبلنا نحو ابن مطيع ، فقلنا لزائدة بن قدامة : أما إني قد فهمت قولكَ حين قرأت تلك الآية ؛ وعلمت ما أردتَ بها ، وقد علمت أنها هي ثبُطته عن الخروج معنا بعد ما كان قد لبس ثيابه ، وأسرج دابَّته ؛ وعلمتُ حين تمثَّل البيت الذي تمثَّل إنما أراد يخبركَ أنه قد فهم عنكَ ما أردتَ أن تُفهمه ، وأنه لن يأتيه . قال : فجاحدني أن يكون أراد شيئاً من ذلك ؛ فقلت له : لا تحلف ؛ فوالله ما كنت لأبُلع عنكَ ولا عنه شيئاً تكرهانه ؛ ولقد علمت أنَّكَ مشفق عليه ، تجد له ما يجد المرء لابن عمه . فأقبلنا إلى ابن مطيع ؛ فأخبرناه بعُلتِه وشكواه ؛ فصدَّقنا ولها عنه .

قال : وبعث المختار إلى أصحابه ؛ فأخذ يجمعهم في الدُّور حوله ، وأراد أن يشب بالكوفة في المحرَّم ؛ فجاء رجل من أصحابه من شَبَّام - وكان عظيمَ الشرف يقال له عبدالرحمن بن شريح - فلقي سعيد ابن منقذ الثوريَّ وسُعر بن أبي سَعر الحنفيَّ والأسود بن جرَّاد الكندي وقدامة بن مالك الجشمي ؛ فاجتمعوا في منزل سَعر الحنفي ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد ؛ فإنَّ المختار يريد أن يخرج بنا ، وقد بايعناه ولا ندرِي أرسله إلينا ابن الحنفية أم لا ؛ فانهمضوا بنا إلى ابن الحنفية فلنخبره بما قدم علينا به وبما دَعانا إليه ؛ فإنَّ رخصَ لنا في أتباعه اتَّبعناه ؛ وإنَّ نهانا عنه اجتنبناه ؛ فوالله ما ينبغي أن يكون شيءٌ من أمر الدنيا أثرَ عندنا من سلامة ديننا . فقالوا له : أرشدك الله ! فقد أصبت ووفَّقت ؛ اخرج بنا إذا شئت . فأجمع رأيهم على أن يخرجوا من أيَّامهم ، فخرجوا ، فلاحقوا بابن الحنفية ؛ وكان إمامهم عبدُ الرحمن بن شريح ، فلما قدموا عليه سألهم عن حال النَّاس فخبَّروه عن حالهم وما هم عليه .

قال أبو مخنف : فحدَّثني خليفة بن ورقاء ، عن الأسود بن جرَّاد الكندي قال : قلنا لابن الحنفية ؛ إنَّ لنا إليك حاجةٌ ؛ قال : فسَرَّ هي أم علانية ؟ قال : قلنا : لا ؛ بل سرٌّ ، قال : فرويداً إذا ؛ قال : فمكث قليلاً ، ثم تنحَّى جانباً فدعانا فقمنا إليه ، فبدأ عبدالرحمن بن شريح ، فتكلَّم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ؛ فإنَّكم أهل بيت خصَّكم الله بالفضيلة ، وشرفكم بالنبوة ، وعظَّم حقكم على هذه الأمة ؛ فلا يجهل حقكم إلَّا مغبون الرأي ، مخسوس النصيب ؛ قد أصيبت بحسين رحمة الله عليه . عظمت مصيبة اختصصتم بها ، بعد ما عم بها المسلمون ، وقد قدم علينا المختار بن أبي عبيد يزعم لنا أنه قد جاءنا من تلقائكم ، وقد دعانا إلى كتاب الله وسنة نبيِّه ﷺ ؛ والطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء ؛ فبايعناه على ذلك . ثم إنَّا رأينا أن تأتيكَ فنذكر لك ما دعانا إليه ، وندبنا له ؛ فإنَّ أمرتنا باتِّباعه اتَّبعناه ، وإنَّ نهيتنا عنه اجتنبناه .

ثم تكلمنا واحداً واحداً بنحو ما تكلم به صاحبنا ؛ وهو يسمع ، حتى إذا فرغنا حمد الله وأثنى عليه ، :صَلَّى على النبي ﷺ ، ثم قال :

أما بعد ؛ فأما ما ذكرتم مما خصَّصنا الله به من فضل ؛ فإنَّ الله يؤتِيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ؛ فلله الحمد ! وأما ما ذكرتم من مصيبتنا بحُسين ؛ فإنَّ ذلك كان في الذكر الحكيم وهي ملحمة كُتبت عليه ، وكرامة أهداها الله له ، رفع بما كان منها درجات قوم عنده ، ووضع بها آخرين ، وكان أمر الله مفعولاً ، وكان

أمر الله قدراً مقدوراً . وأما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا ؛ فوالله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ؛ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

قال : فخرجنا من عنده ، ونحن نقول : قد أذن لنا ؛ قد قال : لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ، ولو كره لقال : لا تفعلوا . قال : فجئنا وأناس من الشيعة ينتظرون مقدمنا ممن كنا قد أعلمناه بمخرجنا وأطلعناه على ذات أنفسنا ؛ ممن كان على رأينا من إخواننا ؛ وقد كان بلغ المختار مخرجنا ، فشق ذلك عليه ، وخشي أن تأتيه بأمر يُخذل الشيعة عنه ؛ فكان قد أرادهم على أن ينهض بهم قبل قدومنا ؛ فلم يتهيأ ذلك له ؛ فكان المختار يقول : إن نفيراً منكم ارتابوا وتحيروا وخابوا ؛ فإن هم أصابوا أقبلوا وأنا بوا ؛ وإن هم كبوا وهابوا ، واعترضوا وانجابوا ، فقد ثبروا وخابوا ؛ فلم يكن إلا شهراً وزيادة شيء ؛ حتى أقبل القوم على رواحلهم ؛ حتى دخلوا على المختار قبل دخولهم إلى رحالهم ، فقال لهم : ما وراءكم ؟ فقد فُتِنْتُمْ وارتبتم ، فقالوا له : قد أمرنا بنصرتك فقال : الله أكبر أنا أبو إسحاق ، اجمعوا إلي الشيعة ، فجمع له منهم من كان منه قريباً فقال : يا معشر الشيعة ؛ إن نفيراً منكم أحبوا أن يعلموا مصداق ما جئت به ، فرحلوا إلى إمام الهدى ، والنجيب المرتضى ابن خیر من طشى ومشى ؛ حاشا النبي المجتبى ؛ فسألوه عما قدمت به عليكم ؛ فنبأهم أني وزيره وظهيره ، ورسوله وخليله ؛ وأمركم باتباعي وطاعتي فيما دعوتكم إليه من قتال المحلّين ، والطلب بدماء أهل بيت نبيكم المصطفين .

فقام عبدالرحمن بن شريح ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد يا معشر الشيعة ؛ فإننا قد كنا أحبينا أن نستثبت لأنفسنا خاصة ولجميع إخواننا عامة ؛ فقدّمنا على المهديّ بن علي ، فسألناه عن حربنا هذه ، وعما دعانا إليه المختار منها ، فأمرنا بمظاهرتة ومؤازرتة وإجابته إلى ما دعانا إليه ، فأقبلنا طيبة أنفسنا ، منشرحة صدورنا ، قد أذهب الله منها الشك والغُلّ والرّيب ، واستقامت لنا بصيرتنا في قتال عدونا ؛ فليبلغ ذلك شاهدكم ، غائبكم ، واستعدوا وتأهبوا . ثم جلس وقمنا رجلاً فرجلاً ؛ فتكلّمنا بنحو من كلامه ؛ فاستجمعت له الشيعة وحذبت عليه .

قال أبو مخنف : فحدثني نُمير بن وَعَلَة والمَشْرِقيّ ، عن عامر الشُّعبيّ ، قال : كنت أنا وأبي أوّل من أجاب المختار . قال : فلما تهيأ أمره ودنا خروجه ؛ قال له أحمر بن شُميط ريزيد بن أنس وعبدالله بن كامل وعبدالله بن شدّاد : إن أشراف أهل الكوفة مجتمعون على قتالك مع ابن مطيع ؛ فإن جامعنا على أمرنا إبراهيم بن الأشتر رجونا بإذن الله القوّة على عدونا ، وألا يضرنا خلاف من خالفنا ، فإنه فتى بئس ، وابن رجل شريف بعيد الصّيت ؛ وله عشيرة ذات عزّ وعدد . قال لهم المختار : فالقوّه فادعوه ، وأعلموه الذي أمرنا به من الطلب بدم الحسين وأهل بيته .

قال الشعبيّ : فخرجوا إليه وأنا فيهم ، وأبي ، فتكلّم يزيد بن أنس ، فقال له : إننا قد أتيناك في أمر نعرضه عليك ، ندعوك إليه ؛ فإن قبلته كان خيراً لك ، وإن تركته فقد أدينّا إليك فيه النصيحة ؛ ونحن نحب أن يكون عندك مستوراً . فقال لهم إبراهيم بن الأشتر : وإن مثلي لا تخاف غائلته ولا سعايته ؛ ولا التقرب إلى سلطانة باغتيال الناس ، إنما أولئك الصغار الأخطار الدّقاق هما . فقال له : إننا ندعوك إلى أمر قد أجمع عليه رأي الملا من الشيعة ؛ إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، والطلب بدماء أهل البيت ، وقتال المحلّين ،

والدفع عن الضعفاء . قال : ثم تكلم أحمربن شميظ ، فقال له : إني لك ناصح ، ولحظك محب وإن أباك قد هلك وهو سيّد الناس وفيك منه إن رعيت حقّ الله خلّفت ؛ قد دعوناك إلى أمر إن أجبتنا إليه عادت لك منزلة أبيك في الناس ، وأحييت من ذلك أمراً قد مات ؛ إنما يكفي مثلك اليسير حتى تبلغ الغاية التي لا مذهب وراءها ، إنه قد بنى لك أولك مفتخراً . وأقبل القوم كلّهم عليه يدعونه إلى أمرهم ويرغبونه فيه . فقال لهم إبراهيم بن الأشتر : فإني قد أجبتكم إلى ما دعوتوني إليه من الطلب بدم الحسين وأهل بيته ، على أن تولّوني الأمر ، فقالوا : أنت لذلك أهل ؛ ولكن ليس إلى ذلك سبيل ؛ هذا المختار قد جاءنا من قبل المهديّ ؛ وهو الرسول والمأمور بالقتال ؛ وقد أمرنا بطاعته . فسكت عنهم ابن الأشتر ولم يجبههم . فانصرفنا من عنده إلى المختار فأخبرناه بما ردّ علينا ؛ قال : فعبر ثلاثاً ؛ ثم إن المختار دعا بضعة عشر رجلاً من وجوه أصحابه - قال الشعبي : أنا وأبي فيهم - قال : فسار بنا ومضى أمامنا يقود بنا بيوت الكوفة قدّاً لا ندري أين يريد ؛ حتى وقف على باب إبراهيم بن الأشتر ؛ فاستأذننا عليه فأذن لنا ، وألقيت لنا وسائداً ؛ فجلسنا عليها وجلس المختار معه على فراشه ؛ فقال المختار :

الحمد لله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وصلى الله على محمد ، والسلام عليه ، أمّا بعد ، فإنّ هذا كتاب إليك من المهدي محمد بن أمير المؤمنين الوصيّ ؛ وهو خير أهل الأرض اليوم ، وابن خير أهل الأرض كلّها قبل اليوم بعد أنبياء الله ورسله ؛ وهو يسألك أن تنصرنا وتؤازرنا ، فإن فعلت اغتبطت ، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجة عليك ، وسيغني الله المهدي محمداً وأوليائه عنك .

قال الشعبي : وكان المختار قد دفع الكتاب إليّ حين خرج من منزله ؛ فلما قضى كلامه قال لي : ادفع الكتاب إليه ، فدفعته إليه ، فدعا بالمصباح وفَضَّ خاتمه ، وقرأه فإذا هو :

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد المهدي إلى إبراهيم بن مالك الأشتر، سلامٌ عليك ؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ؛ أما بعد فإني قد بعثت إليكم بوزيري وأميني ونجّيي الذي ارتضيته لنفسه ، وقد أمرته بقتال عدوّي والطلب بدماء أهل بيتي ؛ فانفضّ معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ؛ فإنك إن نصرتني وأجبت دعوتي وساعدت وزيري كانت لك عندي بذلك فضيلة ؛ ولك بذلك أعتة الخيل وكلّ جيش غازٍ ، وكلّ مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة أقصى بلاد أهل الشام ، على الوفاء بذلك على عهد الله ؛ فإن فعلت ذلك نلت به عند الله أفضل الكرامة ، وإن أبيت هلكت هلاكاً لا تستقبله أبداً ، والسلام عليك .

فلما قضى إبراهيم قراءة الكتاب ، قال : لقد كتب إليّ ابنُ الحنفية ؛ وقد كتب إليّ قبل اليوم ؛ فما كان يكتب إليّ إلا باسمه واسم أبيه ، قال له المختار : إنّ ذلك زمان وهذا زمان ، قال إبراهيم : فمَنْ يعلم أن هذا كتاب ابن الحنفية إليّ؟ فقال له : يزيد بن أنس وأحمربن شميظ وعبدالله بن كامل وجماعتهم - قال الشعبي : إلا أنا وأبي - فقالوا : نشهد أنّ هذا كتاب محمد بن علي إليك ، فتأخر إبراهيم عند ذلك عن صدر الفراش فأجلس المختار عليه ، فقال : ابسط يدك أبايعك ؛ فبسط يده فبايعه إبراهيم ، ودعا لنا بفاكهة ، فأصبنا منها ؛ ودعا لنا بشراب من عسل فشربنا ثم نهضنا ؛ وخرج معنا ابنُ الأشتر ؛ فركب مع المختار حتى دخل رحله ؛ فلما رجع إبراهيم منصرفاً أخذ بيدي ، فقال : انصرف بنا يا شعبي ، قال : فانصرفت معه

ومضى بي حتى دخل بي رحله ، فقال : يا شعبي إني قد حفظت أنك لم تشهد أنت ولا أبوك ؛ أفترى هؤلاء شهدوا على حق؟ قال : قلت له : قد شهدوا على ما رأيت وهم سادة القراء ومشيوخة المصر وفرسان العرب ، ولا أرى مثل هؤلاء يقولون إلا حقاً . قال : فقلت له هذه المقالة ؛ وأنا والله لهم على شهادتهم متهم ؛ غير أنني يعجبني الخروج وأنا أرى رأي القوم ؛ وأحب تمام ذلك الأمر ؛ فلم أطلععه على ما في نفسي من ذلك ؛ فقال لي ابن الأشر : اكتب لي أسماءهم فإني ليس كلهم أعرف . ودعا بصحيفة ودواة ، وكتب فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم ؛ هذا ما شهد عليه السائب بن مالك الأشعري ، ويزيد بن أنس الأسدي وأحمر بن شميطة الأحسي ومالك بن عمرو النهدي ؛ حتى أتى على أسماء القوم ؛ ثم كتب : شهدوا أن محمد بن علي كتب إلى إبراهيم بن الأشتر يأمره بموازرة المختار ومظاهرة على قتال المحلّين ، والطلب بدماء أهل البيت ، وشهد على هؤلاء النفر الذين شهدوا على هذه الشهادة شراحيل بن عبد - وهو أبو عامر الشعبي الفقيه وعبد الرحمن بن عبد الله النخعي ، وعامر بن شراحيل الشعبي . فقلت له : ما تصنع بهذا رحمك الله؟ فقال : دعه يكون . قال : ودعا إبراهيم عشيرته وإخوانه ومن أطاعه ، وأقبل يختلف إلى المختار .

قال هشام بن محمد : قال أبو مخنف : حدثني يحيى بن أبي عيسى الأزدي ، قال : كان حميد بن مسلم الأسدي صديقاً لإبراهيم بن الأشتر ؛ وكان يختلف إليه ؛ ويذهب به معه ؛ وكان إبراهيم يروح في كل عشية عند المساء ، فيأتي المختار ، فيمكث عنده حتى تصوب النجوم ، ثم ينصرف ؛ فمكثوا بذلك يدبرون أمورهم ؛ حتى اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ست وستين ، ووطن على ذلك شيعتهم ومن أجابهم . فلما كان عند غروب الشمس ، قام إبراهيم بن الأشتر ؛ فأذن ؛ ثم إنه استقدم ، فصلى بنا المغرب ، ثم خرج بنا بعد المغرب حين قلت : أخوك أو الذئب - وهو يريد المختار ، - فأقبلنا علينا السلاح ، وقد أتى إيأس بن مضارب عبد الله بن مطيع فقال : إن المختار خارج عليك إحدى الليلتين ؛ قال : فخرج إيأس في الشرط ، فبعث ابنه راشداً إلى الكناسة ، وأقبل يسير حول السوق في الشرط .

ثم إن إيأس بن مضارب دخل على ابن مطيع ، فقال له : إني قد بعثت ابني إلى الكناسة ، فلو بعثت في كل جبانة بالكوفة عزيمة رجالاً من أصحابك في جماعة من أهل الطاعة ؛ هاب المريب الخروج عليك . قال : فبعث ابن مطيع عبد الرحمن بن سعيد بن قيس إلى جبانة السبيع ، وقال : اكفني قومك ، لا أوتين من قبلك ، وأحكم أمر الجبانة التي وجهتك إليها ، لا يحدثن بها حدث ؛ فأوليك العجز والوهن . وبعث كعب بن أبي كعب الخثعمي إلى جبانة بشر ، وبعث زحر بن قيس إلى جبانة كندة ، وبعث شمر بن الجوشن إلى جبانة سالم ، وبعث عبد الرحمن بن مخنف بن سليم إلى جبانة الصائديين ، وبعث يزيد بن الحارث بن رؤيم أبا حوشب إلى جبانة مراد ، وأوصى كل رجل أن يكفيه قومه ، وألا يؤت من قبله ، وأذ يحكم الوجه الذي وجهه فيه ؛ وبعث شهبث بن ربعي إلى السبحة ، وقال : إذا سمعت صوت القوم فوجه نحوهم ؛ فكان هؤلاء قد خرجوا يوم الاثنين ؛ فنزلوا هذه الجبابين ، وخرج إبراهيم بن الأشتر من رحله بعد المغرب يريد إتيان المختار ؛ وقد بلغه أن الجبابين قد حشيت رجالاً ، وأن الشرط قد أحاطت بالسوق والقصر .

قال أبو مخنف : فحدثني يحيى بن أبي عيسى ، عن حميد بن مسلم ، قال : خرجت مع إبراهيم من منزله بعد المغرب ليلة الثلاثاء حتى مررنا بدار عمرو بن حريث ، ونحن مع ابن الأشتر كتيبة نحو من مائة ، علينا الدروع ، قد كفرنا عليها بالأقبية ، ونحن متقلدو السيوف ؛ ليس معنا سلاح إلا السيوف في عواتقنا ، والدروع قد سترناها بأقبيتنا ؛ فلما مررنا بدار سعيد بن قيس فجزأناها إلى دار أسامة ، قلنا : مُر بنا على دار خالد بن عُرْفُطَة ، ثم امض بنا إلى بجيلة ، فلنمر في دورهم حتى نخرج إلى دار المختار - وكان إبراهيم فتي حداثاً شجاعاً ؛ فكان لا يكره أن يلقاهم - فقال : والله لأمرن على دار عمرو بن حريث إلى جانب القصر وسط السوق ، ولأرعبن به عدونا ولأرينهم هوانهم علينا . قال : فآخذنا على باب الفيل على دار ابن هُبَّار ؛ ثم أخذ ذات اليمين على دار عمرو بن حريث ؛ حتى إذا جاوزها ألفينا إياس بن مضارب في الشرط مظهرين السلاح ، فقال لنا : مَنْ أَنْتُمْ؟ ما أَنْتُمْ؟ فقال له إبراهيم : أنا إبراهيم بن الأشتر ، فقال له ابن مضارب : ما هذا الجمع معك؟ وما تريد؟ والله إن أمرك لمريب ! وقد بلغني أنك تمر كل عشية ها هنا ، وما أنا بتاركك حتى آتي بك الأمير فيرى فيك رأيته . فقال إبراهيم : لا أبا لغيرك ! خل سبيلنا ، فقال : كلاً والله لا أفعل - ومع إياس بن مضارب رجل من همدان ، يقال له أبو قطن ، كان يكون مع إمرة الشرطة فهم يكرمونه ويؤثرونه ، وكان لابن الأشتر صديقاً - فقال له ابن الأشتر : يا أبا قطن ، ادن مني - ومع أبي قطن رمح له طويل - ؛ فدنا منه أبو قطن ؛ ومعه الرمح ؛ وهو يرى أن ابن الأشتر يطلب إليه أن يشفع له إلى ابن مضارب ليخلي سبيله ؛ فقال إبراهيم - وتناول الرمح من يده : إن رمحك هذا لطويل ؛ فحمل به إبراهيم على ابن مضارب ، فطعنه في ثغرة نحره فصرعه ، وقال لرجل من قومه : انزل عليه ، فاحتز رأسه ، فنزل إليه فاحتز رأسه ، وتفرق أصحابه ورجعوا إلى ابن مطيع . فبعث ابن مطيع ابنه راشد بن إياس مكان أبيه على الشرطة ، وبعث مكان راشد بن إياس إلى الكُنَاسَة تلك الليلة سويد بن عبدالرحمن المنقري أبا القعقاع بن سويد . وأقبل إبراهيم بن الأشتر إلى المختار ليلة الأربعاء ، فدخل عليه فقال له إبراهيم : إننا أتعدنا للخروج للقاء ليلة الخميس ، وقد حدث أمر لا بد من الخروج الليلة ، قال المختار : ما هو؟ قال : عرض لي إياس بن مضارب في الطريق ليحبسني بزعمه ، فقتلته ؛ وهذا رأسه مع أصحابي على الباب . فقال المختار : فبشرك الله بخير ! فهذا طير صالح ، وهذا أول الفتح إن شاء الله . ثم قال المختار : قم يا سعيد بن منقذ ، فأشعل في الهرادي النيران ثم ارفعها للمسلمين ، وقم أنت يا عبدالله بن شداد ؛ فناد : « يا منصور أمت » ؛ وقم أنت يا سفيان بن ليل ، وأنت يا قدامة بن مالك ، فناد : يا لثارات الحسين ! ثم قال المختار : علي بدرعي وسلاحي ، فأتي به ؛ فأخذ يلبس سلاحه ويقول :

قَدْ عَلِمْتُ بَيْضَاءُ حَسَنَاءُ الطَّلَلِ وَاضِحَةَ الْخَدَّيْنِ عَجَزَاءُ الْكَفَلِ
أَنْى غَدَاةَ الرُّوعِ مَقْدَامَ بَطَلِ

ثم إن إبراهيم قال للمختار : إن هؤلاء الرؤوس الذين وضعهم ابن مطيع في الجبابين يمنعون إخواننا أن يأتونا ، ويضيّقون عليهم ؛ فلو أني خرجت بمن معي من أصحابي حتى آتي قومي ؛ فيأتيني كل من قد بايعني من قومي ، ثم سرت بهم في نواحي الكوفة ، ودعوت بشعارنا ؛ فخرج إلي من أراد

الخروج إلينا ، ومن قدر على إتيانك من الناس ؛ فمن أتاك حبسته عندك إلى من معك ولم تفرقهم ؛ فإن عوجلت فأتييت كان معك من تمتنع به ؛ وأنا لو قد فرغت من هذا الأمر عجلت إليك في الخيل والرجال . قال له : إمالا فاعجل وإياك ان تسير إلى أميرهم تقاتله ، ولا تقاتل أحداً وأنت تستطيع ألا تقاتل ، واحفظ ما أوصيتك به إلا أن يبدأك أحد بقتال . فخرج إبراهيم بن الأشتر من عنده في الكتيبة التي أقبل فيها ؛ حتى أتى قومه ، واجتمع إليه جل من كان بايعه وأجابه . ثم إنه سار بهم في سبك الكوفة طويلاً من الليل ؛ وهو في ذلك يتجنب السكك التي فيها الأمراء ، فجاء إلى الذين معهم الجماعات الذين وضع ابن مطيع في الجبابين وأفواه الطرق العظام . حتى انتهى إلى مسجد السكون ، وعجلت إليه خيل من خيل زحر بن قيس الجعفي ليس لهم قائد ولا عليهم أمير . فشده عليهم إبراهيم بن الأشتر وأصحابه ، فكشفوهم حتى دخلوا جبانة كندة ، فقال إبراهيم ؛ من صاحب الخيل في جبانة كندة؟ فشده إبراهيم وأصحابه عليهم ، وهو يقول : اللهم إنك تعلم أنا غضبنا لأهل بيت نبيك ، وثرنا لهم ، فانصرنا عليهم ، وتمم لنا دعوتنا ؛ حتى انتهى إليهم هو وأصحابه ، فخالطوهم وكشفوهم فقبل له : زحر بن قيس ؛ فقال : انصرفوا بنا عنهم ، فركب بعضهم بعضاً كلما لقيهم زقاق دخل منهم طائفة ، فانصرفوا يسرون .

ثم خرج إبراهيم يسير حتى انتهى إلى جبانة أثير ، فوقف فيها طويلاً ، ونادى أصحابه بشعارهم ، فبلغ سويد بن عبد الرحمن المنقري مكانهم في جبانة أثير ، فرجا أن يصيبهم فيحظى بذلك عند ابن مطيع ، فلم يشعر ابن الأشتر إلا وهم معه في الجبانة ، فلما رأى ذلك ابن الأشتر قال لأصحابه : يا شرطة الله ، انزلوا فإنكم أولى بالنصر من الله من هؤلاء الفساق الذين خاضوا دماء أهل بيت رسول الله ﷺ . فنزلوا . ثم شده عليهم إبراهيم ، فضربهم حتى أخرجهم من الصحراء ، وولوا منهزمين يركب بعضهم بعضاً ، وهم يتلاومون ، فقال قائل منهم : إن هذا الأمر يرد ؛ ما يلقون لنا جماعة إلا هزموهم ! فلم يزل يهزمهم حتى أدخلهم الكناسة . وقال أصحاب إبراهيم لإبراهيم ؛ اتبعهم واغتنم ما قد دخلهم من الرعب ، فقد علم الله إلى من ندعو وما نطلب ، وإلى من يدعون وما يطلبون ! قال : لا ، ولكن سيروا بنا إلى صاحبنا حتى يؤمن الله بنا وحشته ، ونكون من أمره على علم ، ويعلم هو أيضاً ما كان من عناثنا ، فيزداد هو وأصحابه قوة وبصيرة إلى قواهم وبصيرتهم ، مع أنني لا آمن أن يكون قد أتى .

فأقبل إبراهيم في أصحابه حتى مر بمسجد الأشعث ، فوقف به ساعة ، ثم مضى حتى أتى دار المختار ، فوجد الأصوات عالية ، والقوم يقتتلون ، وقد جاء شبت بن ربعي من قبل السبخة ، فبعى له المختار يزيد بن أنس ، وجاء حجار بن أبجر العجلي ، فجعل المختار في وجهه أحمر بن شमित ، فالناس يقتتلون ، وجاء إبراهيم من قبل القصر ، فبلغ حجاراً وأصحابه أن إبراهيم قد جاءهم من ورائهم ، ففرقوا قبل أن يأتهم إبراهيم ، وذهبوا في الأزقة والسكك ، وجاء قيس بن طهفة في قريب من مائة رجل من بني نهذ من أصحاب المختار ، فحمل على شبت بن ربعي وهو يقاتل يزيد بن أنس ، فخلى لهم الطريق حتى اجتمعوا جميعاً . ثم إن شبت بن ربعي ترك لهم السكة ، وأقبل حتى

لقي ابن مطيع ، فقال : ابعث إلى أمراء الجَبَابِين فمرهم فليأتوك ، فاجمع إليك جميع الناس ، ثم انهد إلى هؤلاء القوم فقاتلهم وابعث إليهم من تثق به فليكفك قتالهم ، فإن أمر القوم قد قوي ، وقد خرج المختار وظهر ، واجتمع له أمره . فلما بلغ ذلك المختار من مشورة شَبَث بن رُبَيْع على ابن مطيع خرج المختار في جماعة من أصحابه حتى نزل في ظهر دِير هند ممّا يلي بُسْتَان زائدة في السَّبْخَة .

قال : وخرج أبو عثمان النّهدي فنادى في شاكر وهم مجتمعون في دورهم ، يخافون أن يظهروا في الميدان لقُرب كعب بن أبي كعب الخثعمي منهم ، وكان كعب في جَبَانَة بشر ، فلما بلغه أن شاكرًا تخرج جاء يسير حتى نزل بالميدان ، وأخذ عليهم بأفواه سَكَكهم وطُرَقهم . قال : فلما أتاهم أبو عثمان النّهدي في عصابة من أصحابه ، نادى : يا لثارات الحسين ! يا منصور أمت ! يا أيها الحَيّ المهتدون ، ألا إن أمير آل محمّد ووزيرهم ، قد خرج فنزل دِير هند ، وبعثني إليكم داعياً ومبشراً ، فاخرجوا إليه يرحمكم الله ! قال : فخرجوا من الدّور يتداعون : يا لثارات الحسين ! ثم ضاربوا كعب بن أبي كعب حتى خلّى لهم الطريق ، فأقبلوا إلى المختار حتى نزلوا معه في عسكره ، وخرج عبدالله بن قراد الخثعمي في جماعة من خثعم نحو المائتين حتى لحق بالمختار . فنزلوا معه في عسكره ، وقد كان عرض له كعب بن أبي كعب فصافّه ، فلما عرفهم ورأى أنهم قومه خلّى عنهم . ولم يقاتلهم .

وخرجت شَبَام من آخر ليلتهم فاجتمعوا إلى جَبَانَة مراد . فلما بلغ ذلك عبدالرحمن بن سعيد بن قيس بعث إليهم : إن كنتم تريدون اللّحاق بالمختار فلا تمروا على جَبَانَة السَّبْخَة ، فلحقوا بالمختار . فتوافى إلى المختار ثلاثة آلاف وثمانمائة من اثني عشر ألفاً كانوا بايعوه ، فاستجمعوا له قبل انفجار الفجر ، فأصبح قد فرغ من تعبته

قال أبو مخنف : فحدّثني الوالبيّ قال : خرجت أنا وحميد بن مسلم ، والنعمان بن أبي الجَعْد إلى المختار ليلة خرج ، فأتيناه في داره ، وخرجنا معه إلى معسكره ؛ قال : فوالله ما انفجَرَ الفجر حتى فرغ من تعبته ؛ فلما أصبح استقدم ، فصلّى بنا الغداة بغلّس ، ثم قرأ «والنازعات» و«عبس وتولى» ، قال : فما سمعنا إماماً أم قوماً أفصح لهجة منه .

قال أبو مخنف : حدّثني حَصِيرَة بن عبدالله ، أن ابنَ مطيع بعث إلى أهل الجبابين ، فأمرهم أن ينضموا إلى المسجد ، وقال لراشد بن إياس بن مضارب : ناد في الناس فليأتوا المسجد ، فنادى المنادي : ألا برئت الذّمة من رجل لم يحضر المسجد الليلة ! فتوافى النَّاس في المسجد ، فلما اجتمعوا بعث ابن مطيع شَبَث بن رُبَيْع في نحو من ثلاثة آلاف إلى المختار ، وبعث راشد بن إياس في أربعة آلاف من الشُّرَط .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو الصَّلْت التيميّ عن أبي سعيد الصَّيقل ، قال : لما صلّى المختار الغداة ثم انصرف سمعنا أصواتاً مرتفعة فيما بين بني سُلَيْم وسكّة البريد ، فقال المختار : مَنْ يعلم لنا علم هؤلاء ما هم ؟ فقلت له : أنا أصلحك الله ! فقال المختار : إمّا لا فألق سلاحك وانطلق حتى تدخل فيهم كأنك نظار ، ثم تأتيني بخبرهم ، قال : ففعلت ، فلما دنوت منهم إذا مؤذّنهم يقيم ، فجتحت حتى دنوت منهم فإذا شَبَث بن رُبَيْع معه

خيل عزيمة، وعلى خيله شيبان بن حريث الضبي، وهو في الرجاله معه منهم كثرة، فلما أقام مؤذنه تقدم فضني بأصحابه، فقرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، فقلت في نفسي: أما والله إني لأرجو أن يزلزل الله بكم، وقرأ: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾، فقال أناس من أصحابه: لو كنت قرأت سورتين هما أطول من هاتين شيئاً! فقال شبت: ترون الدليل قد نزلت بساحتكم، وأنتم تقولون: لو قرأت سورة «البقرة» و«آل عمران»! قال: وكأنا ثلاثة آلاف، قال: فأقبلت سريعاً حتى أتيت المختار فأخبرته بخبر شبت وأتاه معي ساعة أتيته به من أبي سعر الحنفي يركض من قبل مراد، وكان ممن بايع المختار فلم يقدر على الخروج معه ليلة خرج خافة الخرس، فلما أصبح أقبل على فرسه، فمر بجبانة مراد؛ وفيها راشد بن إلياس، فقالوا: كما أنت! ومن أنت؟ فراكضهم حتى جاء المختار، فأخبره خبر راشد، وأخبرته أنا خبر شبت، قال: فسرح إبراهيم بن الأشتر قبل راشد بن إلياس في تسعمائة - ويقال ستمائة فارس وستمائة راجل - وبعث نعيم بن هبيرة أخاً مضقلة بن هبيرة في تسعمائة فارس وستمائة راجل، وقال لهما: امضيا حتى تلقيا عدوكما، فإذا لقيتماهم فانزلا في الرجال وعجلا الفراغ وأبداهم بالإقدام، ولا تستهدفا لهم؛ فإنهم أكثر منكم، ولا ترجعا إلي حتى تظهر أو تقتلا. فتوجه إبراهيم بن راشد، وقدم المختار يزيد بن أنس في موضع مسجد شبت في تسعمائة أمامه. وتوجه نعيم بن هبيرة قبل شبت.

قال أبو مخنف: قال أبو سعيد الصيقل: كنت أنا فيمن توجه مع نعيم بن هبيرة إلى شبت ومعني سحر بن أبي سعر الحنفي، فلما انتهينا إليه قاتلناه قتالاً شديداً، فجعل نعيم بن هبيرة سحر بن أبي سعر الحنفي على الخيل، ومشى هو في الرجال فقاتلهم حتى أشرقت الشمس وانبسطت، فضربناهم حتى أدخلناهم البيوت؛ ثم إن شبت بن ربيعي ناداهم: يا حماة السوء! بش فرسان الحقائق أنتم! أم عبيدكم تهريون! قال: فثابت إليه منهم جماعة فشد علينا وقد تفرقنا فهزمنا، وصبر نعيم بن هبيرة فقتل، ونزل سعر فأسير وأسرت أنا وخليد بن حسان بن محذوح، فقال شبت لخليد - وكان وسيماً جسيماً: من أنت؟ فقال: خليد مولى حسان بن محذوح الذهلي، فقال له شبت: يابن المتكء، تركت بيع الصحناء بالكناسة وكان جزاء من أعنتك أن تعدو عليه بسيفك تضرب رقابه! اضربوا عنقه، فقتل، ورأى سعر الحنفي فعرفه، فقال: أخويني حنيفة؟ فقال له: نعم؛ فقال: ويحك! ما أردت إلى اتباع هذه السبئية! بيع الله رأيك، دعوا ذا. فقلت في نفسي: قتل المولى وترك العربي؛ إن علم والله إني مولى قتلي. فلما عرضت عليه قال: من أنت؟ فقلت: من بني تيم الله؛ قال: أعربي أنت أو مولى؟ فقلت: لا بل عربي، أنا من آل زياد بن خصفة، فقال: بخ بخ! ذكرت الشريف المعروف، الحارث بأهلك. قال: فأقبلت حتى انتهيت إلى الحمراء، وكانت لي في قتال القوم بصيرة، فجئت حتى انتهيت إلى المختار؛ وقلت في نفسي: والله لا تين أصحابي فلا واسيتهم بنفسي، ففتح الله العيش بعدهم! قال: فأتيتهم وقد سبقني إليهم سحر الحنفي، وأقبلت إليه خيل شبت، وجاءه قتل نعيم بن هبيرة، فدخل من ذلك أصحاب المختار أمراً كبيراً؛ قال: فدنوت من المختار، فأخبرته بالذي كان من أمري، فقال لي: اسكت، فليس هذا مكان الحديث. وجاء شبت حتى أحاط بالمختار وبيزيد بن أنس وبعث ابن مطيع يزيد بن الحارث بن رويم في أعين من قبل سكة لحام جريز، فوقفوا في أفواه تلك السكك، وولى المختار يزيد بن أنس خيله، وخرج هو في الرجال.

قال أبو مخنف: فحدثني الحارث بن كعب الوالبي؛ والبة الأزدي، قال: حملت علينا خيل شبت بن ربيعي حملتين، فما يزول منا رجل من مكانه، فقال يزيد بن أنس لنا: يا معشر الشيعة، قد كنتم تقتلون

وتَقَطَّعَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ، وَتَسْمَلَ أَعْيُنَكُمْ ، وَتُرْفَعُونَ عَلَى جُذُوعِ النَّخْلِ فِي حُبِّ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ ؛ وَأَنْتُمْ مَقِيمُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، وَطَاعَةٌ عِدْوَكُمْ ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِهِؤُلَاءِ الْقَوْمِ إِنْ ظَهَرُوا عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ ! إِذَا وَاللَّهِ لَا يَدْعُونَ مِنْكُمْ عِنَّا تَطَرَفَ ، وَلَيَقْتُلَنَّكُمْ صَبْرًا ، وَلَتَرَوُنَّ مِنْهُمْ فِي أَوْلَادِكُمْ وَأَزْوَاجِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ مَا الْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْهُ ، وَاللَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْهُمْ إِلَّا الصَّدَقُ وَالصَّبْرُ وَالطَّعْنُ الصَّائِبُ فِي أَعْيُنِهِمْ ، وَالضَّرْبُ الدَّارِكُ عَلَى هَامِيهِمْ . فَتَيْسَّرُوا لِلشَّدَّةِ ، وَتَهَيَّسُوا لِلْحَمَلَةِ ، فَإِذَا حَرَّكَتْ رَايِي مَرَّتَيْنِ فَاحْمِلُوا . قَالَ الْحَارِثُ : فَتَهَيَّأْنَا وَتَيْسَّرْنَا ، وَجِئْنَا عَلَى الرُّكْبِ ، وَانْتَظَرْنَا أَمْرَهُ .

قال أبو مخنف : وَحَدَّثَنِي فَضِيلُ بْنُ خَدِيجٍ الْكَنْدِيُّ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْأَشْثَرِ كَانَ حِينَ تَوَجَّهَ إِلَى رَاشِدِ بْنِ إِيَّاسَ ، مَضَى حَتَّى لَقِيَهُ فِي مَرَادٍ ، فَإِذَا مَعَهُ أَرْبَعَةُ آلَافٍ ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَصْحَابِهِ : لَا يَهْلُؤُنَّكُمْ بِجُثْرَةِ هَؤُلَاءِ ، فَوَاللَّهِ لِرُبِّ رَجُلٍ خَيْرٌ مِنْ عَشْرَةٍ ، وَلِرُبِّ فِئَةٍ قَلِيلَةٌ قَدْ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ، ثُمَّ قَالَ : يَا خُزَيْمَةُ بْنُ نَصْرٍ ، سِرْ إِلَيْهِمْ فِي الْخَيْلِ . وَنَزَلَ هُوَ يَمْشِي فِي الرِّجَالِ ، وَرَأَيْتُهُ مَعَ مُزَاهِمِ بْنِ طُفَيْلٍ ، فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ يَقُولُ لَهُ : ازْدَلِفْ بِرَايَتِكَ ، إِمضِ بِهَا قُدُّمَا قُدُّمَا . وَاقْتَتَلَ النَّاسُ ، فَاشْتَدَّ قِتَالُهُمْ ، وَبَصُرُ خُزَيْمَةَ بْنِ نَصْرِ الْعَبْسِيِّ بِرَاشِدِ بْنِ إِيَّاسَ ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ فَطَعَنَهُ ، فَقَتَلَهُ ، ثُمَّ نَادَى : قَتَلْتُ رَاشِدًا وَرَبَّ الْكَعْبَةِ . وَانْهَزَمَ أَصْحَابُ رَاشِدٍ ، وَأَقْبَلَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْأَشْثَرِ وَخُزَيْمَةُ بْنُ نَصْرٍ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ بَعْدَ قَتْلِ رَاشِدٍ نَحْوَ الْمُخْتَارِ ، وَبَعَثَ النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي الْجَعْدِ يَبْشُرُ الْمُخْتَارَ بِالْفَتْحِ عَلَيْهِ وَبِقَتْلِ رَاشِدٍ ، فَلَمَّا أَنْ جَاءَهُمُ الْبَشِيرُ بِذَلِكَ كَبُرُوا ، وَاشْتَدَّتْ أَنْفُسُهُمْ ، وَدَخَلَ أَصْحَابُ ابْنِ مَطِيعِ الْفُشَلِّ ، وَسَرَّحَ ابْنَ مَطِيعِ حَسَّانَ بْنَ فَائِدٍ بَنَ بَكِيرِ الْعَبْسِيِّ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ نَحْوَ مِائَةِ أَلْفِينَ . فَاعْتَرَضَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْأَشْثَرِ فَوْقَ الْحَمْرَاءِ لِيرِدَهُ عَمَّنْ فِي السَّبِيخَةِ مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ مَطِيعٍ ، فَقَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ خُزَيْمَةَ بْنَ نَصْرِ إِلَى حَسَّانَ بْنَ فَائِدٍ فِي الْخَيْلِ ، وَمَشَى إِبْرَاهِيمُ نَحْوَهُ فِي الرِّجَالِ . فَقَالَ :

وَاللَّهِ مَا أَطْعَمْنَا بِرَمَحٍ ، وَلَا اضْطَرَبْنَا بِسَيْفٍ . حَتَّى انْهَزَمُوا . وَتَخَلَّفَ حَسَّانُ بْنُ فَائِدٍ فِي أَخْرِيَّاتِ النَّاسِ يَحْمِيهِمْ ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ خُزَيْمَةُ بْنُ نَصْرِ ، فَلَمَّا رَأَاهُ عَرَفَهُ ، فَقَالَ لَهُ : يَا حَسَّانُ بْنُ فَائِدٍ ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا الْقَرَابَةُ لَعَرَفْتُ أَنِّي سَأَلْتُكَ قَتْلَكَ بِجَهْدِي ، وَلَكِنَّ النِّجَاءَ ، فَعَثَرْتُ بِحَسَّانَ فَرَسُهُ فَوَقَعَ ، فَقَالَ : تَعَسَّأَ لَكَ ؛ يَا عَبْدِ اللَّهِ ! وَابْتَدَرَهُ النَّاسُ فَأَحَاطُوا بِهِ ، فَضَارَبَهُمْ سَاعَةً بِسَيْفِهِ ، فَنَادَاهُ خُزَيْمَةُ بْنُ نَصْرِ ، قَالَ : إِنَّكَ آمِنٌ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، لَا تَقْتُلْ نَفْسَكَ . وَجَاءَ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ وَمَنْهَنَ النَّاسَ عَنْهُ ، وَمَرَّ بِهِ إِبْرَاهِيمُ ، فَقَالَ لَهُ خُزَيْمَةُ : هَذَا ابْنُ عَمِّي وَقَدْ آمَنَتْهُ ؛ فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ : أَحْسَنْتَ ، فَأَمَرَ خُزَيْمَةَ بِطَلَبِ فَرَسِهِ حَتَّى أَتَى بِهِ ، فَحَمَلَهُ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : الْحَقُّ بِأَهْلِكَ .

قال : وَأَقْبَلَ إِبْرَاهِيمُ نَحْوَ الْمُخْتَارِ ، وَشَبَّتَ مُحِيطًا بِالْمُخْتَارِ وَيَزِيدُ بْنُ أَنْسَ ، فَلَمَّا رَأَاهُ يَزِيدُ بْنُ الْحَارِثِ وَهُوَ عَلَى أَفْوَاهِ سِكَكِ الْكَوْفَةِ الَّتِي تَلِي السَّبِيخَةَ ، وَإِبْرَاهِيمُ مَقْبِلٌ نَحْوُ شَبَّاتٍ ، أَقْبَلَ نَحْوَهُ لِيَصْدَهُ عَنْ شَبَّاتٍ وَأَصْحَابِهِ ، فَبَعَثَ إِبْرَاهِيمُ طَائِفَةً مِنْ أَصْحَابِهِ مَعَ خُزَيْمَةَ بْنِ نَصْرِ ، فَقَالَ : أَغْنِ عَنَّا يَزِيدُ بْنُ الْحَارِثِ . وَصَمَدٌ هُوَ فِي بَقِيَّةِ أَصْحَابِهِ نَحْوُ شَبَّاتٍ بَنَ رُبْعِي .

قال أبو مخنف : فَحَدَّثَنِي الْحَارِثُ بْنُ كَعْبٍ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أَقْبَلَ نَحُونَا رَأَيْنَا شَبَّاتًا وَأَصْحَابَهُ يَنْكُصُونَ

وراءهم رُوَيْدًا رُوَيْدًا ، فلما دنا إبراهيم من شبت وأصحابه ، حمل عليهم ، وأمرنا يزيد بن أنس بالحملة عليهم ، فحملنا عليهم ، فانكشفوا حتى انتهوا إلى أبيات الكوفة ، وحمل خزيمة بن نصر على يزيد بن الحارث بن رؤيم فهزمه ، وازدحموا على أفواه السكك ، وقد كان يزيد بن الحارث وضع رامية على أفواه السكك فوق البيوت ، وأقبل المختار في جماعة الناس إلى يزيد بن الحارث ، فلما انتهى أصحاب المختار إلى أفواه السكك رمته تلك الرامية بالنبل ، فصدموهم عن دخول الكوفة من ذلك الوجه ، ورجع الناس من السبخة منهزمين إلى ابن مطيع ، وجاءه قتل راشد بن إياس ، فأسقط في يده .

قال أبو مخنف : فحدثني يحيى بن هانئ ، قال : قال عمرو بن الحجاج الزبيدي لابن مطيع : أيها الرجل لا يسقط في خلدك ، ولا تلقى بيدك ، أخرج إلى الناس فاندبهم إلى عدوك فاغزهم ، فإن الناس كثير عددهم ، وكلهم معك إلا هذه الطاغية التي خرجت على الناس ، والله مخزها ومهلكها ، وأنا أول مُتَنَدِّبٍ ، فاندب معي طائفة ، ومع غيري طائفة . قال : فخرج ابن مطيع ، فقام في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إن من أعجب العجب عجزكم عن عصابة منكم قليل عددها ، خبيث دينها ، ضالة مضللة . اخرجوا إليهم فامنعوا منهم حريمكم وقاتلوهم عن مصركم ، وامنعوا منهم فيئكم ، وإلا والله ليشارككنكم في فيئكم من لا حق له فيه . والله لقد بلغني أن فيهم خمسمائة رجل من محرريكم عليهم أمير منهم ، وإنما ذهاب عزكم وسلطانكم وتغير دينكم حين يكثر . ثم نزل .

قال : ومنعهم يزيد بن الحارث أن يدخلوا الكوفة . قال : ومضى المختار من السبخة حتى ظهر على الجبانة ، ثم ارتفع إلى البيوت ؛ بيوت مزينة وأحس وبارق ، فنزل عند مسجدهم وبيوتهم ، وبيوتهم شاذة منفردة من بيوت أهل الكوفة ، فاستقبلوه بالماء ، فسقى أصحابه ، وأبى المختار أن يشرب . قال : فظن أصحابه أنه صائم ، وقال أحمر بن هديج من همدان لابن كامل : أترى الأمير الأمير صائماً؟ فقال له : نعم ، هو صائم ، فقال له : فلو أنه كان في هذا اليوم مفطراً كان أقوى له ؛ فقال له : إنه معصوم ، وهو أعلم بما يصنع ؛ فقال له : صدقت ، أستغفر الله . وقال المختار : نعم مكان المقاتل هذا ، فقال له : إبراهيم بن الأشتر : قد هزمهم الله وفلهم ، وأدخل الرعب قلوبهم ، وتنزل ها هنا ؛ سير بنا ؛ فوالله ما دون القصر أحد يمنع ، ولا يمتنع كبير امتناع ؛ فقال المختار : ليقيم ها هنا كل شيخ ضعيف وذئ علة ، وضعوا ما كان لكم من ثقل ومتاع بهذا الموضع حتى تسيروا إلى عدونا . ففعلوا ، فاستخلف المختار عليهم أبا عثمان النهدي ، وقدم إبراهيم بن الأشتر أمامه ، وعبى أصحابه على الحال التي كانوا عليها في السبخة .

قال : وبعث عبدالله بن مطيع عمرو بن الحجاج في ألفي رجل ، فخرج عليهم من سكة الثوريين ، فبعث المختار إلى إبراهيم أن اطوه ولا تقم عليه . فطواه إبراهيم ، ودعا المختار يزيد بن أنس ، فأمره أن يصمد لعمرو بن الحجاج ، فمضى نحوه ، وذهب المختار في أثر إبراهيم ، فمضوا جميعاً حتى إذا انتهى المختار إلى موضع مصلى خالد بن عبدالله وقف ، وأمر إبراهيم أن يمضي على وجهه حتى يدخل الكوفة من قبل الكناسة ، فمضى ، فخرج إليه من سكة ابن محرز ، وأقبل شمر بن ذي الجوشن في ألفين ، فسرح المختار إليه سعيد بن منقذ الهمداني فواقعه ، وبعث إلى إبراهيم أن اطوه ، وامض على

وجهك . فمضى حتى انتهى إلى سكة شبت ، وإذا نوفل بن مساحق بن عبدالله بن مخزومة في نحو من الفين - أو قال : خمسة آلاف ، وهو الصحيح - وقد أمر ابن مطيع سويد بن عبدالرحمن فنأدى في الناس إذا الحقوا بابن مساحق . قال : واستخلف شبت بن رباعي على القصر ، وخرج ابن مطيع حتى وقفه الخامسة .

قال أبو مخنف : حدثني حصيرة بن عبدالله ، قال : إني لأنظر إلى ابن الأشرع حين أقبل في أصحابه ، وإذا دنا منهم قال لهم : انزلوا ، فنزلوا ، فقال : قريو خيولكم بعضها إلى بعض ، ثم امشوا إليهم . فاستلن بالسيوف ، ولا يهولنكم أن يقال : جاءكم شبت بن رباعي وآل عتيبة بن النحاس وآل الأشعث وآل زياد ، وآل يزيد بن الحارث . . . قال : فسمي بيوتات من بيوتات أهل الكوفة ، ثم قال : إن هؤلاء لو أقبلوا علىهم حر السيوف قد انصفقوا عن ابن مطيع انصفاق المعزى عن الذئب . قال حصيرة : فإني لأنظر أصحابه حين قريو خيولهم وحين أخذ ابن الأشرع أسفل قبائمه فرفعه فأدخله في منطقة له حمراء من عيش البرود ، وقد شد بها على القباء ، وقد كفر بالقباء على الدرع ، ثم قال لأصحابه : شدوا بهم هدي لكم عمي وخالي ! قال : فوالله ما لبثتهم أن هزمهم ، فركب بعضهم بعضاً على فم السكة . وانتهى ابن الأشرع إلى ابن مساحق ، فأخذ بيدجام دابته ، ورفع السيف عليه ، فقال له ابن مساحق : يا ابن الأشرع ، أنشدك الله ، أتطلبني بثار ! هل بيني وبينك من إحنة ! فخلني ابن الأشرع سبيله ، فقال له : اذكرها ، فكان بعد ذلك ابن مساحق يذكرها لابن الأشرع ، وأقبلوا يسيرون حتى دخلوا الكوفة في آثار القوم حتى دخلوا السوق والمسجد ، وحصروا ابن مطيع ثلاثاً .

قال أبو مخنف : وحدثني النضر بن صالح أن ابن مطيع مكث ثلاثاً ، يرزق أصحابه في القصر . ثم نصر الدقيق ، ومعه أشراف الناس ، إلا ما كان من عمرو بن حريث ، فإنه أتى داره ولم يلزم نفسه . ثم خرج حتى نزل البر ، وجاء المختار حتى نزل جانب السوق ، وولى حصار القصر إبراهيم بن زياد ، ويزيد بن عيسى ، وأحمر بن شميظ ، فكان ابن الأشرع مما يلي المسجد وباب القصر ، ويزيد بن عيسى مما يلي بني حذيفة وسكة دار الروميين ، وأحمر بن شميظ مما يلي دار عمارة ودار أبي موسى . فلما اشتد الحصار على ابن مطيع وأصحابه كلمه الأشراف ، فقام إليه شبت فقال : أصلح الله الأمير ! انظر لنفسك . ولكن معك ، فوالله ما عندهم غناء عنك ولا عن أنفسهم . قال ابن مطيع : هاتوا ، أشيروا عليّ برأيكم . قال شبت : الرأي ، أن تأخذ لنفسك من هذا الرجل أماناً ولنا ، وتخرج ولا تهلك نفسك ومن معك . قال : طابع : والله إني لأكره أن آخذ منه أماناً والأمور مستقيمة لأمر المؤمنين بالحجاز كله وبأرض البصرة ، فإن خرج لا يشعر بك أحد حتى تنزل منزلاً بالكوفة عند من تستصحه وتثق به ، ولا يعلم بمكانك . فخرج فتلحق بصاحبك ، فقال لأسماء بن خارجة وعبدالرحمن بن مخنف وعبدالرحمن بن سعيد بن عيسى وأشراف أهل الكوفة : ما ترون في هذا الرأي الذي أشار به عليّ شبت ؟ فقالوا : ما نرى الرأي إلا أن أشار به عليك ، قال : فرويدا حتى أمسي .

قال أبو مخنف : فحدثني أبو المغلس الليثي ، أن عبدالله بن عبدالله الليثي أشرف على أصحاب المختار من القصر من العشي يشتهم ، وينتحي له مالك بن عمرو أبو عمران الليثي يشتهم ، فمضوا

بحلقه ، ففقط جلدته من حلقه فمال فوقه ؛ قال : ثم إنه قام وبرأ بعدد ؛ وقال النهدى حين أصابه :
خذها من مالك ، من فاعل كذا .

قال أبو مخنف : وحدثنى النضر بن صالح ، عن حسان بن فائد بن بكير ، قال : لما أُمسينا في
القصر في اليوم الثالث ، دعانا ابن مطيع ، فذكر الله بما هو أهله ، وصلى على نبيه ﷺ وقال : أما بعد ،
فقد علمت الذين صنعوا هذا منكم من هم ؛ وقد علمت أنما هم أرادوا لكم وسفهاؤكم وطغائكم
وأخسائكم ، ما عدا الرجل أو الرجلين ، وأن أشرافكم وأهل الفضل منكم لم يزالوا سامعين مطيعين
مناصحين ، وأنا مبلغ ذلك صاحبي ، ومعلمه طاعتكم وجهادكم عدوه ، حتى كان الله الغالب على
أمره ، وقد كان من رأيكم وما أشرتكم به علي ما قد علمتم ، وقد رأيت أن أخرج الساعة . فقال له
شبت : جزاك الله من أمير خيراً ! فقد والله عفت عن أموالنا ، وأكرمت أشرافنا ، ونصحت لصاحبك ،
وقضيت الذي عليك ، والله ما كنا لنفارقك أبداً إلا ونحن منك في إذن ، فقال : جزاكم الله خيراً ، أخذ
امرؤ حيث أحب ، ثم خرج من نحو دروب الروميين حتى أتى دار أبي موسى ، وخلي القصر ، وفتح
أصحابه الباب ، فقالوا : يابن الأشر ، آمنون نحن ؟ قال : أنتم آمنون ؛ فخرجوا فبايعوا المختار .

قال أبو مخنف : فحدثنى موسى بن عامر العدوي ؛ من عدي جهينة - وهو أبو الأشعر - أن المختار
جاء حتى دخل القصر ، فبات به ، وأصبح أشراف الناس في المسجد وعلى باب القصر ، وخرج المختار
فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، فقال : الحمد لله الذي وعد وليه النصر ، وعدوه الخسر ، وجعله فيه
إلى آخر الدهر ، وعداً مفعولاً ، وقضاءً مقضياً ، وقد خاب من افترى . أيها الناس ، إنه رُفعت لنا راية ،
ومدت لنا غاية ، فقبل لنا في الراية : أن ارفعوها ولا تضعوها ، وفي الغاية : أن أجروا إليها ولا تعدوها ،
فسمعنا دعوة الداعي ، ومقالة الواعي ؛ فكم من ناع وناعية ، لقتل في الواعية ! وبعداً لمن طغى وأدبر ،
وعصى وكذب وتولى ، ألا فادخلوا أيها الناس فبايعوا بيعة هدى ، فلا والذي جعل السماء سقفاً مكشوفاً ،
والأرض فجاًجا سُبلاً ، ما بايعتم بعد بيعة علي بن أبي طالب وآل علي أهدى منها .

ثم نزل فدخل ، ودخلنا عليه وأشراف الناس ، فبسط يده ، وابتدعه الناس فبايعوه ، وجعل يقول :
تبايعوني على كتاب الله وسنة نبيه ، والطلب بدماء أهل البيت ، وجهاد الملحّين ، والدفع عن الضعفاء ،
وقتل من قاتلنا ، وسلم من سلمنا ، والوفاء ببيعتنا ، لا نقيلكم ولا نستقيلكم ؛ فإذا قال الرجل : نعم ،
بايعه . قال : فكأنى والله أنظر إلى المنذر بن حسان بن ضرار الضبي إذ أتاه حتى سلم عليه بالإمرة ، ثم
بايعه وانصرف عنه ، فلما خرج من القصر استقبل سعيد بن منقذ الثوري في عصابة من الشيعة واقفاً عند
المصطبة ، فلما رآه ومعه ابنه حيّان بن المنذر ، قال رجل من سفهائهم : هذا والله من رؤوس الجبارين ،
فشدوا عليه وعلى ابنه ، فقتلوهما ، فصاح بهم سعيد بن منقذ : لا تعجلوا ، لا تعجلوا حتى ننظر ما رأي
أميركم فيه . قال : وبلغ المختار ذلك ، فكرهه حتى رئي ذلك في وجهه ، وأقبل المختار يميني الناس ،
ويستجر مودتهم ومودة الأشراف ، ويحسن السيرة جهده .

قال : وجاءه ابن كامل فقال للمختار ، أعلمت أن ابن مطيع في دار أبي موسى ؟ فلم يجبه بشيء ،

فأعادها عليه ثلاث مرّات فلم يُجِبْه ، ثم أعادها فلم يُجِبْه ، فظنّ ابن كامل أن ذلك لا يوافقه ، وكان ابن مطيع قبل للمختار صديقاً ، فلما أمسى بعث إلى ابن مطيع بمائة ألف درهم ، فقال له : تجهّز بهذه واخرج ؛ فإني قد شعرت بمكانك ، وقد ظننتُ أنه لم يمنعك من الخروج إلا أنه ليس في يديك ما يقوِّيك على الخروج . وأصاب المختار تسعة آلاف ألف في بيت مال الكوفة ، فأعطى أصحابه الذين قاتل بهم حين حصر ابن مطيع في القصر - وهم ثلاثة آلاف وثمانمائة رجل - كلّ رجل خمسمائة درهم خمسائة درهم ، وأعطى ستة آلاف من أصحابه أتوه بعدما أحاط بالقصر ، فأقاموا معه تلك الليلة وتلك الثلاثة الأيام حتى دخل القصر مائتين مائتين ، واستقبل الناس بخير ، ومَنّاهم العدل وحسن السيرة ، وأدى الأشراف ، فكانوا جلساءه وحُدّاثه ، واستعمل على شُرطته عبدالله بن كامل الشاكري ، وعلى حرسه كيسان أبا عمرة مولى عُرينة ؛ فقام ذات يوم على رأسه ، فرأى الأشراف يحدثونه ، ورآه قد أقبل بوجهه وحديثه عليهم ، فقال لأبي عمرة بعض أصحابه من الموالي : أما ترى أبا إسحاق قد أقبل على العرب ما ينظر إلينا! فدعاه المختار فقال له : ما يقول لك أولئك الذين رأيتهم يكلمونك؟ فقال له - وأسرّ إليه : شقّ عليهم أصلحك الله صرّفك وجهك عنهم إلى العرب ، فقال له : قل لهم : لا يشقّ ذلك عليكم ، فأنتم مني وأنا منكم . ثم سكت طويلاً ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾ ^(١) . قال : فحدثني أبو الأشعر موسى بن عامر قال : ما هو إلا أن سمعها الموالي منه ، فقال بعضهم لبعض : أبشروا ، كأنكم والله به قد قتلهم .

قال أبو مخنف : حدثني حصيرة بن عبدالله الأزدي وفُضيل بن خديج الكندي والنضر بن صالح العبيسي ، قالوا : أوّل رجل عقد له المختار راية عبدالله بن الحارث أخو الأشر ، عقّد له على أرمينية ، وبعث محمد بن عمير بن عطار على آذربيجان ، وبعث عبدالرحمن بن سعيد بن قيس على الموصل ، وبعث إسحاق بن مسعود على المدائن وأرض جُوحى ، وبعث قدامة بن أبي عيسى بن ربيعة النصري ، وهو حليف لثقيف على بهقباد الأعلى ، وبعث محمد بن كعب بن قرظّة على بهقباد الأوسط ، وبعث حبيب بن منقذ الثوري على بهقباد الأسفل ، وبعث سعد بن حذيفة بن اليمان على حُلوان ، وكان مع سعد بن حذيفة ألفاً فارس بحُلوان . قال : ورزقه ألف درهم في كل شهر ، وأمره بقتال الأكراد ، وبإقامة الطرق ، وكتب إلى عمّاله على الجبال يأمرهم أن يحملوا أموال كُورهم إلى سعد بن حذيفة بحُلوان ، وكان عبدالله بن الزبير قد بعث محمد بن الأشعث بن قيس على الموصل ، وأمره بمكاتبة ابن مطيع وبالسمع له والطاعة ، غير أن ابن مطيع لا يقدر على عزله إلاّ بأمر ابن الزبير ، وكان قبل ذلك في إمارة عبدالله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد منقطعاً بإمارة الموصل ، لا يكتّاب أحداً دون ابن الزبير .

فلما قدم عليه عبدالرحمن بن سعيد بن قيس من قبل المختار أميراً تنحّى له عن الموصل ، وأقبل حتى نزل تَكْرِيت ، وأقام بها مع أناس من أشراف قومه وغيرهم ، وهو معتزل ينظر ما يصنع الناس ، وإلى ما يصير أمرهم ، ثم شخص إلى المختار فباع له ، ودخل فيما دخل فيه أهل بلده .

قال أبو مخنف : وحدثني صلة بن زهير النهدي ، عن مسلم بن عبدالله الضبابي ، قال : لما ظهر

المختار واستمكن ، ونفى ابن مطيع وبعث عماله ، أقبل يجلس للناس غُدوة وعشيّة ، فيقضي بين الخصمين ، ثم قال : والله إنّ لي فيما أزاول وأحاول لشغلاً عن القضاء بين الناس ، قال : فأجلس للناس شريحاً ، وقضى بين الناس ، ثمّ إنّ خافهم فتّمارض ، وكانوا يقولون : إنّهُ عُثمانيّ ، وإنّهُ ممّن شهد على حُجْر بن عديّ ، وإنّهُ لم يُبلّغ عن هانيء بن عروة ما أرسله به - وقد كان علي بن أبي طالب عزّله عن القضاء - فلمّا أن سمع بذلك ورآهم يذمّونه ويُسندون إليه مثل هذا القول تمارض ، وجعل المختار مكانه عبد الله بن عتبة بن مسعود . ثمّ إنّ عبد الله مرض ، فجعل مكانه عبد الله بن مالك الطائي قاضياً .

قال مسلم بن عبد الله : وكان عبد الله بن همام سمع أبا عمرة يذكر الشيعة وينال من عثمان بن عفّان ، فقنّعه بالسوط ، فلمّا ظهر المختار كان معتزلاً حتى استأمن له عبد الله بن شدّاد ، فجاء إلى المختار ذات يوم فقال :

أَلَا انْتَسَأْتُ بِالْوُدِّ عَنْكَ وَأَذْبَرْتُ
وَحَمَلْتُهَا وَاشْرَسَعَى غَيْرُ مُؤْتَلٍ
فَخَفَضْتُ عَلَيْكَ الشَّانَ لَا يُرْكُ الْهَوَى
وفي ليلة المختار ما يُذهِلُ الفتى
دعا يالثرأتِ الحسين فأقبلت
ومن مذجج جاء الرئيس ابن مالك
ومن أسدٍ وأفى يزيدٌ لنضيره
وجاء نُعيمٌ خيرُ شَيَّانٍ كلّها
وما ابن شميظ إذ يُحرّضُ قومه
ولا قيس نهيدٌ لا ولا ابن هوازن
وسار أبو النعمانٍ ليلته سعيه
بخيل عليها يوم هيجاً ذُرُوعُها
فَكَرَّ الْخِيُولُ كَرَّةً ثَقِفَتْهُمْ
فَوَلَّى بِضَرْبٍ يَشْدُخُ الْهَامَ وَقَعُهُ
فُحْوصِرَ في دار الإمارة بائياً
فَمَنْ وزيرُ ابن الوصي عليهم
وآب الهدى حقّاً إلى مُستقرّه
إلى الهاشمي المهتدي المهتدى به

مَعَالِنَةُ بِالْهَجَرِ أُمُّ سَرِيعٍ
فَأُبْتُ بِهِمْ فِي الْفَوَادِ جَمِيعٍ
فليس انتقالُ خَلَّةٍ بِبديعٍ
ويُلهيه عن رُودِ الشَّبابِ شُمُوعٍ
كتائبٌ مِنْ هَمْدَانٍ بَعْدَ هَزِيعٍ
يَقُودُ جُمُوعاً عُيِّتَ بِجُمُوعٍ
بكلّ فتى حامي الدُّمارِ منيعٍ
بأمرٍ لندى الهيجا أخذَ جميعٍ
هناك بِمَخْذُولٍ وَلَا بِمُضِيعٍ
وكلّ أخو إخبّاتٍ وخُشُوعٍ
إلى ابن إياسٍ مُضْجِراً لَوْقُوعٍ
وأخرى حُسُوراً غيرَ ذاتِ دُرُوعٍ
وَشَدُّ بَأُولَاهَا عَلَى ابْنِ مُطِيعٍ
وطعن غداة السُّكْتينِ وجيعٍ
بذلٌّ وإرغامٌ له وخُضُوعٍ
وكان لهم في الناس خيرَ شفيعٍ
بخيرٍ إِيَابِ آبَةٍ وَرُجُوعٍ
فَنَحْنُ لَهُ مِنْ سَامِعٍ وَمُطِيعٍ

قال : فلمّا أنشدها المختار قال المختار لأصحابه : قد أثنى عليكم كما تسمعون ، وقد أحسن الثناء عليكم ، فأحسِنوا له الجزاء . ثمّ قام المختار ، فدخل وقال لأصحابه : لا تبرحوا حتى أخرج إليكم ؛ قال : وقال عبد الله بن شدّاد الجُشمي : يا ابن همام : إنّ لك عندي فرساً ومُطَرِّفاً ، وقال قيس بن طهفة

النَّهْدِي - وكانت عنده الرَّبَاب بنت الأشعث : فَإِنَّ لَكَ عِنْدِي فِرْساً وَمُطَرَفَا ، واستحيا أن يعطيه صَاحِبُهُ شيئاً لا يعطي مثله ، فقال ليزيد بن أنس : فما تعطيه ؟ فقال يزيد : إن كان ثَوَابَ الله أراد بقوله فما عند الله خيرٌ له ، وإن كان إنما اعتَرَى بهذا القول أموالنا ، فوالله ما في أموالنا ما يسعُه ؛ قد كانت بقيت من عطائي بقيَّةً فقَوِّيت بها إخواني ؛ فقال أحمر بن شَمِيط مبادراً لهم قبل أن يكَلِّموه : يا بن هَمَام ، إن كنت أردت بهذا القول وجهَ الله فاطلب ثَوَابَكَ من الله ، وإن كنت إنما اعتريت به رِضَا الناس وطلبَ أموالهم ، فأكْذِمْ الجُنْدَل ؛ فوالله ما مَنْ قال قولاً لغير الله وفي غير ذات الله بأهلٍ أن يُنْحَلَ ، ولا يُوَصَّل ؛ فقال له : عضضتْ بأير أبيك ! فرفع يزيد بن أنس السوط وقال لابن هَمَام : تقول هذا القول يا فاسق ! وقال لابن شَمِيط : اضربه بالسيف ، فرفع ابن شَمِيط عليه السيف ووثب ووثب أصحابهما يتفَلَّتُون على ابن هَمَام . وأخذ بيده إبراهيم بن الأَشْتر فألقاه وراءه ، وقال : أنا له جارٍ ، لِمَ تَأْتُون إليهِ ما أرى ! فوالله إنَّه لو اصل الولاية ، راضٍ بما نحن عليه ، حَسَنُ الثناء ، فإن أنتم لم تكافئوه بحسن ثنائه ، فلا تشتموا عَرْضَه ، ولا تَسْفِكُوا دَمَه . ووثبت مَذْجِج فحالت دونه ، وقالوا : أجاره ابن الأَشْتر ، لا والله لا يُوَصَّل إليهِ . قال : وسمع لَغَطَهم المختار ، فخرج إليهم ، وأومأ بيده إليهم ، أن اجلسوا ، فجلسوا ، فقال لهم : إذا قيل لكم خير فاقبلوه ، وإن قدرتم على مكافأة فافعلوا ، وإن لم تقدروا على مكافأة فتصَلُّوا ، واتقوا لسانَ الشاعر ، فإنَّ شرَّه حاضر ، وقوله فاجر ، وسعيه بائر ، وهو بكم غداً غادر . فقالوا : أفلا نقتله ؟ قال : إنا قد آمَنَّاه وأجرناه ، وقد أجاره أخوكم إبراهيم بن الأَشْتر ، فجلس مع الناس .

قال : ثم إن إبراهيم قام فانصرف إلى منزله فأعطاه ألفاً وفسراً ومُطَرَفَا فرجع بها وقال : لا والله ، لا جاورت هؤلاء أبداً . وأقبلتْ هوازنُ وغضبتْ واجتمعتْ في المسجد غضباً لابن هَمَام ، فبعث إليهم المختار فسألهم أن يصفحوا عما اجتمعوا له ، ففعلوا ، وقال ابن هَمَام لابن الأَشْتر يمدحه :

أَطْفَاءً عَنِّي نَارَ كَلْبَيْنِ أَلْبَا	عليَّ الكلاب ذو الفِعال ابنُ مالِك
فَتَى حِينَ يَلْقَى الْخَيْلَ يَفْرُقُ بَيْنَهَا	بطعن دِرَاكِ أَوْ بَضْرِب مُوَأَشِك
وَقَدْ غَضِبْتُ لِي مِنْ هَوَازِنَ عُصْبَةً	طَوَالَ الدُّرَا فِيهَا عَرَاضِ الْمَبَارِك
إِذَا ابْنُ شَمِيطٍ أَوْ يَزِيدٌ تَعَرَّضَا	لَهَا وَقَعَا فِي مُسْتَحَارِ الْمِهَالِك
وَتُبْتُمْ عَلَيْنَا يَا مَوَالِيَّ طَيِّبِ	مَعَ ابْنِ شَمِيطٍ شَرُّ مَاشٍ وَرَاتِك
وَأَعْظَمَ دِيَارٍ عَلَى اللَّهِ فِرْيَةً	وَمَا مُفْتَرٍ طَاغٍ كَاخَرَ نَاسِك
فِيَا عَجَباً مِنْ أَحْمَسَ ابْنَةِ أَحْمَسٍ	تَوَثَّبُ حَوْلِي بِالْقَنَا وَالنِّيَازِك
كَأَنَّكُمْ فِي الْعِزِّ قَيْسٌ وَخُثْعَمٌ	وَهَلْ أَنْتُمْ إِلَّا لَثَامُ عَوَارِك

وأقبل عبدالله بن شدَّاد من الغد فجلس في المسجد يقول : علينا تَوَثَّبُ بنو أسد وأحمس ! والله لا نرضى بهذا أبداً . فبلغ ذلك المختار ، فبعث إليه فدعاه ، ودعا بيزيد بن أنس وبابن شَمِيط ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : يا بن شدَّاد ، إنَّ الذي فعلتْ نَزْغَةٌ من نَزْغَاتِ الشَّيْطَان ، فثُبَّ إلى الله ؛ قال : قد تُبَّت ، وقال : إن هذين أخواك ، فأقبل إليهما ، وأقبل منهما ، وهب لي هذا الأمر ؛ قال : فهولك ،

وكان ابن همام قد قال قصيدةً أخرى في أمر المختار ، فقال :

أضحت سُلَيْمَى بعدَ طولِ عِتَابِ	وَتَجَرَّمُ وَنَفَادِ غَرْبِ شَبَابِ
قد أَرَمَعْتَ بِصَرِيْمَتِي وَتَجَنَّبِي	وتَهَوُّكِ مُذْ ذَاكَ فِي إِعْتَابِ
لَمَّا رَأَيْتُ الْقَصْرَ أَغْلَقَ بَابُهُ	وتَوَكَّلْتَ هَمْدَانُ بِالْأَسْبَابِ
ورَأَيْتُ أَصْحَابَ الدَّقِيقِ كَأَنَّهُمْ	حَوْلَ الْبُيُوتِ ثَعَالِبُ الْأَسْرَابِ
ورَأَيْتُ أَبْوَابَ الْأَزَقَةِ حَوْلَنَا	درَبْتَ بِكُلِّ هِرَاوَةٍ وَذُبَابِ
أَيَقْنَتُ أَنَّ خِيُولَ شِيعَةٍ رَاشِدِ	لَمْ يَبْقُ مِنْهَا فَيْشٌ أَيْرِ دُبَابِ

ذكر الخبر عن أمر المختار مع قتلة الحسين بالكوفة

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة وثب المختار بمن كان بالكوفة من قتلة الحسين والمشايعين على قتله ، فقتل من قدر عليه منهم ، وهرب من الكوفة بعضهم ، فلم يقدر عليه .

ذكر الخبر عن سبب وثوبه بهم وتسمية من قتل منهم ومن هرب فلم يقدر عليه منهم :

وكان سبب ذلك - فيما ذكره هشام بن محمد ، عن عوانة بن الحكم - أن مروان بن الحكم لما استوسقت له الشام بالطاعة ، بعث جيشين أحدهما إلى الحجاز عليه حُبَيْش بن دُلْجَة القيني - وقد ذكرنا أمره وخبر مهلكه قبل - والآخر منهما إلى العراق عليهم عبيد الله بن زياد - وقد ذكرنا ما كان من أمره وأمر التوابين من الشيعة بعين الوردة - وكان مروان جعل لعبيد الله بن زياد إذ وجهه إلى العراق ما غلب عليه ، وأمره أن ينهب الكوفة إذا هو ظفر بأهلها ثلاثاً .

قال عوانة : فمر بأرض الجزيرة فاحتبس بها وبها قيسُ عَيْلان على طاعة ابن الزبير ، وقد كان مروان أصاب قيساً يوم مَرْجِ راهط وهم مع الضحَّاك بن قيس مخالفين على مروان ، وعلى ابنه عبد الملك من بعده ، فلم يزل عبيد الله مشتغلاً بهم عن العراق نحواً من سنة . ثم إنه أقبل إلى الموصل ، فكتب عبد الرحمن بن سعيد بن قيس عامل المختار على الموصل إلى المختار : أما بعد ، فإني أخبرك أيها الأمير أن عبيد الله بن زياد قد دخل أرض الموصل ، وقد وجه قبلي خيله ورجاله ، وإني انحزت إلى تكريت حتى يأتيني رأيك وأمرُك ، والسلام عليك .

فكتب إليه المختار : أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، وفهمت كل ما ذكرت فيه ، فقد أصبت بانحيازك إلى تكريت ، فلا تبرحن مكانك الذي أنت به حتى يأتيك أمري إن شاء الله ، والسلام عليك .

قال هشام ، عن أبي مخنف : حدثني موسى بن عامر ، أن كتاب عبد الرحمن بن سعيد لما ورد على المختار بعث إلى يزيد بن أنس فدعاه ، فقال له : يا يزيد بن أنس ، إن العالم ليس كالجاهل ، وإن الحق ليس كالباطل ، وإني أخبرك خبر من لم يكذب ولم يكذب ، ولم يخالف ولم يرتب ، وإنا

المؤمنون الميامين ، الغالبون المساليم ، وإنك صاحب الخيل التي تجرّ جعابها ، وتضفر أذناها ، حتى تُوردها منابت الزيتون ، غائرة عيونها ، لاحقة بطونها . اخرج إلى الموصل حتى تنزل أدانيها ، فإني ممّدك بالرجال بعد الرجال . فقال له يزيد بن أنس : سرّح معي ثلاثة آلاف فارس أنتخبهم ، وخلصني والفرج الذي توجّهنا إليه ، فإن احتجت إلى الرجال فسأكتب إليك ؛ قال له المختار : فاخرج فانتخب على اسم الله من أحببت . فخرج فانتخب ثلاثة آلاف فارس ، فجعل على رُبع المدينة النعمان بن عوف بن أبي جابر الأزدي ، وعلى ربع تميم وهمدان عاصم بن قيس بن حبيب الهمداني ، وعلى مدحج وأسد ورقاء بن عازب الأسدي ، وعلى رُبع ربيعة وكندة سَعْر بن أبي سَعْر الحنفي .

ثم إنه فصل من الكوفة ، فخرج وخرج معه المختار والناس يشيعونه ، فلما بلغ دير أبي موسى ودّعه المختار وانصرف ، ثم قال له : إذا لقيت عدوك فلا تُناظرهم ، وإذا أمكنتك الفرصة لا تؤخرها ، وليكن خبرك في كلّ يوم عندي ، وإن احتجت إلى مدد فاكتب إليّ ؛ مع أني مُمدك ولو لم تستمدد ، فإنه أشدّ لِعَضْدِكَ ، وأَعَزّ لَجُنْدِكَ ، وأَرَعَب لِعَدُوّكَ . فقال له يزيد بن أنس : لا تمدني إلا بدعائك ، فكفى به مدداً . وقال له الناس : صَحَبَكَ اللَّهُ وَأَذَاكَ وَأَيْدِكَ . وودّعوه . فقال لهم يزيد : سلوا الله لي الشهادة ، وإيم الله لئن لقيتهم ففاتني النصر لا تفتني الشهادة إن شاء الله . فكتب المختار إلى عبد الرحمن بن سعيد بن قيس : أما بعد ، فخلّ بين يزيد وبين البلاد إن شاء الله ، والسلام عليك . فخرج يزيد بن أنس بالناس حتى بات بسُورًا ، ثم غدا بهم سائراً حتى بات بهم بالمدائن ؛ فشكا الناس إليه ما دخلهم من شدة السير عليهم ، فأقام بها يوماً وليلة . ثم إنّه اعترض بهم أرض جُوخَى حتى خرج بهم في الراذانات ، حتى قطع بهم إلى أرض الموصل ، فنزلت ببنات تلى ، وبلغ مكانه ومنزله الذي نزل به عبيد الله بن زياد ، فسأل عن عدّتهم ، فأخبرته عيونه أنّه خرج معه من الكوفة ثلاثة آلاف فارس ، فقال عبيد الله : فأنا أبعث إلى كلّ ألف ألفين . ودعا ربيعة بن المخارق الغنوي وعبد الله بن حملة الخثعمي ، فبعثهما في ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ، وبعث ربيعة بن المخارق أولاً ، ثم مكث يوماً ، ثم بعث خلفه عبد الله بن حملة ، ثم كتب إليهما : أيكما سبق فهو أمير على صاحبه ، وإن انتهيتما جميعاً فأبكركما سنأ أميراً على صاحبه والجماعة . قال : فسبق ربيعة بن المخارق فنزل بيزيد بن أنس وهو ببنات تلى ، فخرج إليه يزيد بن أنس وهو مريض مضنى .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو الصلت ، عن أبي سعيد الصيّقل ، قال : خرج علينا يزيد بن أنس وهو مريض على حمار يمشي معه الرجال يُمسيكونه عن يمينه وعن شماله ، بفخذه وعضديه وجنبه ، فجعل يقف على الأربع : رُبع ربع ويقول : يا شرطه الله ، اصبروا تُؤجروا وصابروا عدوكم تظفروا ، وقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كَيْدَ الشيطان كان ضَعِيفاً ، إن هلك فأميركم ورقاء بن عازب الأسدي ، فإن هلك فأميركم عبد الله بن ضَمْرَة العذري ، فإن هلك فأميركم سَعْر بن أبي سَعْر الحنفي . قال : وأنا والله فيمن يمشي معه ويُمسك بعضده ويده ، وإني لأعرف في وجهه أن الموت قد نزل به . قال : فجعل يزيد بن أنس عبد الله بن ضَمْرَة العذري على ميمته ، وسَعْر بن أبي سَعْر على ميسرته ، وجعل ورقاء بن عازب الأسدي على الخيل ، ونزل هو فوضع بين الرجال على السرير ،

ثم قال لهم : ابرزوا لهم بالعرء ، وقدموني في الرجال ، ثم إن شئتم فقاتلوا عن أميركم ، وإن شئتم ففروا عنه . قال : فأخرجناه في ذي الحجة يوم عرفة سنة ست وستين ، فأخذنا نُمسك أحياناً بظُهره فيقول : إصنعوا كذا ، اصنعوا كذا ، وافعلوا كذا ، فيأمر بأمره ، ثم لا يكون بأسرع من أن يغلبه الوجع فيوضع هُنيئة ويقتل الناس ، وذلك عند شفق الصبح قبل شروق الشمس . قال : فحملت ميسرتهم على ميمنتنا ، فاشتد قتالهم ، وتحمل ميسرتنا على ميمنتهم فتزهمها ، ويحمل ورقاء بن عازب الأسدي في الخيل فهزمهم ، فلم يرتفع الضحى حتى هزمناهم ، وحوينا عسكرهم .

قال أبو مخنف : وحدثني موسى بن عامر العدوي ، قال : انتهينا إلى ربيعة بن المخارق صاحبهم ، وقد انهزم عنه أصحابه وهو نازل ينادي : يا أولياء الحق ، يا أهل السمع والطاعة ، إلي أنا ابن المخارق ؛ قال موسى : فأما أنا فكنْتُ غلاماً حَدَثاً ، فهبته ووقفت ، ويحمل عليه عبدالله بن ورقاء الأسدي وعبدالله بن ضمرة العدوي ، فقتلاه .

قال أبو مخنف : وحدثني عمرو بن مالك أبو كبشة القيني ؛ قال : كنت غلاماً حين راهقت مع أحد عمومتي في ذلك العسكر ، فلما نزلنا بعسكر الكوفيين عبأنا ربيعة بن المخارق فأحسن التعبئة ، وجعل على ميمنته ابن أخيه ، وعلى ميسرته عبد ربّه السلمي ، وخرج هو في الخيل والرجال وقال : يا أهل الشام ، إنكم إنما تقاتلون العبيد الأَباق ، وقوماً قد تركوا الإسلام وخرجوا منه ، ليست لهم تقية ، ولا ينطقون بالعربية ؛ قال : فوالله إن كنت لأحسب أن ذلك كذلك حتى قاتلناهم ؛ قال : فوالله ما هو إلا أن اقتتل الناس إذا رجل من أهل العراق يعترض الناس بسيفه وهو يقول :

بَرِئْتُ مِنْ دِينِ الْمُحَكَّمِينَا وَذَاكَ فِينَا شَرُّ دِينِ دِينَا

ثم إن قاتلنا وقتالهم اشتد ساعة من النهار ، ثم إنهم هزمونا حين ارتفع الضحى فقاتلوا صاحبنا ، وحووا عسكرنا ؛ فخرجنا منهزمين حتى تلقانا عبدالله بن حملة على مسيرة ساعة من تلك القرية التي يقال لها بنات تلى ، فردنا ، فأقبلنا معه حتى نزل بيزيد بن أنس ، فبتنا متحارسين حتى أصبحنا فصلينا الغداة ، ثم خرجنا على تعبئة حسنة ، فجعل على ميمنته الزبير بن خزيمة ؛ من خثعم ، وعلى ميسرته ابن أقيصر القحافي من خثعم ، وتقدم في الخيل والرجال ، وذلك يوم الأضحى ، فاقتلنا قتالاً شديداً ، ثم إنهم هزمونا هزيمة قبيحة ، وقتلونا قتالاً ذريعاً ، وحووا عسكرنا ، وأقبلنا حتى انتهينا إلى عبيدالله بن زياد فحدثناه بما لقينا .

قال أبو مخنف : وحدثني موسى بن عامر ، قال : أقبل إلينا عبدالله بن حملة الخثعمي ؛ فاستقبل فل ربيعة بن المخارق الغنوي فردهم ، ثم جاء حتى نزل بنات تلى ، فلما أصبح غادوا وغادينا ، فتطاردت الخيلان من أول النهار ، ثم انصرفوا وانصرفنا ؛ حتى إذا صلبنا الظهر خرجنا فاقتلنا ، ثم هزمناهم . قال : ونزل عبدالله بن حملة فأخذ ينادي أصحابه : الكرة بعد الفرّة ، يا أهل السمع والطاعة ؛ فحمل عليه عبدالله بن قراد الخثعمي فقتله ، وحوينا عسكرهم وما فيه ، وأتي يزيد بن أنس بثلاثمائة أسير وهو في السوق ، فأخذ يومئذ بيده أن اضربوا أعناقهم ، فقتلوا من عند آخرهم .

وقال يزيد بن أنس : إن هلك فأميركم ورقاء بن عازب الأسدي ، فما أمسى حتى مات ، فصلّى

عليه ورقاء بن عازب ودَفَنَهُ ، فلما رأى ذلك أصحابه أسقط في أيديهم ، وكَسَرَ موته قلوب أصحابه ، وأخذوا في دفنه ، فقال لهم ورقاء : يا قوم ، ماذا ترون؟ إنَّه قد بلغني أن عبيدالله بن زياد قد أقبل إلينا في ثمانين ألفاً من أهل الشام ، فأخذوا يتسلَّلون ويرجعون . ثم إن ورقاء دعا رؤوس الأرباع وفُرسان أصحابه فقال لهم : يا هؤلاء ، ماذا ترون فيما أخبرتكم؟ إنَّما أنا رجل منكم ، ولست بأفضلكم رأياً ، فأشيروا عليّ ، فإن ابن زياد قد جاءكم في جُند أهل الشام الأعظم ، وبجُلَّتْهم وفُرسانهم وأشرافهم ، ولا أرى لنا ولكم بهم طاقة على هذه الحال ، وقد هلك يزيد بن أنس أميرنا ، وتفرقت عنا طائفة منا ، فلو انصرفنا اليوم من تلقاء أنفسنا قبل أن نلقاهم ، وقبل أن تَبْلُغهم ، فَيَعْلَمُوا أنَّنا إنَّما ردنا عنهم هلاك صاحبنا ، فلا يزالوا لنا هائبين لَقَتَلْنَا منهم أميرهم ! ولأنَّنا إنَّما نعتل لانصرافنا بموت صاحبنا ، وإنَّا إن لقيناهم اليوم كُنَّا مخاطرين ، فإن هُزِمْنَا اليوم لم تنفعنا هزيمتنا إيَّاهم من قبل اليوم . قالوا : فإنَّك نعماً رأيت ، انصرف رحمك الله . فانصرف ، فبلغ مُنصرِفُهُم ذلك المختار وأهل الكوفة ، فأرجف الناس ، ولم يعلموا كيف كان الأمر أن يزيد بن أنس هَلَكَ ، وأنَّ الناس هُزِمُوا ، فبعث إلى المختار عامله على المدائن عيناً له من أنباط السواد فأخبره الخبر فدعا المختار إبراهيم بن الأشتر فعقد على سبعة آلاف رجل ، ثم قال له : سرَّ حتى إذا أنت لقيت جيش ابن أنس فارددهم معك ، ثم سرَّ حتى تلقى عدوك فتناجزهم . فخرج إبراهيم فوضع عسكره بحمام أعين .

قال أبو مخنف : فحدثني أبو زهير النضر بن صالح ، قال : لما مات يزيد بن أنس التقى أشراف الناس بالكوفة فأرجفوا بالمختار وقالوا : قتل يزيد بن أنس ، ولم يصدِّقوا أنَّه مات ، وأخذوا يقولون : والله لقد تأمر علينا هذا الرجل بغير رضا منا ، ولقد أدنى موالينا ، فحملهم على الدواب ، وأعطاهم وأطعمهم فيثنا ، ولقد عصتنا عبيدنا ، فحرب بذلك أيتامنا وأراملنا . فأتعدوا منزل شَبَث بن ربعي وقالوا : نجتمع في منزل شيخنا - وكان شَبَث جاهلياً إسلامياً - فاجتمعوا فأتوا منزله ، فصلَّى بأصحابه ، ثم تذاكروا هذا النحو من الحديث قال : ولم يكن فيما أحدث المختار عليهم شيء هو أعظم من أن جعل للموالي الفيء نصيباً - فقال لهم شَبَث : دعوني حتى ألقاه ؛ فذهب فلقيه ، فلم يدع شيئاً ممَّا أنكره أصحابه إلَّا وقد ذاكَّره إيَّاه ، فأخذ لا يذكر خصلة إلَّا قال له المختار : أرضيهم في هذه الخصلة ، وآتي كلَّ شيء أحبوا ؛ قال : فذكر الممالك ؛ قال : فأنا أردُّ عليهم عبيدهم ، فذكر له الموالى ، فقال : عمدت إلى موالينا ، وهم فيء أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعاً فاعتقنا رقابهم ، نأملُ الأجر في ذلك والثواب والشكر ، فلم تَرْضَ لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيثنا ، فقال لهم المختار : إنَّ أنا تركت لكم مواليكم ، وجعلت فيثكم فيكم ، أتقاتلون معي بني أمية وابن الزبير ، وتعطون على الوفاء بذلك عهد الله وميثاقه ، وما أطمئن إليه من الأيمان؟ فقال شَبَث : ما أدري حتى أخرج إلى أصحابي فأذاكرهم ذلك ، فخرج فلم يرجع إلى المختار .

قال : وأجمَعَ رأي أشراف أهل الكوفة على قتال المختار .

قال أبو مخنف : فحدثني قدامة بن حوشب ، قال : جاء شَبَث بن ربعي وشَمِير بن ذي الجوشن ومحمد بن الأشعث وعبدالرحمن بن سعيد بن قيس حتى دخلوا على كعب بن أبي كعب الخثعمي ، فتكلَّم

شَبَّثَ ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ بِاجْتِمَاعِ رَأْيِهِمْ عَلَى قِتَالِ الْمُخْتَارِ ، وَسَأَلَهُ أَنْ يُجِيبَهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، وَقَالَ فِيمَا يَعِيبُ بِهِ الْمُخْتَارَ : إِنَّهُ تَأَمَّرَ عَلَيْنَا بِغَيْرِ رِضَا مِنَّا ، وَزَعَمَ أَنَّ ابْنَ الْخَنْفِيَّةِ بَعَثَهُ إِلَيْنَا ، وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ ابْنَ الْخَنْفِيَّةِ لَمْ يَفْعَلْ ، وَأَطْعَمَ مَوَالِينَا فَيْثُنَا ، وَأَخَذَ عِبِيدَنَا ، فَحَرَّبَ بِهِمْ يَتَامَانَا وَأَرَامِلَنَا ، وَأَظْهَرَ هُوَ وَسَبَيْتَهُ الْبِرَاءَةَ مِنْ أَسْلَافِنَا الصَّالِحِينَ . قَالَ : فَرَحَّبَ بِهِمْ كَعَبِ بْنِ أَبِي كَعَبٍ ، وَأَجَابَهُمْ إِلَى مَا دَعَوْهُ إِلَيْهِ .

قَالَ أَبُو مَخْنَفٍ : حَدَّثَنِي أَبِي يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ أَنَّ أَشْرَافَ أَهْلِ الْكُوفَةِ قَدْ كَانُوا دَخَلُوا عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَخْنَفٍ ، فَدَعَوْهُ إِلَى أَنْ يُجِيبَهُمْ إِلَى قِتَالِ الْمُخْتَارِ ، فَقَالَ لَهُمْ : يَا هَؤُلَاءِ ، إِنَّكُمْ إِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَخْرُجُوا لَمْ أَخَذْكُمْ ، وَإِنْ أَنْتُمْ أَطَعْتُمُونِي لَمْ تَخْرُجُوا . فَقَالُوا : لِمَ؟ قَالَ : لِأَنِّي أَخَافُ أَنْ تَتَفَرَّقُوا وَتَخْتَلِفُوا وَتَتَخَذَلُوا ؛ وَمَعَ الرَّجُلِ وَاللهُ شَجَعَاؤُكُمْ وَفِرْسَانُكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ؛ أَلَيْسَ مَعَهُ فُلَانٌ وَفُلَانٌ! ثُمَّ مَعَهُ عِبِيدُكُمْ وَمَوَالِيكُمْ ، وَكَلِمَةُ هَؤُلَاءِ وَاحِدَةٌ ، وَعِبِيدُكُمْ وَمَوَالِيكُمْ أَشَدَّ حَقًّا عَلَيْكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ، فَهُوَ مَقَاتِلُكُمْ بِشِجَاعَةِ الْعَرَبِ ، وَعِدَاوَةُ الْعَجَمِ ، وَإِنْ أَنْتُمْ تَمَرَّدْتُمْ قَلِيلًا كُفَيْتُمُوهُ بِقُدُومِ أَهْلِ الشَّامِ أَوْ بِمُجِيءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، فَتَكُونُوا قَدْ كُفَيْتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ ، وَلَمْ تَجْعَلُوا بِأَسْكُمْ بَيْنَكُمْ ؛ قَالُوا : نَنْشُدُكَ اللهُ أَنْ تَخَالَفَنَا ، وَأَنْ تُفْسِدَ عَلَيْنَا رَأْيَنَا وَمَا قَدْ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ جَمَاعَتُنَا . قَالَ : فَأَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ ، فَإِذَا شِئْتُمْ فَاخْرُجُوا . فَسَارَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَقَالُوا : أَنْتَظِرُوا حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْأَشْثَرِ ؛ قَالَ : فَأَمْهَلُوا حَتَّى إِذَا بَلَغَ ابْنُ الْأَشْثَرِ سَابَاطَ ، وَثَبُّوا بِالْمُخْتَارِ . قَالَ : فَخَرَجَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَعِيدٍ بِنَ قَيْسِ الْهَمْدَانِيِّ فِي هَمْدَانَ فِي جَبَانَةٍ السَّبِيْعِ ، وَخَرَجَ زُحْرُ بْنُ قَيْسِ الْجُعْفِيِّ وَإِسْحَاقُ بْنُ مُحَمَّدٍ بِنَ الْأَشْعَثِ فِي جَبَانَةٍ كِنْدَةَ .

قَالَ هِشَامُ : فَحَدَّثَنِي سَلِيمَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْخَضْرَمِيُّ ، قَالَ : خَرَجَ إِلَيْهِمَا جَبْرِ الْخَضْرَمِيِّ فَقَالَ لَهَا : أَخْرُجَا عَنْ جَبَانَتِنَا ، فَإِنَّا نَكْرَهُ أَنْ نُعْرَى بِشَرٍّ ؛ فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ بْنُ مُحَمَّدٍ : وَجَبَانَتُكُمْ هِيَ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَانْصَرَفُوا عَنْهُ ؛ وَخَرَجَ كَعَبُ بْنُ أَبِي كَعَبٍ الْخَنْعَمِيُّ فِي جَبَانَةِ بَشَرٍ ، وَسَارَ بِشِيرِ بْنِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ إِلَيْهِمْ فِي بَجِيلَةٍ ، وَخَرَجَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَخْنَفٍ فِي جَبَانَةِ مَخْنَفٍ ، وَسَارَ إِسْحَاقُ بْنُ مُحَمَّدٍ وَزُحْرُ بْنُ قَيْسٍ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعِيدٍ بِنَ قَيْسِ بَجَبَانَةِ السَّبِيْعِ ، وَسَارَتْ بِجِيلَةً وَخَنَعُمْ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَخْنَفٍ وَهُوَ بِالْأَزْدِ . وَبَلَغَ الَّذِينَ فِي جَبَانَةِ السَّبِيْعِ أَنَّ الْمُخْتَارَ قَدْ عَبَّاهُمْ خِيَلًا لَيْسَ إِلَيْهِمْ . فَبَعَثُوا الرِّسْلَ يَتَلَوُ بَعْضُهَا بَعْضًا إِلَى الْأَزْدِ وَبَجِيلَةٍ وَخَنَعُمْ ، يَسْأَلُونَهُمْ بِاللَّهِ وَالرَّحْمَ لَمَّا عَجَلُوا إِلَيْهِمْ . فَسَارُوا إِلَيْهِمْ وَاجْتَمَعُوا جَمِيعًا فِي جَبَانَةِ السَّبِيْعِ ، وَلَمَّا أَنَّ بَلَغَ ذَلِكَ الْمُخْتَارَ سَرَّهُ اجْتِمَاعَهُمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ ، وَخَرَجَ شَمْرُ بْنُ ذِي الْجَوْشَنِ حَتَّى نَزَلَ بِجَبَانَةِ بَنِي سَلُولٍ فِي قَيْسٍ ، وَنَزَلَ شَبَّثُ بْنُ رَبِيعٍ وَحَسَانُ بْنُ فَائِدٍ الْعَبْسِيُّ وَرَبِيعَةُ بْنُ ثُرَوَانَ الضَّبِّيُّ فِي مُضَرَ بِالْكُنَاسَةِ ، وَنَزَلَ حَجَّارُ بْنُ أَبْحَرَ وَيَزِيدُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ رُوَيْمٍ فِي رَبِيعَةٍ فِيمَا بَيْنَ التَّمَارِينِ وَالسَّبَخَةِ ، وَنَزَلَ عَمْرُو بْنُ الْحَجَّاجِ الزَّبِيدِيُّ فِي جَبَانَةِ مُرَادِ بْنِ تَبَعِهِ مِنْ مَذْحِجٍ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ أَهْلُ الْيَمَنِ : أَنْ أَتَيْنَا ، فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ : جَدُّوْا ، فَكَأَنِّي قَدْ أَتَيْتُكُمْ . قَالَ : وَبَعَثَ الْمُخْتَارَ رَسُولًا مِنْ يَوْمِهِ يَقَالُ لَهُ عَمْرُو بْنُ تَوْبَةَ بِالرُّكُضِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَشْثَرِ وَهُوَ بِسَابَاطَ أَلَّا تَضَعُ كِتَابِي مِنْ يَدِكَ حَتَّى تُقْبَلَ بِجَمِيعٍ مِنْ مَعَكَ إِلَيَّ . قَالَ : وَبَعَثَ إِلَيْهِمُ الْمُخْتَارَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ : أَخْبِرُونِي مَا تَرِيدُونَ؟ فَإِنِّي صَانِعٌ كُلِّ مَا أَحْبَبْتُمْ ، فَقَالُوا : فَإِنَّا نُرِيدُ أَنْ تَعْتَزَّلَنَا ، فَإِنَّكَ زَعَمْتَ أَنَّ ابْنَ الْخَنْفِيَّةِ بَعَثَكَ وَلَمْ يَبْعَثْكَ . فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الْمُخْتَارُ أَنْ ابْعَثُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلِكُمْ وَفَدًّا ، وَابْعَثْ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلِي وَفَدًّا ، ثُمَّ أَنْظِرُوا فِي ذَلِكَ حَتَّى تَتَبَيَّنَ هُوَ وَهُوَ

يريد أن يريتهم بهذه المقالة ليَقدم عليه إبراهيم بن الأشتر ، وقد أمر أصحابه فكفّوا أيديهم ، وقد أخذ أهل الكوفة عليهم بأفواه السكك ، فليس شيء يصل إلى المختار ولا إلى أصحابه من الماء إلا القليل الوثج ، يجيئهم إذا غفلوا عنه . قال : وخرج عبدالله بن سبيع في الميدان ، فقاتله شاكراً قتالاً شديداً ، فجاء عُقبة بن طارق الجُشمي فقاتل معه ساعة حتى ردّ عاديّتهم عنه ، ثم أقبل على حاميتيها يسيران حتى نزل عُقبة بن طارق مع قيس في جبانة بني سلول ، وجاء عبدالله بن سبيع حتى نزل مع أهل اليمن في جبانة السبيع .

قال أبو مخنف : حدّثني يونس بن أبي إسحاق ، أن شمر بن ذي الجوشن أتى أهل اليمن فقال لهم : إن اجتمعتم في مكان نجعل فيه مجنبتين ونقاتل من وجه واحد فأنا صاحبكم ، وإلا فلا ، والله لا أقاتل في مثل هذا المكان في سبك ضيقة ، ونقاتل من غير وجه . فانصرف إلى جماعة قومه في جبانة بني سلول . قال : ولما خرج رسول المختار إلى ابن الأشتر بلغه من يومه عشيّة ، فنادى في الناس : أن ارجعوا إلى الكوفة ، فسار بقية عشيته تلك ، ثم نزل حين أمسى ، فتعشّى أصحابه ، وأراحوا الدواب شيئاً كلاً شيء ، ثم نادى في الناس ، فسار ليلته كلّها ، ثم صلّى الغداة بسوراً ، ثم سار من يومه فصلّى العصر على باب الجسر من الغد ، ثم إنه جاء حتى بات ليلته في المسجد ومعه من أصحابه أهل القوة والجلد ، حتى إذا كان صبيحة اليوم الثالث من مُخرَجهم على المختار، خرج المختار إلى المنبر فصعدّه .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو جناب الكلبي أن شَبَّ بن رُبَعي بعث إليه ابنه عبدالمؤمن فقال : إنما نحن عشيرتُك ، وكفّ يمينك ، لا والله لا نقاتلك ، فنقّ بذلك منّا ؛ وكان رأيّه قتاله ، ولكنه كاده . ولما اجتمع أهل اليَمَن بجنبانة السبيع حضرت الصلاة ، فكّر كل رأس من رؤوس أهل اليمن أن يتقدّمه صاحبه ، فقال لهم عبدالرحمن بن مخنف : هذا أول الاختلاف ، قدّموا الرضا فيكم ، فإن في عشيرتكم سيّد قراء أهل المصر ، فليصل بكم رفاعه بن شدّاد الفتياي من بجيلة ، ففعلوا ، فلم يزل يصلي بهم حتى كانت الوقعة .

قال أبو مخنف : وحدّثني وازع بن السري أن أنس بن عمرو الأزدي انطلق فدخل في أهل اليمن ، وسمعهم وهم يقولون : إن سار المختار إلى إخواننا من مضر سرّنا إليهم ، وإن سار إلينا ساروا إلينا ، فسمِعها منهم رجل ، وأقبل جواداً حتى صعد إلى المختار على المنبر ، فأخبره بمقالتهم ، فقال : أمّا هم فخلّقاء لو سرّرت إلى مضر أن يسيروا إليهم ، وأمّا أهل اليَمَن فأشهد لئن سرّرت إليهم لا تسير إليهم مضر ، فكان بعد ذلك يدعو ذلك الرجل ويكرمه . ثم إن المختار نزل فعبّ أصحابه في السوق - والسوق إذ ذاك ليس فيها هذا البناء - فقال لإبراهيم بن الأشتر : إلى أيّ الفريقين أحبّ إليك أن تسير؟ فقال : إلى أيّ الفريقين أحببت ، فنظر المختار - وكان ذا رأي ، فكره أن يسير إلى قومه فلا يبالغ في قتالهم - فقال : سرّ إلى مضر بالكُناسة وعليهم شَبَّ بن رُبَعي ومحمّد بن عمير بن عطار ، وأنا أسير إلى أهل اليَمَن .

قال : ولم يزل المختار يُعرف بشدّة النفس ، وقلة البقيّة على أهل اليمن وغيرهم إذا ظفر ، فسار إبراهيم بن الأشتر إلى الكُناسة ، وسار المختار إلى جبانة السبيع ، فوقف المختار عند دار عُمر بن سعد بن أبي وقاص ، وسرّح بين أيديه أحمَر بن شُميظ البجليّ ثم الأحمسي ، وسرّح عبدالله بن كامل الشاكري ،

وقال لابن شميظ : إلزم هذه السكة حتى تخرج إلى أهل جبانة السبيع من بين دُور قومك . وقال لعبد الله بن كامل : إلزم هذه السكة حتى تخرج على جبانة السبيع من دار آل الأخنس بن شريق ، ودعاهما فأسرَّ إليهما أنَّ شيباما قد بعثتُ تُخبرني أنهم قد أتوا القوم من ورائهم ، فمَضَيَا فسلكا الطريقين اللذين أمرهما بهما ، وبلغ أهل اليمن مسيرُ هذين الرجلين إليهم ، فاقترسوا تَيْنِكَ السكتَيْن ، فأما السكة التي في دبر مسجد أمّس فإنّه وقف فيها عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الممداني وإسحاق بن الأشعث وزُخْر بن قيس ، وأما السكة التي تلي الفُرات فإنّه وقف فيها عبد الرحمن بن مخنف ، وبشير بن جرير بن عبد الله ، وكعب بن أبي كعب . ثم إن القوم اقتتلوا كأشدّ قتال اقتتلّه قوم . ثم إن أصحاب أحمر بن شميظ انكشفوا وأصحاب عبد الله بن كامل أيضاً ، فلم يُرْع المختارُ إلّا وقد جاءه الفلُّ قد أقبل ؛ فقال : ما وراءكم؟ قالوا : هُزِمْنَا ؛ قال : فما فعل أحمر بن شميظ؟ قالوا : تركناه قد نزل عند مسجد القصاص - يَعْنُون مسجدَ أبي داود في وادعة ، وكان يعتاده رجالُ أهل ذلك الزمان يقصّون فيه ، وقد نزل معه أناس من أصحابه - وقال أصحاب عبد الله : ما ندري ما فعل ابن كامل ! فصاح بهم : أن انصرفوا . ثم أقبل بهم حتى انتهى إلى دار أبي عبد الله الجُدِّي ، وبعث عبد الله بن قُرَاد الخثعمي - وكان على أربعمئة رجل من أصحابه - فقال : سرّ في أصحابك إلى ابن كامل ، فإنّ يك هلك فأنت مكانه ، فقاتل القوم بأصحابك وأصحابه ، وإن تجده حيّاً صالحاً فسرّ في مائة من أصحابك كلّهم فارس ، وادفع إليه بقيّة أصحابك ، ومرّ بالجدّ معه والمناصحة له ، فإنهم إنّما يناصحونني ، ومنّ ناصحني فليشر ، ثم امض في المائة حتى تأتي أهل جبانة السبيع مما يلي حَمَّ قَطَن بن عبد الله . فمضى فوجد ابن كامل واقفاً عند حَمَّ عمرو بن حُرَيْث معه أناس من أصحابه قد صبروا ، وهو يقاتل القوم ، فدفع إليه ثلاثمائة من أصحابه ثم مضى حتى نزل إلى جبانة السبيع .

ثم أخذ في تلك السكك حتى انتهى إلى مسجد عبد القيس ، فوقف عنده ، وقال لأصحابه : ما ترون؟ قالوا : أمرنا لأمرِكَ تَبِع وكل من كان معه من حاشد من قومه وهم مائة ؛ فقال لهم : والله إني لأحبّ أن يظْهَر المختار ، والله إني لكأرّه أن يهلك أشرافَ عشيرتي اليوم ، والله لأن أموت أحبّ إليّ من أن يَحِلَّ بهم الهلاك على يدي ، ولكن قِفُوا قليلاً فإني قد سمعتُ شيباما يزعمون أنّهم سيأتونهم من ورائهم ، فلعلّ شيباما تكون هي تفعل ذلك ، ونُعافى نحن منه . قال له أصحابه : فرأيك . فثبت كما هو عند مسجد عبد القيس ، وبعث المختارُ مالك بن عمرو النهدي في مائتي رجل - وكان من أشدّ الناس بأساً - وبعث عبد الله بن شريك النهدي في مائتي فارس إلى أحمر بن شميظ ، وثبت مكانه ، فانتهوا إليه وقد علاه القوم وكَثُرُوهُ ، فاقتتلوا عند ذلك كأشدّ القتال ، ومضى ابن الأشرح حتى لقي شَبَث بن رُبْعِي ، وأنا سامعه من مضرٍ كثيراً ، وفيهم حَسَّان بن فائد العبسي ، فقال لهم إبراهيم : وَيَحْكُم ! انصرفوا ، فوالله ما أحبّ أن يصاب أحد من مُضَر على يدي ، فلا تُهلكوا أنفسكم ، فأبَوْا ، فقاتلوه فهزّمهم ، واحتُمِل حَسَّان بن فائد إلى أهله ، فمات حين أدخل إليهم ، وقد كان وهو على فراشه قبل موته أفاقَ لإفاقة فقال : أما والله ما كنت أحبّ أن أعيش من جراحتي هذه ، وما كنت أحبّ أن تكون منيَّتي إلّا بطعنة رمح ، أو بضربة سيف ؛ فلم يتكلّم بعدها كلمة حتى مات . وجاءت البشري إلى المختار من

قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ هَزِيمَةً مُضَرَّ ، فَبَعَثَ الْمُخْتَارَ الْبُشَيْرِيَّ مِنْ قَبْلِهِ إِلَى أَحْمَرَ بْنِ شُمَيْطٍ وَإِلَى ابْنِ كَامِلٍ ، فَالنَّاسُ عَلَى أَحْوَاهِهِمْ كُلِّ أَهْلِ سَكَّةٍ مِنْهُمْ قَدْ أَغْنَتْ مَا يَلِيهَا .

قال : فَاجْتَمَعَتْ شِبَّانٌ وَقَدْ رَأَسُوا عَلَيْهِمْ أَبَا الْقُلُوصِ ، وَقَدْ أَجْمَعُوا وَاجْتَمَعُوا بِأَنْ يَأْتُوا أَهْلَ الْيَمَنِ مِنْ وَرَائِهِمْ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ جَعَلْتُمْ جِدُّكُمْ هَذَا عَلَى مَنْ خَالَفَكُمْ مِنْ غَيْرِكُمْ لَكَانَ أَصُوبَ ، فَيَسِيرُوا إِلَى مُضَرَ أَوْ إِلَى رُبَيْعَةٍ فَقَاتِلُوهُمْ - وَشِيعُهُمْ أَبُو الْقُلُوصِ سَاكِتٌ لَا يَتَكَلَّمُ - فَقَالُوا : يَا أَبَا الْقُلُوصِ ، مَا رَأَيْكَ؟ فَقَالَ : قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾^(١) قَوْمُوا ؛ فقاموا ؛ فمشى بهم قيسَ رَمَحِينَ أَوْ ثَلَاثَةَ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : اجْلِسُوا فَجَلَسُوا ، ثُمَّ مَشَى بِهِمْ أَنْفُسُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ، ثُمَّ قَعَدَ بِهِمْ ، - ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : قَوْمُوا ، ثُمَّ مَشَى بِهِمْ الثَّالِثَةُ أَنْفُسُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ، ثُمَّ قَعَدَ بِهِمْ ، فَقَالُوا لَهُ : يَا أَبَا الْقُلُوصِ ، وَاللَّهِ إِنَّكَ عِنْدَنَا لِأَشْجَعِ الْعَرَبِ ، فَمَا يَحْمِلُكَ عَلَى الَّذِي تَصْنَعُ ! قَالَ : إِنَّ الْمَجْرَبَ لَيْسَ كَمَنْ لَمْ يَجْرَبْ ، إِنِّي أُرِدْتُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْكُمْ أَفْتَدُتْكُمْ ، وَأَنْ تَوَطَّنُوا عَلَى الْقِتَالِ أَنْفُسَكُمْ ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَقْحِمَكُمْ عَلَى الْقِتَالِ وَأَنْتُمْ عَلَى حَالٍ دَهَشَ ؛ قَالُوا : أَنْتَ أَبْصَرُ بِمَا صَنَعْتَ .

فلما خرجوا إلى جَبَانَةِ السَّبِيْعِ اسْتَقْبَلَهُمْ عَلَى فَمِ السَّكَّةِ الْأَعْسَرُ الشَّاكِرِيُّ ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ الْجُنْدَعِيُّ وَأَبُو الزَّبِيرِ بْنُ كَرِيبٍ فَضْرَعَاهُ ، وَدَخَلَ الْجَبَانَةَ ، وَدَخَلَ النَّاسُ الْجَبَانَةَ فِي آثَارِهِمْ ، وَهُمْ يَنَادُونَ : يَا لثَّارَاتِ الْحُسَيْنِ ! فَأَجَابَهُمْ أَصْحَابُ ابْنِ شُمَيْطٍ يَا لثَّارَاتِ الْحُسَيْنِ ! فَسَمِعَهَا يَزِيدُ بْنُ عُمَيْرٍ بْنُ ذِي مُرَّانٍ مِنْ هَمْدَانَ فَقَالَ : يَا لثَّارَاتِ عُثْمَانَ ! فَقَالَ لَهُمْ رِفَاعَةُ بْنُ شَدَّادٍ : مَا لَنَا وَلِعُثْمَانَ ! لَا أَقَاتِلُ مَعَ قَوْمٍ يَبْغُونَ دَمَ عُثْمَانَ ، فَقَالَ لَهُ أَنَسُ بْنُ قَوْمِهِ : جِئْتَ بِنَا وَأَطْعَمْنَاكَ ، حَتَّى إِذَا رَأَيْنَا قَوْمَنَا تَأْخُذُهُمُ السُّيُوفُ قُلْتَ : انصَرِفُوا وَدَعُوهُمْ ! فَعَطَفَ عَلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ :

أَنَا ابْنُ شَدَّادٍ عَلَى دِينِ عَلِيٍّ لَسْتُ لِعُثْمَانَ بْنِ أَرْوَى بِوَلِيٍّ
لَأَصْلِيَنَّ الْيَوْمَ فِيمَنْ يَضْطَلِّي بِحَرِّ نَارِ الْحَرْبِ غَيْرَ مُؤْتَلٍّ

فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ، وَقَتَلَ يَزِيدُ بْنُ عُمَيْرٍ بْنُ ذِي مُرَّانٍ ، وَقَتَلَ النُّعْمَانُ بْنُ صُهَيْبَانَ الْجَرْمِيَّ ثُمَّ الرَّاسِبِيُّ - وَكَانَ نَاسِكًا - وَرِفَاعَةُ بْنُ شَدَّادٍ بْنُ عَوْسَجَةَ الْفِتْيَانِيَّ عِنْدَ حَمَامِ الْمَهْبَذَانِ الَّذِي بِالسَّبَخَةِ - وَكَانَ نَاسِكًا - وَقَتَلَ الْفَرَاتُ بْنُ زُحْرٍ بِنَ قَيْسِ الْجُعْفِيِّ ، وَارْتَثَ زُحْرُ بْنُ قَيْسٍ ، وَقَتَلَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ سَعِيدِ بْنِ قَيْسٍ ، وَقَتَلَ عُمَرَ بْنَ مَخْنَفٍ ، وَقَاتَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَخْنَفٍ حَتَّى ارْتَثَ ، وَحَمَلَتْهُ الرِّجَالُ عَلَى أَيْدِيهَا وَمَا يَشْعُرُ ، وَقَاتَلَ حَوْلَهُ رِجَالٌ مِنَ الْأَزْدِ ، فَقَالَ حُمَيْدُ بْنُ مُسْلِمٍ :

لَأُضْرِبَنَّ عَنْ أَبِي حَكِيمٍ مَفَارِقَ الْأَعْبِيدِ وَالصُّمَمِ

وقال سُراقَةُ بْنُ مُرْدَاسٍ الْبَارَقِيُّ :

يَا نَفْسُ إِلَّا تَصْبِرِي تُلَيِّجِي لَا تَتَوَلَّى عَنْ أَبِي حَكِيمٍ

وَاسْتُخْرِجَ مِنْ دُورِ الْوَادِعِيِّينَ خَمْسَمِائَةَ أَسِيرٍ ، فَأَتَى بِهِمُ الْمُخْتَارُ مَكْتَفِينَ ، فَأَخَذَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي

(١) سورة التوبة : ١٢٣ .

نَهْد وهو من رؤساء أصحاب المختار يقال له : عبدالله بن شريك ، لا يخلو بعربي إلا خلى سبيله ، فَرَفَعَ ذلك إلى المختار دَرَهُم مولى لبني نَهْد ، فقال له المختار : اعرضوهم علي ، وانظروا كل من شهد منهم قتل الحسين فأعلموني به ، فأخذوا لا يُمَرُّ عليه برجل قد شهد قتل الحسين إلا قيل له : هذا ممن شهد قتله ، فيقدمه فيضرب عنقه ، حتى قتل منهم قبل أن يخرج مائتين وثمانية وأربعين قتيلاً ، وأخذ أصحابه كلما رأوا رجلاً قد كان يؤذيهم أو يماريهم أو يضر بهم خلّوا به فقتلوه حتى قُتِل ناس كثير منهم وما يشعر بهم المختار ، فأخبر بذلك المختار بعد ، فدعا بمن بقي من الأسارى فأعتقهم ، وأخذ عليهم الموائيق ألا يجامعوا عليه عدواً ، ولا يبغوه ولا أصحابه غائلة ، إلا سُرَاقَة بن مرداس البارقي ، فإنه أمر به أن يُساق معه إلى المسجد . قال : ونادى منادي المختار : إنه من أغلق بابه فهو آمن ، إلا رجلاً شَرَك في دم آل محمد ﷺ .

قال أبو مخنف : حدّثني المجالد بن سعيد ، عن عامر الشعبي ، أن يزيد بن الحارث بن يزيد بن رُويم وحجار بن أبجر بعثا رسلاً لهما ، فقالا لهم : كونوا من أهل اليمن قريباً ، فإن رأيتموهم قد ظهروا فأيكم سبق إلينا فليقل صرّفان ، وإن كانوا هُزِموا فليقل جُزّان ، فلما هُزِم أهل اليمن أُنْتَهَم رسلهم ، فقال لهم أول من انتهى إليهم : جُزّان ، فقام الرجلان فقالا لقومهما : انصرفوا إلى بيوتكم ، فانصرفوا ، وخرج عمرو بن الحجاج الزبيدي - وكان ممن شهد قتل الحسين - فركب راحلته ، ثم ذهب عليها ، فأخذ طريق شرافٍ وواقصة ، فلم يُرَ حتى الساعة ، ولا يُدْرَى أرضٌ بخستته ، أم سماءً حصّبتُهُ وأما فُرات بن زُحر بن قيس فإنه لما قُتِل بعثت عائشة بنت خليفة بن عبدالله الجعفيّة - وكانت امرأة الحسين بن علي - إلى المختار تسأله أن يأذن لها أن توارى جسده ؛ ففعل ؛ فدفتته .

وبعث المختار غلاماً له يدعى زُرَيْباً في طلب شَمِر بن ذي الجَوْشَن . قال أبو مخنف : فحدّثني يونس بن أبي إسحاق ، عن مسلم بن عبدالله الضبابي ، قال : تبنا زُرَيْباً غلاماً المختار ، فَلَحِقْنَا وقد خرجنا من الكوفة على خيول لنا ضَمَر ، فأقبل يتمطر به فرسه ، فلما دنا منا قال لنا شَمِر : اركضوا وتباعدوا عني لعل العبد يطمع في ؛ قال : فركضنا ، فأمعننا ، وطمع العبد في شَمِر ، وأخذ شمر ما يستطرد له ، حتى إذا انقطع من أصحابه حمل عليه شَمِر فدق ظهره ، وأتى المختار فأخبر بذلك ، فقال : بؤساً لزُرَيْبٍ ، أما لو يستشيرني ما أمرته أن يخرج لأبي السابغة .

قال أبو مخنف : حدّثني أبو محمد الهمداني ، عن مسلم بن عبدالله الضبابي ، قال : لما خرج شمر بن ذي الجَوْشَن وأنا معه حين هزمنّا المختار ، وقتل أهل اليمن بجبّانة السبيع ، ووجه غلامه زُرَيْباً في طلب شمر ، وكان من قتل شمر إياه ما كان ، مضى شمر حتى ينزل سائيدماً ، ثم مضى حتى ينزل إلى جانب قرية يقال لها الكلتائية على شاطئ نهر ، إلى جانب تل ، ثم أرسل إلى تلك القرية فأخذ منها عُلجاً فضربه ، ثم قال : التّجاء بكتابي هذا إلى المصعب بن الزبير وكتب عنوانه : للأمير المصعب بن الزبير من شمر بن ذي الجَوْشَن . قال : فَمَضَى العُلجُ حتى يدخل قريةً فيها بيوت ، وفيها أبو عَمْرَة ، وقد كان المختار بعثه في تلك الأيام إلى تلك القرية لتكون مسلحة فيما بينه وبين أهل البصرة ، فلقي ذلك العُلجُ عُلجاً من تلك القرية ، فأقبل يشكو إليه ما لقي من شمر ، فإنه لقائم معه يكلمه إذ مرّ به رجل من

أصحاب أبي عمرة، فرأى الكتاب مع العليج، وعنوانه: لمصعب من شمر، فسألوا العليج عن مكانه الذي هو به، فأخبرهم، فإذا ليس بينهم وبينه إلا ثلاثة فراسخ. قال: فأقبلوا يسيرون إليه.

قال أبو مخنف: فحدثني مسلم بن عبدالله، قال: وأنا والله مع شمر تلك الليلة، فقلنا: لو أنك ارتحلت بنا من هذا المكان فإننا نتخوف به! فقال: أو كل هذا فرقا من الكذاب! والله لا أتحوّل منه ثلاثة أيام، ملأ الله قلوبكم رعباً! قال: وكان بذلك المكان الذي كنا فيه دُبّ كثير، فوالله إني لبين اليقظان والنائم، إذ سمعت وقع حوافر الخيل، فقلت في نفسي: هذا صوت الدُبّ، ثم إني سمعته أشد من ذلك، فانتبهت ومسحت عيني، وقلت: لا والله، ما هذا بالدُبّ. قال: وذهبت لأقوم، فإذا أنا بهم قد أشرفوا علينا من التلّ، فكبروا، ثم أحاطوا بأبياتنا، وخرجنا نشتد على أرجلنا، وتركنا خيلنا. قال: فأمر على شمر، وإنه لمتزر ببرد محقق - وكان أبرص - فكأني أنظر إلى بياض كشحيه من فوق البرد، فإنه ليطاعنهم بالرمح، قد أعجلوه أن يلبس سلاحه وثيابه، فمضينا وتركناه. قال: فما هو إلا أن أمعنت ساعة، إذ سمعت: الله أكبر، قتل الله الخبيث!

قال أبو مخنف: حدثني المشرقي، عن عبدالرحمن بن عبيد أبي الكنود، قال: أنا والله صاحب الكتاب الذي رأيته مع العليج، وأتيت به أبا عمرة وأنا قتلت شمرًا؛ قال: قلت: هل سمعته يقول شيئاً ليلتئذ؟ قال: نعم، خرج علينا قطاعنا برمح ساعة، ثم ألقى رمحه، ثم دخل بيته فأخذ سيفه، ثم خرج علينا وهو يقول:

نَبَّهْتُمْ لَيْثَ عَرِينٍ بَاسِلًا جَهْمًا مُحْيَاهُ يَدُقُّ الْكَاهِلًا
لَمْ يُرَ يَوْمًا عَنْ غَدُوٍّ نَاقِلًا إِلَّا كَذَا مُقَاتِلًا أَوْ قَاتِلًا
يُبْرِحُهُمْ ضَرْبًا وَيُرْوِي الْعَامِلًا

قال أبو مخنف، عن يونس بن أبي إسحاق: ولما خرج المختار من جبانة السبيع، وأقبل إلى القصر، أخذ سراقاً بن مرداس يناديه بأعلى صوته:

امْنَنْ عَلَيَّ الْيَوْمَ يَا خَيْرَ مَعَدٍّ وَخَيْرَ مَنْ حَلَّ بِشُحْرِ وَالْجَنْدِ
وَخَيْرَ مَنْ حَيًّا وَلَبَّى وَسَجَدَ

فبعث به المختار إلى السجن، فحبسه ليلة، ثم أرسل إليه من الغد فأخرجه، فدعا سراقاً، فأقبل إلى المختار وهو يقول:

أَلَا أَبْلُغُ أَبَا إِسْحَاقَ أَنَّا نَزَوْنَا نَزْوَةً كَانَتْ عَلَيْنَا
خَرَجْنَا لَا نَرَى الضَّعْفَاءَ شَيْئًا وَكَانَ خُرُوجُنَا بَطْرًا وَحَيْنًا
نَرَاهُمْ فِي مَصَافِهِمْ قَلِيلًا وَهُمْ مِثْلُ الدُّبَى حِينَ التَّقِينَا
بَرَزْنَا إِذْ رَأَيْنَاهُمْ فَلَمَّا رَأَيْنَا الْقَوْمَ قَدْ بَرَزُوا إِلَيْنَا
لَقِينَا مِنْهُمْ ضَرْبًا طَلْحَفًا وَطَعْنًا صَائِبًا حَتَّى انْتَيْنَا

نصرت على عدوك كل يوم
كنصر محمد في يوم بدر
فأسجح إذ ملكت فلو ملكنا
تقبل توبة مني فإني
بكل كتيبة تنعى حسينا
ويوم الشعب إذ لاقى حينا
لجونا في الحكومة واعتدنا
سأشكر إن جعلت النقد دينا

قال : فلما انتهى إلى المختار ، قال له : أصلحك الله أيها الأمير! سراقه بن مرداس يحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد رأى الملائكة تُقاتل على الخيول البلق بين السماء والأرض ؛ فقال له المختار : فاصعد المنبر فأعلم ذلك المسلمين ؛ فصعد فأخبرهم بذلك ثم نزل ، فخلا به المختار ، فقال : إني قد علمت أنك لم تر الملائكة ، وإنما أردت ما قد عرفت ألا أقتلك ، فاذهب عني حيث أحببت ، لا تُفسد علي أصحابي .

قال أبو مخنف : فحدثني الحجاج بن علي البارقي عن سراقه بن مرداس ، قال : ما كنت في إيمان حلفت بها قط أشد اجتهاداً ولا مبالغة في الكذب مني في أيما هذه التي حلفت لهم بها أني قد رأيت الملائكة معهم تُقاتل . فخلوا سبيله . فهرب ، فلحق بعبد الرحمن بن مخنف عند المصعب بن الزبير بالبصرة ، وخرج أشراف أهل الكوفة والوجوه . فلحقوا بمصعب بن الزبير بالبصرة ، وخرج سراقه بن مرداس من الكوفة وهو يقول :

ألا أبلغ أبا إسحاق أنني
كفرت بوحيكم وجعلت نذراً
أري عيني ما لم تبصراه
إذا قالوا أقول لهم كذبتم
رأيت البلق دهماً مضمتات
علي قتالكم حتى الممات
كلنا عالم بالتُرّهات
وإن خرجوا لبست لهم أداتي

حدثني أبو السائب سلم بن جنادة ، قال : حدثنا محمد بن براد ، من ولد أبي موسى الأشعري ، عن شيخ ، قال : لما أيسر سراقه البارقي ، قال : وأنتم أسرتموني ! ما أسرني إلا قوم على دواب بلق ، عليهم ثياب بيض . قال : فقال المختار : أولئك الملائكة ، فأطلقه ، فقال :

ألا أبلغ أبا إسحاق أنني
أري عيني ما لم ترأياه
رأيت البلق دهماً مضمتات
كلنا عالم بالتُرّهات

قال أبو مخنف : حدثني عمير بن زياد أن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني قال يوم جبانة السبيع : ويحكم من هؤلاء الذين أتونا من ورائنا؟ قيل له : شبام ؛ فقال : يا عجا ! يقاتلني بقومي من لا قوم له .

قال أبو مخنف : وحدثني أبو روق أن شريحيل بن ذي بقلان من الناعطييين قُتل يومئذ ، وكان من بيوتات همدان ، فقال يومئذ قبل أن يُقتل : يا لها قتلة ، ما أضلّ مقتولها ! قتال مع غير إمام ، وقاتل على غير نية ، وتعجيل فراق الأحبة ، ولو قتلناهم إذا لم نسلم منهم ، إنا لله وإنا إليه راجعون ! أما والله ما خرجت إلا مواسياً لقومي بنفسي مخافة أن يضطهدوا ؛ وإيم الله ما نجوت من ذلك ولا أنجوا ،

ولا أُغْنِيَتْ عَنْهُمْ وَلَا أُغْنُوا . قال : ويرميه رجل من الفاششيّين من هَمْدَانَ يقال له أحمر بن هديج بسهم فيقتله .

قال : واختصم في عبدالرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني نفرٌ ثلاثة : سِعر بن أبي سِعر الحنفي ، وأبو الزبير الشّامي : ورجل آخر ؛ فقال سِعر : طعنته طعنة ، وقال أبو الزبير : لكن ضربته أنا عشرَ ضربات أو أكثر ، وقال لي ابنه : يا أبا الزبير ، أقتل عبدالرحمن بن سعيد سيّد قومك ! فقلت : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ ^(١) . فقال المختار : كلّمكم محسن . وانجلت الوقعة عن سبعمائة وثمانين قتيلًا من قومه .

قال أبو مخنف : حدّثني النّضر بن صالح أنّ القتل إذ ذاك كان استَحَرَّ في أهل اليمن ، وأنّ مُضَرَّ أصيب منهم بالكُناسة بضعة عشر رجلاً ، ثم مضوا حتّى مرّوا بربيعة ، فرجع حُجَار بن أبجر ، ويزيد بن الحارث بن رؤيم وشَدَاد بن المنذر - أخو حضين - وعكرمة بن ربيعي ، فانصرف جميع هؤلاء إلى رحالهم ، وعطف عليهم عكرمة فقاتلهم قتالاً شديداً ، ثم انصرف عنهم وقد خرج ، فجاء حتّى دخل منزله ، فقيل له : قد مرّت خيلٌ في ناحية الحي ؛ فخرج فأراد أن يشب من حائط داره إلى دار أخرى إلى جانبه فلم يستطع حتّى حمّله غلام له . وكانت وقعة جبّانة السّبيع يوم الأربعاء لست ليالٍ بقين من ذي الحجة سنة ست وستين .

قال : وخرج أشرافُ الناس فلجّحوا بالبصرة ، وتجرد المختار لقتلة الحسين فقال : ما من ديننا ترك قوم قتلوا الحسين يمشون أحياء في الدنيا آمنين ؛ بش ناصر آل محمد أنا إذاً في الدنيا ! أنا إذاً الكذاب كما سمّوني ، فإنّي بالله أستعين عليهم ، الحمد لله الذي جعلني سيفاً ضربهم به ، ورمحاً طعنهم به ، وطالب وترهم ، والقائم بحقّهم ؛ إنّه كان حقّاً على الله أن يقتل من قتلهم ، وأن يذلّ من جهل حقّهم ، فسّموهم لي ثم اتّبعوهم حتّى تُفَنّوهم .

قال أبو مخنف : فحدّثني موسى بن عامر أنّ المختار قال لهم : اطلبوا لي قتلة الحسين ، فإنّه لا يسوّغ لي الطعام والشراب حتّى أطهر الأرض منهم ، وأنفي المصّر منهم .

قال أبو مخنف : وحدّثني مالك بن أعين الجُهني أنّ عبدالله بن دباس ، وهو الذي قتل محمّد بن عمّار بن ياسر الذي قال الشاعر :

قَتِيلَ ابْنِ دَبَّاسٍ أَصَابَ قَدَالَهُ

هو الذي دلّ المختار على نفرٍ من قتل الحسين ، منهم عبدالله بن أسيد بن النّزال الجُهني من حُرقة ، ومالك بن النّسير البديّ ، وحمل بن مالك المحاري ؛ فبعث إليهم المختار أبا يُمُرّان مالك بن عمرو النّديّ - وكان من رؤساء أصحاب المختار - فأتاهم وهم بالقادسيّة ، فأخذهم فأقبل بهم حتّى أدخلهم عليه عشاء ، فقال لهم المختار : يا أعداء الله وأعداء كتابه وأعداء رسوله وآل رسوله ، أين الحسين بن عليّ؟ أدوا إليّ الحسين ، قتلتم من

أمرتهم بالصلاة عليه في الصلاة، فقالوا: رحمك الله! بُعثنا ونحن كارهون، فامنن علينا واستبقنا، قال المختار: فهلاً منتتم على الحسين ابن بنت نبيكم واستبقيتموه وسقيتموه! ثم قال المختار للبدي: أنت صاحب برئسه؟ فقال له عبدالله بن كامل: نعم، هو هو؛ فقال المختار، اقطعوا يدي هذا ورجليه، ودعوه فليضطرب حتى يموت، ففعل ذلك به وترك، فلم يزل ينزف الدم حتى مات، وأمر بالآخرين فقدموا، فقتل عبدالله بن كامل عبدالله الجهني، وقتل سعر بن أبي سعر حمل بن مالك المحاربي.

قال أبو مخنف: وحدثنني أبو الصلت التيمي، قال: حدثني أبو سعيد الصيقل أن المختار دُلَّ على رجال من قتل الحسين، دَلَّه عليهم سعر الحنفي؛ قال: فبعث المختار عبدالله بن كامل، فخرجنا معه حتى مرَّ ببني ضبيعة، فأخذ منهم رجلاً يقا له زياد بن مالك؛ قال: ثم مضى إلى عترة فأخذ منهم رجلاً يقال له عمران بن خالد. قال: ثم بعثني في رجال معه يقال لهم الدبابة إلى دار في الحمراء، فيها عبد الرحمن بن أبي خشكارة البجلي وعبدالله بن قيس الخولاني، فجننا بهم حتى أدخلناهم عليه، فقال لهم: يا قتلة الصالحين، وقتلة سيد شباب أهل الجنة، ألا ترون الله قد أقاد منكم اليوم! لقد جاءكم الورس، بيوم نحس - وكانوا قد أصابوا من الورس الذي كان مع الحسين - أخرجوهم إلى السوق فضرَبوا رقابهم، ففعل ذلك بهم، فهؤلاء أربعة نفر.

قال أبو مخنف: وحدثنني سليمان بن أبي راشد، عن حميد بن مسلم، قال: جاءنا السائب بن مالك الأشعري في خيل المختار، فخرجت نحو عبد القيس، وخرج عبدالله وعبد الرحمن ابنا صلُخب في أثري، وشغلوا بالاحتباس عليهما عني، فنجوت وأخذوهما، ثم مضوا بهما حتى مروا على منزل رجل يقال له عبدالله بن وهب بن عمرو بن عَمَّ أعشى همدان من بني عبد، فأخذوه، فانتهوا بهم إلى المختار، فأمر بهم فقتلوا في السوق، فهؤلاء ثلاثة. فقال حميد بن مسلم في ذلك حيث نجا منهم:

ألم ترني على دهشٍ نجوت ولم أكذ أنجو
رجاء الله أنقذني ولم أك غيرهُ أرجو

قال أبو مخنف: حدثني موسى بن عامر العدوي من جُهينة - وقد عرف ذلك الحديث شهيم بن عبد الرحمن الجُهني - قال: بعث المختار عبدالله بن كامل إلى عثمان بن خالد بن أسير الدُهَماني من جُهينة، وإلى أبي أساء بشر بن سوط القابضي - وكانا ممن شهدا قتل الحسين، وكانا اشتركا في دم عبد الرحمن بن عقيل بن أبي طالب وفي سلبه - فأحاط عبد الله بن كامل عند العصر بمسجد بني دُهَمان، ثم قال: علي مثل خطايا بني دُهَمان منذ يوم خلَقوا إلى يوم يُبعثون إن لم أوت بعثمان بن خالد بن أسير، إن لم أضرب أعناقكم من عند آخركم. فقلنا له: أمهلنا نطلبه، فخرجوا مع الخيل في طلبه، فوجدوهما جالسَيْن في الجبَّانة - وكانا يريدان أن يخرجوا إلى الجزيرة - فأتى بهما عبدالله بن كامل، فقال: الحمد لله الذي كفى المؤمنين القتال، لو لم يجدوا هذا مع هذا عنانا إلى منزله في طلبه، فالحمد لله الذي حينئذٍ حتى أمكن منك. فخرج بهما حتى إذا كان في موضع بئر الجعد ضرب أعناقهما، ثم رجع فأخبر المختار خبرهما، فأمره أن يرجع إليهما فيحرقهما بالنار، وقال: لا يُدفنان حتى يُحرقا. فهذان رجلان، فقال أعشى همدان يرثي عثمان الجُهني:

يا عَيْن بَكى فتيَ الفتيانِ عُثمانَا لا يبعدنَ الفتى من آلِ دُهَمَانَا
وأذكرُ فتيَ ماجداً حلواً شَمائلُهُ ما مثلهُ فارسٌ في آلِ هَمْدَانَا

قال موسى بن عامر: وبعث معاذ بن هانيء بن عدي الكندي، ابن أخي حُجر، وبعث أبا عمرة صاحب خرسه، فساروا حتى أحاطوا بدار خولي بن يزيد الأصبحي وهو صاحب رأس الحسين الذي جاء به، فاحتبأ في مخرجه، فأمر معاذ أبا عمرة أن يطلبه في الدار، فخرجت امرأته إليهم، فقالوا لها: أين زوجك؟ فقالت: لا أدري أين هو - وأشارت بيدها إلى المخرج، فدخلوا فوجدوه قد وضع على رأسه قوصرة، فأخرجوه، وكان المختار يسير بالكوفة. ثم إنه أقبل في أثر أصحابه وقد بعث أبو عمرة إليه رسولا، فاستقبل المختار الرسول عند دار بلال، ومعه ابن كامل، فأخبره الخبر، فأقبل المختار نحوهم، فاستقبل به، فردده حتى قتله إلى جانب أهله، ثم دعا بنا فحرقه بها، ثم لم يبرح حتى عاد رماداً، ثم انصرف عنه. وكانت امرأته من خضر موت يقال لها العيوف بنت مالك بن نهار بن عقرب، وكانت نصبت له العداوة حين جاء برأس الحسين.

قال أبو مخنف: وحدثني موسى بن عامر أبو الأشعر أن المختار قال ذات يوم وهو يحدث جلساءه: لاقتلن غداً رجلاً عظيم القدين، غائر العينين، مشرف الحاجبين، يسر مقتله المؤمنين والملائكة المقربين. قال: وكان الهيثم بن الأسود النخعي عند المختار حين سمع هذه المقالة، فوقع في نفسه أن الذي يريد عمر بن سعد بن أبي وقاص، فلما رجع إلى منزله دعا ابنه العريان فقال: الق ابن سعد الليلة فخبّره بكذا وكذا، وقل له: خذ جذرك، فإنه لا يريد غيرك. قال: فاتاه فاستخلاه، ثم حدثه الحديث، فقال له عمر بن سعد: جزى الله أباك والإخاء خيراً! كيف يريد هذا بي بعد الذي أعطاني من العهود والمواثيق! وكان المختار أول ما ظهر أحسن شيء سيرة وتألّفاً للناس، وكان عبدالله بن جعدة بن هبيرة أكرم خلق الله على المختار لقربته بعلي، فكلم عمر بن سعد عبدالله بن جعدة، وقال له: إني لا آمن هذا الرجل - يعني المختار - فخذ لي منه أماناً، ففعل؛ قال: فانا رأيت أمانه وقرأته وهو:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا أمان من المختار بن أبي عبيد لعمر بن سعد بن أبي وقاص، إنك آمن بأمان الله على نفسك ومالك وأهلك وأهل بيتك وولدك، لا تؤاخذ بحديث كان منك قديماً ما سمعت وأطعت ولزمت رحلك وأهلك ومصرّك، فمن لقي عمر بن سعد من شُرطة الله وشيعة آل محمد ومن غيرهم من الناس، فلا يعرض له إلا بخير. شهد السائب بن مالك وأحمر بن شميطة وعبدالله بن شداد وعبدالله بن كامل. وجعل المختار على نفسه عهد الله وميثاقه ليقين لعمر بن سعد بما أعطاه من الأمان، إلا أن يحدث حدثاً، وأشهد الله على نفسه، وكفى بالله شهيداً.

قال: فكان أبو جعفر محمد بن علي يقول: أمّا أمان المختار لعمر بن سعد: إلا أن يحدث حدثاً، فإنه كان يريد به إذا دخل الخلاء فأحدث.

قال: فلما جاءه العريان بهذا خرج من تحت ليلته حتى أتى حمامه، ثم قال في نفسه: انزل داري، فرجع فغير الروحاء، ثم أتى داره غدوة، وقد أتى حمامه، فأخبر مولى له بما كان من أمانه وبما أريد به، فقال له مولاه: وأني حدث أعظم مما صنعت! إنك تركت رحلك وأهلك وأقبلت إلى ها هنا، ارجع إلى رحلك، لا تجعلن للرجل عليك سبيلاً. فرجع إلى منزله، وأتى المختار بانطلاقه، فقال: كلاً إن في عنقه سلسلة سترده، لو جهد أن ينطلق ما استطاع. قال: وأصبح المختار فبعث إليه أبا عمرة، وأمره أن يأتيه به، فجاءه حتى دخل عليه فقال: أجب الأمير، فقام عمر: فعثر في جبة له، ويضربه أبو عمرة بسيفه، فقتله، وجاء برأسه في أسفل قبائه حتى

وضعه بين يدي المختار، فقال المختار لابنه حفص بن عمر بن سعد وهو جالس عنده: أتعرف هذا الرأس؟ فاسترجع وقال: نعم، ولا خير في العيش بعده، قال له المختار: صدقت، فإنك لا تعيش بعده، فأمر به فقتل، وإذا رأسه مع رأس أبيه. ثم إن المختار قال: هذا بخسین وهذا بعلي بن حسين، ولا سواء، والله لو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أثملة من أنامله؛ فقالت حميدة بنت عمر بن سعد تبكي أباه:

لو كان غير أخي قسي غره أو غير ذي يمن وغير الأعجم
سخرى بنفسي ذاك شيئاً فاعلموا عنه وما البطريق مثل الألام
أعطى ابن سعد في الصحيفة وابنه عهداً يلين له جناح الأرقم

فلما قتل المختار عمر بن سعد وابنه بعث برأسيهما مع مسافر بن سعيد بن ثمران الناعطي وظبيان بن عمارة التميمي، حتى قدما بهما على محمد ابن الحنفية، وكتب إلى ابن الحنفية في ذلك بكتاب.

قال أبو مخنف: وحدثني موسى بن عامر، قال: إنما كان هيج المختار على قتل عمر بن سعد أن يزيد بن شراحيل الأنصاري أتى محمد ابن الحنفية، فسلم عليه؛ فجرى الحديث إلى أن تذاكروا المختار وخروجه وما يدعوا إليه من الطلب بدماء أهل البيت، فقال محمد ابن الحنفية: على أهون رسله يزعم أنه لنا شيعة، وقتله الحسين جلساؤه على الكراسي يتحدثونه! قال: فوعاها الآخر منه، فلما قدم الكوفة أتاه فسلم عليه، فسأله المختار: هل لقيت المهدي؟ فقال له: نعم، فقال: ما قال لك وما ذا كرك؟ قال: فخبّرته الخبر. قال: فما لبث المختار عمر بن سعد وابنه أن قتلهما، ثم بعث برأسيهما إلى ابن الحنفية مع الرسولين اللذين سمينا، وكتب معهما إلى ابن الحنفية:

بسم الله الرحمن الرحيم، للمهدي محمد بن علي من المختار بن أبي عبيد. سلام عليك يا أيها المهدي، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإن الله بعثني نعمة على أعدائكم، فهم بين قتيل وأسير، وطريد وشريد، فالحمد لله الذي قتل قاتليكم، ونصر مؤازريكم. وقد بعثت إليك برأس عمر بن سعد وابنه، وقد قتلنا من شرك في دم الحسين وأهل بيته - رحمة الله عليهم - كل من قدرنا عليه، ولن يعجز الله من بقي، ولست بمنجم عنهم حتى لا يبلغني أن على أديم الأرض منهم أرمياً. فاكتب إلي أيها المهدي براك أن تبعه وأكون عليه، والسلام عليك أيها المهدي ورحمة الله وبركاته.

ثم إن المختار بعث عبد الله بن كامل إلى حكيم بن طقبل الطائي السنسي - وقد كان أصاب صلب العباس بن علي، ورَمَى حسيناً بسهم، فكان يقول: تعلق سهمي بسرباله وما ضره - فأتاه عبد الله بن كامل، فأخذه ثم أقبل به، وذهب أهله فاستغاثوا بعدي بن حاتم، فلحقهم في الطريق، فكلم عبد الله بن كامل فيه، فقال: ما لي من أمره شيء، إنما ذلك إلى الأمير المختار. قال: فإني آتية؛ قال: فأتيه راشداً. فمضى عدي نحو المختار، وكان المختار قد شفعه في نفر من قومه أصابهم يوم جبانة السبيع، لم يكونوا نطقوا بشيء من أمر الحسين ولا أهل بيته، فقالت الشيعة لابن كامل: إننا نخاف أن يشفع الأمير عدي بن حاتم في هذا الخبيث، وله من الذنب ما قد علمت، فدعنا نقتله. قال: شأنكم به، فلما انتهوا به إلى دار العززين وهو مكتوف نصبوه غرضاً، ثم قالوا له: سلبت ابن علي ثيابه، والله لنسلبن ثيابك وأنت حي تنظروا فنزعوا ثيابه، ثم قالوا له: رميت حسيناً، واتخذته غرضاً لنبلك، وقلت: تعلق سهمي بسرباله ولم يضره، وإيم الله لنرمينك كما رميته بنبال ما

تعلق بك منها أجزاءك . قال : فرمّوه رشقاً واحداً ، فوقعَتْ به منهم نبالٌ كثيرةٌ فخرّ ميتاً .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو الجارود ، عمّن رآه قتيلاً كأنه قُنْفُذٌ لما فيه من كثرة النبل : ودخل عديّ بن حاتم على المختار فأجلّسه معه على مجلسه ، فأخبره عديّ عمّا جاء له ، فقال له المختار : أتستحلّ يا أبا طريف أن تطلب في قتل الحسين ! قال : إنه مكذوب عليه أصلحك الله ! قال : إذا ندّعه لك قال : فلم يكن بأسرع من أن دخل ابن كامل فقال له المختار : ما فعل الرجل ؟ قال : قتلته الشيعة : قال : وما أعجلك إلى قتله قبل أن تأتي به وهو لا يسره أنه لم يقتله - وهذا عديّ قد جاء فيه ، وهو أهل أن يشفع ويؤق ما سرّه ! قال : غلبتني واللّه الشيعة ، قال له عديّ : كذبت يا عدوّ الله ، ولكنّ ظننت أن من هو خير منك سيشفعني فيه ، فبادرتني فقتلته ، ولم يكن خطر يدفعك عمّا صنعت . قال : فاستخفرت إليه ابن كامل بالشتيمة ، فوضع المختار إصبعه على فيه ، يأمر ابن كامل بالسكوت والكفّ عن عديّ ، فقام عديّ راضياً عن المختار ساخطاً على ابن كامل ، يشكوه عند من لقي من قومه . وبعث المختار إلى قاتل عليّ بن الحسين عبدالله بن كامل ، وهو رجل من عبد القيس يقال له مِرّة بن مُنْقذ بن النعمان العبديّ وكان شجاعاً ، فأثاه ابن كامل فأحاط بداره ، فخرج إليهم ويده الرمح ، وهو على فرس جواد ، فطعن عبيد الله بن ناجية الشّاميّ ، فصرّعه ولم يضره . قال : ويضربه ابن كامل بالسيف فيثقيه بيده اليسرى ، فأسرع فيها السيف ، وتمطّرت به الفرس ، فأفلت ولحق بمصعب ، وشلّت يده بعد ذلك . قال : وبعث المختار أيضاً عبداً للشاكريّ إلى رجل من جنّب يقال له زيد بن رقاد ، كان يقول : لقد رميتُ فتى منهم بسهم وإنه لواضع كفه على جبهته يتقي النبل فأثبت كفه في جبهته ، فما استطاع أن يزيل كفه عن جبهته .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو عبد الأعلى الزبيدي أن ذلك الفتى عبدالله بن مسلم بن عقيل ، وأنه قال حيث أثبت كفه في جبهته : اللهم إنهم استقلّونا واستذلّونا ، اللهم فاقتلهم كما قتلونا ، وأذلهم كما استذلّونا . ثم إنّه رمى الغلام بسهم آخر فقتله ، فكان يقول : جئتُه ميتاً فنزعتُ سهمي الذي قتلته به من جوفه ، فلم أزل أنفض السهم من جبهته حتى نزعته ، وبقي النصل في جبهته مثبتاً ما قدرت على نزعته .

قال : فلما أتى ابن كامل داره أحاط بها ، واقتحم الرجال عليه ، فخرج مصلاً بسيفه - وكان شجاعاً - فقال ابن كامل : لا تضربوه بسيف ، ولا تطعنوه برمح ، ولكن ارموه بالنبل ، وارجموه بالحجارة ، ففعلوا ذلك به ، فسقط ، فقال ابن كامل : إن كان به رمق فأخرجوه ؛ فأخرجوه وبه رمق ، فدعا بنار فحرّقه بها وهو حيّ لم تخرج رُوحه ، وطلب المختار سنان بن أنس الذي كان يدّعي قتل الحسين ، فوجده قد هرب إلى البصرة ، فهذّم داره . وطلب المختار عبدالله بن عتبة الغنويّ فوجده قد هرب ، ولحق بالجزيرة ، فهذّم داره ، وكان ذلك الغنويّ قد قتل منهم غلاماً ، وقتل رجل آخر من بني أسد يقال له حرملة بن كاهل رجلاً من آل الحسين ، ففيهما يقول ابن أبي عيّب الليثي :

وعند غنيّ قطرة من دمائنا وفي أسدٍ أخرى تُعدّ وتذكر

وطلب رجلاً من خثعم يقال له عبدالله بن عروة الخثعمي - كان يقول : رميت فيهم باثني عشر سهماً ضيّعته - فقاته ولحق بمصعب ، فهذّم داره ، وطلب رجلاً من صُداء يقال له عمرو بن صبيح ، وكان يقول : لقد طعنتُ بعضهم وجرحتُ فيهم وما قتلت منهم أحداً ، فأتي ليلاً وهو على سطحه وهو لا يشعر بعدما هدأت العيون ، وسيفه تحت رأسه ، فأخذه وأخذوا سيفه ، فقال : قبحك الله سيفاً ، ما

أَقْرَبَكَ وَأَبْعَدَكَ ! فَجِيءَ بِهِ إِلَى الْمُخْتَارِ ، فَحَبَسَهُ مَعَهُ فِي الْقَصْرِ . فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحَ أُذِنَ لِأَصْحَابِهِ ، وَقِيلَ : لِيَدْخُلْ مَنْ شَاءَ أَنْ يَدْخُلَ ، وَدَخَلَ النَّاسُ ، وَجِيءَ بِهِ مُقْبِلاً ، فَقَالَ : أَمَّا وَاللَّهِ يَا مَعْشَرَ الْكُفْرَةِ الْفَجْرَةِ أَنْ لَوْ بِيَدِي سِيفِي لَعَلَّمْتُ أَنْيْ بِنَصْلِ السِّيفِ غَيْرَ رَعِشٍ وَلَا رَغْدِيدٍ . مَا يَسْرَنِي إِذْ كَانَتْ مَنِيَّتِي قَتْلًا أَنَّهُ قَتَلَنِي مِنَ الْخَلْقِ أَحَدٌ غَيْرَكُمْ . لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ شَرَارُ خَلْقِ اللَّهِ ، غَيْرَ أَنِّي وَدَدْتُ أَنْ بِيَدِي سِيفاً أَضْرِبَ بِهِ فِيكُمْ سَاعَةً ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ فَلَطَمَ عَيْنَ ابْنِ كَامِلٍ وَهُوَ إِلَى جَنْبِهِ ، فَضَحَكَ ابْنُ كَامِلٍ ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ وَأَمْسَكَهَا ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّهُ يَزْعَمُ أَنَّهُ قَدْ جَرَحَ فِي آلِ مُحَمَّدٍ وَطَعَنَ ، فَمَرْنَا بِأَمْرِكَ فِيهِ ، فَقَالَ الْمُخْتَارُ : عَلَيَّ بِالرِّمَاحِ ، فَأَتَيْتُ بِهَا ، فَقَالَ : اطْعَنُوهُ حَتَّى يَمُوتَ ، فَطَعَنَ بِالرِّمَاحِ حَتَّى مَاتَ .

قال أبو مخنف: حدثني هشام بن عبد الرحمن وابنه الحكم بن هشام أن أصحاب المختار مروا بدار بني أبي زُرعة بن مسعود ، فرمواهم من فوقها ، فأقبلوا حتى دخلوا الدار ، فقتلوا الهبياط بن عثمان بن أبي زُرعة الثقفي وعبد الرحمن بن عثمان بن أبي زُرعة الثقفي ، وأفلتهم عبد الملك بن أبي زُرعة بضربة في رأسه ، فجاء يشتر حتى دخل على المختار ، فأمر امرأته أم ثابت ابنة سمرة بن جندب ، فداوت شجته ، ثم دعاه ، فقال : لا ذنب لي ، إنكم رميتم القوم فأغضبتموهم . وكان محمد بن الأشعث بن قيس في قرية الأشعث إلى جنب القادسية ، فبعث المختار إليه خوفاً ساذجاً الكرسي في مائة ، فقال : انطلق إليه فإنك تجده لاهياً متصيِّداً . أو قائماً متلبداً ، أو خائفاً متلذداً ، أو كامناً متغمداً ، فإن قدرت عليه فأتني برأسه . فخرج حتى أتى قصره فأحاط به ، وخرج منه محمد بن الأشعث فلحق بمصعب ، وأقاموا على القصر وهم يزعمون أنه فيه ، ثم دخلوا فعلموا أنه قد فاتهم ، فانصرفوا إلى المختار ، فبعث إلى داره فهدمها ، وبنى بلبنيها وطينها دار حُجْر بن عدي الكندي ، وكان زياد بن سمية قد هدمها .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة دعا المثنى بن مخزبة العبدى إلى البيعة للمختار بالبصرة أهلها ؛ فحدثني أحمد بن زهير ، عن علي بن محمد ، عن عبد الله بن عطية اللثبي وعامر بن الأسود ، أن المثنى بن مخزبة العبدى كان ممن شهد عين الوردة مع سليمان بن صرد ، ثم رجع مع من رجع ممن بقي من التوابين إلى الكوفة ، والمختار محبوس ، فأقام حتى خرج المختار من السجن ، فبايعه المثنى سراً ، وقال له المختار : الحق بك بالكوفة بالبصرة فارغ الناس ، وأسير أمرك ؛ فقدم البصرة فدعا ، فأجابه رجال من قومه وغيرهم فلما أخرج المختار ابن مطيع من الكوفة ومنع عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام من الكوفة خرج المثنى بن مخزبة فاتخذ مسجداً ، واجتمع إليه قومه ، ودعا إلى المختار ، ثم أتى مدينة الرزق فعسكر عندها ، وجمعوا الطعام في المدينة ، ونَحَرُوا الْجُزُرَ ، فوجه إليهم القباغ عباد بن حصين وهو على شرطته ، وقيس بن الهيثم في الشرط والمقاتلة ، فأخذوا في سكة الموالي حتى خرجوا إلى السبخة ، فوقفوا ، ولزم الناس دورهم ، فلم يخرج أحد ، فجعل عباد ينظر هل يرى أحداً يسأله ! فلم ير أحداً ؛ فقال : أما ها هنا رجل من بني تميم ؟ فقال خليفة الأعور مولى بني عدي ، عدي الرباب : هذه دار وراد مولى بني عبد شمس ؛ قال : دق الباب ، فدق ، فخرج إليه وراد ، فشتمه عباد وقال : ويحك ! أنا واقف ها هنا ، لِمَ لَمْ تخرج إليّ ! قال : لم أدر ما يوافقك ، قال : شد عليك سلاحك واركب ، ففعل ، ووقفوا ، وأقبل أصحاب المثنى فواقفهم ، فقال عباد لوراد : قف مكانك مع قيس ، فوقف قيس بن

الهيثم ووراد ، ورجع عبّاد فأخذ في طريق الدّباحين ، والنّاس وقوف في السّبخة ، حتّى أتى الكلاء ، ولمدينة الرّزق أربعة أبواب : باب ممّا يلي البصرة ، وباب إلى الخلّالين ، وباب إلى المسجد ، وباب إلى مهّب الشمال ؛ فأتى الباب الّذي يلي النهر ممّا يلي أصحاب السّقط ، وهو باب صغير ، فوقف ودعا بسلم فوضعه مع حائط المدينة ، فصعد ثلاثون رجلاً ، وقال لهم : إلزموا السطح ، فإذا سمعتم التكبير فكبروا على السطوح ، ورجع عبّاد إلى قيس بن الهيثم وقال لوراد : حرّش القوم ؛ فطاردهم وراد ، ثمّ التبس القتال فقتل أربعون رجلاً من أصحاب المثنى ، وقتل رجل من أصحاب عبّاد ، وسمع اللّذين على السطوح في دار الرزق الضّجة والتكبير ، فكبروا ، فهرب من كان في المدينة ، وسمع المثنى وأصحابه التكبير من ورائهم ، فانهزموا ، وأمر عبّاد وقيس بن الهيثم النّاس بالكفّ عن اتباعهم وأخذوا مدينة الرّزق وما كان فيها ، وأتى المثنى وأصحابه عبد القيس ورجع عبّاد وقيس ومنّ معهما إلى القُبّاع فوجههما إلى عبد القيس ، فأخذ قيس بن الهيثم من ناحية الجسر ، وأتاهم عبّاد من طريق الميزبد ، فالتقوا فأقبل زياد بن عمرو العتكيّ إلى القُبّاع وهو في المسجد جالس على المنبر ، فدخل زياد المسجد على فرسه ؛ فقال : أيّها الرجل ، لتردّ خيلك عن إخواننا أولنقاتلنّها . فأرسل القُبّاع الأحنف بن قيس وعمر بن عبد الرحمن المخزوميّ ليصلحا أمر النّاس ، فأتيا عبد القيس ، فقال الأحنف لبكر والأزد وللعمامة : أستم على بيعة ابن الزبير ! قالوا : بلى ، ولكنّا لا نسلم إخواننا . قال : فمروهم فليخرجوا إلى أيّ بلاد أحبّوا ، ولا يفسدوا هذا المصّر على أهله ، وهم آمنون فليخرجوا حيث شاؤوا ، فمشى مالك بن مسّمع وزياذ بن عمرو ووجوه أصحابهم إلى المثنى ، فقالوا له ولأصحابه : إنّنا والله ما نحن على رأيكم ، ولكنّا كرهنّا أن تضاموا ، فالحقوا بصاحبكم ، فإنّ من أجابكم إلى رأيكم قليل ، وأنتم آمنون . فقبل المثنى قولهما وما أشارا به ، وانصرف . ورجع الأحنف وقال : ما غيّبت رأيي إلّا يومي هذا ، إني أتيت هؤلاء القوم وخلفت بكراً والأزد ورائي ، ورجع عبّاد وقيس إلى القُبّاع ، وشخص المثنى إلى المختار بالكوفة في نفر يسير من أصحابه ، وأصيب في تلك الحرب سويد بن رثاب الشّني ، وعقبة بن عشيّة الشّني ، قتله رجل من بني تميم وقتل التميمي فولّغ أخوه عقبة بن عشيّة في دم التميمي ، وقال : ثاري . وأخبر المثنى المختار حين قدّم عليه بما كان من أمر مالك بن مسّمع وزياذ بن عمرو ومسيرهما إليه ، وذبهما عنه حتّى شخص عن البصرة ، فطمع المختار فيهما ، فكتب إليهما : أمّا بعد ، فاسمعا وأطيعا أو تكما من الدنيا ما شئتما ، وأضمن لكما الجنّة . فقال : مالك لزياد : يا أبا المغيرة ، قد أكثر لنا أبو إسحاق إعطاءنا الدنيا والآخرة ! فقال زياد لمالك مازحاً : يا أبا غسان ، أمّا أنا فلا أقاتل نسيئةً ، من أعطانا الدّراهم قاتلنا معه . وكتب المختار إلى الأحنف بن قيس :

من المختار إلى الأحنف ومن قبل فسلم أنتم ، أمّا بعد ، فويل أمّ ربيعة من مضر ، فإنّ الأحنف مّورد قومه سقر ، حيث لا يستطيع لهم الصّدر ، وإني لا أملك ما حُطّ في القدر ، وقد بلغني أنكم سمّوني كذاباً ، وقد كذّب الأنبياء من قبلي ، ولست بخير من كثير منهم .

وكتب إلى الأحنف :

إذا اشتريتَ فرساً من مالِكا ثم أخذتَ الجُوبَ في شِماليكا
فاجعلْ مصاعاً حذماً من بالِكا

حدّثني أبو السائب سَلَمُ بنُ جُنادة ؛ قال : حدّثنا الحسن بن حمّاد ، عن جَبان بن علي ، عن المجالد ، عن الشّعبي ، قال : دخلتُ البَصْرَةَ ففقدتُ إلى حَلقة فيها الأحنف بن قيس ، فقال لي بعضُ القوم : مَنْ أَنْتَ؟ قلتُ: رجلٌ من أهل الكوفة ؛ قال : أَنْتُمْ موالِدُنا ؛ قلتُ : وكيف؟ قال: قد أنقذناكم من أيدي عبيدكم من أصحاب المختار ، قلتُ : تدري ما قال شيخُ هَمْدان فينا وفيكم ؟ فقال الأحنف بن قيس : وما قال؟ قلتُ : قال :

أَفْخَرْتُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ أَعْبَدًا وهزمتُم مَرَّةً آلَ عَزَلْ
وَإِذَا فَاخَرْتُمُونَا فَاذْكُرُوا ما فعلنا بكم يومَ الجَمَلْ
بَيْنَ شَيْخٍ خَاضِبٍ عَثْنُونَهُ وَفَتَى أَبْيَضَ وَضَاحِ رِفْلْ
جَاءَنَا يَهْدِجُ فِي سَابِغَةٍ فَذَبَحْنَاهُ ضَحَى ذَبْحِ الحَمَلْ
وَعَفَوْنَا فَتَسَيَّيْتُمْ عَفَوْنَا وَكَفَرْتُمْ نِعْمَةَ اللَّهِ الْأَجَلْ
وَقَتَلْتُمْ خَشِيبِيْنَ بِهِمْ بَدَلًا مِنْ قَوْمِكُمْ شَرَّ بَدَلْ

فغضب الأحنف ، فقال : يا غلام ، هات تلك الصحيفة ، فأتي بصحيفة فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم . من المختار بن أبي عبيد إلى الأحنف بن قيس ، أمّا بعد ، فويل أم ربيعة ومضر ، فإن الأحنف مُوردُ قومه سَقَر ، حيث لا يُقدرون على الصُّدر ، وقد بلغني أنكم تُكذّبوني ، وإن كُذِّبْتُ فقد كُذِّبَ رسلٌ من قبلي ، ولست أنا خيراً منهم . فقال : هذا منا أو منكم !

وقال هشام بن محمد عن أبي مخنف ، قال : حدّثني مَنيع بن العلاء السعدي أن مسكين بن عامر بن أنيف بن شُريح بن عمرو بن عدس كان فيمن قاتل المختار ، فلما هزم الناس لحق بأذربيجان بمحمّد بن عمير بن عطارد ، وقال :

عَجِبْتُ دَخْتُسَ لَمَّا رَأَيْتَنِي قَدْ عَلَانِي مِنَ المَشِيبِ خِمَارُ
فَأَهَلْتُ بِصَوْتِهَا وَأَزَّنْتُ لَا تَهَالِي قَدْ شَابَ مِنِّي الْعِدَارُ
إِنْ تَرَيْتَنِي قَدْ بَانَ غَرْبُ شَبَابِي وَأَتَى دُونَ مَوْلَدِي أَعْصَارُ
فَابْنُ عَامِنٍ وَابْنُ خَمْسِينَ عَامًا أَيَّ دَهْرٍ إِلَّا لَهُ أَدَهَارُ
لَيْتَ سَيْفِي لَهَا وَجَوَّبَتْهَا لِي يَوْمَ قَالَتْ أَلَا كَرِيمَ يَغَارُ
لَيْتَنَا قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِتْنَا أَوْ فَعَلْنَا مَا تَفْعَلُ الْأَحَارُ
فَعَلَّ قَوْمٌ تَقَاذِفَ الْخَيْرِ عَنْهُمْ لَمْ نُقَاتِلْ وَقَاتَلَ الْعَيْزَارُ
وَتَوَلَّيْتُ عَنْهُمْ وَأَصِيبُوا وَتَفَانِي عَنْهُمْ شَنَارُ وَعَارُ
لَهَفَ نَفْسِي عَلَى شِهَابِ قَرِيشِ يَوْمَ يُؤْتَى بِرَأْسِهِ الْمُخْتَارُ

وقال المتوكل :

قتلوا حَسِيناً ثم هُمْ يَنْعُونُهُ
لَا تَبْعِدُنْ بِالطُّفِّ قَتْلَى ضُيِّعَتْ
مَا شُرْطَبَةُ الدَّجَالِ تَحْتَ لَوَائِهِ
أَبْنِي قَسِي أَوْثَقُوا دَجَالَكُمْ
لَوْ كَانَ عِلْمُ الْغَيْبِ عِنْدَ أَخِيكُمْ
وَلَيْكَانَ أَمْرًا بَيْنَنَا فِيمَا مَضَى
إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُكْهَذَبَ وَخِيَكُمْ
وَيَجِيْثَكُمْ قَوْمٌ كَأَنْ سُوْفَهُمْ
لَا يَنْتَفِنُونِي إِذَا هُمْ لَأَقْرُوكُمْ

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة بعث المختار جيشاً إلى المدينة للمكر بابن الزبير ، وهو مظهر له أنه وجههم معونة له لحرب الجيش الذي كان عبد الملك بن مروان وجهه إليه لجروبه ، فنزلوا وادي القرى .
ذكر الخبر عن السبب الداعي كان للمختار إلى توجيه ذلك الجيش وإلى ما صار أمرهم :

قال هشام بن محمد : قال أبو مخنف : حدثني موسى بن عامر ، قال : لما أخرج المختار ابن مطيع من الكوفة لحق بالبصرة . وكره أن يقدم ابن الزبير بمكة وهو مهزوم مهلول ، فكان بالبصرة مقيماً حتى قدم عليه عمر بن عبد الرحمن بن هشام ، فصارا جميعاً بالبصرة . وكان سبب قدوم عمر البصرة أن المختار حين ظهر بالكوفة واستجمع له الأمر وهو عند الشيعة إنما يدعو إلى ابن الحنفية والطلب بدماء أهل البيت ، أخذ يخادع ابن الزبير ويكتب إليه ، فكتب إليه : أما بعد ، فقد عرفت مناصحتي إليك وجهدي على أهل عداوتك ، وما كنت أعطيتني إذا أنا فعلت ذلك من نفسك فلما وقفت لك ، وقضيت الذي كان لك علي ، خست بي ، ولم تف بما عاهدتني عليه ، ورأيت مني ما قد رأيت ، فإن ترد مراجعتي أراجعك ، وإن ترد مناصحتي أنصح لك . وهو يريد بذلك كفه عنه ، حتى يستجمع له الأمر ، وهو لا يطلع الشيعة على شيء من هذا الأمر ، وإذا بلغهم شيء منه أراهم أنه أبعد الناس عن ذلك . قال : فأراد ابن الزبير أن يعلم أسلم هو أم حرب ! فدعا عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي فقال له : تجهز إلى الكوفة فقد وليناكها ، فقال : كيف وبها المختار ! قال : إنه يزعم أنه سامع مطيع . قال : فتجهز بما بين الثلاثين ألف درهم إلى الأربعين ألفاً ، ثم خرج مقبلاً إلى الكوفة . قال : ويحيى عين المختار من مكة حتى أخبره الخبر ، فقال له : بكم تجهز ؟ قال : بما بين الثلاثين ألفاً إلى الأربعين ألفاً . قال : فدعا المختار زائدة بن قدامة وقال له : احمل معك سبعين ألف درهم ضعفت ما أنفق هذا في مسيره إلينا وتلقه في المفاوز ، وأخرج معك مسافر بن سعيد بن ثمران الناعطي في خمسمائة فارس - أربع رايح ، عليهم البيض ، ثم قل له : خذ هذه النفقة فإنها ضعف نفقتك ، فإنه قد بلغنا أنك تجهزت وتكلفتم قدر ذلك ، فكبرها أن تغرم ، فخذها وانصرف ، فإن فعل وإلا فأره الخيل وقل له : إن وراء هؤلاء مثلهم مائة كتيبة . قال : فأخذ زائدة المال ، وأخرج معه الخيل ، وتلقاه بالمفاوز ، وعرض عليه المال ، وأمره بالانصراف ، فقال له : إن أمير المؤمنين قد ولاني الكوفة ولا بد من إنفاذ أمره . فدعا زائدة بالخيل وقد أكرمها

في جانب ، فلما رآها قد أقبلت قال : هذا الآن أعدر لي وأجمل بي ، هات المال ، فقال له زائدة : أما إنه لم يبعث به إليك إلا لما بينك وبينه ، فدفعه إليه فأخذه ، ثم مضى راجعاً نحو البصرة ، فاجتمع بها هو وابن مطيع في إمارة الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة ، وذلك قبل وثوب المثنى بن خزيمة العبدى بالبصرة .

قال أبو مخنف : فحدثني إسماعيل بن نعيم أن المختار أخير أن أهل الشام قد أقبلوا نحو العراق ، فعرف أنه به يبدأ ، فخشي أن يأتيه أهل الشام من قبل المغرب ، ويأتيه مصعب بن الزبير من قبل البصرة ، فودع ابن الزبير وداراه وكأيدته ، وكان عبد الملك بن مروان قد بعث عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص إلى وادي القرى ، والمختار لابن الزبير مكاييد موادع ، فكتب المختار إلى ابن الزبير :

أما بعد ، فقد بلغني أن عبد الملك بن مروان قد بعث إليك جيشاً ، فإن أحببت أن أمذك بمدد أمددتك .

فكتب إليه عبدالله بن الزبير :

أما بعد ، فإن كنت على طاعتي فليست أكره أن تبعث الجيش إلى بلادي وتبايع لي الناس قبلك ، فإذا أتتني بيعتك صدقت مقاتلتك ، وكففت جنودي عن بلادك ، وعجل عليّ بتسريح الجيش الذي أنت باعته ، ومهرهم فليسيروا إلى من بوادي القرى من جند ابن مروان فليقاتلوهم . والسلام .

فدعا المختار شرحبيل بن ورس من همدان ، فسرحه في ثلاثة آلاف أكثرهم الموالي ، ليس فيهم من العرب إلا سبع مائة رجل ، فقال له : سر حتى تدخل المدينة ، فإذا دخلتها فكتب إليّ بذلك حتى يأتيك أمري ؛ وهو يريد إذا دخلوا المدينة أن يبعث عليهم أميراً من قبله ، ويأمر ابن ورس أن يمضي إلى مكة حتى يحاصر ابن الزبير ويقاتله بمكة ، فخرج الآخر يسير قتل المدينة ، وخشي ابن الزبير أن يكون المختار إنما يكيد به ؛ فبعث من مكة إلى المدينة عباس بن سهل بن سعد في ألفين ، وأمره أن يستنفر الأعراب ، وقال له ابن الزبير : إن رأيت القوم في طاعتي فاقبل منهم ، وإلا فكأيدهم حتى تهلكهم . ففعلوا ، وأقبل عباس بن سهل حتى لقي ابن ورس بالرقيم ، وقد عبى ابن ورس أصحابه ، فجعل على ميمته سلمان بن حمير الثوري من همدان ، وعلى ميسرته عياش بن جعدة الجدي ، وكانت خيلهم كلها في الميمنة والميسرة ، فدنا فسلم عليه ، ونزل هو ويمشي في الرجالة ، وجاء عباس في أصحابه وهم منقطعون على غير تعبئة ، فيجد ابن ورس على الماء قد عبى أصحابه تعبئة القتال ، فدنا منهم فسلم عليهم ، ثم قال : اخل معي ها هنا ، فخلاً به ، فقال له : رحمك الله ! ألسنت في طاعة ابن الزبير ! فقال له ابن ورس : بلى ، قال : فسربنا إلى عدوّه هذا الذي بوادي القرى ، فإن ابن الزبير حدثني أنه إنما أشخصكم صاحبكم إليهم ، قال ابن ورس : ما أمرت بطاعتك ، إنما أمرت أن أسير حتى آتي المدينة ، فإذا نزلتها رأيت رأيي . قال له عباس بن سهل : فإن كنت في طاعة ابن الزبير فقد أمرني أن أسير بك وبأصحابك إلى عدونا الذين بوادي القرى ، فقال له ابن ورس : ما أمرت بطاعتك ، وما أنا بمتبعك دون أن أدخل المدينة ، ثم أكتب إلى صاحبي فيأمرني بأمره . فلما رأى عباس بن سهل لجأته عرف خلافه ، فكبره أن يعلمه أنه قد فطن له ، فقال : فأريك أفضل ، إعمل بما بدا لك ؛ فأما أنا فإني سائر إلى وادي القرى . ثم جاء عباس بن سهل فنزل بالماء ، وبعث إلى ابن ورس بجزائر كانت معه ، فأهداها له ، وبعث إليه بدقيق وغنم مسلخة - وكان ابن ورس وأصحابه قد هلكوا جوعاً - فبعث عباس بن سهل إلى كل عشرة منهم شاة ، فذبحوها ، واشتغلوا بها ، واختلطوا على الماء ، وترك القوم تعبيتهم ، وأمن بعضهم بعضاً ؛ فلما رأى

عبّاس بن سهل ما هم فيه من الشغل جَمَعَ من أصحابه نحواً من ألف رجل من ذوي البأس والنّجدة ثم أقبل نحو فسطاط سُرحبيل بن ورس ، فلما رآهم ابنُ ورس مُقبلين إليه نادى في أصحابه ، فلم يتواف إليه مائة رجل حتّى انتهى إليه عبّاس بن سهل وهو يقول : يا شُرطة الله ، إليّ إليّ ! قاتلوا المُحلّين ، أولياء الشيطان الرجيم ، فإنكم على الحق والهدى ؛ وقد غَدَروا وفجروا .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو يوسف أنّ عبّاساً انتهى إليهم ، وهو يقول :

أنا ابن سهل فارسٌ غيرٌ وكلُّ
أروغٍ مقدّم إذا الكيشُ نكلُ
وأعتلي رأس الطرمّاح البطلُ
بالسيف يوم الرّوع حتّى يُنخزلُ

قال : فوالله ما اقتتلنا إلّا شيئاً ليس بشيء حتّى قُتل ابن ورس في سبعين من أهل الحِفاظ ، ورَفَعَ عبّاس بن سهل رايةً أمان لأصحاب ابن ورس ، فأَتَوْها إلّا نحواً من ثلاثمائة رجل انصرفوا مع سلّمان بن حمير الهمداني وعياش بن جَعْدَة الجديلي ، فلما وقعوا في يد عبّاس بن سهل أمر بهم فقتلوا إلّا نحواً من مائتي رجل ، كره ناس من النّاس ممّن دُفِعُوا إليهم قتلهم ، فخلّوا سبيلهم ، فرجعوا ، فمات أكثرهم في الطريق ، فلما بلغ المختار أمرهم ، ورجع من رجع منهم ، قام خطيباً فقال : ألا إنّ الفُجّار الأشرار ، قَتَلُوا الأبرار الأخيار . ألا إنه كان أمراً مأثيماً ، وقضاءً مقضياً . وكتب المختار إلى ابن الحنفية مع صالح بن مسعود الخثعمي :

بسم الله الرحمن الرحيم . أمّا بعد ، فإنني كنت بعثت إليك جنداً ليُذِلّوا لك الأعداء ، وليحوزوا لك البلاد ، فساروا إليك حتّى إذا أطلّوا على طَيِّبَة ، لقيهم جنْدُ المُلّحد ، فخدعوههم بالله ، وغرّوهم بعهد الله ، فلما اطمأنّوا إليهم ، ووثقوا بذلك منهم ، وثبوا عليهم فقتلوههم ، فإن رأيت أن أبعث إلى أهل المدينة من قبلي جيشاً كثيفاً ، وتبعث إليهم من قبلك رُسلًا ؛ حتّى يعلم أهل المدينة أنّي في طاعتك ، وإنما بعثت الجنْدَ إليهم عن أمرك ، فافعل ، فإنك ستجد عظمهم بحقّكم أعرف ، وبكم أهل البيت أرأف منهم بآل الزبير الظلمة الملحدين ، والسلام عليك .

فكتب إليه ابن الحنفية : أمّا بعد ، فإنّ كتابك لما بلغني قرأته ، وفهمتُ تعظيمك لحقّي ، وما تنوي به من سروري . وإنّ أحبّ الأمور كلّها إليّ ما أطيع الله فيه ، فأطع الله ما استطعت فيما أعلنت وأسررت ، واعلم أنّي لو أردت لوجدتُ الناس إليّ سراعاً . والأعوان لي كثير ، ولكنني أعتزلهم ، وأصبر حتّى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين .

فأقبل صالح بن مسعود إلى ابن الحنفية فودّعه وسلّم عليه ، وأعطاه الكتاب وقال له : قل للمختار فليتّق الله ، وليكفّف عن الدّماء ، قال : فقلت له : أصلحك الله ! أولم تكتب بهذا إليه ! قال له ابن الحنفية : قد أمرته بطاعة الله ، وطاعة الله تجمّع الخير كلّّه ، وتنهى عن الشرّ كلّّه . فلما قدّم كتابه على المختار أظهر للناس أنّي قد أمرتُ بأمر يجمع البرّ واليسر ، ويضرح الكُفر والغدر .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة قدمت الخشبية مكة ، ووافوا الحج وأميرهم أبو عبد الله الجديلي .

ذكر الخبر عن سبب قدومهم مكة :

وكان السبب في ذلك - فيما ذكر هشام ، عن أبي مخنف وعلي بن محمّد ، عن مسلمة بن محارب - أنّ

قال علي بن محمد : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ رُشَيْدِ الْجَوْرَجَانِيِّ عَنِ الطَّفِيلِ بْنِ مَرْدَاسِ الْعَمِّيِّ ، قَالَ : لَمَّا تَفَرَّقَتْ بَنُو تَمِيمٍ بِخَرَّاسَانَ أَيَّامَ ابْنِ خَازِمٍ ، أَقْبَى قَصْرَ فَرْتَنَا عِدَّةً مِنْ فُرْسَانِهِمْ مَا بَيْنَ السَّبْعِينَ إِلَى الثَّمَانِينَ ، فَوَلَّوْا أَمْرَهُمْ عَثْمَانَ بْنَ بَشَرٍ مِنَ الْمُحْتَظَرِّ الْمَزْنِيِّ ، وَمَعَهُ شُعْبَةُ بْنُ ظَهِيرِ النَّهْشَلِيِّ ، وَوَرَدُ بْنُ الْفُلُقِ الْعَنْبَرِيِّ ، وَزُهَيْرُ بْنُ ذَوْيَبِ

العدوي ، وجيهان بن مشجعة الضبي ، والحجاج بن ناشب العدوي ، ورقبة بن الحر في فرسان بني تميم ؛ قال : فاتاهم ابن خازم ، فحصرهم وخندق خندقاً حصيناً . قال : وكانوا يخرجون إليه فيقاتلونه ، ثم يرجعون إلى القصر . قال : فخرج ابن خازم يوماً على تعبئة من خندقه في ستة آلاف ، وخرج أهل القصر إليه ، فقال لهم عثمان بن بشر بن المحتفز : انصرفوا اليوم عن ابن خازم ، فلا أظن لكم به طاقة ، فقال زهير بن ذؤيب العدوي : امرأته طالق إن رجعت حتى ينقض صفوفهم - وإلى جنبهم نهر يدخله الماء في الشتاء ، ولم يكن يومئذ فيه ماء ، فاستبطنه زهير ، فسار فيه ، فلم يشعر به أصحاب ابن خازم حتى حمل عليهم ، فحطم أولهم على آخرهم ، واستداروا وكرّ راجعاً ، وأتبعوه على جنبتي النهر يصيحون به : لا ينزل إليه أحد ، حتى انتهى إلى الموضع الذي انحدر فيه ، فخرج فحمل عليهم ، فأفرجوا له حتى رجعت ؛ قال : فقال ابن خازم لأصحابه : إذا طأعتهم زهيراً فاجعلوا في رماحكم كلاليب فأعلقوها في أذاته إن قدرتم عليه ، فخرج إليهم يوماً وفي رماحهم كلاليب قدهيؤوها له ، فطاعنوه ، فأعلقوا في درعه أربعة أرماع ، فالتفت إليهم ليحبل عليهم ، فاضطربت أيديهم ، فخلّوا رماحهم ، فجاء يجر أربعة أرماع حتى دخل القصر ؛ قال : فأرسل ابن خازم غزوان بن جزة العدوي إلى زهير فقال : قل له : أرايتك إن أمنتك وأعطيتك مائة ألف ، وجعلت لك باسار طليعة تناصحني ؟ فقال زهير لغزوان : ويحك ! كيف أناصح قوماً قتلوا الأشعث بن ذؤيب ! فأسقط بها غزوان عند موسى بن عبدالله بن خازم .

قال : فلما طال عليهم الحصار أرسلوا إلى ابن خازم أن خلّنا نخرج فنتفرق ، فقال : لا إلا أن تنزلوا على حُكمي ؛ قالوا : فإننا نزل على حُكمك ، فقال لهم زهير : ثكلتكم أمهاتكم ! والله ليقتلنكم عن آخركم ، فإن طبتم بالموت أنفساً فموتوا كراماً ، اخرجوا بنا جميعاً فإنما أن تموتوا جميعاً وإنما أن ينجو بعضكم ويهلك بعضهم ، وإيم الله لئن شددتم عليهم شدة صادقة ليفرجن لكم عن مثل طريق المربد ، فإن شئتم كنت أمامكم ، وإن شئتم كنت خلفكم . قال : فأبوا عليه ، فقال : أما إني سأرئكم ، ثم خرج هو ورقبة بن الحر ومع رقبة غلام له تركي وشعبة بن ظهير . قال : فحملوا على القوم حملة منكرة ، فأفرجوا لهم ، فمضوا ؛ فأما زهير فرجع إلى أصحابه حتى دخل القصر فقال لأصحابه : قد رأيتم فاطيعوني ، ومضى رقبة وغلامه وشعبة ، قالوا : إن فينا من يضعف عن هذا ويطمع في الحياة ، قال : أبعدكم الله ! اتخلّون عن أصحابكم ! والله لا أكون أجزعكم عند الموت . قال : ففتحو القصر ونزلوا ، فأرسل فقيدهم ، ثم حملوا إليه رجلاً رجلاً ، فأراد أن يمن عليهم ، فأبى ابنه موسى ، وقال : والله لئن عفوت عنهم لأتكنن على سيفي حتى يخرج من ظهري ؛ فقال له عبدالله : أما والله إني لأعلم أنّ الغي فيما تأمرني به ، ثم قتلهم جميعاً إلا ثلاثة ؛ قال : أحدهم الحجاج بن ناشب العدوي - وكان رمى ابن خازم وهو محاصرهم فكسر ضرسه ، فحلف لئن ظفر به ليقبلنه أو ليقطعن يده ، وكان حدثاً ، فكلمه فيه رجال من بني تميم كانوا معتزلين ؛ من عمرو بن حنظلة ، فقال رجل منهم : ابن عمي وهو غلام حدث جاهل ؛ هب لي ، قال : فوهبه له ، وقال : النجاء ! لا أرينك . قال : وجيهان بن مشجعة الضبي الذي ألقى نفسه على ابنه محمد يوم قُتل ، فقال ابن خازم : خلّوا عن هذا البغل الدارج ، ورجل من بني سعد ، وهو الذي قال يوم لحقوا ابن خازم : انصرفوا عن فارس مضر . قال : وجاؤا بزهير بن ذؤيب فأرادوا حملَه وهو مقيّد ، فأبى وأقبل يحجل حتى جلس بين يديه ، فقام له ابن خازم : كيف شكرك إن أطلقتك وجعلت لك باسار طعمة ؟ قال : لو لم تصنع بي إلا حقن دمي لشكرتُك ، فقام ابنه

موسى فقال : تقتل الضبع وتترك الذئب ! تقتل اللبؤة وتترك الليث ! قال : وَتَحَك ! تقتل مثل زهير ! مَنْ لقتال عدو المسلمين ! مَنْ لنساء العرب ! قال : والله لو شركت في دم أخي أنت لقتلتك ؛ فقام رجل من بني سليم إلى ابن خازم ، فقال : أذكرك الله في زهير ! فقال له موسى : اتَّخِذْهُ فَحَلًّا لِبَنَاتِكَ ، فغضب ابن خازم ، فأمر بقتله ، فقال له زهير : إِنَّ لي حاجة ، قال : وما هي ؟ قال : تقتلني على حِدَّة ، ولا تخلط دمي بدماء هؤلاء اللثام ، فقد نهيتهم عما صنعوا وأمرتهم أن يموتوا كراماً ، وأن يخرجوا عليكم مصلتين ، وإيم الله أن لو فعلوا لَدَعَرُوا بُنْيُكَ هذا ، وشغلوه بنفسه عن طلب الثأر بأخيه فأبوا ، ولو فعلوا ما قُتِلَ منهم رجل حتى يقتل رجلاً . فأمر به فَنُحِّي ناحية فُقُتِل .

قال مسلمة بن محارب : فكان الأحنفُ بنُ قيس إذا ذكرهم قال : قَبِحَ الله ابن خازم ! قتل رجلاً من بني تميم بابنه ، صبيٍّ وغداً أحق لا يُساوي علقاً ، ولو قتل منهم رجلاً به لكان وفي .

قال : وزعمت بنو عدي أنهم لما أرادوا حمل زهير بن ذؤيب أبي واعتمد على رُحمه وجمع رجله فوثب الجندق ، فلما بلغ الحريش بن هلال قتلهم قال :

أَعَاذَلْ إِنِّي لَمْ أَلَمْ فِي قَبَائِلِهِمْ	وقد عضُ سيفي كَبَشَهُمْ ثم صَمَمَا
أَعَاذِلْ مَا وَلِيْتُ حَتَّى تَبَدَّدَتْ	رجالٌ وحتى لم أجد مُتَقَدِّمًا
أَعَاذِلْ أَقْنَانِي السِّلَاحُ وَمَنْ يُبْطِلُ	مُقَارَعَةَ الْأَبْطَالِ يَرْجِعُ مَكَلَّمَا
أَعْنِيَّ إِنْ أَنْزَعْتُمَا الدَّمَعَ فَبِاسْكَبَا	دماً لازماً لي دون أن تسكبا الدما
أَبْعَدْ زَهِيرَ وَأَبْنِ بِشْرٍ تَبَايَعَا	ووردُ أَرْجَى فِي خُرَاسَانَ مَغْنَمَا
أَعَاذَلْ كَمْ مِنْ يَوْمٍ حَرِبَ شَهِيدُهُ	أَكْرُ إِذَا مَا فَارَسُ السُّوءِ أَحْجَمَا

يعني بقوله : « أَبْعَدْ زَهِيرَ » ، زهير بن ذؤيب ، وابن بشر ، عثمان بن بشر المحتفز المازني ، ووردُ بن الفهق العنبري ، قُتِلُوا يومئذ ، وقتل سليمان بن المحتفز أخو بشر .

قال أبو جعفر : وحجَّ بالناس في هذه السنة عبدُ الله بنُ الزبير ، وكان على المدينة مصعب بن الزبير من قبل أخيه عبد الله ، وعلى البصرة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة ، وعلى قضائها هشام بن هبيرة ، وكانت الكوفة بها المختار غالباً عليها ، وبخراسان عبد الله بن خازم .

وفي هذه السنة شَخَّصَ إبراهيم بن الأشتر متوجّهاً إلى عبيد الله بن زياد لخرابه ، وذلك لثمانين بَقِيْنَ من ذي الحِجَّة .

قال هشام بن محمد : حَدَّثَنِي أَبُو خَنِيفٍ ، قَالَ : حَدَّثَنِي النَّضْرُ بْنُ صَالِحٍ - وَكَانَ قَدْ أَدْرَكَ ذَلِكَ - قَالَ : حَدَّثَنِي فَضِيلُ بْنُ خَدِيجٍ - وَكَانَ قَدْ شَهِدَ ذَلِكَ - وَغَيْرُهُمَا ، قَالُوا : مَا هُوَ إِلَّا أَنْ لَوْغَ الْمُخْتَارُ مِنْ أَهْلِ السَّيِّعِ وَأَهْلِ الْكُنَاسَةِ ، فَمَا نَزَلَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْأَشْتَرِ إِلَّا يَوْمَيْنِ حَتَّى أَشْخَصَهُ إِلَى الْوُجْهِ الَّذِي كَانَ وَجْهَهُ لَهُ لِقَاتِلِ أَهْلِ الشَّامِ ، فَخَرَجَ يَوْمَ السَّبْتِ لثَمَانِ بَقِيْنَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ سِتٍّ وَسِتَيْنِ ، وَأَخْرَجَ الْمُخْتَارُ مَعَهُ مِنْ وَجْهِهِ أَصْحَابَهُ وَفُرْسَانَهُمْ وَذَوِي الْبَصَائِرِ مِنْهُمْ : يَمُنُّ قَدْ شَهِدَ الْحَرْبَ وَجَرَّبَهَا ، وَخَرَجَ مَعَهُ قَيْسُ بْنُ طَهْفَةَ النَّهْدِيُّ عَلَى رِيعِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَأَمَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَيَّةِ الْأَسَدِيُّ عَلَى رِيعِ مَذْحِجٍ وَأَسَدٍ ، وَبَعَثَ الْأَسَدُ بْنُ جَرَادٍ الْكِنْدِيُّ عَلَى رِيعِ كَنْدَةَ

وربيعة، وبعث حبيب بن منقذ الثوري من همدان على ربيع تميم وهمدان، وخرج معه المختار يشيعة حتى إذا بلغ دير عبد الرحمن بن أم الحكم، إذا أصحاب المختار قد استقبلوه، قد حملوا الكرسي على بغل أشهب كانوا يحملونه عليه، فوقفوا به على القنطرة، وصاحب أمر الكرسي حوشب البرسمي، وهو يقول: يا رب عمرنا في طاعتك، وانصرنا على الأعداء، واذكرنا ولا تنسنا واسترنا، قال: وأصحابه يقولون: آمين آمين؛ قال فضيل: فأننا سمعت ابن نوف الهمداني يقول: قال المختار:

أما ورب المرسلات عرفاً لنقتلن بعد صف صفاً
وبعد ألف قاسطين ألفاً

قال: فلما انتهى إليهم المختار وابن الأشر ازدحموا ازدحاماً شديداً على القنطرة، ومضى المختار مع إبراهيم إلى قناطر رأس الجالوت - وهي إلى جنب دير عبد الرحمن - فإذا أصحاب الكرسي قد وقفوا على قناطر رأس الجالوت يستنصرون، فلما صار المختار بين قنطرة دير عبد الرحمن وقناطر رأس الجالوت وقف، وذلك حين أراد أن ينصرف، فقال لابن الأشر: خذ عني ثلاثاً: خف الله في سر أمرك وعلايته، وعجل السير، وإذا لقيت عدوك فناجزهم ساعة تلقاهم، وإن لقيتهم ليلاً فاستطعت ألا تصبح حتى تناجزهم، وإن لقيتهم نهاراً فلا تنتظر بهم الليل حتى تحاكمهم إلى الله. ثم قال: هل حفظت ما أوصيتك به؟ قال: نعم، قال: صاحبك الله؛ ثم انصرف. وكان موضع عسكر إبراهيم بموضع حمام أعين، ومنه شخص بعسكره.

قال أبو مخنف: فحدثني فضيل بن خديج قال: لما انصرف المختار مضى إبراهيم ومعه أصحابه حتى انتهى إلى أصحاب الكرسي وقد عكفوا حوله وهم رافعوا أيديهم إلى السماء يستنصرون، فقال إبراهيم: اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء - سنة بني إسرائيل، والذي نفسي بيده إذ عكفوا على عجلهم - فلما جاز القنطرة إبراهيم وأصحابه انصرف أصحاب الكرسي.

ذكر الخبر عن سبب كرسي المختار الذي يستنصر به هو وأصحابه:

قال أبو جعفر: وكان بدء سببه ما حدثني به عبدالله بن أحمد بن شبنو، قال: حدثني أبي، قال: حدثني سليمان، قال: حدثني عبدالله بن المبارك، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة، قال: حدثني معبد بن خالد، قال: حدثني طفيّل بن جعدة بن هبيرة، قال: أعدمْتُ مرةً من الورق، فإني لكذلك إذ خرجت يوماً فإذا زيات جار لي، له كرسي قد ركبته وسخّ شديد، فخطر على بالي أن لو قلب للمختار في هذا! فرجعت فأرسلت إلى الزيات: أرسل إلي بالكرسي، فأرسل إلي به، فأتيت المختار، فقلت: إني كنت أكتمك شيئاً لم أستحل ذلك، فقد بدا لي أن أذكره لك، قال: وما هو؟ قلت: كرسي كان جعدة بن هبيرة يجلس عليه كأنه يرى أن فيه أثر من علم، قال: سبحان الله! فأخبرت هذا إلى اليوم! ابعث إليه، ابعث إليه، قال: وقد غسل وخرج غود نصار، وقد تشرب الزيت، فخرج يبص، فجيء به وقد غشي، فأمر لي باثني عشر ألفاً، ثم دعا: الصلاة جامعة.

فحدثني معبد بن خالد الجدي قال: انطلق بي وإسماعيل بن طلحة بن عبيد الله وشبث بن ربعي والناس يجرّون إلى المسجد، فقال المختار: إنه لم يكن في الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن في هذه الأمة مثله، وإنه كان في بني إسرائيل التابوت فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، وإن هذا فينا مثل التابوت، اكشفوا

سنة ٦٦ ٤٧٧

عنه ؛ فكشفوا عنه أثوابه ، وقامت السبئية فرفعوا أيديهم ، وكبروا ثلاثاً ، فقام شَبَث بن ربيعي وقال : يا معشر مُضَر ، لا تكفُرُن ، فنحوه فذبّوه وصدّوه وأخرجوه ، قال إسحاق : فوالله إني لأرجو أنها لشبت ، ثم لم يلبث أن قيل : هذا عبيدالله بن زياد قد نزل بأهل الشام بأجّيرا ، فخرج بالكرسي على بغل وقد غشي ، يُمسكه عن يمينه سبعة وعن يساره سبعة ، فقتل أهل الشام مقتلة لم يقتلوا مثلها ، فزادهم ذلك فتنة ، فارتفعوا فيه حتى تعاطوا الكفر ، فقلت : إنا لله ! وندمتُ على ما صنعت ، فتكلّم الناس في ذلك ، فغُيب ، فلم أَرُه بعدُ .

حدّثني عبدالله ، قال : حدّثني أبي قال : قال أبو صالح : فقال في ذلك أعشى همدان كما حدّثني غير عبدالله :

شَهِدْتُ عَلَيْكُمْ أَنَّكُمْ سَبِيئَةٌ	وإني بكم يا شُرْطَةَ الشُّرْكِ عَارِفٌ
وَأَقْسِمُ مَا كُرْسِيُّكُمْ بِسَكِينَةٍ	وإن كان قد لُقْتُ عليه اللِّفَافُ
وَأَنْ لَيْسَ كَالثَابُوتِ فِينَا وَإِنْ سَعَتْ	شِبَامٌ حَوَالِيهِ وَنَهْدٌ وَخَارِفٌ
وَإِنِّي أَمْرُؤُ أَحْبَبْتُ آلَ مُحَمَّدٍ	وَتَابَعْتُ وَحِيّاً ضُمَّتَتْهُ الْمَصَاحِفُ
وَتَابَعْتُ عَبْدَ اللَّهِ لَمَّا تَابَعْتُ	عليه قريش : شُمَطَهَا وَالْغَطَارِفُ

وقال المتوكّل اللّيثي :

أَبْلَغُ أَبَا إِسْحَاقَ إِنْ جِئْتَهُ	أُنِّي بِكُرْسِيِّكُمْ كَافِرٌ
تَنْزَوُ شِبَامَ حَوْلَ أَعْوَادِهِ	وَتَحْمِلُ الْوَحْيَ لَهُ شَاكِرٌ
مَحْمَرَةٌ أَعْيُنُهُمْ حَوْلَهُ	كَأَنَّهُنَّ الْحَمَصَ الْحَادِرُ

فأما أبو مخنف : فإنه ذكر عن بعض شيوخه قصّة هذا الكرسي غير الذي ذكره عبدالله بن أحمد بالإسناد الذي حدّثنا به ، عن طفيل بن جعدة . والذي ذكر من ذلك ما حدّثنا به ، عن هشام بن محمد ، عنه ، قال : حدّثنا هشام بن عبدالرحمن وابنه الحَكَم بن هشام ، أنّ المختار قال لآل جعدة بن هُبيرة بن أبي وهب المخزومي - وكانت أمّ جعدة أمّ هانيء بنت أبي طالب أخت علي بن أبي طالب عليه السلام لأبيه وأمه : ائتوني بكرسيّ علي بن أبي طالب ؛ فقالوا : لا والله ما هو عندنا ، وما ندرى من أين نجى به ! قال : لا تكوننّ حمقى ، اذهبوا فاتوني به ، قال : فظنّ القوم عند ذلك أنهم لا يأتون بكرسيّ ، فيقولون : هو هذا إلّا قبله منهم ، فجاءوا بكرسي فقالوا : هو هذا فقبله ، قال : فخرجت شِباء وشاكر ورؤوس أصحاب المختار وقد غصّبوه بالحريز والدّيباج .

قال أبو مخنف ، عن موسى بن عامر أبي الأشعر الجُهنيّ : إنّ الكرسيّ لما بلغ ابن الزبير أمره قال : أين بعضُ جنّادِبة الأزد عنه !

قال أبو الأشعر : لما جيء بالكرسي كان أوّل من سدّنه موسى بن أبي موسى الأشعري ، وكان يأتي المختار أوّل ما جاء ويحفّ به ، لأنّ أمّه أمّ كلثوم بنت الفضل بن العباس بن عبدالمطلب . ثمّ إنّه بعد ذلك عُتِب عليه فاستحيا منه ، فدفعه إلى حَوْشَب البرُسميّ ، فكان صاحبه حتى هلك المختار . قال : وكان أحد عمومة الأعشى رجلاً يُكنى أبا أمّامة يأتي مجلس أصحابه فيقول : قد وُضِع لنا اليوم وحيّ ما سَمِع الناس بمثله ، فيه نبأ ما يكون من شيء .

قال أبو مخنف : حدّثنا موسى بن عامر أنّه إنّما كان يصنع ذلك لهم عبدالله بن نوف ، ويقول :
المختار أمرني به ، ويتبرأ المختار منه .

ثم دخلت سنة سبع وستين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك مقتل عبيد الله بن زياد ومن كان معه من أهل الشام .

ذكر الخبر عن صفة مقتله :

ذكر هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ، قال : حدثني أبو الصلت ، عن أبي سعيد الصيقل ، قال : مضينا مع إبراهيم بن الأشتر ونحن نريد عبيد الله بن زياد ومن معه من أهل الشام ، فخرجنا مُسرعين لا ننثني ، نريد أن نلقاه قبل أن يدخل أرض العراق . قال : فسبقناه إلى نُحُومِ أرض العراق سَبَقاً بعيداً ، ووصلنا في أرض الموصل ، فتعجلنا إليه ، وأسرعنا السير ، فنلقاه بخازر إلى جنب قرية يقال لها باريثا ، بينها وبين مدينة الموصل خمسة فراسخ ، وقد كان ابن الأشتر جعل على مقدمته الطفيل بن لقيط ؛ من وهبيل من النخع (رجلاً من قومه) ، وكان شجاعاً بئيساً ، فلما أن دنا من ابن زياد ضمّ حميد بن حريث إليه ، وأخذ ابن الأشتر لا يسير إلا على تعبئة ، وضمّ أصحابه كلهم إليه بخيله ورجاله ، فأخذ يسير بهم جميعاً لا يفرقهم ، إلا أنه يبعث الطفيل بن لقيط في الطلائع حتى نزل تلك القرية .

قال : وجاء عبيد الله بن زياد حتى نزل قريباً منهم على شاطئ خازر . وأرسل عمير بن الحباب السلمي إلى ابن الأشتر : إني معك ، وأنا أريد الليلة لقاءك ، فأرسل إليه ابن الأشتر : أن القني إذا شئت ؛ وكانت قيس كلها بالجزيرة ، فهم أهل خلاف لمروان وآل مروان ، وجند مروان يومئذ كلب وصاحبهم ابن بحدل . فأتاه عمير ليلاً فبايعه ، وأخبره أنه على ميسرة صاحبه ، وواعده أن ينهزم بالناس ، وقال ابن الأشتر : ما رأيك؟ أخذني عليّ وأتلوم يومين أو ثلاثة؟ قال عمير بن الحباب : لا تفعل ، إنا لله ! هل يريد القوم إلا هذه ! إن طاولوك وماطلوك فهو خير لهم ، هم كثير أضعافكم ، وليس يطيق القليل الكثير في المطاولة ؛ ولكن ناجز القوم فإنهم قد ملئوا منكم رعباً ، فأتهم فإنهم إن شاموا أصحابك وقتلوه يوماً بعد يوم ، ومرة بعد مرة أنسوا بهم ، واجتروا عليهم ؛ قال إبراهيم : الآن علمت أنك لي مناصح ، صدقت ، الرأي ما رأيته ، أما إن صاحبي بهذا أوصاني ، وبهذا الرأي أمرني . قال عمير : فلا تعدون رأيي ، فإن الشيخ قد ضرسه الحروب ، وقاسى منها ما لم تقاس ، أصبح فناهض الرجل .

ثم إن عميراً انصرف ، وأذكى ابن الأشتر حرسه تلك الليلة الليل كله ، ولم يدخل عينه غمض ، حتى إذا كان في السحر الأول عبى أصحابه ، وكتب كتابه ، وأمر أمراءه . فبعث سُفَيان بن يزيد بن المغفل الأزدي

على ميمنته ، وعلي بن مالك الجُشمي على ميسرته ، وهو أخو أبي الأحوص . وبعث عبدالرحمن بن عبدالله - وهو أخو إبراهيم بن الأشتر لأمه - على الخيل ، وكانت خيله قليلة ، فضمها إليه ، وكانت في الميمنة والقلب ، وجعل على رجاله الطفيل بن لقيط ، وكانت رأيته مع مزاحم بن مالك . قال : فلما انفجر الفجر صلى بهم الغداة بغلس ، ثم خرج بهم فصفهم ، ووضع أمراء الأرباع في مواضعهم ، وألحق أمير الميمنة بالميمنة ، وأمير الميسرة بالميسرة ، وأمير الرّجالة بالرّجالة ، وضمّ الخيل إليه ، وعليها أخوه لأمه عبدالرحمن بن عبدالله ، فكانت وسطاً من الناس ، ونزل إبراهيم يمشي ، وقال للناس : إزحفوا ، فرحف الناس معه على رسلهم رويداً رويداً حتى أشرف على تلّ عظيم مشرف على القوم ، فجلس عليه ، وإذا أولئك لم يتحرك منهم أحد بعد - فسرح عبدالله بن زهير السلولي وهو على فرس له يتأكل تأكلًا ، فقال : قرب عليّ فرسك حتى تأتيني بخبر هؤلاء ، فانطلق ، فلم يلبث إلا سيراً حتى جاء ، فقال : قد خرج القوم على دَهَش وفَشَل ، لقيني رجل منهم فما كان له هَجِيرى إلا يا شيعة أبي تراب ، يا شيعة المختار الكذاب ! فقلت : ما بيننا وبينكم أجل من الشتم ، فقال لي : يا عدو الله ، إلّا تدعوننا ! أنتم تقاتلون مع غير إمام ، فقلت له : بل يا لثارات الحسين ، ابن رسول الله ! ادفعوا إلينا عُبيدالله بن زياد ؛ فإنه قتل ابن رسول الله وسيد شباب أهل الجنة حتى نقتله ببعض موالينا الذين قتلهم مع الحسين ، فإننا لا نراه لحسين ندّاً فنرضى أن يكون منه قوداً ، وإذا دفعتموه إلينا فقتلناه ببعض موالينا الذين قتلهم جعلنا بيننا وبينكم كتاب الله ، أو أيّ صالح من المسلمين شتم حَكماً ، فقال لي : قد جربناكم مرة أخرى في مثل هذا - يعني الحَكَمين - فغدرتم ، فقلت له : وما هو ؟ فقال : قد جعلنا بيننا وبينكم حَكَمين فلم ترضوا بحُكْمهما ؛ فقلت له : ما جئت بحجة ، إلّا ما كان صلحنا على أنها إذا اجتمعنا على رجل تبعنا حكمها ، ورضينا به وبايعناه ، فلم يجتمعنا على واحد ، وتفرقا ، فكلّهما لم يوفقه الله لخير ولم يسدده ، فقال : من أنت ؟ فأخبرته ؛ فقلت له : من أنت ؟ فقال : عدس - لبغلة يزجرها - فقلت له : ما أنصفتني ، هذا أول غدرك !

قال : ودعا ابن الأشتر بفرس له فركبه ، ثم مرّ بأصحاب الرايات كلّها ، فكلّمها مرّ على راية وقف عليها ، ثم قال : يا أنصار الدّين ، وشيعة الحق ، وشرطة الله ، هذا عُبيدالله بن مَرْجَانة قاتل الحسين بن علي ، ابن فاطمة بنت رسول الله ، حال بينه وبين بناته ونسائه وشيعته وبين ماء الفرات أن يشربوا منه ، وهم ينظرون إليه ، ومنعه أن يأتي ابن عمّه فيصالحه ، ومنعه أن ينصرف إلى رحله وأهله ، ومنعه الدّهَاب في الأرض العريضة حتى قتله وقتل أهل بيته ؛ فوالله ما عَمِل فرعون بُنْجَاء بني إسرائيل ما عَمِل ابن مَرْجَانة بأهل بيت رسول الله ﷺ الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . قد جاءكم الله به ، وجاءكم بكم ، فوالله إني لأرجو ألا يكون الله جمع بينكم في هذا الوطن وبينه إلا ليشفي صدوركم بسفك دمه على أيديكم ، فقد علم الله أنكم خرجتم غضباً لأهل بيت نبيكم . فسار فيما بين الميمنة والميسرة ، وسار في الناس كلّهم فرغبتهم في الجهاد ، وحرصهم على القتال ، ثم رجع حتى نزل تحت رأيته ، وزحف القوم إليه ، وقد جعل ابن زياد على ميمنته الحُصَيْن بن نُمير السُّكُوني ، وعلى ميسرته عُمير بن الحُبَاب السُّلَمي ، وشُرْحبيل بن ذي الكَلَّاع على الخيل وهو يمشي في الرجال ، فلما تدان الصفان حمل الحُصَيْن بن نُمير في ميمنة أهل الشام على ميسرة أهل الكوفة ، وعليها علي بن مالك الجُشمي ؛ فثبت له هو بنفسه فقتل ، ثم أخذ رأيته قُرّة بن علي ، فقال أيضاً في رجال من أهل الحفاظ قتلوا وانهمزمت الميسرة ، فأخذ راية علي بن مالك الجُشمي عبدالله بن ورقاء بن جُنادة السلولي ابن أخي حُبشي بن جُنادة صاحب رسول الله ﷺ ، فاستقبل أهل الميسرة حين انهزموا ، فقال : إني يا

شُرطة الله ؛ فأقبل إليه جُلهم ، فقال : هذا أميركم يقاتل ، سيرُوا بنا إليه ، فأقبل حتى أتاه وإذا هو كاشفٌ عن رأسه يُنادي : يا شُرطة الله ، إليّ أنا ابن الأشر ! إن خيرَ فرارِكم كُرارِكم ، ليس مُسيئاً من أعتَب . فثابَّ إليه أصحابه ، وأرسل إلى صاحب الميمنة : احمل على ميسرتهم - وهو يَرجو حينئذٍ أن يَهزم لهم عُمير بن الحُباب كما زعم ، فحمل عليهم صاحبُ الميمنة ، وهو سُفَيان بن يزيد بن المغفل ، فثبت له عُمير بن الحُباب وقَاتَلَه قتالاً شديداً ، فلما رأى إبراهيم ذلك قال لأصحابه : أمُوا هذا السواد الأعظم ، فوالله لو قد فَضَضْنَاهُ لا نجفل من ترون منهم ميمنةً ويسرةً انجفالاً طير ذعرتها فطارت .

قال أبو مخنف : فحدّثني إبراهيم بنُ عبد الرحمن الأنصاري ، عن ورقاء بن عازب ، قال : مشينا إليهم حتى إذا دَنَوْنَا منهم أطفأنا بالرماح قليلاً ، ثم صرنا إلى السيوف والعمد ، فاضطربنا بها ملياً من النهار ، فوالله ما شَبَّهْتُ ما سمعتُ بيننا وبينهم من وقَع الحديد على الحديد إلا مَيَاجِنَ قَصَّاري دار الوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط قال : فكان ذلك كذلك ، ثم إن الله هزَمهم ، وَمَنَحْنَا أَكْتَافَهُمْ .

قال أبو مخنف : وحدّثني الحارث بن حصيرة ، عن أبي صادق أن إبراهيم بن الأشر كان يقول لصاحب رايته : انغمس برأيتك فيهم ، فيقول له : إنه - جُعِلَتْ فِدَاكَ - ليس لي مُتَقَدِّم ، فيقول : بلى ، فإن أصحابك يقاتلون ؛ وإن هؤلاء لا يَهْرَبُونَ إن شاء الله ؛ فإذا تقدّم صاحبُ رايته برايته شدَّ إبراهيمُ بسيفه فلا يضرب به رجلاً إلا صرعه . وكَرَدَ إبراهيم الرجال من بين يديه كأنهم الحُمْلان ، وإذا حمل برايته شدَّ أصحابه شدّة رجل واحد .

قال أبو مخنف : حدّثني المشرقّي أنه كان مع عبيد الله بن زياد يومئذٍ حديدة لا تليق شيئاً مرّت به ، وأنه لما هُزم أصحابه حمل عُيَيْنَةُ بن أسماء أخته هند بنت أسماء - وكانت امرأة عبيد الله بن زياد - فذهب بها وأخذ يرتجز ويقول :

إِنْ تَضْرِمِي حَبَالَنَا فَرُبَّمَا
أَرَدَيْتُ فِي الْهَيْجَا الْكَمِيَّ الْمُعْلَمَا

قال أبو مخنف : وحدّثني فضيل بن خديج أن إبراهيم لما شدَّ على ابن زياد وأصحابه انهزموا بعد قتال شديد وقتل كثير من الفريقين ، وأن عُمير بن الحُباب لما رأى أصحاب إبراهيم قد هزموا أصحاب عبيد الله بعث إليه : أجيئك الآن ؟ فقال : لا تأتيني حتى تسكن فورة شُرطة الله ، فإني أخاف عليك عاديّتهم .

وقال ابن الأشر : قتل رجلًا وجدْتُ منه رائحة المسك ، شَرَقَتْ يدها وغرّبت رجلاه ، تحت راية منفردة ، على شاطئ نهر خازَر . فالتمسوه فإذا هو عبيد الله بن زياد قتيلاً ، ضربه فقدّه بنصفين ، فذهبت رجلاه في المشرق ، ويدها في المغرب . وحمل شريك بن جدير التغلبي على الحصين بن نُمير السكوني وهو يحسبه عبيد الله بن زياد ، فاعتنق كل واحد منهما صاحبه ، ونادى التغلبي : اقتلوني وابن الزانية ؛ فقتل ابن نُمير .

وحَدَّثني عبد الله بن أحمد ، قال : حدّثني أبي ، قال : حدّثني سليمان ، قال : حدّثني عبد الله بن المبارك ، قال : حدّثني الحسن بن كَثِير ، قال : كان شريك بن جدير التغلبي مع علي عليه السلام ، أصيبت عينه معه ، فلمّا انقضت حربُ علي لِحَقِّ بَيْتِ المقدس ، فبَكَى به ، فلمّا جاءه قتل الحسين ،

قال : أعاهدُ الله إن قدرت على كذا وكذا - يَطْلُبُ بدم الحسين - لأقتلنَّ ابنَ مرجانة أو لأموتنَّ دونه . فلمَّا بلغه أنَّ المختار خرج يَطْلُبُ بدم الحسين أقبل إليه . قال : فكان وجَّهه مع إبراهيم بن الأشتر ، وجُعِلَ على خيل ربيعة ، فقال لأصحابه : إني عاهدتُ الله على كذا وكذا ، فبايعه ثلاثمائة على الموت ، فلمَّا التقوا حَمَلَ فجعل يَهْتِكُهَا صَفًا صَفًا مع أصحابه حتَّى وصلوا إليه ، وثار الرَّهَجُ فلا يُسْمَعُ إلا وقع الحديد والسيوف ، فانفرجت عن الناس وهما قتيلان ليس بينهما أحد ؛ التَّغْلَبِيَّ وعبيدُ الله بن زياد ؛ قال : وهو الَّذي يقول :

كُلُّ عَيْشٍ قَدْ أَرَاهُ قَدِيرًا غَيْرَ رَكْزِ الرَّمْحِ فِي طَلِّ الْفَرَسِ

قال هشام : قال أبو مخنف : حدَّثني فضيل بن خديج ، قال : قُتِلَ شرحبيل بن ذي الكلاع ، فادَّعى قتله ثلاثة : سُفْيَانُ بن يزيد بن المغفل الأزدي ، وورقاء بن عازب الأسدي ، وعُبَيْدُ الله بن زُهَيْرِ السُّلَمِي . قال : ولمَّا هُزِمَ أصحاب عبيد الله تبعهم أصحاب إبراهيم بن الأشتر ، فكان مَنْ غرق أكثر ممن قتل ، وأصابوا عسكرهم فيه من كل شيء ، وبلغ المختار وهو يقول لأصحابه : يأتاكم الفتح أحدَ اليومين إن شاء الله من قِبَلِ إبراهيم بن الأشتر وأصحابه ، قد هزموا أصحاب عبيد الله بن مرجانة . قال : فخرج المختار من الكوفة ، واستخلف عليها السائب بن مالك الأشعري ، وخرج بالناس ، ونزل ساباط .

قال أبو مخنف : حدَّثني المشرقِي ، عن الشعبي ، قال : كنت أنا وأبي ممَّن خرج معه ، قال : فلمَّا جُزْنَا ساباط قال للنَّاس : أبشروا فإنَّ شرطة الله قد حسَّوهم بالسيوف يوماً إلى اللَّيْلِ بنصبيين أو قريباً من نصبيين ودَوَيْنَ منازلهم ، إلَّا أنَّ جلَّهم محصور بنصبيين . قال : ودخلنا المدائن ، واجتمعنا إليه ، فصعد المنبر ، فوالله إنَّه ليخطبنا ويأمرنا بالجدِّ وحسن الرأي والاجتهاد والثبات على الطاعة ، والطلب بدماء أهل البيت عليهم السلام ، إذ جاءته البشرى تترى يتبع بعضها بعضاً يَقْتُلُ عبيد الله بن زياد وهزيمة أصحابه ، وأخذ عسكره ، وقتل أشرف أهل الشام ، فقال المختار : يا شرطة الله ، ألم أبشركم بهذا قبل أن يكونوا قالوا : بلى والله لقد قلت ذلك ؛ قال : فيقول لي رجل من بعض جيراننا من الهمدانيين : أتؤمن الآن يا شعبي ؟ قال : قلت بأي شيء أومن ؟ أومن بأنَّ المختار يعلم الغيب ! لا أومن بذلك أبداً . قال : أولم يقل لنا : إنَّهم قد هُزِمُوا فقلتُ له : إنَّما زعم لنا أنَّهم هُزِمُوا بنصبيين من أرض الجزيرة ، وإنَّما هو بخارز من أرض الموصل ، فقال : والله لا تؤمن يا شعبي حتَّى ترى العذاب الأليم ؛ فقلتُ له : مَنْ هذا الهمداني الَّذي يقول لك هذا ؟ فقال : رجل لعمرى كان شجاعاً - قتل مع المختار بعد ذلك يوم خروءاء - يقال له : سَلْمَانُ بن حمير من الثوريين من همدان ؛ قال : وانصرف المختار إلى الكوفة ، ومضى ابن الأشتر من عسكره إلى الموصل ، وبعث عمَّاله عليها ، فبعث أخاه عبد الرحمن بن عبد الله على نصبيين ، وغلب على سنجار ودارا ، وما والاها من أرض الجزيرة ، وخرج أهل الكوفة الَّذِينَ كان المختار قاتلهم فهزمهم ، فلحقوا بِمُصْعَبِ بن الزبير بالبصرة . وكان فيمن قدم على مصعب سَبَثُ بن رُبَيْعٍ ، فقال سُرَاقَةُ بن مِرْدَاسِ البارقي يمدح إبراهيم بن الأشتر وأصحابه في قتل عبيد الله بن زياد :

أَتَاكُمْ غُلَامٌ مِنْ عَرَابِينَ مَذْجِجٍ جَرِيٌّ عَلَى الْأَعْدَاءِ غَيْرُ نَكُولٍ
فَيَا بَنَ زِيَادٍ بُوًّا بِأَعْظَمِ مَالِكٍ وَذُقْ حَدَّ مَاضِي الشُّفَرَتَيْنِ صَقِيلٍ

ضَرَبْنَاكَ بِالْعُضْبِ الحُسَامِ بِجِدَّةٍ إِذَا مَا أَبَانَا قَاتِلًا بِقَتِيلِ
جَزَى اللهُ خَيْرًا شُرْطَةَ اللهِ إِنَّهُمْ شَفَّوْا مِنْ عُيَيْدِ اللهِ أَمْسِ غَلِيلِي

وفي هذه السنة عمل عبدالله بن الزبير القُبَاعَ عن البصرة ، وبعث عليها أخاه مصعب بن الزبير ؛ فحدّثني عمر بن شُبَّة ، قال : حدّثني علي بن محمد ، قال : حدّثنا الشعبي ، قال : حدّثني وافر بن أبي ياسر ، قال : كان عمرو بن سرح مولى الزبير يأتينا فيحدّثنا ، قال : كنتُ والله في الرّهط الذين قدّموا مع المصعب بن الزبير من مكّة إلى البصرة ؛ قال : فقدم مثلثاً حتّى أناخ على باب المسجد ، ثم دخل فصعد المنبر ، فقال للناس : أمير أمير . قال : وجاء الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة - وهو أميرها قبله - فسفر المصعب فغرفوه ، وقالوا : مصعب بن الزبير ! فقال : للحارث : اظهر اظهّر ، فصعد حتّى جلس تحته من المنبر درجة ؛ قال : ثم قام المصعب فحمد الله وأثنى عليه . قال : فوالله ما أكثر الكلام ، ثم قال : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ طَسَمَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ^(١) - وأشار بيده نحو الشام - ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ ^(١) - وأشار بيده نحو الحجاز - ﴿ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ ^(١) - وأشار بيده نحو الشام .

حدّثني عمر بن شُبَّة ، قال : حدّثني علي بن محمد ، عن عوانة ، قال : لما قدم مصعب البصرة خطبهم فقال : يا أهل البصرة ، بلغني أنكم تلقبون أمراءكم ، وقد سميت نفسي الجزار .

وفي هذه السنة سار مصعب بن الزبير إلى المختار فقتله .

ذكر الخبر عن سبب مسير مصعب إليه والخبر عن مقتل المختار :

قال هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ، حدّثني حبيب بن بديل ، قال : لما قدم شُبَّة على مصعب بن الزبير البصرة وتحتة بغلة له قد قطع ذنبها ، وقطع طرف أذنها وشقّ قباءه ، وهو ينادي : يا غوثاه يا غوثاه ! فأتى مصعب ، فقيل له : إنّ بالباب رجلاً ينادي : يا غوثاه يا غوثاه ! مشقوق القباء ، من صفته كذا وكذا ، فقال لهم : نعم ، هذا شُبَّة بن ربعي لم يكن ليفعل هذا غيره ، فأدخلوه ، فأدخل عليه ، وجاءه أشراف الناس من أهل الكوفة فدخلوا عليه ، فأخبروه بما اجتمعوا له ، وبما أصيبوا به ووثوب عبيدهم ومواليهم عليهم ، وشكّوا إليه ، وسألوه النصّر لهم ، والمسير إلى المختار معهم . وقدم عليهم محمد بن الأشعث بن قيس - ولم يكن شهيد وقعة الكوفة ، كان في قصر له ممّا يلي القادسية بطبرستاناً - فلما بلغه هزيمة الناس تهياً للشيوخ ، وسأل عنه المختار ، فأخبر بمكانه ، فسرح إليه عبدالله بن قراد الخثعمي في مائة ، فلما ساروا إليه ، وبلغه أن قد دنوا منه ، خرج في البرية نحو المصعب حتّى لحق به ، فلما قدم على المصعب استحثّه بالخروج ، وأدناه مصعب وأكرمه لشرفه . قال : وبعث المختار إلى دار محمد بن الأشعث فهذهما .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو يوسف بن يزيد أنّ المصعب لما أراد المسير إلى الكوفة حين أكثر الناس

(١) سورة القصص : ١ - ٦ .

عليه ، قال لمحمد بن الأشعث : إني لا أسير حتى يأتيني المهلب بن أبي صفرة . فكتب المصعب إلى المهلب - وهو عامله على فارس : أن أقبل إلينا لتشهد أمرنا ، فإننا نريد المسير إلى الكوفة . فأبطأ عليه المهلب وأصحابه ، واعتل بشيء من الخراج ، لكرهه الخروج ، فأمر مصعب محمد بن الأشعث في بعض ما يستحثه أن يأتي المهلب فيقبل به ، وأعلمه أنه لا يشخص دون أن يأتي المهلب ؛ فذهب محمد بن الأشعث بكتاب المصعب إلى المهلب ، فلما قرأه قال له : مثلك يا محمد يأتي بريداً أما وجد المصعب بريداً غيرك ! قال محمد : إني والله ما أنا ببريد أحد ، غير أن نساءنا وأبناءنا وحرماننا غلبنا عليهم عبداننا وموالينا . فخرج المهلب ، وأقبل بجموع كثيرة وأموال عظيمة معه في جموع وهيئة ليس بها أحد من أهل البصرة . ولما دخل المهلب البصرة أتى باب المصعب ليدخل عليه وقد أذن للناس ، فحجبه الحاجب وهو لا يعرفه ، فرفع المهلب يده فكسر أنفه ، فدخل إلى المصعب وأنفه يسيل دماً ، فقال له : مالك ؟ فقال : ضربني رجل ما أعرفه ، ودخل المهلب فلما رآه الحاجب قال : هو ذا ، قال له المصعب : عد إلى مكانك ، وأمر المصعب الناس بالمعسكر عند الجسر الأكبر ، ودعا عبدالرحمن بن مخنف فقال له : إئت الكوفة فأخرج إلي جميع من قدرت عليه أن تخرجه ، وادعهم إلى بيعتي سرّاً ، وخذل أصحاب المختار ، فانسأ من عنده حتى جلس في بيته مستتراً لا يظهر ، وخرج المصعب فقدم أمامه عباد بن الحصين الحنظلي من بني تميم على مقدمته ، وبعث عمر بن عبيد الله بن معمر على ميمته ، وبعث المهلب بن أبي صفرة على ميسرته ، وجعل مالك بن مسمع على خمس بكر بن وائل ، ومالك بن المنذر على خمس عبدالقيس ، والأحنف بن قيس على خمس تميم وزيد بن عمرو الأزدي على خمس الأزد ، وقيس بن الهيثم على خمس أهل العالية ؛ وبلغ ذلك المختار ، فقام في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا أهل الكوفة ، يا أهل الدين ، وأعوان الحق ، وأنصار الضعيف ، وشيعة الرسول ، وآل الرسول ، إن فراركم الذين بغوا عليكم أتوا أشباههم من الفاسقين فاستغفروهم عليكم ليمصح الحق ، وينتفش الباطل ، ويقتل أولياء الله ، والله لو تهلكون ما عبد الله في الأرض إلا بالفرى على الله واللعن لأهل بيت نبيه انتدبوا مع أحمر بن شميظ فإنكم لو قد لقيتموهم لقد قتلتموهم إن شاء الله قتل عاد وإرم .

فخرج أحمر بن شميظ ، فعسكر بحمام أعين ، ودعا المختار رؤوس الأرباع الذين كانوا مع ابن الأشتر ، فبعثهم مع أحمر بن شميظ ، كما كانوا مع ابن الأشتر ، فإنهم إنما فارقوا ابن الأشتر ؛ لأنهم رأوه كالمتهاون بأمر المختار ، فانصرفوا عنه ، وبعثهم المختار مع ابن شميظ ، وبعث معه جيشاً كثيفاً ، فخرج ابن شميظ ، فبعث على مقدمته ابن كامل الشاكري ، وسار أحمر بن شميظ حتى ورد المدار ، وجاء المصعب حتى عسكر منه قريباً .

ثم إن كل واحد منهما عبي جنده . ثم تراخفا فجعل أحمر بن شميظ على ميمته عبد الله بن كامل الشاكري ، وعلى ميسرته عبد الله بن وهب بن نضلة الجشمي ، وعلى الخيل رزين عبدالسلولي ، وعلى الرجال كثير بن إسماعيل الكندي - وكان يوم خازر مع ابن الأشتر - وجعل كيسان أبا عمرة - وكان مولى لعرينة - على الموالي ، فجاء عبد الله بن وهب بن أنس الجشمي إلى ابن شميظ وقد جعله على ميسرته ، فقال له : إن الموالي والعبيد آل خور عند المصدوقة ، وإن معهم رجالاً كثيراً على الخيل ، وأنت تمشي ،

فمُرهم فليَنزلوا معك ، فإنَّ لهم بك أسوة ، فلَاني أتخوَّف إن طُورِدوا ساعة ، وطُوعِنوا وضُورِبوا أن يطيروا على متونها ويُسلِموك ، وإنك إن أرجلتهم لم يجدُوا من الصبر بُدًا ، وإنما كان هذا منه غِشًّا للموالي والعبيد ، لما كانوا لقوا منهم بالكوفة ، فأحبُّ إن كانت عليهم الدَّيْرَةُ أن يكونوا رجالاً لا ينجو منهم أحد ، ولم يتهمه ابنُ شميْط ، وظنَّ أنه إنما أراد بذلك نُصَحَه ليصبروا ويُقاتِلوا ، فقال : يا معشر الموالي ، إنزلوا معي فقاتِلوا ، فنزلوا معه ، ثم مَشَوْا بين يديه وبين يَدَي رايته ، وجاء مصعب بن الزبير وقد جعل عَباد بن الحصين على الخيل ، فجاء عَباد حتى دنا من ابن شميْط وأصحابه فقال : إنَّما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وإلى بيعة أمير المؤمنين عبدِالله بن الزبير ؛ وقال الآخرون : إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وإلى بيعة الأمير المختار وإلى أن نجعل هذا الأمر شورى في آل الرسول ، فَمَن زعم من الناس أن أحداً ينبغي له أن يتولَّى عليهم برثنا منه وجاهدناه . فانصرف عَباد إلى المُصعب فأخبره ، فقال له : ارجع فاحمل عليهم ، فرجع فحملَ على ابن شميْط وأصحابه فلم يزلْ منهم أحدٌ ، ثم انصرف إلى موقفه وحمل المَهْلَب على ابن كامل ، فجال أصحابه بعضهم في بعض ، فنزل ابنُ كامل ، ثم انصرف عنه المَهْلَب ، فقام مكانه ، فوقفوا ساعة ثم قال المَهْلَب لأصحابه : كُروا كَرَّةً صادقة ، فإنَّ القوم قد أطمَعوكم ، وذلك بجَوَلَتهم التي جالوا ، فحمل عليهم حَمْلَةً منكرةً فَوَلَّوْا ، وصبر ابنُ كامل في رجال من هَمْدان ، فأخذ المَهْلَب يَسْمَعُ شِعَارَ القوم : أنا الغلامُ الشاكِرِيُّ ، أنا الغلامُ الشَّامي ، أنا الغلامُ الثَّوري ، فما كان إلاَّ ساعة حتَّى هُزِموا ، وحمل عمرُ بن عبيدالله بن مَعمر على عبدِالله بن أنس ، فقاتل ساعة ثم انصرف ، وحمل الناسُ جميعاً على ابن شُمَيْط ، فقاتل حتَّى قُتِل ، وتنادوا : يا مَعشَرُ بَجِيلَةٍ وَخَنَعَم ، الصَّبْرُ الصَّبْرُ ! فناداهم المَهْلَب : الفِرَارُ الفِرَارُ ! اليوم أنجى لكم ، عَلَامُ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ مع هذه العِبدان ، أَضَلَّ الله سَعْيَكُمْ . ثم نظر إلى أصحابه فقال : والله ما أرى استحرارَ القَتْلِ اليومَ إلَّا في قومي . ومالت الخيلُ على رِجَالِ ابنِ شُمَيْط ، فافتَرقتْ فانهزمتْ وأخذت الصَّحراء ، فَبَعَثَ المصعبُ عَباد بن الحُصَيْن على الخيل ، فقال : أيُّما أسيرٍ أَخَذْتَه فاضربْ عُنُقَه . وسرَّحَ مُحَمَّد بنُ الأشعث في خيل عظيمة أهلِ الكوفة مِنَّن كان المختار طَرَدَهُمْ ، فقال : دُونَكُمْ ثَارَكُمْ ! فكانوا حيث انهزموا أَشدَّ عليهم من أهلِ البَصْرة ، لا يُدْرِكُونَ منهزماً إلَّا قَتَلُوهُ ، ولا يأخذون أسيراً فَيَعْفُونَ عنه . قال : فلم يَبْجُ من ذلك الجيشِ إلَّا طائفةٌ من أصحاب الخيل ؛ وأما رِجَالُهُمْ فَأَبِيدُوا إلَّا قليلاً .

قال أبو مخنف : حدَّثني ابنُ عِيَّاش المُنْتَوَف ، عن معاوية بن قُرَّة المَزَنِيِّ ، قال : انتهيتُ إلى رجلٍ منهم ، فأدخلتُ سنانَ الرمح في عينه ، فأخذتُ أَخْضِضُ عَيْنَهُ بسنانِ رُمحِي ، فقلتُ له : وفعلتُ به هذا ؟ قال : نعم ، لأنهم كانوا أَحَلَّ عِنْدَنَا دِمَاءَ من التُّرك والدَّيْلِم ؛ وكان معاوية بنُ قُرَّة قاضياً لأهلِ البَصْرة ، ففي ذلك يقول الأعشى :

ألا هل أَتَاكَ وَالْأَنْبَاءُ تُنَمَى	بما لا قَتَ بَجِيلَةٍ بِالْمَذَارِ
أَتِيحَ لَهُمْ بِهَا ضَرْبٌ طَلَحَفُ	وطعنُ صائبٍ وَجَهَ النَّهَارِ
كَأَنَّ سَحَابَةً صَغَقَتْ عَلَيْهِمْ	فَعَمَّتْهُمْ هُنَالِكَ بِالْذَّمَارِ
فَبَشَّرَ شَيْعَةَ الْمُخْتَارِ إِمَّا	مَرَّرَتْ عَلَى الْكُوفَةِ بِالصُّغَارِ

أَقَرَّ الْعَيْنَ صَرْعَاهُمْ وَقُلْ
وَمَا إِنْ سَرْنِي إِهْلَاكَ قَوْمِي
لَكِنِّي سُرَرْتُ بِمَا يُلَاقِي
لَهُمْ جَمٌّ يُقَتَّلُ بِالصَّحَارِي
وَأِنْ كَانُوا وَجَدَكَ فِي خِيَارِ
أَبُو إِسْحَاقَ مِنْ خِزْيٍ وَعَارِ

وأقبل المصعبُ حتى قطع من تلقاءِ واسطِ القَصْبِ ، ولم تك واسط هذه بُنِيَتْ حينئذٍ بعد ، فأخذ في كَسْكَر ، ثم حَمَلَ الرِّجَالَ وَأَثْقَالَهُمْ وَضَعْفَاءَ النَّاسِ فِي السَّفَنِ ، فَأَخَذُوا فِي نَهْرٍ يُقَالُ لَهُ : نَهْرُ خُرْشَادٍ ، ثُمَّ خَرَجُوا مِنْ ذَلِكَ النَّهْرِ إِلَى نَهْرٍ يُقَالُ لَهُ قَوْسَانٌ ؛ ثُمَّ أَخْرَجَهُمْ مِنْ ذَلِكَ النَّهْرِ إِلَى الْفُرَاتِ .

قال أبو مخنف : وَحَدَّثَنِي فَضِيلُ بْنُ خَدِيجٍ الْكِنْدِيُّ ، أَنَّ أَهْلَ الْبَصْرَةِ كَانُوا يَخْرُجُونَ فَيَجْرُونَ سَفَنَهُمْ وَيَقُولُونَ :

عَوَدَنَا الْمَصْعَبُ جَرَّ الْقَلَسِ وَالزُّنْبَرِيَّاتِ الطُّوَالَ الْقُعْسِ

قال : فَلَمَّا بَلَغَ مَنْ مَعَ الْمُخْتَارِ مِنْ تِلْكَ الْأَعَاجِمِ مَا لَقِيَ إِخْوَانَهُمْ مَعَ ابْنِ شُمَيْطَ قَالُوا بِالْفَارْسِيَّةِ : « اَيْنَ بَارْذُرُوكُ كُفْتُ » ؛ يَقُولُونَ : هَذِهِ الْمَرَّةُ كَذِبٌ .

قال أبو مخنف : وَحَدَّثَنِي هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الثَّقَفِيُّ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عُمَيْرٍ الثَّقَفِيِّ ، قَالَ : وَاللَّهِ إِنِّي لَجَالِسٌ عِنْدَ الْمُخْتَارِ حِينَ أَتَاهُ هَزِيمَةُ الْقَوْمِ وَمَا لَقُوا ، قَالَ : فَأَصْغَى إِلَيَّ ، فَقَالَ : قَتَلْتُ وَاللَّهِ الْعَبِيدَ قَتْلَةً مَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهَا قَطْ . ثُمَّ قَالَ : وَقَتَلَ ابْنُ شُمَيْطَ وَابْنُ كَامِلٍ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ ، فَسَمَّى رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ أَصْبِيَا ، كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ فِي الْحَرْبِ خَيْرًا مِنْ فِثَامٍ مِنَ النَّاسِ . قَالَ : فَقُلْتُ لَهُ : فَهَذِهِ وَاللَّهِ مَصِيبَةٌ ، فَقَالَ لِي : مَا مِنْ الْمَوْتِ بُدٌّ ، وَمَا مِنْ مَيِّتَةٍ أَمُوتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِثْلِ مَيِّتَةِ ابْنِ شُمَيْطَ ، حَبْدًا مَصَارِعُ الْكَرَامِ ! قَالَ : فَعَلِمْتُ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ حَدَّثَ نَفْسَهُ إِنْ لَمْ يُصَبِّ حَاجَتَهُ أَنْ يُقَاتِلَ حَتَّى يَمُوتَ .

ولما بلغ المختار أنهم قد أقبلوا إليه في البحر ، وعلى الظهر ، سار حتى نزل بهم السَّيْلَجِينَ ، وَنَظَرَ إِلَى مُجْتَمَعِ الْأَنْهَارِ نَهْرِ الْحِيرَةِ وَنَهْرِ السَّيْلَجِينَ وَنَهْرِ الْقَادِسيَّةِ ، وَنَهْرَ يَوْسُفَ ، فَسَكَرَ الْفُرَاتَ عَلَى مُجْتَمَعِ الْأَنْهَارِ ، فَذَهَبَ مَاءُ الْفُرَاتِ كُلُّهُ فِي هَذِهِ الْأَنْهَارِ ، وَبَقِيَتْ سَفْنُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فِي الطَّيْنِ ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ خَرَجُوا مِنَ السَّفَنِ يَمْشُونَ ، وَأَقْبَلَتْ خِيَلُهُمْ تَرْكُضَ حَتَّى أَتَوْا ذَلِكَ السَّكْرَ ، فَكَسَرُوهُ وَصَمَدُوا صِمْدَ الْكُوفَةِ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْمُخْتَارُ أَقْبَلَ إِلَيْهِمْ حَتَّى نَزَلَ حَرُورَاءَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكُوفَةِ ، وَقَدْ كَانَ حَصْنُ قَصْرِهِ وَالْمَسْجِدَ ، وَأَدْخَلَ فِي قَصْرِهِ عُذَّةَ الْحِصَارِ ، وَجَاءَ الْمَصْعَبُ يَسِيرُ إِلَيْهِ وَهُوَ بِحَرُورَاءَ وَقَدْ اسْتَعْمَلَ عَلَى الْكُوفَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادٍ ، وَخَرَجَ إِلَيْهِ الْمُخْتَارُ وَقَدْ جَعَلَ عَلَى مَيْمَنَتِهِ سُلَيْمُ بْنُ يَزِيدَ الْكِنْدِيُّ ، وَجَعَلَ عَلَى مَيْسَرَتِهِ سَعِيدُ بْنُ مُنْقِذِ الْهَمْدَانِيِّ ثُمَّ الثَّوْرِيُّ ، وَكَانَ عَلَى شُرْطَتِهِ يَوْمئِذٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قُرَادِ الْخَثْعَمِيِّ ، وَبَعَثَ عَلَى الْخِيَلِ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّهْدِيُّ ، وَعَلَى الرِّجَالِ مَالِكُ بْنُ عَمْرِو النَّهْدِيِّ ، وَجَعَلَ مَصْعَبُ عَلَى مَيْمَنَتِهِ الْمَهْلَبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهِ عَمْرُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْمَرِ التَّيْمِيِّ ، وَعَلَى الْخِيَلِ عَبَّادُ بْنُ الْحُصَيْنِ الْحَبْطِيُّ ، وَعَلَى الرِّجَالِ مِقَاتِلُ بْنُ مِسْمَعٍ الْبَكْرِيُّ ، وَنَزَلَ هُوَ يَمْشِي مُتَنَكِّبًا قَوْسًا لَهُ .

قال : وَجَعَلَ عَلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ ، فَجَاءَ مُحَمَّدٌ حَتَّى نَزَلَ بَيْنَ الْمَصْعَبِ وَالْمُخْتَارِ مَغْرِبًا مِيَامِنًا . قَالَ : فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْمُخْتَارُ بَعَثَ إِلَى كُلِّ خُمْسٍ مِنْ أَخْمَاسِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَبَعَثَ إِلَى بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ سَعِيدُ بْنُ مُنْقِذِ صَاحِبِ مَيْسَرَتِهِ ، وَعَلَيْهِمْ مَالِكُ بْنُ مِسْمَعٍ الْبَكْرِيُّ ،

وبعث إلى عبدالقيس وعليهم مالك بن المنذر عبدالرحمن بن شريح الشبامي ، وكان على بيت ماله ، وبعث إلى أهل العالية وعليهم قيس بن الهيثم السلمي عبدالله بن جعدة القرشي ، ثم المخزومي ، وبعث إلى الأزد وعليهم زياد بن عمرو العتكي مسافر بن سعيد بن نمران الناعطي ، وبعث إلى بني تميم وعليهم الأحنف بن قيس سليم بن يزيد الكندي ، وكان صاحب ميمته ، وبعث إلى محمد بن الأشعث السائب بن مالك الأشعري ، ووقف في بقيّة أصحابه ، وتزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض ، ويحبل سعيد بن منقذ وعبدالرحمن بن شريح على بكر بن وائل ، وعبدالقيس ، وهم في الميسرة وعليهم عمر بن عبيدالله بن معمر ؛ فقاتلتهم ربيعة قتالاً شديداً ، وصبروا لهم ، وأخذ سعيد بن منقذ وعبدالرحمن بن شريح لا يفلعان ، إذا حمل واحد فانصرف حمل الآخر ، وربما حملاً جميعاً ؛ قال : فبعث المصعب إلى المهلب : ما تنتظر أن تحمّل على من يذاثك ! ألا ترى ما يلقي هذان الخُمسان منذ اليوم ! احمل بأصحابك ، فقال : إي لعمرى ما كنت لأجزر الأزد وتميماً خشية أهل الكوفة حتى أرى فرصتي . قال : وبعث المختار إلى عبدالله بن جعدة أن احمل على من يذاثك ، فحمل على أهل العالية فكشفهم حتى انتهوا إلى المصعب ، فجنّا المصعب على ركبته - ولم يكن فراراً - فرمى بأسهمه . ونزل الناس عنده فقاتلوا ساعة ، ثم تحاجزوا . قال : وبعث المصعب إلى المهلب وهو في خمسين جامين كثيري العدد والفرسان : لا أباك ! ما تنتظر أن تحمّل على القوم ! فمكث غير بعيد ، ثم إنه قال لأصحابه : قد قاتل الناس منذ اليوم وأنتم وقوف ، وقد أحسنوا ، وقد بقي ما عليكم ، احمّلوا واستعينوا بالله واصبروا ، فحمل على من يليه حملة منكراً ، فحطموا أصحاب المختار حطمةً منكراً ، فكشفوهم . وقال عبدالله بن عمر والنهدي - وكان من أصحاب صفين : اللهم إني على ما كنت عليه ليلة الخميس بصفين ، اللهم إني أبرأ إليك من فعل هؤلاء لأصحابه حين انهزموا ، وأبرأ إليك من أنفس هؤلاء - يعني أصحاب المصعب - ثم جالد بسيفه حتى قُتل ، وأنى مالك بن عمرو أبو نمران النهدي وهو على الرجالة بفرسه فركبه ، وانقص أصحاب المختار انقصافاً شديدة كأنهم أجمة فيها حريق ، فقال مالك حين ركب : ما أصنع بالركوب ! والله لأن أقتلها هنا أحب إليّ من أن أقتل في بيتي ؛ أين أهل البصائر ؟ أين أهل الصبر ؟ فثاب إليه نحو من خمسين رجلاً ، وذلك عند المساء ، فكرر على أصحاب محمد بن الأشعث ، فقتل محمد بن الأشعث إلى جانبه هو وعامة أصحابه ، فبعض الناس يقول : هو قتل محمد بن الأشعث ، ووجد أبو نمران قتيلاً إلى جانبه - وكندة تزعم أن عبدالملك بن أشاة الكندي هو الذي قتله - فلما مر المختار في أصحابه على محمد بن الأشعث قتيلاً قال : يا معشر الأنصار ، كروا على الثعالب الرّواغة ، فحملوا عليهم ، فقتل ، فخنّعم تزعم أن عبدالله بن قراد هو الذي قتله .

قال أبو مخنف : وسمعت عوف بن عمرو الجشمي يزعم أن مولى لهم قتله ، فادّعى قتله أربعة نفر ، كلهم يزعم أنه قتله ، وانكشف أصحاب سعيد بن منقذ ، فقاتل في عصابة من قومه نحو من سبعين رجلاً فقتلوا ، وقاتل سليم بن يزيد الكندي في تسعين رجلاً من قومه ، وغيرهم ضارب حتى قُتل ، وقاتل المختار على قم سكة شبت ، ونزل وهو يريد ألا يبرح ، فقاتل عامة ليلته حتى انصرف عنه القوم ، وقُتل معه ليلتئذ رجال من أصحابه من أهل الحِفاظ ، منهم عاصم بن عبدالله الأزدي ، وعياش بن خازم الهمداني ، ثم الثوري ، وأحمر بن هديج الهمداني ثم الفايشي .

قال أبو مخنف : حدثنا أبو الزبير أن همدان تنادوا ليلتشد : يا معشر همدان ، سيفوهم فقاتلوهم أشد القتال ؛ فلما أن تفرقوا عن المختار قال له أصحابه : أيها الأمير ، قد ذهب القوم فانصرف إلى منزلك إلى القصر ، فقال المختار : أما والله ما نزلت وأنا أريد أن آتي القصر ، فأما إذ انصرفوا فاركبوا بنا على اسم الله ؛ فجاء حتى دخل القصر فقال الأعشى في قتل محمد بن الأشعث :

تَأَوَّبَ عَيْنَكَ عُورَاهَا وَعَادَ لِنَفْسِكَ تَذْكَارَهَا
وإحدى لياليك راجعتها أَرِقْتَ وَلَوْ سَمَّارَهَا
وما ذاقَتِ العينُ طَعْمَ الرُّقَا دِ حَتَّى تَبْلُجَ إِسْفَارَهَا
وقامَ نِعَاةُ أَبِي قَاسِمٍ فَاسْبِلْ بِالْدَمْعِ تَحْدَارَهَا
فحقَّ العيون على ابن الأشد جَّ أَلَا يُفْتَرُ تَقَطَّارَهَا
وَأَلَّا تَزَالَ تُبْكِي لَهُ وَتَبْتَلُ بِالْدَمْعِ أَشْفَارَهَا
عليك محمدٌ لما نَوَى تَ تَبْكِي الْبِلَادَ وَأَشْجَارَهَا
وما يَذْكُرُونَكَ إِلَّا بَكَوْا إِذَا ذِمَّةُ خَانِهَا جَارَهَا
وعارية من ليالي الشَّتَا ءِ لَا يَتَمَنَّحُ أُيْسَارَهَا
ولا يُنْبِحُ الْكَلْبُ فِيهَا الْعَقْوُ رَ إِلَّا الْهَرِيرُ وَتَخْتَارَهَا
ولا يَنْفَعُ الثَّوْبُ فِيهَا الْفَتَى وَلَا رَبَّةَ الْخِذْرِ تَخْدَارَهَا
فَأَنْتَ مُحَمَّدُ فِي مِثْلِهَا مُهَيْنُ الْجَزَائِرِ نَحَارَهَا
تَظَلُّ جِفَانُكَ مَوْضُوعَةً تَسِيلُ مِنَ الشَّحْمِ أَضْبَارَهَا
وما في سقائك مُسْتَنْطَفٌ إِذَا الشُّوْلُ رُوحَ أَغْبَارَهَا
فيا وَاهِبَ الوُصْفَاءِ الصَّبَا حَ إِنْ شُبْرَتْ تَمَّ إِشْبَارَهَا
ويا وَاهِبَ الْجُرْدِ مِثْلَ الْقِدَا حَ قَدْ يُعْجِبُ الصَّفَّ شُورَهَا
ويا وَاهِبَ الْبَكَرَاتِ الْهَجَا نِ عُوذًا تَجَاوُبُ أَبْكَارَهَا
وكنْتَ كدِجْلَةٍ إِذْ تَرْتَمِي فَيُقَذَّفُ فِي الْبَحْرِ تَيَّارَهَا
وكنْتَ جليداً وَذَا مِرَّةٍ إِذَا يُبْتَغَى مِنْكَ إِمْرَارَهَا
وكنْتَ إِذَا بَلْدَةٌ أَصْفَقَتْ وَأَذْنَ بِالْحَرْبِ جَبَّارَهَا
بَعَثَتْ عَلَيْهَا ذَوَاكِى الْعِيُو نِ حَتَّى تَوَاصِلَ أَخْبَارَهَا
بِإِذْنِ مِنَ اللَّهِ وَالْخَيْلُ قَدْ أُعِدَّ لَذَلِكَ مِضْمَارَهَا
وَقَدْ تُطْعَمُ الْخَيْلُ مِنْكَ الْوَجِيءُ فَ حَتَّى تُنْبِذَ أَمْهَارَهَا
وَقَدْ تَعْلَمُ الْبَازِلُ الْعَيْسَجُو رُ أَنَّكَ بِالْخَبْتِ حَسَارَهَا
فيا أَسْفَى يَوْمٍ لَا قِيَتَهُمْ وَخَانَتْ رَجَالُكَ فُرَّارَهَا
وَأَقْبَلَتِ الْخَيْلُ مَهْزُومَةً عِثَاراً تُضْرَبُ أَدْبَارَهَا
بِشَطِّ حَرُورَاءَ وَاسْتَجْمَعَتْ عَلَيْكَ الْمَوَالِي وَسَحَارَهَا

فأخْطَرَتْ نَفْسَكَ مِنْ دُونِهِمْ فَحَازَ الرِّزْيَةَ أَنْحَاطُهَا
فَلَا تَبْعَدَنَّ أَبَا قَاسِمٍ فَقَدْ يَبْلُغُ النَفْسَ مِقْدَارُهَا
وَأَفْنَى الْحَوَادِثُ سَادَاتِنَا وَمَرُّ اللَّيَالِي وَتَكْرَارُهَا

قال هشام : قال أبي : كان السائب أقر مع مُصعب بن الزُّبَيْر ، فقتله وَرَقَاء النَّخَعِي مِنْ وَهْبِيل ، فقال وَرَقَاء :

مَنْ مُبْلَغٌ عَنِّي عُبَيْدًا بِأَنْنِي عَلَوْتُ أَخَاهُ بِالْحُسَامِ الْمُهْنَدِ
فَإِنْ كُنْتُ تَبْغِي الْعِلْمَ عَنْهُ فَإِنَّهُ صَرِيحٌ لَدَى الدَّيْرَيْنِ غَيْرُ مُوسِدِ
وَعَمْدًا عَلَوْتُ الرَّأْسَ مِنْهُ بِصَارِمٍ فَأَتَكَلَّمُهُ سُفْيَانُ بَعْدَ مُحَمَّدِ

قال هشام عن أبي مخنف ، قال : حَدَّثَنِي حَصِيرَةُ بن عبد الله ، أن هندا بنت المتكلمة الناعية كان يجتمع إليها كل غالٍ من الشيعة فيتحدث في بيتها وفي بيت ليلى بنت قمامة المزنية ، وكان أخوها رفاعة بن قمامة من شيعة علي ، وكان مقتصدًا ، فكانت لا تحبه ، فكان أبو عبد الله الجدلي يزيد بن شراحيل قد أخبر ابن الحنفية خبر هاتين المرأتين وغلوهما وخبر أبي الأحراس المرادي والبطين الليثي وأبي الحارث الكندي .

قال هشام عن أبي مخنف ، قال : حَدَّثَنِي يَحْيَى بن أبي عيسى ، قال : فكان ابن الحنفية قد كتب مع يزيد بن شراحيل إلى الشيعة بالكوفة يُحذِّرهم هؤلاء ، فكتب إليهم :

من محمد بن علي إلى من بالكوفة من شيعتنا . أمّا بعد ، فاخرجوا إلى المجالس والمساجد فاذكروا الله علانية وسراً ولا تتخذوا من دون المؤمنين بطانة ، فإن خشيتكم على أنفسكم فاحذروا على دينكم الكذابين ، واكثرُوا الصلاة والصيام والدعاء فإنه ليس أحدٌ من الخلق يملك لأحد ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ، وكل نفس بما كسبت رهينة ، ولا ترزؤا رزرة ورز أخرى ، والله قائم على كل نفس بما كسبت ، فاعملوا صالحاً ، - وقدّموا لأنفسكم حسناً ، ولا تكونوا من الغافلين ، والسلام عليكم .

قال أبو مخنف : فَحَدَّثَنِي حَصِيرَةُ بن عبد الله ، أن عبد الله بن نوف خرج من بيت هند بنت المتكلمة حين خرج الناس إلى حروراء وهو يقول : يوم الأربعاء ، ترفعت السماء ، ونزل القضاء ، بهزيمة الأعداء ، فاخرجوا على اسم الله إلى حروراء . فخرج ، فلما التقى الناس للقتال ضرب على وجهه ضربة ، ورجع الناس منهزمين ، ولقيه عبد الله بن شريك النهدي ، وقد سمع مقالته ، فقال له : ألم تزعم لنا يا بن نوف أننا سنهزمهم ! قال : أو ما قرأت في كتاب الله : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ !^(١) قال : فلما أصبح المصعب أقبل يسير بمن معه من أهل البصرة ومن خرج إليه من أهل الكوفة ، فأخذ بهم نحو السبخة ، فمر بالمهلب ، فقال له المهلب : يا له فتحاً ما أهناه لو لم يكن محمد بن الأشعث قُتِل ! قال : صدقت ، فرجم الله محمداً . ثم سار غير بعيد ، ثم قال : يا مهلب ، قال : لبيك أيها الأمير ؛ قال : هل علمت أن عبيد الله بن علي بن أبي طالب قد قُتِل ! قال : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ قال المصعب : أمّا إنه كان ممن أحب أن يرى هذا الفتح ، ثم لا نجعل أنفسنا أحق بشيء مما نحن فيه منه ، أتدري من قُتل ؟ قال : لا ؛ قال : إنما

قَتَلَهُ مَنْ يَزْعَمُ أَنَّهُ لِأَبِيهِ شَيْعَةٌ ، أَمَا إِنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوهُ وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ .

قال : ثم مضى حتى نزل السَّبْخَةُ ففقطع عنهم الماء والمادة ، وبعث عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث فنزل الكناسة ، وبعث عبدالرحمن بن مخنف بن سليم إلى جَبَانَةِ السَّبِيح ، وقد كان قال لعبد الرحمن بن مخنف : ما كنت صنعتُ فيها كنتُ وكُلتُك به؟ قال : أَصْلَحَكَ اللهُ ! وَجَدْتُ النَّاسَ صِنْفَيْنِ ؛ أَمَّا مَنْ كَانَ لَهُ فَيْكُ هَوًى فَخَرَجَ إِلَيْكَ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ يَرَى رَأْيَ الْمُخْتَارِ ، فَلَمْ يَكُنْ لِيَدِّعِهِ ، وَلَا لِيُؤْثِرَ أَحَدًا عَلَيْهِ ، فَلَمْ أَبْرَحْ بَيْتِي حَتَّى قَدِمْتُ ؛ قَالَ : صَدَقْتَ ؛ وَبَعَثَ عَبَادُ بْنُ الْحُصَيْنِ إِلَى جَبَانَةِ كِنْدَةَ ، فَكُلَّ هَؤُلَاءِ كَانَ يَقْطَعُ عَنِ الْمُخْتَارِ وَأَصْحَابِهِ الْمَاءَ وَالْمَادَّةَ ، وَهُمْ فِي قَصْرِ الْمُخْتَارِ ، وَبَعَثَ زُحْرُ بْنُ قَيْسٍ إِلَى جَبَانَةِ مُرَادٍ ، وَبَعَثَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَرِّ إِلَى جَبَانَةِ الصَّائِدِيِّينَ .

قال أبو مخنف : وَحَدَّثَنِي فَضِيلُ بْنُ خَدِيجٍ ، قَالَ : لَقَدْ رَأَيْتُ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ الْحَرِّ ؛ وَإِنَّهُ لِيَطَارِدُ أَصْحَابَ خَيْلِ الْمُخْتَارِ ، يُقَاتِلُهُمْ فِي جَبَانَةِ الصَّائِدِيِّينَ وَلِرَبَّمَا رَأَيْتُ خَيْلَهُمْ تَطْرُدُ خَيْلَهُ ، وَإِنَّهُ لَوَرَاءَ خَيْلِهِ يَجْمِعُهَا حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى دَارِ عِكْرَمَةَ ، ثُمَّ يَكْرُرُ رَاجِعًا هُوَ وَخَيْلُهُ ، فَيَطْرُدُهُمْ حَتَّى يُلْحَقَهُمْ بِجَبَانَةِ الصَّائِدِيِّينَ ، وَلِرَبَّمَا رَأَيْتُ خَيْلَ عُبَيْدِ اللَّهِ قَدْ أَخَذَتْ السَّقَاءَ وَالسَّقَاتَيْنِ فَيُضْرَبُونَ ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَأْتُونَهُمْ بِالْمَاءِ أَنَّهُمْ كَانُوا يُعْطُونَهُمْ بِالرَّأْوِيَةِ الدِّينَارَ وَالدِّينَارَيْنِ لِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْجَهْدِ . وَكَانَ الْمُخْتَارُ رَجُلًا خَرَجَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ فَقَاتَلُوا قِتَالًا ضَعِيفًا ، وَلَا نَكَايَةَ لَهُمْ ، وَكَانَتْ لَا تَخْرُجُ لَهُ خَيْلٌ إِلَّا رُمِيَتْ بِالْحِجَارَةِ مِنْ فَوْقِ الْبُيُوتِ ، وَيُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْمَاءُ الْقَدِيرُ . وَاجْتَرَأَ عَلَيْهِمُ النَّاسُ ، فَكَانَتْ مَعَايِشُهُمْ أَفْضَلُهَا مِنْ نِسَائِهِمْ ، فَكَانَتْ الْمَرْأَةُ تَخْرُجُ مِنْ مَنْزِلِهَا مَعَهَا الطَّعَامُ وَاللَّطْفُ وَالْمَاءُ ، قَدْ التَّحَفَّتْ عَلَيْهِ ، فَتَخْرُجُ كَأَنَّمَا تَرِيدُ الْمَسْجِدَ الْأَعْظَمَ لِلصَّلَاةِ ، وَكَأَنَّمَا تَأْتِي أَهْلَهَا وَتَزُورُ ذَاتَ قَرَابَةٍ لَهَا ، فَإِذَا دَنَتْ مِنَ الْقَصْرِ فُتِّحَ لَهَا ، فَدَخَلَتْ عَلَى زَوْجِهَا وَحَمِيمِهَا بِطَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَلَطْفِهِ . وَإِنْ ذَلِكَ بَلَغَ الْمَصْعَبَ وَأَصْحَابَهُ ، فَقَالَ لَهُ الْمُهَلَّبُ - وَكَانَ مَجْرَبًا : اجْعَلْ عَلَيْهِمْ دُرُوبًا حَتَّى تَمْنَعَ مِنْ يَأْتِيهِمْ مِنْ أَهْلِيهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ ، وَتَدَعَهُمْ فِي حِصْنِهِمْ حَتَّى يَمُوتُوا فِيهِ . وَكَانَ الْقَوْمُ إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْعَطَشُ فِي قَصْرِهِمْ اسْتَقَوْا مِنْ مَاءِ الْبُئْرِ . ثُمَّ أَمَرَ لَهُمُ الْمُخْتَارُ بِعَسَلٍ فَصَبَّ فِيهِ لِيُغَيِّرَ طَعْمَهُ فَيَشْرَبُوا مِنْهُ ، فَكَانَ ذَلِكَ أَيْضًا مِمَّا يُرْوَى أَكْثَرَهُمْ . ثُمَّ إِنْ مَصْعَبًا أَمَرَ أَصْحَابَهُ فَاقْتَرَبُوا مِنَ الْقَصْرِ ، فَجَاءَ عَبَادُ بْنُ الْحُصَيْنِ الْحَبْطِيُّ حَتَّى نَزَلَ عِنْدَ مَسْجِدِ جُهَيْنَةَ ، وَكَانَ رَجُلًا تَقَدَّمَ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى مَسْجِدِ بَنِي خَزُومَ ، وَحَتَّى يَرْمِيَ أَصْحَابَهُ مِنْ أَشْرَفِ عَلَيْهِمْ مِنْ أَصْحَابِ الْمُخْتَارِ مِنَ الْقَصْرِ ، وَكَانَ لَا يَلْقَى امْرَأَةً قَرِيبًا مِنَ الْقَصْرِ إِلَّا قَالَ لَهَا : مَنْ أَنْتِ؟ وَمَنْ أَبْنُ جَثِثٍ؟ وَمَا تَرِيدِينَ؟ فَأَخَذَ فِي يَوْمٍ ثَلَاثَ نِسْوَةٍ لِلشُّبَامِيِّينَ وَشَاكِرَ أَتَيْنَ أَزْوَاجَهُنَّ فِي الْقَصْرِ ، فَبَعَثَ بَهْنَ إِلَى مَصْعَبٍ ، وَإِنَّ الطَّعَامَ لَمَعْنٍ ، فَزِدْنِي مَصْعَبَ وَلَمْ يَعْرِضْ لَهُنَّ ، وَبَعَثَ زُحْرُ بْنُ قَيْسٍ ، فَنَزَلَ عِنْدَ الْحَدَّادِينَ حَيْثُ تُكْرَى الدَّوَابُّ ، وَبَعَثَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَرِّ فَكَانَ مَوْقِفُهُ عِنْدَ دَارِ بِلَالٍ ، وَبَعَثَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ قَيْسٍ فَكَانَ مَوْقِفُهُ عِنْدَ دَارِ أَبِيهِ ، وَبَعَثَ حَوْشَبُ بْنُ يَزِيدٍ فَوَقَّفَ عِنْدَ زُقَاقِ الْبَصْرِيِّينَ عِنْدَ فَمِ سَكَةِ بَنِي جَذِيمَةَ بْنِ مَالِكٍ مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ خُزَيْمَةَ ، وَجَاءَ الْمُهَلَّبُ يَسِيرُ حَتَّى نَزَلَ جِهَارَ سَوْجِ خُنَيْسٍ ، وَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُخْنَفٍ مِنْ قَبْلِ دَارِ السَّقَايَةِ ، وَابْتَدَرَ السُّوقَ أَنَاسٌ مِنْ شَبَابِ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَأَهْلِ الْبَصْرَةِ ، أَغْمَارُ لَيْسَ لَهُمْ عِلْمٌ بِالْحَرْبِ ، فَأَخَذُوا يَصِيحُونَ - وَلَيْسَ لَهُمْ أَمِيرٌ يَابِنُ دُومَةَ ، يَابِنُ دُومَةَ ! فَأَشْرَفَ عَلَيْهِمُ الْمُخْتَارُ فَقَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الَّذِي يَعِيرُنِي بِدُومَةَ كَانَ مِنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمًا مَا عِيرُنِي بِهَا . وَبَصُرُ بِهِمْ وَبَتَفَرَّقَهُمْ وَهَيْئَتُهُمْ وَانْتِشَارُهُمْ ، فَطَمَعَ فِيهِمْ ، فَقَالَ لَطَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ : اخْرُجُوا مَعِيَ ، فَخَرَجَ مَعَهُ مِنْهُمْ نَحْوُ مِائَتَيْنِ رَجُلًا ، فَكَّرَ عَلَيْهِمْ ، فَشَدَخَ نَحْوًا مِنْ مِائَةٍ ، وَهَزَمَهُمْ ، فَرَكِبَ بَعْضُهُمْ

بعضاً ، وأخذوا على دارِ فراتِ بنِ حَيَّانِ العَجَلِي . ثم إن رجلاً من بني ضَبَّة من أهل البَصْرَةِ يقال له يحيى بن ضَمْضَم ، كانت رجلاه تكادان تُحْطَانِ الأرضَ إذا رَكِبَ من طوله وكان أَقْتَلُ شيءٍ للرجالِ وأهْيَبُهُ عندهم إذا راوه ، فأخذَ يَحْمِلُ على أصحابِ المختارِ فلا يَثْبُتُ له رجلٌ صَمَدٌ صَمَدُهُ ، وبَصْرُهُ به المختارِ فحَمَلَ عليه فَضْرَبَهُ ضَرْبَةً على جَبْهَتِهِ فَأَطَارَ جَبْهَتَهُ وَقَحَفَ رَأْسَهُ وَخَرَّ مَيِّتاً . ثم إن تلك الأمراءِ وتلك الرؤوسِ أَقْبَلُوا من كلِّ جانبٍ ، فلم تكن لأصحابِهِ بهمْ طاقةٌ ، فدخلوا القصرَ ، فكانوا فيهم ، فاشتدَّ عليهم الحصارُ فقال لهم المختارُ : ويحكم ! إن الحصارَ لا يَزِيدُكُمْ إِلَّا ضَعْفًا ، انزلوا بنا فلنقاتلَ حتى نُقْتَلَ كِرَامًا إن نحن قُتِلْنَا ، والله ما أنا بآيسَ إن صدقتموه أن ينصركم اللهُ ، فَضَعُفُوا وَعَجَزُوا ، فقال لهم المختارُ : أمَّا أنا فوالله لا أُعْطِي بيدي ولا أَحْكَمُهُمْ في نفسي . ولما رأى عبدُ الله بنُ جَعْدَةَ بنُ هُبَيْرَةَ بنِ أَبِي وَهَبٍ ما يريدُ المختارُ تَدَلَّى من القصرِ بِحَبْلٍ ، فَلَجَّقَ بِأَنَاسٍ من إخوانِهِ ، فاختبأ عندهم . ثم إن المختارَ أَرْمَعَ بالخروجِ إلى القومِ حينَ رأى من أصحابِهِ الضعفَ ، ورأى ما بأصحابِهِ من الفشلِ ، فأرسل إلى امرأته أُمِّ ثَابِتِ بنتِ سُمُرَةَ بنِ جُنْدَبِ الْفَزَارِيِّ ، فأرسلتُ إليه بطيبٍ كثيرٍ ، فاغتسلَ وَتَحَنَّنَ ، ثم وضعَ ذلك الطيبَ على رأسِهِ وَلِحْيَتِهِ ، ثم خرجَ في تسعةَ عَشَرَ رجلاً ؛ فيهم السائبُ بنُ مالكِ الأشعري - وكان خليفته على الكوفةِ إذا خرجَ إلى المدائنِ - وكانت تحته عَمْرَةٌ بنتُ أَبِي موسى الأشعري ، فولدت له غلاماً ، فسماه محمداً ، فكان مع أبيهِ في القصرِ ، فلما قُتِلَ أبوه وأُخِذَ من في القصرِ وَجِدَ صَبِيًّا فَتَرَكَ ، ولما خرجَ المختارُ من القصرِ قال للسائبِ : ماذا ترى؟ قال : الرَّأْيُ لَكَ ، فماذا ترى؟ قال : أنا أَرَى أَمَّ اللهَ يَوَى ! قال : اللَّهُ يَرَى ، قال : وَيَحْكُ ! أَحَقُّ أَنْتَ ! إنما أنا رجلٌ من العربِ رأيتُ ابنَ الزَّيْبِرِ انتزى على الحِجَازِ ، ورأيتُ نَجْدَةَ انتزى على اليمامةِ ، ومروانَ على الشامِ ، فلم أكن دونَ أحدٍ من رجالِ العربِ ، فأخذتُ هذه البلادَ ، فكنتُ كأحدِهِمْ ؛ إِلَّا أَنِي قد طلبتُ بئارَ أهلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ إذ نامتُ عنه العربُ ، فقتلتُ مَنْ شَرَكَ في دِئَانِهِمْ ، وبالغتُ في ذلك إلى يومي هذا ، فقاتلتُ على حَسْبِكَ إن لم تكن لك نِيَّةٌ ، فقال : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ، وما كنتُ أصنعُ أن أقاتلَ على حَسْبِي ! فقال المختارُ عند ذلك يتمثلُ بقولِ غِيلَانَ بنِ سَلَمَةَ بنِ مُعْتَبِ الثَّقَفِيِّ :

ولو يراني أبو غيلان إذ حَسَرَتْ
لقال زُهْباً ورُغْباً يُجْمَعانِ معاً
إمّا تُسِفَ على مَجْدٍ ومَكْرَمَةٍ
عني الهمومُ بأمرِ ما له طَبَقُ
غُفْمُ الحِياةِ وهَوْلُ النَّفْسِ والشَّفَقُ
أو إسوة لك فيمَن تُهْلِكُ السَّوَرُ

فخرج في تسعةَ عَشَرَ رجلاً فقال لهم : أتؤمنوني وأخرج إليكم؟ فقالوا : لا ، إِلَّا على الحكمِ ، فقال : لا أَحْكَمُكُمْ في نفسي أبداً ، فضاربُ سيفِهِ حتى قُتِلَ ، وقد كان قال لأصحابِهِ حينَ أَبَوْا أن يُتَابِعُوهُ على الخروجِ معه : إذا أنا خرجتُ إليهم فقتلتُ لم تزدادوا إِلَّا ضَعْفًا وَذُلًّا ، فإن نزلتم على حكمِهِمْ وثبَّ أعداؤُكم الذين قد وَتَرْتَمَوْهُمْ ، فقال كل رجلٍ منهم لبعضِهِمْ : هذا عنده ثأري فيقتل ، وبعضُكم ينظرُ إلى مِصَارِعِ بعضِ فيقولون : يا لَيْتَنَا أَطَعْنَا المختارَ وَعَمِلْنَا بِرَأْيِهِ ! ولو أنكم خرجتم معي كنتم إن أخطأتم الظفرَ متم كراماً ، وإن هرب منكم هاربٌ فدخل في عشيرته اشتملتُ عليه عشيرته ؛ أنتم غداً هذه الساعةَ أذلُّ من على ظَهْرِ الأرضِ ، فكان كما قال .

قال : وَرَعَمَ النَّاسُ أَنْ الْمُخْتَارَ قُتِلَ عِنْدَ مَوْضِعِ الزِّيَّاتَيْنِ الْيَوْمَ ، قَتَلَهُ رَجُلَانِ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ أَخَوَانِ يُدْعَى أَحَدُهُمَا طَرْفَةً وَالْآخَرُ طَرَفًا ؛ ابْنَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دَجَاجَةَ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ . وَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ مِنْ قَتْلِ الْمُخْتَارِ قَالَ بُجَيْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُسَلِّيُّ : يَا قَوْمَ ، قَدْ كَانَ صَاحِبُكُمْ أَمْسَ أَشَارَ عَلَيْكُمْ بِالرَّأْيِ لَوْ أَطَعْتُمُوهُ . يَا قَوْمَ ، إِنْكُمْ إِنْ نَزَلْتُمْ عَلَى حُكْمِ الْقَوْمِ ذُبِحْتُمْ كَمَا تُذْبِحُ الْغَنَمَ ، اخْرُجُوا بِأَسْيَافِكُمْ فَقَاتِلُوا حَتَّى تَمُوتُوا كِرَامًا . فَعَصَوْهُ وَقَالُوا : لَقَدْ أَمَرْنَا بِهَذَا مَنْ كَانَ أَطْوَعُ عِنْدَنَا وَأَنْصَحَ لَنَا مِنْكَ ، فَعَصَيْنَاهُ ، أَفَنَحْنُ نُطِيعُكَ ! فَأَمَكَنَ الْقَوْمُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَنَزَلُوا عَلَى الْحُكْمِ . فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مُصَعَّبُ عَبَّادِ بْنِ الْحُصَيْنِ الْحَبْطِيُّ فَكَانَ هُوَ يُخْرِجُهُمْ مَكْتَفِينَ ، وَأَوْصَى عَبْدِ اللَّهِ بْنُ شَدَّادِ الْجُشَمِيِّ إِلَى عَبَّادِ بْنِ الْحُصَيْنِ ، وَطَلَبَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ قُرَادٍ عَصَاً أَوْ حَدِيدَةً أَوْ شَيْئًا يَقَاتِلُ بِهِ فَلَمْ يَجِدْهُ ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّدَامَةَ أَدْرَكَتْهُ بَعْدَمَا دَخَلُوا عَلَيْهِ ، فَأَخَذُوا سَيْفَهُ ، وَأَخْرَجُوهُ مَكْتُوفًا ، فَمَرَّ بِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَهُوَ يَقُولُ :

مَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَرَى أَسِيرًا إِنَّ الَّذِينَ خَالَفُوا الْأَمِيرَا
قَدْ رَغِمُوا وَتُبُّرُوا تَتَبِيرَا

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَشْعَثِ : عَلَيَّ بِذَا ، قَدَمُوهُ إِلَيَّ أَضْرِبْ عُنُقَهُ ، فَقَالَ لَهُ : أَمَا إِنِّي عَلَى دِينِ جَدِّكَ الَّذِي آمَنَ ثُمَّ كَفَرَ ؛ إِنْ لَمْ أَكُنْ ضَرَبْتُ أَبَاكَ بِسَيْفِي حَتَّى فَاطَ . فَنَزَلَ ثُمَّ قَالَ : أَدْنُوهُ مِنِّي ، فَأَدْنُوهُ مِنْهُ ، فَقَتَلَهُ ، فَغَضِبَ عَبَّادٌ ، فَقَالَ : قَتَلْتَهُ وَلَمْ تُؤَمِّرْ بِقَتْلِهِ !

وَمَرَّ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَّادِ الْجُشَمِيِّ وَكَانَ شَرِيفًا ، فَطَلَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِلَى عَبَّادٍ أَنْ يَحْبِسَهُ حَتَّى يُكَلِّمَ فِيهِ الْأَمِيرَ ، فَأَتَى مُصَعَّبًا ، فَقَالَ : إِنِّي أَحَبُّ أَنْ تَدْفَعَ إِلَيَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ شَدَّادٍ فَأَقْتُلَهُ ، فَإِنَّهُ مِنَ الثَّارِ ، فَأَمَرَ لَهُ بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ أَخَذَهُ فَضْرِبَ عُنُقَهُ ، فَكَانَ عَبَّادٌ يَقُولُ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ إِنَّمَا تَرِيدُ قَتْلَهُ لَدَفَعْتُهُ إِلَى غَيْرِكَ فَقَتَلَهُ ، وَلَكِنِّي حَسِبْتُ أَنَّكَ تَكَلِّمُهُ فِيهِ فَتُخَلِّي سَبِيلَهُ . وَأَتَيْتُ بَابَنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَّادٍ ، وَإِذَا اسْمُهُ شَدَّادٌ ، وَهُوَ رَجُلٌ مُحْتَلِمٌ . وَقَدْ أَطْلَى بُنُورَهُ ، فَقَالَ : اكْشِفُوا عَنْهُ هَلْ أَدْرَكَ ! فَقَالُوا : لَا ، إِنَّمَا هُوَ غَلَامٌ ، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ ، وَكَانَ الْأَسْوَدُ بْنُ سَعِيدٍ قَدْ طَلَبَ إِلَى مُصَعَّبٍ أَنْ يَعْرِضَ عَلَى أَخِيهِ الْأَمَانِ ، فَإِنْ نَزَلَ تَرَكَهُ لَهُ ، فَاتَاهُ فَعَرَضَ عَلَيْهِ الْأَمَانِ ، فَأَبَى أَنْ يَنْزَلَ ، وَقَالَ : أَمُوتْ مَعَ أَصْحَابِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حَيَاةٍ مَعَكُمْ ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ قَيْسٌ ، فَأَخْرِجْ فَقَتِلْ فِيمَنْ قُتِلَ ؛ وَقَالَ يُجَيْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُسَلِّيُّ - وَيُقَالُ : كَانَ مَوْلَى لَهُمْ حِينَ أَتَى بِهِ مُصَعَّبٌ وَمَعَهُ مِنْهُمْ نَاسٌ كَثِيرٌ - فَقَالَ لَهُ الْمُسَلِّيُّ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ابْتَلَانَا بِالْإِسَارِ ، وَابْتَلَاكَ بِأَنْ تَعْفُو عَنَّا ، وَهَمَّا مَنَزَلَتَانِ إِحْدَاهُمَا رِضَا اللَّهِ ، وَالْآخَرَى سَخَطُهُ ، مَنْ عَفَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ ، وَزَادَهُ عِزًّا ، وَمَنْ عَاقَبَ لَمْ يَأْمَنْ الْقِصَاصُ . يَابْنَ الزُّبَيْرِ ، نَحْنُ أَهْلُ قِبَلَتِكُمْ ، وَعَلَى مِلَّتِكُمْ ، وَلَسْنَا تُرُكَا وَلَا دِيْلَمَا ، فَإِنْ خَالَفْنَا إِخْوَانَنَا مِنْ أَهْلِ مِصْرِنَا فَمَا أَنْ نَكُونَ أَصْبِنَا وَأَخْطَاوَا ، وَإِمَا أَنْ نَكُونَ أَخْطَانَا وَأَصَابُوا ، فَاقْتُلْنَا كَمَا اقْتَتَلَ أَهْلُ الشَّامِ بَيْنَهُمْ ، فَقَدْ اخْتَلَفُوا وَاقْتَتَلُوا ثُمَّ اجْتَمَعُوا ، وَكَمَا اقْتَتَلَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ بَيْنَهُمْ فَقَدْ اخْتَلَفُوا وَاقْتَتَلُوا ثُمَّ اصْطَلَحُوا وَاجْتَمَعُوا ، وَقَدْ مَلَكَتُمْ فَأَسْجَحُوا ، وَقَدْ قَدَّرْتُمْ فَاغْفُوا . فَمَا زَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ وَنَحْوِهِ حَتَّى رَقَّ لَهُمُ النَّاسُ ، وَرَقَّ لَهُمْ مُصَعَّبٌ ، وَأَرَادَ أَنْ يَخْلِيَ سَبِيلَهُمْ ، فَقَامَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَشْعَثِ فَقَالَ : تُخَلِّي سَبِيلَهُمْ ! إِخْرَتْنَا يَابْنَ الزُّبَيْرِ أَوْ اخْتَرَهُمْ . وَوُثِبَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ قَيْسِ الْهَمْدَانِيِّ فَقَالَ : قُتِلَ أَبِي وَخَمْسَمِائَةٍ مِنْ هَمْدَانَ وَأَشْرَافِ الْعَشِيرَةِ وَأَهْلِ الْمِصْرِ ثُمَّ تُخَلِّي سَبِيلَهُمْ ، وَدِمَاؤُنَا تَرَقَّرَقَ فِي أَجْوَافِهِمْ ! اخْتَرْنَا أَوْ اخْتَرَهُمْ . وَوُثِبَ كُلُّ قَوْمٍ وَأَهْلُ بَيْتٍ كَانَ أَصِيبَ مِنْهُمْ رَجُلٌ فَقَالُوا نَحْوًا مِنْ هَذَا الْقَوْلِ . فَلَمَّا رَأَى

مُصْعَبُ بْنُ الزَّيْبِرِ ذَلِكَ أَمَرَ بِقَتْلِهِمْ ، فَنَادَوْهُ بِأَجْمَعِهِمْ : يَا بَنَ الزَّيْبِرِ ، لَا تَقْتُلْنَا ، اجْعَلْنَا مَقْدَمَتَكَ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ غَدًا ، فَوَاللَّهِ مَا بَكَ وَلَا بِأَصْحَابِكَ عَنَّا غَدًا غَنَى ، إِذَا لَقِيتُمْ عَدُوَّكُمْ فَإِنْ قَتَلْنَا لَمْ نُقْتَلْ حَتَّى نَرْقُهِمْ لَكُمْ ، وَإِنْ ظَفَرْنَا بِهِمْ كَانَ ذَلِكَ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ . فَأَبَى عَلَيْهِمْ وَتَبَعَ رِضَا الْعَامَةِ ، فَقَالَ بِجِيرِ الْمُسْلِمِي : إِنْ حَاجَتِي إِلَيْكَ أَلَا أَقْتُلْ مَعَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ إِنْ أَمَرْتُهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا بِأَسْيَافِهِمْ فَيَقَاتِلُوا حَتَّى يَمُوتُوا كِرَامًا فَعَصُونِي ، فَقُدِّمَ فَقُتِلَ .

قال أبو مخنف : وحَدَّثَنِي أَبِي ، قال : حَدَّثَنِي أَبُو رَوْحٍ أَنَّ مَسَافِرَ بْنَ سَعِيدِ بْنِ نِمْرَانَ قَالَ لِمُصْعَبِ بْنِ الزَّيْبِرِ : يَا بَنَ الزَّيْبِرِ ، مَا تَقُولُ لِلَّهِ إِذَا قَدِمْتَ عَلَيْهِ وَقَدْ قَتَلْتَ أُمَّةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ صَبْرًا أَوْ حَكْمًا فِي دِمَائِهِمْ ، فَكَانَ الْحَقُّ فِي دِمَائِهِمْ أَلَّا تَقْتُلَ نَفْسًا مُسْلِمَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ مُسْلِمَةٍ ، فَإِنْ كُنَّا قَتَلْنَا عِدَّةَ رِجَالٍ مِنْكُمْ فَاقْتُلُوا عِدَّةً مِّنْ قَتَلْنَا مِنْكُمْ ، وَخَلُّوا سَبِيلَ بَقِيَّتِنَا ، وَفِينَا الْآنَ رِجَالٌ كَثِيرٌ لَمْ يَشْهَدُوا مَوْطِنًا مِنْ حَرْبِنَا وَحَرْبِكُمْ يَوْمًا وَاحِدًا ، كَانُوا فِي الْجِبَالِ وَالسَّوَادِ يَجُوبُونَ الْخَرَجَ ، وَيُؤْمِنُونَ السَّبِيلَ . فَلَمْ يَسْتَمِعْ لَهُ ، فَقَالَ : قَبَّحَ اللَّهُ قَوْمًا أَمَرْتُهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا لَيْلًا عَلَى حَرَسٍ سَكَنَ مِنْ هَذِهِ السَّكَنِ فَنَطَرْدَهُمْ ، ثُمَّ نَلْحَقَ بِعَشَائِرِنَا ، فَعَصُونِي حَتَّى حَمَلُونِي عَلَى أَنْ أُعْطِيتِ الَّتِي هِيَ أَنْقَصُ وَأَدْنَى وَأَوْضَعُ ، وَأَبُوءُ أَنْ يَمُوتُوا إِلَّا مَيِّتَةَ الْعَبِيدِ ، فَأَنَا أَسْأَلُكَ أَلَّا تَخْلِطَ دِمِي بِدِمَائِهِمْ . فَقُدِّمَ فَقُتِلَ نَاحِيَةً .

ثم إِنَّ الْمُصْعَبَ أَمَرَ بِكَفِّ الْمُخْتَارِ فَقُطِعَتْ ثُمَّ سُمِّرَتْ بِسِمَارٍ حَدِيدٍ إِلَى جَنْبِ الْمَسْجِدِ ، فَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قَدِمَ الْحَجَّاجُ بْنُ يَوْسُفَ ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ : مَا هَذِهِ؟ قَالُوا : كَفَّ الْمُخْتَارَ ، فَأَمَرَ بِنَزْعِهَا . وَبَعَثَ مُصْعَبُ عُمَالَهُ عَلَى الْجِبَالِ وَالسَّوَادِ ، ثُمَّ إِنَّهُ كَتَبَ إِلَى ابْنِ الْأَشْثَرِ يَدْعُوهُ إِلَى طَاعَتِهِ ، وَيَقُولُ لَهُ : إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنِي وَدَخَلْتَ فِي طَاعَتِي فَلَكَ الشَّامُ وَأَعِنَّةُ الْخَيْلِ ، وَمَا غَلِبْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَرْضِ الْمَغْرِبِ مَا دَامَ لَالِ الزَّيْبِرِ سُلْطَانًا . وَكَتَبَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ مِنَ الشَّامِ إِلَيْهِ يَدْعُوهُ إِلَى طَاعَتِهِ ، وَيَقُولُ : إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنِي وَدَخَلْتَ فِي طَاعَتِي فَلَكَ الْعِرَاقُ . فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ أَصْحَابَهُ فَقَالَ : مَا تَرَوْنَ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : تَدْخُلُ فِي طَاعَةِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : تَدْخُلُ مَعَ ابْنِ الزَّيْبِرِ فِي طَاعَتِهِ ، فَقَالَ ابْنُ الْأَشْثَرِ : ذَاكَ لَوْ لَمْ أَكُنْ أَصَبْتُ عِيْدَ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ وَلَا رُؤَسَاءَ أَهْلِ الشَّامِ تَبَعْتُ عَبْدَ الْمَلِكِ ، مَعَ أَنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ أَخْتَارَ عَلَى أَهْلِ مِصْرَ مِصْرًا ، وَلَا عَلَى عَشِيرَتِي عَشِيرَةً . فَكَتَبَ إِلَى مُصْعَبٍ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُصْعَبٌ أَنْ أَقْبَلَ ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ .

قال أبو مخنف : حَدَّثَنِي أَبُو جَنَابٍ الْكَلْبِيُّ أَنَّ كِتَابَ مُصْعَبِ قَدِمَ عَلَى ابْنِ الْأَشْثَرِ وَفِيهِ :

أما بعد ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ قَتَلَ الْمُخْتَارَ الْكَذَّابَ وَشِيعَتَهُ الَّذِينَ دَانُوا بِالْكَفْرِ ، وَكَادُوا بِالسَّحَرِ ، وَإِنَّا نَدْعُوكَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، وَإِلَى بَيْعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ أَجَبْتَ إِلَى ذَلِكَ فَأَقْبَلَ إِلَيَّ ، فَإِنْ لَكَ أَرْضُ الْجَزِيرَةِ وَأَرْضُ الْمَغْرِبِ كُلُّهَا مَا بَقِيَتْ وَبَقِيَ سُلْطَانُ آلِ الزَّيْبِرِ ، لَكَ بِذَلِكَ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ وَأَشَدُّ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّينَ مِنْ عَهْدٍ أَوْ عَقْدٍ ؛ وَالسَّلَامُ .

وكتب إليه عبدُ الملكِ بنُ مروان :

أما بعد ، فَإِنَّ آلَ الزَّيْبِرِ انْتَرَوْا عَلَى أُمَّةِ الْهَدْيِ ، وَنَازَعُوا الْأَمْرَ أَهْلَهُ ، وَالْحَدُّوا فِي بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ وَاللَّهُ مُمَكِّنٌ مِنْهُمْ ، وَجَاعِلٌ دَائِرَةَ السُّوءِ عَلَيْهِمْ ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى سُنَّةِ نَبِيِّهِ ، فَإِنْ قَبِلْتَ وَأَجَبْتَ فَلَكَ سُلْطَانُ الْعِرَاقِ مَا بَقِيَتْ وَبَقِيَتْ ، عَلَيَّ بِالْوَفَاءِ بِذَلِكَ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ .

قال : فدعا أصحابه فأقرأهم الكتاب ، واستشارهم في الرأي ، فقاتل يقول : عبد الملك ؛ وقائل يقول : ابن الزبير ؛ فقال لهم : ورأيي اتباع أهل الشام ، ولكن كيف لي بذلك ، وليس قبيلة تسكن الشام إلا وقد وترتها ، ولست بتارك عشيرتي وأهل مصري ! فأقبل إلى مصعب ، فلما بلغ مصعباً إقباله بعث انمهلب إلى عمله ، وهي السنة التي نزل فيها المهلب على الفرات .

قال أبو مخنف : حدثني أبو علقمة الخثعمي أن المصعب بعث إلى أم ثابت بنت سمرية بن جندب امرأة المختار وإلى عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصاري - وهي امرأة المختار - فقال لهما : ما تقولان في المختار؟ فقالت أم ثابت : ما عسينا أن نقول ! ما نقول فيه إلا ما تقولون فيه أنتم ، فقالوا لها : إذهبي ، وأما عمرة فقالت : رحمة الله عليه ، إنه كان عبداً من عباد الله الصالحين ، فرفعها مصعب إلى السجن ، وكتب فيها إلى عبد الله بن الزبير إنها تزعم أنه نبي ، فكتب إليه أن أخرجها فاقتلها . فأخرجها بين الحيرة والكوفة بعد العتمة ، فضر بها مطر ثلاث ضربات بالسيف - ومطر تابع لال قفل من بني تميم الله بن ثعلبة ، كان يكون مع الشيط - فقالت : يا أبتاه ، يا أهلاه ، يا عشيرتاه ! فسمع بها بعض الأنصار ، وهو أبان بن النعمان بن بشير ، فأتاه فطمه وقال له : يابن الزانية ، قطعت نفسها قطع الله يمينك ! فلزمه حتى رفعه إلى مصعب ، فقال : إن أمة مسلمة ، وادعى شهادة بني قفل ، فلم يشهد له أحد ؛ فقال مصعب : خلوا سبيل الفتى فإنه رأى أمراً فليعاً ، فقال عمر بن أبي ربيعة القرشي في قتل مصعب عمرة بنت النعمان بن بشير :

إِنَّ مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَائِبِ عِنْدِي قُتِلَ بَيْضَاءَ حُرَّةٍ عُطْبُولِ
قُتِلَتْ هَكَذَا عَلَى غَيْرِ جُرْمٍ إِنَّ لَلَّهِ دَرَّهَا مِنْ قَتِيلِ
كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُحْصَنَاتِ جَرُّ الدُّيُولِ

قال أبو مخنف : حدثني محمد بن يوسف ، أن مصعباً لقي عبد الله بن عمر فسلم عليه ، وقال له : أبا ابن أخيك مصعب ، فقال له ابن عمر : نعم ، أنت القاتل سبعة آلاف من أهل القبلة في غداة واحدة ! عيش ما استطعت ! فقال مصعب : إنهم كانوا كفرة سخرة ؛ فقال ابن عمر : والله لو قتلت عدتهم غنماً من ثراث أبيك لكان ذلك سرفاً ؛ فقال سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت في ذلك :

أَتَى رَاكِبٌ بِالْأَمْرِ ذِي النَّبَا الْعَجَبُ بِقَتْلِ فَتَاةٍ ذَاتِ دَلٍّ سَتِيرَةٍ
مِطْهَرَةٍ مِنْ نَسْلِ قَوْمِ أَكَارِمٍ خَلِيلُ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وَنَصِيرُهُ
أَتَانِي بِأَنَّ الْمُلْحِدِينَ تَوَافَقُوا فَلَا هَنَأَتْ آلَ الزَّبِيرِ مَعِيشَةٌ
كَأَنَّهُمْ إِذْ أَبْرَزُوهَا وَقُطِّعَتْ أَلَمُ تَعَجَّبِ الْأَقْوَامِ مِنْ قَتْلِ حُرَّةٍ
مِنْ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمَنَاتِ ، بَرِيئَةٍ عَلَيْنَا كِتَابُ الْقَتْلِ وَالْبَأْسِ وَاجِبُ

بَقِيتُ آبَنَةَ النُّعْمَانِ ذِي الدِّينِ وَالْحَسْبِ
مُهَذَّبَةَ الْأَخْلَاقِ وَالْخِيَمِ وَالنَّسَبِ
مِنْ الْمُؤَثِّرِينَ الْخَيْرِ فِي سَالِفِ الْحَقَبِ
وَصَاحِبِهِ فِي الْحَرْبِ وَالنَّكَبِ وَالْكَرْبِ
عَلَى قَتْلِهَا لَا جُنُبُوا الْقَتْلَ وَالسَّلْبَ
وَذَاقُوا لِبَاسَ الدُّلِّ وَالْخَوْفِ وَالْحَرْبِ
بِأَسْيَافِهِمْ فَازُوا بِمَمْلَكَةِ الْعَرَبِ
مِنْ الْمُحْصَنَاتِ الدِّينِ مَحْمُودَةِ الْأَدَبِ
مِنْ الدَّمِّ وَالْبُهْتَانِ وَالْمَشْكِ وَالْكَذِبِ
وَهُنَّ الْعَافُ فِي الْحِجَالِ وَفِي الْحُجُبِ

على دين أجداد لها وأبوّة
من الخفريات لا خروج بذية
ولا الجار ذي القرّبي ولم تذر ما الخنا
عجبت لها إذ كُفنت وهي حية
كرام مَضت لم تُخزِ أهلاً ولم تُرب
ملائمة تبغي على جارها العُجب
ولم تزدلف يوماً بسوءٍ ولم تحب
ألا إن هذا الخطب من أعجب العجب

حدثت عن علي بن حرب الموصلي ، قال : حدثني إبراهيم بن سليمان الحنفي ، ابن أخي أبي الأخوص ، قال : حدثنا محمد بن أبان ، عن علقمة بن مرثد ، عن سويد بن غفلة ، قال : بينا أنا أسير بظهر النجف إذ لحقني رجل فطعنني بمخضرة من خلفي ، فالتفت إليه ، فقال : ما قولك في الشيخ ؟ قلت : أي الشيخ ؟ قال : علي بن أبي طالب ؛ قلت : إني أشهد أني أحبه بسمعي وبصري وقلبي ولساني ؛ قال : وأنا أشهدك أني أبغضه بسمعي وبصري وقلبي ولساني . فسرنا حتى دخلنا الكوفة ، فافترقنا ، فمكث بعد ذلك سنين - أو قال : زماناً - قال : ثم إني لفي المسجد الأعظم إذ دخل رجل معتم يتصقح وجوه الخلق ، فلم يزل ينظر فلم ير لحى أحق من لحى همدان ، فجلس إليهم ، فتحوّل فجلست معهم ، فقالوا : من أين أقبلت ؟ قال : من عند أهل بيت نبيكم ، قالوا : فماذا جئتنا به ؟ قال : ليس هذا موضع ذلك ، فوعدهم من الغد موعداً ، فغداً وغدوت ، فإذا قد أخرج كتاباً معه في أسفله طابع من رصاص ، فدفعه إلى غلام ، فقال له : يا غلام ، إقرأه - وكان أمياً لا يكتب - فقال الغلام : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب للمختار بن أبي عبيد كتبه له وصي آل محمد ؛ أما بعد فكذا وكذا .

فاستفرغ القوم البكاء ، فقال : يا غلام ، إرفع كتابك حتى يُفريق القوم ؛ قلت : معاشر همدان ، أنا أشهد بالله لقد أدركني هذا بظهر النجف ، فقصصت عليهم قصته ، فقالوا : أبيت والله إلا تشيطاً عن آل محمد ، وتزييناً لنعل شقاق المصاحف . قال : قلت : معاشر همدان ، لا أحدثكم إلا ما سمعته أذناي ، ووعاه قلبي من علي بن أبي طالب عليه السلام ، سمعته يقول : لا تسموا عثمان شقاق المصاحف ، فوالله ما شققها إلا عن ملائنا أصحاب محمد ، ولو وليتها لعملت فيها مثل الذي عمل ؛ قالوا : آله أنت سمعت هذا من علي ؟ قلت : والله لأنا سمعته منه ، قال : فترقوا عنه ، فعند ذلك مأل إلى العبيد ، واستعان بهم ، وصنع ما صنع .

قال أبو جعفر : واقتصر الواقدي من خبر المختار بن أبي عبيد بعض ما ذكرنا ، فخالف فيه من ذكرنا خبره ، فزعم أن المختار إنما أظهر الخلاف لابن الزبير عند قدوم مصعب البصرة ، وأن مصعباً لما سار إليه فبلغه مسيره إليه بعث إليه أحرر بن شميطة البجلي ، وأمره أن يواقع بالمدار ، وقال : إن الفتح بالمدار ؛ قال : وإنما قال ذلك المختار لأنه قيل : إن رجلاً من ثقيف يُفتح عليه بالمدار فتح عظيم ، فظن أنه هو ، وإنما كان ذلك للحجاج بن يوسف في قتاله عبد الرحمن بن الأشعث . وأمر مصعب صاحب مقدمته عبّاد الحبطي أن يسير إلى جمع المختار فتقدم معه عبيد الله بن علي بن أبي طالب ، ونزل مصعب ، نهر البصريين على شط الفرات ، وحفر هنالك نهراً فسمي نهر البصريين من أجل ذلك . قال : وخرج المختار في عشرين ألفاً حتى وقف بإزائهم وزحف مصعب ومن معه ، فوافوه مع الليل على تعبئة ، فأرسل إلى أصحابه حين أُمسى : لا يبرحن أحد منكم موقفه حتى يسمع منادياً ينادي : يا محمد ، فإذا سمعتموه فاحملوا . فقال رجل من القوم من

أصحاب المختار : هذا والله كذاب على الله ، وانحاز ومن معه إلى المصعب ، فأمهل المختار حتى إذا طلع القمر أمر منادياً ، فنادى : يا محمد ؛ ثم حملوا على مصعب وأصحابه فهزموهم ، فأدخلوه عسكره ، فلم يزالوا يقاتلونهم حتى أصبحوا وأصبح المختار وليس عنده أحد ، وإذا أصحابه قد وغلوا في أصحاب مصعب ، فانصرف المختار منهزماً حتى دخل قصر الكوفة ، فجاء أصحاب المختار حين أصبحوا ، فوقفوا ملياً ، فلم يروا المختار ، فقالوا : قد قُتل ، فهرب منهم من أطاق الهرب ، واختفوا في دور الكوفة ، وتوجه منهم نحو القصر ثمانية آلاف لم يجدوا من يقاتل بهم ، ووجدوا المختار في القصر ، فدخلوا معه ، وكان أصحاب المختار ، قتلوا في تلك الليلة من أصحاب مصعب بشراً كثيراً ، فيهم محمد بن الأشعث ، وأقبل مصعب حين أصبح حتى أحاط بالقصر ، فأقام مصعب يحاصره أربعة أشهر يخرج إليهم في كل يوم فيقاتلهم في سوق الكوفة من وجه واحد ، ولا يقدر عليه حتى قُتل المختار ، فلما قُتل المختار بعث من في القصر يطلب الأمان ، فأبى مصعب حتى نزلوا على حكمه ، فلما نزلوا على حكمه قتل من العرب سبعمائة أو نحو ذلك ، وسائرهم من العجم ؛ قال : فلما خرجوا أراد مصعب أن يقتل العجم ويترك العرب ، فكلمه من معه ، فقالوا : أي دين هذا؟ وكيف ترجو النصر وأنت تقتل العجم وتترك العرب ودينهم واحداً فقدّمهم فضرب أعناقهم .

قال أبو جعفر : وحدثني عمر بن شبة ، قال : حدثنا علي بن محمد ، قال : لما قُتل المختار شاور مصعب أصحابه في المحصورين الذين نزلوا على حكمه ، فقال عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ومحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس وأشباههم ممن وترهم المختار : اقتلهم ، وضجت ضبة ، وقالوا : دم منذر بن حسان ؛ فقال عبيد الله بن الحر : أيها الأمير ، ادفع كل رجل في يدك إلى عشيرته ممن عليهم بهم ، فإنهم إن كانوا قتلونا فقد قتلناهم ، ولا غنى بنا عنهم في ثغورنا ، وادفع عبيدنا الذين في يدك إلى مواليهم فإنهم لا يتامنا وأراملنا وضعفائنا ، يردونهم إلى أعمالهم ، واقتل هؤلاء الموالي ، فإنهم قد بدا كفرهم ، وعظم كبرهم ، وقل شكرهم . فضحك مصعب وقال للأحنف : ما ترى يا أبا بحر؟ قال : قد أرادني زياد فعصيته - يعرض بهم - فأمر مصعب بالقوم جميعاً فقتلوا ، وكانوا ستة آلاف ، فقال عقبة الأسدي :

قتلتهم ستة آلاف صبراً	مع العهد الموثق مكتفيناً
جعلتم ذمة الحبطي جسراً	ذلولاً ظهراً لبلواطيناً
وما كانوا غداة دُعوا فغروا	بعهدهم بأول حائنيناً
وكنتم أمرتهم لو طاعوني	بضرب في الأزقة مضلييناً

وقُتل المختار - فيما قيل - وهو ابن سبع وستين سنة ، لأربع عشرة خلت من شهر رمضان في سنة سبع وستين .

فلما فرغ مصعب من أمر المختار وأصحابه ، وصار إليه إبراهيم بن الأشتر وجه المهلب بن أبي صفرة على الموصل والجزيرة وآذربيجان وأرمينية وأقام بالكوفة .

وفي هذه السنة عزل عبد الله بن الزبير أخاه مصعب بن الزبير عن البصرة ، وبعث بابنه حمزة بن عبد الله إليها ، فاختلّف في سبب عزله إياه عنها ، وكيف كان الأمر في ذلك .

فقال بعضهم في ذلك ما حدثني به عمر ، قال : حدثني علي بن محمد قال : لم يزل المصعب على البصرة

حتى سار منها إلى المختار ، واستخلف على البصرة عُبيد الله بن معمر ، فقتل المختار ، ثم وفد إلى عبد الله بن الزبير فعزله وحبسه عنده ، واعتذر إليه من عزله ، وقال : والله إني لأعلم أنك أحرى وأكفى من حمزة ، ولكني رأيت فيه رأي عثمان في عبد الله بن عامر حين عزل أبا موسى الأشعري وولاه .

وحديثي عمر ، قال : حدثني علي بن محمد ، قال : قديم حمزة البصرة والياً ، وكان جواداً سخياً خلطاً ، يوجد أحياناً حتى لا يدع شيئاً يملكه ، ويمنع أحياناً مالا يمنع مثله ، فظهرت منه بالبصرة خفة وضعف ، فيقال : إنه ركب يوماً إلى قبض البصرة ، فلما رآه قال : إن هذا الغدير إن رفقوا به ليكفيهم صيفهم ، فلما كان بعد ذلك ركب إليه فوافقه جازراً ، فقال : قد رأيت هذا ذات يوم ، وظننت أن لن يكفيهم ، فقال له الأحنف : إن هذا ماء يأتينا ثم يغض عنا . وشخص إلى الأهواز ، فلما رأى جبلها قال : هذا قعيقعان - لموضع بمكة - فسُمي الجبل قعيقعان ، وبعث إلى مردان شاه فاستحثه بالخراج ، فأبطأ به ، فقام إليه بسيفه فضربه فقتله ، فقال الأحنف : ما أحد سيف الأمير !

حدثني عمر ، قال : حدثني علي بن محمد ، قال : لما خلط حمزة بالبصرة وظهر منه ما ظهر ، وهم بعبد العزيز بن بشر أن يضربه ، كتب الأحنف إلى ابن الزبير بذلك ، وسأله أن يعيد مصعباً . قال : وحمزة الذي عقد لعبد الله بن عُمير الليثي على قتال النجدية بالبحرين .

حدثني عمر ، قال : حدثنا علي بن محمد ، قال : لما عزل ابن الزبير حمزة احتَمَل مالا كثيراً من مال البصرة ، فعرض له مالك بن مسمع ، فقال : لا ندعك تخرج بأعطياتنا . فضمن له عبيد الله بن عبيد بن معمر العطاء ، فكف ، وشخص حمزة بالمال ، فترك أباه وأقى المدينة ، فأودع ذلك المال رجلاً ، فذهبوا به إلى يهودياً كان أودعه فوفى له ، وعلم ابن الزبير بما صنع ، فقال : أبعده الله ! أردت أن أباهي به بني مروان فنكص .

وأما هشام بن محمد فإنه ذكر عن أبي مخنف في أمر مصعب وعزل أخيه إياه عن البصرة ورده إياه إليها غير هذه القصة ، والذي ذكر من ذلك عنه في سياق خبر حدثت به عنه ، عن أبي المخارق الراسبي ، أن مصعباً لما ظهر على الكوفة أقام بها سنة معزولاً عن البصرة ، عزله عنها عبد الله ، وبعث ابنه حمزة ، فمكث بذلك سنة ؛ ثم إنه وفد على أخيه عبد الله بمكة ، فردّه على البصرة .

وقيل : إن مصعباً لما فرغ من أمر المختار انصرف إلى البصرة وولى الكوفة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة . قال : وقال محمد بن عمر لما قتل مصعب المختار ملك الكوفة والبصرة .

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن الزبير . وكان عامله على الكوفة مصعب ، وقد ذكرت اختلاف أهل السير في العامل على البصرة .

وكان على قضاء الكوفة عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وعلى قضاء البصرة هشام بن هبيرة ، وبالشام عبد الملك بن مروان .

وكان على خراسان عبد الله بن خازم السلمي .

ثم دخلت سنة ثمان وستين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأمور الجليلة

فمن ذلك ما كان من ردّ عبد الله أخاه مُصعباً إلى العراق أميراً ، وقد ذكرنا السبب في ردّ عبد الله أخاه مُصعباً إلى العراق أميراً بعد عزله إياه ، ولما ردّه عليها أميراً بعث مصعب الحارث بن أبي ربيعة على الكوفة أميراً ، وذلك أنه بدأ بالبصرة مرجعه إلى العراق أميراً بعد العزل ، فصار إليها .

وفي هذه السنة كان مرجع الأزارقة من فارس إلى العراق حتى صاروا إلى قرب الكوفة ، ودخلوا المدائن .

ذكر الخبر عن أمرهم ومسيرهم ومرجعهم إلى العراق :

ذكر هشام ، عن أبي مخنف ، قال : حدّثني أبو المخارق الراسبي ، أن مُصعباً وجّه عمر بن عبّيد الله بن معمر على فارس أميراً ، وكانت الأزارقة لحقت بفارس وكرمان ونواحي أصبهان بعد ما أوقع بهم المهلب بالأهواز ، فلما شخص المهلب عن ذلك الوجه ووّجه إلى الموصل ونواحيها عاملاً عليها ، وعمر بن عبّيد الله بن معمر على فارس ، انحطّت الأزارقة مع الزبير بن الماحوز على عُمر بن عبّيد الله بفارس ، فلقّيتهم بسابور ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، ثم إنه ظفر بهم ظفراً بيناً ، غير أنه لم يكن بينهم كثير قتلى ، وذهبوا كأنهم على حامية ، وقد تركوا على ذلك المعركة .

قال أبو مخنف : فحدّثني شيخٌ للحيّ بالبصرة ، قال : إني لأسمع قراءة كتاب عمر بن عبّيد الله :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإني أخبرُ الأميرَ أصلحه الله أني لقيتُ الأزارقة التي مرّقت من الدّين واتبعَتْ أهواءها بغير هدى من الله ، فقاتلتهم بالمسلمين ساعةً من النهار أشدّ القتال . ثم إن الله ضرب وجوههم وأدبارهم ، ومنحنا أكتافهم ، فقتل الله منهم من خاب وخسر ، وكلّ إلى خسران . فكتبتُ إلى الأمير كتابي هذا وأنا على ظهر فرسي في طلب القوم ، أرجو أن يجدهم الله إن شاء الله ، والسلام .

ثم إنه تبعهم ومضوا من فورهم ذلك حتى نزلوا إصطخر ، فسار إليهم حتى لقيهم على قنطرة طمستان ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، وقتل ابنه . ثم إنه ظفر بهم ، ففقطعوا قنطرة طمستان ، وارتفعوا إلى نحو من أصبهان وكرمان ، فأقاموا بها حتى اجتبروا وقوا ، واستعدوا وكثروا ، ثم أقبلوا حتى مروا بفارس وبها عُمر بن عبّيد الله بن معمر ، فقطعوا أرضه من غير الوجه الذي كان فيه أخذوا على سابور ، ثم خرجوا على أرجان ، فلما رأى عمر بن عبّيد الله أن قد قطعت الخوارج أرضه متوجهة إلى البصرة خشى ألاّ يحتلها له مُصعب بن الزبير ، فشمر في آثارهم مُسرِعاً حتى أتى أرجان ، فوجدهم حين خرجوا منها متوجهين قبل الأهواز ، وبلغ مُصعباً

إقبالهم ، فخرَج فَعَسَكَرَ بالناس بالجرس الأكبر ، وقال : واللَّهِ ما أدري ما الَّذِي أغْنَى عَنِّي أَنْ وضعتُ عمرَ بنِ عُبيد الله بفارس ، وجعلتُ معه جُنْدًا أَجْرِي عليهم أرزاقهم في كلِّ شهر ، وأوفيتهم أعطياتهم في كلِّ سنة ، وأمرتهم من المَعَاوَن في كلِّ سنة بمثلِ الأعطيات ، تقطع أرضه الخوارج إلَيَّ ! وقد قطعتُ علته فأمددته بالرجال وقويتهم ، والله لو قاتلتهم ثم فرَّ كان أَعْدَرُ له عندي ، وإن كان الفارَّ غيرَ مقبولٍ العذر ، ولا كريم الفعل .

وأقبلت الخوارجُ وعليهم الزبير بن المأخوذ حتى نزلوا الأهواز ، فأتتهم عيونهم أن عمر بن عُبيد الله في أثرهم ، وأن مصعب بن الزبير قد خرج من البصرة إليهم ، فقام فيهم الزبيرُ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أمَّا بعد ، فإنَّ من سوء الرأي والحيرة وقوعكم فيما بين هاتين الشؤكتين ، انهضوا بنا إلى عدونا نلقهم من وجه واحد . فسار بهم حتى قطع بهم أرض جُوخَى ، ثم أخذ على النهرِ وانات ، ثم لزم شاطئ دجلة حتى خرج على المدائن وبها كُردَم بنُ مرثد بن نجبة الفزاري ، فشنوا الغارة على أهل المدائن ، يُقتلون الولدان والنساء والرجال ، ويقررون الحبلى ، وهرب كردم ، فأقبلوا إلى ساباط فوضعوا أسيافهم في الناس ، فقتلوا أم ولد لربيعة بن ماجد ، وقتلوا بُنانة ابنة أبي يزيد بن عاصم الأزدي ، وكانت قد قرأت القرآن ، وكانت من أجل الناس ، فلما غشوها بالسيوف قالت : ويحكمكم ! هل سمعتم بأن الرجال كانوا يُقتلون النساء ! ويحكمكم ! تقتلون من لا يبسط إليكم يداً ، ولا يريد بكم ضراً ، ولا يملك لنفسه نفعاً ! أتقتلون من يُنشأ في الحلية وهو في الخصام غير مُبين ! فقال بعضهم : اقتلواها ، وقال رجل منهم : لو أنكم تركتموها ! فقال بعضهم : أعجبك جملها يا عدو الله ! قد كفرت وافتننت ، فانصرف الآخر عنهم وتركهم ، فظننا أنه فارَقهم ، وحلوا عليها فقتلواها ، فقالت ربيعة بنتُ يزيد : سبحان الله ! أترون الله يرضى ما تصنعون ! تقتلون النساء والصبيان ومن لم يُذنب إليكم ذنباً ! ثم انصرف وحلوا عليها وبين يديها الرواع بنتُ إياس بن شريح الهمداني ، وهي ابنة أخيها لأُمها ، فحملوا عليها فصرَبوها على رأسها بالسيف ، ويصيب دبابُ السيف رأس الرواع فسقطنا جميعاً إلى الأرض ، وقاتلهم إياس بنُ شريح ساعة ، ثم صرِع فوقع بين القتلى ، فنزعوا عنه وهم يرون أنهم قد قتلوه ، وصرِع منهم رجل من بكر بن وائل يقال له : رزين بن المتوكل .

فلما انصرفوا عنهم لم يمت غير بُنانة بنت أبي يزيد ، وأم ولد ربيعة بن ناجد ، وأفاق سائرهم ، فسقى بعضهم بعضاً من الماء ، وعصبوا جراحاتهم ثم استأجروا دواب ، ثم أقبلوا نحو الكوفة .

قال أبو مخنف : فحدثني الرواع ابنة إياس ، قالت : ما رأيت رجلاً قطَّ كان أجبن من رجل كان معنا وكانت معه ابنته ، فلما غَشِينَا ألقاها إلينا وهرب عنها وعنا ولا رأينا رجلاً قطَّ كان أكرم من رجل كان معنا ، ما نعرفه ولا يعرفنا ، لما غَشِينَا قاتل دوننا حتى صرِع بيننا ، وهورزين بن المتوكل البكري . وكان بعد ذلك يزورنا ويواصلنا . ثم إنه هلك في إمارة الحجاج ، فكانت ورثته الأعراب ، وكان من العباد الصالحين .

قال هشام بن محمد - وذكره عن أبي مخنف - قال : حدثني أبي ، عن عمه أن مصعب بن الزبير كان بعث أبا بكر بن مخنف على إستان العال ، فلما قَدِمَ الحارث بن أبي ربيعة أقصاه ، ثم أقره بعد ذلك على عمِّه السنة الثانية ، فلما قَدِمَت الخوارجُ المدائن سرحوا إليه عصابة منهم ، عليها صالح بنُ مخراق ، فلقَّيه بالكرخ فقاتله ساعة ، ثم تنازَلوا فنزل أبو بكر ونزلت الخوارج ، فقتل أبو بكر ويسار مولاة وعبد الرحمن بن أبي جعال ، ورجل من قومه ، وانهزم سائر أصحابه ، فقال سُرَّاقَةُ بنُ مرداس البارقِي في بطنٍ مِنَ الأزد :

أَلَا يَا لِقُومِي لِلْهُمُومِ الطَّوَارِقِ
وَمَقْتَلِ غَطْرِيفِ كَرِيمٍ نِجَارُهُ
أَتَانِي دُورُنَ الْخَيْفِ قَتْلُ ابْنِ مِخْنَفٍ
فَقُلْتُ: تَلَقَّاكَ الْإِلَهُ بِرَحْمَةٍ
لِحَا اللَّهِ قَوْمًا عَرَدُوا عَنْكَ بُكْرَةً
تَوَلَّوْا فَأَجْلَوْا بِالضُّحَى عَنْ زَعِيمِنَا
فَأَنْتَ مَتَى مَا جِئْتَنَا فِي بُيُوتِنَا
يُكَيِّنُ مَحْمُودُ الضَّرِيْبَةِ مَا جَدَا
لَقَدْ أَصْبَحَتْ نَفْسِي لَذَاكَ خَزِينَةً

وَلِلْحَدَثِ الْجَائِي بِإِحْدَى الصَّفَائِقِ
مِنَ الْمُقَدِّمِينَ الذَّاكِرِينَ الْأَصَادِقِ
وَقَدْ غَوَّرْتُ أُولَى النُّجُومِ الْخَوَافِقِ
وَصَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَشَارِقِ
وَلَمْ يَصْبِرُوا لِالْأَمْعَاتِ الْبَوَارِقِ
وَسَيِّدِنَا فِي الْمَأَزِقِ الْمُتَضَائِقِ
سَمِعَتْ عَوِيلاً مِنْ عَوَانٍ وَعَاتِقِ
صَبُوراً لَدَى الْهَيْجَاءِ عِنْدَ الْحَقَائِقِ
وَشَابَتْ لِمَا حَمَلْتُ مِنْهُ مَفَارِقِي

قال أبو مخنف : فحدثني حذرة بن عبد الله الأزدي ، والنضر بن صالح العبسي ، وفضيل بن خديج ، كلهم أخبرني أن الحارث بن أبي ربيعة [الملقب بالقباع] أتاه أهل الكوفة ، فصاحوا إليه وقالوا له : اخرج فإن هذا عدو لنا قد أظلم علينا ليست له بقية ، فخرج وهو يكذب كذا حتى نزل النخيلة فأقام بها أياماً ، فوثب إليه إبراهيم بن الأشتر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإنه سار إلينا عدو ليست له بقية ، يقتل الرجل والمرأة والمولود ، ويخيف السبيل ، ويخرب البلاد ، فأنهض بنا إليه ، فأمر بالرحيل . فخرج فنزل دير عبد الرحمن ، فأقام فيه حتى دخل إليه شبيب بن ربعي ، فكلّمه بنحو ما كلّمه به ابن الأشتر ، فارتحل ولم يكذب ، فلما رأى الناس بطء سيره رجزوا به فقالوا :

سَارَ بِنَا الْقُبَاعُ سَيْرًا نَكْرًا يَسِيرُ يَوْمًا وَيُقِيمُ شَهْرًا

فأشخصوه من ذلك المكان ، فكلّموا نزل بهم منزلاً أقام بهم حتى يضيح الناس به من ذلك ، ويصيحوه به حول فسطاطه ، فلم يبلغ الصّراة إلا في بضعة عشر يوماً ، فأقصر الصراة وقد انتهى إليها طلائع العدو وأوائل الخيول ، فلما أتهم العيون بأنه قد أتاهم جماعة أهل المصر قطعوا الجسر بينهم وبين الناس ، وأخذ الناس يرتجزون :

إِنَّ الْقُبَاعَ سَارَ سَيْرًا مَلَسَا بَيْنَ دَبِيرَى وَدَبَاهَا خَمْسَا

قال أبو مخنف : حدثني يونس بن أبي إسحاق ، عن أبيه ، أن رجلاً من السبيح كان به ألم ، وكان بقرية يقال لها جَوْبَرٌ عند الحرّارة ، وكان يدعى سِمَاكُ بْنُ يَزِيدٍ ، فأنت الخوارج قريته فأخذوه وأخذوا ابنته ، فقدموا ابنته فقتلوا ، وزعم لي أبو الربيع السلولي أن اسم ابنته أم يزيد ، وأنها كانت تقول لهم : يا أهل الإسلام ، إن أبي مُصَابٌ فلا تقتلوه ، وأما أنا فإنما أنا جارية ، والله ما أتيت فاحشة قط ، ولا آذيت جارة لي قط ، ولا تطلعت ولا تشرفت قط . فقدموها ليقتلوها ، فأخذت تُنادي : ما ذنبي ما ذنبي ! ثم سقطت مغشياً عليها أو ميتة ، ثم قطعوها ، بأسيا فهم . قال أبو الربيع : حدثتني بهذا الحديث طرّها نصرانية من أهل الخوَرَنَقِ كانت معها حين قُتلت .

قال أبو مخنف : حدثني يونس بن أبي إسحاق ، عن أبيه ، أن الأزارقة جاءت بِسِمَاكِ بْنِ يَزِيدٍ معهم حتى أشرفوا على الصّراة . قال : فاستقبل عسكرنا ، فرأى جماعة الناس وكثرتهم ، فأخذ ينادينا ويرفع صوته :

اعْبُرُوا إِلَيْهِمْ فَلَمَّ بِهِمْ فَلَّ خَبِيثٌ ، فَضْرِبُوا عِنْدَ ذَلِكَ عُنُقَهُ وَصَلَبُوهُ وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَيْهِ . قَالَ : فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ عَبْرْتُ إِلَيْهِ وَأَنَا رَجُلٌ مِنَ الْحَيِّ . فَأَنْزَلْنَاهُ فَذَفَّنَاهُ .

قال أبو مخنف : حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْأَشْرَثِ قَالَ لِلْحَارِثِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ : انْدَبَ مَعِيَ النَّاسَ حَتَّى أَعْبُرَ إِلَى هَؤُلَاءِ الْأَكْلَبِ ، فَأَجِيتُكَ بِرُؤُوسِهِمُ السَّاعَةَ ؛ فَقَالَ شَبَّتَ بِنِ رَبْعِي وَأَسْمَاءُ بِنُ خَارِجَةَ وَيَزِيدُ بْنُ الْحَارِثِ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَارِثِ وَمُحَمَّدُ بْنُ عُمَيْرٍ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ! دَعَهُمْ فَلْيَذْهَبُوا ، لَا تَبْدَأَهُمْ ؛ قَالَ : وَكَأَنَّهُمْ حَسَدُوا إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْأَشْرَثِ .

قال أبو مخنف : وَحَدَّثَنِي حَصِيرَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبُو زَهْرٍ الْعَبْسِيُّ أَنَّ الْأَزَارِقَةَ لَمَّا انْتَهَوْا إِلَى جِسْرِ الصَّرَاةِ فَرَأَوْا أَنَّ جَمَاعَةَ أَهْلِ الْمِصْرِ قَدْ خَرَجُوا إِلَيْهِمْ قَطَعُوا الْجِسْرَ ، وَاعْتَمَمَ ذَلِكَ الْحَارِثُ ، فَتَجَسَّسَ . ثُمَّ إِنَّهُ جَلَسَ لِلنَّاسِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ أَوَّلَ الْقِتَالِ الرَّمِيَّةَ بِالنَّبْلِ ، ثُمَّ إِشْرَاعَ الرِّمَاحِ ، ثُمَّ الطَّعْنَ بِهَا شَزْرًا ؛ ثُمَّ السَّلَةُ آخِرُ ذَلِكَ كُلُّهُ قَالَ : فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ ، قَدْ أَحْسَنَ الْأَمِيرُ أَصْلَحَهُ اللَّهُ الصَّفَةَ ، وَلَكِنْ حَتَامَ نَصْنَعُ هَذَا وَهَذَا الْبَحْرَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَدُوِّنَا ! مُرْ بِهِذَا الْجِسْرَ فَلْيَعُدَّ كَمَا كَانَ ، ثُمَّ اعْبُرْ بِنَا إِلَيْهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ سِيرِيكَ فِيهِمْ مَا تُحِبُّهُ ، فَأَمَرَ بِالْجِسْرِ فَأُعِيدَ ، ثُمَّ عَبَرَ النَّاسُ إِلَيْهِمْ فَطَارُوا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْمَدَائِنِ ، وَجَاءَ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْمَدَائِنِ ، وَجَاءَتْ خَيْلُ لَهِمْ فَطَارَدَتْ خَيْلًا لِلْمُسْلِمِينَ طَرْدًا ضَعِيفًا عِنْدَ الْجِسْرِ . ثُمَّ إِنَّهُمْ خَرَجُوا مِنْهَا فَاتَّبَعَهُمُ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مُخْنَفٍ فِي سِتَّةِ آلَافٍ لِيُخْرِجَهُمْ مِنْ أَرْضِ الْكُوفَةِ ، فَإِذَا وَقَعُوا فِي أَرْضِ الْبَصْرَةِ خَلَّاهُمْ فَاتَّبَعَهُمْ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ أَرْضِ الْكُوفَةِ وَوَقَعُوا إِلَى أَصْبَهَانَ انصَرَفَ عَنْهُمْ وَلَمْ يُقَاتِلَهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ قِتَالٌ ، وَمَضُوا حَتَّى نَزَلُوا بَعْتَابَ بْنَ وَرْقَاءَ بِحَيٍّ ، فَأَقَامُوا عَلَيْهِ وَحَاصَرُوهُ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَقَاتَلَهُمْ فَلَمْ يُطِيقَهُمْ ، وَشَدُّوا عَلَى أَصْحَابِهِ حَتَّى دَخَلُوا الْمَدِينَةَ ، وَكَانَتْ أَصْبَهَانَ يَوْمَئِذٍ طُعْمَةً لِإِسْمَاعِيلَ بْنِ طَلْحَةَ مِنْ مُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ ، فَبَعَثَ عَلَيْهَا عَتَابًا ، فَصَبَّرَ لَهُمْ عَتَابًا ، وَأَخَذَ يُخْرِجُ إِلَيْهِمْ فِي كُلِّ أَيَّامٍ فَيُقَاتِلُهُمْ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ ، وَيَرْمُونَ مِنَ السُّورِ بِالنَّبْلِ وَالنَّشَابِ وَالْحِجَارَةِ ، وَكَانَ مَعَ عَتَابَ رَجُلٌ مِنْ حَضْرَمَوْتٍ يُقَالُ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ بْنُ شَرِيحٍ ، فَكَانَ يُخْرِجُ مَعَ عَتَابَ ، وَكَانَ شَجَاعًا ، فَكَانَ يُجِلُّ عَلَيْهِمْ وَيَقُولُ :

كَيْفَ تَرَوْنَ يَا كِلَابَ النَّارِ شَدَّ أَبِي هُرَيْرَةَ الْهَرَارِ
يَهْرُكُمُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَا بَنِي الْمَاحُوزِ وَالْأَشَارِ
كَيْفَ تُرَى جَيٌّ عَلَى الْمِضْمَارِ !

فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَى الْخَوَارِجِ مِنْ قَوْلِهِ كَمَنْ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْخَوَارِجِ يَظُنُّونَ أَنَّهُ عَبِيدَةُ بْنُ هَلَالٍ ، فَخَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ فَصَنَعَ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ ، وَيَقُولُ كَمَا كَانَ يَقُولُ ، إِذْ حَمَلَ عَلَيْهِ عَبِيدَةُ بْنُ هَلَالٍ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ ضَرْبَةً عَلَى حَبْلِ عَاتِقِهِ فَصَرَعَهُ ، وَحَمَلَ أَصْحَابُهُ عَلَيْهِ فَاحْتَمَلُوهُ فَأَدْخَلُوهُ وَدَاوُوهُ ، وَأَخَذَتْ الْأَزَارِقَةُ بَعْدَ ذَلِكَ تُنَادِيهِمْ يَقُولُونَ : يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ ، مَا فَعَلَ أَبُو هُرَيْرَةَ الْهَرَارِ؟ فِينَادُونَهُمْ : يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ ، وَاللَّهِ مَا عَلَيْهِ مِنْ بَأْسٍ ، وَلَمْ يَلْبِثْ أَبُو هُرَيْرَةَ أَنْ بَرِئَ ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِمْ بَعْدُ ، فَأَخَذُوا يَقُولُونَ : يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ رَجَوْنَا أَنْ نَكُونَ قَدْ أَرْزَاكَ أَمْلَكَ ؛ فَقَالَ لَهُمْ : يَا فَسَّاقُ ، مَا ذَكَرَكُمْ أُمِّي ! فَأَخَذُوا يَقُولُونَ : إِنَّهُ لِيَغْضَبُ لَأَمِهِ ، وَهُوَ آتِيهَا عَاجِلًا . فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ : وَيْحَكَ ! إِنَّمَا يَعْنُونَ النَّارَ ، فَفَظِنَ فَقَالَ : يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ ! مَا أَعْقَبَكُمْ بِأَمِّكُمْ حِينَ تَنْتَفُونَ مِنْهَا ! إِنَّمَا تَلَكُ أَمِّكُمْ ، وَإِلَيْهَا مُصِيرُكُمْ . ثُمَّ إِنَّ الْخَوَارِجَ أَقَامَتْ عَلَيْهِمْ أَشْهُرًا حَتَّى هَلَكَ كُرَاعُهُمْ ، وَنَفَذَتْ أَطْعِمَتَهُمْ ، وَاشْتَدَّ

عليهم الحصار ، وأصابهم الجهد الشديد ، فدعاهم عتاب بن ورقاء فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس ، فإنه قد أصابكم من الجهد ما قد ترون ، فوالله إن بقي إلا أن يموت أحدكم على فراشه فيجيء أخوه فيدفنه إن استطاع ؛ وبالحري أن يضعف عن ذلك ، ثم يموت هو فلا يجد من يدفنه ، ولا يصلي عليه ، فاتّقوا الله ، فوالله ما أنتم بالقليل الذين تهون شوكتهم على عدوهم ، وإن فيكم لفرسان أهل مصر ، وإنكم لصلحاء . من أنتم منه ! اخرجوا بنا إلى هؤلاء القوم وبكم حياة وقوة قبل ألا يستطيع رجل منكم أن يمشي إلى عدوه من الجهد ، وقبل ألا يستطيع رجل أن يمتنع من امرأة لو جاءته ، فقاتل رجل عن نفسه وصبر وصدق ، فوالله إني لأرجو أن صدقتموه أن يظفركم الله بهم ، وأن يظهركم عليهم . فناداه الناس من كل جانب : وفقت وأصبت ، اخرج بنا إليهم ، فجمع إليه الناس من الليل ، فأمرهم بعشاء كثير ، فعشي الناس عنده ؛ ثم إنه خرج بهم حين أصبح على راياتهم ، فصبّحهم في عسكرهم وهم آمنون من أن يؤتوا في عسكرهم ، فشّدوا عليهم في جانبهم ، فصار بوهلهم فأخلوا عن وجه العسكر حتى انتهوا إلى الزبير بن الماحوز ، فنزل في عصابة من أصحابه فقاتل حتى قُتل ، وانحازت الأزارقة إلى قطري ، فبايعوه ، وجاء عتاب حتى دخل مدينته ، وقد أصاب من عسكرهم ما شاء ، وجاء قطري في أثره كأنه يريد أن يقاتله ، فجاء حتى نزل في عسكر الزبير بن الماحوز ، فتزعم الخوارج أن عينا القطري جاءه فقال : سمعت عتاباً يقول : إن هؤلاء القوم إن ركبوا بنات شحاج ، وقادوا بنات صهال ، ونزلوا اليوم أرضاً وغداً أخرى ، فبالحري أن يبقوا ؛ فلما بلغ ذلك قطرياً خرج فذهب وخلّاهم .

قال أبو مخنف : قال أبو زهير العسبي وكان معهم : خرجنا إلى قطري من الغد مشاة مُصلتين بالسيوف ؛ قال : فارتحلوا والله فكان آخر العهد بهم . قال : ثم ذهب قطري حتى أت ناحية كِرْمان فأقام بها حتى اجتمعت إليه جموع كثيرة ، وأكل الأرض واجتنبى المال وقوي ، ثم أقبل حتى أخذ في أرض أصبهان . ثم إنه خرج من شِعْب ناشِط إلى أَيْدَج ، فأقام بأرض الأهواز والحارث بن أبي ربيعة عامل المُصعب بن الزبير على البصرة ، فكتب إلى مصعب يُخبره أن الخوارج قد تحدّثوا إلى الأهواز ، وأنه ليس لهم إلا المهلب ، فبعث إلى المهلب وهو على المُوصل والجزيرة . فأمره بقتال الخوارج والمسير إليهم ، وبعث إلى عامله إبراهيم بن الأُمّتر ، وجاء المهلب حتى قديم البصرة ، وانتخب الناس ، وسار بمن أحب ، ثم توجه نحو الخوارج ، وأقبلوا إليه حتى التقوا بسولاف ، فاقتتلوا بها ثمانية أشهر أشد قتال رآه الناس ، لا يُقع بعضهم لبعض من الطعن والضرب ما يُصد بعضهم عن بعض .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة كان القحط الشديد بالشام حتى لم يقدروا من شدته على الغزو . فيها عسكر عبد الملك بن مروان ببطنان حبيب من أرض قنسرين ، فمطروا بها ، فكثرت الوحل فسموها بطنان الطين ، وشتا بها عبد الملك ، ثم انصرف منها إلى دمشق . وفيها قتل عبيد الله بن الحر .

ذكر الخبر عن مقتله والسبب الذي جرّ ذلك عليه :

روى أحمد بن زهير ، عن علي بن محمد ، عن علي بن مجاهد ، أن عبيد الله بن الحر كان رجلاً من خيار قومه صلاحاً وفضلاً ، وصلاةً واجتهاداً ، فلما قُتل عثمان وهاج الهيج بين علي ومعاوية ، قال : أما إن الله ليعلم أني أحب عثمان ، ولأنصرنه ميتاً . فخرج إلى الشام ، فكان مع معاوية ، وخرج مالك بن مسعم إلى

معاوية على مثل ذلك الرأي في العثمانية ، فأقام عبيد الله عند معاوية ، وشهد معه صفين ، ولم يزل معه حتى قُتل علي عليه السلام ، فلما قُتل علي قديم الكوفة فأتى إخوانه ومن قد خُف في الفتنة ، فقال لهم : يا هؤلاء ، ما أرى أحداً ينفعه اعتزاله ، كنّا بالشام ، فكان من أمر معاوية كُتبت وكُتبت . فقال له القوم : وكان من أمر علي كُتبت وكُتبت ، فقال : يا هؤلاء ، إنْ تمكنا الأشياء فاخلعوا عُذرَكُمْ ، واملكوا أَمْرَكُمْ ؛ قالوا : سنلتقي ، فكانوا يلتقون على ذلك .

فلما مات معاوية هاج ذلك الهيج في فتنة ابن الزبير ، قال : ما أرى قريشاً تنصف ، أين أبناء الحرائر ! فأتاه خَلِيعُ كُلِّ قَبِيلَةٍ ، فكان معه سبعمائة فارس ، فقالوا : مُرْنَا بِأَمْرِكَ ، فلما هرب عبيد الله بن زياد ومات يزيد بن معاوية ، قال عبيد الله بن الحر لفتيانته : قد بين الصَّيْحُ لَدِي عَيْنَيْنِ ، فإذا شتُم ! فخرج إلى المدائن فلم يدع مالا قُدم من الجبل للسلطان إلا أخذه ، فأخذ منه عطاءً وأعطية أصحابه ، ثم قال : إنْ لكم شركاء بالكوفة في هذا المال قد استوجبوه ، ولكن تعجلوا عطاء قابل سلفاً ، ثم كتب لصاحب المال براءة بما قبض من المال ، ثم جعل يتقصى الكور على مثل ذلك . قال : قلت : فهل كان يتناول أموال الناس والتجار ؟ قال لي : إنك لغير عالم بأبي الأشرس ، والله ما كان في الأرض عربيٌّ أغْيَرُ عَنْ حُرَّةٍ وَلَا أَكْفَ عَنْ قَبِيحٍ وَعَنْ شَرَابٍ مِنْهُ ، ولكن إنما وضعه عند الناس شِعْرُهُ ، وهو من أشعر الفتيان . فلم يزل على ذلك من الأمر حتى ظهر المختار ، وبلغه ما يصنع بالسواد ، فأمر بامراته أم سلمة الجعفية فحبست ، وقال : والله لأقتلنه أو لأقتلن أصحابه ، فلما بلغ ذلك عبيد الله بن الحر أقبل في فتانته حتى دخل الكوفة ليلاً ، فكسر باب السجن ، وأخرج امرأته وكل امرأة ورجل كان فيه ، فبعث إليه المختار من يقاتله ، فقاتلهم حتى خرج من المصر ، فقال حين أخرج امرأته من السجن :

أَنَا الْفَارِسُ الْحَامِي حَقَائِقَ مَذْجِ
بِكُلِّ فَتَى حَامِي الدُّمَارِ مُدْجِ
جَبِينٌ كَقَرْنِ الشَّمْسِ غَيْرُ مُشْنَجِ
إِلَيْنَا سَقَاهَا كُلِّ دَانٍ مُنْجِ
كِعَادَتِنَا مِنْ قَبْلِ حَرْبِي وَمُخْرَجِي
عَلَيْكَ السَّلَامُ مِنْ خَلِيطِ مُسْحَجِ
وَإِنِّي بِمَا تَلَقَّيْنِ مِنْ بَعْدِهِ شَجِ
وَقَدْ وَلَجُوا فِي السَّجْنِ مِنْ كُلِّ مَوْلِجِ
أَشَدُّ إِذَا مَا غَمْرَةٍ لَمْ تَفْرَجِ
إِلَى الْأَمْنِ وَالْعَيْشِ الرَّفِيعِ الْمُخْرِجِ
كَكَّرُ أَبِي شُبْلِينَ فِي الْخَيْسِ مُخْرَجِ
فَوَلَّى حَيْثُ رَكُضُهُ لَمْ يُعْرَجِ
خِيُولُ كِرَامِ الضَّرْبِ أَكْثَرُهَا الْوَجِي
أَمَا أَنْتَ يَا بَنَ الْحُرِّ بِالْمُتَحَرِّجِ
وَشَمَّرَ هَذَاكَ اللَّهُ بِالْخَيْلِ فَاخْرَجِ

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا أُمَّ تَوْبَةَ أَنْبِي
وَأَنِّي صَبَحْتُ السَّجْنَ فِي سُورَةِ الضُّحَى
فَمَا إِنْ بَرَحْنَ السَّجْنَ حَتَّى بَدَا لَنَا
وَحْدُ أَسِيلٍ عَنْ فَتَاةٍ حَيَّةٍ
فَمَا الْعَيْشُ إِلَّا أَنْ أَزُورَكَ آمِنًا
وَمَا أَنْتِ إِلَّا هُمَةُ النَّفْسِ وَالْهَوَى
وَمَا زِلْتُ مَحْبُوسًا لِحَبْسِكَ وَاجِمًا
فَبِاللَّهِ هَلْ أَبْصَرْتُ مِثْلِي فَارِسًا
وَمِثْلِي يُحَامِي دُونَ مِثْلِكَ إِنِّي
أُضَارِبُهُمْ بِالسَّيْفِ عَنْكَ لَتَرْجِعِي
إِذَا مَا أَحَاطُوا بِِي كَرَرْتُ عَلَيْهِمْ
دَعَوْتُ إِلَيَّ الشَّاكِرِيِّ ابْنَ كَامِلٍ
وَأِنْ هَتَفُوا بِاسْمِي عَطَفْتُ عَلَيْهِمْ
فَلَا غَرَوْ إِلَّا قَوْلَ سَلَمَى طَعِيتِي
دَعِ الْقَوْمَ لَا تَقْتُلُهُمْ وَأَنْجِ سَالِمًا

وإني لأزجويًا ابنة الخير أن أرى
ألا حبذا قولي لأحمر طيبي
وقولي لهذا سرّ وقولي لذا ارتحل
على خير أحوال المؤمل فارتجي
ولابن حبيب قد دنا الصبح فادلج
وقولي لذا من بعد ذلك أسرج

وجعل يعبت بعمّال المختار وأصحابه ، وثبت همدان مع المختار فأحرقوا داره ، وانتهبوا ضيعته بالجبة
والبداءة ، فلما بلغه ذلك سار إلى مائه إلى ضياع عبدالرحمن بن سعيد بن قيس ، فأنهبها وأنهب ما كان لهمدان
بها ، ثم أقبل إلى السواد فلم يدع مالا لهمداني إلا أخذه ، ففي ذلك يقول :

وما ترك الكذاب من جُلّ مالنا
أفي الحق أن ينهب ضياعي شاكراً
ألم تعلمي يا أمّ توبة أنني
أشدّ حيازيمي لكل كريهة
فإن لم أصبّح شاكراً بكتيبة
هم هدموا داري وقادوا حليتي
وهم أعجلوها أن تشدّ خمارها
فما أنا بابن الحرّ إن لم أرعهم
وما جئت خيلي ولكن حملتها
ولا الزرق من همدان غير شريد
وتأمن عندي ضيعة ابن سعيد
على حدثان الدهر غير بليد
وإني على ما ناب جدّ جليد
فعالجت بالكفين غلّ حديد
إلى سجنهم والمسلمون شهودي
فيا عجباً هل الزمان مقيدي
بخيل تعادى بالكماة أسود
على جحفل ذي عذّة وعديد

وهي طويلة . قال : وكان يأتي المدائن فيمرّ بعمّال جوحى فيأخذ ما معهم من الأموال ، ثم يميل إلى
الجبل ، فلم يزل على ذلك حتى قُتل المختار ، فلما قُتل المختار قال الناس لمصعب في ولايته الثانية : إن ابن
الحرقاش بن زياد والمختار ، ولا نأمنه أن يشب بالسواد كما كان يفعل ، فحبسه مصعب فقال ابن الحرّ :

من مبلغ الفتيان أن أخاهم
بمنزلة ما كان يرضى بمثلها
على الساق فوق الكعب أسود صامت
وما كان ذا من عظم جرم جنيته
وقد كان في الأرض العريضة مسلّك
وفي الدهر والأيام للمرء عبّرة
أتى دونه بابّ شديد وحاجبه
إذا قام عنّته كبول تجاوبه
شديد يداني خطوه ويقاربه
ولكن سعى الساعي بما هو كاذبه
وأبي امرئ ضاقت عليه مذاهبه
وفيما مضى إن ناب يوماً نوابه

فكلّم عبدالله قوماً من مذحج أن يأتوا مصعباً في أمره ، وأرسل إلى وجوههم ، فقال : اتنوا مصعباً
فكلّموه في أمري ذاته ، فإنه حبسني على غير جرم ، سعى بي قوم كذبة وخوفوه ما لم أكن لأفعله ، وما لم يكن من
شأني . وأرسل إلى فتيان من مذحج وقال : البسوا السلاح ، وخذوا عدّة القتال ، فقد أرسلت قوماً إلى مصعب
يكلّمونه في أمري ، فأقيموا بالباب ، فإن خرج القوم وقد شقّعهم فلا تعرضوا لأحد ، وليكن سلاحكم مكفراً
بالثياب ، فجاء قوم من مذحج فدخلوا على مصعب فكلّموه ، فشقّعهم ، فأطلقه . وكان ابن الحرّ قال
لأصحابه : إن خرجوا ولم يشقّعهم فكابروا السجن فإني أعينكم من داخل ، فلما خرج ابن الحرّ قال لهم :
أظهروا السلاح ، فأظهروه ، ومضى لم يعرض له أحد ، فاتى منزله ، وندم مصعب على إخراجه ، فأظهر ابن

الحُرَّ الخَلَّاف ، وأتاه الناسُ يهتئونهُ ، فقال : هذا الأمر لا يصلح إلا لِمَثَلِ خُلَفائِكُم المَاضِينَ ، وما نَرَى لَهُم فينا نِدًا ولا شَبِيهاً فَنُلْقِيهِ إِلَيْهِ أَرَمَتْنَا ، وَنَحْضُهُ نَصِيحَتْنَا ، فَإِنْ كَانَ إِعْماهُوَ مِنْ عَزْزٍ ، فَعَلَامَ : نَعْقِدُ لَهُم في أعناقنا بَيْعَةً ، وَلَيْسُوا بِأَشْجَعِ مَنْ لِقَاءٍ ، وَلَا أَعْظَمَ مَنْ غَناءٍ ! وَقَدْ عَهِدَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَلَّا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ في مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ ، وما رَأَيْنَا بَعْدَ الْأَرْبَعَةِ الْمَاضِينَ إِماماً صالِحاً ، ولا وزيراً تقيّاً ، كُلُّهُمْ عاصٍ مُخَالِفٌ ، قَوِيّ الدُّنْيَا ، ضَعِيفُ الْآخِرَةِ ، فَعَلَامَ تُسْتَحَلُّ حَرَمَتُنَا ، وَنَحْنُ أَصْحَابُ النُّخِيلَةِ وَالْقَادِسيَّةِ وَجَلُولاءٍ وَنِهاوُنْداءٍ نَلْقَى الْأَسِنَّةَ بَنُحُورِنَا وَالسُّيُوفَ بِجَبَاهِنَا ، ثُمَّ لا يَعْرِفُ لَنَا حَقّاً وَفَضْلُنَا ؛ فَقَاتَلُوا عَنْ حَرَمِكُمْ ، فَأَيُّ الْأَمْرِ ما كانَ فَلكُمْ فِيهِ الْفَضْلُ ، وَإِنِّي قَدْ قَلْبْتُ ظَهَرَ الْمِجَنِّ ، وَأَظْهَرْتُ لَهُمُ الْعِداوَةَ ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . وَحَارِبُهُمْ فَأَغَارَ فَارِسلُ إِلَيْهِ مَصْعَبُ سَيْفِ بْنِ هانِءٍ الْمُرَادِيِّ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّ مَصْعَباً يُعْطِيكَ خِراجَ بادُورِيا على أَنْ تُبَايِعَ وَتَدْخُلَ في طاعته ؛ قال : أَوْلَيْسَ لي خِراجُ بادُورِيا وَغَيرِها ! لَسْتُ قَابِلاً شَيْئاً ، وَلَا آمَنُهم على شَيْءٍ ، وَلَكِنِّي أَرَاكَ يا فَتَى - وَسَيْفٌ يَوْمُئِذٍ حَدَثٌ - حَدَّثاً ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تُتَبَّعَنِي وَأَمُولَكَ ! فَأَبى عَلَيْهِ ، فَقَالَ ابْنُ الْحُرِّ حِينَ خَرَجَ مِنَ الْحَبْسِ :

لا كُوفَةَ أُمِّي وَلَا بَصْرَةَ أَبِي ولا أَنَا يُثْبِنُنِي عَنِ الرِّحْلَةِ الْكَسَلِ

- قال أبو الحسن : يُروى هذا البيتُ لِسُحَيْمِ بْنِ وَثِيلِ الرِّياحِيِّ - :

فَلا تُحَسِّبْنِي ابْنَ الزُّبَيْرِ كَناعِيسٍ إِذَا حَلَّ أَغْفَى أَوْ يَقَالَ لَهُ أَرْتَحِلُ
فَإِنْ لَمْ أَرُوكَ الْخَيْلَ تَرِدِي عَواسِياً بَفُرسانِها لا أُدْعَ بِالْحازِمِ الْبَطْلُ
وَإِنْ لَمْ تَرَ الْغَارَاتِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ عَلَيْكَ فَتَنْتَدِمُ عاجِلاً أَيُّها الرَّجُلُ
فَلا وَضَعْتُ عِنْدِي حَصانَ قَناعِها وَلَا عِشْتُ إِلَّا بِالْأَمانيِّ وَالْعِلالِ

وهي طويلة .

فَبَعَثَ إِلَيْهِ مُصْعَبُ الْأَبْرَدِ بْنِ قَرَةَ الرِّياحِيِّ في نَفَرٍ ، فَقَاتَلَهُ فَهَزَمَهُ ابْنُ الْحُرِّ ، وَضَرَبَهُ ضَرْبَةً على وَجْهِهِ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ مُصْعَبُ حُرَيْثِ بْنِ زَيْدٍ - أَوْ يَزِيدٍ - فَارَزَهُ ، فَقَتَلَهُ عُبيدُ اللَّهِ بْنُ الْحُرِّ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ مُصْعَبُ الْحِجَّاجِ بْنِ جاريةِ الْخَثْعَمِيِّ وَمُسلمُ بْنُ عَمْرٍو ، فَلَقِيَاهُ بِنَهْرِ صَرْصَرٍ ، فَقَاتَلَهُمْ فَهَزَمَهُمْ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مُصْعَبٌ قَوْماً يَدْعُونَهُ إِلَى أَنْ يُؤْمِنَهُ وَيُصِلَهُ ، وَيُؤْلِيَهُ أَيَّ بِلَدٍ شاءَ ، فَلَمْ يَقْبَلْ ، وَأَتَى نَرْسِيَّ فَفَرَّ دِهْقَانُها طِيزَجَشْنَسَ بِمَلِكِ الْفُلُوجَةِ ، فَتَبِعَهُ ابْنُ الْحُرِّ حَتَّى مَرَّ بِعَيْنِ التَّمْرِ وَعَلَيْهَا بِسْطامُ بْنُ مَصْقَلَةَ بْنِ هُبَيْرَةَ الشَّيبَانِيِّ ، فَتَعَوَّذَ بِهِمُ الدَّهْقَانُ ، فَخَرَجُوا إِلَيْهِ فَقَاتَلُوهُ - وَكَانَتْ خَيْلُ بِسْطامِ خَمْسِينَ وَمِائَةَ فَارَسٍ - فَقَالَ يُونُسُ بْنُ هَاعانَ الْهَمْدَانِيُّ مِنْ خِيَوانٍ ، وَدَعاهُ ابْنُ الْحُرِّ إِلَى الْمُبَارَزةِ : شَرُّ دَهرٍ آخِرُهُ ، ما كُنْتُ أَحْسَبُنِي أَعِيشَ حَتَّى يَدْعُونِي إِنسانٌ إِلَى الْمُبَارَزةِ ! فَبَارَزَهُ فَضَرَبَهُ ابْنُ الْحُرِّ ضَرْبَةً أَثْنَتَهُ ، ثُمَّ اعْتَنَقَا فَخَرَّاهُ جَمِيعاً عَنْ فَرَسَيْهِمَا ، وَأَخَذَ ابْنُ الْحُرِّ عِمَامَةَ يُونَسَ وَكَتَفَهُ بِها ثُمَّ رَكِبَ ، وَوَأَفاهُمُ الْحِجَّاجُ بْنُ حارِثَةِ الْخَثْعَمِيِّ ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ الْحِجَّاجُ فَاسَرَهُ أَيْضاً عُبيدُ اللَّهِ ، وَبَارَزَ بِسْطامُ بْنُ مَصْقَلَةَ الْمَجَشَّرَ ، فَاضْطَرَبَا حَتَّى كَرِهَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما صاحِبَهُ ، وَعَلاهُ بِسْطامُ ، فَلَمَّا رَأى ذَلِكَ ابْنُ الْحُرِّ حَمَلَ عَلَى بِسْطامِ وَاعْتَنَقَهُ بِسْطامُ ، فَسَقَطَا إِلَى الْأَرْضِ ، وَسَقَطَ ابْنُ الْحُرِّ عَلَى صَدْرِ بِسْطامِ فَاسَرَهُ ، وَأَسْرَ يَوْمُئِذٍ ناساً كَثِيراً ، فَكَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ : أَنَا صاحِبُكَ يَوْمَ كَذَا ، وَيَقُولُ الْآخَرُ : أَنَا نازِلُ فيكُمْ ، وَبِمَتَّ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمَ بما يَرى أَنَّهُ يَنْفَعُهُ ، فيَخْلِي سَبِيلَهُ ، وَبِعَثَ فَوارسٌ مِنْ أَصْحابِهِ عَلَيْهِمُ دَهْمُ الْمُرَادِيِّ يَطْلُبُونَ الدَّهْقَانِ ، فَأَصَابُوهُ ، فَأَخَذُوا الْمَالَ قَبْلَ الْقِتالِ ، فَقَالَ ابْنُ الْحُرِّ :

لَوْ أَنَّ لِي مِثْلَ جَرِيرٍ أَرْبَعَهُ صَبَحْتُ بَيْتَ الْمَالِ حَتَّى أَجْمَعَهُ
وَلَمْ يَهْلِنِي مُصْعَبٌ وَمَنْ مَعَهُ نَعَمْ الْفَتَى ذَلُكُمُ ابْنُ مَشْجَعَةٍ

ثم إن عُبيد الله أتى تَكْرِيتَ ، فهربَ عاملُ المهلب عن تَكْرِيتَ ، فأقام عُبيد الله يجبي الخراج ، فوجه إليه مصعبُ الأبرد بن قرّة الرياحي والجنون بن كعب الهمداني في ألف ، وأمدّهما المهلب بيزيد بن المغفل في خمسمائة ، فقال رجلٌ من جُعفي لعبيد الله : قد أتاك عددٌ كثير ، فلا تُقاتِلْهم ، فقال :

يَخَوْفُنِي بِالْقَتْلِ قَوْمِي وَإِنَّمَا أَمُوتُ إِذَا جَاءَ الْكِتَابُ الْمُؤَجَّلُ
لَعَلَّ الْقَنَا تُذْنِي بِأَطْرَافِهَا الْغِنَى فَنَحْيَا كِرَاماً أَوْ نَكُرُ فَنَقْتُلُ

فقال للمجشّر ودفع إليه رايته ، وقدم معه دلهماً المرادي ، فقاتلهم يومين وهو في ثلاثمائة ، فخرج جرير بن كريب ، وقُتل عمرو بن جندب الأزدي وفُرسان كثير من فُرسانه ، وتحاجزوا عند المساء ، وخرج عُبيد الله من تَكْرِيتَ فقال لأصحابه : إني سائرٌ بكم إلى عبد الملك بن مروان ، فتهيئوا ، وقال : إني أخاف أن أفرق الحياة ولم أذكر مصعباً وأصحابه ، فارجعوا بنا إلى الكوفة . قال : فسار إلى كسكر فنفى عاملها ، وأخذ بيت مالها ، ثم أتى الكوفة فنزل لحام جرير ، فبعث إليه مصعبُ عمر بن عُبيد الله بن معمر ، فقاتله ، فخرج إلى دِير الأعور ، فبعث إليه مصعبُ حجار بن أبجر ، فانهزم حجار ، فشتمه مصعبُ ورده ، وضم إليه الجنون بن كعب الهمداني وعمر بن عُبيد الله بن معمر ، فقاتلوه بأجمعهم ، وكثرت الجراحات في أصحاب ابن الحر وعُقرت خيولهم ، وجرح المجشّر ، وكان معه لواء ابن الحر ، فدفعه إلى أحرطىء ، فانهزم حجار بن أبجر ثم كر ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى أمسوا ، فقال ابن الحر :

لَوْ أَنَّ لِي مِثْلَ الْفَتَى الْمُجَشَّرِ ثَلَاثَةٌ بَسَيْتُهُمْ لَا أَمْتَرِي
سَاعِدَنِي لَيْلَةُ دِيرِ الْأَعُورِ بِالطَّلْعِ وَالضَّرْبِ وَعِنْدَ الْمَعْبَرِ
لَطَاحَ فِيهَا عُمَرُ بْنُ مَعْمَرٍ

وخرج ابن الحر من الكوفة ، فكتب مصعبُ إلى يزيد بن الحارث بن رُويم الشيباني - وهو بالمدائن - يأمره بقتال ابن الحر ، فقدم ابنه حَوْشِباً فَلَقِيَهُ بِبَاجِشْرَى ، فهزّمه عُبيد الله وقُتلَ فيهم ، وأقبل ابن الحر فدخل المدائن ، فتحصّنوا ، فخرج عُبيد الله فوجه إليه الجنون بن كعب الهمداني وبشر بن عبد الله الأسدي ، فنزل الجنون حَوْلَايَا ، وقدم بشر إلى تَامَرَا ، فلقي ابن الحر ، فقتله ابن الحر ، وهزم أصحابه ، ثم لقي الجنون بن كعب بَحْلَوْلَايَا ، فخرج إليه عبدالرحمن بن عبدالله ، فحمل عليه ابن الحر فطعنه فقتله وهزم أصحابه ، وتبعهم ، فخرج إليه بشير بن عبدالرحمن بن بشير العجلي ، فالتقوا بسوراً فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهز بشير عنه ، فرجع إلى عمله ، وقال : قد هزمتُ ابن الحر ، فبلغ قوله مصعباً ، فقال : هذا من الذين يُحبون أن يُحمّدوا بما لم يفعلوا . وأقام عُبيد الله في السواد يُغيّر ويحبي الخراج ، فقال ابن الحر في ذلك .

سَلُّوا ابْنَ رُوَيْمٍ عَنْ جَلَادِي وَمَوْفِي بِإِيْوَانِ كَسْرَى لَا أَوْلِيَهُمْ ظَهْرِي
أَكْرُءُ بِهِمْ مُعْلِماً وَتَرَاهُمْ كِمَغْزَى تَحْنِي خَشْيَةَ الدُّبِّ بِالصَّخْرِ
وَيَبْتُهُمْ فِي حِصْنِ كَسْرَى بِنِ هُرْمِزِ بِمَشْحُودَةٍ بِيضٍ وَخَطِيئَةٍ سُمْرِ
فَأَجْزَيْتُهُمْ طَعْنًا وَضَرْبًا تَرَاهُمْ يَلُودُونَ مِنَّا مَوْهِنًا بِدُرَا الْقَصْرِ

يَلُودُونَ مِنِّي رَهْبَةً وَمَخَافَةً لَوْأَذَا كَمَا لَأَذَ الْحَمَائِمُ مِنْ صَقَرٍ

ثم إن عُبيد الله بن الحرّ - فيما ذكر - لحق بعبد الملك بن مروان ، فلما صار إليه وجهه في عشرة نفر نحو الكوفة ، وأمره بالمسير نحوها حتى تلحقه الجنود ، فسار بهم ، فلما بلغ الأنبار وجهه إلى الكوفة من يُخبر أصحابه بقدومه ، ويسألهم أن يخرجوا إليه ، فبلغ ذلك القيسية ، فأتوا الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة عامل ابن الزبير على الكوفة ، فسألوه أن يبعث معهم جيشاً ، فوجه معهم ، فلما لقوا عُبيد الله قاتلهم ساعة ، ثم غرقت فرسه ، وركب معبراً قوثب عليه رجل من الأنباط فأخذ بعصديه وضربه الباقون بالمرادي ، وصاحوا : إن هذا طلبه أمير المؤمنين ، فاعتنقا فغرقا ، ثم استخرجوه فجزوا رأسه ، فبعثوا به إلى الكوفة ثم إلى البصرة .

قال أبو جعفر : وقد قيل في مقتله غير ذلك من القول ؛ قيل : كان سبب مقتل عُبيد الله بن الحرّ أنه كان يغشى بالكوفة مُصعباً ، فرآه يُقدّم عليه أهل البصرة ، فكتب إلى عبد الله بن الزبير - فيما ذكر - قصيدة يعاتب بها مُصعباً ويخوفه مسيره إلى عبد الملك بن مروان ، يقول فيها :

أَبْلِغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رِسَالَةً	فَلَسْتُ عَلَى رَأْيٍ قَبِيحٍ أَوَارِبُهُ
أَفِي الْحَقِّ أَنْ أَجْفَى وَيَجْعَلَ مُصْعَبٌ	وَزِيرِيهِ مَنْ قَدْ كُنْتُ فِيهِ أَحَارِبُهُ!
فَكَيْفَ وَقَدْ أَبْلَيْتُكُمْ حَقَّ بَيْعَتِي	وَحَقِّي يُلَوِّى عِنْدَكُمْ وَأَطَالِبُهُ
وَأَبْلَيْتُكُمْ مَا لَا يُضَيِّعُ مِثْلُهُ	وَأَسَيْتُكُمْ وَالْأَمْرُ صَعْبٌ مَرَاتِبُهُ
فَلَمَّا آسْتَنَارَ الْمَلِكُ وَأَنْقَادَتِ الْعِدَا	وَأَدْرَكَ مِنْ مَالِ الْعِرَاقِ رَغَائِبُهُ
جَفَا مُصْعَبٌ عَنِّي وَلَوْ كَانَ غَيْرُهُ	لَأَصْبَحَ فِيمَا بَيْنَنَا لَا أَعَاتِبُهُ
لَقَدْ رَأَيْتَنِي مِنْ مُصْعَبٍ أَنَّ مُصْعَبَا	أَرَى كُلَّ ذِي غِشٍّ لَنَا هُوَ صَاحِبُهُ
وَمَا أَنَا إِلَّا حَلَاتُ مُنُونِي بِوَارِدٍ	عَلَى كَدَرٍ قَدْ غُصَّ بِالصَّفْوِ شَارِبُهُ
وَمَا لِأَمْرِي إِلَّا الَّذِي اللَّهُ سَائِقٌ	إِلَيْهِ وَمَا قَدْ خَطَّ فِي الزُّبْرِ كَاتِبُهُ
إِذَا قَمْتُ عِنْدَ الْبَابِ أَذْجَلُ مُسْلِمٍ	وَيَمْنَعُنِي أَنْ أَدْخَلَ الْبَابَ حَاجِبُهُ

وهي طويلة .

وقال لمُصعب وهو في حبسه ، وكان قد حُبِسَ معه عطية بن عمرو البكري ، فخرج عطية ، فقال

عُبيد الله :

أَقُولُ لَهُ صَبْرًا عَظِيمًا فَإِنَّمَا	هُوَ السَّجَنُ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ مَخْرَجًا
أَرَى الدَّهْرَ لِي يَوْمِينَ يَوْمًا مَطْرَدًا	شَرِيدًا وَيَوْمًا فِي الْمُلُوكِ مُتَوَجًّا
أَتَطْعَنُ فِي دِينِي غَدَاةً أَتَيْتُكُمْ	وَلِلَّذِينَ تُذْنِي الْبَاهِلِيُّ وَحْشَرَجَا!
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَلِكَ قَدْ شِينَ وَجْهُهُ	وَنَبُعُ بِلَادِ اللَّهِ قَدْ صَارَ عَوْسَجَا!

وهي طويلة .

وقال أيضاً يعاتب مُصعباً في ذلك ، ويذكر له تقيبه سُويد بن منجوف ، وكان سُويد خفيف اللحية :

بأيّ بلاءٍ أَمْ بأيّةِ نعمةٍ
ويُدعى ابن منجوفٍ إمامي كأنه
وشيخٌ نعيمٍ كالثَغَامَةِ رأسُهُ
جَعَلْتُ قُصُورَ الْأَزْدِ ما بينَ مِنبجٍ
بِلاَدُ نَفَى عنها العَدُوّ سُيُوفُنا
تَقْدُمُ قَبلي مُسَلِّمٌ والمَهْلَبُ
خَصِيٌّ أَقَى لِلِإِمْاءِ والغَيْرِ يَسْرُبُ
وعَيْلانٌ عَنّا خائِفٌ مُتَرَقِّبُ
إلى الغافِ من وادي عُمَانَ تَصُوبُ
وصُفْرَةُ عَنّا نازِحُ الدَّارِ أَجْنَبُ

وقال قصيدة يهجو فيها قيس عيلان ، يقول فيها :

أنا ابنُ بني قَيسٍ فإن كنتَ سائلاً
ألم ترَ قيساً قيسَ عَيْلانَ بَرَقَعَتْ
وما زِلْتُ أَرْجُو الْأَزْدَ حَتَّى رَأَيْتُها
بَقِيسٍ نَجْدُهُم ذُرُوءُ في القبائلِ
لِحَاها وباعَتْ تَبْلُها بِالْغَزَالِ
تُقَصِّرُ عَن بُنْيَانِها المِطَاطِ

فكتب زُفر بنُ الحارثِ إلى مُصعب : قد كَفَيْتَكَ قتالَ ابنِ الزَّرْقاءِ وابنِ الحَرِّ يهجو قيساً . ثم إن نَفراً
بني سُلَيمٍ أَخَذُوا ابنَ الحَرِّ فَاسْرُوهُ ، فقال : إني إِيَّما قِلْتُ :

ألم ترَ قيساً قيسَ عَيْلانَ أَقْبَلْتُ
إِلينا وسارَتْ بِالقَنَا والقَنابِلِ

فقتله رجلٌ منهم يقال له عِيَّاش فقال زُفر بن الحارث :

لما رَأَيْتُ النَّاسَ أَوْلادَ عِلَّةٍ
تَكَلَّمُ عَنّا مَشِيناً بِسُيُوفِنا
فلو يَسْأَلُ ابْنُ الحَرِّ أَخْبِرَ أَنَّها
وأُخْبِرَ أَنّا ذاتُ عِلْمٍ سُيُوفُنا
وأغرقَ فينا نَزْغَةُ كُلِّ قائلٍ
إلى المَوْتِ وآسِثْشَاطَ حَبْلِ المَراكِلِ
يَمانيَّةٌ لا تُشْتَرَى بِالْغَزَالِ
بأَعناقِ ما بينَ الطَّلَى والكِواهِلِ

وقال عبدُ اللَّهِ بنُ هَمَّام :

تَرُمْتُ يا بَنَ الحَرِّ وَحَدَكَ خالِياً
أَتَذَكُرُ قوماً أَوَجَعْتَكَ رِماحَهُمُ
وَتَبَكِّي لِمَا لَأَقَت رَبيعةٌ مِنْهُمْ
فَهَلْأَ بِجُعْفِي طَلَبْتَ دُحُومَها
تَرَكْنَاهُمْ يَوْمَ الثُّرَيِّ أَذْلَةً
وخالَطَكُم يَوْمَ النُّخَيْلِ بِجَمْعِهِ
ويومَ شِراحِيلَ جَدَعْنَا أَنْوَفَكُمُ
ضَرَبْنَا بِحَدِّ السَّيفِ مَفرِقَ رَأْسِهِ
فإن رَغِمَتْ مِنْ ذاكِ أَنْفٌ مَدْحَجٍ
بِقَوْلِ آمريءِ نَشِوانٍ أَوْ قَوْلِ ساقِطٍ
وَذَبُّوا عَنِ الْأَحْسابِ عِنْدَ المِاقِطِ
وما أَنْتَ في أَحْسابِ بَكْرِ بَواضِطٍ
ورَهْطِكَ دَنياءَ في السَّنَنِ الفُوارِطِ
يَلُودُونَ مِنْ أَسِياِفِنا بِالْعَرافِطِ
عَمِيْرُ فَمّا اسْتَبَشَرْتُم بِالْمُخالِطِ
وليسَ عَلينا يَوْمَ ذاكِ بِقاسِطِ
وكانَ حَدِيثاً عَهْدُهُ بِالْمِواشِطِ
فَرَضِماً وَسَخَطاً لِلأنُوفِ السُّواخِطِ

قال أبو جعفر : وفي هذه السَّنةِ وافتَ عَرَقاتُ أربعةِ أَلويةٍ ، قال مُحَمَّدُ بنُ عَمَرَ : حَدَّثني شَرَحْبِيلُ بنُ
هَوْنٍ ، عن أبيه ، قال : وقَفْتُ في سَنةِ ثَمانٍ وسَتينَ بِعَرَقاتِ أربعةِ أَلويةٍ : ابْنُ الحَنْفِيَّةِ في أَصْحابِهِ في لَواءِ

عند جبل المشاة ، وابن الزبير في لواء ، فقام مقام الإمام اليوم ، ثم تقدّم ابن الحنفية بأصحابه حتى وقفوا حذاء ابن الزبير ، ونجدة الحزوري خلفهما ، ولواء بني أمية عن يسارهما ، فكان أول لواء انفض لواء محمد بن الحنفية ، ثم تبعه نجدة ، ثم لواء بني أمية ، ثم لواء ابن الزبير ، وأتبعه الناس .

قال محمد : حدثني ابن نافع ، عن أبيه ، قال : كان ابن عمر لم يدفع تلك العشيّة إلا بدفعة ابن الزبير ، فلما أبطأ ابن الزبير وقد مضى ابن الحنفية ونجدة وبني أمية - قال ابن عمر : ينتظر ابن الزبير أمر الجاهلية - ثم دفع ، فدفع ابن الزبير على أثره .

قال محمد : حدثني هشام بن عمار ، عن سعيد بن محمد بن جبير ، عن أبيه ، قال : خفت الفتنة ، فمشيت إليهم جميعاً ، فجئت محمد بن علي في الشعب ، فقلت : يا أبا القاسم ، اتق الله فإننا في مشعر حرام ، وبلد حرام ، والناس وفدوا الله إلى هذا البيت ، فلا تفسد عليهم حجّهم ؛ فقال : والله ما أريد ذلك ، وما أحول بين أحد وبين هذا البيت ، ولا يؤتى أحد من الحاج من قبلي ، ولكني رجل أدفع عن نفسي من ابن الزبير ؛ وما يروم مني ، وما أطلب هذا الأمر إلا ألا يختلف عليّ فيه اثنان ! ولكن ائت ابن الزبير فكلّمه ، وعليك بنجدة ، قال محمد : فجئت ابن الزبير فكلّمته بنحو ما كلّمته به ابن الحنفية ، فقال : أنا رجل قد اجتمع عليّ الناس وباعوني ، وهؤلاء أهل خلاف ، فقلت : أرى خيراً لك الكف ؛ قال : أفعل ، ثم جئت نجدة الحزوري فأجده في أصحابه ، وأجد عكرمة غلام ابن عباس عنده ، فقلت له : استأذن لي على صاحبك ؛ قال : فدخل ، فلم ينشب أن أذن لي ، فدخلت فعظمت عليه ، وكلّمته كما كلّمته الرجلين ، فقال : أمّا أن ابتدئ أحداً بقتال فلا ، ولكن من بدأ بقتال قاتلته ؛ قلت : فإني رأيت الرجلين لا يريدان قتالاً ، ثم جئت شيعة بني أمية فكلّمتهم بنحو ما كلّمته به القوم ، فقالوا : نحن على ألا نقاتل أحداً إلا أن يقاتلنا ، فلم أر في تلك الألوية قوماً أسكن ولا أسلم دفعةً من ابن الحنفية .

قال أبو جعفر : وكان العامل لابن الزبير في هذه السنة على المدينة جابر بن الأسود بن عوف الزهري ، وعلى البصرة والكوفة أخوه مصعب ، وعلى قضاء البصرة هشام بن هبيرة ، وعلى قضاء الكوفة عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وعلى خراسان عبد الله بن خازم السلمي ، وبالشام عبد الملك بن مروان .

ثم دخلت سنة تسع وستين

ففيها كان خروج عبدالملك بن مروان - فيما زعم الواقدي - إلى عينِ وُرْدَة ، واستخلف عمرو بن سعيد بن العاص على دمشق فتحصن بها ، فبَلَغَ ذلك عبدالملك ، فرجع إلى دمشق ، فحاصره - قال : ويقال : خرج معه - فلما كان ببُطْنانِ حَبِيب ، رجع إلى دمشق فتحصن فيها ، ورجع عبدالملك إلى دمشق .

وأما عوانة بن الحكم فإنه قال - فيما ذكر هشام بن محمد عنه : - إن عبدالملك بن مروان لما رجع من بُطْنان حَبِيب إلى دمشق مكث بدمشق ما شاء الله ، ثم سار يريد قَرْقِيسِيَاءَ ، وفيها زُفْرُ بنُ الحارث الكلابي ومعه عمرو بن سعيد ، حتى إذا كان ببُطْنان حَبِيب فتك عمرو بن سعيد ، فرجع لَيْلًا ومعه حُمَيْد بن حُرَيْث بن بَحْدَل الكلابي وزُهَيْر بن الأبرد الكلابي ، حتى أتى دمشق وعليها عبدالرحمن ابن أمّ الحَكَم الثَّقَفِي قد استخلفه عبدالملك ، فلما بلغه رجوع عمرو بن سعيد هَرَبَ وترك عمله ، ودخلها عمرو فغلب عليها وعلى خزائنها .

وقال غيرها : كانت هذه القصة في سنة سبعين . وقال : كان مسير عبدالملك من دمشق نحو العراق يريد مُصْعَب بن الزَّيْر ، فقال له عمرو بن سعيد بن العاص : إِنَّكَ تَخْرُجُ إلى العراق ، وقد كان أبوك وَعَدَنِي هذا الأمر ، من بعده ، وعلى ذلك جاهدت معه ، وقد كان من بلائي معه ما لم يخف عليك ، فاجعل لي هذا الأمر من بعدك ، فلم يُجِبْهُ عبدالملك إلى شيء ، فانصرف عنه عمرو راجعاً إلى دمشق ، فرجع عبدالملك في أثره حتى انتهى إلى دمشق .

رجع الحديث إلى حديث هشام ، عن عوانة ، قال : ولما غلب عمرو على دِمَشْق طلب عبدالرحمن ابن أمّ الحَكَم فلم يُصِبْهُ ، فأمر بداره فهُدِمَتْ واجتمع الناس ، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنّه لم يَقُمْ أحد من قريش قبلي على هذا المنبر إلا زعم أنّ له جنةً وناراً ، يُدْخِلُ الجنةَ من أطاعه ، والنار من عصاه ، وإني أخبركم أنّ الجنة والنار بيد الله ، وأنه ليس إليّ من ذلك شيء ، غير أن لكم عليّ حَسَنَ المؤاساة والعطيّة . ونزل .

وأصبح عبدالملك ، ففقد عمرو وسعيد ، فسأل عنه ، فأخبر خبره ، فرجع عبدالملك إلى دِمَشْق ، فإذا عمرو قد جَلَل دِمَشْقُ المُسَوِّحَ فقاتله بها أياماً ، وكان عمرو بن سعيد إذا أخرج حميد بن حُرَيْث الكلابي على الخيل أخرج إليه عبدالملك سُفْيَان بن الأبرد الكلابي ، وإذا أخرج عمرو بن سعيد زهير بن الأبرد الكلابي أخرج إليه عبدالملك حَسَّان بن مالك بن بَحْدَل الكلابي .

قال هشام حدثني عوانة ، أنّ الخيلين تواقفتا ذات يوم ، وكان مع عمرو بن سعيد رجلٌ من كَلْب يقال له

رَجَاءُ بْنُ سَرَّاجٍ ، فقال رجاء : يا عبد الرحمن بن سليم ، ابرُزْ - وكان عبد الرحمن مع عبد الملك - فقال عبد الرحمن : قد أنصف القارة من رامها ، وبرز له ، فاطعنا وانقطع ركاب عبد الرحمن ، فنجنا منه ابن سراج ، فقال عبد الرحمن : والله لولا انقطاع الركاب لرميت بما في بطنك من تبن ، وما اصطلع عمرو وعبد الملك أبداً ، فلما طال قتالهم جاء نساء كلب وصبيانهم فبكين وقلن لسفيان بن الأبرد ولا بن بحدل الكلبي : غلام تقتلون أنفسكم لسلطان قريش ! فحلف كل واحد منها ألا يرجع حتى يرجع صاحبه ، فلما أجمعوا على الرجوع نظروا فوجدوا سفيان أكبر من خريث ، فطلبوا إلى خريث ، فرجع . ثم إن عبد الملك وعمراً اصطلحا ، وكتبها بينهما كتاباً ، وآمنه عبد الملك وذلك عشية الخميس .

قال هشام : فحدثني عوانة أن عمرو بن سعيد خرج في الخيل متقلداً قوساً سوداء ، فأقبل حتى أوطأ فرسه أطناب سراق عبد الملك ، فانقطعت الأطناب وسقط السراق ، ونزل عمرو وفجلس وعبد الملك مغضب ، فقال لعمرو : يا أبا أمية ، كأنك تشبه بتقلدك هذه القوس بهذا الحي من قيس ! قال : لا ، ولكني أتشبه بمن هو خير منهم ؛ العاص بن أمية . ثم قام مغضباً والخيل معه حتى دخل دمشق ، ودخل عبد الملك دمشق يوم الخميس ، فبعث إلى عمرو أن أعط الناس أرزاقهم ، فأرسل إليه عمرو : إن هذا لك ليس ببلد فاشخص عنه . فلما كان يوم الاثنين وذلك بعد دخول عبد الملك دمشق بأربع بعث إلى عمرو أن اثني - وهو عند امرأته الكلبيّة ، وقد كان عبد الملك دعا كريب بن أبرهة بن الصباح الحميري فاستشاره في أمر عمرو بن سعيد ، فقال له : في هذا هلك جبر ، لا أرى لك ذلك ، لا ناقتي في ذا ولا جملي - فلما أتى رسول عبد الملك عمراً يدعوه صادف الرسول عبد الله بن يزيد بن معاوية عند عمرو ، فقال عبد الله لعمرو بن سعيد : يا أبا أمية ، والله لأنت أحب إلي من سمعي وبصري ، وقد أرى هذا الرجل قد بعث إليك أن تأتيه ، وأنا أرى لك ألا تفعل ، فقال له عمرو : ولم ؟ قال : لأن تبع ابن امرأة كعب الأحمال . قال : إن عظيم من عظيم ولد إسماعيل يرجع فيغلق أبواب دمشق ، ثم يخرج منها ، فلا يلبث أن يقتل ؛ فقال له عمرو : والله لو كنت نائماً ما تحوّفت أن ينهني ابن الزرقاء ، ولا كان لي جترى على ذلك مني ، مع أن عثمان بن عفان أتاني البارحة في الختام فألبسني قميصه - وكان عبد الله بن يزيد زوج أم موسى بنت عمرو بن سعيد - فقال عمرو للرسول : أبلغه السلام ، وقل له : أنا رائج إليك العشية إن شاء الله . فلما كان العشي لبس عمرو دُرْعاً حصينة بين قباء قوهي وقميص قوهي ، وتقلد سيفه وعنده امرأته الكلبيّة ، وحيد بن خريث بن بحدل الكلبي ، فلما نهض متوجهاً ، عثر بالبساط ، فقال له حميد : أما والله لئن أطعنتي لم تأت ، وقالت له امرأته تلك المقالة ، فلم يلتفت إلى قولهم ، ومضى في مائة رجل من مواليه ، وقد بعث عبد الملك إلى بني مروان فاجتمعوا عنده ، فلما بلغ عبد الملك أنه بالباب أمر أن يجلس من كان معه ، وأذن له فدخل ، ولم تزل أصحابه يجلسون عند كل باب حتى دخل عمرو قاعة الدار ، وما معه إلا وصيف له ، فرمى عمرو ببصره نحو عبد الملك ، فإذا حوله بنو مروان ، وفيهم حسان بن مالك بن بحدل الكلبي وقبيصة بن ذؤيب الخزاعي ، فلما رأى جماعتهم أحس بالشر ، فالتفت إلى وصيفه فقال : انطلق ويحك إلى يحيى بن سعيد ، فقل له يأتي . فقال له الوصيف ولم يفهم ما قال له : ليك ! فقال له : أغرب عني في حرق الله وناره . وقال عبد الملك لحسان وقبيصة : إذا شئتما فقوماً فالتقيا وعمراً في الدار ، فقال عبد الملك لهما كالمأزح ليطمئن عمرو بن سعيد : أيكما أطول ؟ فقال حسان : قبيصة يا أمير المؤمنين أطول مني بالإمرة ، وكان قبيصة على الخاتم . ثم التفت عمرو إلى وصيفه فقال : انطلق إلى يحيى فمره

أن يأتيني، فقال له : لبيك ، ولم يفهم عنه ، فقال له عمرو : اغتُوب عني ، فلما خرج حسان وقيصة أمر بالأبواب فغلقت ، ودخل عمرو فرحب به عبد الملك ، وقال : ها هنا يا أبا أمية ، يرحمك الله ! فأجلسه معه على السرير ، وجعل يحدثه طويلاً ، ثم قال : يا غلام ، خذ السيف عنه ، فقال عمرو : إنما الله يا أمير المؤمنين ! فقال عبد الملك : أوتطمع أن تجلس معي متقلداً سيفك ! فأخذ السيف عنه ، ثم تحدثا ما شاء الله ، ثم قال له عبد الملك : يا أبا أمية ، قال : لبيك يا أمير المؤمنين ؛ فقال : إنك حيث خلعتني آليتُ بيمين إن أنا ملأتُ عيني منك وأنا مالك لك أن أجمعك في جامعة ، فقال له بنو مروان : ثم تطلقه يا أمير المؤمنين ؟ قال : ثم أطلقه ، وما عسيت أن أصنع بأبي أمية ! فقال بنو مروان : أبر قسم أمير المؤمنين ، فقال عمرو : قد أبر الله قسمك يا أمير المؤمنين ، فأخرج من تحت فراشه جامعة فطرحها إليه ، ثم قال : يا غلام ، قم فاجعه فيها ؛ فقام الغلام فجمعه فيها ، فقال عمرو : أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن تخرجني فيها على رؤوس الناس ! فقال عبد الملك : أمكراً أبا أمية عند الموت ! لاها الله إذا ! ما كنا لنخرجك في جامعة على رؤوس الناس ، ولما نخرجها منك إلا صعداً . ثم اجتنبه اجتباذة أصاب فمه السرير فكسر ثنيته ، فقال عمرو : أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن يدعوك إلى كسر عظم مني أن تركب ما هو أعظم من ذلك . فقال له عبد الملك : والله لو أعلم أنك تبقى علي إن أبقي عليك وتصلح قريش لأطلقتك ، ولكن ما اجتمع رجлан قط في بلدة على مثل ما نحن عليه إلا أخرج أحدهما صاحبه . فلما رأى عمرو أن ثنيته قد اندقت وعرف الذي يريد عبد الملك ، قال : أغدراً يابن الزرقاء !

وقيل : إن عبد الملك لما جذب عمراً فسقطت ثنيته جعل عمرو يمسه ، فقال عبد الملك له : أرى ثنيته قد وقعت منك موقعا لا تطيب نفسك بعدها . فأمر به فضرِبَ عنقه .

رجع الحديث إلى حديث عوانة . وأذن المؤذن العصر ، فخرج عبد الملك يصلي بالناس ، وأمر عبد العزيز بن مروان أن يقتله ، فقام إليه عبد العزيز بالسيف ، فقال له عمرو : أذكرك الله والرحم أن تلي أنت قتلي ، وليتول ذلك من هو أبعد رجماً منك ! فألقى عبد العزيز السيف وجلس ، وصلى عبد الملك صلاة خفيفة ، ودخل ، وغلقت الأبواب ورأى الناس عبد الملك حيث خرج وليس عمرو معه ، فذكروا ذلك ليحيى بن سعيد فأقبل في الناس حتى حل بباب عبد الملك ومعه ألف عبد لعمرو ، وأناس بعد من أصحابه كثير ، فجعل من كان معه يصيحون : أسمعنا صوتك يا أبا أمية ! وأقبل مع يحيى بن سعيد حميد بن حريث وزهير بن الأبرد فكسروا باب المقصورة ، وضربوا الناس بالسيوف ، وضرب عبد لعمرو بن سعيد يقال له مصقلة الوليد بن عبد الملك ضربة على رأسه ، واحتمله إبراهيم بن عربي صاحب الديوان فأدخله بيت القراطيس ، ودخل عبد الملك حين صلى فوجد عمراً حياً ، فقال لعبد العزيز : ما منعك من أن تقتله ! قال : منعتني أنه ناشدني الله والرحم فرفقت له . فقال له عبد الملك : أخزى الله أمك البؤالة على عقيبها ، فإنك لم تشبه غيرها - وأم عبد الملك عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية ، وكانت أم عبد العزيز ليلي ، وذلك قول ابن الرقيات :

ذاك ابنُ ليلى عبد العزيزِ ببا بليون تغدوا جفائهُ رُدْما

ثم إن عبد الملك قال : يا غلام ، اثنتي بالحربة . فاتاه بالحربة فهزها ، ثم طعنه بها فلم تجز ، ثم ثنى فلم تجز ، فضرِبَ بيده إلى عضد عمرو ، فوجد مس الدرع ، فضحك ، ثم قال : ودارع أيضاً يا أبا أمية ! إن كنت لمعداً ! يا غلام ، اثنتي بالصمصامة ، فاتاه بسيفه ، ثم أمر بعمرو فضرِع ، وجلس على صدره

فلذبحه وهو يقول :

يا عمرو إن لا تدع شئني ومنقصتي أضربك حيث تقول الهامة اسقوني

وانتفض عبد الملك رعدة - وكذلك الرجل زعموا يصيبه إذا قتل ذا قرابة له - فحمل عبد الملك عن صدره فوضع على سريريه، فقال: ما رأيت مثل هذا قط، قتله صاحب دُنْيَا ولا طالبُ آخرة. ودخل يحيى بن سعيد ومن معه على بني مروان الدار فجرحوهم ومن كان معهم من مواليهم، فقاتلوا يحيى وأصحابه، وجاء عبد الرحمن ابن أم الحَكَم الثَّقَفِي فدفع إليه الرأس، فألقاه إلى الناس، وقام عبد العزيز بن مروان فأخذ المال في البدور، فجعل يلقيها إلى الناس، فلما نظر الناس إلى الأموال ورأوا الرأس انتهبوا الأموال وتفرقوا. وقد قيل: إن عبد الملك بن مروان لما خرج إلى الصلاة أمر غلامه أبا الرُعَيْزَةَ بقتل عمرو، فقتله وألقى رأسه إلى الناس وإلى أصحابه.

قال هشام: قال عوانة: فحدثت أن عبد الملك أمر بتلك الأموال التي طرحت إلى الناس فجبيت حتى عادت كلها إلى بيت المال، ورُمي يحيى بن سعيد يومئذ في رأسه بصخرة، وأمر عبد الملك بسريره فأبرز إلى المسجد، وخرج فجلس عليه، وفقد الوليد بن عبد الملك فجعل يقول: ويحكم! أين الوليد؟ وأبيهم لئن كانوا قتلوه لقد أذركوا ثأرهم، فأتاه إبراهيم بن عريب الكِنَانِي فقال: هذا الوليد عندي، قد أصابته جراحة، وليس عليه بأس، فأتى عبد الملك بيحيى بن سعيد، فأمر به أن يقتل، فقام إليه عبد العزيز، فقال: جعَلني الله فداك يا أمير المؤمنين! أترك قاتلاً بني أمية في يوم واحد! فأمر بيحيى فحبس، ثم أتى بعنيسة بن سعيد فأمر به أن يقتل، فقام إليه عبد العزيز بن مروان، فقال: اذكر الله يا أمير المؤمنين في استئصال بني أمية وهلاكها! فأمر بعنيسة فحبس، ثم أتى بعامر بن الأسود الكلبي فضرب رأسه عبد الملك بقضيب خيزران كان معه، ثم قال: أتقاتلني مع عمرو وتكون معه علي! قال: نعم، لأن عمراً أكرمني وأهنتني، وأدنانني وأقصيتني، وقربني وأبعدتني، وأحسن إلي وأسأت إلي! فكنت معه عليك. فأمر به عبد الملك أن يقتل، فقام عبد العزيز فقال: أذكرك الله يا أمير المؤمنين في خالي فوهبه له. وأمر ببني سعيد فحبسوا، ومكث يحيى في الحبس شهراً أو أكثر. ثم إن عبد الملك صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم استشار الناس في قتله، فقام بعض خطباء الناس فقال: يا أمير المؤمنين، هل تلد الحية إلا حية! نرى والله أن تقتله فإنه منافق عدو. ثم قام عبد الله بن مسعدة الفزاري، فقال: يا أمير المؤمنين، إن يحيى ابن عمك، وقرابته ما قد علمت، وقد صنعوا ما صنعوا، وصنعت بهم ما قد صنعت، ولست لهم بآمن، ولا أرى لك قتلهم، ولكن سيرهم إلى عدوك، فإن هم قتلوا كنت قد كُفيت أمرهم ببدي غيرك، وإن هم سلّموا ورجعوا رأيت فيهم رأيك.

فأخذ برأيه، وأخرج آل سعيد فألحقهم بمصعب بن الزبير، فلما قدموا عليه دخل يحيى بن سعيد، فقال له ابن الزبير: انفلت وانحص الذنب، فقال: والله إن الذنب لبهلبه! ثم إن عبد الملك بعث إلى امرأة عمرو الكلبيّة: ابعتي إلي بالصِّلح الذي كنت كتبت له عمرو، فقالت لرسوله: ارجع إليه فأعلمه أي قد لفت ذلك الصِّلح معه في أكفانه ليخاصمك به عند ربّه، وكان عمرو بن سعيد وعبد الملك يلتقيان في النسب إلى أمية، وكانت أم عمرو أم البنين ابنة الحَكَم ابن أبي العاص عمّة عبد الملك.

قال هشام: فحدثنا عوانة أن الذي كان بين عبد الملك وعمرو كان شراً قديماً، وكان ابناً سعيد أمهما البنين، وكان عبد الملك ومعاوية ابني مروان، فكانوا وهم غلمان لا يزالون يأتون أم مروان بن الحكم الكنانة يتحدثون عندها، فكان ينطلق مع عبد الملك ومعاوية غلام لهم أسود، وكانت أم مروان إذا أتوها هيأت له طعاماً، ثم تأتيهم به فتضع بين يدي كل رجل صحيفة على حدة، وكانت لا تزال تؤرّش بين معاوية بن مروان ومحمد بن سعيد، وبين عبد الملك وعمرو بن سعيد، فيقتتلون ويتصارمون الحين، لا يكلم بعضهم بعضاً وكانت تقول: إن لم يكن عند هذين عقل فعند هذين، فكان ذلك دأبها أتوها حتى أثبتت الشحنة صدورهم.

وذكر أن عبد الله بن يزيد القسري أبا خالد كان مع يحيى بن سعيد حيث دخل المسجد فكسر باد المقصورة، فقاتل بني مروان، فلما قتل عمرو وأخرج رأسه إلى الناس ركب عبد الله وأخوه خالد فلجحا بالعراق، فأقام مع ولد سعيد وهم مع مصعب حتى اجتمعت الجماعة على عبد الملك، وقد كانت عبد الله بن يزيد فقيقت يوم المرج، وكان مع ابن الزبير يقاتل بني أمية، وإنه دخل على عبد الملك بعد الجماعة فقال: كيف أنتم آل يزيد؟ فقال عبد الله: حرباء حرباء، فقال عبد الملك: ذلك بما قدمت أيديكم، وما ألبظلام للعبيد.

قال هشام عن عوانة: إن ولد عمرو بن سعيد دخلوا على عبد الملك بعد الجماعة وهم أربعة: أمية وسعيد، وإسماعيل، ومحمد، فلما نظر إليهم عبد الملك قال لهم: إنكم أهل بيت لم تزالوا ترون لكم على جميع قومكم فضلاً لم يجعله الله لكم، وإن الذي كان بيني وبين أبيكم لم يكن حديثاً، بل كان قديماً في أنفس أوليكم على أولينا في الجاهلية. فأقطع بأمية بن عمرو - وكان أكبرهم - فلم يقدر أن يتكلم، وكان أنبلهم وأعقلهم، فقد سعيد بن عمرو وكان الأوسط فقال: يا أمير المؤمنين ما تنعي علينا أمراً كان في الجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام فهدم ذلك، فوعدنا الجنة، وحددنا ناراً! وأما الذي كان بينك وبين عمرو فإن عمراً ابن عمك، وأنت أعلم وصنعت، وقد وصل عمرو إلى الله، وكفى بالله حسيباً، ولعمري لئن أخذتنا بما كان بينك وبينه لبطن الأرض خير لنا من ظهرها. فرق لهم عبد الملك رقعة شديدة. وقال: إن أباكم خيرني بين أن يقتلني أو أقتله، فاخترت قتله على قتلي، وأما أنتم فما أرغبني فيكم، وأوصلني لقرابتكم، وأرعاني لحقكم! فأحسن جائزتهم، ووصلهم وقربهم.

وذكر أن خالد بن يزيد بن معاوية قال لعبد الملك ذات يوم: عجب منك ومن عمرو بن سعيد، كيف أصبت غرته فقتلته! فقال عبد الملك:

دَانِيَتْهُ مِنِّي لَيْسَ كَنَ رُوعُهُ فَأَصُولَ صَوْلَةَ حَازِمٍ مُسْتَمَكِنٍ
غَضَباً وَمَحْمِيَةً لِدِينِي إِنَّهُ لَيْسَ الْمُسِيءُ سَبِيلُهُ كَالْمُحْسِنِ

قال عوانة، لقي رجل سعيد بن عمرو بن سعيد بمكة، فقال له: ورب هذه البنية، ما كان في القوم مثأبيك، ولكنه نازع القوم ما في أيديهم فعطب.

وكان الواقدي يقول: إنما كان في سنة تسع وستين بين عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد الحصار وذلك أن عمرو بن سعيد تحصن بدمشق فرجع عبد الملك إليه من بطنان حبيب، فحاصره فيها؛ وأما قتله إذ

فإنه كان في سنة سبعين .

وفي هذه السنة حكم مُحْكَم من الخوارج بالخَيْف من مِئى فُقُتِل عند الجمرة ، ذَكَر مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍاَنُ يُحْيى ابن سعيد بن دينار حَدَّثه عن أبيه ، قال : رأيتُه عند الجمرة سَلَّ سيفه ، وكانوا جماعةً فَأَمْسَكَ اللهُ بأيديهم ، وَبَدَرَ هو من بينهم ، فَحَكَمَ ، فَمَالَ النَّاسُ عَلَيْهِ فَقَتَلُوهُ .

وأقام الحجَّ للناس في هذه السنة عبدالله بن الزبير .

وكان عامِلَه فيها على المصرَين : الكوفة والبَصْرة أخوه مصعب بن الزبير . وكان على قضاء الكوفة شُرَيْح وعلى قضاء البَصْرة هِشام بن هُبيرة ، وعلى خُراسان عبدالله بن خازم .

ثم دخلت سنة سبعين ذكر ما كان فيها من الأحداث

ففي هذه السنة ثارت الروم ، واستجاشوا على من بالشام من ذلك من المسلمين ؛ فصالح عبد الملك ملك الروم ، على أن يؤدّي إليه في كلّ جمعة ألف دينار خوفاً منه على المسلمين .
وفيهما شخص - فيما ذكر محمد بن عمر - مصعب بن الزبير إلى مكة فقدمها بأموال عظيمة ، فقسمها في قومه وغيرهم ، وقدم بدواب كثيرة وظهر وأثقال ، فأرسل إلى عبدالله بن صفوان وجبير بن شيبة ، وعبدالله بن مطيع مالاً كثيراً ، ونحر بُدناً كثيرة .
وحجّ بالناس في هذه السنة عبدالله بن الزبير .
وكان عمّاله على الأمصار في هذه السنة عمّاله في السنة التي قبلها على المعاون والقضاء .

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك مسيرُ عبد الملك بن مروان فيها إلى العراق لحرب مُصعب بن الزبير ، وكان عبد الملك - فيها قيل - لا يزال يقرب من مصعب ، حتى يبلغ بُطنان حبيب ، ويخرج مصعب إلى بَاجْمِرَا ، ثم تهجم الشتاء فيرجع كل واحد منهما إلى موضعه ، ثم يعودان ؛ فقال عدي بن زيد بن عدي بن الرقاع العاملي :

لعمري لقد أصحرت خيلنا	بأكناف دجلة للمُصعب
إذا ما مُنافق أهل العِرا	قِ عوتب ثمت لم يُعتب
دَلَفْنَا إِلَيْهِ بِذِي تُدْرِ	قليل التَّفَقُّدِ لِلْغَيْبِ
يَهْزُونَ كُلَّ طَوِيلِ الْقَنَا	ةِ مُلْتِئِمِ النَّضْلِ وَالْثَغْلَبِ
كَأَنَّ وَعَاهُمْ إِذَا مَا غَدَوْا	ضَجِيجُ قَطَا بِلَدٍ مُخْصَبِ
فَقَدَّمْنَا وَاضِحٌ وَجْهُهُ	كريم الضَّرَائِبِ وَالْمُنْصِبِ
أَعَيْنَ بِنَا وَنُصِرْنَا بِهِ	ومن يُنْصُرُ اللَّهَ لم يُغْلَبِ

فحدّثني عمر بن شَبَّة ، قال : حدّثني علي بن محمد ، قال : أقبل عبد الملك من الشام يريد مُصعباً - وذلك قبل هذه السنة ، في سنة سبعين - ومعه خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، فقال خالد لعبد الملك : إن وجهتي إلى البصرة وأتبعني خيلاً يسيرة رجوت أن أغلب كل عليها . فوجهه عبد الملك ، فقدمها مستخفياً في مواليه وخاصته ، حتى نزل على عمرو بن أصمع الباهلي .

قال عمر : قال أبو الحسن : قال مسلمة بن محارب : أجار عمرو بن أصمع خالداً ، وأرسل إلى عبّاد بن الحُصَيْن وهو على شُرطة ابن معمر - وكان مُصعب إذا شخص عن البصرة استخلف عليها عبيد الله بن عبيد الله بن معمر - ورجا عمرو بن أصمع أن يبايعه عبّاد بن الحُصَيْن - بآني قد أجرتُ خالداً فأحببت أن تعلم ذلك لتكون لي ظهراً . فوافاه رسوله حين نزل عن فرسه ، فقال له عبّاد : قل له : والله لا أضع لبدّ فرسي حتى آتيك في الخيل . فقال عمرو لخالد : إني لا أغرك ، هذا عبّاد يأتينا الساعة ، ولا والله ما أقدر على منعك ؛ ولكن عليك بمالك بن مسمّع .

قال أبو زيد : قال أبو الحسن : ويقال إنه نزل على علي بن أصمع ، فبلغ ذلك عبّاداً فأرسل إليه عبّاد : إني سائر إليك .

حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ شَبَّةَ ، قَالَ : حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ ، عَنْ مُسْلِمَةَ وَعَوَانَةَ أَنَّ خَالِدًا خَرَجَ مِنْ عِنْدِ ابْنِ أَصْمَعَ يَرْكُضُ ، عَلَيْهِ قَمِيصٌ قُوْهِمِي رَقِيقٌ ، قَدْ حَسَرَهُ عَنْ فَخْذَيْهِ ، وَأَخْرَجَ رَجُلِيهِ مِنَ الرِّكَايَيْنِ ؛ حَتَّى أَقَى مَالِكًا ، فَقَالَ : إِنِّي قَدْ اضْطَرَرْتُ إِلَيْكَ ، فَأَجْزِنِي ، قَالَ : نَعَمْ ، وَخَرَجَ هُوَ وَابْنُهُ ، وَأَرْسَلَ إِلَى بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ وَالْأَزْدِ ؛ فَكَانَتْ أَوَّلَ رَايَةٍ أَتَتْهُ رَايَةُ بَنِي يَشْكُرَ . وَأَقْبَلَ عَبْدُ اللَّهِ فِي الْخَيْلِ ، فَتَوَاقَفُوا ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ غَدُوا إِلَى حُفْرَةِ نَافِعِ بْنِ الْحَارِثِ الَّتِي نُسِبَتْ بَعْدَ إِلَى خَالِدٍ ، وَمَعَ خَالِدٍ رَجَالٌ مِنْ بَنِي تَيْمٍ قَدْ أَتَوْهُ ؛ مِنْهُمْ صَعْبَعَةُ بْنُ مَعَاوِيَةَ ، وَعَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ بَشَرَ ، وَمَرْثَةُ بْنُ مِحْكَانَ ، فِي عِدَدٍ مِنْهُمْ ؛ وَكَانَ أَصْحَابُ خَالِدٍ جُفْرِيَّةَ يَنْسُبُونَ إِلَى الْجُفْرَةِ ، وَأَصْحَابُ ابْنِ مَعْمَرٍ زُبَيْرِيَّةَ ؛ فَكَانَ مِنَ الْجُفْرِيَّةِ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرَةَ وَخُثْرَانُ وَالْمَغِيرَةُ بْنُ الْمُهَلَّبِ ، وَمِنْ الزُّبَيْرِيَّةِ قَيْسُ بْنُ الْهَيْثَمِ السُّلَمِيُّ ؛ وَكَانَ يَسْتَأْجِرُ الرِّجَالَ يَقَاتِلُونَ مَعَهُ ، فَتَقَاضَاهُ رَجُلٌ أَجْرَةً فَقَالَ : غَدًا أُعْطِيكَهَا ، فَقَالَ غَطَفَانُ بْنُ أَنْيْفٍ ، أَحَدُ بَنِي كَعْبٍ : بَنِي عَمْرٍو :

لِبِسْ مَا حَكَمْتَ يَا جَلَّاجُ النَّقْدُ دَيْنٌ وَالطَّعَانُ عَاجِلُ
وَأَنْتَ بِالْبَابِ سَمِيرٌ آجِلُ

وَكَانَ قَيْسٌ يَعْلُقُ فِي عُنُقِ فَرَسِهِ جَلَّاجُ ، وَكَانَ عَلَى خَيْلِ بَنِي حَنْظَلَةَ عَمْرٍو بْنِ وَبَرَةَ الْقَحِيفِيِّ ؛ وَكَانَ لَهُ عِبِيدٌ يُؤَاجِرُهُمْ بِثَلَاثِينَ ثَلَاثِينَ كُلِّ يَوْمٍ ، فَيُعْطِيهِمْ عَشْرَةَ عَشْرَةَ ، فَقِيلَ لَهُ :

لِبِسْ مَا حَكَمْتَ يَا بَنَ وَبَرَةَ تُعْطَى ثَلَاثِينَ وَتُعْطِي عَشْرَةَ

وَوَجَّهَ الْمَصْعَبُ زُحْرَ بْنَ قَيْسِ الْجُعْفِيِّ مَدَدًا لِابْنِ مَعْمَرٍ فِي أَلْفٍ ، وَوَجَّهَ عَبْدُ الْمَلِكِ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادِ بْنِ ظَبْيَانَ مَدَدًا لَخَالِدٍ ، فَكَرِهَ أَنْ يَدْخُلَ الْبَصْرَةَ ، وَأَرْسَلَ مَطَرُ بْنُ التَّوَمِ فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَأَخْبَرَهُ بِتَفَرُّقِ النَّاسِ ، فَلَحِقَ بِعَبْدِ الْمَلِكِ .

قَالَ أَبُو زَيْدٍ : قَالَ أَبُو الْحَسَنِ : فَحَدَّثَنِي شَيْخٌ مِنْ بَنِي عَرِينٍ ، عَنْ السَّكَنِ بْنِ قَتَادَةَ ، قَالَ : اقْتَتَلُوا أَرْبَعَةَ عَشْرِينَ يَوْمًا ، وَأَصَابَتْ عَيْنَ مَالِكٍ ، فَضَجَرَ مِنَ الْحَرْبِ ، وَمَشَتْ السَّفَرَاءُ ، بَيْنَهُمْ يَوْسُفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ ، فَصَالَحَهُ ، عَلَى أَنْ يُخْرِجَ خَالِدًا وَهُوَ آمِنٌ ، فَأَخْرَجَ خَالِدًا مِنَ الْبَصْرَةِ ، وَخَافَ الْأَیْجِيزُ الْمُصْعَبُ أَمَانَ عُبَيْدِ اللَّهِ ، فَلَحِقَ مَالِكَ بْنَ ثَاجٍ ، فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ يَذْكُرُ مَالِكًا وَلِحَقِّ التَّمِيمِيَّةِ بِهِ وَبِخَالِدٍ :

عَجِبْتُ لِأَقْوَامٍ تَمِيمٌ أَبُوهُمْ وَهُمْ فِي بَنِي سَعْدٍ عِظَامُ الْمَبَارِكِ
وَكَانُوا أَعَزَّ النَّاسِ قَبْلَ مَسِيرِهِمْ إِلَى الْأَزْدِ مُضْفَرًا لِحَاهَا وَمَالِكِ
فَمَا ظَنُّكُمْ بِابْنِ الْحَوَارِيِّ مُضْعَبٍ إِذَا افْتَرَّ عَنْ أَنْيَابِهِ غَيْرَ ضَاحِكِ
وَنَحْنُ نَفَيْنَا مَالِكًا عَنْ بِلَادِهِ وَنَحْنُ فَقَانَا عَيْنَهُ بِالنِّيَازِكِ

قَالَ أَبُو زَيْدٍ : قَالَ أَبُو الْحَسَنِ : حَدَّثَنِي مُسْلِمَةُ أَنَّ الْمُصْعَبَ لَمَّا انْصَرَفَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى دِمَشْقٍ لَمْ يَكُنْ لَهُ هَمَّةٌ إِلَّا الْبَصْرَةَ ، وَطَمَعُ أَنْ يُدْرِكَ بِهَا خَالِدًا ، فَوَجَدَهُ قَدْ خَرَجَ ، وَأَمَّنَ ابْنُ مَعْمَرٍ النَّاسَ ، فَأَقَامَ أَكْثَرَهُمْ ، وَخَافَ بَعْضُهُمْ مُضْعَبًا فَشَخَصَ ، فَغَضِبَ مُصْعَبٌ عَلَى ابْنِ مَعْمَرٍ ، وَحَلَفَ الْأَيُولِيُّ ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْجُفْرِيَّةِ فَسَبُّهُمْ وَأَنْبَهُمْ .

قَالَ أَبُو زَيْدٍ : فَزَعَمَ الْمَدَائِنِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ رُوَاةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ أَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ فَأَتَوْا بِهِمْ ، فَأَقْبَلَ عَلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ ، فَقَالَ : يَا بَنَ مَسْرُوحٍ ، إِنَّمَا أَنْتَ ابْنُ كَلْبَةٍ تَعَاوَرَهَا الْكِلَابُ ، فَجَاءَتْ بِأَحْمَرَ وَأَسْوَدَ وَأَصْفَرَ مِنْ

كلّ كلب بما يشبهه ، وإنما كان أبوك عبداً نزل إلى رسول الله ﷺ من حصن الطائف ، ثم أقمت البيعة تدعون أن أبا سُفْيَانَ زنى بأمّكم ، أما والله لئن بقيت لأحقنكم بنسبكم . ثم دعا بحُمران فقال : يا ابن اليهودية ، إنما أنت علج بُطَيّ سُبَيْت من عَيْن التمر . ثم قال للحكم بن المنذر بن الجارود : يا ابن الخبيث ، أتدري من أنت ومن الجارودا إنما كان الجارود علجاً بجزيرة ابن كاوان فارسيّاً ، فقطع إلى ساحل البحر ، فانتفى إلى عبد القيس ، ولا والله ما أعرف حياً أكثر اشتمالاً على سوءة منهم . ثم أنكح أخته المكعب الفارسي فلم يصب شرفاً قطّ أعظم منه ، فهو لاء ولدها يابن قُباذ . ثم أتى بعبد الله بن فضالة الزهراني فقال : ألسنت من أهل هَجَر ، ثم من أهل سماهيج ! أما والله لأرُدّنك إلى نسبك . ثم أتى بعلي بن أصمغ ، فقال : أعبد لبني تميم مرةً وعزّي من باهلة ! ثم أتى بعبد العزيز بن بشر بن حنّاط فقال : يا بن المشتور ، ألم يسرق عمك عنزاً في لعهد عمر ، فأمر به فسير ليقطعه ! أما والله ما أعنت إلا من ينكح أختك - وكانت أخته تحت مقاتل بن مسمع - ثم أتى بأبي حاضِر الأسدي فقال : يا ابن الإصطخرية ، ما أنت والأشراف ! وإنما أنت من أهل قطر دعيّ في بني أسد ، ليس لك فيهم قريب ولا نسب . ثم أتى بزياد بن عمرو فقال : يا ابن الكرمانيّ ، إنما أنت علج من أهل كرمان قطعت إلى فارس فصرت ملاحاً ، مالك وللحرب ! لأنك بجرّ القلس أخطق . ثم أتى بعبد الله بن عثمان بن أبي العاص فقال : أعليّ تُكثّر وأنت علج من أهل هَجَر ، لحق أبوك بالطائف وهم يضمّون من تأشب إليهم يتعرّزون به ! أما والله لأرُدّنك إلى أصلك . ثم أتى بشيخ بن النعمان فقال : يا ابن الخبيث ، إنما أنت علج من أهل زَنْدَوْرَد ، هربت أمك وقتل أبوك ، فتزوّج أخته رجل من بني يشكر ، فجاءت بغلامين ، فالحقناك بنسبهما ، ثم ضربهم مائة مائة ، وحلق رؤوسهم ولحاهم وهدم دُورهم ، وصهرهم في الشمس ثلاثاً ، وحلهم على طلاق نسائهم ، وجرّ أولادهم في البُعوث ، وطاف بهم في أقطار البصرة ، وأحلفهم ألا ينكحوا الحرائر . وبعث مُصعب خدّاش بن يزيد الأسديّ في طلب من هرب من أصحاب خالد ، فأدرك مرةً بن مُحْكَن فآخذه ، فقال مرةً :

بنّي أسدٍ إن تقتلوني تُحاربوا	تيمماً إذا الحرب العوان اشمعلت
بنّي أسد هل فيكم من هَوَادَة	فتعفون إن كهانت بي النعل زلت
فلا تحسب الأعداء إذ غبت عنهم	وأوريت معنأ أن حربي كلت
تمشى خدّاش في الأسكة آمناً	وقد نهلت مني الرماح وعلت

فقرّبه خدّاش فقتله - وكان خدّاش على شُرطة مُصعب يومئذ - وأمر مصعب سنان بن ذهل أحد بني عمرو بن مرثد بدار مالك بن مسمع فهدمها ، وأخذ مُصعب ما كان في دار مالك ، فكان فيها أخذ جارية ولدت له عمر بن مُصعب . قال : وأقام مُصعب بالبصرة حتى شخص إلى الكوفة ، ثم لم يزل بالكوفة حتى خرج لحرب عبد الملك ، ونزل عبد الملك مسكن ، وكتب عبد الملك إلى المروانيّة من أهل العراق ، فأجابته كلّهم وشرط عليه ولاية أصبهان ، فأنعم بها لهم كلّهم ، منهم حَجّار بن أبجر ، والغضبان بن القُبَعشري ، وعُتّاب بن ورقاء ، وقطن بن عبد الله الحارثيّ ، ومحمّد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس ، وزُحر بن قيس ، ومحمّد بن عُمر ، وعلى مقدّمته محمد بن مروان ، وعلى ميمينته عبد الله بن يزيد بن معاوية ، وعلى ميسرته خالد بن يزيد ، وسار إليه مصعب وقد خذله أهل الكوفة .

قال عروة بن المغيرة بن شُعْبة : فخرج يسير متكتأ على معرفة دابته ، ثم تصفّح الناس يميناً وشمالاً فوقعت عينه عليّ ، فقال : يا عُرْوَة ، إليّ ، فدنوت منه ، فقال : أخبرني عن الحسين بن علي ، كيف صنّع

بإبائه النزول على حُكم ابن زياد وعزمه على الحرب ؟ فقال :

إِنَّ الْأَلَى بِالطُّفِّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ تَأَسَّوْا فَسَنُوا لِلْكَرَامِ التَّأَسِّيَا

قال : فعلمتُ أنه لا يَريُّمُ حتى يُقتل ، وكان عبدالملك - فيما ذَكَرَ محمد بن عمر عن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي قرة ، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي قرة ، عن رجاء بن حيوة - قال : لما قتل عمرو بن سعيد وضع السيف فقتل من خالفه ، فلما أجمع بالمسير إلى مُصعب وقد صفت له الشام وأهلها خَطَبَ النَّاسَ وأمرهم بالتهيؤ إلى مصعب ، فاختلف عليه رؤساء أهل الشام من غير خلاف لما يريد ، ولكنهم أَحَبُّوا أن يقيمَ ويقدم الجيوش ، فإن ظفروا فذاك ، وإن لم يظفروا أمدهم بالجيوش خشيةً على الناس إن أصيب في لقائه مصعباً لم يكن وراءه ملك ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، لو أقمَتْ مكانك وبعثت على هؤلاء الجيوش رجلاً من أهل بيتك ، ثم سَرَحْتَهُ إلى مصعب ! فقال عبدالملك : إنَّه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشي له رأي ، ولعلي أبعث من له شجاعة ولا رأي له ، وإني أجد في نفسي أبي بصير بالحرب ، شجاع بالسيف إن ألجئت إلى ذلك ، ومصعب في بيت شجاعة ، أبوه أشجع قریش ، وهو شجاع ولا علم له بالحرب ، يُحِبُّ الخفض ، ومعه من يُخالفه ، ومعني من ينصح لي . فسار عبدالملك حتى نزل مَسْكِنَ ، وسار مصعب إلى باجَمِيرَا ، وكتب عبدالملك إلى شيعته من أهل العراق ، فأقبل إبراهيم بنُ الأَشتر بكتاب عبدالملك مختوماً لم يقرأه ، فدفعه إلى مصعب ، فقال : ما فيه ؟ فقال : ما قرأته ، فقرأه مصعب فإذا هو يدعوه إلى نفسه ، ويجعل له ولاية العراق ، فقال لمصعب : إنَّه والله ما كان من أحد آيس منه مني ، ولقد كتب إلى أصحابك كلهم بمثل الذي كتب إلي ، فاطعني فيهم فاضرب أعناقهم . قال : إذا لا تُناصحنَا عشائِرُهم . قال : فأوقرهم حديداً وابعث بهم إلى أبيض كسرى فاحبسهم هنالك ، ووكل بهم من إن غُلِبَتْ ضرب أعنقهم ، وإن غَلِبَتْ مَنَنْتَ بهم على عشائِرهم . فقال : يا أبا النعمان ، إني لفي شغل عن ذلك ، يرحم الله أبا بحر ، إن كان ليحذرنِي غدرَ أهل العراق ، كأنه كان ينظر إلى ما نحن فيه !

حدَّثني عمر ، قال : حدَّثنا محمد بن سَلَام ، عن عبد القاهر بن السري ، قال : هم أهل العراق بالغدر بمُصعب ، فقال قيس بنُ الهيثم : ويحكم ! لا تدخلوا أهل الشام عليكم ، فوالله لئن تطعموا بعيشكم ليُصْفينَ عليكم منازلكم ، والله لقد رأيتُ سيِّدَ أهل الشام على باب الخليفة يفرح إن أرسله في حاجة ، ولقد رأيتنا في الصوائف وأحدنا على ألف بعير ، وإنَّ الرجل من وجوههم ليغزو على فرسه وزاده خلفه .

قال : ولما تَدَانَى العسكران بدَّير الجاثليق من مَسْكِنَ ، تقدَّم إبراهيم بنُ الأَشتر فحمل على محمد بن مروان فأزاله عن موضعه ، فوجه عبدالملك بن مروان عبد الله بن يزيد بن معاوية ، فقرب من محمد بن مروان . والتقى القوم فقتلَ مُسلم بن عمرو الباهلي ، وقتلَ يَحْيَى بن مبشر ، أحد بني ثعلبة بن يربوع ، وقتل إبراهيم بن الأَشتر ، فهرب عتَّاب بن وَرْقَاء - وكان على الخيل مع مصعب - فقال مصعب لقطن بن عبد الله الحارثي : أبا عثمان ، قدَّم خيلك ، قال : ما أرى ذلك ، قال : ولم ؟ قال : أكره أن تُقتلَ مذحج في غير شيء ، فقال لحجار بن أبجر : أبا أسيد ، قدَّم رايتك ؛ قال : إلى هذه العُدرة ! قال : ما تتأخر إليه والله أنتن وألام ؛ فقال لمحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس مثل ذلك ، فقال : ما أرى أحداً فعَلَ ذلك فأفعله ، فقال مصعب : يا إبراهيم ولا إبراهيم لي اليوم !

حدّثني أبو زيد ، قال : حدّثني محمد بن سلام ، قال : أخبر ابن خازم بمسير مُصعب إلى عبد الملك ، فقال : أمّعه عمر بن عُبيد الله بن معمر؟ قيل : لا ، استعمله على فارس ، قال : أمّعه المهلب بن أبي صفرة؟ قيل : لا ، استعمله على الموصل ، قال : أمّعه عبّاد بن الحُصين؟ قيل : لا ، استخلفه على البصرة ، فقال : وأنا بخُراسان :

خُذِينِي فُجْرَيْنِي جَعَارٍ وَأَبْشِرِي بَلْحَمِ أَمْرِي لَمْ يَشْهَدِ الْيَوْمَ نَاصِرُهُ

فقال مصعب لابنه عيسى بن مُصعب : يا بُني ، اركب أنت ومن معك إلى عمّك بمكة فأخبره ما صنع أهل العراق ، ودعني فإنّي مَقْتُول . فقال ابنه : واللّه لا أخبر قريشاً عنك أبداً ، ولكن إن أردت ذلك فالحقّ بالبصرة فهم على الجماعة ، أو الحقّ بأمر المؤمنين . قال مصعب : والله لا تتحدّث قريش أي فررت بما صنعت ربيعة من خذلانها حتى أدخل الحرم مُنْهِزاً ، ولكن أقاتل ، فإن قُتلت فلعمري ما السيف بعار ، وما الفرار لي بعادة ولا خُلُق ، ولكن إن أردت أن ترجع فارجع فقاتل . فرجع فقاتل حتى قتل .

قال علي بن محمد عن يحيى بن إسماعيل بن أبي المهاجر ، عن أبيه إن عبد الملك أرسل إلى مصعب مع أخيه محمد بن مروان : إنّ ابن عمّك يعطيك الأمان ، فقال مصعب : إنّ مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلّا غالباً أو مغلوباً .

وقال الهيثم بن عديّ : حدّثنا عبد الله بن عيّاش ، عن أبيه ، قال : إنّنا لَوُقُوفٌ مع عبد الملك بن مروان وهو يُحارب مصعباً إذ دنا زياد بن عمرو ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ إسماعيل بن طلحة كان لي جارَ صدق ، قلّما أرادني مُصعب بسوء إلّا دَفَعُهُ عني ، فإن رأيت أن تؤمّنه على جرمه ! قال : هو آمن ، فمضى زياد - وكان ضَخْماً على ضَخْم - حتّى صار بين الصّفين ، فصاح : أين أبو البخترى إسماعيل بن طلحة ؟ فخرج إليه ، فقال : إني أريد أن أذكر لك شيئاً ، فدنا حتّى اختلفت أعناق دوابّهما - وكان الناس ينتطقون بالحواشي المحشوة - فوضّع زياد يده في منطقة إسماعيل ، ثم اقتلعه عن سرجه - وكان نحيفاً - فقال : أنشدك الله يا أبا المغيرة ، إنّ هذا ليس بالوفاء لمصعب ، فقال : هذا أحب إليّ من أن أراك غداً مقتولاً .

ولمّا أبى مصعب قبول الأمان نادى محمد بن مروان عيسى بن مصعب وقال له : يا ابن أخي ، لا تقتل نفسك ، لك الأمان ، فقال له مُصعب : قد آمنك عمّك فامض إليه ، قال : لا تتحدّث نساء قريش أي أسلمتك للقتل ؛ قال : فتقدّم بين يديّ أحْتَسِبُكَ ، فقاتل بين يديه حتى قتل ، وأُتِخِنَ مصعب بالرّمي ، ونظر إليه زائدة بن قدامة فشدّ عليه فطعنه ، وقال : يا لثارات المختار ! فصرعه ، ونزل إليه عُبيد الله بن زياد بن ظُبَيان ، فاحتزّ رأسه ، وقال : إنّهُ قَتَلَ أخِي النّابِءَ بن زياد ، فأتي به عبد الملك بن مروان فأثابه ألف دينار ، فأبى أن يأخذها ، وقال : إني لم أقتله على طاعتك ، إنّما قتلته على وَتَرِ صَلَعه بي ، ولا آخذُ في حَمَلِ رَأْسِ مَالاً . فتركه عند عبد الملك .

وكان الوُتْر الذي ذكّره عُبيد الله بن زياد بن ظُبَيان أنه قتل عليه مصعباً أنّ مصعباً كان ولي في بعض ولايته شرطه مطرف بن سيدان الباهلي ثم أحد بني جأوة فحدّثني عمر بن شُبّة ، قال : حدّثني أبو الحسن المدائني ومُحَمَّد بن يحيى بن حاضر ، أنّ مطرفاً أتى بالنابِء بن زياد بن ظُبَيان ورجل من بني مُخَيْر قد قطعاً الطريق ، فقتل النابِء ، وضرب النميريّ بالسباط فتركه ، فجمع له عُبيد الله بن زياد بن ظُبَيان جُمعاً بعد أن عزله مُصعب عن

البصرة وولاه الأهواز ، فخرج يريد ، فالتقى فتوافقا وبينهما نهر ، فعبر مطرف إليه النهر ، وعاجله ابن ظبيان فطعنه فقتله ، فبعث مصعب مكرم بن مطرف في طلب ابن ظبيان ، فسار حتى بلغ عسكر مكرم ، فأنسب إليه ، ولم يلق ابن ظبيان . ولحق ابن ظبيان بعد الملك لما قتل أخوه ، فقال البعيت الإشكري بعد قتل مصعب يذكر ذلك :

ولما رأينا الأمر نكساً صدوره
صبرنا لأمر الله حتى يقيمه
ونحن قتلنا مصعباً وابن مصعب
ومرت عقاب الموت منا بمسلم
سقين ابن سيدان بكأس روية
وهم الهواذي أن تكن تواليا
ولم نرض إلا من أمية واليا
أخا أسيد والنخعي اليماني
فأهوت له ناباً فأصبح ثاوي
كفتنا ، وخير الأمر ما كان كافيا

حدثني أبو زيد ، قال : حدثني علي بن محمد ، قال : مر ابن ظبيان بابنة مطرف بالبصرة ، فقيل لها : هذا قاتل أبيك ، فقالت : في سبيل الله أبي ، فقال ابن ظبيان :

فلا في سبيل الله لاقى حمامه
أبوك ولكن في سبيل الدراهم
فلما قتل مصعب دعا عبد الملك بن مروان أهل العراق إلى البيعة ، فبايعوه ، وكان مصعب قتل على نهر يقال له الدجيل عند ذي الرجز فلقا قتل أمر به عبد الملك وبابنه عيسى فدُفنا .

ذكر الواقدي عن عثمان بن محمد ، عن أبي بكر بن عمر ، عن عروة قال : قال عبد الملك حين قتل مصعب : وأروه فقد والله كانت الحرمة بيننا وبينه قديمة ، ولكن هذا الملك عقيم .

قال أبو زيد : وحدثني أبو نعيم ، قال : حدثني عبد الله بن الزبير أبو أبي أحمد ، عن عبد الله بن شريك العامري ، قال : إني لواقف إلى جنب مصعب بن الزبير فأخرجت له كتاباً من قبائي ، فقلت له : هذا كتاب عبد الملك ، فقال : ما شئت ، قال : ثم جاء رجل من أهل الشام فدخل عسكره ، فأخرج جارية فصاحت : وأذلاه ! فنظر إليها مصعب ، ثم أعرض عنها .

قال : وأتي عبد الملك برأس مصعب ، فنظر إليه فقال : متى تغذو قريش مثلك ! وكنا يتحدثان إلى حبي ، وهما بالمدينة ، فقيل لها : قتل مصعب ، فقالت : تعس قاتله ! قيل : قتله عبد الملك بن مروان ، قالت : بأبي القاتل والمقتول !

قال : وحج عبد الملك بعد ذلك ، فدخلت عليه حبي ، فقالت : أقتلت أخاك مصعباً ؟ فقال :

من يذق الحزب يجد طعمها
مراً وتتركه بجعاجع
وقال ابن قيس الرقيات :

لقد أورت المصريين حزياً وذلة
فما نصحت لله بكر بن وائل
ولو كان بكرياً تعطف حوله
ولكنه ضاع الدمام ولم يكن
قتيل بذير الجائلي مقيم
ولا صبرت عند اللقاء تميم
كتائب يغلي حميها ويدوم
بها مضري يوم ذاك كريم

جَزَى الله كُوفِيًّا هُنَاكَ مَلَامَةً وَبَضْرِيَّهُمْ إِنَّ الْمُلِيمَ مُلِيمٌ
وَأَنَّ بَنِي الْعَلَاتِ أَخْلَوْا ظُهُورَنَا وَنَحْنُ صَرِيحٌ بَيْنَهُمْ وَصَمِيمٌ
فَإِنْ نَفْسٌ لَا تَبْقُوا وَلَا يَكُ بَعْدُنَا لِذِي حُرْمَةٍ فِي الْمُسْلِمِينَ حَرِيمٌ

قال أبو جعفر : وقد قيل : إِنَّ ما ذَكَرْتُ مِنْ مَقْتَلِ مُصْعَبٍ وَالْحَرْبِ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ كَانَتْ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ ، وَأَنَّ أَمْرَ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَالِدِ بْنِ أَسِيدٍ وَمُصِيرِهِ إِلَى الْبَصْرَةِ مِنْ قَبْلِ عَبْدِ الْمَلِكِ كَانَ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَسَبْعِينَ ، وَقُتِلَ مُصْعَبٌ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ .

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ دَخَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ الْكُوفَةَ وَفَرَّقَ أَعْمَالَ الْعِرَاقِ وَالْمَصْرَيْنِ الْكُوفَةَ وَالْبَصْرَةَ عَلَى عَمَلِهِ فِي قَوْلِ الْوَاقِدِيِّ ؛ وَأَمَّا أَبُو الْحَسَنِ فَإِنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ ذَلِكَ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ .

وَحَدَّثَنِي عَمْرٌ ، قَالَ : حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ ، قَالَ : قُتِلَ مُصْعَبٌ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ لثَلَاثَ عَشْرَةِ خَلَتْ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى أَوِ الْآخِرَةِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ .

وَلَمَّا أَتَى عَبْدُ الْمَلِكِ الْكُوفَةَ - فِيمَا ذَكَرَ - نَزَلَ النُّخَيْلَةَ ، ثُمَّ دَعَا النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ ، فَجَاءَتْ قُضَاعَةُ ، فَرَأَى قِلَّةً ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ قُضَاعَةَ ، كَيْفَ سَلِمْتُمْ مِنْ مُضَرٍّ مَعَ قِلَّتِكُمْ ! فَقَالَ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُعْلَى النَّهْدِيُّ : نَحْنُ أَعَزُّ مِنْهُمْ وَأَمْنَعُ ؛ قَالَ : يَمُنُّ ؟ قَالَ : بَيْنَ مَعَكَ مِنَّا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . ثُمَّ جَاءَتْ مَذْحِجٌ وَهَمْدَانٌ فَقَالَ : مَا أَرَى لِأَحَدٍ مَعَ هَؤُلَاءِ بِالْكُوفَةِ شَيْئًا . ثُمَّ جَاءَتْ جُعْفِيٌّ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ الْمَلِكِ قَالَ : يَا مَعْشَرَ جُعْفِيٍّ ، اشْتَمَلْتُمْ عَلَى ابْنِ أَخَتِكُمْ ، وَوَارِثَتُمُوهُ ؟ يَعْنِي يَحْيَى بْنَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ - قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : فَهَاتُوهُ ؛ قَالُوا : وَهُوَ آمَنٌ ؟ قَالَ : وَتَشْتَرِطُونَ أَيْضًا ! فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : إِنَّا وَاللَّهِ مَا نَشْتَرِطُ جَهْلًا بِحَقِّكَ ، وَلَكِنَّا نَتَسَحَّبُ عَلَيْهِ تَسَحُّبَ الْوَلَدِ عَلَى وَالِدِهِ ، فَقَالَ : أَمَّا وَاللَّهِ لَنَبْعَثَ الْحَيَّ أَنْتُمْ ؛ إِنْ كُنْتُمْ لِفُرْسَانَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ ، وَهُوَ آمِنٌ ، فَجَاؤُوا بِهِ وَكَانَ يُكْنَى أَبَا أَيُّوبَ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ قَالَ أَيُّ قَبِيحٍ ، بِأَيِّ وَجْهِ تَنْظُرُ إِلَى رَبِّكَ وَقَدْ خَلَعْتَنِي ! قَالَ : بِالْوَجْهِ الَّذِي خَلَقَهُ ، فَبَايَعَ ثُمَّ وَلَّى فَنَظَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ فِي قَفَاهُ فَقَالَ : اللَّهُ ذَرَهُ ! أَيُّ ابْنِ زَوْمَلَةٍ هُوَ ! يَعْنِي غَرِيبَةٌ .

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ : حَدَّثَنِي الْقَاسِمُ بْنُ مَعْنٍ وَغَيْرُهُ أَنَّ مَعْبُدَ بْنَ خَالِدِ الْجَدَلِيِّ قَالَ : ثُمَّ تَقَدَّمْنَا إِلَيْهِ مَعْشَرَ عَدُوَانٍ ، قَالَ : فَقَدَّمْنَا رَجُلًا وَسِيمًا جَمِيلًا ، وَتَأَخَّرْتُ - وَكَانَ مَعْبُدٌ دَمِيمًا - فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : مَنْ ؟ فَقَالَ الْكَاتِبُ : عَدُوَانٌ ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ :

عَذِيرَ الْحَيِّ مِنْ عَدُوٍّ نَ كَانُوا حَيَّةَ الْأَرْضِ
بَغَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَلَمْ يَرْعَوْا عَلَى بَعْضٍ
وَمِنْهُمْ كَانَتِ السَّادَا تُ وَالْمُؤَفُّونَ بِالْقَرْصِ

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْجَمِيلِ فَقَالَ : إِلَيْهِ ! فَقَالَ : لَا أَدْرِي ، فَقُلْتُ مِنْ خَلْفِهِ :

وَمِنْهُمْ حَكَمٌ يَقْضِي فَلَا يُنْقَضُ مَا يَقْضِي
وَمِنْهُمْ مَنْ يَجِيزُ الْحَ جُّ بِالسُّنَةِ وَالْقَرْصِ
وَهُمْ مُدُّ وَلِدُوا شَبَّوْا بِسِرِّ النَّسَبِ الْمَحْضِ

قَالَ : فَتَرَكْنِي عَبْدُ الْمَلِكِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْجَمِيلِ فَقَالَ : مَنْ هُوَ ؟ قَالَ : لَا أَدْرِي ؛ فَقُلْتُ مِنْ خَلْفِهِ : ذُو

الإصبع ؛ قال : فأقبل على الجميل فقال : ولم سمي ذو الإصبع ؟ فقال : لا أدري ؛ فقلت من خلفه : لأن حية عضت إصبعه فقطعتها ، فأقبل على الجميل فقال : ما كان اسمه ؟ فقال : لا أدري ؛ فقلت من خلفه : حُرثان بن الحارث ؛ فأقبل على الجميل ، فقال : من أيكم كان ؟ قال : لا أدري ، فقلت من خلفه : من بني ناج ، فقال :

أبعد بني ناج وسعيك بينهم فلا تتبعن عينيك ما كان هالكاً
إذا قلت معروفاً لأصلح بينهم يقول وهيب : لا أصلح ذلكا
فأصحي كظهر العير جب سنامه تطيف به الولدان أحذب باركا

ثم أقبل على الجميل ، فقال : كم عطاؤك ؟ قال : سبعمائة ، فقال لي : في كم أنت ؟ قلت : في ثلاثمائة ؛ فأقبل على الكاتبين ، فقال : خطأ من عطاء هذا أربعمائة . وزيداه في عطاء هذا ، فرجعت وأنا في سبعمائة ، وهو في ثلاثمائة ثم جاءت كندة فنظر إلى عبدالله بن إسحاق بن الأشعث ، فأوصى به بشراً أخاه ، وقال : اجعله في صحابتيك . وأقبل داود بن قحذم في مائتين من بكر بن وائل ، عليهم الأقبية الداودية ، وبه سُميت ، فجلس مع عبد الملك على سريريه ، فأقبل عليه عبد الملك ، ثم نهض ونهضوا معه ، فأتبعهم عبد الملك بصره ، فقال : هؤلاء الفساق ، والله لولا أن صاحبهم نجاني ما أعطاني أحد منهم طاعة .

ثم إنه ولي - فيما قيل - قطن بن عبدالله الحارثي الكوفة أربعين يوماً ثم عزله ، وولي بشر بن مروان وصعد منبر الكوفة فخطب فقال :

إن عبدالله بن الزبير لو كان خليفة كما يزعم لخرج قاسي بنفسه ، ولم يغرر ذنبه في الحرم . ثم قال : إني قد استعملت عليكم بشر بن مروان ، وأمرته بالإحسان إلى أهل الطاعة ، والشدة على أهل العصية ، فاسمعوا له وأطيعوا .

واستعمل محمد بن عُمير على همدان ، ويزيد بن زُويم على الرِّي ، وفَرَق العُمال ، ولم يف لأحد شرط عليه ولاية أصبهان ؛ ثم قال : علي هؤلاء الفساق الذين أنغلوا الشام ، وأفسدوا العراق ، فقليل : قد أجارهم رؤساء عشائريهم ، فقال : وهل يجير علي أحد ! وكان عبدالله بن يزيد بن أسد لجأ إلى علي بن عبدالله بن عباس ، ولجأ إليه أيضاً يحيى بن معيوف الهمداني ، ولجأ الهذيل بن زُفر بن الحارث وعمر بن زيد الحكمي إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، فآمنهم عبد الملك ، فظهروا .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة تنازع الرئاسة بالبصرة عبيد الله بن أبي بكره وحران بن أبان ، فحدثني عمر بن شبة قال : حدثني علي بن محمد قال : لما قُتل المصعب وثب حران بن أبان وعبيد الله بن أبي بكره فتنازعا في ولاية البصرة ، فقال ابن أبي بكره : أنا أعظم غناء منك ، أنا كنت أنفق على أصحاب خالد يوم الجفرة . فقليل لحران : إنك لا تقوى على ابن أبي بكره ، فاستعين بعبد الله بن الأهم ، فإنه إن أعانك لم يقو عليك ابن أبي بكره ، ففعل ، وغلب حران على البصرة وابن الأهم على شرطها .

وكان لحران منزلة عند بني أمية ؛ حدثني أبو يزيد قال : حدثني أبو عاصم النبيل قال : أخبرني رجل قال : قديم شيخ أعرابي فرأى حران فقال : من هذا ؟ فقالوا : حران ؛ فقال : لقد رأيت هذا وقد مال رداؤه عن عاتقه فابتدره مروان وسعيد بن العاص أيهما يسويه . قال أبو يزيد : قال أبو عاصم : فحدثت بذلك رجلاً

من ولد عبدالله بن عامر، فقال: حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّ حُمْرَانَ مَدَّ رَجُلَهُ فَابْتَدَرَ معاوية وعبدالله بن عامر أَيُّهَا يَغْمِزُهَا . وفي هذه السنة بعث عبد الملك خالد بن عبدالله على البصرة والياً ، حَدَّثَنِي عمر ، قال : حَدَّثَنِي علي بن محمد ، قال : مكث حمران على البصرة يسيراً ، وخرج ابن أبي بكرة حتى قَدِمَ على عبد الملك الكوفة بعد مقتل مُصْعَب ، فولى عبد الملك خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد على البصرة وأعمالها ، فوجه خالدُ عبداً لله بن أبي بكرة خليفته على البصرة ، فلما قَدِمَ على حمران ، قال : أَقَدْ جِئْتَ لاجِئْتُ ! فكان ابنُ أبي بكرة على البصرة حتى قَدِمَ خالد .

وفي هذه السنة رَجَعَ عبد الملك - فيما زَعَمَ الواقدي - إلى الشام .

قال : وفيها نَزَعَ ابنُ الزبير جابر بن الأسود بن عوف عن المدينة ، واستعمل عليها طلحة بن عبدالله بن عوف . قال : وهو آخر والٍ لابن الزبير على المدينة ، حتى قدم عليها طارق بن عمرو مولى عثمان ، فَهَرَبَ طلحة ، وأقام طارق بالمدينة حتى كتب إليه عبد الملك .

وَحَجَّ بالناس في هذه السنة عبدالله بن الزبير في قول الواقدي .

وذكر أبو زيد عن أبي غَسَّانَ مُحَمَّد بن يحيى ، قال : حَدَّثَنِي مصعب بن عثمان ، قال : لما انتهَى إلى عبدالله بن الزبير قتلُ مُصْعَب قام في الناس فقال :

الحمد لله الذي له الخلق والأمر ، يؤتي الملك من يشاء ، وَيَنْزِعُ الملك مَن يشاء ، وَيُعِزُّ من يشاء ، وَيُذِلُّ من يشاء . ألا وإنَّه لم يُذِلَّ الله من كان الحق معه وإن كان فرداً ، ولم يُعِزَّ من كان وليُّه الشيطان وحُزْبُهُ وإن كان معه الأنعام طُراً . ألا وإنَّه قد أتانا من العراق خبرٌ حزننا وأفرَحنا ، أتانا قتلُ مصعب رحمة الله عليه ، فأما الَّذِي أفرَحنا فَعَلَمْنَا أَنَّ قتله له شهادة ، وأما الَّذِي حَزَننا فَإِنَّ لفراق الحميم لوعة يُجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يَرْعَوِي من بعدها ذو الرأي إلى جميل الصبر وكريم العزاء ، ولئن أَصِبت بمصعب لقد أَصِبت بالزبير قبله ، وما أنا من عثمان بِخُلُو مصيبة ، وما مصعب إِلَّا عَبْدٌ من عبيد الله وَعَوْنٌ من أعواني . ألا إِنَّ أهل العراق أهلُ العَدْرِ والنفاق ، أَسَلَمُوهُ وباعُوهُ بأقلِّ الثمن ، فَإِنَّ يُقتلُ فَإِنَّا والله ما نموت على مَضَاجِعنا كما تموت بنو أبي العاص ، والله ما قُتِلَ منهم رجلٌ في رَحْفٍ في الجاهلية ولا الإسلام ، وما نموت إِلَّا قَعْصاً بالرَّماح ، وموتاً تحت ظلال السيوف . ألا إِنَّمَا الدنيا عارية من المَلِكِ الأعلى الَّذِي لا يزول سلطانه ، ولا يَبِيدُ مُلْكُهُ ، فَإِنَّ تَقِيلَ لا آخذها أَخَذَ الأشرُّ البَطَرُ ، وإن تُذِبرَ لا أَبْكُ عليها بكاءَ الحَرِّقِ المَهِينِ ؛ أقول قولِي هذا وأستغفرُ الله لي ولكم .

وذكر أَنَّ عبد الملك لما قتل مصعباً ودخل الكوفة أمرَ بطعام كثير فصْنَع ، وأمر به إلى الخَوَزَنَق ، وأذن إذناً عاماً ، فدخل الناس فأخذوا مجالسهم ، فدخل عمرو بن حُرَيْثُ المخزومي فقال : إليَّ وعلى سريري ، فأجلسه معه ، ثم قال : أي الطعام أَكَلْتَ أَحَبَّ إِلَيْكَ وَأَشهى عندك؟ قال : عَنَاق . حمراء قد أجيد تمليحُها ، وأحْكِم نضجها ، قال : ما صنعتَ شيئاً ، فأين أنت من عُمرُوس راضع قد أجيد سَمَطُهُ ، وأحْكِم نضجُهُ ، اختلجت إليك رَجُلُهُ ، فَاتَّبَعَتْهَا يَدُهُ ، غُذِيَ بِشَرِيحَيْنِ من لبن وسمن . ثم جاءت الموائد فأكلوا ، فقال عبد الملك بنُ مَرْوَانَ : ما أَلَدَّ عِشْنَا لو أَنَّ شيئاً يدوم ! ولكنَّا كما قال الأول :

وكل جديد بما أمسى إلى بلى وكل أمرى بِمُؤْمَأٍ يصيرُ إلى كان

فلما فرغ من الطعام طاف عبدُ الملك في القصر يقول لعمرو بن حُرَيْث : لِمَنْ هذا البيت؟ وَمَنْ بَنَى هذا البيت؟ وعمرو يُخبره ، فقال عبدُ الملك :

وَكُلُّ جَدِيدٍ يَا أُمَيْمَ إِلَى بَلَى وَكُلُّ امْرِئٍ يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى كَانٍ
ثُمَّ أَتَى مَجْلِسَهُ فَاسْتَلْقَى ؛ وَقَالَ :

اعْمَلْ عَلَى مَهَلٍ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ وَاكْذَحْ لِنَفْسِكَ أَيَّهَا الْإِنْسَانُ
فَكَأَنَّ مَا قَدْ كَانَ لَمْ يَكْ إِذْ مَضَى وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ قَدْ كَانَ

وفي هذه السنة أَفْتَتَحَ عبدُ الملك - في قول الواقدي - قَيْسَارِيَّةَ .

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث الجليلة

قال أبو جعفر : فمن ذلك ما كان من أمر الخوارج وأمر المهلب بن أبي صفرة وعبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد .

ذكر هشام بن محمد ، عن أبي مخنف أن حصيرة بن عبد الله وأبا زهير العبسي حدثاه أن الأزارقة والمهلب بعدما اقتتلوا بسولاف ثمانية أشهر أشد القتال ، أتاهاهم أن مصعب بن الزبير قد قُتل ، فبلغ ذلك الخوارج قبل أن يبلغ المهلب وأصحابه ، فناداهم الخوارج : ألا تُخبروننا ما قولكم في مصعب ؟ قالوا : إمام هدى ؛ قالوا : فهو وليكم في الدنيا والآخرة ؟ قالوا : نعم ، قالوا : وأنتم أولياؤه أحياء وأموات ؟ قالوا : نعم ، قالوا : وأنتم أولياؤه أحياء وأموات ؟ قالوا : نعم ، قالوا : فما قولكم في عبد الملك بن مروان ؟ قالوا : ذلك ابن اللعين ، نحن إلى الله منه براء ، هو عندنا أحل دماً منكم ، قالوا : فأنتم منه براء في الدنيا والآخرة ؟ قالوا : نعم كبراءتنا منكم ؛ قالوا : وأنتم له أعداء أحياء وأموات ؟ قالوا : نعم نحن له أعداء كعداوتنا لكم ، قالوا : فإن إمامكم مُصعباً قد قتله عبد الملك بن مروان ، ونراكم ستجعلون غداً عبد الملك إمامكم ، وأنتم الآن تتبرؤون منه ، وتلعنون أباه ؛ قالوا : كذبتم يا أعداء الله . فلما كان من الغد تبين لهم قتل مصعب ، فبايع المهلب الناس لعبد الملك بن مروان فأتتهم الخوارج فقالوا : ما تقولون في مصعب ؟ قالوا : يا أعداء الله ؛ لا نخبركم ما قولنا فيه ، وكرهوا أن يكذبوا أنفسهم عندهم ، قالوا : فقد أخبرتمونا أمس أنه وليكم في الدنيا والآخرة ، وأنكم أولياؤه أحياء وأموات ، فأخبرونا ما قولكم في عبد الملك ؟ قالوا : ذاك إمامنا وخليفتنا - ولم يجدوا إذ بايعوه بُدّاً من أن يقولوا هذا القول - قالت لهم الأزارقة : يا أعداء الله ، أنتم أمس تبرؤون منه في الدنيا والآخرة ، وتزعمون أنكم له أعداء أحياء وأموات ، وهو اليوم إمامكم وخليفتكم ، وقد قتل إمامكم الذي كنتم تولونه ؛ فأيهما المحق ، وأيهما المهتدي ، وأيهما الضال ؟ قالوا لهم : يا أعداء الله ، رضينا بذلك إذ كان ولي أمورنا ، ونرضى بهذا كما رضينا بذلك ، قالوا : لا والله ولكنكم إخوان الشياطين ، وأولياء الظالمين ، وعبيد الدنيا . وبعث عبد الملك بن مروان بشر بن مروان على الكوفة ، وخالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد على البصرة . فلما قدم خالد أثبت المهلب على خراج الأهواز ومعونتها ، وبعث عامر بن مسمع على سابور ، ومقاتل بن مسمع على أردشير خُرّة ، ومسمع بن مالك بن مسمع على فسا ودرابجرد ، والمغيرة بن المهلب على إصطخر .

ثم إنه بعث إلى مقاتل فعثه على جيش ، وألحقه بناحية عبد العزيز فخرج يطلب الأزارقة ، فانحطوا عليه من قبل كرمان حتى أتوا دارابجرد ، فسار نحوهم . وبعث قطري مع صالح بن خرقا تسعمائة فارس ، فأقبل

يسيرُ بهم حتى استقبلَ عبدالعزيز وهو يسير بالناس ليلاً ، يجرون على غير تعبية ، فهزم الناس ، ونَزَلَ مُقَاتِلُ بنِ مِسْمَعٍ فقاتل حتى قُتِلَ ، وانهزم عبدُ العزيز بنُ عبد الله ، وأخذت امرأته ابنة المنذر بن الجارود ، فأقيمت فيمن يزيد ، فبلغت مائة ألف - وكانت جميلة - فغار رجلٌ من قومها كان من رؤوس الخوارج يقال له : أبو الحديد الشُّنِّي ، فقال : تنحوا هكذا ، ما أرى هذه المُشْرِكة إلَّا قد فتنتكم ، فضرب عنقها . ثم زعموا أنه لحق بالبصرة ، فرآه آلُ منذر فقالوا : والله ما ندري أنْ هُجِمَ أم نُدِمَ ! فكان يقول : ما فعلته إلَّا غيرَ وَحْيَةٍ . وجاء عبدُ العزيز حتى انتهى إلى رامَهْرُمُز ، وأتى المهلب فأخبر به ، فبعث إليه شيخاً من أشياخ قومه كان أحدُ فرسانه ، فقال : ائتني فإن كان منهزماً فعزّه وأخبره أنه لم يفعل شيئاً لم يفعله الناسُ قبله ، وأخبره أن الجنود تأتيه عاجلاً ، ثم يعزّه الله وينصره . فأتاه ذلك الرجل ، فوجدوه نازلاً في نحو من ثلاثين رجلاً كثيراً حزناً ، فسلم عليه الأزدي ، وأخبره أنه رسول المهلب ، وبلغه ما أمره به ، وعرض عليه أن يذكر له ما كانت له من حاجة . ثم انصرف إلى المهلب فأخبره الخبر ، فقال له المهلب : الحق الآن بخالد بالبصرة فأخبره الخبر ، فقال : أنا آتية أخبره أن أخاه هُزِمَ ! والله لا آتية ، فقال المهلب : لا والله لا يأتيه غيرك ، أنت الذي عاينته ورأيت ، وأنت كنت رسولي إليه ، قال : هو إذأ بهديك يا مهلب أن ذهبَ إليه العام ، ثم خرج . قال المهلب : أما أنت والله فإنك لي آمن ، أما والله لو أنك مع غيري ، ثم أرسلك على رجلك خرجت تشدد ! قال له وأقبل عليه : كأنك إنما تمنّ علينا بحلمك ! فنحن والله نكافئك بل نزيد ، أما تعلم أنا نُعرض أنفسنا للقتل دُونَكَ ، ونحميك من عدوك ! ولو كنا والله مع من يجهل علينا ، ويبعثنا في حاجاته على أَرْجُلِنَا ، ثم احتاج إلى قتالنا ونُصرتنا جعلناه بيننا وبين عدونا ، ووقينا به أنفسنا . قال له المهلب : صدقت صدقت . ثم دعا فتى من الأزد كان معه فسرحه إلى خالد يُخبره بخبر أخيه ، فأتاه الفتي الأزدي وحوله الناس ، وعليه جبة خضراء ومُطَرَفٌ أخضر ، فسلم عليه ، فردَّ عليه ، فقال : ما جاء بك ؟ قال : أصلحك الله ! أرسلني إليك المهلب لأخبرك خبراً ما عاينته ، قال : وما عاينت ؟ قال : رأيت عبدَ العزيز بَرَامَهْرُمُزَ مهزوماً ، قال : كذبت ، قال : لا ، والله ما كذبت ، وما قلت لك إلَّا الحق ، فإن كنت كاذباً فاضرب عُنقي ، وإن كنت صادقاً فأعطني أصلحك الله جُبتك ومُطَرَفَكَ . قال : وَيْحَكَ ! ما أيسر ما سألت ، ولقد رضيت مع الخطر العظيم إن كنت كاذباً بالخطر الصغير إن كنت صادقاً . فحبسه وأمر بالإحسان إليه حتى تبيّن له هزيمة القوم ، فكتب إلى عبد الملك :

أما بعد ، فإني أخبر أمير المؤمنين أكرمهم الله أني بعثت عبدَ العزيز بن عبد الله في طلب الخوارج ، وأنهم لقوه بفارس ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزم عبدُ العزيز لما انهزم عنه الناس ، وقُتِلَ مقاتل بن مِسْمَعٍ ، وقدم الفل إلى الأهواز . أحببت أن أعلم أمير المؤمنين ذلك ليأتيني رأيُه وأمرُه أنزل عنده إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله .

فكتب إليه :

أما بعد ، فقد قدِمَ رسولك في كتابك ، تُعلمني فيه بعثتك أخاك على قتال الخوارج ، وهزيمة مَنْ هُزِمَ ، وقُتِلَ مَنْ قُتِلَ ، وسألت رسولك عن مكان المهلب ، فحدثني أنه عاملٌ لك على الأهواز ، فبجح الله رأيك حين تبعت أخاك أعرابياً من أهل مكة على القتال ، وتدع المهلب إلى جنبك يجبي الخراج ، وهو الميمون النقيبة ، الحسن السياسة ، البصير بالحرب ، المقاسي لها ، ابنها وابنُ أبنائها ! انظر أن تنهض بالناس حتى تستقبلهم

بالأهواز ومن وراء الأهواز . وقد بعثتُ إلى بشر أن يُمدك بجيش من أهل الكوفة ، فإذا أنت لقيتَ عدوك فلا تعملَ فيهم برأي حتى تُحضره المهلب ، وتستشيرَه فيه إن شاء الله . والسلامُ عليك ورحمةُ الله .
فشقَّ عليه أنه قيلَ رأيَه في بعثة أخيه وتركِ المهلب ، وفي أنه لم يرضَ رأيَه خالصاً حتى قال : أحضره المهلب واستشره فيه .

وكتبَ عبدُ الملك إلى بشر بن مروان :

أما بعد ، فإني قد كتبتُ إلى خالد بن عبد الله أمره بالنهوض إلى الخوارج ، فسرخَ إليه خمسة آلاف رجل ، وبعثَ عليهم رجلاً من قبلك ترضاه ، فإذا قَضُوا غزاتهم تلك صرفتهم إلى الرِّي فقاتلوا عدوهم ، وكانوا في مسالِحهم ، وجبوا فيهم حتى تأتي أيام عقبهم فتعقبهم وتبعثَ آخرين مكانهم .

فقطع على أهل الكوفة خمسة آلاف ، وبعثَ عليهم عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث ، وقال : إذا قضيتَ غزاتك هذه فانصرف إلى الرِّي . وكتبَ له عليها عهداً . وخرج خالدٌ بأهل البصرة حتى قَدِم الأهواز ، وجاء عبدالرحمن بن محمد ببعث أهل الكوفة حتى وافاهم بالأهواز ، وجاءت الأزارقة حتى دَنُوا من مدينة الأهواز ومن مُعسكر القوم ، وقال المهلب لخالد بن عبد الله : إني أرى ها هنا سُفناً كثيرة ، - فضمها إليك ، فوالله ما أظنَّ القومَ إلاَّ مُحريقها . فما لبثَ إلاَّ ساعة حتى ارتفعت خيلٌ من خيلهم إليها فحرقتُها . وبعثَ خالد بن عبد الله على ميمنته المهلب ، وعلى ميسرته داود بن قحذم من بني قيس بن ثعلبة ، ومَرَّ المهلب على عبدالرحمن بن محمد ولم يُثْنِدق ، فقال : يابن أخي ، ما يَمْنَعُكَ من الخَنْدَقِ ! فقال : واللَّهِ لهم أهونٌ علي من ضَرطة الجمل ، قال : فلا يَهُونُوا عليك يابن أخي ، فإنهم سباعُ العَرَب ، لا أبرح أو تُضْرِبُ عليك خندقاً ؛ ففعل .

وبلغ الخوارج قول عبدالرحمن بن محمد لهم : « أهونٌ علي من ضَرطة الجمل » ، فقال شاعرهم :

يا طالِبَ الحقِّ لا تُسْتَهو بالأملِ	فإنَّ من دون ما تهوى مَدَى الأجلِ
وأعملَ لربِّك وأسأله مَثَوْبَتَهُ	فإنَّ تقواه فأعلمُ أفضلَ العملِ
واغزُ المَخائِثَ في المَاضِي مُعْلِمَةً	كيما تُصَبِّحَ غَدُوا ضَرطَةَ الجملِ

فأقاموا نحواً من عشرين ليلةً . ثم إن خالداً زحفَ إليهم بالناس ، فأروا أمراً هالهم من عددِ الناس وعُدَّتِهِمْ ، فأخذوا يَنْحازُونَ ، واجترأ عليهم الناس ، فَكَرَّتْ عليهم الخيل ، وزحفَ إليهم فانصرفوا كَأَنَّهُمْ على حامية وهم مولون لا يرون لهم طاقة بقتال جماعة الناس ، وأتبعهم خالد بن عبد الله داود بن قحذم في جيش من أهل البصرة ، وانصرف خالد إلى البصرة ، وانصرف عبدالرحمن بن محمد إلى الرِّي وأقام المهلب بالأهواز ، فكتب خالد بن عبد الله إلى عبد الملك :

أما بعد ، فإني أخبر أمير المؤمنين أصلحه الله أني خرجتُ إلى الأزارقة الَّذِينَ مرقوا من الدِّين ، وخرجوا من ولاية المسلمين ، فالتقينا بمدينة الأهواز فتناهضنا فاقتتلنا كأشدِّ قتال كان في الناس . ثم إن الله أنزل نصره على المؤمنين والمسلمين ، وضربَ الله وجوه أعدائه ، فاتبعهم المسلمون يقتلونهم ، ولا يَمْنَعُونَ ولا يَمْتَنِعُونَ ، وأفاءَ الله ما في عسكرهم على المسلمين ، ثم أتبعتهم داود بن قحذم ، والله إن شاء مهلكهم ومستأصلهم ؛ والسلام عليك .

فلما قدم هذا الكتاب على عبد الملك كتب عبد الملك إلى بشر بن مروان :

أما بعد ، فابعث من قبلك رجلاً شجاعاً بصيراً بالحرب في أربعة آلاف فارس ، فليسيروا إلى فارس في طلب المارقة ، فإن خالداً كتب إليّ يخبرني أنه قد بعث في طلبهم داود بن قحذم ، فمرّ صاحبك الذي تبعث ألا يخالف داود بن قحذم إذا ما التقيا ، فإن اختلاف القوم بينهم عون لعدوهم عليهم . والسلام عليك .

فبعث بشر بن مروان عتاب بن ورقاء في أربعة آلاف فارس من أهل الكوفة ، فخرجوا حتى التقواهم وداود بن قحذم بأرض فارس ، ثم اتبعوا القوم يطلبونهم حتى نفقت خيول عامتهم ، وأصابهم الجهد والجوع ، ورجع عامة ذئك الجيشين مشاة إلى الأهواز ، فقال ابن قيس الرقيّات - من بني مخزوم - في هزيمة عبدالعزيز وفراره عن امرأته :

عبدالعزيز فضحت جيشك كلهم	وتركتهم صرعى بكل سبيل
من بين ذي عطش يجود بنفسه	وملحّب بين الرجال قتيل
هلاً صبرت مع الشهيد مقاتلاً	إذ رحت متكت القوى بأصيل
وتركت جيشك لا أمير عليهم	فارجع بعاري في الحياة طويل
ونسيت عرسك إذ تقاذ سبيّة	تبكى العيون برنة وعويل

وفي هذه السنة كان خووج أبي فذيك الخارجي ، وهو من بني قيس بن ثعلبة ، فغلب على البحرين ، وقتل نجدة بن عامر الحنفي ، فاجتمع على خالد بن عبدالله نزول قطريّ الأهواز وأمر أبي فذيك ، فبعث أخاه أمية بن عبدالله على جند كثيف إلى أبي فذيك ، فهزمه أبو فذيك ، وأخذ جارية له فاتخذها لنفسه ، وسار أمية على فرس له حتى دخل البصرة في ثلاثة أيام ، فكتب خالد إلى عبد الملك بحاله وحال الأزارقة .

وفي هذه السنة وجه عبد الملك الحجاج بن يوسف إلى مكة لقتال عبدالله بن الزبير ، وكان السبب في توجيهه الحجاج إليه دون غيره - فيما ذكر - أن عبد الملك لما أراد الرجوع إلى الشام ، قام إليه الحجاج بن يوسف فقال : يا أمير المؤمنين ، إني رأيت في منامي أني أخذت عبدالله بن الزبير فسلخته ، فأبعثني إليه ، وولني قتاله . فبعثه في جيش كثيف من أهل الشام ، فسار حتى قديم مكة ، وقد كتب إليهم عبد الملك بالأمان إن دخلوا في طاعته . فحدثني الحارث ؛ قال : حدثني محمد بن سعد ، قال : أخبرنا محمد بن عمر ، قال : حدثنا مصعب بن ثابت ، عن أبي الأسود ، عن عباد بن عبدالله بن الزبير ، قال : بعث عبد الملك بن مروان حين قُتل مصعب بن الزبير الحجاج بن يوسف إلى ابن الزبير بمكة ، فخرج في ألفين من جند أهل الشام في جمادى من سنة اثنتين وسبعين ، فلم يعرض للمدينة ، وسلك طريق العراق ، فنزل بالطائف ، فكان يبعث البعوث إلى عرفة في الليل ، ويبعث ابن الزبير بعثاً فيقتلون هنالك ، فكل ذلك تهزم خيل ابن الزبير وترجع خيل الحجاج بالظفر . ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في حصار ابن الزبير ودخول الحرم عليه ، ويخبره أن شوكته قد كَلَّت ، وتفرّق عنه عامة أصحابه ، ويسأله أن يمده برجال ، فجاءه كتاب عبد الملك ، وكتب عبد الملك إلى طارق بن عمرو يأمره أن يلحق بمن معه من الجند بالحجاج ، فسار في خمسة آلاف من أصحابه حتى لحق بالحجاج . وكان قدوم الحجاج الطائف في شعبان سنة اثنتين وسبعين . فلما دخل ذو القعدة رحل الحجاج من الطائف حتى نزل بئر ميمون وحصر ابن الزبير .

وحجَّ الحجاج بالناس في هذه السنة ، وابن الزبير محصور ، وكان قدوم طارق مكة لَهلال ذي الحجة ، ولم يطف بالبيت ، ولم يصل إليه وهو محرم ، وكان يلبس السلاح ، ولا يقرب النساء ولا الطيب إلى أن قتل عبدالله بن الزبير . ونحر ابن الزبير بُدناً بمكة يوم النحر ، ولم يحج ذلك العام ولا أصحابه لأنهم لم يقفوا بعرفة .

قال محمد بن عمر : حدثني سعيد بن مسلم بن بابك ، عن أبيه ، قال : حججت في سنة اثنتين وسبعين فقدمنا مكة ، فدخلناها من أعلاها ، فوجد أصحاب الحجاج وطارق فيها بين الحجون إلى بئر ميمون ، فطفنا بالبيت وبالصفى والمروة ، ثم حج بالناس الحجاج ، فرأيت واقفاً بالهضبات من عرفة على فرس ، وعليه الدرع والمغفر ، ثم صدر فرأيت عدل إلى بئر ميمون ، ولم يطف بالبيت وأصحابه متسلحون ، ورأيت الطعام عندهم كثيراً ، ورأيت العير تأتي من الشام تحمل الطعام ؛ الكعك والسويق والدقيق ؛ رأيت أصحابه مخاصيب ، ولقد ابتعنا من بعضهم كعكاً بدرهم ، فكفانا إلى أن بلغنا الجحفة وأنا لثلاثة نفر .

قال محمد بن عمر : حدثني مصعب بن ثابت ، عن نافع مولى بني أسد ، قال - وكان عالماً بفتنة ابن الزبير - قال : حصر ابن الزبير ليلة لَهلال ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين .

وفي هذه السنة كتب عبدالله بن خازم السلمى يدعوه إلى بيعته ويطعمه خراسان سبع سنين ، فذكر علي بن محمد أن المفضل بن محمد ويحيى بن طفيل وزهير بن هنيذ حدثوه - قال : وفي خبر بعضهم زيادة على خبر بعض - أن مصعب بن الزبير قتل سنة اثنتين وسبعين وعبدالله بن خازم بأبرشهر يُقاتل بحير بن ورقاء الصرمي صريم بن الحارث ؛ فكتب عبدالله بن مروان إلى ابن خازم مع سورة بن أشيم النُميري : إن لك خراسان سبع سنين على أن تُبايع لي . فقال ابن خازم لسورة : لولا أن أضرب بين بني سليم وبني عامر لقتلتك ولكن كل هذه الصحيفة ، فأكلها .

قال : وقال أبو بكر بن محمد بن واسع : بل قديم بعهد عبدالله بن خازم سودة بن عبيد الله النُميري . وقال بعضهم : بعث عبدالله بن مروان ابن خازم سنان بن مكمّل الغنوي ، وكتب إليه : إن خراسان طعمة لك ، فقال له ابن خازم : إنما بعثك أبو الدُّبَّان لأنك من غي ، وقد علم أي لا أقتل رجلاً من قيس ، ولكن كل كتابه .

قال : وكتب عبدالله بن بكير بن وشاح أحد بني عوف بن سعد - وكان خليفة ابن خازم على مرو - بعده على خراسان ووعده ومناه ، فخلع بكير بن وشاح عبدالله بن الزبير ، ودعا إلى عبدالله بن مروان ، فأجابه أهل مرو ، وبلغ ابن خازم فخاف أن يأتيه بكير بأهل مرو ، فيجتمع عليه أهل مرو وأهل أبرشهر ، فترك بحيراً ، وأقبل إلى مرو يريد أن يأتي ابنه بالتُّرمذ ، فأتبعه بحير ، فلحقه بقرية يقال لها بالفارسية : « شاهمغند » ، بينها وبين مرو ثمانية فراسخ .

قال : فقاتله ابن خازم ، فقال مولى لبني ليث : كنت قريباً من معترك القوم في منزل ، فلما طلعت الشمس تهايج العسكران ، فجعلت أسمع وقع السيوف ، فلما ارتفع النهار خفيت الأصوات ، فقلت : هذا لارتفاع النهار ، فلما صليت الظهر - أو قبل الظهر - خرجت ، فتلقاني رجل من بني تميم ، فقلت : ما الخبر؟ قال : قتلت عدو الله ابن خازم وها هو ذا ، وإذا هو محمول على بغل ، وقد شدوا في مذكيره حبلاً وحجراً وعدلوه به على البغل .

قال : وكان الذي قتله وكيع بن عُميرة القرَيعي وهو ابن الدَّورقيَّة ، اعتور عليه بحير بن ورقاء وعمار بن عبدالعزيز الجُشمي وو كيع ، فطعنوه فصرَّعوه ، فقعد وكيع على صدره فقتله ، فقال بعضُ الولاة لو كيع : كيف قتلت ابن خازم ؟ قال : غلبته بفضل القنا ، فلما صرَّع قعدت على صدره ، فحاول القيام فلم يقدر عليه ، وقلت : يا لثارات دؤيلة ! ودؤيلة أخ لو كيع لأمه ، قُتل قبل ذلك في غير تلك الأيام .

قال وكيع : فتَنخَم في وجهي وقال : لعنك الله ! تقتل كبش مضر ، بأخيك . علج لا يساوي كفا من نوى - أو قال : من تراب - فما رأيت أحداً أكثر ريقاً منه على تلك الحال عند الموت .

قال : فذكر ابن هُبيرة يوماً هذا الحديث فقال : هذه والله البسالة . قال : وبعث بحير ساعة قُتل ابن خازم رجلاً من بني غُدانة إلى عبد الملك بن مروان يُخبره بقتل ابن خازم ، ولم يبعث بالرأس ، وأقبل بكير بن وشاح في أهل مرو فوافاهم حين قتل ابن خازم ، فأراد أخذ رأس ابن خازم ، فمنعه بحير ، فضربه بكير بعمود ، وأخذ الرأس وقيد بحيراً وحبسه ، وبعث بكير بالرأس إلى عبد الملك ، وكتب إليه يُخبره أنه هو الذي قتله ، فلما قُدم بالرأس على عبد الملك دعا الغداني رسول بحير وقال : ما هذا ؟ قال : لا أدري ، وما فارقت القوم حتى قُتل ، فقال رجل من بني سليم :

أَلَيْتَنَا بَنِي سَابُور رُدِّي	عَلِي الصَّبْحَ وَيَحْك أَوْ أُنِيرِي
كَوَاكِبُهَا زَوَاحِفٌ لَا غِبَاتُ	كَأَنَّ سَمَاءَهَا بِيَدِي مُدِيرِ
تَلُومُ عَلَى الْحَوَادِثِ أُمَّ زَيْدِ	وَهَلْ لَكَ فِي الْحَوَادِثِ مِنْ نَكِيرِ !
جَهْلُنْ كَرَامَتِي وَصَدَدَنْ عَنِّي	إِلَى أَجَلٍ مِنَ الدُّنْيَا قَصِيرِ
فَلَوْ شِهدَ الْفَوَارِسُ مِنْ سُلَيْمِ	غَدَاةٌ يُطَافُ بِالْأَسَدِ الْعَقِيرِ
لِنَازَلٍ حَوْلَهُ قَوْمٌ كِرَامُ	فَعَزَّ الْوَتَرُ فِي طَلَبِ الْوَتِيرِ
فَقَدْ بَقِيَتْ كِلَابٌ نَابِحَاتُ	وَمَا فِي الْأَرْضِ بِعَدَدِكَ مِنْ زَيْرِ

فولي الحج بالناس في هذه السنة الحجاج بن يوسف .

وكان العامل على المدينة طارق مولى عثمان من قبل عبد الملك ، وعلى الكوفة بشر بن مروان ، وعلى قضائها عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . وعلى البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وعلى قضائها هشام بن هُبيرة . وعلى خراسان في قول بعضهم عبد الله بن خازم السلمي ، في قول بعض : بكير بن وشاح . وزعم من قال : كان على خراسان في سنة اثنتين وسبعين عبد الله بن خازم أن عبد الله بن خازم إنما قتل بعدما قتل عبد الله بن الزبير ، وأن عبد الملك إنما كتب إلى عبد الله بن خازم يدعوه إلى الدخول في طاعته على أن يُطعمه خراسان عشر سنين بعدما قُتل عبد الله بن الزبير ، وبعث برأسه إليه ، وأن عبد الله بن خازم حلف لما ورد عليه رأس عبد الله بن الزبير ألا يعطيه طاعة أبداً ، وأنه دعا بطست فغسل رأس ابن الزبير ، وحنطه وكفنه ، وصلى عليه ، وبعث به إلى أهل عبد الله بن الزبير بالمدينة ، وأطعم الرسول الكتاب ، وقال : لولا أنك رسول لضربت عنقك . وقال بعضهم : قطع يديه ورجليه وضرب عنقه .

فصل نذكر فيه الكتاب من بدء أمر الإسلام

روى هشام وغيره أنَّ أول من كتب من العرب حرب بن أمية بن عبد شمس بالعربية ، وأنَّ أول من كتب بالفارسية بيوراسب ، وكان في زمان إدريس . وكان أول من صنّف طبقات الكتاب وبين منازلهم لهراسب بن كاوغان بن كيموس .

وحكي أن أبرويز قال لكاثيه : إنما الكلام أربعة أقسام : سؤالك الشيء ، وسؤالك عن الشيء ، وأمرُك بالشيء ، ونهرك عن الشيء ؛ فهذه دعائم المقالات إن التمس لها خامس لم يوجد ، وإن نقص منها رابع لم تتيّم ، فإذا طلبت فأسجح ، وإذا سألت فأوضح ، وإذا أمرت فأحتم ، وإذا أخبرت فحقّق .
وقال أبو موسى الأشعري : أول من قال : أما بعدُ داود ، وهي فصل الخطاب الذي ذكره الله عنه .
وقال الهيثم بن عديّ : أول من قال : أما بعدُ قس بن ساعدة الإيادي .

أسماء من كتب للنبي ﷺ

علي بن أبي طالب عليه السلام وعثمان بن عفان ، كانا يكتبان الوحي ؛ فإن غابا كتبه أبي بن كعب وزيد بن ثابت .

وكان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان يكتبان بين يديه في حوائجه .
وكان عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث والعلاء بن عتبة يكتبان بين القوم في حوائجهم ، وكان عبد الله بن الأرقم ربما كتب إلى الملك عن النبي ﷺ .
وكتب لأبي بكر عثمان ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن الأرقم وعبد الله بن خلف الخزاعي ، وحنظلة بن الربيع .

وكتب لعمر بن الخطاب زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الأرقم ، وعبد الله بن خلف الخزاعي أبو طلحة الطلحات على ديوان البصرة ، وكتب له على ديوان الكوفة أبو جبرة بن الضحاك الأنصاري .
وقال عمر بن الخطاب لكتابه وعمّاله : إنَّ القوّة على العمل ألا تؤخّروا عمل اليوم لغد ، فإنكم إذا فعلتم ذلك تذاءبت عليكم الأعمال ، فلا تدرون بأيها تبدؤون ، وأيها تأخذون . وهو أول من دَوّن الدواوين في العرب في الإسلام .

وكان يكتب لعثمان مروان بن الحَكَم ، وكان عبد الملك يكتب له على ديوان المدينة ، وأبو جبرة الأنصاري على ديوان الكوفة ، وكان أبو غطفان بن عوف بن سعد بن دينار من بني دهمان من قيس عيلان يكتب له ، وكان يكتب له أهيّب مولاة ، وحران مولاة .

وكان يكتب لعلي عليه السلام سعيد بن نمران الهمدانيّ ، ثم ولي قضاء الكوفة لابن الزبير . وكان يكتب له عبد الله بن مسعود ، وروي أنَّ عبد الله بن جبرة كتب له . وكان عبيد الله بن أبي رافع يكتب له . واختلف في اسم أبي رافع ، ف قيل : اسمه إبراهيم ، وقيل : أسلم ، وقيل : سنان ، وقيل : عبد الرحمن .

٥٣٤ سنة ٧٢

وكان يَكْتُبُ لمعاوية على الرسائل عبيد بنُ أَوْس الغَسَّانِي . وكان يَكْتُبُ له على ديوان الخُراج سَرَجُونُ بنُ منصور الرُّومِي . وكتب له عبدُ الرحمن بنُ دَرَّاج ، وهو مَوْلَى معاوية ، وَكَتَبَ على بعض دواوينه عُبيدُ الله بنُ نصر بن الحجاج بن علاء السُّلَمِي .

وكان يَكْتُبُ لمعاوية بن يزيد الرِّيَّانُ بنُ مسلم ، وَيَكْتُبُ له على الديوان سَرَجُونُ . وَيُرَوَّى أنه كتب له أبو الزَّعْبَرَةُ .

وَكَتَبَ لعبد الملك بن مروان قبيصةُ بنُ ذؤيب بن حَلْحَلَةَ الخُزَاعِي ، وَيُكْنَى أبا إسحاق . وَكَتَبَ على ديوان الرسائل أبو الزَّعْبَرَةُ مولاة .

وكان يَكْتُبُ للوليد القَعْقَاعُ بنُ خالد - أو خُلَيْدُ العَبْسِي ، وكتب له على ديوان الخراج سليمان بنُ سعد الحُشْنِي ، وعلى ديوان الخاتم شُعَيْبُ العُمَانِي مولاة ، وعلى ديوان الرسائل جناح مولاة ، وعلى المستغلات نَفِيعُ بنُ ذُؤيب مولاة .

وكان يَكْتُبُ لسليمان سليمان بنُ نعيم الحِمِيرِي .

وكان يَكْتُبُ لمسلمة سميع مولاة ، وعلى ديوان الرسائل اللَّيْثُ بنُ أَبِي رُقِيَّةَ مَوْلَى أُمِّ الحَكَمِ بنت أبي سُفْيَانَ ، وعلى ديوان الخراج سليمان بن سعد الحُشْنِي ، وعلى ديوان الخاتم نُعَيْمُ بن سلامة مَوْلَى لأهل اليمن من فِلَسْطِينَ ؛ وقيل : بل رجاء بن حَيَّوَةَ كان يتقلد الخاتم .

وكان يَكْتُبُ ليزيد بن المهلب المغيرة بن أبي فُرَّة .

وكان يَكْتُبُ لعمر بن عبد العزيز اللَّيْثُ بنُ أَبِي رُقِيَّةَ مَوْلَى أُمِّ الحَكَمِ بنت أبي سُفْيَانَ ، وَرَجَاءُ بن حَيَّوَةَ . وكتب له إسماعيل بن أبي حكيم مولى الزُّبَيْر ، وعلى ديوان الخراج سليمان بنُ سعد الحُشْنِي ، وَقَلَّدَ مكانه صالح بن جُبَيْرَةَ الغَسَّانِي - وقيل : الغُدَّانِي - وعدي بن الصَّبَّاح بن المثنى ، ذَكَرَ الهيثم بنُ عدي أنه كان من جِلَّةِ كُتَّابِهِ .

وَكَتَبَ ليزيد بن عبد الملك قبل الخلافة رجلاً يقال له يزيد بن عبد الله ، ثم استكتب أسامة بن يزيد السُّلَيْحِي .

وكتب لهشام سعيد بن الوليد بن عمرو بن جَبَلَةَ الكلبي الأَبْرَش ، وَيُكْنَى أبا مخاشع ، وكان نصر بن سَيَّار يتقلد ديوان خراج خُرَّاسَانَ لهشام . وكان من كُتَّابِهِ بالرُّصَافَةِ شعيب بن دينار .

وكان يَكْتُبُ للوليد بن يزيد بكير بن الشَّمَاخ ، وعلى ديوان الرسائل سالم مَوْلَى سعيد بن عبد الملك ، وَمِنْ كُتَّابِهِ عبدُ الله بنُ أَبِي عمرو ، ويقال : عبدُ الأعلى بن أَبِي عمرو ، وكتب له على الحضرة عَمْرُو بنُ عُتْبَةَ .

وَكَتَبَ ليزيد بن الوليد الناقص عبدُ الله بنُ نُعَيْم ، وكان عَمْرُو بن الحارث مولى بني جُمَحٍ يتولَّى له ديوان الخاتم ، وكان يتقلد له ديوانَ الرسائل ثابت بنُ سليمان بن سعد الحُشْنِي - ويقال الرِّبِيع بن عرعة الحُشْنِي - وكان يتقلد له الخُراج والديوان الذي للخاتم الصغير النَّضْرُ بنُ عَمْرُو من أهل اليمن .

وكتب لإبراهيم بن الوليد ابن أبي جمعة ، وكان يتقلد له الديوان بفِلَسْطِينَ ، وبابيع الناس إبراهيم - أعني ابن الوليد - سوى أهل جَمَصَ ، فلمنهم بايعوا مروان بن محمد الجَعْدِي .

وكتب لمروان عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب العامري ، ومُصعب بن الربيع الخثعمي ،
وزياد بن أبي الورد . وعلى ديوان الرسائل عثمان بن قيس مولى خالد القسري . وكان من كتّابه مخلد بن
محمد بن الحارث - ويكنى أبا هاشم - ومن كتّابه مُصعب بن الربيع الخثعمي ، ويكنى أبا موسى . وكان
عبد الحميد بن يحيى من البلاغة في مكان مكين ، ومما اختير له من الشعر :

تَرَحَّلَ مَا لَيْسَ بِالْقَافِلِ	وَأَعْقَبَ مَا لَيْسَ بِالزَّائِلِ
فَلْهَفِي عَلَى الْخَلْفِ النَّازِلِ	وَلَهْفِي عَلَى السَّلَفِ الرَّاحِلِ
أُبْكِي عَلَى ذَا وَأُبْكِي لَذَا	بِكَاءَ مُوْهِيَةِ ثَاكِلِ
تُبْكِي مِنْ آبِنِ لَهَا قَاطِعِ	وَتُبْكِي عَلَى آبِنِ لَهَا وَاصِلِ
فَلَيْسَتْ تَفْتَرُّ عَنْ عُبْرَةٍ	لَهَا فِي الضَّمِيرِ وَمِنْ هَامِلِ
تَقْضَتْ غَوَايَاتُ سُكْرِ الصَّبِيِّ	وَرَدَّ التُّقَى اعْنَنَ الْبَاطِلِ

وكتب لأبي العباس خالد بن برمك ، ودفع أبو العباس ابنته ربيعة إلى خالد بن برمك حتى أرضعتها
زوجته أم خالد بنت يزيد بلبان بنت لخالد تُدعى أم يحيى ، وأرضعت أم سلمة زوجة أبي العباس أم يحيى بنت
خالد بلبان ابنتها ربيعة . ولقد ديوان الرسائل صالح بن الهيثم مولى ربيعة بنت أبي العباس .

وكتب لأبي جعفر المنصور عبد الملك بن حميد مولى حاتم بن النعمان الباهلي من أهل خراسان ، وكتب له
هاشم بن سعيد الجعفي وعبد الأعلى بن أبي طلحة من بني تميم بواسط . ورؤي أن سليمان بن مخلد كان يكتب
لأبي جعفر ، ومما كان يتمثل به أبو جعفر المنصور :

وما إن شَفَى نَفْساً كَأَمْرِ صَرِيمَةٍ إِذَا حَاجَةً فِي النَّفْسِ طَالَ اعْتِرَاضُهَا

وكتب له الربيع . وكان عُمارة بن حمزة من بُلَاءِ الرِّجَالِ ، وله :

لَا تَشْكُونَ دَهْرًا صَحَحَتْ بِهِ
هَبْكَ الْإِمَامُ أَكُنْتَ مُنْتَفِعًا
إِنَّ الْغِنَى فِي صِحَّةِ الْجَسْمِ
بِغَضَارَةِ الدُّنْيَا مَعَ السُّقْمِ

وكان يتمثل بقول عبد بني الحسحاس :

أَمِنْ أُمِّيَّةٍ دَمْعُ الْعَيْنِ مَذْرُوفُ
لَا تُبْكِي عَيْنُكَ إِنَّ الدَّهْرَ ذُو غَيْرِ
لَوْ أَنَّ ذَا مِنْكَ قَبْلَ الْيَوْمِ مَعْرُوفُ
فِيهِ تَفَرَّقَ ذُو الْإِلْفِ وَمِائِ الْوَفُ

وكتب للمهدي أبو عبيد الله وأبان بن صدقة على ديوان رسائله ، ومحمد بن حميد الكاتب على ديوان
جُنْدِهِ ويعقوب بن داود ، وكان اتَّخَذَهُ عَلَى وَزَارَتِهِ وَأَمْرِهِ ، وله :

عَجِبًا لِتَصْرِيفِ الْأُمُورِ
وَالدَّهْرِ يَلْعَبُ بِالرَّجَالِ
مَحَبَّةٌ وَكَرَاهِيَّةٌ
لَهُ دَوَائِرُ جَارِيَةٍ

ولابنه عبد الله بن يعقوب - وكان له محمد ويعقوب ، كلاهما شاعرٌ مجيدٌ :

وَزَعَ الْمَشِيبُ شِرَاسْتِي وَغَرَامِي
وَمَرَى الْجَفُونَ بِمُسْبَلِ سَجَامِ

ولقد حَرَصْتُ بَأَن أُوَارَى شَخْصَهُ
وصبغتُ ما صَبَغَ الزَّمَانُ فلم يَدُمَ
لا تَبْعِدَنَّ شَبِيبَةً ذِيَالَةً
ما كان ما استصَحَبْتُ من أَيَّامِهَا
ولأبيه :

طَلَّقُ الدُّنْيَا ثَلَاثًا
لِأَنَّهَا زَوْجَةٌ سَوِيءٌ
وَأَتَّخِذُ زَوْجًا سِوَاهَا
لَا تُبَالِي مَنْ أَتَاهَا

واستوزر بعده الفَيْضُ بن أبي صالح ، وكان جواداً .

وكتب للهادي موسى عُبيدُ الله بن زياد بن أبي ليلَى ومحمَّد بن حُمَيد . وسأل المهدي يوماً أبا عُبيد الله
عن أشعار العرب ، فصنَّفها له ، فقال : أحكمُها قولُ طُرفة بن العَبْد :

أرى قبرَ نَحامٍ بخيلٍ بماله
تَرى جُثوثَينِ من تُرابٍ عليهما
أَرى الموتَ يَغْتَامُ الكِرَامَ وَيَصْطَفِي
أَرى العَيْشَ كَنْزاً ناقصاً كُلَّ ليلةٍ
لَعْمَرَكَ إِنَّ الموتَ ما أَخْطَأَ الفَقِي
وقوله :

وقد أَرَانَا كِلَانَا هَمَّ صَاحِبِهِ
وكان شيءٌ إلى شيءٍ ففَرَّقَهُ
لو أَنَّ شَيْئاً إِذَا مَا فَاتَنَا رَجَعَا
دَهْرٌ يَكُرُّ عَلَيَّ تَفْرِيقِ مَا جَعَا
وقول لبيد :

أَلَا تَسْأَلَانِ المرءَ ماذا يُحَاوِلُ
أَلَا كُلُّ شَيْءٍ ما خلا اللهَ باطِلُ
أَرى النَّاسَ لا يَدْرُونَ ما قَدَرُ أَمْرِهِمْ
أنحَبُ فَيُقَضَى أَم ضَلالٌ وباطِلُ
وكلُّ نعيمٍ لا محالةٍ زائلُ
بلى كُلُّ ذِي رَأْيٍ إلى اللهِ وإِسْلُ

وكقول النابغة الجعدي :

وقد طَالَ عَهْدِي بالشَّبَابِ وأهْلِهِ
فلم أَجِدِ الإِخْوَانَ إِلَّا صَحَابَةً
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ قَدْرُ زَيْتٍ مُحَارِباً
ولا قِيتَ رَوْعَاتٍ تُشِيبُ النَّوَاصِيَا
ولم أَجِدِ الأَهْلِينَ إِلَّا مِثَالِيَا
فما لِكَ مِنْهُ اليَوْمَ شيءٌ ولا لِيَا
وكقول هُذَيْلَةَ بن خَشْرَم :

ولستُ بِمِفْراحٍ إِذَا الدَّهْرُ سَرَّنِي
ولا أَتَبْغِي الشَّرَّ والشَّرُّ تَارِكِي
ولا جازِعٌ مِنْ صَرْفِهِ المَتَقَلِّبُ
ولكن مَتَى أَهْمَلُ عَلَى الشَّرِّ أَرْكَبُ

وما يعرف الأقبام للدهر حقه
ولدهر في أهل الفتى وتلايه
وما الدهر بما يكرهون بمعتب
نصيب كحز الجازر المتشعب
وكقول زيادة بن زيد ؛ وتمثل به عبد الملك بن مروان :

تذكر عن شطح أميمة فارغوى
وإن امرأ قد جرب الدهر لم يخف
هل الدهر والأيام إلا كما ترى
وكل الذي يأتي فانت نسيه
وليس بعيد ما يجيء كمقبل
وكقول ابن مقبل :

لما رأيت بدل الشباب بكت له
والناس همهم الحياة ولا أرى
والشيب أزدل هذه الأبدال
طول الحياة يزيد غير خبال
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد
دخراً يكون كصالح الأعمال

ووزر له يحيى بن خالد . ووَزَرَ للرشيذ ابنه جعفر بن يحيى بن خالد ، فمن مَليح كلامه : الخط سِمة
الحكمة ، به تفصل شذورها ، ويُنظَم منشورها . قال ثمامة : قلت لجعفر بن يحيى : ما البيان ؟ فقال : أن
يكون الاسم محيطاً بمعناك ، مُخبراً عن مغزائك ، مُخرجاً من الشركة ، غير مستعانٍ عليه بالفكرة . قال
الأصمعي : سمعت يحيى بن خالد يقول : الدنيا دُول ، والمال عارية ، ولنا بمن قبلنا أسوة ، وفيها لمن بعدنا
عبرة .

ونأتي بتسمية باقي كتاب خلفاء بني العباس إذا انتهينا إلى الدولة العباسية إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ذكر الكائن الذي كان فيها من الأمور الجليلة

فمن ذلك مقتل عبدالله بن الزبير .

ذكر الخبر عن صفة ذلك :

حدثني الحارث ، قال : حدثنا محمد بن سعد ، قال : أخبرنا محمد بن عمر . قال : حدثني إسحاق بن يحيى ، عن عبيد الله بن القبطية ، قال : كانت الحرب بين ابن الزبير والحجاج ببطن مكة ستة أشهر وسبع عشرة ليلة .

قال محمد بن عمر : وحدثني مصعب بن ثابت ، عن نافع مولى بني أسد - وكان عالماً بفتنة ابن الزبير . قال : حُصر ابن الزبير ليلة هلال ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين وقتل لسبع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين ، وكان حصر الحجاج لابن الزبير ثمانية أشهر وسبع عشرة ليلة .

حدثنا الحارث ، قال : حدثنا محمد بن سعد ، قال : أخبرنا محمد بن عمر : قال : حدثني إسحاق بن يحيى ، عن يوسف بن ماهك ، قال : رأيت المنجنيق يُرمى به ، فرعدت السماء وبرقت ، وعلا صوت الرعد والبرق على الحجارة ، فاشتعل عليها ، فأعظم ذلك أهل الشام ، فأمسكوا بأيديهم ، ورفع الحجاج بركة قبائ فغرّرها في منطقته ، ورفع حجر المنجنيق فوضعه فيه ، ثم قال : ارْمُوا ، ورمى معهم . قال : ثم أصبحوا فجاءت صاعقة تتبعها أخرى ، فقتلت من أصحابه اثني عشر رجلاً ، فانكسر أهل الشام ، فقال الحجاج : يا أهل الشام ، لا تُنكروا هذا فإني ابن تهمامة ، هذه صواعق تهمامة ، هذا الفتح قد حضر فأبشروا ، إن القوم يُصيبهم مثل ما أصابكم ، فصعقت من الغد . فأصيب من أصحاب ابن الزبير عِدَّة ؛ فقال الحجاج : ألا ترون أنهم يصابون وأنتم على الطاعة ، وهم على خلاف الطاعة ! فلم تزل الحرب بين ابن الزبير والحجاج حتى كان قبيل مقتله وقد تفرق عنه أصحابه ، وخرج عامة أهل مكة إلى الحجاج في الأمان .

حدثني الحارث ، قال : حدثنا ابن سعد ، قال : أخبرنا محمد بن عمر ، قال : حدثني إسحاق بن عبدالله ، عن المنذر بن جهم الأسدي ، قال : رأيت ابن الزبير يوم قُتل وقد تفرق عنه أصحابه وخذله من معه خذلانا شديداً ، وجعلوا يخرجون إلى الحجاج حتى خرج إليه نحو من عشرة آلاف .

وذكر أنه كان ممن فارقه وخرج إلى الحجاج ابنه حمزة وخبيب ، فأخذاه منه لأنفسهما أماناً ، فدخل على أم أسماء - كما ذكر محمد بن عمر عن أبي الزناد ، عن نخرمة بن سليمان الوالبي ، قال : دخل ابن الزبير على أم

حين رأى من الناس ما رأى من خذلانهم ، فقال : يا أمه ؛ خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفء أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطوني ما أردت من الدنيا ، فما رأيك ؟ فقالت : أنت والله يا بُني أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له ، فقد قُتل عليه أصحابك ، ولا تُمكن من رقبته يتلعب بها غلمان أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ! أهلك نفسك ، وأهلك من قُتل معك ، وإن قلت : كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ! القتل أحسن . فدنا ابن الزبير فقبل رأسها وقال : هذا والله رأيي ، والذي قمت به داعياً إلى يومي هذا ما ركنت إلى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمة ، ولكني أحببت أن أعلم رأيك ، فزدني بصيرة مع بصيرتي . فانظري يا أمه فإني مقتول من يومي هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمي الأمور ، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منك ، ولا عملاً بفاحشة ، ولم يجز في حكم الله ، ولم يغدر في أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته ، ولم يكن شيء أثر عندي من رضا ربي . اللهم إني لأقول هذا تركية مني لنفسي ، أنت أعلم بي ؛ ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني . فقالت أمه : إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً إن تقدمتني ، وإن تقدمتك ففي نفسي ، اخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك . قال : جزاك الله يا أمه خيراً ، فلا تدعى الدعاء لي قبل وبعد . فقالت : لا أدعه أبداً ، فمن قُتل على باطل فقد قُتلت على حق . ثم قالت : اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك التحيب والظلم في هواجر المدينة ومكة ، وبره بأبيه وبني . اللهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثني في عبدالله ثواب الصابرين الشاكرين .

قال مصعب بن ثابت : فما مكثت بعده إلا عَشراً ، ويقال : خمسة أيام .

قال محمد بن عمر : حدثني موسى بن يعقوب بن عبدالله ، عن عمه قال : دخل ابن الزبير على أمه وعليه الدرع والمغفر ، فوقف فسلم ، ثم دنا فتناول يدها فقبلها . فقالت : هذا وداع فلا تبعد ، قال ابن الزبير : جئت مودعاً ، إني لأرى هذا آخر يوم من الدنيا يمر بي ، وإعلمي يا أمه أي إن قُتلت فلنأنا لحم لا يضرني ما صنع بي ، قالت : صدقت يا بُني ، أقيم على بصيرتك ، ولا تُمكن ابن أبي عقيل منك ، وادن مني أوذعك ، فدنا منها فقبلها وعانقها ، وقالت حيث مسّت الدرع : ما هذا صنع من يريد ما تريد ! قال : ما لبست هذا الدرع إلا لأشد منك ، قالت العجوز : فإنه لا يشد مني ، فنزعها ثم أدرج كمّيه ، وشد أسفل قميصه ، وجبة خز تحت القميص فأدخل أسفلها في المنطقة ، وأمه تقول : البس ثيابك مشمراً . ثم انصرف ابن الزبير وهو يقول :

إني إذا أعرف يومي أصبر إذ بعضهم يعرف ثم ينكر

فسمعت العجوز قوله ، فقالت : تصبر والله إن شاء الله ، أبوك أبو بكر والزبير ، وأمك صفية بنت عبدالمطلب .

حدثني الحارث ، قال : حدثني ابن سعد ، قال : أخبرني محمد بن عمر ، قال : أخبرنا ثور بن يزيد ، عن شيخ من أهل حمص شهد وقعة ابن الزبير مع أهل الشام ، قال : رأيته يوم الثلاثاء وإننا لنطلع عليه أهل حمص خمسمائة خمسمائة من باب لنا ندخله ، لا يدخله غيرنا ، فيخرج إلينا وحده في أثرنا ، ونحن منهزمون

منه ، فما أنسى أرجوزة له :

إني إذا أعرف يومي أصبر
ولأنما يعرف يوميه الحر
إذ بعضهم يعرف ثم ينكر

فأقول : أنت والله الحر الشريف ، فلقد رأيته يقف في الأبطح ما يدنونه أحد حتى ظننا أنه لا يقتل .

حدثني الحارث ، قال : حدثنا ابنُ سعد ، قال : أخبرنا محمد بن عمر ، قال : حدثنا مصعب بن ثابت ، عن نافع مولى بني أسد ، قال : رأيت الأبواب قد شجنت من أهل الشام يوم الثلاثاء ، وأسلم أصحابُ ابن الزبير المحارس ، وكثرهم القوم فأقاموا على كل باب رجالاً وقائداً وأهل بلد ، فكان لأهل حمص الباب الذي يواجه باب الكعبة ، ولأهل دمشق باب بني شيبه ، ولأهل الأردن باب الصفا ، ولأهل فلسطين باب بني جحج ، ولأهل قنسرين باب بني سَهْم ، وكان الحجاج وطارق بن عمرو جميعاً في ناحية الأبطح إلى امروءة ، فمرة يحمل ابن الزبير في هذه الناحية ، ومرة في هذه الناحية ، فلكانه أسد في أجمة ما يقدم عليه الرجال ، فيعدو في أثر القوم وهم على الباب حتى يُخرجهم وهو يرتجز :

إني إذا أعرف يومي أصبر
ولأنما يعرف يوميه الحر

ثم يصيح : يا أبا صفوان ، ويل أمه فتحا لو كان له رجال !

لو كان قرني وأجداً كفيتُه

قال ابن صفوان : إي والله وألف .

حدثني الحارث ، قال : حدثنا ابنُ سعد ، قال : أخبرنا محمد بن عمر ، قال : فحدثني ابنُ أبي الزناد وأبو بكر بن عبد الله بن مصعب ، عن أبي المنذر . وحدثنا نافع مولى بني أسد ، قال : لما كان يوم الثلاثاء صبيحة سبع عشرة من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وقد أخذ الحجاج على ابن الزبير بالأبواب ، بات ابنُ الزبير يصلي عامة الليل ، ثم احتبى بحماثل سيفه فأغفى ، ثم انتبه بالفجر فقال : أذن يا سعد ، فأذن عند المقام ، وتوضأ ابنُ الزبير ، وركع ركعتي الفجر ، ثم تقدّم ، وأقام المؤذن فصلّى بأصحابه ، فقرأ ﴿ ت وَالْقَلَم ﴾ حرفاً حرفاً ، ثم سلّم ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

اكشفوا وجوهكم حتى أنظر ، وعليهم المغافر والعمائم ، فكشفوا وجوههم فقال : يا آل الزبير ، لو طبتُم لي نفساً عن أنفسكم كنّا أهل بيت من العرب اصطليمنّا في الله لم تصبنا زبَاءُ بَتّة . أمّا بعد يا آل الزبير ، فلا يرعكم وقع السيوف ، فإني لم أحضر موطناً قط إلا ارتثت فيه من القتل ، وما أجد من أدواء جراحها أشدّ ممّ أجد من ألم وقعها . صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم ، لا أعلم امرأ كسر سيفه ، واستبقى نفسه ، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل ، غصوا أبصاركم عن البارقة ، وليشغل كل امرئ امرئته ، ولا يلهيكم السؤال عني ، ولا تقولن : أين عبد الله بن الزبير ؟ ألا من كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول .

أبي لابن سلمى أنه غير خالٍ
ملاقي المنايا أي صرف تيمّم
فلست بمبتاع الحياة بسبّة
ولا مرتق من خشية الموت سلماً

احملوا على بركة الله .

ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحُجُون ، فرُمي بِأَجْرَةٍ فأصابته في وجهه فأرْعَش لها ، ودمى وجهه ، فلَمَّا وجد سخونة الدَّم يسيل على وجهه ولحيته قال :

فَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَذْمَى كُلُّوْنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدِّمَا وَتَغَاوُوا عَلَيْهِ .

قالا : وصاحت مولاة لنا مجنونة : وا أمير المؤمنين! قالوا : وقد رأته حيث هوى ، فأشارت لهم إليه ، فقتل وإنّ عليه ثيابَ خَزَرٍ . وجاء الخبر إلى الحُجَّاج ، فسجد وسار حتى وقف عليه وطارق بن عمرو ، فقال طارق : ما وَلَدَتِ النساءُ أَذْكَرَ من هذا ؛ فقال الحُجَّاج : تَمَدَّحُ من يُخَالِفُ طَاعَةَ أمير المؤمنين ! قال : نعم ، هو أَعْدَرُ لنا ، ولولا هذا ما كان لنا عُذْر ، إنا مُحاصروه وهو في غير خَنْدَقٍ ولا حصن ولا مَنَعَةٍ منذ سبعة أشهر ينتصف منا ، بل يفضل علينا في كُلِّ ما التقينا نحن وهو ؛ فبلغ كلامهما عبد الملك ، فصَوَّب طارقاً .

حدَّثنا عمر ، قال : حدَّثنا أبو الحسن ، عن رجاله ، قال : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الزَّيْبِرِ وَقَدْ قَتَلَ غَلاماً أَسْوَدَ ، ضَرَبَهُ فَعَرَقَهُ ، وهو يَمِرُّ فِي حَمْلَتِهِ عَلَيْهِ وَيَقُولُ : صَبْرًا يَا بَنِي حَامٍ ، ففي مثلِ هذه المواطنِ تَصْبِرُ الْكِرَامُ !

حدَّثني الحارث ، قال : حدَّثنا ابن سعد ، قال : أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو ، قال : حدَّثني عبد الجبار بن عُمارة ، عن عبد الله بن أبي بكر بن مُحَمَّد بن عمرو بن حَزْم ، قال : بعث الحُجَّاجُ بِرَأْسِ ابنِ الزَّيْبِرِ وَرَأْسِ عبد الله بن صفوان ورأس عُمارة بن عمرو بن حزم إلى المدينة فنصبتُ بها ، ثم ذُهِبَ بِهَا إِلَى عبد الملك بن مروان ، ثم دخل الحُجَّاجُ مَكَّةَ ، فبايعَ مَنْ بِهَا مِنْ قُرَيْشٍ لِعَبْدِ الْمَلِكِ بنِ مَرْوَانَ .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة وَلَّى عَبْدُ الْمَلِكِ طَارِقاً مَوْلَى عِثْمَانَ الْمَدِينَةِ فَوَلِيَهَا خَمْسَةَ أَشْهُرٍ .

وفي هذه السنة تَوَفَّى بِشَرِّ بْنِ مَرْوَانَ فِي قَوْلِ الْوَاقِدِيِّ ، وَأَمَّا غَيْرُهُ فَلَمَّا قَالَ : كَانَتْ وَفَاتُهُ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ .

وفيها أيضاً وَجَّهَ - فيما ذُكِرَ - عَبْدُ الْمَلِكِ بنِ مَرْوَانَ عَمْرَ بنَ عُبَيْدِ اللَّهِ بنِ مَعْمَرٍ لِقِتَالِ أَبِي فُذَيْكٍ ، وَأَمْرَهُ أَنْ يَنْدَبَ مَعَهُ مَنْ أَحَبَّ مِنْ أَهْلِ الْمِصْرَيْنِ ، فَقَدِمَ الْكُوفَةَ فَندب أهلها ، فانتدب معه عشرة آلاف ، ثم قَدِمَ الْبَصْرَةَ فَندب أهلها ، فانتدب معه عشرة آلاف ، فأخرج لهم أَرْزَاقَهُمْ وَأَعْطَايَهُمْ ، فَأَعْطَوْهَا . ثم سار بهم عمر بن عُبَيْدِ اللَّهِ ، فَجَعَلَ أَهْلَ الْكُوفَةِ عَلَى الْمِيْمَةِ وَعَلَيْهِمْ مُحَمَّدُ بنُ مُوسَى بنِ طَلْحَةَ ، وَجَعَلَ أَهْلَ الْبَصْرَةِ عَلَى الْمَيْسَرَةِ وَعَلَيْهِمْ ابْنُ أَخِيهِ عَمْرُ بنُ مُوسَى بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ ، وَجَعَلَ خَيْلَهُ فِي الْقَلْبِ ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْبَحْرَيْنِ ، فَصَفَّ عَمْرُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ أَصْحَابَهُ ، وَقَدَّمَ الرَّجَالَ فِي أَيْدِيهِمُ الرِّمَاحَ قَدْ لَزَمَوْهَا الْأَرْضَ ، وَاسْتَرَوْا بِالْبَرَاذِعِ ، فَحَمَلَ أَبُو فُذَيْكٍ وَأَصْحَابُهُ حِمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، فَكَشَفُوا مَيْسَرَةَ عَمْرٍو بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ حَتَّى ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ إِلَّا الْمَغِيرَةَ بنَ الْمَهْلَبِ وَمَعْنَ بنَ الْمَغِيرَةَ وَجُعَاعَةَ بنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَفُرسَانَ النَّاسِ فَإِنَّهُمْ مَالُوا إِلَى صَفِّ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَهُمْ ثَابِتُونَ ، وَارْتَثَ عَمْرُ بنُ مُوسَى بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ ، فَهُوَ فِي الْقَتْلِ قَدْ أَثْخِنَ جِرَاحَةً . فَلَمَّا رَأَى أَهْلُ الْبَصْرَةِ أَهْلَ الْكُوفَةِ لَمْ يَنْهَزُوا تَذْمُوا وَرَجَعُوا وَقَاتَلُوا وَمَا عَلَيْهِمْ أَمِيرٌ حَتَّى مَرَّوا بِعَمْرٍو بنِ مُوسَى بنِ عُبَيْدِ اللَّهِ جَرِيحاً فَحَمَلُوهُ حَتَّى أَدْخَلُوهُ عَسْكَرَ الْخَوَارِجِ وَفِيهِ ثَبْنٌ كَثِيرٌ فَأَحْرَقُوهُ ، وَمَالَتْ عَلَيْهِمُ الرِّيحُ ، وَحَمَلَ أَهْلُ الْكُوفَةِ وَأَهْلُ الْبَصْرَةِ حَتَّى اسْتَبَاحُوا عَسْكَرَهُمْ وَقَتَلُوا أَبَا فُذَيْكٍ ، وَحَصَرُوهُمْ فِي الْمَشْقَرِ ، فَنَزَلُوا عَلَى الْحَكَمِ ، فَقَتَلَ عَمْرُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ مِنْهُمْ - فيما

ذِكْر - نحواً من ستة آلاف ، وأسَر ثمانمائة ، وأصابوا جارية أمية بن عبد الله حُبلى من أبي فديك وانصَرَفوا إلى البصرة .

وفي هذه السنة عَزَلَ عبد الملك خالد بن عبد الله عن البصرة وولَّاهَا أخاه بشر بن مروان ، فصارت ولايتها ولاية الكوفة إليه ، فشخص بِشراً وُلِّيَ مع الكوفة البصرة إلى البصرة واستخلف على الكوفة عمرو بن حريث .

وفيها غزا محمد بن مروان الصائفة ، فهزم الروم .

وقيل : إنه كان في هذه السنة وقعة عثمان بن الوليد بالروم في ناحية أرمينية وهو في أربعة آلاف والروم في ستين ألفاً ، فهزَمَهم وأكثر القتل فيهم .

وأقام الحج في هذه السنة للناس الحجاج بن يوسف وهو على مكة واليمن واليمامة ، وعلى الكوفة والبصرة - في قول الواقدي بشر بن مروان ، وفي قول غيره على الكوفة بشر بن مروان ، وعلى البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وعلى قضاء الكوفة شريح بن الحارث ، وعلى قضاء البصرة هشام بن هبيرة ، وعلى خراسان بكير بن وشاح .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين ذكر ما كان فيها من الأحداث الجليلة

قال أبو جعفر : فمما كان فيها من ذلك عزلُ عبد الملك طارق بن عمرو عن المدينة ، واستعماله عليها الحجاج بن يوسف ، فقدمها - فيها ذكر - فأقام بها شهراً ثم خرج معتمراً .
وفيهما كان - فيها ذكر - نقضُ الحجاج بن يوسف بنيان الكعبة الذي كان ابنُ الزبير بنه ، وكان إذ بنه أدخل في الكعبة الحجر ، وجعل لها بابين ، فأعادها الحجاج على بنائها الأول في هذه السنة ، ثم انصرف إلى المدينة في صفر ، فأقام بها ثلاثة أشهر يتعبث بأهل المدينة ويتعنتهم ، وبني بها مسجداً في بني سلمة ، فهو ينسب إليه .

واستخف فيها بأصحاب رسول الله ﷺ ، فحتم في أعناقهم ؛ فذكر محمد بن عمران بن أبي ذئب ، حدّثه عمّن رأى جابر بن عبد الله مخطوماً في يده .
وعن ابن أبي ذئب ، عن إسحاق بن يزيد ، أنه رأى أنس بن مالك مخطوماً في عنقه ، يريد أن يذله بذلك .

قال ابن عمر : وحدّثني شرحبيل بن أبي عون ، عن أبيه ، قال : رأيتُ الحجاج أرسل إلى سهل بن سعد فدعاه ، فقال : ما منعك أن تنصر أمير المؤمنين عثمان بن عفان ؟ قال : قد فعلت . قال : كذبت ، ثم أمر به فحتم في عنقه برصاص .

وفيهما استقضى عبد الملك أبا إدريس الخولاني - فيها ذكر الواقدي .

وفي هذه السنة شخّص في قول بعضهم بشر بن مروان من الكوفة إلى البصرة والياً عليها .

وفي هذه السنة وليّ المهلب حرب الأزارقة من قبل عبد الملك .

ذكر الخبر عن أمره وأمرهم فيها :

ولما صار بشر بالبصرة كتب عبد الملك إليه - فيما ذكر هشام عن أبي مخنف ، عن يونس بن أبي إسحاق ، عن أبيه :

أما بعد ، فابعث المهلب في أهل مصره إلى الأزارقة ، وليتخب من أهل مصره وجوهم وفُرسانهم وأولي الفضل والتجربة منهم ، فإنه أعرف بهم ، وخلّه ورأيه في الحرب ، فلإني أوثق شيء بتجربته ونصيحته

للمسلمين ، وابعث من أهل الكوفة بعثاً كثيفاً ، وابعث عليهم رجلاً معروفاً شريفاً ، حسيباً صليباً ، يعرف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب ، ثم أنهض إليهم أهل المضرين فليتبعمهم أي وجه ما توجهوا حتى يبيدوهم الله ويستأصلهم . والسلام عليك .

فدعا بشر المهلب فأقرأه الكتاب ، وأمره أن ينتخب من شاء ، فبعث بجديع بن سعيد بن قبيصة بن سراق الأزدی - وهو خال يزيد ابنه - فأمره أن يأتي الديوان فينتخب الناس ، وشق على بشر أن إمرة المهلب جاءت من قبل عبد الملك ، فلا يستطيع أن يبعث غيره ، فأوغرت صدره عليه حتى كأنه كان له إليه ذنب . ودعا بشر بن مروان عبد الرحمن بن مخنف فبعثه على أهل الكوفة ، وأمره أن ينتخب فرسان الناس ووجوههم وأولي الفضل منهم والنجدة .

قال أبو مخنف : فحدثني أشياخ الحي ، عن عبد الرحمن بن مخنف قال : دعاني بشر بن مروان فقال لي : إنك قد عرفت منزلتك مني ، وأثرتك عندي ، وقد رأيت أن أولئك هذا الجيش الذي عرفت من جزئك وغنائك وشرفك وبأسك ، فكن عند أحسن ظني بك . انظر هذا الكذا كذا - يقع في المهلب - فاستبد عليه بالأمر ، ولا تقبلن له مشورة ولا رأياً ، وتنقصه وقصر به .

قال : فترك أن يوصيني بالجند ، وقاتل العدو ، والنظر لأهل الإسلام ، وأقبل يغريني بابتعائي كأي من السفهاء أو ممن يستصبي ويستجمل ، ما رأيت شيخاً مثلي في مثل هيئتي ومنزلي طمع منه في مثل ما طمع فيه هذا الغلام مني ، شب عمرو عن الطوق .

قال : ولما رأى أني لست بالنشيط إلى جوابه قال لي : مالك ؟ قلت : أصلحك الله ! وهل يسعني إلا إنفاذ أمرك في كل ما أحببت وكرهت ! قال : امض راشداً . قال : فودعته وخرجت من عنده ، وخرج المهلب بأهل البصرة حتى نزل رام مَهْرُمَزْ فلقي بها الخوارج ، فخذق عليه ، وأقبل عبد الرحمن بن مخنف بأهل الكوفة على ربع أهل المدينة معه بشر بن جرير ، وعلى ربع تميم وهمدان محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس ، وعلى ربع كندة وربيعه إسحاق بن محمد بن الأشعث ، وعلى ربع مدحج وأسد زحر بن قيس . فأقبل عبد الرحمن حتى نزل من المهلب على ميل أو ميل ونصف . حيث تراءى العسكران برام مَهْرُمَزْ ، فلم يلبث الناس إلا عشراً حتى أتاهم نعي بشر بن مروان ، وتوفي بالبصرة ، فارفض ناس كثير من أهل البصرة وأهل الكوفة ، واستخلف بشر خالد بن عبد الله بن أسيد ، وكان خليفته على الكوفة عمرو بن حريث ، وكان الذين انصرفوا من أهل الكوفة زحر بن قيس وإسحاق بن محمد بن الأشعث ومحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس ، فبعث عبد الرحمن بن مخنف ابنه جعفر في آثارهم ، فرد إسحاق ومحمد ، وفاته زحر بن قيس ، فحبسهما يومين ، ثم أخذ عليهما ألا يفارقاه ، فلم يلبثا إلا يوماً حتى انصرفا ، فأخذوا غير الطريق ، وطلبا فلم يلحقا ، وأقبلا حتى لحقا زحر بن قيس بالأهواز ، فاجتمع بها ناس كثير ممن يريد البصرة ، فبلغ ذلك خالد بن عبد الله فكتب إلى الناس كتاباً وبعث رسولاً يضرب وجوه الناس ويردهم ، فقدم بكتابه مولى له ، فقرأ الكتاب على الناس ، وقد جمعوا له :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من خالد بن عبد الله ، إلى من بلغه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين . سلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن الله كتب على عباده الجهاد ، وفرض طاعة ولاة الأمر ، فمن جاهد فلنما يجاهد لنفسه ، ومن ترك الجهاد في الله كان الله عنه أغنى ، ومن عصي ولاة الأمر والقوام

بالحق أسخط الله عليه ، وكان قد استحق العقوبة في بشره ، وعرض نفسه لاستفائة ماله وإلقاء عطائه ، والتسير إلى أبعد الأرض وشر البلدان . أيها المسلمون ، اعلموا على من اجترأتم ومن عصيتم ! إنه عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ، الذي ليست فيه غميمة ، ولا لأهل المعصية عنده رخصة ، سوطه على من عصى ، وعلى من خالف سيفه ، فلا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً ، فإني لم ألكم نصيحة . عباد الله ، ارجعوا إلى مكاتبكم وطاعة خليفكم ، ولا ترجعوا عاصين مخالفين فيأتكم ما تكرهون . أقسم بالله لا أثقف عاصياً بعد كتابي هذا إلا قتلته إن شاء الله ؛ والسلام عليكم ورحمة الله .

وأخذ كلما قرأ عليهم سطرأ أو سطرين قال له زحر : أوجز ؛ فيقول له مولى خالد : والله إني لأسمع كلام رجل ما يريد أن يفهم ما يسمع . أشهد لا يعيج ، بشيء مما في هذا الكتاب . فقال له : اقرأ أيها العبد الأحر ما أمرت به ، ثم ارجع إلى أهلك ، فإنك لا تدري ما في أنفسنا .

فلما فرغ من قراءته لم يلتفت الناس إلى ما في كتابه ، وأقبل زحر وإسحاق بن محمد ومحمد بن عبد الرحمن حتى نزلوا قرية لال الأشعث إلى جانب الكوفة ، وكتبوا إلى عمرو بن حريث :

أما بعد ، فإن الناس لما بلغهم وفاة الأمير رحمه الله عليه تفرقوا فلم يبق معنا أحد ؛ فأقبلنا إلى الأمير والي مصرنا ، وأحببنا ألا ندخل الكوفة إلا بإذن الأمير وعلمه .

فكتب إليهم :

أما بعد ، فإنكم تركتم مكاتبكم وأقبلتم عاصين مخالفين ، فليس لكم عندنا إذن ولا أمان . فلما أتاهم ذلك انتظروا حتى إذا كان الليل دخلوا إلى رحالهم ، فلم يزالوا مقيمين حتى قدم الحاجج بن يوسف .

وفي هذه السنة عزل عبد الملك بكير بن وشاح عن خراسان ، ولأها أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد .

ذكر الخبر عن سبب عزل بكير وولاية أمية :

وكانت ولاية بكير بن وشاح خراسان إلى حين قدم أمية عليها والياً سنتين في قول أبي الحسن ، وذلك أن ابن خازم قتل سنة ثلاث وسبعين وقدم أمية سنة أربع وسبعين .

وكان سبب عزل بكير عن خراسان أن بجيراً - فيما ذكر علي عن المفضل - حبسه بكير بن وشاح لما كان منه فيما ذكرت في رأس ابن خازم حين قتله ، فلم يزل محبوساً عنده حتى استعمل عبد الملك أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، فلما بلغ ذلك بكيراً أرسل إلى بجير ليصلحه ، فأبى عليه وقال : ظن بكير أن خراسان تبقى له في الجماعة ! فمشت السفراء بينهم ، فأبى بجير ، فدخل عليه ضرار بن حصين الضبي ، فقال : ألا أراك ماثقاً ! يرسل إليك ابن عمك يعتذر إليك وأنت أسيره ، والمشرقي في يده - ولو قتلك ما حبقت فيك عنز - ولا تقبل منه ! ما أنت بموفق . اقبل الصلح ، واخرج وأنت على أمرك . فقبل مشورته ، وصالح بكيراً ، فأرسل إليه بكير بأربعين ألفاً ، وأخذ على بجير ألا يقاتله . وكانت تميم قد اختلفت بخراسان ، فصارت مقاعس والبطون يتعصبون له ، فخاف أهل خراسان أن تعود الحرب وتفسد البلاد ، ويقهرهم عدوهم من المشركين ، فكتبوا إلى عبد الملك بن مروان : إن خراسان لا تصلح بعد الفتنة إلا على رجل من قريش لا يحسدونه ولا يتعصبون عليه ، فقال عبد

الملك: خراسان تُغر المشرق، وقد كان به من الشر ما كان، وعليه هذا التميمي، وقد تعصب الناس وخافوا أن يصيروا إلى ما كانوا عليه، فيهلك الثغر ومن فيه، وقد سألوا أن أولي أمرهم رجلاً من قريش فيسمعوا له ويطيعوا، فقال أمية بن عبد الله: يا أمير المؤمنين، تداركهم برجل منك، قال: لولا انحيارُك عن أبي فديك كنت ذلك الرجل. قال: يا أمير المؤمنين، والله ما انجزت حتى لم أجد مقاتلاً، وخذلي الناس، فرأيت أن أنحياري إلى فئة أفضل من تعريضي عصبه بقيت من المسلمين للهلكة، وقد علم ذلك مَرار بن عبد الرحمن بن أبي بكر، وكتب إليك خالد بن عبد الله بما بلغه من مُخذري - قال: وكان خالد كتب إليه بعذرته، ويُخبره أن الناس قد خذلوه - فقال مَرار: صدق أمية يا أمير المؤمنين، لقد صبر حتى لم يجد مقاتلاً، وخذله الناس. فولاه خراسان، وكان عبد الملك يُحب أمية، ويقول: تتيجتي، أي لِدتي، فقال الناس: ما رأينا أحداً عُوض من هزيمة ما عُوض أمية، فر من أبي فديك فاستعمل على خراسان؛ فقال رجل من بكر بن وائل في تحبس بُكير بن وشاح:

أَتَتِكَ الْعِيسُ تَنْفُخُ فِي بُرَاهَا تُكْشِفُ عَنْ مَنَاكِبِهَا الْقُطُوعُ
كَأَنَّ مَوَاقِعَ الْإِكْوَارِ مِنْهَا حَمَامُ كَنَائِسٍ بُقِعَ وَقُوعُ
بَأْبَيْضَ مِنْ أُمِيَّةٍ مُضْرَجِيٍّ كَأَنَّ جَبِينَهُ سَيْفٌ صَنِيعُ

وبحير يومئذ بالسَّنج يسأل عن مسير أمية؛ فلما بلغه أنه قد قارب أبرشهر قال الرجل من عجم أهل مرو يقال له رُزَيْن - أو زُرير: دُلني على طريق قريب لالقي الأمير قبل قدومه، ولك كذا وكذا، وأجزل لك العطية؛ وكان عالماً بالطريق، فخرج به فصار من السَّنج إلى أرض سَرْخَس في ليلة، ثم مضى به إلى نيسابور فوافي أمية حين قدم أبرشهر، فلقبه فأخبره عن خراسان وما يصلح أهلها وتحسن به طاعتهم، ويخف على الوالي مؤونتهم، ورفع على بُكير أموالاً أصابها، وحذره غدره.

قال: وسار معه حتى قدم مرو، وكان أمية سيّداً كريماً، فلم يعرض لبُكير ولا لعماله، وعرض عليه أن يوليه شُرطته، فأبى بُكير، فولاه بحير بن ورفاء، فلام بُكيراً رجالاً من قومه، فقالوا: أبيت أن تلي، فولى بحيراً وقد عرفت ما بينكما! قال: كنت أمس والي خراسان تُحمل الحراب بين يدي، فأصير اليوم على الشرطة أحمل الحربة!

وقال أمية لبُكير: اختر ما شئت من عمل خراسان، قال: طُخارستان، قال: هي لك. قال: فتجهز بُكير وأنفق مالاً كثيراً، فقال بحير لأمية: إن أتى بُكير طُخارستان خلعتك، فلم يزل يحذره حتى حذر، فأمره بالمقام عنده.

وحج بالناس في هذه السنة الحجاج بن يوسف. وكان ولي قضاء المدينة عبد الله بن قيس بن خزيمة قبل شخوصه إلى المدينة كذلك، ذكر ذلك عن محمد بن عمر.

وكان على المدينة ومكة الحجاج بن يوسف، وعلى الكوفة والبصرة بشر بن مروان، وعلى خراسان أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وعلى قضاء الكوفة شريح بن الحارث، وعلى قضاء البصرة هشام بن هُبيرة، وقد ذكر أن عبد الملك بن مروان اعتمر في السنة، ولا نعلم صحة ذلك.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين

ذكرُ الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمن ذلك غزوة محمد بن مروان الصائفة حين خرجت الروم من قِبَل مَرْعَش .

وفي هذه السنة ولَّى عبدُ الملِك يحيى بن الحكم بن أبي العاص المدينة .

وفي هذه السنة ولَّى عبدُ الملِك الحجاج بن يوسف العراق دون خراسان وسجستان .

وفيهما قَدِم الحجاج الكوفة . فحدَّثني أبوزيد، قال : حدَّثني محمد بنُ يحيى أبو غَسَّان، عن عبد الله بن أبي عبيدة بن محمد بن عَمَّار بن ياسر، قال : خرج الحجاج بن يوسف من المدينة حين أتاه كتاب عبد الملك بن مروان بولاية العراق بعد وفاة بشر بن مَروان في اثني عشر ركباً على النَّجَّاب حتى دخل الكوفة حين انتشر النهار فجاءه، وقد كان بشر بعث المهلب إلى الحرورية، فبدأ بالمسجد فدخله، ثم صعد المنبر وهو متلثم بعمامة خمر حمراء، فقال : عليَّ بالناس، فحسبوه وأصحابه خارجةً، فهموا به، حتى إذا اجتمع إليه الناس قام فكشف عن وجهه قال :

أنا ابنُ جَلَا وطلَّعُ الثَّنايا متى أضعِ العِمَامَةَ تُعرفوني

أما والله إنِّي لأحمل الشرَّ حمَلَه، وأحدُّوه بنعله، وأجزبه بمثله، وإنِّي لأرى رؤوساً قد أَيْنَعَت وحنَّ قُطَافُها، وإنِّي لأنظر إلى الدِّماء بين العمائم واللِّحَى .

قد شَمَّرَتْ عن ساقِها تَشْمِيرًا

هذا أوان الشَّد فاشتدِّي زَيْمٌ قد لَفَّها الليلُ بِسَوَاقٍ حُطَمٌ
ليس براعي إبِلٍ ولا غَنَمٌ ولا بجزَّارٍ على ظهْرِ وَضَمٌ
قد لَفَّها الليلُ بعَضَلَبِيٍّ أَرْوَعَ خَرَّاجٍ من الدَّوِيِّ
مُهاجِرٍ ليس بأَعْرَابِيٍّ

ليس أوان يَكْرهُ الخِلَاطُ جاءت به والقُلُصُ الأعْلَاطُ
تَهْوِي هَوِيٍّ سابقِ الغَطَاطِ

وإنِّي واللَّهِ يا أهل العراق ما أَعْمَزَ كَتَغْمَاز التَّينِ، ولا يَقَعْقَعُ لي بالشَّنَّان ولقد فُرِرت عن ذكاء، وجَرِيت إلى الغاية القصوى . إن أمير المؤمنين، عبد الملك نشر كنانته ثم عَجَم عيدانها فوجدني أمرها عوداً، وأصلبها مِكْسِراً، فوجهني إليكم ؛ فإنكم طالما أَوْضَعْتُمْ في الفتن، وسنَّتم سنن الغيِّ . أما واللَّهِ لألْحُونَكُمْ لَحْوَ العود،

ولاعصبتكم عَصَبُ السَّلْمَةِ ، ولأضربنكم ضربَ غرائب الإبل . إني والله لا أَعِدُ إِلَّا وَفَيْتُ ، ولا أخلُقُ إِلَّا قَرَيْتُ . فإيَّاي وهذه الجماعات وقيلًا وقالوا ، وما يقول ، وفيم أنتم وذآك ؟ واللَّهِ لتسقيمنَّ على سُبُلِ الحق أو لأدعنَّ لكل رجل منكم شُغلاً في جسده . مَنْ وَجَدْتُ بعد ثلاثة من بَعَثِ المهلب سَفَكْتُ دَمَهُ ، وأنهتُ ماله .
ثم دخل منزله ولم يزد على ذلك .

قال : ويقال : إنه لما طال سكوتُه تناولَ محمد بنُ عُميرَ حصيَّ فأراد أن يحصبه بها ، وقال : قاتله الله ! ما أعياه وأدمه ! والله إني لأحسب خبره كُرَواته . فلما تكلم الحجاج جعل الحصى ينتثر من يده ولا يعقل به ، وأن الحجاج قال في خطبته :

شاهت الوجوه ! إن الله صَرَبَ ﴿مِثْلًا قَرِيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(١) ، وأنتم أولئك وأشباه أولئك ، فاستوثقوا واستقيموا . فوالله لأذيقنكم الهوان حتى تديرُوا ، ولأعصبنكم عَصَبُ السَّلْمَةِ حتى تنقادوا ، أقسم بالله لتقبلنَّ على الإنصاف ، ولتدعنَّ الإرجاف ، وكان وكان ، وأخبرني فلان عن فلان ، والمهبر وما المهبر ! أو لأهبرنكم بالسيف هبْرًا يدع النساء أيامي ، والولدان يتامى ، وحتى تمشوا السُمهى ، وتقلعوا عن هاوها . إيَّاي وهذه الزرافات ، لا يركبنَّ الرجل منكم إِلَّا وحده . ألا إنه لوساغ لأهل المعصية معصيتهم ما جُبي فيء ولا قُوتل عدو ، ولعُطلت الثغور ، ولولا أنهم يُغزون كرهاً ما غزوا طُوعاً ، وقد بلغني رَفْضُكم المهلب ، وإقبالكم على مصركم عُصاةً مخالفين ، وإني أقسم لكم بالله لا أجد أحداً بعد ثلاثة إِلَّا ضربتُ عنقه .

ثم دعا العرفاء فقال : ألحقوا الناس بالمهلب ، وأتوني بالبراءات بموافاتهم ولا تغلقنَّ أبواب الجسر ليلاً ولا نهاراً حتى تنقضي هذه المدة .

تفسير الخطبة : قوله : «أنا ابنُ جَلالٍ» ، فابنُ جلال الصُّبحُ لأنه يجلو الظلمة . والثنايا : ما صغر من الجبال ونبتاً . وأينع الثمر : بلغ إدراكه . وقوله : «فاشتدي زيم» ، فهي اسم للحرب . والحطم : الذي يحطم كل شيء يمرُّ به . والوضم : ما وقي به اللحم من الأرض . والعصلي : الشديد . والدوية : الأرض الفضاء التي يُسمع فيها دويُّ أخفاف الإبل . والأعلاط : الإبل التي لا أرسان عليها ، أنشد أبو زيد الأصمعي :

واعرَورَتِ العُلُطُ العُرُضِيُّ تركضُهُ أم الفوارس بالديداء والرُبعة
والشنان ، جمع شنة : القربة البالية اليابسة ، قال الشاعر :

كَأَنَّكَ مِنْ جِمالِ بني أَقْيَشٍ يُقَعِّعُ خَلْفَ رِجْلَيْهِ بِشَنٍ

وقوله : «فعجم عيدانها» ، أي عَصُها ، والعجم بفتح الجيم : حبّ الزبيب ، قال الأعشى :

وَمَلَفُوظُهَا كَلْقِيطِ العَجَمِ

وقوله : «أمرها عُوداً» ، أي أصلبها ، يقال : حبلٌ مُمرٌّ ، إذا كان شديدَ الفتل . وقوله : «لأعصبنكم عَصَبُ السَّلْمَةِ» ، فالعَصَبُ القطع ، والسَّلْمَةُ : شجرة من العِصاه . وقوله : «لا أخلُقُ إِلَّا قَرَيْتُ» ، فالخلُق : التقدير ،

قال الله تعالى: ﴿مَنْ مُضْغَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ﴾^(١)، أي مقدرة وغير مقدرة، يعني ما يتم وما يكون سيقطا، قال الكميت يصف قربة:

لَمْ تَجْشَمِ الْخَالِقَاتِ فِرْيَتَهَا وَلَمْ يَفُضْ مِنْ نِطَاقِهَا السَّرْبُ
وَأَمَّا وَصْفُ حَوَاصِلِ الطَّيْرِ، يقول: ليست كهذه. وَصَخْرَةَ خُلُقَاءِ، أي مَلْسَاءِ، قال الشاعر:
وَبَهْوُ هَوَاءٍ فَوْقَ مَوْرِ كَأَنَّهُ مِنْ الصَّخْرَةِ الْخُلُقَاءِ زُحْلُوقُ مَلْعَبٍ
ويقال: فَرِيْتُ الْأَدِيمِ إِذَا أَصْلَحَتْهُ، وَأَفَرِيْتُ، بِالْأَلْفِ إِذَا أَنْتَ أَفْسَدْتَهُ. وَالسُّمَّهَى: الْبَاطِلُ، قال أبو عمرو الشَّيْبَانِيُّ: وَأَصْلُهُ مَا تُسَمِّيهِ الْعَامَةُ مُحَاطَ الشَّيْطَانِ، وَهُوَ لُعَابُ الشَّمْسِ عِنْدَ الظَّهِيرَةِ، قَالَ أَبُو النَّجْمِ الْعَجَلِيُّ:

وَذَابَ لِلشَّمْسِ لُعَابٌ فَنَزَلَ وَقَامَ مِيزَانُ الزَّمَانِ فَاعْتَدَلَ
وَالزَّرَافَاتُ: الْجَمَاعَاتُ. تَمَّ التَّفْسِيرُ.

قال أبو جعفر: قال عمر: فحدثني محمد بن يحيى، عن عبد الله بن أبي عُبَيْدَةَ، قال: فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ سَمِعْتُ تَكْبِيرًا فِي السُّوقِ، فَخَرَجْتُ حَتَّى جَلَسْتُ عَلَى الْمَنْبَرِ، فَقَالَ:

يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، وَأَهْلَ الشَّقَاقِ وَالنِّفَاقِ، وَمَسَاوِيءِ الْأَخْلَاقِ، إِنِّي سَمِعْتُ تَكْبِيرًا لَيْسَ بِالتَّكْبِيرِ الَّذِي يَرَادُ اللَّهُ بِهِ فِي التَّرْغِيبِ، وَلَكِنَّهُ التَّكْبِيرُ الَّذِي يُرَادُ بِهِ التَّرْهِيْبُ، وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهَا عَجَاجَةٌ تَحْتَهَا قَصْفٌ. يَا بَنِي اللَّكِيْعَةِ وَعَبِيدَ الْعَصَا، وَأَبْنَاءَ الْإِيَامَى، أَلَا يَرَبِّعُ رَجُلٌ مِنْكُمْ عَلَى ظَلْعِهِ، وَيُحَسِّنُ حَقْنَ دَمِهِ، وَيَبْصُرُ مَوْضِعَ قَدَمِهِ! فَأَقْسِمُ بِاللَّهِ لَا وَشُكَ أَنْ أَوْقَعَ بِكُمْ وَقْعَةً تَكُونُ نَكَالًا لِمَا قَبْلَهَا، وَأَدْبَابًا لِمَا بَعْدَهَا.

قَوْلُهُ: «تَحْتَهَا قَصْفٌ»، فَهُوَ شِدَّةُ الرِّيحِ. وَاللَّكَعَاءُ: الْوُرَهَاءُ، وَهِيَ الْحَمَقَاءُ مِنَ الْإِمَاءِ. وَالظَّلْعُ: الضَّعْفُ وَالزَّهْنُ مِنْ شِدَّةِ السَّيْرِ. وَقَوْلُهُ: «تَهْوَى هَوِيَّ سَابِقِ الْغَطَاطِ»، فَالْغَطَاطُ بضم الغين: ضَرْبٌ مِنَ الطَّيْرِ. قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: الْغَطَاطُ بفتح الغين: ضَرْبٌ مِنَ الطَّيْرِ، وَأَنْشَدَ لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ:

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كَلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ الْغَطَاطِ الْمُقْبِلِ
بفتح الغين. قَالَ: وَالْغَطَاطُ بضم الغين: اخْتِلَاطُ الضَّوْءِ بِالظُّلْمَةِ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، قَالَ الرَّاجِزُ:
قَامَ إِلَى أَدْمَاءَ فِي الْغَطَاطِ يَمْشِي بِمِثْلِ قَائِمِ الْفُسْطَاطِ
تَمَّ التَّفْسِيرُ.

قال: فقام إليه عُمر بنُ ضبابٍ التَّمِيمِيُّ ثُمَّ الْخَنْظَلِيُّ فَقَالَ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ! أَنَا فِي هَذَا الْبَعْثِ. وَأَنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ عَلِيلٌ، وَهَذَا ابْنِي، وَهَذَا أَشَبُّ مِنِّي؛ قَالَ: وَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: عُمر بنُ ضبابٍ التَّمِيمِيُّ، قَالَ: أَسَمِعْتَ كَلَامَنَا بِالْأَمْسِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَلَسْتُ الَّذِي غَزَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَثْمَانَ؟ قَالَ: بَلَى؛ قَالَ: وَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالَ: كَانَ حَبَسَ أَبِي، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا، قَالَ: أَوَلَيْسَ يَقُولُ:

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي تَرَكْتُ عَلَى عَثْمَانَ تَبْكِي خَلَائِلُهُ

إني لأحسب في قتلك صلاح المصرين، قم إليه يا حرسى فاضرب عنقه؛ فقام إليه رجل فضرَب عنقه، وأنهب ماله.

ويقال: إنَّ عَنبَسَةَ بنَ سعيد قال للحجاج: أتعرف هذا؟ قال: لا، قال: هذا أحدُ قَتْلَةِ أمير المؤمنين عثمان؛ فقال الحجاج: يا عدو الله، أفلا إلى أمير المؤمنين بعثتَ بديلاً! ثم أمر بضرب عنقه، وأمر منادياً فنَادَى: ألا إنَّ عُميرَ بنَ ضابئ أتى بعد ثلاثة: وقد كان سميع النداء، فأمرنا بقتله. ألا فإنَّ ذمَّة الله بريئة ممن بات الليلة من جُند المهلب. فخرج الناس فازدحموا على الجسر، وخرجت العُرفاء إلى المهلب وهو برامهُرْمَز فأخذوا كتبه بالموافاة، فقال المهلب: قدم العراق اليوم رجل ذَكَر: اليوم قُوتِل العدو.

قال ابن أبي عُبَيْدة في حديثه: فعبر الجسر تلك الليلة أربعة آلاف من مَذْحِج؛ فقال المهلب: قدم العراق رجل ذَكَر.

قال عمر عن أبي الحسن، قال: لما قرأ عليهم كتابَ عبد الملك قال القارىء: أما بعد، سلامٌ عليكم فإني أحمَد إليكم الله. فقال له: اقطع، يا عبيد العصا، أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا يردُّ رادُّ منكم السلام! هذا أدبُ ابن نُبَيْة، أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب، أبدأ بالكتاب، فلما بلغ إلى قوله: «أما بعد، سلامٌ عليكم»، لم يبق منهم أحدٌ إلَّا وقال: وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله.

قال عمر: حدَّثني عبدُ الملك بنُ شيبان بن عبد الملك بن مِسْمَع، قال: حدَّثني عمرو بن سعيد، قال: لما قدم الحجاج الكوفة خطبهم فقال: إنكم قد أخللتُم بعسكر المهلب، فلا يُصْبِحَنَّ بعد ثلاثة من جُنْدِه أحدٌ، فلما كان بعد ثلاثة أتى رجلٌ يستدمني، فقال: مَنْ بك؟ قال: عمير بنُ ضابئ البرُّجُمي، أمرته بالخروج إلى مُعسكره فضرَبني - وكَذَب عليه. فأرسل الحجاج إلى عُمير بن ضابئ، فأتي به شيخاً كبيراً، فقال له: ما خلَّفَكَ عن مُعسكرِكَ؟ قال: أنا شيخٌ كبيرٌ لا حراك بي، فأرسلتُ ابني بديلاً فهو أجلد مني جَلداً، وأحدَث مني سناً، فسئل عما أقول لك، فإن كنتُ صادقاً وإلَّا فعاقبني. قال: فقال عَنبَسَةُ بنُ سعيد: هذا الذي أتى عثمان قتيلاً؛ فلطم وجهه ووثب عليه فكسر ضلعين من أضلاعه، فأمر به الحجاج فضرَبت عنقه. قال عمرو بنُ سعيد: فوالله إني لأسير بين الكوفة والحيرة إذ سمعتُ رَجَزاً مُضرباً، فعدلتُ إليهم فقلت: ما الخبر؟ فقالوا: قدَّم علينا رجل من شرِّ أحياء العرب من هذا الحيِّ من ثمود، أسقف الساقين، تَمْسُوح الجاعِرَتين أخفَش العينين، قدَّم سيِّد الحيِّ عُميرَ بن ضابئ فضرَب عنقه.

ولما قَتَلَ الحجاج عُميرَ بن ضابئ لقي إبراهيم بن عامر أحد بني غاضرة من بني أسد عبد الله بن الزبير في السوق فسأله عن الخبر، فقال ابن الزبير:

أقول لإبراهيمَ لما لقيتهُ	أرى الأمر أَمسى مُنصباً متشعباً
تجهز وأسرِع والحق الجيش لا أرى	سوى الجيش إلا في المهالك مذهباً
تخير فإما أن تزور ابن ضابئ	عُميراً وإما أن تزور المهلباً
هما خُطتا كره نجاؤك منهما	وَكُفواكَ حَوْلِيَا من الثلج أشهباً
فحال ولو كانت خراسان دونه	رأها مَكمان السوقي أو هي أقرباً
فكائن ترى من مُكْرِهِ العدو مُسمن	تَحْمَم جُنُود السُّجُج حتى تحسبها

وكان قدوم الحجاج الكوفة - فيما قيل - في شهر رمضان من هذه السنة ، فوجه الحکم بن أيوب الثقفی على البصرة أميراً ، وأمره أن يشتد على خالد بن عبدالله ، فلما بلغ خالداً الخبر خرج من البصرة قبل أن يدخلها الحکم ، فنزل الجُلحاء وشيعة أهل البصرة ، فلم يبرح مُصلاً حتى قسّم فيهم ألف ألف .

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الملك بن مروان ، حدّثني بذلك أحمد بن ثابت عمّن حدّثه ، عن إسحاق ابن عيسى ، عن أبي معشر . ووفد يحيى بن الحکم في هذه السنة على عبد الملك بن مروان ، واستخلف على عمله بالمدينة أبان بن عثمان ، وأمر عبد الملك يحيى بن الحکم أن يقرّ على عمله على ما كان عليه بالمدينة . وعلى الكوفة والبصرة الحجاج بن يوسف . وعلى خراسان أمية بن عبدالله . وعلى قضاء الكوفة سُريح ، وعلى قضاء البصرة زُرارة بن أوفى .

وفي هذه السنة خرج الحجاج من الكوفة إلى البصرة ، واستخلف على الكوفة أبا يعفور عروة بن المغيرة بن شعبة ، فلم يزل عليها حتى رجع إليها بعد وقعة رُستقباد . وفي هذه السنة ثار الناس بالحجاج بالبصرة .

ذكر الخبر عن سبب وثوبهم به :

ذكر هشام ، عن أبي مخنف ، عن أبي زهير العبسي ، قال : خرج الحجاج بن يوسف من الكوفة بعدما قدمها ، وقتل ابن ضابء من فوره ذلك حتى قدم البصرة ، فقام فيها بخطبة مثل الذي قام بها في أهل الكوفة ، وتوعدهم مثل وعيده إياهم ، فأتي برجل من بني يشكر ف قيل : هذا عاصي ، فقال : إن بي فتناً ، وقد رآه بشر فعذّرني ، وهذا عطائي مردود في بيت المال ، فلم يقبل منه وقتله ، ففرع لذلك أهل البصرة ، فخرجوا حتى تداكؤوا على العارض بقنطرة رامهرمز ، فقال المهلب : جاء الناس رجلاً ذكراً .

وخرج الحجاج حتى نزل رُستقباد في أول شعبان سنة خمس وسبعين فثار الناس بالحجاج ، عليهم عبدالله بن الجارود ، فقتل عبدالله بن الجارود ، وبعث بثمانية عشر رأساً فُنصبت برامهرمز للناس ، فاشتدت ظهور المسلمين ، وساء ذلك الخوارج ، وقد كانوا رجوا أن يكون من الناس فرقة واختلاف ، فانصرف الحجاج إلى البصرة .

وكان سبب أمر عبدالله بن الجارود أن الحجاج لما ندب الناس إلى اللحاق بالمهلب بالبصرة فشخصوا سار الحجاج حتى نزل رُستقباد قريباً من دُستوى في آخر شعبان ومعه وجوه أهل البصرة ، وكان بينه وبين المهلب ثمانية عشر فرسخاً ، فقام في الناس ، فقال : إن الزيادة التي زادكم ابن الزبير في أعطياتكم زيادة فاسق منافق ، ولست أجيزها . فقام إليه عبدالله بن الجارود العبدی فقال : إنها ليست بزيادة فاسق منافق ، ولكنها زيادة أمير المؤمنين عبد الملك قد أثبتتها لنا . فكذّبه وتوعده ، فخرج ابن الجارود على الحجاج وتابعه وجوه الناس ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فقتل ابن الجارود وجماعة من أصحابه ، وبعث برأسه ورؤوس عشرة من أصحابه إلى المهلب ، وانصرف إلى البصرة ، وكتب إلى المهلب وإلى عبدالرحمن بن مخنف : أما بعد ، إذا أتاكم كتابي هذا فناهضوا الخوارج ؛ والسلام .

وفي هذه السنة نفى المهلب وابن مخنف الأزارقة عن رامهرمز .

ذكر الخبر عن ذلك وما كان من أمرهم في هذه السنة :

ذكر هشام عن أبي مخنف ، عن أبي زهير العبسي ، قال : ناهض المهلب مخنف الأزارقة برامهمز بكتاب الحجاج إليهما لعشر بقين من شعبان يوم الاثنين سنة خمس وسبعين ، فأجلوهم عن رامهمز من غير قتال شديد ، ولكنهم زحفوا إليهم حتى أزالوهم ، وخرج القوم كأنهم على حامية ، حتى نزلوا سابور بأرض منها يقال لها كازرون ، وسار المهلب وعبد الرحمن بن مخنف حتى نزلوا بهم في أول رمضان ، فخذق المهلب عليه ، فذكر أهل البصرة أن المهلب قال لعبد الرحمن بن مخنف : إن رأيت أن تخذق عليك فافعل ؛ وإن أصحاب عبد الرحمن أبوا عليه وقالوا : إنما خندقنا سيوفنا . وإن الخوارج زحفوا إلى المهلب ليلاً ليبيتوه ، فوجدوه قد أخذ جذره ، فمالوا نحو عبد الرحمن بن مخنف فوجدوه لم يخذق ، فقاتلوه ، فانهزم عنه أصحابه ، فنزل فقاتل في أناس من أصحابه فقتل ، وقتلوا حوله ، فقال شاعرهم :

لمن العسكر المكلل بالضر
عى فهم بين ميته وقبيل
فترأهم تسفي الرياح عليهم
حاصب الرمل بعد جر الديول

وأما أهل الكوفة فإنهم ذكروا أن كتاب الحجاج بن يوسف أتى المهلب وعبد الرحمن بن مخنف ، أن ناهضاً الخوارج حين يأتيكما كتابي . فناهضاهم يوم الأربعاء لعشر بقين من رمضان سنة خمس وسبعين واقتتلوا قتالاً شديداً لم يكن بينهم فيما مضى قتال كان أشد منه ، وذلك بعد الظهر ، فمالت الخوارج بحدها على المهلب بن أبي صفرة فاضطروه إلى عسكره ، فسرح إلى عبد الرحمن رجلاً من صلحاء الناس ، فأتوه ، فقالوا : إن المهلب يقول لك : إنما عدونا واحد ، وقد ترى ما قد لقي المسلمون ، فأيد إخوانك يرحمك الله . فأخذ يمد بالخيول بعد الخيل ، والرجال بعد الرجال ، فلما كان بعد العصر ورأت الخوارج ما يجيء من عسكر عبد الرحمن من الخيل والرجال إلى عسكر المهلب ظنوا أنه قد خف أصحابه ، فجعلوا خمس كتائب أو ستاً تجاة عسكر المهلب ، وانصرفوا بحدهم وجميعهم إلى عبد الرحمن بن مخنف ، فلما رأهم قد صمدوا له نزل ونزل معه القراء ، عليهم أبو الأحوص صاحب عبد الله بن مسعود ، وخزيمة بن نصر أبو نصر بن خزيمة العبسي الذي قتل مع زيد بن علي وصُلب معه بالكوفة ، ونزل معه من خاصة قومه أحد وسبعون رجلاً ، وحملت عليهم الخوارج فقاتلتهم قتالاً شديداً . ثم إن الناس انكشفوا عنه ، فبقي في عصابة من أهل الصبر ثبتوا معه ، وكان ابنه جعفر بن عبد الرحمن فيمن بعثه إلى المهلب ، فنادى في الناس ليتبعوه إلى أبيه ، فلم يتبعه إلا ناس قليل ، فجاء حتى إذا من أبيه حالت الخوارج بينه وبين أبيه ، فقاتل حتى ارتثته الخوارج ، وقاتل عبد الرحمن بن مخنف ومن معه على تل مشرف حتى ذهب نحو من ثلثي الليل ، ثم قتل في تلك العصابة ، فلما أصبحوا جاء المهلب حتى أتاه ، فدفعه وصلى عليه ، وكتب بمصابه إلى الحجاج ، فكتب بذلك الحجاج إلى عبد الملك بن مروان ، فنعى عبد الرحمن بمجيء وذم أهل الكوفة ، وبعث الحجاج على عسكر عبد الرحمن بن مخنف عتاب بن ورقاء ، وأمره إذا ضمتها الحرب أن يسمع للمهلب ويطيع ، فسأه ذلك ، فلم يجد بداً من طاعة الحجاج ولم يقدر على مراجعته ، فجاء حتى أقام في ذلك العسكر ، وقاتل الخوارج وأمره إلى المهلب ، وهو في ذلك يقضي أموره ، ولا يكاد يستشير المهلب في شيء . فلما رأى ذلك المهلب اصطنع رجالاً من الكوفة فيه بسطام بن مصلقة بن هبيرة ، فأغراهم بعتاب .

قال أبو مخنف عن يوسف بن يزيد : إن عتاباً أتى المهلب يسأله أن يرزق أصحابه ، فأجلسه المهلب معه

على مجلسه، قال: فسأله أن يرزق أصحابه سؤالاً فيه غِلظة وتجهُّم، قال: فقال له المهلب: وإنك لها هنا يابن اللُّخناء! فبنو تميم يزعمون أنه ردَّ عليه، وأما يوسف بن يزيد وغيره فيزعمون أنه قال: والله أنها لمعنةٌ مخولةٌ، ولوددت أن الله فرَّق بيني وبينك. قال: فجرى بينهما الكلام حتى ذهب المهلب ليرفع القضيب عليه، فوثب عليه ابنه المغيرة، فقبض على القضيب وقال: أصلح الله الأمير! شيخ من أشياخ العرب، وشريف من أشرافهم، إن سمعت منه بعض ما تكرهه فاحتمله له، فإنه لذلك منك أهل، ففعل. وقام عتاب فرجع من عنده، واستقبله بسطام بن مصقلة يشتمه، ويقع فيه.

فلما رأى ذلك كتب إلى الحجاج يشكو إليه المهلب ويخبره أنه قد أغرى به سُفهاء أهل مصر، ويسأله أن يضمه إليه، فوافق ذلك من الحجاج حاجةً إليه فيما لقي أشراف الكوفة من شبيب، فبعث إليه أن أقدم واترك أمر ذلك الجيش إلى المهلب، فبعث المهلب عليه حبيب بن المهلب.

وقال حميد بن مسلم يرثي عبد الرحمن بن مخنف:

إن يقتلوك أبا حكيم غُدوةً
أو يُثَكِّلُونَا سَيِّداً لِمَسُودٍ
فَلِمَثَلِ قَتْلِكَ هَذَا قَوْمَكَ كُلَّهُمْ
مَنْ كَانَ يَكْشِفُ غُرْمَهُمْ وَقِتَالَهُمْ
أَقْسَمْتُ مَا نَيْلْتُ مَقَاتِلُ نَفْسِهِ
وَتَنَاجَزَ الْأَبْطَالُ تَحْتَ لَوَائِهِ
يَوْمًا طَوِيلًا ثُمَّ آخَرَ لَيْلِيهِمْ
وَتَكَشَّفَتْ عَنْهُ الصُّفُوفُ وَخَيْلُهُ

وقال سُرَاقَةُ بْنُ مِرْدَاسٍ الْبَارِقِيُّ:

أَعْنِي جُودًا بِالدُّمُوعِ السَّوَائِبِ
عَلَى الْأَرْدِ لَمَّا أَنْ أَصِيبَ سَرَاتُهُمْ
نُرجِي الْخُلُودَ بَعْدَهُمْ وَتَعَوَّنَا
وَكُنَّا بِخَيْرٍ قَبْلَ قَتْلِ ابْنِ مِخْنَفٍ
أَمَارَ دُمُوعِ الشُّبَّانِ مِنْ أَهْلِ مِصْرِهِ
وَقَاتِلَ حَتَّى مَاتَ أَكْرَمَ مِيتَةٍ
وَضَارَبَ عَنْهُ الْمَارِقِينَ عَصَابَةً
فَلَا وَلَدَتْ أَنْثَى وَلَا أَبَ غَائِبُ
فِيَا عَيْنُ بَكِّي مِخْنَفًا وَأَبْنَ مِخْنَفٍ

وقال سُرَاقَةُ أَيْضًا يَرِثِي عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ مِخْنَفٍ:

نَوَى سَيِّدُ الْأَرْدَيْنِ أَرْدَ شُنُوءَةٍ
وَضَارَبَ حَتَّى مَاتَ أَكْرَمَ مِيتَةٍ

وَأَرَدَ عُثْمَانُ رَهْمَنَ رَمْسٍ بِكَازِرٍ
بِأَبْيَضَ صَافٍ كَالْعَقِيقَةِ بِاتِرٍ

وَصُرِّعَ حَوْلَ التَّلِّ تَحْتَ لَوَائِهِ كِرَامُ الْمَسَاعِي مِنْ كِرَامِ الْمَعَاشِرِ
قَضَى نَحْبَهُ يَوْمَ اللَّقَاءِ ابْنُ مِخْنَفٍ وَأَدْبَرَ عَنْهُ كُلُّ أَلَوْتٍ دَائِرِ
أَمْدٌ فَلَمْ يُمَدِّدْ فَرَاخَ مُشْمَرًا إِلَى اللَّهِ لَمْ يَذْهَبْ بِأَثْوَابِ غَايِرِ
وَأَقَامَ الْمَهْلَبَ بِسَابُورٍ يِقَاتِلُهُمْ نَحْوًا مِنْ سَنَةٍ .

وفي هذه السنة تحرك صالح بن مسرّح أحد بني امرئ القيس ، وكان يرى رأي الصفريّة . وقيل : إنّه أول من خرج من الصفريّة .

ذكر الخبر عن تحرك صالح للخروج وما كان منه في هذه السنة

ذكر أنّ صالح بن مسرّح أحد بني امرئ القيس حجّ سنة خمس وسبعين ومعه شبيب بن يزيد وسويد والبطين وأشباههم .

وحجّ في هذه السنة عبد الملك بن مروان ، فهمّ شبيب بالفتك به ، وبلغه ذرّة من خبرهم ، فكتب إلى الحجاج بعد انصرافه يأمره بطلبهم ، وكان صالح يأتي الكوفة فيقيم بها الشهر ونحوه فيلقى أصحابه ليعدّهم ، فنبّ بصلح الكوفة لما طلبه الحجاج ، فتنكّبها .

ثم دخلت سنة ست وسبعين ذكر الكائن من الأحداث فيها

فمن ذلك خروج صالح بن مسرّح .

ذكر الخبر عن خروج صالح بن مسرّح
وعن سبب خروجه

وكان سبب خروجه - فيما ذكر هشام ، عن أبي مخنف ، عن عبد الله بن علقمة ، عن قبيصة بن عبد الرحمن الخثعمي - أنّ صالح بن مسرّح التميمي كان رجلاً ناسكاً مُحِبّاً مصفراً الوجه ، صاحب عبادة ، وأنه كان بداراً وأرض الموصل والجزيرة له أصحاب يُقرئهم القرآن ويفقههم ويقصّ عليهم ، فكان قبيصة بن عبد الرحمن حدّث أصحابنا أنّ قصص صالح بن مسرّح عنده ، وكان ممن يرى رأيهم ، فسألوه أن يبعث بالكتاب إليهم ، ففعل .

وكان قصصه : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ ^(١) . اللهم إنا لا نعدل بك ، ولا نحفد إلا إليك ، ولا نعبد إلا إياك ، لك الخلق والأمر ، ومنك النفع والضّر ، وإليك المصير . ونشهد أنّ محمداً عبدك الذي اصطفيته ، ورسولك الذي اخترته وارتضيته لتبليغ رسالاتك ، ونصيحة عبادك ، ونشهد أنّه قد بلغ الرسالة ، ونصح للأمة ، ودعا إلى الحق ، وقام بالقسط ، ونصر الدين ، وجاهد المشركين ، حتّى توفاه الله ﷻ . أوصيكم بتقوى الله والزّهد في الدنيا ، والرّغبة في الآخرة وكثرة ذكر الموت ، وفراق الفاسقين ، وحبّ المؤمنين ، فإنّ الزّهادة في الدنيا ترعّب العبد فيما عند الله ، وتفرّغ بدنه لطاعة الله ، وإنّ كثرة ذكر الموت يُخيف العبد من ربه حتّى يجارّ إليه ، ويستكين له ، وإن فراق الفاسقين حقّ على المؤمنين ، قال الله في كتابه : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ^(٢) . وإن حبّ المؤمنين للسبب الذي تُنال به كرامة الله ورحمته وجنته ، جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين . ألا إنّ من نعمة الله على المؤمنين أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، فعلمهم الكتاب والحكمة وزكّاهم وطهرهم ووقفهم في دينهم ، وكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ، حتّى قبضه الله ، صلوات الله عليه ، ثم ولي الأمر من بعده النقيّ الصّديق على الرضا من المسلمين ، فاقتدى بهديه ، واستن بسنته ، حتّى لحق بالله - رحمه الله - واستخلف عمره ، فولاه الله أمر هذه الرعيّة ، فعَمِلَ بكتاب الله ، وأحيا سنة رسول الله ، ولم يُحَيِّنْ فِي

الحق على جرته، ولم يخف في الله لومة لائم، حتى لحق به رحمة الله عليه، وولي المسلمين من بعده عثمان، فاستأثر بالقيء، وعطل الحدود، وجار في الحكم، واستذل المؤمن، وعزز المجرم، فسار إليه المسلمون فتتلوه، فبرىء الله منه ورسوله وصالح المؤمنين؛ وولي أمر الناس من بعده علي بن أبي طالب، فلم ينشب أن حكّم في أمر الله الرجال، وشك في أهل الضلال، وركن وأذهن، فنحن من علي وأشياعه براء، فتيسروا رحمكم الله لجهاد هذه الأحزاب المتحزبة، وأئمة الضلال الظلمة وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء، واللحاق بإخواننا المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة، وأنفقوا أموالهم التماس رضوان الله في العاقبة، ولا تجزعوا من القتل في الله، فإن القتل أيسر من الموت، والموت نازل بكم غير ما ترجم الظنون، فمفرق بينكم وبين آبائكم وأبنائكم، وحلائلكم ودنياكم، وإن اشتدّ لذلك كرهكم وجزعكم. ألا فيبعوا الله أنفسهم طائعين وأموالكم تدخلوا الجنة آمنين، وتعانقوا الحور العين، جعلنا الله ولياًكم من الشاكرين الذاكرين، الذين يهدون بالحق وبه يعدلون.

قال أبو مخنف: فحدثني عبد الله بن علقمة، قال: بينا أصحاب صالح يختلفون إليه إذ قال لهم ذات يوم: ما أدري ما تنتظرون! حتى متى أنتم مقيمون! هذا الجور قد فشا، وهذا العدل قد عفا، ولا ترداد هذه الولاية على الناس إلا غلواً وعتواً، وتباعداً عن الحق، وجراً على الرب؛ فاستعدوا إلى إخوانكم الذين يريدون من إنكار الباطل والدعاء إلى الحق مثل الذي تريدون، فيأتوكم فنلتقي وننظر فيما نحن صانعون، وفي أي وقت إن خرجنا نحن خارجون.

قال: فتراسل أصحاب صالح، وتلاقوا في ذلك، فبيناهم في ذلك إذ قدّم عليهم المحلل بن وائل البشكري بكتاب من شبيب إلى صالح بن مسرح:

أما بعد، فقد علمت أنك كنت أردت الشخوص، وقد كنت دعوتني إلى ذلك فاستجبت لك، فإن كان ذلك اليوم من شأنك فأنت شيخ المسلمين، ولن نعدل بك منّا أحداً، وإن أردت تأخير ذلك اليوم أعلمتني؛ فإن الأجل غادية ورائحة، ولا آمن أن تحترمني المنية ولما أجاهد الظالمين. فيا له غبناً، ويا له فضلاً متروكاً! جعلنا الله وإياك ممن يريد بعمله الله ورضوانه، والنظر إلى وجهه، ومرافقة الصالحين في دار السلام. والسلام عليك.

قال: فلما قدّم على صالح المحلل بن وائل بذلك الكتاب من شبيب كتب إليه صالح:

أما بعد، فقد كان كتابك وخبرك أبطأ عني حتى أهمني ذلك، ثم إن امرأ من المسلمين نبأني بنبي يخرجك ومقدمك، فنحمد الله على قضاء ربنا. وقد قدّم عليّ رسولك بكتابك، فكل ما فيه قد فهمته، ونحن في جهاز واستعداد للخروج، ولم يمنعني من الخروج إلا انتظارك، فأقبل إلينا، ثم أخرج بنا متى ما أحببت، فإنك ممن لا يستغنى عن رأيه، ولا تقضى دونه الأمور. والسلام عليك.

فلما قدّم على شبيب كتابه بعث إلى نفر من أصحابه فجمعهم إليه؛ منهم أخوه صماد بن يزيد بن نعيم، والمحلل بن وائل البشكري، والصقر بن حاتم من بني تميم بن شيبان، وإبراهيم بن حجر أبو الصقيع من بني محلم، والفضل بن عامر من بني ذهل بن شيبان، ثم خرج حتى قدّم على صالح بن مسرح بداراً، فلما لقيه قال:

أخرج بنا ربحك الله! فوالله ما تزداد السنة إلا دُروساً، ولا يزداد المجرمون إلا طُغياناً. فبث صالح رسله في أصحابه، وواعدهم الخروج في هلال صفر ليلة الأربعاء سنة ست وسبعين. فاجتمع بعضهم إلى بعض، وتمهئوا، وتيسروا للخروج في تلك الليلة، واجتمعوا جميعاً عنده في تلك الليلة ليلعاده.

قال أبو مخنف: فحدثني فروة بن لقيط الأزدِيّ، قال: والله إني لَمَعَ شبيب بالمداخن إذ حدثنا عن مخرجهم، قال: لما هممنا بالخروج اجتمعنا إلى صالح بن مسرح ليلة خرج، فكان رأيي استعراض الناس لما رأيت من المنكر والعدوان والفساد في الأرض، فقلت: يا أمير المؤمنين، كيف ترى في السيرة في هؤلاء الظلمة؟ أنقتلهم قبل الدّعاء، أم ندعوهم قبل القتال؟ وسأخبرك برأيي فيهم قبل أن تُخبرني فيهم برأيك؛ أما أنا فأرى أن نقتل كل من لا يرى زائناً قريباً كان أو بعيداً، فإننا نخرج على قوم غاوين طاغين باغين قد تركوا أمر الله، واستحوذ عليهم الشيطان. فقال: لا بل ندعوهم، فلعمري لا يُجيبك إلا من يرى رأيك وليقاتلنك من يزري عليك، والدعاء أقطع لحجّتهم، وأبلغ في الحجة عليهم. قال: فقلت له: فكيف ترى فيمن قاتلنا فظفرنا به؟ ما تقول في دماهم وأموالهم؟ فقال: إن قتلنا وغنمنا فلنا، وإن تجاوزنا وعفونا فموسّع علينا ولنا. قال: فأحسن القول وأصاب، رحمة الله عليه وعلينا.

قال أبو مخنف: فحدثني رجل من بني محمّل أنّ صالح بن مسرح قال لأصحابه ليلة خرج: اتقوا الله عباد الله، ولا تعجلوا إلى قتال أحد من الناس إلا أن يكونوا قوماً يريدونكم، وينصبون لكم، فإنكم إنما خرجتم غضبا لله حيث انتهكت محارمه، وعصيت في الأرض، فسفكت الدماء بغير حلّها، وأخذت الأموال بغير حقّها، فلا تعيبوا على قوم أعمالاً ثمّ تعملوا بها، فإن كلّ ما أنتم عاملون عنه مسؤولون، وإنّ عظمكم رجالة، وهذه دواب لمحمّد بن مروان في هذا الرّستاق، فابدؤوا بها، فشّدوا عليها، فاحملوا أراجلكم، وتقووا بها على عدوكم.

فخرجوا فأخذوا تلك الليلة الدوابّ فحملوا رجالتهم عليها، وصارت رجالتها فرساناً، وأقاموا بأرض دارالثلث عشرة ليلة، وتخصّن منهم أهل دارا وأهل نصيبين وأهل سنجار، وخرج صالح ليلة خرج في مائة وعشرين - وقيل في مائة وعشرة - قال: وبلغ مخرجهم محمد بن مروان وهو يومئذ أمير الجزيرة، فاستخفّ بأمرهم، وبعث إليهم عدي بن عُميرة من بني الحارث بن معاوية بن ثور في خمسمائة، فقال له: أصلح الله الأمير! أتبعني إلى رأس الخوارج منذ عشرين سنة! قد خرج معه رجال من ربيعة قد سُموا لي، كانوا يعازوننا، الرجل منهم خير من مائة فارس في خمسمائة رجل. قال له: فإني أزيدك خمسمائة أخرى، فسر إليهم في ألف، فسار من حرّان في ألف رجل، فكان أوّل جيش سار إلى صالح وسار إليه عدي، وكأنا يساق إلى الموت، وكان عدي رجلاً يتنسك، فأقبل حتى إذا نزل دوغان نزل بالناس وسرح إلى صالح بن مسرح رجلاً دسّه إليه من بني خالد من بني الوُرثة؛ يقال له: زياد بن عبدالله، فقال: إنّ عدياً بعثني إليك يسألك أن تخرج من هذا البلد وتأتي بلداً آخر فتقاتل أهلّه؛ فإنّ عدياً ليلقائك كاره، فقال له صالح: ارجع إليه، فقل له: إن كنت ترى رأينا فأرنا في ذلك ما نعرف، ثمّ نحن مُدجلون عنك من هذا البلد إلى غيره، وإن كنت على رأي الجبابرة وأئمة السوء رأينا رأينا، فإن شئنا بدأنا بك، وإن شئنا رحلنا إلى غيرك. فانصرف إليه الرسول فأبلغه ما أرسل به، فقال له: إرجع إليه فقل له: إرجع إليه فقل له: إني والله ما أنا على رأيك، ولكني أكره قتالك وقتال غيرك،

فقاتل غيري، فقال صالح لأصحابه: إركبوا، فركبوا وحس الرجل عنده حتى خرجوا، ثم تركه ومضى بأصحابه حتى يأتي عدي بن عدي بن عميرة بن سوق دوغان وهو قائم يصلي الضحى، فلم يشعر إلا والخييل طالعة عليهم، فلما بصروها تنادوا، وجعل صالح شيباً في كتيبة في ميمنة أصحابه، وبعث سويد بن سليم الهندي من بني شيبان في كتيبة في ميسرة أصحابه، ووقف هو في كتيبة في القلب، فلما دنا منهم رأهم على غير تعبئة، وبعضهم يجول في بعض، فأمر شيباً فحمل عليهم، ثم حمل سويد عليهم فكانت هزيمتهم ولم يُقاتلوا، وأتى عدي بن عدي بدابته وهو يصلي فركبها ومضى على وجهه، وجاء صالح بن مسرح حتى نزل عسكره وحوى ما فيه، وذهب فل عدي وأوائل أصحابه حتى دخلوا على محمد بن مروان، فغضب، ثم دعا خالد بن جزء السلمي فبعثه في ألف وخمسمائة، ودعا الحارث بن جعونة من بني ربيعة بن عامر بن صعصعة فبعثه في ألف وخمسمائة، ودعاهما، فقال: أخرجنا إلى هذه الخارجة القليلة الخبيثة، وعجلاً الخروج، وأعدا السير، فأيكما سبق فهو الأمير على صاحبه؛ فخرجنا من عنده فأعدا السير، وجعلنا يسألان عن صالح بن مسرح فيقال لهما: إنه توجه نحو أمد، فأتبعاه حتى انتهيا إليه، وقد نزل على أهل أمد فنزلا ليلاً، فخذنا وانتھيا إليه وهما متساندان كل واحد منهما في أصحابه على حدته، فوجه صالح شيباً إلى الحارث بن جعونة العامري في شطر أصحابه، وتوجه هو نحو خالد بن جزء السلمي.

قال أبو مخنف: فحدثني المحلبي، قال: انتهوا إلينا في أول وقت العصر، فصل بنا صالح العصر، ثم عبانا لهم فاقتلنا كأشد قتال اقتتلته قوم قط، وجعلنا والله نرى الظفر يحمل الرجل منا على العشرة منهم فيهمزهم، وعلى العشرين فكذلك، وجعلت خيلهم لا تثبت لحيلنا.

فلما رأى أميراهم ذلك ترجلاً وأمرأ جُل من معهما فترجل، فعند ذلك جعلنا لا نقدّر منهم على الذي نريد، إذا حملنا عليهم استقبلتنا رجالتهم بالرماح، ونضحتنا رماتهم بالنبل، وخيلهم تطاردنا في خلال ذلك، فقاتلناهم إلى المساء حتى حال الليل بيننا وبينهم، وقد أفشوا فينا الجراحة، وأفشيناهم فيهم، وقد قتلوا منا نحواً من ثلاثين رجلاً، وقتلنا منهم أكثر من سبعين، والله ما أمسينا حتى كرهناهم وكرهونا، فوقفنا مقابلهم ما يقدمون علينا وما نقدّم عليهم، فلما أمسوا رجعوا إلى عسكرهم، ورجعنا إلى عسكرنا فصلينا وتروخنا وأكلنا من الكسر.

ثم إن صالحاً دعا شيباً ورؤوس أصحابه فقال: يا أخلائي، ماذا ترون؟ فقال شيب: أرى أننا قد لقينا هؤلاء القوم فقاتلناهم، وقد اعتصموا بخندقهم، فلا أرى أن نقيم عليهم، فقال صالح: وأنا أرى ذلك، فخرجوا من تحت ليلتهم سائرين، فمضوا حتى قطعوا أرض الجزيرة، ثم دخلوا أرض الموصل فساروا فيها حتى قطعوها ومضوا حتى قطعوا الدسكرة.

فلما بلغ ذلك الحجاج سرح إليهم الحارث بن عميرة بن ذي المشعار الهمداني في ثلاثة آلاف رجل من أهل الكوفة، ألف من المقاتلة الأولى، والفين من الفرض الذي فرض لهم الحجاج. فسار حتى إذا دنا من الدسكرة خرج صالح بن مسرح نحو جلولة وخايقين، وأتبعه الحارث بن عميرة حتى انتهى إلى قرية يقال لها المديج من أرض الموصل على تخوم ما بينها وبين أرض جوتى، وصالح يومئذ في تسعين رجلاً، فعبى

الحارث بن عميرة يومئذ أصحابه، وجعل على ميمته أبا الرّواغ الشاكريّ، وعلى مسيرته الزّبير بن الأرواح التميميّ، ثمّ شدّ عليهم - وذلك بعد العصر - وقد جعل أصحابه ثلاثة كراديس؛ فهو في كرّدوس، وشبيب في كرّدوس في ميمته، وسويد بن سليم في كرّدوس في الميسرة، في كلّ كرّدوس منهم ثلاثون رجلاً.

فلما شدّ عليهم الحارث بن عميرة في جماعة أصحابه انكشف سويد بن سليم وثبت صالح بن مسرّح فقتل، وضارب شبيب حتى صُرع، فوقع في رجالة، فشدّ عليهم فانكشفوا، فجاء حتى انتهى إلى موقف صالح بن مسرّح فأصابه قتيلاً، فنادى: إليّ يا معشر المسلمين؛ فلاذّوا به، فقال لأصحابه: ليجعل كلّ واحد منكم ظهره إلى ظهر صاحبه، وليطاعن عدوّه إذا أقدم عليه حتى ندخل هذا الحصن، ونرى رأيًا؛ ففعلوا ذلك حتى دخلوا الحصن وهم سبعون رجلاً بشبيب، وأحاط بهم الحارث بن عميرة مُمسيّاً، وقال لأصحابه: احرقوا الباب، فإذا صار جحراً فدعوه فإنهم لا يقدرّون على أن يخرجوا منه حتى نصبّحهم فنقتلهم. ففعلوا ذلك بالباب، ثمّ انصرفوا إلى عسكرهم، فأشرف شبيب عليهم وطائفة من أصحابه، فقال بعض أولئك الفرّص: يا بني الرّؤافي، ألم يُخزّكم الله! فقالوا: يا فُسّاق، نعم تقاتلوننا لقتالنا إياكم إذ أعماكم الله عن الحقّ الذي نحن عليه، فما عذركم عند الله في الفرّص على أمهاتنا! فقال لهم حلّمواؤهم: إنّما هذا من قول شباب فينا سُفهاء، والله ما يُعجّبنا قولهم ولا نستحلّه. وقال شبيب لأصحابه: يا هؤلاء، ما تنظرون! فوالله لئن صَبّحكم هؤلاء غدوةً إنّه هَلَأكُم، فقالوا له: مرنا بأمرِك، فقال لهم: إنّ اللّيل أخفى للوَيْل، بايعوني ومَن شئتُم منكم، ثمّ اخرجوا بنا حتى نشدّ عليهم في عسكرهم، فإنّهم لذلك منكم آمنون، وأنا أرجو أن ينصركم الله عليهم. قالوا: فابسط يدك فلنباعك، فبايعوه، ثمّ جاؤوا ليخرجوا، وقد صار بأبهم جحراً، فأتوا باللُّبود فبلّوها بالماء، ثمّ ألَقَوْها على الجحمر، ثمّ قطعوا عليها، فلم يشعر الحارث بن عميرة ولا أهل العسكر إلّا وشبيب وأصحابه يضربونهم بالسيوف في جوف عسكرهم، فضارب الحارث حتى صُرع، واحتلمه أصحابه وانهمزوا، وخلّوا لهم العسكر وما فيه، ومضوا حتى نزلوا المدائن، فكان ذلك الجيش أوّل جيش هزّمه شبيب، وأصيب صالح بن مسرّح يوم الثّلاثاء ثلاث عشرة بقيت من جمادى الأولى من سنته.

وفي هذه السنة دخل شبيب الكوفة ومعه زوجته غزالة.

ذكر الخبر عن دخوله الكوفة وما كان من أمره وأمر الحجاج بها والسبب الذي دعا شبيباً إلى ذلك:

وكان السبب في ذلك - فيما ذكر هشام، عن أبي مخنف، عن عبد الله بن علقمة، عن قبيصة بن عبد الرحمن الحثعميّ - أنّ شبيباً لما قُتل صالح بن مسرّح بالمدّيج وبايعه أصحاب صالح، ارتفع إلى أرض الموصل فلقى سلامة بن سيّار بن المضاء التّميميّ تيمّ شيان، فدعاه إلى الخروج معه، وكان يعرفه قبل ذلك إذ كانا في الدّيوان والمغازي، فاشترط عليه سلامة أن ينتخب ثلاثين فارساً، ثمّ لا يغيب عنه إلّا ثلاث ليال عدداً. ففعل؛ فانتخب ثلاثين فارساً، فأنطلق بهم نحو عَنزة، وإنّما أرادهم ليُسفي نفسه منهم لقتلهم أخاه فضالة، وذلك أنّ فضالة كان خرج قبل ذلك في ثمانية عشر نفساً حتى نزل ماء يقال له الشّجرة من أرض الجبال، عليه أثلة عظيمة، وعليه عَنزة، فلما رآته قال بعضهم لبعض: نقتلهم ثمّ نغدو بهم إلى امير فنعطى ونُحبى، فاجمعوا على ذلك، فقالت بنو نصر أحواله: لعمر الله لا نساعدكم على قتل ولدنا. فنهضت عَنزة إليهم فقاتلهم فقتلهم، وأتوا بروؤسهم عبد الملك بن مروان، فلذلك أنزلهم بانقيًا، وفرض لهم، ولم تكن لهم فرائض قبل ذلك إلّا

قليلة، فقال سلامة بن سيار، أخو فضالة يذكّر قتل أخيه وخذلان أخواله إياه:
وَمَا خِلْتُ أَخْوَالَ الْفَتَى يُسْلِمُونَهُ لَوْ قَع السِّلَاحُ قَبْلَ مَا فَعَلْتَ نَصْرُ
قال: وكان خروج أخيه فضالة قبل خروج صالح بن مسرح وشبيب.

فلما بايع سلامة شبيباً اشترط عليه هذا الشرط، فخرج في ثلاثين فارساً حتى انتهى إلى عنزة، فجعل يقتل المحلّة منهم بعد المحلة حتى انتهى إلى فريق منهم فيهم خالته، وقد أكبت على ابن لها وهو غلام حين احتلم، فقالت وأخرجت ثديها إليه: أنشدك برحم هذا يا سلامة! فقال: لا والله، ما رأيت فضالة مذ أناخ بعمر الشجرة - يعني أخاه - لتقومن عنه، أو لأجمعن حافتك بالرمح، فقامت عن ابنها عند ذلك فقتله.

قال أبو مخنف: فحدثني المفضل بن بكر من بني تميم بن شيبان أن شيبيا أقبل في أصحابه نحو راذان، فلما سمعت به طائفة من بني تميم بن شيبان خرجوا هرباً منه، ومعهم ناس من غيرهم قليل، فأقبلوا حتى نزلوا دبر خرازاد إلى جنب حولايا، وهم نحو من ثلاثة آلاف، وشبيب في نحو من سبعين رجلاً أويذدون قليلاً، فنزل بهم؛ فهابوه وتحصنوا منه. ثم إن شيبيا سرى في اثني عشر فارساً من أصحابه إلى أمه، وكانت في سفح سائيدما نازلة في مظلة من مظال الأعراب: فقال لآتين بأني فلأجعلنّها في عسكري فلا تفارقني أبداً حتى أموت أو تموت. وخرج رجلان من بني تميم بن شيبان تحوفاً على أنفسهما فنزلا من الدّير، فلحقا بجماعة من قومهما وهم نزول بالجال منهم على مسيرة ساعة من النهار، وخرج شبيب، في أولئك الرّهط في أولهم وهم اثنا عشر، يريد أمه بالسفح، فإذا هو بجماعة من بني تميم بن شيبان غارين في أموالهم مقيمين، لا يرون أن شيبيا يمر بهم لمكانهم الذي هم به، ولا يشعر بهم، فحمل عليهم في فرسانه تلك، فقتل منهم ثلاثين شيخاً؛ فيهم حوثر بن أسد ووبرة بن عاصم اللذان كانا نزلا من الدّير، فلحقا بالجال، ومضى شبيب إلى أمه فحملها من السفح، فأقبل بها، وأشرف رجل من أصحاب الدّير من بكر بن وائل على أصحاب شبيب، وقد استخلف شبيب أخاه على أصحابه مصاد بن يزيد، ويقال لذلك الرجل الذي أشرف عليهم سلام بن حيان، فقال لهم: يا قوم، القرآن بيننا وبينكم، ألم تسمعوا قول الله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾، قالوا: بلى، قال لهم: فكفّوا عنا حتى نصبح، ثم نخرج إليكم أمان لنا منكم، لكيلا تعرضوا لنا بشيء نكرهه حتى تعرضوا علينا أمركم هذا، فإن نحن قبلنا حرمت عليكم أموالنا ودمائنا، وكنا لكم إخواناً، وإن نحن لم نقبله ردّدتمونا إلى مأمنا، ثم رأيتم رأيكم فيما بيننا وبينكم؛ قالوا لهم: فهذا لكم. فلما أصبحوا خرجوا إليهم، فعرض عليهم أصحاب شبيب قوتهم، ووصفوا لهم أمرهم، فقبلوا ذلك كله، وخالطوهم، ونزلوا إليهم، فدخل بعضهم إلى بعض، وجاء شبيب وقد اصطلحوا، فأخبره أصحابه خبرهم، فقال: أصبتم ووفّقتم وأحسنتم.

ثم إن شيبيا ارتحل فخرجت معه طائفة وأقامت طائفة جانحة، وخرج يومئذ معه إبراهيم بن حجر المحلّم أبو الضّئير كان مع بني تميم بن شيبان نازلاً فيهم، ومضى شبيب في أداني أرض الموصل وتحوّل أرض جوحى، ثم ارتفع نحو أذربيجان، وأقبل سفيان بن أبي العالية الخثعمي في خيل قد كان أمر أن يدخل بها طبرستان، فأمر بالقول، فأقبل راجعاً في نحو من ألف فارس، فصالح صاحب طبرستان.

قال أبو مخنف: فحدثني عبد الله بن علقمة عن سفيان بن أبي العالية الخثعمي أن كتاب الحجّاج أتاها: أما

بعد، فسر حتى تنزل الدسكرة فيمن معك، ثم أقم حتى يأتيتك جيش الحارث بن عميرة الحمداني بن ذي المشعار، وهو الذي قتل صالح بن مسرح وخيل المناظر، ثم سرت إلى شبيب حتى تناجزه. فلما أتاه الكتاب أقبل حتى نزل الدسكرة، ونودي في جيش الحارث بن عميرة بالكوفة والمدائن: أن برئت الذمة من رجل من جيش الحارث بن عميرة لم يواف سفيان بن أبي العالية بالدسكرة.

قال: فخرجوا حتى أتوه، وأتته خيل المناظر، وكانوا خمسمائة، عليهم سورة بن أبجر التميمي من بني أبان بن دارم، فوافوه إلا نحواً من خمسين رجلاً تخلّفوا عنه، وبعث إلى سفيان بن أبي العالية ألا تبرح العسكر حتى آتيتك. فعجل سفيان فارتحل في طلب شبيب، فلحقه بخانقين في سفح جبل على ميمنته خازم بن سفيان الخثعمي من بني عمرو بن شهران، وعلى ميسرته عدي بن عميرة الشيباني، وأصحر لهم شبيب، ثم ارتفع عنهم حتى كأنه يكره لقاءه، وقد أكرم له أخاه مصاداً معه خمسون في هزم من الأرض.

فلما رآوه جمع أصحابه ثم مضى في سفح الجبل مشرفاً فقالوا: هرب عدو الله فاتبعوه، فقال لهم عدي بن عميرة الشيباني: أيها الناس، لا تعجلوا عليهم حتى تضرب في الأرض ونسير بها، فإن يكونوا قد أكمنا لنا كميناً كنا قد حذرناه، وإلا فإن طلبهم لن يفوتنا. فلم يسمع منه الناس، وأسرعوا في آثارهم. فلما رأى شبيب أنهم قد جازوا الكمين عطف عليهم.

ولما رأى الكمين أن قد جاوزوهم خرجوا إليهم، فحمل عليهم شبيب من أمامهم، وصاح بهم الكمين من ورائهم، فلم يقاتلهم أحد، وكانت الهزيمة، فثبت ابن أبي العالية في نحو من مائتي رجل، فقاتلهم قتلاً شديداً حسناً؛ حتى ظن أنه انتصف من شبيب وأصحابه. فقال سويد بن سليم لأصحابه: أمينكم أحد يعرف أمير المؤمنين القوم ابن أبي العالية؟ فوالله لئن عرفت له لأجهد نفسي في قتله، فقال شبيب: أنا من أعرف الناس به، أما ترى صاحب الفرس الأغر الذي دونه المرامية! فإنه ذلك، فإن كنت تريده فأمهله قليلاً. ثم قال: يا قعنب، اخرج في عشرين فأتهم من ورائهم، فخرج قعنب في عشرين فارتفع عليهم.

فلما رآوه يريد أن يأتيتهم من ورائهم جعلوا يتنقضون ويتسللون، وحمل سويد بن سليم على سفيان بن أبي العالية فطاعنه، فلم تصنع رُحماً شيئاً، ثم اضطربا بسيفيهما ثم اعتنق كل منهما صاحبه، فوقعوا إلى الأرض يعتركان؛ ثم تهاجزوا وحمل عليهم شبيب فانكشفوا، وأتى سفيان غلاماً له يقال له غزوان، فنزل عن برذونه، وقال: اركب يا مولاي، فركب سفيان، وأحاط به أصحاب شبيب، فقاتل دونه غزوان فقتل، وكانت معه رايته. وأقبل سفيان بن أبي العالية حتى انتهى إلى باب مهرود، فنزل بها، وكتب إلى الحجاج:

أما بعد، فإني أخير الأمير أصلحه الله أني أتبع هذه المارقة حتى لحقتهم بخانقين فقاتلتهم، فضرَب الله وجوهمهم، ونصرنا عليهم، فبينما نحن كذلك إذ أتاهم قوم كانوا غيباً عنهم، فحملوا على الناس فهزموهم، فنزلت في رجال من أهل الدين والصبر فقاتلتهم، حتى خربت بين القتل، فحملت مرتثاً، فأتيت بابل مهرود، فها أنا بها والجند الذين وجههم إلي الأمير وأقوا إلا سورة بن أبجر فإنه لم يأتني ولم يشهد معي حتى إذا ما نزلت بابل مهرود أتاني يقول ما لا أعرف، ويعتذر بغير العذر. والسلام.

فلما قرأ الحجاج الكتاب قال: من صنع كما صنع هذا، وأبل كما أبل فقد أحسن. ثم كتب إليه:

فأخذها، ثم خرج يسيراً في أرض جُوخَى، ثم مضى نحو تَكَرَيْت، فبينما ذلك الجُنْد في المدائن إذ أُرْجِفَتِ النَّاسُ بينهم، فقالوا: هذا شبيب قد دنا، وهو يريد أن يبيت أهل المدائن الليلة، فارتحل عامة الجُنْد. فَلَحِقُوا بالكوفة. قال أبو مخنف: وحَدَّثني عبد الله بن عُلْقَمَةَ الحَنْظَلِيّ، قال: والله لقد هربوا من المدائن وقالوا: نُبِيتُ الليلة، وإن شبيباً لبتكرت، قال: ولما قَدِمَ الفَلّ على الحَجَّاج سرَّحَ الجَزَل بن سعيد بن شُرْحَبِيل بن عمرو الكندي.

قال أبو مخنف: حَدَّثنا النُّضْر بن صالح العَبْسِيّ وفُضَيْل بن خديج الكندي أن الحَجَّاج لما أتاه الفَلّ قال: قبح الله سورة! ضيَّع العسكر والجُنْد، وخرج يبيت الخوارج، أما والله لأسوءه، وكان بعد قد حبسه ثم عفا عنه.

قال أبو مخنف: وحَدَّثني فضيل بن خديج أن الحَجَّاج دعا الجَزَل -وهو عثمان بن سعيد- فقال له: تيسر للخروج إلى هذه المارقة، فإذا لقيتهم فلا تعجل عجلة الخرق، ولا تُحْجِم إحجام الواني الفرق، هل فهمت؟ لله أنت يا أبا بني عمرو بن معاوية! فقال: نعم أصلح الله الأمير قد فهمت؛ قال له: فاخرج فعسكر بدير عبد الرحمن حتى يخرج إليك الناس، فقال: أصلح الله الأمير! لا تبعثن معي أحداً من أهل هذا الجُنْد المفلول المهزوم، فإن الرعب قد دخل قلوبهم، وقد خشيت ألا ينفعك والمسلمين منهم أحد؛ قال له: فإن ذلك لك، ولا أراك إلا قد أحسنت الرأي ووقفت. ثم دعا أصحاب الدواوين فقال: اضربوا على الناس البعث، فأخرجوا أربعة آلاف من الناس، من كل ربيع ألف رجل، وعجلوا ذلك، فجمعت العرفاء، وجلس أصحاب الدواوين، وضربوا البعث فأخرجوا أربعة آلاف، فأمرهم بالعسكر فعسكروا، ثم نودي فيهم بالرحيل، ثم ارتحلوا ونادى منادي الحَجَّاج: أن برئت الذمة من رجل أصبناه من هذا البعث متخلفاً؛ قال: فمضى الجَزَل بن سعيد، وقد قدم بين يديه عياض بن أبي لينة الكندي على مقدمته، فخرج حتى أتى المدائن، فأقام بها ثلاثاً، وبعث إليه ابن أبي عَصِيْفِير بفرس وبرذون وبغلين وألفي درهم، ووضع للناس من الجزر والعلف ما كفاهم ثلاثة أيام حتى ارتحلوا، فأصاب الناس ما شاؤوا من تلك الجزر والعلف الذي وضع لهم ابن أبي عَصِيْفِير. ثم إن الجزل بن سعيد خرج بالناس في أثر شبيب، فطلبه في أرض جُوخَى، فجعل شبيب يريه الهيبة، فيخرج من رُستاق إلى رُستاق، ومن طَسُوج إلى طَسُوج، ولا يقيم له إرادة أن يفرق الجزل أصحابه، ويتعجل إليه فيلقاه في يسير من الناس على غير تعب، فجعل الجزل لا يسير إلا على تعب، ولا ينزل إلا خندق على نفسه خندقاً، فلما طال ذلك على شبيب أمر أصحابه ذات ليلة فسروا.

قال أبو مخنف: فَحَدَّثني فروة بن لَقِيط أن شبيباً دعانا ونحن بدير بيرما ستون ومائة رجل، فجعل على كل أربعين من أصحابه رجلاً، وهو في أربعين، وجعل أخاه مصاداً في أربعين، وبعث سُويد بن سُليم في أربعين، وبعث المحلل بن وائل في أربعين، وقد أتته عيونه فأخبرته أن الجزل بن سعيد قد نزل دير يزدجرد، قال: فدعانا عند ذلك فعبأنا هذه التعبئة، وأمرنا فعلقنا على دوابنا، وقال لنا: تيسروا فإذا قضمت دوابكم فاركبوا، وليس كل امرئ منكم مع أميره الذي أمرنا عليه، ولننظر كل امرئ منكم ما يأمره أميره فليتبعه. ودعا أمراءنا فقال لهم: إني أريد أن أبيت هذا العسكر الليلة، ثم قال لأخيه مصاد: إيتهم فارتفع من فوقهم حتى تأتيهم من ورائهم من قبل حلوان، وسأتيهم أنا من أمامي من قبل الكوفة، وإيتهم أنت يا سُويد من قبل المشرق، وإيتهم أنت يا

مَحَلٍّ مِنْ قَبْلِ الْمَغْرِبِ، وَلِيْلَجَ كُلِّ امْرِءٍ مِنْكُمْ عَلَى الْجَانِبِ الَّذِي يَحْمِلُ عَلَيْهِ، وَلَا تُقْلِعُوا عَنْهُمْ، تُحْمِلُونَ وَتُكْرُونَ عَلَيْهِمْ، وَتُصِيحُونَ بِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَكُمْ امْرِي. فَلَمْ نَزَلْ عَلَى تِلْكَ التَّعْبِيَةِ، وَكُنْتُ أَنَا فِي الْأَرْبَعِينَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ، حَتَّى إِذَا قُضِمَتْ دَوَابُّنَا - وَذَلِكَ أَوَّلُ اللَّيْلِ أَوَّلَ مَا هَدَّاتِ الْعَيُونَ - خَرَجْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى بَذِيرِ الْخَرَّارَةِ، فَإِذَا لِلْقَوْمِ مَسْلُحَةٌ، عَلَيْهِمْ عِيَاضُ بْنُ أَبِي لَيْثَةَ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ انْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ، فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ مِصَادُ أَخُو شَيْبٍ فِي أَرْبَعِينَ رَجُلًا، وَكَانَ أَمَامَ شَيْبٍ، وَقَدْ كَانَ أَرَادَ أَنْ يَسْبِقَ شَيْبًا حَتَّى يَرْتَفِعَ عَلَيْهِمْ وَيَأْتِيَهُمْ مِنْ وَرَائِهِمْ كَمَا أَمَرَهُ، فَلَمَّا لَقِيَ هَؤُلَاءِ قَاتَلَهُمْ فَصَبَرُوا سَاعَةً، وَقَاتَلُوهُمْ. ثُمَّ إِنَّا دَفَعْنَا إِلَيْهِمْ جَمِيعًا، فَحَمَلْنَا عَلَيْهِمْ فَهَزَمْنَاهُمْ، وَأَخَذُوا الطَّرِيقَ الْأَعْظَمَ، وَلَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَسْكَرِهِمْ بِذِيرٍ يَزْدَجِرْدُ إِلَّا قَرِيبٌ مِنْ مِيلٍ. فَقَالَ لَنَا شَيْبٌ: ارْكَبُوا مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ أَكْتَا فَهُمْ حَتَّى تَدْخُلُوا مَعَهُمْ عَسْكَرَهُمْ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ؛ فَاتَّبَعْنَاهُمْ وَاللَّهُ مُلْظِمٌ بِهِمْ، مَلْحِينَ عَلَيْهِمْ، مَا نَرَفَهُ عَنْهُمْ وَهُمْ مِنْزَمُونَ، مَا لَهُمْ هِمَّةٌ إِلَّا عَسْكَرَهُمْ، فَانْتَهَوْا إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَمَنْعَهُمْ أَصْحَابُهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، وَرَشَقُونَا بِالنَّبْلِ، وَكَانَتْ عَيُونَ لَهِمْ قَدْ أَتَتْهُمْ فَأَخْبَرْتُهُمْ بِمَكَانِنَا، وَكَانَ الْجَزَلُ قَدْ خَنَدَقَ عَلَيْهِ، وَتَحَرَّزَ وَوَضَعَ هَذِهِ الْمَسْلُحَةَ الَّذِينَ لَقِينَاهُمْ بِذِيرِ الْخَرَّارَةِ، وَوَضَعَ مَسْلُحَةً أُخْرَى مِمَّا يَلِي حُلُوانَ عَلَى الطَّرِيقِ، فَلَمَّا أَنْ دَفَعْنَا إِلَى هَذِهِ الْمَسْلُحَةِ الَّتِي كَانَتْ بِذِيرِ الْخَرَّارَةِ فَأَلْحَقْنَاهُمْ بِعَسْكَرِ جَمَاعَتِهِمْ وَرَجَعَتْ الْمَسَالِحُ الْآخَرُ حَتَّى اجْتَمَعَتْ، وَمَنْعَهَا أَهْلُ الْعَسْكَرِ دُخُولَ الْعَسْكَرِ وَقَالُوا لَهُمْ: قَاتِلُوا، وَانْضَحُوا عَنْكُمْ بِالنَّبْلِ.

قَالَ أَبُو مَخْنَفٍ: وَحَدَّثَنِي جَرِيرُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْكِنْدِيُّ، قَالَ: كَانَ عَلَى الْمَسْلَحَتَيْنِ الْآخَرَيْنِ عَاصِمُ بْنُ حَجَرٍ عَلَى الْآتِي تَلِي حُلُوانَ، وَوَأَصْلُ بْنُ الْحَارِثِ السُّكُونِيُّ عَلَى الْآخَرَى. فَلَمَّا أَنْ اجْتَمَعَتْ الْمَسَالِحُ جَعَلَ شَيْبٌ يَحْمِلُ عَلَيْهَا حَتَّى اضْطَرَّهَا إِلَى الْخَنْدَقِ، وَرَشَقَهُمْ أَهْلُ الْعَسْكَرِ بِالنَّبْلِ حَتَّى رَدَّوهُمْ عَنْهُمْ. فَلَمَّا رَأَى شَيْبٌ أَنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: سِيرُوا وَدَعُوهُمْ، فَمَضَى عَلَى الطَّرِيقِ نَحْوَ حُلُوانَ حَتَّى إِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنْ مَوْضِعِ قِبَابِ حُسَيْنِ بْنِ زُفَرٍ مِنْ بَنِي بَذِيرِ بْنِ فِزَارَةَ - وَإِنَّمَا كَانَتْ قِبَابُ حُسَيْنِ بْنِ زُفَرٍ بَعْدَ ذَلِكَ - قَالَ: لِأَصْحَابِهِ: انْزِلُوا فَاقْضُوا وَأَصْلِحُوا نَبْلَكُمْ وَتَرَوْحُوا وَصَلُّوا رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ ارْكَبُوا؛ فَانْزِلُوا فَفَعَلُوا ذَلِكَ. ثُمَّ إِنَّهُ أَقْبَلَ بِهِمْ رَاجِعًا إِلَى عَسْكَرِ أَهْلِ الْكُوفَةِ أَيْضًا، وَقَالَ: سِيرُوا عَلَى تَعْبِيَتِكُمُ الَّتِي عَبَّاتِكُمْ عَلَيْهَا بِذِيرِ يَمْرٍأَ أَوَّلَ اللَّيْلِ، ثُمَّ أَطِيفُوا بِعَسْكَرِهِمْ كَمَا أَمَرْتَكُمْ، فَأَقْبَلُوا. قَالَ: فَأَقْبَلْنَا مَعَهُ وَقَدْ أَدْخَلَ أَهْلُ الْعَسْكَرِ مَسَالِحَهُمْ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ آمَنُونَا فَمَا شَعَرُوا حَتَّى سَمِعُوا وَقَعَ حَوَافِرِ خَيْولِنَا قَرِيبًا مِنْهُمْ، فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ قُبَيْلَ الصُّبْحِ فَأَخْطَنَا بِعَسْكَرِهِمْ، ثُمَّ صَيَّحْنَا بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَإِذَا هُمْ يُقَاتِلُونَنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَيَرْمُونَنَا بِالنَّبْلِ. ثُمَّ إِنَّ شَيْبًا بَعَثَ إِلَى أَخِيهِ مِصَادَ وَهُوَ يَقَاتِلُهُمْ مِنْ نَحْوِ الْكُوفَةِ أَنْ أَقْبَلَ إِلَيْنَا وَخَلَّ لَهِمْ سَبِيلَ الطَّرِيقِ إِلَى الْكُوفَةِ فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ، وَتَرَكَ ذَلِكَ الْوَجْهَ، وَجَعَلْنَا نَقَاتِلُهُمْ مِنْ تِلْكَ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ؛ حَتَّى أَصْبَحْنَا، فَأَصْبَحْنَا وَلَمْ نَسْتَفْلِ مِنْهُمْ شَيْئًا، فَسَرْنَا وَتَرَكْنَاهُمْ، فَجَعَلُوا يَصِيحُونَ بِنَا: أَيْنَ يَا كَلَابَ النَّارِ! أَيْنَ أُيَّتْهَا الْعَصَابَةُ الْمَارِقَةُ! أَصْبَحُوا نَخْرُجُ إِلَيْكُمْ، فَارْتَفَعْنَا عَنْهُمْ نَحْوًا مِنْ مِيلٍ وَنُصِفَ، ثُمَّ نَزَلْنَا فَصَلَّيْنَا الْغَدَاةَ، ثُمَّ أَخَذْنَا الطَّرِيقَ عَلَى بَرَازِ الرُّوزِ، ثُمَّ مَضَيْنَا إِلَى جَرَجَرَايَا وَمَا يَلِيهَا، فَأَقْبَلُوا فِي طَلَبِنَا.

قَالَ أَبُو مَخْنَفٍ: فَحَدَّثَنِي مَوْلَى لَنَا يُدْعَى غَاضِرَةً أَوْ قَيْصَرَ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّاسِ تَاجِرًا وَهُمْ فِي طَلَبِ الْبَرَدِيَّةِ، وَعَلَيْنَا الْجَزَلُ بْنُ سَعِيدٍ، فَجَعَلَ يَتَّبِعُهُمْ فَلَا يَسِيرُ إِلَّا عَلَى تَعْبِيَةٍ، وَلَا يَنْزِلُ إِلَّا عَلَى خَنْدَقٍ، وَكَانَ شَيْبٌ يَدْعُو وَيَضْرِبُ فِي أَرْضِ جُوخَى وَغَيْرِهَا يَكْسِرُ الْخَرَّاجَ، وَطَالَ ذَلِكَ عَلَى الْحَجَّاجِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا، فَفَرَّ عَلَى النَّاسِ:

أما بعد، فإني بعثتُك في فرسان أهلِ مصر ووجوه الناس، وأمرتُك بإتباع هذه المارقة الضالة المضلة حتى تلقاها، فلا تُقلع عنها حتى تقتلها وتُفنيها؛ فوجدتُ التعريس في القرى والتخيم في الخنادق أهون عليك من المضى لما أمرتُك به من مناهضتهم ومناجزتهم. والسلام.

فقرىء الكتاب علينا ونحن بقطرانا ودبر أبي مريم، فسق ذلك على الجزل، وأمر الناس بالسير، فخرجوا في طلب الخوارج جاذين، وأرجفنا بأميرنا وقلنا: يُعزل.

قال أبو مخنف: فحدثني إسماعيل بن نعيم الهمداني ثم البرسمي أن الحجاج بعث سعيد بن المجالد على ذلك الجيش، وعهد إليه إن لقيت المارقة فازحف إليهم ولا تُناظرهم ولا تُطاولهم وإفهم واستعين بالله عليهم، ولا تصنع صنيع الجزل، واطلبهم طلب السبع، وجذ عنهم حيدان الضبع وأقبل الجزل في طلب شبيب حتى انتهوا إلى النهر وان فادركوه فلزم عسكره، وخندق عليه. وجاء إليه سعيد بن المجالد حتى دخل عسكر أهل الكوفة أميراً، فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

يا أهل الكوفة، إنكم قد عجزتم ووهنتم وأغضبتكم عليكم أميركم. أنتم في طلب هذه الأعراب العجف منذ شهرين، وهم قد خربوا بلادكم، وكسروا خراجكم، وأنتم حاذرون في جوف هذه الخنادق لا تزايلونها إلا أن يبلغكم أنهم قد ارتحلوا عنكم، ونزلوا بلداً سوى بلدكم، فاخرجوا على اسم الله إليهم.

فخرج وأخرج الناس معه، وجمع إليه خيول أهل العسكر، فقال له الجزل: ما تريد أن تصنع؟ قال: أريد أن أقدم على شبيب في هذه الخيل، فقال له الجزل: أقم أنت في جماعة الجيش؛ فارسيهم وراجلهم، وأصجر له؛ فوالله ليقدمن عليك، فلا تفرق أصحابك؛ فإن ذلك شر لهم وخير لك. فقال له: قف أنت في الصف، فقال: يا سعيد بن مجالد، ليس لي فيها صنعت رأي، أنا بريء من رأيك هذا، سمع الله ومن حضر من المسلمين. فقال: هو رأيي إن أصبت؛ فالله وفقني له، وإن يكن غير صواب فأنتم منه براء، قال: فوقف الجزل في صف أهل الكوفة وقد أخرجهم من الخندق، وجعل على ميمتهم عياض بن أبي لينة الكندي، وعلى ميسريتهم عبد الرحمن بن عوف أبا حميد الرواسي، ووقف الجزل في جماعتهم واستقدم سعيد بن مجالد، فخرج وأخرج الناس معه، وقد أخذ شبيب إلى براز الرز، فنزل قطيطيا، وأمر دهقانها أن يشتري لهم ما يصلحهم، ويتخذ لهم غداءً، ففعل، ودخل مدينة قطيطيا وأمر بالباب فأغلق، فلم يفرغ من الغداء حتى أتاه سعيد بن مجالد في أهل ذلك العسكر، فصعد الدهقان السور فنظر إلى الجند مقبلين قد دنوا من حصنه، فنزل وقد تغير لونه، فقال له شبيب: مالي أراك متغير اللون! فقال له الدهقان: قد جاءتك الجنود من كل ناحية، قال: لا بأس، هل أدرك غداؤنا؟ قال: نعم، قال: فقربه، وقد أغلق الباب، وأتى بالغداء، فتغذى وتوضأ وصلى ركعتين، ثم دعا ببغل له فركبه.

ثم إنهم اجتمعوا على باب المدينة، فأمر بالباب ففتح، ثم خرج على بغله فحمل عليهم. وقال: لا حكم إلا للحكم الحكيم، أنا أبو مدله، اثبتوا إن شئتم. وجعل سعيد يجمع قومه وخيله، ويؤلفها في أثره، ويقول: ما هؤلاء! إنما هم أكلة رأس، فلما رآهم شبيب قد تقطعوا وانتشروا لفَّ خيله كلها، ثم جمعها، ثم قال: استعرضوهم استعراضاً، وانظروا إلى أميرهم، فوالله لأقتلنه أو يقتلني. وحمل عليهم مستعرضاً لهم، فهزمهم وثبت سعيد بن المجالد، ثم نادى أصحابه: إليّ إليّ، أنا ابن ذي مران! وأخذ قلنسوته فوضعها على قربوس

مَرْجِه، وَحَلَّ عَلَيْهِ شَبِيبُ فَعَمَّمَهُ بِالسَّيْفِ، فَخَالَطَ دِمَاعَهُ، فَخَرَّ مَيِّتًا، وَانْهَزَمَ ذَلِكَ الْجَيْشُ، وَقَتَلُوا كُلَّ قِتْلَةٍ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْجَزَلِ، وَنَزَلَ الْجَزَلُ وَنَادَى: أَيُّهَا النَّاسُ، إِلَيَّ. وَنَادَاهُمْ عِيَاضُ بْنُ أَبِي لَيْنَةَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنْ كَانَ أَمِيرُكُمْ الْقَادِمُ قَدْ هَلَكَ فَأَمِيرُكُمْ الْمَيْمُونُ النَّقِيبَةُ الْمُبَارَكُ حَيٌّ لَمْ يَمُتْ، فَقَاتَلَ الْجَزَلُ قِتَالًا شَدِيدًا حَتَّى حُمِلَ مِنْ بَيْنِ الْقَتْلِ، فَحُمِلَ إِلَى الْمَدَائِنِ مَرْتًا، وَقَدَّمَ فَلَّ أَهْلَ ذَلِكَ الْعَسْكَرِ الْكُوفَةِ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بِلَاءً يَوْمُئِذٍ خَالِدُ بْنُ نَهَيْكٍ مِنْ بَنِي دُهْلٍ بَنَ مَعَاوِيَةَ وَعِيَاضُ بْنُ أَبِي لَيْنَةَ، حَتَّى اسْتَنْقَذَاهُ وَهُوَ مَرْتٌ. هَذَا حَدِيثٌ طَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ، وَالْحَدِيثُ الْآخَرُ قَتَلَهُمْ فِيهَا بَيْنَ دَيْرِ أَبِي مَرْيَمَ إِلَى بَرَازِ الرَّوْزِ. ثُمَّ إِنَّ الْجَزَلَ كَتَبَ إِلَى الْحَجَّاجِ.

قال: وَأَقْبَلَ شَبِيبٌ حَتَّى قَطَعَ دَجْلَةً عِنْدَ الْكَرَّخِ، وَبَعَثَ إِلَى سَوِّقِ بَغْدَادَ فَأَمَنَهُمْ، وَذَلِكَ الْيَوْمَ يَوْمَ سُوقِهِمْ، وَكَانَ بَلُغَهُ أَنَّهُمْ يَخَافُونَهُ، فَأَحَبَّ أَنْ يُؤْمِنَهُمْ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ يَرِيدُونَ أَنْ يَشْتَرُوا مِنَ السُّوقِ دَوَابَّ وَثِيَابًا وَأَشْيَاءَ لَيْسَ لَهُمْ مِنْهَا بَدٌّ، ثُمَّ أَخَذَ بِهِمْ نَحْوَ الْكُوفَةِ، وَسَارُوا أَوَّلَ اللَّيْلِ حَتَّى نَزَلُوا عُقْرَ الْمَلِكِ الَّذِي يَلِي قَصْرَ ابْنِ هُبَيْرَةَ. ثُمَّ أَغْدَى السَّيْرَ مِنَ الْغَدِ، فَبَاتَ بَيْنَ حَمَامِ عَمْرِ بْنِ سَعِيدٍ وَبَيْنَ قُبَيْنَ. فَلَمَّا بَلَغَ الْحَجَّاجُ مَكَانَهُ بَعَثَ إِلَى سُؤَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيِّ، فَبَعَثَهُ فِي الْفَيْ فَارَسَ نَقَاوَةً، وَقَالَ لَهُ: أَخْرِجْ إِلَى شَبِيبٍ فَالِقَهُ، وَاجْعَلْ مِيمَنَةً وَمَيْسِرَةً، ثُمَّ انْزِلْ إِلَيْهِ فِي الرِّجَالِ فَإِنْ اسْتَطَرَدَ ذَلِكَ فَدَعِهِ وَلَا تَتَّبِعْهُ. فَخَرَجَ فَعَسَكَرَ بِالسَّبَّخَةِ، فَبَلُغَهُ أَنَّ شَبِيبًا قَدْ أَقْبَلَ، فَأَقْبَلَ نَحْوَهُ وَكَأَنَّمَا يَسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ، وَأَمَرَ الْحَجَّاجُ عُثْمَانَ بْنَ قَطْنٍ فَعَسَكَرَ بِالنَّاسِ بِالسَّبَّخَةِ، وَنَادَى: أَلَا بَرَأْتُ الدُّمَةَ مِنْ رَجُلٍ مِنْ هَذَا الْجَنْدِ بَاتَ اللَّيْلَةَ بِالْكُوفَةِ لَمْ يُخْرِجْ إِلَى عُثْمَانَ بْنَ قَطْنٍ بِالسَّبَّخَةِ! وَأَمَرَ سُؤَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنْ يَسِيرَ فِي الْأَلْفَيْنِ الَّذِينَ مَعَهُ حَتَّى يَلْمَى شَبِيبًا فَعَبَّرَ بِأَصْحَابِهِ إِلَى زُرَّارَةَ وَهُوَ يَعْثُفُهُمْ وَيَحْرُضُهُمْ إِذْ قِيلَ لَهُ: قَدْ غَشِيَكَ شَبِيبٌ، فَتَزَلَّ وَنَزَلَ مَعَهُ جُلُّ أَصْحَابِهِ، وَقَدَّمَ رَايَتَهُ وَمَضَى إِلَى أَقْصَى زُرَّارَةَ، فَأَخْبَرَ أَنَّ شَبِيبًا قَدْ أَخْبَرَ بِمَكَانِكَ فَتَرَكَكَ، وَوَجَدَ مَخَاضَةً فَعَبَّرَ الْفُرَاتَ وَهُوَ يَرِيدُ الْكُوفَةَ مِنْ غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي أَنْتَ بِهِ. ثُمَّ قِيلَ لَهُ: أَمَا تَرَاهُمْ! فَنَادَى: فِي أَصْحَابِهِ، فَرَكَبُوا فِي آثَارِهِمْ.

وَلَمَّا شَبِيبًا أَتَى دَارَ الرِّزْقِ، فَتَزَلَّهَا، فَقِيلَ: إِنْ أَهْلَ الْكُوفَةِ بِأَجْعَهُمْ مَعْسُكُونَ بِالسَّبَّخَةِ، فَلَمَّا بَلَغَهُمْ مَكَانُ شَبِيبٍ صَاحَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَجَالُوا، وَهَمُّوا أَنْ يَدْخُلُوا بِالْكُوفَةِ حَتَّى قِيلَ لَهُمْ: إِنَّ سُؤَيْدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي آثَارِهِمْ قَدْ لَحِقَهُمْ وَهُوَ يَقَاتِلُهُمْ فِي الْخَيْلِ.

قال هشام: وَأَخْبَرَنِي عَمْرُ بْنُ بَشِيرٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَ شَبِيبُ الدَّيْرَ أَمَرَ بِغَنَمٍ تُهَيِّئُ لَهُ، فَصَعِدَ الدَّهْقَانُ، ثُمَّ نَزَلَ وَقَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، فَقَالَ: مَا لَكَ! قَالَ: قَدْ وَاللَّهِ جَاءَكَ جَمْعٌ كَثِيرٌ، قَالَ: أَبْلَغُ الشَّوَاءَ بَعْدُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: دَعِهِ. قَالَ: ثُمَّ أَشْرَفَ إِشْرَافَةً أُخْرَى، فَقَالَ: قَدْ وَاللَّهِ أَحَاطُوا بِالْجَوْسِقِ، قَالَ: هَاتِ شِوَاءَكَ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ غَيْرَ مَكْتَرٍ لَهُمْ، فَلَمَّا فَرِغَ تَوَضَّأَ وَصَلَّى بِأَصْحَابِهِ الْأُولَى، ثُمَّ تَقَلَّدَ سَيْفَيْنِ بَعْدَ مَا لَبَسَ دَرْعَهُ، وَأَخَذَ عَمُودَ حَدِيدٍ ثُمَّ قَالَ: أَسْرِجُوا لِي الْبَغْلَةَ، فَقَالَ أَخُوهُ مَصَادُ: أَفِي هَذَا الْيَوْمِ تُسْرِجُ بَغْلَةً! قَالَ: نَعَمْ أَسْرِجُوهَا، فَرَكَبَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا فُلَانُ، أَنْتَ عَلَى الْمَيْمَنَةِ وَأَنْتَ يَا فُلَانُ عَلَى الْمَيْسِرَةِ، وَقَالَ لِمَصَادُ: أَنْتَ فِي الْقَلْبِ، وَأَمَرَ الدَّهْقَانُ فَفَتَحَ الْبَابَ فِي حَيِّهِمْ. قَالَ: فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ وَهُوَ يَحْكُمُ، فَجَعَلَ سَعِيدٌ وَأَصْحَابُهُ يَرْجِعُونَ الْقَهْقَرَى حَتَّى صَارَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الدَّيْرِ نَحْوُ مِيلٍ. قَالَ: وَجَعَلَ سَعِيدٌ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ هَمْدَانَ، أَنَا ابْنُ ذِي مَرَّانَ، إِلَيَّ إِلَيَّ. وَوَجَّهَ سِرْبًا مَعَ ابْنِهِ وَقَدْ أُسِّنَ أَنَّهَا تَكُونُ عَلَيْهِ، فَنَظَرَ شَبِيبٌ إِلَى مَصَادُ فَقَالَ: أَتُكَلِّمُنِيكَ اللَّهُ إِنْ لَمْ أَتُكَلِّمْ وَلَدَهُ. قَالَ: ثُمَّ عَلَاهُ بِالْعَمُودِ، فَسَقَطَ مَيِّتًا، وَانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ وَمَا قُتِلَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا قَتِيلٌ وَاحِدٌ. قَالَ: وَانْكَشَفَ أَصْحَابُ سَعِيدِ بْنِ مَجَالِدٍ حَتَّى أَتَوْا بِالْجَزَلَ، فَنَادَاهُمْ الْجَزَلُ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِلَيَّ إِلَيَّ. وَنَادَاهُمْ عِيَاضُ بْنُ أَبِي لَيْنَةَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنْ يَكُنْ أَمِيرُكُمْ

هذا القادمُ قد هلك فهذا أميرُكم الميمون النقيب، أقبلوا إليه، وقَاتِلُوا معه؛ فمنهم من أقبل إليه، ومنهم من ركب رأسه منهزماً، وقَاتِلَ الْجَزْلُ قتالاً شديداً حتى صُرع، وقَاتَلَ عنه خالدُ بن نهيك وعياضُ بن أبي لينة حتى استنقذاه وهو مُرْتَثٌ، وأقبلَ الناسُ منهزمين حتى دخلوا الكوفة، فأبى بالجزل حتى أدخل المدائن، وكتب إلى الحجاج بن يوسف.

قال أبو مخنف: حَدَّثَنِي بذلك ثابتُ مولى زهير:

أما بعد، فلما أخبر الأميرُ أصلحه الله أني خرجت فيمن قبلي من الجند الذي وجهني إلى عدوّه، وقد كنت حفظت عهدَ الأميرِ إليّ فيهم ورأيتُ، فكنتُ أخرجُ إليهم إذا رأيتُ الفرصة، وأحسّ الناسُ عنهم إذا خشيت الورطة، فلم أزل كذلك، ولقد أرادني العدوُّ بكلِّ ريدة فلم يُصِبْ مِنِّي غِرَّةً، حتى قدم عليّ سعيدُ بن مجالد رحمة الله عليه، ولقد أمرته بالتؤدة، ونهيتُه عن العجلة، وأمرته ألا يقاتلهم إلا في جماعة الناس عامَّةً، فعصاني، وتعجلَ إليهم في الخيل، فأشهدتُ عليه أهلَ المصْرَيْنِ أني برىء من رأيه الذي رأى، وأنى لا أهوى ما صنع. فمضى فأصيب تجاوز الله عنه، ودُفِعَ الناسُ إليّ، فنزلتُ ودعوتُهم إليّ، ورفعْتُ لهم رأيي، وقَاتَلْتُ حتى صُرعْتُ، فحملني أصحابي من بين القتلى، فما أفقت إلا وأنا على أيديهم على رأس ميلٍ من المعركة، فأنا اليوم بالمدائن في جراحة قد يموت الرجلُ من دونها ويُعافى من مثلها. فليسال الأميرُ أصلحه الله عن نصيحتي له ولجنده، وعن مكائدي عدوّه، وعن موقفي يومَ البأس، فإنه يستبين له عند ذلك أني قد صدقته ونصحتُ له. والسلام.

فكتب إليه الحجاج:

أما بعد، فقد أتاني كتابُك وقرأته، وفهمتُ كلَّ ما ذكرتَ فيه، وقد صدقتُك في كلِّ ما وصفتَ به نفسك من نصيحتك لأمرِك، وحِيطتِك على أهلِ مَصْرِكَ، وشَدَّتْكَ على عدوك، وقد فهمتُ ما ذكرتَ من أمرِ سعيد وعجلته إلى عدوّه، فقد رضى عَجَلَتَهُ وتَوَدَّدْتَ، فأما عجلته فإنها أفضت به إلى الجنة، وأما تَوَدَّدْتَ فإنها لم تدع الفرصة إذا أمكنت، وترك الفرصة إذا لم تُمكن حَزْمُ، وقد أصبتَ وأحسنْتَ البلاء، وأجرتَ، وأنتَ عندي من أهلِ السمع والطاعة والنصيحة، وقد أشخصتُ إليك حيَّان بن أبحر ليداويك ويعالج جراحتك، وبعثتُ إليك بألفي درهم فأنفقها في حاجتك وما ينوبك. والسلام.

فقدم عليه حيَّان بن أبحر الكِنَافِي من بني فراس - وهم يعالجون الكَيَّ وغيره - فكان يداويه، وبعث إليه عبد الله بن أبي عَصِيفِرٍ بألف درهم، وكان يعودُه ويتعاهدُه بِاللَّطْفِ والهدية - قال: وأقبل شبيب نحو المدائن؛ فعلم أنه لا سبيل له إلى أهلها مع المدينة، فأقبل حتى انتهى إلى الكَرْخ، فعبر دجلة إليه، وبعث إلى أهل سوق بَغْدَاد وهو بالكَرْخ أن أثبتوا في سوقكم فلا بأس عليكم - وكان ذلك يوم سوقهم - وقد كان بلغه أنهم يخافونه. قال: ويخرجُ سُويد حتى جعل بيوتَ مُزينة وبني سُلَيم في ظهره وظهور أصحابه، وحمل عليهم شبيب حملةً منكراً، وذلك عند المساء، فلم يقدر منهم على شيء، فأخذ على بيوت الكوفة نحو الحيرة، وأتبعه سُويد لا يفارقه حتى قطع بيوت الكوفة كلها إلى الحيرة، وأتبعه سُويد حتى انتهى إلى الحيرة، فبيَّحه قد قطع قنطرة الحيرة ذاهباً، فتركه وأقام حتى أصبح، وبعث إليه الحجاج أن أتبعه فاتبعه، ومضى شبيب حتى أغار في أسفل الفُرات على من وجد من قومه، وارتفع في البر من وراء خَفَّان في أرض يقال لها الغلطة، فيصيب رجالاً من بني الورثة،

فَحَمَلْ عَلَيْهِمْ ، فَاضْطَرَّهِمْ إِلَى جَدَدٍ مِنَ الْأَرْضِ ، فَجَعَلُوا يَرْمُونَهُ وَأَصْحَابَهُ بِالْحِجَارَةِ مِنْ حِجَارَةِ الْأَرْجَاءِ كَانَتْ حَوْثَهُمْ ، فَلَمَّا نَفِدَتْ وَصَلَ إِلَيْهِمْ فَقَتَلَ مِنْهُمْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا ، مِنْهُمْ حَنْظَلَةُ بْنُ مَالِكٍ وَمَالِكُ بْنُ حَنْظَلَةَ وَحِرَانُ بْنُ مَالِكٍ ؛ كُلُّهُمْ مِنْ بَنِي الْوُرُثَةِ .

قال أبو مخنف : حَدَّثَنِي بِذَلِكَ عَطَاءُ بْنُ عَرْفَجَةَ بْنُ زِيَادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْوُرَثِيُّ . وَمَضَى شَبِيبٌ حَتَّى يَأْتِيَ بَنِي أَبِيهِ عَلَى اللَّصَفِ (مَاءٌ لَرَهْطُهُ) وَعَلَى ذَلِكَ الْمَاءِ الْفَزْرُ بْنُ الْأَسْوَدِ ، وَهُوَ أَحَدُ بَنِي الصَّلْتِ ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَنْهَى شَبِيبًا عَنْ رَأْيِهِ ، وَأَنْ يُفْسِدَ بَنِي عَمِّهِ وَقَوْمِهِ ، فَكَانَ شَبِيبٌ يَقُولُ : وَاللَّهِ لَئِنْ مَلَكَتُ سَبْعَةَ أَعْنَةِ لَأَغْزُونَ الْفَزْرَ . فَلَمَّا غَشِيَهُمْ شَبِيبٌ فِي الْخَيْلِ سَأَلَ عَنِ الْفَزْرِ فَاتَّقَاهُ الْفَزْرُ ، فَخَرَجَ عَلَى فَرَسٍ لَا تُجَارَى مِنْ وَرَاءِ الْبُيُوتِ ، فَذَهَبَ عَلَيْهَا فِي الْأَرْضِ ، وَهَرَبَ مِنْهُ الرِّجَالُ ، وَرَجَعَ وَقَدْ أَخَافَ أَهْلَ الْبَادِيَةِ حَتَّى أَخَذَ عَلَى الْفُطُقْطَانَةِ ، ثُمَّ عَلَى قَصْرِ مُقَاتِلٍ ، ثُمَّ أَخَذَ عَلَى شَاطِئِ الْفُرَاتِ حَتَّى أَخَذَ عَلَى الْحَصَاصَةِ ، ثُمَّ عَلَى الْأَنْبَارِ ، ثُمَّ مَضَى حَتَّى دَخَلَ دُقُوقَاءَ ، ثُمَّ ارْتَفَعَ إِلَى أَدَانِي أَذْرَبِيجَانَ . فَتَرَكَ الْحَجَّاجَ وَخَرَجَ إِلَى الْبَصْرَةِ ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْكُوفَةِ عُرْوَةَ بْنُ الْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ، فَمَا شَعَرَ النَّاسُ بِشَيْءٍ حَتَّى جَاءَ كِتَابٌ مِنْ مَازِرُوسَبٍ دِهْقَانَ بَابِلَ مَهْرُودٍ وَعَظِيمِهَا إِلَى عُرْوَةَ بْنِ الْمَغِيرَةِ ابْنِ شُعْبَةَ أَنَّ تَاجِرًا مِنْ تِجَارِ الْأَنْبَارِ مِنْ أَهْلِ بِلَادِي أَتَانِي فَذَكَرَ أَنَّ شَبِيبًا يَرِيدُ أَنْ يَدْخُلَ الْكُوفَةَ فِي أَوَّلِ هَذَا الشَّهْرِ الْمُسْتَقْبَلِ ، أَحَبِّتُ إِعْلَامَكَ ذَلِكَ لِتَرَى رَأْيِيكَ ، ثُمَّ لَمْ أَلْبَثْ إِلَّا سَاعَةً حَتَّى جَاءَنِي جَابِيَانِ مِنْ جُبَاتِي فَحَدَّثَانِي أَنَّهُ قَدْ نَزَلَ خَانِيجَارَ . فَأَخَذَ عُرْوَةَ كِتَابَهُ فَأَدْرَجَهُ وَسَرَّحَ بِهِ إِلَى الْحَجَّاجِ بِالْبَصْرَةِ ، فَلَمَّا قَرَأَهُ الْحَجَّاجُ أَقْبَلَ جَوَادًا إِلَى الْكُوفَةِ ، وَأَقْبَلَ شَبِيبٌ يَسِيرُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَرْيَةٍ يَقَالُ لَهَا خَرْبُ عَلَى شَاطِئِ دَجْلَةٍ فَعَبَرَ مِنْهَا ، فَقَالَ : مَا اسْمُ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ؟ فَقَالُوا : خَرْبُ ، فَقَالَ : حَرْبٌ يَصْلِي بِهَا عَدُوَّكُمْ ، وَحَرْبٌ تُدْخِلُونَهُ بُيُوتَهُمْ ، إِنَّمَا يَتَطَيَّرُ مَنْ يَقُوفُ وَيَعِيفُ ، ثُمَّ ضَرَبَ رَايَتَهُ وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : سِيرُوا ، فَأَقْبَلَ حَتَّى نَزَلَ عَقْرُقُوفًا ، فَقَالَ لَهُ سُؤَيْدُ بْنُ سُلَيْمٍ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَوْ تَحَوَّلَتْ بَنَاتُ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الْمَشْهُومَةِ ، الْاسْمُ ! قَالَ : وَقَدْ تَطَيَّرْتُ أَيْضًا ! وَاللَّهِ لَا أَتَحَوَّلُ عَنْهَا حَتَّى أُسِيرَ إِلَى عَدُوِّي مِنْهَا ، إِنَّمَا شَوْمُهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَى عَدُوِّكُمْ تَحْمِلُونَ عَلَيْهِمْ فِيهَا ، فَالْعَقْرُ هُمْ .

ثم قال لأصحابه : يَا هَؤُلَاءِ ، إِنْ الْحَجَّاجَ لَيْسَ بِالْكُوفَةِ ، وَلَيْسَ دُونَ الْكُوفَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ شَيْءٌ ، فَسِيرُوا بِنَا . فَخَرَجَ يُبَادِرُ الْحَجَّاجَ إِلَى الْكُوفَةِ ، وَكُتِبَ عُرْوَةَ إِلَى الْحَجَّاجِ أَنَّ شَبِيبًا قَدْ أَقْبَلَ مَسْرِعًا يُرِيدُ الْكُوفَةَ ، فَالْعَجَلُ الْعَجَلُ . فَطَوَى الْحَجَّاجُ الْمَنَازِلَ ، وَاسْتَبَقَا إِلَى الْكُوفَةِ ، وَنَزَلَهَا الْحَجَّاجُ صَلَاةَ الظُّهْرِ ، وَنَزَلَ شَبِيبُ السَّبْخَةِ صَلَاةَ الْمَغْرَبِ ، فَصَلَّى الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ ، ثُمَّ أَصَابَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ مِنَ الطَّعَامِ شَيْئًا يَسِيرًا ، ثُمَّ رَكَبُوا خِيُولَهُمْ فَدَخَلُوا الْكُوفَةَ ، فَجَاءَ شَبِيبٌ حَتَّى انْتَهَى إِلَى السُّوقِ ، ثُمَّ شَدَّ حَتَّى ضَرَبَ بَابَ الْقَصْرِ بِعُمُودِهِ . قَالَ أَبُو الْمُنْذَرِ : رَأَيْتُ ضَرْبَةَ شَبِيبٍ بِبَابِ الْقَصْرِ قَدْ أَثَرَتْ أَثَرًا عَظِيمًا ، ثُمَّ أَقْبَلَ حَتَّى وَقَفَ عِنْدَ الْمَصْطَبَةِ ، ثُمَّ قَالَ :

وَكأنَّ حَافِرَهَا بِكُلِّ خَمِيلَةٍ كَيْلٌ يَكِيلُ بِهِ شَجِيحٌ مُعْدِمٌ
عَبْدٌ دَعِيَ مِنْ ثَمَوٍ أَصْلُهُ لَا بَلْ يُقَالُ أَبُو أَبِيهِمْ يَقْدُمُ

ثم اقْتَحَمُوا الْمَسْجِدَ الْأَعْظَمَ وَكَانَ كَبِيرًا لَا يَفَارِقُهُ قَوْمٌ يَصَلُّونَ فِيهِ ، فَقَتَلَ عَقِيلُ بْنُ مَصْعَبٍ الْوُدَاعِيَّ وَعَدِيَّ بْنَ عَمْرِو بْنِ الثَّقَفِيِّ وَأَبَا لَيْثٍ بْنَ أَبِي سُلَيْمٍ مَوْلَى عَنَسَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، وَقَتَلُوا أَزْهَرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْعَامِرِيَّ ، وَمَرُّوا بِدَارِ حَوْشَبٍ وَهُوَ عَلَى الشَّرْطِ فَوَقَفُوا عَلَى بَابِهِ وَقَالُوا : إِنَّ الْأَمِيرَ يَدْعُو حَوْشَبًا ، فَأَخْرَجَ مِمُّونٌ غَلَامَهُ بِرَدُونٍ حَوْشَبَ لِيَرْكَبَهُ حَوْشَبُ ، فَكَأَنَّهُ أَنْكَرَهُمْ فَظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ أَتَاهُمْ ، فَأَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ ، فَقَالُوا لَهُ : كَمَا أَنْتَ ،

حتى يُخْرِجَ صاحبُك . فسمع حَوْشِبُ الكلامَ ، فَأَنكَرَ القومَ ، فخرج إليهم ، فلما رأى جماعتهم انكَرهم ، وذهب لينصرف فَعَجَّلُوا نحوه ، ودخل وأغلق الباب ، وقتلوا غلامه ميمونا ، وأخذوا بِرَدُونِهِ وَمَضُوا حتى مرّوا بالْحِجَافِ بنِ نَبِيطِ الشَّيْبَانِي من رَهْطِ حَوْشِبِ ، فقال له سويد : انزل إلينا ، فقال له : ما تصنع بُزُولِي ! قال له سويد : أقضيك ثمن البكرة التي كنتُ ابتعتُ منك بالبادية ، فقال له الحِجَافُ : بشئ ساعة القضاء هذه الساعة ، وبشئ قضاء الذين هذا المكان ! أما ذكرتُ أمانتكُ إلّا واللَّيلُ مظلم ، وأنت على ظهر فرسك ! قَبَّحَ الله يا سويد ديننا لا يصلح ولا يتم إلا بقتل ذوي القَرابة وسفك دماء هذه الأمة .

قال : ثم مضوا فمرّوا بمسجد بني ذهل فلقوا ذهل بن الحارث ، وكان يصلي في مسجد قومه فيطيل الصلاة ، فصادفوه منصرفاً إلى منزله ، فشَدُّوا عليه ليقْتُلوه ، فقال : اللهم إني أشكو إليك هؤلاء وظلمهم وجهلهم . اللهم إني عنهم ضعيف ، فانتصر لي منهم ! فضرَبوه حتى قتلوه ، ثم مضوا حتى خرجوا من الكوفة متوجّين نحو المردمة .

قال هشام : قال أبو بكر بن عيَّاش : واستقبله النُّضْرُ بنُ قَعْقَاعِ بنِ شُورِ الذَّهْلِي ، وأمّه ناجية بنت هانيء بن قبيصة بن هانيء الشَّيْبَانِي فأبطره حين نظر إليه - قال : يعني بقوله : « أَبْطَرَهُ » أفرّعه - فقال : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله ، قال له سويد مبادراً : أمير المؤمنين ، وبُئِكَ ! فقال : أمير المؤمنين . حتى خرجوا من الكوفة متوجّين نحو المردمة ، وأمر الحِجَافُ المناذري فنادى : يا خيلَ الله اركبي وأبشري ، وهو فوق باب القصر ، وثمّ مصباحٌ مع غلام له قائم ، فكان أوّل من جاء إليه من الناس عثمان بن قَطَنَ بن عبد الله بن الحصين ذي العُصّة ، ومعه مواليه ، وناس من أهله ، فقال : أنا عثمان بن قَطَنَ ، أعلموا الأمير مكاني فليأمر بأمره ، فقال له ذلك الغلام : قف مكانك حتى يأتيتك أمرُ الأمير ، وجاء الناسُ من كلّ جانب ، وبات عثمانُ فيمن اجتمع إليه من الناس حتى أصبح .

ثم إن الحِجَافَ بعث بُسْرَ بنَ غالبِ الأَسَدِيّ من بني والبة في ألفي رجل ، وزائدة بن قدامة الثقفي في ألفي رجل ، وأبا الضريس مولى بني تميم في ألف من الموالِي ، وأَعْيَنَ - صاحب حمّام أَعْيَنَ مَوْلَى بِشْرِ بن مروان - في ألف رجل ، وكان عبد الملك بن مروان قد بعث محمّد بن موسى بن طلحة على سِجِسْتَانَ ، وكتب له عليها عهده ، وكتب إلى الحِجَافِ : أمّا بعد ، فإذا قدم عليك محمد بن موسى فجهّز معه ألفي رجل إلى سِجِسْتَانَ ، وعجّل سراحه . وأمر عبد الملك محمّد بن موسى بمكاتبة الحِجَافِ ، فلما قدم محمّد بن موسى جعل يتحبّس في الجهاز ، فقال له نصحاءُه : تعجّل أيها الأمير إلى عمّلك ، فإنك لا تدري ما يكون من أمر الحِجَافِ ! وما يبدو له . فأقام على حاله ، وحدث من أمر شبيب ما حدث ، فقال الحِجَافُ لمحمّد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله : تلقى شبيباً وهذه الخارجة فتجاهدْهم ثم تمّضي إلى عمّلك ، وبعث الحِجَافُ مع هؤلاء الأمراء أيضاً عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر بن كُرَيْزِ القُرَشِيّ وزِيَادَ بن عمرو العَتَكِيّ ، وخرج شبيبٌ حيث خرج من الكوفة ، فأقى المردمة وبها رجل من حضرة مَوْتِ على العُشُورِ يقال له ناجية بن مرثد الحضرمي ، فدخل الحمّام ودخل عليه شبيب فاستخرجه فضرَبَ عنقه ، واستقبل شبيب النضر بن القَعْقَاعِ بن شُورِ - وكان مع الحِجَافِ حين أقبل من البصرة ، فلما طوى الحِجَافُ المنازل خلفه وراءه - فلما رآه شبيب ومعه أصحابه عرفه ، فقال له شبيب : يا نضر بن القَعْقَاعِ ، لا حُكْمَ إلّا الله - ولما أراد شبيب بمقاتلته له تَلَقَّيْنَهُ فلم يفهم النضر - فقال ﴿ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ، فقال أصحاب شبيب : يا أمير المؤمنين ، كأنك إنما تريد بمقاتلتك أن تلقّنه فشَدُّوا على نضر فقتلوه .

قال : واجتمعت تلك الأمراء في أسفل الفرات ، فترك شبيب الوجه الذي فيه جماعة أولئك القواد ، وأخذ نحو القادسية ، ووجه الحجاج زحر بن قيس في جريدة خيل نقاوة ألف وثمانمائة فارس ، وقال له : أتبع شبيباً حتى تواقعه حيثما أدركته ، إلا أن يكون منطلقاً ذاهباً فاتركه ما لم يعطف عليك أو ينزل فيقيم لك ، فلا تبرح إن هو أقام حتى تواقعه ، فخرج زحر حتى انتهى إلى السليحين ، وبلغ شبيباً مسيره إليه ، فأقبل نحوه فالتقيا ، فجعل زحر على ميمته عبدالله بن كنانز النهدي ، وكان شجاعاً ، وعلى ميسرته عدي بن عدي بن عميرة الكندي الشيباني ، وجمع شبيب خيله كلها كبكة واحدة ، ثم اعترض بها الصف ، فوجف وجيفا ، واضطرب حتى انتهى إلى زحر بن قيس ، فنزل زحر بن قيس ، فقاتل زحر حتى صرع ، وانهمز أصحابه ، وظن القوم أنهم قد قتلوه ، فلما كان في السحر وأصابه البرد قام يتمشى حتى دخل قرية فبات بها ، وحمل منها إلى الكوفة وبوجهه رأسه بضعة عشر جراحة ما بين ضربة وطعنة ، فمكث أياماً ، ثم أتى الحجاج وعلى وجهه وجراحه القطن ، فأجلسه الحجاج معه على السرير ، وقال لمن حوله : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين الناس وهو شهيد فليتنظر إلى هذا . وقال أصحاب شبيب لشبيب وهم يظنون أنهم قد قتلوا زحراً : قد هزمنا لهم جنداً ، وقتلنا لهم أميراً من أمرائهم عظيماً ، انصرف بنا الآن وافرين ، فقال لهم : إن قتلنا هذا الرجل ، وهزمتنا هذا الجند ، قد أرعبت هذه الأمراء والجنود التي بعثت في طلبكم ، فاقصدوا بنا قصدهم فوالله لئن نحن قتلناهم ما دون الحجاج من شيء وأخذ الكوفة إن شاء الله . فقالوا : نحن لرأيك سمع تبع ، ونحن طوع يدك .

قال : فانقض بهم جواداً حتى يأتي نجران - وهي نجران الكوفة ناحية عين التمر - ثم سأل عن جماعة القوم فخبّر باجتماعهم برؤوبار في أسفل الفرات في بهقباد الأسفل ، على رأس أربعة وعشرين فرسخاً من الكوفة . فبلغ الحجاج مسيره إليهم ، فبعث إليهم عبد الرحمن بن الغرق مولى ابن أبي عقيل - وكان على الحجاج كريماً - فقال له : الحق بجماعتهم - يعني جماعة الأمراء - فأعلمهم بمسير المارقة إليهم ، وقل لهم : إن جمعكم قتال فأمر الناس زائدة بن قدامة ، فأتاهم ابن الغرق فأعلمهم ذلك ، وانصرف عنهم .

قال أبو مخنف : فحدثني عبد الرحمن بن جندب قال : انتهى إلينا شبيب وفيها سبعة أمراء على جماعتهم زائدة بن قدامة ، وقد عبى كل أمير أصحابه على جذة ، ففي ميمتنا زياد بن عمرو العتكي ، وفي ميسرتنا بشر بن غالب الأسدي ، وكل أمير واقف في أصحابه . فأقبل شبيب حتى وقف على تل ، فأشرف على الناس وهو على فرس له كُميت أعز ، فنظر إلى تعبيتهم ، ثم رجع إلى أصحابه ، فأقبل في ثلاث كتائب يوجفون ، حتى إذا دنا من الناس مضت كتيبة فيها سويد بن سليم فتقف في ميمتنا ومضت كتيبة فيها مصاد أخو شبيب ، فوقفت على ميسرتنا ، وجاء شبيب في كتيبة حتى وقف مقاتل القلب . قال : وخرج زائدة بن قدامة يسير في الناس فيما بين ميمتهم إلى ميسرتهم يحرض الناس ويقول :

يا عباد الله ، أنتم الكثيرون الطيبون ، وقد نزل بكم القليلون الخبيثون ، فاصبروا - فجعلت لكم الفداء - لكرتين أو ثلاث تكرون عليهم ، ثم هو النصر ليس بينه حاجز ولا دونه شيء . ألا ترون إليهم والله ما يكونون مائتي رجل ، إنما هم أكلة رأس ، إنما هم السراق المراق ، إنما جاؤكم ليهريقوا دماءكم ، ويأخذوا فيكم ، فلا يكونوا على أخذه أقوى منكم على منعه ، وهم قليل وأنتم كثير ، وهم أهل فرقة وأنتم أهل جماعة ، غصوا الأبصار ، واستقبلوهم بالأسنة ، ولا تحملوا عليهم حتى أمركم ، ثم انصرف إلى موقفه .

قال : ويحمل سويد بن سليم على زياد بن عمرو ، فأنكشف صفهم ، وثبت زياد في نحو من نصف

أصحابه ، ثم ارتفع عنهم سُويد قليلاً ، ثم كرّ عليهم ثانيةً ، ثم أطعنوا ساعة .
قال أبو مخنف : فحدثني ، فروة بن لقيط ، قال : أنا والله فيهم يومئذ ، قال : أطعننا ساعة وصبروا لنا حتى ظننت أنهم لن يزولوا ، وقاتل زياد بن عمرو قتالاً شديداً ، وجعل ينادي : يا خيلي ، ويشدّ بالسيف فيقاتل قتالاً شديداً ، فلقد رأيت سُويد بن سليم يومئذ وإنه لأشجع العرب وأشدّه قتالاً ، وما يُعرض له . قال : ثم إنا ارتفعنا عنهم آخراً فإذا هم يتقوّضون ، فقال له أصحابه : ألا تراهم يتقوّضون ! أحمل عليهم ، فقال لهم شبيب : خلّوهم حتى يخفّوا ، فتركوهم قليلاً ، ثم حمل عليهم الثالثة فانهزموا . فنظرت إلى زياد بن عمرو وإنه ليضرب بالسيف وما من سيف يُضرب به إلا نبا عنه وهو مجحف ، ولقد رأيتُه اعتوره أكثر من عشرين سيفاً فما ضرّه من ذلك شيء . ثم إنه انهزم وقد جرح جراحةً سيرة ، وذلك عند المساء .

قال : ثم شدّدنا على عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر فهزمناه ، وما قاتلنا كثير قتال ، وقد ضارب ساعة وقد بلغني أنه كان جرح ثم لحق زياد بن عمرو ، فمضينا منهزمين حتى انتهينا إلى محمد بن موسى بن طلحة عند المغرب ، فقاتلنا قتالاً شديداً وصبر لنا .

ذكر هشام عن أبي مخنف ، قال : حدثني عبد الرحمن بن جندب وفروة بن لقيط ، أن أخا شبيب مصاداً حمل على بشر بن غالب وهو في الميسرة ، فأبلى وكرم والله وصبر ، فنزل ونزل معه رجال من أهل الصبر نحو من خمسين ، فضاربوا بأسيا فاهم حتى قتلوا عن آخرهم ، وكان فيهم عروة بن زهير بن ناجد الأزدي ، وأمه زرارة امرأة ولدت في الأزد ، فيقال لهم بنو زرارة ، فلما قتلوه وانهزم أصحابه مالوا فشدوا على أبي الضريس مولى بني تميم ، وهويلى بشر بن غالب ، فهزموه حتى انتهى إلى موقف أعين ، ثم شدوا عليه وعلى أعين جميعاً فهزموهما حتى انتهوا بهما إلى زائدة بن قدامة ، فلما انتهوا إليه نزل ونادى : يا أهل الاسلام ، الأرض الأرض ، إليّ إليّ ! لا يكونوا على كفرهم أصبر منكم على إيمانكم ، فقاتلهم عامة الليل حتى كان السحر . ثم إن شبيباً شدّ عليه في جماعة من أصحابه فقتله وأصحابه وتركهم ربضة حوله من أهل الحفاظ .

قال أبو مخنف : وحدثني عبد الرحمن بن جندب قال : سمعت زائدة بن قدامة ليلئذ رافعاً صوته يقول : يا أيها الناس ، اصبروا وصابروا ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ . ثم والله ما برح يقاتلهم مقبلاً غير مدبر حتى قُتل .

قال أبو مخنف : وحدثني فروة بن لقيط أن أبا الصُقَيْرِ الشَّيبَانِي ذكر أنه قتل زائدة بن قدامة ، وقد حاجه في ذلك آخر يقال له الفضل بن عامر . قال : ولما قتل شبيب زائدة بن قدامة دخل أبو الضريس وأعين جوسقا عظيماً ، وقال شبيب لأصحابه : ارفعوا السيف عن الناس وادعوهم إلى البيعة ، فدعّوهم إلى البيعة عند الفجر .

قال عبد الرحمن بن جندب : فكننت فيمن قدم إليه فبايعه وهو واقف على فرس وخيله واقفة دونه ، فكل من جاء لبايعه نزع سيفه عن عاتقه ، وأخذ سلاحه منه ، ثم يُدنى من شبيب فيسلم عليه بإمرة المؤمنين ، ثم يخلى سبيله . قال : وإننا لذلك إذ انفجر الفجر ومحمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله في أقصى العسكر ، معه عصابة من أصحابه قد صبروا ، فلما انفجر الفجر أمر مؤذنه فأذن ، فلما سمع شبيب الأذان قال : ما هذا ؟ فقال : هذا محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله لم يَرح ، فقال : قد ظننت أن محقه وخيلاءه سيحمله على هذا ، نَحُوا هؤلاء عَنَّا وانزلوا بنا فلنصل . قال : فنزل فأذن هو ، ثم استقدم فصلّاً بأصحابه ، فقرا :

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾^(١)، و﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّينِ﴾^(٢)، ثم سلم، ثم ركبوا فحمل عليهم فانكش طائفة من أصحابه، وثبتت طائفة. قال فروة: فما أنسى قوله وقد غشينا وهو يقاتل بسيفه وهو يقول: ﴿أَسِيبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ * وَلَقَدْ فُتِنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾^(٣).

قال: وضارب حتى قتل. قال: فسمعت أصحابي يقولون: إن شيباً هو الذي قتله. ثم إننا نزلنا فأنخذ كان في العسكر من شيء، وهرب الذين كانوا بايعوا شيباً، فلم يبق منهم أحد.

وقد ذكر من أمر محمد بن موسى بن طلحة غير أبي مخنف أمراً غير الذي ذكرته عنه، والذي ذكر من أن عبد الملك بن مروان كان ولي محمد بن موسى بن طلحة سجستان، فكتب إليه الحجاج: إنك عامل كل مررت به، وهذا شبيب في طريقك. فعدل إليه محمد، فأرسل إليه شبيب: إنك امرؤ مخدوع، قد اتقى الحجاج، وأنت جائر لك حق، فانطلق لما أمرت به ولك الله لا آذيتك، فأبى إلا محاربتة، فواقفه شبيب، وأبى إليه الرسول، فأبى إلا قتاله، فدعا إلى البراز، فبرز إليه البطين ثم قعن ثم سويد، فأبى إلا شيباً، فله شبيب: قد رغب عنا إليك، قال: فما ظنكم هذه الأشراف! فبرز إليه شبيب، وقال: إني أنشدك الله في دما فإن لك جواراً. فأبى إلا قتاله، فحمل عليه شبيب فضربه بعصا حديد فيها اثنا عشرة رطلاً بالشأمي، فهشم بيضة عليه ورأسه فسقط، ثم كفنه ودفنه، وابتاع ما غنموا من عسكره، فبعث به إلى أهله، واعتذر إلى أص وقال: هو جاري بالكوفة، ولي أن أهب ما غنمت لأهل الردة.

قال عمر بن شبة: قال أبو عبيدة: كان محمد بن موسى مع عمر بن عبيد الله بن معمر بفارس، و معه قتال أبي فديك وكان على ميمنته، وشهر بالنجدة وشدة البأس وزوجه عمر بن عبيد الله بن معمر ابن عثمان وكانت أخته تحت عبد الملك بن مروان - فولاه سجستان، فمر بالكوفة وبها الحجاج بن يوسف فتبيل للحجاج، إن صار هذا إلى سجستان مع نجدته وصهره لعبد الملك فلجأ إليه أحد من تطلب، منه، قال: فما الحيلة؟ قيل: تأتية وتسلم عليه، وتذكر نجدته وبأسه وأن شيباً في طريقه، وأنه قد أعيا وأنتك ترجو أن يريخ الله منه على يده، فيكون له ذكر ذلك وشهرته. ففعل، فعدل إليه محمد بن موسى طلحة بن عبيد الله، فواقعه شبيب، فقال له شبيب: إني قد علمت خداع الحجاج، وإنما اغتركت ووقى نفسه، وكأني بأصحابك لو قد التقت حلقنا البطان قد أسلموك، فصرعت مصرع أصحابك، فأد وانطلق لشأنك، فإني أنفس بك عن الموت، فأبى محمد بن موسى، فبارزه شبيب فقتله.

رجع الحديث إلى حديث أبي مخنف. قال عبد الرحمن: لقد كان فيمن بايعه تلك الليلة أبو بردة بن موسى الأشعري، فلما بايعه قال له شبيب: ألسنت أبا بردة! قال: بلى، قال شبيب لأصحابه: يا أخلاثم أبو هذا أحد الحكمين، فقالوا: ألا نقتل هذا؟ فقال: إن هذا لا ذنب له فيما صنع أبوه؛ قالوا: أجل، ق وأصبح شبيب: فأق مقبلاً نحو القصر الذي فيه أبو الضريس وأعين فرموه بالنبل، وتحصنا منه، فأقام ذلك ا عليهم، ثم شخص عنهم، فقال له أصحابه: مادون الكوفة أحد يمنعنا؛ فنظر فإذا أصحابه قد جرح

(١) سورة الهمة: ١.

(٢) سورة الماعون: ١.

(٣) سورة العنكبوت: ١ - ٣.

فقال لهم : ما عليكم أكثر مما قد فعلتم ، فخرج بهم على زُفَر ، ثم على الصُرة ، ثم على بَغْدَاد ، ثم خرج إلى خَانِيجَار فَأَقَامَ بها .

قال : ولما بلغ الحُجَّاج أن شبيباً قد أخذ نحو زُفَر ظَنَّ أنه يريد المدائن - وهي باب الكوفة ، ومن أخذ المدائن كان ما في يده من أرض الكوفة أكثر - فهال ذلك الحُجَّاج ، وبعث إلى عثمان بن قُطَن ، ودعاه وسرَّحه إلى المدائن ، وولاه منبرها والصلاة ومَعُونَةَ جُوحَى كُلِّهَا وخَرَّاجَ الأُسْتَان . فخرج مسرعاً حتى نزل المدائن ، وعزل الحُجَّاجُ عبدَ الله بن أبي عَصِيفِر ، وكان بها الجَزَلُ مقيماً شهراً يُداوي جراحته ، وكان ابن أبي عَصِيفِر يعودُه ويكرمه ، فلما قدم عثمانُ بن قُطَن المدائن لم يَعُدْهُ ، ولم يكن يتعاهده ولا يُلِطُفه بشيء ، فقال الجَزَلُ : اللَّهُمَّ زِدْ ابْنَ عَصِيفِرِ جُوداً وكرماً وفضلاً ، وزد عثمان بن قُطَن ضيقاً وبُخْلاً . قال : ثم إن الحُجَّاج دعا عبدَ الرحمن بنَ محمد بن الأشعث فقال : انتخب الناس ، واخرج في طلب هذا العدو ، فأمره بِنُخْبَةِ سِتَّةِ آلاف ، فانتخب فُرْسَانِ الناس ووجوهم ، وأخرج من قومه سِتْمِائَةَ من كِنْدَةَ وحَضْرَمَوْتَ ، واستحثَّ الحُجَّاجُ بالعسكر ، فعسكر بدير عبد الرحمن ، فلما أراد الحُجَّاجُ إِشْخَاصَهُمْ كتب إليهم .

أما بعد ، فقد اعتدتم عادة الأذلاء ، وولَّيتم الدُّبُرَ يومَ الزُّحْفِ ، وذلك دأب الكافرين ، وإنِّي قد صفحتُ عنكم مرّة بعد مرّة ، ومرّة بعد مرّة ، وإنِّي أقسم لكم بالله قَسْماً صادقاً لئن عدتم لذلك لأَوْقِعَنَّ بكم إيقاعاً أَكُونُ أَشَدَّ عليكم من هذا العدو تهربون منه في بطون الأودية والشعاب ، وتستترون منه بأثناء الأنهار وألواذ الجبال ، فخاف من له مَعْقُولٌ على نفسه ، ولم يجعل عليها سبيلاً ، وقد أعدَّ من أنذر .

وقد أسمعْت لَوْنَادِيَتٍ حَيّاً ولكن لا حياة لمن تُنادِي

والسلام عليكم .

قال : ثم سَرَّحَ ابن الأصمّ مؤدَّته ، فأقَى عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث عند طلوع الشمس ، فقال له : ارتحل الساعة ونادِ في الناس : أن برئت الذمّة عن رجل من هذا البعث وجدناه متخلفاً فخرج عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث في الناس حتى مرَّ بالمدائن فنزل يوماً وليلةً ، وتشبَّه أصحابه حوائجهم ، ثم نادى في الناس بالرحيل ، فارتحلوا ، ثم أقبلوا حتى دخل على عثمان بن قُطَن ، ثم أقى الجَزَلُ فسأله عن جراحته ، وسأله ساعةً وحديثه . ثم إنَّ الجَزَلُ قال له : يا ابن عمِّ : إنك تسير إلى فُرْسَانِ العَرَبِ وأبناء الحرب ، وأحلاس الخيل ، والله لكأنما خَلِقُوا من ضُلوعها ، ثم بُنُوا على ظهورها ، ثم هم أسد الأجم ، الفارسُ منهم أشدُّ من مائة ، إن لم تبدأ به بدأ ، وإن هُجَّجَ أقدم ، فإني قد قاتلتهم وبلوتهم ، فإذا أصحرت لهم انتصفوا مِنِّي ، وكان لهم الفضل عليّ ، وإذا خندقت عليّ وقاتلتهم في مضيق نلتُ منهم بعض ما أحب ، وكان لي عليهم الظُّفَرُ ، فلا تلقهم وأنت تستطيع إلا في تعبٍ أو في خندق . ثم إنه ودَّعه ، فقال له الجَزَلُ : هذه فَرَسِي الفُسيَّساء ، خُذْهَا فإنها لا تجاري . فأخذها ثم خرج بالناس نحو شبيب ، فلما دنا منه ارتفع عنه شبيب إلى دُقُوءٍ وشَهْرُزُورٍ ، فخرج عبدُ الرحمن في طلبه ، حتى إذا كان على التخوم أقام ، وقال : إنما هو في أرض الموصِل ، فليقاتلوا عن بلادهم أو ليَدْعُوهُ ، فكتب إليه الحُجَّاجُ بنُ يوسف :

أما بعد ، فاطلب شبيباً واسلك في أثره أين سلك حتى تُدرِكَه فتقتله أو تنفيه ، فإنما السلطان سلطان أمير المؤمنين والجندُ جنده والسلام .

فخرج عبدُ الرحمن حين قرأ كتابَ الحُجَّاجِ في طلب شبيب ، فكان شبيب يدَّعه حتى إذا دنا منه بيَّته ،

فيجده قد خندق على نفسه وحذر ، فيمضي ويدعه ، فيتبعه عبد الرحمن ، فإذا بلغه أنه قد تحمل وأنه يسير أقل في الخيل ، فإذا انتهى إليه وجده قد صف الخيل والرجال وأدى المرامية ، فلا يصيب له غرة ، ولا له علة ، فيمضي ويدعه .

قال : ولما رأى شبيب أنه لا يصيب لعبد الرحمن غرة ولا يصل إليه ، جعل يخرج إذا دنا منه عبد الرحمن في خيله ، فينزل على مسيرة عشرين فرسخاً ، ثم يقيم في أرض غليظة خزنة ، فيجيء عبد الرحمن ، فإذا دنا من شبيب ارتحل شبيب فسار خمسة عشر أو عشرين فرسخاً ، فنزل منزلاً غليظاً خشناً ، ثم يقيم حتى يدنو عبد الرحمن .

قال أبو مخنف : فحدثني عبد الرحمن بن جندب أن شبيباً كان قد عذب ذلك العسكر وشق عليهم ، وأحفى دوابهم ، ولقوا منه كل بلاء ، فلم يزل عبد الرحمن يتبعه حتى مر به على خائقين ثم على جلولاء ثم على تامرأ ، ثم أقبل حتى نزل البت - قرية من قرى الموصل على نهر الموصل ، ليس بينها وبين سواد الكوفة إلا نهر يسمى حولايا - قال : وجاء عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث حتى نزل في نهر حولايا وفي راذان الأعلى من أرض جوحى ، ونزل عواقل من النهر ، ونزلها عبد الرحمن حيث نزلها وهي تعجبه ، يرى أنها مثل الخندق والحصن . قال : وارسل شبيب إلى عبد الرحمن : إن هذه الأيام أيام عيد لنا ولكم ، فإن رأيتم أن توادعونا حتى تمضي هذه الأيام فافعلوا . فقال له عبد الرحمن : نعم ، ولم يكن شيء أحب إلى عبد الرحمن من المطولة والمواعدة . قال : وكتب عثمان بن قطن إلى الحجاج :

أما بعد ، فإني أخبر الأمير أصلحه الله أن عبد الرحمن بن محمد قد حفر جوحى كلها خندقاً واحداً ، وخلق شبيباً وكسر خراجها وهو يأكل أهلها . والسلام . فكتب إليه الحجاج :

أما بعد ، فقد فهمت ما ذكرت لي عن عبد الرحمن ، وقد لعمري فعل ما ذكرت ، فسير إلى الناس فانت أميرهم ، وعاجل المارقة حتى تلقاهم ، فإن الله إن شاء الله ناصرهم عليهم . والسلام .

قال : وبعث الحجاج إلى المدائن مطرف بن المغيرة بن شعبة ، وخرج عثمان حتى قدم على عبد الرحمن بن محمد ومن معه من أهل الكوفة وهم معسكرون على نهر حولايا قريباً من البت ، عشية الثلاثاء ، وذلك يوم الثروة ، فنادى الناس وهو على بغله : أيها الناس ، اخرجوا إلى عدوكم . فوثب إليه الناس ، فقالوا : نثيدك الله ، هذا المساء قد غشنا ، والناس لم يوطنوا أنفسهم على القتال ، فبت الليلة ثم اخرج بالناس على تعبئة . فجعل يقول : لأناجزهم ، ولتكونن الفرصة لي أولهم . فأتاهم عبد الرحمن فأخذ بعنان دابته ، وناشده الله لما نزل ، وقال له عقيل بن شداد السلولي : إن الذي تريد من مناجزتهم الساعة أنت فاعله غداً ، وهو غداً خير لك وللناس . إن هذه ساعة ريح وغبرة ، وقد أمسيت فانزل ، ثم ابكر بنا إليهم غدوة . فنزل ، فسفت عليه الريح ، وشق عليه الغبار ، ودعا صاحب الخراج العلوج فبنوا له قبة فبات فيها ، ثم أصبح يوم الأربعاء ، فجاء أهل البت إلى شبيب - وكان قد نزل ببيتهم - فقالوا : أصلحك الله ! أنت ترحم الضعفاء وأهل الجزية ، ويكلمك من تلي عليه ، ويشكون إليك ما نزل بهم فتنظر لهم ، وتكف عنهم ، وإن هؤلاء القوم جابرة لا يكلمون ولا يقبلون العذر ، والله لئن بلغهم أنك مقيم في بيعتنا ليقتلنا إن قضى لك أن ترتحل عنا ، فإن رأيت فانزل جانب القرية ولا تجعل لهم علينا مقالاً ، قال : فإني أفعل ذلك بك ، ثم خرج فنزل جانب

الْقَرْيَةِ . قال : فباتَ عثمانَ ليلته كلها يحرضهم ، فلما أصبح - وذلك يومَ الأربعاء - خرج بالناس فاستقبلتهم ريحٌ شديدة وغبرة ، فصاحَ الناس إليه ، فقالوا : نُنشدُك الله أن تخرج بنا في هذا اليوم ، فإنَّ الريحَ علينا ! فأقامَ بهم ذلكَ اليوم ، وأرادَ شبيبُ قتالهم ، وخرجَ أصحابه ، فلما رآهم لم يخرجوا إليه أقام ، فلما كان ليلة الخميس خرج عثمانُ فعَبى الناسَ على أرباعهم ، فجعلَ كلُّ رُبعٍ في جانبِ العسكر ، وقال لهم : اخرجوا على هذه التعبية ، وسألهم : من كان على ميمنتكم ؟ قالوا : خالد بن نهيك بن قيس الكندي ، وكان على يسرتنا عَقِيل بن شدَّاد السُّلُوي ، فدعاهما فقال لهما ، قفا مواقفكما التي كنتما بها ، فقد وليتكما المجنَّتين ، فاثبتا ولا تفرَّا ، فوالله لا أزول حتى يزول نخل راذان عن أصوله . فقالا : ونحن والله الَّذي لا إله إلا هو لا نَفرُ حتى نَظفر أو نُقتل ، فقال لهما : جزاكم الله خيراً . ثم أقامَ حتى صُلَّى بالناس الغداة ، ثم خرج فجعل رُبعَ أهل المدينة تميم وهمدان نحو نهر حوْلايا في الميسرة ، وجعل رُبعَ كِنْدَةَ وربيعةَ ومذحج وأسد في الميمنة ، ونزل يمشي في الرِّجال ، وخرج شبيب وهو يومئذ في مائة وأحد وثمانين رجلاً ، فقطع إليهم النهر ، فكان هو في ميمنة أصحابه ، وجعل على يسرته سُويد بن سُليم ، وجعل في القلب مصاد بن يزيد أخاه ، وزحفوا وسما بعضهم لبعض .

قال أبو مخنف : فحدَّثني النضر بن صالح العبسي أن عثمان كان يقول فيكثر : ﴿ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتُّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾^(١) . أين المحافظون على دينهم ، المحامون عن فيئهم ! فقال عَقِيل بن شدَّاد بن حُبْشي السُّلُوي : لعلِّي أن أكون أحدَهم ، قُتِل أولئك يومَ رُوْذِبار . ثم قال شبيب لأصحابه : إني حاملٌ على يسرتهُم ممَّا يلي النهر ، فإذا هزمتها فليحمل صاحبُ يسرتي على ميمنتهم ، ولا يبرح صاحب القلب حتى يأتيه أمري . وحمل في ميمنة أصحابه ممَّا يلي النهر على ميسرة عثمان بن قُظَن فانهزموا ، ونزل عَقِيل بن شدَّاد فقاتلَ حتى قُتِل ، وقُتِل يومئذ مالك بن عبد الله الهمداني ، ثم المُرْهَبِي ، عمُّ عيَّاش بن عبد الله بن عيَّاش المُنْتَوَف ، وجعل يومئذ عَقِيل بن شدَّاد يقول وهو يُجالدُهم :

لأَضْرِبَنَّ بِالْحُسَامِ الْبَايِرَ ضَرْبَ غَلَامٍ مِنْ سُلُولٍ صَابِرٍ

ودخل شبيب عسكرهم ، وحمل سُويد بن سليم في ميسرة شبيب على ميمنة عثمان بن قُظَن فهزَمَها ، وعليها خالد بن نهيك بن قيس الكندي ، فنزل خالد فقاتل قتالاً شديداً ، وحمل عليه شبيب من ورائه وهو على رُبع كِنْدَةَ وربيعةَ يومئذ ، وهو صاحب الميمنة ، فلم يثنِ شبيب حتى علاه بالسيف فقتله ، ومضى عثمان بن قُظَن وقد نزلت معه العُرفاء وأشرافُ الناس والفرسان نحو القلب ، وفيه أخو شبيب في نحو من ستين رجلاً ، فلما دنا منهم عثمان بن قُظَن شدَّ عليهم في الأشراف وأهل الصبر فضاربوهم حتى فرَّقوا بينهم ، وحمل شبيب بالخيَل من ورائهم ، فما شعروا إلا والرِّماح في أكتافهم تُكَبِّهم لوجوهِهم ، وعطف عليهم سُويد بن سليم أيضاً في خَيْله ، ورجع مصاد وأصحابه ، وقد كان شبيب رجُلهم ، فاضطربوا ساعةً ، وقاتل عثمان بن قُظَن فأحسن القتال . ثم إنهم شدَّوا عليهم فأحاطوا به ، وحمل عليه مصاد أخو شبيب فضربه ضربةً بالسيف استدار لها ، ثم قال : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾^(٢) ثم إنَّ الناس قتلوه ، وقُتِل يومئذ الأَبْرَد بن ربيعة الكندي ، وكان على تلٍّ ، فالتقى سلاحه إلى غلامه وأعطاه فرسه ، وقاتل حتى قُتِل . ووقع عبدُ الرحمن فرأه ابن أبي سبرة الجُعْفِي وهو على

(١) سورة الأحزاب : ١٦ .

(٢) سورة الأحزاب : ٣٧ .

بغلة فعرفه، فنزل إليه فناوله الرمح وقال له: اركب، فقال: عبد الرحمن بن محمد: أينما الرديف؟ قال: ابن أبي سبرة: سبحان الله! أنت الأمير تكون المقدم، فركب وقال لابن أبي سبرة: ناد في الناس: الحقوا بدير أبي مريم، فناذى، ثم انطلقا ذاهبين، ورأى واصل بن الحارث السكوني فرس عبد الرحمن الذي حمله عليه الجزل يجول في العسكر، فأخذها بعض أصحاب شبيب، فظن أنه قد هلك، فطلبه في القتلى فلم يجده، وسأل عنه فقيل له: قد رأينا رجلاً قد نزل عن دابته فحمله عليها، فما أخلقه أن يكون إيّاه؛ وقد أخذها هنا آنفاً. فأتبعه واصل بن الحارث على بردونه ومع واصل غلامه على بغل، فلما دنوا منها قال محمد بن أبي سبرة لعبد الرحمن: قد والله لحق بنا فارسان، فقال عبد الرحمن: فهل غير اثنين؟ فقال: لا، فقال عبد الرحمن: فلا يعجز اثنان عن اثنين: قال: وجعل يحدث ابن أبي سبرة كأنه لا يكثر بهما، حتى لحقهما الرجلان، فقال له ابن أبي سبرة: رحمك الله! قد لحقنا الرجلان، فقال له: فانزل بنا، فنزلا فانضيا سيفيهما، ثم مضيا إليهما، فلما رآهما واصل عرفهما، فقال لهما: إنكما قد تركتما النزول في موضعه، فلا تنزلا الآن، ثم حسر العمامة عن وجهه، فعرفاه فرحبا به، وقال لابن الأشعث: إني لما رأيت فرسك يجول في العسكر ظننتك راجلاً، فأتيتك ببردوني هذا لتركبه، فترك لابن أبي سبرة بغلته، وركب البردون، وانطلق عبد الرحمن بن الأشعث حتى نزل دير اليعار، وأمر شبيب أصحابه فرفعوا عن الناس السيف، ودعاهم إلى البيعة، فأتاه من بقي من الرجلة فبايعوه، وقال له أبو الصقير المحلمي: قتلت من الكوفيين سبعة في جوف النهر كان آخرهم رجلاً تعلق بثوبي وصاح، ورهني حتى رهبته، ثم إني أقدمت عليه فقتلته. وقُتل من كندة مائة وعشرون يومئذ وألف من سائر الناس أو ستمائة، وقُتل عظم العرفاء يومئذ.

قال أبو مخنف: حدثني قدامة بن حازم بن سفيان الخثعمي أنه قتل منهم يومئذ جماعة، ويات عبد الرحمن بن محمد تلك الليلة بدير اليعار، فأتاه فارسان فصعدا إليه فوق البيت، وقام آخر قريباً منها فحلا أحدهما بعبد الرحمن طويلاً يناجيه، ثم نزل هو وأصحابه، وقد كان الناس يتحدثون أن ذلك كان شبيباً، وأنه قد كان كاتبه، ثم خرج عبد الرحمن آخر الليل فسار حتى أتى دير أبي مريم، فإذا هو بأصحاب الخيل قد وضع لهم محمد بن عبد الرحمن بن أبي سبرة صبر الشعير والقث بعضه على بعض كأنه القصور، ونحر لهم من الجزر ما شاؤوا، فأكلوا يومئذ، وعلفوا دوابهم، واجتمع الناس إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فقالوا له: إن سمع شبيب بمكانك أنك وكنت له غنيمة، قد ذهب الناس وتفرقوا وقُتل خيارهم فالحق أيها الرجل بالكوفة. فخرج إلى الكوفة ورجع الناس أيضاً، وجاء فاختبأ من الحجاج حتى أخذ الأمان بعد ذلك.

وفي هذه السنة أمر عبد الملك بن مروان بنقش الدنانير والدراهم. ذكر الواقدي: أن سعد بن راشد حدثه عن صالح بن كيسان بذلك.

قال: وحدثني ابن أبي الزناد، عن أبيه، أن عبد الملك ضرب الدراهم والدنانير عامئذ، وهو أول من أحدث ضربها.

قال: وحدثني خالد بن أبي ربيعة، عن أبي هلال، عن أبيه، قال: كانت مئاقيل الجاهلية التي ضرب عليها عبد الملك اثنين وعشرين قيراطاً إلا حبة، وكان العشرة وزن سبعة.

قال: وحدثني عبد الرحمن بن جرير الليثي عن هلال بن أسامة قال: سألت سعيد بن المسيب في كم

تُجِبُّ الزَّكَاةَ مِنَ الدَّنَانِيرِ؟ قَالَ: فِي كُلِّ عَشْرِينَ مِثْقَالًا بِالشَّامِيِّ نِصْفُ مِثْقَالٍ، قُلْتُ: مَا بَالُ الشَّامِيِّ مِنَ الْمَصْرِيِّ؟ قَالَ: هُوَ الَّذِي تُضْرَبُ عَلَيْهِ الدَّنَانِيرُ. وَكَانَ ذَلِكَ وَزَنَ الدَّنَانِيرِ قَبْلَ أَنْ تُضْرَبَ الدَّنَانِيرُ، كَانَتْ اثْنَيْنِ وَعَشْرِينَ قِيرَاطًا إِلَّا حَبَّةً، قَالَ سَعِيدٌ. قَدْ عَرَفْتُهُ، قَدْ أُرْسِلَتْ بِدَّنَانِيرٍ إِلَى دِمَشْقَ فَضُربَتْ عَلَى ذَلِكَ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ: وَفَدَ يَحْيَى بْنُ الْحَكَمِ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَوَلِيَّ أَبَانَ بْنُ عُثْمَانَ الْمَدِينَةَ فِي رَجَبٍ.

وَفِيهَا اسْتَقْضِيَ أَبَانُ بْنُ نُوْفَلٍ بْنُ مُسَاحِقٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ خِدَاشٍ مِنْ بَنِي عَامِرٍ بْنِ لُؤَيٍّ.

وَفِيهَا وُلِدَ مَرْوَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ مَرْوَانَ.

وَأَقَامَ الْحَجَّ لِلنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ أَبَانُ بْنُ عُثْمَانَ وَهُوَ أَمِيرُ عَلَى الْمَدِينَةِ، حَدَّثَنِي بِذَلِكَ أَحْمَدُ بْنُ ثَابِتٍ، عَمَّنْ ذَكَرَهُ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عِيسَى، عَنْ أَبِي مَعْشَرٍ، وَكَذَلِكَ قَالَ الْوَاقِدِيُّ.

وَكَانَ عَلَى الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ الْحُجَّاجُ بْنُ يَوْسُفَ، وَعَلَى خُرَاسَانَ أُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَالِدٍ، وَعَلَى قِضَاءِ الْكُوفَةِ شُرَيْحٌ، وَعَلَى قِضَاءِ الْبَصْرَةِ زُرَّارَةُ بْنُ أَوْفَى.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين

ففي هذه السنة قتل شبيب عتاب بن ورقاء الرياحي وزهرة بن حوية.

ذكر الخبر عن سبب مقتلهما:

وكان سبب ذلك فيما ذكر هشام عن أبي مخنف، عن عبد الرحمن بن جندب وقروة بن لقيط، أن شبيباً لما هزم الجيش الذي كان الحجاج وجهه مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إليه، وقتل عثمان بن قطن، وذلك في صيف وحر شديد، اشتد الحر عليه وعلى أصحابه، فأتى ما بهزاذان فتصيف بها ثلاثة أشهر، وأتاه ناس كثير ممن يطلب الدنيا فليحقوا به، وناس ممن كان الحجاج يطلبهم بمال أو تباعات؛ كان منهم رجل من الحبي يقال له الحر بن عبد الله بن عوف، وكان دهقاناً من أهل نهر درقيط قد أساء إليه وضيّقاً عليه، فشد عليها فقتلها، ثم لحق بشبيب فكان معه بماء، وشهد معه موطنه حتى قتل، فلما آمن الحجاج كل من كان خرج إلى شبيب من أصحاب المال والتباعات - وذلك بعد يوم السبخة - خرج إليه الحر فيمن خرج، فجاء أهل الدهقانين يستعدون عليه الحجاج، فأتى به فدخل، وقد أوصى ويث من نفسه، فقال له الحجاج: يا عدو الله، قتلت رجلين من أهل الخراج! فقال له: قد كان أصلحك الله ما هو أعظم من هذا، فقال: وما هو؟ قال: خروجي من الطاعة وفراق الجماعة، ثم آمنت كل من خرج إليك، فهذا أمانى وكتائبك لي. فقال له الحجاج: أولى لك! قد لعمري فعلت، وخلّ سبيله.

قال: ولما انفسخ الحر عن شبيب خرج من ماء في نحو من ثمانمائة رجل، فأقبل نحو المدائن وعليها مطرف بن المغيرة بن شعبة، فجاء حتى نزل قناطر حديفة بن اليمان، فكتب ماذرواسب عظيم بابل مهرود إلى الحجاج.

أما بعد: فلإني أخبر الأمير أصلحه الله أن شبيباً قد أقبل حتى نزل قناطر حديفة، ولا أدري أين يريد!

فلما قرأ الحجاج كتابه قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس، والله لتقاتلن عن بلادكم وعن فيثكم أو لأبعثن إلى قوم هم أطوع وأسمع وأصبر على اللأواء والغیظ منكم، فيقاتلون عدوكم، ويأكلون فيثكم.

فقام إليه الناس من كل جانب، فقالوا: نحن نقاتلهم ونعتب الأمير، فليندبنا الأمير إليهم فلأنا حيث سره. وقام إليه زهرة بن حوية وهو شيخ كبير لا يستتم قائماً حتى يؤخذ بيده. فقال له: أصلح الله الأمير! إنك

إِنَّمَا تَبَعْتُ إِلَيْهِمُ النَّاسَ مُتَقَطِّعِينَ، فَاسْتَنْفِرَ النَّاسَ إِلَيْهِمْ كَافَّةً فَلْيَنْفِرُوا إِلَيْهِمْ كَافَّةً، وَابْعَثْ عَلَيْهِمْ رَجُلًا ثَبَتًا شُجَاعًا مَجْرِبًا لِلْحَرْبِ مِمَّنْ يَرَى الْفِرَارَ هَضْمًا وَعَارًا وَالصَّبْرَ مَجْدًا وَكِرَامًا. فَقَالَ الْحَجَّاجُ: فَأَنْتَ ذَاكَ فَاخْرُجْ، فَقَالَ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ؟ إِنَّمَا يَصْلَحُ لِلنَّاسِ فِي هَذَا رَجُلٌ يَحْمِلُ الرَّمْحَ وَالذَّرْعَ، وَيَهْزُ السَيْفَ، وَيَثْبِتُ عَلَى مَتْنِ الْفَرَسِ، وَأَنَا لَا أَطِيقُ مِنْ هَذَا شَيْئًا، وَقَدْ ضَعُفَ بَصْرِي وَضَعُفْتُ، وَلَكِنْ أَخْرَجَنِي فِي النَّاسِ مَعَ الْأَمِيرِ، فَلِي فِي إِثْمَا أَثْبَتَ عَلَى الرَّاحِلَةِ فَأَكُونُ مَعَ الْأَمِيرِ فِي عَسْكَرِهِ وَأَشِيرَ عَلَيْهِ بِرَأْيِي. فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ: جَزَاكَ اللَّهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ خَيْرًا، وَجَزَاكَ اللَّهُ عَنِ الْإِسْلَامِ فِي آخِرِ الْإِسْلَامِ خَيْرًا، فَقَدْ نَصَحْتُ وَصَدَقْتُ، أَنَا مُخْرِجُ النَّاسِ كَافَّةً. أَلَا فَسِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ. فَانْصَرَفَ النَّاسُ فَجَعَلُوا يَسِيرُونَ وَلَيْسَ يَدْرُونَ مَنْ أَمِيرُهُمْ!

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان:

أَمَّا بَعْدُ، فَلِي أَخِيرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَكْرَمَهُ اللَّهُ أَنْ شَيْبًا قَدْ شَارَفَ الْمَدَائِنَ وَإِنَّمَا يَرِيدُ الْكُوفَةَ، وَقَدْ عَجَزَ أَهْلُ الْكُوفَةِ عَنْ قِتَالِهِ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ، فِي كُلِّهَا يَقْتُلُ أَمْرَاءَهُمْ، وَيَقْتُلُ جُنُودَهُمْ؛ فَلِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَبْعَثَ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ فَيُقَاتِلُوا عَدُوَّهُمْ وَيَأْكُلُوا بِلَادَهُمْ فَلْيَفْعَلْ، وَالسَّلَامُ.

فَلَمَّا أَتَى عَبْدَ الْمَلِكِ كِتَابُهُ بَعَثَ إِلَيْهِ سُفْيَانُ بْنُ الْأُبَرْدِ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ حَبِيبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَكَمِيُّ مِنْ مَذْحِجٍ فِي الْفَيْنِ، فَسَرَّحَهُمْ حِينَ أَنَاهِ الْكِتَابُ إِلَى الْحَجَّاجِ، وَجَعَلَ أَهْلُ الْكُوفَةِ يَتَجَهَّزُونَ إِلَى شَيْبِ وَلَا يَدْرُونَ مَنْ أَمِيرُهُمْ! وَهُمْ يَقُولُونَ: يَبْعَثُ فَلَانًا أَوْ فَلَانًا، وَقَدْ بَعَثَ الْحَجَّاجُ إِلَى عَتَّابِ بْنِ وَرْقَاءَ لِيَأْتِيَهُ وَهُوَ عَلَى خَيْلِ الْكُوفَةِ مَعَ الْمُهَلَّبِ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ الْجَيْشُ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ هُمُ الَّذِينَ كَانَ بِشَرِّ بَنِي مُرَوَّانَ بَعَثَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنُ مَخْنَفٍ عَلَيْهِمْ إِلَى قَطْرِ، فَلَمْ يَلْبَثْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَخْنَفٍ إِلَّا نَحْوًا مِنْ شَهْرَيْنِ حَتَّى قَدِمَ الْحَجَّاجُ عَلَى الْعِرَاقِ، فَلَمْ يَلْبَثْ عَلَيْهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَخْنَفٍ بَعْدَ قَدُومِ الْحَجَّاجِ إِلَّا رَجَبَ وَشَعْبَانَ، وَقَتْلَ قَطْرِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فِي آخِرِ رَمَضَانَ، فَبَعَثَ الْحَجَّاجُ عَتَّابَ بْنَ وَرْقَاءَ عَلَى ذَلِكَ الْجَيْشِ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ الَّذِينَ أَصِيبَ فِيهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَخْنَفٍ، وَأَمَرَ الْحَجَّاجُ عَتَّابًا بِطَاعَةِ الْمُهَلَّبِ، فَكَانَ ذَلِكَ قَدْ كَبُرَ عَلَى عَتَّابٍ، وَوَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُهَلَّبِ شَرٌّ، حَتَّى كَتَبَ عَتَّابٌ إِلَى الْحَجَّاجِ يَسْتَعْفِيهِ مِنْ ذَلِكَ الْجَيْشِ وَيُضْمُّهُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا أَنْ جَاءَهُ كِتَابُ الْحَجَّاجِ بِإِتْيَانِهِ سَرَّ بِذَلِكَ.

قال: ودعا الحجاج أشرافَ أهل الكوفة؛ فيهم زُهْرَةُ بْنُ حَوِيَّةَ السَّعْدِيُّ مِنْ بَنِي الْأَعْرَجِ، وَقَبِيصَةُ بْنُ وَائِلِ التَّغْلِبِيِّ، فَقَالَ لَهُمْ: مَنْ تَرَوْنَ أَنْ أَبْعَثَ عَلَى هَذَا الْجَيْشِ؟ فَقَالُوا: رَأَيْكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ أَفْضَلُ؟ قَالَ: فَلِي قَدْ بَعَثْتُ إِلَى عَتَّابِ بْنِ وَرْقَاءَ؛ وَهُوَ قَادِمٌ عَلَيْكُمْ اللَّيْلَةَ أَوْ الْقَابِلَةَ، فَيَكُونُ هُوَ الَّذِي يَسِيرُ فِي النَّاسِ؛ قَالَ زُهْرَةُ بْنُ حَوِيَّةَ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ! رَمَسْتُهُمْ بِحَجَرِهِمْ، لَا وَاللَّهِ لَا يَرْجِعُ إِلَيْكَ حَتَّى يَظْفَرُ أَوْ يُقَتَّلَ. وَقَالَ لَهُ قَبِيصَةُ بْنُ وَائِلِ: إِنِّي مُشِيرٌ عَلَيْكَ بِرَأْيِي، فَإِنْ يَكُنْ خَطَا فَبَعْدَ اجْتِهَادِي فِي النَّصِيحَةِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلِلْأَمِيرِ وَلِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ يَكُ صَوَابًا فَاللَّهُ سَدَّدَنِي لَهُ؛ إِنَّا قَدْ تَحَدَّثْنَا وَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ جَيْشًا قَدْ فَصَلَ إِلَيْكَ مِنْ قِبَلِ الشَّامِ، وَأَنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ قَدْ هَزَمُوا وَقُتِلُوا وَاسْتَخَفُّوا بِالصَّبْرِ، وَهَانَ عَلَيْهِمْ عَارُ الْفِرَارِ. فَقُلُوبُهُمْ كَأَنَّهَا لَيْسَتْ فِيهِمْ، كَأَنَّمَا هِيَ فِي قَوْمٍ آخَرِينَ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَبْعَثَ إِلَى جَيْشِكَ الَّذِي أُمِدِدْتُ بِهِ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، فَيَأْخُذُوا جَذْرَهُمْ، وَلَا يَبِيتُوا إِلَّا وَهُمْ يَرُونَ أَنَّهُمْ مُبَيَّتُونَ فَعَلْتَ، فَإِنَّكَ تُحَارِبُ حَوْلًا قَلْبًا، ظَعَانًا رَحَالًا، وَقَدْ جَهَّزْتَ إِلَيْهِ أَهْلَ الْكُوفَةِ وَلَسْتُ وَائِقًا بِهِمْ كُلَّ الثَّقَةِ، وَإِنَّمَا إِخْوَانُهُمْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ بُعِثُوا إِلَيْكَ مِنَ الشَّامِ. إِنَّ شَيْبًا بَيْنَا هُوَ فِي أَرْضٍ إِذْ

هو في أخرى، ولا آمن أن يأتيهم وهم غارون فإن يهلكوا نهلك ويهلك العراق. فقال: لله أنت! ما أحسن ما رأيت! وما أحسن ما أشرت به علي!

قال: فبعث عبد الرحمن بن الغرق مولى عقيل إلى من أقبل من أهل الشام، فأتاهم وقد نزلوا هيت بكتاب من الحجاج:

أما بعد، فإذا حاذيتم هيت فذعوا طريق الفرات والأنبار، وخذوا على عين التمر حتى تقدموا الكوفة إن شاء الله، وخذوا حذرکم، وعجلوا السير. والسلام.

فأقبل القوم سراعاً. قال: وقدم عتاب بن ورقاء في الليلة التي قال الحجاج إنه قادم عليكم فيها، فأمره الحجاج فخرج بالناس فعسكر بهم بحمام أعين، وأقبل شبيب حتى انتهى إلى كلاً إذا فقطع منها دجلة، ثم أقبل حتى نزل مدينة بهرسير الدنيا، فصار بينه وبين مطرف بن المغيرة بن شعبة جسر دجلة.

فلما نزل شبيب مدينة بهرسير قطع مطرف الجسر، وبعث إلى شبيب: أن ابعث إلي رجالاً من وجوه أصحابك أدارسهم القرآن، وأنظر فيما تدعو إليه. فبعث إليه شبيب رجالاً من وجوه أصحابه؛ فيهم قنبر وسويد والمحلل، فلما أرادوا أن ينزلوا في السفينة بعث إليهم شبيب ألا تدخلوا السفينة حتى يرجع إلي رسولي من عند مطرف، فرجع الرسول. وبعث إلى مطرف أن ابعث إلي من أصحابك بعدد أصحابي يكونوا رهناً في يدي حتى ترد علي أصحابي. فقال مطرف لرسوله: إلقه وقل له: كيف آمنك أنا على أصحابي إذا أنا بعثتهم الآن إليك، وأنت لا تأمنني على أصحابك! فرجع الرسول إلى شبيب فأبلغه، فأرسل إليه شبيب: إنك قد علمت أنا لا نستحل الغدر في ديننا، وأنتم تفعلونه وتستحلونه، فبعث إليه مطرف الربيع بن يزيد الأسدي وسليمان بن حذيفة بن هلال بن مالك المزني ويزيد بن أبي زياد مولاة وصاحب حرسه، فلما صاروا في يدي شبيب سرح إليه أصحابه، فأتوا مطرفاً فمكثوا أربعة أيام يتراسلون، ثم لم يتفقوا على شيء، فلما تبين لشبيب أن مطرفاً غير تابعه ولا داخل معه تهيأ للمسير إلى عتاب بن ورقاء وإلى أهل الشام.

قال أبو مخنف: فحدثني فروة بن لقيط أن شبيباً دعا رؤوس أصحابه فقال لهم: إنه لم يثبطني على رأي قد كنت رأيته إلا هذا الثقيف منذ أربعة أيام، قد كنت حدثت نفسي أن أخرج في جريدة خيل حتى ألقى هذا الجيش المقبل من الشام رجاء أن أصادف غرهم أو يحذروا فلا أبالي كنت ألقاهم منقطعين من المصر، ليس عليهم أمير كالحجاج يستندون إليه ولا مصر كالكوفة يعتصمون به؛ وقد جاءني عيوني اليوم فخبروني أن أوائلهم قد دخلوا عين التمر، فهم الآن قد شارفوا الكوفة، وجاءني عيوني من نحو عتاب بن ورقاء فحدثوني أنه قد نزل بجماعة أهل الكوفة الصراة، فما أقرب ما بيننا وبينهم! فتيسروا بنا للمسير إلى عتاب بن ورقاء.

قال: وخاف مطرف أن يبلغ خبره وما كان من إرساله إلى شبيب الحجاج، فخرج نحو الجبال، وقد كان أراد أن يقيم حتى ينظر ما يكون بين شبيب وعتاب، فأرسل إليه شبيب: أما إذ لم تباعني فقد نبذت إليك على سواء، فقال مطرف لأصحابه: اخرجوا بنا وافرين فإن الحجاج سيقاثلنا، فيقاتلنا وبنا قوة أمثل. فخرج ونزل المدائن؛ فعقد شبيب الجسر، وبعث إلى المدائن أخاه مصاداً، وأقبل إليه عتاب حتى نزل بسوق حكمة، وقد أخرج الحجاج جماعة أهل الكوفة مقاتلتهم، ومنشط إلى الخروج من شباهم، وكانت مقاتلتهم أربعين ألفاً سوى الشباب، ووافى مع عتاب يومئذ أربعون ألفاً من المقاتلة وعشرة آلاف من الشباب بسوق حكمة، فكانوا

خمسين ألفاً، ولم يدع الحجاج قرشياً ولا رجلاً من بيوتات العرب إلا أخرجته.

قال أبو مخنف: فحدثني عبد الرحمن بن جندب، قال: سمعت الحجاج وهو على المنبر حين وجه عتابة إلى شبيب في الناس وهو يقول: يا أهل الكوفة، اخرجوا مع عتاب بن ورقاء بأجمعكم، ولا أرخص لأحد من الناس في الإقامة إلا رجلاً قد وليناه من أعمالنا. ألا إن للصابر المجاهد الكرامة والأثرة، ألا وإن للناكل الهارب الهوان والجفوة. والذي لا إله غيره لئن فعلتم في هذا الموطن كفعلكم في المواطن التي كانت لأولينكم كنفاً خشناً، ولأعركنكم بكل كل ثقیل.

ثم نزل، وتوافى الناس مع عتاب بسوق حكمة.

قال أبو مخنف: فحدثني فروة بن لقيط، قال: عرضنا شبيب بالمدائن فكنا ألف رجل، فقام فينا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معشر المسلمين؛ إن الله قد كان ينصركم عليهم وأنتم مائة ومائتان وأكثر من ذلك قليلاً، وأنقص منه قليلاً، فأنتم اليوم مئون ومئون، ألا إني مصل الظهر ثم سائر بكم. فصل الظهر ثم نودي في الناس: يا خيل الله اركبي وأبشري، فخرج في أصحابه، فأخذوا يتخلفون ويتأخرون، فلما جاؤنا ساباط ونزلنا معه قص علينا وذكرنا بأيام الله، وزهدنا في الدنيا، ورغبنا في الآخرة ساعة طويلة، ثم أمر مؤذنه فأذن، ثم تقدم فصل بنا العصر، ثم أقبل حتى أشرف بنا على عتاب بن ورقاء وأصحابه، فلما أن رآهم من ساعته نزل وأمر مؤذنه فأذن، ثم تقدم فصل بنا المغرب، وكان مؤذنه سلام بن سيار الشيباني، وكانت عيون عتاب بن ورقاء قد جاؤوه فأخبروه أنه قد أقبل إليه، فخرج بالناس كلهم فعبأهم، وكان قد خندق أول يوم نزل، وكان يظهر كل يوم أنه يريد أن يسير إلى شبيب بالمدائن، فبلغ ذلك شيبياً، فقال: أسير إليه أحب إلي من أن يسير إلي، فاتاه، فلما صف عتاب الناس بعث علي ميمنته محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس، وقال: يابن أخي، إنك شريف فاصبر وصابر، فقال: أما أنا فوالله لأقاتلن ما أثبت معي إنسان. وقال لقيصة بن الوقي - وكان يومئذ على ثلث بني تغلب: اكفني الميسرة، فقال: أنا شيخ كبير، كثير مني أن أثبت تحت رايتي، وقد انبت مني القيام، ما أستطيع القيام إلا أن أقام؛ ولكن هذا عبيد الله بن الحليس ونعيم بن عليم التغلبيان - وكان كل واحد منهما على ثلث من أثلاث تغلب - فقال: ابعث أيها أحببت، فأبهما بعث فلتبعثن ذا حزم وعزم وغناء. فبعث نعيم بن عليم على ميسرته، وبعث حنظلة بن الحارث اليربوعي - وهو ابن عم عتاب شيخ أهل بيته - على الرجالة، وصفهم ثلاثة صفوف: صف فيهم الرجال معهم السيوف، وصف وهم أصحاب الرماح، وصف فيه المرامية، ثم سار فيما بين الميمنة إلى الميسرة يمر بأهل راية راية؛ فيحثهم على تقوى الله، ويأمرهم بالصبر ويقص عليهم.

قال أبو مخنف: فحدثني حصيرة بن عبد الله أن تميم بن الحارث الأزدي قال: وقف علينا فقص علينا قصصاً كثيراً، كان مما حفظت منه ثلاث كلمات؛ قال: يا أهل الإسلام، إن أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء، وليس الله لأحد من خلقه بأحد منه للصابرين، ألا ترون أنه يقول: ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ (١) فمن حمد الله فعله فما أعظم درجته، وليس الله لأحد أمقت منه لأهل البغي؛ ألا ترون أن عدوكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه، لا يرون إلا أن ذلك لهم قربة عند الله! فهم شرار أهل الأرض ويكلاّب

أهل النار، أين القصاص؟ قال ذلك فلم يُجِبْهُ واللّه أحدٌ مِنّا، فلما رأى ذلك، قال: أين من يروي شعر عنترة؟ قال: فلا والله ما رَدَ عليه إنسان كلمة. فقال: إنا لله! كأي بكم قد فررتم عن عتاب بن ورقاء وتركتموه تسيّفي في استه الرّيح.

ثم أقبل حتى جلس في القلب معه زُهرة بن حويّة جالس وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وأبو بكر بن محمد بن أبي جهّم العدويّ. وأقبل شبيب وهو في ستمائة وقد تخلف عنه من الناس أربعمائة، فقال: لقد تخلف عنا من لا أحبّ أن يرى فينا. فبعث سُويد بن سُليم في مائتين إلى الميمنة، وبعث المحلّل بن وائل في مائتين إلى القلب، ومضى هو في مائتين إلى الميمنة بين المغرب والعشاء الآخرة حين أضاء القمر، فناداهم: لمن هذه الرايات؟ قالوا: رايات ربيعة. فقال: شبيب: رايات طالما نصرت الحقّ، وطالما نصرت الباطل، لها في كلّ نصيب، والله لأجاهدكنّ محتسباً للخير في جهادكنّ، أنتم ربيعة وأنا شبيب، أنا أبو المدلّة، لا حكم إلاّ للحكم، اثبتوا إن شئتم. ثمّ حمل عليهم وهو على مسنة أمام الخندق ففضّهم، فثبت أصحاب رايات قبضة بن والقي وعبيد بن الحليس ونعيم بن عليم، فقتلوا، وانخرمت الميسرة كلّها وتنادى أناس من بني تغلب: قُتل قبضة بن والقي. فقال شبيب: قتلتم قبضة بن والقي التغلبيّ يا معشر المسلمين! قال الله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(١)، هذا مثل ابن عمّكم قبضة بن والقي، أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأسلم، ثمّ جاء يُقاتلكم مع الكافرين! ثمّ وقف عليه فقال: ويحك! لو ثبتت على إسلامك الأوّل سعدت، ثمّ حمل من الميسرة على عتاب بن ورقاء، وحمل سُويد بن سليم على الميمنة وعليها محمد بن عبد الرحمن، فقاتل في الميمنة في رجال من بني تميم وهمدان، فأحسنوا القتال، فمالوا كذلك حتى أتوا فقيلاً لهم: قُتل عتاب بن ورقاء، فانفضّوا، ولم يزل عتاب جالساً على طنفسة في القلب وزُهرة بن حويّة معه، إذ غشيهم شبيب، فقال له عتاب: يا زُهرة بن حويّة، هذا يومٌ كثّر فيه العدد، وقُلّ فيه الغناء، والهفي على خميصة فارس من نحو رجال تميم معي من جميع الناس! ألا صابراً لعدوّة! ألا مؤاساً بنفسه! فانفضّوا عنه وتركوه، فقال له زُهرة: أحسنت يا عتاب، فعلتَ فعلٌ مثلك، والله والله لو منحتهم كيفك ما كان بقاؤك إلاّ قليلاً، أبشر فإنّي أرجو أن يكون الله قد أهدى إلينا الشهادة عند فناء أعمارنا، فقال له: جزاك الله خيراً ما جرى أمراً معروفاً وحائلاً على تقوى.

فلما دنا منه شبيب وثب في عصابة صبرت معه قليلة، وقد ذهب الناس يميناً وشمالاً، فقال له عمار بن يزيد الكلبيّ من بني المدينة: أصلحك الله! إنّ عبد الرحمن بن محمد قد هرب عنك فانصّفك معه أناسٌ كثير، فقال له: قد فرّ قبل اليوم، وما رأيت ذلك الفتى يُبالي ما صنع، ثمّ قاتلهم ساعة وهو يقول: ما رأيتُ كالْيَوْمِ قطّ مؤطناً لم أبتل بمثله قطّ أقلّ مقاتلاً ولا أكثر هارباً خاذلاً؛ فرآه رجلٌ من بني تغلب من أصحاب شبيب من بني زيد بن عمرو يقال له عامر بن عمرو بن عبد عمرو، وكان قد أصاب دماً في قومه، فلحق بشبيب، وكان من السريسان، فقال لشبيب: والله إني لأظنّ هذا المتكلم عتاب بن ورقاء! فحمل عليه فطعنه، فوقّع فكان هو وليّ قتله. ووطئت الخيل زُهرة بن حويّة، فأخذ يدبّ بسيفه وهو شيخ كبير لا يستطيع أن يقوم، فجاء الفضل بن عامر الشيباني فقتله، فانتهى إليه شبيب فوجده صريعاً فعرفه، فقال: من قُتل هذا؟ فقال الفضل: أنا قتلت، فقال شبيب: هذا زُهرة حويّة، أما والله لئن كنت قتلت على ضلالة لربّ يوم من أيام المسلمين قد حَسُنَ فيه

(١) سورة الأعراف: ١٧٥.

بلاؤك، وعظم فيه غناؤك! ولرب خيل للمشركين قد هزمتها، وسريّة لهم قد ذعرتها وقرية من قراهم جَمّ أهلها قد افتتحتها، ثم كان في علم الله أن تُقتل ناصراً للظالمين!

قال أبو مخنف: فحدثني فروة بن لقيط قال: رأيناه والله توجّع له، فقال رجل من شبّان بكر بن وائل: والله إن أمير المؤمنين منذ الليلة ليتوجّع لرجل من الكافرين! قال: إنك لست بأعرف بضاللتهم مني، ولكني أعرف من قديم أمرهم ما لا تعرف؛ ما لو ثبتوا عليه كانوا إخواناً. وقُتل في المعركة عمار بن يزيد الكلبي، وقُتل أبو خيثمة بن عبد الله يومئذ، واستمكن شبيب من أهل العسكر والناس، فقال: ارفعوا عنهم السيف، ودعا إلى البيعة، فبايعه الناس من ساعتهم، وهربوا من تحت ليلتهم، وأخذ شبيب يُبايعهم، ويقول: إلى ساعة يهربون. وحوى شبيب على ما في العسكر، وبعث إلى أخيه، فاتاه من المدائن، فلما وافاه بالعسكر أقبل إلى الكوفة وقد أقام بعسكره بيت قرّة يومين، ثم توجه نحو وجه أهل الكوفة، وقد دخل سُفَيان بن الأبرد الكلبي وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي من مدجج فيمن معهما من أهل الشام الكوفة، فشَدُوا للحجّاج ظهره، فاستغنى بهما عن أهل الكوفة، فقام على منبر الكوفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أمّا بعد يا أهل الكوفة، فلا أعزّ الله من أراد بكم العزّ، ولا نصّر من أراد بكم النصّر، اخرجوا عنّا، ولا تشهدوا معنا قتال عدوّنا، الحقوا بالخيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى، ولا تقاتلوا معنا إلا من كان لنا عاملاً، ومن لم يكن شهد قتال عتاب بن ورقاء.

قال أبو مخنف: فحدثني فروة بن لقيط، قال: والله لخرجنا نتبع آثار الناس، فانتهي إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ومحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الحمداني، وهما يمشيان كأنني أنظر إلى رأس عبد الرحمن قد امتلاً طيناً، فصددت عنهما، وكرهت أن أدعّرهما، ولو أي أودن بهما أصحاب شبيب لقتلا مكانهما، وقلت في نفسي: لئن سُقت إلى مثلكما من قومي القتل ما أنا برشيد الرأي؛ وأقبل شبيب حتى نزل الصّرة.

قال أبو مخنف: فحدثني موسى بن سوار أنّ شبيباً خرج يريد الكوفة، فانتهي إلى سُورا، فندب الناس، فقال: أيكم يأتيني برأس عامل سُورا؟ فانتدب له بطين وقعب وسويد ورجلان من أصحابه، فساروا مغذين حتى انتهوا إلى دار الخراج والعمّال في سمرّجة، فدخلوا الدار وقد كادوا الناس بأن قالوا: أجيئو الأمير، فقالوا: أي الأمراء؟ قالوا: أمير خرج من قبل الحجّاج يريد هذا الفاسق شبيباً، فاغتر بذلك العامل منهم. ثم إنهم شهِروا السيوف وحكّموا حين وصلوا إليه فضربوا عنقه، وقبضوا على ما كان من مال، ولحقوا بشبيب، فلما انتهوا إليه قال: ما الذي أتيتُمونا به؟ قالوا: جئناك برأس الفاسق وما وجدنا من مال، والمال على دابة في بدوره، فقال شبيب: أتيتُمونا بفتنة للمسلمين، هلّمّ الخربة يا غلام، فخرق بها البدور، وأمر فنجس بالدابة والمال يتناثر من بدوره حتى وردت الصّرة، فقال: إن كان بقي شيء فاقدفه في الماء. ثم خرج إليه سُفَيان بن الأبرد مع الحجّاج، وكان آتاه قبل خروجه معه، فقال: ابعتني أستقبله قبل أن يأتيك، فقال: ما أحبّ أن نفترق حتى ألقاه في جماعتكم والكوفة في ظهورنا والحصن في أيدينا.

وفي هذه السنة دخل شبيب الكوفة دخلته الثانية.

ذكر الخبر عن ذلك وما كان من حربه بها الحجّاج.

قال هشام : حَدَّثَنِي أَبُو يَحْيَى ، عَنْ مُوسَى بْنِ سَوَّارٍ ، قَالَ : قَدِمَ سَبْرَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَحْيَى مِنْ الدَّسَكَةِ الْكُوفَةَ بَعْدَ مَا قَدِمَ جَيْشُ الشَّامِ الْكُوفَةَ ، وَكَانَ مُطَرِّفُ بْنُ الْمُغِيرَةِ كَتَبَ إِلَى الْحَجَّاجِ : إِنَّ شَيْبَةَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَيَّ ، فَأَبْعَثْ إِلَيَّ الْمَدَائِنَ بَعَثًا . فَبَعَثَ إِلَيْهِ سَبْرَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَحْيَى فِي مَائَتِي فَارِسٍ ، فَلَمَّا خَرَجَ مُطَرِّفُ يَرِيدُ الْجَبَلِ خَرَجَ بِأَصْحَابِهِ مَعَهُ وَقَدْ أَعْلَمَهُمْ مَا يَرِيدُ ، وَكُتِمَ ذَلِكَ سَبْرَةَ ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى دَسَكَةِ الْمَلِكِ دَعَا سَبْرَةَ فَأَعْلَمَهُ مَا يَرِيدُ ، وَدَعَاهُ إِلَى أَمْرِهِ ، فَقَالَ لَهُ : نَعَمْ أَنَا مَعَكَ ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ بَعَثَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَجَمَعَهُمْ ، وَأَقْبَلَ بِهِمْ فَصَادَفَ عَتَّابُ بْنُ وَرْقَاءٍ قَدْ قُتِلَ وَشَيْبَةُ قَدْ مَضَى إِلَى الْكُوفَةِ ، فَأَقْبَلَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا بَيْطَرَى ، وَقَدْ نَزَلَ شَيْبَةُ حَمَامُ عُمَرَ ، فَخَرَجَ سَبْرَةُ حَتَّى يَجُوزَ الْفُرَاتَ فِي مَعْبَرِ قَرْيَةِ شَاهِي ، ثُمَّ أَخَذَ الظُّهْرَ حَتَّى قَدِمَ عَلَى الْحَجَّاجِ ، فَوَجَّهَ أَهْلَ الْكُوفَةِ مَسْخُوطًا عَلَيْهِمْ ، فَدَخَلَ عَلَى سُفْيَانَ بْنِ الْأَبَرْدِ ، فَقَصَّ قِصَّتَهُ عَلَيْهِ وَأَخْبَرَهُ بِطَاعَتِهِ وَفِرَاقِهِ مُطَرِّفًا ، وَأَنَّهُ لَمْ يَشْهَدْ عَتَّابًا وَلَمْ يَشْهَدْ هَزِيمَةَ فِي مَوْطِنٍ مِنْ مَوْطِنِ أَهْلِ الْكُوفَةِ ، وَلَمْ أَزَلْ لِلْأَمِيرِ عَامِلًا ، وَمَعِيَ مَائَتَا رَجُلٍ لَمْ يَشْهَدُوا مَعِيَ هَزِيمَةَ قَطُّ ، وَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي فِتْنَةٍ . فَدَخَلَ سُفْيَانُ إِلَى الْحَجَّاجِ فَخَبَّرَهُ بِخَبَرِ مَا قَصَّ عَلَيْهِ سَبْرَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، فَقَالَ : صَدَقَ وَبَرٌّ ! قُلْ لَهُ : فَلْيَشْهَدْ مَعَنَا لِقَاءَ عَدُونَا ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ فَأَعْلَمَهُ ذَلِكَ . وَأَقْبَلَ شَيْبَةُ حَتَّى نَزَلَ مَوْضِعَ حَمَامِ أَعِينٍ ، وَدَعَا الْحَجَّاجَ الْحَارِثُ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي زُرْعَةَ بْنِ مَسْعُودِ الثَّقَفِيِّ فَوَجَّهَهُ فِي نَاسٍ مِنَ الشَّرْطِ لَمْ يَكُونُوا شَهِدُوا يَوْمَ عَتَّابٍ ، وَرَجُلًا كَانُوا عَمَلًا فِي نَحْوِ مَائَتِي رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، فَخَرَجَ فِي نَحْوِ مِائَةِ أَلْفٍ ، فَنَزَلَ زُرَّارَةَ ، وَبَلَغَ ذَلِكَ شَيْبَةَ ، فَتَعَجَّلَ إِلَيْهِ فِي أَصْحَابِهِ ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ حَمَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ ، وَهَزَمَ أَصْحَابَهُ ، وَجَاءَتِ الْمَنْهَزَةُ فَدَخَلُوا الْكُوفَةَ ، وَجَاءَ شَيْبَةُ حَتَّى قَطَعَ الْجَسَرَ ، وَعَسَكَرَ دُونَهُ إِلَى الْكُوفَةِ ، وَأَقَامَ شَيْبَةُ فِي عَسْكَرِهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، فَلَمْ يَكُنْ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ إِلَّا قَتَلَ الْحَارِثُ بْنُ مُعَاوِيَةَ ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي أَخْرَجَ الْحَجَّاجُ مَوَالِيَهُ وَغِلْمَانَهُ عَلَيْهِمُ السِّلَاحَ ، فَأَخَذُوا بِأَفْوَاهِ السَّكَّكَ ثَمَّ يَلِي الْكُوفَةَ ، وَخَرَجَ أَهْلُ الْكُوفَةِ فَأَخَذُوا بِأَفْوَاهِ سَبْكَهُمْ ، وَخَشَوْا إِنْ لَمْ يَخْرُجُوا مَوْجِدَةَ الْحَجَّاجِ وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مُرْوَانَ . وَجَاءَ شَيْبَةُ حَتَّى ابْتَنَى مَسْجِدًا فِي أَقْصَى السَّبْخَةِ عِنْدَ مَوْقِفِ أَصْحَابِ الْقَتْلِ عِنْدَ الْأَيُّوَانِ ، وَهُوَ قَائِمٌ حَتَّى السَّاعَةِ ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الثَّلَاثَ أَخْرَجَ الْحَجَّاجُ أَبَا الْوَرْدِ مَوْلَى لَهُ عَلَيْهِ نَجَافُفٌ ، وَأَخْرَجَ مَجْفُفَةً كَثِيرَةً وَغِلْمَانًا لَهُ ، وَقَالُوا : هَذَا الْحَجَّاجُ ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ شَيْبَةُ فَقَتَلَهُ ، وَقَالَ : إِنْ كَانَ هَذَا الْحَجَّاجُ فَقَدْ أَرَحْتُكُمْ مِنْهُ .

ثُمَّ إِنْ الْحَجَّاجُ أَخْرَجَ لَهُ غِلَامَهُ طُهْمَانَ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْعُدَّةِ عَلَى مِثْلِ تِلْكَ الْهَيْئَةِ ، فَخَرَجَ عَلَيْهِ شَيْبَةُ فَقَتَلَهُ ، إِنْ كَانَ هَذَا الْحَجَّاجُ فَقَدْ أَرَحْتُكُمْ مِنْهُ .

ثُمَّ إِنْ الْحَجَّاجُ خَرَجَ ارْتِفَاعَ النَّهَارِ مِنَ الْقَصْرِ فَقَالَ : ائْتُونِي بِبَغْلٍ أَرْكَبُهُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ السَّبْخَةِ ، فَأَتَى بِبَغْلٍ مَحْجَلٍ ، فَقِيلَ لَهُ : إِنْ الْإِعَاجِمُ أَصْلَحَكَ اللَّهُ تَطَيَّرْ أَنْ تَرْكَبَ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ مِثْلَ هَذَا الْبَغْلِ ، فَقَالَ : ادْنُوهُ مِنِّي ، فَإِنَّ الْيَوْمَ يَوْمٌ أَغْرَ مَحْجَلٍ ، فَركبهُ ثُمَّ خَرَجَ فِي أَهْلِ الشَّامِ حَتَّى أَخَذَ فِي سَكَةِ الْبَرِيدِ ، ثُمَّ خَرَجَ فِي أَعْلَى السَّبْخَةِ ، فَلَمَّا نَظَرَ الْحَجَّاجُ إِلَى شَيْبَةَ وَأَصْحَابِهِ نَزَلَ ، وَكَانَ شَيْبَةُ فِي سِتْمَائَةِ فَارِسٍ ، فَلَمَّا رَأَى الْحَجَّاجُ قَدْ خَرَجَ إِلَيْهِ أَقْبَلَ بِأَصْحَابِهِ ، وَجَاءَ سَبْرَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِلَى الْحَجَّاجِ فَقَالَ : أَيْنَ يَأْمُرُنِي الْأَمِيرُ أَنْ أَقِفَ ؟ فَقَالَ : قِفْ عَلَى أَفْوَاهِ السَّكَّكَ ، فَإِنْ جَاؤُوكُمْ فَكَانَ فِيكُمْ قِتَالٌ فَقَاتِلُوا ، فَاذْطَلَقَ حَتَّى وَقَفَ فِي جَمَاعَةِ النَّاسِ ، وَدَعَا الْحَجَّاجُ بِكَرْسِيٍّ لَهُ فَقَعَدَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ نَادَى : يَا أَهْلَ الشَّامِ ، أَنْتُمْ أَهْلُ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ ، لَا يَغْلِبَنَّ بَاطِلُ هَؤُلَاءِ الْأَرْجَاسِ حَقُّكُمْ ، غَضُّوا الْأَبْصَارَ ، وَاجْتَنَبُوا عَلَى الرِّكَبِ ، وَاسْتَقْبَلُوا الْقَوْمَ بِأَطْرَافِ

الأسنة ، فجنّوا على الركب ، وأشرعوا الرماح ، وكأنّهم حرّة سوداء ، وأقبل إليهم شبيب حتّى إذا دنا منهم عبى أصحابه ثلاثة كراديس ، كتيبة معه ، وكتيبة مع سويد بن سليم ، وكتيبة مع المحلل بن وائل ، فقال لسويد : احمِل عليهم في خيلك ، فحمل ، عليهم ، فثبّوا له ، حتّى إذا غشي أطراف الأسنة وثبوا في وجهه ووجوه أصحابه ، فطعنوهم قُدماً حتّى انصرف ، وصاح الحجاج : يا أهل السمع والطاعة ، هكذا فافعلوا . قدّم كرسيّ يا غلام ، وأمر شبيب المحلل فحمل عليهم ، ففعلوا به مثل ما فعلوا بسويد ، فناداهم الحجاج ، يا أهل السمع والطاعة ، هكذا فافعلوا ، قدّم كرسيّ يا غلام .

ثمّ إنّ شبيباً حمل عليهم في كتيبته فثبّوا له ، حتّى إذا غشى أطراف الرماح وثبوا في وجهه ، فقاتلهم طويلاً . ثمّ إنّ أهل الشام طعنوه قُدماً حتّى ألحقوه بأصحابه ، فلمّا رأى صبرهم نادى : يا سويد ، احمِل في خيلك على أهل هذه السكة - يعني سكة لحام جرير - لعلك تزيل أهلها عنها ، فتأتي الحجاج من ورائه ، ونحمل نحن عليه من أمامه . فانفرد سويد بن سليم فحمل على أهل تلك السكة ، فرمى من فوق البيوت وأفواه السكك ، فانصرف ، وقد كان الحجاج جعل عروة بن المغيرة بن شعبة في نحو من ثلاثمائة رجل من جهل الشام رداءً له ولأصحابه لئلاّ يؤتوا من ورائه .

قال أبو مخنف : فحدثني فروة بن لقيط : إنّ شبيباً قال لنا يومئذ : يا أهل الإسلام إنّما شرّنا لله ، ومن شرى لله لم يكبر عليه ما أصابه من الأذى والألم في جنب الله . الصبر الصبر ؛ شدة كشدّاتكم في مواطنكم الكريمة . ثمّ جمع أصحابه ، فلمّا ظنّ الحجاج أنه حامل عليهم قال لأصحابه : يا أهل السمع والطاعة ، اصبروا لهذه الشدة الواحدة ، ثمّ وربّ السماء ما شيء دون الفتح . فجنّوا على الركب ، وحمل عليهم شبيب بجميع أصحابه ، فلمّا غشيهم نادى الحجاج بجماعة الناس ، فوثبوا في وجهه ، فما زالوا يطعنون ويضربون قُدماً ويدفعون شبيباً وأصحابه وهو يقاتلهم حتّى بلغوا موضع بُستان زائدة ، فلمّا بلغ ذلك المكان نادى شبيب أصحابه : يا أولياء الله ، الأرض الأرض ، ثمّ نزل وأمر أصحابه فنزل نصفهم وترك نصفهم مع سويد بن سليم ، وجاء الحجاج حتّى انتهى إلى مسجد شبيب ، ثمّ قال : يا أهل الشام ، يا أهل السمع والطاعة ، هذا أول الفتح والذي نفس الحجاج بيده ! وصعد المسجد معه نحو من عشرين رجلاً معهم النبل ، فقال : إنّ دَنُوا منا فارشقوهم ، فاقتتلوا عامّة النهار من أشدّ قتال في الأرض ، حتّى أقرّ كل واحد من الفريقين لصاحبه . ثمّ إنّ خالد بن عتّاب قال للحجاج : ائذّن لي في قتالهم فإنّي مؤتور ، وأنا ممن لا يئتهم في نصيحة ، قال : فإنّي قد أذنت لك ، قال : فإنّي آتيهم من ورائهم حتّى أغير على عسكريهم ؛ فقال له : إفعل ما بدا لك ، قال : فخرج معه بعصابة من أهل الكوفة حتّى دخل عسكريهم من ورائهم ، فقتل مصاداً أخاً شبيب ، وقتل غزاة امرأته ، قتلها فروة بن الدّان الكلبي . وحرّق في عسكريه ، وأتى ذلك الخبر الحجاج وشبيباً ، فأما الحجاج وأصحابه فكبروا تكبيرة واحدة ، وأمّا شبيب فوثب هو وكلّ راجل معه على خيولهم ، وقال الحجاج لأهل الشام : شدّوا عليهم فإنّه قد أتاها ما أروع قلوبهم . فشدّوا عليهم فهزموهم ، وتخلّف شبيب في حامية الناس .

قال هشام : فحدثني أصغر الخارجي ، قال : حدثني من كان مع شبيب قال : لما انهزم الناس فخرج من الجسر تبعه خيل الحجاج ، قال فجعل يخفق برأسه ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، التفت فانظر من خلّفك ، قال : فالتفت غير مكترث ، ثمّ أكبّ يخفق برأسه ؛ قال : ودنوا منا ، فقلنا : يا أمير المؤمنين ، قد دَنُوا منك ، قال : فالتفت والله غير مكترث ، ثمّ جعل يخفق برأسه . قال : فبعث الحجاج إلى خيله أن يدعو في حرق الله

وناره ، فتركوه ورجعوا .

قال هشام : قال أبو مخنف : حدثني أبو عمرو العذري ، قال : قطع شبيب الجسر حين عبر . قال : وقال لي فروة : كنت معه حين انهزمنا فما حرك الجسر ، ولا اتبعونا حتى قطعنا الجسر . ودخل الحجاج الكوفة ، ثم صعد المنبر فحمد الله ، ثم قال : والله ما قوتل شبيب قبلها ، ولئى والله هارباً ، وترك أمراته يكسر في آسيها القصب .

وقد قيل في قتال الحجاج شبيباً بالكوفة ما ذكره عمر بن شبة قال : حدثني عبد الله بن المغيرة بن عطية ، قال : حدثني أبي ، قال : حدثنا مزاحم بن زفر بن جساس التيمي ، قال : لما فاض شبيب كتائب الحجاج أذن لنا فدخلنا عليه في مجلسه الذي يبيت فيه وهو على سرير عليه لحاف ، فقال : إني دعوتكم لأمر فيه أمان ونظر ، فأشيروا عليّ ، إن هذا الرجل قد تبجح بحبوتكم ، ودخل حريمكم ، وقتل مقاتلتكم ، فأشيروا عليّ ، فأطرقوا ، وفصل رجل من الصف بكرسيه فقال : إن أذن لي الأمير تكلمت ، فقال : تكلم ، فقال : إن الأمير والله ما راقب الله ، ولا حفظ أمير المؤمنين ، ولا نصح للرعية ، ثم جلس بكرسيه في الصف . قال : وإذا هو قتيبة ، قال : فغضب الحجاج وألقى اللحاف ، ودلى قدميه من السرير كأي أنظر إليهما ، فقال : من المتكلم ؟ قال : فخرج قتيبة بكرسيه من الصف فأعاد الكلام ، وقال : فما الرأي ؟ قال : أن تخرج إليه فتحاكمه ، قال : فارتد لي معسكراً ثم لغد إليّ ، قال : فخرجنا نلعن عنسة بن سعيد ، وكان كلم الحجاج في قتيبة ، فجعله من أصحابه ، فلما أصبحنا وقد أوصينا جميعاً ، غدونا في السلاح ، فصل الحجاج الصبح ثم دخل ، فجعل رسوله يخرج ساعة بعد ساعة فيقول : أجا بعد ؟ أجا بعد ؟ ولا ندري من يريد ! وقد أفعمت المقصورة بالناس ، فخرج الرسول فقال : أجا بعد ؟ وإذا قتيبة يمشي في المسجد عليه قباء هروي أصفر ، وعمامة خز أحمر ، متقلداً سيفاً عريضاً قصير الحماثل كأنه في إبطه ، قد أدخل بركه قبائه في منطقتيه ، والدرع يصفق ساقيه ففتح له الباب فدخل ولم يحجب ، فلبث طويلاً ثم خرج ، وأخرج معه لواء منشوراً ، فصل الحجاج ركعتين ثم قام فتكلم وأخرج اللواء من باب الفيل وخرج الحجاج يتبعه ، فإذا بالباب بغلة شقراء غراء محجلة فركبها ، وعارضه الوصفاء بالدواب ، فأبى غيرها ، وركب الناس ، وركب قتيبة فرساً أغر محجلاً كميته كأنه في سرجه رمانة من عظم السرج ، فأخذ في طريق دار السقاية حتى خرج إلى السبخة وبها عسكر شبيب ، وذلك يوم الأربعاء ، فتواقفوا ، ثم غدوا يوم الخميس للقتال ، ثم غادوهم يوم الجمعة ، فلما كان وقت الصلاة انهزمت الخوارج .

قال أبو يزيد : حدثني خلاد بن يزيد ، قال : حدثنا الحجاج بن قتيبة ، قال : جاء شبيب وقد بعث إليه الحجاج أميراً فقتله ، ثم آخر فقتله ، أحدهما أعين صاحب حمام أعين ، قال : فجاء حتى دخل الكوفة ومعه غزالة ، وقد كانت نذرت أن تصلي في مسجد الكوفة ركعتين تقرأ فيها البقرة وآل عمران . قال : ففعلت . قال : وأخذ شبيب في عسكره أنحصاصاً ، فقام الحجاج فقال : لا أراكم تناصحون ، في قتال هؤلاء القوم يا أهل العراق ! وأنا كاتب إلى أمير المؤمنين ليؤدني بأهل الشام . قال : فقام قتيبة فقال : إنك لم تنصح لله ولا لأمر المؤمنين في قتالهم .

قال عمر بن شبة : قال خلاد : فحدثني محمد بن حفص بن موسى بن عبيد الله بن معمر بن عثمان التميمي أن الحجاج خنق قتيبة بعمامته خنقاً شديداً .

ثُمَّ رَجَعَ الْحَدِيثُ إِلَى حَدِيثِ الْحَجَّاجِ وَقَتِيَّةٍ . قَالَ : فَقَالَ : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : تَبِعْتُ الرَّجُلَ الشَّرِيفَ وَتَبِعْتُ مَعَهُ رَعَاةً مِنَ النَّاسِ فَيَنْهَزُمُونَ عَنْهُ . وَيَسْتَحْيِي فَيُقَاتِلُ حَتَّى يُقْتَلَ ، قَالَ : فَمَا الرَّأْيُ ؟ قَالَ : أَنْ تُخْرِجَ بِنَفْسِكَ وَيُخْرِجَ مَعَكَ نَظْرَاؤُكَ فَيُؤَاثِمُونَكَ فَأَنْفُسُهُمْ . قَالَ : فَلَعَنَهُ مِنْ ثَمِّ . وَقَالَ الْحَجَّاجُ : وَاللَّهِ لِأَبْرُؤَنَّ لَهُ غَدًا ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ حَضَرَ النَّاسُ ، فَقَالَ قَتِيَّةٌ : اذْكُرْ يَمِينَكَ أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ فَلَعَنُوهُ أَيْضًا ، وَقَالَ الْحَجَّاجُ : أَخْرَجَ فَارْتَدَّ لِي مُعْسَكْرًا ، فَذَهَبَ وَتَبَيَّأَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ فَخَرَجُوا ، فَأَتَى عَلَى مَوْضِعٍ فِيهِ بَعْضُ الْقَدَرِ ، مَوْضِعُ كُنَاسَةِ ، فَقَالَ : أَلْقُوا لِي هَاهُنَا . فَقِيلَ : إِنَّ الْمَوْضِعَ قَلْبَرٌ ، فَقَالَ : مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ أَقْدَرُ ، الْأَرْضُ تَحْتَهُ طَيِّبَةٌ ، وَالسَّمَاءُ فَوْقَهُ طَيِّبَةٌ . قَالَ : فَنَزَلَ وَصَفَّ النَّاسُ وَخَالِدُ بْنُ عَتَّابٍ بْنُ وَرْقَاءٍ مَسْخُوطٌ عَلَيْهِ فَلَيْسَ فِي الْقَوْمِ ، وَجَاءَ شَبِيبٌ وَأَصْحَابُهُ ، فَقَرَّبُوا دَوَابَّهُمْ ، وَخَرَجُوا يَمْشُونَ ، فَقَالَ لَهُمْ شَبِيبٌ : الْهُوا عَنْ رَمِيكُمْ ، وَدَبُّوا تَحْتَ تَرَائِسِكُمْ ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ أَسْنَتُهُمْ فَوْقَهَا ، فَأَزْلِقُوهَا صُعْدًا ، ثُمَّ ادْخُلُوا تَحْتَهَا لِتَسْتَقِيلُوا فَتَقْطَعُوا أَقْدَامَهُمْ ، وَهِيَ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ . فَأَقْبَلُوا يَدْبُونَ إِلَيْهِمْ . وَجَاءَ خَالِدُ بْنُ عَتَّابٍ فِي شَاكِرِيَّتِهِ ، فَدَارَ مِنْ وَرَاءَ عَسْكَرِهِمْ ، فَأَضْرَمَ أَخْصَابَهُمْ ، بِالنَّارِ ، فَلَمَّا رَأَوْا ضَوْءَ النَّارِ وَسَمِعُوا مَعْمَعَمَتَهَا التَّفَتُّوا فَرَأَوْهَا فِي بَيوتِهِمْ ، فَوَلَّوْا إِلَى خَيْلِهِمْ وَتَبِعَهُمُ النَّاسُ ، وَكَانَتْ الْهَزِيمَةُ . وَرَضِيَ الْحَجَّاجُ عَنْ خَالِدٍ ، وَعَقَّدَ لَهُ عَلَى قِتَالِهِمْ .

قَالَ : وَلَمَّا قَتَلَ شَبِيبٌ عَتَّابًا أَرَادَ دُخُولَ الْكُوفَةِ ثَانِيَةً ، فَأَقْبَلَ حَتَّى شَارَفَهَا فَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْحَجَّاجُ سَيْفَ بَنِ هَانِيٍّ وَرَجُلًا مَعَهُ لِيَأْتِيَاهُ بِخَبَرِ شَبِيبٍ ، فَأَتَيَا عَسْكَرَهُ ، فَفَطَنَ بِهِمَا ، فَقَتَلَ الرَّجُلَ ، وَأَفْلَتَ سَيْفٌ ، وَتَبِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْخَوَارِجِ ، فَأَوْثَبَ سَيْفٌ فَرَسَهُ سَاقِيَةً ، ثُمَّ سَأَلَ الرَّجُلَ الْأَمَانَ عَلَى أَنْ يُصَدِّقَهُ ، فَأَمَنَهُ ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ الْحَجَّاجَ بَعَثَهُ وَصَاحِبَهُ لِيَأْتِيَاهُ بِخَبَرِ شَبِيبٍ .

قَالَ : فَأَخْبَرَهُ أَنَا نَاتِيهِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ . فَأَتَى سَيْفُ الْحَجَّاجِ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ : كَذَبَ وَمَا ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ تَوَجَّهُوا يَرِيدُونَ الْكُوفَةَ ، فَوَجَّهَ إِلَيْهِمُ الْحَجَّاجُ الْحَارِثُ بْنُ مَعَاوِيَةَ الثَّقَفِيُّ ، فَلَقِيَهُ شَبِيبٌ بِزُرَّارَةٍ فَقَتَلَهُ ، وَهَزَمَ أَصْحَابَهُ وَدَنَا مِنَ الْكُوفَةِ فَبَعَثَ الْبَطِينُ فِي عَشْرَةِ فَوَارِسٍ يَرْتَادُ لَهُ مَنَزِلًا عَلَى شَاطِئِ الْفَرَاتِ فِي دَارِ الرُّزْقِ ، فَأَقْبَلَ الْبَطِينُ وَقَدَّ وَجَّهَ الْحَجَّاجُ حَوْشَبَ بْنَ يَزِيدَ فِي جَمْعٍ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ ، فَأَخَذُوا بِأَفْوَاهِ السُّكَّكِ ، فَقَاتَلَهُمُ الْبَطِينُ فَلَمْ يَقْوِ عَلَيْهِمْ ، فَبَعَثَ إِلَى شَبِيبٍ فَأَمَدَهُ بِفَوَارِسٍ ، فَعَقَرُوا فَرَسَ حَوْشَبٍ وَهَزَمُوهُ وَنَجَا ، وَمَضَى الْبَطِينُ إِلَى دَارِ الرُّزْقِ ، وَعَسْكَرَ عَلَى شَاطِئِ الْفَرَاتِ ، وَأَقْبَلَ شَبِيبٌ فَنَزَلَ دُونَ الْجَسْرِ ، فَلَمْ يُوَجَّهْ إِلَيْهِ الْحَجَّاجُ أَحَدًا ، فَمَضَى فَنَزَلَ السَّبْخَةَ بَيْنَ الْكُوفَةِ وَالْفَرَاتِ ، فَأَقَامَ ثَلَاثًا لَا يُوَجَّهْ إِلَيْهِ الْحَجَّاجُ أَحَدًا ، فَأَشِيرَ عَلَى الْحَجَّاجِ أَنْ يُخْرِجَ بِنَفْسِهِ ، فَوَجَّهَ قَتِيَّةَ بَنِ مُسْلَمٍ ، فَهَيَّأَ لَهُ عَسْكَرًا ثُمَّ رَجَعَ ، فَقَالَ : وَجَدْتُ الْمَأْتِي سَهْلًا ، فَسِرْ عَلَى الطَّائِرِ الْمَيْمُونِ ، فَنَادَى فِي أَهْلِ الْكُوفَةِ فَخَرَجُوا ، وَخَرَجَ مَعَهُ الْوَجُوهُ حَتَّى نَزَلُوا فِي ذَلِكَ الْعَسْكَرِ وَتَوَاقَفُوا ، وَعَلَى مَيْمَنَةِ شَبِيبِ الْبَطِينِ ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهِ قَعْنَبُ مَوْلَى بَنِي أَبِي رَبِيعَةَ بَنِ ذَهَلٍ ، وَهُوَ فِي زُهَاءٍ مَائَتَيْنِ ، وَجَعَلَ الْحَجَّاجُ عَلَى مَيْمَنَتِهِ مَطَرُ بْنُ نَاجِيَةِ الرِّيَّاحِيِّ ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهِ خَالِدُ بْنُ عَتَّابٍ بْنُ وَرْقَاءٍ الرِّيَّاحِيِّ فِي زُهَاءٍ أَرْبَعَةِ آلَافٍ ، وَقِيلَ لَهُ : لَا تُعَرِّفْهُ مَوْضِعَكَ ، فَتَنْكُرَ وَأَخْفِي مَكَانَهُ ، وَشَبَّهَ لَهُ أَبَا الْوَرْدِ مَوْلَاهُ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ شَبِيبٌ ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ ، فَضْرَبَهُ بِعَمُودٍ وَزَنَهُ خَمْسَةَ عَشَرَ رِطْلًا فَقَتَلَهُ ، وَشَبَّهَ لَهُ أَعْيَنَ صَاحِبَ حَمَامٍ أَعْيَنَ بِالْكُوفَةِ . وَهُوَ مَوْلَى لَبَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ فَقَتَلَهُ ، فَكَرَبَ الْحَجَّاجُ بَغْلَهُ خَرَاءَ مَحْجَلَةٍ ، وَقَالَ : إِنَّ الدِّينَ أَعْرَجٌ مَحْجَلٌ . وَقَالَ لِأَبِي كَعْبٍ : قَدِّمَ لَوَاءَكَ ، أَنَا بَنُ أَبِي عَقِيلٍ . وَحَمَلَ شَبِيبٌ عَلَى خَالِدِ بْنِ عَتَّابٍ وَأَصْحَابِهِ ، فَبَلَغَ بِهِمُ الرُّحْبَةَ ، وَحَمَلُوا عَلَى مَطَرِ بْنِ نَاجِيَةٍ فَكَشَفُوهُ ، فَتَزَلَّ عِنْدَ ذَلِكَ الْحَجَّاجُ وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَتَزَلُّوا ، فَجَلَسَ عَلَى عِبَاءَةٍ وَمَعَهُ عُنْبَسَةُ بْنُ سَعِيدٍ ، فَلَمَّحَ عَلَى

ذلك إذ تناول مصقلة بن مهلهل الضبي لحام شبيب ، فقال : ما تقول في صالح بن مسرح ؟ وبم تشهد عليه ؟ قال : أعلى هذه الحال ، وفي هذه الحزة ! والحجاج ينظر ، قال : فبرىء من صالح ، فقال مصقلة : برىء الله منك ، وفارقوه إلا أربعين فارساً هم أشد أصحابه ، وانحاز الآخرون إلى دار الرزق ، وقال الحجاج : قد اختلفوا ، وأرسل إلى خالد بن عتاب فأتاهم فقاتلهم ، فقتلت غزاله ، ومر برأسها إلى الحجاج فارس فعرفه شبيب ، فأمر علوان فشده على الفارس فقتله وجاء بالرأس ، فأمر به فغسل ودفنه وقال : هي أقرب إليكم رَحماً - يعني غزاله .

ومضى القوم على حاميتهم ، ورجع خالد إلى الحجاج فأخبره بانصراف القوم ، فأمره أن يحمل على شبيب فحمل عليهم ، وأتبعه ثمانية ، منهم قعنب والبطين وعلوان وعيسى والمهذب وابن عويمر وسنان ، حتى ساءوا به الرحبة ، وأتى شبيب في موقفه بخوط بن عمير السدوسي ، فقال له شبيب : يا خوط ، لا حُكَمَ إلا لله . فقال : لا حُكَمَ إلا لله ، فقال شبيب : خوط من أصحابكم ، ولكنه كان يخاف ، فأطلقه ، وأتى بعمير بن القعقاع . فقال له : لا حُكَمَ إلا لله يا عمير ، فجعل لا يفقه عنه ، ويقول : في سبيل الله شبابي ، فردد عليه شبيب : لا حُكَمَ إلا لله ، ليتخلصه ، فلم يفقه . فأمر بقتله ، وقتل مصاد أخو شبيب ، وجعل شبيب ينتظر الزمر الذين تبعوا خالداً فأبطؤوا ، ونعس شبيب فأيقظه حبيب بن خدره ، وجعل أصحاب الحجاج لا يقدمون عليه هيبه له ، وسار إلى دار الرزق فجمع رثة من قتل من أصحابه ، وأقبل الثمانية إلى موضع شبيب فلم يجدونه ، فظنوا أنهم قتلوه ، ورجع مطر وخالد إلى الحجاج فأمرهما فأتبعاه الرهط الثمانية ، وأتبع الرهط شبيباً ، فمضوا جميعاً حتى قطعوا جسر المدائن ، فدخلوا ديراً هنالك وخالد يقفهم ، فحصرهم في الدير ، فخرجوا عليه فهزموه نحواً من فرسخين حتى ألقوا أنفسهم في دجلة بخيلهم ، وألقى خالد نفسه بفرسه فمربه ولواؤه في يده . فقال شبيب : قاتله الله فارساً وفرسه ! هذا أشد الناس ، وفرسه أقوى فرس في الأرض ، فليل له : هذا خالد بن عتاب ، فقال : مُعَرِّقٌ له في الشجاعة ، والله لو علمت لأقحمت خلفه ولو دخل النار .

رجع الحديث إلى حديث أبي مخنف . عن أبي عمرو العذري ، أن الحجاج دخل الكوفة حين انهزم شبيب ، ثم صعد المنبر ، فقال : والله ما قُوتل شبيب قط قبلها مثلاً ، ولئى والله هارباً ، وترك أمراته يُكسر في آستها القصب . ثم دعا حبيب بن عبد الرحمن الحكمي فبعثه في أثره في ثلاثة آلاف من أهل الشام ، فقال له الحجاج : احذر بياته ، وحيثما لقيته فنازله ، فإن الله قد قلَّ حدّه ، وقسم نابه . فخرج حبيب بن عبد الرحمن في أثر شبيب حتى نزل الأنبار ، وبعث الحجاج إلى العمال أن دُسوا إلى أصحاب شبيب أن من جاءنا منهم فهو آمن ؛ فكان كل من ليست له تلك البصيرة من قد هذه القتال يجيء فيؤمن ، وقبل ذلك ما قد نادى فيهم الحجاج يوم هزموا : إن من جاءنا منكم فهو آمن ، فتفرق عنه ناس كثير من أصحابه ، وبلغ شبيباً منزلاً حبيب بن عبد الرحمن الأنبار ، فأقبل بأصحابه حتى إذا دنا من عسكرهم نزل فصل بهم المغرب .

قال أبو مخنف : فحدثني أبو يزيد السكسكي ، قال : أنا والله في أهل الشام ليلة جاءنا شبيب فبيتنا . قال : فلما أمسينا جمعنا حبيب بن عبد الرحمن فجعلنا أرباعاً ، وقال لكل رُبع منا : ليُجزىء كل رُبع منكم جانبه ، فإن قاتل هذا الرُبع فلا يُغثهم هذا الرُبع الآخر ، فإنه قد بلغني أن هذه الخوارج من قريب ، فوطنوا أنفسكم على أنكم مبييتون ومقاتلون ، فما زلنا على تعيبتنا حتى جاءنا شبيب فبيتنا ، فشده على رُبع منا ، عليهم عثمان بن سعيد العذري فصار بهم طويلاً ، فما زالت قدم إنسان منهم ، ثم تركهم وأقبل على الرُبع الآخر ،

وقد جعل عليهم سعد بن بجل العامري فقاتلهم ، فما زالت قدم إنسان منهم ، ثم تركهم واقبل على الرّبع الآخر وعليهم النعمان بن سعد الحميري فما قدر منهم على شيء ، ثم أقبل على الربع الآخر وعليهم ابن أقيصر الخثعمي فقاتلهم طويلاً ، فلم يظفر بشيء ، ثم اطاف بنا يحمل علينا حتى ذهب ثلاثة أرباع الليل ، وألّزبنا حتى قلنا ، لا يفارقنا ، ثم نازلنا راجلاً طويلاً ، فسقطت والله بيننا وبينهم الأيدي ، وفُتت الأعين ، وكثرت القتل ، قتلنا منهم نحواً من ثلاثين ، وقتلوا منا نحواً من مائة ، والله لو كانوا نرى يزيدون على مائة رجل لأهلكونا ، وإيم الله على ذلك ما فارقونا حتى مللناهم ومُلونا ، وكرهونا وكرهناهم ، ولقد رأيت الرجل منا يضرب بسيفه الرجل منهم فما يضره شيء من الإعياء والضعف ولقد رأيت الرجل منا يقاتل جالساً ينْفُخُ بسيفه ما يستطيع أن يقوم من الإعياء ، فلما يشسوا منا ركب شبيب ثم قال لمن كان نزل من أصحابه : اركبوا ، فلما استووا على متون خيولهم وجه منصوراً عنا .

قال أبو مخنف : حدثني فروة بن لقيط ، عن شبيب ، قال : لما انصرفنا عنهم وبنا كآبة شديدة ، وجراحة ظاهرة ، قال لنا : ما أشد هذا الذي بنا لو كنا إنما نطلب الدنيا ! وما أيسر هذا في ثواب الله ! فقال أصحابه : صدقت يا أمير المؤمنين ، قال : فما أنسى منه إقباله على سويد بن سليم ولا مقاتله له : قتلت منهم أمس رجلين : أحدهما أشجع الناس ، والآخر أجبن الناس ، خرجت عشية أمس طليعة لكم فلقيت منهم ثلاثة نفر دخلوا قرية يشتررون منها حوائجهم ، فاشتري أحدهم حاجته ، ثم خرج قبل أصحابه وخرجت معه : فقال : كأنك لم تشتري علفاً ، فقلت : إن لي رفقاء قد كفوني ذلك ، فقلت له : أين ترى عدونا هذا نزل ؟ قال : بلغني أنه قد نزل منا قريباً ، وإيم الله لوددت أني قد لقيت شبيبهم هذا ، قلت : فتحب ذلك ؟ نعم ، قلت : فخذ جذرك ، فانا والله شبيب ، وانتصيت سيفي ، فخر والله ميتاً ، فقلت له : ارتفع ويحك ! وذهبت أنظر فإذا هو قد مات ، فانصرفت راجعاً ، فاستقبل الآخر خارجاً من القرية ، فقال : أين تذهب هذه الساعة ؟ وإنما يرجع الناس إلى عسكرهم ! فلم أكلّمه ، ومضيت يقرب بي فرسي ، وأتبعني حتى لحقني ، فقطعت عليه فقلت له : مالك ؟ فقال : أنت والله من عدونا ؟ فقلت : أجل والله ، فقال : والله لا تبرح حتى تقتلني أو أقتلك ، فحملت عليه وحمل عليّ ، فاضطربنا بسيفينا ساعة ، فوالله ما فضلت في شدة نفس ولا إقدام إلا أن سيفي كان أقطع من سيفه ، فقتلته ، قال : فمضينا حتى قطعنا دجلة ، ثم أخذنا في أرض جوحى حتى قطعنا دجلة مرة أخرى من عند واسط ، ثم أخذنا إلى الأهوا ثم إلى فارس ، ثم ارتفعنا إلى كرمان .

وفي هذه السنة هلك شبيب في قول هشام بن محمد ، وفي قول غيره كان هلاكه سنة ثمان وسبعين .

ذكر سبب هلاكه :

قال هشام ، عن أبي مخنف : قال : حدثني أبو يزيد السكسكي ، قال : أقفلنا الحجاج إليه - يعني إلى شبيب - فقسّم فينا مالاً عظيماً ، وأعطى كل جريح منا وكل ذي بلاء ، ثم أمر سفيان بن الأبرد أن يسير إلى شبيب ، فتجهز سفيان ، فشق ذلك على حبيب بن عبد الرحمن الحكمي ، وقال : تبعث سفيان إلى رجل قد فلتته وقتلت فرسان أصحابه . فامضى سفيان بعد شهرين ، وأقام شبيب بكرمان ، حتى إذا انجبر واستراش هو وأصحابه أقبل راجعاً ، فيستقبله سفيان بجسر دجيل الأهواز ، وقد كان الحجاج كتب إلى الحكم بن أيوب بن الحكم بن أبي عقيل ، وهو زوج ابنة الحجاج وعامله على البصرة .

أما بعد ، فابعث رجلاً شجاعاً شريفاً من أهل البصرة في أربعة آلاف إلى شبيب ، ومُرّه فليُلحق

بُسْفَيَانِ بْنِ الْأَبْرَدِ ، وَلَيْسَمَعُ لَهُ وَلِيُطْعَ .

فَبَعَثَ إِلَيْهِ زِيَادُ بْنُ عَمْرٍو الْعَتَكِيَّ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ ، فَلَمْ يَنْتَهَ إِلَى سُفْيَانَ حَتَّى التَقَى سُفْيَانُ وَشَبِيبٌ ، وَلَمْ
أَنْ اِتَّقِيَا بِجَسَرٍ دَجِيلٍ عَبْرَ شَبِيبٍ إِلَى سُفْيَانَ فَوَجَدَ سُفْيَانَ قَدْ نَزَلَ فِي الرِّجَالِ ، وَبَعَثَ مُهَاصِرَ بْنَ صَيْفِيٍّ الْعُدْرِيَّ
عَلَى الْخَيْلِ ، وَبَعَثَ عَلَى مِيمَنَتِهِ بِشَرِّ بْنِ حَسَّانَ الْفَهْرِيَّ ، وَبَعَثَ عَلَى مِيسَرَتِهِ عَمْرُ بْنُ هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيَّ ، فَأَقْبَلَ
شَبِيبٌ فِي ثَلَاثَةِ كِرَادِيْسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، هُوَ فِي كَتِيبَةٍ وَسُوَيْدٌ فِي كَتِيبَةٍ ، وَقَعْنَبُ الْمُحَلَّمِيُّ فِي كَتِيبَةٍ ، وَخُلْفُ
الْمُحَلَّلِ بْنِ وَاثِلٍ فِي عَسْكَرِهِ . قَالَ : فَلَمَّا حَمَلَ سُوَيْدٌ وَهُوَ فِي مِيمَنَتِهِ عَلَى مِيسَرَةِ سُفْيَانَ ، وَقَعْنَبٌ وَهُوَ فِي مِيسَرَتِ
عَلَى مِيمَنَتِهِ حَمَلَ هُوَ عَلَى سُفْيَانَ ، فَاضْطَرَبْنَا طَوِيلًا مِنَ النَّهَارِ ، حَتَّى انْحَاذُوا فَرَجَعُوا إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ ؛
فَكَبَّرَ ، عَلَيْنَا هُوَ وَأَصْحَابُهُ أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثِينَ كَرَّةً ، كُلُّ ذَلِكَ لَا نَزُولُ مِنْ صَفِّنَا . وَقَالَ لَنَا سُفْيَانُ بْنُ الْأَبْرَدِ : لَا
تَتَفَرَّقُوا ، وَلَكِنْ لِيَتَرَحَّفَ الرِّجَالُ إِلَيْهِمْ زَحْفًا ، فَوَاللَّهِ مَا زَلْنَا نَطَاعِنُهُمْ وَنَضَارِبُهُمْ حَتَّى اضْطَرَرْنَا إِلَى الْجَسْرِ .
فَلَمَّا انْهَى شَبِيبٌ إِلَى الْجَسْرِ نَزَلَ وَنَزَلَ مَعَهُ نَحْوُ مِائَةِ رَجُلٍ ، فَقَاتَلْنَاهُمْ حَتَّى الْمَسَاءِ أَشَدَّ قِتَالٍ قَاتَلَهُ قَوْمٌ قَطٌّ .
فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ نَزَلُوا فَأَوْقَعُوا لَنَا مِنَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ شَيْئًا مَا رَأَيْنَا مِثْلَهُ مِنْ قَوْمٍ قَطٌّ . فَلَمَّا رَأَى سُفْيَانُ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ
عَلَيْهِمْ ، وَلَا يَأْمَنُ مَعَ ذَلِكَ ظَفَرَهُمْ ، دَعَا الرَّمَاةَ فَقَالَ : ارْشَقُوهُمْ بِالنَّبْلِ ، وَذَلِكَ عِنْدَ الْمَسَاءِ ، وَكَانَ التَّقَاوُهِ
نِصْفَ النَّهَارِ ، فَرَمَاهُمْ أَصْحَابُ النَّبْلِ بِالنَّبْلِ عِنْدَ الْمَسَاءِ ، وَقَدْ صَفَّهِمُ سُفْيَانُ بْنُ الْأَبْرَدِ عَلَى حِدَةٍ ، وَبَعَثَ
عَلَى الْمُرَامِيَةِ رَجُلًا ، فَلَمَّا رَشَقُوهُمْ بِالنَّبْلِ سَاعَةً شَدَّوْا عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا شَدَّوْا عَلَى رُمَاتِنَا شَدَّدْنَا عَلَيْهِمْ ، فَشَغَلْنَاهُ
عَنْهُمْ ، فَلَمَّا رَمَوْا بِالنَّبْلِ سَاعَةً رَكِبَ شَبِيبٌ وَأَصْحَابُهُ ثُمَّ كَرُّوا عَلَى أَصْحَابِ النَّبْلِ كَرَّةً صُرِعَ مِنْهُمْ أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثِينَ
رَجُلًا ، ثُمَّ عَطَفَ بِخَيْلِهِ عَلَيْنَا ، فَمَشَى عَامِدًا نَحُونَا ، فَطَاعَنَاهُ حَتَّى اخْتَلَطَ الظَّلَامُ ، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنَّا ، فَقَالَ
سُفْيَانُ لِأَصْحَابِهِ : أَيُّهَا النَّاسُ ، دَعُوهُمْ لَا تَتَّبِعُوهُمْ حَتَّى نُصَبِّحَهُمْ غُدُوًّا . قَالَ : فَكَفَفْنَا عَنْهُمْ وَلَيْسَ شَيْ
أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْ يَنْصَرَفُوا عَنَّا .

قَالَ أَبُو مَخْنَفٍ : فَحَدَّثَنِي قُرَّةُ بْنُ لَقِيْطٍ ، قَالَ : فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ انْتَهَيْنَا إِلَى الْجَسْرِ ، فَقَالَ : اعْبُرُوا مَعَاشَ
الْمُسْلِمِينَ ، فَإِذَا أَصْبَحْنَا بَاكُرُنَاهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَعَبَرْنَا أَمَامَهُ ، وَتَخَلَّفَ فِي آخِرَانَا ، فَأَقْبَلَ عَلَى فَرَسِهِ ، وَكَانَتْ
بَيْنَ يَدَيْهِ فَرَسٌ أَنْثَى مَازِيَانَةٌ ، فَنَزَا فَرَسُهُ عَلَيْهَا وَهُوَ عَلَى الْجَسْرِ فَاضْطَرَبَتِ الْمَازِيَانَةُ ، وَنَزَلَ حَافِرُ رَجُلٍ فَرَسٍ
شَبِيبٍ عَلَى حَرَفِ السُّفِينَةِ ، فَسَقَطَ فِي الْمَاءِ ، فَلَمَّا سَقَطَ قَالَ : ﴿ لَيْقِضِي اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ . فَارْتَمَسَ فِي
الْمَاءِ ، ثُمَّ ارْتَفَعَ فَقَالَ : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ .

قَالَ أَبُو مَخْنَفٍ : فَحَدَّثَنِي أَبُو يَزِيدَ السُّكْسُكِيُّ بِهَذَا الْحَدِيثِ - وَكَانَ مِمَّنْ يِقَاتِلُهُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، وَحَدَّثَنِي
قُرَّةُ بْنُ لَقِيْطٍ ، وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ مَوَاطِنَهُ - فَأَمَّا رَجُلٌ مِنْ رَهْطَةٍ مِنْ بَنِي مُرَّةَ بْنِ هَمَّامٍ فَإِنَّهُ حَدَّثَنِي أَنَّهُ كَانَ مَعَهُ قَوْمٌ
يِقَاتِلُونَ مِنْ عَشِيرَتِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ تِلْكَ الْبَصِيرَةُ النَّافِلَةُ ، وَكَانَ قَدْ قَتَلَ مِنْ عَشَائِرِهِمْ رَجَالًا كَثِيرًا ، فَكَانَ ذَلِكَ
قَدْ أَوْجَعَ قُلُوبَهُمْ ، وَأَوْغَرَ صُدُورَهُمْ ، وَكَانَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ مُقَاتِلٌ مِنْ بَنِي تَيْمٍ بْنِ شَيْبَانَ مِنْ أَصْحَابِ شَبِيبٍ
فَلَمَّا قَتَلَ شَبِيبٌ رَجُلًا مِنْ بَنِي تَيْمٍ بْنِ شَيْبَانَ أَغَارَ هُوَ عَلَى بَنِي مُرَّةَ بْنِ هَمَّامٍ فَأَصَابَ مِنْهُمْ رَجُلًا ، فَقَالَ لَهُ شَبِيبٌ
مَا حَمَلَكَ عَلَى قَتْلِهِمْ بَغَيْرِ أَمْرِي ! فَقَالَ لَهُ : أَصْلَحَكَ اللَّهُ ! قَتَلْتُ كَفَّارَ قَوْمِي ، وَقَتَلْتُ كَفَّارَ قَوْمِكَ ، قَالَ : وَأَنْتَ
الْوَالِي عَلَى حَتَّى تَقْطَعَ الْأُمُورَ دُونِي ! فَقَالَ : أَصْلَحَكَ اللَّهُ ! أَلَيْسَ مِنْ دِينِنَا قَتْلُ مَنْ كَانَ عَلَى غَيْرِ رَأْيِنَا ، مَنْ كَانَ
أَوْ مِنْ غَيْرِنَا ! قَالَ : بَلَى قَالَ : فَلَمَّا فَعَلْتَ مَا كَانَ يَنْبَغِي ، وَلَا وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَصَبْتَ مِنْ رَهْطِكَ عَشْرَةً
أَصَبْتَ مِنْ رَهْطِي ، وَمَا يَحِلُّ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَجِدَ مَنْ قَتَلَ الْكَافِرِينَ ؛ قَالَ : إِنِّي لَا أَجِدُ مِنْ ذَلِكَ . وَكَانَ

معه رجال كثير قد أصاب من عشايرهم ، فزعموا أنه لما تخلف في أخريات أصحابه قال بعضهم لبعض : هل لكم أن نقطع به الجسر فنذكر ثأرنا الساعة ! فقطعوا الجسر ، فمالت السفن ، ففزع الفرس ونفر ، ووقع في الماء فغرق .

قال أبو مخنف : فحدثني ذلك المرئي بهذا الحديث ، وناس من رهط شبيب يذكرون هذا أيضاً ، وأما حديث العامة فالحديث الأول .

قال أبو مخنف : وحدثني أبو يزيد السكسكي ، قال : إنا والله لنتهيأ للانصراف إذ جاء صاحب الجسر فقال : أين أميركم ؟ قلنا : هو هذا ، فجاء فقال : أصلحك الله ! إن رجلاً منهم وقع في الماء ، فنادوا بينهم : غرق أمير المؤمنين ! ثم إنهم انصرفوا راجعين ، وتركوا عسكريهم ليس فيه احد ، فكبر سفيان وكبرنا ، ثم أقبل حتى انتهى إلى الجسر ، وبعث مهاصر بن صيفي فعبر إلى عسكريهم ، فاذا ليس فيه منهم صافراً ولا أثر ، فنزل فيه ، فإذا أكثر عسكر خلق الله خيراً ، وأصبحنا فطلبنا شبيباً حتى استخرجناه وعليه الدرع ، فسمعت الناس يزعمون انه شق بطنه فأخرج قلبه ، فكان مجتمعاً صلباً كأنه صخرة ، إنه كان يضرب به الأرض فيثب قامة إنسان ، فقال سفيان : إحمدا الله الذي أعانكم فأصبح عسكريهم في أيدينا .

قال أبو يزيد عمر بن شبة : حدثني خلاد بن يزيد الأرقط ، قال : كان شبيب ينعمي لأمه فيقال : قتل فلا تقبل قال : فقله لها : إنه غرق ، فقبلت ، وقالت : إني رأيت حين ولدته أنه خرج مني شهاب نار ، فعلمت أنه لا يطفيه إلا الماء .

قال هشام عن أبي مخنف : حدثني فروة بن لقيط الأزدي ثم العامري أن يزيد بن نعيم أبا شبيب كان ممن دخل في جيش سلمان بن ربيعة إذ بعث به وعين معه الوليد بن عقبة عن أمر عثمان إياه بذلك مدداً لأهل الشام أرض الروم ، فلما قفل المسلمون أقيم السبي للبيع ، فرأى يزيد بن نعيم أبو شبيب جارية حراء ، لا شهلاء ولا زرقاء طويلة جميلة تأخذها العين ، فابتاعها ثم أقبل بها ، وذلك سنة خمس وعشرين أول السنة ، فلما أدخلها الكوفة قال : أسلمي ، فأبى عليه ، فضرها فلم تزدد إلا عصياناً ، فلما رأى ذلك أمر بها فأصليحت ، ثم دعا بها فأدخلت عليه ، فلما تغشاها تلقت منه بحمل فولدت شبيباً ، وذلك سنة خمس وعشرين في ذي الحجة في يوم النحر يوم السبت . واحبت مولاه حباً شديداً - وكان حديثه - وقالت : إن شئت أجبتيك إلى ما سألتني من الاسلام ، فقال لها : شئت ، فأسلمت ، وولدت شبيباً وهي مسلمة ، وقالت : إني رأيت فيما يرى النائم أنه خرج من قبلي شهاب فتقرب يسطع حتى بلغ السماء وبلغ الأفق كلها ، فبينما هو كذلك إذ وقع في ماء كثير جار فخبأ ، وقد ولدته في يومكم هذا الذي تهريقون فيه الدماء ، وإني قد أولت رؤياي هذه أني أرى ولدي هذا غلاماً ، أراه سيكون صاحب دماء يهريقها ، وإني أرى أمره سيعلو ويعظم سريعاً . قال : فكان أبوه يختلف به وبأمه إلى البادية إلى أرض قومه على ماء يدعى اللصف .

قال أبو مخنف : وحدثني موسى بن أبي سويد بن رادي أن جند أهل الشام الذين جاؤوا حملوا معهم الحجر فقالوا : لا نفر من شبيب حتى يفر هذا الحجر ، فبلغ شبيباً أمرهم ، فأراد أن يكيدهم ، فدعا بأفراس أربعة ، فربط في أذناها ترسة في ذنب كل فرس ترسين ، ثم ندب معه ثمانية نفر من أصحابه ، ومعه غلام له يقال له حيان ، وأمره أن يحمل معه إداوة من ماء ، ثم سار حتى يأتي ناحية من العسكر ، فأمر أصحابه أن يكونوا في نواحي العسكر ، وأن يجعلوا مع كل رجلين فرساً ، ثم يمسوها الحديد حتى تجد حره ويخلوها في العسكر ،

وواعدهم تلةً قريبةً من العسكر، فقال: من نجا منكم فإن موعده هذه التلة؛ وكره أصحابه الإقدام على ما أمرهم به، فنزل حيث رأى ذلك منهم حتى صنع بالخيل مثل الذي أمرهم، ثم غلّت في العسكر، ودخل يتلوها مُحَكِّمًا فضرب الناس بعضهم بعضاً، فقام صاحبهم الذي كان عليهم، وهو حبيب بن عبد الرحمن الحَكَمي، فنادى: أيها الناس، إن هذه مكيدة، فالزموا الأرض حتى يتبين لكم الأمر، ففعلوا وبقي شبيب في عسكرهم، فلزم الأرض حيث رآهم قد سكنوا، وقد أصابته ضربة عمود أوهنته، فلما أن هدا الناس ورجعوا إلى أبينتهم خرج في غمارهم حتى أتى التلة، فإذا هو بحيان، فقال: أفرغ يا حيان على رأسي من الماء؛ فلما مَدَّ رأسه ليصب عليه من الماء همَّ حيان أن يضرب عنقه، فقال لنفسه: لا أجد لي مكرمة ولا ذكراً أرفع من قتلي هذا، وهو أمانى عند الحجاج، فاستقبلته الرعدة حيث همَّ بما همَّ به، فلما أبطأ بحلّ الإداوة قال: ما يُبطئك بحلها فتناول السكين من موزجه فخرقها به، ثم ناوها إياه، فأفرغ عليه من الماء. فقال حيان: منعتي والله الجبن وما أخذني من الرعدة أن أضرب عنقه بعد ما هممت به. ثم لحق شبيب بأصحابه في عسكره.

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة خرج مطرف بن المغيرة بن شعبة على الحجاج، وخلع عبد الملك بن مروان ولحق بالجبال فقتل.

ذكر السبب الذي كان عند خروجه وخلعه عبد الملك بن مروان:

قال هشام عن أبي مخنف، قال: حدّثني يوسف بن يزيد بن بكر الأزدي أن بني المغيرة بن شعبة كانوا صلحاء نبلاء، أشرافاً بأبدانهم سوى شرف أبيهم ومنزلتهم في قومهم. قال: فلما قدم الحجاج فلقوه وشافهم علم أنهم رجال قومه وبنو أبيه، فاستعمل عروة بن المغيرة على الكوفة ومطرف بن المغيرة على المدائن، وحزمة بن المغيرة على همدان.

قال أبو مخنف: فحدّثني الحُصَيْن بن يزيد بن عبد الله بن سعد بن نُفَيْل الأزدي، قال: قدِم علينا مطرف بن المغيرة بن شعبة المدائن فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، أن الأمير الحجاج أصلحه الله قد ولاني عليكم، وأمرني بالحكم بالحق، والعدل في السيرة، فإن علمت بما أمرني به فأنا أسعدُ الناس، وإن لم أفعل فنفسي أو بقت، وحظ نفسي ضيعت، ألا إني جالس لكم العَصْرَيْن، فارفعوا إليّ حوائجكم، وأشيروا عليّ بما يصلحكم ويصلح بلادكم، فإني لن ألوكم خيراً ما استطعت. ثم نزل.

وكان بالمدائن إذ ذاك رجال من أشراف أهل المِصر وبيوتات الناس، وبها مقاتلة لا تسعها عدة، إن كان كَوْنُ بَارِضٍ جُوخَى أو بَارِضِ الْأَنْبَارِ. فأقبل مطرف حين نزل حتى جلس للناس في الأيوان، وجاء حكيماً بن الحارث الأزدي يمشي نحوه، وكان من وجوه الأزد وأشرافهم، وكان الحجاج قد استعمله بعد ذلك على بيت المال. فقال له: أصلحك الله! إني كنت منك نائياً حين تكلمت، وإني أقبلتُ نحوك لاجيئك، فوافق ذلك نزولك، إنا قد فهمنا ما ذكرت لنا، إنه عهد إليك، فأرشد الله العاهد والمعهود إليه، وقد منيت من نفسك العدل، وسألت المعونة على الحق، فأعانك الله على ما نويت، إنك تشبه أباك في سيرته برضا الله والناس، فقال له مطرف: ها هنا إليّ، فأوسع له فجلس إلى جنبه.

قال أبو مخنف: فحدّثني الحُصَيْن بن يزيد أنه كان من خير عامل قدم عليهم قط، أقمعه لمريب، وأشدّه إنكاراً للظلم، فقدم عليه بشر بن الأجدع الهمداني، ثم الثوري، وكان شاعراً فقال:

إتني كلفت بخود غير فاحشة
غراء وهنائة حسانة الجيد

كأنها الشمس يوم الدُجْنِ إذ برزت
 سلّ الهوى بعَلْنَدَاةٍ مُذَكَّرَةٍ
 إلى الفتى الماجدِ الفياضِ نَعْرُهُ
 من الأكارم أنساباً إذا نَسَبُوا
 إني أعيتُكَ بالرحمنِ من نَقَرٍ
 فُرسانٍ شَيَّانٍ لم نسمعِ بِمِثْلِهِمْ
 شَدُّوا على ابنِ حُصَيْنٍ في كَتِيبَتِهِ
 وابنُ المجالِدِ أَرَدْتُهُ رَمَاحُهُمْ
 وكلُّ جَمْعٍ بروذابار كان لهم

فقال له : وَتَحَكَّ ! ما جئت لترغبنا ، وقد كان شبيب أقبل من سائديما ، فكتب مطرف إلى الحجاج :

أما بعد ، فلما أخبر الأمير أكرمهُ الله أن شبيباً قد أقبل نحونا ، فإن رأى الأمير أن يمدني برجال أضبط بهم المدائن فَعَل ، فإن المدائن باب الكوفة وحصنها .

فبعث إليه الحجاج بن يوسف سَبْرَةَ بن عبد الرحمن بن مَخْنَفٍ في مائتين وعبد الله بن كَنَازٍ في مائتين ، وجاء شبيب فأقل حتى نزل قناطر حُدَيْفَةَ ، ثم جاء حتى انتهى إلى كَلَوَاذَا ، فعبر منها دجلة ، ثم أقبل حتى نزل مدينة بَهْرُسِير ومطرف بن المغيرة في المدينة العتيقة التي فيها منزل كَسْرَى والقَصْر الأبيض ، فلما نزل شبيب بَهْرُسِير قطع مطرف الجسر فيما بينه وبين شبيب ، وبعث إلى شبيب أن ابعث إلي رجالاً من صلحاء أصحابك أدارسهم القرآن ، وأنظر ما تدعون إليه ، فبعث إليه رجالاً ، منهم سويد بن سليم وقعنب والمحلل بن وائل ، فلما أدنى منهم المغبر وأرادوا أن ينزلوا فيه أرسل إليهم شبيب ألا تدخلوا السفينة حتى يرجع إلي رسولي من عند مطرف ، وبعث إلى مطرف : أن ابعث إلي بَعْدَةَ من أصحابك حتى ترد علي أصحابي ، فقال لرسوله : القه فقل له : فكيف آمنك على أصحابي إذا بعثتهم الآن إليك ، وأنت لا تأمنني على أصحابك ! فأرسل إليه شبيب : إنك قد علمت أننا لا نستحل في ديننا الغدر ، وأنتم تفعلونه وتهونونه . فسرح إليه مطرف الربيع بن يزيد الأسدي ، وسليمان بن حُدَيْفَةَ بن هلال بن مالك المزني ، ويزيد بن أبي زياد مولى المغيرة - وكان على حرس مطرف - فلما وقعوا في يديه بعث أصحابه إليه .

قال ابو مخنف :

حدثني النضر بن صالح ، قال : كنت عند مطرف بن المغيرة بن شعبة فما أدرى أقال : إني كنت في الجند الذين كانوا معه ، أو قال : كنت بإزائه حيث دخلت عليه رُسُل شبيب ! وكان لي ولأخي ودّاً مكرماً ، ولم يكن ليستر منّا شيئاً ، فدخلوا عليه وما عنده أحد من الناس غيري وغير أخي حَلَام بن صالح ، وهم ستة ونحن ثلاثة ، وهم شاكون في السلاح ، ونحن ليس علينا إلا سيوفنا ، فلما دنوا قال سويد : السلام على من خاف مقام ربه وعرف الهدى وأهله ، فقال له مطرف : أجل ، فسلم الله على أولئك ، ثم جلس القوم ، فقال لهم مطرف : قُصُّوا علي أمركم ، وخبروني ما الذي تطالبون ؟ وإلام تدعون ؟ فحمد الله سويد بن سليم وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإن الذي ندعو إليه كتاب الله وسنة محمد ﷺ ، وإن الذي نقمنا على قومنا الاستئثار بالقيء وتعطيل الحدود والتسلط بالجبرية . فقال لهم مطرف : ما دعوتكم إلا إلى حق ، ولا نقمتكم إلا جوراً

ظاهراً ، أنا لكم على هذا مُتابع ، فتابعوني إلى ما أدعوكم إليه ليجتمع أمري وأمركم ، وتكون يدي وأيديكم واحدة ، فقالوا : هات اذكر ما تريد أن تذكر ، فإن يكن ما تدعوننا إليه حقاً نجيبك ، قال : فإني أدعوكم إلى أن نقاتل هؤلاء الظلمة العاصين على إحداثهم الذي أحدثوا ، وأن ندعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وأن يكون هذا الأمر شورى بين المسلمين ، يؤمرون عليهم من يرضون لأنفسهم على مثل الحال التي تركهم عليها عمر بن الخطاب ، فإن العرب إذا علمت إن ما يراد بالشورى الرضا من قريش رضوا ، وكثر تبعكم منه وأعوانكم على عدوكم ، وتم لكم هذا الأمر الذي تريدون .

قال : فوثبوا من عنده ، وقالوا : هذا ما لا نجيبك إليه أبداً ، فلما مضوا فكادوا أن يخرجوا من صفة البيت التفت إليه سويد بن سليم ، فقال : يا بن المغيرة ، لو كان القوم عداة غدرأ كنت قد أمكتهم من نفسك ، ففزع لها مطرف ، وقال : صدقت وإله موسى وعيسى .

قال : ورجعوا إلى شبيب فأخبروه بمقالته ، فطمع فيه ، وقال لهم : إن أصبحتم فليأتيه أحدكم ، فلما أصبحوا بعث إليه سويداً وأمره بأمره ، فجاء سويد حتى انتهى إلى باب مطرف ، فكننت أنا المستأذن له ، فلما دخل وجلس اردت أن أنصرف ، فقال لي مطرف : اجلس فليس دونك ستر ، فجلست وأنا يومئذ شاب أغيد ، فقال له سويد : من هذا الذي ليس لك دونه ستر ؟ فقال له : هذا الشريف الحسيب ، هذا ابن مالك بن زهير بن جذيمة ، فقال له : بخ أكرمت فاربت ، إن كان دينه على قدر حسبه فهو الكامل ، ثم أقبل عليه فقال : إنا لقينا أمير المؤمنين بالذي ذكرت لنا ، فقال لنا : القوه فقولوا له : ألسنت تعلم أن اختيار المسلمين منهم خيرهم لهم فيما يرون رأي رشيد ! فقد مضت به السنة بعد الرسول ﷺ ، فإذا قال لكم : نعم ، فقولوا له : إنا قد اخترنا لأنفسنا أرضنا فينا ، وأشدنا اضطلاعاً لما حمل ، فما لم يغير ولم يبدل فهو ولي أمرنا . وقال لنا : قولوا له فيما ذكرت لنا من الشورى حين قلت : إن العرب إذا علمت أنكم إنما تريدون بهذا الأمر قريشاً كان أكثر لتبعكم منهم ، فإن أهل الحق لا ينقصهم عند الله أن يقلوا ، ولا يزيد الظالمين خيراً أن يكثروا ، وإن تركنا حقنا الذي خرجنا له ، ودخولنا فيما دعوتنا إليه من الشورى خطيئة وعجز ورخصة إلى نصر الظالمين ووهن ، لأننا لا نرى أن قريشاً أحق بهذا الأمر من غيرها من العرب ، وقال : فإن زعم أنهم أحق بهذا الأمر من غيرها من العرب فقولوا له : ولم ذاك ؟ فإن قال : لقراءة محمد ﷺ بهم فقولوا له : فوالله ما كان ينبغي إذا لأسلافنا الصالحين من المهاجرين الأولين أن يتولوا على أسرة محمد ، ولا على ولد أبي هب لو لم يبق غيرهم ، ولولا أنهم علموا أن خير الناس عند الله اتقاهم ، وأن أولاهم بهذا الأمر اتقاهم وأفضلهم فيهم ، وأشدهم اضطلاعاً بحمل أمورهم ما تولوا أمور الناس ، ونحن أول من انكر الظلم وغير الجور وقاتل الأحزاب ، فإن اتبعنا فله مألنا وعليه ما علينا ، وهورجل من المسلمين ، وإلا يفعل فهو كبعض من نعاذي ونقاتل من المشركين .

فقال له مطرف : قد فهمت ما ذكرت ، إرجع يومك هذا حتى تنظر في أمرنا .

فرجع ، ودعا مطرف رجلاً من أهل ثقافته وأهل نصحائه ، منهم سليمان بن حذيفة المزني . والربيع بن يزيد الأسدي . قال البضر بن صالح : وكنت أنا ويزيد بن أبي زياد مولي المغيرة بن شعبة قائمين على رأسه بالسيف ، وكان على حرسه ، فقال لهم مطرف : يا هؤلاء ، إنكم نصحاوي وأهل مودتي ومن اتق بصلاحه وحسن رأيه ، والله ما زلت لأعمال هؤلاء الظلمة كارها ، أنكرها بقلبي ، وأغيرها ما استطعت بفعلتي وأمري ، فلما عظمت خطيئتهم ، ومرّ بي هؤلاء القوم يجاهدونهم ، لم أر أنه يسعني إلا مناهضتهم وخلقهم إن

وجدتُ أعواناً عليهم ، وإني دعوتُ هؤلاء القوم فقلتُ لهم كَيْتَ وكَيْتَ ، وقالوا لي كَيْتَ وكَيْتَ ، فلستُ أرى القتالَ معهم ، ولو تابَعوني على رأيي وعلى ما وصفتُ لهم لخلعتُ عبد الملك والحجّاج ، ولسيرتُ إليهم أجاهدُهم . فقال له المُزَيُّ : لِمَ لَنْ يُتَابِعوكَ ، وإِنَّكَ لَنْ تُتَابِعَهُمْ فَأَخَفَ هذا الكلامَ ولا تُظْهِرْ لأحدٍ ، وقال له الأسدِّيُّ مِثْلَ ذلك ، فَجِئْنَا مَوْلَاهُ ابْنُ أَبِي زِيَادٍ عَلَى رَكْبَتَيْهِ ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ لَا يَخْفَى مِمَّا كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَلَى الْحِجَّاجِ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَلَيُزَادَنَّ عَلَى كُلِّ كَلِمَةٍ عَشْرَةٌ أَمْثَالُهَا ، وَاللَّهِ أَنْ لَوْ كُنْتُ فِي السَّحَابِ هَارِباً مِنَ الْحِجَّاجِ لَيَلْتَمِسَنَّ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ حَتَّى يُهْلِكَكَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ ، فَالْتَّجَاءُ النِّجَاءُ مِنْ مَكَانِكَ ، هَذَا ، فَإِنْ أَهْلُ الْمَدَائِنِ مِنْ هَذَا الْجَانِبِ وَمِنْ ذَاكَ الْجَانِبِ ، وَأَهْلُ عَسْكَرِ شَيْبٍ يَتَحَدَّثُونَ بِمَا كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ شَيْبٍ ، وَلَا تَمَسْ مِنْ يَوْمِكَ هَذَا حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبْرُ الْحِجَّاجَ ، فَاطْلُبْ دَاراً غَيْرَ الْمَدَائِنِ . فَقَالَ لَهُ صَاحِبَاهُ : مَا نَرَى الرَّأْيَ إِلَّا كَمَا ذَكَرَكَ ، قَالَ لَهُمَا مَطْرَفٌ : فَمَا عِنْدَكُمَا ؟ قَالَا : الْإِجَابَةُ إِلَى مَا دَعَوْتُنَا إِلَيْهِ وَالْمُؤَاسَاةُ لَكَ بِأَنْفُسِنَا عَلَى الْحِجَّاجِ وَغَيْرِهِ . قَالَ : ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ ، فَقَالَ : مَا عِنْدَكَ ؟ فَقُلْتُ : قِتَالُ عِدْوِكَ وَالصَّبْرُ مَعَكَ مَا صَبَرْتُ ، فَقَالَ لِي : ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ . قَالَ : وَمَكْتُ حَتَّى إِذَا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ أَتَاهُ قَعْنَبُ فَقَالَ لَهُ : إِنْ تَابَعْتَنَا فَأَنْتَ مَنَا ، وَإِنْ أَبَيْتَ فَقَدْ نَابَدْنَاكَ ، فَقَالَ : لَا تَعَجَّلُوا الْيَوْمَ فَإِنَّا نَنْظُرُ . قَالَ : وَبَعَثَ إِلَى أَصْحَابِهِ أَنْ أَرْحَلُوا اللَّيْلَةَ مِنْ عِنْدِ آخِرِكُمْ حَتَّى تُوفُوا الدُّسُكْرَةَ مَعِيَ لِحَدَثِ حَدَثٍ هُنَالِكَ .

ثُمَّ أَدْلَجَ وَخَرَجَ أَصْحَابُهُ مَعَهُ حَتَّى مَرَّ بِذَيْرٍ يَزْدَجِرْدُ فَنَزَلَهُ ، فَلَقِيَهُ قَبِيصَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْقَحَافِيُّ ، مِنْ خَثْعَمٍ ، فَدَعَاهُ إِلَى صُحْبَتِهِ ، فَصَحَبَهُ ، فَكَسَاهُ وَحَمَلَهُ ، وَأَمَرَهُ بِنَفَقَةٍ ، ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلَ الدُّسُكْرَةَ ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَرْتَحِلَ مِنْهَا لَمْ يَجِدْ بَدَأَ مِنْ أَنْ يُعَلِّمَ أَصْحَابَهُ مَا يَرِيدُ ، فَجَمَعَ إِلَيْهِ رُؤُوسَ أَصْحَابِهِ ، فَذَكَرَ اللَّهُ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ وَصَلَّى عَلَى رَسُولِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْجِهَادَ عَلَى خَلْقِهِ ، وَأَمَرَ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ، وَقَالَ فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١) وَإِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ أَنِّي قَدْ خَلَعْتُ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَالْحِجَّاجَ بْنَ يُوْسُفَ ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ صُحْبَتِي وَكَانَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِي فَلْيَتَابِعْنِي ، فَإِنَّ لَهُ الْأَسْوَةَ وَحُسْنَ الصَّحْبَةِ ، وَمَنْ أَبَى فَلْيَذْهَبْ حَيْثُ شَاءَ ، فَإِنِّي لَسْتُ أَحَبَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي مَنْ لَيْسَتْ لَهُ نِيَّةٌ فِي جِهَادِ أَهْلِ الْجَوْرِ ، أَدْعُوَكُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ وَإِلَى قِتَالِ الظُّلْمَةِ ، فَإِذَا جَمَعَ اللَّهُ لَنَا أَمْرًا كَانَ هَذَا الْأَمْرُ شُورَى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ يَرْتَضُونَ لَأَنْفُسِهِمْ مِنْ أَحِبُّوا .

قَالَ : فَوُثِبَ إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ فَبَايَعُوهُ ، ثُمَّ إِنَّهُ دَخَلَ رَحْلَهُ وَبَعَثَ إِلَى سَبْرَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَخْنَفٍ وَإِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كِنَازِ النَّهْدِيِّ فَاسْتَخْلَاهُمَا ، وَدَعَاهُمَا إِلَى مِثْلِ مَا دَعَا إِلَيْهِ عَامَّةُ أَصْحَابِهِ ، فَأَعْطَاهُمَا الرِّضَا ، فَلَمَّا ارْتَحَلَ انْصَرَفَا مِنْ مَعَهُمَا مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى أَتَيَا الْحِجَّاجَ فَوَجَدَاهُ قَدْ نَازَلَ شَيْبِيًّا ، فَشَهِدَا مَعَهُ وَقَعَةَ شَيْبٍ . قَالَ : وَخَرَجَ مَطْرَفٌ بِأَصْحَابِهِ مِنَ الدُّسُكْرَةِ مُوجَّهًا نَحْوَ حُلُوانَ ، وَقَدْ كَانَ الْحِجَّاجُ بَعَثَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ سُودَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيِّ عَلَى حُلُوانَ وَمَاسْبِذَانَ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ مَطْرَفَ بْنَ الْمَغِيرَةِ قَدْ أَقْبَلَ نَحْوَ أَرْضِهِ عَرَفَ أَنَّهُ إِنْ رَفَقَ فِي أَمْرِهِ أَوْ دَاهَنَ ، لَا يَقْبَلُ ذَلِكَ مِنْهُ الْحِجَّاجُ ، فَجَمَعَ لَهُ سُودُ أَهْلَ الْبَلَدِ وَالْأَكْرَادَ ، فَأَمَّا الْأَكْرَادُ فَأَخَذُوا عَلَيْهِ ثِيَابَهُ حُلُوانَ ، وَخَرَجَ إِلَيْهِ سُودٌ وَهُوَ يَحِبُّ أَنْ يَسْلَمَ مِنْ قِتَالِهِ ، وَأَنْ يُعَافَى مِنَ الْحِجَّاجِ ، فَكَانَ خُرُوجُهُ كَالْتَعْذِيرِ . قَالَ أَبُو مَخْنَفٍ : فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُلْقَمَةَ الْخَثْعَمِيُّ أَنَّ الْحِجَّاجَ بْنَ جَارِيَةَ الْخَثْعَمِيَّ حِينَ سَمِعَ بِخُرُوجِ

مطرف من المدائن نحو الجبل أتبعه في نحو من ثلاثين رجلاً من قومه وغيرهم . وقال : وكنت فيهم فلحقناه بحلوان ، فكنا ممن شهد معه قتال سُويد بن عبد الرحمن .

قال أبو مخنف : وحدثني بذلك أيضاً النضر .

قال أبو مخنف : وحدثني عبدالله بن علقمة . قال : ما هو إلا أن قدمنا على مطرف بن المغيرة ، فسُرَّ بمقدمنا عليه ، وأجلس الحجاج بن جارية معه على مجلسه .

قال أبو مخنف : وحدثني النضر بن صالح ، وعبدالله بن علقمة ، أن سُويداً لما خرج إليهم بمن معه وقف في الرجال ولم يخرج بهم من البيوت ، وقدم ابنه القعقاع في الخيل ، وما خيله يومئذ بكثير .

قال أبو مخنف : قال النضر بن صالح : أراهم كانوا مائتين ، وقال ابن علقمة : أراهم كانوا ينقصون عن الثلاثمائة . قال : فدعا مطرف الحجاج بن جارية فسرحه إليهم في نحو من عديتهم ، فأقبلوا نحو القعقاع وهم جادون في قتاله ، وهم فرسان متعلمون ، فلما رآهم سُويد قد تيسروا نحو ابنه أرسل إليهم غلاماً يقال له رُستم - قُتل معه بعد ذلك بدير الجماجم - وفي يده راية بني سعد ، فانطلق غلامه حتى انتهى إلى الحجاج بن جارية ، فأسرَّ إليه : إن كنتم تريدون الخروج من بلادنا هذه إلى غيرها فاخرجوا عنا ، فإننا لا نريد قتالكم ، وإن كنتم إيانا تريدون فلا بد من منع ما في أيدينا . فلما جاءه بذلك قال له الحجاج بن جارية : اثبت أميرنا فذكر له ، ما ذكرت لي ، فخرج حتى أتى مطرفاً فذكر له مثل الذي ذكر للحجاج بن جارية ، فقال له مطرف : ما أريدكم ولا بلادكم ، فقال له : فالزم هذا الطريق حتى تُخرج من بلادنا ، فإننا لا نجد بدأمن أن يرى الناس وتسمع بذلك أننا قد خرجنا إليك . قال : فبعث مطرف إلى الحجاج فأتاه ، ولزموا الطريق حتى مروا بالثنية فإذا الأكراد بها ، فنزل مطرف ونزل معه عامة أصحابه وصعيد إليهم في الجانب الأيمن الحجاج بن جارية ، وفي الجانب الأيسر سليمان بن حذيفة ، فهزماهم وقتلاهم ، وسلم مطرف وأصحابه فمضوا حتى دنوا من همدان ، فتركها وأخذ ذات اليسار إلى ماه دينار ، وكان أخوه حمزة بن المغيرة على همدان ، فكره أن يدخلها فيتهم أخوه عند الحجاج ، فلما دخل مطرف أرض ماه دينار كتب إلى أخيه حمزة :

أما بعد ، فإن النفقة قد كثرت والمؤنة قد اشتدت ، فامدد أخاك بما قدرت عليه من مال وسلاح .

وبعث إليه يزيد بن أبي زياد مولى المغيرة بن شعبه ، فجاء حتى دخل على حمزة بكتاب مطرف ليلاً . فلما رآه قال له : ثكلتك أمك ! أنت قتلت مطرفاً ؟ فقال له : ما أنا قتلته جعلت فداك ! ولكن مطرفاً قتل نفسه وقتلني ، وليته لا يقتلك ، فقال له : ويحك ! من سؤل له هذا الأمر ! فقال : نفسه سؤل هذا له ، ثم جلس إليه فقَصَّ عليه القصص ، وأخبره بالخبر ، ودفع كتاب مطرف إليه ، فقراه ثم قال : نعم ، وأنا باعث إليه بمال وسلاح ، ولكن أخبرني ترى ذلك يخفى لي ؟ قال : ما أظن أن يخفى ، فقال له حمزة : فوالله لئن أنا خذلت في أنفع النصيرين له نصر العلانية ، لا أخذه في أيسر النصيرين نصر السرية . قال : فسرح إليه مع . . . بن أبي زياد بمال وسلاح ، فأقبل به حتى أتى مطرفاً ونحن نزول في رُستاق من رساتيق ماه دينار ، يقال له : سامان متاخيم أرض أصبهان ، وهو رُستان كانت الحمراء تنزله .

قال أبو مخنف : فحدثني النضر بن صالح ، قال : والله ما هو إلا أن مضى يزيد بن أبي زياد ، فسمعت أهل العسكر يتحدثون أن الأمير بعث إلى أخيه يسأله النفقة والسلاح ، فأتي مطرفاً فحدثته بذلك ، فغضب بيده على جبهته ثم قال : سبحان الله ! قال الأول : ما يخفى إلا ما لا يكون ، قال : وما هو إلا أن قدم

يزيد بن أبي زياد علينا ، فسار مطرف بأصحابه حتى نزل قُم وقاشان وأصبهان .
قال أبو مخنف : فحدثني عبد الله بن علقمة أنّ مطرفاً حين نزل قُم وقاشان واطمأن ، دعا الحجاج بن جارية فقال له : حدثني عن هزيمة شبيب يوم السبخة أكانت وأنت شاهدتها ، أم كنت خرجت قبل الوقعة ؟
قال : لا بل شهدت ، قال : فحدثني حديثهم كيف كان ؟ فحدثه ، فقال : إني كنت أحب أن يظفر شبيب وأن كان ضالاً فيقتل ضالاً . قال : فظننت أنه تمنى ذلك لأنه كان يرجو أن يتم له الذي يطلب لو هلك الحجاج . قال : ثم إن مطرفاً بعث عماله .

قال أبو مخنف : فحدثني النضر بن صالح أنّ مطرفاً عمل عملاً حازماً لولا أنّ الأقدار غالبه . قال : كتب مع الربيع بن يزيد إلى سويد بن سرحان الثقفي ، وإلى بكير بن هارون البجلي :
أما بعد ، فإننا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وإلى جهاد من عند الحق ، واستأثر بالفيء ، وترك حكم الكتاب ، فإذا ظهر الحق ودُمِغ الباطل ، وكانت كلمة الله هي العليا ، جعلنا هذا الأمر شورى بين الأمة يرتضي المسلمون لأنفسهم الرضا ، فمن قبل هذا منا كان أخانا في ديننا ، وولينا في حيانا ومجاننا ، ومن رد ذلك علينا جاهدناه واستنصرنا الله عليه فكفى بنا عليه حجة ، وكفى بتركه الجهاد في سبيل الله غبناً ، ومجدهاظة الظالمين في أمر الله وهناً ! إن الله كتب القتال على المسلمين وسماه كُرهاً ، ولن يُنال رضوان الله إلا بالصبر على أمر الله ، وجهاد أعداء الله ، فأجيبوا رحمكم الله إلى الحق ، وادعوا إليه من ترجون إجابته ، وعرفوه ما لا يعرفه ، وليقبل إليّ كل من رأى رأينا ، وأجاب دعوتنا ، ورأى عدوه عدونا ، أرشدنا الله وإياكم ، وتاب علينا وعليكم ، إنه هو التواب الرحيم . والسلام .

فلما قَدِمَ الكتاب على ذينك الرجلين دَبّاً في رجال من أهل الريّ ودَعَوْا من تابعها ، ثم خرجا في نحو من مائة من أهل الريّ سرّاً لا يُفطن بهم ، فجاؤوا حتى وافوا مطرفاً . وكتب البراء بن قبيصة ، وهو عامل الحجاج على أصبهان .

أما بعد ، فإن كان للأمير أصلحه الله حاجة في أصبهان فليبعث إلى مطرف جيشاً كثيفاً يستأصله ومن معه ، فإنه لا تزال عصابة قد انتفحت له من بلدة من البلدان حتى تُوافيه بمكانه الذي هو به ، فإنه قد استكثف وكثُر تبّعه ، والسلام .

فكتب إليه الحجاج :

أما بعد ، إذا أتاك رسولي فعسكر بمن معك ، فإذا مرّ بك عديّ بن وتاد فاخرج معه في أصحابك ، واسمع له وأطع . والسلام .

فلما قرأ كتابه خرج فعسكر ، وجعل الحجاج بن يوسف يسرّح إلى البراء بن قبيصة الرجال على دوابّ البريد عشرين عشرين ، وخمسة عشر خمسة عشر ، وعشرة عشرة ، حتى سرّح إليه نحو من خمسمائة ، وكان في ألفين . وكان الأسود بن سعد الهمدانيّ ، أتى الريّ في فتح الله على الحجاج يوم لقي شبيباً بالسبخة ، فمرّ بهمدان والجبال ، ودخل على حمزة فاعتذر إليه ، فقال الأسود : فأبلغت الحجاج عن حمزة ، فقال : قد بلغني ذاك ، وأراد عزله ، فخشى أن يكرهه ، وأن يمتنع منه ، فبعث إلى قيس بن سعد العجليّ - وهو يومئذ على شرطة حمزة بن المغيرة ولبي عجل وربيعة عدوّ همدان - فبعث إلى قيس بن سعد بعهده على همدان ، وكتب إليه أن أوثق حمزة بن المغيرة في الحديد ، واحبسّه قبلك حتى يأتيتك أمري .

فلما أتاه عهده وأمره أقبل ومعه ناس من عشيرته كثير ، فلما دخل المسجد وافق الأقامة لصلاة العصر ،

فصلى حمزة ، فلما انصرف حمزة انصرف معه قيس بن سعد العجلي صاحب شرطه ، فأقرأه كتاب الحجاج إليه ، وأراه عهده ، فقال حمزة ، سمعاً وطاعة ، فأوثقه وحبسه في السجن ، وتولى أمرهمذان ، وبعث عماله عليها ، وجعل عماله كلهم من قومه ، وكتب إلى الحجاج :

أما بعد ، فلاني أخير الأمير أصلحه الله ، أي قد شددت حمزة بن المغيرة في الحديد ، وحبسته في السجن ، وبعثت عمالي على الخراج ، ووضعت يدي في الجباية ، فإن رأى الأمير أبقاءه الله أن يأذن لي في المسير إلى مطرف أذن لي حتى أجاهده في قومي ، ومن أطاعني من أهل بلادي ، فلاني أرجو أن يكون الجهاد أعظم أجراً من جباية الخراج . والسلام .

فلما قرأ الحجاج كتابه ضحك ثم قال : هذا جانب آثراً ما قد أمناه . وقد كان حمزة بهمدان أثقل ما خلق الله على الحجاج مخافة أن يمد أخاه بالسلاح والمال ، ولا يدري لعله يبدو له فيعق ، فلم يزل يكيدته حتى عزله ، فاطمأن وقصد قصد مطرف .

قال أبو مخنف : فحدثني مطرف بن عامر بن وائلة أن الحجاج لما قرأ كتاب قيس بن سعد العجلي وسمع قوله : إن أحب الأمير سرت إليه حتى أجاهده في قومي ، قال : ما أبغض إلي أن تكثر العرب في أرض الخراج . قال : فقال لي ابن الغرق : ما هو إلا أن سمعتها من الحجاج فعلمت أنه لو قد فرغ له قد عزله . قال : وحدثني النضر بن صالح أن الحجاج كتب إلى عدي بن وتاد الأيادي وهو على الري يأمره بالمسير إلى مطرف بن المغيرة وبالممر على البراء بن قبيصة ، فإذا اجتمعوا فهو أمير الناس .

قال أبو مخنف : وحدثني أبي عن عبد الله بن زهير ، عن عبد الله بن سليم الأزدي ، قال : إنني لجالس مع عدي بن وتاد على مجلسه بالري إذ أتاه كتاب الحجاج ، فقرأه ثم دفعه إلي ، فقرأته فإذا فيه :

أما بعد ، فإذا قرأت كتابي هذا فانفض بثلاثة أرباع من معك من أهل الري ، ثم أقبل حتى تمر بالبراء بن قبيصة بجي ، ثم سيراً جميعاً ، فإذا لقيتهما فانت أمير الناس حتى يقتل الله مطرفاً ، فإذا كفى الله المؤمنين مؤونته فانصرف إلى عملك في كنف من الله وكلاءته وسيتره ، فلما قرأته قال لي : قم وتجهز .

قال : وخرج فعسكر ، ودعا الكتاب فصرخوا بالبعث على ثلاثة أرباع الناس ، فلما مضت جمعة حتى سرنا فانتبهنا إلى جي ، ويوافينا بها قبيصة القحافي في تسعمائة من أهل الشام ، فيهم عمر بن هبيرة ، قال : ولم نلبث بجي إلا يومين حتى نهض عدي بن وتاد بمن أطاعه من الناس ومعه ثلاثة آلاف مقاتل من أهل الري وألف مقاتل مع البراء بن قبيصة بعثهم إليه الحجاج من الكوفة ، وسبعمائة من أهل الشام ، ونحو ألف رجل من أهل أصبهان والأكراد ، فكان في قريب من ستة آلاف مقاتل ، ثم أقبل حتى دخل على مطرف بن المغيرة . قال أبو مخنف : فحدثني النضر بن صالح ، عن عبد الله بن علقمة ، أن مطرفاً لما بلغه مسيرهم إليه خندق على أصحابه خندقاً ، فلم يزالوا فيه حتى قدموا عليه .

قال أبو مخنف : وحدثني يزيد مولى عبد الله بن زهير ، قال : كنت مع مولاي إذ ذاك ، قال : خرج عدي بن وتاد فعبي الناس ، فجعل على ميمته عبد الله بن زهير ، ثم قال للبراء بن قبيصة : قم في الميسرة ، فغضب البراء ، وقال : تأمرني بالوقوف في الميسرة وأنا أمير مثلك ! تلك خيل في الميسرة ، وقد بعثت عليها فارس مضر الطفيل بن عامر بن وائلة ، قال : فأنبي ذلك إلى عدي بن وتاد ، فقال لابن أقيصر الخثعمي : انطلق فانت على الخيل ، وانطلق إلى البراء بن قبيصة فقل له : إنك قد أمرت بطاعتي ، ولست من الميمنة والميسرة والخيل والرجال في شيء ، إنما عليك أن تؤمر فتقطع ، ولا تعرض لي في شيء أكرهه فأتنكر لك - وقد كان

له مُكرِّما .

ثمَّ إنَّ عديًّا بعث على الميسرة عمر بن هبيرة ، وبعثه في مائة من أهل الشام ، فجاء حتى وقف برايته ، فقال رجل من أصحابه للطفيل بن عامر : خَلَّ رايَتَكَ وَتَنَحَّ عَنَّا ، فإنما نحن أصحابُ هذا الموقف ، فقال الطفيل : إني لا أخاصمكم ، إنما عقد لي هذه الراية البراء بن قبيصة ، وهو أميرنا ، وقد علمنا أنَّ صاحبكم على جماعة الناس ، فإن كان قد عَقَدَ لصاحبكم هذا فبارك الله له ، ما أسمعنا وأطوعنا ! فقال لهم عمر بن هبيرة : مهلا ، كَفُّوا عن أخيكُم وابن عمِّكم ، رايَتنا رايَتك ، فإن شئتَ أثَرْنَاك بها . قال : فما رأينا رجُلَيْن كانا أحلمَ منهما في موقفهما ذلك . قال ، : ونزل عديُّ بن وتاد ثمَّ زحف نحو مطرف .

قال أبو مخنف : فحدَّثني النَّضر بن صالح وعبد الله بن علقمة أنَّ مطرفًا بعث على ميمته الحجاج بن جارية ، وعلى ميسرته الربيع بن يزيد الأسدي ، وعلى الحامية سليمان بن صخر المزني ، ونزل هو يمشي في الرجال ، ورأيتُه مع يزيد بن أبي زياد مولى أبيه المغيرة بن شعبة . قال : فلما زحف القوم بعضهم إلى بعض وتَدَانُوا قال لبكير بن هارونَ البجلي : اخرج إليهم فادعهم إلى كتاب الله وسُنَّة نبيه ، ويَكْتُمهم بأعمالهم الخبيثة . فخرج إليهم بكير بن هارونَ على فرس له أدهمَ أفرح ذنوب عليه الدُّرع والمِغْفَر والساعدان ، في يده الرمح ، وقد شدَّ درعُه بعصابة حمراء من حواشي البرود ، فنادى بصوت له عال رفيع : يا أهل قِبلتنا ، وأهل مِلَّتنا ، وأهل دعوتنا ، إنا نسألكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي علمه بما تُسرُّون مثل علمه بما تُعلنون لما أنصفتُمونا وصدقتُمونا ، وكانت نصيحتُكم لله لا لخلقه ، وكنتم شهادة لله على عباده بما يعلمُه الله من عباده . خبروني عن عبد الملك بن مروان ، وعن الحجاج بن يوسف ، أَلستم تعلمونها جبارَيْن مستأثرَيْن يتبعان الهوى ، فيأخذان بالظُّنة ، ويَقْتُلان على الغَضَب . قال : فتنادوا من كل جانب : يا عدوَّ الله كذبت ، ليسا كذلك ، فقال لهم : ويَلْكم ﴿ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴾ (١) ، ويَلْكم ، أو تعلمون من الله ما لا يعلم ، إني قد استشهدتكم وقد قال الله في الشهادة : ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ (٢) ، فخرج إليه صارم مولى عدي بن وتاد وصاحب رايته ، فحمل على بُكير بن هارونَ البجلي ، فاضطربا بسيفيهما ، فلم تعمل ضربة مولى عدي شيئا ، وضربه بكير بالسيف فقتله ، ثم استقدم ، فقال : فارس لفارس ، فلم يخرج إليه أحد ، فجعل يقول :

صَارِمٌ قَدْ لَاقَيْتَ سَيْفًا صَارِمًا وَأَسَدًا ذَا لِبْدَةٍ ضَبَّارٍ مَا

قال : ثمَّ إنَّ الحجاج بن جارية حمل وهو في الميمنة على عمر بن هبيرة وهو في الميسرة ، وفيها الطفيل بن عامر بن وائلة ، فالتقى هو والطفيل - وكانا صديقَيْن متواخيين - فتعارفا ، وقد رَفَعَ كل واحد منهما السيف على صاحبه ، فكفَّا أيديهما ، واقتتلوا طويلا . ثمَّ إنَّ ميسرة عدي بن وتاد زالت غير بعيد ، وانصرف الحجاج بن جارية إلى موقفه . ثمَّ إنَّ الربيع بن يزيد حَمَلَ على عبد الله بن زهير ، فاقتتلوا طويلا ، ثمَّ إنَّ جماعة الناس حملت على الأسدي فقتلته ، وانكشفت ميسرة مطرف بن المغيرة حتى انتهت إليه . ثمَّ إنَّ عمر بن هبيرة حمل على الحجاج بن جارية وأصحابه فقاتله قتالا طويلا ، ثمَّ إنه حدَّره حتى انتهى إلى مطرف ، وحمل ابن أقيصر الخثعمي في الخيل على سليمان بن صخر المزني فقتله ، وانكشفت خيلهم ، حتى انتهى إلى مطرف ، فثمَّ

(١) سورة طه : ٦١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٣ .

اقتلت الفُرسان أشدَّ قتال رآه الناس قط ، ثم إنه وصل إلى مطرف .
 قال أبو مخنف : فحدثني النضر بن صالح أنه جعل يناديهم يومئذ : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .
 قال : ولم يزل يقاتل حتى قُتل ، واحتزَّ رأسه عمر بن هبيرة ، وذكر أنه قتله ، وقد كان أسرع إليه غير واحد ، غير أن ابن هبيرة احتزَّ رأسه وأوفده به عدي بن وتاد وحظي به ، وقاتل عمر بن هبيرة يومئذ وأبلى بلاءً حسناً .

قال أبو مخنف : وقد حدثني حكيم بن أبي سفیان الأزدي أنه قتل يزيد بن زياد مولى المغيرة بن شعبة ، وكان صاحب راية مطرف . قال : ودخلوا عسكر مطرف ، وكان مطرف ، قد جعل على عسكره عبد الرحمن بن عبد الله بن عفيف الأزدي ، فقتل ، وكان صالحاً ناسكاً عفيفاً .
 قال أبو مخنف : حدثني زيد مولاهم أنه رأى رأسه مع ابن أقيصر الخثعمي ، فما ملكت نفسي أن قلت له . أما والله لقد قتلته من المصلين العابدين الذاكرين الله كثيراً . قال : فأقبل نحوي وقال : من أنت ؟ فقال له مولاي : هذا غلامي ماله ؟ قال : فأخبره بمقاتلي ، فقال : إنه ضعيف العقل ، قال : ثم انصرفنا إلى الري مع عدي بن وتاد . قال : وبعث رجلاً من أهل البلاء إلى الحجاج ، فأكرمهم وأحسن إليهم . قال : ولما رجع إلى الري جاءت بجيلة إلى عدي بن وتاد فطلبوا البكير بن هارون الأمان فآمنه ، وطلبت ثقيف لسويد بن سرحان الثقفي ، الأمان فآمنه ، وطلبت في كل رجل كان مع مطرف عشيرته فآمنهم وأحسن في ذلك ، وقد كان رجال من أصحاب مطرف أحيط بهم في عسكر مطرف ، فنادوا : يا براء ، خذلنا الأمان ، يا براء ، اشفع لنا . فشفع لهم ، فتركوا ، وأسر عدي ناساً كثيراً فخلّى عنهم .
 قال أبو مخنف : وحدثني بن صالح أنه أقبل حتى قدم على سويد بن عبد الرحمن بحلوان ، فأكرمه وأحسن إليه ، ثم إنه انصرف بعد ذلك إلى الكوفة .

قال أبو مخنف : وحدثني عبد الله بن علقمة أن الحجاج بن جارية الخثعمي أتى الري وكان مكتبه بها ، فطلب إلى عدي فيه ، فقال : هذا رجل مشهور قد شُهر مع صاحبه ، وهذا كتاب الحجاج إلي فيه .
 قال أبو مخنف : فحدثني أبي عن عبد الله بن زهير قال : كتب فيمن كلمه في الحجاج بن جارية ، فأخرج إلينا كتاب الحجاج بن يوسف :

أما بعد : فإن كان الله قتل الحجاج بن جارية فبُعداً له . فذاك ما أهوى وأحب ، وإن كان حياً فاطلبه قبلك حتى تؤثقه ، ثم سرح به إلى إن شاء الله . والسلام .

قال : فقال لنا : قد كتب إلي فيه ، ولا بد من السمع والطاعة ، ولو لم يكتب إلي فيه آمنته لكم ، وكففت عنه فلم أطلبه . وقمنا من عنده . قال : فلم يزل الحجاج بن جارية خائفاً حتى عزل عدي بن وتاد ، وقدم خالد بن عتاب بن ورقاء فمشيت إليه فيه ، فكلّمته فآمنه . وقال حبيب بن خدره مولى لبني هلال بن عامر :

هل أتى فائد عن أيسارنا . إذ خشيناً من عدو خرقاً
 إذ أتانا الخوف من مأمينا . فطوبنا في سواد أفا

وسلي هذية يوماً هل رأت
وسليها أعلى العهد لنا
ولكم من خلة من قبلها
قد أصبنا العيش عيشاً ناعماً
وأصببت الدهر دهرأً أشتي
وشهدت الخيل في ملمومة
يتساقون بأطراف القنا
فطراد الخيل قد يؤنقني
بمشيح البيض حتى يتركوا
فكأنني من غدٍ وافقتها

بشراً أكرم منا خلقتا
أو يصرون علينا حنقا
قد صرفنا حبلها فانطلقا
وأصبنا العيش عيشاً رنقا
طبقة منه وألوى طبقة
ما ترى منهم إلا الحدقا
من نجيع الموت كأساً دهما
ويرد الهو عني الأنقا
لسيوف الهند فيها طرقة
مثل ما وافق شن طبقة

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة وقع الاختلاف بين الأزارقة أصحاب قَطَرِي بن الفُجَاءة ، فخالفه بعضهم واعتزله ، وبايع عبد ربّه الكبير ، وأقام بعضهم على بيعة قَطَرِي .

ذكر الخبر عن ذلك ، وعن السبب الذي من أجله حدث الاختلاف بينهم حتى صار أمرهم إلى هلاك : ذكر هشام عن أبي مخنف : عن يوسف بن يزيد ، أنّ المهلب أقام بسابور فقاتل قَطَرِيّاً وأصحابه من الأزارقة بعد ما صرف الحجاج عتاب بن وَرْقاء عن عسكره نحواً من سنة . ثم إنه زاحفهم يوم البُستان فقاتلهم قتالاً شديداً ، وكانت كِرْمان في أيدي الخوارج ، وفارس في يد المهلب ، فكان قد ضاق عليهم مكانهم الذي هم به ، لا يأتيهم من فارس مائة ، وبُعِدَتْ ديارهم عنهم ، فخرجوا حتى أتوا كِرْمان وتبعهم المهلب حتى نزل بجِيزَةَ - وجِيزَةُ مدينة كِرْمان - فقاتلهم بها أكثر من سنة قتالاً شديداً ، وحازهم عن فارس كلها ، فلما صارت فارس كلها في يدي المهلب بعث الحجاج عليها عماله وأخذها من المهلب ، فبلغ ذلك عبد الملك ، فكتب إلى الحجاج :

أما بعد ، فدع بيد المهلب خراج جبال فارس ، فإنه لا بد للجيش من قوة ، ولصاحب الجيش من معونة ، ودع له كورة فسأودرأبجرّد ، وكورة إصطخر . فبعث المهلب عليها عماله ، فكانت له قوة على عدوه وما يصلحه ، ففي ذلك يقول شاعر الأزد وهو يعاتب المهلب :

نقاتل عن قصور ذرأبجرّد ونجبي للمغيرة والرقاد

وكان الرقاد بن زياد بن همام - رجل من العتيك - كريماً على المهلب ، وبعث الحجاج إلى المهلب البراء بن قبيصة ، وكتب إلى المهلب :

أما بعد ، فإنك والله لو شئت فيما أرى لقد اصطلمت هذه الخارجة المارقة ، ولكنك تحب طول بقائهم لتأكل الأرض حولك ، وقد بعثت إليك البراء بن قبيصة لينهضك إليهم ، فانفض إليهم إذا قدم عليك بجميع المسلمين ، ثم جاهدوهم أشد الجهاد ، وإياك والعيل والأباطيل ، والامور التي ليست لك عندي بسائغة ولا جائزة ، والسلام .

فأخرج المهلب بينه ، كلّ ابن له في كتيبة ، وأخرج الناس على راياتهم ومصافهم وأخماسهم ، وجاء البراء بن قبيصة فوقف على تل قريب منهم حيث يراهم . فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب ، والرجال على الرجال ، فيقتلون أشدّ قتال رآه الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار ، ثم انصرفوا ، فجاء البراء بن قبيصة إلى المهلب فقال له : لا والله ما رأيت كبتك فرسانا قط ، ولا كفرسانك من العرب فرسانا قط ، ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك قط أصبر ولا أبأس ، أنت والله المعذور ، فرجع بالناس المهلب ، حتى إذا كان عند العصر خرج إليهم بالناس وبينه في كتائبهم ، فقاتلوه كقتالهم في أول مرة .

قال أبو مخنف : وحدثني أبو المغلس الكناني ، عن عمه أبي طلحة ، قال : خرجت كتيبة من كتائبهم لكتيبة من كتائبنا ، فاشتدّ بينهما القتال ، فأخذت كلّ واحدة منها لا تصدّ عن الأخرى ، فاقتلنا حتى حجز الليل بينهما ، فقالت إحداها للأخرى : ممن أنتم ؟ فقال هؤلاء : نحن من بني تميم ، وقال هؤلاء : نحن من بني تميم ، فانصرفوا عند المساء ، قال المهلب للبراء : كيف رأيت ؟ قال : رأيت قوماً والله ما يعينك عليهم إلا الله . فأحسن إلى البراء بن قبيصة وأجازه ، وحمله وكساه ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، ثم انصرف إلى الحجاج فاتاه بعذر المهلب ، وأخبره بما رأى ، وكتب المهلب إلى الحجاج :

أما بعد ، فقد أتاني كتاب الأمير أصلحه الله ، واتهامه إليّ في هذه الخارجة المارقة ، وأمرني الأمير بالنهوض إليهم ، وأشهد رسوله ذلك ، وقد فعلت ، فليسأله عما رأى ، فأما أنا فوالله لو كنت أقدر على استئصالهم وإزالتهم عن مكانهم ثم أمسكت عن ذلك لقد غششت المسلمين ، وما وفيت لأمر المؤمنين ، ولا نصحت للأمير - أصلحه الله - فمعاذ الله أن يكون هذا من رأيي ، ولا مما أدين الله به ، والسلام .

ثم إن المهلب قاتلهم بها ثمانية عشر شهراً لا يستقلّ منهم شيئاً ، ولا يرى في موطن يُنقعون له ولن معه من أهل العراق من الطعن والضرب ما يردّ غونهم به ويكفونهم عنهم .

ثم إن رجلاً منهم كان عاملاً لقطري على ناحية من كرمان خرج في سرية لهم يدعى المقعطر من بن ضبة ، فقتل رجلاً قد كان ذا بأس من الخوارج ، ودخل منهم في ولاية ، فقتله المقعطر ، فوثبت الخوارج إلى قطري ، فذكروا له ذلك ، وقالوا : أمكنّا من الضبيّ نقتله بصاحبنا ، فقال لهم : ما أرى أن أفعل ، رجل تأول فأخطأ في التأويل ما أرى أن تقتلوه ، وهو من ذوي الفضل منكم ، والسابقة فيكم ، قالوا : بلى ، قال لهم : لا ، فوقع الاختلاف بينهم ، فولوا عبد ربّ الكبير ، وخلعوا قطرياً ، وبايع قطرياً منهم عصابة نحواً من ربعمهم أو خمسهم ، فقاتلهم نحواً من شهر غدوة وعشية .

فكتب بذلك المهلب إلى الحجاج :

أما بعد ، فإن الله قد ألقى بأس الخوارج بينهم ، فخلع عظيمهم قطرياً وبايعوا عبد ربّ ، وبقيت عصابة منهم مع قطري ، فهم يقاتل بعضهم بعضاً غدو وعشيّاً ، وقد رجوت أن يكون ذلك من أمرهم سبب هلاكهم إن شاء الله ، والسلام .

فكتب إليه :

أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه اختلاف الخوارج بينها ، فإذا أتاك كتابي هذا فناهضهم على حال اختلافهم وافتراقهم قبل أن يجتمعوا ، فتكون مؤونتهم عليك أشدّ ، والسلام .

فكتب إليه :

أما بعد ، فقد بلغني كتاب الأمير ، وكلّ ما فيه قد فهمت ، ولست أرى أن أقاتلهم ما داموا يقتل بعضهم

بعضاً ، وينقص بعضهم عدّد بعض ، فإن تموا على ذلك فهو الذي نريد وفيه هلاكهم ، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلّا وقد رُقّق بعضهم بعضاً ، فأنهضهم على تهيئة ذلك ، وهم أهون ما كانوا وأضعفه شوكة ، إن شاء الله ، والسلام .

فكفّ عنه الحجاج ، وتركهم المهلب يقتتلون شهراً لا يحركهم .

ثم إن قَطْرِيَا خرج بمن اتبعه نحو طبرستان ، وبائع عامتهم عبد ربّه الكبير ، فنهض إليهم المهلب ، فقاتلوه قتالاً شديداً ، ثم إن الله قتلهم فلم ينجُ منهم إلّا قليل ، وأخذ عسكرهم وما فيه وسبوا لأنهم كانوا يسبون المسلمين . وقال كعب الأشقرى - والأشقر بطن من الأزد - يذكر يوم رامهرمز ، وأيام سابور ، وأيام جبرفت :

يا حفص إني عدّاني عنكم السفرُ
علقت يا كعب بعد الشبيب غانيةً
أمسك أنت عنها بالذي عهدت
علقت خوداً بأعلى الطفت منزلها
دُرمًا مناجبها رياء ما كمها
وقد تركت بشطّ الزابيين لها
وأخترت دارا بها حي أسر بهم
لما نبت بي يلاذي سرت متجعاً
أبا سعيد فاني جئت متجعاً
لولا المهلب ما زُرنّا بلادهم
فما من الناس من حي علمتهم
أحييتهم بسجال من نذاك كما
إني لأرجو إذا ما فاقة نزلت
فأجبر أخاً أو هي الفقر قوته
جفا ذوو نسبي عني وأخلفني
يا واهب القينة الحسناء سنّتها
وما تزال بدور منك رائحة
نماك للمجد أملاك ورثتهم
ثاروا بقتلى وأوتار تعدّدها
واستسلم الناس إذ حلّ العدو بهم
وما تجاوز باب الجسر من أحد
وأدخل الخوف أجواف البيوت على
واشتدت الحرب والبلوى وحلّ بنا
نظل من دون خفض معصمين بهم

وقد أرقّت فأذى عيني السهرُ
والشبيب فيه عن الأهواء مزّجرُ
أم حبلها إذ نأنتك اليوم منبتُ
في غرقة دونها الأبواب والحجرُ
تكاد إذ نهضت للمشي تنبتُ
دارا بها يسعد البادون والحضرُ
ما زال فيهم لمن نخترهم خيرُ
وطالب الخير مُرتاد ومُنطرُ
أرجو نوالك لما مسني الضرُ
ما دامت الأرض فيها الماء والشجرُ
إلا يرى فيهم من سيبيكم أثرُ
تحيا البلاد إذا ما مسها المطرُ
فضلا من الله في كفيك يتنيدُ
لعله بعد وهي العظم ينجرُ
ظني فليله ذري كيف آتيرُ
كالشمس هرّكولة في طرفها فترُ
وآخرون لهم من سيبك الغررُ
شمّ العرّانين في أخلاقهم يسرُ
في حين لا حدّ في الحرب يتثرُ
فما لأمرهم ورد ولا صدرُ
وعضت الحرب أهل المصير فانجحروا
مثل النساء رجال ما بهم غيرُ
أمر تشمر في أمثاله الأزرُ
فشمّر الشيخ لما أعظم الخطرُ

حَتَّى تَفَاقَمَ أَمْرٌ كَانَ يُحْتَقَرُ
 وَاسْتَنْفَرِ النَّاسُ تَارَاتٍ فَمَا نَفَرُوا
 عَنْهُ وَلَيْسَ بِهِ فِي مِثْلِهِ قِصَرُ
 فِيهِمْ صَنَائِعُ مِمَّا كَانَ يُدْخَرُ
 فَأَصْبَحُوا مِنْ وَرَاءِ الْجِسْرِ قَدْ عَبَرُوا
 وَتَحْتَهُنَّ لُيُوثٌ فِي الْوَعْيِ وَقُرُ
 بِرَامَهُزْمَزَ وَافَاهُمْ بِهَا الْخَبِرُ
 إِلَّا بَقَايَا إِذَا مَا ذُكِّرُوا ذَكَرُوا
 يَنْوِي الْوَفَاءَ وَلَمْ نَغْدِرْ كَمَا غَدَرُوا
 شُبَّتْ لَنَا وَلَهُمْ نَارٌ لَهَا شَرُّ
 جَنُّ نَقَارِعُهُمْ مَا مِثْلُهُمْ بَشَرُ
 مُسْتَأْنِفِي اللَّيْلِ حَتَّى أَسْفَرَ السَّحَرُ
 مِنَّا وَمِنْهُمْ دِمَاءٌ سَفَكَهَا هَدَرُ
 مِنَّا لِيُوثٌ إِذَا مَا أَقْدَمُوا جَسَرُوا
 عِنْدَ الطَّعَانِ وَلَا الْمَكْرُ الَّذِي مَكَّرُوا
 حَوْلَ الْمَهْلَبِ حَتَّى نَوَّرَ الْقَمَرُ
 وَحَالَ دُونَهُمُ الْأَنْهَارُ وَالْجَدُرُ
 بِكَازَرُونَ فَمَا عَزُّوا وَلَا ظَفَرُوا
 ظَنُّوا بِأَنْ يُنْصَرُوا فِيهَا فَمَا نُصِرُوا
 أَسَدٌ بِسَفْكِ دِمَائِ النَّاسِ قَدْ زَيَّرُوا
 فِيهِمْ عَلَى مَنْ يَقَاسِي حَرْبَهُمْ صَعَرُ
 وَالْعَاطِفِينَ إِذَا مَا ضَيَّعَ الدَّبَرُ
 وَلَوْ خَزَايَا وَقَدْ فُلُّوا وَقَدْ قَهَرُوا
 إِلَّا أَصَابَهُمْ مِنْ حَرْبِنَا ظَفَرُ
 تَرَوْحُ مِنَّا مَسَاعِيرُ وَتَبْتَكَرُ
 نَحْوَ الْحُرُوبِ فَمَا نَجَاهُمْ الْحَذَرُ
 ضَخْمُ الدَّسِيعَةِ لَا وَأَنْ لَا غُمُرُ
 لَا يُسْتَخَفُّ وَلَا مِنْ رَأْيِهِ الْبَطَرُ
 يُقَارِعُ الْحَرْبَ أَطْوَاراً وَيَأْتِمُرُ
 وَفِي اللَّيَالِي وَفِي الْأَيَّامِ مُعْتَبَرُ
 إِنَّ الْمُحَارِبَ يَسْتَأْنِي وَيَنْتَظَرُ
 وَقَدْ تَبَيَّنَ مَا يَأْتِي وَمَا يَذُرُ

كُنَّا نَهْوُونَ قَبْلَ الْيَوْمِ شَأْنَهُمْ
 لَمَّا وَهَنَّا وَقَدْ حَلُّوا بِسَاحَتِنَا
 نَادَى أَمْرُؤُ لَا خِلَافَ فِي عَشِيرَتِهِ
 أَفْشَى هِنَالِكَ مِمَّا كَانَ مَذْ عَصَرُوا
 تَلَبَّسُوا لِقِرَاعِ الْحَرْبِ بَزَّتْهَا
 سَارُوا بِالْوَيَّةِ لِلْمَجْدِ قَدْ رُفِعَتْ
 حَتَّى إِذَا خَلَفُوا الْأَهْوَاَ وَاجْتَمَعُوا
 نَعْيُ بَشَرِ فَجَالِ الْقَوْمِ وَانْصَدَعُوا
 ثُمَّ اسْتَمَرَّ بِنَا رَاضٍ بِبَيْعَتِهِ
 حَتَّى اجْتَمَعْنَا بِسَابُورِ الْجُنُودِ وَقَدْ
 نَلَقَى مَسَاعِيرَ أَبْطَالاً كَأَنَّهُمْ
 نُسْقَى وَنُسْقِيهِمْ سَمًّا عَلَى حَنْقِ
 قَتَلَى هِنَالِكَ لَا عَقْلٌ وَلَا قَوْدُ
 حَتَّى تَنَحَّوْا لَنَا عَنْهَا تَسْوِقَهُمْ
 لَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ غَدَاةَ التَّلِّ كَيْدُهُمْ
 بَاتَتْ كَتَائِبُنَا تَرْدِي مَسْوْمَةً
 هِنَاكَ وَلَوْ جِزَانًا بَعْدَ مَا فَرَحُوا
 عَبُّوا جُنُودَهُمْ بِالسَّفْحِ إِذْ نَزَلُوا
 وَقَدْ لَقُوا مَصْذَقًا مِنَّا بِمَنْزِلَةٍ
 بَدَشْتُ بَارِينَ يَوْمَ الشُّعْبِ إِذَا لُحِقَتْ
 لَاقُوا كِتَائِبَ لَا يُخْلَوْنَ تُغْرَهُمْ
 الْمَقْدِمِينَ إِذْ مَاخِيلَهُمْ وَرَدَتْ
 وَفِي جُبَيْرِينَ إِذْ صَفُّوا بِزَحْفِهِمْ
 وَاللَّهِ مَا نَزَلُوا يَوْمًا بِسَاحَتِنَا
 نَنْفِيهِمْ بِالْقِنَا عَنْ كُلِّ مَنْزِلَةٍ
 وَلَوْ حَذَارًا وَقَدْ هَزُّوا أَسِيتِنَا
 صَلَّتْ الْجَبِينَ طَوِيلُ الْبَاعِ ذُو فَرْحِ
 مُجَرَّبُ الْحَرْبِ مِمُّونٌ نَقِيبَتُهُ
 وَفِي ثَلَاثِ سَنِينَ يَسْتَدِيمُ بِنَا
 يَقُولُ إِنَّ غَدَاً مُبْدٍ لَنَاظِرَهُ
 دَعَاوُ التَّابَعِ وَالْأَسْرَاعِ وَارْتَقَبُوا
 حَتَّى أَتَتْهُ أُمُورٌ عِنْدَهَا فَرْجُ

لما زَوَاهُمْ إِلَى كَرَمَانَ وانصدعوا
 سرنا إليهم بمثل الموج وازدلفوا
 وزادنا حنقاً قَتَلَى نَذَكْرُهَا
 إذا ذَكْرنا جَرُوزاً والذين بها
 تأتي علينا حَزَازَاتُ النفوس فما
 ولا يُقِيلُونَنَا في الحرب عَشْرَتَنَا
 لَا عَذْرُ يُقْبَلُ مِنَّا دُونَ أَنْفُسِنَا
 صَفَانِ بِالْقَاعِ كَالطُّودَيْنِ بَيْنَهُمَا
 عَلَى بَصَائِرِ كُلِّ غَيْرُ تَارِكِهَا
 يَمْشُونَ فِي الْبَيْضِ وَالْأَبْدَانِ إِذْ وَرَدُوا
 وَشَيْخُنَا حَوْلَهُ مِنَّا مُلْمَلَمَةٌ
 فِي مَوْطِنٍ يَقْطَعُ الْأَبْطَالُ مَنَظَرَهُ
 مَا زَالَ مِنَّا رَجَالٌ ثُمَّ نَضْرِبُهُمْ
 وَبَادَ كُلُّ سِلَاحٍ يُسْتَعَانُ بِهِ
 نَدُّوهُمْ بِعَنَاجِيحٍ مُجَفَّفَةٍ
 يَغْشَيْنَ قَتْلَى وَعَقَرَى مَا بِهَا رَمَقٌ
 قَتَلَى بِقَتْلَى قِصَاصٌ يُسْتَقَادُ بِهَا
 مُجَاوِرِينَ بِهَا خَيْلًا مُعَقَّرَةً
 فِي مَعْرِكَةٍ تَحْسِبُ الْقَتْلَى بِسَاحَتِهِ
 وَفِي مَوَاطِنَ قَبْلَ الْيَوْمِ قَدْ سَلَفَتْ
 فِي كُلِّ يَوْمٍ ثَلَاثِي الْأَزْدُ مُفْطَعَةً
 وَالْأَزْدُ قَوْمِي خِيَارُ الْقَوْمِ قَدْ عِلَمُوا
 فِيهِمْ مَعَايِلُ مِنْ عَزْ يَلَادُ بِهَا
 حَيٌّ بِأَسْيَافِهِمْ يَبْغُونَ مَجْدَهُمْ
 لَوْلَا الْمَهْلَبُ لِلْجَيْشِ الَّذِي وَرَدُوا
 إِنَّا اعْتَصَمْنَا بِحَبْلِ اللَّهِ إِذْ جَحَدُوا
 جَارُوا عَنِ الْقَصْدِ وَالْإِسْلَامِ وَاتَّبَعُوا

وقال الطفيل بن عامر بن وائلة وهو يذكر قتلَ عبد ربه الكبير وأصحابه ، وذهاب قَطْرِي في الأرض

وَاتَّبَاعَهُمْ إِيَّاهُ وَمَرَاوِغَتَهُ إِيَّاهُمْ :

عِقَابٌ فَأَمْسَى سَبِيهِمْ فِي الْمَقَاسِمِ
 بِكَرْمَانَ عَنْ مَشْوَى مِنَ الْأَرْضِ نَاعِمِ
 طَرِيدٌ يَدَّوِي لَيْلَةَ غَيْرِ نَائِمِ

لَقَدْ مَسَّ مِنَّا عَبْدَ رَبِّ وَجَنَدُهُ
 سَمَا لَهُمْ بِالْجَيْشِ حَتَّى أَزَاحَهُمْ
 وَمَا قَطْرِي الْكُفْرَ إِلَّا نَعَامَةً

إذا فرّ منا هارباً كان وجهه طريقاً سوى قصد الهدى والمعالم
فليس بمنجيهِ الفرار وإن جرّت به الفلّك في لُجّ من البحر دائم

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة كانت هلكة قَطْرِيّ وعبيدة بن هلال وعبد ربّ الكبير ومن كان معهم من الازارقة .

ذكر سبب مهلكهم :

وكان سبب ذلك أنّ أمر الدين ذكرنا خبرهم من الازارقة لما تشبّت بالاختلاف الذي حدث بينهم بكرمان فصار بعضهم مع عبد ربه الكبير وبعضهم مع قَطْرِيّ ووَهْيَ أمر قَطْرِيّ ، توجه يريد طَبْرستان ، وبلغ أمره الحجاج ، فوجه - فيما ذكر هشام عن أبي مخنف ، عن يونس بن يزيد - سفيان بن الأبرد ، ووجه معه جيشاً من أهل الشام عظيمًا في طلب قَطْرِيّ ، فأقبل سفيان حتى أتى الرّي ثم أتبعهم . وكتب الحجاج إلى إسحاق بن محمد بن الأشعث وهو على جيش لأهل الكوفة بطبرستان ، إن اسمع وأطع لسفيان . فأقبل إلى سفيان فسار معه في طلب قَطْرِيّ حتى لحقوه في شُعْب من شُعاب طَبْرستان ، فقاتلوه ، ففرّق عنه أصحابه ، ووقع عن دابته في أسفل الشعب فتدهدى حتى خر إلى أسفله ، فقال معاوية بن محصن الكندي : رأيته حيث هوى ولم أعرفه ، ونظرت إلى خمس عشرة امرأة عربيّة هنّ في الجمال والبزاة وحسن الهيئة كما شاء ربك ، ما عدا عجوزاً فيهنّ ، فحملت عليهنّ فصرفتنّ إلى سفيان بن الأبرد .

فلما دنوت بهنّ منه انتحّت لي بسيفها العجوز فتضرب به عنقي ، فقطعت المغفر ، وقطعت جلدة من حلقي ، واختلج السيف فأضرب به وجهها ، فأصاب قحف رأسها ، فوقعت ميتة ، وأقبلت بالفتيات حتى دفعتهنّ إلى سفيان وإنه ليضحك من العجوز : وقال : ما اردت إلى قتل هذه اخزأها الله - فقلت : أو ما رأيته اصلحك الله ضربتها إياي ! والله إن كادت لتقتلني ، قال : قد رأيته ، فوالله ما ألومك على فعلك ، أبعدّها الله . ويأتي قَطْرِيّاً حيث تدهدى من الشعب علج من أهل البلد ، فقال له قَطْرِيّ : اسقني من الماء - وقد كان اشتد عطشه - فقال : اعطني شيئاً حتى اسقيك ، فقال : ويحك ، والله ما معي إلّا ما ترى من سلاحي ، فأنا مؤتبيكه إذا أتيتني بماء ، قال : لا بل أعطني الآن ، قال : لا ، ولكن اتيتني بماء قبل ، فانطلق العلج حتى اشرف على قَطْرِيّ ، ثم حذر عليه حَجراً عظيماً ، من فوقه دهذه عليه ، فأصاب إحدى رجليه فأوهته ، وصاح بالناس ، فأقبلوا نحوه ، والعلج حينئذ لا يعرف قَطْرِيّاً ، غير أنه يظنّ أنه من أشرافهم لحسن هيئته ، وكمال سلاحه ، فدفع إليه نفر من أهل الكوفة فابتدروه فقتلوه ، منهم سورة بن أبجر التميمي ، وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف ، والصباح بن محمد بن الأشعث ، وبإدام مولى بني الأشعث ، وعمر بن أبي الصلت بن كنّار مولى بني نصر بن معاوية ، وهو من الدهاقين ، فكل هؤلاء ادّعوا قتله ، فدفع إليهم أبو الجهم بن كنانة الكلبي - وكلهم يزعم أنه قتله - فقال لهم : ادفعوه إليّ حتى تصطلحوا ، فدفعوه إليّ .

فأقبل به إلى إسحاق بن محمد - وهو على أهل الكوفة - ولم يأت جعفر لشيء كان بينه وبينه قبل ذلك - وكان لا يكلمه ، وكان جعفر مع سفيان بن الأبرد ، ولم يكن معه إسحاق ، وكان جعفر على ربع أهل المدينة بالرّي ، فلما مرّ سفيان بأهل الرّي انتخب فرسانهم بأمر الحجاج ، فسار بهم معه ، فلما أتى القوم بالرأس فاخصموا فيه إليه وهو في يدي أبي الجهم بن كنانة الكلبي ، قال له : امض به انت ، ودع هؤلاء المختلفين ، فخرج برأس قَطْرِيّ حتى قدم به إلى الحجاج ، ثم أتى به عبد الملك بن مروان ، فالحق في الفين ، وأعطى فطماً - يعني أنه يفرض

للصغار في الديوان - وجاء جعفر إلى سُفيان فقال له : أصلحك الله ! إن قَطَرِيَا كان أصاب والذي فلم يكن لي همّ غيره ، فاجمع بيني وبين هؤلاء الذين ادّعوا قتله ، فسَلِّهم ، ألم أكن أمامهم حتى بدرتهم فضرَبته ضربةً فصرعته ، ثم جاؤوني بعد ، فأقبلوا يضربونه بأسيا فهِم ! فإن أقروا لي بهذا فقد صدّقوا ، وإن أبوا فأنا أحلف بالله أني صاحبه ، وإلا فليحلفوا بالله أنهم أصحابه الذين قتلوه ، وأنهم لا يعرفون ما أقول ، ولا حق لي فيه . قال : جئت الآن وقد سرّحنا بالرأس . فانصرفت عنه فقال له أصحابه : أما والله إنك لأخلق القوم أن تكون صاحبه .

ثم إن سُفيان بن الأبرد أقبل منصرفاً إلى عسكر عبيدة بن هلال ، وقد تحصن في قصر بقومس ، فحاصره فقاتله أياماً . ثم إن سُفيان بن الأبرد سار بنا إليهم حتى أحطنا بهم ، ثم أمر متاديه فنادى فيهم : أيما رجل قتل صاحبه ثم خرج إلينا فهو آمن ، فقال عبيدة بن هلال :

لَعْمَرِي لَقَدْ قَامَ الْأَصَمُّ بِخُطْبَةٍ	لَذَى الشُّكُّ مِنْهَا فِي الصُّدُورِ غَلِيلُ
لَعْمَرِي لَثْنُ أُعْطِيتُ سُفْيَانُ بَيْعَتِي	وَفَارَقْتُ دِينِي إِنَّنِي لَجَهْلُ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مَا تَرَى بِجِيَادِنَا	تَسَاوَكْ هَزَلِي مُخْهِنٌ قَلِيلُ
تَعَاوَرَهَا الْقَذَافُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ	بِقَوْمَسَ حَتَّى صَغِبُهُنَّ ذُلُولُ
فَإِنْ يَكُ أَفْنَاهَا الْحِصَارُ فَرُبَّمَا	تَشَحَّطَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ قَتِيلُ
وَقَدْ كُنَّ مِمَّا إِنْ يُقْذَنَ عَلَى الْوَجِي	لَهُنَّ بِأَبْوَابِ الْقِبَابِ صَهِيلُ

فحاصرهم حتى جهدوا ، وأكلوا دوابهم . ثم إنهم خرجوا إليه فقاتلوه ، فقتلهم وبعث برؤوسهم إلى الحجاج ، ثم دخل إلى دُنْبَاوْنَدَ وَطَبْرَسْتَانَ ، فكان هنالك حتى عزله الحجاج قبل الجماجم . قال أبو جعفر : وفي هذه السنة قَتَلَ بُكَيْرُ بْنُ وَشاح السعديّ أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد :

ذكر سبب قتله أياه :

وكان سبب ذلك - فيما ذكر علي بن محمد ، عن المفضل بن محمد - أن أمية بن عبد الله وهو عاملُ عبد الملك بن مروان على خراسان ، وليّ بكيراً غزوما وراء النهر ، وقد كان ولاه قبل ذلك طُخَارِسْتَانَ ، فتجهّز للخروج إليها وأنفق نفقةً كثيرةً ، فوشى به إليه بحير بن ورقاء الصَّرَمِيّ على ما بينت قبل ، فأمره أمية بالمقام . فلما ولّاه غزوما وراء النهر تجهّز وتكلف الخيل والسلاح ، وأدان من رجال السُّغْدِ وتجارهم ، فقال بحير لأمية : إن صار بينك وبينه النهر ولقى الملوك خلع الخليفة ودعا إلى نفسه ، فأرسل إليه أمية : أقم لعلي أغزو فتكون معي ، فغضب بكير وقال : كأنه يُضَارِّي . وكان عَتَابُ اللَّقْوَةِ الْغُدَانِيّ استدان ليخرج مع بكير ، فلما أقام أخذه غرماؤه ، فحبس فأذى عنه بُكَيْرٌ وخرج ، ثم أجمع أمية على الغزو . قال : فأمر بالجهاز ليغزو بخازي ، ثم يأتي موسى بن عبد الله بن خازم بالترمد ، فاستعدّ الناس وتجهّزوا ، واستخلف على خراسان ابنه زياداً ، وسار معه بكير فعسكر بكشماهن ، فأقام أياماً ، ثم أمر بالرحيل ، فقال له بحير : إني لا آمن أن يتخلف الناس فقل لبكير : فلتكن في الساقة ولتحشر الناس . قال : فأمره أمية فكان على الساقة حتى أتى النهر ، فقال له أمية : اقطع يا بكير ، فقال عَتَابُ اللَّقْوَةِ الْغُدَانِيّ : أصلح الله الأمير ! اعبّر ثم يعبر الناس بعدك . فعبّر ثم عبّر الناس ، فقال أمية لبكير : قد خفت ألا يضبط ابني عمله وهو غلام حدث ، فارجع إلى

مرو فاكفينها فقد وليتكمها ، فزئى ابني وقم بأمره . فانتخب بكير فرساناً من فرسان خراسان قد كان عرفهم ووثق بهم وعبر ، ومضى أمية إلى بخارى وعلى مقدمته أبو خالد ثابت مولى خزاعة . فقال عتاب اللقوة لبكير لما عبر وقد مضى أمية : إنا قتلنا أنفسنا وعشائرتنا حتى ضبطنا خراسان ، ثم طلبنا أميراً من قريش يجمع أمرنا ، فجاءنا أمير يلعب بنا يحولنا من سجن إلى سجن ، قال : فما ترى ؟ قال : أحرقت هذه السفن ، وامض إلى مرو فاخلع أمية ، وتقيم بمرو تأكلها إلى يوم ما ، قال : فقال الأحنف بن عبد الله العنبري : الرأي ما رأى عتاب ، فقال بكير : إني أخاف أن يهلك هؤلاء الفرسان الذين معي ، فقال : أتخاف عدم الرجال ! أنا أتيك من أهل مرو بما شئت إن هلك من هؤلاء الذين معك ، قال : يهلك المسلمون ، قال : إنما يكفئك أن ينادي مناد : من أسلم رفعنا عنه الخراج فيأتيك خمسون ألفاً من المصلين اسمع لك من هؤلاء وأطوع ، قال : فيهلك أمية ومن معه ، قال : ولم يهلكون ولهم عدة وعدد ونجدة وسلاح ظاهر وأداة كاملة ، ليقاتلوا عن أنفسهم حتى يبلغوا الصين ! فأحرق بكير السفن ، ورجع إلى مرو ، فأخذ بن أمية فحبسه ، ودعا الناس إلى خلع أمية فاجابوه ، وبلغ أمية ، فصالح أهل بخارى على فدية قليلة ، ورجع فأمر بالتحاذ السفن ، فالتحذت له وجمعت ، وقال لمن معه من وجوه تميم : ألا تعجبون من بكير ! إني قدمت خراسان فحدرتة ، ورفع عليه وشكى منه ، وذكروا أموالاً أصابها ، فأعرضت عن ذلك كله ، ثم لم أفتشه عن شيء ولا أحداً من عماله ، ثم عرضت عليه شرطي فأبى ، فأعفيتها ، ثم وليته فحدرتة ، فأمرته بالمقام وما كان ذلك إلا نظراً له ، ثم رددته إلى مرو ، ووليته الأمر ، فكفر ذلك كله ، وكافاني بما ترون . فقال له قوم : أيها الأمير . لم يكن هذا من شأنه ، إنما أشار عليه بإحراق عتاب اللقوة ، فقال : وما عتاب ! وهل عتاب إلا دجاجة حاضنة ، فبلغ قوله عتاباً ، فقال عتاب في ذلك :

إِنَّ الْحَوَاضِنَ تَلْقَاهَا مَجْفُفَةً	غَلَبَ الرَّقَابَ عَلَى الْمُنْسُوبَةِ النُّخْبِ
تَرَكْتَ أَمْرَكَ مِنْ جُبْنٍ وَمِنْ خَوَرٍ	وَجِئْتَنَا حُمُقاً يَا أَلَمَ الْعَرَبِ
لَمَّا رَأَيْتَ جِبَالَ السُّغْدِ مُعْرَضَةً	وَلَيْتَ مُوسَى وَنُوحاً عُكُوءَ السُّدْبِ
وَجِئْتَ ذِيخاً مُغِداً مَا تُكَلِّمُنَا	وَطِرْتَ مِنْ سَعَفِ الْبَحْرَيْنِ كَالْخَرَبِ
أَوْعِدْ وَعِيدُكَ إِنِّي سَوْفَ تَعْرِفُنِي	تَحْتَ الْخَوَافِقِ دُونَ الْعَارِضِ اللَّجَبِ
يَخُبُّ بِي مَشْرِفٌ عَارٍ نَوَاهِقُهُ	يَغْشَى الْكُتَيْبَةَ بَيْنَ الْعَدُوِّ وَالْحَبِّ

قال : فلما تهيأت السفن ، عبر أمية وأقبل إلى مرو ، وترك موسى بن عبد الله ، وقال : اللهم إني أحسنت إلى بكير ، فكفر إحساني ، وصنع ما صنع ، اللهم اكفنيه .

فقال شماس بن دثار - وكان رجع من سجستان بعد قتل ابن خازم ، فغزا مع أمية : أيها الأمير ، أنا أكفيكه إن شاء الله ، فقدمه أمية في ثمانمائة ، فأقبل حتى نزل باسان وهي لبني نصر ، وسار إليه بكير ومعه مدرك بن أنيف وأبوه مع شماس ، فقال : أما كان في تميم أحد يحاربني غيرك ! ولا مه . فأرسل إليه شماس : أنت ألوم وأسوأ صنيعاً مني ، لم تفب لأمية ولم تشكر له صنيعه بك ، قدم فأكرمك ولم يعرض لك ولا لأحد من عمالك .

قال : فبيته بكير ففرق جمعه وقال : لا تقتلوا منهم أحداً ، وخذوا سلاحهم ، فكانوا إذا اخذوا رجلاً سلبوه وخبأوه عنه ، فنفروا ، ونزل شماس في قرية لطيفة يقال لها : بويته ، وقدم أمية فنزل كشماهن ، ورجع

إليه شماس بن دثار فقدم أمية ثابت بن قطبة مولى خُزاعة ، فلقبه بكير فأسر ثابتاً وفرّق جمعه ، وخلي بكير سبيلاً ثابت ليد كانت له عنده . قال : فرجع إلى أمية ، فأقبل أمية في الناس ، فقاتله بكير وعلى شرطة بكير أبو رستم الخليل بن أوس العبشمي ، فأبلى يومئذ ، فنادوه : يا صاحب شرطة عارمة - وعارمة جارية بكير - فأحجم ، فقال له بكير : لا أبالك ، لا يهذك نداء هؤلاء القوم ، فإن للعارمة فحلاً يمنعها ، فقدم لواءك ، فقاتلوا حتى انحاز بكير فدخل الحائط ، فنزل السوق العتيقة ، ونزل أمية بأسان فكانوا يلتقون في ميدان يزيد ، فانكشفوا يوماً ، فحماهم بكير ، ثم التقوا يوماً آخر في الميدان ، فضرب رجل من بني تميم على رجله فجعل يسحبها ، وهريم يحميه ، فقال الرجل : اللهم أئدنا فأمدنا بالملائكة ، فقال له هريم : أيها الرجل ، قاتل عن نفسك ، فإن الملائكة في شغل عنك ، فتحامل ثم أعاد قوله : اللهم أمدنا بالملائكة ، فقال هريم : لتكفن عني أو لأدعنك والملائكة ، وحماه حتى ألحقه بالناس . قال : ونادى رجل من بني تميم : يا أمية ، يا فاضح قريش ، فإلى أمية إن ظفربه أن يذبحه ، فظفربه فذبحه بين شرفتين من المدينة ، ثم التقوا يوماً آخر ، فضرب بكير بن وشاح ثابت بن قطبة على رأسه وانتفى : أنا ابن وشاح ، فحمل حريث بن قطبة أخو ثابت على بكير ، فانحاز بكير ، وانكشف أصحابه ، وأتبع حريث بكيراً حتى بلغ القنطرة ، فناده : أين يا بكير ؟ فكر عليه ، فضربه حريث على رأسه ، فقطع المغفر ، وعصّ السيف برأسه ، فصرع ، فاحتمله أصحابه ، فادخلوه المدينة .

قال : فكانوا على ذلك يقاتلونهم ، وكان أصحاب بكير يغدون متفضلين في ثياب مصبغة ، وملاحف وأزر صفراء وحمراء ، فيجلسون على نواحي المدينة يتحدثون ، وينادي مناد : من رمى بسهم رمينا إليه برأس رجل من ولده وأهله ، فلا يرميهم أحد .

قال : فأشفق بكير ، وخاف إن طال الحصار أن يخذله الناس ، فطلب الصلح ، وأحب ذلك أيضاً أصحاب أمية لمكان عيالاتهم بالمدينة ، فقالوا لأمية : صالحه - وكان أمية يحب العافية - فصالحه على أن يقضي عنه أربعمئة ألف ، ويصل أصحابه ويؤليه أيضاً أي كور خراسان شاء ، ولا يسمع قول بحير فيه ، وإن رآه منه رتب فهو آمن أربعين يوماً حتى يخرج عن مرو ، فأخذ الأمان لبكير من عبد الملك ، وكتب له كتاباً على باب سنجان ، ودخل أمية المدينة .

قال : وقوم يقولون : لم يخرج بكير مع أمية غازياً ، ولكن أمية لما غزا استخلفه على مرو فخلعه ، فرجع أمية فقاتله ، ثم صالحه ودخل مرو ووفى أمية لبكير ، وعاد إلى ما كان عليه من الأكرام وحسن الأذن ، وأرسل إلى عتاب اللقوة ، فقال : أنت صاحب المشورة ، فقال : نعم أصلح الله الأمير ! قال : ولم ؟ قال : خفت ما كان في يدي ، وكثرت ديني ، وأعديت على غرمائي ، قال : ويحك ! فضربت بين المسلمين ، وأحرقت السفن والمسلمون في بلاد العدو ، وما خفت الله ! قال : قد كان ذلك ، فاستغفر الله ، قال : كم دينك ؟ قال : عشرون ألفاً ، قال : تكف عن غش المسلمين وأقضي دينك ؟ قال : نعم ، جعلني الله فداك ! قال : فضحك أمية وقال : إن ظني بك غير ما تقول ، وسأقضي عنك . فأدى عنه عشرين ألفاً ، وكان أمية سهلاً ليناً سخياً ، لم يعط أحد من عمال خراسان بها مثل عطاياه ، قال : وكان مع ذلك ثقيلاً عليهم ، كان فيه زهو شديد ، وكان يقول : ما أكتفي بخراسان وسجستان لمطبخي . وعزل أمية بحيرا عن شرطته ، وولاهاعطاء بن أبي السائب ، وكتب إلى عبد الملك بما كان من أمر بكير وصفحه عنه ، فضرب عبد الملك بعثاً إلى أمية بخراسان ، فتجاعل الناس ، فأعطى شقيق بن سليل الأسدي جعلته رجلاً من جرم ، وأخذ أمية الناس بالخراج ، واشتد عليهم

فيه ، فجلس بكيريوماً في المسجد وعنده ناسٌ من بني تميم ، فذكروا شدة أمية على الناس ، فذمّوه ، وقالوا : سلّط علينا الدّهاقين في الجباية وبَحِير وضرار بن حصين وعبد العزيز بن جارية بن قدامة في المسجد فنقل بحير ذلك إلى أمية فكذبه فادّعى شهادة هؤلاء ، وادّعى شهادة مُزاحم بن أبي المُجشر السلمي ، فدعا أمية مزاحماً فسأله فقال : إنه كان يمزح ، فاعرض عنه أمية ثم أتاه بحير فقال : اصلح الله الأمير ، إن بُكيرا والله قد دعاني إلى خلعتك ، وقال : لولا مكانك لقتلتُ هذا القرشي وأكلتُ خُراسانَ ، فقال أمية : ما أصدق بهذا وقد فعل ما فعل ، فأمتته ووصلته .

قال : فاتاه بضرار بن حصين وعبد العزيز بن جارية فشهدا أن بكيرا قال لهما : لو أطمعتماني لقتلتُ هذا القرشي المخنث ، وقد دعانا إلى الفتك بك . فقال أمية : أنتم أعلم وما شهدتم ، وما أظنّ هذا به وإن تركه ، وقد شهدتهم بما شهدتم عجزاً ، وقال : لحاجبه عبدة ولصاحب خُريسه عطاء بن أبي السائب : إذا دخل بكير ، وبدل وشمردل ابنا أخيه ، فنهضتُ فخذوهم . وجلس أمية للناس ، وجاء بكير وابنا أخيه ، فلما جلسوا قام عن سريره فدخل ، وخرج الناس وخرج بكير ، فحبسوه وابني أخيه ، فدعا أمية ببكير فقال : أنت القاتل كذا وكذا ؟ قال : تثبت أصلحك الله ولا تسمعن قول ابن المحلوقة ! فحبسه ، وأخذ جاريته العارمة فحبسها ، وحبس الأحنف بن عبد الله العنبري ، وقال : أنت ممن أشار على بُكير بالخلع .

فلما كان من الغد أخرج بُكيراً فشهد عليه بحيرٌ وضرار وعبد العزيز بن جارية أنه دعاهم إلى خلعه والفتك به ، فقال : أصلحك الله ! تثبت فإن هؤلاء أعدائي ، فقال أمية لزياد بن عُبّة - وهو رأس أهل العالية - ولابن والآن العدوي - وهو يومئذ من رؤساء بني تميم ليعقوب بن خالد الدّهلي : أتقتلون؟ فلم يجيبوه ، فقال لبَحِير : أتقتله؟ فقال : نعم ، فدفعه إليه ، فنهض يعقوب بن القَعْقاع الأعلم الأزدي من مجلسه - وكان صديقاً لبُكير - فاحتضن أمية ، وقال : أذكرك الله أيها الأمير في بكير ، فقد أعطيت ما أعطيت من نفسك ، قال : يا يعقوب ما يقتله إلا قومه ، شهدوا عليه ، فقال عطاء بن أبي السائب الليثي وهو على حرس أمية : خلّ عن الأمير ، قال : لا ، فضربه عطاء بقائم السيف ، فأصاب أنفه فأدماه ، فخرج ، ثم قال لبَحِير : يا بحير ، إن الناس اعطوا بكيراً ذمتهم في صلحه ، وأنت منهم ، فلا تخفر ذمتك ، قال : يا يعقوب ، ما أعطيت دمةً . ثم أخذ بحير سيف بكير الموصول الذي كان أخذه من أسوار الترجمان تَرْجُمان ابن خازم ، فقال له بكير : يا بحير ، إنك تُفرّق أمر بني سعد إن قتلتي ، فدع هذا القرشي يلي مني ما يريد ، فقال بحير : لا والله يابن الاصبھانية لا تصلح بنو سعد ما دُمنّا حينئذٍ ، قال : فشأنك يابن المحلوقة ، فقتله ، وذلك يوم الجمعة .

وقتل أمية ابني أخي بكير ، ووهب جارية بكير العارمة لبَحِير ، وكلّم أمية في الأحنف بن عبد الله العنبري ، فدعا به من السجن ، فقال : وأنت ممن أشار على بُكير ، وشتّمه ، وقال : قد وهبتك هؤلاء . قال : ثم وجه أمية رجلاً من خُزاعة إلى موسى بن عبد الله بن خازم ، فقتله عمرو بن خالد بن حصين الكلابي غيلة ، ففرّق جيشه ، فاستأمن طائفةٌ منهم موسى ، فصاروا معه ، ورجع بعضهم إلى أمية . وفي هذه السنة عبر النهر ، نهر بلخ أمية للغزو ، فحوّصر حتى جُهد هو وأصحابه . ثم نجوا بعدما أشرفوا على الهلاك ، فانصرف والذين معه من الجنّد إلى مرو ، وقال عبد الرحمن بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة يهجو أمية :

ألا أبلغ أمية أن سيُجزى ثواب الشرّ إن له ثواباً

سنة ٧٧ .. ٦١١

وَمَنْ يَنْظُرْ عِتَابَكَ أَوْ يُرِدْهُ
مَحَا الْمَعْرُوفَ مِنْكَ خِلَالَ سَوَاءٍ
وَمَنْ سَمَّاكَ إِذْ قَسَمَ الْأَسَامِي
فَلَسْتُ بِنَازِرٍ مِنْكَ الْعِتَابَا
مُنَحْتٍ صَنِيعَهَا بَاباً فَبَابَا
أُمِيَّةً إِذْ وُلِدَتْ فَقَدْ أَصَابَا

قال أبو جعفر : وحجَّ بالناس في هذه السنة أبان بن عثمان ، وهو أميرٌ على المدينة ، وكان على الكوفة والبصرة الحجاج بن يوسف ، وعلى خراسان أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد .
وحدثني أحمد بن ثابت ، عمن حدّثه ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، قال : حجَّ أبان بن عثمان وهو على المدينة بالناس حجّتين سنة ستّ وسبعين وسبع وسبعين .
وقد قيل : إنّ هلاك شبيب كان في سنة ثمان وسبعين ، وكذلك قيل في هلاك قَطَرِيّ وعبيدة بن هلال وعبد ربه الكبير .
وغزا في هذه السنة الصائفة الوليد .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين

ذكر الخبر عن الكائن في هذه السنة من الأحداث الجليلة .

فمن ذلك عزُّ عبد الملك بن مروان أمية بن عبد الله عن خراسان وضمه خراسان وسجستان إلى الحجاج بن يوسف . فلما ضم ذلك إليه فرق فيه عماله .

ذكر الخبر عن العمال الذين ولّاهم الحجاج خراسان وسجستان وذكر السبب في توليته من ولّاه ذلك وشيئاً منه

ذكر أنّ الحجاج لما فرغ من شبيب ومطرف شخّص من الكوفة إلى البصرة ، واستخلف على الكوفة المغيرة بن عبد الله بن أبي عقيل - وقد قيل : إنه استخلف عبد الرحمن بن عبد الله بن عامر الحضرمي ، ثم عزّله ، وجعل مكانه المغيرة بن عبد الله - فقدم عليه المهلب بها ، وقد فرغ من أمر الأزارقة .

فقال هشام : حدثني أبو مخنف عن أبي المخارق الراسبي ، أنّ المهلب بن أبي صفرة لما فرغ من الأزارقة قدّم على الحجاج - وذلك سنة ثمان وسبعين - فأجلسه معه ، ودعا بأصحاب البلاء من أصحاب المهلب ، فأخذ الحجاج لا يذكر له المهلب رجلاً من أصحابه ببلاء حسن إلا صدّقه الحجاج بذلك ، فحملهم الحجاج وأحسن عطاياهم ، وزاد في أعطياتهم ، ثم قال : هؤلاء أصحاب الفعال ، وأحقّ بالأموال ، هؤلاء همّة الثغور ، وغيظ الأعداء .

قال هشام عن أبي مخنف : قال يونس بن أبي إسحاق : وقد كان الحجاج ولي المهلب سجستان مع خراسان ، فقال له المهلب : ألا أدلك على رجل هو أعلم بسجستان مني ، وقد كان ولي كابل وزابل ، وجباهم وقاتلهم وصالحهم ؟ قال له : بلى ، فمن هو ؟ قال عبيد الله بن أبي بكر .

ثم إنه بعث المهلب على خراسان وعبيد الله بن أبي بكر على سجستان ، وكان العامل هنالك أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية ، وكان عاملاً لعبد الملك بن مروان ، لم يكن للحجاج شيء من أمره حين بعث على العراق حتى كانت تلك السنة ، فعزّله عبد الملك وجمع سلطانه للحجاج ، فمضى المهلب إلى خراسان ، وعبيد الله بن أبي بكر إلى سجستان ، فمكث عبيد الله بن أبي بكر بقية سنته .

فهذه رواية أبي مخنف عن أبي المخارق ، وأما علي بن محمد فإنه ذكر عن المفضل بن محمد أن خراسان وسجستان جمعتا للحجاج مع العراق في أول سنة ثمان وسبعين بعدما قتل الخوارج ، فاستعمل عبيد الله بن أبي

بَكْرَةَ عَلَى خُرَاسَانَ ، والمَهْلَبُ بْنُ أَبِي صَفْرَةَ عَلَى سِجِسْتَانَ ، فكره المهلب سِجِسْتَانَ ، فلقِيَ عبد الرحمن بن عبيد بن طارق العَبْشَمِيَّ - وكان على شُرْطَةِ الْحِجَاجِ - فقال : إِنَّ الْأَمِيرَ وَلَآئِي سِجِسْتَانَ ، وولى ابنُ أَبِي بَكْرَةَ خُرَاسَانَ ، وأنا أعرف بخُرَاسَانَ منه ، قد عرفتُها أيامَ الْحَكَمِ بْنِ عَمْرِو الْغِفَارِيِّ ، وابنُ أَبِي بَكْرَةَ أَقْوَى عَلَى سِجِسْتَانَ مِنِّي ، فَكَلَّمُ الْأَمِيرَ يَحْوِلُنِي إِلَى خُرَاسَانَ ، وابنُ أَبِي بَكْرَةَ إِلَى سِجِسْتَانَ ؛ قال : نعم ، وكَلَّمُ زَاذَانَ فَرُوخَ يُعِينُنِي ؛ فَكَلَّمَهُ ، فقال : نعم ، فقال عبد الرحمن بن عبيد للْحِجَاجِ : وَلَيْتَ الْمَهْلَبُ سِجِسْتَانَ وابنُ أَبِي بَكْرَةَ أَقْوَى عَلَيْهَا مِنْهُ ، فقال زَاذَانُ فَرُوخَ : صَدَقَ ، قال : إِنَّا قَدْ كَتَبْنَا عَهْدَهُ ، قال زَاذَانُ فَرُوخَ : مَا أَهْوَنُ تَحْوِيلُ عَهْدِهِ ! فَحَوَّلَ ابْنُ أَبِي بَكْرَةَ إِلَى سِجِسْتَانَ ، والمَهْلَبُ إِلَى خُرَاسَانَ ، وأخذ المهلبُ بِأَلْفِ أَلْفٍ مِنْ خُرَاجِ الْأَهْوَازِ ، وكان وَلَآهَ إِيَّاهُ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، فقال المهلبُ لابنِهِ الْمَغِيرَةَ : إِنَّ خَالِدًا وَلَآئِي الْأَهْوَازِ ، وَلَوْلَاكَ لَصُطَّخِرَ ، وقد أَخَذَنِي الْحِجَاجُ بِأَلْفِ أَلْفٍ ، فنَصَفْتُ عَلِيَّ وَنَصَفَ عَلِيكَ ، ولم يكن عند المهلبُ مَالٌ . كان إِذَا عَزَلَ اسْتَقْرَضَ ؛ قال : فَكَلَّمُ أَبَا مَؤَيَّةَ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ - وكان أَبُو مَؤَيَّةَ عَلَى بَيْتِ مَالِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ - فَاسْلَفَ الْمَهْلَبُ ثَلَاثِمِائَةَ أَلْفٍ ، فَقَالَتْ خَيْرَةُ الْقُشَيْرِيَّةُ امْرَأَةُ الْمَهْلَبِ : هَذَا لَا يَفِي بِمَا عَلَيْكَ ، فَبَاعَتْ حُلِيًّا لَهَا وَمَتَاعًا ، فَأَكْمَلَ خَمْسَمِائَةَ أَلْفٍ ، وحمل الْمَغِيرَةَ إِلَى أَبِيهِ خَمْسَمِائَةَ أَلْفٍ فَحَمَلَهَا إِلَى الْحِجَاجِ ، وَوَجَّهَ الْمَهْلَبُ ابْنَهُ حَبِيبًا عَلَى مَقْدَمَتِهِ ، فَأَتَى الْحِجَاجُ فَوَدَّعَهُ ، فَأَمَرَ الْحِجَاجُ لَهُ بِعَشْرَةِ أَلْفٍ وَبَغْلَةٍ خَضِرَاءَ ، قال : فَسَارَ حَبِيبٌ عَلَى تِلْكَ الْبَغْلَةِ حَتَّى قَدِمَ خُرَاسَانَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ عَلَى الْبَرِيدِ ، فَسَارَ عَشْرِينَ يَوْمًا ، فَتَلَقَّاهُمْ حِينَ دَخَلُوا حَمْلُ حَطَبٍ ، فَتَفَرَّتِ الْبَغْلَةُ فَتَعَجَّبُوا مِنْهَا وَمِنْ زَفَارِهَا بَعْدَ ذَلِكَ التَّعَبِ وَشِدَّةِ السَّيْرِ . فلم يعرض لأُمِيَّةَ وَلَا لِعَمَّالِهِ ، وَأَقَامَ عَشْرَةَ أَشْهُرٍ حَتَّى قَدِمَ عَلَيْهِ الْمَهْلَبُ سَنَةَ تِسْعٍ وَسَبْعِينَ .

وحجَّ بالناس في هذه السنة الوليدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، حَدَّثَنِي بِذَلِكَ أَحْمَدُ بْنُ ثَابِتٍ عَنْ ذَكَرِهِ ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عِيسَى ، عَنْ أَبِي مَعْشَرٍ .

وكان أميرُ المدينة في هذه السنة أَبَانُ بْنُ عُثْمَانَ ، وأميرُ الكوفة والبصرة وخُرَاسَانَ وسِجِسْتَانَ وِكِرْمَانَ الْحِجَاجُ بْنُ يَوْسُفَ ، وخليفَتُهُ بِخُرَاسَانَ الْمَهْلَبُ ، وبِسِجِسْتَانَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرَةَ ، وعلى قضاء الكوفة شُرَيْحٌ ، وعلى قضاء البصرة - فيما قيل - موسى بْنُ أَنَسٍ .
وأغزَى عبد الملك في هذه السنة يَحْيَى بْنَ الْحَكَمِ .

ثم دخلت سنة تسع وسبعين

ذكر ما كان فيها من الأحداث الجلييلة

فمن ذلك ما أصاب أهل الشام في هذه السنة من الطاعون حتى كادوا يفنّون من شدّته ، فلم يغزُ في تلك السنة أحدٌ - فيما قيل - للطاعون الذي كان بها ، وكثرة الموت .
وفيهما - فيما قيل - : أصابت الرومُ أهل أنطاكية .
وفيهما غزا عبيدالله بن أبي بكره رُتّيل .

ذكر الخبر عن غزوته إيّاه :

قال هشام : حدّثني أبو مخنف ، عن أبي المخارق الراسبي ، قال : لما ولّى الحجاجُ المهلبَ خراسان ، وعبيدالله بن أبي بكره سجستانَ ، مضى المهلبُ إلى خراسان وعبيدالله بن أبي بكره إلى سجستان ، وذلك في سنة ثمان وسبعين ، فمكث عبيدالله بن أبي بكره بقيّة سنته . ثم إنه غزا رُتّيل وقد كان مصالِحاً ، وقد كانت العرب قبل ذلك تأخذ منه خراجاً ، وربما امتنع فلم يفعل ، فبعث الحجاجُ إلى عبيدالله بن أبي بكره أن ناجزه بمن معك من المسلمين فلا ترجع حتى تستبيح أرضه ، وتهديم قلاعِهِ ، وتقتل مقاتلته ، وتسبي ذريته . فخرج بمن معه من المسلمين من أهل الكوفة وأهل البصرة ، وكان على أهل الكوفة شريح بن هانئ الحارثي ثم الضبابي ، وكان من أصحاب علي ، وكان عبيدالله على أهل البصرة ، وهو أمير الجماعة ، فمضى حتى وغل في بلاد رُتّيل ، فأصاب من البقر والغنم والأموال ما شاء وهدم قلاعاً وحُصوناً ، وغلب على أرض من أرضهم كثيرة ، وأصحاب رُتّيل من الترك يخلون لهم عن أرض بعد أرض ، حتى أمعنوا في بلادهم ودنوا من مدينتهم ، وكانوا منها ثمانية عشر فرسخاً ، فأخذوا على المسلمين العقاب والشعاب ، وخلّوهم والرّسّاتيق ، فسقط في أيدي المسلمين ، ووطنوا أن قد هلكوا ، فبعث ابن أبي بكره إلى شريح بن هانئ : إني مصالِح القوم على أن أعطيهم مالاً ، ويخلّوا بيني وبين الخروج ، فأرسل إليهم فصالحهم على سبعمائة ألف درهم ، فلقبه شريح فقال : إنك لا صالح على شيء إلاّ حسيبه السلطان عليكم في أعطيّايتكم ، قال : لو مُنِعنا العطاء ما حيينا كان أهون علينا من هلاكنا ؛ قال شريح : والله لقد بلغتُ سنّاً ، وقد هلكْتُ لِدّاتي ، ما تأتي إليّ ساعة من ليل أو نهار فأظنّها تمضي حتى أموت ، ولقد كنت أطلب الشهادة منذ زمان ، ولئن فاتتني اليوم ما إخالني مُدركها حتى أموت ، وقال : يا أهل الإسلام تعاونوا على عدوّكم ؛ فقال له ابن أبي بكره : إنك شيخ قد خرّفت ، فقال شريح : إنما حسبك أن يقال : بُستان ابن أبي بكره وحمّام ابن أبي بكره ، يا أهل الإسلام ، من أراد منكم الشهادة فليّ . فاتبعه ناسٌ

من المتطوعة غير كثير، وفُرسان الناس وأهل الحِفاظ، فقاتلوا حتى أصيبوا إلا قليلاً، فجعل شريح يرتجز يومئذ ويقول:

أصبحتُ ذا بَثٍّ أقاسي الكِبَرا	قد عِشتُ بين المشركين أعْصِرا
ثُمْتُ أدركتُ النبيَّ المُنْذِرا	وبعدَه صِدِّيقُهُ عُمَرا
ويومَ مِهْرانَ ويومَ تُسْتِرا	والجَمْعَ في صِفِّينِهم والنَّهْرا
وباجْمِيراتٍ مع المُشَقِّرا	هيهاتَ ما أطولَ هذا عُمَرا

فقاتل حتى قُتِلَ في ناس من أصحابه، ونجا من نجا، فخرجوا من بلاد رُبَيْل حتى خرجوا منها، فاستقبلهم مَنْ خرجوا إليهم من المسلمين بالأطعمة، فإذا أكلَ أحدهم وشبع مات، فلما رأى ذلك الناس حذروا يطعمونهم، ثم يطعمونهم السَّمْنَ قليلاً قليلاً، حتى استمروا. وبلغ ذلك الحجاج، فأخذه ما تقدّم وما تأخر، وبلغ ذلك منه كلّ مبلغ، وكتب إلى عبد الملك:

أما بعد، فإنَّ جُنْدَ أمير المؤمنين الذين بسجستان أصيبوا فلم يَنْجُ منهم إلا القليل، وقد اجترأ العدو بالذي أصابه على أهل الإسلام فدخلوا بلادهم، وغلبوا على حصونهم وقصورهم، وقد أردت أن أوجه إليهم جنداً كثيفاً من أهل المصريين، فأحببتُ أن أستطلع رأيَ أمير المؤمنين في ذلك، فإن رأى لي بعثة ذلك الجند أمضيته، وإن لم يَرِدْ ذلك فإنَّ أمير المؤمنين أولى بجنده، مع أيّ اتخوف إن لم يأت رُبَيْلَ ومن معه من المشركين جندٌ كثيف عاجلاً أن يستولوا على ذلك الفُرَجِ كلّهُ.

وفي هذه السنة قَدِمَ المهلبُ خُراسانَ أميراً، وانصرف عنها أمية بن عبد الله، وقيل استعفى شريح القاضي من القضاء في هذه السنة، وأشار بأبي بُرْدَةَ بن أبي موسى الأشعريّ، فأعفاه الحجاج ووفّى أبا بُرْدَةَ.

وحجَّ بالناس في هذه السنة - فيما حدّثني أحمد بن ثابت عمّن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر - أبان بن عثمان، وكذلك قال الواقدي وغيره من أهل السير.

وكان أبان هذه السنة أميراً على المدينة من قِبَلِ عبد الملك بن مروان وعلى العراق والمشرق كلّهُ الحجاج بن يوسف.

وكان على خُراسانَ المهلب من قِبَلِ الحجاج.

وقيل: إنّ المهلب كان على حربها، وابنه المغيرة على خراجها، وعلى قضاء الكوفة أبو بُرْدَةَ بن أبي موسى، وعلى قضاء البصرة موسى بن أنس.

ثم دخلت سنة ثمانين

ذكر الأحداث الجليلة التي كانت في هذه السنة

وفي هذه السنة جاء - فيما حدثت عن ابن سعد ، عن محمد بن عمر الواقدي - سيل بمكة ذهب بالحُجَّاج ، فغَرِقَتْ بيوت مكة فسمي ذلك العام عام الجُحَاف ، لأنَّ ذلك السيل جَحَفَ كلَّ شيء مرَّبه .

قال محمد بن عمر : حدَّثني محمد بن رفاعه بن ثعلبة ، عن أبيه ، عن جدِّه ، قال : جاء السيل حتى ذهب بالحُجَّاج ببطن مكة ، فسمى لذلك عام الجُحَاف ، ولقد رأيتُ الإبل عليها الحمولة والرجال والنساء تمرُّ بهم ما لأحد فيهم حيلة ، وإني لأنظر إلى الماء قد بلغ الركنَ وجاوزَه .

وفي هذه السنة كان بالبصرة طاعونُ الجارف ، فيما زعم الواقدي .

وفي هذه السنة قطع المهلب نهر بلخ فنزل على كِسِّ ، فذكر علي بن محمد ، عن المفضل بن محمد وغيره أنه كان على مقدِّمة المهلب حين نزل على كِسِّ أبو الأدهم زيادُ بنُ عمر والزَّمَّاني في ثلاثة آلاف وهم خمسة آلاف إلا أن أبا الأدهم كان يُغني غَنَاءَ ألفين في البأس والتدبير والنصيحة . قال : فأتى المهلب وهو نازل على كس ابن عم ملك الحُتَل ، فدعاه إلى غزو الحُتَل ، فوجَّه معه ابنه يزيد ، فنزل في عسكره ، ونزل ابن عم الملك وكان الملك يومئذ اسمه السُّبُل - في عسكره على ناحية ، فبيَّت السُّبُل ابن عمه ، فكبَّر في عسكره ، فظن ابن عم السُّبُل أن العرب قد غَدَرُوا به ، وأنهم خافوه على الغدر حين اعتزل عسكرهم ، فأسره السُّبُل ، فأتى به قلعته فقتله . قال : فأطاف يزيدُ بنُ المهلب بقلعة السُّبُل ، فصالحوه على فدية حَمَلوها إليه ، ورجع إلى المهلب فأرسلت أم الذي قتله السبل إلى أم السبل : كيف تَرَجِّين بقاء السبل بعد قتل ابن عمه ، وله سبعة إخوة قد وَثَرَهُمْ ! وأتت أم واحد فأرسلت إليها : إن الأسدَ تَقِلُّ أولادها ، والخنازير كثير أولادها .

ووجَّه المهلب ابنه حبيباً إلى رِبَنْجَن فوافي صاحب بُخَارَى في أربعين ألفاً ، فدعا رجل من المشركين إلى المبارزة ، فبرز له جَبَلَة غلام حبيب ، فقتل المشرك ، وحمل على جمعهم ، فقتل منهم ثلاثة نفر ، ثم رجع ورجع العسكر ، ورجع العدو إلى بلادهم ، ونزلت جماعة من العدو قرية ، فسار إليهم حبيب في أربعة آلاف ، فقاتلهم فظفر بهم ، فأحرقها ، ورجع إلى أبيه فسميت المحترقة . ويقال إن الذي أحرقها جَبَلَة غلام حبيب .

قال : فمكث المهلب سنتين مقيماً بكس ، قيل له : لو تقدَّمت إلى السغدوما وراء ذلك ! قال : ليت حَظِّي من هذه الغزوة سلامة هذه الجُند ، حتى يرجعوا إلى مَرو سائمين .

قال : وخرج رجل من العدو يوماً ، فسأله البراز ، فبرز إليه هريم بن عدي ، أبو خالد بن هريم وعليه

عمامةً قد شدّها فوق البَيْضة ، فانتهى إلى جَدُول ، فجاوله المشرك ساعة فقتله هُزيم وأخذ سَلْبَهُ ، فلامه المهلب ، وقال : لو أصبت ثم أمددت بألف فارس ما عدلوك عندي ، واتهم المهلب وهو بكسّ قوماً من مضر فحبسهم بها ، فلما قفل وصار صلح خلاهم ، فكتب إليه الحجاج : إن كنت أصبت بحبسهم فقد أخطأت في تخليتهم ؛ وإن كنت أصبت بتخليتهم فقد ظلمتهم إذ حبستهم . فقال المهلب : خفتهم فحبستهم ، فلما أمنت خليتهم .

وكان فيمن حبس عبد الملك بن أبي شيخ القشيري . ثم صالح المهلب أهل كِسْ على فدية ، فأقام ليقبضها ، وأتاه كتاب ابن الأشعث بخلع الحجاج ويدعوه إلى مساعدته على خلعه ، فبعث بكتاب ابن الأشعث إلى الحجاج .

وفي هذه السنة وجه الحجاج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى سجستان لحرب رُتبيل صاحب الترك ، وقد اختلف أهل السير في سبب توجيهه إياه إليها ، وأين كان عبد الرحمن يوم ولّاه الحجاج سجستان وحرب رُتبيل ، فأما يونس بن أبي اسحاق - فيما حدث هشام ، عن أبي مخنف عنه - فإنه ذكر أن عبد الملك لما ورد عليه كتاب الحجاج بن يوسف بخبر الجيش الذي كان مع عبيد الله بن أبي بكر في بلاد رُتبيل وما لقوا بها كتب إليه :

أما بعد ، فقد أتاني كتابك تذكر فيه مصاب المسلمين بسجستان ، وأولئك قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم ، وعلى الله ثوابهم . وأما ما أردت أن يأتيك فيه رأيي من توجيه الجنود وإمضائها إلى ذلك الفرج الذي أصيب فيه المسلمون أو كفها ، فإن رأيي في ذلك أن تمضي رأيك راشداً موثقاً . وكان الحجاج وليس بالعراق رجل أبغض إليه من عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وكان يقول : ما رأيته قط إلا أردت قتله .

قال أبو مخنف : فحدثني ثمر بن وعلة الهمداني ، ثم اليناعي ، عن الشعبي ، قال : كنت عند الحجاج جالساً حين دخل عليه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فلما رآه الحجاج قال : انظر إلى مشيئه ، والله لممت أن أضرب عنقه . قال : فلما خرج عبد الرحمن خرجت فسبقته وانتظرت على باب سعيد بن قيس السبيعي ، فلما انتهى إلي قلت : ادخل بنا الباب ، إني أريد أن أحدثك حديثاً هو عندك بأمانة الله أن تذكره ما عاش الحجاج .

فقال : نعم ، فأخبرته بمقالة الحجاج له ، فقال : وأنا كما زعم الحجاج إن لم أحاول أن أزيله عن سلطانه ، فأجهد الجهد إذ طال بي وبه بقاء .

ثم إن الحجاج أخذ في جهاز عشرين ألف رجل من أهل الكوفة ، وعشرين ألف رجل من أهل البصرة ، وجد في ذلك وشم ، وأعطى الناس أعطيائهم كملاً ، وأخذهم بالخيول الروائع ، والسلاح الكامل ، وأخذ في عرض الناس ، ولا يرى رجلاً تذكر منه شجاعة إلا أحسن معونته ، فمرّ عبيد الله بن أبي محجن الثقفي على عباد بن الحصين الحبطي ، وهو مع الحجاج يريد عبد الرحمن ابن أم الحكم الثقفي ، وهو يعرض الناس ، فقال عباد : ما رأيت فارساً أروع ولا أحسن من هذا ، وإن الفرس قوة وسلاح وإن هذه البغلة علندة ، فزاده الحجاج خمسين وخمسمائة درهم ، ومرّ به عطية العنبري ، فقال له الحجاج : يا عبد الرحمن ، أحسن إلى هذا . فلما استتب له أمر دُينك الجندين ، بعث الحجاج عطار بن عمر التميمي فعسكر بالأهواز ، ثم بعث عبيد

الله بن حجر بن ذي الجوشن العامري من بني كلاب . ثم بدا له ، فبعث عليهم عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث وعزل عبيدالله بن حجر ، فاتى الحجاج عمه إسماعيل بن الأشعث ، فقال له : لا تبعثه فإني أخاف خلافة ، والله ما جازَ جسر الفرات قط فرأى لوالٍ من الولاة عليه طاعةً وسلطاناً ، فقال الحجاج : ليس هناك ، هولي أهيب وفي أرغب من أن يخالف أمري ، أو يخرج من طاعتي ، فأمضاه على ذلك الجيش ، فخرج بهم حتى قدم سجستان سنة ثمانين ، فجمع أهلها حين قدّمها .

قال أبو مخنف : فحدثني أبو الزبير الأرحبي - رجل من همدان كان معه - أنه صعد منبرها فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إن الأمير الحجاج ولاني ثغركم ، وأمرني بجهد عدوكم الذي استباح بلادكم وأباد خياركم ، فإياكم أن يتخلف منكم رجل فيجلب بنفسه العقوبة ، اخرجوا إلى معسكركم فعسكروا به مع الناس . فعسكر الناس كلهم في معسكرهم ووضعت لهم الأسواق ، وأخذ الناس بالجهاز والهيئة بآلة الحرب ، فبلغ ذلك رتبيل ، فكتب إلى عبدالرحمن بن محمد يتعذر إليه من مصاب المسلمين ويخبره أنه كان لذلك كارهاً ، وأنهم ألقوه إلى قتالهم ، ويسأله الصلح ويعرض عليه أن يقبل منه الخراج ، فلم يجبه ولم يقبل منه . ولم ينشب عبد الرحمن أن سار في الجنود إليه حتى دخل أول بلاده ، وأخذ رتبيل يضم إليه جنده ، ويدع له الأرض رشتاقا رشتاقاً ، وحصناً حصناً ، وطبق ابن الأشعث كلما حويّ بلدًا بعث إليه عاملاً ، وبعث معه أعواناً ، ووضع البرد فيما بين كل بلد وبلد ، وجعل الأرصاذ على العقاب والشعاب ، ووضع المسالحي بكل مكان مخوف ، حتى إذا جاز من أرضه أرضاً عظيمة ، وملأ يديه من البقر والغنم والغنائم العظيمة ، حبس الناس عن الوغول في أرض رتبيل وقال : نكتفي بما أصبناه العام من بلادهم حتى نجيبها ونعرفها ، وتجترىء المسلمون على طرقيها ، ثم نتعاطى في العام المقبل ما وراءها ، ثم لم نزل تنتقصهم في كل عام طائفة من أرضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك على كنوزهم وذرائعهم ، وفي أقصى بلادهم ، وممتنع حصونهم ، ثم لا نزال بلادهم حتى يهلكهم الله .

ثم كتب إلى الحجاج بما فتح الله عليه من بلاد العدو ، وبما صنع الله للمسلمين ، وبهذا الرأي الذي رآه لهم .

وأما غير يونس بن أبي إسحاق وغير من ذكرت الرواية عنه في أمر ابن الأشعث فإنه قال في سبب ولايته سجستان ومسيره إلى بلاد رتبيل غير الذي رويت عن أبي مخنف ، وزعم أن السبب في ذلك كان أن الحجاج وجه هيمان بن عدي السدوسي إلى كرمان ، مسلحة لها ليمد عامل سجستان والسند إن احتاجا إلى مدد ، فعصى هيمان ومن معه ، فوجه الحجاج ابن الأشعث في محاربته ، فهزمه ، وأقام بموضعه .

ومات عبيد الله بن أبي بكر ، وكان عاملاً على سجستان ، فكتب الحجاج عهد ابن الأشعث عليها ، وجهز إليها جيشاً أنفق عليهم ألفي ألف سوى أعطياتهم ، كان يدعى جيش الطواويس ، وأمره بالإقدام على رتبيل .

وحج بالناس في هذه السنة أبان بن عثمان ، كذلك حدثني أحمد بن ثابت ، عم ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، وكذلك قال محمد بن عمر الواقدي .

وقال بعضهم : الذي حج بالناس في هذه السنة سليمان بن عبد الملك .

وكان على المدينة في هذه السنة أنان بن عثمان ، وعلى العراق والمشرق كله الحجاج بن يوسف ، وعلى

سنة ٨٠ ٦١٩

نُحراسان المهلب بن أبي صُفرة من قِبَل الحجاج ، وعلى قضاء الكوفة أبو بُرْدة بن أبي موسى ، وعلى قضاء البصرة موسى بن أنس .
وأغزى عبدُ الملك في هذه السنة ابنه الوليد .

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

ففي هذه السنة كان فتح قَالِيَقْلَا ، حَدَّثَنِي عمر بن شَبَّة ، قال : حَدَّثَنَا علي بن محمد ، قال : أغزى عبدُ الملك سنة إحدى وثمانين أبْنه عُبيدالله بن عبدالمملك ، ففتح قَالِيَقْلَا .
وفي هذه السنة قُتِلَ بِحِيرَ بن ورقاء الصَّرَمِيَّ بِخُرَاسَانَ .
ذكر الخبر عن مقتله :

وكان سببُ قتله أنَ بِحِيرَا كان هو الذي تولى قَتْلَ بُكَيْرِ بن وشاح بأمر أمية بن عبدالله إياه بذلك ، فقال عثمان بن رجاء بن جابر بن شداد أحدُ بني عوف بن سعد من الابناء يحضُّ رجلاً من الأبناء من آل بُكَيْرِ بالوَتَرِ :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَغْضَبْتَ عَيْنًا عَلَى الْقَدِي
وَحَلَّيْتُ ثَارًا طُلَّ وَاخْتَرْتُ نَوْمَةً
فَلَوْ كُنْتُ مِنْ عَوْفِ بن سَعْدٍ ذُوَابَةً
فَقُلْتُ لَبَحِيرَ نَمْ وَلَا تَخْشَ ثَائِرًا
دَعِ الضَّأْنَ يَوْمًا قَدْ سَبَقْتُمْ بِوَتَرِكُمْ
وَهَبُّوا فَلَوْ أَمْسَى بُكَيْرٌ كَعَهْدِهِ
وقال أيضاً :

فَلَوْ كَانَ بِكْرٌ بَارِزًا فِي أَذَاتِهِ
فَفِي الدَّهْرِ إِنْ أَبْقَانِي الدَّهْرُ مَطْلَبٌ
وَبَلَغَ بِحِيرَا أَنَّ الْأَبْنََاءَ يَتَوَعَّدُونَهُ ، فَقَالَ :

تَوَعَّدَنِي الْأَبْنََاءُ جَهْلًا كَأَنَّمَا
رَفَعْتُ لَهُ كَفِّي بِحَدِّ مُهْنَدٍ
يَرُونَ فَنَائِي مُقْفِرًا مِنْ بَنِي كَعْبٍ
حُسَامٍ كُلُّونَ الْمِلْحَ ذِي رَوْنِي عَضْبٍ

فذكر علي بن محمد ، عن المفضل بن محمد ، أن سبعة عشر رجلاً من بني عوف بن كعب بن سعد تعاقبوا على الطلب بدم بُكَيْرِ ، فخرج فتى منهم يقال له الشمرذل من البادية حتى قديم خُرَاسَانَ ، فنظر إلى بحير واقفاً ، فشدَّ عليه فطعنه فصرعه ، فظن أنه قد قتله ، وقال الناس : خارجي ، فراكضهم ، فعثر فرسه فنذر عنه فقتل .

ثم خرج صَعَصَعَةُ بن حرب العَوْفِيّ ، ثم أحد بني جُنْدُب ، من البادية وقد باع غَنِيَمَات له ، واشترى حماراً ، ومضى إلى سِجِسْتَانَ فجاور قَرَابَةَ لَبْحِير هناك ولا طَفْهَم ، وقال : أنا رجل من بني حنيفة من أهل اليمامة ، فلم يَزَلْ يَأْتِيهِمْ ويَجَالِسُهُمْ حتى أنسوا به ، فقال لهم : إن لي بخُراسان مِرثاً قد غُلِبْتُ عليه ، وبلغني أن بَحِيرَا عَظِيمُ القُدْرِ بخُراسان ، فاكْتُبُوا لي إليه كتاباً يُعَيِّنُنِي على طلب حقي ، فكتبوا إليه ، فخرج فَقَدِمَ مَرَوْ والمهَلْبَ غَاز . قال : فلقِي قوماً من بني عوف ، فأخبرهم أمره ، فقام إليه مولى لبكير صَيِّقِل ، فقبل رأسه ، فقال له صَعَصَعَةُ : اتخذ لي خَنْجِراً ، فعمل له خَنْجِراً وأحماه وَغَمَسَهُ لَبْنِ أَتَانٍ مِراراً ، ثم شَخَصَ من مَرَوْ فقطع النهر حتى أتى عَسْكَرَ المهَلْبِ وهو بأخرون يومئذ ، فلقِي بَحِيرَا بالكتاب ، وقال : إني رجل من بني حنيفة ، كنتُ من أصحاب ابن أبي بَكْرَةَ ، وقد ذهب مالي بِسِجِسْتَانَ ، ولي مِراثٌ بِمَرَوْ ، فقدمتُ لأبيعه ، وأرجع إلى اليمامة . قال : فأمر له بِنَفَقَةٍ وأنزله معه ، وقال له : استعِن بي على ما أَحْبَبْتَ قال : أَقِيمُ عِنْدَكَ حتى يقفل الناسُ ، فأقام شهراً أو نحواً من شهرٍ يَحْضُرُ معه بابُ المهَلْبِ ومَجْلِسُهُ حتى عرف به . قال : وكان بِحِيرٍ يخافُ القَتْلَ به ، ولا يَأْمَنُ أحداً ، فلما قَدِمَ صَعَصَعَةُ بِكِتَابِ أَصْحَابِهِ قال : هو رجلٌ من بكر بن وائل ، فأمنه ، فجاء يوماً وَبَحِيرٍ جالس في مجلس المهَلْبِ ، عليه قميص ورداء ونعلان ، فقعد خلفه ، ثم دنا منه ، فأكب عليه كأنه يكلمه ، فوجَّاه بِخَنْجَرِهِ في خاصرته ، فغَيَّبَهُ في جوفه ، فقال الناسُ : خارجي ! فنَادَى : يا لثارات بُكَيْر ، أنا ناثر ببكير ! فأخذه أَبُو العَجَفَاءِ بن أبي الحَرَقَاءِ ، وهو يومئذ على شَرَطِ المهَلْبِ فَأَتَى به المهَلْبَ فقال له : بُؤْساً لك ! ما أدركتُ بَثَّارَكَ ، وقتلتَ نَفْسَكَ ، وما على بَحِيرٍ بأس ، فقال : لقد طعنته طعنةً لو قُسمتُ بين الناس لَمَاتُوا ، ولقد وجدتُ رِيحَ بطنه في يدي ، فحَبَسَهُ فدخل عليه السجَنُ قومٌ من الابناء فقبَلُوا رأسه . قال : ومات بِحِيرٌ من غَدٍ عند ارتفاع النهار ، فقيل لصَعَصَعَةَ : مات بَحِيرٌ ، فقال : اصْنَعُوا بي الآن ما شِئْتُمْ ، وما بدا لكم ، أليس قد حَلَّتْ نُذُورُ نساء بني عوف ، وأدركتُ بَثَّارِي ! لا أبالي ما لقيت ، أما والله لقد أمكنني ما صنعتُ خالياً غَيْرَ مَرَّةٍ ، فكرهتُ أن أقتله سراً ، فقال المهَلْبُ : ما رأيتُ رجلاً أسخى نفساً بالموت صبراً من هذا ، وأمرَ بِقَتْلِهِ أبا سَوَيْفَةَ ابن عم لَبْحِيرٍ ، فقال له أنس بن طلق : وَيْحَكَ ! قَتَلَ بَحِيرٌ فلا تقتلوا هذا ، فأبى وَقَتْلَهُ ، فَشَتَّمَهُ أَنَسُ .

وقال آخرون : بعث به المهَلْبُ إلى بَحِيرٍ قبل أن يموت ، فقال له أنس بن طَلْقُ العَبْشَمِيّ : يا بَحِيرُ ، إنك قتلتَ بكيراً ، فاستحي هذا ، فقال بَحِيرٌ : ادنوه مِنِّي ، لا والله لا أموت وأنت حيّ ، فأدنوه منه ، فوضع رأسه بين رجليه وقال : أصبر عفاق ، إنه شرُّ باق ، فقال بن طلحة لَبْحِير : لعنك الله ، أكلمك فيه وتقتله بين يدي ! فطعنه بَحِيرٌ بسيفه حتى قَتَلَهُ ومات بَحِيرٌ ، فقال المهَلْبُ : إنا لله وإنا إليه راجعون ، غَزْوَةٌ أَصِيبَ بها بَحِيرٌ ، فغَضِبَ عوفُ بنُ كعبِ والأبناء وقالوا : علامَ قتل صاحبنا ، وإنما طلب بَثَّارُهُ ! فنازعتهُم مُّقَاعِسُ والبَطُونُ حتى خاف الناسُ أن يعظُمَ البأس ، فقال أهلُ الحِجْيِ : اجملوا دَمَ صَعَصَعَةَ ، واجعلوا دَمَ بَحِيرٍ بَوَاءَ بِبُكَيْرٍ بَحِيرٍ بَوَاءَ بِبُكَيْرٍ فَوَدَّوا صَعَصَعَةَ ، فقال رجل من الأبناء يَمْدَحُ صَعَصَعَةَ :

لِلَّهِ دُرٌّ فَتَى تَجَاوَزَ هَمَّهُ دُونَ الْعِرَاقِ مَفَاوِزاً وَبُحُوراً
مَا زَالَ يَذْأَبُ نَفْسَهُ وَيَكْذُهَا حَتَّى تَنَاقَلَ فِي خُرُونٍ بَحِيرَا

قال : وخرج عبدُ ربه الكبير أبو وَكَيْع ، وهو من رَهْطِ صَعَصَعَةَ إلى البادية ، فقال لِرَهْطِ بُكَيْرٍ ، قُتِلَ صَعَصَعَةُ بِطَلْبِهِ بِدَمِ صَاحِبِكُمْ ، فَوَدَّوهُ ، فأخذ لصَعَصَعَةَ دَيْتَيْنِ .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة خالف عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الحجاجَ ومَن معه من جُند العراق ، وأقبلوا إليه لحربه في قول أبي مخنف وروايته لذلك عن أبي المخارق الراسبي ، وأما الواقدي فإنه زعم أن ذلك كان في سنة اثنتين وثمانين .

ذكر الخبر عن السبب الذي دعا عبدالرحمن بن محمد إلى ما فعل من ذلك وما كان من صنيعه بعد خلافه الحجاج في هذه السنة :

قد ذكرنا فيما مضى قبل ما كان من عبد الرحمن بن محمد في بلاد رُبَيْل ، وكتابه إلى الحجاج بما كان منه هناك ، وبما عُرِض عليه من الرأي فيما يستقبل من أيامه في سنة ثمانين ، ونذكر الآن ما كان من أمره في سنة إحدى وثمانين في رواية أبي مخنف ، عن أبي المخارق .

ذكر هشام عن أبي مخنف قال : قال أبو المخارق الراسبي : كتب الحجاج إلى عبد الرحمن بن محمد جواب كتابه :

أما بعد ، فإن كتابك أتاني ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وكتابك كتاب امريء يحب الهدنة ، ويستريح إلى المودعة ، قد صانع عدواً قليلاً ذليلاً ، قد أصابوا من المسلمين جُنداً كان بلاؤهم حسناً ، وغناؤهم في الإسلام عظيماً . لعمرك يا بن أم عبدالرحمن ، إنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندي وحدي لسخى النفس عمن أصيب من المسلمين . إني لم أعد رأيك الذي زعمت أنك رأيته رأيي مكيدة ، ولكني رأيت أنه لم يملك عليه إلا ضعفك ، والتيأث رأيك ، فامض لما أمرتك به من الوجود في أرضهم ، والهديم لخصومهم ، وقتل مقاتلتهم ، وسبي ذرائعهم . ثم أردفه كتاباً فيه :

أما بعد ، فمَنْ قَبْلَكَ من المسلمين فليحرثوا وليقيموا ، فإنها دارهم حتى يفتحها الله عليهم . ثم أردفه كتاباً آخر فيه :

أما بعد ، فامض لما أمرتك به من الوجود في أرضهم ، وإلا فإن إسحاق بن محمد أخاك أمير الناس ، فخله وما وليته .

فقال حين قرأ كتابه : أنا أحمل ثقل إسحاق ، فعرض له ، فقال : لا تفعل ، فقال : ورب هذا - يعني المصحف - لئن ذكرته لأحد لاقتلنك . فظن أنه يريد السيف ، فوضع يده على قائم السيف ، ثم دعا الناس إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال . أيها الناس ، إني لكم ناصح ، ولصلاحيكم محب ، ولكم في كل ما يحيط بكم نفعه ناظر ، وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوكم رأيي استشرت فيه ذوي أحلامكم ، وأولى التجربة للحرب منكم ، فرضوه لكم رأياً ، ورأوه لكم في العاجل والأجل صلاحاً ، وقد كتبت إلى أميركم الحجاج ، فجاءني منه كتاب يعجزني ويضعفني ، ويأمرني بتعجيل الوجود بكم في أرض العدو ، وهي البلاد التي هلك إخوانكم فيها بالأمس ، وإنما أنا رجل منكم أمضي إذا مضيت ، وأبي إذا أبيتم . فثار إليه الناس فقالوا : لا ، بل نأبى على عدو الله ، ولا نسمع له ولا نطيع .

قال أبو مخنف : فحدثني مطرف بن عامر بن وائلة الكناني أن أباه كان أول متكلم يومئذ ، وكان شاعراً خطيباً ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أما بعد ، فإن الحجاج والله ما يرى بكم إلا ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه : احمل عبدك على الفرس ، فإن

هَلَكْ هَلَكْ ، وإن نجا فَلَكَ . إن الحَجَّاجَ والله ما يبالي أن يخاطر بكم فَيُقْجِمَكُم بلاداً كثير اللُّهوب واللُّصوب ، فإن ظفرتُم فغنمتم أَكَلِ البلادَ وحازَ المالَ ، وكان ذلك زيادة في سلطانه ، وأن ظفر عدوكم كنتُم أنتم الأعداء البُغضاء الذي لا يبالي عنتهم ، ولا يبقي عليهم ، اخلعوا عدو الله الحجاج وبايعوا عبد الرحمن ، فإني أشهدكم أني أول خالع . فنادى الناس من كل جانب ، فعلنا فعلنا ، قد خلعنا عدو الله ، وقام عبد المؤمن بن شَبْت بن ربعي التميمي ثانياً - وكان على شُرطته حين أقبل - فقال : عباد الله ، إنكم إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم ، وجرمكم تجمير فرعون الجنود ، فإنه بلغني أنه أول من جرَّ البُعوث ، ولن تعاينوا الأحبة فيما أرى أو يموت أكثركم . بايعوا أميركم ، وانصرفوا إلى عدوكم فانفوه عن بلادكم ، فوثب الناس إلى عبد الرحمن فبايعوه ، فقال : تبايعوني على خلع الحجاج عدو الله وعلى النصرة لي وجهاده معي حتى ينفيه الله من أرض العراق . فبايعه الناس ، ولم يذكر خلع عبد الملك إذ ذاك بشيء .

قال أبو مخنف : حدثني عمر بن ذر القاص أن أباه كان معه هنالك ، وأن ابن محمد كان ضربه وحبسه لانقطاعه كان إلى أخيه القاسم بن محمد ، فلما كان من أمره الذي كان من الخلاف دعاه فحمّله وكساه وأعطاه ، فأقبل معه فيمن أقبل ، وكان قاصاً خطيباً .

قال أبو مخنف : حدثني سيف بن بشر العجلي ، عن المنخل بن حابس العبدي أن ابن محمد لما أقبل من سجستان أمر على بُست عياض بن هميان البكري ، من بني سدوس بن شيان بن ذهل بن ثعلبة ، وعلى زرنج عبد الله بن عامر التميمي ثم الدارمي ، ثم بعث إلى رتبيل ، فصالحه على أن ابن الأشعث إن ظهر فلا خراج عليه أبداً ما بقي ، وإن هزم فأراد أن الجأه عنده .

قال أبو مخنف : حدثني خُشينة بن الوليد العبسي أن عبد الرحمن لما خرج من سجستان مقبلاً إلى العراق سار بين يديه الأعشى على فرس ، وهو يقول :

شَطَطَتْ نَوَى مِنْ دَارِهِ بِالْإِيوَانِ	إِيوَانٍ كَسَرَى ذِي الْقَرَى وَالرَّيْحَانِ
مِنْ عَاشِقٍ أَمْسَى بِزَابُلِسْتَانِ	إِنْ ثَقِيفاً مِنْهُمْ الْكَذَّابَانِ
كَذَّابُهَا الْمَاضِي وَكَذَابُ ثَانِ	أَمَكْنَ رَبِّي مِنْ ثَقِيفٍ هَمْدَانِ
يَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ يُسَلَّى مَا كَانَ	إِنَّا سَمَوْنَا لِلْكَفُورِ الْفَتَانِ
حِينَ طَغَى فِي الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ	بِالسَّيِّدِ الْغَطْرِيفِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
سَارَ بِجَمْعٍ كَالدُّبَى مِنْ قَحْطَانِ	وَمِنْ مَعِدٍ قَدْ أَتَى أَبْنَ عَدْنَانِ
بِجَحْفَلٍ جَمٍّ شَدِيدِ الْإِرْنَانِ	فَقُلْ لِحَجَّاجٍ وَلِيٍّ الشَّيْطَانِ
يُثْبِتُ لَجْمَعٍ مَذْجَجٍ وَهَمْدَانِ	فَإِنَّهُمْ سَأَفُوهُ كَأْسَ الدُّيْفَانِ

وَمُلِحُّوهُ بِقَرَى ابْنِ مَرْوَانَ

قال : وبعث على مقدمته عطية بن عمرو العنبري ، وبعث الحجاج إليه الخيل ، فجعل لا يلتقي خيلاً إلا هزمها ، فقال الحجاج : من هذا ؟ ف قيل له : عطية ، فذلك قول الأعشى :

فَإِذَا جَعَلَتْ دُرُوبٌ فَا	رَسَ خَلَفَهُمْ دُرْباً فَدَرَبَا
فَابْعَثْ عَطِيَّةً فِي الْخُبُو	لِ يَكْبُهُنَّ عَلَيْكَ كَبَا

ثم إن عبد الرحمن أقبل يسير بالناس ، فسأل عن أبي إسحاق السبيعي ، وكان قد كتبه في أصحابه ، وكان يقول : أنت خالي ، فقل له : ألا تأتيه فقد سأل عنك ! فكره أن يأتيه ، ثم أقبل حتى مرّ بكرمان فبعث عليهم خرشة بن عمرو التميمي ، ونزل أبو إسحاق بها ، فلم يدخل في فتنته حتى كانت الجماجم ، ولما دخل الناس فارس اجتمع الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا : إنا إذا خلعنا الحجاج عامل عبد الملك فقد خلعنا عبد الملك ، فاجتمعوا إلى عبد الرحمن ، فكان أول الناس .

قال أبو مخنف فيما حدثني أبو الصلت التيمي : خلع عبد الملك بن مروان تيحان بن أبجر من بني تيم الله ابن ثعلبة ، فقام فقال : أيها الناس ، إني خلعت أبا ذبيان كخلعي قميصي ، فخلعه الناس إلا قليلا منهم ، ووثبوا إلى ابن محمد فبايعوه ، وكانت بيعته : تبايعون على كتاب الله وسنة نبيه وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلين ، فإذا قالوا : نعم بايع . فلما بلغ الحجاج خلعه كتب إلى عبد الملك يخبره خبر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، ويسأله أن يعجل بعثة الجنود إليه ، وبعث كتابه إلى عبد الملك يتمثل في آخره بهذه الأبيات ، وهي للحارث بن ويلة :

سائل مجاور جرم هل جئت لهم حرباً تفرق بين الجيرة الخلط
وهل سموت بجزار له لجب جم الصواهل بين الجم والفراط
وهل تركت نساء الحي ضاحية في ساحة الدار يستوقذن بالغبط

وجاء حتى نزل البصرة . وقد كان بلغ المهلب شقاق عبد الرحمن وهو بسجستان ، فكتب إليه : أما بعد ، فإنك وضعت رجلك يا بن محمد في غرطويل الغي على أمة محمد ﷺ . الله الله فانظر لنفسك لا تمهلكها ، ودماء المسلمين فلا تسفكها ، والجماعة فلا تفرقها ، والبيعة فلا تنكثها ، فإن قلت : أخاف الناس على نفسي فالله أحق أن تخافه عليها من الناس ، فلا تعرضها لله في سفك دم ، ولا استحلال محرم والسلام عليك .

وكتب المهلب إلى الحجاج :

أما بعد فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السيل المنحدر من عل ، وليس شيء يردّه حتى ينتهي إلى قراره ، وإن لأهل العراق شرة في أول مخرجهم وصباة إلى أبنائهم ونسائهم ، فليس شيء يردّهم حتى يسقطوا إلى أهليهم ، ويشموا أولادهم ، ثم واقفهم عندها ، فإن الله ناصرك عليهم إن شاء الله .

فلما قرأ كتابه قال : فعل الله به وفعل ، لا والله ما لي نظر . ولكن لابن عمه نصح . لما وقع كتاب الحجاج إلى عبد الملك هاله ثم نزل عن سريره وبعث إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، ودعاه فأقرأه الكتاب ، ورأى ما به من الجزع ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كان هذا الحدث من قبل سجستان ، فلا تخفه ، وإن كان من قبل خراسان تخوفته . قال : فخرج إلى الناس فقام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إن أهل العراق طال عليهم عمري فاستعجلوا قدري . اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام حتى يبلغوا رضاك ، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك . ثم نزل .

وأقام الحجاج بالبصرة وتجهز ليلقى ابن محمد ، وترك رأي المهلب وفرسان الشام يسقطون إلى الحجاج ، في كل يوم مائة وخمسون عشرة وأقل على البرد من قبل عبد الملك ، وهو في كل يوم تسقط إلى عبد الملك كتبه ورسله بخبر ابن محمد أي كورة نزل ، ومن أي كورة يرثل ، وأي الناس إليه أسرع .

قال أبو مخنف: حدثني فضيل بن خديج أن مكتبه كان بكرمان ، وكان بها أربعة آلاف فارس من أهل الكوفة وأهل البصرة ، فلما مر بهم ابن محمد بن الأشعث ، انجلفوا معه ، وعزم الحجاج رأيته على استقبال ابن الأشعث ، فسار بأهل الشام حتى نزل تُسْتَر ، وقدم بين يديه مطهر بن حَر العُكِّي - أو الجُدَامِي - وعبدالله بن رُمَيْث الطائِي ، ومطهر على الفريقين ، فجاءوا حتى انتهوا إلى دُجَيْل ، وقد قطع عبدالرحمن بن محمد خيلاً له ، عليها عبد الله بن أبان الحارثي في ثلاثمائة فارس - وكانت مسلحة له وللجند - فلما انتهى إليه مطهر بن حَر أمر عبدالله بن رُمَيْث الطائِي فأقدم عليهم ، فهزمت خيل عبدالله حتى انتهت إليه ، وجرح أصحابه .

قال أبو مخنف : فحدثني أبو الزبير الهمداني ، قال : كنت في أصحاب ابن محمد إذ دعا الناس وجمعهم إليه ثم قال : اعبروا إليه من هذا المكان ، فأقحم الناس خيولهم دُجَيْل من ذلك المكان الذي أمرهم به ، فوالله ما كان بأسرع من أن عبر عظم خيولنا ، فما تكاملت حتى حملنا على مطهر بن حَر والطائِي فهزمنهما يوم الأضحى في سنة إحدى وثمانين وقتلناهم قتلاً ذريعاً ، وأصبنا عسكرهم ، وأتت الحجاج الهزيمة . وهو يخطب ، فصعد إليه أبو كعب بن عُبيد بن سَرَجس فأخبره بهزيمة الناس ، فقال : أيها الناس ، ارتحلوا إلى البصرة إلى معسكر ومقاتل وطعام ومادة ، فإن هذا المكان الذي نحن به لا يحمل الجند . ثم انصرف راجعاً وتبعته خيول أهل العراق ، فكلما أدركوا منهم شاذاً قتلوه ، وأصابوا ثِقلاً حووه ، ومضى الحجاج لا يلوي على شيء حتى نزل الزاوية ، وبعث إلى طعام التجار بالكلأ فآخذة فحملة إليه ، وخلي البصرة لأهل العراق . وكان عامله عليها الحَكَم ابن أيوب بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي ، وجاء أهل العراق حتى دخلوا البصرة . وقد كان الحجاج حين صدم تلك الصدمة وأقبل راجعاً دعا بكتاب المهلب ، فقرأه ثم قال : لله أبوه ! أي صاحب حرب هو ! أشار علينا بالرأي ، ولكننا لم نقبل .

وقال غير أبي مخنف : كان عامل البصرة يومئذ الحَكَم بن أيوب على الصلاة والصدقة ، وعبد الله بن عامر بن مسمع على الشرط ، فسار الحجاج في جيشه حتى نزل رُسْتَبَاز وهي من دَسْتَو من كور الأهواز ، فعسكر بها ، وأقبل ابن الأشعث فنزل تُسْتَر ، وبينهما نهر ، فوجه الحجاج مُطَهْر بن حَر العُكِّي في ألفي رجل ، فأوقعوا بمسلة لأبن الأشعث ، وسار ابن الأشعث مبادراً ، فواقعهم ، وهي عشية عرفة من سنة إحدى وثمانين ، فيقال : إنهم قتلوا من أهل الشام ألفاً وخمسمائة ، وجاءه الباقيون منهزمين ، ومعه يومئذ مائة وخمسون ألف ألف ، وفرقها في قواده ، وضمهم إليها ، وأقبل منهزماً إلى البصرة وخطب ابن الأشعث أصحابه فقال : أما الحجاج فليس بشيء ، ولكننا نريد غزو عبد الملك ، وبلغ أهل البصرة هزيمة الحجاج ، فأراد عبد الله بن عامر بن مسمع أن يقطع الجسر دونه ، فرشاه الحَكَم بن أيوب مائة ألف ، فكف عنه . ودخل الحجاج البصرة . فأرسل إلى ابن عامر فانتزع المائة ألف منه .

رَجَعَ الحديث إلى حديث أبي مخنف عن أبي الزبير الهمداني .

فلما دخل عبدالرحمن بن محمد البصرة بايعه على حرب الحجاج ، وخلع عبدالملك جميع أهلها من قرائها وكهولها ، وكان رجل من الأزدي من الجَهَاضِم يقال له عُقْبَة بن عبدالغافر له صحابة ، فزأ فبايع عبدالرحمن مستبصراً في قتال الحجاج ، وخذق الحجاج عليه ، وخذق عبدالرحمن على البصرة . وكان دخول عبدالرحمن البصرة في آخر ذي الحجة من سنة إحدى وثمانين .

وحج بالناس في هذه السنة سليمان بن عبد الملك ، كذا حدثني أحمد بن ثابت ، عمن ذكره ، عن

إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر. وكذلك قال الواقدي، وقال: في هذه السنة وُلد ابن أبي ذئب.
 وكان العامل في هذه السنة على المدينة أبان بن عثمان، وعلى العراق والمشرق الحجاج بن يوسف، وعلى
 حرب خراسان المهلب، وعلى خراجها المغيرة بن مهلب من قبل الحجاج، وعلى قضاء الكوفة أبو بردة بن أبي
 موسى، وعلى قضاء البصرة عبد الرحمن بن أذينة.

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين ذكر الخبر عن الكائن من الأحداث فيها

فمن ذلك ما كان بين الحجاج وعبد الرحمن بن محمد من الحروب بالزواوية .
ذكر هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ، قال : حدثني أبو الزبير الهمداني قال : كان دخول عبد الرحمن البصرة في آخر ذي الحجة ، واقتتلوا في المحرم من سنة اثنتين وثمانين ، فتزاحفوا ذات يوم ، فاشتد قتالهم . ثم إن أهل العراق هزموهم حتى انتهوا إلى الحجاج ، وحتى قاتلوهم على خنادقهم ، وانهمزمت عامة قريش وثقيف ، حتى قال عبيد بن موهب مولى الحجاج وكاتبه :

فر البراء وابن عمه مضعب وفرت قريش غير آل سعيد

ثم إنهم تزاحفوا في المحرم في آخره في اليوم الذي هزم فيه أهل العراق أهل الشام ، فنكصت ميمنتهم وميسرتهم ، واضطربت رماحهم ، وتقوض صفهم ، حتى دنوا منا ، فلما رأى الحجاج ذلك جثا على ركبتيه ، وانتضى نحواً من شبر من سيفه ، وقال : لله در مضعب ! ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل ! فعلمت أنه والله لا يريد أن يفر . قال : فغمزت أبي بعيني لياذن لي فيه فأضربه بسيفي ، فغمزني غمزة شديدة ، فسكنت ، وحانت مني التفاتة ، فإذا سُفَيان بن الأبرد الكلبي قد حمل عليهم فهزمهم من قبل الميمنة ، فقلت : أبشر أيها الأمير ، فإن الله قد هزم العدو . فقال لي : قم فانظر ، قال : فقممت فنظرت ، فقلت : قد هزمهم الله ، قال : قم يا زياد فانظر ، قال : فقام فنظر فقال : الحق أصلحك الله يقيناً قد هزموا ، فخر ساجداً ، فلما رجعت شتمني أبي وقال : أردت أن تهلكني وأهل بيتي . وقتل في المعركة عبد الرحمن بن عوسجة أبو سُفَيان النهمي ، وقتل عقبة بن عبد الغافر الأزدي ثم الجهضمي ، في أولئك القراء في ربضة واحدة ، وقتل عبد الله بن رزام الحارثي ، وقتل المنذر بن الجارود ، وقتل عبد الله بن عامر بن مسمع ، وأتي الحجاج برأسه ، فقال : ما كنت أرى هذا فارقي حتى جاءني الآن برأسه ، وبارز سعيد بن يحيى بن سعيد بن العاص رجلاً يومئذ فقتله ، وزعموا أنه كان مولى للفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، كان شجاعاً يدعى نصيراً ، فلما رأى مشيته بين الصفين ، وكان يلومه على مشيته قال : لا ألومه على هذه المشية أبداً . وقتل الطفيل بن عامر بن واثلة ، وقد كان قال وهو بفارس يُقبل مع عبد الرحمن من كرمان إلى الحجاج :

ألا طرقتنا بالغرئين بعد ما كَلَلْنَا على شحط المزار جنوب

قال أبو مخنف : فحدثني هشام بن أيوب بن عبد الرحمن بن أبي عقيل الثقفي أن الحجاج أقام بقية المحرم وأول صفر ، ثم استعمل على البصرة أيوب بن الحكم بن أبي عقيل ، ومضى ابن الأشعث إلى الكوفة ، وقد كان الحجاج خلف عبد الرحمن بن عبد الله بن عامر الحضرمي ، حليف حرب ابن أمية على الكوفة .

قال أبو مخنف - كما حدثني يونس بن أبي إسحاق : إنه كان على أربعة آلاف من أهل الشام . قال أبو مخنف : فحدثني سهم بن عبد الرحمن الجهمي أنهم كانوا ألفين ، وكان حنظلة بن الورد من بني رياح بن يربوع التميمي ، وابن عتاب بن ورقاء على المدائن ، وكان مطر بن ناجية من بني يربوع على المعونة ، فلما بلغه ما كان من أمر ابن الأشعث أقبل حتى دنا من الكوفة ، فتحصن منه ابن الحضرمي في القصر ، ووثب أهل الكوفة مع مطر بن ناجية بابن الحضرمي ومن معه من أهل الشام فحاصروهم ، فصالحوه على أن يخرجوا ويحلّوه والقصر ، فصالحهم .

قال أبو مخنف : فحدثني يونس بن أبي إسحاق أنه رأى أنهم ينزلون من القصر على العجل ، وفتح باب القصر لمطر بن ناجية ، فازدحم الناس على باب القصر ، فزحم مطر على باب القصر ، فاختلط سيفه ، فضر به جحفة بغل من بغال أهل الشام وهم يخرجون من القصر ، فألقى جحفته ودخل القصر ، واجتمع الناس عليه فأعطاهم مائتي درهم . قال يونس : وأنا رأيتهما تقسم بينهم ، وكان أبو السقر فيمن أعطاها . وأقبل ابن الأشعث منهزماً إلى الكوفة ، وتبعه الناس إليها .

قال أبو جعفر : وفي هذه السنة كانت وقعة دير الجماجم بين الحجاج وابن الأشعث في قول بعضهم . قال الواقدي : كانت وقعة دير الجماجم في شعبان من هذه السنة ، وفي قول بعضهم : كانت في سنة ثلاث وثمانين .

ذكر الخبر عن ذلك وعن سبب مصير ابن الأشعث إلى دير الجماجم وذكر ما جرى بينه وبين الحجاج

بها :

ذكر هشام عن أبي مخنف : قال : حدثني أبو الزبير الهمداني ثم الارحبي ، قال : كنت قد أصابني جراحة ، وخرج أهل الكوفة يستقبلون ابن الأشعث حين أقبل ، فاستقبلوه بعدما جاز قنطرة زبارا ، فلما دنا منها قال لي : إن رأيت أن تعدل عن الطريق - فلا يرى الناس جراحتك فإني لا أحب أن يستقبلهم الجرحى - فافعل . فعدلت ودخل الناس ، فلما دخل الكوفة مال إليه أهل الكوفة كلهم ، وسبقت همدان إليه ، فحقت به عند دار عمرو بن حريث إلا طائفة من تميم ليسوا بالكثير قد أتوا مطر بن ناجية ، فأرادوا أن يقتلوا دونه ، فلم يطبقوا قتال الناس . فدعا عبد الرحمن بالسلاليم والعجل ، فوضعت ليصعد الناس القصر ، فصعد الناس القصر فأخذوه ، فأتي به عبد الرحمن بن محمد ، فقال له : استبقي فإني أفضل فرسانك وأعظمهم عنك غناء ، فأمر به فحبس ، ثم دعا به بعد ذلك فعفا عنه . وبأيعه مطر ، ودخل الناس إليه فبايعوه ، وسقط إليه أهل البصرة ، وتقوضت إليه المساليج والشغور ، وجاءه فيمن جاءه من أهل البصرة عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وعرف بذلك ، وكان قد قاتل الحجاج بالبصرة بعد خروج ابن الأشعث ثلاثاً ، فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان ، فقال : قاتل الله عديي الرحمن ، إنه قد فزأ وقاتل غلماناً من غلمان قريش بعده ثلاثاً . وأقبل الحجاج من البصرة فسار في البر حتى مر بين القادسية والعديب ، ومنعوه من نزول

القادسيّة ، وبعث إليه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث عبد الرحمن بن العباس في خيل عظيمة من خيل المصريين فمنعوه من نزول القادسيّة ، ثم سايروه حتى ارتفعوا على وادي السباع ، ثم تسايروا حتى نزل الحجاج دير قرة ، ونزل عبد الرحمن بن العباس دير الجماجم ، ثم جاء ابن الأشعث فنزل بدير الجماجم والحجاج بدير قرة ، كان الحجاج بعد ذلك يقول : أما كان عبد الرحمن يزجر الطير حيث رأي نزلت دير قرة ونزل دير الجماجم !

واجتمع أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الثغور والمسالح بدير الجماجم والقراء من أهل المصريين ، فاجتمعوا جميعاً على حرب الحجاج ، وجمعهم عليه بغضهم والكراهية له ، وهم إذ ذاك مائة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء ، ومعهم مثلهم من مواليهم . وجاءت الحجاج أيضاً أمداؤه من قبل أن ينزل دير قرة ، وقد كان الحجاج أراد قبل أن ينزل دير قرة أن يرتفع إلى هيت وناحية الجزيرة لإرادة أن يقترب من الشام والجزيرة فيأتيه المدد من الشام من قريب ، ويقترب من رفاغة سمر الجزيرة ، فلما مرّ بدير قرة قال : ما بهذا المنزل بعد من أمير المؤمنين ، وإن الفلاليج وعين التمر إلى جنبنا . فنزل فكان في عسكره نخندقا وابن محمد في عسكره نخندقا ، والناس يخرجون في كل يوم فيقتتلون ، فلا يزال أحدهما يذني خندقه نحو صاحبه ، فإذا رآه الآخر خندق أيضاً ، وأدنى خندقه من صاحبه . واشتد القتال بينهم . فلما بلغ ذلك رؤوس قريش وأهل الشام قبل عبد الملك ومواليه قالوا : إن كان إنما يرضي أهل العراق أن ينزع عنهم الحجاج ، فإن نزع الحجاج أيسر من حرب أهل العراق ، فانزعهم عنهم فخلص لك طاعتهم ، وتحقق به دماءنا ودماءهم . فبعث ابنه عبد الله بن عبد الملك ، وبعث إلى أخيه محمد بن مروان بأرض الموصل يأمره بالقدوم عليه ، فاجتمعوا جميعاً عنده ، كلاهما في جنديهما ، فأمرهما أن يعرضا على أهل العراق نزع الحجاج عنهم ، وأن يجري عليهم أعطياتهم كما تجري على أهل الشام ، وأن ينزل ابن محمد أي بلد من عراق شاء ، يكون عليه والياً ما دام حياً ، وكان عبد الملك والياً ، فإن هم قبلوا ذلك عزل عنهم الحجاج ، وكان محمد بن مروان أمير العراق ، وإن أبوا أن يقبلوا فالحجاج أمير جماعة أهل الشام وولي القتال ، ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في طاعته . فلم يأت الحجاج أمراً قط كان أشد عليه ولا أغبط له ولا أوجع لقلبه منه مخافة أن يقبلوا فيعزل عنهم ، فكتب إلى عبد الملك :

يا أمير المؤمنين ، والله لئن أعطيت أهل العراق نزعني لا يلبثون إلّا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك ، ولا يزيدهم ذلك إلّا جرأة عليك ، ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشر على ابن عقان ، فلما سألهم ما يريدون قالوا : نزع سعيد بن العاص ، فلما نزع لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه ! إن الحديد بالحديد يفلح . خار الله لك فيما ارتأيت . والسلام عليك .

فأبى عبد الملك إلّا عرض هذه الخصال على أهل العراق لإرادة العافية من الحرب . فلما اجتمعنا مع الحجاج خرج عبد الله بن عبد الملك فقال : يا أهل العراق ، أنا عبد الله بن أمير المؤمنين ، وهو يعطيكم كذا وكذا ، فذكر هذه الخصال التي ذكرنا . وقال محمد بن مروان : أنا رسول أمير المؤمنين إليكم ، وهو يعرض عليكم كذا وكذا ، فذكر هذه الخصال . قالوا : نرجع العشية ، فاجتمعوا عند ابن الأشعث ، فلم يبق قائداً ولا رأس قوم ولا فارس إلّا أتاه ، فحمد الله ابن الأشعث وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد ، فقد أعطيتكم أمراً انتهزكم اليوم إياه فرصة ، ولا آمن أن يكون على ذي الرأي غداً حسرة ، وإنكم اليوم على النصف وإن كانوا اعتدوا بالزاوية فأنتم تعتدون عليهم بيوم تستر ، فاقبلوا ما عرضوا عليكم

وأنتم أعزاء أقوياء ، والقوم لكم هائبون وأنتم لهم منتقِصون . فلا والله لا زلتم عليهم جُراء ، ولا زلتم عندهم أعزاء ، إن أنتم قبلتم أبداً ما بقيتم .

فوثب الناس من كل جانب ، فقالوا : إن الله قد أهلكهم ، فأصبحوا في الأزل والضنك والمجاعة والقلة والذلة ، ونحن ذوو العدد الكثير ، والسعر الرفيع ، والمادة القريبة ، لا والله لا نقبل .

فأعادوا خلعه ثانية . وكان عبدالله بن ذواب السلمي وعمير بن تيحان أول من قام بخلعه في الجماجم ، وكان اجتماعهم على خلعة بالجماجم أجمع من خلعهم إياه بفارس .

فرجع محمد بن مروان وعبدالله بن عبدالملك إلى الحجاج فقالا : شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك ، فإننا قد أمرنا أن نسمع لك ونطيع ، فقال : قد قلت لكما : إنه لا يراد بهذا الأمر غيركما ، ثم قال : إنما أقاتل لكما ، وإنما سلطاني سلطانكما ، فكانا إذا لقياه سلماً عليه بالإمرة ، وقد زعم أبو يزيد السكسكي أنه إنما كان أيضاً يسلم عليهما بالإمرة إذا لقيهما ، وخلياه والحرب فتولاها .

قال أبو مخنف : فحدثني الكلبي محمد بن السائب أن الناس لما اجتمعوا بالجماجم سمعتُ عبد الرحمن بن محمد وهو يقول : ألا إن بني مروان يعيرون بالزرقاء ، والله ما لهم نسب أصح منه إلا أن بني أبي العباس أعلاج من أهل صفورية ، فإن يكن هذا الأمر في قريش فعني فقتت بيضة قريش ، وإن يك في العرب فأنا ابن الأشعث بن قيس - ومد بها صوته يُسمع الناس - وبرزوا للقتال ، فجعل الحجاج على ميمته عبد الرحمن ابن سليم الكلبي ، وعلى ميسرته عمارة بن تميم اللخمي ، وعلى خيله سُفَيان بن الأبرد الكلبي ، وعلى رجاله عبد الرحمن بن حبيب الحكمي ، وجعل ابن الأشعث على ميمته الحجاج بن جارية الخثعمي ، وعلى ميسرته الأبرد بن قرّة التميمي ، وعلى خيله عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث الهاشمي ، وعلى رجاله محمد بن سعد بن أبي وقاص ، وعلى محففته عبدالله بن رزام الحارثي ، وجعل على القراء جبلة بن زحر بن قيس الجعفي ، وكان معه خمسة عشر رجلاً من قريش ، وكان فيهم عامر الشعبي ، وسعيد بن جبير وأبو البختري الطائي ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى .

ثم إنهم أخذوا يتزاحفون في كل يوم ويقتتلون ، وأهل العراق تأتيهم موادهم من الكوفة ومن سوادها فيما شاءوا من خصبهم ، وإخوانهم من أهل البصرة وأهل الشام في ضيق شديد ، قد غلت عليهم الأسعار ، وقُلَّ عندهم ، الطعام ، وفقدوا اللحم ، وكانوا كأنهم في حصار ، وهم على ذلك يُغادون أهل العراق ويرأوحوهم فيقتتلون أشد القتال : وكان الحجاج يُدني خندقه مرة وهؤلاء أخرى ، حتى كان اليوم الذي أصيب فيه جبلة بن زحر . ثم إنه بعث إلى كميل بن زياد النخعي ، وكان رجلاً زكياً وقوراً عند الحرب ، له بأس وصوت في الناس ، وكانت كتيبته تدعى كتيبة القراء ، يُحمل عليهم فلا يكادون يبرحون ، ويحملون فلا يكذبون ، فكانوا قد عرفوا بذلك ، فخرجوا ذات يوم كما كانوا يخرجون ، وخرج الناس ، فعبي الحجاج أصحابه ، ثم زحف في صفوفه ، وخرج ابن محمد في سبعة صفوف بعضها على أثر بعض ، وعبي الحجاج لكتيبة القراء التي مع جبلة ابن زحر ثلاث كتائب ، وبعث عليها الجراح بن عبدالله الحكمي ، فأقبلوا نحوهم .

قال أبو مخنف : حدثني أبو يزيد السكسكي ، قال : أنا والله في الخيل التي عُبيت لجلبة بن زحر ، قال : حملنا عليه وعلى أصحابه ثلاث حملات ، كل كتيبة تحمل حملة ، فلا والله ما استنقصنا منهم شيئاً . وفي هذه السنة توفي المغيرة بن المهلب بخراسان .

ذَكَرَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ ، عَنْ الْمُفَضَّلِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، قَالَ : كَانَ الْمَغِيرَةُ بْنُ الْمَهْلَبِ خَلِيفَةً أَبِيهِ بِمَرْوَ عَلَى عَمَلِهِ كُلِّهِ ، فَمَاتَ فِي رَجَبِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ ، فَأَتَى الْخَبَرَ يَزِيدٌ ، وَعَلِمَهُ أَهْلُ الْعَسْكَرِ فَلَمْ يُخْبِرُوا الْمَهْلَبَ ، وَأَحَبَّ يَزِيدُ أَنْ يَبْلُغَهُ ، فَأَمَرَ النِّسَاءَ فَصَرَّخْنَ ، فَقَالَ الْمَهْلَبُ : مَا هَذَا ؟ فَقِيلَ : مَاتَ الْمَغِيرَةُ ، فَاسْتَرْجَعَ ، وَجَزَعَ حَتَّى ظَهَرَ جُرْعُهُ عَلَيْهِ ، فَلَامَهُ بَعْضُ خَاصَّتِهِ ، فَدَعَا يَزِيدٌ فَوَجَّهَهُ إِلَى مَرْوَ ، فَجَعَلَ يُؤَصِّبُهُ بِمَا يَعْمَلُ وَدُمُوعُهُ تَنْحَدِرُ عَلَى لَحْيَتِهِ . وَكُتِبَ الْحُجَّاجُ إِلَى الْمَهْلَبِ يَعِزُّيهِ عَنِ الْمَغِيرَةِ ، وَكَانَ سَيِّدًا ، وَكَانَ الْمَهْلَبُ يَوْمَ مَاتَ الْمَغِيرَةُ مَقْبِيًا بِكَسِّ وَرَاءَ النَّهْرِ لِحَرْبِ أَهْلِهَا .

قال : فسار يزيد في ستين فارساً - ويقال : سبعين - فيهم مُجَاعَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْعَتَكِيُّ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُعَمَّرِ بْنِ سُمَيْرِ الْيَشْكِرِيِّ ، وَدِينَارُ السَّجِسْتَانِيِّ ، وَهَيْثَمُ بْنُ الْمُنْخَلِ الْجَرْمُوزِيِّ ، وَغَزْوَانُ الْإِسْكَافِ صَاحِبُ رَمٍّ - وَكَانَ أَسْلَمَ عَلَى يَدِ الْمَهْلَبِ - وَأَبُو مُحَمَّدٍ الزَّمِي ، وَعَطِيَّةٌ - مَوْلَى لَعْتِيكَ - فَلَقِيَهُمْ خَمْسَمِائَةٍ مِنَ التُّرْكِ مَفَازَةَ نَسْفَ ، فَقَالُوا : مَا أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : تَجَارٌ ، قَالُوا : فَايْنَ الْأَثْقَالُ ؟ قَالُوا : قَدَّمْنَا ، قَالُوا : فَأَعْطُونَا شَيْئًا ، فَأَبَى يَزِيدٌ ، فَأَعْطَاهُمْ مُجَاعَةُ ثَوْبًا وَكَرَابِيْسَ وَقَوْسًا ، فَانْصَرَفُوا ثُمَّ غَدَرُوا وَعَادُوا إِلَيْهِمْ ، فَقَالَ يَزِيدٌ : أَنَا كُنْتُ أَعْلَمُ بِهِمْ فَقَاتَلُوهُمْ ، فَاشْتَدَّ الْقِتَالُ بَيْنَهُمْ ، وَيَزِيدٌ عَلَى فَرَسٍ قَرِيبٍ مِنَ الْأَرْضِ ، وَمَعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْخَوَارِجِ كَانَ يَزِيدٌ أَخْذَهُ ، فَقَالَ : اسْتَبْقِنِي ، فَمَنْ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ : مَا عِنْدَكَ ؟ فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ حَتَّى خَالَطَهُمْ وَصَارَ مِنْ وَرَائِهِمْ وَقَدْ قَتَلَ رَجُلًا ، ثُمَّ كَرَّ فَاخَالَطَهُمْ حَتَّى تَقَدَّمَهُمْ وَقَتَلَ رَجُلًا ثُمَّ رَجَعَ إِلَى يَزِيدٍ ، وَقَتَلَ يَزِيدٌ عَظِيمًا مِنْ عِظَائِهِمْ . وَرُمِيَ يَزِيدٌ فِي سَاقِهِ ، وَاشْتَدَّتْ شَوْكَتُهُمْ ، وَهَرَبَ أَبُو مُحَمَّدٍ الزَّمِي ، وَصَبَرَ لَهُمْ يَزِيدٌ حَتَّى حَاجَزُوهُمْ ، وَقَالُوا : قَدْ غَدَرْنَا ، وَلَكِنْ لَا نَنْصَرِفُ حَتَّى نَمُوتَ جَمِيعًا أَوْ نَمُوتُوا أَوْ تُعْطُونَا شَيْئًا ، فَحَلَفَ يَزِيدٌ لَا يُعْطِيهِمْ شَيْئًا ، فَقَالَ مُجَاعَةُ : أَذْكَرُكَ اللَّهُ ، قَدْ هَلَكَ الْمَغِيرَةُ ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَا دَخَلَ عَلَى الْمَهْلَبِ مِنْ مَصَابِهِ ، فَانْشُدْكَ اللَّهُ أَنْ تَصَابَ الْيَوْمَ !

قال : إِنَّ الْمَغِيرَةَ لَمْ يَعُدْ أَجَلَهُ ، وَلَسْتُ أَعْدُو أَجَلِي . فَرُمِيَ إِلَيْهِمْ مُجَاعَةُ بِعِمَامَةٍ صَفْرَاءَ فَأَخَذُوهَا وَانْصَرَفُوا ، وَجَاءَ أَبُو مُحَمَّدٍ الزَّمِي بِفَوَارِسَ وَطَعَامٍ ، فَقَالَ لَهُ يَزِيدٌ : أَسَلَّمْتَنَا يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، فَقَالَ : إِنَّمَا ذَهَبْتُ لِأَجِيْثُكُمْ بِمَدَدِ طَعَامٍ ، فَقَالَ الرَّاجِزُ :

يَزِيدُ يَا سَيْفَ أَبِي سَعِيدٍ قَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ وَالْجَنُودُ
وَالْجَمْعُ يَوْمَ الْمَجْمَعِ الْمَشْهُودُ أَنْكَ يَوْمَ التُّرْكِ صَلْبُ الْعُودِ
وَقَالَ الْأَشْقَرِيُّ :

وَالتُّرْكَ تَعْلَمُ إِذْ لَاقَى جُمُوعَهُمْ أَنْ قَدْ لَقَوْهُ شِهَابًا يَفْرِجُ الظُّلُمَا
بِفَيْتِيَةٍ كَأَسْوَدِ الْغَابِ لَمْ يَجِدُوا غَيْرَ التَّأْسِي وَغَيْرَ الصَّبْرِ مُعْتَصِمَا
نَرَى شَرَائِجَ تَغْشَى الْقَوْمَ مِنْ عُلُقٍ وَمَا أَرَى نَبْوَ مِنْهُمْ وَلَا كَزَمَا
وَتَحْتَهُمْ قَرَحٌ يَرْكَبْنَ مَا رَكِبُوا مِنَ الْكَرِيهَةِ حَتَّى يَنْتَعِلْنَ دَمَا
فِي حَاوِزَةِ الْمَوْتِ حَتَّى لَيْلُهُمْ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ مَا وَلَّى وَلَا انْهَزَمَا

وفي هذه السنة صالح المهلب أهل كس على فِذْيَةٍ ، وَرَحَلَ عَنْهَا يَزِيدُ مَرْوً .

ذكر الخبر عن سبب انصراف المهلب عن كس .

ذكر علي بن محمد ، عن الفضل بن محمد ، أن المهلب اتهم قومًا من مُضَرَ فحبسهم وقفل من كس

وخلفهم ، وخلف حريث بن قُطبة مولى خُزاعة ، وقال : إذا استوفيت الفدية فُرِدْ عليهم الرهن ، وقطع النهر فلما صار ببلخ أقام بها وكتب إلى حريث : إني لست آمن إن رددت عليهم الرهن أن يغيروا عليك ، فإذا قبضت الفدية فلا تخل الرهن حتى تقدم أرض بلخ . فقال حريث للملك كَس : إن المهلب كتب إلي أن أحبس الرهن حتى أقدم أرض بلخ ، فإن عجلت لي ما عليك سلمت إليك رهائتك ، وسرت فأخبرته أن كتابه ورد ، وقد استوفيت ما عليكم ، ورددت عليكم الرهن ، فعجل لهم صلحتهم ، ورد عليهم من كان في أيديهم منهم . وأقبل فعرض لهم الترك ، فقالوا : أفد نفسك ومن معك ، فقد لقينا يزيد بن المهلب ففدني نفسه . فقال حريث : ولدني إذا أم يزيد ! وقتلهم فقتلهم ، وأسر منهم أسرى ففدوهم ، فمن عليهم وخلاهم ، ورد عليهم الفداء . وبلغ المهلب قوله : ولدني أم يزيد إذا ، يأنف العبد أن تلده رجته . وغضب . فلما قدم عليه بلخ قال له : أين الرهن ؟ قال : قبضت ما عليهم وخليتهم ، قال : ألم اكتب إليك ألا تخليهم ، قال : أتاني كتابك وقد خليتهم ، وقد كُفيت ما خفت ، قال : كذبت ، ولكنك تقربت إليهم وإلى ملكهم فأطلعتهم على كتابي إليك . وأمر بتجريده ، فجزع من التجريد حتى ظن المهلب أن به برصاً ، فجزده وضربه ثلاثين سوطاً . فقال حريث : وددت أنه ضربني ثلاثمائة سوط ولم يجردني ، أنفأ واستحياء من التجريد ، وحلف ليقتلن المهلب .

فركب المهلب يوماً وركب حريث ، فأمر غلامين له وهو يسير خلف المهلب أن يضرباه ، فأبى أحدهما وتركه وانصرف ، ولم يجترأ الآخر لما صار وحده أن يقدم عليه ، فلما رجع قال لغلامه : ما منعك منه ؟ قال : الأسفاق والله عليك ، والله ما جزعت على نفسي ، وعلمت أنا إن قتلناه أنك ستقتل ونقتل ، ولكن كان نظري لك ، ولو كنت أعلم أنك تسلم من القتل لقتلته .

قال : فترك حريث إتيان المهلب وأظهر أنه وجع ، وبلغ المهلب أنه تمارض وأنه يريد الفتك به ، فقال المهلب لثابت بن قطبة : جئني بأخيك ، فإنما هو كبعض ولدي عندي ، وما كان ما كان مني إليه إلا نظراً له وأدباً ، ولربما ضربت بعض ولدي أودبه . فأتى ثابت أخاه فناشده ، وسأله أن يركب إلى المهلب ، فأبى وخافه وقال : والله لا أجيئه بعد ما صنع بي ما صنع ، ولا أمنه ولا يأمني . فلما رأى ذلك أخوه ثابت قال له : أما إن كان هذا رأيك فأخرج بنا إلى موسى بن عبد الله بن خازم ، وخاف ثابت أن يفك حريث بالمهلب فيقتلونا جميعاً ، فخرجنا في ثلاثمائة من شاكريتهم والمنقطعين إليهما من العرب . قال أبو جعفر : وفي هذه السنة توفي المهلب بن أبي صفرة .

ذكر الخبر عن سبب موته ومكان وفاته :

قال علي بن محمد : حدثني المفضل ، قال : مضى المهلب منصرفاً من كس يريد مرو ، فلما كان بزاغول من مرو الرود أصابته الشوصة - وقوم يقولون : الشوكة - فدعا حبيباً ومن حضره من ولده ، ودعا بسهام فحزمت ، وقال : أترونكم كاسيرها مجتمعة ؟ قالوا : لا ، قال : أفترؤنكم كاسيرها متفرقة ؟ قالوا : نعم ؛ قال : فهكذا الجماعة ، فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرجم ، فإن صلة الرجم تنسي في الأجل ، وتثري المال ، وتكثر العدد وأماكم عن القطيعة ، فإن القطيعة تعقب النار ، وتورث الذلة والقلّة ، فتحابوا وتواصلوا ، وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا ، وتباروا تجتمع أموركم ؛ إن بني الأم يختلفون ، فكيف ببني العلات ! عليكم بالطاعة والجماعة ، وليكن فعالكم أفضل من قولكم ، فإني أحب للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه ، وانتقوا الجواب وزلة

اللسان ، فإن الرجل تَزَلَّ قدمه فينتعش من زلته ، - ويزلُّ لسانه فيهلك . اعرفوا لمن يغشاكم حقّه ، فكفى بغدو الرجل ورواحه إليكم تذكرةً له ، وآثروا الجود على البخل ، وأجّبوا العرب واصطنعوا العرف ، فإن الرجل من العرب تعدّه العدة فيموت دونك ، فكيف الصنعة عنده ! عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة ، فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة ، وإذا كان اللقاء نزل القضاء ، فإن أخذ رجل بالجزم فظهر على عدوّه قيل : أتى الأمر من وجهه ، - ثم ظفر فحمد ، وإن لم يظفر بعد الأناة قيل : ما فرط ولا ضيع ، ولكن القضاء غالب . وعليكم بقراءة القرآن ، وتعليم السنن ، وأدب الصالحين ، وإياكم والحقة وكثرة الكلام في مجالسكم ، وقد استخلفت عليكم يزيد ، وجعلت حبيباً على الجند حتى يقدم بهم على يزيد ، فلا تخلفوا يزيد ، فقال له المفضل : لو لم تقدمه لقدمناه .

ومات المهلب وأوصى إلى حبيب ، فصلى عليه حبيب ، ثم سار إلى مرو . وكتب يزيد إلى عبد الملك بوفاة المهلب واستخلافه إياه ، فأقره الحجاج . ويقال : إنه قال عند موته ووصيته : لو كان الأمر لي لوليت سيد ولدي حبيباً . قال : وتوفي في ذي الحجة سنة اثنتين وثمانين ، فقال نهار بن تويسعة التميمي :

أَلَا ذَهَبَ الْغَزْوُ الْمُقَرَّبُ لِلْغَنَى	ومات أَلَنْدَى والجُودُ بعد المهلب
أَقَامَا بِمَرَوِ الرُّودِ رَهْنَى ضَرِيحِهِ	وقد غُيِّبَا عن كلِّ شَرْقٍ ومَغْرِبٍ
إِذَا قِيلَ أَيْ النَّاسِ أَوْلَى بِنِعْمَةٍ	على النَّاسِ؟ قَلْنَاهُ وَلَمْ نَنْتَهَبِ
أَبَاحَ لَنَا سَهْلَ الْبِلَادِ وَحَزَنَهَا	بَخِيلٍ كَأَرْسَالِ الْقَطَا الْمُتَسَرِّبِ
يُعَرِّضُهَا لِلطَّعْنِ حَتَّى كَأَنَّمَا	يُجَلِّلُهَا بِالْأَرْجُوانِ الْمُخَضَّبِ
تُطِيفُ بِهِ قَحْطَانٌ قَدْ عَصَبَتْ بِهِ	وَأَحْلَافُهَا مِنْ حَيٍّ بِكْرٍ وَتَغْلِبِ
وَحَيًّا مَعْدً عُوْدٌ بِلِوَانِهِ	يُفْدُونَهُ بِالنَّفْسِ الْأَمِّ وَالْأَبِ

وفي هذه السنة ولي الحجاج بن يوسف يزيد بن المهلب خراسان بعد موت المهلب .

وفيها عَزَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ أَبَانَ بن عثمان عن المدينة ، قال الواقدي : عزله عنها لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة .

قال : وفيها وليَّ عَبْدُ الْمَلِكِ هشام بن إسماعيل المخزومي المدينة . وعَزَلَ هشامُ بن إسماعيل عن قضاء المدينة لما وليها نوفل بن مُسَاحِقِ العامري ، وكان يحيى بن الحكم هو الذي استقضاه على المدينة ، فلما عَزَلَ يحيى ووليها أَبَانَ بن عثمان أقره على قضائها ؛ وكانت ولاية أَبَانَ المدينة سبع سنين وثلاثة أشهر وثلاث عشرة ليلة ، فلما عَزَلَ هشام بن إسماعيل نوفل بن مُسَاحِقِ عن القضاء وليَّ مكانه عمرو بن خالد الزُرقي .

وحجَّ بالناس في هذه السنة أَبَانَ بن عثمان ، كذلك حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بن ثابت عَمَّنْ ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر .

وكان على الكوفة والبصرة والمشرق الحجاج ، وعلى خراسان يزيد بن المهلب من قبل الحجاج .

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ذكر الأحداث التي كانت فيها

فما كان فيها من ذلك هزيمة عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث بذيّر الجمّاجم .
ذكر الخبر عن سبب انهزامه :

ذكر هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ، قال : حدّثني أبو الزبير الهمدانيّ ، قال : كنتُ في خيل جبلة بن زحل ، فلما حمل عليه أهل الشام مرة بعد مرة ، نادانا عبدالرحمن أبي ليلى الفقيه فقال : يا معشر القراء ، إنّ الفِرار ليس بأحد من الناس بأقبح منه بكم ، إني سمعتُ عليّاً - رفع الله درجته في الصّالحين ، وأثابه أحسن ثواب الشهداء والصّديقين - يقول يومَ لقينا أهل الشام : أيها المؤمنون ، إنه من رأى عدواناً يُعمَلُ به ، ومُنكَراً يُدعى إليه ، فأنكره بقلبه فقد سلّم وبرىء ، ومن أنكر بلسانه فقد أجر ، وهو أفضل من صاحبه ، ومن أنكر بالسيف لتكون كلمة الله العليّاً وكلمة الظالمين السفلى ، فذلك الذي أصاب سبيل الهدى ، ونور في قلبه اليقين . فقاتلوا هؤلاء المُجَلين المُحدثين المبتدعين الذين قد جهلوا الحقّ فلا يعرفونه ، وعَمِلُوا بالعدوان فليس يُنكرونه .

وقال أبو البختريّ : أيها الناس ، قاتلوهم على دينكم ودنياكم ، فوالله لئن ظهروا عليكم لَيُفْسِدُنَّ عليكم دينكم ، وَلَيَغْلِبَنَّ على دنياكم .

وقال الشعبيّ : يا أهل الإسلام ، قاتلوهم ولا يأخذكم حرجٌ من قتالهم ، فوالله ما أعلم قوماً على بَسِيطِ الأرض أعمَلُ بظلم ، ولا أجورَ منهم في الحُكم ، فليكن بهم البدار .

وقال سعيد بن جبير : قاتلوهم ولا تأثموا من قتالهم بنيةً ويقين ، وعلى آثامهم قاتلوهم على جورهم في الحُكم ، وتجبرهم في الدين ، واستذلّاهم الضّعفاء ، وإماتتهم الصّلاة .

قال أبو مخنف ، قال أبو الزبير : فتهيأنا للحملة عليهم ، فقال لنا جبلة : إذا حملتهم عليهم فاحملوا حملةً صادقة ، ولا تردّوا وجوهكم عنهم حتى تُؤايقُوا صَفْهُم . قال : فحملنا عليهم حملةً بجِدٍّ منا في قتالهم ، وقوّة منا عليهم ، فضربنا الكتائب الثلاث حتى اشفرت ، ثم مضينا حتى واقعنا صفّهم فضربناهم حتى أزلناهم عنه ، ثم انصرفنا فمررنا بجبلة صريعاً لا ندري كيف قُتل .

قال : فلهذا ذلك وجبنا لوقفنا الذي كنّا به ، وإن قرأنا للمتوافرون ، ونحن نتناعى جبلة بن زحر بيننا ، كأنما فقد به كلّ واحد منا أباه أو أخاه ، بل هو في ذلك الموطن كان أشدّ علينا فقدراً . فقال لنا أبو البختريّ الطائيّ : لا يستبينَ فيكم قتلُ جبلة بن زحر ، فإنما كان كرجل منكم أتته ميته ليومها ، فلم يكن ليتقدّم يومه ولا ليتأخّر عنه ، وكلّكم ذائق ما ذاق ، ومدعو فمجيّب . قال : فنظرتُ إلى وجوه القراء فإذا الكآبة على وجوههم بيّنة ،

وإذا ألسنتهم منقطعة ، وإذا الفشل فيهم قد ظهر ، وإذا أهل الشام قد سُروا وجَدَلُوا ، فنادوا : يا أعداء الله ، قد هلكتم ، وقد قَتَلَ الله طاعُوتكم .

قال أبو مخنف : فحدثني أبو يزيد السكسكي أنَّ جبلة حين حمل هو وأصحابه علينا انكشفنا ، وتبعونا وافتقرت منا فرقة فكانت ناحية فنظرنا فإذا أصحابه يتبعون أصحابنا ، وقد وقف لأصحابه ليرجعوا إليه على رأس رهوة ، فقال بعضنا ، هذا والله جبلة بن زحر ، احمِلوا عليه ما دام أصحابه مشاغِبَل بالقتال عنه لعلكم تصيبونه . قال : فحملنا عليه ! فاشهد ما ولي ، ولكن حمل علينا بالسيف . فلما هبط من الرهوة شجرناه بالرماح فأذريناه عن فرسه فوق قتيلا ، ورجع أصحابه ، فلما رأيناهم مقبلين تنحين عنهم ، فلما رأوه قتيلا رأينا من استرجاعهم وجزعهم ما قرت به أعيننا ، قال : فتبيننا ذلك في قتالهم إيانا وخروجهم إلينا .

قال أبو مخنف : حدثني سهم بن عبد الرحمن الجهني ، قال : لما أصيب جبلة هذ الناس مَقْتَله ، حتى قدم علينا بسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيباني ، فشجع الناس مقدّمه ، وقالوا : هذا يقوم مقام جبلة ، فسمع هذا القول من بعضهم أبو البخترى ، فقال : قُبِحتم ! إن قتل منكم رجل واحد ظننتم أن قد أحيط بكم ، فإن قُتل الآن ابن مصقلة ألقيتم بأيديكم إلى التهلكة ، وقتلتهم : لم يبق أحد يقايل معه ! ما أخلفكم أن يُخلف رجائنا فبكم ! وكان مقدّم بسطام من الرّي ، فالتقى هو وقتية في الطريق ، فدعاه قتيبة إلى الحجاج وأهل الشام ، ودعاه بسطام إلى عبد الرحمن وأهل العراق ، فكلاهما أي على صاحبه ، وقال بسطام : لأن أموت مع أهل العراق أحب إلي من أن أعيش مع أهل الشام ، وكان قد نزل ماسبذان ، فلما قدم قال لابن محمد : أمرني على خيل ربيعة ، ففعل ، فقال لهم : يا معشر ربيعة ، إن في شرسفة عند الحرب فاحتملوها لي - وكان شجاعاً - فخرج الناس ذات يوم ليقتتلوا ، فحمل في خيل ربيعة حتى دخل عسكرهم ، فأصابوا فيهم نحواً من ثلاثين امرأة من بين أمة وسرية ، فأقبل بهن حتى إذا دنا من عسكره ردهن ، فجنن ودخلن عسكر الحجاج ، فقال : أولي لهم ! منع القوم نساءهم ، أما لو لم يردوهن لسبيت نساؤهم غداً إذا ظهرت . ثم اقتتلوا يوماً آخر بعد ذلك ، فحمل عبدالله بن مليل الهمداني في خيل له حتى دخل عسكرهم فسبأ ثمان عشرة امرأة ، وكان معه طارق بن عبدالله الأسدي - وكان رامياً - فخرج شيخ من أهل الشام من فسطاطه ، فأخذ الأسدّي يقول لبعض أصحابه : استرمني هذا الشيخ لعلني أرميه أو أحمل عليه فاطعنه ، فإذا الشيخ يقول رافعا صوته : اللهم ممنا وإياهم بعافية ، فقال الأسدّي : ما أحب أن أقتل مثل هذا ، فتركه ، وأقبل ابن مليل بالنساء غير بعيد ، ثم خلّ سبيلهن أيضاً ، فقال الحجاج مثل مقالته الأولى .

قال هشام : قال أبي : أقبل الوليد بن نحيث الكلبي من بني عامر في كتيبة إلى جبلة بن زحر ، فانحط عليه الوليد من رابية - وكان جسيماً ، وكان جبلة رجلاً ربعة - فالتقيا ، فضربه على رأسه فسقط ، وانهمز أصحابه وجيء برأسه .

قال هشام : فحدثني بهذا الحديث أبو مخنف وعوانة الكلبي ، قال : لما جيء برأس جبلة بن زحر إلى الحجاج حمله على رحين ثم قال : يا أهل الشام ، أبشروا ، هذا أول الفتح ، لا والله ما كانت فتنة قط فخبث حتى يُقتل فيها عظيم من عظماء أهل اليمن ، وهذا من عظمائهم . ثم خرجوا ذات يوم فخرج رجل من أهل الشام يدعو إلى المبارزة ، فخرج إليه الحجاج بن جارية ، فحمل عليه ، فطعنه فأذراه ، وحمل أصحابه فاستنقذوه ، فإذا هو رجل من خثعم يقال له أبو الدرداء ، فقال الحجاج بن جارية : أما إني لم اعرفه حتى وقع ،

ولو عرفته ما بارزته ، ما أحب أن يصاب من قومي مثله . وخرج عبدالرحمن بن عوف الرواسي أبو حميد فدعا إلى المبارزة ، فخرج إليه ابن عم له من أهل الشام ، فاضطربا بسييفيهما ، فقال كل واحد منهما : أنا الغلام الكلابي ، فقال كل واحد منهما لصاحبه : من أنت ؟ فلما تساءلا تحاجزا . وخرج عبدالله بن رزام الحارثي إلى كتيبة الحجاج ، فقال : أخرجوا إلي رجلا رجلا ، فأخرج إليه رجل ، فقتله ثم فعل ذلك ثلاثة أيام ، يقتل كل يوم رجلا ، حتى إذا كان اليوم الرابع أقبل ، فقالوا : قد جاء لا جاء الله به ! فدعا إلى المبارزة ، فقال الحجاج للجراح : أخرج إليه ، فخرج إليه . فقال له عبدالله بن رزام - وكان له صديقا : ونحك يا جراح ! ما أخرجك إلي ! قال : قد ابتليت بك ، قال : فهل لك في خير ؟ قال : ما هو ؟ قال : أنهزم لك فترجع إلى الحجاج وقد أحسنت عنده وحمدك ، وأما أنا فإني أحتمل مقالة الناس في انهزامي عنك حبا لسلامتك ، فإني لا أحب أن أقتل من قومي مثلك ، قال : فافعل ، فحمل عليه فأخذ يستطرد له - وكان الحارثي قد قطع هاتيه ، وكان يعطش كثيرا ، وكان معه غلام له معه إداوة من ماء ، فكلما عطش سقاه الغلام - فاطرد له الحارثي ، وحمل عليه الجراح حملة بجدا لا يريد إلا قتله ، فصاح به غلامه : إن الرجل جاد في قتلك ! فعطف عليه فضربه بالعمود على رأسه فصرعه ، فقال لغلامه : انضخ على وجهه من ماء الإداوة ، واسقه ، ففعل ذلك به ، فقال : يا جراح ، بشسا ما جزيتني ، أردت بك العافية وأردت أن تزيروني المنية ! فقال : لم أرد ذلك ، فقال : انطلق فقد تركتك للقراة والعشيرة .

قال محمد بن عمر الواقدي : حدثني ابن أبي سبرة ، عن صالح بن كيسان ، قال سعيد الحرشي : أنا في صف القتال يومئذ إذ خرج رجل من أهل العراق ، يقال له : قدامة بن الحريش التميمي ، فوقف بين الصنفين ، فقال : يا معشر جرأمة أهل الشام ، إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فإن أبيتم فليخرج إلي رجل ، فخرج إليه رجل من أهل الشام فقتله ، حتى قتل أربعة ، فلما رأى ذلك الحجاج أمر مناديا فنادى : لا يخرج إلى هذا الكلب أحد : قال : فكف الناس . قال سعيد الحرشي : فدنوت من الحجاج فقلت : أصلح الله الأمير ! إنك رأيت إلا يخرج إلى هذا الكلب أحد ، وإنما هلك من هلك من هؤلاء النفر بأجلهم ، ولهذا الرجل أجل ، وأرجو أن يكون قد حضر ، فأذن لأصحابي الذين قدموا معي فليخرج إليه رجل منهم ، فقال الحجاج : إن هذا الكلب لم يزل هذا له عادتم وقد أرمع الناس ، وقد أذنت لأصحابك ، فمن أحب أن يقوم فليقم . فرجع سعيد الحرشي إلى أصحابه فأعلمهم ، فلما نادى ذلك الرجل بالبراز برز إليه رجل من أصحاب الحرشي ، فقتله قدامة ، فشق ذلك على سعيد ، وثقل عليه لكلامه الحجاج ، ثم نادى قدامة : من يبارز ؟ فدنا سعيد من الحجاج ، فقال : أصلح الله الأمير ! ائذن لي في الخروج إلى هذا الكلب ، فقال : وعندك ذلك ؟ قال سعيد : نعم ، أنا كما تحب ، فقال الحجاج : أريني سيفك ، فأعطاه إياه ، فقال الحجاج : معي سيف أثقل من هذا ، فأمر له بالسيف ، فأعطاه إياه ، فقال الحجاج - ونظر إلى سعيد فقال : ما أجود درعك وأقوى فرسك ! ولا أدري كيف تكون مع هذا الكلب ! قال سعيد : أرجو أن يظفرني الله به ، قال الحجاج : أخرج على بركة الله . قال سعيد : فخرجت إليه ، فلما دنوت منه ، قال : قف يا عدو الله ، فوقف ، فسرتي ذلك منه ، فقال : اختر إما أن تمكيني فأضربك ثلاثا ، وإما أن أمكنك فتضربني ثلاثا ، ثم تمكيني . قلت : أمكيني ، فوضع صدره على قربوسه ثم قال : اضرب ، فجمعت يدي على سيفي ، ثم ضربت على المغفر متمكنا ، فلم يصنع شيئا ، فسأني ذلك من سيفي ومن ضربتي ، ثم أجمع رأيي أن أضربه على أصل العاتق ، فلما أن أقطع وإما أن أوهم يده عن ضربتيه ، فضربته فلم أصنع شيئا ؛ فسأني ذلك ومن غاب عني ممن هو في ناحية العسكر

حين بلغه ما فعلت، والثالثة كذلك. ثم اخترط سيفاً ثم قال: أمكنني، فأمكنته، فضربني ضربة صرّعني منها، ثم نزل عن فرسه وجلس على صدرتي، وانتزع من خفيته خنجرأ أو سكيناً فوضعها على خلقي يريد ذبحي، فقلدته، له: أنشدك الله! فإنك لست مصيباً من قتلي الشرف والذكر مثل ما أنت مصيب من تركي، قال: ومن أنت؟ قلت: سعيد الحريشي، قال: أولي يا عدو الله! فانطلق فأعلم صاحبك ما لقيت. قال سعيد: فانطلقت أسعى حتى انتهيت إلى الحجاج، فقال: كيف رأيت! فقلت الأمير كان أعلم بالأمر.

رجع الحديث إلى حديث أبي مخنف، عن أبي يزيد، قال: وكان أبو البختري الطائي وسعيد بن جبير يقولان: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا...﴾^(١) إلى آخر الآية، ثم يحيلان حتى يواقعها الصف.

قال أبو المخارق: قاتلناهم مائة يوم سواء أعدها عدأ. قال: نزلنا دير الجماجم مع ابن محمد غداة الثلاثاء ليلة مضت من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين، وهزمنا يوم الأربعاء لأربع عشرة مضت من جمادى الآخرة عند امتداد الضحى ومُتَوِّع النهار، وما كنا قط أجراً عليهم ولا هم أهون علينا منهم في ذلك اليوم.

قال: خرجنا إليهم وخرجوا إلينا يوم الأربعاء، لأربع عشرة مضت من جمادى الآخرة، فقاتلناهم مائة النهار أحسن قتال قاتلناهموه قط، ونحن آمنون من الهزيمة، عالون للقوم، إذ خرج سفيان بن الأبرد الكلبي في الخيل من قبل ميمنة أصحابه، حتى دنا من الأبرد بن قرة التميمي، وهو على ميسرة عبد الرحمن بن محمد فوالله ما قاتله كبير قتال حتى انهزم، فأنكرها الناس منه، وكان شجاعاً، ولم يكن الفرار له بعادة، فظن الناس أنه قد كان أومن، وصولح على أن ينهزم بالناس، فلما فعلها تقوضت الصفوف من نحوه، وركب الناس وجوههم وأخذوا في كل وجه، وصعد عبد الرحمن بن محمد المنبر، فأخذ ينادي الناس: عباد الله، إلي أنا ابن محمد، فأتاه عبد الله بن رزام الحارثي، فوقف تحت منبره، وجاء عبد الله بن ذؤاب السلمي في خيل له، فوقف منه قريباً، وثبت حتى دنا منه أهل الشام، فأخذت نبلهم تحوزة، فقال: يابن رزام، احمل على هذه الرجال والخيل، فحمل عليهم حتى أمعنوا. ثم جاءت خيل لهم أخرى ورجالة، فقال: احمل عليهم يابن ذؤاب، فحمل عليهم حتى أمعنوا، وثبت لا يبرح منبره، ودخل أهل الشام العسكر، فكبروا، فصعد إليه عبد الله بن يزيد بن المغفل الأزدي - وكانت ملكية ابنة أخيه امرأة عبد الرحمن - فقال: انزل، فإني أخاف عليك إن لم تنزل أن تؤسر، ولعلك إن انصرفت أن تجمع لهم جمعاً يهلكهم الله به بعد اليوم. فنزل وخل أهل العراق العسكر، وانهزموا لا يلوون على شيء، ومضى عبد الرحمن بن محمد مع ابن جعدة بن هبيرة ومعه أناس من أهل بيته، حتى إذا حاذوا قرية بني جعدة بالفلوجة دعوا بمعبر، فعبروا فيه، فأنتهى إليهم بسطام بن مصقلة، فقال: هل في السفينة عبد الرحمن بن محمد؟ فلم يكلموه، وظن أنه فيهم، فقال:

لا وألت نفس عليها محاذر

ضرم قيس علي البلا د حتى إذا اضطرمت أجدم

ثم جاء حتى انتهى إلى بيته وعليه السلاح، وهو على فرسه لم ينزل عنه، فخرجت إليه ابنته فالتزما،

وخرج إليه اهله يبكون ، فأوصاهم بوصية وقال : لا تبكوا ، أرايتم إن لم أترككم ، كم عسيّت أن أبقي معكم حتى أموت ! وإن أنا متّ فإن الذي رزقكم الآن حي لا يموت ، وسيرزقكم بعد وفاتي كما رزقكم في حياتي ، ثم ودّع أهله وخرج من الكوفة .

قال أبو مخنف : فحدثني الكلبي ، محمد بن السائب ، أنهم لما هزموا ارتفاع النهار حين امتدّ وتمتّع ، قال : جئت أشتدّ ومعني الرمح والسيف والترس حتى بلغت أهلي من يومي ، ما ألقيت شيئاً من سلاحي ، فقال الحجاج : اتركوهم فليتبّدوا ولا تتبعوهم ، ونادى المنادي : من رجع فهو آمن . ورجع محمد بن مروان إلى الموصل ، وعبد الله بن عبد الملك إلى الشام بعد الوقعة ، وخلياً الحجاج والعراق ، وجاء الحجاج حتى دخل الكوفة ، وأجلس مصقلة بن كرب بن ربيعة العبدي إلى جنبه وكان خطيباً ، فقال : اشتهم كل امرئ بما فيه ممن كنّا أحسننا إليه ، فاشتبه بقلة شكره ، ولؤم عهده ، ومن علمت منه عيباً فعبه بما فيه ، وصغر إليه نفسه . وكان لا يبايعه أحداً إلا قال له : أتشهد أنك قد كفرت ؟ فإذا قال : نعم ، بايعه وإلا قتله ، فجاء إليه رجل من خثعم قد كان معتزلاً للناس جميعاً من وراء الفرات ، فسأله عن حاله فقال : ما زلت معتزلاً وراء هذه النطفة ، منتظراً أمر الناس حتى ظهرت ، فأتيتك لأبايعك مع الناس ، قال : أمتربص ! أتشهد أنك كافر ؟ قال : بشّ الرجل أنا إن كنت عبت الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر ؟ قال : إذا أقتلتك ، قال : وإن قتلتني فوالله ما بقي من عمري إلا ظمء حمار ، وإني لأنتظر الموت صباح مساء ، وقال : اضربوا عنقه ، فضربت عنقه ، فرغموا أنه لم يبق حوله قرشي ولا شامي ولا أحد من الحزبين إلا رحمه ورثى له من القتل .

ودعا بكميل بن زياد النخعي ، فقال له : أنت المقتص من عثمان أمير المؤمنين ؟ قد كنت أحب أن أجد عليك سبيلاً ، فقال : والله ما أدري على أين أنت أشدّ غضباً ؟ عليه حين أقاد من نفسه ، أم علي حين عفوت عنه ؟ ثم قال : أيها الرجل من ثقيف ، لا تصرف علي أنيابك ، ولا تهدم علي تهديم الكتيب ، ولا تكثير كثران الذئب ، والله ما بقي من عمري إلا ظمء الحمار ، فإنه يشرب غدوة ويموت عشية ، ويشرب عشية ويموت غدوة ، إقض ما أنت قاض فإن الموعد الله ، وبعد القتل الحساب . قال الحجاج : فإن الحجة عليك ، قال : ذلك إن قال : إن كان القضاء إليك ، قال : بلى ، كنت فيمن قتل عثمان ، وخلعت أمير المؤمنين ، اقتلوه . فقدم فقتل ، قتله أبو الجهم بن كنانة الكلبي من بني عامر بن عوف ، ابن عم منصور بن جمهور .

وأتي بآخر من بعده ، فقال الحجاج : إني أرى رجلاً ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر ، فقال : أخادعي عن نفسي ! أنا أكفر أهل الأرض ، واكفر من فرعون ذي الأوتاد ، فضحك الحجاج وخطب سبيله . وأقام بالكوفة شهراً ، وعزل أهل الشام عن بيوت أهل الكوفة .

وفي هذه السنة كانت الوقعة بمسكن بين الحجاج وابن الأشعث بعدما انهزم من دير الجماجم .

ذكر الخبر عن سبب هذه الوقعة وعن صفتها :

قال هشام : حدثني أبو مخنف ، عن أبي يزيد السكسكي ، قال : خرج محمد بن سعد بن أبي وقاص بعد وقعة الجماجم حتى نزل المدائن ، واجتمع إليه ناس كثير ، وخرج عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمره بن حبيب بن عبد شمس القرشي حتى أتى البصرة وبها أيوب بن الحكم بن أبي عقيل ، ابن عم الحجاج ، فأخذها ، وخرج عبد الرحمن بن محمد حتى قدم البصرة وهو بها ، فاجتمع الناس إلى عبد الرحمن ونزل ، فأقبل عبيد الله حينئذ إلى ابن محمد بن الأشعث ، وقال له : إني لم أرد فراقك ، وإنما أخذتها لك . وخرج

الحجاج فبدأ بالمدائن، فأقام عليها خمساً حتى هيا الرجال في المعابر، فلما بلغ محمد بن سعد عبورهم إليهم خرجوا حتى لحقوا بابن الأشعث جميعاً، وأقبل نحوهم الحجاج، فخرج الناس معه إلى مسكن على دجيل، وأتاه أهل الكوفة والفلول من الأطراف، وتلاوم الناس على الفرار، وباع أكثرهم بسطام بن مصقلة على الموت، وحنق عبد الرحمن على أصحابه، وبشق الماء من جانب، فجعل القتال من وجه واحد، وقدم عليه خالد بن جرير بن عبد الله القسري من خراسان في ناس من بعث الكوفة، فاقتتلوا خمس عشرة ليلة، من شعبان أشد القتال حتى قتل زياد بن غنيم القيني، وكان على مساليح الحجاج، فهذه ذلك وأصحابه هذاً شديداً.

قال أبو مخنف: حدثني أبو جهضم الأزدي، قال: بات الحجاج ليلة كله يسير فينا قول لنا: إنكم أهل الطاعة، وهم أهل المعصية، وأنتم تسعون في رضوان الله، وهم يسعون في سخط الله، وعادة الله عندكم فيهم حسنة، ما صدقتهم في موطن قط، ولا صبرتم لهم إلا أعقبكم الله النصر عليهم والظفر بهم؛ فأصبحوا إليهم عادين جادين، إني لست أشك في النصر إن شاء الله.

قال: فأصبحنا، وقد عبأنا في السحر، فباكرناهم فقاتلناهم أشد قتال قاتلناهم قط، وقد جاءنا عبد الملك بن المهلب مجففاً، وقد كشفت خيل سفيان بن الأبرد، فقال له الحجاج: ضم إليك يا عبد الملك هذا النسر لعل أحمل عليهم، ففعل، وحمل الناس من كل جانب، فانهمز أهل العراق أيضاً، وقيل أبو البختري الطائي وعبد الرحمن بن أبي ليل، وقالوا قبل أن يقتلوا: إن الفرار كل ساعة بنا لقبيح. فأصيبا.

قال: ومضى بسطام بن مصقلة الشيباني في أربعة آلاف من أهل الحفاظ من أهل المصريين، فكسروا جفون السيوف، وقال لهم ابن مصقلة: لو كنا إذا فررنا بأنفسنا من الموت نجونا منه فررنا، ولكننا قد علمنا أنه نازل بنا عما قليل، فأين المحيد عما لا بد منه! يا قوم إنكم محقون، فقاتلوا على الحق، والله لو لم تكونوا على الحق لكان موت في عز خيراً من حياة في ذل. فقاتل هو وأصحابه قتالاً شديداً كشفوا فيه أهل الشام مراراً، حتى قال الحجاج: علي بالرماة لا يقاتلهم غيرهم، فلما جاءتهم الرماة وأحاط بهم الناس من كل جانب قتلوا إلا قليلاً، وأخذ بكير بن ربيعة بن ثروان الضبي أسيراً، فأتي به الحجاج فقتله.

قال أبو مخنف: فحدثني أبو جهضم، قال: جئت بأسير كان الحجاج يعرفه بالبأس، فقال الحجاج: يا أهل الشام، إنه من صنع الله لكم أن هذا غلام من الغلمان جاء بفارس أهل العراق أسيراً، اضرب عنقه، فقتله.

قال: ومضى ابن الأشعث والفل من المنهزمين معه نحو سجستان فأتبعهم الحجاج عمارة بن تميم اللخمي ومعه ابنه محمد بن الحجاج وعمارة أمير على القوم، فسار عمارة بن تميم إلى عبد الرحمن فأدركه بالسوس، فقاتله ساعة من نهار، ثم إنه انهزم هو وأصحابه فمضوا حتى أتوا سابور، واجتمعت إلى عبد الرحمن بن محمد الأكراد مع من كان معه من الفلول، فقاتلهم عمارة بن تميم قتالاً شديداً على العقبة حتى جرح عمارة وكثير من أصحابه، ثم انهزم عمارة وأصحابه وخلوا لهم عن العقبة، ومضى عبد الرحمن حتى مر بكرمان.

قال الواقدي: كانت وقعة الزاوية بالبصرة في المحرم سنة ثلاث وثمانين.

قال أبو مخنف: حدثني سيف بن بشر العجلي، عن المنخل بن حابس العبدي، قال: لما دخل عبد الرحمن بن محمد كerman تلقاه عمرو بن لقيط العبدي - وكان عامله عليها - فهيأ له نزلًا فنزل، فقال له شيخ من عبد القيس يقال له معقل: والله لقد بلغنا عنك يا ابن الأشعث أن قد كنت جباناً، فقال عبد الرحمن: والله

ما جُبْتُ ، والله لقد دَلَفْتُ الرِّجالَ بالرِّجال ، ولففت الخيلَ بالخيَل ، ولقد قاتلتُ فارساً ، وقاتلت راجلاً ، وما انْهزمتُ ، ولا تركتُ العَرْصَةَ للقوم في موطن حتى لا أجد مُقاتلاً ولا أرى معي مُقاتلاً ، ولكني زاولتُ مُلكاً مؤجلاً . ثم إنه مضى بمن معه حتى فوز في مَفَاةِ كَرْمَان .

قال أبو مخنف : فحدثني هشام بن أيوب بن عبد الرحمن بن أبي عقيل الثقفي ، قال : لما مضى ابن محمد في مفازة كَرْمَان وأتبعه أهل الشام دخل بعض أهل الشام قصرًا في المفازة ، فإذا فيه كتاب قد كتبه بعض أهل الكوفة من شعر أبي جلدة اليشكري ، وهي قصيدة طويلة :

أيا لَهْفاً ويا حَزناً جميعاً	ويا حَرَّ الفوادِ لِمَا لَقِينَا !
تركنا الدِّينَ والدنيا جميعاً	وأسلمنا الحلائلَ والبنينا
فما كنّا أناساً أهل دين	فَنَصْبِرَ في البلاءِ إذا ابتلينا
وما كنّا أناساً أهل دنيا	فَنَمْنَعَهَا وَلَوْ لَمْ نَرْجُ دينا
تركنا دُورنا لَطَعَامِ عَكْ	وأنباطِ القُرى والأشعرينا

ثم إن ابن محمد مضى حتى خرج على زَرْئَج مدينة سِجِسْتان ، وفيها رجل من بني تميم قد كان عبد الرحمن استعمله عليها ، يقال له عبدالله بن عامر البَعَار من بني مُجَاشَع بن دارِم فلما قَدِم عليه عبد الرحمن بن محمد منهزماً أغلق باب المدينة دونه ، ومنعه دخولها ، فأقام عليها عبد الرحمن أياماً رجاءً افتتاحها ودخولها . فلما رأى أنه لا يصل إليها خرج حتى أتى بُسْت ، وقد كان استعمل عليها رجلاً من بكر بن وائل يقال له عياض بن هِمْيان أبو هشام بن عياض السدوسي ، فاستقبله ، وقال له : انزل ، فجاء حتى نزل به ، وانتظر حتى إذا غفل أصحاب عبد الرحمن وتفرقوا عنه وثب عليه فأوثقه ، وأراد أن يأمن بها عند الحجاج ، ويتخذها عنده مكاناً . وقد كان رُتَبيل سمع بمقدم عبد الرحمن عليه ، فاستقبله في جنوده ، فجاء رُتَبيل حتى أحاط ببُست ، ثم نزل وبعث إلى البكري ، والله لئن آذيتَ بما يُقْذِي عينه ، أو ضررتَه ببعض المضرة ، أو رزأته حَبلاً من شَعْر لا أبرح العَرْصَةَ حتى أستنزِلَكَ فأقتلك وجميع من معك ، ثم أسبي ذراريكم ، وأقسّم بين الجند أموالكم . فأرسل إليه البكري أن أعطنا أماناً على أنفسنا وأموالنا ، ونحن ندفعه إليك سالماً وما كان له من مال مُوقِراً . فصالحهم على ذلك ، وآمنهم ، ففتحوا لابن الأشعث الباب وخلّوا سبيله ، فأتى رُتَبيل فقال له : إن هذا كان عاملي على هذه المدينة ، وكنت حيث وليته واثقابه ، مطمئناً إليه ، فغدر بي وركب مني ما قد رأيت ، فأذن لي في قتله ، قال : قد آمنتُه وأكره أن أغدر به ، قال : فأذن لي في دفعه ولَهْزِه ، والتصغير به ، قال : أمّا هذا فنعم ، ففعل به عبد الرحمن بن محمد ، ثم مضى حتى دخل من رُتَبيل بلاده ، فأنزله رُتَبيل عنده وأكرمه وعظّمه ، وكان معه ناس من الفلّ كثير .

ثم إن عظم الفُلول وجماعة أصحاب عبد الرحمن ومن كان لا يرجو الأمان ، من الرؤوس والقادة الذين نصبوا للحجاج في كل موطن مع ابن الأشعث ، ولم يقبلوا أمان الحجاج في أول مرة ، وجهّدوا عليه الجُهد كله ، أقبلوا في أثر ابن الأشعث وفي طلبه حتى سقطوا بسجستان ، فكان بها منهم ومن تبعهم من أهل سِجِسْتان وأهل البلد نحو من ستين ألفاً ، ونزلوا على عبدالله بن عامر البَعَار فحصره ، وكتبوا إلى عبد الرحمن يخبرونه بقدمومهم وعددهم وجماعتهم ، وهو عند رُتَبيل . وكان يصلي بهم عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، فكتبوا إليه : أن أقبل إلينا لعلنا نسير إلى خراسان ، فإن بها منا جُنُداً عظيماً ، فعلمهم

يباعوننا على قتال أهل الشام ، وهي بلاد واسعة عريضة ، وبها الرجال والخصون . فخرج إليهم عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن معه ، فحاصروا عبد الله بن عامر البعاري حتى استنزلوه ، فأمر به عبد الرحمن فضرب وعذب وحبس . وأقبل نحوهم عمارة بن تميم في أهل الشام ، فقال أصحاب عبد الرحمن بن محمد لعبد الرحمن : اخرج علينا عن سجستان فلندعها له ونأتي خراسان ، فقال عبد الرحمن بن محمد : على خراسان يزيد بن المهلب ، وهو شاب شجاع صارم ، وليس بتارك لكم سلطانه ، ولو دخلتموها وجدتموه إليكم سريعاً ، ولن يدع أهل الشام اتباعكم ، فأكره أن يجتمع عليكم أهل خراسان وأهل الشام ، وأخاف ألا تنالوا ما تطلبون ، فقالوا : إنما أهل خراسان منا ، ونحن نرجو أن لو قد دخلناها أن يكون من يتبعنا منهم أكثر ممن يقاتلنا ، وهي أرض طويلة عريضة نتجني فيها حيث شئنا ، ومكث حتى يهلك الله الحجاج أو عبد الملك ، أو نرى من رأينا . فقال لهم عبد الرحمن : سيروا على اسم الله .

فساروا حتى بلغوا هراة ، فلم يشعروا بشيء حتى خرج من عسكره عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة القرشي في ألفين ، ففارقوه ، فأخذ طريقاً سوى طريقهم ، فلما أصبح ابن محمد قام فيهم فحيد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ، فإني شهدتك في هذه المواطن ، وليس فيها مشهد إلا أصبر لكم فيه نفسي حتى لا يبق منكم فيه أحد ، فلما رأيته أنكم لا تقاتلون ، ولا تصبرون ، أتيت ملجأ ومأماً فكنيت فيه ، فجاءتني كتبكم بأن أقبل إلينا ، فإنا قد اجتمعنا وأمرنا واحد ، لعلنا نقاتل عدونا ، فأتيتكم فرأيت أن أمضي إلى خراسان ، وزعمتم أنكم مجتمعون لي ، وأنكم لن تفرقوا عني ، ثم هذا عبيد الله بن عبد الرحمن قد صنع ما قد رأيتم ، فحسبي منكم يومي هذا فاصنعوا ما بدا لكم ، أما أنا فمصرف إلى صاحبي الذي أتيتكم من قبله ، فمن أحب منكم أن يتبعني فليتبني ، ومن كره ذلك فليذهب حيث أحب في عياد من الله .

فتفرقت منهم طائفة ، ونزلت معه طائفة ، وبقي عظم العسكر ، فوثبوا إلى عبد الرحمن بن العباس لما انصرف عبد الرحمن ، فبايعوه . ثم مضى ابن محمد إلى رتبيل ومضوا هم إلى خراسان حتى انتهوا إلى هراة ، فلقوا بها الرقاد الأزدي من العتيك ، فقتلوه ، وسار إليهم يزيد بن المهلب .

وأما علي بن محمد المدائني فإنه ذكر عن المفضل بن محمد أن ابن الأشعث لما انهزم من مسكن مضى إلى كابل ، وأن عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة أتى هراة ، فذم ابن الأشعث وعاله بفراره ، وأتى عبد الرحمن بن عباس سجستان فانضم إليه فل ابن الأشعث ، فسار إلى خراسان في جمع يقال عشرين ألفاً ، فنزل هراة ولقوا الرقاد بن عبيد العتيك فقتلوه ، وكان مع عبد الرحمن من عبد القيس عبد الرحمن بن المنذر بن الجارود ، فأرسل إليه يزيد بن المهلب : قد كان لك في البلاد متسع ، ومن هو أكل مني مداً وأهون شوكة ، فارتحل إلى بلد ليس فيه سلطان ، فإني أكره قتالك ، وإن أحببت أن أمدك بمال لسفرك اعتك به ، فأرسل إليه : ما نزلنا هذه البلاد لمحاربة ولا لمقام ، ولكننا أردنا أن نريح ، ثم نشخص إن شاء الله ، وليس بنا حاجة إلى ما عرضت . فانصرف رسول يزيد إليه ، وأقبل الهاشمي على الجبابة ، وبلغ يزيد ، فقال : من أراد أن يريح ثم يجتاز لم يجب الخراج ، فقدم المفضل في أربعة آلاف - ويقال في ستة آلاف - ثم أتبعه في أربعة آلاف ، ووژن نفسه بسلاحه ، فكان أربعمائة رطل ، فقال : ما أراي إلا قد ثقلت عن الحرب ، أي فرس يحملني ! ثم دعا بفرسه الكامل فركبه ، واستخلف على مرو خاله جديع بن يزيد ، وصير على مرو الروذ ، فأتى قبر أبيه فأقام عنده ثلاثة أيام ، وأعطى من

معه مائة درهم مائة درهم ، ثم أتى هراة فأرسل إلى الهاشمي : قد ارتحت واسمنت وجيئت ، فلك ما جيئت ، وإن أردت زيادة زدناك ، فأخرج فوالله ما أحب أن أقاتلك . قال : فأبى إلا القتال ومعه عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة ، ودس الهاشمي إلى جند يزيد يمنيهم ويدعوهم إلى نفسه ، فأخبر بعضهم يزيد ، فقال : جل الأمر عن العتاب ، أتعدى بهذا قبل أن يتعشى بي ، فسار إليه حتى تداى العسكران ، وتأهبوا للقتال ، وألقي يزيد كرسيه فقعده عليه ، وولى الحرب أخاه المفضل ، فأقبل رجل من أصحاب الهاشمي - يقال له خليل عتيق من عبد القيس - على ظهر فرسه ، فرفع صوته فقال :

دَعَتْ يَا يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلَّبِ دَعْوَةٌ لَهَا جَزَعٌ ثُمَّ اسْتَهْلَتْ عُيُونُهَا
وَلَوْ يُسْمِعُ الدَّاعِيَ النَّدَاءُ أَجَابَهَا بِصُحْبِ الْقَنَا وَالْبَيْضِ تُلْقَى جَفُونُهَا
وَقَدْ فَرَّ أَشْرَافُ الْعِرَاقِ وَغَادَرُوا بِهَا بَقْرًا لِلْحَيْنِ جُمًا قُرُونُهَا

وأراد أن يحض يزيد : فكست يزيد طويلا حتى ظن الناس أن الشعر قد حرّكه ، ثم قال لرجل : ناد وأسمعهم ، جشمهم ذلك ، فقال خليل :

لبس المنادي والمنوّه باسمه تُنَادِيهِ أَبْكَارُ الْعِرَاقِ وَعُيُونُهَا
يَزِيدُ إِذَا يُدْعَى لِيَوْمِ حَفِظَةٍ وَلَا يَمْنَعُ السُّوَاتِ إِلَّا حُصُونُهَا
فَلِنِي أَرَاهُ عَنْ قَلِيلٍ بِنَفْسِهِ يُدَانُ كَمَا قَدْ كَانَ قَبْلَ يَدِينُهَا
فَلَا حُرَّةَ تَبْكِيهِ لَكِنْ نَوَائِحُ تُبْكِي عَلَيْهِ الْبُقْعُ مِنْهَا وَجُونُهَا

فقال يزيد للمفضل : قدّم خليلك ، فتقدّم بها ، وتهايجوا فلم يكن بينهم كبير قتال حتى تفرق الناس عن عبد الرحمن ، وصبر وصبرت معه طائفة من أهل الحِفاظ ، وصبر معه العبديون ، وحمل سعد بن نجد القردوسي على حليس الشيباني وهو أمام عبد الرحمن ، فطعنه حليس فأذراه عن فرسه ، وحامه أصحابه ، وكثرهم الناس فانكشفوا ، فأمر يزيد بالكف عن اتباعهم ، وأخذوا ما كان في عسكرهم ، وأسروا منهم أسرى ، فولى يزيد عطاء بن أبي السائب العسكر ، وأمره بضم ما كان فيه ، فأصابوا ثلاث عشرة امرأة ، فأتوا بهن يزيد ، فدفعهن إلى مرة بن عطاء بن أبي السائب ، فحملهن إلى الطَّبَسِينَ ، ثم حملهن إلى العراق . وقال يزيد لسعد بن نجد : من طعنك ؟ قال : حليس الشيباني ، وأنا والله راجلا أشد منه وهو فارس . قال : فبلغ حليسا ، فقال : كذب والله ، لأنا أشد منه فارسا وراجلا . وهرب عبد الرحمن بن منذر بن بشر بن حارثة فصار إلى موسى بن عبد الله بن خازم قال : فكان في الأسر محمد بن سعد بن أبي وقاص وعمر بن موسى بن عبد الله بن معمر وعبيد الله بن الأسود بن عوف الزهري ، والهلثام بن نعيم بن قعبد بن زُرارة ، وفيروز حصين ، وأبو العُجْج مولى عبيد الله بن معمر ، ورجل من آل أبي عقيل ، وسوار بن مروان ، وعبد الرحمن بن طلحة بن عبد الله بن خلف ، وعبد الله بن فضالة الزهراني . ولحق الهاشمي بالسند ، وأتى ابن سمرة مرو ، ثم انصرف يزيد إلى مرو وبعث بالأسرى إلى الحجاج مع سبرة بن نخف بن أبي صفرة ، وخلي عن ابن طلحة وعبد الله بن فضالة ، وسعى قوم بعبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة ، فأخذه يزيد فحبسه .

وأما هشام فإنه ذكر أنه حدّثه القاسم بن محمد الحضرمي ، عن حفص بن عمرو بن قبيصة ، عن رجل من بني حنيفة يقال له جابر بن عمارة ، إن يزيد بن المهلب حبس عنده عبد الرحمن بن طلحة وأمنه ، وكان الطلحي قد آلى على يمين ألا يرى يزيد بن المهلب في موقف إلا أتاها حتى يقبل يده شكرا لما أبلاه . قال : وقال

محمد بن سعد بن أبي وقاص ليزيد : أسألك بدعوة أبي لأبيك ! فخلّ سبيله . ولقول محمد بن سعد ليزيد : « أسألك بدعوة أبي لأبيك » حديث فيه بعض الطول .

قال هشام : حدّثني أبو مخنف : قال : حدّثني هشام بن أيوب بن عبد الرحمن بن أبي عَاقِلِ الثَّقَفِيِّ ، قال : بعث يزيد بن المهلب ببقية الأسرى إلى الحجاج بن يوسف ، بعمر بن موسى بن عُبَيْدِ اللَّهِ بن مَعْمَرٍ ، فقال : أنت صاحبُ شرطة عبد الرحمن ؟ فقال : أصلح الله الأمير ! كانت فتنة شملت البرّ والفاجر ، فدخلنا فيها ، فقد أمكنك الله منا ، فإن عفوت فبحلمك وفضلك ، وإن عاقبت عاقبت ظلمة مذنبين ، فقال الحجاج : أما قولك : « إنما شملت البرّ والفاجر » فكذبت ، ولكنها شملت الفجار ، وعوفي منها الأبرار ، وأما اعترافك بذنبك فعسى أن ينفعك . فعزل ، ورجا الناس له العافية حتى قدم بالهلقام بن نعيم ، فقال له الحجاج : أخبرني عنك ، ما رجوت من إتياع عبد الرحمن بن محمد ؟ أرجوت أن يكون خليفة ؟ قال : نعم ، رجوت ذلك ، وطمعت أن يُنزلني منزلتك من عبد الملك ، قال : فغضب الحجاج وقال : اضربوا عنقه ، فقتل .

قال : ونظر إلى عمر بن موسى بن عبيد الله بن معمر وقد نُحِّي عنه فقال : اضربوا عنقه ، وقتل بقتلهم . وقد كان آمن عمرو بن أبي قرّة الكندي ثم الحجريّ وهو شريف وله بيت قديم ، فقال : يا عمرو ، كنت تفضي إليّ وتحذّثني أنك ترغب عن ابن الأشعث وعن الأشعث قبله ، ثم تبع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، والله ما بك عن أتباعهم رغبة ، ولا نعمة عين لك ولا كرامة . قال : وقد كان الحجاج حين هُزِمَ الناس بالجماجم نادى مناديه : من لحق بقتيبة بن مسلم بالريّ فهو أمّانه ، فالحق ناس كثير بقتيبة ، وكان فيمن لحق به عامر الشعبيّ ، فذكر الحجاج الشعبيّ يوماً فقال : أين هو ؟ وما فعل ؟ فقال له يزيد بن أبي مسلم : بلغني أيها الأمير أنه لحق بقتيبة بن مسلم بالريّ ، قال : فابعث إليه فلنؤت به فكُتِبَ الحجاج إلى قتيبة : أما بعد ، فابعث إليّ بالشعبيّ حين تنظر في كتابي ، هذا ، والسلام عليك ، فسرح إليه .

قال أبو مخنف : فحدّثني السريّ بن اسماعيل عن الشعبيّ ، قال : كنت لابن أبي مسلم صديقاً ، فلما قدّم بي على الحجاج لقيت ابن أبي مسلم فقلت : أشير عليّ ، قال : ما أدري ما أشيرُ به عليك غير أن اعتذر ما استطعت من عذر ! وأشار بمثل ذلك عليّ نصحائي وإخواني ، فلما دخلت عليه رأيت والله غير ما رأوا لي ، فسلمت عليه بالأمرة ، ثم قلت : أيها الأمير ، إن الناس قد أمروني أن اعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق ، وأيم الله لا أقول في هذا المقام ألا حقاً ، قد والله سوّدنا عليك ، وحرّضنا وجهداً عليك كلّ الجهد ، فما آلونا ، فما كنا بالأقوياء الفجرة ، ولا الاتقياء البرّة ، ولقد نصرك الله علينا ، وأضفرك بنا ، فإن سطوت فبذُنوبنا وما جرّت إليه أيدينا ، وإن عفوت عنا فبحلمك ، وبعد الحجة لك علينا ، فقال له الحجاج : أنت والله أحبّ إليّ قولاً ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دماننا ثم يقول : ما فعلت ولا شهدت ، قد أمّنت عندنا يا شعبيّ ، فانصرف . قال : فانصرفت ، فلما مشيت قليلاً قال : هلمّ يا شعبيّ ، قال : فوجلّ لذلك قلبي ، ثم ذكرت قوله : « قد أمّنت يا شعبيّ » فاطمأنت نفسي ، قال : كيف وجدت الناس يا شعبيّ بعدنا ؟ قال - وكان لي مكرماً - فقلت : أصلح الله الأمير ! اكتحلّ والله بعدك السهر ، واستوعرت الجناب ، واستحلست الخوف ، وفقدت صالح الاخوان ، ولم أجد من الأمير خلفاً . قال : انصرف يا شعبيّ ، فانصرفت .

قال أبو مخنف : قال خالد بن قطن الحارثي : أتى الحجاج بالأعشى ، أعشى همدان ، فقال : أيه يا عدو

الله ! أنشدني قولك : « بين الأشجّ وبين قيس » ، أنشد بيّنك ، قال : بل أنشدك ما قلت لك ، قال : بل أنشدني هذه ، فأنشده :

وَيُظْفِيءُ نُورَ الْفَاسِقِينَ فَيَخْمُدَا
وَيُعْدِلُ وَقَعَ السَّيْفِ مِنْ كَانَ أَصِيدَا
لِإِذَا نَقَضُوا الْعَهْدَ الْوَثِيقَ الْمَوْكُودَ
مِنَ الْقَوْلِ لَمْ تَصْعَدْ إِلَى اللَّهِ مُصْعِدَا
إِذَا ضَمِنُوهَا الْيَوْمَ خَاسُوا بِهَا غَدَا
فَمَا يَقْرَبُونَ النَّاسَ إِلَّا تَهْدُداً
وَلَكِنْ فَخْرًا فِيهِمْ وَتَزِيدَا
وَمَرْقَهُمْ عَرْضَ الْبِلَادِ وَشَرِّدَا !
وَحَيْثُهمْ أَمْسَى ذَلِيلًا مُطْرَدَا
وَأَبْرَقَ مِنَّا الْعَارِضَانِ وَأَرْعَدَا
قَطَعْنَا وَأَفْضَيْنَا إِلَى الْمَوْتِ مُرْصِدَا
كَفَاحًا وَلَمْ يَضْرِبْ لَدُنْكَ مَوْعِدَا
إِذَا مَا تَجَلَّى بِيَضُهُ وَتَوَقَّدَا
جِبَالُ شَرُورِي لَوْ تَعَانُ فَتَنُّدَا
عَلَيْنَا فَوَلَّى جَمْعُنَا وَتَبَدَّدَا
مُعَانًا مُلْقَى لِلْفَتْوحِ مُعَوَّدَا
نُشَبِّهَهَا قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ أَسْوَدَا
أَلَا رُبَّمَا لَأَقَى الْجَبَانَ فَجَرَّدَا
بِفُرْسَانِهَا وَالسَّهْمَرِيِّ مُقْصِدَا
مِنَ الطَّعْنِ سِنْدُ بَاتٍ بِالصَّبْغِ مُجَسَّدَا
مَسَاعِيرُ أَبْطَالٍ إِذَا النُّكْسُ عَرَّدَا
فَأَنهَلَ خِرْصَانَ الرِّمَاحِ وَأَوْرَدَا
وَسُلْطَانُهُ أَمْسَى عَزِيزًا مُؤَيَّدَا
عَلَى أَمَةٍ كَانُوا بُغَاةً وَحُسَّدَا
وَكَانُوا هُمْ أَبْغَى الْبُغَاةِ وَأَعْنَدَا
وَأَفْضَلَ هَذِي النَّاسِ جَلْمًا وَسُودَدَا
وَكَرَمَهُمُ إِلَّا النَّبِيَّ مُحَمَّدَا
وَجَدْنَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُسَلَّدَا
وَإِنْ كَايَدُوهُ كَانَ أَقْوَى وَاتَّكَبَدَا
مَرِيضًا وَمَنْ وَالَى النِّفَاقَ وَالْحَدَا

أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتَمِّمَ نُورَهُ
وَيُظْهِرَ أَهْلَ الْحَقِّ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ
وَيُنْزِلَ ذُلًّا بِالْعِرَاقِ وَأَهْلِهِ
وَمَا أَحْدَثُوا مِنْ بِدْعَةٍ وَعَظِيمَةٍ
وَمَا نَكَثُوا مِنْ بَيْعَةٍ بَعْدَ بَيْعَةٍ
وَجُبْنًا حَشَاهُ رَبُّهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ
فَلَا صِدْقَ فِي قَوْلٍ وَلَا صَبْرَ عِنْدَهُمْ
فَكَيْفَ رَأَيْتَ اللَّهَ فَرَّقَ جَمْعَهُمْ
فَقَتَّلَاهُمْ قَتْلَى ضَلَالٍ وَفِتْنَةٍ
وَلَمَّا زَحَفْنَا لِابْنِ يُوسُفَ غُدُوَّةً
قَطَعْنَا إِلَيْهِ الْخُنْدَقِينَ وَإِنَّمَا
فَكَافَحْنَا الْحِجَّاجَ دُونَ صُفُوفِنَا
بَصْفٌ كَأَنَّ الْبَرْقَ فِي حَجَرَاتِهِ
دَلَفْنَا إِلَيْهِ فِي صُفُوفٍ كَأَنَّهَا
فَمَا لَبِثَ الْحِجَّاجُ أَنْ سَلَ سَيْفُهُ
وَمَا زَاخَفَ الْحِجَّاجُ إِلَّا رَأْيَتُهُ
وَإِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ لَفِي مَرْجَحْنَةٍ
فَمَا شَرَعُوا رُمْحًا وَلَا جَرَّدُوا لَهُ
وَكُرْتُ عَلَيْنَا خَيْلُ سُفْيَانَ كَرَّةً
وَسُفْيَانَ يَهْدِيهَا كَأَنَّ لَوَاءَهُ
كُھُولٌ وَمُرْدٌ مِنْ قَضَاعَةٍ حَوْلَهُ
إِذَا قَالَ شَدُّوا شِدَّةَ حَمَلُوا مَعَا
جُنُودُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَخَيْلُهُ
فِيهِنِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ظُهُورُهُ
نَزَوْا يَشْتَكُونَ الْبَغْيَ مِنْ أَمْرَائِهِمْ
وَجَدْنَا بَنِي مَرْوَانَ خَيْرَ أَئِمَّةٍ
وَخَيْرَ قُرَيْشٍ فِي قُرَيْشِ أَرْوَمَةٍ
إِذَا مَا تَدَبَّرْنَا عَوَاقِبَ أَمْرِهِ
سَيُغْلِبُ قَوْمَ غَالِبُوا اللَّهَ جَهْرَةً
كَذَاكَ يَضِلُّ اللَّهُ مَنْ كَانَ قَلْبُهُ

فقد تركوا الأهليين والمال خلفهم
يُنَادِينَهُمْ مُسْتَعِيرَاتٍ إِلَيْهِمْ
فَالَا تُنَاوِلُهُنَّ مِنْكَ بِرَحْمَةٍ
أَنْكُشًا وَعِصْيَانًا وَغَدْرًا وَذِلَّةً
لَقَدْ شَامَ الْمِضْرِينَ فَرُخٌ مُحَمَّدٍ
كَمَا شَامَ اللَّهُ النَّجِيرَ وَأَهْلَهُ
وَيَضًا عَلَيْهِنَّ الْجَلَابِيبُ خُرْدًا
وَيُذْرِينَ دَمْعًا فِي الْخُدُودِ وَإِثْمًا
يَكُنَّ سَبَايَا وَالْبُعُولَةُ أَعْبَدًا
أَهَانَ إِلَهُ مِنْ أَهَانَ وَأَبْعَدًا
يَحَقُّ وَمَا لَاقَى مِنَ الطَّيْرِ أَسْعَدًا
بَجْدُلُهُ قَدْ كَانَ أَشْقَى وَأَنْكَدًا

فقال أهل الشام : أحسن ، أصلح الله الأمير ! فقال الحجاج : لا ، لم يحسن ، إنكم لا تدرون ما أراد بها ، ثم قال : يا عدو الله ، إنا لسنا نحمدك على هذا القول ، إنما قلت : تأسف ألا يكون ظهر وظفر ، وتحريضاً لأصحابك علينا ، وليس عن هذا سألناك ، أنفذ لنا قولك :

بَيْنَ الْأَشْجِ وَبَيْنَ قَيْسٍ بَاذِخٌ
فَأَنْفَذَهَا ، فَلَمَّا قَالَ :

بَخٍ بَخٍ لَوَالِدِهِ وَلِلْمَوْلُودِ .

قال الحجاج : لا والله لا تبخخ بعدها لأحد أبداً ، فقدّمه فضرَبَ عُنُقَهُ .

وقد ذكر من أمر هؤلاء الأسرى الذين أسرهم يزيد بن المهلب ووجههم إلى الحجاج ومن فلول ابن الأشعث الذين انهزموا يوم مسكن أمر غير ما ذكره أبو مخنف عن أصحابه . والذي ذكر عنهم من ذلك أنه لما انهزم ابن الأشعث مضى هؤلاء مع سائر الفلّ إلى الرّي ، وقد غلب عليها عمر بن أبي الصلت بن كنانة مولى بني نصر بن معاوية ، وكان من أفرس الناس ، فانضموا إليه ، فأقبل قتيبة بن مسلم إلى الرّي من قبل الحجاج وقد ولّاه عليها . فقال النفر الذين ذكرت أنّ يزيد بن المهلب وجههم إلى الحجاج مقيدين وسائر فلّ ابن الأشعث الذين صاروا إلى الرّي لعمر بن أبي الصلت : نوليك أمرنا وتحارب بنا قتيبة ، فشاور عمر أباه أبا الصلت ، فقال له أبوه : والله يا بُني ما كنت أبالي إذا سار هؤلاء تحت لوائك أن تقتل من غد . فعقد لوائه ، وسار فهزم وهزم أصحابه ، وانكشفوا إلى سجستان ، واجتمعت بها الفلول ، وكتبوا إلى عبدالرحمن بن محمد وهو عند رُبَيْل ، ثم كان من أمرهم وأمر يزيد بن المهلب ما قد ذكرت .

وذكر أبو عبيدة أن يزيد لما أراد أن يوجه الأسرى إلى الحجاج قال له أخوه حبيب : بأيّ وجه تنظر إلى اليمانية وقد بعثت ابن طلحة ! فقال يزيد : هو الحجاج ، ولا يُتعرض له ! وقال : وطن نفسك على العزل ، ولا تُرسل به ، فإنّ له عندنا بلاءً ، قال : وما بلاءه ؟ قال : لزم المهلب في مسجد الجماعة بمائتي ألف ، فأذاها طلحة عنه . فاطلقه ، وأرسل بالباقيين ، فقال الفرزدق :

وَجَدَ ابْنُ طَلْحَةَ يَوْمَ لَاقَى قَوْمَهُ قَحِيطَانِ يَوْمَ هَرَاةٍ خَيْرَ الْمَعَشَرِ

وقيل : إنّ الحجاج لما أتى هؤلاء الأسرى من عند يزيد بن المهلب قال لحاجبه : إذا دعوتك بسبيهم أتني ، بغير رز ، فأبرز سريه - وهو حينئذ بواسط القصب قبل أن تُبنى مدينة واسط - ثم قال لحاجبه : جئني بسبيهم ، فقال لغيروز : قم ، فقال له الحجاج : أبا عثمان ، ما أخرجك مع هؤلاء ؟ فوالله ما لحبك من لحومهم ، ولا دمك من دماهم ! قال : فتنة عمّت الناس ، فكنا فيها ، قال اكتب لي أموالك ، قال : ثم

ماذا؟ قال: اكتبها أول، قال: ثم أنا آمين على دمي؟ قال: اكتبها، ثم أنظر، قال: اكتب يا غلام، ألف ألف ألفي ألف، فذكر مالا كثيرا، فقال الحجاج: أين هذه الأموال؟ قال: عندي، قال: فأدّها، قال: وأنا آمين على دمي؟ قال: والله لتؤدّيها ثم لاقتلنك، قال: والله لا تجمع مالي ودمي، فقال الحجاج للحاجب: نَحْه، فنحاه.

ثم قال: ائتني بمحمد بن سعد بن أبي وقاص، فدعاه، فقال له الحجاج: إيه يا ظلّ الشيطان أعظم الناس تهيأ وكبرا: تأبى بيعة يزيد بن معاوية، وتشبه بحسين وابن عمر، ثم صرت مؤذنا لابن كنارا عبد بني نصر - يعني عمر بن أبي الصلت - وجعل يضرب بعود في يده رأسه حتى أدماه، فقال له محمد: أيها الرجل، ملكك فأسجح! فكف يده، فقال: إن رأيت أن تكتب إلى أمير المؤمنين فإن جاءك عفو كنت شريكا في ذلك محمودا، وإن جاءك غير ذلك كنت قد أعدرت. فأطرق مليا ثم قال: اضرب عنقه، فضربت عنقه.

ثم دعا بعمر بن موسى فقال: يا عبد المرأة، أتقوم بالعمود على رأس ابن الحائك، وتشرب معه الشراب في حمّ فارس، وتقول المقالة التي قلت! أين الفرزدق؟ قم فأنشد ما قلت فيه، فأنشده:

وَحَضَبْتَ أَيْرَكَ لِلزَّناءِ وَلَمْ تَكُنْ يَوْمَ الْهِياجِ لَتَخْضِبِ الْأَبْطالَا

فقال: أما والله لقد رفعته عن عقائل نساءك، ثم أمر بضرب عنقه.

ثم دعا ابن عبيد الله بن عبد الرحمن بن سُمرة، فإذا غلام حَدَث، فقال: اصْلَحَ اللهُ الأمير! ما لي ذنب، إنما كنت غلاما صغيرا مع أبي وأمي لا أمر لي ولا نهي، وكنت معها حيث كانا، فقال: وكانت أمك مع أبيك في هذه الفتن كلها؟ قال: نعم، قال على أبيك لعنة الله.

ثم دعا بالهلقام بن نعيم فقال: اجعل ابن الأشعث طلب ما طلب، ما الذي أمّلت أنت معه؟ قال: أمّلت أن يملك فيولّيني العراق كما ولاك عبد الملك. قال: قم يا حوشب فاضرب عنقه، فقام إليه، فقال له الهلقام: يابن لقيطة، أتتك القرح! فاضرب عنقه.

ثم أتى بعبد الله بن عامر، فلما قام بين يديه قال: لا رأيت عينك يا حجاج الجنة إن أقلت ابن المهلب بما صنع، قال: وما صنع؟ قال:

لأنه كاس في إطلاقِ أسْرَتِهِ وقادَ نحوكَ في أغلالها مُضْرا
وقى بقميكَ وردَ الموتِ أسْرَتَهُ وكان قومك أدنى عنده خطرا

فأطرق الحجاج مليا ووقرت في قلبه، وقال: وما أنت وذاك! اضرب عنقه. فضربت عنقه. ولم تزل في نفس الحجاج حتى عزل يزيد عن خراسان وحبس.

ثم أمر بفيروز فعذب، فكان فيما عذب به أن كان يُشدّ عليه القصب الفارسي المشقوق، ثم يجرّ عليه حتى يخرق جسده، ثم يُنضح عليه الخل والملح، فلما أحسّ بالموت قال لصاحب العذاب: إن الناس لا يشكون أني قد قُتلت، ولي ودائع وأموال عند الناس، لا تودّي إليكم أبدا، فأظهروني للناس ليعلموا أني حيّ فيؤدوا المال. فأعلم الحجاج، فقال: أظهِروه، فأخرج إلى باب المدينة، فصاح في الناس: مَنْ عرفني فقد عرفني، ومن أنكرني فأنافير حصى، إن لي عند اقوام مالا، فمن كان لي عنده شيء فهو له، وهو منه في حل، فلا يؤدّي منه أحد درهما، ليبلغ الشاهد الغائب. فأمر به الحجاج فقتل. وكان ذلك لما روى الوليد بن

هشام بن قحذم ، عن أبي بكر الهذلي .

وذكر ضمرة بن ربيعة ، عن أبي شؤذب ، أنَّ عمَّال الحجاج كتبوا إليه : إنَّ الخراج قد انكسر ، وإنَّ أهل الذمة قد اسلموا ولحقوا بالأمصار ، فكتب إلى البصرة وغيرها أنَّ من كان له أصل في قرية فليخرج إليها . فخرج الناس فغسكروا ، فجعلوا يَبكون وَيَنادُونَ : يا محمداه يا محمداه ! وجعلوا لا يدرون أين يذهبون ! فجعل قراء أهل البصرة يخرجون إليهم متقنعين فيبكون لما يسمعون منهم وَيَرَوْنَ . قال : فقَدِم ابن الأشعث على تَفِيئة ذلك ، واستبصر قراء أهل البصرة في قتال الحجاج مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث .

وذكر عن ضمرة بن ربيعة عن الشيباني ، قال : قَتَلَ الحجاج يوم الزاوية أحد عشر ألفاً ، ما استخيا منهم إلا واحداً ، كان ابنه في كُتَّاب الحجاج ، فقال له : أتحب أن نَعفوك عن أبيك ؟ قال : نعم ، فتركة لابنه ، وإنما خدعهم بالأمان ، أمر منادياً فنادى عند الهزيمة : ألا لا أمانَ لفلان ولا فلان ، فسمي رجلاً من أولئك الأشراف ، ولم يَقُل : الناس آمنون ، فقالت العامة : قد آمن الناس كلهم إلا هؤلاء النفر ، فأقبلوا إلى حُجْرته فلما اجتمعوا أمرهم بوضع أسلحتهم ، ثم قال : لأمرن بكم اليوم رجلاً ليس بينكم وبينه قرابة ، فأمر بهم عُمارة بن تميم اللخمي فقتلهم .

وروي عن النضر بن شميل ، عن هشام بن حسان ، أنه قال : بلغ ما قَتَلَ الحجاج صبراً مائة وعشرين ، او مائة وثلاثين ألفاً .

وقد ذكر في هزيمة ابن الأشعث بمسكن قول غير الذي ذكره أبو مخنف ، والذي ذكر من ذلك ان ابن الأشعث والحجاج اجتماعاً بمسكن من أرض أبقاذ ، فكان عسكرُ ابن الأشعث على نهر يدعى خدّاش مؤخر النهر ، نهر تيزرى ، ونزل الحجاج على نهر أفريد والعسكران جميعاً بين دجلة والسيب والكرخ ، فاقتتلوا شهراً - وقيل : دون ذلك - ولم يكن الحجاج يعرف إليهم طريقاً إلا الطريق الذي يلتقون فيه ، فأتى بشيخ كان راعياً يُدعى زورقا ، فدله على طريق من وراء الكرخ طوله ستة فراسخ ، في أجمة وضحضاح من الماء ، فانتخب أربعة آلاف من جلة أهل الشام ، وقال لقائدهم : ليكن هذا العُجج أمامك ، وهذه أربعة آلاف درهم معك ، فإن أقامك على عسكرهم فادفع المال إليه ، وإن كان كذباً فاضرب عنقه ، فإن رأيتهم فاحمل عليهم فيمن معك ، وليكن شعاركم : يا حجاج يا حجاج . فانطلق القائد صلاة العصر ، والتقى عسكرُ الحجاج وعسكرُ ابن الأشعث حين فصل القائد بمن معه وذلك مع صلاة العصر ، فاقتتلوا إلى الليل ، فانكشف الحجاج حتى عبر السيب - وكان قد عقده - ودخل ابن الأشعث عسكره فانتهب ما فيه ، فقتل له : لو أتبعته؟ فقال : قد تعينا ونصبنا ، فرجع إلى عسكره فألقى أصحابه السلاح ، وباتوا آمنين في أنفسهم لهم الظفر . وهجم القوم عليهم نصف الليل يصيحون بشعارهم ، فجعل الرجل من أصحاب ابن الأشعث لا يدري أين يتوجه ! دُجِيل عن يساره ودجلة أمامه ، ولها جُرف منكر ، فكان من غرق أكثر من قُتِل . وسمع الحجاج الصوت فعب السيب ، إلى عسكره ، ثم وجه خيله إلى القوم فالتقى العسكران على عسكر ابن الأشعث ، وانحاز في ثلاثمائة ، فمضى على شاطئ دجلة حتى أتى دُجَيْلاً فعبه في السفن ، وعَقَرُوا دوابهم ، وانحدروا في السفن إلى البصرة ، ودخل الحجاج عسكره ، فانتهب ما فيه ، وجعل يَقْتُل من وجد حتى قَتَلَ أربعة آلاف ، فيقال : إنَّ فيمن قُتِل عبدالله بن شداد بن الهاد ، وقتل فيهم بسطام بن مصقلة بن هُبيرة ، وعمر بن ضبيعة الرقاشي ، وبشر بن المنذر بن الجارود والحكم بن نحرمة العبديين ، وبكير بن ربيعة بن ثروان الضبي . ، فأني الحجاج

برؤوسهم على تُرُس ، فجعل ينظر إلى رأس بسطام ويتمثل :

إذا مَرَرْتَ بوادي حَيَّة ذَكَرٍ فاذهب ودعني أقاسي حَيَّة الوادي

ثم نظر إلى رأس بُكير ، فقال : ما ألقى هذا الشقي مع هؤلاء . خُذْ بأذنه يا غلام فإلقه عنهم . ثم قال : ضَعْ هذا الترس بين يديّ مسمَع بن مالك بن مَسَمَع ، فَوَضِع بين يديه ، فبكى ، فقال له الحجاج : ما أبكاك ؟ أحنناً عليهم ؟ قال : بل جَزَعاً لهم من النار .

وفي هذه السنة : بنى الحجاج واسطاً ، وكان سبب بنائه ذلك - فيما ذُكر - أنّ الحجاج ضرب البعث على أهل الكوفة إلى خراسان ، فعسكروا بحمّام عُمر . وكان فتى من أهل الكوفة من بني أسد حديث عهد بعُرس بابنة عمّ له ، انصرف من العسكر إلى ابنة عمّه ليلاً ، فطرق الباب طارق ودقّه دقّاً شديداً ، فإذا سَكَرَان من أهل الشام ، فقالت للرجل ابنة عمّه : لقد لقينا من هذا الشامي شراً ، يفعل بنا كلّ ليلة ما ترى ، يريد المكروه ، وقد شكوته إلى مشيخة أصحابه ، وعرفوا ذلك ، فقال : ائذّنوا له ، ففعلوا ، فأغلق الباب ، وقد كانت المرأة نجّدت منزلها وطيبته ، فقال الشامي : قد آن لكم ، فاستقنائه الأسدي . فأنذر رأسه ، فلما أذن بالفجر خرج الرجل إلى العسكر وقال لامرأته : إذا صليت الفجر فابعثي إلى الشاميين أن يخرجوا صاحبكم ، فسيأتون بك الحجاج ، فاصدقيه الخبر على وجهه ، ففعلت ، ورفعت القتل إلى الحجاج ، وأدخلت المرأة عليه وعنده غنيسة بن سعيد على سريريه ، فقال لها : ما خطبك ؟ فأخبرته ، فقال : صدقتني . ثم قال لولاء الشامي : ادفنوا صاحبكم فإنه قتل الله إلى النار ، لا قود له ولا عقل ، ثم نادى مناديه : لا ينزلن أحد على أحد ، واخرجوا فعسكروا . وبعث رُؤادا يرتادونه له منزلاً ، وأمعن حتى نزل أطراف كَسْكَر ، فبينما هو في موضع واسط إذا راهب قد أقبل على حمار له وعبر دجلة ، فلما كان في موضع واسط تفاجت الأتان فبالت ، فنزل الراهب فاحتفر ذلك البول ، ثم احتملَه فرمى به في دجلة ، وذلك بعين الحجاج ، فقال : عليّ به ، فأتي به ، فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال نجد في كُتُبنا أنه يُبنى في هذا الموضع مسجد يُعبد الله فيه ما دام في الأرض أحد يوحدَه . فاخطط الحجاج مدينة واسط ، وبنى المسجد في ذلك الموضع .

وفي هذه السنة عزّل عبد الملك - فيما قال الواقدي - عن المدينة أبان بن عثمان ، واستعمل عليها هشام بن إسماعيل المخزومي .

وحجّ بالناس في هذه السنة هشام بن إسماعيل ، حدّثني بذلك أحمد بن ثابت ، عمن حدّثه ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر .

وكان العمال في هذه السنة على الأمصار سيوى المدينة هم العمال الذين كانوا عليها في السنة التي قبلها . وأما المدينة فقد ذكرنا من كان عليها فيها .

ثم دخلت سنة اربع وثمانين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

ففيها كانت غزوة عبدالله بن عبد الملك بن مروان الروم ، ففتح فيها المصيصة ، كذلك ذكر الواقدي . وفيها قتل الحجاج أيوب بن القريّة ، وكان ممن كان مع ابن الأشعث ، وكان سبب قتله إياه - فيما ذكر - أنه كان يدخل حوشب بن يزيد بعد انصرافه من دير الجمام - وحوشب على الكوفة عامل للحجاج - فيقول حوشب : انظروا إلى هذا الواقف معي ، وغداً أو بعد غد يأتي كتاب من الأمير لا يستطيع إلا نفاذه ، فبينما هو ذات يوم واقف إذ أتاه كتاب من الحجاج :

أما بعد ، فإنك قد صرت كهفاً لمنافقي أهل العراق ومأوى ، فإذا نظرت في كتابي هذا فابعث إليّ بأبن القريّة مشدودة يده إلى عنقه ، مع ثقة من قبلك .

فلما قرأ حوشب الكتاب رمى به إليه ، فقرأه فقال : سمعاً وطاعة ، فبعث به إلى الحجاج مؤثقاً ، فلما دخل الحجاج قال له : يا بن القريّة ، ما أعددت لهذا الموقف ؟ قال : أصلح الله الأمير ! ثلاثة حروف كأنهم ركب وقوف ، دنيا ، وآخرة ، ومعروف . قال : أخرج مما قلت ، قال : أفعل ، أما الدنيا فمال حاضر ، يأكل منه البر والفجر ، وأما الآخرة فميزان عادل ، ومشهد ليس فيه باطل ، وأما المعروف فإن كان عليّ اعترفت ، وإن كان لي اعترفت . قال : إمّا لا فاعترف بالسيف إذا وقع بك . قال : أصلح الله الأمير ! أقلني عثرتي ، وأسغني ريقتي ، فإنه ليس جواد إلا له كربة ، ولا شجاع إلا له هبة . قال الحجاج : كلا والله لأرنيك جهنم ، قال : فأرخني فإني أجد حرّها ، قال : قدمه يا حرسيّ فاضرب عنقه . فلما نظر إليه الحجاج يتشحط في دمه قال : لو كنّا تركنا ابن القريّة حتى نسمع من كلامه ! ثم أمر به فأخرج فرمى به .

قال هشام : قال عوانة : حين منع الحجاج من الكلام ابن القريّة : قال له ابن القريّة : أما والله لو كنت أنا وأنت على السواء لسكننا جميعاً ، أولاً لفيت منيعاً .

وفي هذه السنة فتح يزيد بن المهلب قلعة نيزك بباذغيس .

ذكر سبب فتحه إياها :

ذكر علي بن محمد ، عن الفضل بن محمد ، قال : كان نيزك ينزل بقلعة باذغيس ، فتحين يزيد غزوه ، ووصع عليه العيون ، فبلغه خروجه ، فخالفه يزيد إليها ، وبلغ نيزك فرجع ، فصالحه على أن يدفع إليه ما في القلعة من الخزائن ، ويرتحل عنها بعياله ، فقال كعب بن معدان الأشقري :

وباذغيس التي من حل ذروتها
هز الملوك فإن شا جار أو ظلما
منيعة لم يكدها قبله ملك
إلا إذا واجهت جيشاً له وجما

تَخَالُ نيرانها من بُعد منظرها
لَمَّا أَطَافَ بِهَا ضَاقَتْ صَدُورُهُمْ
فَذَلُّ سَاكِتِهَا مِنْ بَعْدِ عِزَّتِهِ
وبعد ذلك أياماً نَعَدَّهَا
أَعْطَاكَ ذَاكَ وَلِيَّ الرِّزْقِ يَقْسِمُهُ
يداك إحداهما تُسْقَى العدو بها
فهل كَسَيْبٍ يَزِيدُ أَوْ كَنَائِلِهِ
ليسا بأجود منه حين مَدَّهَما

وقال :

بعض النجوم إذا مَالِيَهَا عَتَمَا
حتى أَقَرُّوا لَهُ بِالْحُكْمِ فَاحْتَكَمَا
يُعْطَى الْجَزِي عَارِفاً بِالذَّلِّ مُهْتَضِماً
وقبلها ما كَشَفَتْ الكَرْبَ وَالظَّلْمَا
بين الخلائق والمحروم من حُرْمَا
سَمَاً وَأَخْرَى نَدَاها لَمْ يَزَلْ دِيَمَا
إِلَّا الْفِرَاتُ وَإِلَّا الْبَيْلُ حِينَ طَمَا
إِذْ يعلَوَانِ حَدَابِ الْأَرْضِ وَالْأَكْمَا

ثَنَائِي عَلَى حَيِّ الْعَتِيكَ بِأَنْهَا
إِذَا عَقَدُوا لِلجَارِ حَلًّا بِنَجْوَةٍ
نَفَى نِيْزَكًا عَنْ بَاذْغِيْسٍ وَنِيْزَكُ
مُحَلِّقَةٍ دُونَ السَّمَاءِ كَأَنَّهَا
وَلَا يَبْلُغُ الْأَرْوَى شَمَارِيخَهَا الْعَلَا
وَمَا خُوفَتْ بِالذُّبِّ وَلِدَانُ أَهْلِهَا
تَمْنِيْتُ أَنْ أَلْقَى الْعَتِيكَ ذَوِي النَّهْيِ
كَمَا يَتَمَنَّى صَاحِبُ الْحَرْثِ أُعْطِشَتْ
فَأَسْقَى بَعْدَ الْيَأْسِ حَتَّى تَحْيَرْتُ
لَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ النَّوَى وَتَشَعَّبَتْ

كِرَامٌ مَقَارِيهَا ، كِرَامٌ نَصَابُهَا
عَزِيزٌ مَرَاقِيهَا ، مَنِيْعٌ هَضَابُهَا
بِمَنْزِلَةِ أَعْيَا الْمُلُوكِ اغْتِصَابُهَا
غَمَامَةٌ صَيْفٌ زَلَّ عَنْهَا سَحَابُهَا
وَلَا الطَّيْرُ إِلَّا نَسْرُهَا وَعُقَابُهَا
وَلَا نَبَحَتْ إِلَّا النُّجُومُ كِلَابُهَا
مُسْلَطَةٌ تُحْمِي بِمَلِكٍ رِكَابُهَا
مَزَارِعُهُ غِيْثًا غَزِيرًا رَبَابُهَا
جَدَاوِلُهَا رِيًّا وَعَبَّ عِبَابُهَا
شُعُوبٌ مِنَ الْأَفَاقِ شَتَى مَابُهَا

قال : وكان نيزك يُعَظَّمُ القلعة إذا رآها سَجَدَ لها . وَكَتَبَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ إِلَى الْحَجَّاجِ بِالْفَتْحِ ، وَكَانَتْ كُتِبَ يَزِيدُ إِلَى الْحَجَّاجِ يَكْتُبُهَا يَحْيَى بْنُ يَعْمَرَ الْعَدَوَانِيَّ ، وَكَانَ حَلِيفًا لَهُذَيْلٍ ، فَكَتَبَ : إِنَّا لَقَيْنَا الْعَدُوَّ فَمُنَحْنَا اللَّهَ اأَكْتَفَاهُمْ ، فَقَتَلْنَا طَائِفَةً ، وَأَسْرَنَّا طَائِفَةً ، وَلَحَقَتْ طَائِفَةٌ بِرُؤُوسِ الْجِبَالِ وَغَرَاعِرِ الْأَدْوِيَةِ ، وَأَهْضَمَ الْغَيْطَانِ وَأَثْنَاءَ الْأَنْهَارِ ، فَقَالَ الْحَجَّاجُ : مَنْ يَكْتُبُ لِيَزِيدَ ؟ فَقِيلَ : يَحْيَى بْنُ يَعْمَرَ ، فَكَتَبَ إِلَى يَزِيدَ فَحَمَلَهُ عَلَى الْبَرِيدِ ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ أَفْصَحُ النَّاسِ ، فَقَالَ لَهُ : أَيْنَ وُلِدْتَ ؟ قَالَ : بِالْأَهْوَازِ ، قَالَ : فَهَذِهِ الْفَصَاحَةُ ؟ قَالَ : حَفِظْتُ كَلَامَ أَبِي وَكَانَ فَصِيحًا . قَالَ : مِنْ هُنَاكَ فَأَخْبِرْنِي هَلْ يَلْحَنُ عَنبَسَةُ بْنُ سَعِيدٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ كَثِيرًا ، قَالَ : فَفُلَانٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِّي أَلْحَنُ ؟ قَالَ : نَعَمْ تَلْحَنُ لِحْنًا خَفِيًّا ، تَزِيدُ حَرْفًا وَتَنْقُصُ حَرْفًا ، وَتَجْعَلُ أَنْ فِي مَوْضِعٍ إِنَّ ، وَإِنْ فِي مَوْضِعٍ أَنْ ، قَالَ : قَدْ أَجَلَّتْكَ ثَلَاثًا ، فَإِنْ أَجَذَّكَ بَعْدَ ثَلَاثِ بَارِضِ الْعِرَاقِ قَتَلْتُكَ .

فَرَجَعَ إِلَى خُرَاسَانَ .

وَحَجَّ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ هِشَامُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْمُخَزُومِيِّ ، كَذَلِكَ حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ ثَابِتٍ ، عَمَّنْ ذَكَرَهُ ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عِيسَى ، عَنْ أَبِي مَعْشَرٍ .
وَكَانَتْ عَمَّالُ الْأَمْصَارِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ عَمَّالَهَا الَّذِينَ سَمِيَتْ قَبْلَ فِي سَنَةِ ثَلَاثِ وَثَمَانِينَ .

ثم دخلت سنة خمس وثمانين

ذكر ما كان فيها من الأحداث

ففيها كان هلاك عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث .

ذكر السبب الذي به هلك ، وكيف كان :

ذكر هشام بن محمد ، عن أبي مخنف ، قال : لما انصرف أبى الأشعث من هَرَاة راجعاً إلى رُبَيْل كان معه رجلٌ من أُوْد يقال له عُلْقمة بن عمرو ، فقال له : ما أريد أن أدخل معك ، فقال له عبد الرحمن : لم ؟ قال : لأني أتخوف عليك وعلى من معك ، والله لكأنى بكتاب الحجاج قد جاء ، فوقع إلى رُبَيْل يُرْغِبُهُ وَيُرْهَبُهُ ، فإذا هو قد بعث بك سَلماً أو قَتْلَكم . ولكن ها هنا خمسمائة قد تبايعنا على أن ندخل مدينةً فنتحصن فيها ، ونقاتل حتى نُعْطِيَ أماناً أو نَمُوتَ كراماً . فقال له عبد الرحمن : أما لو دخلت معي لَأَسِيتُكَ وأَكْرَمْتُكَ ، فأبى عليه عُلْقمة ، ودخل عبد الرحمن بن محمد إلى رُبَيْل . وخرج هؤلاء الخمسمائة فبعثوا عليهم مودودا النُضْرِي ، وأقاموا حتى قدم عليهم عُمارَةُ بن تميم اللَّخْمِي فحاصَرَهُم ، فقاتلوه وامتنعوا منه حتى آمنهم ، فخرجوا إليه فوفي لهم . قال : وتتابعت كُتُب الحجاج إلى رُبَيْل في عبد الرحمن بن محمد أن ابعث به إلى ، وإلا فوالذي لا إله إلا هو لأوطئن أرضك ألفَ ألف مُقاتِل . وكان عند رُبَيْل رجلٌ من بني تميم ثم من بني يَرْبُوع يقال له عُبيد بن أبي سُبَيْع ، فقال لرُبَيْل : أنا آخذُ لك من الحجاج عهداً ليكفّن الخراج عن أرضك سبع سنين على أن تدفع إليه عبد الرحمن بن محمد ، قال رُبَيْل لعبيد : فإن فعلت فإن لك عندي ما سألت .

فكتب إلى الحجاج يُخبره أن رُبَيْل لا يعصيه ، وأنه لن يدع رُبَيْل حتى يبعث إليه بعبد الرحمن بن محمد ، فأعطاه الحجاج على ذلك مالاً وأخذ من رُبَيْل عليه مالاً ، وبعث رُبَيْل برأس عبد الرحمن بن محمد إلى الحجاج ، وترك له الصلح الذي كان يأخذه منه سبع سنين . وكان الحجاج يقول : بعث إلى رُبَيْل بعد والله . فألقى نفسه من فوق إجار فمات .

قال أبو مخنف : وحدثني سليمان بن أبي راشد . أنه سمع مُلْكِيَّة ابنة يزيد تقول : والله لمات عبد الرحمن وإن رأسه لعلى فِخْذِي ، كان السِّلَّ قد أصابه ، فلما مات وأرادوا دفنه بعث إليه رُبَيْل فحز رأسه ، فبعث به إلى الحجاج ، وأخذ ثمانية عشر رجلاً من آل الأشعث فحبسهم عنده ، وترك جميع من كان معه من أصحابه . وكتب إلى الحجاج بأخذه الثمانية عشر رجلاً من أهل بيت عبد الرحمن ، فكتب إليه : أن اضرب رقابهم ، وابعث إلي برؤوسهم ، وكره أن يُؤْتَى بهم إليه أحياءً فَيُطْلَبَ فيهم إلى عبد الملك ، فترك منهم أحداً .

وقد قيل في أمر بن أبي سُبَيْع وابن الأشعث غير ما ذكرت عن أبي مخنف ، وذلك ما ذكر عن أبي عُبَيْدة معمر بن النُثَيَّ أنه كان يقول : زعم أن عُمارَةَ بن تميم خرج من كَرْمان فأق سَجِسْتَان وعليها رجلٌ من بني العنبر

يُدعى مودودا ، فحصره ثم آمنه ، ثم استولى على سجستان ، وأرسل إلى رُبَيْل . وَكَتَبَ إِلَيْهِ الْحَجَّاجُ :
 أما بعد ، فإني قد بعثت إليك عُمارة بن تميم في ثلاثين ألفاً من أهل الشام لم يخالِفُوا طاعة ، ولم يَخْلَعُوا خليفة ،
 ولم يَتَّبِعُوا إماماً ضلالة ، يُجْرَى على كل رجل منهم في كل شهر مائة درهم ، يستطيعون الحرب استطعاماً ،
 يَطْلُبُونَ ابن الأشعث . فأبى رُبَيْل أن يسلمه . وكان مع ابن الأشعث عُبيد بن أبي سُبَيْع التميمي أقدر خص به ،
 وكان رسوله إلى رُبَيْل ، فخص برُبَيْل ايضاً ، وخفَّ عليه . فقال القاسم ابن محمد بن الأشعث لأخيه
 عبد الرحمن : إني لا آمن غدر التميمي ، فاقتله ، فهَمَّ به ، وبلغ ابن أبي سُبَيْع ، فخافه فوثق به إلى رُبَيْل ،
 وخوفه الحجَّاج ، ودعاه إلى الغدر بابن الأشعث فأجابته ، فخرج سراً إلى عُمارة بن تميم ، فاستعجل في ابن
 الأشعث ، فجعل له ألف ألف ، فأقام عنده ، وَكَتَبَ بِذَلِكَ عُمارة إلى الحجَّاج ، فكتب إليه أن أعطي عبيداً ورُبَيْلَ
 ما سألاك واشترط ، فاشترط رُبَيْلُ ألا تغزى بلاده عشر سنين ، وأن يؤدِّي بعد العشر سنين في كل سنة تسعمائة
 ألف ، فأعطى رُبَيْلَ وعبيداً ما سألا ، وأرسل رُبَيْلَ إلى ابن الأشعث فأحضره وثلاثين من أهل بيته ، وقد أعد
 لهم الجوامع والقيود ، فألقى في عنقه جامعة ، وفي عنق القاسم جامعة ، وأرسل بهم جميعاً إلى أدنى مسالِح عُمارة
 منه ، وقال لجماعة من كان مع ابن الأشعث من الناس : تفرقوا إلى حيث شئتم ، ولما قرب ابن الأشعث من
 عُمارة ألقى نفسه من فوق قَصْر فمات ، فاحترَّ رأسه ، فأقْبَضَ به وبالأسرى عُمارة ، فضرب أعناقهم ، وأرسل
 برأس ابن الأشعث وبرؤوس أهله وبامراته إلى الحجَّاج ، فقال في ذلك بعض الشعراء :

هيهات موضعُ جُثَّةٍ من رأسِها رأسٌ بمصرَ وجُثَّةٍ بالرَّخِجِ

وكان الحجَّاج أرسل به إلى عبد الملك ، فأرسل به عبد الملك إلى عبدالعزيز وهو يومئذ على مصر .
 وذكر عمر بن شُبَّة أن ابن عائشة حدّثه قال : أخبرني سعد بن عُبيد الله قال : لما أتى عبدُ الملك برأس ابن
 الأشعث أرسل به مع خصيٍّ إلى امرأة منهم كانت تحت رجل من قريش ، فلما وُضِعَ بين يديها قالت : مرحباً
 بذا لا يتكلّم ، مَلِكٌ من الملوك طَلَبَ ما هو أهله فأبَتِ المقادير . فذهب الخَصِيُّ يأخذ الرأسَ فاجتذبتَه من
 يده ، قالت : لا والله حتى أبلغ حاجتي ، ثم دعت بخطمي فغسلته وغلّفته ، ثم قالت : شأنك به الآن .
 فأخذه ، ثم أخبر عبد الملك ، فلما دخل عليه زوجها ، قال : إن استطعت أن تصيبَ منها سَخْلَةً .
 وذكر أن ابن الأشعث نظر إلى رجل من أصحابه وهو هاربٌ إلى بلاد رُبَيْلَ فتمثّل :

يطردهُ الخوفُ فهو تائه كذاكَ مَنْ يكرهُ حَرَّ الجِلادِ
 مُنْخَرِقُ الحُفَيْنِ يشكو الوجأ تنكُّبُهُ أطرافُ مَرَوِ جِدادِ
 قد كان في الموت له راحةٌ والموتُ حَتْمٌ في رقابِ العبادِ

فالتفت إليه فقال : يا لحيه ، هلّا ثبت في موطن من المواطن فَنَموتَ بين يديك ، فكان خيراً لك مما
 صرّت إليه !

قال هشام : قال أبو مخنف : خرج الحجَّاج في أيامه تلك يسير ومعه حميد الأرقط وهو يقول :

ما زال يَبْنِي خَنْدَقاً وَيَهْدِمُهُ عن عسكر يقوده فيسْلُمُهُ
 حتّى يصيرَ في يديكَ مَقْسِمُهُ هيهات من مصفّه مُنْهَزِمُهُ
 إِنَّ أَخَا الْكِظَاظِ مِنْ لَا يَسْأَمُهُ

فقال الحجاج : هذا اصدق من قول الفاسق أعشى همدان :

نُبِّتَ أَنْ بُنِيَ يَوْ سَيْفَ خَرٍّ مِنْ زَلَقٍ فَتَبَّأَ

قد تبين له من زلق وتب ودخض فانكب ، وخاف وخاب ، وشك وارتاب ، ورفع صوته فما بقي أحد إلا فرغ لغضبه ، وسكت الأريقط ، فقال له الحجاج : عد فيما كنت فيه ، مالك يا أريقط ! قال إني جعلت فداك أيها الأمير وسلطان الله عزيز ، ما هو إلا أن رأيتك غضبت فأرعدت خصائلي ، واحزألت مفاصلي ، وأظلم بصري ، ودارت بي الأرض ، قال له الحجاج : أجل ، إن سلطان الله عزيز ، عد فيما كنت فيه ، ففعل . وقال الحجاج وهو ذات يوم يسير ومعه زياد بن جريز بن عبد الله البجلي وهو أعور ، فقال الحجاج للأريقط : كيف قلت لابن سمره ؟ قال : قلت :

يَا أَعُورَ الْعَيْنِ فَذَيْتُ الْعُورَا كُنْتَ حَسِبْتَ الْخَنْدَقَ الْمُخْفُورَا
يَرُدُّ عَنْكَ الْقَدَرُ الْمَقْدُورَا وَدَائِرَاتُ السُّوءِ أَنْ تَدُورَا

وقد قيل : إن مهلك عبدالرحمن بن محمد كان في سنة أربع وثمانين . وفي هذه السنة عزل الحجاج بن يوسف يزيد بن المهلب عن خراسان وولاه المفضل بن المهلب أخا يزيد .

ذكر السبب الذي من أجله عزله الحجاج عن خراسان واستعمل المفضل

ذكر علي بن محمد ، عن المفضل بن محمد ، أن الحجاج وقد إلى عبدالملك ، فمر في منصرفه بدير فنزله ، فقيل له : إن في هذا الدير شيخاً من أهل الكتب عالماً ، فدعا به فقال : يا شيخ ، هل تجدون في كتبكم ما أنتم فيه ونحن ؟ قال : نعم ، نجد ما مضى من أمركم وما أنتم فيه وما هو كائن ، قال أفسمى أم موصوفاً ؟ قال : كل ذلك ، موصوف بغير اسم ، واسم بغير صفة ، قال : فما تجدون صفة أمير المؤمنين ؟ قال : نجده في زماننا الذي نحن فيه ، ملك أقرع ، من يقيم لسبيله يصرع ، قال : ثم من ؟ قال : اسم رجل يقال له الوليد ، قال : ثم ماذا ؟ قال : رجل اسمه اسم نبي يفتح به على الناس ، قال : أفتعرفني ؟ قال : قد أخبرت بك . قال : أتعلم ما ألي ؟ قال : نعم ، قال : فمن يليه بعدي ؟ قال : رجل يقال له يزيد ، قال : في حياتي أم بعد موتي ؟ قال : لا أدري ، قال : أفتعرف صفته ؟ قال : يغدر غدرة ، لا أعرف غير هذا .

قال : فوقع في نفسه يزيد بن المهلب ، وارتحل فسار سبعا وهو وجل من قول الشيخ ، وقدم فكتب إلى عبدالملك يستعفيه من العراق ، فكتب إليه : يا بن أم الحجاج ، قد علمت الذي تغزو ، وأنت تريد أن تعلم رأيي فيك ، ولعمري إني لأرى مكان نافع بن علقمة ، فأنه عن هذا حتى يأتي الله بما هوأت ، فقال الفرزدق يذكرو مسيرة :

لَوْ أَنَّ طَيْراً كُفِّتْ مِثْلَ سَيْرِهِ إِلَى وَاسِطٍ مِنْ إِبِلِيَاءَ مَلَّتْ
سَرَى بِالْمَهَارِي مِنْ فِلَسْطِينَ بَعْدَمَا دَنَا اللَّيْلُ مِنْ شَمْسِ النَّهَارِ فَوَلَّتْ
فَمَا عَادَ ذَاكَ الْيَوْمُ حَتَّى أَنَاخَهَا بِمَيْسَانَ قَدْ مَلَّتْ سُرَاهَا وَكَلَّتْ
كَأَنَّ قُطَامِيًّا عَلَى الرَّحْلِ طَاوِيًّا إِذَا غَمْرَةُ الظُّلْمَاءِ عَنْهُ تَجَلَّتْ

قال فبينما الحجاج يوماً خالٍ إذ دعا عبيد بن موهب، فدخل وهو ينكت في الأرض، فرفع رأسه فقال: ويحك يا عبيد! إن أهل الكتب يذكرون أن ما تحت يدي يليه رجل يقال له يزيد، وقد تذكرت يزيد بن أبي كبشة ويزيد بن حصين بن ثمر، ويزيد بن دينار، فليسوا هناك، وما هو إن كان إلا يزيد بن المهلب، فقال عبيد: لقد شرفتهم وأعظمت ولايتهم، وإن لهم لعدداً وجلداً، وطاعة وحظاً، فأخلق به. فأجمع على عزل يزيد فلم يجد له شيئاً حتى قدم الخيار بن أبي سبرة بن ذؤيب بن عرفة بن محمد بن سفيان بن مجليش - وكان من فرسان المهلب - وكان مع يزيد - فقال له الحجاج: أخبرني عن يزيد، قال: حسن الطاعة، لين السيرة! قال: كذبت، أصدقني عنه، قال: الله أجل وأعظم، قد أسرج ولم يلجم، قال: صدقت، واستعمل الخيار على عُمان بعد ذلك.

قال: ثم كتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب بالزبيريّة، فكتب إليه عبد الملك: إني لا أرى بآل المهلب طاعتهم لآل الزبير، بل أراه وفاء منهم لهم، وإن وفاءهم لهم يدعوهم إلى الوفاء لي: فكتب إليه الحجاج يخوفه غدرهم لما أخبره به الشيخ. فكتب إليه عبد الملك: قد أكثرت في يزيد وآل المهلب، فسمي رجلاً يصلح لخراسان، فسمي له جماعة بن سمر السعدي، فكتب إليه عبد الملك: إن رأيك الذي دعاك إلى استفساد آل المهلب هو الذي دعاك إلى جماعة بن سمر، فانظر لي رجلاً صارماً، ماضياً لأمرك، فسمي قتيبة بن مسلم، فكتب إليه: ولله. وبلغ يزيد أن الحجاج عزله، فقال لأهل بيته: من ترون الحجاج يولي خراسان؟ قالوا: رجلاً من ثقيف، قال: كلا، ولكنه يكتب إلى رجل منكم بعهد، فإذا قدمت عليه عزله وولى رجلاً من قيس، وأخلق بقتيبة! قال: فلما أذن عبد الملك للحجاج في عزل يزيد كره أن يكتب إليه بعزله، فكتب إليه أن استخلف المفضل وأقبل. فاستشار يزيد حُصين بن المنذر، فقال له: أقم واعتل، فإن أمير المؤمنين حسن الرأي فيك، وإنما أتيت من الحجاج، فإن اقمتم ولم تعجل رجوت أن يكتب إليه أن يقر يزيد، قال: إنا أهل بيت بورك لنا في الطاعة، وأنا أكره المعصية والخلاف، فأخذ في الجهاز، وأبطأ ذلك على الحجاج، فكتب إلى المفضل: إني قد وليت خراسان، فجعل المفضل يستحث يزيد، فقال له يزيد: إن الحجاج لا يفرك بعدي، وإنما دعاه إلى ما صنع مخافة أن امتنع عليه، قال: بل حسدني، قال يزيد: يا بن بهلة، أنا أحسدك! ستعلم. وخرج يزيد في ربيع الآخر سنة خمس وثمانين. فعزل الحجاج المفضل، فقال الشاعر للمفضل وعبد الملك وهو أخوه لأمه:

يا بني بهلة إنما أخزأكما
أحفرتم لأخيكم فوقعتكم
جودوا بتوبة مخلصين فإئما
وقال حُصين ليزيد:

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني
فأصبحت مسلوب الأمانة نادماً
فما أنا بالباكي عليك صباباً
وما أنا بالداعي لترجع سائلاً

فلما قدم قتيبة خراسان قال لحصين: كيف قلت ليزيد؟ قال قلت:

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني
فنفسك أول اللوم إن كنت لائماً

فإن يبلغ الحجاج أن قد عصيته فإنك تلقى أمره متفاقما

قال : فماذا أمرته به فعصاك ؟ قال : أمرته ألا يدع صفراء ولا بيضاء إلا حملها إلى الأمير ، فقال رجل لعياض بن حطين : أما أبوك فوجده قتيبة حين فرّه قارحاً بقوله : « أمرته أن لا يدع صفراء ولا بيضاء إلا حملها إلى الأمير » .

قال عليّ : وحدثنا كليب بن خلف ، قال : كتب الحجاج إلى يزيد أن اغز خوارزم ، فكتب إليه : أيها الأمير ، إنها قليلة السلب ، شديدة الكلب . فكتب إليه الحجاج : استخلف واقدم ، فكتب إليه إني أريد أن أغزو خوارزم . فكتب إليه : لا تغزها فإنها كما وصفت ، فغزا ولم يطعه ، فصالحه أهل خوارزم ، وأصاب سبياً ممّا صالحوه ، وقفل في الشتاء ، فاشتد عليهم البرد ، فأخذ الناس ثياب الأسرى فلبسوها ، فمات ذلك السبي من البرد . قال : ونزل يزيد بلسانة ، وأصاب أهل مرو الروذ طاعون ذلك العام ، فكتب إليه الحجاج : ان اقدم ، فقدم ، فلم يمر ببلد إلا فرشوا له الرياحين . وكان يزيد وليّ سنة اثنتين وثمانين ، وعزل سنة خمس وثمانين ، وخرج من خراسان في ربيع الآخر سنة خمس وثمانين ، وولي قتيبة .

وأما هشام بن محمد ، فإنه ذكر عن أبي مخنف في عزل الحجاج يزيد عن خراسان سبباً غير الذي ذكره عليّ بن محمد ، والذي ذكر من ذلك عن أبي مخنف أن أبا المخارق الراسبي وغيره حدثوه أن الحجاج لم يكن له حين فرغ من عبد الرحمن بن محمد هم إلا يزيد بن المهلب وأهل بيته - وقد كان الحجاج أذل أهل العراق كلّهم إلا يزيد وأهل بيته ومن معه من أهل المصرين بخراسان ، ولم يكن يتخوف بعد عبد الرحمن بن محمد بالعراق غير يزيد بن المهلب - فأخذوا الحجاج في مواربة يزيد ليستخرجوه من خراسان ، فكان يبعث إليه لياثيه ، فيعتلّ عليه بالعدو وحرب خراسان ، فمكث بذلك حتى كان آخر سلطان عبد الملك . ثم أن الحجاج كتب إلى عبد الملك يشير عليه بعزل يزيد بن المهلب ، ويخبره بطاعة آل المهلب لابن الزبير ، وأنه لا وفاء لهم ، فكتب إليه عبد الملك : إني لا أرى تقصيرا بولد المهلب طاعتهم لآل الزبير ووفاءهم لهم ، فإن طاعتهم ووفاءهم لهم ، هو دعاهم إلى طاعتي والوفاء لي .

ثم ذكر بقية الخبر نحو الذي ذكره عليّ بن محمد .

وفي هذه السنة غزا المفضل بأذغيس ففتحها .

ذكر الخبر عن ذلك :

ذكر عليّ بن محمد ، عن المفضل بن محمد : قال : عزل الحجاج يزيد ، وكتب إلى المفضل بولايته على خراسان سنة خمس وثمانين ، فولّيتها تسعة أشهر ، فغزا بأذغيس ففتحها وأصاب مغنماً ، فقسّمه بين الناس ، فأصاب كلّ رجل منهم ثمانمائة درهم ، ثم غزا أخرون وشومان ، فظفر وغنم ، وقسم ما أصاب بين الناس ، ولم يكن للمفضل بيت مال ، كان يعطي الناس كلّما جاءه شيء ، وإن غنم شيئاً قسّمه بينهم ، فقال كعب الأشقر يمدح المفضل :

عصائب شتى ينتوون المفضلاً
وأخراً يقضي حاجه قد ترحلاً
بها منتوى خيراً ولا متعللاً
وقد قدّموا من صالح كنت أولاً

ترى ذا الغنى والفقر من كلّ معشر
فمن زائر يرجو فواضل سبيه
إذا ما انتوينا غير أرضك لم نجد
إذا ما عددنا الأكرمين ذوي النهى

لَعَمْرِي لَقَدْ صَالَ الْمَفْضُلُ صَوْلَةً أَبَاحَتْ بِشُومَانَ الْمَنَاهِلَ وَالْكَلا
وَيَوْمَ ابْنِ عَبَّاسٍ تَنَاوَلَتْ مِثْلَهَا فَكَانَتْ لَنَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ قَيْصَلًا
صَفَتْ لَكَ أَخْلَاقُ الْمُهَلَّبِ كُلُّهَا وَسُرِبْتَ مِنْ مَسْعَاتِهِ مَا تَسْرِبَلًا
أَبُوكَ الَّذِي لَمْ يَسْمَعْ سَاعَ كَسْعِيهِ فَأَوْرَثَ مَجْدًا لَمْ يَكُنْ مُتَنَحِّلًا

وفي هذه السنة قُتِلَ موسى بنُ عبد الله بن خازم السُّلَمِيُّ بالترمذ .

ذكر سبب قتله ومصيره إلى الترمذ حتى قُتِلَ بها :

ذُكِرَ أن سبب مصيره إلى الترمذ كان أن أباه عبد الله بن خازم لما قَتَلَ مَنْ قَتَلَ مِنْ بني تميم بفرتنا - وقد مضى ذكرى خبر قتله إياهم - تفرَّقَ عنه عَظُمُ من كان بقيَ معه منهم ، فخرج إلى نيسابور وخاف بني تميم على ثقله بمرو ، فقال لابنه موسى : حوّلْ ثَقْلِي عَنْ مَرَوْ ، واقطع نهر بُلُخْ حتى تلجأ إلى بعض الملوك أو إلى حصن تقيم فيه . فشخص موسى من مرو في عشرين ومائتي فارس ، فأقْبَلَ وقد ضوى إليه قومٌ من الصُّعَالِيك ، فصار في أربعمائة ، وانضمَّ إليه رجال من بني سُلَيْم ، منهم زُرْعَةُ بن علقمة ، فأقْبَلَ زَمُّ فقاتلوه ، فظفر بهم وأصاب مالا ، وقطع النهر ، فأقْبَلَ بُخَارِي فسأل صاحبها أن يلجأ إليه ، فأبى وخافه ، وقال : رجل فاتك ، وأصحابه مثله أصحاب حربٍ وشَرٍّ ، فلا آمنه . وبعث إليه بصلة عين ودواب وكُسوة ، ونزل على عظيم من عظماء أهل بُخَارِي في نوقان ، فقال له : إنَّه لا خير في المَقَامِ في هذه البلاد ، وقد هَابَكَ الْقَوْمُ وهم لا يأمَنونك . فأقام عند دِهْقَانِ نوقان أشهراً . ثم خرج يلتمس ملكاً يلجأ إليه أو حصناً ، فلم يأت بلداً إلَّا كَرِهوا مَقَامَهُ فيهم ، وسألوه أن يخرج عنهم .

قال علي بن محمد : فأقْبَلَ سمرقند فأقام بها ، وأكرمه طَرُخُونُ مَلِكُهَا ، وأذن له في المَقَامِ ، فأقام ما شاء الله ، ولأهل الصُّغْدِ مائدة يوضع عليها لحم وَدِكْ وخُبْزٌ وإبريق شراب وذلك في كلِّ عام يوماً ، يُجْعَلُ ذلك لفارس الصُّغْدِ فلا يقربه أحد غيره ، هو طعامه في ذلك اليوم ، فإن أكل منه أحد غيره بَارَزَهُ فأَيُّهَا قَتَلَ صاحبه فالمائدة له ، فقال رجلٌ من أصحاب موسى : ما هذه المائدة ؟ فأخبر عنها ، فسكت ، فقال صاحب موسى : لا كلنَّ ما على هذه المائدة ، ولأبارزن فارس الصُّغْدِ ، فإن قتلته كنت فارسهم . فجلس فأكل ما عليها ، وقيل لصاحب المائدة ، فجاء مُغْضَباً ، فقال : يا عَرَبِيَّ ، بَارِزِي ، قال : نعم ، وهل أريدُ إلَّا المِبارزة ! فبارزه فقتله صاحب موسى ، فقال مَلِكُ الصُّغْدِ : أنزلتكم وأكرمتمكم فقتلتهم فارس الصُّغْدِ ! لولا أني أعطيتك وأصحابك الأمان لقتلتكم ، اخرجوا عن بلدي ، ووصله . فخرج موسى فأقْبَلَ فَكَتَبَ صاحبُ كِسِّ إلى طَرُخُونِ يستنصره ، فأتاه ، فخرج إليه موسى في سبعمائة فقاتلهم حتى أَمْسَوْا ، ونحاجزوا وبأصحاب موسى جراح كثيرة ، فلما أصبحوا أمرهم موسى فحلَّقوا رؤوسهم كما يصنع الخوارج ، وقطعوا صَفِينَاتِ أَخْبِيَّتِهِمْ كما يصنع العَجَمُ إذا استماتوا .

وقال موسى لَزُرْعَةَ بن علقمة : انطلق إلى طَرُخُونِ فاحتل له . فأتاه ، فقال له طَرُخُونُ : لِمَ صَنَعَ أصحابك ما صنعوا ؟ قال : استقتلوا فما حاجتك إلى أن تقتل أيها الملك موسى وتقتل ! فانك لا تصل إليه حتى يقتل مثل عدتهم منكم ، ولو قتلته وإياهم جميعاً ما نلت حقاً ، لأنَّ له قدراً في العَرَبِ ، فلا يلي أحدُ خراسان إلَّا طالَبَكَ بدمه ، فإن سلمت من واحد لم تسلم من آخر ؛ قال : ليس إلى ترك كِسِّ في يده سبيل ؛ قال :

فكف عنه حتى يرحل ، فكف وأتى موسى الترمذ وبها حصن يُشرف على النهر إلى جانب منه ، فنزل موسى على بعض ذهابين الترمذ خارجاً من الحصن والدهقان مجانب لترمذ شاه ، فقال لموسى : إن صاحب الترمذ متكرم شديد الحياء ، فإن ألطفته وأهديت إليه أدخلك حصنه ، فإنه ضعيف ، قال : كلا ، ولكني أسأله أن يدخلني حصنه ، فسأله فأبى ، فما كره موسى وأهدى له وألطفه ، حتى لطف الذي بينهما ، وخرج فتصيد معه ، وكثر إلفاف موسى له ، فصنع صاحب الترمذ طعاماً وأرسل إليه : إنني أحب أكرمك ، فتغذ عندي ، واثنني في مائة من أصحابك . فانتخب موسى من أصحابه مائة ، فدخلوا على خيولهم ، فلما صارت في المدينة تصاهلت ، فتطير أهل الترمذ وقالوا لهم : انزلوا ، فنزلوا ، فدخلوا بيتاً ، خمسين في خمسين ، وغدوهم .

فلما فرغوا من الغداء اضطجع موسى ، فقالوا له : اخرج ، قال : لا أصيب منزلاً مثل هذا ، فلست بخارج منه حتى يكون بيتي أو قبري . وقتلوه في المدينة ، فقتل من أهل الترمذ عدة ، وهرب الآخرون فدخلوا منازلهم ، وغلب موسى على المدينة ، وقال لترمذ شاه : اخرج : فإنني لست أعرض لك ولا لأحد من أصحابك . فخرج الملك وأهل المدينة فاتوا الترك يستنصرونهم ، فقالوا : دخل إليكم مائة رجل فأخرجوكم عن بلادكم ، وقد قاتلناهم بكس ، فنحن لا نقاتل هؤلاء . فأقام ابن خازم بالترمذ ، ودخل إليه أصحابه ، وكانوا سبعمائة ، فأقام ، فلما قتل أبوه انضم إليه من أصحاب أبيه أربعمائة فارس ، فقوي ، فكان يخرج فيغير على من حوله . قال : فأرسل الترك قوماً إلى أصحاب موسى ليعلموا علمه ، فلما قدموا قال موسى لأصحابه : لا بد من مكيده هؤلاء - قال : وذلك في أشد الحر - فأمر بنار فأججت ، وأمر أصحابه فلبسوا ثياب الشتاء ، ولبسوا فوقها لبوداً ، ومدوا أيديهم إلى النار كأنهم يصطلون . وأذن موسى للترك فدخلوا ، ففرغوا مما رأوا ، وقالوا : لم صنعتهم هذا ؟ قالوا : نجد البرد في هذا الوقت ، ونجد الحر في الشتاء ، فرجعوا وقالوا : جن لا نقاتلهم . قال : وأراد صاحب الترك أن يغزو موسى ، فوجه إليه رسلاً ، وبعث بسم ونشاب في مسك ، وإنما أراد بالسم أن حربهم شديدة ، والنشاب الحرب ، والمسك السلم ، فاختر الحرب أو السلم ، فأحرق السم ، وكسر النشاب ، ونثر المسك ، فقال القوم : لم يريدوا الصلح ، وأخبر أن حربهم مثل النار ، وإنه يكسرن ، فلم يغزهم .

قال : فولي بكير بن وشاح خراسان فلم يعرض له ، ولم يوجه إليه أحداً ، ثم قدم أمية فسار بنفسه يريده ، فخالقه بكير ، وخلع ، فرجع إلى مرو ، فلما صالح أمية بكيراً أقام عامه ذلك ، فلما كان في قابل وجهه إلى موسى رجلاً من خزاعة في جمع كثير ، فعاد أهل الترمذ إلى الترك فاستنصروهم فأبوا ، فقالوا لهم : قد غزاهم قوم منهم وحصروهم ، فإن أعاناهم عليهم ظفروا بهم ، فسارت الترك مع أهل الترمذ في جمع كثير ، فأطاف بموسى الترك والخزاعي ، فكان يقاتل الخزاعي أول النهار والترك آخر النهار ، فقاتلهم شهرين أو ثلاثة ، فقال موسى لعمر بن خالد بن حصين الكلابي - وكان فارساً : قد طال أمرنا وأمر هؤلاء ، وقد أجمعت أن أبيت عسكر الخزاعي ، فإنهم للبيات آمنون ، فما ترى ؟ قال : البيات نعماً هو ، وليكن ذلك بالعجم ، فإن العرب أشد حذراً ، وأسرع فرعاً ، وأجرأ على الليل من العجم ، فبيتهم فإني أرجو أن ينصرنا الله عليهم ، ثم نفرد لقتال الخزاعي فنحن في حصن وهم بالعرء ، وليسوا بأولى بالصبر ، ولا أعلم بالحرب منا . قال : فأجمع موسى على بيات الترك ، فلما ذهب من الليل ثلثه خرج في أربعمائة ، وقال لعمر بن خالد : اخرجوا بعدنا وتكونوا منا قريباً ، فإذا سمعتم تكبيرنا فكبروا ، وأخذ على شاطئ النهر حتى ارتفع فوق العسكر ، ثم أخذ من

ناحية كفتان ، فلما قُرب من عسكرهم جعل أصحابه أرباعاً ، ثم قال : أطيّفوا : بعسكرهم ؛ فإذا سمعتم تكبيرنا فكبروا ، وأقبل وقدمَ عمرًا بين يديه ومشوا خلفه ، فلما رآته أصحاب الأرصاء قالوا : من أنتم ؟ قالوا : عابري سبيل .

قال : فلما جاوزا الرصد وأطافوا بالعسكر وكبروا ، فلم يشعر الترك إلا بوقع السيوف ، فثاروا يقتل بعضهم بعضاً وولوا ، وأصيب من المسلمين ستة عشر رجلاً ، وحووا عسكرهم وأصابوا سلاحاً ومالاً ، وأصبح الخُزاعي وأصحابه قد كسرهم ذلك ، وخافوا مثلها من البيات ، فتحذروا . فقال لموسى عمرو بن خالد : إنك لا تظفر إلا بمكيدة ولهم أمداد وهم يكثرُونَ ، فدعني أتهم لعلّي أصيب من صاحبهم فرصة ؛ إني إن خلوتُ به قتلته ، فتناولني بضرب ، قال : تتعجل الضرب وتتعرض للقتل ! قال : أما التعرض للقتل فأنا كل يوم متعرض له ، وأما الضرب فما أيسره في جنب ما أريد . فتناولهُ بضرب ، ضربه خمسين سوطاً ، فخرج من عسكر موسى فأتى عسكر الخُزاعي مستأيناً وقال : أنا رجل من أهل اليمَن كنتُ مع عبدالله بن خازم ، فلما قُتل أتيته فلم أزل معه ، وكنتُ أوّل من أناه ، فلما قدمت اهتمني ، وتعصب عليّ ، وتكرّلي وقال لي : قد تعصبت لعدونا ، فأنت عينٌ له ، فضربني ، ولم آمن القتل ، وقلت : ليس بعد الضرب إلا القتل ، فهربت منه ، فأمنه الخُزاعي وأقام معه .

قال : فدخل يوماً وهو خالٍ ولم يَرِ عنده سلاحاً ، فقال كأنه ينصح له : أصلحك الله ! إن مثلك في مثل حالك لا ينبغي أن يكون في حال من أحواله بغير سلاح ، فقال : إن معي سلاحاً ، فرقع صدر فراشه فإذا سيفٌ منتضى ، فتناولهُ عمرو فضربه فقتله ، وخرج فركب فرسه ، ونذروا به بعد ما أمعن ، فطلبوه فقاتلهم ، فأتى موسى وتفرّق ذلك الجيش ، فقطع بعضهم النهر ، وأتى بعضهم موسى مستأيناً ، فأمنه ، فلم يوجه إليه أمةً أحداً .

قال : وعُزل أمة ، وقدم المهلب أميراً ، فلم يعرض لابن خازم ، وقال لبنيه : إياكم وموسى ، فإنكم لا تزالون ولأمة هذا الثغر ما أقام هذا الثبط ، بمكانه ، فإن قُتل كان أوّل طالع عليكم أميراً على خراسان رجلٌ من قيس . فمات المهلب ولم يوجه إليه أحداً ، ثم تولى يزيدُ بنُ المهلب فلم يعرض له . وكان المهلب ضرب حُرَيْث بن قُطبة الخُزاعي ، فخرج هو وأخوه ثابت إلى موسى ، فلما ولي يزيد بن المهلب أخذ أموالهما وحرّمهما وقُتل أخاهما لأمههما ، الحارث بن مُنقذ وقُتل صهرهما لما كانت عنده أم حفص ابنة ثابت ، فبلغهما ما صنع يزيد .

قال : فخرج ثابت إلى طرخون فشكا إليه ما صنع به - وكان ثابت محبباً في العجم ، بعيد الصوت ، يعظمونه ويثقون به ، فكان الرجل منهم إذا أعطى عهداً يريد الوفاء به حلفَ بحياة ثابت فلا يغير - فغضب له طرخون وجمع له نيزك والسبل وأهل بخارى والصغانيان ، فقَدِموا مع ثابت إلى موسى بن عبدالله وقد سقَط إلى موسى فلَّ عبد الرحمن بن العباس من هراة ، وفلَّ ابن الأشعث من العراق ومن ناحية كابل ، وقومٌ من بني تميم من كان يقاتل ابن خازم في الفتنة من جهل خراسان ، فاجتمع إلى موسى ثمانية آلاف من تميم وقيس وربيعة واليمن ، فقال له ثابت وحُرَيْث : سرّ تقطع النهر فتخرج يزيد بن المهلب عن خراسان ، ونوليك ، فإن طرخون ونيزك والسبل وأهل بخارى معك ، فهم أن يفعل ، فقال له أصحابه : إن ثابتاً وأخاه خائفان ليزيد ، وإن أخرجت يزيد عن خراسان وأمنّا تولياً الأمر وغلباك على خراسان ، فأقم مكانك . فقبل رأيهم ، وأقام

بالتزمذ . وقال لثابت : إن أخرجنا يزيد قديم عامل لعبد الملك ، ولكننا نخرج عمال يزيد من وراء النهر مما يلينا ، وتكون هذه الناحية لنا ناكلها ، فرضي ثابت بذلك ، وأخرج من كان من عمال يزيد من وراء النهر ، وحملت إليهم الأموال ، وقوي أمرهم وأمر موسى ، وانصرف طرخون ونيزك وأهل بخارى والسبل إلى بلادهم ، وتدير الأمر لحريث وثابت ، والأمير موسى ليس له غير الاسم ، فقال لموسى أصحابه : لسنا نرى من الأمر في يدك شيئاً أكثر من اسم الأمانة ، فأما التدبير فليحريث وثابت ، فاقتلها وتول الأمر . فأبى وقال : ما كنت لأغدر بها وقد قويا أمري ، فحسدوهما وألحوا على موسى في أمرهما حتى أفسدوا قلبه ، وخوفوه غدروهما ، وهم مبتاعتهم على الوثوب بثابت وحريث . واضطرب أمرهم ، فإنهم لفي ذلك إذ خرجت عليهم الهياطة والتبت والترك ، فأقبلوا في سبعين ألفاً لا يعدون الحاسر ولا صاحب بيضة جماء ، ولا يعدون إلا صاحب بيضة ذات قونس . قال : فخرج ابن خازم إلى ربض المدينة في ثلاثمائة راجل وثلاثين مجففاً ، وألقي له كرسي فقعده عليه . قال : فأمر طرخون أن يثلث حائط الربض ، فقال موسى : دعوهم ، فهدموا ودخل أوائلهم ، فقال : دعوهم يكثر ، وجعل يقلب طبرزينا بيده ، فلما كثروا قال : الآن امنعهم ، فركب وحمل عليهم فقاتلهم حتى أخرجهم عن الثلمة ، ثم رجع فجلس على الكرسي وذمر الملك أصحابه ليعودوا ، فأبوا ، فقال : لفرسانه : هذا الشيطان ، من سره أن ينصر إلى رستم فلينظر إلى صاحب الكرسي ، فمن أبى فليقدم عليه . ثم تحولت الأعاجم إلى رستاق كفتان . قال : فأغاروا على سرح موسى ، فاغتم ولم يطعم ، وجعل يعبت بليحيته ، فسار ليلاً على نهر في حافتيه نبات لم يكن فيه ماء ، وهو يفيض إلى خندقهم ، في سبعمائة ، فأصبحوا عند عسكرهم ، وخرج السرح فأغار عليه فاستاقه ، وأتبعه قوم منهم ، فعطف عليه سوار ، مولى لموسى ، فطعن رجلاً منهم فصرعه ، فرجعوا عنهم وسلم موسى بالسرح ، قال : وغاداهم العجم القتال ، فوقف ملكهم على تل في عشرة آلاف في أكمل غدة ، فقال موسى : إن أزلتم هؤلاء فليس الباقون بشيء . فقصدهم حريث بن قطبة فقاتلهم صدر النهار ، وألح عليهم حتى أزالوهم عن التل ، ورُمي يومئذ حريث بنشابه في جبهته ، فتحاجزوا ، فبنتهم موسى ، وحمل أخوه خازم بن عبدالله بن خازم حتى وصل إلى شجرة ملكهم ، فوجأ رجلاً منهم بقبعة سيفه ، فطعن فرسه ، فاحتلمه فألقاه في نهر بلخ فغرق ، وعليه درعان ، فقتل العجم قتلاً ذريعاً ، ونجا منهم من نجا بشر ، ومات حريث بن قطبة بعد يومين ، فدفن في قبته .

قال : وارتحل موسى ، وحملوا الرؤوس إلى الترمذ ، فبنوا من تلك الرؤوس جوسقين ، وجعلوا الرؤوس يقابل بعضها بعضاً . وبلغ الحجاج خبر الواقعة ، فقال : الحمد لله الذي نصر المنافقين على الكافرين ، فقال أصحاب موسى : قد كفيينا أمر حريث ، فأرحنا من ثابت ، فأبى وقال : لا . وبلغ ثابتاً بعض ما يخوضون فيه ، فدرس محمد بن عبدالله بن مرثد الخزاعي ، عم نصر بن عبد الحميد عامل أبي مسلم على الرّي - وكان في خدمة موسى بن عبدالله - وقال له : إياك أن تتكلم بالعربية ، وإن سألوك من أين أنت ! فقل : من سبي الباميان ، كما يخدم موسى وينقل إلى ثابت خبرهم ، فقال له : تحفظ ما يقولون . وحذر ثابت فكان لا ينام حتى يرجع الغلام ، وأمر قوماً من شاكريته يحرسونه ويبيتون عنده في داره ، ومعهم قوم من العرب وألح القوم على موسى فانسجروه ، فقال لهم ليلة : قد أكثرتم علي ، وفيهم تريدون هلاككم ، وقد أبرمتموني ! فعلى أي وجه تفتكون به ، وأنا لا أغدر به ! فقال نوح بن عبدالله أخو موسى : خلنا وإياه ، فإذا غدا إليك غداة عدلنا به إلى بعض الدور ، فضربنا عنقه فيها قبل أن يصل إليك . قال : أما والله إنه لهلاككم ، وأنتم أعلم - والغلام يسمع - فأتى

ثابتاً فأخبره، فخرج من ليلته في عشرين فارساً فمضى وأصبحوا وقد ذهب فلم يذروا من أين أوتوا، وفقدوا الغلام، فعلموا أنه كان عينا له عليهم، ولحق ثابت بحشورا فنزل المدينة، وخرج إليه قوم كثير من العرب والعجم، فقال موسى لأصحابه: قد فتحتم على أنفسكم باباً فسدوه، وسار إلى موسى، فخرج إليه ثابت في جمع كثير فقاتلهم، فأمر موسى بإحراق السور، وقاتلهم حتى الجثوا ثابتاً وأصحابه إلى المدينة، وقاتلهم عن المدينة.

فأقبل رقبة بن الحر العنبري حتى اقتحم النار، فانتهى إلى باب المدينة ورجل من أصحاب ثابت واقف يحمي أصحابه فقتله، ثم رجع فخاض النار وهي تلتهب، وقد أخذت بجوانب تخط عليه، فرمى به عنه ووقف، وتحصن ثابت في المدينة، وأقام موسى في الربض، وكان ثابت حين شخص إلى حشورا أرسل إلى طرخون فأقبل طرخون موعناً له، وبلغ موسى مجيء طرخون، فرجع إلى الترمذ، وأعانه أهل كس ونسف ويخاري، فصار ثابت في ثمانين ألفاً، فحصر موسى وقطعوا عنه المادة حتى جاهدوا.

قال: وكان أصحاب ثابت يعبرون نهراً إلى موسى بالنهار - ثم يرجعون بالليل إلى عسكرهم، فخرج يوماً رقبة - وكان صديقاً لثابت، وقد كان ينهي أصحاب موسى عما صنعوا - فنادى ثابتاً، فبرز له - وعلى رقبة قباء خزر فقال له: كيف حالك يا رقبة؟ فقال: ما تسأل عن رجل جبه خزر في حمارة القيث! وشكا إليه حالهم، فقال: أنتم صنعتهم هذا بأنفسكم، فقال: أما والله ما دخلت في أمرهم، ولقد كرهت ما أرادوا، فقال ثابت: أين تكون حتى يأتيك ما قُدر لك؟ قال: أنا عند المحل الطفاوي - رجل من قيس من يعصر - وكان المحل شيخاً صاحب شراب - فنزل رقبة عنده.

قال: فبعث ثابت إلى رقبة بخمسمائة درهم مع علي بن المهاجر الخزاعي، وقال: إن لنا تجارتاً قد خرجوا من بلخ، فإذا بلغك أنهم قد قدموا فأرسل إلي تأتيك حاجتك. فأتى على باب المحل، فدخل فإذا رقبة والمحل جالسان بينهما جفنة فيها شراب، وخوان عليه دجاج وأرغفة، ورقبة شعث الرأس، متوشح بملحفة حمراء، فدفع إليه الكيس، وأبلغه الرسالة وما كلمه، وتناول الكيس وقال له بيده، اخرج، ولم يكلمه. قال: وكان رقبة جسيماً كبيراً، غائر العينين، ناتيء الوجنتين، مفلج، بين كل سنين له موضع سن، كأن وجهه ثرس.

قال: فلما أضاق أصحاب موسى واشتد عليهم الحصار قال يزيد بن هزبل: إنما مقام هؤلاء مع ثابت والقتل أحسن من الموت جوعاً، والله لأفتكن بثابت أولاموتن. فخرج إلى ثابت فاستأمنه، فقال له: ظهير: أنا أعرف بهذا منك، إن هذا لم يأتك رغبة فيك ولا جزعاً لك، ولقد جاءك بغدرة، فاحذره وخلني وإياه، فقال: ما كنت لأقدم على رجل أتاني، لا أدري أكذلك هو أم لا. قال: فدعني أرتن منه رهناً، فأرسل ثابت إلى يزيد فقال: أما أنا فلم أكن أظن رجلاً بغدراً بعدما يسأل الأمان، وابن عمك أعلم بك مني، فانظر ما يعاملك عليه، فقال يزيد لظهير: أبيت يا أبا سعيد إلا حسداً! قال: أما يكفيك ما ترى من الدل! تشردت عن العراق وعن أهلي، وصرت بخراسان فيما ترى، أما تعطفك الرحم! فقال له ظهير: أما والله لو تتركت ورأيي فيك لما كان هذا، ولكن أرهنا ابنك قدامة والضحاك. فدفعهما إليهم، فكانا في يدي ظهير.

قال: وأقام يزيد يلتمس غرة ثابت، لا يقدر منه على ما يريد، حتى مات ابن لزياد القصير الخزاعي، أن أباه نعيه من مرو، فخرج متفضلاً إلى زياد ليعزيه، ومعه ظهير ورهط من أصحابه، وفيهم يزيد بن هزبل، وقد غابت الشمس، فلما صار على نهر الصغانيان تأخر يزيد بن هزبل ورجلان معه، وقد تقدم ظهير وأصحابه،

فدنا يزيد من ثابت فضر به فعضّ السيف برأسه، فوصل إلى الدماغ. قال: ورمى يزيد وصاحبه بأنفسهم في نهر الصغانيان، فرمؤهم، فنجأ يزيد سباحة وقتل صاحبه، وحمل ثابت إلى منزله، فلما أصبح طرخون أرسل إلى ظهير: إثنى بابني يزيد، فأتاه بهما، فقدم ظهير الضحاك بن يزيد فقتله، ورمى به وبرأسه في النهر، وقدم قدامة ليقتله، فالتفت فوق السيف في صدره، ولم يبن فالفاه في النهر حياً فغرق، فقال طرخون: أبوهما قتلها وغدره. فقال يزيد بن هزبل: لاقتلن يا بني كل خزاعي بالمدينة، فقال له عبدالله بن بديل بن عبدالله بن بديل بن وركاء - وكان ممن أتى موسى من قُلّ ابن الأشعث: لو رُمّت ذاك من خزاعة لصعب عليك. وعاش ثابت سبعة أيام ثم مات. وكان يزيد بن هزبل سخيّاً شجاعاً شاعراً، ولي أيام ابن زياد جزيرة ابن كاوان، فقال:

قد كنت أدعو الله في السرّ مخلفاً ليُمكّنني من جزيرة ورجال

فأترك فيها ذكر طلحة خاملاً ويحمّد فيها نائلي وفعالي

قال: فقام بأمر العجم بعد موت ثابت طرخون، وقام ظهير بأمر أصحاب ثابت، فقاما قياماً ضعيفاً، وانتشر أمرهم، فأجمع موسى على بيّاتهم، فجاء زجل فأخبر طرخون، فضحك وقال: موسى يعجز أن يدخل متوضّاه، فكيف يبيتنا! لقد طار قلبك، لا يحرسن الليلة أحد العسكر. فلما ذهب من الليل ثلثه خرج موسى في ثمانمائة قد عبّاهم من النهار، وصيرهم أرباعاً. قال: فصير على رُبع رقة بن الحرّ وعلى رُبع أخاه نوح بن عبدالله بن خازم، وعلى رُبع يزيد بن هزبل، وصار هو في رُبع، وقال لهم: إذا دخلتم عسكرهم فتفرّقوا، ولا يمرن أحد منكم بشيء إلاّ ضربه، فدخلوا عسكرهم من أربع نواحٍ لا يمرن بدابة ولا رجل ولا خيابة ولا جوالق إلاّ ضربوه. وسمع الوجبة نيزك فلبس سلاحه، ووقف في ليلة مظلمة، وقال لعليّ بن المهاجر الخزاعي: انطلق إلى طرخون فأعلمه موقفي، وقل له: ما ترى أعمل به، فأتى طرخون، فإذا هو في فلاة قاعد على كرسيّ وشاكريته قد أوقدوا النيران بين يديه، فأبلغه رسالة نيزك، فقال: اجلس، وهو طامح ببصره نحو العسكر والصوت، إذا أقبل محمية السلمي وهو يقول: «حم لا يُنصرون»، فتفرّق في الشاكريّة، ودخل محمية الفلاة، وقام إليه طرخون فبدره فضره، فلم يغني شيئاً، قال: وطعته طرخون بذبّاب السيف في صدره فصّره، ورجع إلى الكرسيّ فجلس عليه، وخرج محمية يعدّو.

قال: ورجعت الشاكريّة، فقال لهم طرخون: فررت من رجل! أرايتم لو كان ناراً هل كانت تحرق منكم أكثر من واحد! فما فزع من كلامه حتى دخل جوارية الفلاة، وخرج الشاكريّة هرباً، فقال للجوّاري: اجلسن، وقال لعليّ بن المهاجر: قُم، قال: فخرجاً فإذا نوح بن عبدالله بن خازم في السرداق، فتجاووا ساعة، واختلّفا ضربتين، فلم يصنعا شيئاً، وولى نوح وأتبعه طرخون، فطعن فرس نوح في خاصرته فشبّ، فسقط نوح والفرس في نهر الصغانيان، ورجع طرخون وسيفه يقطّردماً، حتى دخل السرداق وعلي بن المهاجر معه، ثم دخلا الفلاة.

وقال طرخون للجوّاري: ارجعن، فرجعن إلى السرداق، وأرسل طرخون إلى موسى: كُفّ عنك بذلك؟ فإننا نرتحل إذا أصبحنا، فأنا نرتحل إذا أصبحنا فرجع موسى إلى عسكره فلما أصبحوا ارتحل طرخون والعجم جميعاً فأتى كلّ قوم بلادهم، قال: وكان أهل خراسان يقولون: ما رأينا مثلاً لموسى بن عبدالله بن سارم، ولا سمعنا به، قاتل مع أبيه سنتين، ثم خرج يسير في بلاد خراسان حتى أتى ملكاً فعلبه على مدينته وأخرجه منها، ثم سارت إليه الجنود من العرب والترك فكان يُقاتل العرب أوّل النهار والعجم آخر النهار، وأقام في حصنه خمس عشرة سنة، وصار ما وراء النهر لموسى، لا يُعازّره فيه أحد.

قال : وكان بقومس رجل يقال له عبدالله ، يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ فِتْيَانٌ يَتَنَادَمُونَ عِنْدَهُ فِي مَوْثِنَتِهِ وَنَفَقَتِهِ ، فَلِزِمَهُ دَيْنٌ ، فَأَتَى مُوسَى بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ، فَأَعْطَاهُ أَرْبَعَةَ آلَافٍ ، فَأَتَى بِهَا أَصْحَابَهُ ، فَقَالَ الشَّاعِرُ يُعَاتِبُ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ مُوسَى :

فَمَا أَنْتَ مُوسَى إِذْ يُنَاجِي إِلَهَهُ وَلَا وَاهِبَ الْقَيْنَاتِ مُوسَى بْنُ خَازِمٍ

قال : فلما عُزِلَ يَزِيدُ وَوُلِّيَ الْمُفَضَّلُ خُرَاسَانَ أَرَادَ أَنْ يَحْطِيَ عِنْدَ الْحَجَّاجِ بِقِتَالِ مُوسَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، فَأَخْرَجَ عُثْمَانَ بْنَ مَسْعُودٍ - وَكَانَ يَزِيدُ حَبْسَهُ - فَقَالَ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَوْجِهَكَ إِلَى مُوسَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ وَتَرَنِي ، وَإِنِّي لَأَثَرُ بَابِنِ عَمِّي ثَابِتٍ وَبِالْخُزَاعِيِّ ، وَمَا يَذُّ أَبْيِكَ وَأَخِيكَ عِنْدِي وَعِنْدَ أَهْلِ بَيْتِي بِالْحَسَنَةِ ، لَقَدْ حَبَسْتُمُونِي وَشَرَّدْتُمُ بَنِي عَمِّي ، وَاصْطَفَيْتُمْ أَمْوَالَهُمْ . فَقَالَ لَهُ الْمُفَضَّلُ : دَعْ هَذَا عَنْكَ ، وَسِرْ فَأَذْرِكَ بِثَارِكَ ، فَوَجَّهَهُ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ ، وَقَالَ لَهُ : مُرْ مُنَادِيًا فَلْيُنَادِ : مَنْ لَحِقَ بِنَا فَلَهُ دِيْوَانٌ ، فَنَادَى بِذَلِكَ فِي السُّوقِ ، فَسَارَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ . وَكَتَبَ الْمُفَضَّلُ إِلَى مَدْرِكٍ وَهُوَ بِلُخٍّ أَنْ يَسِيرَ مَعَهُ ، فَخَرَجَ ، فَلَمَّا كَانَ بِبُلُخٍ خَرَجَ لَيْلَةً يَطُوفُ فِي الْعَسْكَرِ ، فَسَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ : قَتَلَهُ وَاللَّهِ ، فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : قَتَلْتُ مُوسَى وَرَبَّ الْكَعْبَةِ ! .

قال : فَأَصْبَحَ فَسَارَ مِنْ بُلُخٍ وَخَرَجَ مَدْرِكٌ مَعَهُ مُتَثَقِلًا ، فَقَطَعَ النَّهْرَ فَنَزَلَ جَزِيرَةً بِالتَّرِيمِذِ يُقَالُ لَهَا الْيَوْمَ جَزِيرَةُ عُثْمَانَ - لِنَزُولِ عُثْمَانَ بِهَا فِي خَمْسَةِ عَشَرَ أَلْفًا - وَكَتَبَ إِلَى السَّبَلِ وَإِلَى طَرُخُونٍ فَقَدَمُوا عَلَيْهِ ، فَحَصَرُوا مُوسَى ، فَضَبُّقُوا عَلَيْهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ ، فَخَرَجَ مُوسَى لَيْلًا فَأَتَى كَفْتَانَ ، فَامْتَارَ مِنْهَا ، ثُمَّ رَجَعَ فَمَكَثَ شَهْرَيْنِ فِي ضَبِّقٍ ، وَقَدْ خَنَدَقَ عُثْمَانُ وَحَذَرَ النَّبَاتِ ، فَلَمْ يَقْدِرْ مُوسَى مِنْهُ عَلَى غِرَّةٍ ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : حَتَّى مَتَى ! اخْرُجُوا بِنَا فَاجْعَلُوا يَوْمَكُمْ ، إِمَّا ظَفَرْتُمْ وَإِمَّا قُتِلْتُمْ ، وَقَالَ لَهُمْ : اقْصِدُوا لِلصَّغْدِ وَالتَّرَكِ ، فَخَرَجَ وَخَلَّفَ النَّصْرَ بْنَ سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَازِمٍ فِي الْمَدِينَةِ ، وَقَالَ لَهُ : إِنْ قُتِلْتُ فَلَا تَدْفَعَنَّ الْمَدِينَةَ إِلَى عُثْمَانَ ، وَادْفَعْهَا إِلَى مُدْرِكِ بْنِ الْمُهَلَّبِ . وَخَرَجَ فَصَيَّرَ ثَلَاثَ أَصْحَابِهِ بِإِزَاءِ عُثْمَانَ وَقَالَ : لَا تَهَاجِرُوا إِلَّا أَنْ يَقَاتِلَكُمْ ، وَقَصِدَ لَطَرُخُونَ وَأَصْحَابَهُ ، فَصَدَّقُوهُمْ ، فَانْهَزَمَ طَرُخُونُ وَالتَّرَكُ ، وَأَخَذُوا عَسْكَرَهُمْ فَجَعَلُوا يَنْقُلُونَهُ ، وَنَظَرَ مُعَاوِيَةُ بْنُ خَالِدِ بْنِ أَبِي بَرْزَةَ إِلَى عُثْمَانَ وَهُوَ عَلَى بَرْذُونَ لَخَالِدِ بْنِ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ ، فَقَالَ : انْزِلْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، فَقَالَ خَالِدٌ : لَا تَنْزِلْ فَإِنَّ مُعَاوِيَةَ مَشْؤُومٌ . وَكَرَّتِ الصَّغْدُ وَالتَّرَكُ رَاجِعَةً ، فَحَالُوا بَيْنَ مُوسَى وَبَيْنَ الْحَصَنِ ، فَقَاتَلَهُمْ ، فَعُقِرَ بِهِ فَسَقَطَ ، فَقَالَ لِمَوْلَى لَهُ : احْمِلْنِي ، فَقَالَ : الْمَوْتُ كَرِيهٌ ، وَلَكِنْ ارْتَدِفْ ، فَإِنْ نَجَوْنَا نَجَوْنَا جَمِيعًا ، وَإِنْ هَلَكْنَا هَلَكْنَا جَمِيعًا . قَالَ : فَارْتَدَفَ ، فَنَظَرَ إِلَى عُثْمَانَ حِينَ وَثَبَ فَقَالَ : وَثَبَ مُوسَى وَرَبَّ الْكَعْبَةِ ! وَعَلَيْهِ مَغْفَرٌ لَهُ مُوشِيٌّ بِخَزْ أَحْمَرَ فِي أَعْلَاهُ يَاقُوْتَةُ اسْمَانْجُونِيَّةٍ ، فَخَرَجَ مِنَ الْخَنْدَقِ فَكَشَفُوا أَصْحَابَ مُوسَى . فَقَصِدَ لِمُوسَى ، وَعَثَرَتْ دَابَّةُ مُوسَى فَسَقَطَ هُوَ وَمَوْلَاهُ ، فَابْتَدَرُوهُ فَانْطَوُوا عَلَيْهِ فَقَتَلُوهُ ، وَنَادَى مُنَادِي عُثْمَانَ : لَا تَقْتُلُوا أَحَدًا ، مِنْ لَقِيْتُمُوهُ فَخُذُوهُ أُسِيرًا .

قال : فَتَفَرَّقَ أَصْحَابُ مُوسَى ، وَأَسِيرَ مِنْهُمْ قَوْمٌ ، فَعُرِضُوا عَلَى عُثْمَانَ ، فَكَانَ إِذَا أَتَى بِأَسِيرٍ مِنَ الْعَرَبِ قَالَ : دِمَاؤُنَا لَكُمْ حَلَالٌ ، وَدِمَاؤُكُمْ عَلَيْنَا حَرَامٌ ! وَيَأْمُرُ بِقَتْلِهِ ، وَإِذَا أَتَى بِأَسِيرٍ مِنَ الْمَوَالِي شَتَمَهُ ، وَقَالَ : هَذِهِ الْعَرَبُ تَقَاتِلُنِي ، فَهَلَّا غَضِبْتَ لِي ! فَيَأْمُرُ بِهِ فَيُشَدِّخُ . وَكَانَ قَفْطًا ، غَلِيظًا فَلَمْ يَسْلَمْ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ أُسِيرٌ إِلَّا عَبْدِ اللَّهِ بْنُ بُدَيْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ ، فَإِنَّهُ كَانَ مَوْلَاهُ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ أَعْرَضَ عَنْهُ وَأَشَارَ بِيَدِهِ أَنْ خَلَوْا عَنْهُ ، وَرَقَبَهُ بْنُ الْحَرِّ لَمَّا أَتَى بِهِ نَظَرَ إِلَيْهِ وَقَالَ : مَا كَانَ مِنْ هَذَا إِلَيْنَا كَبِيرُ ذَنْبٍ ، وَكَانَ صَدِيقًا لثَابِتٍ ، وَكَانَ مَعَ قَوْمٍ قَوِيٍّ لَهُمْ ، وَالْعَجَبُ كَيْفَ أَسْرَتُمُوهُ ! قَالُوا : طَعُنَ فِرْسُهُ فَسَقَطَ عَنْهُ فِي وَهْدَةِ فَاسِيرٍ ، فَأَطْلَقَهُ وَحَمَلَهُ ، وَقَالَ لَخَالِدِ بْنِ أَبِي بَرْزَةَ : لَيْكُنْ عِنْدَكَ . قَالَ : وَكَانَ الَّذِي أَجْهَرَ عَلَى مُوسَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَاصِلُ بْنُ طَيْسِلَةَ الْعُثْبَرِيُّ .

ونظر يومئذ عثمان إلى زُرعة بن علقمة السلمي والحجاج بن مروان وسنان الاعرابي ناحية فقال : لكم الامان ، فظن الناس أنه لم يؤمنهم حتى كاتبوه .

قال : وبقيت المدينة في يدي النضر بن سليمان بن عبدالله بن خازم ، فقال : لا ادفعها إلى عثمان . ولكني ادفعها إلى مدرك ، فدفعها إليه وآمنه ، فدفعها مدرك إلى عثمان . وكتب المفضل بالفتح إلى الحجاج ، فقال الحجاج : العجب من ابن بهلة - أمره بقتل ابن سمره فيكتب إلي أنه لمآبه ويكتب إلي : إنه قتل موسى بن عبدالله بن خازم ، قال : وقتل موسى سنة خمس وثمانين ، فذكر البحرني أن مغراء بن المغيرة بن أبي صفرة قتل موسى فقال :

وقد عرّكت بالترمذ الخيل خازماً ونوحاً وموسى عركة بالكلال
قال : فضرب رجل من الجند ساق موسى ، فلما ولي قتيبة أخبر عنه فقال : ما دعاك إلى ما صنعت بفتى العرب بعد موته ! قال : كان قتل أخي ، فأمر به قتيبة فقتل بين يديه .
وفي هذه السنة أراد عبد الملك بن مروان خلع أخيه عبد العزيز بن مروان .

ذكر الخبر عن ذلك وما كان من أمرهما فيه :

ذكر الواقدي أن عبد الملك هم بذلك ، فنهاه عنه قبيصة بن ذؤيب ، وقال : لا تفعل هذا ، فإنك باعث على نفسك صوت نعار ، ولعل الموت يأتيه فتستريح منه ! فكف عبد الملك عن ذلك ونفسه تنازعه إلى أن يخلعه . ودخل عليه روح بن زنباع الجذامي - وكان أجل الناس عند عبد الملك - فقال : يا أمير المؤمنين ، لو خلعت ما انتطح فيه عزان ، فقال : ترى ذلك يا أبا زُرعة ؟ قال : إي والله ، وأنا أول من يُجيبك إلى ذلك ، فقال : نصيح إن شاء الله . قال : فيينا هو على ذلك وقد نام عبد الملك وروح أن زنباع إذ دخل عليهما قبيصة بن ذؤيب طروقا ، وكان عبد الملك قد تقدّم إلى حُجابه فقال : لا يُحجب عني قبيصة أي ساعة جاء من ليل أو نهار ، إذا كنت خالياً أو عندي رجل واحد ، وإن كنت عند النساء أدخل المجلس واعلمت بمكانه فدخل ، وكان الخاتم إليه ، وكانت السكة إليه ، تأتيه الأخبار قبل عبد الملك ، ويقرأ الكتب قبله ، ويأتي بالكتاب إلى عبد الملك منشوراً فيقرؤه ، إعظماً لقبصة - فدخل عليه فسلم عليه وقال : آجرك الله يا أمير المؤمنين في أخيك عبد العزيز ! قال : وهل توفي ؟ قال : نعم ، فاسترجع عبد الملك ، ثم أقبل على روح فقال : كفانا الله أبا زُرعة ما كنا نريد وما أجمعنا عليه ، وكان ذلك مخالفاً لك يا أبا إسحاق ، فقال قبيصة : ما هو ؟ فأخبره بما كان ، فقال قبيصة : يا أمير المؤمنين ، إن الرأي كله في الأناة ، والعجلة فيها ما فيها ، فقال عبد الملك : ربما كان في العجلة خير كثير ، رأيت أمر عمرو بن سعيد ، ألم تكن العجلة فيه خيراً من التأني !

وفي هذه السنة توفي عبد العزيز بن مروان بمصر في جمادى الأولى ، فضم عبد الملك عمله إلى ابنه عبد الله بن عبد الملك ، وولاه مصر .

وأما المدائني فإنه قال في ذلك ما حدثنا به أبو زيد عنه ، أن الحجاج كتب إلى عبد الملك يزين له بيعة الوليد ، وأوفد وفداً في ذلك عليهم عمران بن عصام الغنزي ، فقام عمران خطيباً ، فتكلم وتكلم الوغد وحثوا عبد الملك ، وسألوه ذلك ، فقال عمران بن عصام :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ نُهْدِي عَلَى النَّأْيِ التَّحِيَّةَ وَالسَّلَامَا
أَجْبَنِي فِي بَنِيكَ يَكُنْ جَوَابِي لَهُمْ عَادِيَّةٌ وَلَنَا قَوَامَا

فلو أن الوليد أطاع فيه
شبيهك حول قبته قريش
ومثلك في التقى لم يصب يوماً
فإن تُؤثر أذاك بها فإننا
ولكننا نحاذر من بنيه
ونخشى إن جعلت الملك فيهم
فلايك ما حلت غداً لقوم
فأقسم لو تخطأني عصام
لو أنني حبت أماً بفضل
لعقب في بني على بنيه
فمن يك في أقاربه صدوع

جعلت له الخلافة والذماما
به يستمطر الناس الغماما
لذن خلع القلائد والتماما
وجدك لا نطيع لها أتهاما
بني العلات مائرة سماما
سحاباً إن تعود لهم جهاماً
وبعد غد بنوك هم العياما
بذلك ما عذرت به عصاماً
أريد به المقالة والمقاما
كذلك أو لرميت له مراماً
فصدع الملك أبطووه التثاماً

فقال عبد الملك : يا عمران ، إنه عبدالعزيز ، قال : احتل له يا أمير المؤمنين .

قال علي : أراد عبد الملك ببيعة الوليد قبل أمر ابن الأشعث ، لأن الحجاج بعث في ذلك عمران بن عصام ، فلما أبى عبدالعزيز أعرض عبد الملك عما أراد حتى مات عبدالعزيز ، ولما أراد أن يخلع أخاه عبد العزيز ويبيع لابنه الوليد كتب إلى أخيه : إن رأيت أن تصير هذا الأمر لابن أخيك ، فأبى ، فكتب إليه : فاجعلها له من بعدك ، فإنه أعز الخلق على أمير المؤمنين . فكتب إليه عبدالعزيز : إني أرى في أبي بكر بن عبد العزيز ما ترى في الوليد ، فقال عبد الملك : اللهم إن عبدالعزيز قطعني فاقطعه . فكتب إليه عبد الملك : احمل خراج مصر . فكتب إليه عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ، إني وإياك قد بلغنا سنأ لم يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلاً ، وإني لا أدري ولا تدري أين يأتاه الموت أولاً ! فإن رأيت إلا تغث علي بقية عمري فافعل .

فرق له عبد الملك وقال : لعمري لا أغث عليه بقية عمره ، وقال لابنيه : إن يرد الله أن يعطيكموها لا يقدر أحد من العباد على رد ذلك . وقال لابنيه : الوليد وسليمان : هل قارفتما حراماً قط ؟ قال : لا والله ، قال الله أكبر ، نلتماها ورب الكعبة !

قال : فلما أبى عبدالعزيز أن يجيب عبد الملك إلى ما أراد ، قال عبد الملك : اللهم قد قطعني فاقطعه ، فلما مات عبدالعزيز قال أهل الشام : رد على أمير المؤمنين أمره ، فدعا عليه ، فاستجيب له .

قال : وكتب الحجاج إلى عبد الملك يشير عليه أن يستكتب محمد بن يزيد الأنصاري ، وكتب إليه إن أردت رجلاً مأموناً فاضلاً عاقلاً وديعاً مسلماً كتوما تتخذة لنفسك ، وتضع عنده سرك ، وما لا تحب أن يظهر ، فأنخذ محمد بن يزيد . فكتب إليه عبد الملك : احمله إلي . فحمله ، فأنخذ عبد الملك كاتباً . قال محمد : فلم يكن يأتيه كتاب إلا دفعه إلي ، ولا يستر شيئاً إلا أخبرني به وكتبه الناس ، ولا يكتب إلى عامل من عماله إلا أعلمني ، فإني لجالس يوماً نصف النهار إذا ببريد قد قديم من مصر ، فقال : الأذن على أمير المؤمنين . قلت : ليست هذه ساعة إذن ، فاعلمني ما قد قدمت له قال : لا قلت : فإن كان معك كتاب فادفعه إلي . قال : لا ، قال : فأبلغ بعض من حضرني أمير المؤمنين ، فخرج فقال : ما هذا ؟ قلت : رسول قديم من مصر ، قال : فخذ الكتاب ، قلت : زعم أنه ليس معه كتاب ، قال : فسئل عما قديم له ، قلت : قد سألت فلم يخبرني قال أدخله ،

فأدخلته، فقال: آجرك الله يا أمير المؤمنين في عبد العزيز! فاسترجع وبكى ووجع ساعة ثم قال: يرحم الله عبد العزيز! مضى والله عبد العزيز لشأنه، وتركنا وما نحن فيه، ثم بكى النساء وأهل الدار، ثم دعاني من غد، فقال: إنَّ عبد العزيز رحمه الله قد مضى لسبيله، ولا بد للناس من علم وقائم يقوم بالأمر من بعدي، فمن ترى؟ قلت: يا أمير المؤمنين، سيد الناس وأرضاهم وأفضلهم الوليد بن عبد الملك، قال: صدقت وفقتك الله! فمن ترى أن يكون بعده؟ قلت: يا أمير المؤمنين، أين تعدلها عن سليمان فتى العرب! قال: وفقت، أما إنا لو تركنا الوليد وإياها لجعلها لبنيه، اكتب عهد للوليد وسليمان من بعده، فكتبت بيعة الوليد ثم سليمان من بعده. فغضب عليّ الوليد فلم يؤلني شيئاً حين أشرت بسليمان من بعده.

قال علي، عن ابن جعدة: كتب عبد الملك إلى هشام بن إسماعيل المخزومي أن يدعو الناس لبيعة الوليد وسليمان، فبايعوا غير سعيد بن المسيب، فإنه أبي، وقال: لا أبايع وعبد الملك حي، فضربه هشام ضرباً مبرحاً، وألبسه المسوح، وسرّحه إلى ذباب - ثنية بالمدينة كانوا يقتلون عندها ويصلبون فظن أنهم يريدون قتله، فلما انتهوا به إلى ذلك الموضع ردّوه، فقال: لو ظننت أنهم لا يصلبوني ما لبست سراويل مسوح، ولكن قلت: يصلبوني فيستري. وبلغ عبد الملك الخبر، فقال: قبح الله هشاماً! إنما كان ينبغي أن يدعو إلى البيعة، فإن أبي يضرب عنقه، أو يكف عنه.

وفي هذه السنة بايع عبد الملك لابنيه: الوليد، ثم من بعده لسليمان، وجعلها وليي عهد المسلمين، وكتب ببيعته لهما إلى البلدان، فبايع الناس، وامتنع من ذلك سعيد بن المسيب، فضربه هشام بن إسماعيل - وهو عامل عبد الملك على المدينة - وطاف به وحسبه، فكتب عبد الملك إلى هشام يلومه على ما فعل من ذلك، وكال ضربه ستين سوطاً، وطاف به في ثبان شعر حتى بلغ به رأس الثنية.

وأما الحارث فإنه قال: حدّثني ابن سعد، عن محمد بن عمر الواقدي، قال: حدثنا عبد الله بن جعفر وغيره من أصحابنا قالوا: استعمل عبد الله ابن الزبير جابر بن الأسود بن عوف الزهري على المدينة، فدعا الناس إلى البيعة لابن الزبير، فقال سعيد بن المسيب: لا، حتى يجتمع الناس، فضربه ستين سوطاً، فبلغ ذلك ابن الزبير، فكتب إلى جابر يلومه، وقال: ما لنا ولسعيد، دعه!

وحديثي الحارث، عن ابن سعد، أن محمد بن عمر أخبره، قال: حدثنا عبد الله بن جعفر وغيره من أصحابنا أن عبد العزيز بن مروان توفي بمصر في جمادى سنة أربع وثمانين، فعقد عبد الملك لابنيه الوليد وسليمان العهد، وكتب بالبيعة لهما إلى البلدان، وعامله يومئذ هشام بن إسماعيل المخزومي، فدعا الناس إلى البيعة، فبايع الناس، ودعا سعيد بن المسيب أن يبايع لهما، فأبى وقال: لا حتى أنظر فضربه هشام بن إسماعيل ستين سوطاً، وطاف به في ثبان شعر حتى بلغ به رأس الثنية، فلما كروا به قال: أين تكرون بي؟ قالوا: إلى السجن، قال: والله لولا أنا، ظننت أنه الصلْب لما لبست هذا الثبان أبداً، فردّه إلى السجن، وحسبه وكتب إلى عبد الملك يُخبره بخلافه، وما كان من أمره، فكتب إليه عبد الملك يلومه فيما صنع ويقول: سعيد والله كان أحوج أن تصل رحمه من أن تضربه، ولنا لعلم ما عنده من شقاق ولا خلاف.

وحج بالناس في هذه السنة هشام بن إسماعيل المخزومي، كذلك حدثنا أحمد بن ثابت عن ذكره، عن إسحاق بن عيسى، عن أبي معشر. وكذلك قال الواقدي.

وكان العامل على المشرق في هذه السنة مع العراق الحجاج بن يوسف.

ثم دخلت سنة ست وثمانين

ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فمما كان فيها من ذلك هلاك عبد الملك بن مروان . وكال مهلكه في النصف من شوال منها . حدثني احمد بن ثابت عمّن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر ، قال : توفي عبد الملك بن مروان يوم الخميس للنصف من شوال سنة ست وثمانين ، فكانت خلافته ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر . وأما الحارث فإنه حدثني عن ابن سعد ، عن محمد بن عمر ، قال حدثني شرحبيل بن أبي عون ، عن أبيه ، قال : أجمع الناس على عبد الملك بن مروان سنة ثلاث وسبعين .

قال ابن عمر : وحدثني أبو معشر نجيع ، قال : مات عبد الملك بن مروان بدمشق يوم الخميس للنصف من شوال سنة ست وثمانين ، فكانت ولايته منذ يوم يبيع إلى يوم توفي إحدى وعشرين سنة وشهراً ونصفاً ، كان تسع سنين منها يقاتل فيها عبد الله بن الزبير ، ويسلم عليه بالخلافة بالشام ، ثم بالعراق بعد مقتل مصعب ، وبقي بعد مقتل عبد الله بن الزبير واجتماع الناس عليه ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر إلا سبع ليال .

وأما علي بن محمد المدائني ، فإنه - فيما حدثنا أبو زيد عنه - قال : مات عبد الملك سنة ست وثمانين بدمشق ، وكانت ولايته ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة عشر يوماً .

ذكر الخبر عن مبلغ سنه يوم توفي

اختلف أهل السير في ذلك ، فقال أبو معشر فيه - ما حدثني الحارث عن ابن سعد ، قال : أخبرنا محمد بن عمر ، قال : حدثني أبو معشر نجيع . قال : مات عبد الملك بن مروان وله ستون سنة .

قال الواقدي : وقد روي لنا أنه مات وهو ابن ثمان وخمسين سنة . قال : والأول أثبت . وهو على مولده ، قال : وولد سنة ست وعشرين في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وشهد يوم الدار مع أبيه وهو ابن عشر سنين .

وقال المدائني علي بن محمد - فيما ذكر ، أبو زيد عنه : مات عبد الملك وهو ابن ثلاث وستين سنة .

ذكر نسبه وكنيته

أما نسبه ، فإنه عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . وأما

كنيته فابو الوليد . وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية ، وله يقول ابن قيس الرقيات :

أَنْتَ ابْنُ عَائِشَةَ الَّتِي فَضَلْتُ أُرُومَ نِسَائِهَا
لَمْ تَلْتَفِتْ لِإِلْدَاتِهَا وَمَضَتْ عَلَى غُلُوَائِهَا

ذكر أولاده وأزواجه

منهم الوليد ، وسليمان ، ومروان الأكبر - درج - وعائشة ؛ أمهم ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن جذيمة بن راحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس بن بغيض .

وزيد ، ومروان ، ومعاوية - درج - وأم كلثوم ، وأمهم عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .

وهشام ، وأمهم أم هشام بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي . وقال المدائني : اسمها عائشة بنت هشام .

وأبوبكر ، واسمه بكار ، أمه عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيدالله ، والحكم - درج - أمه أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان .

وفاطمة بنت عبد الملك ، أمها أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة .

وعبدالله ومسلمة والمنذر وعنبسة ومحمد وسعيد الخير والحجاج ؛ لأمهات أولاد .

قال المدائني : وكان له من النساء - سوى من ذكرنا - شقراء بنت سلمة بن حلبس الطائي ، وابنة لعلي بن أبي طالب عليه السلام ، وأم أبيها بنت عبدالله بن جعفر .

وذكر المدائني ، عن عوانة وغيره أن سلمة بن زيد بن وهب بن نباة الفهمي دخل على عبد الملك فقال له : أي الزمان أدركت أفضل ؟ وأي الملوك أكمل ؟ قال : أما الملوك فلم أر إلا ذاماً وحامداً ؛ وأما الزمان فيرفع أقواماً ويضع أقواماً ، وكلهم يذم زمانه لأنه يلبى جديدهم ، ويهزم صغيدهم ، وكل ما فيه منقطع غير الأمل ؛ قال : فأخبرني عن فهم ، قال : هم كما قال من قال :

درج الليل النهار على فه
وخلت دارهم فأضححت يباباً
كذلك الزمان يذهب بالناس
س بن عمرو فأصبحوا كالرميم
بعذ عز وثروة ونعيم
س وتبقى ديارهم كالرسوم

قال : فمن يقول منكم :

رأيت الناس مذ خلقوا وكانوا
وإن كان الغني قليل خير
فما أدري علام وفيهم هذا
أللذنيا؟ فليس هناك دنيا
يحبون الغني من الرجال
بخيلاً بالقليل من النوال
وماذا يرتجون من البخال
ولا يرجى لحادثة الليالي

قال : أنا .

قال علي : قال أبو قطيفة عمرو بن الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط لعبدالمَلِك بن مَرْوان :

نَبِئْتُ أَنَّ ابْنَ الْقَلَمِ عَابَنِي وَمَنْ ذَا مِنَ النَّاسِ الصَّحِيحُ الْمَسَلَّمُ !
فَأَبْصَرَ سُبُلَ الرُّشْدِ سَيِّدُ قَوْمِهِ وَقَدْ يُبْصِرُ الرُّشْدَ الرَّئِيسُ الْمُعَمَّمُ
فَمَنْ أَنْتُمْ؟ هَا خَبَرُونَا مَنْ أَنْتُمْ؟ وَقَدْ جَعَلْتَ أَشْيَاءَ تَبْذُورُ وَتُكْتَمُ

فقال عبدالمَلِك : ما كنتُ أرى أَنَّ مِثْلَنَا يُقال له : مَنْ أَنْتُمْ ! أما واللَّهِ لولا ما تعلم لقلتُ قولاً ألحقكم بأصلكم الخبيث ، ولضربتُك حتى تموت .

وقال عبدالله بنُ الحَجَّاجِ الثُّعْلَبِيِّ لعبدالمَلِك :

يَا بْنَ أَبِي الْعَاصِ يَا خَيْرَ فَتَى أَنْتَ السِّدِّاقُ الدِّينِ إِنْ دِينٌ وَهَى
أَنْتَ الَّذِي لَا يَجْعَلُ الْأَمْرَ سُدَى جِئْتَ قَرِيشَ عَنكُمْ جَوْبَ الرَّحَى
إِنَّ أَبَا الْعَاصِ فِي ذَاكَ اعْتَصَى أَوْصَى بَنِيهِ فَوَعَوْا عَنْهُ الْوَصَى
إِنْ يَسْعُرُوا الْحَرْبَ وَيَأْبُوا مَا أَبَى الطَّاعِنِينَ فِي النُّحُورِ وَالْكُلَى
شَزْرًا وَوَضَلًا لِلسَّيْفِ بِالْخَطَا إِلَى الْقِتَالِ فَحَوُوا مَا قَدْ حَوَى

وقال أَعَشَى بَنِي شَيْبَانَ :

عَرَفْتُ قَرِيشَ كُلُّهَا لِبَنِي أَبِي الْعَاصِ الْإِمَارَةُ
لَأَبْرَهَا عِنْدَ الْمَشُورَةِ بِالْإِشَارَةِ
الْمَانَعِينَ لِمَا وَلُوا وَالنَّافِعِينَ ذَوِي الضَّرَارَةِ
وَهُمْ أَحَقُّهُمْ بِهَا عِنْدَ الْحَلَاوَةِ وَالْمَرَارَةِ

وقال عبدالمَلِك : ما أعلم مكانَ أحدٍ أقوى على هذا الأمرِ مِنِّي ، وإنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ لَطَوِيلُ الصَّلَاةِ ، كثيرُ الصَّيَامِ ، ولكنْ لبخله لا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ سَائِسًا .

خلافة الوليد بن عبدالمَلِك

وفي هذه السنة بُويع للوليد بن عبدالمَلِك بالخلافة ، فَذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا دَفَنَ أَبَاهُ وَانصَرَفَ عَنْ قَبْرِهِ ، دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَصَعِدَ الْمَنْبَرَ ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ ، فَخَطَبَ فَقَالَ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ! وَاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَصِيبَتِنَا بِمَوْتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْنَا مِنَ الْخِلَافَةِ . قَوْمُوا فَبَايَعُوا .

فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ قَامَ لِبَيْعَتِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هَمَّامِ السَّلُولِيُّ ، فَإِنَّهُ قَامَ وَهُوَ يَقُولُ :

اللَّهُ أَعْطَاكَ الَّتِي لَا فَوْقَهَا وَقَدْ أَرَادَ الْمُلْحِدُونَ عَوَقَهَا
عَنْكَ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا سَوْقَهَا إِلَيْكَ حَتَّى قَلَّدُوكَ طَوَقَهَا

فَبَايَعَهُ ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ عَلَى الْبَيْعَةِ .

وأما الواقدي فإنه ذكر أنّ الوليد لما رجع من دفن أبيه ، ودُفِنَ خارج باب الجابية ، لم يدخل منزله حتى صعد على منبر دمشق ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

أيها الناس ، إنه لا مُقَدِّمَ لما أَمَرَ الله ، ولا مؤخِّرَ لما قَدَّمَ الله ، وقد كان من قضاء الله وسابقِ عِلْمِهِ وما كَتَبَ على أنبيائه وحَمَلَةِ عَرْشِهِ الموت . وقد صار إلى منازل الأبرار وليّ هذه الأمة الذي يحق عليه الله من الشدة على المُريب ، واللين لأهل الحق والفضل ، وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وأعلامه ؛ من حَجِّ هذا البيت ، وغزو هذه الثغور ، وشنّ هذه الغارة على أعداء الله ، فلم يكن عاجزاً ولا مُفَرِّطاً . أيها الناس ، عليكم بالطاعة ، ولزوم الجماعة ، فإنّ الشيطان مع الفرد . أيها الناس ، مَنْ أبدى لنا ذاتَ نفسه ضَرْبُنا الذي فيه غِيَاة ، ومن سَكَتَ ماتَ بدائه .

ثم نزل ، فنظر إلى ما كان من دوابّ الخلافة فخازه ، وكان جبّاراً عنيداً .

وفي هذه السنة قَدِمَ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ خُرَاسَانَ والياً عليها من قَبْلِ الْحَجَّاجِ ، فذكر علي بن محمد أنّ كُليب ابن خَلَفٍ ، أخبره عن طُفَيْلِ بْنِ مُرْدَاسِ الْعَمِّيِّ وَالْحَسَنِ بْنِ رُشِيدٍ ، عن سليمان بن كثير العمي ، قال : أخبرني عمي قال : رأيت قُتَيْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ حين قَدِمَ خُرَاسَانَ في سنة ست وثمانين ، فَقَدِمَ والمفضل يعرض الجُندَ ، وهو يريد أن يغزوَ آخرون وشُومان ، فَخَطَبَ الناس قُتَيْبَةُ ، وحثّهم على الجهاد ، وقال :

إنّ الله أحلّكم هذا المخلّ ليعزّ دينه ، ويدبّ بكم عن الحُرُمات ، ويزيد بكم المال استفاضة ، والعدوّ وقماً ، ووعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق ، وكتاب نطق ، فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (١) . ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب ، وأعظم الذّخر عنده فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) . ثم أخبر عن قُتَيْلٍ فِي سَبِيلِهِ أَنَّهُ حَيٌّ مَرْزُوقٌ ، فقال : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (٣) . فتجنّزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم ، وإيائي والهويني .

ذكر ما كان من أمر قُتَيْبَةَ بِخُرَاسَانَ في هذه السنة :

ثم عَرَضَ قُتَيْبَةُ الْجُنْدَ فِي السِّلَاحِ وَالْكَرَاعِ ، وسار واستخلفَ بِمَرْوٍ على حَرْبِهَا إِيَّاسَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ، وعلى الخراج عثمان بن السعديّ ، فلما كان بالطالْقَانِ تَلَقَّاهُ ذَهَاقِينَ بَلَّخَ وَبَعْضُ عُظَمَائِهِمْ فَسَارُوا مَعَهُ ، فلما قَطَعَ النَهْرَ تَلَقَّاهُ تَيْشُ الْأَعْوَرِ مَلِكِ الصَّغَانِيَّانِ بِهَدَايَا وَمِفْتَاحٍ مِنْ ذَهَبٍ ، فدعاه إلى بلاده ، فأتاه وأتى ملك كفتان بهدايا وأموال ، ودعاه إلى بلاده ، فمضى مع تيش إلى الصَّغَانِيَّانِ ، فسلم إليه بلاده ، وكان ملك آخرون وشُومان قد أساء جوار تيش وغزاه وضيّق عليه ، فسار قُتَيْبَةُ إِلَى آخَرُونَ وشُومان - وهما من طَخَارِسْتَانَ ، فجاءه غشتاسبان فصالحه على فِذْيَةٍ أَذَاهَا إِلَيْهِ ، فقبلها قُتَيْبَةُ ورضي ، ثم انصرف إلى مَرْوٍ ، واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم ، وتقدّم جنده فسبقهم إلى مَرْوٍ ، وفتح صالح بعد رجوع قُتَيْبَةَ

(١) سورة التوبة : ١٢٠ - ١٢١ -

(٢) سورة الصف : ٩ .

(٣) سورة آل عمران ١٦٩ .

باسارا ، وكان معه نصر بن سيار فأبلى يومئذ ؛ فوهب له قرية تدعى تنجانة ، ثم قديم صالح على قتيبة فاستعمله على الترمذ .

قال : وأما الباهليون فيقولون : قديم قتيبة خراسان سنة خمس وثمانين فعرض الجند ، فكان جميع ما أحصوا من الدروع في جند خراسان ثلاثمائة وخمسين درعاً ، فغزا آخرون وشومان ، ثم قفل فركب السفن فأنحدر إلى أمل ، وخلف الجند ، فأخذوا طريق بلخ إلى مرو ، وبلغ الحجاج ، فكتب إليه يلومه ويعجز رأيه في تخليفه الجند ، وكتب إليه : إذا غزوت فكن في مقدم الناس ، وإذا قفلت فكن في أخرياتهم وساقيتهم .

وقد قيل : إن قتيبة أقام قبل أن يقطع النهر في هذه السنة على بلخ ، لأن بعضها كان منتقياً عليه ، وقد ناصب المسلمين ، فحارب أهلها ، فكان ممن سبى امرأة برمك ، أبي خالد بن برمك - وكان برمك على النوبهار - فصارت لعبدالله بن مسلم الذي يقال له الفقير ، أخي قتيبة بن مسلم ، فوقع عليها ، وكان به شيء من الجذام . ثم إن أهل بلخ صالحوا من غد اليوم الذي حاربهم قتيبة ، فأمر قتيبة برد السبي ، فقالت امرأة برمك لعبدالله بن مسلم : يا تازي ، إني قد علقت منك . وحضرت عبدالله بن مسلم الوفاة ، فأوصى أن يلحق به ما في بطنها ، وردت إلى برمك ، فذكر أن ولد عبدالله بن مسلم جاؤوا أيام المهدي حين قديم الري إلى خالد ، فادعوه ، فقال لهم مسلم بن قتيبة : إنه لا بد لكم إن استلحقتموه ففعل من أن تزوجوه ، فتركوه وأعرضوا عن دعواهم . وكان برمك طبيباً ، فداوى بعد ذلك مسلمة من علة كانت به .

وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم .

وفيهما حبس الحجاج بن يوسف يزيد بن المهلب ، وعزل حبيب بن المهلب عن كرمان ، وعبد الملك بن المهلب عن شرطته .

وحج بالناس في هذه السنة هشام بن إسماعيل المخزومي ، كذلك حدثني أحمد بن ثابت ، ممن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر . وكذلك قال الواقدي .

وكان الأمير على العراق كله والمشرق كله الحجاج بن يوسف . وعلى الصلاة بالكوفة المغيرة بن عبدالله بن أبي عقيل . وعلى الحرب بها من قبل الحجاج زياد بن جريز بن عبدالله . وعلى البصرة أيوب بن الحكم . وعلى خراسان قتيبة بن مسلم .

ثم دخلت سنة سبع وثمانين ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

ففي هذه السنة عَزَلَ الوليدُ بنُ عبد الملك هشامَ بنَ إسماعيل عن المدينة ، ووردَ عزله عنها - فيما ذكر - ليلةَ الأحد لسبعِ ليالٍ خلَوْنَ من شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين . وكانت إمرته عليها أربع سنين غير شهر أو نحوه .

وفي هذه السنة ولى الوليدُ عمرَ بنَ عبدالعزيز المدينة . قال الواقدي : قَدِمَهَا والياً في شهر ربيع الأول ؛ وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وُولد سنة اثنتين وستين .

قال : وقَدِمَ على ثلاثين بعيراً ، فنَزَلَ دارَ مروان . قال : فحدَّثني عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه ، قال : لما قَدِمَ عمر بنُ عبدالعزيز المدينة ونَزَلَ دارَ مروانَ دخل عليه الناسُ فسَلَّموا ، فلما صَلَّى الظهر دعا عشرةً من فقهاء المدينة : عُرْوَةَ بنَ الزبير ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبا بكر بن عبد الرحمن ، وأبا بكر بن سليمان بن أبي حنمة ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زَيْد ؛ فدخلوا عليه فجلسوا ، فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتكونون فيه أعواناً على الحق ، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من خَضَرَ منكم ، فإن رأيتم أحداً يتعدى ، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة ، فأخرج الله على من بلغه ذلك إلا بلغني .

فخرجوا يُجْزونه خيراً ، وافترقوا .

قال : وكتب الوليدُ إلى عمرَ يأمُرُه أن يقف هشامَ بنَ إسماعيل للناس ، وكان فيه سيئ الرأي .

قال الواقدي : فحدَّثني داودُ بن جُبَيْر ، قال : أخبرني أمّ ولد سعيد بن المسيب أن سعيداً دعا ابنه ومواليه فقال : إن هذا الرجل يُوقف للناس - أو قد وقف - فلا يتعرض له أحد ولا يؤذِهِ بكلمة ، فإنما سنترك ذلك لله وللرجم ، فإن كان ما علمتُ لسيئ النظر لنفسه ، فأما كلامه فلا أكلمه أبداً .

قال : وحدَّثني محمد بنُ عبد الله بن محمد بن عمر ، عن أبيه ، قال : كان هشامُ بنُ إسماعيل يسيء جوارنا ويؤذيها ، ولقى منه علي بنُ الحسين أذى شديداً ، فلما عَزَلَ أمرَ به الوليدُ أن يُوقف للناس ، فقال : ما أخاف إلا من علي بن الحسين . فمَرَّ به علي وقد وقف عند دار مروان ، وكان علي قد تقدّم إلى خاصته ألا

يَعْرِضُ لَهُ أَحَدُ مِنْهُمْ بِكَلِمَةٍ ؛ فَلَمَّا مَرَّ نَادَاهُ هِشَامُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ : اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ .

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ قَدِمَ نَيْزَكٌ عَلَى قُتَيْبَةَ ، وَصَالَحَ قُتَيْبَةُ أَهْلَ بَادَغِيسَ عَلَى أَنْ يَدْخُلَهَا قُتَيْبَةُ .

ذَكَرَ الْخَبْرَ عَنْ ذَلِكَ :

ذَكَرَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ أَنَّ أَبَا الْحَسَنِ الْجُشَمِيَّ أَخْبَرَهُ عَنْ أَشْيَاحَ مِنْ أَهْلِ خُرَاصَانَ ، وَجَبَلَةَ بْنِ فَرُوخَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُثَنَّى ، أَنَّ نَيْزَكَ طَرُخَانَ كَانَ فِي يَدَيْهِ أَسْرَاءُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ قُتَيْبَةُ حِينَ صَالَحَ مَلِكُ شُومَانَ فِيمَنْ فِي يَدَيْهِ مِنَ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُطْلِقَهُمْ ، وَيَهْدِيهِ فِي كِتَابِهِ ، فَعَافَاهُ نَيْزَكُ ، فَأُطْلِقَ الْأَسْرَى ، وَبَعَثَ بِهِمْ إِلَى قُتَيْبَةَ ، فَوَجَّهَ إِلَيْهِ قُتَيْبَةُ سُلَيْمَانَ النَّاصِحَ مَوْلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ يَدْعُوهُ إِلَى الْمَصْلَحِ وَإِلَى أَنْ يُؤْمِنَهُ ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا يَحْلِفُ فِيهِ بِاللَّهِ : لَنْ لَمْ يَقْدَمَ عَلَيْهِ لِيَغْزُوهُ ، ثُمَّ لِيُطْلِبَنَّهُ حَيْثُ كَانَ ، لَا يَقْلَعُ عَنْهُ حَتَّى يَطْفُرَ بِهِ أَوْ يَمُوتَ قَبْلَ ذَلِكَ . فَقَدِمَ سُلَيْمٌ عَلَى نَيْزَكٍ بِكِتَابِ قُتَيْبَةَ - وَكَانَ يَسْتَنْصِحُهُ - فَقَالَ لَهُ : يَا سَلِيمُ ، مَا أَظُنُّ عِنْدَ صَاحِبِكَ خَيْرًا ، كَتَبَ إِلَيَّ كِتَابًا لَا يُكْتَبُ إِلَى مِثْلِي ! قَالَ لَهُ سَلِيمٌ : يَا أَبَا الْهَيَّاجِ ، إِنَّ هَذَا رَجُلٌ شَدِيدٌ فِي سُلْطَانِهِ ، سَهْلٌ إِذَا سُوِّهَ ، صَعْبٌ إِذَا غُوسِرَ ، فَلَا يَمْنَعُكَ مِنْهُ غِلْظَةُ كِتَابِهِ إِلَيْكَ ، فَمَا أَحْسَنَ حَالَكَ عِنْدَهُ وَعِنْدَ جَمِيعِ مُضَرٍّ أَفَقَدِمَ نَيْزَكُ مَعَ سُلَيْمٍ عَلَى قُتَيْبَةَ ، فَصَالَحَهُ أَهْلُ بَادَغِيسَ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ عَلَى أَنْ يَدْخُلَ بَادَغِيسَ .

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ غَزَا مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَرْضَ الرُّومِ ، وَمَعَهُ يَزِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، فَلَقِيَ الرُّومَ فِي عَدَدٍ كَثِيرٍ بِسُوسَنَةَ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَصْبِيحَةِ .

قَالَ الْوَاقِدِيُّ : فِيهَا لَاقَى مَسْلَمَةُ مَيْمُونًا الْجُرْجَانِيَّ وَمَعَ مَسْلَمَةَ نَحْوًا مِنْ أَلْفٍ مُقَاتِلٍ مِنْ أَهْلِ أَنْطَاكِيَّةَ عِنْدَ طُؤَانَةَ ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ بَشَرًا كَثِيرًا ، وَفَتَحَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ حُصُونًا .

وَقِيلَ : أَنَّ الَّذِي غَزَا الرُّومَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ حِصْنَ بُولُقَ وَحِصْنَ الْأَخْرَمِ وَحِصْنَ بُولَسَ وَقَمْقَمَ ، وَقَتَلَ مِنَ الْمُسْتَعْرَبَةِ نَحْوًا مِنْ أَلْفٍ مُقَاتِلٍ ، وَسَبَى ذُرَارِيَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ .

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ غَزَا قُتَيْبَةُ بِيكَنْدَ .

ذَكَرَ الْخَبْرَ عَنْ غَزْوَتِهِ هَذِهِ :

ذَكَرَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ أَنَّ أَبَا الدَّيَّالَ أَخْبَرَهُ عَنِ الْمُهَلَّبِ بْنِ إِيَّاسَ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ حُسَيْنِ بْنِ مُجَاهِدِ الرَّازِيِّ وَهَارُونَ بْنِ عَيْسَى ، عَنْ يُونُسَ بْنِ أَبِي إِسْحَاقَ وَغَيْرِهِمْ ، أَنَّ قُتَيْبَةَ لَمَّا صَالَحَ نَيْزَكَ أَقَامَ إِلَى وَقْتِ الْغَزْوِ ، ثُمَّ غَزَا فِي تِلْكَ السَّنَةِ - سَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ - بِيكَنْدَ ، فَسَارَ مِنْ مَرْوَ وَأَتَى مَرْوَ الرُّوذَ ، ثُمَّ أَتَى أَمْلًا ثُمَّ مَضَى إِلَى زَمَ فَقَطَعَ النَهْرَ ، وَسَارَ إِلَى بِيكَنْدَ - وَهِيَ أَدْنَى مَدَائِنِ بُخَارَى إِلَى النَهْرِ ، يُقَالُ لَهَا مَدِينَةُ التَّجَارِ عَلَى رَأْسِ الْمَفَازَةِ مِنْ بُخَارَى - فَلَمَّا نَزَلَ بِعَقُوتِهِمْ اسْتَنْصَرُوا الصُّغْدَ ، وَاسْتَمَدُّوا مِنْ حَوْلِهِمْ ، فَاتَّوَّهُمَ فِي جَمْعٍ كَثِيرٍ ، وَاتَّخَذُوا بِالطَّرِيقِ ، فَلَمْ يَنْفُذْ لِقَيْتَيْبَةَ رَسُولٌ ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ رَسُولٌ ، وَلَمْ يَجِرْ لَهُ خَبَرٌ شَهْرَيْنِ ، وَأَبْطَأَ خَبَرُهُ عَلَى الْحِجَّاجِ ، فَأَشْفَقَ الْحِجَّاجُ عَلَى الْجَنْدِ ، فَأَمَرَ النَّاسَ بِالِدَّعَاءِ لَهُمْ فِي الْمَسَاجِدِ ، وَكَتَبَ بِذَلِكَ إِلَى الْأَمْصَارِ وَهُمْ يَقْتَتِلُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ .

قَالَ : وَكَانَ لِقَيْتَيْبَةَ عَيْنٌ يُقَالُ لَهُ تَنْدَرُ مِنَ الْعَجَمِ ، فَأَعْطَاهُ أَهْلُ بُخَارَى الْأَعْلَى مَالًا عَلَى أَنْ يَقْتُلَهُمْ عَنْهُمْ قُتَيْبَةُ ، فَاتَاهُ ، فَقَالَ : أَخْلِنِي ، فَهَبْضُ النَّاسِ وَاحْتَبَسَ قُتَيْبَةُ ضِرَارَ بْنَ حَصِينِ الضُّبِّيَّ ، فَقَالَ تَنْدَرُ : هَذَا عَامِلٌ يَقْدُمُ عَلَيْكَ ، وَقَدْ غُزِلَ الْحِجَّاجُ ، فَلَوْ أَنْصَرَفْتَ بِالنَّاسِ إِلَى مَرْوَ ! فَدَعَا قُتَيْبَةُ سَيَّاهَ مَوْلَاهُ ، فَقَالَ : اضْرِبْ عُقْنِي

تنذر ، فقتله ، ثم قال لضرار : لم يبق أحد يعلم هذا الخبر غيري وغيرك ، وإني أعطي الله عهداً إن ظهر هذا الحديث من أحد حتى تنقضي حربنا هذه لألحقنك به ؛ فامليك لسانك ، فإن انتشار هذا الحديث يفت في أعضاد الناس . ثم أذن للناس .

قال : فدخلوا ، فرأعهم قتل تنذر ، فوجأ وأطرقوا ، فقال قتبية : ما يروغكم من قتل عبد أحانه الله ! قالوا : إنا كنا نظنه ناصحاً للمسلمين ، قال : بل كان غاشاً فأحانه الله بذنبه ، فقد مضى لسبيله ، فاغذوا على قتال عدوكم ، والقوهم بغير ما كنتم تلقونهم به . فغدا الناس متأهبين ، وأخذوا مصافهم ، ومشي قتبية فحضر أهل الرايات ، فكانت بين الناس مشاولة ، ثم تراحفوا والتقوا ، وأخذت السيوف مأخذها ، وأنزل الله على المسلمين الصبر ، فقاتلوهم حتى زالت الشمس ، ثم منح الله المسلمين أكتافهم ، فانهزموا يريدون المدينة ، واتبعهم المسلمون فشغلهم عن الدخول فتفرقوا ، وركبهم المسلمون قتلاً وأسرأ كيف شاؤوا ، واعتصم من دخل المدينة بالمدينة ، وهم قليل ، فوضع الفعلة في أصلها ليهدمها ، فسألوه الصلح فصالحهم ، واستعمل عليهم رجلاً من بني قتبية .

وارتحل عنهم يريد الرجوع ، فلما سار مرحلة أو اثنتين ، وكان منهم على خمسة فراسخ نقضوا وكفروا ، فقتلوا العامل وأصحابه ، وجدعوا أنفهم وآذانهم ، وبلغ قتبية فرجع إليهم ، وقد تحصنوا ، فقاتلهم شهراً ، ثم وضع الفعلة في أصل المدينة فعلقوها بالخشب ، وهو يريد إذا فرغ من تعليقها أن يحرق الخشب فتهدم ، فسقط الحائط وهم يعلقونه ، فقتل أربعين من الفعلة ، فطلبوا الصلح ، فأبى وقاتلهم ، فظفر بهم عنوة ، فقتل من كان فيها من المقاتلة ، وكان فيمن أخذوا في المدينة رجل أعور كان هو الذي استجاش الترك على المسلمين ، فقال لقتبية : أنا أفدي نفسي ، فقال له سليم الناصح : ما تبدل ؟ قال : خمسة آلاف حريرة صينية قيمتها ألف ألف ، فقال قتبية : ما ترون ؟ قالوا : نرى أن فدائه زيادة في غنائم المسلمين ، وما عسى أن يبلغ من كيد هذا ! قال : لا والله لا تروغ بك مسلمة أبداً ، وأمر به فقتل .

قال علي : قال أبو الديال ، عن المهلب بن إياس ، عن أبيه والحسن بن رشيد ، عن طفيل بن مرداس ، أن قتبية لما فتح بيكند أصابوا فيها من آنية الذهب والفضة ما لا يحصى ، فولى الغنائم والقسم عبدالله بن ولان العدوي أحد بني ملكان - وكان قتبية يسميه الأمين ابن الأمين - وإياس بن بيئس الباهلي ، فأذاها الآنية والأصنام فرفعاه إلى قتبية ، ورفعاه إليه حبث ما أذاها ، فوهبه لهما ، فأعطيا به أربعين ألفاً ، فأعلماه فرجع فيه وأمرهما أن يذبيها فأذاها ، فخرج منه خمسون ومائة ألف مثقال - أو خمسون ألف مثقال - وأصابوا في بيكند شيئاً كثيراً ، وصار في أيدي المسلمين من بيكند شيء لم يصيبوا مثله بخراسان . ورجع قتبية إلى مرو ، وقوي المسلمون ، فاشترى السلاح والخيل ، وجلبت إليهم الدواب ، وتنافسوا في حسن الهيئة والعدة ، وغالوا بالسلاح حتى بلغ الرمح سبعين ؛ وقال الكميت :

ويوم بيكند لا تحصي عجائبه وما بخاراء مما أخطأ العدو

وكان في الخزائن سلاح وآلة من آلة الحرب كثيرة ، فكتب قتبية إلى الحجاج يستأذنه في دفع ذلك السلاح إلى الجند ، فأذن له ، فأخرجوا ما كان في الخزائن من عدة الحرب وآلة السفر ، فقسّمه في الناس ، فاستعدوا ، فلما كان أيام الربيع ندب الناس وقال : إني أغزيكم قبل أن تحتاجوا إلى حمل الزاد ، وأنتقلكم قبل أن تحتاجوا إلى

الإدفاء ؛ فسار في عُدَّة حَسَنَة من الدَّوَابِّ والسَّلاح ، فأقَى آمَل ، ثم عَبَرَ من رَمٍّ إلى بُخَارَى ، فأقَى نوْمَشَكْت - وهي من بُخَارَى - فصالحوه .

قال علي : حدَّثنا أبو الذِّئَال ، عن أشياخ من بني عَدِيٍّ ، أنَّ مسلماً الباهلي قال لِوَالِدَانِ : إِنَّ عِنْدِي مَالاً أَحَبُّ أَنْ أُسْتَوْدِعَكَه ، قال : أتريد أن يكون مكتوماً أولاً تَكْرَهُ أَنْ يَعْلَمَهُ النَّاسُ؟ قال : أَحَبُّ أَنْ تَكْتُمَهُ ؛ قال : ابعت به مع رجل تَثِقُ بِهِ إِلَى مَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا ، وَنَزَلَهُ إِذَا رَأَى رَجُلًا فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ أَنْ يَضَعَ مَا مَعَهُ وَيَنْصَرِفَ ؛ قال : نعم ، فَجَعَلَ مُسْلِمُ الْمَالِ فِي خُرْجٍ ، ثُمَّ حَمَلَهُ عَلَى بَغْلٍ وَقَالَ لِمَوْلَى لَهُ : انْطَلِقْ بِهَذَا الْبَغْلِ إِلَى مَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا ، فَإِذَا رَأَيْتَ رَجُلًا جَالِسًا فُخْلًا عَنِ الْبَغْلِ وَانْصَرَفَ . فَاَنْطَلَقَ الرَّجُلُ بِالْبَغْلِ ، وَقَدْ كَانَ وَالِدَانِ أَقَى الْمَوْضِعِ لِمِيعَادِهِ ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ مُسْلِمٍ ، وَمَضَى الْوَقْتُ الَّذِي وَعَدَهُ ، فَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ بَدَأَ لَهُ ، فَاَنْصَرَفَ ، وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَغْلِبَ فَجَلَسَ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ ، وَجَاءَ مَوْلَى مُسْلِمٍ فَرَأَى الرَّجُلَ جَالِسًا ، فَخَلَّى عَنِ الْبَغْلِ وَرَجَعَ ، فَقَامَ التَّغْلِبِيُّ إِلَى الْبَغْلِ ، فَلَمَّا رَأَى الْمَالَ وَلَمْ يَرَ مَعَ الْبَغْلِ أَحَدًا قَادَ الْبَغْلَ إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَأَخَذَ الْبَغْلَ وَأَخَذَ الْمَالَ ، فَظَنَّ مُسْلِمٌ أَنَّ الْمَالَ قَدْ صَارَ إِلَى وَالِدَانِ ، فَلَمْ يَسْأَلْ عَنْهُ حَتَّى احْتِاجَ إِلَيْهِ ، فَلَقِيَهُ فَقَالَ : مَا لِي ! فَقَالَ : مَا قَبِضْتُ شَيْئًا ، وَلَا لَكَ عِنْدِي مَالٌ . قال : فَكَانَ مُسْلِمٌ يَشْكُوهُ وَيَتَنَقَّصُهُ . قال : فَأَقَى يَوْمًا مَجْلِسَ بَنِي ضُبَيْعَةَ فَشَكَاهُ وَالتَّغْلِبِيُّ جَالِسٌ ، فَقَامَ إِلَيْهِ فَخَلَّاهُ بِهِ وَسَأَلَهُ عَنِ الْمَالِ ، فَأَخْبَرَهُ ، فَاَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَأَخْرَجَ الْخُرْجَ فَقَالَ : أتعرفه؟ قال : نَعَمْ ، قال : وَالْخَاتَمُ؟ قال : نَعَمْ ؛ قال : إقبض مَالَكَ ، وَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ ، فَكَانَ مُسْلِمٌ يَأْتِي النَّاسَ وَالْقَبَائِلَ الَّتِي كَانَ يَشْكُو إِلَيْهِمْ وَالِدَانِ فَيَعِذِّرُهُ وَيُخْبِرُهُمُ الْخَبَرَ ، وَفِي وَالِدَانِ يَقُولُ الشَّاعِرُ :

لست كَوَالِدَانِ الَّذِي سَادَ بِالتَّقَى
ولست كعمران وَلَا كالمُهَلَّبِ

وعِمْرَانُ : ابْنُ الْفَصِيلِ الْبُرْجُمِيِّ .

وحجَّ بالناس في هذه السنة - فيما حدَّثني أحمد بن ثابت ، عَمَّنْ ذَكَرَهُ ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عِيسَى ، عَنْ أَبِي مَعْشَرٍ - عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَى الْمَدِينَةِ .

وكان على قضاء المدينة في هذه السنة أبو بكر بن عمرو بن حزم من قِبَلِ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ .

وكان على العراق والمشرق كُلُّهُ الْحَجَّاجُ بْنُ يَوْسُفَ ، وَخَلِيفَتُهُ عَلَى الْبَصْرَةِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ - فِيهَا قِيلَ - الْجَرَّاحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَكَمِيِّ . وَعَلَى قَضَائِهَا عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَذْيَنَةَ ، وَعَامِلُهُ عَلَى الْحَرْبِ بِالْكُوفَةِ زِيَادُ بْنُ جَرِيرٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، وَعَلَى قَضَائِهَا أَبُو بَكْرُ بْنُ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ ، وَعَلَى خُرَاسَانَ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ .

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين

فمن ذلك ما كان من فتح الله على المسلمين حصناً من حصون الروم يدعى طوانة في جمادى الآخرة ،
استولوا بها ، وكان على الجيش مسلمة بن عبد الملك ، والعباس بن الوليد بن عبد الملك .

فذكر محمد بن عمر الواقدي أن ثور بن يزيد حدثه عن أصحابه قال : كان فتح طوانة على يدي مسلمة
ابن عبد الملك والعباس بن الوليد ، وهزم المسلمون العدو يومئذ هزيمة صاروا إلى كنيستهم ، ثم رجعوا فانهمز
الناس حتى ظنوا ألا يجتبروها أبداً ، وبقي العباس معه نفير ؛ منهم ابن محيريز الجمحي ، فقال العباس لابن
محيريز : أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة؟ فقال ابن محيريز : نادهم يأتوك ؛ فنادى العباس : يا أهل
القرآن ! فأقبلوا جميعاً ، فهزم الله العدو حتى دخلوا طوانة .

وكان الوليد بن عبد الملك ضرب البعث على أهل المدينة في هذه السنة . فذكر محمد بن عمر ، عن أبيه ،
أن تخرمة بن سليم الوالي قال : ضرب عليهم بعث ألفين . وأنهم تجاعلوا فخرج ألف وخمسمائة ، وتخلّف
خمسمائة ، فغزوا الصائفة مع مسلمة والعباس ، وهما على الجيش . وإنهم شتوا بطوانة وافتتحوها .

وفيهما ولد الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

وفيهما أمر الوليد بن عبد الملك بهدم مسجد رسول الله ﷺ وهدم بيوت أزواج رسول الله ﷺ وإدخالها في
المسجد ، فذكر محمد بن عمر ، أن محمد بن جعفر بن وردان البناء قال : رأيت الرسول الذي بعثه الوليد بن
عبد الملك قديماً في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين ، قدم معتجراً ، فقال الناس : ما قديم به الرسول ! فدخل
على عمر بن عبدالعزيز بكتاب الوليد يأمره بإدخال حُجَر أزواج رسول الله ﷺ في مسجد رسول الله ، وأن
يشترى ما في مؤخره ونواحيه حتى يكون مائتي ذراع في مائتي ذراع ويقول له : قدّم القبلة إن قدرت ، وأنت تقدر
لما كان أخوالك ، فإنهم لا يخالفونك ، فمن أبي منهم فمر أهل مصر فليقوموا له قيمة عدل ، ثم اهدم عليهم
وادفع إليهم الأثمان ، فإن لك في ذلك سلف صدق ؛ عمر وعثمان فأقرأهم كتاب الوليد وهم عنده ، فأجاب
القوم إلى الثمن ، فأعطاهم إياه ، وأخذ في هدم بيوت أزواج النبي ﷺ وبناء المسجد ، فلم يمكث إلا يسيراً
حتى قديم القعلة ، بعث بهم الوليد .

قال محمد بن عمر : وحدثني موسى بن يعقوب ، عن عمه ، قال : رأيت عمر بن عبدالعزيز يهدم
المسجد ومعه وجوه الناس : القاسم ، وسالم ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ، وعبيد الله بن عبد الله بن
عُتْبَة ، وخارجة بن زيد ، وعبد الله بن عبد الله بن عمر ، يُروونه أعلاماً في المسجد ويقدرونه ، فاستسوا أساسه .

قال محمد بن عمر: وحَدَّثني يحيى بن النعمان الغفاري ، عن صالح بن كيسان ، قال : لما جاء كتابُ الوليد من دمشق وسار خمس عشرةَ بهدم المسجد ، تجرد عمر بن عبد العزيز . قال صالح : فاستعملني على هدمه وبنائه ، فهدمناه بعمال المدينة ، فبدأنا بهدم بيوت أزواج النبي ﷺ حتى قديم علينا الفعلة الذين بعث بهم الوليد .

قال محمد : وحَدَّثني موسى بن أبي بكر ، عن صالح بن كيسان ، قال : ابتدأنا بهدم مسجد رسول الله ﷺ في صفر من سنة ثمان وثمانين ، وبعث الوليد إلى صاحب الروم يعلمه أنه أمر بهدم مسجد رسول الله ﷺ ، وأن يعينه فيه ، فبعث إليه بمائة ألف مئقال ذهب ، وبعث إليه بمائة عامل ، وبعث إليه من الفسيفساء بأربعين جملاً ، وأمر أن يتتبع الفسيفساء في المدائن التي خربت ، فبعث بها إلى الوليد ، فبعث بذلك الوليد إلى عمر بن عبد العزيز .

وفي هذه السنة ابتدأ عمر بن عبد العزيز في بناء المسجد .

وفيهما غزاً أيضاً مسلمة الروم ، ففتح على يديه حصون ثلاثة : حصن قسطنطينية ، وغزالة ، وحصن الأخرم . وقتل من المستعربة نحو من ألف مع سبي الذرية وأخذ الأموال . وفي هذه السنة غزا قتيبة نومشكث وراميشنه .

ذكر الخبر عما كان من خبر غزوته هذه :

ذكر علي بن محمد ، أن المفضل بن محمد أخبره عن أبيه ومصعب بن حيان ، عن مولى لهم أدرك ذلك ، أن قتيبة غزا نومشكث في سنة ثمان وثمانين ، واستخلف على مرو بشار بن مسلم ، فتلقاه أهلها ، فصالحهم ، ثم صار إلى راميشنه فصالحه أهلها ، فانصرف عنهم وزحف إليه الترك ، معهم السغد وأهل فرغانة ، فاعترضوا المسلمين في طريقهم ، فلحقوا عبد الرحمن بن مسلم الباهلي وهو على الساقة ، بينه وبين قتيبة وأوائل العسكر ميل ، فلما قربوا منه أرسل رسولاً إلى قتيبة بخبره ، وغشيه الترك فقاتلوه ، وأق الرسول قتيبة فرجع بالناس ، فأنتهى إلى عبد الرحمن وهو يقاتلهم ، وقد كاد الترك يستعملونهم ، فلما رأى الناس قتيبة طابت أنفسهم فصبروا ، وقاتلوهم إلى الظهر ، وأبلى يومئذ نيزك وهو مع قتيبة ، فهزم الله الترك ، وفض جمعهم ، ورجع قتيبة يريد مرو ، وقطع النهر من الترمذ يريد بلخ ، ثم أق مرو . وقال الباهليون : لقي الترك المسلمين عليهم كور مغانون التركي ابن أخت ملك الصين في مائتي ألف ، فأظهر الله المسلمين عليهم .

وفي هذه السنة كتب الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز في تسهيل الثنايا وحفر الآبار في البلدان .

قال محمد بن عمر: حَدَّثني ابن أبي سبرة ، قال : حَدَّثني صالح بن كيسان ، قال : كتب الوليد إلى عمر في تسهيل الثنايا وحفر الآبار بالمدينة ، وخرجت كتبه إلى البلدان بذلك ، وكتب الوليد إلى خالد بن عبد الله بذلك . قال : وحبس المجذمين عن أن يخرجوا على الناس ، وأجرى عليهم أرزاقاً ، وكانت تجرى عليهم .

وقال ابن أبي سبرة ، عن صالح بن كيسان ، قال : كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز أن يعمل الفؤارة التي عند داريزيد بن عبد الملك اليوم ، فعملها عمر وأجرى ماءها ، فلما حج الوليد وقف عليها ، فنظر إلى بيت الماء والفؤارة ، فأعجبته ، وأمر لها بقوام يقومون عليها ، وأن يسقى أهل المسجد منها ، ففعل ذلك .

وحجّ بالناس في هذه السنة عمرُ بنُ عبدالعزيز في رواية محمد بن عمر. ذكر أن محمد بن عبدالله بن جبير - مولى لبني العباس - حدّثه عن صالح بن كيسان ، قال : خرج عُمر بن عبدالعزيز تلك السنة - يعني سنة ثمان وثمانين - بعدّة من قريش ، أرسل إليهم بصلات وظَهَر للحمولة ، وأحرموا معه من ذي الحليفة ، وساق معه بُدْنا ، فلما كان بالتّنعيم لقيهم نَفَر من قريش ، منهم ابن أبي مُليكة وغيره ، فأخبروه أن مَكَّة قليلة الماء ، وأنهم يخافون على الحجاج العطش ، وذلك أن المطر قَلَّ ، فقال عمر : فالْمَطْلَب ها هنا بين ، تعالوا ندع الله . قال : فرأيتهم دَعَوْا ودعا معهم ، فآلَحُوا في الدّعاء . قال صالح : فلا واللّٰه إن وصلنا إلى البيت ذلك اليوم إلّا مع المطر حتى كان مع الليل ، وسَكَبَت السماء ، وجاء سَيْلُ الوادي ، فجاء أمرُ خافه أهلُ مَكَّة ، ومُطِرَتْ عَرَفَةُ ومِئى وَجُمِعَ ؛ فما كانت إلّا عُبراً ، قال : ونبتت مَكَّة تلك السنة للخضب .

وأما أبو مَعشَر فإنه قال : حجّ بالناس سنة ثمان وثمانين عمرُ بنُ الوليد بن عبد الملك ، حدّثني بذلك أحمدُ بنُ ثابت عمّن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى عنه .

وكانت العمّال على الأمصار في هذه السنة العمّال الذين ذكرنا أنهم كانوا عمّالها في سنة سبع وثمانين .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

فمن ذلك افتتاح المسلمين في هذه السنة حصن سُورية ، وعلى الجيش مُسلمة بن عبد الملك ، زعم الواقدي أن مُسلمة غزا في هذه السنة أرض الروم ، ومعه العباس بن الوليد ودخلها جميعاً ثم تفرقوا ، فافتتح مُسلمة حصن سُورية ، وافتتح العباس أذرولية ، ووافق من الروم جمعاً فهزمهم .
وأما غير الواقدي فإنه قال : قصد مُسلمة عمورية فوافق بها للروم جمعاً كثيراً ، فهزمهم الله ، وافتتح هرقلة وقمودية .

وغزا العباس الصائفة من ناحية البُندُود .

وفي هذه السنة غزا قتيبة بخارى ، ففتح راميشنه . ذكر علي بن محمد عن الباهليين أنهم قالوا ذلك ، وأن قتيبة رجع بعدما فتحها في طريق بلخ ، فلما كان بالفارياب أتاه كتاب الحجاج : أن رد وردان خذاه . فرجع قتيبة سنة تسع وثمانين ، فأتى زم ، فقطع النهر ، فلقيته السغد وأهل كس ونسف في طريق المفازة ، فقاتلوه ، فظفر بهم ومضى إلى بخارى ، فنزل خرقانة السفلى عن يمين وردان ، فلقوه بجمع كثير ، فقاتلهم يومين وليلتين ، ثم أعطاه الله الظفر عليهم ؛ فقال نهار بن تويسعة :

وباتت لهم منا بخرقان ليلة وليلتنا كانت بخرقان أطولا

قال علي : أخبرنا أبو الديال ، عن المهلب بن إياس وأبو العلاء ، عن إدريس بن حنظلة ، أن قتيبة غزا وردان خذاه ملك بخارى سنة تسع وثمانين فلم يُطقه ، ولم يظفر من البلد بشيء ، فرجع إلى مرو ، وكتب إلى الحجاج بذلك ، فكتب إليه الحجاج : أن صورها لي ، فبعث إليه بصورتها ، فكتب إليه الحجاج : أن ارجع إلى مراعتك فتب إلى الله بما كان منك ، وأيتها من مكان كذا وكذا .

وقيل : كتب إليه الحجاج أن كس بكس وانسف نسف ورد وردان ، وإياك والتحويل ، ودعني من بُنيات الطريق .

وفي هذه السنة ولي خالد بن عبد الله القسري مكة فيما زعم الواقدي ، وذكر أن عمر بن صالح حدثه عن نافع مولى بني مخزوم ، قال : سمعت خالد بن عبد الله يقول على منبر مكة وهو يخطب :

أيها الناس ، أيها أعظم ؟ أخليفة الرجل على أهله ، أم رسوله إليهم ؟ والله لو لم تعلموا فضل الخليفة ، إلا أن إبراهيم خليل الرحمن استسقى فسقاه ملحاً أجاباً ، واستسقى الخليفة فسقاه عذبا فراثاً ، بشراً حفرها

الوليد بن عبد الملك بالثنيّتين - ثنيّة طوى وثنيّة الحجّون - فكان ينقل ماؤها فيوض في حوض من آدم إلى جنب زمزم ليُعرف فضله على زمزم .

قال : ثم غارت البئر فذهبت فلا يُدرى أين هي اليوم .

وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك التُّرك حتى بلغ الباب من ناحية أذربيجان ، ففتح حصوناً ومدائن هنالك .

وحجّ بالناس في هذه السنة عمر بن عبدالعزيز ، حدّثني بذلك أحمد بن ثابت ، عمّن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر .

وكال العمّال في هذه السنة على الأمصار العمال في السنة التي قبلها ، وقد ذكرناهم قبل .

ثم دخلت سنة تسعين

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها

ففي هذه السنة غزا مسلمة أرض الروم - فيما ذكر محمد بن عمر - من ناحية سورية ، ففتح الحصون الخمسة التي بسورية .

وغزا فيها العباس بن الوليد ؛ قال بعضهم : حتى بلغ الأرزن ؛ وقال بعضهم : حتى بلغ سورية . وقال محمد بن عمر : قول من قال : حتى بلغ سورية أصح .

وفيهما قتل محمد بن القاسم الثقفي داهر بن صصة ملك السند ، وهو على جيش من قبل الحجاج بن يوسف .

وفيهما استعمل الوليد قرة بن شريك على مصر موضع عبدالله بن عبد الملك .

وفيهما أسرت الروم خالد بن كيسان صاحب البحر ، فذهبوا به إلى ملكهم ، فأهداه ملك الروم إلى الوليد بن عبد الملك .

وفيهما فتح قتيبة بخارى ، وهزم جموع العدو بها .

ذكر الخبر عن ذلك :

ذكر علي بن محمد أن أبا الذئال أخبره عن المهلب بن إياس ؛ وأبو العلاء ، عن إدريس بن حنظلة ، أن كتاب الحجاج لما ورد على قتيبة يأمره بالتوبة مما كان ، من انصرافه عن وردان خذاه ملك بخارى قبل الظفر به والمصير إليه ، ويعرفه الموضع الذي ينبغي له أن يأتي بلده منه ، خرج قتيبة إلى بخارى في سنة تسعين غازياً ، فأرسل وردان خذاه إلى السغد والترك ومن حوهم يستنصرونهم ، فأتوهم وقد سبق إليها قتيبة فحصرهم ، فلما جاءتهم أمدادهم خرجوا إليهم ليقاتلوهم ، فقالت الأزد : اجعلونا على جدة ، وخلوا بيننا وبين قتالهم . فقال قتيبة : تقدّموا ؛ فتقدّموا يقاتلونهم وقتيبة جالس ، عليه رداء أصفر فوق سلاحه ، فصبروا جميعاً ملياً ، ثم جال المسلمون ، وركبهم المشركون فحطموهم حتى دخلوا في عسكر قتيبة وجازوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين ، فكروا راجعين ، وانطوت مجنبتا المسلمين على الترك ، فقاتلوهم حتى ردوهم إلى مواقعهم ، فوقف الترك على نشر ، فقال قتيبة : من يزيلهم لنا عن هذا الموضع ؟ فلم يقدم عليهم أحد ، والأحياء كلها وقوف .

فمشى قتيبة إلى بني تميم ، فقال : يا بني تميم ، إنكم أنتم بمنزلة الحطمية ، فيوم كأيامكم ، أبى لكم الفداء ! قال : فأخذ وكيع اللواء بيده ، وقال : يا بني تميم ، أتسلمونني اليوم؟ قالوا : لا يا أبا مطرف - وهريم بن أبي طحمة المجاشعي على خيل بني تميم ووكيع رأسهم ، والناس وقوف - فأحجموا جميعاً ، فقال وكيع : يا هريم ، قدّم ، ودفع إليه الراية ، وقال : قدّم خيلك فتقدّم هريم ، ودبّ وكيع في الرجال ، فأنتهى هريم إلى نهر بينه وبين العدو فوقف ، فقال له وكيع : اقحم يا هريم ؛ قال : فنظر هريم إلى وكيع نظر الجمل الصئول وقال : أنا أقحم خيلي هذا النهر ، فإن انكشفت كان هلاكها ! واللّه إنك لأحمق ؛ قال : يا بن اللئناء ، ألا أراك تردّ أمري ! وحذفه بعمود كان معه ، فضرب هريم فرسه فأقحمه ، وقال : ما بعد هذا أشدّ من هذا ، وعبر هريم في الخيل ، وانتهى وكيع إلى النهر ، فدعا بخشب ؛ فقنطّر النهر وقال لأصحابه : من وطن منكم نفسه على الموت فليعبّر ، ومن لا فليثبت مكانه ؛ فما عبّر معه إلا ثمانمائة راجل ، فدبّ فيهم حتى أعبوا أفعدهم فأراحوا حتى دنا من العدو ، فجعل الخيل تجبّتين ، وقال لهريم : إني مطاعن القوم ، فاشغلهم عنا بالخليل ، وقال للناس : شدّوا ، فجعلوا فما اثنوا حتى خالطوهم ، وحمل هريم خيله عليهم فطاعنهم بالرماح ، فما كفّوا عنهم حتى حذروهم عن موقفهم ، ونادى قتيبة : أما ترون العدو منهزمين ! فما عبّر أحد ذلك النهر حتى ولّى العدو منهزمين ، فأتبعهم الناس ، ونادى قتيبة : من جاء برأس فله مائة .

قال : فزعم موسى بن المتوكل القريعي ، قال : جاء يومئذ أحد عشر رجلاً من بني قريع ، كل رجل يجيء برأس ، فيقال له : من أنت؟ فيقول : قريعي . قال : فجاء رجل من الأزد برأس فألقاه ، فقالوا له : من أنت؟ قال : قريعي ؛ قال : وجههم بن زحر قاعد ، فقال : كذب واللّه أصلحك الله ! إنه لابن عمي ؛ فقال له قتيبة : ويحك ! ما دعاك إلى هذا؟ قال : رأيت كل من جاء قريعي : فظننت أنه ينبغي لكل من جاء برأس أن يقول : قريعي . قال : فضحك قتيبة .

قال : وجرح يومئذ خاقان وابنه ، ورجع قتيبة إلى مرو ، وكتب إلى الحجاج : إني بعثت عبدالرحمن بن مسلم ، ففتح الله على يديه .

قال : وقد كان شهد الفتح مولى للحجاج ، فقدم فأخبره الخبر ، فغضب الحجاج على قتيبة ، فاغتم لذلك ، فقال له الناس . ابعث وفداً من بني تميم وأعطهم وأرضهم يخبروا الأمير أن الأمر على ما كتبت ، فبعث رجالاً فيهم غرام بن شثير الضبي ، فلما قدموا على الحجاج صاح بهم وعاتبهم ودعا بالحجام بيده فيمقراض فقال : لأقطعن ألسنتكم أو لتصدقنني ، قالوا : الأمير قتيبة ، وبعث عليهم عبدالرحمن ، فافتح للأمير والرأس الذي يكون على الناس ، وكلمه بهذا غرام بن شثير ، فسكن الحجاج . وفي هذه السنة جدّد قتيبة الصلح بينه وبين طرخون ملك السغد .

ذكر الخبر عن ذلك :

قال علي : ذكر أبو السري عن الجهم الباهلي ، قال : لما أوقع قتيبة بأهل بخارى ففضّ جمعهم هابه أهل السغد ، فرجع طرخون ملك السغد ومعه فارسان حتى وقف قريباً من عسكر قتيبة ، وبينهما نهر بخارى ، فسأل أن يبعث إليه رجلاً يكلمه ، فأمر قتيبة رجلاً فدنا منه .

وأما الباهليّون فيقولون: نادى طرخون حيّان النبطيّ فأتاه ، فسأله الصّلاح على فدية يؤدّيها إليهم ، فأجابه قتيبة إلى ما طلب ، وصالحه ، وأخذ منه رهناً حتى يبعث إليه بما صالحه عليه ، وانصرف طرخون إلى بلاده ، ورجع قتيبةً ومعه نيزك .

وفي هذه السنة غدر نيزك ، فنقض الصّلاح الذي كان بينه وبين المسلمين وامتنع بقلعته ، وعاد حرباً ، فغزاه قتيبة .

ذكر الخبر عن سبب غدره وسبب الظفر به :

قال علي: ذكر أبو الذّيال ، عن المهلب بن إياس والمفضل الضبي ، عن أبيه ، وعلي بن مجاهد وكليب بن خلف العمي ؛ كل قد ذكر شيئاً فألفته ، وذكر الباهليّون شيئاً فألحقته في خبر هؤلاء وألفته ؛ أن قتيبة فصل من بخارى ومعه نيزك وقد دعره ما قد رأى من الفتح ، وخاف قتيبة ، فقال : لأصحابه وخاصته : متهم أنا مع هذا ، ولست آمنه ؛ وذلك أن العربي بمنزلة الكلب ؛ إذا ضربته نبح ، وإذا أطعمته بصص وأتبعك ، وإذا غزوته ثم أعطيته شيئاً رضي ، ونسي ما صنعت به ، وقد قاتله طرخون مراراً ، فلما أعطاه فدية قبلها ورضى ، وهو شديد السطوة فاجر فلو استأذنت ورجعت كان الرأي ، قالوا : استأذنه . فلما كان قتيبة بأمل استأذنه في الرجوع إلى تخارستان ، فأذن له ، فلما فارق عسكره متوجّهاً إلى بلخ قال لأصحابه : أغدوا السير ؛ فساروا سيراً شديداً حتى أتوا النوبهار ، فنزل يصلي فيه وتبرك به . وقال لأصحابه : إني لا أشك أن قتيبة قد ندم حين فارقنا عسكره على إذنه لي ، وسيقدم الساعة رسوله على المغيرة بن عبد الله يأمره بحبسي ، فأقيموا ربيّة تنظر ، فإذا رأيتم الرسول قد جاوز المدينة وخرج من الباب فإنه لا يبلغ البروقان حتى تبلغ تخارستان ، فيبعث المغيرة رجلاً فلا يدركنا حتى ندخل شعب خلم ؛ ففعلوا .

قال : وأقبل رسول من قبل قتيبة إلى المغيرة يأمره بحبس نيزك . فلما مر الرسول إلى المغيرة وهو بالبروقان - ومدينة بلخ يومئذ خراب - ركب نيزك وأصحابه فمضوا ، وقدم الرسول على المغيرة فركب بنفسه في طلبه ، فوجده قد دخل شعب خلم ، فانصرف المغيرة ، وأظهر نيزك الخلع ، وكتب إلى أصبهذ بلخ وإلى باذام ملك مرو وروذ ، وإلى سهراب ملك الطالقان ، وإلى ترسل ملك الفارياب ، وإلى الجوزجاني ملك الجوزجان يدعوهم إلى خلع قتيبة ، فأجابوه ، وواعدتهم الربيع أن يجتمعوا ويغزوا قتيبة . وكتب إلى كابل شاه يستظهر به ، وبعث إليه بثقله وماله ، وسأله أن يأذن له إن اضطر إليه أن يأتيه ويؤمنه في بلاده ، فأجابه إلى ذلك وضم ثقله .

قال : وكان جبغويه ملك تخارستان ضعيفاً ، واسمه الشد ، فأخذه نيزك فقيده بقيد من ذهب مخافة أن يشعب عليه - وجبغويه ملك تخارستان ونيزك من عبيده - فلما استوثق منه وضع عليه الرقباء ، وأخرج عامل قتيبة من بلاد جبغويه ، وكان العامل محمد بن سليم الناصح ، وبلغ قتيبة خلعه قبل الشتاء ، وقد تفرق الجند فلم يبق مع قتيبة إلا أهل مرو ، فبعث عبد الرحمن أخاه إلى بلخ في اثني عشر ألفاً إلى البروقان ، وقال : أقم بها ، ولا تحدث شيئاً ، فإذا حسر الشتاء فعسكر وسر نحو تخارستان ، واعلم أي قريب منك ، فسار عبد الرحمن فنزل البروقان ، وأمهّل قتيبة حتى إذا كان في آخر الشتاء كتب إلى أبرشهر وبيرد وسرخس وأهل هراة ليقدموا قبل أو انهم الذي كانوا يقدمون عليه فيه .

وفي هذه السنة ، أوقع قتيبة بأهل الطالقان بخراسان - فيما قال بعض أهل الأخبار - فقتل من أهلها مقتلة

عظيمة ، وصلب منهم سِمَاطِينَ أربعة فراسخَ في نظام واحد .

ذكر الخبر عن سبب ذلك :

وكان السبب في ذلك - فيما ذكر - أنَّ نيزكَ طرخان لما غدر وخالع قتيبة وعزَم على حربه ، طابقه على حربه ملك الطالقان ، وواعده المصيرَ إليه من استجاب للنهوض معه من الملوك الحرب قتيبة ، فلما هَرَبَ نيزك من قتيبة ودخل شعبُ حُلَم الذي يأخذ إلى طُخارستان عَلم أنه لا طاقة له بقتيبة ، فهَرَبَ ، وسار قتيبة إلى الطالقان فأوقع بأهلها ، ففعل ما ذكرتُ فيما قبل .

وقد خولف قائلُ هذا القول فيما قال من ذلك ، وأنا ذاكره في أحداث سنة إحدى وتسعين .

وحجَّ بالناس في هذه السنة عمرُ بنُ عبدالعزيز ، كذلك حدثني أحمد بن ثابت عمن ذكره ، عن إسحاق بن عيسى ، عن أبي معشر . وكذلك قال محمد بن عمر .

وكان عمرُ بن عبدالعزيز في هذه السنة عامل الوليد بن عبد الملك على مكة والمدينة والطائف . وعلى العراق والمشرق الحجاج بن يوسف ، وعامل الحجاج على البصرة الجراح بن عبدالله . وعلى قضائها عبدالرحمن بن أذينة ، وعلى الكوفة زياد بن جريز بن عبدالله . وعلى قضائها أبو بكر بن أبي موسى . وعلى خراسان قتيبة بن مسلم . وعلى مصر قرة بن قرة بن شريك .

وفي هذه السنة هَرَبَ يزيدُ بن المهلب وإخوته الذين كانوا معه في السجن مع آخرين غيرهم ، فلحقوا بسليمان بن عبد الملك مستجيرين به من الحجاج بن يوسف ، والوليد بن عبد الملك .

ذكر الخبر عن سبب تخلصهم من سجن الحجاج ومسيرهم إلى سليمان :

قال هشام : حدثني أبو مخنف ، عن أبي المخارق الراسبي ، قال : خرج الحجاج إلى رُستَبَاز اللَّبَّث ، لأنَّ الأكراد كانوا قد غلبوا على عامة أرض فارس ، فخرج بيزيد وإخوته المفضل وعبد الملك حتى قِيمَ بهم رُستَبَاز ؛ فجعلهم في عسكره ، وجعل عليهم كهنية الخندق ، وجعلهم في فسطاط قريباً من حُجْرته ، وجعل عليهم حرساً من أهل الشام ، وأغرمهم ستة آلاف ألف ، وأخذ يعدُّهم ، وكان يزيدُ يصبر صبراً حسناً ، وكان الحجاج يغيظه ذلك ، فقبل له : إنه رمي بنشابة فثبت نصلها في ساقه ، فهو لا يمسه شيء إلا صاح ، فإن حركت أدنى شيء سمعتُ صوته ، فأمر أن يعدَّب ويدَّهق ساقه ، فلما فعل ذلك به صاح ، واخته هند بنت المهلب عند الحجاج ، فلما سمعتُ صياحَ يزيد صاحت وناحت ، فطلَّقها . ثم إنه كفَّ عنهم ، وأقبل يستأديهم ، فأخذوا يؤدُّون وهم يعملون في التخلص من مكانهم ، فبعثوا إلى مروان بن المهلب وهو بالبصرة يأمره أن يضمَّهم لهم الخيل ، ويُرِي الناس أنه إنما يريد بيعها ويعرضها على البيع ، ويغلي بها لئلا تُشتري فتكون لنا عُدَّة إن نحن قدرنا على أن ننجو مما ها هنا . ففعل ذلك مروان ، وحبيب بالبصرة يعدَّب أيضاً ، وأمر يزيدُ بالحرس فصنع لهم طعام كثير فأكَلوا ؛ وأمر بشراب فسُقوا ، فكانوا متشاغلين به ، وليسَ يزيدُ ثيابَ طبَّاخه ، ووضعَ على لحيته لحيَّة بيضاء ، وخرج فراه بعضُ الحرس فقال : كأنَّ هذه مشية يزيد ! فجاء حتى استعرض وجهه ليلاً ، فرأى بياض اللحية ، فانصرف عنه ، فقال : هذا شيخ . وخرج المفضل على أثره ، ولم يَفْظَن له ، فجاءوا إلى سفنهم وقد هيَّئوها في البطائح ، وبينهم وبين البصرة ثمانية عشر فرسخاً ، فلما انتهوا إلى

السفن أبطأ عليهم عبدُ الملك وشُغل عنهم ، فقال يزيد للمفضل : اركب بنا فإنه لاحقٌ ، فقال المفضل - وعبد الملك أخوه لأُمّه - وهي بهلة ، هندية : لا والله ، ولا أبرح حتى يجيء ولو رجعتُ إلى السجن فأقام يزيد حتى جاءهم عبدُ الملك ، وركبوا عند ذلك السفن ، فساروا ليلتهم حتى أصبحوا ، ولما أصبح الحرس عَلِموا بِذَهابهم ، فرفع ذلك إلى الحجاج ، وقال الفرزدق في خروجهم :

فلم أرَ كالرُّهط الذين تتابعوا	على الجذع والحراس غير نيام
مضوا وهم مُستيقنون بأنهم	إلى قدر آجالهم وجمام
وإن منهم إلا يُسكن جأشه	بعضب صقيل صارم وحسام
فلما التقوا لم يلتقوا بمنفاه	كبير ولا رخص العظام غلام
بمثل أبيهم حين تمت لذاتهم	لخمسین قل في جرأة وتمام

ففرع له الحجاج ، وذهب وهم أنهم ذهبوا قُبِل خراسان ، وبعث البريد إلى قتيبة بن مسلم يحذره قدمهم ، ويأمره أن يستعد لهم ، وبعث إلى أمراء الثغور والكُور أن يرصدوهم ، ويستعدوا لهم ، وكتب إلى الوليد بن عبد الملك يُخبره بهربهم ، وأنه لا يراهم أرادوا إلا خراسان . ولم يزل الحجاج يظن بيزيد ما صنع ، كان يقول : إني لأظنه يحدث نفسه بمثل الذي صنع ابن الأشعث .

ولما دنا يزيد من البطائح ، من موقوع استقبلته الخيل قد هيئت له وإخوته ، فخرجوا عليها ومعهم دليل لهم من كلب يقال له : عبد الجبار بن يزيد بن الربيعة ، فأخذ بهم على السماوة ، وأتى الحجاج بعد يومين ، فقبل له : إنما أخذ الرجل طريق الشام ، وهذه الخيل حَسَرى في الطريق ، وقد أتى من رآهم موجهين في البر ، فبعث إلى الوليد يُعلمه ذلك ، ومضى يزيد حتى قَدِم فلسطين ، فنزل على وهيب بن عبد الرحمن الأزدي - وكان كريماً على سليمان - وأنزل بعض ثقله وأهله على سُفيان بن سليمان الأزدي ، وجاء وهيب بن عبد الرحمن حتى دخل على سليمان ، فقال : هذا يزيد بن المهلب ، وإخوته في منزلي ، وقد أتوك هُراباً من الحجاج متعوذين بك ، قال : فأتني بهم فهم آمنون لا يوصل إليهم أبداً وأنا حي . فجاء بهم حتى أدخلهم عليه ، فكانوا في مكان أمين ، وقال الكلبي دليلهم في مسيرهم :

ألا جعل الله الأخلاء كلهم	فداء على ما كان لابن المهلب
لنعم الفتى يا معشر الأزد أسعفت	ركابكم بالوهب شرقي منقب
عدلن يميناً عنهم رمل عالج	وذا يمين القوم أعلام غرب
فإلا تصبح بعد خمس ركابنا	سليمان من أهل اللوى تتأوب
تقر قرار الشمس مما وراءنا	وتذهب في داج من الليل غيب
بقوم هم كانوا الملوك هذيتهم	بظلماء لم يُصّر بها ضوء كوكب
ولا قمر إلا ضئلاً كأنه	سوار حناه صائح السور مُذهب

قال هشام : فأخبرني الحسن بن أبان العُلَيمي ، قال : بينا عبد الجبار بن يزيد بن الربيعة يسري بهم فسقطت عمامة يزيد ، ففقدوها فقال : يا عبد الجبار ، إرجع فاطلبها لنا ، قال : إن مثلي لا يؤمر بهذا ، فأعاد ، فأبى ، فتناوله بالسوط ، فانتسب له ، فاستحيا منه ، فذلك قوله :

أَلَا جَعَلَ اللَّهُ الْأَخْلَاءَ كُلَّهُمْ فِدَاءً عَلَى مَا كَانَ لِابْنِ الْمَهْلَبِ

وكتب الحجاج : إن آل المهلب خانوا مال الله وهربوا مني ولحقوا بسليمان ، وكان آل المهلب قدِموا على سليمان ، وقد أمر الناس أن يحصلوا ليسرّحوا إلى خراسان ، لا يَرُونَ إِلَّا أَنَّ يَزِيدَ تَوَجَّهَ إِلَى خُرَاسَانَ لِيَفْتِنَ مَنْ بِهَا . فلما بلغ الوليد مكانه عند سليمان هوّن عليه بعض ما كان في نفسه ، وطار غضباً للمال الذي ذهب به . وكتب سليمان إلى الوليد : إنَّ يَزِيدَ بَنَ الْمَهْلَبِ عِنْدِي وَقَدْ آمَنَتْهُ ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ آلَافِ أَلْفٍ ، كَانَ الْحَجَّاجُ أَغْرَمَهُمْ سِتَّةَ آلَافِ أَلْفٍ فَأَذَوْا ثَلَاثَةَ آلَافِ أَلْفٍ ، وَبَقِيَ ثَلَاثَةُ آلَافِ أَلْفٍ ، فَهِيَ عَلَيَّ . فكتب إليه : لا والله لا أؤمّنه حتى تبعث به إليّ . فكتب إليه : لئن أنا بعثتُ به إليك لأجيشنّ معه ، فأنشذك الله أن تفضّحني ولا أن تُخفّرني . فكتب إليه : والله لئن جئتني لا أؤمّنه . فقال يزيد : ابعتني إليه ، فوالله ما أحبّ أوقع بينك وبينه عداوةً وحرباً ، ولا أن يتشائم بي لكما الناسُ ، ابعت إليّ بي ، وأرسل معي ابنك ، واكتب إليه بالطف ب ما قدّرت عليه . فأرسل ابنه أيوب معه . وكان الوليد أمره أن يبعث به إليه في وثاق ، فبعث به إليه ، وقال لابنه : إذا أردت أن تدخل عليه فادخل أنت ويزيد في سلسلة ثم ادخلا جميعاً على الوليد ، ففعل ذلك به حين انتهيا إلى الوليد ، فدخلا عليه ، فلما رأى الوليد ابن أخيه في سلسلة ، قال : والله لقد بلغنا من سليمان ! ثم إنَّ الغلام دَفَعَ كِتَابَ أَبِيهِ إِلَى عَمِّهِ وَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، نَفْسِي فِدَاؤُكَ ! لَا تُخَفِّرْ دِمَّةَ أَبِي ، وَأَنْتَ أَحَقُّ مِنْ مَنَعِهَا ، وَلَا تَقْطَعْ مَنَّا رَجَاءً مِنْ رَجَاءِ السَّلَامَةِ فِي جَوَارِنَا لِمَكَانِنَا مِنْكَ ، وَلَا تُؤْذِلْ مِنْ رَجَاءِ الْعِزِّ فِي الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْنَا لِعِزِّنَا بِكَ . وقرأ الكتاب :

لعبد الله الوليد أمير المؤمنين من سليمان بن عبد الملك . أما بعد يا أمير المؤمنين ، فوالله إن كنت لأظنّ لو استجار بي عدوّ قد نابذك وجاهدك فأنزلته وأجرته أنك لا تذللّ جاري ، ولا تُخفّر جوارِي ، بلّه لم أجر إلا سامعاً مطيعاً حسنّ البلاء والأثر في الإسلام هو وأبوه وأهل بيته ، وقد بعثتُ به إليك ، فإن كنت إنما تغزو قطيعتي والإخفار لذمتي ، والإبلاغ في مساعي ، فقد قدرت إن أنت فعلت . وأنا أعيذك بالله من احتراء قطيعتي ، وانتهاك حرمتي وترك برّي وصلّتي ، فوالله يا أمير المؤمنين ما تدري ما بقائي وبقاؤك ، ولا متى يُفَرِّق الموت بيني وبينك ! فإن استطاع أمير المؤمنين أدام الله سروره ألا يأتي علينا أجل الوفاة إلا وهو لي واصل ، ولحقّي مؤدّ ، وعن مساعي نازع ، فليفعل . والله يا أمير المؤمنين ما أصبحت بشيء من أمر الدنيا بعد تقوى الله فيها بأسراً مني برضاك وسرورك . وإن رضاك مما ألتبس به رضوان الله ، فإن كنت يا أمير المؤمنين تريد يوماً من الدهر مسرتي وصلّتي وكرامتي وإعظام حقّي فتجاوز لي عن يزيد ، وكلّ ما طلبته به فهو عليّ .

فلما قرأ كتابه ، قال : لقد شققنا على سليمان ! ثم دعا ابن أخيه فأدناه منه . وتكلّم يزيد فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال :

يا أمير المؤمنين ، إنَّ بلاءكم عندنا أحسنّ البلاء ، فمن ينس ذلك فلنسنا ناسيه ، ومن يكفر فلنسنا كافريه ، وقد كان من بلائنا أهل البيت في طاعتكم والطعن في أعين أعدائكم في المواطن العظام في المشارق والمغرب ما إنَّ المنّة علينا فيها عظيمة .

فقال له : اجلس ، فجلس فأمنه وكف عنه ، ورجع إلى سليمان وسعى إخوته في المال الذي عليه ، وكتب إلى الحجاج :

إني لم أصِل إلى يزيد وأهل بيته مع سليمان ، فاكفُف عنهم ، وألِّه عن الكتاب إليَّ فيهم .
فلما رأى ذلك الحجاج كفَّ عنهم . وكان أبو عُيَيْنَةَ بن المهلب عند الحجاج عليه ألف درهم ،
فتركها له ، وكفَّ عن حبيب بن المهلب . ورَجَعَ يزيد إلى سليمان بن عبد الملك فأقام عنده يُعلِّمه الهيئة ،
ويصنِّع له طيبَ الأطعمة ، ويهدي له الهدايا العظام . وكان من أحسن الناس عنده منزلةً ، وكان لا تأتي
يزيد بن المهلب هدية إلا بعث بها إلى سليمان ، ولا تأتي سليمان هدية ولا فائدة إلا بعث بنصفها إلى يزيد بن
المهلب ، وكان لا تُعجبه جارية إلا بعث بها إلى يزيد إلا خطيئة الجارية . فبلغ ذلك الوليد بن عبد الملك ، فدعا
الحارث بن مالك بن ربيعة الأشعري ، فقال : انطلق إلى سليمان فقل له : يا خالفة أهل بيته ، إن أمير
المؤمنين قد بلغه أنه لا تأتيك هدية ولا فائدة إلا بعثت إلى يزيد بنصفها ، وإنك تأتي الجارية من جواريك فلا
ينقضي طهرها حتى تبعث بها إلى يزيد ، وقبَّح ذلك عليه ، وعيَّره به ، أترأك مبلِّغاً ما أمرتك به ؟ قال : طاعتك
طاعة ، وإنما أنا رسول ؛ قال : فأنه فقل له ذلك ، وأقم عنده ، فإني باعث إليه بهدية فادفعها إليه ، ونُحِّدْ منه
البراءة بما تدفع إليه .

ثم أقبلَ فمضى حتى قدِم عليه وبين يديه المصحف ، وهو يقرأ ، فدخل عليه فسلم ، فلم يردَّ عليه
السلام حتى فرغ من قراءته ، ثم رفع رأسه إليه فكلَّمه بكلِّ شيء أمره به الوليد ، فتمعر وجهه ، ثم قال : أما
والله لئن قدرتُ عليك يوماً من الدهر لأقطعن منك طابقاً ! فقال له : إنما كانت عليَّ الطاعة .

ثم خرج من عنده . فلما أتى بذلك الذي بعث به الوليد إلى سليمان ، دخل عليه الحارث بن ربيعة
الأشعري وقال له : أعطني البراءة بهذا الذي دفعته إليك ، فقال : كيف قلت لي ؟ قال : لا أعيدُه عالماً أبداً ،
إنما كان عليَّ فيه الطاعة . فسكن ، وعلم أن قد صدقه الرجل ، ثم خرج وخرجوا معه ، فقال : خذوا نصف
هذه الأعدال وهذه الأسفاط وابعثوا بها إلى يزيد .

قال : فعلم الرجل أنه لا يطيع في يزيد أحداً ، ومكث يزيد بن المهلب عند سليمان تسعة أشهر .
وتوفي الحجاج سنة خمس وتسعين في رمضان لتسع بقين منه في يوم الجمعة .

فهرس موضوعات المجلد الثالث

٣	السنة السادسة والثلاثون
٣	تفريق عليّ عماله على الأمصار
٤	استئذان طلحة والزبير عليّاً
١٠	خروج علي الى الربدّة يريد البصرة
١١	شراء الجمل لعائشة رضي الله عنها ، وخبر كلاب الخوآب
١٢	قول عائشة رضي الله عنها : والله لأطلبن بدم عثمان ، وخروجها وطلحة والزبير فيمن تبعهم إلى البصرة
١٣	دخولهم البصرة والحرب بينهم وبين عثمان بن حنيف
٢٢	ذكر الخبر عن مسير عليّ بن أبي طالب نحو البصرة
٢٨	نزول أمير المؤمنين ذا قار
٣٥	بعثة علي بن أبي طالب من ذي قار ابنه الحسن وعمار بن ياسر ليستنفرا له أهل الكوفة
٣٦	نزول عليّ الزاوية من البصرة
٣٩	أمر القتال
٤٠	خبر وقعة الجمل من رواية أخرى
٥٤	شدّة القتال يوم الجمل وخبر أعين بن ضبيعة ، وإطلاعه في الهودج
٥٥	مقتل الزبير بن العوام رضي الله عنه
٥٦	من انهزم يوم الجمل فاخفى ومضى في البلاد
٥٧	توجّع عليّ على قتلى الجمل ودفنهم وجمعه ما كان في العسكر والبعث به إلى البصرة
٥٨	عدد قتلى الجمل
٥٨	دخول عليّ على عائشة وما أمر به من العقوبة فيمن تناولها
٥٩	بيعة أهل البصرة عليّاً وقسمه ما في بيت المال عليهم
٥٩	سيرة عليّ فيمن قاتل يوم الجمل
٥٩	بعثة الأشر إلى عائشة بجمل اشتراه لها وخروجها من البصرة إلى مكة
٥٩	ما كتب به عليّ بن أبي طالب من الفتح إلى عامله بالكوفة
٦٠	أخذ عليّ البيعة على الناس وخبر زياد بن أبي سفيان وعبد الرحمن بن أبي بكر
٦٠	تأخير ابن عباس على البصرة وتولية زياد الخراج
٦٠	تجهيز عليّ عليه السلام عائشة رضي الله عنها من البصرة

- ٦١ ما روي من كثرة القتل يوم الجمل
- ٦١ ما قال عمار بن ياسر لعائشة حين فرغ من الجمل
- ٦١ آخر حديث الجمل - بعثة علي بن أبي طالب قيس بن سعد بن عباد أميراً على مصر
- ٦٦ ولاية محمد بن أبي بكر مصر
- ٦٨ توجيه علي بن خنيد بن طريف إلى خراسان
- ٦٨ ذكر خبر عمرو بن العاص ومبايعته معاوية
- ٧٠ توجيه علي بن أبي طالب جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية يدعو إلى الدخول في طاعته
- ٧١ خروج علي بن أبي طالب إلى صفين
- ٧٢ ما أمر به علي بن أبي طالب من عمل الجسر على الفرات
- ٧٤ القتال على الماء
- ٧٦ دعاء علي معاوية إلى الطاعة والجماعة
- ٧٨ أخبار متفرقة
- ٧٩ السنة السابعة والثلاثون
- ٧٩ ذكر ما كان فيها من الأحداث وموادعة الحرب بين علي ومعاوية
- ٨٢ تكتيب الكتائب وتعبئة الناس للقتال
- ٨٥ الجد في الحرب والقتال
- ٩٤ خبر هاشم بن عتبة المرقال وذكر ليلة الحرير
- ٩٨ مقتل عمار بن ياسر
- ١٠١ ما روي من رفعم المصاحف ودعائهم إلى الحكومة
- ١٠٩ بعثة علي جعدة بن هيرة إلى خراسان
- ١٠٩ اعتزال الخوارج علياً وأصحابه ورجوعهم عن ذلك
- ١١١ اجتماع الحكمين بدومة الجندل
- ١١٣ ذكر ما كان من خبر الخوارج عند توجيه الحكم للحكومة وخبر يوم النهر
- ١٢٦ السنة الثامنة والثلاثون
- ١٢٦ ذكر ما كان فيها من الأحداث
- ١٣٣ ذكر خبر قتل محمد بن أبي حذيفة
- ١٣٦ ذكر الخبر عن أمر ابن الحضري وزياد داعيه وسبب قتل من قتل منهم
- ١٣٧ الخزي بن راشد وإظهاره الخلاف على علي
- ١٤٩ السنة التاسعة والثلاثون
- ١٤٩ ذكر ما كان فيها من الأحداث
- ١٤٩ تفريق معاوية جيوشه في أطراف علي
- ١٥١ ذكر توجيه ابن عباس زياداً إلى فارس وكرمان
- ١٥٣ السنة الأربعون
- ١٥٣ ذكر ما كان فيها من الأحداث
- ١٥٤ خروج ابن عباس من البصرة إلى مكة

٦٩١

- ١٥٥ ذكر الخبر عن مقتل علي بن أبي طالب ...
- ١٦١ ذكر الخبر عن قدر مدّة خلافته ...
- ١٦١ ذكر الخبر عن صفته ...
- ١٦١ ذكر نسبه عليه السلام ...
- ١٦٢ ذكر الخبر عن زواجه وأولاده ...
- ١٦٣ ذكر ولاته ...
- ١٦٣ ذكر بعض سيره عليه السلام ...
- ١٦٤ ذكر بيعة الحسن بن علي ...
- ١٦٧ السنة الحادية والأربعون ...
- ١٦٧ ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث ...
- ١٦٨ ذكر خبر الصلح بين معاوية وقيس بن سعد ...
- ١٦٨ دخول الحسن والحسين المدينة منصرفين من الكوفة ...
- ١٦٩ ذكر خروج الخوارج على معاوية ...
- ١٦٩ ذكر ولاية بسر بن أبي أرطاة على البصرة ...
- ١٧١ ولاية عبد الله بن عامر البصرة وحرب سجستان وخراسان ...
- ١٧٣ السنة الثانية والأربعون ...
- ١٧٣ ذكر ما كان فيها من الأحداث ...
- ١٧٣ ذكر الخبر عن تحرك الخوارج ...
- ١٧٥ ذكر قدوم زياد على معاوية ...
- ١٧٨ السنة الثالثة والأربعون ...
- ١٧٨ ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث ...
- ١٧٨ خبر قتل المستورد بن علفة الخارجي ...
- ١٩٣ ذكر ولاية عبد الله بن خازم خراسان ...
- ١٩٤ السنة الرابعة والأربعون ...
- ١٩٤ ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث ...
- ١٩٤ عزل عبد الله بن عامر عن البصرة ...
- ١٩٥ استلحاق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه ...
- ١٩٦ السنة الخامسة والأربعون ...
- ١٩٦ ذكر الأحداث المذكورة التي كانت فيها ...
- ١٩٦ ذكر الخبر عن ولاية زياد البصرة ...
- ٢٠٢ السنة السادسة والأربعون ...
- ٢٠٢ ذكر ما كان فيها من الأحداث ...
- ٢٠٢ خبر انصراف عبد الرحمن بن خالد إلى حمص وهلاكه ...
- ٢٠٢ ذكر خروج سهم والحطيم ...
- ٢٠٤ السنة السابعة والأربعون ...

٢٠٤	ذكر الأحداث التي كانت فيها
٢٠٤	ذكر غزو الغُور
٢٠٥	السنة الثامنة والأربعون
٢٠٥	ذكر الأحداث التي كانت فيها
٢٠٦	السنة التاسعة والأربعون
٢٠٦	ذكر ما كان فيها من الأحداث
٢٠٧	السنة الخمسون
٢٠٧	ذكر ما كان فيها من الأحداث
٢٠٧	ذكر وفاة المغيرة بن شعبه وولاية زياد الكوفة
٢٠٧	خروج قريب وزحاف
٢٠٩	ذكر إرادة معاوية نقل المنبر من المدينة
٢١٠	ذكر هرب الفرزدق من زياد
٢١٦	ذكر الخبر عن غزو الحكم بن عمرو جبل الأشلّ وسبب هلاكه
٢١٨	السنة الحادية والخمسون
٢١٨	ذكر ما كان فيها من الأحداث
٢١٨	ذكر مقتل حجر بن عديّ وأصحابه
٢٢٨	تسمية الذين بعث بهم إلى معاوية
٢٣١	تسمية من قتل من أصحاب حجر رحمه الله
٢٣١	تسمية من نجا منهم
٢٣٦	ذكر استعمال الربيع بن زياد على خراسان
٢٣٧	السنة الثانية والخمسون
٢٣٧	ذكر ما كان فيها من الأحداث
٢٣٨	السنة الثالثة والخمسون
٢٣٨	ذكر ما كان فيها من الأحداث
٢٣٨	ذكر سبب مهلك زياد بن سمية
٢٤٠	ذكر الخبر عن وفاة الربيع بن زياد الحارثي
٢٤١	السنة الرابعة والخمسون
٢٤١	ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث
٢٤١	ذكر عزل سعيد بن العاص عن المدينة واستعمال مروان
٢٤٢	ذكر تولية معاوية عبيد الله بن زياد على خراسان
٢٤٥	السنة الخامسة والخمسون
٢٤٥	ذكر الخبر عن الكائن فيها من الأحداث
٢٤٥	ذكر الخبر عن سبب عزل معاوية عبد الله بن عمرو بن غيلان وتوليته عبيد الله البصرة
٢٤٧	السنة السادسة والخمسون
٢٤٧	ذكر ما كان فيها من الأحداث

٢٤٧	ذكر خبر البيعة ليزيد بولاية العهد
٢٥١	السنة السابعة والخمسون
٢٥١	ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث
٢٥٢	السنة الثامنة والخمسون
٢٥٢	ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث
٢٥٢	عزل الضحاك عن الكوفة واستعمال عبد الرحمن بن أم الحكم
٢٥٤	ذكر قتل عروة بن أدية وغيره من الخوارج
٢٥٦	السنة التاسعة والخمسون
٢٥٦	ذكر ما كان فيها من الأحداث
٢٥٦	ذكر ولاية عبد الرحمن بن زياد خراسان
٢٥٧	ذكر وفود عبيد الله بن زياد على معاوية
٢٥٧	ذكر هجاء يزيد بن مفرغ الحميري بني زياد
٢٦٠	السنة الستون
٢٦٠	ذكر ما كان فيها من الأحداث
٢٦٠	ذكر عهد معاوية لابنه يزيد
٢٦١	ذكر وفاة معاوية بن أبي سفيان
٢٦١	ذكر الخبر عن مدة ملكه
٢٦١	ذكر مدة عمره
٢٦٢	ذكر العلة التي كانت فيها وفاته
٢٦٣	ذكر الخبر عن صلي على معاوية حين مات
٢٦٣	ذكر الخبر عن نسبه وكنيته
٢٦٤	ذكر نسائه وولده
٢٦٤	ذكر ما حضرنا من ذكر أخباره وسيره
٢٦٩	خلافة يزيد بن معاوية
٢٧٤	ذكر الخبر عن مراسلة الكوفيين الحسين عليه السلام للمصير إلى ما قبلهم وأمر مسلم بن عقيل رضي الله عنه
٢٩٤	ذكر مسير الحسين إلى الكوفة
٣٠٥	السنة الحادية والستون
٣٠٥	ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث ، وفيها مقتل الحسين عليه السلام
٣٤٢	ذكر أسماء من قتل من بني هاشم مع الحسين عليه السلام وعدد من قتل من كل قبيلة من القبائل التي قاتلته
٣٤٤	ذكر خبر مقتل مرداس بن عمرو بن حدير
٣٤٥	ذكر خبر ولاية سلم بن زياد على خراسان وسجستان
٣٤٦	ذكر سبب عزل يزيد عمرو بن سعيد عن المدينة وتوليته عليها الوليد بن عقبة
٣٤٩	السنة الثانية والستون
٣٤٩	ذكر الخبر عن الأحداث التي فيها
٣٥٢	السنة الثالثة والستون
٣٥٢	ذكر الخبر عن الأحداث التي فيها

٣٦٠	السنة الرابعة والستون
٣٦٠	ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث
٣٦١	ذكر الخبر عن إحراق الكعبة
٣٦٢	ذكر خبر وفاة يزيد بن معاوية
٣٦٢	ذكر عدد ولده
٣٦٢	خلافة معاوية بن يزيد
٣٦٤	ذكر الخبر عما كان من أمر عبيد الله بن زياد وأهل البصرة معه بعد موت يزيد
٣٧٥	ذكر الخبر عن عزلهم عمرو بن حريث وتأميمهم عامراً
٣٧٨	ذكر الخبر عن ولاية عامر بن مسعود على الكوفة
٣٨٧	خلافة مروان بن الحكم
	ذكر الخبر عن الوقعة بمجر راهط بين الضحاك بن قيس ومروان بن الحكم وتمام الخبر عن الكائن
٣٨١	من جليل الأخبار والأحداث في سنة أربع وستين
٣٨٦	ذكر الخبر عن فتنة عبد الله بن خازم وبيعة سلم بن زياد
٣٩٠	ذكر الخبر عن تحرك الشيعة للطلب بدم الحسين
٣٩٧	ذكر الخبر عن فراق الخوارج عبد الله بن الزبير
٤٠٠	ذكر الخبر عن مقدم المختار بن أبي عبيد الكوفة
٤٠٢	ذكر الخبر عن هدم ابن الزبير الكعبة
٤٠٨	السنة الخامسة والستون
٤٠٨	ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث الجليلة
٤٢٣	ذكر الخبر عنبيعة عبد الملك وعبد العزيز ابني مروان
٤٢٣	ذكر الخبر عن موت مروان بن الحكم
٤٢٤	ذكر خبر مقتل حبيش بن دجلة
٤٢٤	ذكر خبر حدوث الطاعون الجارف
٤٢٤	مقتل نافع بن الأزرق واشتداد الأمر على الخوارج
٤٣٠	ذكر الخبر عن بناء عبد الله بن الزبير البيت الحرام
٤٣٠	خروج بني تميم بخراسان على عبد الله بن خازم
٤٣٣	السنة السادسة والستون
٤٣٣	ذكر الخبر عن الكائن الذي كان فيها من الأمور الجليلة
٤٥١	ذكر الخبر عن أمر المختار مع قتلة الحسين بالكوفة
٤٦٧	ذكر الخبر عن البيعة للمختار بالبصرة
٤٧٠	ذكر الخبر عن بعث المختار جيشه للمكر بابن الزبير
٤٧٢	ذكر الخبر عن قدوم الخشبية مكة وموافاتهم الحج
٤٧٣	ذكر الخبر عن حصار بني تميم بخراسان
٤٧٥	شخص إبراهيم بن الأشتر لحرب عبيد الله بن زياد
٤٧٦	ذكر أمر الكرسي الذي كان المختار يستنصر به

٦٩٥

٤٧٩	السنة السابعة والستون
٤٧٩	ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث
٤٧٩	خبر مقتل عبيد الله بن زياد ومن كان معه من أهل الشام
٤٨٣	ذكر الخبر عن عزل القبايع عن البصرة
٤٨٣	ذكر خبر قتل مصعب المختار بن أبي عبيد
٤٩٦	خبر عزل عبد الله بن الزبير أخاه المصعب
٤٩٧	أخبار متفرقة
٤٩٨	السنة الثامنة والستون
٤٩٨	ذكر الخبر عما كان فيها من الأمور الجلييلة
٤٩٨	ذكر الخبر عن رجوع الأزارقة من فارس إلى العراق
٥٠٢	ذكر الخبر عن مقتل عبد الله بن الحر
٥٠٤	أخبار متفرقة
٥١٠	السنة التاسعة والستون
٥١٠	ذكر خبر قتل عبد الملك سعيد بن عمرو
٥١٥	أخبار متفرقة
٥١٦	السنة السبعون
٥١٦	ذكر ما كان فيها من الأحداث
٥١٧	السنة الحادية والسبعون
٥١٧	ذكر ما كان فيها من الأحداث
٥١٧	خبر مسير عبد الملك بن مروان لحرب مصعب بن الزبير ثم قتله
٥٢٣	ذكر الخبر عن دخول عبد الملك بن مروان الكوفة
٥٢٥	ذكر خبر ولاية خالد بن عبد الله على البصرة
٥٢٥	خطبة عبد الله بن الزبير بعد مقتل مصعب
٥٢٧	السنة الثانية والسبعون
٥٢٧	ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث الجلييلة
٥٣٠	خروج أبي فديك الخارجي وغلبته على البحرين
٥٣٠	خبر توجيه عبد الملك الحجاج لقتال ابن الزبير
٥٣١	أمر عبد الله بن خازم السلمي مع عبد الملك
٥٣٣	فصل في ذكر الكتاب من بدء أمر الإسلام
٥٣٣	أسماء من كتب للنبي ﷺ
٥٣٣	أسماء من كان يكتب للخلفاء والولاة
٥٣٨	السنة الثالثة والسبعون
٥٣٨	ذكر الكائن الذي كان فيها من الأمور الجلييلة
٥٣٨	خبر مقتل عبد الله بن الزبير
٥٤١	أخبار متفرقة

٥٤٣	السنة الرابعة والسبعون
٥٤٣	ذكر ما كان فيها من الأعمال الجليلية
٥٤٣	ذكر الخبر عن حرب المهلب للأزارقة
٥٤٥	عزل بكير بن وشاح عن خراسان وولاية أمية بن عبد الله عليها
٥٤٦	أخبار متفرقة
٥٤٧	السنة الخامسة والسبعون
٥٤٧	ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث
٥٤٧	ولاية الحجاج على الكوفة وخطبته في أهلها
٥٥١	ذكر الخبر عن ثورة الناس بالحجاج بالبصرة
٥٥١	نفي المهلب وابن مخنف الأزارقة عن رامهرمز
٥٥٤	ذكر الخبر عن تحرك صالح للخروج وما كان منه في هذه السنة
٥٥٥	السنة السادسة والسبعون
٥٥٥	ذكر الخبر عن خروج صالح بن مسرج وعن سبب خروجه
٥٥٩	خبر دخول شبيب الكوفة وما كان من أمره مع الحجاج
٥٧٦	نقش الدراهم والدنانير بأمر عبد الملك بن مروان
٥٧٦	أخبار متفرقة
٥٧٨	السنة السابعة والسبعون
٥٧٨	محاربة شبيب عتاب بن ورقاء وزهرة بن حوية وقتلها
٥٨٣	ذكر الخبر عن دخول شبيب الكوفة مرة ثانية
٥٨٩	ذكر الخبر عن مهلك شبيب
٥٩٢	خروج مطرف بن المغيرة على الحجاج وعبد الملك
٦٠١	ذكر الخبر عن وقوع الخلاف بين الأزارقة
٦٠٦	ذكر الخبر عن هلاك قطري وأصحابه
٦٠٧	ذكر الخبر عن مقتل أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد
٦١١	أخبار متفرقة
٦١٢	السنة الثامنة والسبعون
٦١٢	ذكر الخبر عن الكائن في هذه السنة من الأحداث الجليلية
٦١٢	ذكر الخبر عن العمال الذين ولاهم الحجاج خراسان وسجستان وذكر السبب في توليته من ولاه ذلك وشيئاً منه
٦١٣	أخبار متفرقة
٦١٤	السنة التاسعة والسبعون
٦١٤	ذكر ما كان فيها من الأحداث الجليلية
٦١٤	ذكر الخبر عن غزو عبید الله بن أبي بكر رُبَيع
٦١٥	أخبار متفرقة
٦١٦	السنة الثمانون
٦١٦	ذكر الأحداث الجليلية التي كانت في هذه السنة

٦٩٧	
٦١٦	ذكر خبر غزو المهلب ما وراء النهر
٦١٧	تسير الجنود مع ابن الأشعث إلى رُبَيْل
٦١٨	أخبار متفرقة
٦٢٠	السنة الحادية والثمانون
٦٢٠	ذكر ما كان فيها من الأحداث
٦٢٠	ذكر الخبر عن مقتل بحير بن ورقاء بخراسان
٦٢٢	ذكر الخبر عن خلاف ابن الأشعث على الحجاج
٦٢٥	أخبار متفرقة
٦٢٧	السنة الثانية والثمانون
٦٢٧	ذكر الخبر عن الكائن فيها من الأحداث
٦٢٧	ذكر خبر الحرب بين الحجاج وابن الأشعث بالزاوية
٦٢٩	وقعة دير الجماجم بين الحجاج وابن الأشعث
٦٣١	ذكر الخبر عن وفاة المغيرة بن المهلب
٦٣٢	ذكر الخبر عن سبب انصراف المهلب عن كِسِّ
٦٣٣	ذكر خبر وفاة المهلب بن أبي صفرة
٦٣٤	أخبار متفرقة
٦٣٥	السنة الثالثة والثمانون
٦٣٥	ذكر الأحداث التي كانت فيها
٦٣٥	خبر هزيمة ابن الأشعث بدير الجماجم
٦٣٩	هزيمة ابن الأشعث وأصحابه في وقعة مسكن
٦٤٩	ذكر خبر بناء مدينة واسط
٦٤٩	أخبار متفرقة
٦٥٠	السنة الرابعة والثمانون
٦٥٠	ذكر ما كان فيها من الأحداث
٦٥٠	خبر قتل الحجاج أيوب بن القريّة
٦٥٠	خبر فتح قلعة نيزك بباذغيس
٦٥١	أخبار متفرقة
٦٥٢	السنة الخامسة والثمانون
٦٥٢	ذكر ما كان فيها من الأحداث
٦٥٢	خبر هلاك عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث
٦٥٤	عزل يزيد بن المهلب عن خراسان
٦٥٦	غزو المفضل باذغيس وأخرون
٦٥٧	خبر مقتل موسى بن عبد الله بن خازم بالترمد
٦٦٤	عزم عبد الملك بن مروان على خلع أخيه عبد العزيز
٦٦٤	خبر موت عبد العزيز بن مروان

٦٦٦	بيعة عبد الملك لابنائه : الوليد ثم سليمان
٦٦٦	أخبار متفرقة
٦٦٧	السنة السادسة والثمانون
٦٦٧	ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث
٦٦٧	خبر وفاة عبد الملك بن مروان
٦٦٧	ذكر الخبر من مبلغ سنة يوم توفي
٦٦٧	ذكر نسبه وكنيته
٦٦٧	ذكر أولاده وأزواجه
٦٦٩	خلافة الوليد بن عبد الملك
٦٧٠	ولاية قتيبة بن مسلم على خراسان من قبل الحجاج
٦٧٠	ذكر ما كان من أمر قتيبة بخراسان في هذه السنة
٦٧١	أخبار متفرقة
٦٧٢	السنة السابعة والثمانون
٦٧٢	ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث
٦٧٢	خبر إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة
٦٧٣	خبر صلح قتيبة ونيزك
٦٧٣	خبر غزو مسلمة بن عبد الملك أرض الروم
٦٧٣	خبر غزو قتيبة ببيكند
٦٧٤	أخبار متفرقة
٦٧٦	السنة الثامنة والثمانون
٦٧٦	ذكر ما كان فيها من الأحداث
٦٧٦	خبر فتح حصن طوانة من بلاد الروم
٦٧٧	ذكر عمارة مسجد النبي ﷺ
٦٧٧	ذكر غزو قتيبة نومشكث وراميشنة
٦٧٧	ذكر ما عمل الوليد بن المعروف
٦٧٨	أخبار متفرقة
٦٧٩	السنة التاسعة والثمانون
٦٧٩	ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها
٦٧٩	خبر غزو مسلمة أرض الروم
٦٧٩	خبر غزو قتيبة بخارى
٦٧٩	خبر ولاية خالد القسري على مكة
٦٨٠	أخبار متفرقة
٦٨١	السنة التسعون
٦٨١	ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت فيها
٦٨١	ذكر فتح بخارى

٦٩٩

٦٨١

خبر صلح قتيبة مع السفد

٦٨٢

غدر نيزك

٦٨٢

خبر فتح الطالقان

٦٨٤

هرب يزيد بن المهلب وإخوته من سجن الحجاج

